المقالة

في

الأدب السعودي الحديث

من سنة ١٣٤٣هـ إلى سنة ١٤٠٠هـ

د. محمد بن عبد الله العوين

دار الصميعي
للنشر والتوزيع

المقالة

في

الأدب السعودي الحديث

من سنة ١٣٤٣هـ إلى سنة ١٤٠٠هـ

د. محمد بن عبد الله العوين

دار الصميعي
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

ح دار الصميعي للنشر والتوزيع ١٤٣٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العوين ، محمد عبدالله

المقالة في الأدب السعودي الحديث ، محمد عبدالله العوين . ط٣ ، الرياض ، ١٤٣٢هـ

ص ، سم

ردمك : ٤-٧٧-٨٠٥٠-٦٠٣-٩٧٨

١ - المقالة العربية – نقد – السعودية أ- العنوان

ديوي: ٨١٤.٩٥٣١٠٠٩ ١٤٣٢/٨١٤٨

رقم الإيداع :٨١٤٨/ ١٤٣٢

ردمك : ٤-٧٧-٨٠٥٠-٦٠٣-٩٧٨



الطبعة الثالثة

١٤٣٢هـ-٢٠١١م

دار الصميعي للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية الرياض ص. ب : ٤٩٦٧ الرمز البريدي ١١٤١٢

المركز الرئيسي : الرياض السويدي- شارع السويدي

☏: ٤٢٦٢٩٤٥ –٤٢٥١٤٥٩ ، 🖷: ٤٢٤٥٣٤١

فرع القصيم : عنيزة – بجوار مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية

☏: ٣٦٢٤٤٢٨ 🖷: ٣٦٢١٧٢٨

مدير التسويق ☏ ٠٥٥٥١٦٩٠٥١ daralsomaie@hotmail.com

إهداء

وفاءً لتاريخ هذا الوطن الكبير بشموخه وأصالته أقدم هذا الجهد المتواضع، تخليداً لمسيرة فكر أدبائنا الرواد خلال أكثر من نصف قرن، من أجل بناء مجتمع جديد، بالكلمة المضيئة والموقف الفكري الأصيل.

المؤلف

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا أشرف المرسلين محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين له بإحسان إلى يوم الدين وجعلنا منهم، آمين .. وبعد :

فإن طرق الموضوعات البكر يحتاج إلى تعب وجهد متضاعف لكون الباحث فيه ينسج على غير مثال سابق يعينه بفتح أبواب البحث ومنافذه.

وتبلغ الصعوبة ذروتها عندما يضاف إلى الجدة تفرق المصادر واتساع دائرتها وبخاصة إذا كانت المصادر صحفًا ومجلات، ويتراءى لبعضهم أن البحث البكر يخدم صاحبه من حيث إن أي شيء يقدمه يعد جديدًا وإن لم يكن وافيًا، وإنما يكون ذلك عند الذين لا يضعون الضوابط العلمية في حسابهم فيقدمون للقارىء ما يسّر الله لهم دون أن يُلْجِئُوا أنفسهم إلى المزيد من البحث والنظر والتنقيب، ومثل هذا لا يقع في الأطروحات العلمية، على أي حال.

وهذا الكتاب الذي نقدمه كان أطروحة علمية نال بها ابننا محمد عبدالله العوين درجة علمية.

وهو بحث فيما أرى جدير بالتقدير وذلك لسببين :

أولهما : ما في موضوعه من جدة، إذ لم يتصد باحث قبله لهذا الموضوع رغم ما له من أهمية في تاريخنا الأدبي في هذه البلاد المباركة.

وثانيهما : أن الباحث قد أبلى بلاءً حسنًا في بحثه هذا الذي تطلب منه الرجوع إلى مصادره الأولى وهي الصحف والمجلات، ثم المجموعات المتصلة بهذا الميدان، إلى ما تبع ذلك من رجوع إلى مصادر أخرى مساعدة.

ومعلوم أن الموضوع البكر محتاج من صاحبه إلى عمل أكثر جدية وصبرًا جلدًا لا يعرف قدره إلا من جرب، ولقد عرفته فيه جلدًا صبورًا حريصًا على الدقة والاستيعاب وحسن الاستنتاج والتفسير حرصًا بلغ به حد مخالفتي في بعض القضايا الأدبية، وكنت أقدر رأيه وإن لم أوافقه عليه وإن كان ذلك في قضايا قليلة جدًا، وبخاصة ما يتصل بمحمد سعيد عبدالمقصود خوجة.

ولا أكتمكم أنه كان يسرني من أبنائي أن أجدهم يخالفونني في بعض القضايا لدلالة ذلك على استقلالهم الفكري، وهو مطلب لنا لكوننا لا نريد من أبنائنا أن يكونوا صورة لنا، بل نريد منهم أن يكونوا امتدادًا متجددًا لجهودنا لنرى في جدة أعمالهم شيئًا من ثمار جهدنا.

لقد قدّم الباحث في عمله هذا خدمة لأدبنا السعودي الحديث بخاصة والأدب العربي بعامة، وذلك من طريق حديثه عن المقالة بوجه عام في القديم والحديث، إلى ما صحب ذلك من إشارات إلى بعض الأجناس الأدبية الأخرى وتأثير الصحافة على الفن الأدبي بعامة، والمقالة بخاصة. ثم ما يشبه أن يكون تاريخًا للمقالة في الصحافة السعودية إلى ما تبع ذلك من حديث عن أنواع المقالة.

ثم تقسيمه المقالة الأدبية إلى ذاتية ووصفية ونقدية واجتماعية والموازنة بينها، وكان في دراسته يقدم النماذج ويناقشها ويوازن بينها محاولاً الوصول إلى وجه الحق، وهذا يعني أن هذه الدراسة قد غطت ثمانية وخمسين عامًا هي من أحفل الفترات في تاريخنا الأدبي ــ إن لم تكن أحفلها على الإطلاق ــ وهي من تاريخ تأسيس صحيفة أم القرى سنة ١٣٤٣هـ إلى نهاية القرن الرابع عشر للهجرة، وفي هذه الفترة أسست صحف ثم اختفت، وبرزت أقلام ثم انطوت. ثم إن هذه الفترة قد اشتملت على عشر سنين بلغت فيها المنافسة بين الصحف والأقلام أقصى ما يمكن أن تبلغه وهي من (١٣٧٣هـ ــ ١٣٨٣هـ) وهي منافسة كانت لها جوانب من الإيجاب وجوانب من السلب، والحقيقة أن جوانب السلب كانت أكثر وأظهر، ومع ذلك كانت جوانب الإيجاب فيها أظهر مما كان في سواها من قبلها ومن بعدها وهذه ــ أعني ما بعدها ــ كانت مما وقف عنده المؤلف وقفة فيها شيء مما يمكن أن نسميه عنفًا وقسوة، لكنه رأيه على أي حال.

وإذا كان هناك من نقص في هذا البحث فإنه آتٍ من كونه لم يعرض للحديث عن المقالة في مطلع القرن الخامس عشر للهجرة، وهي فترة مهمة في تاريخنا الأدبي، فلعل الباحث يقدم لنا شيئًا عن هذه الفترة أو يقيض الله لها باحثًا آخر يكون عمله متممًا لعمل صاحبنا الذي لابد أن يستفيد منه على أي نحو من الاستفادة.

وخلاصة القول : إن هذا البحث فريد في بابه وإن فيه إضافة ممتازة إلى مكتبة التاريخ الأدبي والدراسات الجادة، ولا أريد الانسياق وراء الثناء بذكر محاسنه وإن كنت أعرف من ذلك كثيرًا جدًا.

أ.د. محمد بن سعد بن حسين

حي الملز بمدينة الرياض

١٤١١/٨/٢٨هـ - ١٩٩١/٣/١٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد ، وبعد :

فهذه هي الطبعة الثانية من كتاب : المقالة في الأدب السعودي الحديث ، من سنة ١٣٤٣هـ إلى سنة ١٤٠٠هـ وقد نفد من الأسواق مبكراً بعد طبعته الاولى عام ١٤١٢هـ ، وتوالى الطلب على الكتاب طوال السنوات الماضية دون أن أفرغ لإعادة طبعه ؛ بسبب الانشغال بمهمات علمية أخرى وكتابات مختلفة ، وإصدار كتب في الاضبارات تنتظر النشر .

بيد أن إلحاح نفر حبيب من أساتذة الأدب السعودي عليّ أوجب التبكير في إخراجه من جديد إلى الباحثين والدارسين ومحبي الاطلاع والطلبة ؛ دون إضافات تُذكر سوى تصحيح الأخطاء المطبعية .

ولم أعزم على التوسع في رصد المعلومات والتحولات والأحكام النقدية على الشخصيات بعد وضع الكتاب في صورته الأولى ؛ لأن ذلك سيفضي بي إلى تطويل وتأخير وتوقف نقدي عند الظواهر والمستجدات الأدبية ، وما طرأ على الكتاب من مؤثرات جديدة ، ومن دخل في عالم الكتابة النثرية المقالية من أسماء جديدة ، لابد للناقد المنصف من التوقف عندها بالنظر والتحليل والدراسة .

إن فضاءنا الأدبي بعد عام ١٤٠٠هـ فضاء متسع فسيح ، وهو أكثر اتساعاً ورحابة وامتلاءً وغنىً بعد عام ١٤٢٠هـ ، وربما كان من الأولى تقسيم الأعمال المدروسة إلى عقود ؛ كل عشر سنين تتبين ملامح وأشكال وتبرز قضايا وتخفت أخرى ، وقد لحظت هذا ملياً في حياتنا الثقافية بعامة ؛ فلا تكاد أمور الناس ولا تكاد حياتهم تكون خلواً من المتغيرات خلال عقد من الزمن ، ونحن نرى وتيرة التغيير والتحول في هذه السنوات المتأخرة أشدّ سرعةً ، وأثقلَ وطأةً من ذلك في ما قبل ١٤٠٠هـ ؛ وينعكس الظرف السياسي ، والتحولات الاجتماعية على الأدب ، ويسير النص الأدبي في ركاب التغيير والاضطراب والتحول ، فهو صورة للإنسان وللحياة ، وإن لم يكن

على هذا النحو من الشفافية والصدق والواقعية والمخيِّلة المبدعة لإعادة خلق الواقع من جديد بصورة أفضل فماذا عساه إذاً يكون ؟! .

ومن الدارسين والناقدين من يرى حدًّا فاصلاً للدراسة في الأدب نهاية قرن أو بدايته ـ كما فعلت حين اخترت نهاية القرن الرابع عشر الهجري ختاماً لعملي هذا عن دراسة المقالة ـ ومنهم من يرى ربط ذلك بالأحداث السياسية الكبرى الدولية أو العربية أو المحلية ؛ إذا لوحظ تأثير تلك الأحداث في الأدب وفي حياة الناس .

ومن هذه الأحداث المؤثرة التي أقترحها فاصلاً ؛ بدءاً أو نهاية لدرس أدربي استعادة الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ مكة المكرمة عام ١٣٤٣هـ ، كما صنعت بدءاً لدراسة المقالة ، ويندرج في هذا عام ١٣٥١هـ حين أُعلن توحيد أقاليم البلاد تحت ولاية واحدة ومسمى واحد ، أو هزيمة ١٩٦٧م / ١٣٨٧هـ لما لها من أثر فادح في النفس والوجدان انعكس ذلك على الشعر والقصة والمقالة ، وعلى اتجاهات الفكر ، وبروز تيارات فكرية جديدة أخذت مناحي أصولية ، ثم تشعبت بها السبل إلى أن اتخذ بعضها منهج العزلة أو العنف أو النفي أو المواجهة سبيلاً لتخليص الواقع العربي والإسلامي من هزائمه الحضارية ، ومن استلاب دوره المؤثر على المستوى العالمي .

ومن ذلك حرب الخليج الأولى عام ١٤١١هـ -١٩٩٢م حين غزت قوات العراق الكويت ، أو أحداث ١١ من سبتمبر عام ٢٠٠١م ، لما لهذين الحدثين من تأثير على المستوى العربي والدولي ، وما تبع الحدث الأول من آثار الهيمنة الدولية على مقاليد الأمور في المنطقة العربية ، وما تبع الحدث الثاني من آثار العزلة ، ومن توسع ظاهرة التطرف وامتدادها ، ونكاد نقول إن عامَي ١٩٩١م و ٢٠٠١م هما حدث واحد ؛ فكلاهما متصل بالآخر بأكثر من سبب .

وقد يرى دارسٌ اختيارَ السنة التي تنتهي فيها دراسته ختاماً لعمله العلمي دون وجود سبب آخر ظاهر غير ذلك ؛ لعدم وجود ما يمكن اختياره حدّاً فاصلاً كما فعلت في دراستي عن صورة المرأة في القصة السعودية .

إلا أن المعوّل عليه في ذلك وضوح أهداف وغايات الدرس الأدبي ، ووجود بينات

وأسس تقوم عليها الدراسية ، يتصل فيها الموضوع بالظرف الزمني بالحدث السياسي؛ ليكون النص ذا وشائج شديد الاتصال بالواقع .

ولعل من الأسباب الداعية إلى هذه الإفاضة ما أشعر به من ألم وامتعاض لتوقف الدارسين والباحثين عن إكمال ما بدأته في هذه الدراسة عن المقالة بعد عام ١٤٠٠هـ؛ على الرغم من أنني قد اقترحتها موضوعاً أو قضايا على عدد من الدارسين والدارسات الذين دار بيني وبينهم حديث طويل في أي الموضوعات والقضايا أصلح للدرس وأحفل بالاهتمام ؛ إلا أن بعضهم يتهيّب المغامرة في الدخول إلى بحر لجيّ هائل التفاصيل بعيد الغور متلاطم الموج داخل بعضه في تلافيف بعض ، مظانه وافرة وشحيحة في آن ؛ فهي متيسرة ومتعسرة ؛ إذ طبع من مقالات الكاتبين قليل ، وبقي الكثير مخفياً في بطون الصحف والمجلات كسر من أسرار بيئتنا الثقافية الغريبة الأطوار، البعيدة عن الاهتمام والعناية والاحتفال بها ، فنال أدبنا من الإهمال والصد والتهميش ما ناله بحيث تبين لنا صورة عند إخوتنا العرب وعند العالم ليس فيها الأديب المبدع والكاتب الموهوب قدر ما فيها من سمتين شاعتا : الغنى والتطرف؟!

ويعلم الله كم هي كاذبة تلك الشائعة ؟ وكم هو مكذوب علينا ذلك الادّعاء ؟

فلسنا كلنا في رتبة الغنى المترف الفاحش وإن كنا بخير ونعمة ، ولسنا كلنا متطرفين غالين دمويين ناقمين على العالم ؟!

بل الحق أن المجتمع السعودي من أكثر المجتمعات العربية والإسلامية توسطاً واعتدالاً في عامة أفراد شعبه ، وهو إلى ذلك ميال للمحافظة انسجاماً مع امتداده التاريخي الإسلامي وانبثاق الدين الإسلامي من أرضه .

وجد دارسون مشقة ـ لا شك ـ في اختيار المقالة موضوعاً لدرس علمي ؛ لكنني لا يداخلني يأس من أن ينبري أحد أبنائنا أو بناتنا لإكمال ما بدأته بصورة أجمل وأبهى ، سوءا كان بأسلوب الدراسة المسحية الشاملة كما فعلت لأنه لم يسبقها دراسة من قبل، أو بأسلوب التخصص الدقيق والعميق في القضايا أو الشخصيات .

إن كثيرين من أدبائنا مرّوا على هذه الدنيا وذهبوا بعد أن أفنوا مُهَجهم

ووجداناتهم حباً وتطلعاً وتوقاً إلى مجتمع آخر جديد ؛ وكانوا ملء القلوب والأسماع والأنظار ثم اختفوا وانطووا ـ كما هي سنن الله في الخلق ـ دون احتفاء ولا مهرجان ولا جائزة ولا نياشين أو شهادات ؛ بل إن بعضهم ذهب دون أن يطبع له عمل ، أو تجمع مقالاته ، وتولى هذه المهمة عدد محدود من الدارسين ، وبقي الكثير مما هو سر من أسرار هذه الأرض في عالم الغيب والنسيان ؛ يستنهض الهمم ويستنشد ذوي الإحساس الوطني الصادق لإيلاء هذا الأدب ما يستحقه من نقد ودرس وتصنيف ، وليكون في الواجهة أمام الأجيال ، ولتعلم هذه الأجيال أن ما تحقق من تجاوز لكثير من الأفكار السلبية في الحياة ، ولصور من المتوارث الاجتماعي المتخلف لم يكن سهلاً أبداً ، وإنما كان وراءه صراع طويل ومرير إلى أن وصلنا إلى ما وصلنا إليه ، وسيستمر هذا الصراع وهذه المرارة بصور مختلفة إلى أن نصل إلى ما يقارب المستوى المأمول في جوانب الحياة كافة ؛ السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية . وهي طبيعة الحياة السائرة في طريقها الإيجابي المتطور ؛ ولو خمد هذا الصراع والتفاعل لكنا أمواتاً مع المدفونين ، لا أحياء مع الناهضين والمنتجين والمتطورين ؛ صناع الحياة .

أقدم هذا الكتاب في طبعته الثانية لوطني ومجتمعي ، معترفاً بالقصور ، وشاعراً بالنقص ؛ فعلى من طوى شيئاً في نفسه أن يغفر لي قصوري وأحكامي النقدية ، فما قصدت استصغاراً ولا نويت تهويناً ، وإنما هو اجتهاد متجرد من كل أثر ، وسيبقى ما أنتج الأديب معروضاً لا يرفعه ناقد محب ، ولا يضعه ناقد ساخط ؛ وإنما يرفعه أو يضعه مقومات النص المنتج وشروطه الإبداعية واجتهاده في أن يقدم لأمته ومجتمعه شيئاً يبقى .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د. محمد بن عبدالله العوين

الجمعة ٢٠/٣/١٤٢٦هـ

٢٥/٤/٢٠٠٥م

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين نبينا محمد ، وبعد :

هذه هي الطبعة الثالثة من كتاب « المقالة في الأدب السعودي الحديث » بعد أن نفدت الطبعتان السابقتان ، وبعد أن لقي إقبالا من الدارسين والباحثين وطلاب الجامعات؛ وبخاصة من كان منهم في المستويات المتقدمة من الدرس الجامعي الذي يعنى بالأدب الحديث ، وبما يخص الأدب في المملكة العربية السعودية ، والنثر منه على الأخص ، والتطورات التأريخية والاجتماعية والسياسية التي واكبت نشوء هذا الأدب ، وما حفل به من قضايا النهضة والدعوة إلى الوحدة والانفتاح والوقوف في وجه التقاليد الاجتماعية التي كانت حاجزا كبيرا أمام التحديث بمستوياته المختلفة ؛ التعليمية ، والعملية ، والصلة والتواصل مع الثقافات الأخرى .

ولقد سعيت مجتهدا إلى تلمس بدايات إشراق الكتابة في الجزيرة العربية بدءا بالصحافة الناشئة في العهد التركي حين صدرت صحيفة « حجاز » وما حوته من مقالات وأخبار ركيكة الصياغة ضعيفة المبنى ، ثم ما تلاها من صدور أول صحيفة عربية في العهد الهاشمي ، وهي صحيفة « القبلة » التي صدرت في مكة المكرمة ، وما نشرته من مقالات لم تخرج في مجملها عن الأبعاد السياسية التي كان يرمي إليها الشريف حسين بن علي .

ولكن البداية الحقيقية التي لا يختلف باحثان على أنها الإشراق الأول للكلمة وللأدب وللنهضة والتحضر في شبه الجزيرة العربية كانت مع صدور جريدة « أم القرى » في سنة ١٣٤٣هـ بعد أن استعاد المغفور له الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود - طيب الله ثراه - مكة المكرمة ، ثم استكمل إعادة توحيد ما تفرق ولم شتات أجزاء هذه البلاد حتى توحدت تحت راية واحدة وقيادة واحدة ؛ لتكون أول دولة عربية إسلامية

وحدوية في العصر الحديث . ولئن كان حديثي في هذا الكتاب عن المقالة ؛ فإنني من خلال تناول أشكال وأصناف المقالات التي حوتها الصحف والمجلات والكتب المقالية أكتب تأريخا من خلال المقالة لتطور المفهومات الفكرية والاجتماعية والسياسية بعامة في بلادنا ، وأتتبع جهود أدبائنا المخلصين الذين بشروا بقيام نهضة حضارية شاملة ، وسعوا إلى بعث الهمم ، وإيقاظ العزائم ، وبث روح الوطنية ، وزرع الانتماء في وجدانات القراء ، ومقاومة الروح السلبية، ودعوات القعود، و محاربة اليأس ، ومدافعة الانكفاء على الذات .

وعنيت أيضا بدرس قضايا المقالة ، وتصنيف أشكالها ، والإبانة عن سمات كل صنف ، وإيراد أبرز كاتبيها ، ووقفت طويلا عند قضايا النقد الأدبي المقالية ، وأسهبت في الحديث عن المناوشات والمعارك الأدبية التي خاضها الرواد ثم الجيل التالي ؛ دليلا على حيوية المقالة وتأثيرها في النهضة ، وسعي كاتبيها إلى أن يكون صوتهم مسموعا ومؤثرا في تطور مجتمعهم .

الحق أن دراسة فن المقالة في الأدب السعودي باب واسع أتمنى أن يلجه باحثون ودارسون ، وها أنا ذا أحث طلبتي على إيلاء مزيد من الاهتمام والعناية إلى ما حفلت به الصحافة مع مطلع هذا القرن الهجري الخامس عشر من قضايا وهموم ، وما دار على صفحاتها من خصام ونقد ، وما أبرزته من أقلام جديدة ، وما حفلت به من رؤى وأفكار جديدة أيضاً تختلف في كثير منها عن تلك الأفكار والرؤى التي كانت تعنى بها صحافتنا السعودية في عقودها الأولى .

وغير خاف أن الباحثين اليوم لن يفعلوا مثلما فعلت حين يريدون طرق باب المقالة ؛ فبعد كثير من الأرشفة والتكشيف الذي كنت قد دعوت إليه ، وميل المنهج العلمي الحديث إلى التخصص الدقيق ، ووجود أدوات و محركات البحث الالكتروني ؛ فإن أي

باحث يريد تناول فن المقال لن يجد الآن شيئا من العناء الذي لاقيته ، وسيجد أن من الخير قصر جهده على شخصية واحدة ، أو قضية واحدة في فترة زمنية معينة ، أو ظاهرة واحدة من ظاهرات الأسلوب ، أو سمة من سمات الكتابة المقالية يشترك فيها نفر من الكتاب ، وما إلى هذه المعاني والأفكار والموضوعات مما يقف عنده المتأمل والباحث .

وحين أجدد الدعوة إلى إيلاء مزيد من الدرس الدقيق والمتخصص البعيد عن الشمولية والاتساع والمسح لفن المقالة في أدبنا السعودي ؛ فإن هذه الرغبة القوية مدفوعة بما أشعر به من غبن ، وما يضطرب به وجداني من شعور بالتقصير في إذاعة ونشر ما تحفل به ساحتنا الإبداعية والنقدية من نتاج ثر وغزير ، نستطيع أن نباري به ، ونستطيع أن يعرفنا الأقربون من خلاله قبل الأبعدين ، وقديما تساءل روادنا قبل أكثر من سبعين عاما : هل لدينا أدب صالح للتصدير ؟! وأنا أتساءل الآن بعد توالي أجيال أدبية عديدة من أدبائنا : أما آن الأوان لتتصدر بلادنا الإبداع العربي ، وليكون لنا صوت فكري جلي ، ولون إبداعي طلي يصور أبعادنا الإنسانية ؛ فمن هنا من هذه الأرض الطيبة المباركة انطلقت الكلمة العربية الأولى تحمل للإنسان كافة قيم الخير والمحبة والجمال .

د . محمد بن عبدالله العوين

الرياض ١ / ٨ / ١٤٣٢هـ

المقدّمة

منيت المقالة الأدبية في الأدب السعودي بإهمال الدارسين والباحثين، على الرغم مما كان لها في منتصف القرن الهجري الماضي من تأثير في التغيير الثقافي والاجتماعي وربما السياسي.

وتوجه الاهتمام إلى الفن الأدبي الأول عند العرب؛ الشعر، ثم أخذت الألوان الأدبية الحديثة شيئًا من دراسات الناقدين وأبحاثهم؛ كالرواية، والقصة القصيرة، والمسرحية، ونحوها. غير أن المقالة بقيت تُدرس في نطاق محدود، ولا يشار إليها فنًا يضارع الفنون الأدبية الأخرى، التي تدخل في جنس النثر، وكان نصيب المقالة في الأدب السعودي لا يبعد عن نصيبها في الأدب العربي، إنْ لم يزد عليه في الإهمال وتجافي الدرس عنها، وانصراف الباحثين إلى طَرْق أنواع أدبية أخرى.

ولعل من أهم الأسباب التي أملت عليّ اختيار هذا الموضوع ذلك التناسي من الدارسين، فبذلت الجهد في حصر مصادر المقالة ومظانها، ثم جمع شتاتها، واخضاعها لمنهج نقدي معين.

وكانت صلتي بالصحافة والإعلام من أهم الأمور التي نبهتني إلى هذا الموضوع، ومن خلالها تعرفت على مستوى المقال الأدبي الناضج والهزيل، وعلى سمات المقالة الصحافية، فرأيت أنه من الخير معالجة موضوع المقالة الأدبية بالدرس والتحليل؛ لإبانة ملامحها، وإيضاح ميزاتها، والصفات التي تفرقها عن غيرها، وكشف المخبأ منها في صحافتنا، وإظهار ما لها من خصائص في الشكل وفي المضمون، وحين اقتنعت به عرضت فكرة الموضوع على عدد من الأساتذة المعنيين بالنثر الأدبي، والمهتمين بالأدب السعودي فكان استحسانهم له مشجعًا لي على المضي فيه.

وعند البدء في جمع المادة المقالية وجدت أنني أبحث في وسط حشد هائل من العطاء الأدبي الثر في هذا الجنس الأدبي؛ على أن الطريق إلى جمع تلك المادة الضخمة لم يكن من اليسر بمكان؛ ذلك لأنه متمثل في الصحف والمجلات التي ربما ندر وجود بعضها لقدمه، وفي بعض الكتب التي ضمت شيئًا من تلك المقالات.

ومن هنا كانت مهمتي في الجمع صعبة، والطريق إلى ذلك شاق، بيد أني قد صابرت ذلك وجالدته حتى تيسر لي جمع المادة، وبقيت أتنقل بين المكتبات العامة والخاصة، فتارة في مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وفي مكتبة جامعة الملك سعود، وفي مكتبة معهد الإدارة، وتارة أؤم المكتبات الخاصة باحثًا ومنقبًا عن ضالتي، وعمّا يجعل البحث صادقًا كل الصدق في تكوين الصورة الواقعية للمقالة الأدبية السعودية.

ومما ساءني وجود انقطاع في سلاسل بعض الصحف والمجلات؛ فنجد أعدادًا من هذه المجلة هنا، وأعدادًا هناك، وربما افتقدنا أعدادًا كبيرة منها، لكنني تغلبت على هذه المشكلة بالرجوع إلى جميع المكتبات التي أرجح احتواءها هذه الدوريات، وبالرجوع إلى مكتبات بعض الأفراد الخاصة ـــ كما أسلفت ـــ وكان البحث عن مقالة أو موضوع أو بقية مناوشة أو معركة يستدعي مني متابعة شاشة جهاز «المايكروفلم» ساعات طويلة.

ومن الطرق التي سلكتها في البحث عمّا لم أجده في الصحف والمجلات أني بعثت إلى كثيرين من الأدباء ليوافوني بنتاجهم فأجابني البعض، وأهمل آخرون.

وكنت كلما أحسست بزخم وافر من هذه المادة غلبني شعور بأنني قد أحطت بأكثرها، ولا مانع من البدء في الكتابة؛ غير أن هذا الشعور لا يلبث أن يتلاشى حين تبيني فقري الشديد لمصادر أخرى، دورية أو كتابًا ، وحاجتي إلى الاستدلال بمقالات لفلان أو فلان.

ومن الأمور التي جعلت العمل مضنيًا والجهد مضاعفًا عدم وجود إرشيف لكل كاتب، ولكل جريدة، فكنت ابتدىء الجريدة التي أتحرى أن تكون مصدرًا أدبيًّا، من العدد الأول إلى العدد الأخير منها، كما فعلت ــ في الغالب ــ مع أم القرى، ومع صوت الحجاز، ثم البلاد السعودية، ومع المنهل، ثم مع اليمامة الشهرية، ثم الأسبوعية جريدة ومجلة، ومع مجلة الجزيرة في سنواتها الأربع، وهكذا.

ولا شك أن ذلك كان عملًا مرهقًا دافعًا إلى الانقطاع إليه وإخلاص الوقت له، وأن العين تكل، والعقل يرهق، والبدن يعيى. ولكن ذلك النقص الفادح في العمل «البليوجرافي» للمطبوعات لدينا ألزمني هذا المركب الخشن، فكنت أقوم بعملين؛ فهرسة، ثم دراسة؛ ولم أعثر على فهرسة للأدب في الصحافة إلا في «معجم المصادر الصحفية ــ صحيفة أم القرى»[1]، الذي قام بصنعه الدكتور منصور إبراهيم الحازمي، واعدًا بتوالي حلقات هذا المعجم، وقد مضت أكثر من أربع عشرة سنة على صدوره ولم نَرَ الجزء التالي، والحق أن الدكتور منصور تجاوز مقالات كثيرة، معتمدًا فيما يبدو على ما يراه مهمًّا في الدراسة الأدبية؛ مما جعل الفهرسة غير شاملة، أما صنيع جامعة الملك عبدالعزيز في فهرسة أم القرى في ثلاثة مجلدات، لبتداءً من سنوات تحولها إلى جريدة رسمية لنشر التنظيمات والقوانين والمراسيم الحكومية، وذلك أوائل السبعينات الهجرية من القرن الماضي فإنه غير معين للباحث الأدبي.

---

(١) مطبوعات جامعة الرياض (جامعة الملك سعود الآن)،ط ١٣٩٤هـ /١٩٧٤م.

ومن أهم المصادر التي اعتمدت عليها في درس المقالة الأدبية السعودية : كتاب «النثر الأدبي في المملكة العربية السعودية»[١] للدكتور محمد عبدالرحمن الشامخ، وقد تناول المؤلف النثر الأدبي في ثلاث حقب؛ التركية، والهاشمية، والسعودية إلى أوائل عام ١٣٧٠هـ ـــ ١٩٥٠م، وكان درسه متصفًا بالموضوعية والأناة على إيجازه وعدم تفصيله.

ومنها كتاب «الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية»[٢] للدكتور بكري شيخ أمين، وقد كان متوسعًا في تناوله موضوعات النثر، موجزًا في وقفته عند المقالة، ومكتفيًا بالإشارة العابرة، ومبديًا عدم ارتياحه لمستوى المقالة الأدبية، ولقضاياها التي تناولتها[٣].

ومن المصادر أيضًا كتاب «الأدب الحديث ـــ تاريخ ودراسات»[٤] للدكتور محمد بن سعد بن حسين، وتناول فيه مؤلفه تأريخ الأدب بعامة، ودرس مؤثرات النهضة، والعوامل التي قادت إليها، وتناول أنواع الفنون الأدبية بشيء من التحليل والتمثيل؛ الشعر، والمقالة، وكان يشير في اقتضاب إلى ما يشوب أسلوب الناثر المدروس، وما تميز به، ويورد أقوال النقاد في أدبه، وقد أفادني في تأمل بعض الأحكام الصادرة على فترات من تأريخ الأدب في شبه الجزيرة العربية، وتلك الأحكام التي أطلقها بعض النقاد على عدد من الأدباء كالعواد مثلًا.

ومنها كتاب «الأدب الحجازي الحديث بين التقليد والتجديد»[٥] للدكتور إبراهيم بن فوزان الفوزان، وهو كتاب ضخم في ثلاثة أجزاء، اعتمد فيه مؤلفه على العرض التاريخي والنمذجة والإشارة السريعة إلى الميزات الفنية في النص، وكان مفيدًا لي في التصور التاريخي.

(١) نشر دار العلوم، الرياض، ط٣، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
(٢) نشر دار صادر، بيروت، ط١، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.
(٣) انظر مناقشة آرائه في أواخر الفصل السادس من الجزء الثاني من هذا الكتاب.
(٤) صدر عن مطابع الفرزدق، الرياض، ط١، ١٤٠٤هـ.
(٥) صدر عن مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

ومنها كتاب «مجلة المنهل وأثرها في النهضة الأدبية السعودية، من ١٣٥٥ ــ ١٣٨٣هـ»[١] لمؤلفه الدكتور السيد تقي الدين، وكان يعرض فيه النماذج التي تدلل على إسهام مجلة المنهل وكتّابها في إحداث النهضة، ويقف مقارنًا ومحللًا تلك النماذج.

ومن هذه المصادر أيضًا كتاب درس أنواعًا من النثر هو «أدب النثر المعاصر في شرقي الجزيرة العربية»[٢] لمؤلفه الدكتور عبدالله المبارك، والحق أن المؤلف لم يدرس نثر أدباء المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، و لم يتناول واحدًا من كتّابها، بل قصر دراسته على أدباء بلدان أخرى من شبه الجزيرة؛ الكويت والبحرين، وأشار إلى مقالات أدبائها والمجلات التي كانوا ينشرون فيها مقالاتهم وأدبهم؛ الصادرة في العراق، وفي غيرها، وهو من الكتب التي لم أستفد منها.

والكتب التي استعنت بها في بحثي كثيرة، و لم أستحسن سرد أسمائها هنا، على أنّي قد رصدت اسم كل كتاب استعنت به، وذلك في فهرس المصادر والمراجع.

فلما أطمأننت إلى اكتمال المادة في يدي شرعت في تصنيفها ثم في دراستها، وجاء البحث في ستة فصول مسبوقة بمقدمة ومدخل، ومختومة بخاتمة وفهارس عامة.

ففي المدخل تحدثت عن مفهوم المقالة الأدبية، وأقوال النقاد فيه، وشروط المقالة الأدبية المؤثرة، ثم تتبعت ما يمكن أن يكون أساسًا لهذا الفن في أدبنا العربي القديم، وعرضت لتطور النثر الترسلي، وفن الرسائل، إلى أن وصلت إلى عصور الانحطاط حين شاع الإغراق في الصنعة، والتكلف في البديع، ثم تحدثت عن

(١) صدر عن دار إحياء الكتب العربية، ط١،١٤٠٤هـ١٩٨٤.

(٢) صدر من مطبعة الجبلاوي، القاهرة،ط١، ١٣٩٠هـ١٩٧٠م.

المقالة الأوروبية الحديثة باعتبار وضوح تأثر الأدب العربي بها، ووقفت عند نشأة الصحافة في مصر والشام، وأثرها على النثر الفني؛ وذلك كله من أجل تهيئة الذهن للولوج في هذا الموضوع.

أما الفصل الأول فتحدثت فيه عن تأريخ فن المقالة في ثلاثة عصور هي :

أ ـ المقالة قبل صدور أم القرى عام ١٣٤٣هـ، أي في العصرين التركي، والهاشمي، وما قبلهما من سنوات الضعف الأدبي والفكري.

ب ـ المقالة بعد صدور أم القرى عام ١٣٤٣هـ إلى صدور نظام المؤسسات عام ١٣٨٣هـ.

جـ ـ المقالة بعد نظام المؤسسات الصادر في عام ١٣٨٣هـ، ودرست أثره على الأدب المقالي، وعلى الصحافة، وتتبعت ذلك الأثر إلى عام ١٤٠٠هـ.

وفي كل فقرة من فقرات هذا الفصل استشهاد وتمثيل وتأمل وموازنة، ورصد تأريخي، وعرض للمقولات، والدلائل على الضعف أو القوة.

ولما كان الفصل الأول بمثابة الإطار التأريخي للمقالة الأدبية فقد رأيت أن أصنع مدخلًا أدبيًا يكون فرشًا لدراسة أنواع المقالة الأدبية. وفي هذا المدخل تحدثت عن صلة كل مقالة بالأدب، قوة وضعفًا، وهذه المقالات هي : الدينية، والسياسية، والعلمية، والفلسفية، والرسالة، والخاطرة، وغيرها.

الفصل الثاني : المقالة الذاتية، وفي هذا الفصل حددت مفهومها، وعرضت لأشهر كاتبيها، وأوردت نماذج منها، وحللت موضوعاتها، ثم درست خصائصها الفنية، وكذلك فعلت في الفصول التالية؛ الثالث، والرابع، والخامس حين تحدثت عن المقالات، الوصفية، والنقدية، والاجتماعية.

ثم وازنت في الفصل السادس بين هذه المقالات الأربع من حيث الموضوع، ومن حيث الشكل، ورددت كل مقالة إلى المدرسة التي تُنمى إليها، وتأملت

في تأثير كل مقالة في قارئيها، وفي حركة الترقي الاجتماعي والحضاري.

وختمت هذه الدراسة بتلخيص شامل لها، وعرض لأبرزما توصلت إليه من نتائج، ثم ما يمكن أن أوصي به من مقترحات لتطوير الدرس النقدي والتأريخي لفن المقالة، ولفن النثر الأدبي بعامة.

أما المنهج الذي اتبعته في هذه الدراسة فقد كان المنهج الشامل، الذي يستفيد من جميع المدارس حسب الحاجة إليها في كل موضع، فحينًا اضطر إلى العرض التأريخي، وحينًا إلى العرض الوصفي، وحينًا أقف متأملًا الجانب الفني، وقد أزاوج بين مدارس عدة في فصل واحد، فأستفيد من الإشارة التأريخية، والملمح النفسي، والدلالة الفنية، وفي كل ذلك أبدي ما أراه في كثير من الظواهر الأدبية، أو الأحكام النقدية من الدارسين الآخرين، أو النص المقالي في جانبيه الموضوعي والشكلي، ولا أتعسف في ذلك فأقحم رأيي في كل شاردة وواردة، بل أدع لإيراده الفرصة المواتية، والتناسب مع سير مواد البحث.

وأشير إلى اعتبارات عدة، يحسن التوقف عندها :

أ ــ التحديد الزمني الذي اتبعته في ابتداء الدراسة وفي ختامها على وجه التقريب، ولا يعني الدقة المطلقة، لأن التغيرات التي تطرأ على الأدب نشاطًا وضعفًا لا يمكن أن تبرز في فترة قصيرة يمكن أن يضمها إطار زمني محدود بالشهر أو السنة، حتى في هذا الزمن الذي تيسرت فيه أسباب الاتصال، وكذلك ما يتصل بالظاهرات الأدبية في أدب البلاد، أو في أدب بعض الكتّاب، فذلك التِحديد ليس إلا لتقريب مفهوم زمني عام لموضوع الدراسة.

وقد تأتي الإشارة إلى مقالة كُتبت بعد عام ١٤٠٠هـ متصلة بخصيصة معينة لكاتب من الكتاب، ولا أجد استغناء عن ذكرها، لأن المقاليين الذين استوى عودهم في العصرين الماضيين؛ صحافة الأفراد؛ أو صحافة

المؤسسات، أو من عاش العصر الأخير لا يتغير منهجهم في الكتابة كثيرًا، ويمكن أن نعد ما يجيء منهم بعد عام ١٤٠٠هـ امتدادًا لما جاء منهم قبل هذا التاريخ، فالفكرة ممتدة، والميزات لا يمكن أن تتلاشى على الإطلاق، والشخصية قد اكتملت علامات تميزها فلا حرج إن ورد كتاب، أو مقالة بعد التاريخ المحدد لنهاية الدراسة، وبخاصة أن نشر كتب المقالات إنما جد بعد نهاية القرن الرابع عشر، وتشمل هذه الكتب مقالات قبل عام ١٤٠٠هـ، وقليل منها ما اشتمل على ما كتب بعد ذلك التاريخ.

ب ــ أما وقوف البحث عند نهاية القرن الرابع عشر الهجري فوجه ذلك أن الحكم على المقالة في أواخر ذلك القرن ينطبق على ما صنع بعده من مقالات أدبية، ثم إن المقالة بعد القرن الرابع عشر بلغت من الضعف في عمومها مبلغًا لا يشجع على تناولها بالدرس النقدي، إلى كون ذلك مشجعًا لمن يأتي بعد ذلك لتكون بداية القرن الخامس عشر بداية بحث جديد يتمم ما بدأته.

جـ ــ ترد أحيانًا كلمة «الجيل الأول»، وأريد به جيل الرواد ممن أسهموا في تأسيس مفهومات المقالة الأدبية، ثم الجيل الثاني، وهم المخضرمون الذين عاشوا ألق صحافة الأفراد ثم شيئًا من صحافة المؤسسات، والجيل الثالث، وهو جيل التسعينات الذي عاصر هذا النظام الصحفي والأدبي(١).

د ــ قد يلحظ أحد القرّاء مبلغ التأكيد على إسهام الرواد في أدب المقالة في معظم فصول البحث؛ وذلك لأن الصحافة التي رعوها، وحملت المقالة الأدبية تمتد امتدادًا زمنيًّا طويلًا من ١٣٤٣هـ إلى ١٣٨٣هـ. على حين يبلغ عمر صحافة المؤسسات في هذه الدراسة سبع عشرة سنة، اعتورها

(١) انظر مقالة : نشأة الأدب في الحجاز، أحمد السباعي، أوراق مطوية، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، ط١، ١٤٠٢هـ، ص ١٩١، وذكر السباعي فيها جيل الرواد، وتلاميذهم.

ما اعتورها من الضعف والخمول، والشكوى.

هـ ــ اعتمدت الكثرة والقوة في النوع الأدبي المقالي، حينما أردت درس أشهر كاتبي كل مقالة. وغلبت الكثير من أدب الكاتب المقالي على القليل، وعلى الضعيف منه.

فالمعيار الذي يحكم هذه المسألة الكثرة والتميز، وإلا فالمعروف أن كثيرين من كتّاب المقالة يكتبون في أغراض عديدة، وقليلون منهم قصروا أقلامهم على نوع واحد؛ فنحن نجد الذاتي مثلًا يعرض إحساسه الضيّق بالحياة في مجتمعه، وربما أدار جزءًا من مقالته على جوانب من الفلسفة الذاتية في تفسير دواعي ذلك الضيق، فنخرج من مقالاته بملامح عدة؛ ذاتية وفلسفية، واجتماعية، كما فعل حمزة شحاتة مثلًا.

وقد نجد الكاتب الواصف ناقدًا وكاتبًا اجتماعيًّا وذاتيًّا معًا مثل حسين سرحان، وهكذا.

و ــ اعتمدت النوع المقالي لدقته في الإشارة إلى العصر ورجاله، أكثر من الاعتماد على الشخصيات التي كتبت المقالة.

ز ــ وضعت عناصر رئيسية لأبرز موضوعات كل نوع مقالي.

ح ــ أشرت إلى عدد من مقالات بعض الكتاب العرب الذين أقاموا في هذه البلاد واستوطنوا فيها، وتأثروا بها، وأثروا في أدبها، مثل يوسف ياسين، وفؤاد حمزة، غير أنني لم أولها الدراسة الفاحصة المتأنية، وإنما استفدت من مقالاتهم حسب الحاجة إليها عرضًا.

ط ــ عند ذكر المصدر أو المرجع أورد المعلومات المتصلة به؛ من عدد مرات الطباعة، وسنتها، ومكانها، وما إلى ذلك في المرة الأولى، ولا أكرر ذلك، فإن مرّ شيء من ذلك فمحض صدفة أو سهو.

ي ــ لكثرة الإحالة إلى «معجم المطبوعات العربية ــ المملكة العربية السعودية» لمؤلفه الدكتور علي جواد الطاهر، وكتاب «دليل الكاتب السعودي» في حالة التعريف بالأعلام، أكتفي بذكر : المعجم في الكتاب الأول، و : الدليل، في الكتاب الثاني، سعيًا إلى الاختصار، وعدم التكرار.

ك ــ عند ذكر أي عَلَمٍ أترجم له في المرة الأولى لورود اسمه، ثم أهمله في المرات التالية .

ل ــ اعتمدت الصحف والدوريات مصدرًا أول والكتاب مصدرًا ثانيًا، وكنت أسعى إلى الدورية أوثق منها المقالة فإذا تعذر الحصول عليها لضياعها أو عدم وجودها في مكتبة حكومية أو خاصة ووجدت كتابًا مقاليًا يذكرها أشرت إليه، وربما أوردت المصدرين معًا.

م ــ وجدت في بعض النصوص المقالية ركاكة في الأسلوب، وضعفًا في اللغة، فاخترت في الإشارة إلى الخطأ اللغوي البيّن قوسين معقوفين هكذا [ ] تنبيهًا على هذا الخطأ اللغوي في النص.

ن ــ لم أرد الإطالة في النماذج المقالية في الدراسة بعامة، سوى الفصلين المتصلين بالمقالة الذاتية والوصفية؛ لحاجة الدرس إلى كشف خصائص النص، ولا تتبين إلا بامتداد النص إلى حدٍ ما.

أما في العرض التأريخي، وفي المقالتين النقدية والاجتماعية فكنت أكتفي بإيراد ما يدل على الخصيصة المذكورة فحسب.

وتجنبت الإطالة في الاستشهاد بالنصوص المقالية خشية تضخيم هذه الدراسة، وخروجها عن حجمها المألوف.

س ــ وفي الإشارة إلى المقالة في الحاشية استعملت النظام الآتي : عنوان المقالة، فاسم صاحبها، ثم المصدر، والبيانات الكافية للتعرف عليه.

ع ـــ وحين يملي عليّ واقع البحث العودة إلى حديث عن مقالة يكون قد سبق ورودها في هذه الدراسة فإنّي أحيل القارىء إلى المقالة في مصدرها الأول، لكون قارىء البحث على علم بمكانتها فيه، ولا أورد نص المقالة مرة أخرى إلا في أضيق الحدود، وحسب الضرورة.

أما مالم يرد من تلك المقالات فإنّي أقتبس شيئًا منه في صلب البحث حسبما يستدعيه المقام، وأشير إلى المقالة في الهامش، ذاكرًا البيانات المتصلة بالمصدر.

وإن فاتني شيء مما يجب ذكره في هذا البحث فعذري أنني بذلت جهدي طاقته، وحسبي أيضًا أنني أنفقت فيه ثلاث سنين أو تزيد مكبًا على مصادره، متتبعًا مظانها، مدونًا ما يتصل بهذا الفن من أقوال النقّاد والدارسين.

وقد كان الأستاذ الدكتور محمد بن سعد بن حسين المشرف على الرسالة خير معوان لي على إنجازها والوصول بها إلى هذه النتيجة، وقد بذل من وقته وجهده ما درأ كثيرًا من الأخطاء، وما كشف كثيرًا من أوجه النفع والإفادة من المصادر، ومن المناهج الدراسية المختلفة.

فجزاه الله عني خير الجزاء نظير ما أظهره من حقائق تمس جوهر الأدب السعودي، وما أبداه من احتمال لمداومتي على ملازمته، على الرغم من همومه العلمية الأخرى.

وأدعو الله أن ينفع بهذا الجهد، وأن يوفقني لإتمام ما ابتدأته من دراسة فن النثر الأدبي في بلادنا، والله المستعان.

محمد بن عبدالله العوين

الرياض، في ١٥ محرم سنة ١٤١٠هـ
الموافق ١٦ من أغسطس ١٩٨٩م

مـدخـــل

مفهوم المقالة، وشروطها، وتاريخها في أدبنا العربي

ليس لنا بد في بدء حديثنا عن المقالة من أن نُشير إلى أصل الكلمة في كلام العرب، وأعزّ ما يفتتح به القول في ذلك قول الله تبارك وتعالى :

﴿ومن أحسن قولًا ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إنّني من المسلمين﴾[١].

وقال : **﴿... ومن أصدقُ من الله قيلا﴾**[٢].

مفهوم المقال في اللغة :

وقد وردت تعريفات كثيرة لمعنى القول عند اللغويين، ففي القاموس المحيط ورد : «القول : الكلام، أو كل لفظ مذل به اللسان تامًّا أو ناقصًا، والجمع أقوال، وجمع الجمع أقاويل، والقول في الخير، والقال والقيل والقالة في الشر، والقول مصدر، والقيل والقال اسمان له». وقال قولًا وقيلًا وقولة ومقالة ومقالًا فيهما»[٣].

ورد في مختار الصحاح :

«قال يقول قولًا وقولة ومقالًا ومقالة. ويقال : كثر القيل والقال، وفي الحديث «نهى عن قيل وقال» وهما اسمان»[٤].

وفي المنجـد :

«يقول قولًا وقيلًا ومقالة : تلفظ «تكلم»، ثم أتى بمعاني القول على تفريعات (قال) حقيقة ومجازًا.

والمقال : مصدر القول.

والمقالة : القول «القطعة من الكتاب»[٥].

---

(١) سورة فصلت، الآية ٣٣.

(٢) سورة النساء، الآية ١٢٢.

(٣) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، باب اللام، فصل القاف، ص ١٣٥٨هـ (قول)، طبعة١، ١٤٠٦هـ، مؤسسة الرسالة، دمشق.

(٤) الرازي، مختار الصحاح ص ٥٥٦، دار الفكر، طبعة ١٣٩٨هـ.

(٥) انظر : المنجد ص ٦٦٣، مادة (قول).

والجمع : مقالات[1].

مفهوم المقال عند النقّاد ودارسي الأدب

لم يتفق النقّاد على مفهوم محدد للمقالة الأدبية، ويعود ذلك إلى تأخر نشأة المقالة ــ قياسًا على الفنون الأخرى ــ وكان ذلك سببًا في أن يتأخر النقاش حول الشكل الفني للمقالة، لاستئثار الألوان الأدبية الأخرى مثل الشعر، والقصة، والمسرحية ــ باهتمام الدارسين والناقدين اهتمامًا أخذ جهدهم، وصرفهم عن النظر في هذا اللون الجديد من الفن الأدبي حتى إن أحد المتشيعين له يتحدث عنه بأسى فيقول : «كثيرًا ما يجري على ألسنة بعض كتّابنا عبارة «أدب المقالة» بوصفها أحقر طراز في العالم الأدبي كله»[2].

وهذا الإحساس المرّ نلمسه لدى كثيرين من الحريصين على المقالة، فنظرتهم لها لا تكاد تتعدى إيصال المعلومات العامة، ومتابعة أحوال السياسة، والاقتصاد، وما شابهها، و لم يصل بها كتّابها والمنتمون إليها إلى المكانة الرفيعة، والمنزلة العالية في مقام الفن القولي بعامة.

ولهذا لم أجد قولًا اتفق عليه الباحثون حول مصطلح هذا الفن يمكن أن

---

(١) وقد سمي بهذا نصوص مقالية كثيرة لكتاب عرب وغير عرب، مثلاً «المقولات» وهو كتاب ألفه أرسطاطاليس، وكان له تأثيره البعيد المدى في الفلسفة العربية، وفي تعاليم الفارابي وابن سينا وابن رشد، ونقله إلى العربية. والسريانية إسحاق بن حنين.

انظر (المنجد) في اللغة والأعلام ص ٤٩٩، معاجم دار الشروق، بيروت، ط٢٠.

ومقالات مونتيني «١٥٣٣ــ١٥٩٢» وهو مفكر فرنسي كان قد تشبع بالتراث الإغريقي والروماني ــ وكتب مقالاته بوحي من هذا التراث.

انظر : د. محمد مندور «الأدب وفنونه»، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ص ١٨٢، وانظر : دليل القارىء إلى الأدب العالمي، تأليف ليليان هيرلاندزج، .د. بيرس، ستيرنج .أ. براون، ترجمة محمد الجورا، دار الحقائق، بيروت، ط١ عام ١٩٨٦م، ص ١٠٧

ومقالات فرانسيس بيكون ١٥٦١ــ١٩٢٦م. الانجليزي، انظر دليل القارىء إلى الأدب العالمي، ص ١٠٧، وانظر «فرانسيس بيكون «العقاد»، المجلد التاسع عشر من المجموعة الكاملة للعقاد، بيروت، دار الكتاب اللبناني ١٩٨١، ص ٣٥٠.

(٢) د. محمد عوض محمد : محاضرات في فن المقالة الأدبية، معهد الدراسات العربية العالية جامعة الدول العربية ــ ١٩٥٩م، القاهرة.

يُعول عليه، وأن يُتخذ منهجًا. كما أن من يأخذ نتاج كاتب مقالي كابن خميس، أو السرحان في أدبنا، أو المازني، أو العقّاد أنموذجًا لهذا اللون من الكتابة يكون غير دقيق في حكمه النقدي.

والأولى ــ مع اختلاف المذاهب في النظر إلى المقالة ــ أن ينتخب جمع منها أجاد فيه كاتبوه، وأحاطوا بشروط صنعة الكتابة المقالية، وبذلوا من أنفسهم الكثير للوصول إلى مرتبة الإبداع ــ فيؤخذ ويستدل به أو ببعضه على ما يمكن أن يتواضع عليه الدارسون والنقّاد للوصول إلى الاقتناع بأسلوب وبشكل للمقالة مرضيين.

على أن الملامح الابتدائية تصيّدها بعضهم مقتبسًا إياها من خلال النظر الفاحص، واستشارة الذوق في قبول النص ورفضه، واستنادًا إلى ما يعرف ـ عند بعض المطلعين على الآداب الأجنبية(١) ـ من خصائص فنية تتميز بها المقالة الحديثة عند الشعوب الأخرى، ومن هذا كله يتوافر لدى الباحث نظرات عدة، من هذا الناقد ومن ذلك الدارس، وليس من بأس أن أورد بعضها، وإن لم آخذ بها أو أبني عليها في تحليل نصوص من الأدب المقالي السعودي.

بل إنه سيتأكد أن المقالة «ليس لها صورة قد توافقت عليها الآراء وانعقد عليها الإجماع»(٢) وإن الاختلاف غير قليل بين الآراء، فبعضهم يرى أن المقالة «قالب قصير قلّما تجاوز نهرًا أو نهرين في الصحيفة»(٣) بينما يرى آخرون أنها «معين لا ينضب من الحِكَمْ والبديهيات والأمثال»(٤).

وهذان الرأيان المقتضبان ينبثان عن عجالة درسية أدّت إلى تضييق دائرة المعالجة المقالية في نطاق محدود، على أنّ أحدًا لم يعوّل على أي من الرأيين السابقين

(١) سيرد في هذا التمهيد عرض لتأثرنا نحن العرب بالمقالة الغربية.

(٢) علي أدهم : المقالة الصحفية والمقالة الأدبية، مجلة قافلة الزيت، شهر ذي القعدة عام ١٣٨٥هـ.

(٣) د. شوقي ضيف : الأدب العربي المعاصر في مصر، مكتبة الدراسات الأدبية (٢٤)، دار المعارف بمصر، ط ٥ ص ٢٠٥.

(٤) نخبة من الأساتذة : الأدب والأنواع الأدبية، ترجمه عن الفرنسية طاهر حجّار، ص ٢١١، وكتب هذا المقال دومين سبيس فور ــ دمشق، دار طلاس، ط١، عام ١٩٨٥م.

فلم تتكرر في الدراسة الأدبية نظرة إلى المقالة على هذا النحو، حيث توسع قوم آخرون من النقدة، فأباحوا للكاتب أن يخوض عباب الحياة الواسع، وما يصطرع فيها مما يستدعي الشجن، أو يدفع إلى البوح والمناجاة النفسية، «فيعتبر الأديب نثرًا عن حالة واحدة من حالات مشاعره أو عن طور من أطوار حالة واحدة، في صفحات قليلة محدودة، تلتقي كلماتها وفقراتها عند الدافع المباشر أو ما يشيعه هذا الدافع في نفس صاحبه، لتنقل إلى القارىء تأثره وما يصحبه من أفكار وتأملات وخطرات في صور جميلة مستمدة من خيال صاحبها، وحياة مصدرها صدقه»[(١)].

وهنا يحسن أن أجمل مفهوم المقالة الأدبية في رأي طائفتين من الدارسين إحداهما لا توليه اهتمامًا كافيًا فتحصره في رأي معين، أو في فكرة محددة؛ والثانية تميل إلى رؤية شاملة في مصادر الإلهام المقالي، ومناحي التجويد فيه، بحيث يكون له المجال مفتوحًا بشرط توافر الخصوصية الذاتية للكاتب في كل ما يكتب.

فمن الطائفة الأولى :

من يرى أن المقالة الأدبية «هي تلك التي تعالج قضية من قضايا الأدب»[(٢)]، وذهب آخرون إلى أوسع من ذلك قليلًا، فهي عندهم «تتناول الموضوعات التي يمتزج فيها الفكر بالعاطفة، في عبارة واضحة منتقاة مع ملاءمة بين اللفظ والمعنى، وما يشيعه من إيحاءات»[(٣)]، إلا أن الملاحظ سيطرة الموضوع الأدبي وما يتصل به من الدراسات على المقالة، فلا تتصل بالحياة، ولا بالنفس، ولا تنقل شيئًا من الوجدان، فهي في أكثرها تتصف بطابع البحث، أو الرؤية العلمية الجادة، هدفها «بيان فكرة أدبية، أو تحليلها وشرحها وتسهيلها وتقريبها للأذهان، أو عرض قضية

---

(١) د. علي جواد الطاهر : مقدمة في النقد الأدبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت — طبعة١ عام ١٩٧٩م ص ٢٩٠.

(٢) د. إبراهيم علي أبو الخشب : في محيط النقد الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨م، ص ١٧٥.

(٣) د. عبدالرزاق الطويل : المقالة في أدب العقاد، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ط ١ عام ١٩٧٨م، ص ١٧٠.

من قضايا النقد الأدبي، أو تكون حديثًا عن مدارس الأدب في عصر من العصور أو بيان المؤثرات المختلفة في نتاج أديب شاعر أو كاتب، أو تحليل بعض الظواهر الأدبية»(١).

وقريب من هذا رأي للعقاد، لا يخرج به كثيرًا عن الموضوع الأدبي، وإن لم ينص على الصفة، لكن يتبادر إلى الذهن من السياق أن المراد الدرس الأدبي، يقول : «قطعة نثرية موجزة محتفل بها في موضوع يستوفيه الكاتب أو ينجمه على مقالات تستوعب الواحدة جانبًا منه، في أسلوب حسن، وبعبارة بليغة، وألفاظ منتقاة، وتعبّر عن وجهة نظر كاتبها»(٢).

وهو عند هؤلاء لا يكتب إلا للمختصين «فعلى كاتبه أن يطلب ارتفاع القرّاء إليه، ويعتمد على قدر ما يملكه من ثقافة وفطنة وذكاء في اختيار الألفاظ وقوة الصياغة، والاهتمام بوضوح الفكرة»(٣)، ولكن الذين يذهبون إلى تخصص المقالة الأدبية في مثل هذه الشئون، بحيث لا تُكتب إلا لمن لديه نزعة أدبية تدفعه إلى قراءتها قليلون، بل الأرجح إنه ــ أي هذا التوجه ــ غير شائع لدى سائر الناقدين. وفي المعاجم الأدبية ــ وليس اللغوية، يصرف أكثر أصحابها النظر عن الدرس الأدبي إلى الإطلاق ليكون للمقال مجال أرحب، إلا أنهم يشيرون إلى كلمة بحث، كما ورد في المعجم الأدبي «بحث موجز يتناول بالعرض والتعليل قضية

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٧.

(٢) يسألونك، دار الكتاب العربي، ص ٦، ط٣، ١٩٦٨م.

وأشار العقاد إلى أن البحث مقالة.(انظر مقالة بعنوان «أدب المقالة)، «مجلة الرسالة» العدد ٧٨٧، بتاريخ ٢ أغسطس ١٩٤٨م، ص ٨٥٧.، وفي كتابه آنف الذكر (يسألونك) يقول : ينبغي أن تكون مشروع كتاب في موضوعها لمن يتسع وقته للإجمال، ولا يتسع للتفصيل، فكل مقالة في موضوع هي كتاب صغير، يشتمل على النواة التي نبتت منها الشجرة لمن شاء الانتظار. ص ٧.

(٣) د. إبراهيم الفوزان : الأدب الحجازي الحديث بين التقليد والتجديد، القاهرة، مكتبة الخانجي ط١، عام ١٩٨١م، ص١٠٥٤ جـ٣.وانظر إلى «أدب النثر المعاصر في شرقي الجزيرة العربية» د. عبدالله المبارك ط١ عام ١٩٧٠م ص ١٤٣، يقول : «القصد من المقال الأدبي ما انصرف إلى الموضوع الأدبي الخالص» بتصرف.

من القضايا، أو جانبًا منها. وقد يطول فيبلغ حجم كتاب عادي»[1]. كما أنه «الرأي الذي يبديه الكاتب أو المفكر، ويكون عادة معبرًا عن موقف خاص به»[2].

ولعلّهم يعنون بمثل هذه التعاريف فرعًا صغيرًا من فروع المقالة الأدبية وهي المقالة النقدية التي «تتناول شئون الأدب والثقافة والفكر، وتحرص على الخوض في هذه الشئون بفكر معين، ومستوى معين يطرح نفسه على القارىء، من خلال إحساس كامل بقيمة الثقافة كلون من مكونات الذات من جهة، وبقيمة الارتفاع بمستوى التعبير المنشود عن هذه القيم الثقافية من جهة أخرى»[3].

ومن الطائفة الثانية :

من يذهب إلى ما هو أوسع ميدانًا للمقالة من التحديد السالف، فيفتحون أمامها الأبواب، ويحلقون في سماوات عالية من الإتقان، والخيال، والابتكار، ويبعدونها عن الجفاف والخشونة العلمية، فيرققون نزعتها، ويهذبون أسلوبها، ويَدْعُون كاتبيها إلى التفنن في انتقاء العبارة الموحية، المنسجمة في سبك أخّاذ، بحيث تكون قطعة فنية، تقرب من روح الشعر، فكأنها في بعض مناحيها قصيدة، إلّا أن الكاتب نثرها في لفظ وإيقاع جذّاب فهي «لا تختلف كثيرًا عن الشعر الوجداني المعبّر عن اختبارات الشاعر الخاصة، فالقصيدة لا تعد من الشعر الجيد إذا خلت من طلاوة التعبير وجمال التصوير أو إذا جفت فجاءت بلا ماء أو

---

(١) جبور عبدالنور، دار العلم للملايين، بيروت، طـ١، عام ١٩٧٩م، ص ٢٦٠.

(٢) المرجع السابق، ومن هذا القبيل ما ورد على لسان طه حسين حين قال في كتابه «خصام ونقد».. «كان الناس ينكرون عليّ هذه المقالة أشد الانكار، ويرون أني قد جاوزت في الإسراف كل حد، وأني قد غلوت في التجديد حتى أخرجته عما ينبغي له من القصد والاعتدال» ١٨٢.

(٣) د. محمد أحمد العزب : عن اللغة والأدب والنقد، رؤية تاريخية، ورؤية فنية، مصر، دار المعارف طـ١ عام ١٩٨٠م، ص ١٧٣.

ويمكن الرجوع في مثل هذا المفهوم الضيق للمقالة الأدبية إلى آراء أخرى، مثل سيد قطب «المقالة فكرة قبل كل شيء وموضوع» ثم يقول : «ليس الانفعال الوجداني هو غايتها ولكنه الاقتناع الفكري» «انظر : النقد الأدبي أصوله ومناهجه، بيروت، دار العربية للطباعة والنشر-١٩٦٦م، طـ٢ ص ٩٢.

رواء، كذلك المقالة؛ على أن جمال التعبير والتصوير فيها لا يعني تكلف البدائع البيانية، والتوهجات العاطفية، بل يراد بها الاستعراض السوي الشائق الذي يجمع بين الإيجاز ودقة الملاحظة وخفة الروح»[١].

وهذه النظرة الفاحصة للمقالة جعلت النقّاد والدارسين من هذه الطائفة يقسّمون المقالة الأدبية إلى قسمين؛ مقالة ذاتية، ومقالة موضوعية، وهذا التقسيم يتفق مع الشروط التي وضعوها لكتابة النثر الفني الرائع، فلا تختلط روح الشعر المحنحة في المقالة الذاتية، برصانة الرؤية النقدية لمسائل الأدب المختلفة، فذلك لون متميّز له طابعه، وهذا أيضًا لا يقل كثيرًا عن التجويد في سابقه، سبكًا، وروحًا، واختيار عبارة، وتبيّن روح الكاتب في موضوعه، إلا أن العاطفة في هذا الأخير أقل فورانًا، وأهدأ تدفّقا، واتزان الأحاسيس هنا يغلب على الانقياد المطلق لها في المقالة الذاتية.

والملاحظ أن أكثر الذين يأخذون بهذا التقسيم ممن ثقفوا شيئًا من الآداب الغربية أو اطلعوا على نتاج بعض المقاليين الانجليز، أو الفرنسيين بخاصة، فالدكتور زكي نجيب محمود ـــ وهو أحد المهتمين بهذا اللون من الأدب ـــ يقول : «كلا، ليس للمقالة الأدبية، ولا ينبغي أن يكون لها نقط ولا تبويب ولا تنظيم»[٢]، ثم يقول : «كاتب المقالة الأدبية على أصح صورها هو الذي تكفيه ظاهرة ضئيلة مما يعج به العالم من حوله، فيأخذها نقطة ابتداء، ثم يسلم نفسه إلى أحلام يأخذ بعضها برقاب بعض دون أن يكون له أثر قوي في استدعائها عن عمد وتدبير، حتى إذا ما تكاملت من هذه الخواطر المتقاطرة صورة، عمد الكاتب إلى إثباتها في رزانة لا تظهر فيها حدّة العاطفة، وفي رفق بالقارىء حتى لا ينفر منه نفور الجواد الجموح»[٣].

---

(١) أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة. بيروت، دار العلم للملايين، ط٤، عام ١٩٨٤م ص ٢٣٠ـــ١٣١.

(٢) جنة العبيط، بيروت، دار الشروق، ط٢، عام ١٩٨٢، ص١١

(٣) المرجع السابق، ص ١٣.

ويستطيع الباحث أن يخلص من اضطراب أقوال الدارسين واختلافهم أن يحدد بكل وضوح المفهوم العام للمقالة الأدبية، وما يدخل في النثر الفني من المقالات، وما يخرج عنه مما لا يتسم بصفات الكتابة الفنية، وقد رأيت كثيرًا من المقالات التي لا تعالج مسائل الأدب وقضاياه، ولا تعرض بالنقد لما يصدر عن الأدباء من آراء ومذاهب، أو ما يخرج من كتب وتآليف، وإنما ينشغل أصحابها بقضايا المجتمع، ووصف الرحلات، أو ما يلفت النظر من جميل المشاهد، وحسن التصاوير، وما يخطر للنفس من مشاعر فرح وحزن، ومناجاة أشواق وذكريات، وإحساس بغربة أو ألم، ومشاركة الآخرين في معاناة إنسانيـة راقية، كل ذلك مجال رحب أبدع فيه المقاليون، وجاءوا بأسلوب أدبي يحمل نزعات مختلفة، اجتماعية، أو وصفية، أو ذاتية، فيطلق على تلك المقالات أدبًا؛ وإن لم تعالج شئون الأدب.

أما ما يكتب بروح علمية موضوعية في مسائل شتى مما يعرض للكاتب الباحث عن المعرفة، والمعلومات الأخيرة في المسألة التي يتوجه إلى البحث فيها، كالطب، وعلم النفس، وعلم اللغة، ومشكلات المجتمع من ناحية علمية، وقضايا الاقتصاد، والسياسة، فتلك مقالات لا صلة للأدب بها، ولا يمكن أن تنعت بالمقالة الأدبية.

وعلى هذا التقديم يمكن أن أعرض آراء بعض النقّاد في تحديد مفهوم المقالة الأدبية وميادينها.

أولًا ــ المقالة الأدبيـة :

وتشمل الذاتية، والاجتماعية، والوصفية، والنقدية، وغير ذلك من المقالات المرتبطة بشخصية كاتبها، فلا يمكن أن تنفصل هذه الموضوعات عن روح منشئها، والسمة الرئيسة للمقالة الأدبية طغيان شخصية مبدعها على الموضوع، فيرى الأشياء من خلال انعكاس أثرها على نفسيته «وإذا قلنا : إنها انعكاس وجداني، فنحن لا نعني أن موضوع المقالة ينحصر في الكاتب نفسه، ولكننا

نعني أن كل ما يعرضه الكاتب فيها إنما يعرضه مصطبغًا بشخصيته»[1]، ولا يجوز أن يغفل الكاتب الملامح الفنية الجمالية في أسلوب عرضه، وألاّ يقصر صوره وتشبيهاته على ما يحسّه ويلمسه في الواقع، بل يذهب بعيدًا محلقًا في الخيال، يأتي بما يحاكي المتحدث عنه؛ يبعده حينًا، ويقرّبه حينًا، في عرض فني ممتع «ووراء ذلك كله موهبة تحيل التجربة من تجارب الحياة اليومية، والمشهد من مشاهدها فنًّا لغويًّا يستهوي القارىء بجمال أدائه، وطراوة إطاره وحميمية اللهجة التي يخاطبه بها الكاتب ويناجيه، دون تكلف، بما يشبه البث والهمس والعفوية»[2]، ويوشك الدارسون أن يجمعوا على وضوح تأثر الكاتب بالموضوع وامتزاج مشاعره وأحاسيسه بما يراه أو يلمسه ويريد الكتابة عنه «فقوام المقالة شخصية الكاتب»[3]، ولن يتقبل الذوق الفني قطعة نثرية عارية من الأحاسيس، ومن أثر نفسية كاتبها فيها، ولو أمكن فصل المقالة عن واقع صاحبها لما تردّد القارىء النابه في إبعاد هذه المقالة عن حيّز النثر الفني إلى المقالة الموضوعية العلمية، إذا استوفت شروطها. والنقّاد الملمون بأسرار هذا الفن لا يقبلون «سوى القطع من النثر المبتكر في موضوع مبتكر، يعبر عن إحساس الكاتب نحو ذلك الموضوع، فالعنصر الشخصي كبير الخطر في مثل هذا التأليف»[4].

وقد تكون المقالة الأدبية في بداية تكوينها ناتجة عن ملاحظة صغيرة غير ذات بال، أو منظر سريع، يمر عليه الإنسان العادي فلا يأبه له، أو كلمة عابرة، يلتقطها الفنان البارع، فيصور ما تدل عليه، وما تركت من أثر في نفسه، دون أن يسرف في التحليل والتأويل فتذهب أحاسيس جمال الالتقاط السريع لمثل هذه الكلمة التي أثرت في وجدان الكاتب، فمقياس تجويد المقالة في اشتعال الروح العاطفية لدى منشئها، وتفاعله مع ما يرى أو يسمع أو يتذكر «فالعبرة أن يحسّ الكاتب إحساسًا قويًّا بموضوعه، وأن يعبّر عنه بعبارة قوية رائعة»[5]

---

(١) د. علي جواد الطاهر : مقدمة في النقد الأدبي، ص ٢٦٢.

(٢) أنيس المقدسي : الفنون الأدبية، ص ٢٣٠.

(٣) د. محمد عوض محمد : محاضرات عن فن المقالة الأدبية، ص ٦١.

(٤) آرثر بنسن. نقل هذا الرأي عنه د. محمد عوض محمد، في المحاضرات، ص ٦٢.

ثم إن الكاتب لا يعمد إلى المسائل ذات الخطر العلمي، أو القضايا المتشعبة المثيرة للجدل والنقاش، والمحتاجة إلى إثبات وسرد حقائق «فالمقال ليس حشدًا من المعلومات، وليس هدفه أن ينقل المعرفة، بل لا بد إلى جانب ذلك أن يكون مشوّقًا»(١)، ويشير الدكتور محمد بن سعد بن حسين إلى أن المقالة الأدبية يمكن أن يعالج بها الكاتب شتى ما يعرض له من مسائل ورؤى وأفكار، وما يثيره من شؤون المجتمع والحياة، «وتكون ممثلة لفكر كاتبها، وتكون لغتها سهلة، وأسلوبها ميسّرًا»(٢).

وأسوق الآن جملة من النظرات النقدية الهادفة إلى التعريف بالمقالة الأدبية، حسب التصور الذي قدمته آنفاً:

يقول الدكتور محمد يوسف نجم: «قطعة نثرية محدودة لموضوع، تكتب بطريقة عفوية سريعة خالية من الكلفة والرهق»(٣).

ويشير الدكتور محمد عوض محمد إلى أن طريقة كاتب المقالة «أن يراقب، ويسجل، ويفسّر الأشياء كما تبدو له، ثم يدع خياله يمرح في جمالها ومغزاها، والغاية في هذا كله أنه يحس إحساسًا عميقًا بصفات الأشياء وبسحرها، ويريد أن يلقي عليها كلها نورًا واضحًا رقيقًا، لعله يستطيع بذلك أن يزيد الناس حبًا في الحياة، وأن يعدهم لما اشتملت عليه من المفاجآت المفرحة والمحزنة»(٤).

فالسلاسة والانطلاق والعفوية والطراوة سمات لازمة للمقالة الموفقة، التي تنقل القارىء إلى عالمها، بما تثير فيه من سوانح، وذكريات، وما تخلق في نفسه من توقد وحيوية، وما يفعله الكاتب الموهوب من سحر بياني بديع، وصور خيالية عذبة، فهي «تعتمد على الفخامة اللفظية والجرس الموسيقي، ومثل هذا

---

(١) د. عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة. ص ٢٨٩.

(٢) الأدب العربي وتاريخه ــ العصر الحديث طـ١ عام ١٩٨٥م ص ٧٠.

(٣) فن المقالة. بيروت ــ دار الثقافة، طـ٤ ص ٩٤ــ٩٥.

(٤) آرثر بنسن، نقل الرأي عنه د. محمد عوض محمد «محاضرات في فن المقالة الأدبية» ص ٦٤.

الزهو اللفظي يخلع عليها طابعًا خلابًا»[١]، وحتى تشبه في بعض مناحيها ـــ وخاصة الذاتية ـــ ما يتناوله الشاعر، وما يذهب إليه من جلاء عاطفته، وحرقة أشواقه أو شبوب وجده، فكأنها «قصيدة غنائية وجدانية ـــ ولكنها ـــ سيقت نثرًا»[٢].

(١) د. نعمات أحمد فؤاد : إبراهيم عبدالقادر المازني «الهيئة المصرية العامة للكتاب» ١٩٧٨، طـ٢ ص ١٩٨٣م.

(٢) هـ.ب. تشارلتن : فنون الأدب، تعريب الأستاذ زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر ـــ مصر ـــ ص ٥٤.

وللاستزادة عن المقالة الأدبية انظر إلى :

ـــ فاروق خورشيد : بين الأدب والصحافة، دار الفكر العربي، طـ٣ ١٩٧٧م، ص ١٢٠

ـــ د. محمد بن سعد بن حسين : الأدب الحديث ـــ تاريخ ودراسات، طـ١، عام ١٩٨٤م، مطابع الفرزدق ـــ الرياض.

ثانيًا ــ المقالة الموضوعية :

يمكن أن تكون المقالة الموضوعية غير محتاجة إلى تعمق في التعرف على مفهومها كالجهد الذي يبذله الناقد في الوصول إلى مصطلح مقبول ومفهوم للمقالة الأدبية.

ذلك أن الموضوع ــ هنا ــ له الحظ الأوفر من العناية والاهتمام؛ فيكون المعوّل في تقدير المقالة الموضوعية على ما يبذله الكاتب في إبانة الفكرة العلمية التي يقصد إليها من دقة وتبويب، وخروج من المقدمة إلى الجوهر، ثم النتيجة، فتكون مقالته بحثًا علميًّا مصغرًا «لمن يتسع وقته للإجمال ولا يتسع للتفصيل»[١]، وهو لا يتوقف في عرضه العلمي لموضوعه على مزاجه الشخصي ــ أو حالته النفسية، فليس ثمة ما يربط بين وجدان الكاتب في المقالة الموضوعية، وما يريد إيصاله لقرّائه من فكرة واضحة واقعية مقرونة بالأدلة ووسائل الإقناع «وقدرة على التركيز والتنظيم، والعرض السريع الموجز لمختلف الآراء لتفنيدها أو إثباتها، لا الحشو ولا الاستطراد»[٢]، فلا عبرة بسحر الشخصية، ولا بجودة الخيال، ولا برقة العبارة قدر ما يكون التأثير كبيرًا لحسن الصياغة، ودقة العبارة، وجمال العرض، وابتعاد عن الإحساس الشاعري، والصور غير الواقعية، التي لا تقرب الفكرة المقالية من القارىء؛ فالعناية بالمضمون[٣]، وليس بنواحي الجمال الفني، «ولذا يُعنى الكاتب بوضع تصميم دقيق وخطة محكمة لما يكتب، حتى لا يضل قارئه السبيل»[٤]، ويشفع للناقد الفطن حينما يخرج هذا اللون من الكتابة الفنية أن السمات التي تعلق عادة بالمقالة الأدبية من الطراوة، وجودة السبك، والانثيال والتدفق، وفورة العاطفة، ووضوح شخصية الكاتب، وتبيّن

---

(١) عباس محمود العقاد : يسألونك، ص ٠٠٦ وانظر تشارلتون : فنون الأدب ص ٥٤ــ٥٥.

(٢) جمال بهجت : أدب العقاد بين السياسة والصحافة وفلسفة الحياة، مجلة العربي، عدد ١٢٧، يونيو سنة ١٩٦٩م.

(٣) المدخل لدراسة الفنون الأدبية، أصدره قسم اللغة العربية. كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية دار قطري ابن الفجاءة للنشر ــ قطر ــ ط٢ ــ ١٤٠٣هـ.

(٤) د. محمد يوسف نجم «فن المقالة» ص ١٣٠.

روحه فيما يكتب تضع القارىء للنص الأدبي في حالة من الرضا والارتياح، فلا يقبل على غير ما تذوق واستساغ، مما يمكن أن يدخله المتجوزون في فن المقالة الأدبية، أعني ما يمكن أن يقبل من المقالة العلمية على سبيل التسامح إذا كان من رباط يقرب هذا من الأدب كالتفنن في الصياغة، أو حسن السبك، وجودة الانسياب الأسلوبي.

وإن صناعة مقالة موضوعية لا تستدعي من الجهد والموهبة، والرقة والعاطفة ما يبذله الكاتب الأدبي الموهوب من ذوب مشاعر، وصدق أحاسيس، وكشف وانذياح، وتداعي معان، وتتالي صور وأخيلة.

ومتى ما تيسرت للكاتب أدوات البحث من كتب ومراجع ونحوها وتوفر له حسن الاستعداد من معرفة بمناهج البحث وأساليبه فمن المأمول أن يخرج بمقالة علمية موفقة[1]. ولكن لن نستطيع أن نعد ما أجهد نفسه في سبيله من تحقيق هذا الغرض العلمي أدبًا، أو تفوقًا في الفن الكتابي، ويمكن أن نسميه ما نشاء، «فقد يكون علماً، وقد يكون فصلًا في النقد الأدبي، وقد يكون تأريخًا أو وصفًا جغرافيًا كتبه قلم قدير، ولكنه ليس مقالة أدبية، كما أنه ليس بقصيدة ولا قصة»[2].

ومن السهولة بمكان أن نصل إلى ما نريد من المقالة، بعد أن اتضحت الصورة الآن، واستبعدنا هذا الذي يدخل الشك أحيانًا في مفهوم المقالة العلمية، ويثير شيئًا من الاختلاط في إدراك كنه المقالة الأدبية.

فالمقالة العلمية لا تتصل بالصياغة الأدبية التي هي شرط من شروط الكتابة الفنية المتميزة[3].

---

(١) انظر : أحمد أمين، فيض الخاطر، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط٤، جـ١، ص ١٧٨، وانظر د. محمد ابن سعد بن حسين (الأدب العربي وتاريخه) ص ٧٢.

(٢) د. زكي نجيب محمود «جنة العبيط» ص ١٥.

(٣) ويمثل الكتابة العلمية لدينا، أبو تراب الظاهري في «لجام الأقلام» ومحمد سعيد العامودي في «من تاريخنا»، ود، علي الدفاع في مقالاته العلمية التاريخية لمسيرة العلم التطبيقي عند علمائنا المسلمين.

شـروط المقـالة الأدبيـة :

من الأولى أن تتحدد الشروط اللازمة لصنع مقالة أدبية متميزة، تتفق والمفهوم العام الذي تقدم، وتنفرد بخصائص تبينها عن سواها من سائر فنون القول النثرية.

والمناسب أن تصحب هذه السمات المقالة الأدبية الجيدة :

أولًا : تهيؤ الكاتب نفسيًّا ومزاجيًّا لهذا العمل، كي يستحوذ على ناصية المفردة ويطوع قاموسه، ليجد الأبواب مفتوحة أمامه ويختار ما يلائم الحالة التي هو فيها — وإن لم يكن مزاجه ملائمًا فليس من السهل الحصول على مقالة يرضى عنها الذوق والوجدان «وقد تمر على الكاتب الأديب أوقات وخلع ضرسه أهون عليه من كتابة مقال، وإذا هو حال ذلك فكأنما يمتح من بئر، أو ينحت في صخر»(١).

ثانيًا : أن يشعر الكاتب المقالي الأديب بالإمتاع والارتياح، وهو ينثال وجدانيًّا على الورق، ويحس بذاته تناغيه ويناجيها، فكأنما يهمس إلى نفسه، أو يبوح بشيء خاف لديه، ويجد من السعادة ما لا يوصف في الافضاء والقول، وهو حين يتمتع بالصياغة والنمنمة وتقييد ما في الخاطر يصنع في الوقت ذاته متعة لقارئيه، فيسمو بهم إلى عالمه، ويرتفع بذواتهم إلى حيث هو.

ثالثًا : الكاتب المقالي المتميِّز هو ذلك الذي يرصد الحركة الإنسانية، والخفق الوجداني، والرضا، والغضب، والسخط، والارتياح بروح فكهة واثقة،

ومن كتاب المقالة العرب العلميين، د. أحمد زكي وشبلي الشميل، وسلامة موسى، ويعقوب صروف، ود. زكي نجيب محمود، وسأورد نموذجاً لهذا في مدخل الفصل الثاني، عند الحديث عن أنواع المقالة.

ويرى د. محمد بن حسين «أن المقالة تنقسم بشكل عام إلى نوعين، مقالة إنشائية، وهي التي تكون حصيلة تفاعل الأديب مع قضية ما، أو أي شأن من شئون الحياة، والثاني مقالة وصفية وهي التي يعالج فيها الأديب أعمال الآخرين، سواء أكانت هذه الأعمال أعمالاً أدبية صرفة كالقصيدة، والمقالة، والعمل القصصي، والمسرحي ونحو ذلك، أم يعالج فيها عملاً أدبياً علمياً، وهذا الأخير هو ما نسميه البحث الأدبي، وعندي أنه لا يسمى بحثاً، إذا طال وفصل، أما إذا قصر فإنه من باب المقالة الوصفية» أ.هـ. حديث مشافهة منه إليّ.

(١) أحمد أمين، فيض الخاطر، جـ١ ص ١٧٨.

ساخرة مرة وناقمة مرة ثانية، ويصوغ ما يلمسه، وما يقتنصه خاطره اليقظ في روح عذبة سمحة، دونما افتعال، وصراخ ودونما حـدة.

رابعًا : لا يحسن أن يكتب المقالي الأديب لقارئيه أسلوبًا مستعصيًا خشنًا منمقًا مدروسًا، فيه الحوشي والشارد من المفردة اللغوية، فذلك مقال قريب إلى العلمية والدرس البلاغي واللغوي؛ فالمقالة الأدبية السلسة السمحة هي أن «تقول ما يُفهم، وكلما قلته بأسهل وأسرع وأشفّ طريقة اقتربت من روح أدب المقال»[1].

خامسًا : ومن غير اللائق بالكاتب الأديب أن يكون خشنًا، متوعرًا في روحه، أو أسلوبه؛ فطبيعة الكتابة الأدبية بعامة الانطلاق وخفة الروح، والدماثة، وحسن الصلة بالقارىء، فلابد من أن يتمتع بالروح الشاعرية الشفافة والخيال المتوثب [2] كي تأتي المقالة صورًا متعانقة، ولفظًا مجنّحًا، وذاتًا متوثبة نشطة.

سادسًا : إذا كان تأثير الفكرة صادقًا، واستجاب له الكاتب «وأحسّه إحساسًا شديدًا ملك عليه لبّه»[3]، فإن الانعكاس الوجداني لذلك الأثر سيكون بالغ الروعة والإمتاع في تكوين المقالة عفوًا دون تكلف، وفي سيولة المعاني، وارتباطها، وتوافر الثروة اللفظية التي فجّرها الموقف، وأحضر من الذاكرة ما يلزم لصياغة نص مقالي يوازي مقدار ذلك التأثر العظيم.

سابعًا : واتباعًا لما سبق لا يأتي مقال أدبي من غير ارتباط وجداني وعاطفي بصاحبه، وسمة الفن الأولى عمق العلاقة بين المبدع والنص[4]، وإذا تحقق قدر كبير من ذات الكاتب في عمله فذلك يرفع قيمة اللحمة التي يُبنى عليها المقال ويكون ما يأتي بعده متممًا ومزينًا للروح المبدعة النابضة في أجزاء المقال، وعلاقاته الداخلية.

(١) يوسف إدريس : بصراحة غير مطلقة، دار العودة، ص ١٧٢.

(٢) آرثر بنسن، نقله د. محمد عوض (محاضرات) عن فن المقالة الأدبية) ص ٦٥.

(٣) المرجع السابق ص ٦٥.

(٤) فاروق خورشيد، بين الأدب والصحافة، دار الفكر العربي، القاهرة،صـ٣، سنة ١٩٧٧م، ص ١٢٤. بتصرف.

المقالة الأدبية الحديثة :

أ ــ توطئـــة :

يرى بعض النقّاد ودارسي الأدب أن العرب لم تكن لهم في الجاهلية ولا صدر الإسلام معرفة بالكتابة الفنية، وأن لغتهم الأدبية لم ترتق إلا بعد أن استلهم المسلمون ما في القرآن الكريم من تجويد، وحسن نظم وروعة سبك، وسلاسة أداء[1].

إلا أن الغموض الذي شمل التاريخ العربي بعامة لا يتيح لنا أن نطلق هذا الحكم القاطع، وفيما نعلم أنه ليس لدى العرب كتابة، ويمكن أن نقرأ شيئًا من أصول الكتابة الفنية في كتب المصطفى صلى الله عليه وسلم، وخلفائه وولاة المسلمين في عصر صدر الإسلام، وفي دولة بني أمية.

وليس من شك في أن القرآن الكريم قد هذّب لسان العرب، وفتح لهم أبوابًا من الإحسان لم تكن لو لم يكن تأثير القرآن الكريم في لسانهم.

والذي نعلمه من تاريخ العرب أنهم كانوا قليلي الاحتفال بالنثر، وأن عنايتهم مقصورة على الشعر؛ لأنهم أهل عاطفة وخيال. والشعر يقرّب ما يريدون من بث عواطفهم، وإذاعة مشاعرهم؛ أما النثر فهو أداة التعبير عن العقل، وما يضطرب فيه من الرأي والجدل والفكر، وما كان العرب في جاهليتهم ومطلع الإسلام يولون هذا الشأن اهتمامًا كبيرًا، إلا حينما أثار فيهم الإسلام رحابة التأمل العقلي، وحبّب إليهم الجدل المسلم إلى الإقناع، واتصلوا بالأمم من حولهم فقرأوا شيئًا من تراث اليونان والفرس والهنود، فحينئذ احتاجوا إلى النص المنثور؛ يجادلون به الخصوم، ويعبّرون به عن الرأي، ويدونون التاريخ والأحداث والسير.

ولذا جاءت النصوص النثرية في صدر الإسلام تقبس من نسيج القرآن

---

(١) ذكر ذلك د. طه حسين في مقدمته التي صنعها لكتاب (نقد النثر) المنسوب لأبي الفرج قدامة بن جعفر، وأوشك أن يقرر أن البيان العربي نشأ في أوائل القرن الثاني الهجري بعد أن اتصل العرب بالثقافات الفارسية والهندية واليونانية، انظر ص ١٧.

الكريم، وتحاول أن تستفيد من أسلوبه، مثل كتب المصطفى صلى الله عليه وسلم، وخلفائه، وولاتهم في مختلف الأمصار الإسلامية. ولعل شيئًا من ذلك وجد عند العرب، قديمًا فنُسي مع ما نسي من تاريخهم.

وبعد إنشاء الدواوين في الدولة الإسلامية أصبح للكتابة شأن آخر غير ماكان لها في صدر الإسلام، إذ توافر على ديوان الرسائل ــ بخاصة ــ كتبة دربوا أقلامهم على أن تجري بالسلس البليغ، وباللفظة الرقيقة المختارة. وفي أوائل القرن الثاني الهجري استصفى هشام بن عبدالملك لديوان الرسائل مولاه سالمًا(١)، وكان على جانب من المعرفة باليونانية والفارسية، فترجم منها بعض الآثار، وأفاد من اطلاعه في تطوير أسلوب الكتابة العربي، وقد مهّد سالم هذا لمن جاء بعده الطريق إلى فن نثري جديد في أسلوبه ورونقه، فسلك تلميذه عبدالحميد بن يحيى الكاتب(٢) هذا النحو وزاد عليه ما منحته موهبته من حب للتطريب والتوازن الموسيقي في النص.

ويمكن أن تعدّ الرسائل التي أُثرت عن كتّاب القرن الثاني الهجري الأصول الأولى لفن المقالة(٣)، لما بلغته من تطور ونضج، وليس ما يجيىء على مثل ما كتب عبدالحميد أو ابن المقفع(٤)، أو الجاحظ(٥)، وابن العميد(٦) يكون وليد

---

(١) يكنّى أبا العلاء، وهو صهر عبدالحميد بن يحيى الكاتب، ترجمته في الفهرست لابن النديم ص ١٧١، دار المعرفة، بيروت، واختيار المنظوم والمنظور، لابن طيفور، جـ١٣ ص ٣٧٩.

(٢) انظر : ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١٢ ص ٣٠٧.

(٣) ويذهب إلى ذلك د. محمد يوسف نجم، فن المقالة، ص ١٧، ود. محمد بن سعد بن حسين، الأدب الحديث تاريخ ودراسات، مطابع الفرزدق، طـ١٩٨٣، ص ١٨٠.

(٤) فارسي الأصل، من أئمة النثر العربي، من آثاره : كليلة ودمنة، والأدب الصغير، والأدب الكبير، ورسالة الصحابة، (١٠٦ــ١٤٢هـ). انظر : خير الدين الزركلي، الأعلام جـ٤ ص ١٤٠، دار العلم للملايين، بيروت، طـ٦، ١٩٨٤م.

(٥) ولد في البصرة (١٦٣هـ-٢٥٥هـ)، زعيم من زعماء البيان العربي، له تصانيف كثيرة، منها : الحيوان، البيان والتبين، البخلاء، وعشرات من الرسائل. انظر : خير الدين الزركلي، الأعلام، جـ٧ ص ٧٤.

(٦) هو أبو الفضل محمد بن الحسين، وهو فارسي من أئمة الكتاب، ولقب بالجاحظ الثاني في أدبه وترسله، ومن آثاره : مجموع رسائل، ت (٣٦٠هـ).
انظر : يتيمة الدهر، للثعالبي، جـ٣ ص ١٣٨.

النقل عن الثقافة اليونانية أو الفارسية أو الهندية، كما يدّعي بعض الدارسين، فالروح البيانية العربية متوارثة، والنبتة الفنية لم تندثر من الإرث العربي الذي وصل مع غيره من الثقافات إلى أبناء القرن الثاني الهجري، ومن جاء بعدهم.

ويبلغ النثر الفني درجة عالية، ومنزلة رفيعة على يد بياني جليل القدر في هذا الباب هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ؛ إذ جمع ميزات القدماء، من قوة العبارة ومتانتها، وتجويد المتأخرين بما ثقفوه من علوم جديدة مترجمة من الحضارات السابقة. وتبين ذلك في رسائله وكتبه.

ويكمل هذا النسق المشع بالجمال والامتاع أديب جاء خاتمة للمرحلة البيانية المؤسسة ذلك هو أبو حيان التوحيدي[1]، الذي زاوج بين الفلسفة والأدب، فكتب المقالة الفلسفية المتأدبة، فهو أميل إلى أهل الكلام منه إلى أهل الصنعة الأدبية.

ولم أذكر ابن العميد في هذه الفترة لأنه أذاع مذهبًا غير موفق، يقوم على الاعتناء بالسجع، والبديع والصنعة اللفظية، بخلاف أبي حيان الذي يخلط كل هذه مع الطبع والفذلكة الكلامية.

ومن ينظر إلى الفترات التي تلت القرن الثالث الهجري، وأوائل الرابع يرى أن مقدمات تطور المقالة الأدبية تلك، ممثلة في الرسائل والفصول، وما جاء من هذا القبيل قد توقفت عندما وصل إليه زعماء مدرسة البيان في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة. وابتدأت ـــ مع اصطناع المجتمع وسائل المدنية واتخاذ الترف مذهبًا في الحياة ـــ موجة بالغة من التكلف والصنعة، خرج بها النص البياني من طور المدرسة المبدعة السابقة، وأصبح يحفل بالمحسنات، ويتكلف المجانسة والمطابقة والمزاوجة في افتعال واضح، كنثر الصاحب ابن عباد[2]، وأبي بكر

(١) هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي، (٤٠٠هـ) ت، من آثاره : المقابسات، الامتاع والمؤانسة، البصائر الذخائر.
انظر : الأعلام للزركلي، جـ٤، ص ٣٢٦.

(٢) إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، ولد في طالقان، له تصانيف جليلة، منها المحيط، الوزراء ـــ (٣٢٦ـــ٣٨٥)هـ. انظر : معجم الأدباء لياقوت الحموي جـ٦، ص ١٧١.

الخوارزمي[١]، وبديع الزمان الهمذاني[٢]، وأبي العلاء المعري[٣]، والحريري[٤] وغيرهم.

وأهم سمات النثر عند هؤلاء النحت والتعقيد، والمبالغة في طلب الغريب، وبهذا خبت تلك الشعلة الإبداعية النيّرة، وامتدت النغمة المتصنعة قرونًا طويلة حتى ران الكساد اللفظي، وخمدت الروح المنشئة الرائدة إلى أن بدأت النهضة الأدبية بإحياء التراث العربي، والاتصال بوسائل البعث الحضاري الجديد القادم من الغرب، وتملّي نتاج كتّابه ومبدعيه، وشيوع الصحافة في دنيا العرب، وهي أداة لها خطرها البعيد في نشأة فن المقالة.

وإن من يريد أن يدرس المقالة في الأدب العربي يجد صلة وثيقة لهذه المقالة بالآداب الأوروبية؛ ذلك أن النثر الأدبي الذي كان يضعه البيانيون في العصرين الأموي والعباسي، في عصور الازدهار والثراء اللغوي لم يتمثله من جاء بعدهم في عصور الضعف تمثلًا كاملًا، ولم يستطيعوا أن يأتوا ببعض ما أبدعه الجاحظ، أو أبو حيان، وإنما التزمت المدارس اللاحقة في عصور الجمود والتخلف الفكري والأدبي طرائق شكلية باهتة، تعتمد المحسنات اللفظية، وتأخذ بأسباب المزيّنات الإيقاعية الجرسية، ووقفت الحال عند ذلك بُعيد بزوغ النهضة، وتوفر أسبابها، التي كان من أهمها وأكثرها قوة العودة إلى محاكاة التراث، وإحياء جيده — كما أسلفنا — واتصال العرب بالثقافة الأوروبية، وتضافرت هذه الصلات على الوصول بالمقالة الأدبية إلى منزلتها الرفيعة في منتصف القرن الرابع عشر للهجرة،

---

(١) أصله من طبرستان، من كبار الأدباء في عصره، كما كان شاعراً وعالماً. (٣٢٣—٣٨٣هـ). انظر وفيات الأعيان، ابن خلكان، جـ١، ص ٥٢٣.

(٢) هو أبو الفضل أحمد بن حسين، أصله من همذان، له مقامات وديوان شعر، ورسائل (٣٥٨—٣٩٨هـ). انظر : يتيمة الدهر، الثعالبي، جـ٤ ص ٢٤١.

(٣) هو أحمد بن عبدالله بن سليمان، التنوخي المعري، شاعر فيلسوف، من تصانيفه كتاب (الأيك والغصون) و (تاج الحرة)، (٣٦٣—٤٤٩هـ). انظر : معجم الأدباء لياقوت، جـ٣، ص ١٠٨.

(٤) هو القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري، ولد بضاحية من ضواحي البصرة، تسمى المشان، من آثاره : ملحمة الإعراب، درة الغواص في أوهام الخواص. (٤٤٦—٥١٦هـ). انظر معجم الأدباء، لياقوت، جـ١٦، ص ٢٦١.

على يد أعلامها البارزين.

ولهذا يتزامن العمل لتطور المقالة العربية مع مراحل البناء المقالي في الغرب[١].

(١) يقول د. مصطفى علي عمر : «هي بعض ما استوردناه من الثقافة الأدبية الأوربية» انظر : دراسات في النقد الأدبي. دار المعارف، ص ١٧٥.

ويقول د. شوقي ضيف : «أما لمقالة فقد أخذناها عن الغربيين، وقد أنشاتها عندهم ضرورات الحياة العقلية والصحيفة»، انظر : الأدب العربي المعاصر في مصر، ص ٢٠٥. على أن د. محمد بن سعد بن حسين لا يرى للمقالة الغربية فضل النشأة، يقول : «ليست بذات أهمية تذكر إذا ما قيست بفن المقالة العربية في القرن الثاني للهجرة، حيث ظهرت في رسائل أدباء العرب الأصول الأولى لفن المقالة». انظر : الأدب الحديث تاريخ ودراسات، ص ١٨٠.

ب ـ المقالة الأوروبية الحديثة

وسأعرض باختصار شديد لأبرز الظواهر في المقالة الغربية، تلك التي تأسّى بها بعض الكتّاب العرب، ووصل تأثيرها إلى جوانب محدودة في المقالة الأدبية في شبه الجزيرة العربية.

حين ابتدأ مونتيني[1] كتابة خواطره حوالي عام ١٥٧١م، لم تكن هناك تجارب مقالية سابقة يحتذيها، سوى بعض النصوص الوعظية والإرشادية التي لا تخرج عن سياق التعاليم المسيحية، فرأى أن هذه لا تفي أغراضه، ولا تستوعب ما يريد قوله فانتهج أسلوبًا جديدًا في هذا الفن، يؤكد ذات الكاتب، ويدع للنفس سجيتها، وللخواطر تداعيها دون كبح جماحها، أو تهدئة مشاعرها المتدفقة؛ فجاءت مقالاته تأسيسًا لهذا الفن، وممهدة لمن جاء بعده من الكتّاب الذاتيين.

وقد توقف تدفق المقالة الذاتية هذا لدى فرانسيس باكون[2] إذ رجع إلى المعرفة، واستولى عليه إيحاء العقل، وابتعد عن البوح الذاتي، حتى تأملاته جاءت موضوعية مقتضبة، وهو «أقرب إلى الاحتجاز والتركيز وغزارة المادة الفكرية، واجتناب الألوان الشخصية والملامح التي تنم عليه وعلى الجانب الإنساني فيه»[3].

(*) بالإمكان مطالعة إضمامة مختارة من الأدب الانجليزي وغيره، مترجمة إلى العربية :
ـ روائع المقال «جمع هوستون بيترسون، ترجمة يونس شاهين، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، وقد اختار بيترسون لكتّاب إنجليز وفرنسيين وأمريكان. وانظر عرضاً لهذا الكتاب في جريدة الرأي العام الكويتية، العدد ٨٨٨، ١٩٨٥/١١/٢م، ص ١٨ بقلم ماهر قنديل.
ـ «مقالات مختارة من الأدب الانجليزي» اختيار وترجمة محمد بدران، في جزئين.

(١) ميشيل أكويم دومونتيني ١٥٣٣ـ١٥٩٢م. انظر ترجمته في «دليل القارىء إلى الأدب العالمي، ص ٣١٢.

(٢) ١٥٦١ـ١٦٢٦م، انظر المرجع السابق ص ١٠٧. وانظر : العقاد «فرنسيس بيكون»، المكتبة العصرية، بيروت.

(٣) العقاد : فرانسيس باكون، ص ٨٢.

وقد خبت المقالة الأدبية في محاولات بيكون ومن تلاه من أدباء القرن السابع عشر إلى أن توافرت أسباب عدة لنهوض الكتابة النثرية بعامة؛ من يقظة الشعور بقيمة الحرية، وذيوع وسائل النثر كالصحافة والمجلات، ومن أشهر أدباء هذه الفترة ريتشارد ستيل[١]، وجوزيف أديسون[٢].

ولكن الميزات القوية التي اكتسبتها المقالة الأوروبية كانت بجهود كتّاب موهوبين في القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، وإسهام هؤلاء الكتّاب في نهضة النثر الأدبي بما رافق ذلك من تغيير في الشخصية الغربية، وثورة على القديم، واستقلال الرؤية الفكرية عن مؤثرات العصور السابقة، وسلطة الكنيسة. ويمثل تيار التجديد شارلس لامب، ولي هنت، وهزلت وغيرهم «وقد كانت مقالاتهم تعبيرًا حرًّا طليقًا عن الذات، يخلو من كل توجيه أو التزام»[٣].

ومع سعي المجتمع الغربي إلى العلمية، واندفاعه نحو التخصص، وسيطرة الروح البحثية والاستكشافية تضاءلت سماء المقالة الأدبية عمّا كانت عليه في القرن السابق مع دخول القرن الرابع عشر الهجري فغلبت على المقالة الرؤى المسرفة في البحث والاستقراء والتعليل، وانحسرت العلامات المميزة للمقالة كالذاتية، وحضور عاطفة الكاتب، والصدق الفني في نقل التجربة الشخصية، ومن كتّاب

---

(١) انظر : الموسوعة العربية الميسرة، محمد شفيق غربال، دار نهضة لبنان، ١٩٨٠م، ص٩٦٩، هو كاتب مسرحي إنجليزي. ونبغ في بلورة أسلوب المقالة وهيكلها، (١٦٧٢–١٧٢٩م).

(٢) انظر : دليل القارىء إلى الأدب العالمي، ص ٢١، كاتب نثري بريطاني شهير، أحد كتاب المقالة البارزين في اللغة الانجليزية، (تكمن عبقريته الحقيقية في المقالة)، (١٦٧٢–١٧١٩م).

(٣) د. محمد يوسف نجم : فن المقالة، ص ٦٠.

هذه الفترة جورج برنارد شو[1]، وهـ. جـ. ويلز[2]، واليوت[3]، وبرتراند راسل[4].

---

(١) انظر : جورج برنارد شو، حياته بقلمه، د. وجدي الفيشاوي، دار الثقافة للنشر.
كاتب مسرحي بريطاني، ولد في دبلن، ألف الروايات والمقالات عن الأدب والموسيقى، له أول مجموعة من المسرحيات ١٨٩٨م بعنوان «مسرحيات سارة وغير سارة» وقد حصل على جائزة نوبل للآداب، (١٨٥٦ــ١٩٥٠م).
انظر : الموسوعة العربية الميسرة، محمد شفيق غربال، جـ٢، ص ١٠٩٩، دار نهضة لبنان، ١٩٨٠.

(٢) ١٨٦٦ــ١٩٤٦م، انظر ترجمته في «دليل القارىء إلى الأدب العالمي» ص.٣٦. ناقد اجتماعي وروائي انجليزي مبتكر قصص الفضاء، منها (آلةالزمن) و (الرجل الخفي) و (حرب الكواكب)، (١٨٦٦ــ١٩٤٦م).

(٣) انظر : نقاد من الغرب، عبدالله العباسي، تهامة، جدة طـ١، ١٩٨٣م،ص ٦٧ وانظر الدليل إلى الأدب العالمي، ص ٤٢.
وانظر : في الأدب الانجليزي الحديث، د. لويس عوض، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م، طـ٢، ص ٢٨٥.
وهو شاعر وكاتب مسرحي وناقد بريطاني أمريكي المولد. أشهر قصائده الأرض اليباب (١٨٨٨ــ١٩٦٥).

(٤) انظر ترجمته في : هكذا كتبوا، فؤاد دوّاره، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م،ص ١٩١.
وهو فيلسوف إنجليزي ومؤرخ وأديب قصاص، له مجموعة قصصية بعنوان «شيطان الضواحي».

جـ ــ بداية النهضة الأدبية في الشام ومصر :

كان لاتصال العرب بالغرب الأثر الكبير في نهضة الآداب والفنون، واطلاع العرب على الجديد المبتكر في العلوم ووسائط الحياة الحديثة، من أدوات الدرس في بعض العلوم التطبيقية، وأدوات الحرب، وألوان من الصناعات الأخرى، ووسائل التثقيف الجديدة كالصحف والمسرح.

ولم يكن للشرق صلة بمثل هذه المستحدثات إلا بعد مجيء حملة نابليون بونابرت[١] إلى مصر (١٢١٣ ــ ١٢١٦هـ)، فقد مهّدت لانتقال مثل هذه المعارف إلى الشرق على يد بعض القياديين النابهين فيما بعد مثل محمد علي[٢]، والخديوي إسماعيل[٣].

وإن من المبالغة أن نعدّ هذه الحملة بداية للنهضة؛ إذ أن المدة الزمنية التي قضتها الحملة في مصر لا تزيد على ثلاث سنوات، والاصلاحات التي أحدثها الفرنسيون لم تكن إصلاحات أساسية، فهدفها الأول إثارة المصريين، ولفت انتباههم لإدخالهم تحت السيطرة الفرنسية ذهنيًّا وعاطفيًّا، وما أورده الجبرتي[٤]

(١) ولد في جزيرة كورسيكا (١١٨٣ــ١٢٣٧هـ) درس العلوم العسكرية بباريس، ترقى في الجيش الفرنسي، إلى رتبة جنرال للجهد الذي بذله في طرد الانجليز من طولون سنة ١٢٠٨هـ قاد الحملة الفرنسية على مصر، وخاض معارك عديدة في سبيل بقاء الأمة الفرنسية، كانت نهايته مأساوية، إذ نفي إلى جزيرة (هيلانة) ومات بالسرطان.
انظر : اوكتاف أوبرى (نابليون) عربه : مترى شماس، المنشورات العربية، لبنان، تشرين أول ١٩٦٩م.

(٢) محمد علي «باشا» بن إبراهيم آغا بن علي، المعروف بمحمد علي الكبير ولد في قولة، تعلم القراءة في الخامسة والأربعين من عمره، شهد حرب أبي قير، وشارك في حرب المورة واستولى على سورية، واعتزل الأمور لابنه إبراهيم «باشا» توفي بالاسكندرية. (١١٨٤ــ١٢٦٥هـ).
الأعلام، جـ٦، ص ٢٩٨، وعبدالرحمن الرافعي (عصر محمد علي) طـ١، سنة ١٩٣٠م

(٣) الابن الأكبر لابراهيم «باشا»، تعلم في مصر وفرنسا، خلف عمه سعيد «باشا»، له بعض الإصلاحات العمرانية والتعليمية، أنفق في بذخ وإسراف مما أعاق مصر عن النهوض، واضطرها إلى الاستدانة، وعزله السلطان عبدالحميد الثاني، فذهب إلى إيطاليا، ثم إلى الاستانة حيث بقي فيها حتى وفاته (١٢٤٦ــ١٣١٣هـ).
انظر : عبدالرحمن الرافعي، عصر إسماعيل، مجلدان، دار المعارف، مصر، طـ٣،١٤٠٢هـ.

(٤) انظر : جـ٢، ص ٢٣٣، «تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار»، عبدالرحمن الجبرتي، (١١٦٧ــ١٢٣٧هـ) ترجمته في الأعلام جـ٣، ص٣٠٤.

في وصف دهشة الشعب المصري حين رأى شيئًا من التجارب الكيميائية، وعروضًا من التمثيل المسرحي ليس مؤكدًا لبث الوعي المطلوب، قدر إشارته إلى استلاب العقلية العاميّة، وإسقاطها في شباك الإعجاب بالمستعمر، وهذا الجانب السلبي القوي الذي نتج عن مجيء الفرنسيين كان قويًا ومؤلمًا في المفاسد الأخلاقية — التي وصفها الجبرتي — والتقليد الغبي الذي مني به بعض السذّج ومدّعي المدنية.

فالثمرة — في الحق — لم تكن إيجابية على ما نتمنى من تنبيه الرأي العام، وتحريك كوامنه نحو التقدم والرقي، وصحيفة «التنبيه» التي أنشأها الفرنسيون لم تعمر طويلًا، ولم تكن دافعة إلى الوعي الوطني مقدار عنايتها بشئون المستعمر، ولذا يمكن أن نعد الإصلاح الشامل الذي قام به محمد علي الخطوة الأولى في سبيل تقدم المجتمع العربي — عن طريق تأثره بما حدث في مصر —، فقد اعتنى بالبعثات العلمية، وأنشأ المدارس، وأعاد تنظيم الجيش، وكان من الدارسين في فرنسا مَنْ أسهم في الدعوة إلى النهضة — فيما بعد — وطالب بإقامة الأسس السليمة لإحياء مجتمع جديد مستنير، مثل رفاعة الطهطاوي[١]، وعلي مبارك[٢]، وغيرهما من زعماء الإصلاح والدعوة إلى المدنية الحديثة.

وقد امتد الإنشاء المدني منذ ذلك الحين مدعومًا بما يبثه النابهون في صحف ذلك العهد من دعوات إلى اليقظة والتعليم والحرية، ولهذا يجد الباحث صلة وثيقة بين الصحافة والنثر الأدبي؛ إذ كان بدء البعث الأدبي متزامنًا مع نشوء الصحافة.

وفي هذه الأثناء أخذت الدعوات إلى تحرير العرب من السلطة التركية

---

(١) ولد في طهطا، وتلقى العلوم في الأزهر، تولى إدارة جريدة الروضة، أخذ في الترجمة وهو في باريس بالاضافة إلى التأليف، من آثاره (التحفة المكتبية في النحو). (١٨٠١—١٩٧٣م) انظر : تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، جـ٤ ص ٢٨٦.

(٢) علي بن مبارك سليمان الروجي، ولد في قرية برنبال من الدقهلية بمصر، ودرس الفنون الحربية، وتولى فيما بعد مناصب كبيرة، له : الخطط التوفيقية، في عشرين جزءاً، وجغرافية مصر، وخلاصة تاريخ العرب. ونشرت أعماله كاملة في دراسة وتحقيق من د. محمد عمارة.
انظر : الأعلام، ج٤ ص٣٢٢.

تزداد قوة في مصر والشام ــ مع غلو ولاة الحكومة العثمانية على الأقطار العربية في الاستبداد والبطش، ومع انحراف الحكومة التركية عن الجادة في معاملتها العرب، إذ فرضت عليهم تعلم اللغة التركية، وأضعفت من شأن اللغة العربية، ومن الاهتمام بالتراث العربي، وسلبت مكتبات الوطن العربي أنفس ما فيها، فكانت الحال في أشد ما تكون تسلطًا وجورًا وبُعدا عن الإنصاف(١).

وقد أراد محمد علي أن يقف في وجه التتريك فأمر بأن يكون التعليم باللغة العربية، وكذلك الأوامر والمراسيم، ثم أمر بإحداث صحيفة لمصر تتحدث عن شئونها، وتنقل أخبارها فكانت «الوقائع المصرية»(٢) البداية الأولى لمسيرة الصحافة في الشرق، ويهمنا منها الجانب العربي، إذ كانت تصدر أيضًا باللغة التركية.

والذي يتصل بموضوع المقالة ماكان يصدر باللغة العربية، وما كان مؤثرًا في تنشيط الأدب، أو تطوير الأساليب الكتابية، بذلك يمكن اعتبار «الجوائب» أول جريدة عربية كبرى كان للمقالة فيها على اختلاف مناحيها حظ كبير «وأصبحت جريدة تقرأ في العالم بأسره، وتغلغلت في أقصى أطراف المعمورة فكانت ترد إليها المطبوعات والرسائل من هذه الأطراف»(٣).

---

(١) انظر : محمود شاكر، التاريخ الإسلامي ــ العهد العثماني، مجلد ٨، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٧هـ.

ولا يعني هذا إنكار ما للدولة العثمانية من فضل على الإسلام والمسلمين، ولكنّ هذا الفضل لا يعني أيضاً قلب الحقائق، ونفي ما حدث في أواخر العهد العثماني من إهمال للعرب، وازدراء للغتهم.

(٢) خرج العدد الأول منها في ١٢/٦/١٢٢٤هـ، الموافق ٢٠/ نوفمبر/١٨٢٨م، «وكانت تصدر ــ أول أمرها ــ دون انتظام في قسمين، عربي وتركي، ومع الوقت ألغي القسم التركي وفي أول عهدها كانت تنشر مقالات وأخباراً، بل فصولاً مترجمة، ولكنها اقتصرت فيما بعد على البلاغات الرسمية والقوانين، وإعلانات الوزارات. رأس تحريرها رفاعة رافع الطهطاوي ومساعده أحمد فارس الشدياق، وتعاقب على تحريرها عبدالرحمن رشدي، وأحمد خيري، وأحمد عبدالرحيم والشيخ محمد عبده، وعلي جودت، وعبدالكريم سلمان، وسعد زغلول، وإبراهيم الهلباوي، انظر : الموسوعة العربية الميسرة، دار نهضة لبنان، ١٩٨٠م جـ٢ ص١٩٥٤

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، دار الشعب، مصر، مجلد١١ ، ص ٢٤٦. وقد أسس الجوانب أحمد فارس الشدياق سنة ١٢٧٧هـ، ١٨٦٠م.

ثم توالى صدور الصحف في بقية أقطار الوطن العربي، وبعضها استمر في الصدور، والآخر اعترضته عقبات فتوقف بعد سنوات.

وقد سبق الشام[١] غيره من أقطار الوطن العربي في إصدار الصحف، وفي النهضة العلمية؛ لحرص الشاميين على التعليم، ووجود الإرساليات التبشيرية[٢]، فقد كانت جريدة «نفير سوريا» الصادرة سنة ١٢٧٧هـ ـــ ١٨٦٠م داعية «إلى التآخي، والتعاون، ودفع التنابذ الملّي»[٣].

ولكن الاستبداد التركي ضيّق الخناق على الكلمة في الصحف، مما اضطر عدد من الصحفيين إلى الهجرة، فقصد بعضهم المهاجر، وبعضهم الآخر ذهب إلى مصر، وأسهم في نهضتها الصحفية والفنية[٤].

وكان من أبرز هؤلاء المهاجرين من الشاميين جورجي زيدان[٥] الذي أسس

---

(١) يُقصد بالشام، سوريا ولبنان.

(٢) انظر : عمر الدسوقي (في الأدب الحديث) جـ١، ص ١٤٨، طـ٨، ١٣٩٣هـ، دار الفكر

(٣) د. نشأة ظبيان (النثر الأدبي الحديث في سوريا ـــ من القرن التاسع عشر حتى الاستقلال، ١٨٥٠ـــ١٩٤٦).

(٤) وكان من أبرز الصحف في سوريا ولبنان التي صدرت في بداية النهضة صحيفتا سورية، والفرات عام ١٢٨٢هـ و ١٢٨٣هـ. ودمشق عام ١٢٩٧هـ، ومرآة الأخلاق ١٣٠٤هـ، والشام ١٣١٤هـ. والشهباء ١٣١١هـ والاتحاد سنة ١٢٩٧هـ، وطرابلس الشام ١٣١٠هـ. وفي لبنان البشير ١٢٨٦هـ، ونفير سورية ١٢٧٧هـ، والجنة وقد أصدرها بطرس البستاني واستمرت إلى عام ١٣٠٤هـ. والجنينة والجنان، ثم صدرت ثمرات الفنون ١٢٩١ وقد استمرت حتى ثورة تركية الفتاة ثم اتخذت اسم الاتحاد العثماني والتقدم ١٢٩١هـ ولسان الحال أصدرها بطرس البستاني ١٢٩٤هـ، وفي سنة ١٢٩٨هـ أصدر الموارنة جريدة المصباح ـ ومجلتي الصبح المنير، والنشرة وصدرتا ببيروت عام ١٣٠٣هـ، وبيروت الرسمية ١٣٠٦هـ، وهناك صحف عدة، صدرت فيما بعد مثل : صدى لبنان ١٣١٨هـ، والبلاغ ١٣٢٨هـ والبريق ١٣٣٢هـ، وزحلة الأسبوعية وزحلة الفتاة ١٣٢٨هـ، وفي أثناء الانتداب الفرنسي صدرت صحف أخرى هي الأحرار ١٣٣٢، والشرق ١٣٤٥هـ، والنهار ١٣٥١هـ والاتحاد اللبناني ١٣٥١هـ، والرواد ١٣٥٢هـ، وبيروت ١٣٥٤هـ، والنضال ١٣٥٤هـ، واليوم ١٣٥٥هـ، ورقيب الأحوال ١٣٥٧هـ وغيرها.

(٥) جرجي بن حبيب زيدان، ولد وتعلم ببيروت، من آثاره : تاريخ مصر الحديث، جزآن. وتاريخ التمدن الإسلامي ـــ خمسة أجزاء، وتراجم مشاهير الشرق ـــ جزآن، وروايات تاريخ الإسلام، ثلاث وعشرون رواية. وغيرها كثير. (١٢٧٨ـــ١٣٣٢هـ). الأعلام جـ٢ ص١١٧.

مجلة الهلال سنة ١٣١٠هـ، وسليم[1] وبشارة تقلا مؤسسا صحيفة الأهرام سنة ١٢٩٣هـ. وقد ارتقت الصحافة في المشرق[2] بالأدب إلى مستوى عال، قياسًا إلى ماكان يكتب في تلك الفترة، وتأثرت مسائل الثقافة وقضايا الأدب، وأسلوب الكتابة بمؤثرات بارزات، لعل أشدها وضوحًا التخلص من قيود المدرسة التقليدية القديمة، واعتماد السهولة والوضوح، والتخفف من التعنت في اختيار اللفظ؛ لأن الجريدة لغة الناس، ولا بد أن تتقرب إليهم بالأسلوب الذي يفهمونه.

وفي الربع الأول من القرن الرابع عشر الهجري برز عدد من الكتّاب الروّاد الذين تولوا إدارة صحف ومجلات ذات طابع أدبي، أو ثقافي عام، ويعتنون بالتجويد في أساليبهم، ويحفلون بما يقوّي وشائج الصلة بين الناس وتراثهم، مثل جمال الدين الأفغاني[3] في «العروة الوثقى»، مع صاحبه محمد عبده[4]، ومحمد رشيد[5] رضا في «المنار»، والشيخ علي يوسف[6] في «المؤيد».

---

(١) ولدا في كفر شيحة بلبنان، وتعلما ببيروت، وأنشآ جريدة الأهرام، أسبوعية في الاسكندرية ثم نقلاها إلى القاهرة، وصدرت يومية. لم يؤيدا الثورة العرابية فأحرقت مطبعة الأهرام، ومات سليم في لبنان (١٢٦٥ــ١٣١٠هـ)، وبشارة في القاهرة (١٢٦٨ــ١٣١٩هـ. الأعلام، جـ٣، ص ١١٧، جـ٢، ص ٥٢

(٢) من صحف مصر : وادي النيل لعبدالله أبي السعود عام ١٢٨٣هـ، نزهة الأفكار لإبراهيم المويلحي وعثمان جلال ١٢٨٦هـ، والاتحاد المصري ١٢٩٧هـ، والمقتطف ليعقوب صنوع ١٣٠٣هـ، والمقطم وهي صحيفة موالية لبريطانيا نشطت بعد عام ١٣٠٧هـ، والعدالة عام ١٣١٥هـ، ومصر اليومية ١٣١٤هـ، ثم كان لكل حزب صحيفة تعبر عن حاله، مثل اللواء لمصطفى كامل، والكتلة الوفدية، وبلادي، سعدية، واللواء الجديد للحزب الوطني، ثم تعددت الصحف والمجلات بتعدد المؤسسات الإعلامية والثقافية، حتى غدت ذات أثر ملازم وقوي لنمو الثقافة، وتنشيط الأدب.

(٣) فيلسوف الإسلام في عصره، ولد في أفغانستان، له «تاريخ الأفغان» و «تاريخ الدهريين» (١٢٥٤ــ١٣١٥هـ)، الأعلام جـ٦، ص ١٦٨.

(٤) من كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام من آثاره «رسالة التوحيد» و «شرح نهج البلاغة» (١٢٦٦ــ١٣٢٣هـ). الأعلام، جـ٦، ص ٢٥٢.

(٥) بغدادي الأصل، صاحب مجلة «المنار»، وأحد رجال الاصلاح الإسلامي، من آثاره : تفسير القرآن الكريم (١٢٨٢ــ١٣٥٤هـ). الأعلام جـ٦، ص١٢٦.

(٦) علي بن أحمد بن يوسف البلصفوري الحسيني، تعلم في الأزهر، ونظم الشعر، له ديوان صغير اسمه «نسمة السحر»، وأنشأ مجلة أسبوعية سماها «الآداب (١٢٨٠ــ١٣٣١هـ). الأعلام جـ٤، ص٢٦٢.

ولكن تباشير الوعي الجديد تتضح في كتابات المجددين في الأسلوب البياني من أبناء منتصف القرن الرابع عشر الهجري، الذين احتضنتهم الرسالة، والثقافة، والسياسة، وسواها من الجرائد والمجلات التي رعت الأقلام الجديدة الشابة، وعمرت صفحاتها بكثير من قضايا اللغة والأدب، وهموم الأمة، والطموح إلى التجديد والابتكار.

وقد ذكرت الشام ومصر لأن لهما أثرًا خطيرًا في النهضة الثقافية منذ أن بدأت بواكيرها الأولى إبّان الغليان ضد السلطة التركية، أو حين اشتدت الحماسة الوطنية لمقاومة الاستعمار الفرنسي أو الانجليزي وإلّا سنجد في أقطار عربية أخرى كفلسطين[1] والعراق[2] صحافة كان لها إسهام جيد في الارتقاء بالأسلوب البياني في المقالة، وتقريب المفهومات الفكرية والأدبية إلى القرّاء.

وقد كانت صحف كثيرة ترد إلى الحجاز، وربما إلى نجد، عن طريق وسائط نقل مختلفة، فيتناقل المهتمون بالصحافة ما تثيره من مسائل السياسة والأدب، ويبدون إعجابهم بالتحرر من التقاليد الكتابية، والانعتاق من أسر الجرس القديم إلى متعة التوسع في الأسلوب، باتباع النثر الحرّ من القيد، والترسل المنطلق.

فما كان يُكتب في صحافة الشام، وجرائد مصر ومجلاتها، وبعض صحف العراق وغيرها من أقطار الوطن العربي لم يخل من تأثير قريب أو بعيد في تكوين الوعي الجديد لإنسان الجزيرة العربية.

---

(١) صدر في فلسطين : الكرمل سنة ١٣٢٦هـ، وفلسطين ١٣٢٩هـ، وغيرها مثل سورية الجنوبية، ومرآة الشرق، والصباح، والصراط المستقيم، والوحدة، والغد.

(٢) وصدر في العراق : الزوراء سنة ١٢٨٥هـ، والموصل ١٢٩٢هـ، والبصرة ١٣١٣هـ، وصدر في عام ١٣٢٧هـ بغداد والرقيب، وبين النهرين، وفي عام ١٣٢٨هـ، صدرت الرياض وفي عام ١٣٣٢هـ النهضة، يراجع في هذا كتاب «رواد المقالة الأدبية في الأدب العراقي الحديث» لعبدالجابر داود البصري، سلسلة كتاب الجماهير، دار الحرية، بغداد، عام ١٣٩٥هـ.

تأثير الصحافة في النثر الفني :

ساعدت الصحافة على التبكير بالبعث الأدبي، وسهّلت السبيل أمام الكتّاب ليطلعوا على أساليب جديدة، وخففت من العزلة التي كان يعيش فيها الكاتب، حين كان لا يقرأه إلّا نفر قليل ممن حوله، وهم المهتمون بالعلم والثقافة.

وكان المثل المحتذى عند أدباء ما قبل النهضة تقليد مقامات بديع الزمان والحريري، والبديعيين، والمزخرفين، ممن يعنون بالمحسنات حتى تحوّل النص من قطعة فنية أخّاذة إلى جمل منظومة يضيع في أثنائها المعنى، «ولو راجعت المراسلات التي كانت تدور بين الأمراء والحكام في ذلك الحين لوجدت شواهد لا تحصى على ما بلغته من ركاكة وإسفاف لا في قطر واحد بل في معظم الأقطار العربية»[١].

وبدخول الصحافة ديار العرب انتقل الأسلوب الكتابي في البداية من الترصيع والتزيين والركاكة إلى البحث عن الكلمة الخفيفة البعيدة عن الإغراب، والمناسبة للمعنى، للتخلص من قيود السجع، ومحاكاة أساليب النثر العربي في عصره الأول.

ويمثّل بداية الانطلاق من أسر التقليد ناصيف اليازجي[٢]، وأحمد فارس الشدياق[٣]، وعبدالله النديم[٤]، وعبدالله أبو السعود[٥] .. ومن ثم أساليب

---

(١) أنيس المقدسي، الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، ص ٤٥.

(٢) شاعر من كبار الأدباء في عصره، أصله من حمص (بسورية)، له كتب منها : «مجمع البحرين» و «الجواهر الفرد» و «فصل الخطاب». (١٢١٤-١٢٨٧هـ). ترجمته، الفنون الأدبية للمقدسي، ص ٥٥، والأعلام، جـ٧ ص ٣٥١.

(٣) صاحب صحيفة الجوائب، له مؤلفات منها «سر الليال في القلب والإبدال» و«اللفيف في كل معنى طريف» «وكنز الرغائب في منتجات الجوائب» ٧ أجزاء» (١٢١٩-١٣٠٥).
ترجمته : تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان، دار الهلال، مصر، جـ٤، ص ٢٣٥.

(٤) صحافي خطيب، من أدباء مصر، ولد في الاسكندرية، وكتب مقالات كثيرة، وأنشأ مجلة الأستاذ (١٢٦١-١٣١٤هـ). الأعلام، جـ٤، ص١٣٧.

(٥) صحفي وسياسي، أتقن مع العربية الفرنسية والايطالية، عين ناظراً لقلم الترجمة فاستاذاً للتاريخ بدار العلوم، وأنشأ جريدة «وادي النيل» سنة ١٢٨٤هـ، ومن آثاره ديوان شعر وسيرة محمد علي باشا وكتب تاريخية أخرى. ١٢٣٦-١٢٩٥هـ) الأعلام جـ٤، ص١٠٠.

المنشئين المنصرفين إلى التحديث في المنحى الفكري والأدبي؛ الشيخ محمد عبده، وتلميذه رشيد رضا، وجمال الدين الأفغاني، وغيرهم.

أما أثر الصحافة البالغ في الأسلوب الكتابي فلم يتبين إلا بعد نشوئها بأكثر من نصف قرن، وذلك في كتابات أدباء صدر القرن الرابع عشر الهجري، وأوائل العشرين الميلادي بعامة، وإن كان حظ كل منهم يختلف باختلاف موهبته، وتثقفه، وحرصه على أدواته الكتابية، ويعدّ من هؤلاء المجددين الذين سعوا بالنثر إلى ميادين واسعة من التطوير والتجديد، الدكتور طه حسين[١]، والدكتور محمد حسين هيكل[٢]، ومصطفى صادق الرافعي[٣]، والدكتور زكي مبارك[٤]، وأحمد حسن الزيّات[٥]، وعباس محمود العقّاد[٦]، وجبران خليل

---

(١) هو طه بن حسين بن علي بن سلامة، ولد في قرية «الكيلو» بالصعيد المصري، بدأ حياته في الأزهر، ثم الجامعة المصرية القديمة، وعين محاضراً في كلية الآداب بجامعة القاهرة، ثم عميداً لتلك الكلية، فوزيراً للمعارف، ورئيساً لمجمع اللغة بمصر، ومن كتبه: «في الأدب الجاهلي و «حديث الأربعاء» و «مع أبي العلاء» و«تجديد ذكرى أبي العلاء» وغيرها. (١٣٠٧ـ١٣٩٣هـ). كُتبت دراسات كثيرة عن أدبه، منها «فن المقال الصحفي في أدب طه حسين» د. عبدالعزيز شرف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.

(٢) كاتب صحفي، مؤرخ من أعضاء المجمع اللغوي، ومن رجال السياسة، ولد في قرية كفر غنام بالدقهلية، وتخرج في مدرسة الحقوق بالقاهرة، ورأس تحرير جريدة السياسة اليومية، ثم الأسبوعية، وولي وزارة المعارف مرتين، ومن كتبه «ولدي» و «في أوات الفراغ» و«في منزل الوحي»

(٣) عالم بالأدب، شاعر ولد في بهتيم، وتوفي في طنطا، له ديوان شعر، وآثار أخرى منها: تاريخ آداب العرب، ووحي القلم، والسحاب الأحمر، وغيرها (١٢٩٨ـ١٣٥٦هـ). ترجمته في الأعلام جـ٧، ص٢٣٥، وانظر: محمد سعيد العريان، حياة الرافعي.

(٤) زكي بن عبدالسلام، ولد في قرية «سنتريس»، وتعلم في الأزهر، اشتغل بالتدريس في بغداد، ثم عين مفتشاً بوزارة الدفاع بمصر، من مؤلفاته «النثر الفني في القرن الرابع» انظر: محمد محمود رضوان، صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك، دار الهلال.

(٥) صاحب «الرسالة»، نال جائزة الدولة التقديرية سنة ١٣٦٢هـ، احتجب وانقطع إلى تحرير «مجلة الأزهر»، من مؤلفاته: «في أصول الأدب» و «تاريخ الأدب العربي» و «وحي الرسالة». (١٣٠٢ـ١٣٨٨هـ). الأعلام، جـ١ ص ١١٣.

(٦) ولد في أسوان، ونال حظاً يسيراً من التعليم النظامي، ولكنه تولى نفسه بمتابعة الثقافة والمعرفة، ودرس أصول الأدب، وتعلم الانجليزية، من مؤلفاته: العبقريات، ومن حديث الكتب والناس، واليوميات، وغيرها. (١٣٠٦ـ١٣٨٣هـ). وقد كتبت دراسات عن حياته منها: مع العقاد، شوقي ضيف، سلسلة إقرأ، دار المعارف، طـ٣. المقالة في أدب العقاد د. عبدالقادر رزق الطويل، الدار المصرية اللبنانية، طـ١، ١٤٠٧هـ.

جبران[١]، وإبراهيم عبدالقادر المازني[٢]، وسيد قطب[٣]، وأحمد أمين[٤]، وميخائيـــل نعيمـــة[٥]، ومــــي زيـــادة[٦]، وغيرهـــم.

وفي نثر هؤلاء ميزات قلّما توافرت للنثر في العصور السابقة، إذ استفادوا من عودتهم إلى درس التراث العربي، فأحيوا جيّده، وحاكوا النماذج الممتازة منه، وأضافوا إلى ذلك ما استجد من الجديد ومن ابتكار تمنحه الموهبة الصادقة، فاجتمع لأكثرهم الطبع الصادق المتدفق، والإلمام بالقيم الفنية للنص العربي القديم، والثقافة الحديثة الشاملة، وكل ذلك لا بد أن يدفع إلى إبداع جديد يحمل سمة صاحبه، ويكون بمعزل عن التقليد والتأسي العقيم.

وقد تخلصت المفردة في أدب النهضة من أوشاب التعقيد، والإغراب،

---

(١) جبران خليل بن مخائيل بن سعد، أحد البارزين من كتاب المهاجر الأمريكي، تعلم في بيروت من كتبه : «المواكب» و «العواطف» (١٣٠٠ــ١٣٤٩هـ). ترجمته في النثر العربي د. علي شلش، ص ١٤١ــ٢٣٢، والفنون الأدبية للمقدسي، ص ٣٢٤.

(٢) هو إبراهيم بن محمد بن عبدالقادر المازني، ولد في القاهرة، عمل في جريدتي الأخبار، والبلاغ، وأصدر مجلة الأسبوع، وله كتب منها : صندوق الدنيا، وقبض الريح، وإبراهيم الكاتب (١٣٠٨ــ١٣٦٨هـ). انظر عن أدبه : د. نعمات أحمد فؤاد، إبراهيم عبدالقادر المازني، سلسلة الأعلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨م

(٣) سيد بن قطب بن إبراهيم، مفكر إسلامي مصري، من مواليد قرية «موشا» في أسيوط عمل في جريدة الأهرام، وانضم إلى الإخوان المسلمين، وسجن معهم ــ فعكف على تأليف الكتب ونشرها، من آثاره «النقد الأدبي ــ أصوله ومناهجه» و «في ظلال القرآن» وغيرها، (١٣٢٤ــ١٣٨٧هـ). انظر : عبدالله الخباص، سيد قطب الأديب الناقد، مكتبة المنار، الأردن، ط١، ١٩٨٣م.

(٤) أحمد أمين ابن الشيخ إبراهيم الطباخ، ولد وتوفي بالقاهرة، منحته جامعة القاهرة لقب «دكتور» فخري، من آثاره : «النقد الأدبي» و «فجر الاسلام» وغيرهما. (١٢٩٥ــ١٣٧٣هـ). انظر، حياتي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٧١م. بقلم أحمد أمين.

(٥) شاعر وكاتب لبناني، من مؤسسي «الرابطة القلمية» بنيويورك، له «الغربال» «والبيادر، ومذكرات الأرقش، وغيرها (١٣٠٧ــ١٤٠٩هـ).

(٦) هي ماري بنت إلياس، أبوها من لبنان، أحدثت حركة أدبية بمنتداها الأدبي، كانت نهايتها مؤلمة قاسية، من آثارها : «باحثة البادية» و «ابتسامات ودموع» و «ظلمات وأشعة». (١٣٠٤ــ١٣٦١هـ). ترجمتها في : الموسوعة العربية الميسرة، جـ٢، حرف الميم، ص ١٧٩٤، والفنون الأدبية للمقدسي، ص ٤٦٨، ويحوي كشفاً عن مصادر دراستها.

والابتذال واتسمت بالسهولة والإمتاع والمبالغة في انتقاء ما يعبرّ عن المعنى ويوفيه حقّه دون إسراف في التعنّت والتكلف، أو البحث عن الشارد من اللفظ.

وخير ما يمتع في المقالة الأدبية في هذه الفترة تدفقها وذاتيتها، وبراعة الكاتب في بناء المقالة على أساس من الوعي بصناعته، والدقة في إشباع الفكرة، وعرضها بأسلوب جذّاب، مشوق، فانتفت تلك السمات التي كانت تصاحب المقالة في نشأتها مثل السجع، وغموض شخصية الكاتب، وجفاف اللفظة، ووعورتها أحيانًا.

وقد بلغت المقالة الأدبية أوجها، ووصلت إلى هذه المنزلة الرفيعة من الإمتاع والجودة بفضل ما تيسر لكتّابها من الموهبة والبراعة والثقافة، والوعي بوظيفة الكتابة، وتأثيرها في قارئيها.

الفصـــل الأول

مصادر المقالة الأدبية
في المملكة العربية السعودية

يحـوي هـذه الموضوعـات :

أ ــ المقالة الأدبية قبل نشأة أم القرى ١٣٤٣هـ.

ب ــ المقالة الأدبية من نشأة أم القرى ١٣٤٣هـ إلى قيام المؤسسات الصحفية عام ١٣٨٣هـ.

جـ ــ المقالة الأدبية في عهد المؤسسات.

أ ـ المقالة الأدبية قبل أم القرى :

١ ـ النثر الأدبي قبل النهضة الأدبية.

٢ ـ الدعوة السلفية وأثرها في النثر.

٣ ـ بواكير المقالة الأدبية.

٤ ـ المقالة في الحجاز في العهد التركي.

٥ ـ المقالة في الحجاز في العهد الهاشمي.



أولًا : النثر الأدبي قبل النهضة الأدبية :

سبق عصر النهضة الأدبية شيء من النشاط في بعض من فنون النثر، كالمقالة الدينية والرسائل والتقريظات والإجازات، ومقدمات الكتب، وما أشبه ذلك مما يمكن إلحاقه بالنثر الأدبي من وجه ما، وسأعرض لمستوى الكتابة في الرسائل على نوعيها الديواني والإخواني، وما عرف من ألوان أخرى تبين عن الهوان الذي وصلت إليه هذه الصناعة في العصر العثماني.

فقد تأسى كتّاب القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين بمن كان قبلهم من كتّاب عصور الضعف والانحطاط، ولم يعودوا إلى استلهام إبداع العصور الزاهية في التاريخ الأدبي، وإنما قلّدوا من سبقوهم من الأدنين، من كتّاب عصور الانحطاط، فزادوا على عنتهم وشططهم ما أثقل الكلمة العربية وخرج بها عن طورها المألوف، وخلطوا ذلك بلكنة أعجمية، ولهجة تركية، وعامية مستشرية، وجهل بكثير من قواعد اللغة، وأسلوب العرب في الكتابة. فلا غرو أن جاءت النماذج النثرية في هذا العهد مسجوعة متكلفة ممجوجة، بعيدة عن الذوق الرفيع، وخالية من مقومات الترسل، همّ صاحبها أن يأتي بالغريب والشارد، وأن يقف على غير المتوارد، فلو أخلّ بالمعنى في سبيل تنغم سجعي فلا يرى في ذلك بأسًا، مادام السجع هو الهدف الأول.

وقد ساعد على شيوع هذا النمط من الكتابة عدم الاعتناء باستظهار النصوص الجيّدة من التراث، وكثرة الأميين، وإهمال السلطة التركية شئون التعليم بالعربية، واحتفالها الكبير بكل ما يتصل باللغة التركية، وجعلها إياها لغة الدولة الرسمية، في الديوان والتعليم والصحافة(١).

ولولا بقية صالحة في زوايا المساجد في بعض المدن العربية ذات التاريخ المجيد

---

(١) انظر : د. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص ٣٨٧.

في مكة والمدينة والقاهرة ودمشق وبغداد وغيرها، ولولا بعض الكتاتيب الصغيرة التي يقوم عليها رجال مخلصون لمات كثير من تراث العربية، ولكان استفحال العجمة، وتفشي العامية أشدّ خطرًا وأكثر ضررًا مما كان.

وخير ما يمثل هذه الحالة — التي تتصل بالعصور التالية في الحجاز ونجد والجنوب — ما كتبه المؤرخون كابن إياس في بدائع الزهور «حيث ضعف التأليف عامة، فالأسلوب واهٍ، والأخطاء النحوية كثيرة، والألفاظ التركية منتشرة» ، وما كتبه بعض الأدباء كالشهاب الخفاجي في ريحانة الألباء، فهو «يتصنع لمصطلحات النحو، كما يتصنع لألوان البديع»[1].

وانحدرت الرسائل الاخوانية — وهي القريبة إلى فن النثر المبدع — إلى لون من الغثاثة، وضرب من التعقيد — وشيء من الإحالة، تأمل هذه التهنئة التي كتبها أحد أدباء الفترة العثمانية إلى بعض السادة الأشراف، واستهلها ببيت من الشعر غاية ما يكون الابتذال والضعف.

دم في ذرى أوج النقابة راقيا   قطب المكارم ما بقيت موقـرا

مفخر المدرسين الكرام، سليل الأفاضل الفخام، خلاصة السادات الأشراف، صفوة بني عبدمناف، صاحب العزّ والشرف، وخلفًا بعد خلف، غرّة جبهة الأيام، بهجة أولي المجد من الأنام، الذين شادوا مباني العّز والإكرام، نهدي سلامًا كالدر النظيم، وثناء يفوق معطار النسيم، ودعاء مقرونًا بالقبول من السميع العليم، هذا وإن سألتم .. (أي عن الكاتب) فإنه يعطّر مجالسه بأحاديث لطفكم ويروّح مجالسه بعبير فضلكم، فلازال هذا السرّ فيه (الممدوح) وفي نسله معنعنًا متصل الإسناد صحيحًا من غير ضعف وانقطاع إلى يوم التناد»[2].

---

(١) المرجع السابق ص ٣٨٨.

(٢) انظر : أنيس المقدسي، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٨٢م، ص ٣٤٧، ويذكر المقدسي أنه نقل هذه الرسائل وغيرها من الرسائل العثمانية من مخطوطة في مكتبة عيسى إسكندر معلوف إسمها «مجموع إرشادات في لطايف المكاتبات وتحايف المراسلات، «كما يذكر أنها من إنشاء القرن الثاني عشر للهجرة.

وعمّ هذا الضعف أصناف الكتابة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ــ قبل النهضة ــ فيلتزم المؤرخون العبارات المسجوعة في تآليفهم، فهذا عبدالقادر بن أحمد الشافعي (خطيب جدة)(١) يكتب رسالة تاريخية بعنوان «السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة» وفيه مبالغة في التقفية اللفظية، وتطلب للعبارات البعيدة عن المنال العفوي، يقول : «الحمد لله الذي جعل ثغر جدة أفضل الثغور وشرّفه بإضافته إلى بيته السعيد، الذي من دخله كان آمنًا من كل محذور، وإن فضل مرابطيه على سائر المرابطين كفضل مكة على سائر البلدان في سائر الأزمان والدهور» إلى أن يقول : «فإني لما رأيت الأعيان من ذوي الفضل وخواص الزمان من أهل العقد والحلّ تقربوا تقرباتهم وتغربوا عن أهلهم وأوطانهم، وخدموا بأرواحهم وأجسادهم من أهلّ الله تعالى الولاية على جيران بيته العتيق، والذّب عن سكان بلده حاضريه وقاصديه من كل فج عميق ..» ثم يورد في آخر هذه الرسالة نماذج من كرامات الأولياء والصالحين(٢). ويذكر أحداثًا بعيدة عن التصديق وقبول العقول، مما ينبيء عن ثقافة ذلك العصر، وقيمه العقلية.

ولا يعنيني أن أورد أمثلة على انسياق المتأدبين والمنتسبين للكتابة في ذلك العهد البعيد عن الجودة، والخالي من ميزات الإمتاع، وإنما يهمني أن أكشف ارتباط النثر في شبه الجزيرة العربية بما كانت عليه الكتابة في العصر العثماني بعامة، في جميع الأقطار العربية.

ففي نجد غلبت الفوضى السياسية،(٣) فعمّ المنطقة النزاع، وانقطعت وسائل

---

(١) هو عبدالقادر بن أحمد بن فرج الخطيب الشافعي، عالم خطيب، ولد ونشأ وتوفي بجدة. من مؤلفاته : السلاح والعدة في فضل ثغر جدة.

توفي في ٧ رمضان سنة ١٠١٠هـ، حقق هذه الرسالة د. محمد عيسى صالحية دار الحداثة، الطبعة الأولى١٩٨٣م.

(٢) انظر ص ٧٢ وما بعدها من الرسالة السابقة.

(٣) انظر : محمد بن عثمان القاضي، «روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين». مطبعة الحلبي، القاهرة، ط١، ١٤٠٠هـ، ج١، ص٣٣.

هو الشيخ إبراهيم بن عبدالله بن سيف من قبيلة شمر، يعد من أكابر العلماء خصوصاً في الفقه والفرائض (١١١٩ــ١١٨٩هـ).

التعليم، وبقيت في زوايا محدودة، وفي المدارس (الكتاتيب) وعلى بعض الفقهاء السلفيين الذين ورثوا شيئًا من العلوم الشرعية، وبعض علوم العربية، فعلموها لمريديهم وتلاميذهم، يدونونها وينشرونها بين الناس في ضعف، فكانت العامية غالبة على الفصحى، وعمّ ذلك المكاتبات، والرسائل، وأساليب التصنيف، وانحصر جهد هؤلاء المتفقهين في علوم الفرائض، والأحكام وإجمال ما يتيسر لهم في نظم ركيك باهت.

ويذكر المؤرخون عددًا لابأس به من هؤلاء العلماء في القرن الثاني عشر الهجري وما بعده دون إفاضة في الحديث عن جهودهم العلمية، ومآثرهم الكتابية؛ فمن هؤلاء مثلًا إبراهيم بن سيف أحد فقهاء المدينة المنورة، ألّف كتاب «العذب الفائض شرح ألفية الفرائض»، وفقيه نجد أحمد بن محمد المنقور[(١)]، وله كتاب عرف بمجموع المنقور «المسائل المفيدة» في مجلدين.

ويجد الباحث أن المؤرخين يغفلون السيرة العلمية في نجد قرونًا طويلة جدًا، ولا يذكر من ذلك إلا النزر اليسير، وخاصة في ما قبل القرن العاشر، والمصادر في هذا قليلة جدًا، وهي فصول مجهولة من تاريخ نجد العلمي ما زالت محتاجة إلى كثير من الجهد في البحث عن المصادر التي تدل على المستوى الثقافي السائد آنذاك[(٢)].

وخير ما يدل على المستوى العلمي السائد عند علماء القرن العاشر الهجري وما بعده إلى قيام الدعوة السلفية تلك التآليف، والرسائل العلمية، وآثار علماء تلك القرون ــ التي لايزال أكثرها مخطوطًا لم يحقق بعد ــ أو طبع جزء قليل منه طبعات أولى نافدة منذ سنوات طويلة، والمتأمل في سيرة العلماء المعاصرين

(١) هو الشيخ أحمد بن محمد المنقور التميمي النجدي، عالم جليل، ولد في سدير سنة ١٠٦٢هـ ألّف كتابه الشهير بمجموع المنثور، وقد توفي سنة ١١٢٥هـ في حوطة سدير.
المرجع السابق، ص ٦١.

(٢) للإلمام بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في نجد في هذه الفترة يرجع إلى مقالة (نجد منذ القرن العاشر الهجري حتى ظهور الشيخ محمد بن عبدالوهاب)، بقلم د عبدالله الصالح العثيمين، مجلة الدارة، عدد ٣ السنة٣، عام ١٣٩٧هـ، ص ١٢ــ٢٥.

للشيخ محمد بن عبدالوهاب ـــ سواء اتفقوا معه أو اختلفوا ـــ يبلغ به العجب من دقة الموضوعات التي يكتبون فيها، وإقبالهم على التآليف على الرغم من ضعف الوعي الشعبي، وقلة المتعلمين[١]، ولاشك أن «جهلنا بعلماء نجد هو جزء من الجهل العام بتاريخ المنطقة كله، والتبعة على العلماء حيث لم يدونوا تاريخهم، و لم يترجم المتأخر منهم لمن قبله، حتى عفا الزمن على أسمائهم فضلًا عن أخبارهم وحياتهم»[٢].

وفي الأحساء غلبت العجمة، وزادت المبالغة في السجع، وتطلب الكتاب ضروب المحسنات من البديع، فهذا الشيخ عبدالله بن محمد الكردي (١١٣٠ ـــ ١٢١١هـ) يكتب رسالة إلى شيخه عبدالله بن صبغة بالعراق، يبيّن فيها عن حاله وشقائه بحوادث السنين، يقول :

«وبعد، فإني منذ طوّحت بين طوائح الاغتراب، وأنأتني عن شرف تلك الأعتاب، لم يزل الدهر يرمقني شزرًا، ويلحظني خزرًا، ويوسعني هجرًا وهجرًا، ويمطيني غارب كل هجين، وينيخ بي على كل وجين، لا أسري منه إلا في داج داجن، ولا أرد منه إلاّ على ماء آجن، يسومني خطة الأذى، ويقلاني قلي المقلة للقذى، لكنه يزاول مني فتى شديد الشكيمة أبيًّا، ويستمرىء مني دمعًا عصيًّا، لا يتعتز مني إلا بحد صارم قضيب، ولا يعجم مني غير عود على ناب الزمان صليب، لم يحكمني ولله الحمد تصريفه لأحوالي، وإعلاله لآمالي، على ابتذالي بالتملق إلى والي» إلى أن يقول :

«وأصبحت الليالي تشن عليّ الغارة بعد الغارة وتتلاعب بي تلاعب السنور

---

(١) انظر : د. عبدالله الصالح العثيمين، تاريخ المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤٠٩هـ مطابع الشريف، ص ٣٧.

(٢) عبدالله بن عبدالرحمن البسام، مقدمة «علماء نجد خلال ستة قرون» مكتبة النهضة الحديثة بمكة، ١٣٩٨هـ وانظر مثلاً على شيوع العامية «تاريخ ابن ربيعة» يقول ابن ربيعة :
«١٠٨٤هـ، وفي أواخر هذه السنة في ذي الحجة سافرت للقراءة على شيخنا الفاضل عبدالله بن محمد بن ذهلان، وفيها شيخ رشاد بن إبراهيم في مرأة (أي مرات)، وسنة ١٠٨٥هـ جئت من عند الشيخ قاري عليه ص ٦٨، ويقول : وسنة ١١١٦هـ أخذوا أهل حريملا سبيع على سدوس، ص ٨٢.

بالفارة، فأيقنت أن ذلك عقوبة ما كسبت يداي، وأنه من شؤم أدبي الذي كان غاية مبتغاي، فصار في زيادة أورثتني في العيون زهادة، وليتها كالزيادة في الآن، إن لم تكسبه تعريفًا فهو تنكيرها في أمان، بل كانت كياء التصغير، الكاسية ذويها ثوب التحقير، أو كياء صيارفة، التي صارت لها صارفة، والعرب تجاهر بالدعاء على كل ماهر، فتقول للمقدام المطعان : ويل أمه ما أشجعه، وللشاعر المجيد : قاتله الله ما أبدعه، ولأمر ما ترعى الصعوة لطائف الأزهار، وترد ما أرادت من الأنهار، والهزاز في ضيق قفصه، يشكو مضض غصصه[1] ..»
فالكردي مغرم بالصنعة، مولع بالسجع، لديه شجون حال التكلف دون إظهارها فيما تستحقه من الترسل السهل المنطلق.

وفي جنوب الجزيرة العربية يجد من يبحث في النصوص اليسيرة المتوافرة قبل دعوة محمد بن عبدالوهاب الصفات نفسها الذائعة عن النثر في تلك الفترة الزمنية المجدبة، وخير ما يدل على ذلك المقامة الضمدية التي ألّفها الحسن بن علي بن حسن البهكلي[2] (١٠٧٧ــ١١٥٥هـ). فقد ذهب إلى تقليد سابقيه من رواد هذا الفن؛ بديع الزمان الهمذاني، والحريري، ولم يأت بإضافة تحسب له، سوى أنه حافظ على جزالة اللفظ واختار منه أكثره فصاحة ووضوحًا، على أنه بالغ في المقابلة، وتعسّف في الترادف، ونثر ما في كنانته من الشعر، فكأنه يريد أن يومىء إلى مخزونه الكثير.

يقــول :

«.. فإنه لما كان في شهر جمادى عام ١١١٣[3] خرجنا نحن وبعض الاخوان إلى أرض ضحية من أعمال هجرة ضمد فوجدنا في بعض مسائله كرمة مورقة

(١) انظر : محمد بن عبدالله العبد القادر، تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد، المكتب الاسلامي، دمشق ١٩٦٣، جـ٢ ص ٨٣.
وانظر ترجمة الكردي في الأعلام للزركلي، المجلد ٤ ص ٦٤.

(٢) ولد في مدينة ضمد عام ١٠٧٧هـ، وتلقى تعليمه الأولي في مدينة ضمد، برع في علوم العربية والفقه، ومن مؤلفاته : تاريخ المنظوم ومقامته الضمدية، وتوفي بمدينة أبي عريش عام ١١٥٥هـ.
انظر ترجمته في «المقامة الضمدية» تحقيق عبدالله أبو داهش ــ مطابع الشريف.

(٣) لعله يعني ألفاً ومائة وثلاثة عشر من الهجرة.

وبلهب شمس القيظ محرقة، فاشتاق لسان الحال بهذه المقامة، وهي على جمود قريحة قائلها علامة وأي علامة.

ومن عجائب الاتفاق، ونوادر الغرائب الحلوة المذاق، أن ضمتنا بعض النزه مع بعض الرفاق، بأرض ندية من رياض الهجرة الضمدية، إذ مررنا بكرمة في بعض تلك الجنان، ناحلة الجسم ذاوية الأغصان، وهي تنادي بصوت حزين، مشوب بزفرة وأنين، وتقول: ما معشر المسلمين، هل من مستمع لشكيتي، وواع لقضيتي، وراث لمن ترامت به البلدان، واعتورته نوائب الحدثان، ثم تنفست الصعداء وأنشدت : ......

إلى أن قال :

«فقلت لصحبي : هلمَّ إلى هذه الضعيفة، فلابد عندها من نكتة لطيفة، فإن صدور بعض الأغراب من خزائن الآداب، فدنونا إليها راغبين، ولما سمعنا منها شافعين، فقلنا لها : أي صاحبة الزفرات، عليك السلام تحية الأموات، ما أقدمك البلاد من الحجاز، وإنما هي مواطن النعمة المباركة الفروع والأعجاز، أضللت عن السبيل، أم أردت سكون الأطراف تبعًا لبعض الأشراف فهي مواضع الطراف. لقد استسمنت ذا ورم، وتبدلت برود النسمات النجدية بالضرم ..»[1]، والحق أن المنطقة الجنوبية كانت أسلم في لغتها من تلك العامية التي شوّهت المأثور من أساليب المتأدبين والمتفقهين في نجد، ومن ذلك اللحن المفزع في الحجاز وفي الجزء الشرقي من شبه الجزيرة العربية؛ بسبب ما فعلته اللغة التركية في اللسان العربي، بما أدخلته عليه من تراكيب وعبارات ومصطلحات، لا يمكن أن يتقبلها الذوق العربي السليم، ولا أن تنسجم في النص الأدبي.

ولذا يستطيع المطلع على ما يوجد من آثار كتابية في تلك الفترة أن يصل إلى جودة العبارة وسلامتها في الأعم الأغلب، وخاصة قبل توغل الترك في تهامة وعسير على «أن لغة الإنشاء في ميدان النثر الأدبي بجنوبي الجزيرة العربية قد كانت

---

(١) المرجع السابق ص ٢١.

تميل إلى الصنعة اللفظية والتكلف البديعي، وخاصة في ميدان السجع والمحسنات البديعية»[1].

أما في الحجاز فقد استمرت الرسالة العلمية التي يشعّها الحرمان الشريفان، فما تنقطع أبدًا؛ بل إن الروح المبشرة بالعزة والمهيبة بورثة التراث الديني واللغوي العظيمين كانت تنطلق من كنف الحرمين؛ من علمائهما وشيوخهما، ولكن أسباب الجمود والتأخر قد تكالبت جميعها على إضعاف اللسان العربي المبين في الحجاز، فوهنت تلك المهج الموهوبة عن البوح الشجي الأخّاذ، وكل النغم المغرد، فما عاد يطرب مثلما كان في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة، حين كان الشداة من طلاب العربية، والمولعون بالسماع والحفظ يقصدونه للأخذ عن أعرابه وسماع علمائه.

فاقتصر البيان في الحجاز ـ إبان الفترة العثمانية وقبلها المملوكية ـــ على المراسلات المتكلفة المصنوعة، وعلى احتذاء أساليب المقلدين في عصور الانحطاط[2].

---

(١) د. عبدالله أبو داهش : «أثر دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في الفكر والأدب بجنوبي الجزيرة العربية «مكتبة الحكمة ـــ الرياض، طـ١، ١٤٠٥هـ، ص ٢٢٣.

(٢) ويعتقد د. إبراهيم الفوزان في كتابه «الأدب الحجازي الحديث بين التقليد والتجديد» جـ١ ص ٨٩ «أن الأدب قد ازدهر في الحجاز في القرن الحادي عشر»، ويقول : «إن هذا العصر أتهم أدبه بالضياع والموت، ممن سهل عليه تشويه تراث الأمة العربية عن قصد مرة، وعن سذاجة مرات» ص ٨٠.

ومن الإنصاف أن يتجرد الناقد في نظره إلى ما بين يديه من نصوص عليها المعوّل في الحكم على ذلك العصر، وليس من اليسير أن نقول ما يعتقده الفوزان، ونضرب صفحاً عن الركاكة والغلو في الصنعة، وتوقف الروح الإبداعية في معظم ما وصل إلينا في هذا العصر من ذلك الأدب، وليس من العدل أيضاً أن نتجاهل حسن بعضهم شعراً أو نثراً، لكن هذا الحسن القليل لا يبرىء ساحة ذلك الأدب من الالتواء والضعف والغثاثة.

ولعل الفوزان أراد في حكمه هذا الشعر في الحجاز في القرن الحادي عشر الهجري، حيث كان الشعر إذ ذاك في منزلة ربما فضلت منزلة الشعر في كثير من البلاد العربية في ذلك الزمان.

انظر : د. عايض الردادي، الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر (١٥٩١ـــ١٦٨٨م)، مكتبة المدني، جدة، طـ١، ١٤٠٤هـ.

ولأضرب مثلًا على التزام السجع في الفقرات الكتابية، دون مزاوجة، ولا إخلال، وطلب الجناس، والسعي إلى التورية والكتابة برسالة كتبها الشاعر جعفر البيتي[1] (١١١٠ ــ ١١٨٢هـ) إلى الخطيب محمد أبي الخير المدني سنة ١١٤٠هـ يشكو له حظه العاثر، ويعتب على نفسه حين طاوعها فاشتغل بالأدب، فهي رسالة شكوى وإفضاء وعتاب، لو أن كاتبها انطلق من ضيق التقفية وإيثار اللفظ المسجوع إلى ما هو أوسع وأرحب في ميادين الكتابة النثرية، لاستوعب النص قلق الكاتب وتبرّمه وشكواه، يقول :

«.. وأخوك قد أساء الزمن إليه، وعرض خصلتي الضبع عليه، أتراني أعاف الإكرام لو وجدت الكرام، وأقل المقام، ولكن لو ترك القطا المنام.

لم الليالي التي أخنت على جدتي   برقة الحال واعذرني ولا تلم

ثم أعود فأقول : ما أكسد الأدب الذي ذكرت، وأطنبت فيه بما قدرت، وليست سلسلة النسب من حبائل النشب، ولا نسخ الأدب من فخوخ الذهب، وماذا حصل للخليل، بالبسيط والطويل، وهل أفطر على القصيد، من بحر المديد، وأشرف على المطالب، من فعول المتقارب، فليس من المفروض، علم العروض، ولا من المسنون الاشتغال بهذه الفنون.

لا تطلبن بآلة لك رفعة   قلم البليغ بغير حظ مغزل

فما أضعف قواعد الإعراب عن ملي الجراب، وأضيع دلائل الإعجاز في حانوت البزاز، وأقذر زهر الآداب، وآداب الكتّاب، إذا ما عرضا على القصاب. ولم أسمع بأنساب قريش أنه تلي في ترميق العيش، ولا أن كتاب الكامل عمل

---

(١) انظر ترجمته في الأعلام للزركلي مجلد ٢، ص ١٢٩، ومجلة المنهل، جمادى الثانية ١٣٥٧هـ، وربيع الثاني ١٣٥٨هـ، مقالتان لعبدالقدوس الأنصاري و «الشعر في الجزيرة العربية» خلال قرنين «لعبدالله الحامد»، ص٢٤١.

من أبرز آثار البيتي «مواسم الأدب وآثار العجم والعرب» طبع في مجلدين عام ١٣٣٦هـ وهو جعفر بن محمد باعلوي البيتي السقافي شاعر، من أهل المدينة، تولى كتابة الشريف ووزارته، وتوفي بالمدينة (١١١٠ــ١١٨٢) هـ.

في تحريك العوامل. وإذا طلبت البرهان، وشئت أن ترى العيان فخذ أخبار الزمان، وقلائد العقيان، والسير والغزوات، وجميع كتب الطبقات، وشرح المعلقات وهلم بالفلك المشحون، في القبائل والبطون، ومعها أجزاء الأغاني، وديوان ابن هاني، وما انتظم من هذه المعاني، ثم تفسح في المجالس، وأوجل من تلك العرايس، وأنت كسحبان وائل، وبيان عمرو وواصل، فإن توصلت إلى طفيف من ثوب أو رغيف، فاصنع ماشئت، واهجرني ما حييت، فلست بالمميز على عبدالله بن المعتز، حين أدركته حرفة الأدب، فوقع في العطب، ولا كشيخ ربيعة الفرس، وقد رمي بالهوس، فأهون في الزمان، بعلامة همدان، ومثله من الأعيان، وأي فضل في شعر لا يوقد تحت القدر، ولا يقاوم ثمن الحبر، ولو كان من الحكمة والسحر.

لا خير في أدب فردًا بلا ذهب فليس ينفق في شيء من الزيت
فقل عن الكيس لا الأكياس كيف تشا واسأل عن الحظ لا تسأل عن البيتي

وطالما قمت في الأسحار، وصدرت الدعاء بالاستغفار، وأنا أسأل الكفاف، لأحوز العفاف، فلا أعرض حرّ الأديم إلى لئيم، ولا أعمل حيل الالتماس، لما في أيدي الناس، وإلى الآن ما أنجح الرجاء، ولا استجيب الدعاء، حتى كأنه دعاء أبي جعفر، حين سئم من أزهر، وقد سلمت القياد للأمر، وانتظرت الفرج بالصبر.

علما بأن اصطباري معقب فرجا وأضيق الأمر إن فكرت أوسعه»[1]

---

(١) انظر ديوان جعفر البيتي، مخطوط، مكتبة طوبقبوسراسي، برقم ٤١، الورقات ١١،١٢،١٣،١٤،١٥.

ونقله الدكتور محمد الشامخ في كتابه «النثر الأدبي في المملكة العربية السعودية» ص ١٧، ط٣، ١٤٠٣هـ، دار العلوم.

ثانيًا ــ الدعوة السلفية وأثرها في النثر :

في منتصف القرن الثاني عشر الهجري أعلن الشيخ محمد بن عبدالوهاب[(١)] دعوته، وهي الرجوع إلى الأصول الثابتة، والاحتكام إلى الشرع المطهر في جميع شئون الحياة، وتنزيه الخالق عمّا لا يليق به، ونفي جميع ما يؤدي إلى الإشراك بالله؛ من دعاء الأولياء، وتقديس العبّاد، والتقرب إلى الله بموالاة الصالحين موالاة تبعد المتقربين عن التوحيد، وتدخلهم في حظيرة الشرك.

وقد قدمتُ أن بلاد نجد ــ بخاصة ــ كانت مهملة من لدن ولاة الأمر، من القرن الثاني إلى قيام الدعوة السلفية، منقطعة في الأخبار عن محافل الأدب، ومواضع الإثراء المعرفي، سوى ما يعود به بعض الطلبة النجديين من رحلاتهم العلمية إلى بغداد ودمشق[(٢)]، ومصر، من علوم في الدين، والكلام، واللغة،

---

(١) محمد بن عبدالوهاب بن سليمان بن علي بن أحمد بن راشد بن بريد بن محمد بن بريد بن مشرف التميمي، ولد في العيينة سنة ١١١٥هـ، وحفظ القرآن الكريم وهو في العاشرة من عمره، ثم شرع في دراسة العلوم الشرعية الأخرى، وأصبح متنقلاً بين مراكز العلم في العراق والمدينة، ومدن نجد، ثم أعلن دعوته فصار زعيماً من زعماء الاصلاح الديني ــ من كتبه : كتاب التوحيد، كشف الشبهات، الأصول الثلاثة وأدلتها، كتاب الكبائر. وقد توفي سنة ١٢٠٦هـ (راجع : روضة الناظرين، جـ٢، ص١٦٦ــ١٧٦، وعلماء نجد خلال ستة قرون، جـ١، ص ٢٥ــ٤٨).

وقد ألفت كتب كثيرة عن حياة هذا المصلح الديني، عربية وأجنبية، لعل من أهمها :

ــ الشيخ محمد بن عبدالوهاب حياته وفكره، د. عبدالله الصالح العثيمين، ط٢، دار العلوم، الرياض، ١٤٠٦هـ.

ــ سيرة الامام محمد بن عبدالوهاب، أمين سعيد، شركة الصحافة بمكة، وشركة التوزيع العربية بيروت، طـ١، ١٣٨٢هـ.

ــ محمد بن عبدالوهاب، أحمد عبدالغفور عطار، بيروت، دار القلم، طـ٣.

ــ تاريخ نجد المعروف بـ «روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوات ذوي الإسلام»، حسين بن غنام، تحقيق د. ناصر الدين الأسد، طـ٢، ١٤٠٥هـ. دار الشروق، بيروت، وقد ألحق به بعض رسائل الامام وفتاواه.

(٢) جاء في كتاب «منادمة الأطلال»، أن المدرسة العمرية كانت خزائنها مليئة بالكتب، وقد كان بها خزانة كبيرة لا نظير لها، فلعبت بها أيدي المختلسين، إلى أن أتى بعض الطلبة النجديين فسرق منها خمسة أحمال جمل من الكتب وفر بها ص ٢٤٤، والمؤلف هو عبدالقادر بدران، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الاسلامي، طـ٢، ١٤٠٥هـ.

ويفهم من حديث المؤلف عن باني المدرسة أنها أنشئت في القرن الثامن الهجري.

والفلك، والهيئة، ينشرون مثل هذه العلوم، ويقيمون بها حلقًا للدرس والتعليم في المساجد والمدارس، ودور هؤلاء العلماء والمتفقهين، وكل ذلك بجهد فردي لا تعين على القيام به سلطة حكومية، إذ يقتسم أمراء القبائل والنافذون أقاليم المنطقة، ومدنها الصغيرة، وقراها على نظام قبلي متآكل، فلا يلتفتون إلى خطر التعليم، ولا يتنبهون إلى ضروراته الملحة.

وابن عبدالوهاب حين أعلن هذه الدعوة أراد نفض ما علا مسائل الدين من غبار الانحرافات التي تراكمت عليها عبر الأزمنة الطويلة، فهو يعتقد أن صلاح الدين فيه صلاح لكل شيء، وأن المعّول عليه في هذه الحياة هو إقامة الشرع الشريف، وتحكيم كتاب الله، وأنه لا بد من إخلاص العبودية لله وحده[1]، والرجوع إلى سيرة السلف الصالح، وفقه الأئمة الأربعة، وإصلاح ما علق بالاجتهاد والتقليد من مفاهيم خاطئة[2].

فلم يكن من أهدافه الأولى أن يعتني بالمذاهب اللغوية، أو أن يحفل بشأن الأدب، فالشيخ هنا مصلح ديني لا لغوي، ولا أديب، ولذا لم يلتفت إلى شيء من الأجناس الأدبية خلا الخطابة، التي اتخذ منها سلاحًا في دعوته، فأدرك منها مبلغًا حسنًا، ثم الرسالة التي لم تكن في فصاحتها ورصانتها كخطبه، ولكنها أفضل بكثير من رسائل زمانه.

فالذين يقرنون بداية النهضة في الجزيرة العربية بدعوة الإمام الدينية يلحظون

---

(١) انظر رسالة الإمام إلى أحمد بن محمد العديلي البكيلي، أحد أمراء اليمن، الدرر السنية في الأجوبة النجدية، لجامعه عبدالرحمن بن قاسم، جـ١، ص ٦٢، طـ٢، ١٣٨٥هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

ورسالته أيضاً إلى عبدالله بن محمد بن عبداللطيف، المرجع السابق، جـ١ ص ٣١.

(٢) انظر رسالته المعنونة بـ «إلى من يصل إليه من المسلمين»، الدرر السنية، جـ١، ص ٤٦، ورسالة للشيخ عبدالله بن الامام محمد بن عبدالوهاب (كتبها بعد دخول معشر الموحدين مكة المكرمة مع الامام سعود رحمه الله سنة ١٢١٨هـ، جواباً لمن سأله عما يعتقدونه ويدينون لله به)، وهي رسالة طويلة شاملة، طالعها في كتاب «الامام الشيخ محمد بن عبدالوهاب في التاريخ»، عبدالله بن سعد الرويشد، مكتبة عيسى البابي الحلبي، مصر، لم يذكر رقم الطبعة، ١٣٩٢هـ، جـ١، ص ١١٨ــ١٣٩، وقد بحثت عن هذه الرسالة في الدرر، فلم أجدها.

ما طرأ على بعض الفنون من نشاط نسبي[١]، والحق أن النهضة لم تنشط بإعلان ابن عبدالوهاب دعوته ـــ وإن ساعد على التبكير بها، وكان أحد أسبابها الفاعلة ـــ ولكنها ابتدأت نشطة قوية عنيفة في عهد عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود[٢]، وانفتاحه على المعارف العامة، وعلى الحياة المدنية، واستقرار المفهوم الديني المستنير لديه، وأخذه بأسباب النهضة أخذًا قويًا.

ولست معنيًا ببحث هذه المسألة قدر عنايتي بالوقوف على مستوى الكتابة النثرية في ذلك العهد، وأثر الدعوة السلفية فيه.

وقد كان أثرها محدودًا في جوانب من التجديد الأسلوبي[٣]، فلم يعد السجع ملتزمًا التزامًا كاملًا، وإن كان المنشئون والكتبة يحبذونه، ولا تخلو منه رسائلهم، وخف ذلك الغلو في استخدام المحسنات، وكثر الاستشهاد بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة فكانت الرسائل والكتب الصغيرة تحشى بالاقتباس والنقول حشوًا يفسد على قارئها متعة الترسل، وتتبع فكرة الكاتب[٤].

ولم يتبين أثرها كثيرًا في العناية باستعمال اللغة استعمالًا صحيحًا، أو الابتعاد عن العامية، والعبارات المرذولة، فما ارتفع الكتاب كثيرًا عن الاستخدام العامي،

---

(١) يرى د. إبراهيم الفوزان أن رجال الدعوة السلفية «لم يقصروا دعوتهم على تجديد الإسلام بل دعوا إلى العودة إلى إحياء سائر التراث العربي ومحاكاته من شعر ونثر»، الأدب الحجازي الحديث بين التقليد والتجديد، جـ١، ص ١١٦، ويرى د. عمر عبدالعزيز عمر «أن الدعوة الوهابية (يعني السلفية) قد أحدثت نوعاً من اليقظة الفكرية كان العرب والمسلمون في أشد الحاجة إليها، بعد هذا الجمود الفكري الذي سيطر عليهم فترة طويلة.

انظر : تاريخ المشرق العربي، (١٥١٦ــ١٩٢٢م)، دار النهضة العربية، بيروت، ص ٤١٣، ولم تذكر سنة الطباعة.

(٢) ويذهب إلى هذا الرأي أيضاً د. محمد بن سعد بن حسين حيث يقول :
«إن النهضة الفعلية إنما بدأت في بداية فترة توحيد المملكة، أي بعد عام ١٣٤٤هـ، الأدب الحديث في نجد ٢٧٩.

(٣) انظر : الأدب الحديث ص ٢٧٣.. لم تكن النهضة الأدبية من الأهداف الأولى للشيخ الامام.. د. محمد بن سعد بن حسين.

(٤) انظر: الشعر في الجزيرة العربية خلال قرنين، ص ٧٥، دار الكتاب العربي، د. عبدالله الحامد.

ولا ابتعدوا عن الإحساس بمخاطبة الأمين على أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب تحرر من قيد السجع في كثير من رسائله، ونحا إلى السهولة، وكأنه يملي تلك الرسائل على عجل، تحقيقًا لمطلب، وإجابة لسؤال، وردًا لتهمة، فما كان يميل إلى التزويق والتحسين الأسلوبي، وإن هو أراد ذلك في قليل مما كتب، فلا يتعدى حدود السجعات المتوارثة، وخاصة في مقدمة الرسالة، كقوله : «من محمد بن عبدالوهاب إلى العلماء الأعلام في بلد الله الحرام، نصر الله بهم دين سيد الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام، وتابعي الأئمة الأعلام»[١]. ثم يأخذ في إيضاح ما يريد دون أن يخضع للأسلوب التقليدي.

ومثل ذلك رسالته التي بعثها إلى المسلمين بعامة، فهو يبدأ بكلمات قليلة مسجوعة : «إلى من يصل إليه من المسلمين هدانا الله وإياهم لدينه القويم، وسلوك صراطه المستقيم، ورزقنا وإياهم ملة الخليلين محمد وإبراهيم، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته (أما بعد) :»[٢] ثم يفضي إلى تبيان ما يريد في انطلاق من القيد اللفظي، وابتعاد عن الصنعة.

ولا شك أن أسلوب الشيخ في أكثره يميل إلى الترسل السهل، ويخلو من التعقيد، ولولا ميله إلى الاستشهاد رغبة في الإقناع، وانصرافه أساسًا عن التجويد الأدبي إلى التركيز على إبراز الفكرة بالوسائل المساعدة على إبانتها، وبما يعقله ويقبله من حوله؛ لولا ذلك كله لكان الشيخ في كتابته أظهر مترسل في منتصف القرن الثاني عشر، وزعيمًا يقتدى به في هذا الشأن الأدبي.

ولذلك لا يمكن أن نعد من بداية المقالة الأدبية تلك الرسائل التي كتبها الإمام وأصحابه، أو من جاء بعدهم نتيجة لما ذكرت ولإكبابهم «على المتون، واهتمامهم بالجدل، وامتطائهم الشعر للنقاش العقيدي، وذلك يضاف طبعًا إلى أن ثقافتهم الأدبية لم تكن موازنة لثقافتهم العلمية والدينية»[٣].

---

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جـ١، ص ٤٢.

(٢) المرجع السابق، جـ١، ص ٢٨.

(٣) د. عبدالله الحامد، الشعر في الجزيرة العربية خلال قرنين، ص ٤١٣.

ولعل بداية التجديد الأسلوبي كانت على يد الشيخ الإمام ثم انقطعت فيمن حوله ومن بعده إلى أن جاء الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن[١] سنة ١٢٦٤هـ فعاود تحرير الأسلوب من أثقاله السجعية، واتخذ له مذهبًا في الكتابة جديدًا، ساعده في ذلك اطلاعه على ثقافة بعض المصريين إبّان إقامته في مصر، وتنوع مصادر معرفته، وأمّا الفترات التي تلته «فقد بقيت نجد قفرًا من الكتابة الفنية خلاء من فنونها وبدائعها حتى نهاية الستينات من هذا القرن حيث بدأت طلائعها تطل في شحوب وضمور شأن كل فن يبدأ من عدم مهين»[٢].

وأبرز ما يشين الكتابة الفنية الممثلة في الرسائل آنذاك ميلها إلى العامية في الأعم الأغلب، فابن عبدالوهاب يقول ضمن رسالة إلى عبدالله بن عيسى وعبدالوهاب : «وبالحاضر لا يخفاكم أن معي غيظ عظيم ومضايقة من زعلكم، وأنتم تعلمون أن رضا الله ألزم»[٣]. وقوله : «الذي يعلم به سليمان بن سحيم أنك زعجت قرطاسة فيها عجائب، فإن كان هذا قدر فهمك، فهذا من أفسد الأفهام، وإن كنت تلبس به على الجهّال فما أنت برابح»[٤]، ويقول : «وأنا أنصحكم وأنخاكم»[٥]. «وأما ابن عبداللطيف وابن عفالق وابن مطلق فحشو زبيل»[٦]، «وأنا إلى الآن ما تحققت ذلك وأهوجس فيه بالهاجوس الجيد، وذكر أيضًا عنه بعض الناس بعض الكلام الذي يشوش الخاطر»[٧].

ويمكن أن يجد الباحث في أدب الرسائل ـ القريب من فن المقالة ـ ملامح

---

(١) هو الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ولد في مدينة الدرعية عام ١٢٢٥هـ، كانت أوقاته بين التأليف والرد على المبطلين، من مؤلفاته : «رد على داود بن جرجيس»ورد «الشبهات الفارسية» وقد توفي في الرياض عام ١٢٩٣هـ.

انظر ترجمته : روضة الناظرين جـ١ ص ٣٠٣، وعلماء نجد خلال ستة قرون، جـ١ ص ٦٣.

(٢) د. محمد بن سعد بن حسين : الأدب الحديث في نجد، الفجالة، ط١، ١٣٩١هـ، ص ٢١١.

(٣) انظر : تاريخ نجد لحسين بن غنام، والرسائل الملحقة به، ص ٣٢٨.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٩٩ من رسالة إلى سليمان بن سحيم، وكان من المناوئين للدعوة.

(٥) المرجع السابق ص ٣١٦، من رسالة إلى عموم المسلمين.

(٦) المرجع السابق ص ٣٣٧، من رسالة إلى أحمد بن إبراهيم مطوع مرات.

(٧) المرجع السابق ص ٣٥٧، من رسالة إلى عبدالوهاب بن عبدالله بن عيسى.

أسلوبية متميزة في ذلك العصر، لو أمكن الاطلاع على جميع ما كتب من تلك الرسائل، وبخاصة الذاتي منها، أو ما اتخذ جانب إقناع الخصوم إقناعًا ذاتيًّا بعيدًا عن النقول العلمية المفسدة للتدفق والترسل الكتابيين.

وخير ما يمكن أن يوجد من الخصائص الفنية في رسائل الشيخ ورسائل خصومه[1]، وما أثارته الدعوة من بعد من مسائل جديدة، تستدعي الكتابة إثر الكتابة، والجدل المستمر «فقد أضحى هذا البيان مجالًا تبرز من خلاله الأوضاع الدينية والاجتماعية التي كان عليها الناس في مجتمعاتهم خلال تلك الفترة»[2]؛ ولكن النثر في سماته العامة لم يستطع أن يتخلص في بعضه من الركاكة الأسلوبية والضعف اللغوي، والعامية المتفشية في الفترات التي تلت هذه الدعوة إلى ما قبل

(١) من أبرز خصوم الشيخ ودعوته :

ـــ أحمد زيني دحلان، وقد كتب : «خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام من زمن النبي عليه الصلاة والسلام إلى وقتنا الحاضر بالتمام» طبع في القاهرة سنة ١٣٠٥هـ.

وكتب «الدرر السنية في الرد على الوهابية». طبع في القاهرة سنة ١٣٠٢هـ.

انظر ترجمته في : معجم المطبوعات السعودية جـ١ ص ٢٦١، ومعجم المؤلفين، لكحالة، ج١ ص ٢٢٩.

ـــ محمد عبدالرحمن عفاليق : ترجمته في معجم المطبوعات السعودية جـ٢ ص ٣٠٠.

ـــ سليمان بن عبدالوهاب. وهو أخ للشيخ، ترجمته : معجم المطبوعات السعودية، جـ١ ص ٤٤٨، وعلماء نجد خلال ستة قرون جـ١ ص ٣٠٢، ومعجم المؤلفين جـ٤، ص ٢٦٩، ألف كتاب «الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية» طبع في بمبي سنة ١٣٠٦هـ.

ـــ علوي بن أحمد بن حسن بن عبدالله بن علوي الحداد.. وله كتاب في معارضة الدعوة اسمه : «مصباح الأنام وجلاء الظلام في رد شبهات البدعي النجدي الذي أضل بها العوام» طبع عام ١٣٢٥هـ. وله ديوان مخطوط بعنوان : «الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم» مكتبة عارف حكمت بالمدينة. ولم أجد له في الأعلام، ولا في علماء نجد، ولا في معجم المطبوعات ولا في روضة الناظرين ترجمة..، انظر «الشيخ محمد بن عبدالوهاب حياته وفكره» د. عبدالله العثيمين.

ـــ عثمان بن منصور : وله كتاب «كشف الغمة في الرد على من كفر الأمة، سب فيه أئمة الدعوة، ومدح داود بن جرجيس أحد خصومها. انظر ترجمته في روضة الناظرين ٧٦/٢، وعلماء نجد جـ٣ ص ٦٩٣.

ـــ مربد بن أحمد، ترجمته في علماء نجد لابن بسام جـ٣ ص ٩٤٧.

ـــ محمد بن فيروز : ترجمته في روضة الناظرين جـ٢، ص ١٧٦، علماء نجد جـ٣ ص ٨٨٢.

(٢) د. عبدالله أبو داهش : أثر دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ص ٢٨٠.

النهضة بقليل، سواء في الكتابة الفنية، أم الكتابة التأريخية، فهذا عثمان بن بشر[١] يكتب تاريخه دون تنبه لواجبات الصوغ الأسلوبي الحسن، فيعرض لتعبيرات لا يرتاح لها إلا الأميون، وكذلك صاحب كتاب «الدر الفاخر في أخبار العرب الأواخر»[٢]، أو «تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد»[٣].

وقد كان من الآثار الحسنة لليقظة الدينية، ما استفاده الأدباء من ألفاظ جديدة، ومفهومات لم تكن حاضرة من قبل، فدخل كل ذلك في أسلوب الكتابة النثرية، وانطلق الترسل بعض انطلاق، وبخاصة في الاخوانيات، والعتاب[٤]، والشكوى، ويبرز لدى عدد من أدباء الجنوب في الأخص[٥]، وبعض أدباء منطقة الحجاز[٦].

ولكن سمة النثر التقليدية المصاحبة له منذ أن كبا بعد المدرسة البيانية الأولى

---

(١) يكثر لديه مثل هذا التعبير «ثم جاء في الصيف سيل عظيم أشفقوا منه أهل البلدان» على لغة أكلوني البراغيث. انظر : عنوان «المجد في تاريخ نجد» جزءان، مكتبة الرياض الحديثة، ولم تذكر سنة الطباعة.

أما ابن بشر فانظر ترجمته في : علماء نجد لابن بسام جـ٣ ص ٧٠٠ وروضة الناظرين جـ٢ ص ٨٢.

(٢) مؤلفه محمد البسام التميمي النجدي (١٢٤٦هـ)، حقق الكتاب سعود بن غانم العجمي، طـ١، ١٤٠١هـ، ولم يذكر مكان الطبع.

(٣) مؤلفه إبراهيم بن صالح بن عيسى، منشورات دار اليمامة، الرياض، ط ١، ١٣٨٦هـ.

(٤) يتمثل هذا رسالة كتبها محمد بن أحمد الحفظي بالسماح له بالعودة إلى بلدة رجال ألمع. يرجع إلى الرسالة في : أثر دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، لأبي داهش ص ٣٣٨. ورسالة من عايض بن مرعي سنة ١٢٦٤هـ إلى الحسن الحسني بالمخلاف السليماني. راجع أثر الدعوة، لأبي داهش ص ٢٤٨.

(٥) يقول د. عبدالله أبو داهش : «وإلى جانب ما تتسم به الرسائل الإخوانية في هذا العهد من ملامح الصدق النفسي والشعور الذاتي اتصفت من بعد ذلك بعلامات اليقظة السلفية والروح العملية» أثر الدعوة، ص ٢٥٧.

(٦) مثل أبي بكر خوقير في «مسامرة الضيف بمفاخرة الشتاء والصيف» بيروت، ١٣٣٠هـ. وهي أشبه بالمقامة، من حيث السجع والجزالة اللفظية.

يقول الدكتور «الفوزان» ونحن نجد أن الدعوة الوهابية كانت من أهم أسباب قيام الشعور واليقظة لدى أدباء البعث في الحجاز. الأدب الحجازي جـ١ ص ١١٨.

في القرن الرابع ظلت لا تفارقه، فيندر أن نجد نصًا منطلقًا من السجع حرًا من التقييد اللفظي المنغم بحرف واحد يشبه قافية الشعر، ما خلا بعض كتابة الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن آل الشيخ، وقبله الإمام محمد بن عبدالوهاب، وإن كان يكتب في غير اجتهاد ولا حرص على التجويد[١].

بل إن بعضًا من علماء الدعوة قد لزم الأسلوب المتكلف، ووقع في أسر المحسنات التي سيطرت على كتابة العصور المتخلفة، وأظهر ما يكون ذلك التصنع والجفاف في أسلوب سليمان بن سحمان[٢]، على الرغم من إدراكه شيئًا من بداية النشاط العلمي قبل منتصف القرن الرابع عشر الهجري، وخير ما يدل على أسلوبه كتبه في الردود ــ بخاصة ــ، الأسنة الحداد في رد شبهات علي الحداد[٣]، الضياء الشارق في رد شبهات الماذق المارق[٤]. والملحوظ هنا أيضًا التزام التقفية تأسيًا بالمدرسة القديمة في التأليف.

ولم يخل جهد معظم العلماء من آثار التقليد، فيقعون في المغالاة اللفظية كما فعل ابن سحمان، أو التساهل في قبول كثير من اللفظ العامي، وقلة الاحتفاء بالأسلوب العربي الفصيح، كما فعل حسين بن غنام[٥] في كتابه «روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام»[٦] وولعه بالسجع.

---

(١) ولكن أسلوبه يكون أكثر جمالاً وإشراقاً في حالة المناظرة، ودفع التهمة، لأنه يتحدث عن ذاته بصدق وتدفق بعيداً عن الأسلوب العلمي، انظر مثلاً رسائله إلى عبدالله بن سحيم (مطوع المجمعة) في الرسائل التي جمعها عبدالرحمن بن قاسم في كتابه (الدرر السنية في الأجوبة النجدية). السابق ذكره، جـ١.

(٢) هو سليمان بن سحمان بن مصلح بن حمدان النجدي (١٢٦٨ــ١٣٤٩هـ)، ولد في أبها، ثم انتقل مع أبيه إلى الرياض أيام فيصل بن تركي، فتلقى عن علمائها التوحيد والفقه واللغة، تفرغ للعلم، وعني بالردود، من كتبه : الصواعق المرسلة الشهابية على الشبه الداحضة الشامية، الرد على من أنكر الجهر بالذكر بعد الفرائض. انظر الأعلام جـ٣ ص ١٢٦.

(٣) طبع في المطبعة المصطفوية بمبي، وطبع في مطابع الرياض، ١٣٧٦هـ.

(٤) طبع في القاهرة، مطبعة المنار، ١٣٤٤هـ، ط١.

(٥) هو حسين بن أبي بكر بن غنام الأحسائي، ولد ببلدة المبرز بالأحساء، وأخذ العلم عن مشايخها، وصار عالمها وأديبها. توفي عام ١٢٢٥هـ. انظر معجم المطبوعات، جـ١، ص ٣٦٠.

(٦) الطبعة الأولى منه كانت في بمبي، الهند، المطبعة المصطفوية ١٣٣٧هـ، في جزئين وطبع في القاهرة

ولم يكسر الكتاب قيود السجع إلا بعد دخول الصحافة إلى البلاد[١]، وتفاعل قدرات وعقول الشبيبة بما يقرأون من صحف وكتب، وما اشتملت عليه من آداب ومعارف، أما قبلها فقد انكبّ الناثرون على التبارز اللفظي كصنيع الشيخ محمد نووي في كتابه المسمى «سلالم الفضلاء على المنظومة المسماة هداية الأذكياء إلى طريق الأولياء»[٢]، والشيخ بكري محمد شطا في كتابه «كفاية الأتقياء ومنهاج الأصفياء على المنظومة المسماة بهداية الأذكياء إلى طريق الأولياء»[٣].

ولم تخل الكتابة السياسية من ذلك القيد، على أنها تميل إلى الوضوح وسهولة الأسلوب، لكن تطلب التنغيم يحول دون الترسل الحر، فهذا عبدالله بن سعود[٤] يكتب رسالة إلى محمد علي، يقول فيها :

«حمدًا لمن أحى غراس المواصلة بوابل هتان من المكاتبة والمراسلة، وأحاط به مادة المقاطعة والمفاصلة، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف من أرسله، وعلى آله وصحبه الذين بلغوا من صحبته ومحبته غاية المنزلة.

إلى من شرفت به الدولة المرعية والرتب العلية حتى صار ملهج لسانها، فحل من عينها مكان إنسانها، فريد مصره، ووحيد قطره، ...

بعد التسليمات الوافرة، والتحيات المتكاثرة، ننهي إليكم أدام الله سبحانه

ـــ شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٦٨هـ، وكتب عليه ط١، في جزئين. وطبع في القاهرة أيضاً بتحقيق د. ناصر الدين الأسد. مضافاً إليه بعض الرسائل والفتاوى. انظر : معجم المطبوعات، جـ١، ص ٣٦٢.

(١) عام ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م) حيث صدرت جريدة «حجاز» مكة المكرمة، وسأعرض لذلك في الصفحات التالية.

(٢) طبع في القاهرة عام ١٣٠١هـ، راجع، معجم المطبوعات السعودية، جـ٢، ص ٤٠٥.

(٣) طبع في القاهرة عام ١٣٠٢هـ.

(٤) عبدالله بن سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود، من أمراء نجد، وليها بعد وفاة أبيه سنة ١٢٢٩هـ، ونازعه أخوه فيصل بن سعود فضعفت شوكته، وحاربته جيوش العثمانيين القادمة من مصر، وتغلب عليه قائدها إبراهيم «باشا» «فطلب الصلح» وقتل في استانبول سنة ١٢٣٤هـ. انظر : الاعلام، للزركلي، جـ٤، ص ٨٩.

سوابغ نعمه عليكم، أنه قد وصل إلينا كتابكم وفهمنا ما تضمنه خطابكم، فوقفنا على معانيه، وعرفنا المصرح به والمشار إليه فيه، وما ذكرتم من القبول لما انبرم من أمر الصلح إن كان ما قلنا حقًا وما حررناه محكمًا وصدقًا، فنحن بحمد الله للمكر والخديعة مجانبون، وللصدق والوفاء بالعهد معاملون ..»[١] وبعد أن ينتهي من الرسالة يتعمد أن يكون اسمه مسجوعًا فيكون التذييل بعد الختم : الواثق بالله المعبود عبدالله بن سعود.

ولم تكن الرسائل الاخوانية بأقل من غيرها في اتباع هذا المذهب الزخرفي، فكانوا يتبارون في ميدان الفخم الموقع، وبالمتأنق المصطنع، أيهم يجيء به فلا تكون الرسالة بعدئذ غير نسج من اللفظ خال من حرارة المعنى، وإشعاع الفكرة، ويحسن أن أختم الحديث عن هذا الخواء الإبداعي بهذا النص لأحد الناثرين من أبناء ذلك الزمان، وقد اصطبغ هذا النص بآثار القديم من الموروث، جامعًا بين اللفظ القوي، والسبك التقليدي المعتاد في مدرسة النثر المتأخرة آنذاك، فهو يلخص في أسلوبه ما وصل إليه الاجتهاد في النحت والتكوين الإنشائي، وكيف أن الابتكار قد توقف عند هذه الايماءات البلاغية، والإشارات الخفيفة إلى ما تحصل عليه الكاتب من أنواع المعارف اللغوية وغيرها.

يقول عبدالعزيز بن عبداللطيف آل مبارك[٢] كاتبًا إلى عمّه :

«حضرة حديقة العلم الناضرة وحديقة الفضل الناظرة، من له في الأدب قدم وقدم، وفي ابتناء المجد همّ وهمم، من حلّ الصدور، وحلى الصدور، ولم يضق عليه الورود بعد الصدور، في جميع المقاصد، سيدنا العم الشيخ راشد، أبقاه الله يرشده، ولبيت مجد يشيده، ومنثور سنة ينضده، ومنظوم بدعة يبدده، وحق

---

(١) دار الوثائق القومية ــ القاهرة، محفظة ٤، رقمها في وحدة الحفظ ٩، تاريخها ٢٩ صفر دون أن يذكر السنة، ويرجح أن تكون سنة ١٢٣١هـ، كونها في الفترة التي سبقت مجيء إبراهيم باشا إلى الحجاز ونجد سنة ١٢٣٣هـ، ونقل هذه الوثيقة عبدالله بن خميس في كتابه «الدرعية العاصمة الأولى»، ط١، ١٤٠٢هـ، مطابع الفرزدق، الرياض، ملحق الوثائق، ص ٤.

(٢) ت ١٣٤٣هـ، ترجمته في معجم المطبوعات العربية، المملكة العربية السعودية ص ٥٩٦، د. علي جواد الطاهر.

يؤيده، وحسود يكمده، أولًا نهنئكم بإكمال هذا الشهر الشريف، وبلوغ هذا العيد المنيف، تقبل الله من الكل صالح الأعمال، وأعاده على الجميع في أحسن حال، ثم أنهي سلامًا أهنأ من تعاطي راح العتاب براح القبول، وثناء تفتر عن صدق الولاء ثغوره، وتفتق عن مثل اللآلي زهوره، ودعاءً لكل خير شامل، وسؤالًا في حلل الاحترام رافل، وأشعركم أن المملوك بحمد الله الملك الأعلى، في نعم لا يحيط بها الإملاء، فمن أعظمها ورد محرركم الأعطر، المؤرخ رمضان الأزهر، فأسرنا اعتدال ذلك المزاج الأنور، بلّغه الله ما يرجو ووقاه ما يحذر، فلله هذا الكتاب ما أورق عباراته، وأرقّ إشاراته، وأوضح صريحه، وأملح تلميحه، فبمهجتي فكرة نمقته، وأنامل رقمته .. »[١].

(١) راجع : شعراء هجر من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر، دار العلوم، الرياض، ١٤٠١هـ هـ، ط٢، د. عبدالفتاح الحلو، ص ١٧١.

ثالثا ـــ بواكير المقالة الأدبية :

يقترن الحديث عن المقالة بالحديث عن الصحافة، من حيث إنها احتضنت المقالة ورعتها وأذاعتها، وقليلون هم أولئك الذين نشروا نتاجهم في كتاب دون أن يقرأه الناس من قبل في صحيفة، لما أتاحته الصحف من فرص الانتشار، واستقبال آراء النقدة والمتابعين، وتهيئة الأسباب الحاثة على الكتابة من إغراء مادي ومعنوي «وربما كانت الصحافة أقوى المؤثرات في كتابة المقالة الحديثة»[١]، ويخرج عن ذلك الحكم، وهو أسبقية النثر في الصحافة ما يشبه المقالة في بعض وجوهها إلا أنه فصول علمية وبحثية، لا تحتملها الصحف السيارة، وقد لا ترحب بها وربما جمعت في كتاب، وأصدرت دون أن يقرأها الناس من قبل في أية مجلة أو صحيفة. وهذه لا تعني الباحث عن المقالة الأدبية الفنية الملتزمة بشروط صناعة النثر الأدبي، والمتصلة بالنفس، وبشخصية كاتبها .. فالمقالة العلمية ليس لها شأن بدوافع الفن ولا مثيرات الكتابة الذاتية.

ويلزم من يريد الإلمام بألوان المقال الأدبي السعودي أن يطلع على تلك الصحف التي نقلته أو ساعدت في نشر بعضه وخاصة القديمة[٢].

والحق أن المقالة الأدبية في بلادنا، وفي الوطن العربي لم توجد إلا مع الصحافة، فبها تغيّر مفهوم الكتابة من كونها تأريخًا ودرسًا، وتحقيقًا علميًّا إلى نزوع فني جديد، سماته مشاركة الجماعة، والخروج من الفردية والإحساس القوي الدافع إلى الكتابة بمسئولية الأديب الوطنية والقومية، وبايجابية ذلك، فالنثر لدينا ـــ وهو في بدايته الأولى من الحجاز ـــ «قد دخل مع قيام الصحافة مرحلة متطورة أقل ما يقال عنها إنها نقلته من قصره على الأفراد إلى مرحلة الجماعات،

---

(١) علي أدهم : مجلة قافلة الزيت، شهر ذي القعدة عام ١٣٨٥هـ ص ١٨ مقال بعنوان : المقالة الصحفية والمقالة الأدبية.

(٢) د. عبدالله علي الحامد، جريدة الرياض، ٣٠ ربيع الأول ١٤٠٨هـ، ٢١ نوفمبر ١٩٨٧م، مقال بعنوان «الصحافة مصدراً أدبياً»، ص ٩، حلقة٢.

أو من مرحلة التخصيص إلى مرحلة التعميم»[١]. والقراءة العامة التي تتسم بها الصحيفة لها ميزات من السهولة غير تلك الكتابة الموجهة إلى المثقفين؛ لذا كان نثر الصحافة الأدبي في بدايته ـــ غير ملتزم بتلك الصفات الثقيلة من الكتابة السجعية والاستعارات والتوريات، على أنه ظل سنوات يبحث عن الأساليب المناسبة التي يتقبلها الناس، وتنجح الصحيفة بها في الوصول إلى القرّاء كافة، ويخرج عن هذا الحكم ماكتب قبل أواخر العقد الرابع من القرن الرابع عشر الهجري.

ومن الواضح أن تلك المحاولات الأولى لكتابة مقالة ترسلية في هيئة رسالة أو تقريظ، أو عتاب لم تكن إلا صورة لتلك العصور، وأسلوبًا من الأساليب الميسرة في ذلك الزمان، ولا يحسن أن نعترف بأن تلك كانت مقالة فنية بالمصطلح السائد الآن لدى الأدباء والنقاد، ولكنها كانت بداية أولى مستمدة من التراث العربي القديم قدرته الترسلية المنطلقة، التي أكّدها الرواد الأوائل في العصرين الأموي والعباسي.

ومن المناسب أن تكون الصحافة بداية حقيقية لبداية نشأة المقال الأدبي، وتنوعه، وتعدد مصادر كتابته[٢]، فهو «ولد مع ولادة الصحافة في بلادنا، ونمى وانتشر، وتنوع مع نموها وانتشارها وتنوعها، فالحديث عن النثر هو بالضرورة حديث عن الصحافة.. ومن هنا رأينا روادنا الأوائل يجمعون بين الصحافة والأدب»[٣].

وقد كان تأثير الصحافة في الأدب قليلًا في العهد التركي، بينما توسع ذلك التأثير في العهد الهاشمي، فالبواكير الأولى للمقالة لم توجد حقيقة في الصحافة

---

(١) د. إبراهيم الفوزان : الأدب الحجازي الحديث بين التقليد والتجديد » جـ١، ص ٢٤٤ بتصرف.

(٢) المقصود ببداية الصحافة هنا بدايتها عربية، أمّا ما كان منها في العهد التركي فلا يعد فيما نرى بداية للصحافة العربية في بلادنا، لضعفها وركاكتها، ولكنها ساعدت على الخروج بالمقالة من التقليدية المحضة إلى السهولة.

(٣) د. منصور الحازمي، مقالة : لمحات من أدبنا السعودي المعاصر » مجلة المنهل، العدد ٤٤٥ المجلد ٤٧ ص ٣٢، العدد السنوي المتخصص، السنة ٥٢، شعبان. وقد كان أحرى بالحازمي أن يستثني من هذا صحافة العهد التركي.

العثمانية، بل ابتدأت معالمها تتبين وتزداد قوة مع تولي المحررين والكتاب العرب المهاجرين صحافة الحجاز الهاشمية.

وللوقوف على ذلك سأعرض للمقالة في العهدين من خلال الصحافة :

١ ــ المقالة في الحجاز في العهد التركي :

لم يكن للحجاز ولا لنجد معرفة بالصحافة من حيث التحرير والكتابة قبل عام ١٣٢٦هـ وقت صدور أول جريدة في مكة المكرمة، إلا أن نفرًا من المهتمين بالاطلاع على المعارف العامة كانوا يراسلون صحفًا مختلفة في بيروت، والاستانة، والقاهرة، وباريس فتأتيه سرًا أو أشبه بالسر، يتناقلها راغبو القراءة من يد ليد، بعد مضي فترة ليست قصيرة على صدورها، لتباعد المدن، وضعف وسائل الاتصال. «كانت تصل إلينا من الاستانة جريدة «الجوائب» المشهورة، وهي التي أنشأها العلامة اللغوي أحمد فارس الشدياق .. وكانت تصل إلينا صحف أخرى من بعض بلاد العرب وبالأخص ماكان يصدر في بيروت كجريدة «بيروت» لصاحبها عبدالقادر الدنّا وكثمرات الفنون للشيخ عبدالقادر القباني وغيرهما» وكنا نتلقى ــ في ظروف «غلافات» مختومة صحفًا عربية تصدر من باريس، كجريدة تركيا الفتاة وما أشبه .. ولما أعلن الدستور في عام ١٣٢٦هـ فتح الباب للصحف المصرية فولجت هذه البلاد بصورة أوسع من ذي قبل، فأصبحنا نطالع «المؤيد» اليومي، و «المؤيد» الأسبوعي، و «الأهرام» و «المقطم»، وسواها»[1].

ولا يمكن اعتبار «سالنامة حجاز»[2] جريدة أو مجلة؛ ذلك لأنها متفاوتة

---

(١) محمد نصيف ــ أحد رواد الصحافة، ومن وطنيي الحجاز. انظر : «بعض ذكرياتي من قبل ربع قرن»، المنهل، العدد ٨، شعبان ١٣٦٩هـ، ص ٢٧٥. وانظر : محمود شويل «أبو عبدالواحد» مقالة «شعورنا نحو الصحافة في أوائل هذا القرن، مجلة المنهل عدد٢، صفر، ١٣٦٧هـ.

(٢) اسمها بالتركية : حجاز ولايتي سالنامه سي، صدر العدد الأول منها عام ١٣٠١هـ، وهو كتاب يحوي معلومات واحصائيات عن مختلف نواحي الحياة في ولاية الحجاز «وكان يحرر بالتركية، سوى نبذ قصيرة بالعربية عن الخلفاء العثمانيين ومساعيهم، وقد صدر منه خمسة أعداد، حيث صدر الأخير في سنة ١٣٠٩هـ.

انظر : د. محمد الشامخ «نشأة الصحافة في المملكة العربية السعودية» «دار العلوم» الرياض، ١٤٠٢هـ، ط١، ص٣٣.

الصدور، وقد تنقطع فتزيد على سنتين، وهي أشبه ما تكون بالكتاب.

ولكن الصحيفة الأولى التي صدرت وفق النظام الصحفي، واجتهد محرورها في الكتابة المقالية باللغة التي يستطيعونها، والقدرات المعرفية والأسلوبية المتواضعة التي يمتلكونها هي صحيفة حجاز، وقد كانت تحرر باللغتين العربية والتركية وتتألف من أربع صفحات؛ فالصفحتان الأولى والرابعة كانتا تكتبان باللغة العربية، أما الثانية والثالثة فتكتبان باللغة التركية» ، وقد وضعت هذه الجريدة مناهج المقال الصحفي في الحجاز بالطريقة التقليدية الأولى لنشوء أي فن، وبأسلوب لا يخلو من الركاكة والعجمة والعامية، لأن محرري النسخة العربية كانوا أتراكًا ، وقد ساعدت على نشر الوعي الجديد نحو الإصلاح، والوحدة، ودعت إلى التمسك بالولاء للحكومة العثمانية، وبمطالعة افتتاحية العدد الأول من هذه الجريدة يتضح أسلوبها ومنهجها، ويدرك المتتبع لها عامة عدم الاحتفاء بالأسلوب، وقلة إدراك قيم اللغة العربية وجمالها، يقول أبو الثريا سامي «أمين السر في الولاية» :

«حمدًا وثناء لا يتناهيان للذي علم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم، الذي بفضله سبحانه وتعالى توفقنا في هذا اليوم المبارك إلى الظهور إلى عالم المطبوعات في هذه القطعة المباركة الحجازية. ولو أننا تقدمنا إليها ببضاعة مزجاة. وصلاة وسلامًا متلازمين على سيد الكائنات الذي بشر كل من خدم الملة الإسلامية وسعى في إعلاء شأنها بشفاعته العظمى، وشكرًا شكرًا ومائة ألف شكر للأمة النجيبة التي بفضل مساعيها المبرورة أصبحنا اليوم ننطق بألسن كانت لا تنبس، ونبصر بعين البصيرة التي كانت عمياء، أصبحنا اليوم في عداد الأحياء، بعد أن كنا في حالة العدم، بل إن العدم خير من تلك الحياة. أصبحنا قادرين على أن نُظهر للقراء جميع ما نكتبه، ونستكتب ما نريد.

أصبح كل منا قادرًا على أن يظهر أفكاره ورغباته بكل حرية إلى أنظار

العموم، وها نحن قد أقدمنا على الدخول إلى عالم الصحافة مع عجزنا وقلة بضاعتنا، ومع أنه لم يكن لنا رأس مال نتكل عليه سوى ما نؤمله ونرجوه من إقبال أهل الحمية والغيرة من عموم القارئين الكرام.

ولا نرى لزومًا لبسط الكلام في إبانة مسلك جريدتنا هذه، وماذا عسى أن يكون من جريدة هي جريدة الولاية الوحيدة سوى أن تسلك مسلك أخواتها في سائر الولايات من إثبات الأمور الضرورية، وإظهار الحقائق من مصادرها الوثيقة.

وغاية ما نقول إن جريدتنا تنقسم إلى ثلاثة أقسام : قسم رسمي وقسم غير رسمي، وقسم لدرج الإعلانات الرسمية وغير الرسمية، فنطلب أولًا من الباري سبحانه وتعالى التوفيق والتسديد في جميع أعمالنا، ونؤمل ثانيًا من قرائنا الكرام أن يتفضلوا علينا بتوجيهاتهم ورغباتهم الخالصة فمنا الخدمة ومنهم الإقدام والرغبة»(١).

ونشرت «حجاز» مقالات تعرض لتطوير الأساليب الكتابية(٢)، ولفضائل الصلة بالآداب الغربية(٣)، ودعت إلى التجديد في المعاني وإلى الإفادة من مبتكرات العصر، وتهكم أحد الكتاب بمن يعلق خياله بالرسوم القديمة، ويقلد السابقين في غير تنبه ولا موهبة : «جمد المسلمون، كاتبهم وشاعرهم وعالمهم

---

(١) مقالة : المقدمة بقلم مكتوبي الولاية : أبي الثريا سامي، حجاز، عدد١ في ١٣٢٦/١٠/٨هـ الموافق ١٩٠٨/١١/٣. ص١. وقد كان آخر عدد منها صدر بتاريخ ١٣٣٣/٤/٢١هـ. وتوقفت بعد انتهاء الحكم التركي في الحجاز.

انظر : خير الدين الزركلي «شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبدالعزيز» جـ٣،ص١٠٢، مطابع دار القلم، بيروت، ١٩٧٠م.

وتحوي مكتبة جامعة الملك سعود أعداداً لا بأس بها منها تصل إلى مائة وخمسين عدداً، كما أطلعني الاستاذ محمد بن عبدالله الحمدان على أعداد أخرى تحويها مكتبته التي يقتني فيها نفائس الكتب والمخطوطات والصحف القديمة.

(٢) مقالة : الأسلوب، عدد ١٥٨ في ١٣٣٢/٧/٢٢هـ، الموافق ١٩١٤/٦/١٦م بقلم محمد صادق.

(٣) مقالة : شوقي وحافظ عدد ١٨ في ١٣٣٧/٢/١٩هـ، الموافق ١٩٠٩/٣/١٢م ولم يذكر اسم الكاتب.

على ما ورثوه من الأولين، فنقلوه للآخرين، كما هو ثم نسجوا في ذلك المنوال مع انحطاط في الطبيعة، ودثور في السليقة، حتى قال قائلهم من أئمة العصر العشرين :

عود السرى يا أخي العود والناب أنساك وعثاء أحباب وأغباب

هذا وهو يرى البخار يسير، والسيارات تطير، والبرق يخفق، والجماد ينطق، وضاق بالقوم الماء وظهر الغبراء، فتسلقوا الهواء، وحلقوا في الفضاء، وزاحموا طير السماء، أنكروا الساعات، واستطالوا الدقائق، فحاسبوا على اللحظات والثواني، فهل تسمع بينهم من يقول :

متى تقول القلوص الرواسما يحملن أم قاسم وقاسما

ألا قد تقلصت تلك القلص، ودرست رسوم تلك الرواسم، وأصبح عهد أم قاسم وقاسم على جناح طائر، لا كما ظن ذلك الخائر»[(١)].

وواضح هنا السجع، وتقييد الكلمات، وتقليد القدماء في طرائق التعبير، على الرغم من استكثار الكاتب ذلك، إلا أن الدعوة نفسها إلى التجديد تعد خطوة في سبيل تجديد البيان.

والركاكة وضعف السبك، وقلة الاحتفال بالتجويد، تلك سمات مشتركة للكتابة والخطابة في هذه الفترة، وحين تقليب صفحات حجاز تمرّ مثل هذه العبارات :

«عباد الله، إننا قد استبدلنا الحياء بالوقاحة، والعفة بالدناءة، والشرف بالخسة ... عباد الله هلموا نتساءل .. أيها الإخوان لننصف من أنفسنا»[(٢)]، «تنبيء النسخة الأولى منها بأنها ستتوفق إلى خدمة الوطن بالخدم الكبيرة»[(٣)]،

---

(١) مقالة : كسوة الروضة الطاهرة، حجاز، عدد ١٦ في ١٣٢٧/٢/٥هـ، الموافق ١٩٠٨/١٠/٢٦ ولم تذكر الجريدة اسم كاتب المقال.

(٢) مقالة : مطلع أنوار المعارف، أبو الثريا سامي، عدد ٣ من حجاز في ١٣٢٦/١٠/٢٩هـ.

(٣) مقالة : تعريب فرمان وزارة أمير مكة المكرمة السامية، حجاز، عدد ٥ في ١٣٢٦/١١/١٨هـ، الموافق ١٩٠٨/١٢/١٢م.

«مع أننا الحمد لله شبان[قابلين للتحصيل]في كل آن، نقرأ فنفهم ما قرأناه، ولنا اقتدار في التقرير على مقتضاه»[1].

ويكتب عبدالمحسن المكّي يشكر الحكومة على إصدارها جريدة «حجاز» فيغلب السجع في عباراته «والله إنه مشروع عجيب، وبستان مثمر بثمر غريب، فيالها من همة عليا تخلد لهذه الدولة العثمانية في الأرض المقدسة المكية، ما أطرب الأسماع وراق على صفحات وجنات الدهر والأوراق .. »[2].

وبعد قيام الدستوريين، وتولي جمعية الاتحاد والترقي الأمور كافة في الممالك العثمانية استبشر الحجازيون وظنوا أنهم مانحوهم حقوقهم، وطفق كتّاب الصحف الحجازية الموالية للسلطة التركية يستحثون الهمم في الإصلاح العام، والدعوة إلى مناصرة السياسة الجديدة، ودعوا إلى نقد المظاهر الدالة على التخلف الاجتماعي والعلمي، وإلى الأخذ بأسباب التقدم كما فعل عبدالملك بن أحمد خطيب في مقالته «هل بعد الستور عذر» :

«لا نشك أن الأمة العثمانية كانت في دور الاستبداد تتكبل في قيود الأسر كلما نهضت لتسابق الأمم الحية رضخت رؤوسها مقامع الضغن حتى أقعدتها، وكلما أخذت تجمع إليها كلمتها لتعلي شوكتها ترامت عليها قذائف الظلم وقنابل الحكم المطلق حتى نفرت خفافًا وثقالًا وتفرقت أشتاتًا لاسيما أهل هذا الوطن المقدس الذي كان مركز الاستبداد ومقر الجهل والهمجية بمعزل عن الترقي وجانب من المدينة مع كونه أشرف البلدان وأفضلها وأفخم الولايات العثمانية وأجلها» .. إلى أن يقول في أسلوب نقدي جديد على القارىء في الحجاز، إذ لم يتعود هذا البسط في التعليل، ومواجهة الأخطاء، «والله يعلم أن ما اعتراه داء الانحطاط والتأخر ولا أصابه مرض الهبوط والتقهقر إلا لما كان يحول بين آذان أهله وبين داعي المدنية من سد الاستبداد وما كانت تلجم به ألسنتهم من

---

(١) عدد ١ من حجاز في ٨/١٠/١٣٢٦هـ، الموافق ٣/١١/١٩٠٨م. ولابد من ملاحظة الخطأ النحوي في صفه خبر إن، حيث جاء في المقالة منصوباً وحقه الرفع.

(٢) مقالة : شكر جميل يساق لأهل الحمية بمكة المكرمة، حجاز، العدد ٢ ص ٤، شوال ١٣٢٦هـ.

بولاد الاستعباد، وما كان يطمس على أبصارهم من غشاوة الحكم المطلق ولقد زالت بفضل الحرية والدستور أيها الوطنيون عن حواسكم كل هذه الموانع فأي عذر لكم إذا لم تنهضوا نهضة الأمم الحية فتثبتوا أنكم أحياء»[1] فلا يلحظ خلل كبير في الأسلوب أو عجمة أو ضعف، ولعل كتابته من أجود ما حملته إلينا الصحف آنذاك، ولعله صاحب مقالة سلسة سهلة لينة نشرتها «حجاز» بعنوان «العثماني يولد جنديًّا»، وهي مقالة وصفية حماسية، كتبت بأسلوب خال من التعقيد والركاكة، وتميل ألفاظها إلى الجزالة، والإفادة من القاموس العربي القديم، وقد أراد الكاتب أن يشحذ الهمم، ويستهزىء بثلة من الجند خالفت أوامر القيادة العسكرية فنالت عقابها، ويُرجع ذلك العصيان إلى أساليب العهد البائد، قبل أن يصل الدستوريون إلى السلطة يقول : «آه .. وألف آه منك أيها العهد السابق الذميم، إن البذور التي بذرتها لم تزل تعلق بتلك القلوب الغافلة، وها هي آثارها لم تزل تبدو من حين إلى حين، متى تنسى هذه الأمة المرحومة أيامك الخبيثة ؟ متى تمحو ذلك من ذاكرتها ؟ هل تبقى هكذا يسرك أن يذهب أبناء الوطن ضحية الجهل الذي ألبستهم رداءه ؟ لا، وألف لا ..

ثق أيها العهد الذميم بأنك قد أدركك الفناء، وأطفأ نور الحق سراجك التعيس، ثق بأن الأمة أصبحت تأنف حتى من صب صيب اللعنات على هامتك، ثق بأنك بعد اليوم لا ترى من يضحي حياته في سبيلك، كفى كفى .. إن ذكرك الفظيع إنما يبلغ من أمرها بعد اليوم أن يشوش من أفكار الأخلاف، وأن يلوث بعضًا من صحف التاريخ الناصعة البياض»[2].

ويكتب أحد المحررين مقالًا في النقد الاجتماعي بعنوان «المتطببون»[3] ينتقد

---

(١) مقالة : هل بعد الدستور عذر، حجاز، العدد ٣، ص٤، في ٢٩ شوال ١٣٢٦هـ، الموافق ١٠ تشرين ثاني ١٩٠٨م.

(٢) مقالة : العثماني يولد جندياً، ولم توضح الجريدة اسم الكاتب، وقد يكون عبدالملك خطيب، وهو أقوى من كتب في هذه الجريدة من حيث الأسلوب وجودة العبارة.
انظر : حجاز، العدد ١٣، ١٧ محرم ١٣٢٧هـ. الموافق ٢٧ كانون ثاني ١٩٠٩م.

(٣) حجاز، ص ٤ العدد ٣ في ٢٩ شوال ١٣٢٦هـ.
وانظر أيضاً في النقد الاجتماعي مقالة حادة عن أهمية الاعتناء بنظافة مسجد الخيف، بقلم أحمد عزمي، حجاز : عدد ٦ في ٢ ذي القعدة ١٣٢٦هـ، الموافق ٣ كانون أول ١٩٠٨م.

فيه جهلاء الطب وأدعياءه ومشعوذيه ممن يشتغلون بمداواة العوام فيصيبونهم بأدواء خطيرة، ويصف الكاتب في شيء من التشخيص والدقة والواقعية هيئات أولئك المتكسبين بهذه المهنة فيوفق في نقل صورة من صور السلوك الاجتماعي في ذلك العهد، على الرغم من أن استخدام الكاتب للفظ العامي أفسد الصياغة، وأخلّ بجمال الأسلوب.

والملاحظ خلو هذه الصحف من الكتابة في أمور الأدب، أو الدعوة إلى تطويره والاحتفال به، والذي يبدو أن المستوى التعليمي لعموم الشعب لم يكن طيبًا، وأن القائمين على هذه الصحف من غير العرب، ممن لا يفقهون في الذائقة الفنية العربية ما يدفعهم إلى الكتابة والنقد.

وعالجت «شمس الحقيقة»[1] موضوعات لا تختلف كثيرًا عن سابقتها، وبالأسلوب الركيك نفسه، وإهمال الصناعة الأسلوبية الفنية، «إلا أن ما كانت تنشره من آراء جريئة، وتبثه من أفكار عصرية قد أسهم في تنوير أذهان قرائها، وتوسيع آفاقهم الفكرية»[2] وكان لبعض المقالات المنشورة فيها تأثير في تأكيد معاني الوطنية مثلما علق أحد الكتّاب على حادثة وقعت في جدة أثناء إصلاح جلب المياه إليها[3]، وكان لديها متسع لقبول النقد، وطلب الإصلاح، فقد نشرت رسالة كتبها أحد مدرّسي الحرم المكي تصور الضيق الذي يعيشون فيه؛ من قلة ذات اليد والعوز، والإهمال من الحكومة ..وهي تصور أيضًا جزءًا من قدرة طالبي العلم والمهتمين بالمعارف الشرعية على كتابة مثل هذا اللون من الرسائل، بما فيها من تحلل قليل من السجع، وضعف في السبك، وإقحام لألفاظ لا تستقيم في الأسلوب الأدبي السوي، ولا في ما يكتبه مدرس في الحرم المكي؛ يقول :

---

(١) صدرت بمكة المكرمة في ١٦/٢/١٩٠٩م، وتطبع باللغتين العربية والتركية.

(٢) د. محمد الشامخ : نشأة الصحافة في المملكة العربية السعودية ص ٥٨.

(٣) مقالة : أفعال العباد، بقلم أحمد رأفت الاسكندراني، شمس الحقيقة، العدد ١٢، في ١٤/٤/١٣٢٧هـ، الموافق ٥/٥/١٩٠٩م.

«قد وجدنا في آخر عدد من جريدتكم «شمس الحقيقة» الزاهرة استلفات الأنظار لمراقبتها، فرأينا من أهم ذلك أن ننبهكم على هذه المسألة ــ والحال أنها من واجبات صحيفتكم الحرّة التي ذكرتم في جملة أعدادها أنها منسوبة لطلبة العلم بدليل أنها نوّهت من أول عدد بالاقبال على العلم ونشره، وبفضل العلم والعلماء، لا يخفى على جنابكم أن العلماء وطلبتهم في المسجد الحرام الذين هم من جملة القائمين بفرض الكفاية عن المسلمين وهو تدوين العلوم الشرعية والاشتغال بالتأليف والتدريس من منذ أعوام في بلد الله الحرام لم يزالوا متشوفين إلى ما يسد رمقهم من صدقات المتصدقين، وإجارة أنفسهم في أداء فرض الحج عمن لم يبلغه وهم في عيشة ضيقة لم تلتفت إليهم الدولة بشهرية من أوقاف الحرمين كما التفتت لأهل البصرة وبغداد والشام فرتبت لأقل عالم منهم شهريًّا نحو الخمسة الليرات، فأدى ذلك إلى يأس العلماء والطلبة الوطنيين النافعين للوطن لما بلغ غلاء الأقوات وغيرها إلى ما هو مشاهد اليوم، وقلّت الصدقات والإحسانات، بل اضمحلت فكاد أن يذهب العلم وطالبوه. ولتمام الدليل الذي أقمتموه في صحيفتكم الحرة أنها منسوبة لطلبة العلم، نرجو أن تنادي فيها بأعلى صوتك بحي على الفلاح وتستلفتوا أنظار الدولة بالتوجه للعلم والعلماء وطلبتهم فيعينونهم بمرتب شهري يصرف نظرهم عن الصدقات ويبعثهم على التوجه التام للعلم وطبع مؤلفاتهم فيه المناسبة لهذا الزمان. وهل الأوقاف الجمّة على الحرمين الشريفين كان وقفها على موضوع غير هذا الموضوع الذي هو أهم موضوع، فيتم المقصود بتأسيس المدارس وتعليم العلم والصنائع وتحيا البلاد وأهلها. نسأل الله أن يوفق أهل الخير للخير ويعينهم عليه»[1].

وتختلف الصحف الباقية في حظها من تجويد الأسلوب والعناية به، وفي الاهتمام بالقضايا السياسة، وتمجيد المنحى السياسي والإصلاحي لجمعية «الاتحاد

---

(١) مقالة : رسالة من مدرس في الحرم المكي، شمس الحقيقة، عدد في ١٣٢٧/٣/٧هـ، الموافق ١٩٠٩٤/٣٤/٢٩م.

والترقي[١] مثل الإصلاح الحجازي[٢]، وصفا الحجاز[٣]، والمدينة المنورة[٤] والرقيب[٥].

ويمكن أن يصف الباحث تقدم الصحافة في العهد التركي بالأسلوب من التقليد الساذج والتشطير، والنحت إلى شيء من السهولة والجماعية بأنه خطوة أولى في تاريخ النثر الأدبي، وأخص منه المقالة[٦].

---

(١) انظر : تاريخ الدولة العلية العثمانية. تأليف الاستاذ محمد فريد بك المحامي. تحقيق د. إحسان حقي. دار النفائس، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ، ص ٧٤٧.

(٢) صدرت في جدة يوم الاثنين ٢٦/٤/١٣٢٧هـ، انظر العدد الأول منها حيث أبانت الجريدة عن منهجها، ودعت فيه إلى حرية الصحافة من القيود والمنافع.

(٣) صدرت بتاريخ ١٢/٨/١٣٢٧هـ. الموافق ٢٩/٨/١٩٠٩م ولم تستمر أكثر من شهر.

(٤) صدرت في المدينة المنورة في ١٦/١١/١٩٠٩م.

(٥) صدرت أيضاً في المدينة في يناير من عام ١٩٠٩م.

للرجوع إلى مصادر تتحدث بالتفصيل عن هذه الصحف وغيرها :

ـ تطور الصحافة في المملكة العربية السعودية، علي حافظ، جزآن، شركة المدينة للطباعة والنشر، جدة، ١٣٩٦هـ.

ـ تاريخ الصحافة العربية، أربعة أجزاء، بيروت، ١٩١٣م فيليب دي طرازي.

ـ موجز تاريخ الصحافة في المملكة العربية السعودية، محمد بن عباس، مطابع مؤسسة الجزيرة، الرياض ١٩٧١م.

ـ نشأة الصحافة في المملكة العربية السعودية، د. محمد الشامخ، دار العلوم، الرياض، ط٢، ١٤٠٢هـ.

(٦) خالف في ذلك د. بكري شيخ أمين إذ يرى أن لاقيمة أدبية أو علمية أو سياسية لهذه الصحف، كما أنها لم تكوّن وعياً أو توجه فكراً، لأن القائمين على أمرها لم يكونوا مهيئين فنياً للعمل الصحفي، ولأن القراء قلة عدداً ومادة الجريدة أضعف من أن تستهويهم، وأخبارها تافهة مقصورة على جزئيات وصغائر.

انظر ص ١٠٧ «الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية».

وهو حكم مبالغ فيه، إذ تبين تأثيرها في إثارة الوعي العام، وفي الانتقال بالمقالة من التقليدية المحضة إلى شيء من السهولة.

٢ ــ المقالة في الحجاز في العهد الهاشمي :

في أواخر عهد الدولة العثمانية ظهر استياء عام من سوء إدارة الحكم العثماني للبلدان العربية، نتيجة الإهمال والاستبداد، وإخضاع العرب للسلطة المطلقة التي كان يتمتع بها السلطان عبدالحميد الثاني(١)، فظهرت كتابات لأدباء ومفكرين تشكو الظلم الذي يعاني منه العرب، وتكشف سوءات الحكم التركي، وتنبه الشعوب العربية إلى خطر الاستبداد، وبالأخص كتابي عبدالرحمن الكواكبي(٢) «طبائع الاستبداد» و «أم القرى»، وكتاب نجيب عازوري(٣) «يقظة الأمة العربية» وكونت هذه الدعوات من بعض المثقفين شعورًا قويًا لدى العرب بضرورة المطالبة بحقوقهم، وإنماء الوعي العام حول مفهوم القومية لتواجه تعصب الأتراك لعنصرهم.

وبعد مجيء الاتحاديين عام ١٣٢٦هـ ــ ١٩٠٨م، وإعلان الدستور تفاءل العرب خيرًا، وأحسنوا الظن في جمعية «الاتحاد والترقي» أول الأمر لما بدر من

---

(١) (١٢٥٨ــ١٣٣٧هـ) تولى الحكم بعد أخيه مراد بعد أن عزل بحجة جنونه، استمر حكمه من سنة ١٢٩٣ ــ ١٣٢٧هـ. ألغى الدستور، وحكم البلاد حكماً قاسياً، كثرت فيه العيون، واختلت موازين الأمور، كثرت في عهده الحروب، وأحدث بعض الاصلاحات ثار عليه عام ١٣٢٦هـ الضباط الشبان المنتمون إلى حزب تركيا الفتاة، وأكرهوه على منح الدستور، ثم خلعوه عام ١٣٢٧هـ.

انظر : محمد فريد بك المحامي (تاريخ الدولة العلية العثمانية) بيروت، دار النفائس ط١، ١٤٠١هـ، تحقيق د. إحسان حقي، وانظر : إبراهيم المويلحي (ما هنالك من أسرار بلاط السلطان عبدالحميد)، دراسة تاريخية : أحمد حسين الطماوي، تقديم : د. علي شلش، المركز العربي للاعلام والنشر، القاهرة، دون ذكر سنة الطبع.

(٢) (١٢٦٥ــ١٣٢٠هـ) عبدالرحمن بن أحمد بن مسعود الكواكبي، من رجال الإصلاح الإسلامي ولد وتعلم في حلب، وأنشا فيها جريدة «الشهباء» فأقفلتها الحكومة، وجريدة «الاعتدال» فعطلت. انظر عن حياته : سامي الدهان «عبدالرحمن الكواكبي». الأعلام جـ٣، ص ٢٩٨.

(٣) سياسي لبناني من الكتاب، تخرج في معهد الدراسات العليا في باريس، نزح منها إلى مصر ومنها إلى باريس، أصدر مجلة «الاستقلال العربي» شهرية، وجريدة مصر، (ت ١٣٣٤هـ)، الأعلام جـ٨، ص١٢.

بعض الاصلاحات، ولما صار من مظاهر التقارب العربي العثماني»[١] على أن العلاقات الطيبة بين العرب والترك لم تستمر طويلًا «.. فقد كشف رجال تركيا الفتاة، أو الاتحاديون، القناع عن سياستهم وأظهروا رغبتهم في تمجيد العنصر التركي، وذلك باتباع سياسة التتريك»[٢]. وزادوا في غلوهم بفرض تعليم اللغة التركية في المدارس، ومنع تعليم العربية، وأن تكون المكاتبات والمرافعات باللغة التركية، وحيئنذ زاد الشعور العربي قوة وثقة ببطلان الوعود السابقة التي كان يظهرها الاتحاديون، فثار أحرار العرب والنابهون منهم، في سوريا ومصر، وفي الحجاز[٣].

ورأى الحسين بن علي ــ أمير مكة المكرمة ــ أن يستفيذ من هذا الاستياء العام، فأخذ يثير الحماسة في نفوس من حوله، ويتصل بالانجليز وبالثائرين في الأقطار العربية ليضمهم إلى الإيمان بدعوته السياسية الجديدة.

ولتأكيد هذه المبادىء ساعد على إنشاء الصحف في الحجاز، وأمدها بالمعونة، وشارك في بعضها، واتخذ منها منبرًا يخاطب منه الموالين له، ويبين مراميه الاصلاحية ومفاسد الحكم التركي[٤].

صدرت صحف عدة في العهد الهاشمي الممتد من سنة ١٣٣٤هـ، التاسع من شعبان (١٩١٥م) إلى الرابع من ربيع الأول من عام ١٣٤٣هـ، الموافق ٢٣ من أكتوبر ١٩٢٥م، حين أعلن الحسين بن علي تنازله عن السلطة، وهذه

---

(١) بعد خطوات الاتحاديين نحو العرب، أسس العرب في استنبول جمعية (الإخاء العربي العثماني» وبعد انقلاب ١٣٢٧هـ، وعزل عبدالحميد الثاني قامت حكومة تركيا الفتاة بتعطيل هذه الجمعية.

(٢) د. عمر عبدالعزيز عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦ــ١٩٢٢م)، ص ٤٣٠.

(٣) يمكن الرجوع في هذا إلى كتاب (ثورة العرب ضد الأتراك ــ مقدماتها ــ أسبابها ــ نتائجها) بقلم أحد أعضاء الجمعيات السرية العربية (ولم يكتب اسمه)، حققه وقدم له د. حسام محمد شبارو، دار مصباح الفكر، بيروت، سنة ١٩٨٧م

(٤) انظر تاريخ نجد الحديث، المجلد الخامس من الأعمال العربية الكاملة لأمين الريحاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، ١٩٨٦م بيروت.

الصحف هي، الحجاز[١]، والقبلة[٢]، ومجلة مدرسة جرول الزراعية[٣]، والفلاح[٤]، وبريد الحجاز[٥].

والمجلة الزراعية ليست بذات قيمة في المجال الأدبي؛ أما الصحف الأربع الأخريات فقد كان لهن أثر بارز في النهضة الأدبية، أو التهيئة للبعث الأدبي الجديد الذي نما وترعرع وأورق بعد أم القرى.

وكان للأحرار الفارين من اضطهاد الأتراك في الشام ومصر جهد لا يمكن أن يغفله قارىء صحف ذلك العهد، فقد تولوا أمر إدارة أكثر الصحف، وكتبوا الافتتاحيات، وأسهموا في معالجة كثير من قضايا الأدب وأفاد الحجازيون «من

---

(١) صدرت في ١٣٣٤/٢/٩هـ، الموافق ١٩١٦/١٠/٧م، في المدينة المنورة، وتولى إدارتها الصحفي السوري بدر الدين النعساني، الذي عهدت إليه السلطة العسكرية العثمانية في أثناء الحرب العالمية الأولى بإصدار جريدة الحجاز بالمدينة المنورة، الأعلام، جـ٧، ص ٣٢٣، ونشأة الصحافة، الشامخ، ص ١١٦.

(٢) صدر العدد الأول منها بمكة المكرمة في ١٣٣٤/١٠/١٥هـ، الموافق ١٩١٦/٨/١٥م.
مرتين بالأسبوع، وتولي إدارتها أول الأمر محب الدين الخطيب، وكانت «لسان حال الحسين والمعبرة عن آرائه وأفكاره» كما يذكر ذلك خير الدين الزركلي، (انظر : ما رأيت وما سمعت ص ١٩٠) بتصرف. وقد كتب في هذه الجريدة فؤاد الخطيب وعبدالملك خطيب، والطيب الساسي، وأحمد شاكر الكرمي.

(٣) صدرت في أول رجب ١٣٣٨هـ الموافق ٢١ مارس ١٩٢٠، وكانت تُعنى بأمور الزراعة، ولم تستمر طويلاً.

(٤) كان صدورها الأول بدمشق في مطلع عام ١٣٣٨هـ/١٩١٩م، وبعد مضايقة الأتراك لمديرها عمر شاكر هاجر إلى مكة وأصدرها مرة أخرى في ١٣٣٨/١٢/٢٤هـ الموافق ١٩٢٠/٩/٨م واستأنف ترقيمها من جديد دون أي اعتبار لتاريخها السابق.
انظر : فيليب دي طرازي «تاريخ الصحافة العربية، جـ٤ ص ٤٦»، وكانت تؤيد السياسة الهاشمية، ويرجح أنها توقفت بعد خروجهم من مكة.

(٥) أنشأتها مجموعة من أبناء الحجاز في جدة بعد تعثر السياسة الهاشمية، وزحف السعوديين على الحجاز، فصدرت في ١٣٣٨/٤/٢٩هـ، الموافق ١٩٢٤/١١/٢٦م، معبرة عن أهداف المجموعة ، وداعية إلى استقلال الحجاز، وتكوين حكومة وطنية، وأدارها محمد صالح نصيف ــ وكانت تصدر مرتين في الأسبوع ــ وقد صدر منها ستة وخمسون عدداً، (انظر د. محم الشامخ، نشأة الصحافة ص ١٢٧).

مقدم هؤلاء المفكرين الذين كان أكثرهم أدباء بارزين»[١].

وقد ارتقى الأسلوب المقالي في العهد الهاشمي عنه في العهد التركي؛ ففي السابق كانت تتخلل المقالات ألفاظ غير عربية، ويلتوي الأسلوب، ويميل أحيانًا إلى العامية، مع انشغال عن القضايا الأدبية والفكرية، إلى الانصراف التام أو شبهه إلى السياسة وما تستدعيه من تأييد ومدافعة وانتصار. أما في الفترة من ١٣٣٤هـ فإن الصحف التي صدرت انتهجت في كتابة المقال، وفي التحرير أسلوبًا عربيًا يميل إلى جزالة التعبير وإشراق اللغة[٢]، وسلك المحررون في مجملهم السبل التي تقربهم من البيان العربي في عصور الازدهار» وكانوا يميلون إلى الإطناب وإلى جزالة الأسلوب العربي العريق، ولذلك كانت المقالات التي نشرت فيها تتسم بهذه الجزالة، وتتميز باستخدام طرق التعبير الأدبية»[٣].

إلا أن السمة الغالبة على صحف هذه المرحلة ــ كسابقتها ــ استيلاء الأحوال السياسية على أكثر معالجاتها المقالية، ومتابعاتها الإخبارية، فصحيفة الحجاز في المدينة مشغولة بالدعاية للأتراك، والقبلة والفلاح مهتمتان بالدعوة إلى المثل القومية التي أعلنها الحسين بن علي، وشرح الصورة الكبيرة للوحدة المأمولة، وبريد الحجاز تعلن استقلالها وتحث الناس على تدبّر أحوالهم، واستدراك ما يمكن من طرق الإصلاح لحفظ الحجاز من الانهيار أمام الطامعين. . وتنصرف الصحف عن الحديث في آلوان القول، ولذائذ الفن، ومثيرات الشجن إلى ما خاضت فيه من منازلة صحفية مع الخصوم «وقد حلت جريدة «القبلة» محل جريدة «حجاز» في ذلك»[٤]، ولذا يرى بعض الدارسين أن الأدب ليس له كبير شأن في هذه الصحف، وأن ما كتب ليس إلا فتاتًا على مائدة السياسة المستشرية[٥].

---

(١) د. محمد الشامخ : النثر الأدبي ص ٩٣.
ومن هؤلاء الأدباء :
فؤاد الخطيب، وعمر شاكر، ومحب الدين الخطيب، ويوسف ياسين، وغيرهم.

(٢) د. محمد الشامخ، النثر الأدبي، ص ٩٤.

(٣) المرجع السابق : نشأة الصحافة في المملكة العربية السعودية ص ١١٤.

(٤) د. منصور الحازمي : مجلة المنهل، العدد ٤٤٥، السنة ٥٢، المجلد ٤٧، شعبان ١٤٠٦هـ، ص ٨٠

(٥) انظر : المرجع السابق.

ولكن القارىء الجيد لهذه الصحف يدرك تطور الأسلوب المقالي، حتى في فنون المصاولة والهجوم، والنقد السياسي، فقد كان الكاتب وهو يرفع صوته عاليًا بالنداء السياسي يصور ذلك بعبارات مشرقة فياضة، ممتاحة من دفق وثراء عربيين.

وكان الحسين يكتب في القبلة متخفيًا «مقالات كثيرة يعرفها قراؤها بأسلوب كتابته الذي لا يتغير ولا يتبدل»[١]، ولعله باندفاعه القومي شجع الناقمين على الترك، من الحجازيين وغيرهم على إبراز هذا التوجه السياسي الذي كان من النادر أن يُرى واضحًا معلنًا في تلك الفترة، وبخاصة على حكومة كانت إلى عهد قريب راعية الخلافة وحامية حمى المسلمين.

فالكتابة السياسية المقالية في الحجاز بدأت حقيقة في هذا العهد الملتهب بالأحداث، وصرفت الأحوال السياسية تلك النفوس والأقلام عن مناقشة قضايا

---

(١) خير الدين الزركلي : ما رأيت وما سمعت، ص ١٩٠، مكتبة المعارف، الطائف، ولم تذكر سنة الطباعة، وقد أرخ الإهداء بسنة ١٣٩٨هـ. وأشار محمد حسين نصيف في مقابلة شخصية مع د. محمد الشامخ عام ١٩٦٤م، أن الحسين كان يحرر بعض افتتاحيات القبلة، ولا سيما تلك التي كانت تتعلق بالقضايا السياسية الهامة. انظر : نشأة الصحافة ص ١٠٨. وانظر مقالة د. عبدالله الحامد في جريدة الرياض المعنونة بـ «الصحافة مصدراً أدبياً» جـ١، العدد ٧٠٩٠ السبت ٣٠ ربيع أول ١٤٠٨هـ.

وذكر د. بكري شيخ أمين أن الحسين كان يوقع مقالاته باسم مستعار، وغالباً ما يكون ابن جلا، الحركة الأدبية ص ١٠٨.

بينما أورد عبد القدوس الأنصاري في مقالته عن الأسماء المستعارة في الأدب السعودي أن ابن جلا رمز لمحمد حسن فقي، انظر المنهل، ذو القعدة ١٣٩٢هـ، ص١١٤٣.

ولم يشر إلى ذلك د. محسن جمال الليل في محاضرته عن الأسماء والتواقيع المستعارة في الأدب السعودي التي ألقاها في مكة عام ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ونشرت في ٤٤ صفحة. وبمطالعة «معجم الأسماء المستعارة وأصحابها ليوسف أسعد داغر، مكتبة لبنان بيروت، طـ١، ١٩٨٢م لم أجد ما يؤيد ذلك.

والأرجح أن الأثنين (الملك حسين بن علي، والكاتب محمد حسن فقي) كانا يوقعان بالرمز نفسه، وقد أورد أحمد السباعي في كتابه «تاريخ مكة» مجموعة من الرسائل التي كتبها إلى الانجليز لمساعدته في الثورة، وفيها يتبين أسلوبه، وتتضح بعض عواطفه ومطامعه القومية، وتتراوح بين الأسلوب الفصيح وشيء يسير من الدارجة، ولكنها كتبت بعفوية وانطلاق ويعتقد أن الحسين كاتبها. (تاريخ مكة ص ٦٦٠). و(الثورة العربية الكبرى) أمين سعيد، ص ١٤٢ جـ١.

أخرى ملحة، مثل التعليم والصحة، وعلوم اللغة، والآداب، وما يتصل بالتحضر، سوى نزر يسير يفلت من طغيان الأحداث السياسية على الصحيفة.

بعرض عدد يسير من تلك المقالات التي وردت في «القبلة» يتضح ما ذهبت إليه؛ ففي افتتاحية العدد الأول تتبين عاطفة دينية جياشة، وخوف على العرب من ثورة الاتحاديين، وإشادة بالحركة العربية بزعامة الحسين، وانتظار ما يحلم به العرب، حين يرد على الإسلام مجده[1]، وينشر فؤاد الخطيب مقالة بعنوان «نحن وأعداؤنا» يثير فيها الهمم إلى الاجتماع ويشمت فيها بطلب تركيا المساعدة من الألمان، ويمتدح الحركة الاستقلالية الجديدة :

«علم الله أننا لم نضمر للاتحاديين ضغنًا أو شنآنًا، ولم نرمهم عن قوس العداوة بغيًا أو عدوانًا، ولكننا ربطنا بالأيدي على القلوب وصبرنا على فوادح الأرزاء والخطوب، وأنفقنا العمر بين ليت ولعل، يصابر منا الأعز الأذل، حتى تداعت أركان المملكة العثمانية، وأصبحت ألمانية بعد إذ كانت إسلامية، فأجمعنا على النهضة الهمم، ووثبنا بالسيف والقلم، للذود عن حق أضيع، ووطن كريم قد بيع، وأي دليل أسطع، وبرهان أنصع، من وضع القوة العسكرية تحت حماية أجنبية، وهي الملجأ الفذ للأمة، في كل نازلة وملمة. فتسربوا إلى كل زاوية، وتغلغلوا في كل ناحية، سواء عليهم الداخلية والخارجية، والعدلية والمالية .. وهل الاحتلال إلا ذاك ؟.

اللهم اشهد فإن الاتحاديين عبثوا باستقلالنا، وعملوا على إذلالنا، فاستعانوا بالعدو على الولي، وبالأعجمي على العربي، ولم يخشوا سيفك الباتر، وجبروتك القاهر، فجعلوا خلافتك المقدسة في قبضة الألمان، وأباحوا لهم محارم بني عثمان، فأصبحوا من حول أمتهم، وطول حنكتهم وخبرتهم أصحاب النهي والأمر، في السر والجهر، وبأيديهم مقاليد المعاقل والصياصي فلا بدع أن ذلت الأعراف،

---

(١) مقالة : كلمة للجريدة، القبلة، عدد١، في ١٥/١٠/١٣٣٤هـ، الموافق ١٥/٨/١٩١٦م. ولم يكتب اسم صاحب المقالة، ويرجع أن يكون فؤاد الخطيب، وذلك لشبهه بأسلوبه، ولأنه ذكر فيما بعد اسمه في الموضع نفسه أكثر من مرة.

وعنت النواصي»[١].

على أن السجع يكاد أن يوقف الكاتب عن الاسترسال في موضوعه، إلا أنه لم يكن كثير التكلف، ولو سلم منه وترسل لكان أوضح معنى، وأقوى عاطفة، على أنه أيضًا هنا متأثر بكثير من الآيات القرآنية الكريمة في مثل «شنآنا»[٢] و «الأعز الأذل»[٣] و «الصياصي»[٤] و «النواصي»[٥]، ولذلك لم يدخل في أسلوبه ما يضعفه من حيث العامي أو المبتذل من اللفظ.

ولتأكيد عودة «القبلة» بالأسلوب إلى الاثر القديم من الكتابة المتوارثة، المتسمة بالتقفية والترنيم، بعد أن كادت الصحافة التركية تنسي الكتّاب ذلك الشأن أورد هنا مقالة بعنوان «الحجاز في العهدين» يكتبها صاحبها بتوعر وكلفة ظاهرة وفي أسلوب مسجوع مصنوع :

« .. فيا أبناء الوطن هلموا نهنىء مستقبلنا الفريد، ومشروعنا الجديد، هلموا نعزّي الاستبداد، ونمتع بموته الفؤاد، لمثل هذا فليعمل العاملون[٦]، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون[٧]. فهبوا من برزخ الدثور إلى معالم الترقي وعصر النور. فنبهوا أفكاركم سنة، وانتبهوا من هذه السِنة[٨]، وكفى بهذا تنبيهًا لكل غافل، وقل جاء الحق وزهق الباطل»[٩].

---

(١) مقالة : نحن وأعداؤنا، القبلة، العدد ٢ السنة الأولى في ١٨/١٠/١٣٣٤هـ، ص١ ويحسن أن تتذكر أن هؤلاء الكتاب ما زالوا حديثي عهد بأساليب التصنع والتكلف، ولعل في ذلك بعض العذر لهم.

(٢) سورة المائدة، الآية الثانية ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدّوكم عن المسجد الحرام..﴾.

(٣) سورة المنافقون، الآية الثامنة ﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذل، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين، ولكن المنافقين لا يعلمون﴾.

(٤) سورة الأحزاب، الآية السادسة والعشرون ﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً﴾.

(٥) سورة الرحمن، الآية الحادية والأربعون ﴿يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والاقدام﴾.

(٦) سورة الصافات، الآية الحادية والستون. «لمثل هذا فليعمل العاملون».

(٧) سورة المطففين، الآية السادسة والعشرون ﴿ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾.

(٨) هنا جناس ناقص، في سنة، بفتح السين بمعنى الزمن المحدد وهو العام، وبكسرها النوم والتواكل.

(٩) مقالة : الحجاز في العهدين، عبدالمحسن الصحاف المكي، القبلة عدد ٣، ص١، الاثنين ٢٢/١٠/١٣٣٤هـ.

ويقتبس الكاتب آيات كاملة من القرآن، فلا يأتي بها كما هي في القرآن الكريم، ولعل الكاتب كان يكتب الآيات من حفظه مثل استشهاده بالآية الكريمة (وقل جاء الحق وزهق الباطل)[١] فيقول (إنه كان زهوقًا) ليستقيم له السجع باللام «الباطل». وتلك مبالغة في الكتابة عجزت المدرسة الصحافية في العهد الهاشمي أن تتخلى عنها في صحيفة القبلة على الأخص، فهذا كاتب آخر يتحدث عن «مكانة العرب في العالم الإسلامي»[٢] فلا يستطيع الفكاك من أسر القيد اللفظي، والرغبة في الوصول بالمقال إلى الرفعة الفنية المتطلبة في التقليد للعصور الخالية وبخاصة منها ماكان يلتزم بالصنعة ويحفل بها، وقد حال دون اكتمال عاطفة الكاتب وبروزها في هيئتها المطلوبة غلبة الشكل على المعنى الشريف :

«.. نعم إن العنصر العربي جار عليه الظالمون، وأنهك قواه المعادون، وفرّق وحدته المارقون، وفرّق كتلته المنافقون، وعادى بين أمرائه المبطلون، وضرب بعض ببعض المعرضون، وسعى في تبديده الساعون، حتى أزهقوا روحه الأدبية، وحالوا بينه وبين كل قوة مادية أو معنوية ومنعوا عنه العلوم والمعارف. وسلبوا التالد والطارف. وسدّوا في وجهه المنافذ، وضيقوا عليه المسالك، وأفسدوا حالته الاجتماعية، وأحاطوا به بكل ثغر، وصدّوا عنه كل خير (وأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأخسرين)»[٣].

---

(١) سورة الاسراء، الآية الواحدة والثمانون.

(٢) مقالة : مكانة العرب في العالم الاسلامي، فؤاد الخطيب، القبلة، عدد ٤، الخميس ٢٥ شوال ١٣٣٤هـ.

(٣) مقالة اللغة العربية والعرب، القبلة، عدد ١٤ في ١ من ذي الحجة ١٣٣٤هـ.
وانظر أيضاً مقالات أخرى مختلفة الموضوعات مثل :
نظرات، بقلم محمد بن سعيد الفته، العدد ٣ في ٢٢ شوال ١٣٣٤هـ.
القدوة والتربية «للكاتب نفسه، العدد ٦ في ٣ ذي القعدة ١٣٣٤هـ، وهما مقالتان متواضعتان في الصياغة واللفظ، والسبك.
وانظر مقالة «الحضاراة أم البداوة»، العدد ٣٣٢ في ١٣٣٨/٢/٢٣هـ.
وافتتاحية عدد ٢٩٨ في ١٣٣٧/١٠/١٦هـ، شكر لله تعالى على استمرار الصدور، وكلاهما بقلم المحرر، ولم يوضح اسمه، ويُعتقد أنه فؤاد الخطيب.
وهو فؤاد بن حسن بن يوسف الخطيب، شاعر ومن أعضاء المجمع العلمي العربي في دمشق.

ولم تخل هذه الكتابات من معالجة أدبية — كما أسلفت — من ذلك تلك المقالة التي كتبها فؤاد الخطيب عن اللغة العربية والعرب، وتألم من هوان اللغة العربية في عهده، ورأى الناس منصرفين عنها، وعن تَثَقُّف علومها، تلك اللغة التي شدا بها شعراء العرب في أسلوب يقرب من الإلهام طبعًا وسليقة، حتى فسدت الأذواق، وداخلت العجمة كل لسان، كان هذا الضعف في البيان «فأي نياط لا يتقطع، وأي مهجة لا تتصدع، فقد أودى أولئك الكرام، وتنكرت تلك الأيام حتى تبارى الرهام واستنسر الحمام، ولم يبق غير أمة مكسال لا تتحرك إلا بزلزال، ولا تقطع من أشواط الدهر إلا مسافة العمر من القبر، فأين بنو قحطان وفتيان عدنان فيهبوا بالنفوس من غمرتها وينهضوا باللغة من كبوتها، فتلك مفاخر بلادهم ومآثار أجدادهم ملء الأنجاد والأغوار وطلاع الدفاتر والأسفار. وإنها لتطوي بالمرء مراحل العصور والأجيال وتطل به على عالم الحقائق من ملكوت الخيال».

ولكن جريدة الفلاح خرجت عن أسلوب القبلة، على الرغم من اتفاقهما في المنحى السياسي، إلا أن محرر الفلاح له خبرة بالكتابة الصحفية حين كان في دمشق وأصدر جريدته أول الأمر هناك، ولعل كتّاب مصر وسوريا في تلك الفترة تخلصوا من آثار المدرسة المصنوعة، وذهبوا إلى ابتداع أساليب الكتابة الحديثة، التي كان على رأسها، محمد عبده ومحمد رشيد رضا، ومحب الدين الخطيب، وعلي مبارك، ورفاعة الطهطاوي، وسواهم.

ويمكن أن يعتقد الباحث الدقيق في أساليب الكتابة المقالية في الصحافة بأن نهاية الأسلوب التقليدي المسجوع كان بنهاية صحيفة القبلة، فلم يعد للمقالة الشبيهة بالمقامة أثره وبقيت محاسن الفن في الصياغة الجزلة، وانتقاء اللفظ القوي المتين، وحسن الاستشهاد والقدرة على توليف أجزاء المقالة في طول نفس وعدم

ولد في قرية «شحيم» قرب بيروت، واستكمل دراسته في الجامعة الأمريكية، ولقب بشاعر الثورة. ومن كتبه «قواعد اللغة العربية» و «نظرات في تاريخ الجاهلية جـ١ لم يتمه»، (١٢٩٦—١٣٧٦هـ). أنظر: عبدالقدوس الأنصاري، مقالة (فؤاد الخطيب شاعر الثورة والعرب). المنهل، ذو القعدة ١٣٧٦هـ — يونيو ١٩٥٧، جـ ١٠ من السنة ٢١، ص ٥٠٠.

ضعف. وعلت في الفلاح الأصوات السياسية متجاوبة مع ما يحدث في الوطن العربي، واهتمت بمسألتين، تحرير سوريا من الأتراك، والاستعمار، ونصرة الحسين[١].

ومن المقالات الوصفية الجميلة، ذات النهج القصصي، القريبة من روح الفن، بما فيها من إنشاء وتشخيص، وشاعرية مقالة بعنوان «من العاصمة إلى الزاهر» يقول الكاتب :

«ماكادت ذُكاء تجر ذيولها الذهبية، وتحتجب عن أبصار من بهرتهم طول النهار بعينها الحادة، حتى برز القمر من كوة الأفق كأنه يتبعها في سيرها، ويستمد عن بعد من أنوارها وكأنها تداعبه أيضًا وهي تجري لمستقرها، وكأن الطبيعة تحتفل بضيفها الفتان إذ هرعت تهيىء له وفود المستقبلين، وأجواق المنشدين من نبات وطير وإنسان. ترى النسيم يعانق الكلأ فتسمع نجواهما كقيثارة رقيقة الأنغام، والطيور تشدو بألطف الألحان، وجماعات المتنزهين تترنم ما بين الحجون والزاهر، بأحسن الأناشيد والأغاني» [٢].

والذي يبدو أن صاحبها يقوم بكتابة أكثر مقالاتها، يتضح ذلك من تشابه الأساليب المقالية في الجريدة، ومن تقارب المواضيع.

ولا نكاد نجد أثرًا لكتابة حجازية صرفة، يمكن أن تبين شيئًا عن مستوى الثقافة، أو ما بلغه الأسلوب الفني لديهم، فمعظم الكتبة عرب مستقدمون، تستولي عليهم القضايا السياسية فتغلب على الافتتاحية وأكثر الزوايا في الصحيفة، فلا يبقى للأدب فيها نصيب[٣]. وما سوى ذلك من مقالات كتبها حجازيون بأسمائهم أو برموز خاصة بهم ضعيفة جدًا.

---

(١) مقالة : الحجاز وسوريا، الفلاح، عدد ١ في ١٣٣٨/١٢/٢٤هـ، الموافق ١٩٢٠/٩/٨م، السنة الخامسة.

(٢) مقالة : من العاصمة إلى الزاهر، الفلاح، عدد ٢٢، في ١٣٤٢/٧/١١هـ، الموافق ١٩٢٤/٢/١٦م، دون إشارة لاسم الكاتب، ولعله عمر شاكر.

(٣) مقالة : اليوم خمر وغداً أمر، الفلاح، عدد ٣، الأربعاء ١٣٣٩/١/١٢هـ. و لم يُذكر اسم الكاتب.

فمن أساليب الكتابة السياسية الحماسية ما ورد عن الثورة في سوريا :

«فيا نيران الثورة تأججي، ويا جيوش فرنسا في سوريا إبق فيها ولا تخرجي، فالنار تحتاج للوقود، ولا وقود أحسن من جيوش من نكث العهود، ونقض الوعود .. »(١).

وتكون السياسة بقضاياها المستجدة شغل الكتّاب الشاغل، فهذه جريدة «الحجاز» في المدينة تدافع عن سياسة العثمانيين، وتدعو إلى الالتفاف حولهم(٢)، وهذه «بريد الحجاز» تتخذ جانبًا آخر فتناصر عليًّا بن الحسين، وتلتمس طرق السلام بعيدًا عن الحرب(٣)، ويكتب آخر عن الأخلاق المهدورة في الحرب(٤).

وقد كانت سمة المقالة بصفة عامة في بريد الحجاز خلوها من شوائبها القديمة، واعتمادها اللفظة الرشيقة الخفيفة، فهي تنتمي إلى المدارس المحدثة في الكتابة أكثر من تأثرها بالأسلوب القديم في صياغة المقال.

وتكاد تخلو من النقاش الأدبي، سوى ما تنشره من قصائد تدعو إلى العزيمة، وتقوي بأس قرائها، وعلى الرغم من دعوتها الكتبة إلى الإسهام فيها بالكتابة، إلا أن الاستجابة كانت قليلة جدًا. فقد علقت على قصيدة للعواد بقولها :

«وصلتنا هذه القصيدة الغراء من فخر الشباب الناهض بجدة الشيخ محمد حسن عوّاد ننشرها بكل ابتهاج، وإن صفحات البريد مفتحة لما يجود به يراع الكتّاب والأدباء من الشبيبة الحجازية والعربية»(٥).

---

(١) مقالة : سوريا بركان يثور، الفلاح، العدد ٢ في ١٣٣٨/١٢/٢٤هـ.

(٢) الحجاز، عدد ١٠٥ في ١٣٣٥/٦/١هـ، الموافق ١٩١٧/٣/٢٥م.

(٣) مقالة : نداء، بقلم عربي صميم، بريد الحجاز، العدد١ السنة الأولى، ١٣٤٣/٤/٢٩هـ، ٢٦ نوفمبر ١٩٢٤م.

(٤) مقالة : إتقوا الله في النساء والأطفال والعزّل، رمز كاتبها لنفسه بـ : آسف، بريد الحجاز، عدد ٢، في ١٣٤٣/٥/٣هـ.

(٥) بريد الحجاز، عدد ٢ في ١٣٤٣/٥/٣هـ.

ومن المقالات السياسية : «غارة استطلاع جنودنا الأشاوس على الأعداء» عدد٣٢، السنة الأولى، الأربعاء، ٢٣ شعبان ١٣٤٣هـ.

ومقالة: «إن غداً لناظره قريب». العدد ٥٤، السنة الأولى، في ١٧ ذي الحجة ١٣٤٤هـ، ٨ يوليو سنة ١٩٢٥م.

وهذا التعليق من الجريدة صورة من التراجع أو الندم على الموقف من أقلام الشبيبة الحجازية، تلك الأقلام التي زحمت باستيفاد الكتّاب العرب للعمل في الصحافة الهاشمية.

ولعل هذا النداء دليل تراجع عن الموقف الخطأ من أقلام أبناء الحجاز، ذلك الموقف الذي نحى الأقلام النابهة عن الصحافة بما كان يقوم به الكتاب المستقدمون من أعمال إشرافية أو كتابية على الصحيفة.

ويصور تذمر الشبيبة الحجازية من ذلك الكبت الذي عاشوه هذه القصيدة للعواد، والتي منها :

طال عهد السكوت حتى مللنا وأردنا نكسر الأقلاما
طال عهد السكوت حتى حسبنا أن هذه الحياة عادت مناما[١]

(١) بريد الحجاز، عدد ٢ في ١٣٤٣/٥/٣هـ.

ب ــ المقالة الأدبيـة من نشأة أم القرى ١٣٤٣هـ إلى قيام عهد المؤسسات الصحافية عام ١٣٨٣هـ

- ــ مدخــل.
- ــ بدايات النهضة الأدبية.
- ــ إصدار الكتب المقالية.
- ــ مظاهر المقالة الأدبية في هذه الفترة.
- ــ أثر الثقافة العربية الحديثة في تكوين المقالة الأدبية.
- ــ استقلالية المقالة الأدبية السعودية.



مدخـــل :

في وسع الباحث أن يعدّ جريدة أم القرى مولدًا للأدب الحديث في هذه البلاد. وبدءًا لمسيرة أدبية وفكرية متميزة، وعلامة قوية من علامات الرغبة في النهوض بالأدب واللغة والوعي الوطني، فقد دأب كتابها ومحرروها على تنبيه الرأي العام إلى الوحدة والتعاضد والاتفاق، ونبذ الخلاف والفرقة والشتات(١).

ومن الحق أن تكون لها هذه المنزلة التأريخية السامية في أدب شبه الجزيرة العربية، بما بثته من رأي جديد له رونقه وبريقه، ومن أسلوب غير مألوف في الكتابة النثرية.

وقد ساعد على أن تبلغ في الأدب والوعي السياسي والوطني ما بلغته تفردها في الساحة الثقافية، واعتناء السلطة السياسية بها، ثم إنها ظلت تحتضن الأدب فاتحة صدور صفحاتها وأعقابها له، حتى حملت بعض عبئه عنها صوت الحجاز، والمنهل، والمدينة المنورة.

وقد عرف كتابها بذبّهم عن حمى الحكومة الجديدة النامية في الحجاز، وبردهم التهم وأراجيف القول، التي يلحقها بها الشانئون والمغرضون والموتورون، زد على ذلك كونها ورثت ذلك الزخم الكبير الذي كانت تتمتع به جريدة القبلة، وتلك الصيحات المدوية، يطلقها كتّابها ومحاموها السياسيون، وجاءت أم القرى من بعد وريثة لتلك في نظام جديد، ومبادىء مخالفة لها، وتيار قوي عنيف يأخذ

---

(١) صدر العدد الأول في يوم ١٣٤٣/٥/١٥هـ، ١٩٢٤/١٢/١٢م، وهي أول صحيفة سعودية، إلى كونها أخذت السمة الرسمية، وكانت تصدر أسبوعية متوجة صفحتها الأولى بالآية الكريمة : ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها﴾ سورة الشورى، الآية السابعة، رأس تحريرها في بداية أمرها يوسف ياسين، ثم خلفه رشدي ملحس ومحمد سعيد عبدالمقصود، وفؤاد شاكر، وعبدالقدوس الأنصاري، وكانت تطبع في المطبعة الحكومية، وصدرت في سنتيها الأولين بأربع صفحات ثم تضاعفت إلى ثمان صفحات في عام ١٣٤٥هـ، وازدادت عنايتها بالأدب إبان رئاسة محمد سعيد عبد المقصود إياها من عام ١٣٥٠هـ إلى سنة ١٣٥٥هـ، وامتدت تلك العناية بالأدب إلى ما بعد ١٣٦٠هـ بقليل حيث صارت إلى الأخبار الرسمية فقط.

انظر : د. محمد الشامخ، نشأة الصحافة في المملكة العربية السعودية، ص ١٤٩. محمد بن عباس، موجز تاريخ الصحافة في المملكة العربية السعودية ص ٦٣.

في توسعه وامتداده اللافتين؛ على أنها قد حرصت على أن تحقق نجاحًا في ميدان الأدب والسياسة، ونصرة هذه القوة الجديدة التي يأمل فيها العرب والمسلمون أن تعيد لهم عزتهم، وأن تجمع القلوب على كلمة سواء «ولقد قدر الله الكريم لطائفة من هذه الأمة العربية أن شغلت بنفسها عن الناس أجمعين، وسعت في السير على السنن الذي كان لهذه الأمة أول يوم أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فأخذ الله بيدها واجتمع عليها عصبة ذات قوة وبأس، وجعلت تنشر الدعوة للطريق الذي اتبعته تدعو الناس أجمعين للأخذ بما أخذت به لعلّ الله أن يبدل للمسلمين من بعد خوفهم أمنًا، ومن بعد ذلتهم عزة، ومن بعد ضعفهم قوة»[1]، وقد شغل كتّاب هذا العهد الجديد صفحات أم القرى بالمقالات السياسية الملتهبة وأضافوا معاني سامية، ومفاهيم في الوعي القومي والديني جديدة كل الجدّة[2].

وواصلت الجريدة هذا السعي في السنوات التالية لنشأتها تجمع بين الأدب والسياسة والاجتماع حتى كادت تخلص للأدب أشد الإخلاص في سنواتها الأولى من ١٣٤٣هـ ــ ١٣٥٥هـ تقريبًا فازدحمت صفحاتها بالبحوث، والمقالات، والقصائد، تدعو إلى الإصلاح، وتشيد بالتوفيق في كثير من الأفكار الجديدة

---

(١) مقالة : عونك اللهم، أم القرى، العدد الأول، في ١٥/٥/١٣٤٣هـ، الموافق ١٢/١٢/١٩٢٤م. الافتتاحية، ويبدو أن كاتبها يوسف ياسين، وبدأ اسمه يكتب في مقدمة الجريدة منذ العدد الثالث : (المدير المسئول).

(٢) من المقالات السياسية مثلاً :
ــ ماذا يبتغون، أم القرى عدد ٣، ٢٩/٥/١٣٤٤٣هـ، لم يذكر اسم الكاتب.
ــ لا تراوغوا، أم القرى، عدد ٤،٦/٦/١٣٤٣هـ، لم يذكر اسم الكاتب.
ــ الأمن في الحجاز، ماضيه وحاضره ومستقبله، أم القرى عدد ٧،٢٨/٦/١٣٤٣هـ، لم يذكر اسم الكاتب
ــ حبل أكاذيبهم، أم القرى، عدد ٣١ السنة الأولى ، ١٣٤٩هـ، ص١، دون ذكر لاسم الكاتب وسأفرد للمقالة السياسية عنواناً في مدخل الفصل الثاني ص ٢١١.

التي يبثها أبناء شبه الجزيرة على صفحاتها، أدبًا، أو دفاعًا سياسيًّا، أو نقدًا اجتماعيًّا[١].

ويظهر أن الأدب في هذه البلاد لم ينشط إلا بصدور صحيفة أم القرى، وظهور هذا اللون الجديد من المقالات الأدبية والسياسية فليس غريبًا أن يبدأ درس هذا الأدب وتصنيف مذاهبه من ذلك النتاج الثر الوافر المنشور على صفحاتها، ومما نشأ بعد في صحافة البلاد من شعر ونثر قويين في الخمسينات والستينات الهجرية وما تلاها.

والملحوظ في أدب فترة النشأة فورة الحماسة الخطابية في كثير مما نشر من أدب المقالة، وخاصة تلك السنوات التي صاحبت ظهور أم القرى، وسعي الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود إلى توحيد مناطق شبه الجزيرة في دولة واحدة، وما كان يقف أمام ذلك السعي من دواعي فرقة تبثها الطوائف المختلفة، فها هم أولئك الأشراف بعد أن تخلّت عنهم مكة لجأوا إلى جدة، وكونوا لهم أنصارًا ومؤيدين، وهناك ثلة من شبان جدة وأعيانها يبحثون فيما حولهم عن الخلاص فيتيهون ويحارون، وعلي بن الحسين يلملم شعثه، ويبعث فيمن حوله الحمية والنخوة لشد أزره، ولا يملك شبان الحجاز إلا أن ينصاعوا إلى أقرب الناس إليهم في ذلك الوقت، إلى عَليّ ينشدون فيه الخلاص من فترة الضياع السياسي والاجتماعي التي عاشوها في عهد أبيه.

وتولت بريد الحجاز نقل مشاعر الحزب، وقذف الجيش النجدي وقائده بشتى الأوصاف الدالة على الجلافة وفساد الطبع، و لم يكن لأحد أن يردّ شيئًا من هذه

---

(١) وقد قامت جامعة أم القرى بفهرسة كاملة لمواد هذه الجريدة في ثلاثة مجلدات، بعد تحولها إلى جريدة لاعلانات الحكومة ونشر قوانينها. وقام د. منصور الحازمي بفهرسة عشرين عاماً فقط من موضوعات الأدب في هذه الجريدة بعنوان (معجم المصادر الصحفية لدراسة الأدب والفكر في المملكة العربية السعودية، أم القرى، من سنة ١٣٤٣هـ — ١٣٦٥ه، (١٩٢٤—١٩٤٥م) مطبوعات جامعة الرياض، ط١، ١٣٩٤هـ. الرياض.

المزاعم غير أم القرى بكتّابها والملتفين حولها، تشرح وجهات النظر الإصلاحية التي تريدها الحكومة الجديدة، وتنكر على من يشينونها أو يزرون بها ما يقوله أو يتقوله الشانئون والخصوم، كالذي ورد على لسان الحزب الوطني، وما كانت تنشره بعض صحف مصر وغيرها.

بدايات النهضة الأدبية

لم يكن للأدب شأن يُذكر قبل أم القرى؛ غير تلك المقارضات والرسائل والإجازات والتآليف الفقهية، والتصانيف في بعض مسائل الدين واللغة، إلا أن الثورة العربية التي أعلنها الحسين بن علي، وخلع بها أي ولاء للدولة العثمانية أيقظت الروح العربية الخامدة، وأشعلت في النفوس وقدة الحماسة للمطالبة بالحقوق العربية المهضومة، وأنارت الطريق الأولى إلى الوحدة العربية المأمولة، ويسّرت وسائل الاتصال ببعض مثقفي العرب الثائرين في مصر وسوريا وفلسطين، إلا أن الحسين لم يوفق إلى استثمار تلك الروح فأفسدت أعماله التي امتزجت بسوء الظن، وعدم الثقة بشبيبة البلاد كل ما يمكن جنيه من تلك اليقظة الجديدة، الأمر الذي هيأ النفوس لاستقبال العهد الجديد، عهد الاستقرار والوحدة الذي جاء مع قيام الملك عبدالعزيز بتوحيد أقطار شبه الجزيرة.

أما التعليم فقد كان محصورًا في بعض المدارس، ولدى عدد من المشائخ في بعض المساجد المشهورة، وما كان يتبرع به الخيّرون من أبناء الجالية العربية والإسلامية لرعاية الدرس والتعليم، كالمدرسة الصولتية بمكة، ومدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة، ومدرستي الفلاح بجدة ومكة[1].

ويذكر السباعي أن الشريف حسينًا بن علي أمر بفتح مدرستين للعناية بعلوم الشريعة واللغة[2]، إلا أن الطبقة الكبيرة من الشعب ظلت في منأى عن نور التعليم، وظل بعض الأدباء بعيدًا عن اهتمام الناس به، وكأن المتأدبين والمطلعين

---

(١) انظر : عبدالوهاب أحمد عبدالواسع، التعليم في المملكة العربية السعودية بين واقع حاضره واستشراف مستقبله، تهامة، ط٢، ١٤٠٣هـ، ص ٢٥، وانظر بحثاً وافياً عن المدرسة الصولتية بمكة، ومدرسة العلوم الشرعية بالمدينة ومدارس الفلاح، نشر في مجلة المنهل، عدد ٤٦٧، السنة ٥٥ المجلد ٥٠، ربيع الثاني وجمادى الأول ١٤٠٩هـ، ديسمبر ١٩٨٨م، ويناير ١٩٨٩م، ص ١٤٨ــ١٧٣. وفيه تعداد لأبرز معلميها، وتلامذتها، والنابهين فيهم، مع صور نادرة لبعضهم، ولبعض مقار هذه المدارس.

(٢) انظر : أحمد السباعي، تاريخ مكة، ص ٦٢٢، اسم المدرسة الأولى الخيرية والثانية الراقية. وأحمد محمد جمال، ماذا في الحجاز، ص ١٥ دار الثقافة للطباعة، مكة، ط٢، ١٤٠٨هـ.

على بعض المعارف التقليدية يغردون في سربهم من غير أن يؤثروا في الحياة العامة، أو يتأثروا بكثير مما فيها.

ويذكر محمد سعيد العامودي «إن الغالبية العظمى من أدبائنا في تلك الآونة كانوا ضعافًا في ثقافتهم العربية القديمة من جهة، وضعافًا في ثقافتهم الغربية من جهة أخرى»[١].

ويشير أحمد العربي إلى الفترة التي تلت عام ١٣٣٤هـ ـــ ١٩١٦م فيصف ما جاء فيها بأنها «كتابات سقيمة المعنى، واهية السبك، ملتوية الأسلوب»[٢].

ولعل الكبت الذي أحاط بأقلام الشباب في تلك الفترة القصيرة كان سببًا في حجب قدراتهم وحجز ملكاتهم عن التدفق بشيء من الأدب المقبول.

فلما جاء العهد السعودي تفاءل به الأدباء وأحسّوا أن القيد الثقيل الجاثم على أفئدتهم قد زال؛ فما كانوا يستطيعون أن يطلقوا لأقلامهم حريتها، ولا أن يكتبوا ما يشاؤون في ظل قيود صارمة تحرم النقد، وتقسو على من يبدي ضجرًا من أي تصرف[٣].

ويجد من يتتبع مقالات فترة النهضة ما يشير ـــ تصريحًا أو تلميحًا ـــ إلى ذلك العهد الثقيل على الكلمة، فهذا محرر صحيفة صوت الحجاز[٤] يقول:

«.. ليس لرجالنا اليوم عذر، ولا لأدبائنا مندوحة عن أداء الواجب الوطني بإبراز ما تكنه ضمائرهم من حب الخير والمنفعة لهذه البلاد، وبذل النصيحة

---

(١) مقالة «الأدب الحجازي» صوت الحجاز، عدد ١٩٥، س٤، عام ١٩٣٦م، ص٥.

(٢) مقالة: «الأدب الحديث في الحجاز» وحي الصحراء، ص ١٢٥، وهي في الأصل محاضرة ألقيت في النادي الأدبي بسنغافورة في ٢١ جمادى الأولى سنة ١٣٥٣هـ.

(٣) انظر: الأدب الحديث تاريخ ودراسات، د. محمد بن سعد بن حسين، ص ٣٢٠.
وانظر: النثر الأدبي في المملكة العربية السعودية، د. محمد الشامخ، ص ٩٨.
وانظر: تاريخ الحجاز، حسين محمد نصيف، ص ١٥٦.

(٤) صدر أول عدد منها في مكة المكرمة في ١٣٥٩/١١/٢٧هـ، الموافق ١٩٣٢/٤/٤م، في حجم صغير أولَ عهدها، وتولى رئاسة تحريرها عبدالوهاب آشي، يقول عنها صاحبها ومديرها محمد صالح نصيف «لسان حال النهضة الأدبية الحجازية» «انظر: العدد الأول في ١٣٥٠/١١/٢٧هـ، وكانت تقوم على ما يدفعه إليها الأدباء من مقالات ودراسات وقصائد فهي «تستحق اسم موسوعة الأدب

والإرشاد، وإظهار وجوه الحق والصواب، والدعوة إلى الفضيلة والمكارم، والأخذ بيد الأمة إلى ما يرفع مستواها العلمي والأدبي والسياسي، فباب القول والعمل قد فُتح على مصراعيه، وميدانها رحيب لمن يريد الاقتحام»[١].

وفي موضع آخر يعلل محرر الجريدة تأخر النهضة في البلاد بعدم فهم الناس لمعنى الحرية الجديدة التي فاجأتهم على حين كانوا يقاسون الشدة في القول والتعبير، «ولعل من بعض الأسباب التي جعلتنا نحيد عن الطريق في تكوين نهضتنا الأدبية حول صحيفتنا مفاجأتنا بالحرية المطلقة في حياتنا الاجتماعية التي لم نألفها من قبل، وهذا أصرح معنى لا يلتوي تفسيره على أحد من شبابنا المفكر»[٢].

أطلقت الأقلام من مكامنها، فأشرعت تقاوم الجهل، فتعصف بالمثبطات، وتستثير الهمم نحو التقدم إلى مراقي المعارف، ومصاعد التعليم، وتفصح عن مكنون نهضاتنا العربية والإسلامية في التاريخ، فتذكّر بما كان، وتدعو إلى الاحتذاء والاقتداء، وتكشف ما يعتقل العقول والأنفس من أسباب التقليد الاجتماعي الفج، وما تحتكم إليه طوائف الناس من أعراف متآكلة في طقوسهم الاجتماعية، وأشكالهم المألوفة في الحياة العامة[٣].

الحجازي»، انظر : الأدب الحجازي الحديث، د. إبراهيم الفوازن، جـ٢، ص ٦٢٥.

وتولى تحريرها بعد الآشي محمد حسن فقي، محمد حسن عواد، محمد علي رضا، أحمد السباعي، فؤاد شاكر، حسين عرب، محمد سعيد العامودي، محمد حسن كتبي، أحمد قنديل وغيرهم، وصدرت أول الأمر أسبوعية، ثم مرتين في الأسبوع، وظهرت في عامها الأول بثمان صفحات، ثم قلت صفحاتها إلى الأربع، وقد انقطعت عن الصدور في شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٦٠هـ، الموافق ٢١ يوليو ١٩٤١م، ثم عادت في سنة ١٣٦٥هـ، الموافق ١٩٤٦م، باسم البلاد السعودية، وفي عام ١٣٧٦هـ، الموافق ١٩٥٣، صدرت يومية، وفي عام ١٣٨٢هـ، الموافق ١٩٥٩م اختصر اسمها إلى «البلاد»، ولا زالت.

انظر : نشأة الصحافة، د. محمد الشامخ ص ١٦١.

(١) مقالة : افتتاح الصحيفة، صوت الحجاز، عدد١، في ١٣٥٠/١١/٢٧هـ، الموافق ١٩٣٢/٤/٤م. الافتتاحية، ولم يكتب اسم صاحب المقالة.

(٢) صوت الحجاز عدد ٩٦ في ١٣٥٢/١١/٥هـ، الموافق ١٩٣٤/٢/١٩م مقالة «كلمة صريحة حول نهضتنا الأدبية».

(٣) سترد في الفصول التالية مقالات كثيرة تعرض لشتى المسائل المتصلة بالحياة عامة في بلادنا، سيما في فترة بداية النهضة، وازدهارها الأدبي، في السبعينات وما قبلها.

ويقصّ شيئًا من أثر تلك الرحلة المضنية في الكفاح بالكلمة في سبيل النهضة أحد روادها ومناضليها، عبدالقدوس الأنصاري[١] «.. بعدما رسخت قواعد الدولة السعودية وجد الشباب مجالًا واسعًا في الكلام وإبداء الآراء، واستهدفوا قبل كل شيء نشر أدبهم السعودي الحديث في جميع أنحاء المملكة إما بالدعاية له والدعوة إليه، أو بالكتابة أو بالنشر، ولقد تكونت في ذلك الوقت صحف كان أولها صحيفة أم القرى الرسمية، ومع أنها كانت رسمية لم تتورع أن تكتب وتنشر في الإصلاح على نهج الصحافة نوعًا ما، فكان الكتّاب الذين ينشرون في أم القرى وعلى رأسهم محمد سعيد عبدالمقصود[٢] كانوا فاتحة الثورة

---

(١) ولد بالمدينة المنورة سنة ١٣٢٤هـ،١٩٠٦م، وتلقى تعليمه في مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة، أنشا مجلة المنهل، عام ١٣٥٥هـ، فخدمت الأدب السعودي خدمة جلّى، وشارك في التأليف العلمي، والكتابة المقالية، وتولى مدة سنة رئاسة تحرير أم القرى عام ١٣٥٩هـ.

من مؤلفاته : تحقيق أمكنة في الحجاز وتهامة، صدر سنة ١٣٧٩هـ. وتاريخ مدينة جدة صدر عام ١٣٨٣هـ، وكتاب «بين التاريخ والآثار» سنة ١٣٩١هـ، وكتاب «بنو سليم» وكتاب «طريق الهجرة» سنة ١٣٩٨هـ.

ويعد الأنصاري رائداً في كتابة القصة والرواية المحلية، فقد أصدر سنة ١٣٤٨هـ، رواية اجتماعية إصلاحية بعنوان «التوأمان» ثم كتب رواية «مرهم التناسي».

توفي في ٢٦ جمادى الثانية سنة ١٤٠٣هـ، الموافق ٩ أبريل ١٩٨٣م.

انظر : مجلة المنهل، العدد الخاص بتراجم أدباء المملكة، الجزء السابع والعشرون، رجب ١٣٨٦هـ، نوفمبر ١٩٦٦م، ص ٩١٣. والمنهل أيضاً عدد ٤٣٠، مجلد ٤٦، سنة ٥١، محرم وصفر من عام ١٤٠٥هـ، الموافق أكتوبر ونوفمبر من عام ١٩٨٤م، ص ٥٠،٦٠. ووحي الصحراء (صفحة من الأدب العصري في الحجاز) جمع محمد سعيد عبدالمقصود وعبدالله عمر بلخير، تهامة، في السلسلة رقم ٨٦،ط٢، عام ١٤٠٣هـ،ص ٢٤١.

وقد نوقشت رسالة ماجستير عن حياته وأدبه قدمها نبيل المحيش في شهر ذي القعدة من عام ١٤٠٨هـ.

وانظر عن حياته مقالاً بعنوان : عبدالقدوس الأنصاري اللغوي المحقق والأديب المؤرخ. كتبه أحمد محمد عبدالدايم. المنهل س ٥٤،م ٤٩،ع. ٤٦، جمادى الثانية ١٤٠٨هـز ص ٢٠٢ ــ ٢٠٥.

(٢) ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م، وتلقى تعليمه في حلقات الدرس بالمسجد الحرام، ثم بمدرسة الفلاح بمكة، تولى إدارة أم القرى سنة ١٣٤٥هـ، ومطبعتها فقدم لها خدمة جليلة، وأسهم في معالجة كثير من عوائق النهضة الاجتماعية والأدبية، وكانت فترة رئاسته لأم القرى من أخصب فتراتها. قام بعمل ريادي لجمع ألوان من أدب الشبيبة الحجازية آنذاك في عام ١٣٥٥هـ، مع صديقه عبدالله عمر بلخير. وتوفي رحمه الله في منتصف ربيع الثاني سنة ١٣٦٠هـ، انظر الجزء الثاني، الفصل السادس من هذا الكتاب، المقالة الاجتماعية.

الإصلاحية .. وكان للكتّاب شيء من الصلابة والشجاعة لأن يكتبوا ما يرون، وكان الملك عبدالعزيز شخصية كبيرة مصلحة أكبر من أن يُنتقد أو يلومه أحد ما، وكان يسهّل لهم الطريق، ويفتح لهم أبوابًا عدّة .

وكذلك كنّا نكتب كثيرًا مما نراه ونحن نعلم أنه لا يخلو من النقد البنّاء الهادف فلا يصادر رأي أحد، وهؤلاء الكتّاب كان أكثرهم موظفين في دواوين الحكومة الرسمية العالية»[1].

وتوالت أجيال المتعلمين تتخرج في مراكز العلم الوليدة المنتشرة في أرجاء البلاد، تدفع بالنهضة إلى الأمام، وتنير الطريق للوصول بالمجتمع إلى الخلاص من أوباء الأمية والجهل والجمود. وكانت البداية سنة ١٣٤٤هـ حين أمر الملك عبدالعزيز بإنشاء مديرية للمعارف، ثم افتتح المعهد السعودي بمكة عام ١٣٤٦هـ، وأنشئت مدرسة تحضير البعثات عام ١٣٥٦هـ، وبدأ التعليم بعد عام ١٣٧٩هـ يأخذ مداه الأوسع فحولت مدارس تحضير البعثات إلى مدارس ثانوية مدة الدراسة فيها ست سنين، ثلاث متوسطة، وثلاث ثانوية. وافتتح في مدينة الطائف منشأة علمية رائدة استجلب لها خيرة المعلمين وأمدت البلاد بعقول مستنيرة، تلك هي دار التوحيد سنة ١٣٦٣هـ. ثم افتتح المعهد العلمي بالرياض عام ١٣٧١هـ، وابتدأ تعليم البنات عام ١٣٧٩هـ ودخل التعليم الجامعي إلى البلاد سنة ١٣٦٩هـ، بافتتاح كلية الشريعة واللغة العربية بمكة المكرمة، ثم كلية الشريعة، وكلية اللغة العربية بالرياض، ثم جامعة الملك سعود، وبعد ذلك امتدت أنوار التعليم لتتوسع توسعًا هائلًا في مختلف التخصصات المهنية، والعلمية، والأدبية والدينية.

انظر : محمد سعيد عبدالمقصود خوجة حياته وآثاره، تأليف د. محمد بن سعد بن حسين سلسلة تهامة رقم ١٠٤،ط١، عام ١٤٠٤هـ.

وحي الصحراء، الوجه الثاني من الصحفة الأخيرة، ط٢، عام ١٤٠٣هـ.

(١) انظر : مجلة المنهل عدد ٤٣٠، مجلد ٤٦، سنة ٥١، محرم وصفر سنة ١٤٠٥هـ، اكتوبر ونوفمبر ١٩٨٤م. ص ٦٦—٧٧.

وقد صاحب الدعوة إلى افتتاح المدارس ما كان يبثه الشبان النابهون من دعوات إصلاحية في صحيفة أم القرى، ثم في صوت الحجاز حتى توافر من كل هذا النشاط قرّاء ومتابعون، وازدادت الحاجة إلى وسائل تذيع ما يتطلبه الوعي الجديد من توقد فكري وأدبي، فصدرت مجلة المنهل[١] في شهر ذي الحجة عام ١٣٥٥هـ، ثم جريدة المدينة المنورة عام ١٣٥٦هـ في ٢٦ محرم، ومجلة النداء[٢] الإسلامي عام ١٣٥٦هـ، ومجلة الحج[٣] عام ١٣٦٦هـ.

وبدخول العقد الثامن من القرن الرابع عشر الهجري شهدت البلاد إقبالًا لافتًا للنظر في إصدار الصحف والمجلات، فصدرت في الرياض مجلة اليمامة[٤]، عام ١٣٧٢هـ /١٩٥٣م، وهي أول صحيفة تُنشأ في نجد أصدرها حمد

---

(١) أصدرها عبدالقدوس الأنصاري في المدينة المنورة مجلة شهرية (تخدم الأدب والثقافة والعلم) يقول صاحبها «.. وإن من علامات خطوة المنهل بما تصبو إليه من نجاح مطرد في سبيل أداء رسالتها الأدبية العالية ما نراه ماثلاً في الأذهان من ضرورة السمو بهذا الأدب الحجازي، وإبرازه في حلة قشيبة تليق بمكانة الحجاز الدينية ومنزلته الاجتماعية في العروبة والاسلام» المنهل عدد ٢، عام ١٣٥٥هـ، وقد أولت اهتمامها بالأدب، وأصدرت أعداداً خاصة يمكن أن تكون مرجعاً مهما فيما طرقته. ويتولى تحريرها الآن نبيه بن عبدالقدوس الأنصاري.

وقد صدر عن المجلة كتاب في جزئين «مجلة المنهل وأثرها في النهضة السعودية» من ١٣٥٥هـ-١٣٨٣هـ، تأليف د. السيد تقي الدين، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، عام ١٤٠٤هـ.

(٢) شعارها ﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا﴾ سورة آل عمران، رقم الآية ١٩٣.

أسهم في تحريرها عديد من الكتاب المعروفين في المملكة، مثل العطار، الشورى، الخطيب، العواد، صدر العدد الأخير منها في شوال ١٣٥٧هـ، برقم ١٩.

(٣) صدرت عن إدارة الحج العامة (الآن وزارة الحج والأوقاف). ورأس تحريرها هاشم يوسف الزواوي، ثم محمد سعيد العامودي.

(٤) طُبع العدد الأول في القاهرة، ثم في مكة، فلبنان، ثم طبعت في الرياض عام ١٣٧٥هـ، ١٩٥٥م، وصدرت أسبوعية تعنى بالأبحاث التاريخية واللغوية، والجغرافية، وبعض المسائل الأدبية، وقد تقلبت بها الحال إلى شهرية، ثم أسبوعية ثم تحولت إلى صحيفة، وأخيراً مجلة أسبوعية.

الجاسر[١]. ومجلة قافلة الزيت[٢] عام ١٣٧٣هـ شهر صفر، ومجلة الرياض[٣] سنة ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م.

وفي المنطقة الشرقية صدرت «أخبار الظهران»[٤] في ١٣٧٤/٥/١هـ الموافق ٢٦ كانون الأول ١٩٥٤م، وتولى رئاسة تحريرها عبدالكريم الجهيمان[٥]، وصدرت مجلة الفجر الجديد[٦] عام ١٣٧٤هـ. ومجلة الإذاعة والتلفزيون[٧] عام

---

(١) ولد في قرية البرود من إقليم سدير في نجد، سنة ١٣٢٩هـ، ١٩١١م، حفظ القرآن صغيراً، ثم انتقل إلى مكة فالتحق فيها بالمعهد العلمي السعودي، وتخرج فيه، وابتعث إلى مصر فواصل دراسته في كلية الآداب بجامعة القاهرة، وعمل في القضاء وفي التعليم، ثم عين مديراً لكليتي الشريعة واللغة بالرياض، ثم ترك الوظائف الحكومية، وأنشأ أولى المطابع في الرياض، وأنشأ اليمامة، واهتم بالبحث الجغرافي، وتحقيق الواقع، وأدب الرحلات، وتحقيق كثير من كتب التراث.

من مؤلفاته : المعجم الحديث لبلاد نجد، مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية وغيرها.

انظر : الموسوعة الأدبية، عبد السلام الساسي جـ٢ ص ١١٩، مطابع دار الثقافة، مكة، ١٣٩٥هـ، طـ١.

(٦) تصدرها شركة أرامكو، تولى إدارة تحريرها حافظ الباردوي، شكيب الأموي، سيف الدين عاشور.

(٣) صدرت بمدينة جدة، تولى إدارتها أحمد عبيد، ورئيس التحرير مدني بن حمد. تهتم بالتحقيق الصحفي، صدرت مدة سنة ونصف فقط.

(٤) جريدة أسبوعية جامعة، صدرت أول الأمر من مكة، ثم انتقلت إلى الظهران، وتحول اسمها إلى «الظهران» وتولى إدارتها عبدالعزيز العيسى، صدر منها ٤٤ عدداً.

(٥) ولد في بلدة غسلة إحدى قرى الوشم عام ١٣٣٣هـ، إلتحق بالمعهد السعودي بمكة، وتخرج فيه عام ١٣٥١هـ، إشتغل بالتعليم، ودرّس في المعهد السعودي، وعين مدرساً لأنجال ولي العهد سعود، ومديراً لمدرسة أنجال الأمير عبدالله بن عبدالرحمن آل سعود أصدر صحيفة أخبار الظهران عام ١٣٧٣هـ، وله كتابات متعددة، وجهد مشكور في جمع التراث الشعبي، وعرف بوطنيته، وحماسته القوية في الإصلاح.

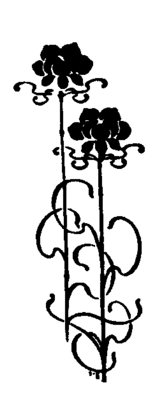
من مؤلفاته : آراء فرد من الشعب، دخان ولهب، أين الطريق، أساطير شعبية في قلب جزيرة العرب ٤ أجزاء، الأمثال الشعبية في قلب جزيرة العرب ١٠ أجزاء.

انظر : شعراء نجد المعاصرون، عبدالله بن إدريس ص ١٦٩، مجلة المنهل، العدد الخاص بتراجم أدباء المملكة، ص ٩٢٥، معجم المطبوعات العربية، المملكة العربية السعودية، د. علي جواد الطاهر، جـ٢ ص ١٨.

(٦) صدر منها ثلاثة أعداد، تولى إدارتها يوسف الشيخ يعقوب.

(٧) أصدرتها المديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر بجدة (وزارة الإعلام الآن)، وكانت شهرية، وتوقفت بعد سنوات، ولم تكن منتظمة.

١٣٧٥هـ، ومجلة الإشعاع عام ١٣٧٥هـ في محرم، أصدرها سعد البواردي[١].
وصدرت في مدينة الخبر جريدة الخليج[٢] عام ١٣٧٥هـ، وانقطعت سنتين ثم عاودت الصدور باسم الخليج العربي وتولى تحريرها عبدالله أحمد شباط[٣].



---

(١) ولد في بلدة شقراء، من قرى الوشم عام ١٣٤٩هـ، وفيها تلقى تعليمه الابتدائي، ثم التحق بدار التوحيد في الطائف، ودرس فيها السنتين الأوليين، ولكن ظروف المعيشة اضطرته إلى قطع الدراسة والعمل في مدينة الخبر، وأصدر مجلة «الإشعاع» عام ١٣٧٥هـ، تنقل في العمل بين وزارة المعارف في بعض إدارتها، وأعمال ثقافية أخرى، استقر به المقام العمل في القاهرة في المكتب التعليمي بالسفارة السعودية.

من مؤلفاته : أجراس المجتمع ـ أغنية العودة، ذرات في الأفق، فلسفة المجانين، لقطات ملونة، رسائل إلى نازك، وغيرها.

انظر : شعراء نجد المعاصرون، عبدالله بن إدريس ص ١٥٣، معجم المطبوعات، د. علي جواد الطاهر، جـ١ ص ٤٢٤.

(٢) أسبوعية جامعة صدرت عن دار الخليج العربي للطباعة والنشر بالخبر.

(٣) ولد عام ١٣٥٣هـ، في الأحساء، ودرس في المعهد العلمي، كتب القصة، والمقال، في جريدة اليوم، ومجلة الشرق السعوديتين، والبيان، والبلاغ الكويتيتين، اشتغل بالصحافة أول أمره ثم انصرف إلى التجارة، وظل يكتب المقالة والبحث الأدبي.

انظر : دليل الكاتب السعودي، الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، ص ١٤٩.

وتوالى إصدار الصحف ففي القصيم صدرت أول جريدة في هذه المنطقة هي جريدة القصيم[١]، وصدرت عام ١٣٧٦هـ صحيفة الأضواء[٢]، وصدرت جريدة حراء[٣] عام ١٣٧٦هـ، وعرفات[٤] عام ١٣٧٧هـ، وأصدر الأديب أحمد السباعي[٥] مجلة قريش في مكة المكرمة عام ١٣٧٩هـ، وأصدر عبدالفتاح أبو مدين[٦] مجلة الرائد[٧] سنة ١٣٧٩هـ أيضًا.

---

(١) جريدة أسبوعة صدرت بمدينة بريدة، صاحبها عبدالله العلي الصانع، ثم انتقل امتيازها إلى صالح السليمان العمري بعد عدد ١١٤، في ١٣٨١/٩/٢٣هـ، وتوقفت عند عدد ٢١٦ في ١٣٨٣/١٠/٢٨هـ.

(٢) صحيفة يومية، صدرت أسبوعياً مؤقتاً، أصدرها محمد سعيد باعشن، وعالج كتابها قضايا الأدب والمجتمع، والاقتصاد، واستمرت حتى عام ١٣٧٨هـ.

(٣) أسبوعية جامعة، صدرت في مكة المكرمة، رأس تحريرها صالح محمد جمال، ثم انضمت إلى جريدة الندوة لصدورهما في مدينة واحدة، وصدرتا باسم حراء، ثم باسم الندوة، واستمرت بعد نظام المؤسسات تحت رئاسة أحمد السباعي.

(٤) أسبوعية، رأس تحريرها حسن عبدالحي قزاز، وانضمت إلى جريدة البلاد السعودية، وصدرت باسم البلاد.

(٥) أحمد بن محمد السباعي، ولد بمكة سنة ١٣٢٣هـ، ونشأ في مدارسها على عهد الشريف حسين بن علي، وحفظ القرآن الكريم ثم انتقل إلى المدرسة الراقية، ودخل مدرسة الأقباط بالأسكندرية، ومكث بها عامين، وعاد إلى مكة والتحق بالمعارف معلماً في المدرسة التحضيرية وعدة مدارس ابتدائية.

اشتغل بالأدب، وكتب المقالة، والبحث التاريخي، والقصة، وعمل بالصحافة محرراً في صوت الحجاز، ثم رئيساً للتحرير.

أصدر جريدة الندوة، ومجلة قريش، كان من أبرز الدعاة للمسرح، ولتعليم المرأة، نال جائزة الدولة التقديرية الأولى عام ١٤٠٣هـ، وتوفي في عام ١٤٠٥هـ.

من مؤلفاته : تاريخ مكة، أيامي، خالتي كدرجان، فكرة، فلسفة الجن، قال وقلت، مطوفون وحجاج، يوميات مجنون.

انظر : معجم المطبوعات جـ١ ص ٢٦٥، وحي الصحراء، ص طـ٢.

(٦) ولد ببنغازي في ليبيا عام ١٣٤٣هـ، هاجر إلى المدينة المنورة، ودرس المرحلة الابتدائية في مدرسة العلوم الشرعية بها، ولم يكمل تعليمه. كتب في النقد الأدبي، والاجتماع، والقضايا المتصلة بالصحافة. اشترك مع محمد سعيد باعشن في إصدار الأضواء، وتولى إدارة «الرائد» ورأس تحريرها.

من مؤلفاته : أمواج وأثباج، تلك الأيام، في معترك الحياة، التحقيقات المعدة بحتمية ضم جيم جدة، بالاشتراك مع عبدالقدوس الأنصاري.

انظر : معجم المطبوعات جـ١ ص ٦٠٦. الموسوعة الأدبية جـ٣، ص ٩١.

(٧) مجلة أدبية اجتماعية، تناول كتابها شتى الموضوعات الأدبية والاجتماعية والسياسية، واستقبلت نتاج الشبيبة النجدية واحتلفت به، وتميزت بالجرأة والصراحة في القول، والأسلوب الأدبي الرفيع.

وفي نجد صدرت مجلة أخرى قوية ناهضة هي مجلة الجزيرة[1] أصدرها الأديب عبدالله بن خميس[2] في سنة ١٣٧٩هـ، وفي السنة ذاتها أصدر أحمد عبدالغفور عطار[3] جريدة عكاظ.

وفي أتون ذلك النشاط المتأجج حفلت هذه الصحف بألوان مختلفة من المقالات الأدبية والعلمية والصحفية.

---

(١) شهريـة جامعة، احتوت مواضيع أدبية واجتماعية توقفت بعد صدور نظام المؤسسات.

(٢) من مواليد الملقى قرب الدرعية، سنة ١٣٣٩هـ/١٩٢٠م، ونشأ في الدرعية فتلقى فيها تعليمه الأول ثم التحق بمدرسة دار التوحيد بالطائف، وبعد تخرجه فيها التحق بكلية الشريعة في مكة المكرمة، عين بعد تخرجه مديراً للمعهد العلمي في الأحساء وبعد ذلك تولى إدارة كليتي الشريعة واللغة العربية في الرياض، ثم عين مديراً عاماً لرئاسة القضاء، فوكيلاً لوزارة المواصلات فرئيساً عاماً لمصلحة مياه الرياض، ثم ترك العمل الوظيفي متفرغاً للعلم والبحث والأدب. حصل على جائزة الدولة التقديرية الأولى عام ١٤٠٣هـ.

أسس مجلة الجزيرة، التي تحولت فيما بعد إلى صحيفة الجزيرة الأسبوعية ثم اليومية من مؤلفاته : الأدب الشعبي في جزيرة العرب، المجاز بين اليمامة والحجاز، ديوان على ربى اليمامة، الشوارد جزءان، من جهاد قلم جزءان.

انظر : المنهل، العدد الخاص بتراجم أدباء المملكة عام ١٣٨٦هـ، ص ٨٢٠، الموسوعة الأدبية، جـ٣، ص ١٤٩، معجم المطبوعات، جـ٢ ص ٤٧ وانظر ص ٥٤١ من هذه الدراسة.

(٣) ولد بمكة المكرمة في ٢٤ من شهر ذي الحجة ١٣٧٧هـ، ١٩١٨م، وفيها نشأ فتلقى تعليمه في مدارسها، ثم التحق بالمعهد العلمي السعودي، وتخرج فيه سنة ١٣٥٥هـ، ثم ابتعث إلى مصر، فالتحق بكلية دار العلوم، ولكنه عاد إلى الوطن، والتحق بسلك الوظائف متفرغاً للعلم والأدب والبحث والدراسة. حاز على جائزة الدولة التقديرية في الأدب عام ١٤٠٤هـ.

له من الآثار : تحقيق مقدمة «تهذيب اللغة»، ترجمة مسرحية «الزنابق الحمر» عن اللغة البنغالية، مجموعة قصصية «أريد أن أرى الله» وفي المقالات «كتابي» المقالات «قضايا ومشكلات لغوية».

انظر : الموجز في تاريخ الأدب العربي السعودي ص ١٨٤، د. عمر الطيب الساسي، طـ١، ١٤٠٦هـ. تهامة، ومعجم المطبوعات جـ١ ص ٢٧٤، انظر جـ٢، فصل ٤، من هذا الكتاب، المقالة النقدية.

إصدار الكتب المقالية :

قام البعث الثقافي ــ في أول الأمر ــ بجهود فردية، إذ توافر له نفر من الشبان المخلصين الذين حزّ في نفوسهم ما بلغه الوطن من انحطاط وضعة، فاجتمعوا على أن يبذلوا ما في وسعهم لإحياء اليقظة في نفوس أبناء البلاد، ويصوروا مقدار ما يحملونه في جوانحهم من آلام وآمال، فهذا محمد سرور الصبّان[١] يبتدر هذا السعي الكريم نحو الإصلاح، ويطمع في جمع نظرات مثقفي الحجاز فيما يحيط بهم من مشكلات، وما يطمحون إليه من بناء، ويأخذ في لملمة ما حصّله من شعر ومقالة، هي في مجموعها تصوير صادق لما تبلغه الشكوى من مرارة في الصدور، وما تجيش به النفس من أحلام وخيال، في بحث عن التغيير الاجتماعي، وسعي إلى رؤية جديدة نحو التراث والعلوم المعاصرة، فصدرت هذه الإضاءة أواخر عام ١٣٤٤هـ.

١ ــ أدب الحجاز

يقول الصبّان في مقدمة «أدب الحجاز» : (.. وإذا كان لنا من أمل نرجوه ونطلب بحرارة أن تحققه لنا الأيام فلا شيء أكثر من حرية صحيحة، ونهضة صادقة تعيد إلى الحجاز والحجازيين مجدهم المندثر وكرامتهم التي يستحقونها، وما ذلك على الله بعزيز، ولكل أجل كتاب)[٢].

وهم يشكون ضيقهم بالماضي وعنتهم منه، ويرون أن صراحة القول لا خطر

---

(١) ولد بالقنفذة سنة ١٣١٦هـ، ودرس في جدة تعليماً أولياً، واشتغل مع والده بالتجارة، ثم انتقل مع أبيه إلى مكة، وشارك في الأعمال الاجتماعية والثقافية، حتى صار أبرز رجال مكة في عهد الحسين بن علي، وهو الذي أبلغ الحسين اتفاق مكة على خلعه، له أثر واضح في بعث الحركة الفكرية والأدبية في الحجاز، وتولى وزارة المالية في عهد الملك عبدالعزيز، وكان أول أمين عام لرابطة العالم الاسلامي، توفي عام ١٣٩٢هـ.

انظر : شعراء الحجاز في العصر الحديث، عبد السلام الساسي، ص ١١،١٢، طـ١.
ومجلة المنهل جـ٧، مجلد ٢٧، رجب ١٣٨٦هـ، ص، ٧١٠. والأعلام للزركلي جـ٦، ص ١٣٦.

(٢) ص ١٠، طـ٢، ١٣٧٨هـ، مطبعة مصر.

منها، «فلا جدال في أن أحسن فرصة سعيدة تسهل لنا العمل من أجل بلادنا العزيزة وفي سبيل رقيّها وعمرانها إنما هي في هذه الفرصة السانحة، فمجال الحرية والصراحة مع الإخلاص قد أصبح ذا سعة أمامنا»[١].

والإصلاح هو الغاية المطلوبة من وراء كل عمل، فالدعوة إلى الوئام، وإلى التضامن والوحدة شعار هؤلاء الشباب.

كما أن القبول بكل التقاليد القديمة غير ملائم لنهضة جديدة، فذلك القديم من التقاليد الذي يؤمن به الآباء إيمانًا لا يقبل النقض يحمل في أثنائه ما يعوق التقدم، ويقف أمام الأخذ بالعصري.

لأن فيما عهده الآباء والأجداد شيئًا كثيرًا من الخرافة، وشيئًا كثيرًا أيضًا من التقاليد الاجتماعية الميتة، التي لا تتناسب ومطالب التحديث في الحياة بعامة «فحرام عليكم يا معشر الشبيبة أن تتقيدوا بالذل وتنصاعوا للخرافات القديمة»[٢]. وقد اشتدت نقمة هؤلاء الشباب من القديم فبالغوا في ذمّه والتقليل من شأنه، وهي رغبة الباحث عن الجديد، يسرف في التمسك بكل جديد، وينسى ما كان من تراثه وماضيه .. ولكن هذه النظرة لا يؤمن بها الجميع من هؤلاء، فقد كان أكثرهم متعقلًا في دعوته إلى التجديد، ويدعو إلى المواءمة بين التراث وبين علوم العصر ومستجداته؛ إذ يرى أحدهم (أننا إلى الآن لم نقتبس من حضارة هذا العصر قبسًا، بل ولم نسترجع تمثال مجدنا الغابر)[٣].

ويتساءل الكاتب نفسه عن عوائق النهضة، وماذا يمنع الحجازيين من أن يسيروا «سير الأمم المتمدينة» ؟.

أليس من الواجب أن يكون لهذا الوطن المقدس منزلة رفيعة، ومكانة سامية مقتبسة من نوره الديني، وقداسته «لماذا لا تنهضون، وتنبذون عهد الآباء

---

(١) محمد سعيد العامودي، ص ٩٨، أدب الحجاز، مقالة : حول الإصلاح.
(٢) محمد جميل حسن، ص ٨٤، المرجع السابق، مقالة : المناجاة.
(٣) الكاتب نفسه، المرجع السابق، بتصريف يسير.

القدماء ؟ ولمَ لا تتركون العادات الفاسدة، ومجاراة الجهّال في رأيهم ؟. أنتم أبناء العصر وهم آباء تلك العصور الأول، عصورهم تصرمت، وهذا عصركم .. انهضوا نحو ذلك المعترك الحيوي، وتشربوا بالصالح منه، واستضيئوا بضوء العلم الجديد فلا يمضي زمن إلا وقد أخذتم بزمام أمتكم إلى الأوج»[١].

ويظهر أن التردي الاجتماعي والعلمي الذي مني به الحجاز فيما قبل العهد السعودي كان له أثر في طلب النابهين الجديد من المعارف، ورفضهم كثيرًا من سيرة الآباء والأجداد، لينزعوا إلى أن يكونوا عصريين في كل شيء «عصريين في ألسنتنا، عصريين في تفكيرنا، عصريين في دفاعنا في أقلامنا، عصريين في عاداتنا، ولكن، ولكن بشرط ألّا نتفرنج ولا نشط ولا نزدري كل قديم، وبالاختصار نكون عصريين معتدلين لا عصريين متفرنجين، فإن الاعتدال هو روح التوازن في كل شيء، وقلّ أن يأتي التفرنج بفائدة، والتفرنج قبيح وقبيح جدًا بالشرقيين»[٢].

ولعلّ العوّاد[٣] أكثر هؤلاء الشبيبة حماسة واندفاعًا إلى التغيير، وازدراء للماضي، وحبًا في التجديد، وقد أراد أن يكون المجتمع حجازيًا عصريًا — كما مرّ — ولا يسعى إلى أن يفسد على من حوله استمتاعهم بماضيهم، وشغفهم برموزه ومعانيه، فهو أيضًا يسعد بكثير مما فيه ولكنه يريد «حرية عصرية تجارب

---

(١) المقالة السابقة.

(٢) مقالة : من هو الحر العصري؟، محمد حسن عواد، أدب الحجاز، ص ١١٣.

(٣) هو محمد حسن عواد، أحد زعماء النهضة الأدبية، ومفكر سعى إلى التجديد وأثرى الأدب الحديث بمعاركه وخصوصاته الفكرية والأدبية. ولد عام ١٣٢٤هـ، في مدينة جدة، وتلقى تعليمه في مدرسة الفلاح، شارك في الحياة الأدبية بشجاعة ودأب، وتولى رئاسة نادي جدة الأدبي، توفي يوم الجمعة ٢ جمادى الثانية ١٤٠٠هـ، الموافق ١٨ أبريل ١٩٨٠.

جمعت كتاباته النثرية في مجلدين هما، أعمال العواد الكاملة، وتشمل (خواطر مصرحة، تأملات في الأدب والحياة، من وحي الحياة العامة)، والمجلد الثاني (مسائل اليوم) وله : سليمان بن عبدالملك محرر الرقيق، ودواوين شعر منها : آماس واطلاس، بقايا، الآماس، ملحمة الساحر العظيم، نحو كيان جديد، في الأفق الملتهب، رؤى أبو لون، آفاق الأولمب، المنتجع الفسيح.

انظر : معجم المطبوعات السعودية، جـ٢، ص ٢٢٠، علي جواد الطاهر.

الوهم وتسعى إلى الحقائق»[١]. ويرى أن يحتكم الناس إلى «ميزان الذوق والعقل والعلم»[٢].

ولكن حامد كعكي يصرح بما يجمل اصطفاؤه من الماضي، على خلاف العواد، حين قال كلامًا عامًّا، ليس فيه نص على ماهية معينة من التراث، بينما يتشبث العكعكي بقيم الدين، ويرى أنها الحامية للنهضة المرتجاة، فمنها كان إشراق تاريخنا، وبها استطاع أوائلنا أن يبنوا حضارتهم، فالمراد الآن «حرية دينية، عقلية دينية، أعمال دينية، لا تفرنج ولا تقليد إلا كل ما له صالح بوطننا، وليس له تأثير على الدين»[٣].

وتستبد بهم الرغبة في بناء وطن قوي متحد، يستفيد من ثرواته، ويوجه أبناءه إلى الصالح المفيد، فهم يريدون «الإصلاح، الإصلاح في كل شيء» .. ويرد الصبّان على من يقول «الحجاز للحجازيين»، فيسخر من هذه المقولة «فلا من عزيمة تقيمها، وتجعلها منظورة مشاهدة»[٤].

وهل يمكن أن تقوم للحجاز قائمة والجهل عام طبقات الشعب «أين هم الحجازيون ؟ هل في الحجاز علم أو تعليم ؟ هل في الحجاز حكماء ؟ هل في الحجاز قادة ؟ هل في الحجاز زعماء ؟ هل في الحجاز صحافة ؟ هل في الحجاز نواد أدبية ؟ بل هل في الحجاز رابطة دينية أو وطنية ؟ لا وحق[٥] الوطن التعس لا يوجد كل هذا اليوم .. »[٦].

---

(١) الكاتب نفسه، المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

(٣) مقالة : كيف يجب أن نكون، حامد كعكي، ص ٨٧، أدب الحجاز، ص ٨٧، وهو كاتب ولد بمكة سنة ١٣٢٣هـ، وتلقى دروسه فيها.

(٤) أدب الحجاز، مقالة : لا إصلاح مع الرياء، ص ١٥٤.

(٥) هذا قسم غير جائز.

(٦) المرجع السابق.

٢ ـ المعـــرض

ثم سعى محمد سرور الصبّان، صاحب المكتبة الحجازية إلى عمل آخر، يثري به الأدب الحجازي، فوجه إلى البارزين من الأدباء سؤالًا هو :

«هل من مصلحة الأمة العربية أن يحافظ كتّابها، وخطباؤها على أساليب اللغة العربية الفصحى، أو يجنحوا إلى التطور الحديث، ويأخذوا برأي العصريين في تحطيم قيود اللغة، ويسيروا على طريقة حديثة عامة مطلقة ؟»[١].

وأجاب الأدباء إجابات مختلفة؛ فمن ساع إلى الحفاظ على اللغة العربية في أسلوبها القديم، وإحياء ما اندثر من كلماتها، ومحاكاة الأقدمين في أساليبهم، ويميل إلى هذا الرأي عبدالقدوس الأنصاري، وذهب آخرون إلى أن التطور اللغوي ضرورة لازمة، لكي تسير اللغة بروح العصر، وتتحدث عنه، ومن هؤلاء العواد، فقد دعا إلى التعريب، وحثّ اللغويين على التفكير في ألفاظ تناسب مستحدثات هذا العصر، «وتلبي حاجة الكاتب العصري إلى استعمال المعاني الجديدة المخترعة الفائقة، فنحن في القرن العشرين المملوء بالمكتشفات والمخترعات؛ لا في القرن السادس، عصر الفأس والجمل والهراوة والقدّوم، والحيزبون، والخنشليل والعلطبيس .. فلا يحسن باللغة العربية أن تقف جامدة مكتوفة اليدين تضن يوميًّا بالألفاظ الجديدة»[٢].

ويرى عبدالوهاب آشي[٣] أن اللغة العربية قادرة على الإحاطة بما يجد، ولها من الخاصية ما مكنها من العيش قرونًا طويلة، ولّدت خلالها مئات الكلمات،

---

(١) المعرض، جمع ونشر المكتبة الحجازية، لصاحبها محمد سرور الصبان.

(٢) خواطر مصرحة، ضمن المجموعة الكاملة، لأعمال العواد، مقالة : اللغة العربية، المجلد الأول. ط عام ١٤٠١هـ، ولم يُذكر رقم الطبعة، ص ٦٩. بتصرف.

(٣) ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٢٣هـ، وتلقى تعليمه في مدرسة الفلاح بمكة، وتخرج فيها، فاشتغل بالتدريس إلى أن اختاره صاحب جريدة «صوت الحجاز» ليرأس تحريرها، ولكنه لم يستمر فيها طويلاً، توفي في القاهرة سنة ١٤٠٥هـ، كتب كثيراً من افتتاحيات صوت الحجاز، ومقالات أخرى متفرقة، له انظر (شعراء الحجاز في العصر الحديث وانظر : الموجز في تاريخ الأدب العربي السعودي) للساسي، ص ٧٤.

ونقلت المباحث والعلوم التطبيقية «فاللغة العربية لغة تسير مع المتقدمين، وتكره المتباطئين، اللغة العربية لغة تريد رجالًا قادرين مبتدعين، وتبغض المقلدين الجامدين. اللغة العربية لغة تود النور وتتجافى عن الظلمة. فمن هضمها وظلمها حقها فهو جاهل بها، ولم يدرك سرّها وحقيقة أمرها»[1].

وعلى الرغم من أن هذا اللوم لمنتسبي اللغة العربية، وبالأخص الأدباء حاد وموجع، إلا أن الآشي أقل حدة من صاحبه العواد، فما ذهب يعرض بالماضي، ولا تمادى في تقريع قومه لالتزامهم بألوان من الأحاديث الفصيحة يوردونها في أساليبهم[2]، وإنما أراد من الكتبة بالعربية أن يفهموها، ويتمعنوا في دلالاتها فإن ذلك قمين بأن يرقى باللفظ، ويحدث من الوفرة اللفظية ما يكفي للتعبير الثري المترف.

ويذهب عثمان قاضي[3] إلى «أن المحافظة على أساليب اللغة الفصحى هي ألزم لرفع شأن الأمة إلى مستوى الرقي والتقدم؛ إذ أن مصلحة جميع الأمم لا تتكون بالرجوع إلى الوراء بل بالتقدم إلى الأمام»[4].

ويدعو إلى شحذ الهمم في التوليد والاستحداث على القياس اللغوي السليم، وهو هنا عميق النظر، شديد الحرص على ثروة العرب الكبرى؛ لغة القرآن، ضنين بها على التجاهل والنسيان، خائف من تسلط الجديد، وسلب جمال العربية وبريقها «فأحسن طريقة للكتّاب والخطباء في الحالة الحاضرة حيث قد بدأت تدب في الأمة روح الانتباه والنشاط والتقدم أن ينتقوا الألفاظ الصحيحة الفصحى الواضحة ويحيدوا عن التكلف في غوامضها والتصرف في الخيالات الواسعة العميقة، والتسجيع الممل بصورة ظاهرة للأديب والعامي، ويستخلصوا المواضيع النافعة التي تتشوق إليها نفس الأديب والكاتب، ويطمح لها نظر العامي

---

(١) أدب الحجاز، ص ١٠٤

(٢) سيرد حديث عن لوم الآشي العواد في خواطر مصرحة، في الصفحة التالية.

(٣) ولد بالطائف في بيت علم وفضل، وتلقى علومه في مكة، وهو كاتب وشاعر، ولكنه في شعره أبرع منه في نثره. توفي في العقد الثالث من عمره. عن أدب الحجاز، ص ١٠٩.

(٤) المرجع السابق ص ١١٠.

والطالب والزارع والتاجر حتى تستلزم مقالاتهم لفت النظر العام فتكون درسًا كافيًا وتمرينًا وافيًا لتتبع آثارها وتشييد معالمها، وبذلك يحصل المقصود، وتعمّ الفائدة»[١].

وقد جمع الصبّان هذه الاجابات وغيرها، وأصدرها في كتيب صغير سمّاه «المعرض» أي معرض آراء أدباء الحجاز حول اللغة العربية، وأفاد هذا الجهد في تنبيه الذهن إلى ما تمتلكه عصبة الشبيبة من رأي في مسألة من أدق مسائل الأدب في ذلك العصر، ويثار حولها الشك في صلاحها لحل قضايا العصر، والتعبير عن همومه.

٣ ـ خواطر مصرّحة :

وفي السنة نفسها، أي في عام ١٣٤٥هـ ظهر في الحجاز كتاب كان له دويّ هائل، وصوت رفيع، أثار مسائل مهمة في الأدب والتكوين الاجتماعي، والمنحى الفكري لبعض شبيبة تلك الأيام، والكتاب هو «خواطر مصرحة» لمؤلفه محمد حسن عوّاد.

وقد جدّ هذا الشاب في البحث عن سبل الإصلاح، فرفع معوله يهدم الصروح الوهمية المبنية من الخرافة، ويستدعي الراشدين إلى أن يقيموا لهم بنيانًا على أساس متين، قوامه الفكر الصحيح، وإيحاء العقل، واطراح الأوهام، فشنّ هجومًا قاسيًا على عادات اجتماعية كثيرة، دعا إلى أن ينظر المفكرون والأدباء في مسائل كثيرة من التراث، فيما يتصل باللغة، وبالإرث التاريخي ومناهج إصلاح التفكير، وكان مدفوعًا بقوة من نفس توّاقة إلى المعرفة الحقّة، مأخوذًا بالجديد، منصرفًا عن تقليد عصور الضعف؛ وإذ ينادي بأعلى صوته للحاق بالحديث لا ينسى أن يذكّر بفضائل في التاريخ العربي والإسلامي، وفي مجهودات المبدعين العرب في العصور النيّرة، خوفًا من اتهامه بالانقياد إلى رغبته القوية العنيفة في اتباع سنن الحاضر العصري، ونسيان الأصالة.

---

(١) المرجع السابق، ص ١١١.

ومما يشير إلى أن محمد سرور الصبّان كان راعيًا لكفاح الشبيبة الحجازية في سبيل النهضة ما ذكره عبدالوهاب آشي، أن الصبّان طلب منه كتابة مقدمة لخواطر مصرحة، وهذا الأمر له دلالة خاصة، وفيه إيحاء أن الرجل له منزلته في أصحابه، وهو فيهم يعد الراعي الحريص على أن تأخذ هذه النهضة الأدبية سبيلها الصحيح في التطور والنضج.

وفي مقدمة الآشي إعجاب كبير بشبيبة الحجاز، وامتداح لتلك الروح الحيّة المتدفقة فيه، «وباندفاعه بقوة في طلب الرقي، وبثوران نفسه، ونشوزه على كل قديم يوقف تيّاره، ويقف حائلًا دون مرامه، وما مرامه إلا توخي الكمال في جميع مظاهره، والحرية التي تفسح لفكره مجال الرأي ولنفسه ميدان العمل، فيرى الأشياء كما يجب أن تُرى، ثم ينطق، ويعمل حسب ما رأى»[١].

ومن بواعث الوعي الجديد إصرار الناهضين على مواصلة السير في سبيل الارتقاء إلى الكمال ــ كما يعبر عنها الناشئون آنذاك ــ وتحدي العوائق الاجتماعية والقبلية والسياسية، فهم يصنعون من أنفسهم تيارًا نشطًا قويًا يواجه موجات التخلف الاجتماعي والثقافي في بيئة لم تُفق بعد على خطى الإنسان من حولها يتقدم، ويفتح أبواب المستقبل بالعلم والكشف، وحرية التعبير، وطلب الرضي من الأنظمة والقوانين التي تحميه، وتحفظ حقوقه.

النواة في الحجاز لجيل النهضة روح مندفعة مشبوبة بوهج غريب قلّ أن يتكرر في مجتمعات أخرى، فالأحوال التي اتفقت في تلك الفترة على عزل شبه الجزيرة العربية كانت مؤلمة وقاسية، وكان لابد من عنف وصخب، «فالأمة التي استلذت الراحة واستطابت الهجوع وتطامنت للذل، لا يوقظها ولا يثير كوامن شعورها إلا الصراخ الشديد في وجهها، بالتقريع والتأنيب حتى تثوب إلى الحياة.

لهذه كلها نرى الشباب الحجازي المتأدب إذا كتب للأمة فإنما يكتب بأقلام من حديد، ومداد من الغاز الخانق على صحائف من نار»[٢].

---

(١) خواطر مصرحة، (مجموعة أعمال العواد الكاملة) ص ٢٥، جـ١.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٥.

ولا يُخفى الآشي إعجابه الكبير بالعوّاد؛ لأنهما مدفوعان جميعًا بروح واحدة باحثة عن «الحياة لأجل الحياة، وتسعى بكل ما أوتيت من قوة لتبوء المكانة اللائقة بها بين الأمم الحية ــ علمًا وأدبًا وحضارة»[1].

أما العوّاد فيحمل في الصفحات الأولى من كتابه على مفهوم البلاغة العربية، ويلتمسها في كل مكان فلا يجدها، يبحث عنها في القواميس وكتب الأشباح، والمقامات، والمعلقات فلا يجد مما يروم شيئًا، ولكن يجدها في كتابات المحدثين، المنفلوطي، والريحاني، وكتّاب المهاجر، والأدب المترجم.

ويناجي تلك البلاغة العربية، التي أحسنت الاختيار «ما أسمى ذوقك حينما اخترت مقرًّا «للدينمو» الكهربائي الذي يفيض عليك نوره وناره تلك الأدمغة المطربشة، والمبرنطة، والحاسرة، ذوات فكرة التجدد العصري والذكاء النجيب، وضربت صفحًا بل ربأت بنفسك أن تتدفقي من رؤوس غلاظ أفسدها ثقل العمائم وطول اللحى»[2].

وقد كان العواد ذا صلف شديد في مديحه الغرب، وقبوله ما يأتي منهم، وإسرافه في الارتماء عليهم، ونبذ كثير من القديم، وإن هذا الغلو في الدعوة إلى الجديد قد قلّل من نجاح أفكاره، وساعد على إثارة مشاعر المتمسكين بالقيم الجميلة في التراث، وقد جوبه بالنقد من أقرب أصدقائه؛ كاتب مقدمته إذ يقول «كان الأحرى بالأستاذ أن يرجع بنا إلى ما كان في عهد أجدادنا الغابرين أساتذة العالم ورواده في ميادين العمل الصحيح، والمدنية القويمة ففيه الغناء عن ذكر أي مفخرة يجب أن تُحتذى بعده»[3].

ومن الحكمة أن نعذر للكاتب ذلك الصلف، ونغفر له زلّته في الاعجاب بالمبرنط والحاسر، ونقول : «ليته ماز الخبيث من الطيب، لما كان في دعوته جنف

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٨.

(٢) مقالة : البلاغة العربية، خواطر مصرحة، ص ٤١، وسيرد تفصيل لأمثال هذه المقالة في فصل «المقالة النقدية» الجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٣) عبدالوهاب آشي، مقدمة خواطر مصرحة، ص ٣١

وميل»[١].

والكاتب لم يذهب بعيدًا، فقد حاول أن يلتمس لنفسه مخرجًا ينجيه من اللوم، فهو يذكر أنه كتب مقالاته تلك وهو يستقبل السنة العشرين من سني حياته «وكان أسلوبي فيه أسلوب الثائر على منهج تعليمه»[٢].

ولكنه يتمسك بالمبادىء الكبرى التي ينهجها، ومن أبرزها الواقعية في الأدب، والأدب من أجل الحياة «وهكذا ولد هذا الكتاب، ومشى ونادى، وانطلق العملاق من مكمنه، انطلق الفكر الواقعي، فأشاع سقوط الاتباعية والتقليد، والارتزاق بالأدب الذليل، والزلفي بالميوعة والاستحذاء، وصدع برسالة الفن وبروح النقد، وسما بالقيم، وأيقظ الوعي الاجتماعي العام»[٣].

ويسير على تلك النغمة الثائرة في أكثر مقالاته[٤]، بل تكاد تكون سمة مميزة له بين الكتّاب المقاليين في الأدب السعودي.

وتنتهي بهذا الكتاب الفترة الأولى من البعث الأدبي، لتتوقف عشر سنين تقريبًا، إلى أن تبدأ فترة ثانية نشطة، وقد انشغل الكتّاب منذ عام ١٣٥٠هـ بالنقاش في القضايا الأدبية على صفحات صوت الحجاز، وأم القرى، حيث كانتا الجريدتين اللتين استقبلتا نتاج الأدباء، وشجعتا على النشر، وعلى الإسهام في إثارة النقد، وإثراء الحوار الأدبي، فما كان الناس منصرفين إلى غير متابعة هاتين الصحيفتين وما تبثانه من مقالات وقصائد، وأستثني من هدوء الإصدار الأدبي ما ظهر على الساحة من تآليف علمية أو بحثية، فذلك غير معني بالهدوء المقصود.

---

(١) د. محمد بن سعد بن حسين : الأدب الحديث تاريخ ودراسات، ص ٣٦٩، بتصرف

(٢) مقدمة العواد للمجموعة الكاملة، جـ١، ص ١٠، كتب هذه المقدمة عام ١٣٨٠هـ.

(٣) المرجع السابق، ص ١٢.

(٤) انظر مثلاً هذه المقالات :

- أيها المتشاعرون ص ٤٥.
- الأدب في الحجاز ص ٦١
- أمة مهملة ص ٤٨
- الحجاز بعد ٥٠٠ سنة، ص ٩٠.

وقد جدّ النشاط مرة أخرى في عام ١٣٥٥هـ، وكأنه جاء مع ظهور مجلة أدبية كان لها شأنها فيما بعد، تلك هي مجلة المنهل التي صدرت في السنة نفسها.

وقد ظهر في أول عام ١٣٥٥هـ كتاب «نفثات من أقلام الشباب الحجازي»[١]، جمعه هاشم يوسف الزواوي[٢]، وعلي حسن فدعق[٣]، وعبدالسلام طاهر الساسي[٤]، وكتب مقدمته محمد سرور الصبّان.

وبشّرت صحيفة صوت الحجاز بظهور كتاب جديد[٥]، كان له فيما بعد أثر كبير في تأريخ النهضة الأدبية، وفي إثراء الوجدان الوطني بقضايا التطوير الحضاري، وإبداء الآراء في دوافع التجديد، وما يريده النشء الجديد لحياته الفكرية والتعليمية، ولصور الأشكال الأدبية شعرًا، وقصة، وبحثًا، وما يدخل في ذلك من رغبة عنيفة في التغيير، والتخلي عن القديم، واستقبال الجديد بحفاوة؛ ذلك هو كتاب «وحي الصحراء»[٦] ـ صفحة من الأدب العصري في الحجاز، جمعه محمد سعيد عبدالمقصود، وعبدالله عمر بلخير[٧].

---

(١) ظهرت الطبعة الأولى منه عام ١٣٥٥هـ، وكان تاريخ مقدمة الصبان في ١٣٥٥/٢/٤هـ. والنسخة التي اعتمدت عليها هي الطبعة الثانية عام ١٤٠٥هـ، شركة مكة للطباعة والنشر.

(٢) ولد بمكة المكرمة عام ١٣٣٥هـ، تعلم بمدرسة الفلاح بمكة، وتجول في البلاد العربية، وتولى رئاسة تحرير مجلة الحج حتى عام ١٣٦٨هـ، عين مديراً عاماً مساعداً للاذاعة في أول عام ١٣٦٩هـ، وعين في عام ١٣٨٠هـ، مديراً عاماً للحج، انظر معجم المطبوعات السعودية جـ٢ ص ٥٤١.

(٣) درس بمدرسة الفلاح بمكة، وتخرج فيها سنة ١٣٥٦هـ، تخرج في كلية الحقوق بالعراق، تولى رئاسة بلدية جدة. وله كتاب في الرحلات (أيام في الشرق الأقصى). انظر معجم المطبوعات السعودية، جـ٢ ص ١٤٠.

(٤) ولد في المدينة سنة ١٣٣٥هـ، ودرس بمدرسة الفلاح بمكة، له من الآثار : الشعراء الثلاثة في الحجاز (محمد حسن عواد، حمزة شحاتة، أحمد قنديل).
وشعراء الحجاز في العصر الحديث، في ظلال الصراحة، الموسوعة الأدبية، في ثلاثة أجزاء.

(٥) في عددها رقم ٢٤٣، يوم الثلاثاء ٢٠ ذو القعدة ١٣٥٥هـ ص ٣.

(٦) الطبعة التي اعتمدت عليها هي الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، في سلسلة الكتاب العربي السعودي، رقم ٨٦، تهامة.

(٧) ولد عام ١٣٣٣هـ، وتلقى تعليمه بمكة المكرمة، وتخرج في مدرسة الفلاح عام ١٣٥٣هـ، وأكمل دراسته بالجامعة الأمريكية في بيروت، تولى أعمالاً عديدة في الحكومة كان آخرها وزيراً للإعلام.

٤ ـــ نفثات من أقلام الشباب الحجازي :

وما زالت الشكوى من ضعف الثقافة، وشيوع التقليد عامة في أكثر ما يكتب من مقالات أو ينشر من معالجات أدبية، ولم تبد إلى وقت خروج «النفثات» شخصية واضحة للأدب في شبه الجزيرة، وقد سبق أن عرضت لأبرز المقالات المنشورة في الكتابين السابقين، أدب الحجاز، والمعرض، ثم ما كتبه العواد في خواطره، فلم تبد صورة مميزة في كل ما كتب، تبين عن شخصية الكاتب، أو تقود إلى فهم خصائصه، والاعجاب بأسلوبه المتفرد.

وكان أسلوب المعالجة المقالية أقرب إلى الصراخ والنداء منه إلى الكتابة المتأنية الهادئة التي تستوعب عاطفة مبدعها، وتوصل ما يريد من أفكار وآراء.

وفي أثناء هذه العشر من السنوات من ١٣٤٥هـ ـــ ١٣٥٥هـ، أي ما بين صدور أدب الحجاز وما بعده، وصدور النفثات ووحي الصحراء لم يتغير أسلوب المعالجة المقالية، ولم يطرأ جديد يذكر في طريقة الحوار، إلا ما كان على صفحات الصحف، بعيدًا عن الكتب التي تُعنى بالمقال، أو المقطوعات النثرية، فإن هذه قد اتسمت بميزات خاصة بها في تلك الفترة، من انفعال النقد، وارتفاع صوته، وبروز أسماء جديدة في نطاق الكتابة النثرية والشعرية، واحتدام النقاش حول التقليد والتجديد، وبين مفهوم الابتكار، ومفهوم الاحتذاء والاتباع، وبالأخص ما كان ينشر في صوت الحجاز من نقد لكتاب صدر، أو اعجاب بقصيدة، أو ثناء على ظاهرة أدبية أو اجتماعية، فساعدت هذه الجريدة على ارتفاع قيمة النقد، وتقدير النص المقالي الجيد، رافعة لواء بعث الحياة في الأدب، وتنشيط الحركة الثقافية، مع رصيفتها أم القرى.

إذًا انحصر التطوير في المقالة الأدبية على النشر في الصحف، ولم يؤثر ذلك في المبادرات التأليفية في نطاق المقال، على الرغم من كون من ينشر في كتاب، هو ذلك الذي يكتب في الصحيفة ـــ بل إن المقالة الأدبية الصحفية في كثير منها تكاد تندثر لعدم بعثها في كتاب يجمع المتفرق منها، ويرد ما كان شاردًا

من الذاكرة، ليقيم الناقد أحكامه على بصر، وفي سعة من الإحاطة والمعرفة بالعصر.

ولذلك يمكن القول : إن الكتب النقدية في المرحلة الأولى أعطت مدلولًا بيّنًا عن مستوى المقالة الأدبية، ولكنها لم تفلح إلى حد كبير في إعطاء ذلك المدلول في المرحلة الثانية، أي في عام ١٣٥٥هـ؛ ذلك أن الصحافة قد ارتقت إلى منزلة أكثر إشراقًا وعناية بالأدب وأن الإقبال على الكتابة فيها والرغبة في النشر وصل إلى درجة من التعلق والشغف، فكان حريًّا أن يكون الكتاب المقالي في هذه الفترة أقل نضجًا، وأقصر من أن يصل إلى ما كان يأمل منه كاتبوه.

ولكي أدلل على ما ذهبت إليه أتناول بعض ما ورد في نفثات من أقلام الشباب الحجازي وهي في مجملها لا تكاد تخرج عن تلك الشكوى من تخلف المجتمع في الحجاز عن نظائره من البلدان العربية الأخرى. وبالأخص، مصر، وسوريا، فضلًا عن وروده في سياق الحديث عن بلد أوروبي، وكانت النظرة إلى التطوير والارتقاء مشتركة بين أكثر الكتّاب؛ إذ لا تخلو مقالة من الإشارة إلى هذه الرغبة، وهي إلحاح شديد على الارتفاع بمستوى التعليم، والإصلاح الاجتماعي، وانتزاع العادات السيئة الموروثة كالكسل، والخمول، والتواكل، وعدم الإقبال على التجارة المنظمة، والاقتصاد المدروس، وإهمال أمور الأدب، والجهل بالسيرة التاريخية للعرب والإسلام.

فهذا عبدالحميد مشخص[١] يضيق بما يكتبه لداته من ألوان أدبية، ويرى أنهم لا يضعون المبضع على الجرح، ولا يُوفقون في اقتناص الأسلوب الأدبي الذي يميز شخصياتهم عن سواهم «فأغلب أدبائنا اليوم مقلدون لا مبتكرون، وليت المصيبة في التقليد، لهان الأمر — وفي الغالب لا بد لكل مبتدىء من التقليد. بل المصيبة في السرقة التي يفخر أولئك السماسرة من أدعياء الأدب بأخذها

---

(١) ولد بجدة سنة ١٣٣٤هـ، وتخرج في مدرسة الفلاح عام ١٣٥٢هـ، وتقلب في وظائف مختلفة، ورأس تحرير مجلة الزراعة الدورية المحتجبة، له نثر وشعر قليلان. انظر : المنهل، رجب، ١٣٨٦هـ، العدد الخاص، ص ٩٥٧.

من بين طيّات الكتب، وأعمدة الجرائد، وهذا شأن كل من لم يفهم من الأدب معناه، ولم يتذوق من طعمه إلا الحثالة»[١].

ويذهب إلى أن في الحجاز أدباء متفوقين «كتبوا وأحسّوا فترجموا عن عواطفهم، وميولهم بأسلوب الأدب الرصين المتدفق من شلالات الحياة وينابيعها، وهؤلاء هم الذين رفعوا اسم الأدب بما أدخلوا عليه من ألوان الثقافة الحديثة وأنماط التفكير الجديد، ويجمل بي أن أقول إن كثيرًا من أدبائنا أدعياء ثرثارون لا أقل ولا أكثر»[٢].

وتتأكد الرغبة في التجديد عندما يرون أن هذا العصر لا يليق به الهذيان، ولا السفسطة، ولا الخرافات، فهو عصر علم ومخترعات، حقيق بمن يعيش فيه أن يصلح تفكيره، ويعيد النظر في مناهج معرفته، فيبعد ما يشوبها من غثاء، وما يعلق بها من أوشاب.

وما هي النقمة من انصراف البلاد عن الوعي العلمي الآخذ بها إلى طرائق التقدم تبلغ من عبدالله عريف حدًّا مؤلمًا فيثير السخرية في حوار طريف مع صديقه القديم، الذي نال حظًا من العلم وقبسًا من المعرفة جديدًا، فانقلب على أسلوب تفكيره القديم، ورآه باليًا مندثرًا، وصار يرى أن المرء العصري يحسن به ألّا يستسلم للمقولات البليدة المثبطة، التي تصدّه عن العزائم القوية، وتمنعه من بناء حياة جديدة نشطة، ويتعجب عريف من تحول صديقه عن مفهوماته القديمة «حتى لخلتني أنكر ذلك الصديق المعروف، أنكر منه أن يتحول إلى شخص غير الأول، ولكنّه التعليم يفعلّ ما لا تفعله العوائد والتقاليد»[٣].

وأخذ يبثه ما يلقاه الكاتب الواعي من عنت ومشقة في مجتمع لا يؤمن بضرورة العلم للرجال وللنساء «إن بني قومك لا يقنعون بوجوب تعليم المرأة لأنه يعوزهم التعليم الصحيح وهم لا يرون معك ضرورة تعليمها ولو شؤونها

(١) مقالة : «لمحة سريعة عن الأدب الحجازي» ص ١٥.
(٢) المرجع السابق، ص ١٦.
(٣) مقالة : «صديقي بين عهدين» ص ٥٢.

المنزلية، وهم لا يذهبون معك في وجوب تكوينها تكوينًا تدريجيًّا، وهم بعد ذلك يطالبونك بالإقلاع عن مثل هذا التفكير فاحذر أن يرموك بشيء هو السفه والجنون ـــ وربما الإلحاد»[١].

وهم أيضًا يكتبون عن الثقافة الحجازية[٢]، وكيف تتكون، وينحو بعضهم إلى طريقة تتسم بروح علمية تنم عن مقدرة متوافرة لدى كاتبها للمجيء بشيء ذي بال في ميدان البحث العلمي، فيكتب حمد الجاسر عن الشعر العربي في مختلف أطواره[٣]، فيعرض لأهم الفترات التاريخية في نشأة هذا الشعر، ويعجب بشعر صدر الإسلام والأمويين، وجزء كبير من العصر العباسي، ويرد ذلك الإعجاب إلى ما وصل إليه الشعر من تطور وكمال في خصائصه الفنية، ومناحيه الجمالية.

ويتفاءل آخر ويعجب بطموح الروح الحجازي وشغف الأفئدة بالنهوض الأدبي المتبوع بالعمل»[٤]، فاليقظة من تلك الغفلة الطويلة، والسبات العميق ستوصل الشبيبة إلى ما يرمون إليه من مجد وعز، وستنزل بلدهم ما هي جديرة به من قيادة وإشعاع[٥].

٥ ـــ وحـي الصحـراء :

تتفوق المقالات التي وردت في كتاب وحي الصحراء على سابقتها في جودة الاختيار، واهتمام أكثر الكاتبين بموضوعاتهم، ولكنها لا ترقى إلى جمال وإمتاع مقالات كثيرة نشرتها صوت الحجاز في الفترة نفسها، وما تحويه الصحف خير من إضمامات شوارد جمعها المجتهدون.

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٣.
(٢) مقالة : الثقافة الحجازية، محمد نور الجوهري، المرجع السابق، ص ٧٥.
(٣) ص ١٢٩.
(٤) مقالة : النهضة الحجازية القولية والعلمية، حسين عرب، المرجع السابق، ص ١٧١.
(٥) مقالة : جهود الشباب في خطوات موفقة، عبدالعزيز الفضل، المرجع السابق، ص ٢١٥.

إلا أن مقالات هذا الكتاب يمكن أن تعدّ بداية التأليف في الأدب؛ فما صدر من قبل لا يزيد عن كونه بداية للوصول بالأدب في المنطقة إلى القارئين، والمهتمين برصد الثقافة، ولنقل هموم الواعين من الأدباء إلى الأسماع والأبصار، كي يحسّ بها الناهضون والمتطلعون إلى المستقبل المأمول.

وقد أبدى الدكتور محمد حسين هيكل ــ كاتب مقدمة وحي الصحراء ــ إعجابه بما حواه الكتاب من مقالات أدبية، وقصائد، ودراسات، ورأى مقدار تأثرها بما ينشر في البلدان العربية، وحرص كتّابها على متابعة «آثار الحياة الحديثة» ومردّ ذلك «تشوقهم لبلوغ بلادهم ما بلغت غيرها في أقصر زمن نستطيع فيه أن ندرك هذه الغاية»[1].

ولعل الدكتور هيكل أراد من هذا الإطراء دفع الأدباء في شبه الجزيرة إلى طلب التجويد، وحثهم على بلوغ ما ينتظره المتطلعون إلى هذه البلاد المقدسة، مهبط الوحي، ومنبع الإشراق الحضاري الأول، فهو قد أعجب بهم، ورأى فيهم حياة جديدة ومشعلًا من مشاعل العلم والأدب «ومادام شباب العرب قد بدأوا نشاطهم الفكري على الصورة الواضحة في هذه المجموعة فمن حقهم، ومن حق كل عربي أن ينفسح أمامهم ميدان الأمل في المستقبل .. ولقد أتيح لي أن أتعرف إلى كثيرين ممن اختارت لهم المجموعة بعض آثارهم فرأيت فيهم طموحًا وأملًا وحرصًا على تحقيق هذا الأمل»[2].

وتشير مقالات كثيرة إلى اشتداد الرغبة العنيفة في التغيير، وازدراء ما بين يدي الناس في هذه المنطقة من آثار أدبية وغيرها، إلى حماسة تستبد بالعاطفة فتجعلها تُنكر بادرات الوعي الجديدة التي نبتت في السنوات الخمس الماضية قبل صدور وحي الصحراء، أي متزامنة مع صدور صوت الحجاز، ومن هذه الطائفة التي ترى في هذا الاضطراب الجديد في الحياة الأدبية في الحجاز ما يدل على ضياع الوجهة الصحيحة، عزيز ضياء الذي يرى أن العمل المستمر خير من قول كثير

---

(١) مقدمة «وحي الصحراء»، ص ٢٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧.

لا يجدي نفعًا للمجتمع، ولا للحياة العامة، وما قام به الأدباء لا يشفي غليل الطامعين في النهضة المرتجاة و«نظرة واحدة إلى حالتنا كافية لأن يحكم الشخص بأن الدراسة والأدب اللذين ندعيهما قاصران كثيرًا وكثيرًا»[١].

ويقول إن الحجاز «سئم حياة الأنفاق والخنادق والمستنقعات والأوحال .. ».

وهو يريد «أن يبني مجدًا علميًّا جديدًا وعظمة ثقافية حديثة، لأنه يريد أن يكون حرًّا في فكره، فلا تسيطر عليه الأوهام، حرًّا في قوله فلا يخرسه عن الحق جبن وذل، حرًّا في عمله فلا يقعده الجمود والخنوع، يريد أن ينال هذه الحرية، ويريد أن يسحق أعداء هذه الحرية، ولسوف يبلغ ما يريد، ولسوف يضحي بحياته ثمنًا لما يريد .. »[٢].

وليس يقوى على الوصول إلى تلك الغايات الشريفات إلا رجال لهم من الصفات والخصائص ما يتفوقون بها على سواهم — وفي الحجاز شباب يملكون ما يؤهلهم لتحقيق ما يصبون إليه، ويعدد الكاتب أوجه القوة فيراها في الإيمان والإخلاص، والشعور بقوته فيهما، والاتحاد، والتضحية، والرجولة الكاملة[٣].

ولكن عبدالحميد عنبر[٤] وعمر الصيرفي[٥] يخالفان عزيز في نقمته على المجتمع، ويتفاءلان بما يتحقق من إقبال على بعض العلوم، وحب في المعارف، ومن فُسحة في الرأي تتمتع بها الصحافة لمناقشة موضوعات اجتماعية وأدبية وسياسية كثيرة، من ورائها خير كثير، ودفع للمصلحة الوطنية إلى الأفضل «إن

---

(١) مقالة «حاجتنا» ص ٣٠٠.

(٢) المقالة السابقة.

(٣) مقالة «أمتي» ص ٣١١.

(٤) ولد بالمدينة المنورة سنة ١٣٢٦هـ، ودرس علومه الأولية في المدارس الأميرية ثم في مدرسة العلوم الشرعية، ودرس في الأخيرة سنتين، ثم درس الانجليزية.
انظر : وحي الصحراء، ص ٣٧٥.

(٥) ولد بمكة المكرمة عام ١٣١٩هـ، وتعلم بالمدرسة الراقية، فيها، رحل إلى جنوبي البلاد العربية، ودرس هناك، ثم رجع إلى مكة فعين مدرساً بالمعهد الإسلامي السعودي انظر : وحي الصحراء ص ٢٩٥.

الشعور بوجوب النهوض عام في طبقات الشعب، وموجود لا شك فيه»[١].

ثم يعدد ما كان مرفوضًا من قبل الناس حوله، ثم أصبح مقبولًا، البعثات، الجرائد، أنواع من علوم الصناعة .. و «من حسنات العهد السعودي هذه الروح الصحافية القوية التي نراها في أطراف البلاد»[٢].

أما الصيرفي فينكر أن يكون الحجاز وليد الجدب والقسوة، وموطن الحفاة العراة البعيدين عن الحكمة والفلسفة[٣].

وقد بدت في هذا الكتاب دعوات عديدة إلى احتذاء الغرب، أكثر من إلحاح العواد قبل عشر سنين؛ مما يشير إلى أن مثل هذه الدعوات كامنة في صدور هذه الشبيبة تبثها في أحايين مختلفة، حين ترى أن المعارضين من المحافظين، ومحبي الأثر القديم انصرفوا عنهم، أو هدأت ثورتهم على الجديد.

فيرى حسين خازندار[٤] أن الخير كله في قبول الجديد، وفي البحث عنه، والتخلي عن كثير من القديم «فالشباب يرى لثقافته الحديثة أن من الواجب اتباع النظم والتقاليد الغربية، لشكلها البديع، وقسامتها الرائعة»[٥].

ومن علامات القوة في «وحي الصحراء» وتقدمه على ما سبقه وصحة أن يعد ابتداء للنهضة المقالية، وبالأخص ما كان منها في كتاب ما حفل به من دراسات متفرقة، تدل على طراوة في الأسلوب واعتدال في الصوغ، وتوفيق في اختيار الموضوعات، كدراسة محمد سعيد عبدالمقصود عن الأدب الحجازي

---

(١) مقالة : «هل نحن على أبواب عهد جديد»، بقلم عبدالحميد عنبر ص ٣٧٦.

(٢) المقالة السابقة، ص ٣٧٨.

(٣) مقالة «أحقاً؟؟؟ ص ٢٨٦.

(٤) ولد بمكة في أواخر عام ١٣٣٦هـ، والتحق بالمدرسة الخيرية عام ١٣٤١هـ، والتحق بالمدرسة الهاشمية عام ١٣٤٣هـ، في جدة، ثم بمدرسة الفلاح في جدة ثم مدرسة الفلاح في مكة انظر : وحي الصحراء ص ١٨١.

(٥) مقالة «الطموح والاعتدال». ص ١٨٤.

والتاريخ[١]، ومحاضرة أحمد العربي عن الأدب الحديث في الحجاز[٢]، ودراسة عبدالقدوس الأنصاري عن الشعر ونفوذه في المجتمع العربي القديم[٣].

ولعل هذه الكتب الخمسة توضح في صورة جلية كيف كانت البداية الأدبية في هذا الفن، واتصفت بما ميّزها عن المقالة الصحفية الأدبية، على الرغم من اشتراكهما في بعض الصفات كالقصر، وعدم العمق، وشدة العاطفة، مما هو مشترك من السمات بين الكتّاب جميعًا في تلك الفترة.

---

(١) انظر : ص ٣١ من وحي الصحراء.
(٢) انظر : ص ٣٧٦ المصدر السابق.
(٣) انظر : ص ٢٤٣ المصدر السابق.

مظاهر المقالة الأدبية في هذه الفترة

إن أبرز ما يميّز المقالة الأدبية في بداية النهضة ذلك الإقبال الكبير من الكتاب المتمرسين وغيرهم على سبر أغوار مجتمعهم، ونثر مشكلاته على الصحف، في هيئة نصوص أدبية ــ منها المقالة ــ التي تعالج، وتقترح، وتتأمل .

وقد كانت بداية هذا النشاط في عام ١٣٥٠هـ حين صدرت صوت الحجاز؛ إذ أسهم كتّابها ومحرروها في إثراء الحركة الناشئة بآراء وأفكار جديدة شابة، تجاوزت أساليب النقد الهادىء القريب من الاتزان الذي كان ينشر على صفحات أم القرى، فاستقطبت من يجيد طرائق الحديث العذب، ولديه رؤية فاحصة مستكشفة لأدواء المجتمع الباحث عن مستقبله، والآمل كثيرًا في الوعي الجديد لدى هذه الطبقة الجديدة من المتعلمين والكتّاب.

فكانت المقالة الأدبية خير معوان على إظهار مكنون طموحات أبناء البلاد إلى الرقي بوسائل التعليم، والإفادة من نبوغ بعض أفراده، وكشف ما يرجونه للمرأة متعلمة واعية، تخدم بيتها ومجتمعها وتقف في وجه كثير من العادات الاجتماعية المستحكمة.

ونظر هؤلاء الكتّاب إلى ما تتمتع به بعض الشعوب العربية في البلدان المجاورة من انطلاق ووعي، وسلوك جديد، يأخذ في مجموعه بأشياء كثيرة من التراث، وأشياء أخرى كثيرة أيضًا من اطلاعهم على ثقافة الغرب، وتقليدهم له، فرغبوا أن يكونوا على حظ مما ثقفه الجيران من معرفة وتقدم ووعي .. وأشادوا في كثير من كتاباتهم ــ كما سيمر معنا ــ بأوجه الحياة الجديدة في لبنان ومصر، وقلدوا أنماط الكتابة، وأساليب التفكير، وطمعوا إلى أن يرقوا إلى ما رقى إليه أولئك .. وكل ذلك نقلته المقالة الأدبية في جوانبها المختلفة الذاتية، والوصفية، والنقدية والاجتماعية، وصورت في صدق واندفاع عنفوان ذلك الطموح، مما يؤكد بحق وطنية قوية، وحيوية وثّابة لدى كثير ممن كتبوا في بداية النهضة، وبشروا بقدومها، واحتملوا عنتًا وافرًا من صدامهم بمورثات اجتماعية طاغية،

يحسبها بعض أفراد المجتمع من الدين، وما هي بذات صلة بتعاليم الدين السمحة الرشيدة، وإنما ساء فهم التشريع، واندثر الوعي الناضج مع غلبة الأمية، وتقلب الدارسين غير المتمكنين، وتخلف البنية الاجتماعية بعامة، ودخول شائبات كثيرات على السلوك الاجتماعي، فكان حريًّا برواد المقالة الأدبية أن يشرعوا أقلامهم لإبانة ما يرونه حقًّا، وتعنيف ما يعوق المجتمع عن الوصول إلى التصور الحضاري الإسلامي الصحيح.

ولا شك أن بعض الكتّاب قد اشتط في معالجته هذه الأمور، وطمح إلى ما لا يمكن الوصول إليه في ظرف زمني قصير، كالعواد مثلًا، ولكن كتّابًا آخرين، كالسباعي، وابن خميس، والجاسر طرقوا مشكلات كثيرة في هدوء واتزان، فجاءت مقالاتهم قريبة إلى الإقناع والقبول، بعيدة عن الغلو في العاطفة، والتشدد في القول.

ولإبانة ما أجملته في هذه المقدمة أحدد أبرز السمات التي تميز المقالة الأدبية في هذه الفترة وهي :

أ ـــ تأثير المقالة الأدبية في الحياة العامة :

وعلى الرغم من أنّ نفرًا من الأدباء ينكر ذلك، إلا أن الحق يفرض على الباحث أن يعترف بما أراد أدباء كثيرون من إصلاح للحياة العامة، فوفقوا إلى كثير مما ذهبوا إليه، ولو طال بهم الأجل لرأوا أن المجتمع سائر إلى تحقيق أحلامهم الأخرى، وأن خلافهم على إفادة المجتمع من الأدب ينبيء عن مقدار الحرص الكبير منهم على التقدم في الإصلاح عن طريق الأدب؛ لأن بداية النهضات عادة ما تكون أدبية فكرية، فإذا لم تُسبق النهضة بدعوات كثيرة إلى النهوض، تبين لها مناهجها، وتوضح لها أهداف ومرامي التطلع إلى الجديد وإلى التغيير، كانت النهضة ناقصة في بعض وجوهها، أو كانت مبتسرة غير ناضجة النشأة.

ولهذا السبب راود خواطر كثير من الكتاب ما تحتاجه النهضة من رأي أدبي وفكري؛ فالأدباء ـــ عادة في بداية الوعي ـــ يسبقون غيرهم إلى إدراك كثير

من تجارب الأمم، وتحوّل المجتمعات، فكان لمشاركتهم أثر قوي في التعجيل بنتائج دعواتهم، ورؤية ثمرتها في الأجيال اللاحقة لهم.

فهذا العواد يكتب في صوت الحجاز عن ضرورة العمل في تشييد حياة ناضجة منتجة «إن الحياة ترغم الأحياء على الحركة والعمل والسير والتقدم، وإننا لفي السبيل، وإننا إن شاء الله لمتقدمون»(١).

ويبلغ تأثير الأدب غاية ممتازة، في مشاركة الكتاب في مسائل التربية والتعليم، والنظر في السبل المصلحة لمناهجها، ويرجع أحمد العربي(٢) ما يلحق بالمجتمع من تخلف إلى رداءة طرائق التربية «كلما تدبرت في ضرب من ضروب ضعفنا وانحطاطنا، وكلما تلمست علل هذا الضعف، وأسباب هذا الانحطاط أفضى بي البحث والتفكير إلى أمر واحد هو في زعمي جماع الأسباب، وعلة العلل؛ ذلك الأمر هو التربية، التربية بأوفى مدلولاتها»(٣).

وبمطالعة استفتاءات المنهل نجد أن من بينها عددًا لا بأس به يرمي إلى استخلاص صفوة الآراء حول مسائل في الاقتصاد، أو الاستقرار الأمني، أو الإفادة من الأدب.

نشرت المجلة مقالة لحمزة شحاتة بعنوان (هل الحروب تطوي الحضارات أم تنشرها ؟)(٤) جوابًا على استفتاء المنهل عن الحرب، وبحثًا عن تفسير فكري مقنع لضرورة الحرب الدائرة آنذاك، وهي الحرب العالمية الثانية

---

(١) مقالة : «في السبيل» افتتاحية العدد الثالث، في ١٩/١٢/١٣٥٠هـ، بتوقيع م.ح.ع.

(٢) أحمد بن محمد العربي، ولد بالمدينة المنورة عام ١٣٢٣هـ،١٩٠٥م ويرجع أصله إلى الجزائر، درس الابتدائية والثانوية في الأزهر بمصر، ثم تحول إلى دار العلوم العليا فنال شهادتها، عمل مدرساً في المعهد العلمي السعودي، ثم مديراً لمدرسة أمراء الأسرة المالكة في الرياض. ثم مديراً لمدرسة تحضير البعثات السعودية بمكة، فمديراً للأوقاف، فعضواً بمجلس الشورى.
انظر : معجم المطبوعات، جـ١ ص ٢٨٣.

(٣) مقالة : «التربية ونصيبنا منها «صوت الحجاز، عدد ٢، وفي ٤/١٢/١٣٥١هـ، ص ٧.

(٤) العدد الخامس، ربيع الثاني ١٣٥٩هـ، مايو ١٩٤٠م.

١٩٣٩ ــ ١٩٤٥م[1] وشارك في الإجابة عليه عدد من الأدباء[2].

واستفتاء المجلة الاقتصادي «كيف نرسم برنامجًا عمليًّا قابلًا للتطبيق في رفع مستوانا الاقتصادي ؟»، وقد وردت إجابات كثيرة تشرح أوجه الإصلاح الاقتصادي، والمنافع العامة التي يمكن الإفادة منها، والثروات الطبيعية التي تكنّها الأرض[3].

ثم بحثها عن الوسائل المعينة على الاهتمام بالثقافة، في استطلاع قدمت له بعبارات تدل على سعي جاد لإصلاح هذا الجانب «إن الثقافة ضرورة من أهم ضروريات الحياة فهي الزاد الروحي الذي لا يستغني عنه الشباب، وأداة التفاهم بين الناس، وبواسطتها يعبّر الإنسان عن حاجاته وخيالاته ورغباته وعقائده»[4].

وتشتد الرغبة في الإصلاح بالأدباء إلى أن يحاكموا أنفسهم في إفادة المجتمع من أدبهم، وما إذا كان أثر الدعوات إلى النهضة عن طريق الأدب قد آتى أكله[5].

ويؤكد العطار أن (ليس ثم ميدان إلا وللأدب فيه فتح وعمران، والتقدم الذي نراه في كثير من النواحي مدين للأدب وللدعوات التي جهر بها الأدباء، وتركت آثارها في حقل الإصلاح العام، وظهر ذلك في تقارب الطبقات، وسمو

---

(١) انظر : ريمون كارتييه (الحرب العالمية الثانية)، مؤسسة نوفل، بيروت، ط٢، نقله إلى العربية سهيل سماحة، وانطوان مسعود، بجلدان مصوران.

(٢) انظر إجابة حمد الجاسر في المنهل، عدد ٦، جمادى الأولى ١٣٥٩هـ، يونيو ١٩٤٠م، واجابة عبدالقدوس الأنصاري بمقالة (بين مواقع المقاومة وطائرات الانقضاض)، المنهل، عدد ٥، ربيع الثاني ١٣٦٠، أبريل ١٩٤١م، وهي مقالة طريفة وقعها برمز (باحث) وإجابة محمد سعيد العامودي، المنهل عدد ٧، في جمادى الآخرة، سنة ١٣٥٩هـ، ونشرها في كتابه (من تاريخنا) ص ٢٩١.

(٣) وانظر إجابات محمد سعيد العامودي، محمود عارف، المنهل، محرم، ١٣٦١هـ، حسين سرحان ربيع الأول سنة ١٣٦٠هـ، محمد حسن عواد ربيع الثاني ١٣٦٠هـ

(٤) عدد محرم وصفر ١٣٨٠هـ، يونيه وأغسطس ١٩٦٠م تحت عنوان : المنهل يستطلع.

(٥) قضية «هل استفدنا من الأدب»، المنهل عدد ربيع الثاني ١٣٦٧هـ، اشترك في مناقشتها : محمد عمر توفيق، حسين عرب، محمد حسين زيدان، السيد أمين مدني، عبدالله عريف.

الذوق والوعي القومي، والاتجاه إلى العلم والعمل، والصبوة إلى الكمال، والتوثب إلى العلا، والقلق الذي يحمل على السعي والكفاح والاتصال بالعالم والتأثر بحركاته وأحداثه، وكل هذا سبيل يمهد لرفع مستوى المعيشة والخلق والعقل)[١].

ولكن محمد عمر توفيق[١] لا يوافق العطار على ما ذهب إليه، من أن الأدب أثّر في الحياة العامة، فهو يرى أن تأثير الأدب ضئيل جدًا في الميادين كلها، وما بلغ ما يرجى منه، ويعزو ذلك إلى ضعف الأدب ذاته، وإلى تقليد الآخرين ممن ليس لهم صلة ببيئة هذا الأدب «أو تراهم سيزعمون أن ما تذيعه الصحف عندنا يسمى أدبًا نقابل به الأدب الذي تقدمه المكتبة العربية كل يوم»[٣].

ويبالغ توفيق في إنكار الأثر الذي أحدثته ألوان مختلفة من الأدب، ويعتقد أن المجتمع كان في غنى عن غثاء كثير ينشر في الصحف، وأنه تقدم دون ذلك الغثاء.

وهذا الرأي لا يتفق مع الحقيقة الثابتة التي يؤكدها النهوض العام في مجالات مختلفة، كان الأدباء سببًا رئيسًا في إحداثه، بما حملوا أنفسهم فيه من تبعات وطنية وقومية .. والصحوة التي عمّت البلاد بعد توحيدها، ثم تدفق الموارد المالية، فاجتمع على قيامها أسباب عديدة، ليس الأدب إلا واحدًا مؤثرًا فاعلًا منها. على خلاف ما يذكر الكاتب (صحت البلاد صحوتها الذهنية المعروفة، وما أشك في أن الأدب ليس له أي أثر في هذه الصحوة، ولكنه كان أثرًا من آثارها، أمّا هي فقد جاءت طبيعية) ثم يقول : «أنا لا أرى غير استقرار ذهني رتيب،

---

(١) مقالة : «هل أفاد الأدب» المنهل عدد جمادى الأولى ١٣٦٧هـ.

(٢) ولد بمكة سنة ١٣٣٧هـ. وتخرج في القسم العالي بمدرسة العلوم الشرعية بالمدينة، تولى مناصب حكومية مختلفة كان آخرها وزيراً للمواصلات، ووزيراً للحج والأوقاف بالنيابة، له آثار منها : الزوج والصديق، طه حسين والشيخان، مذكرات مسافر.

أنظر : المنهل، العدد الخاص بالأدب السعودي، رجب ١٣٨٦هـ، ومعجم المطبوعات جـ٢ ص ٣٨٥.

(٣) مقالة : (هذا الأدب)، المنهل، عدد رجب ١٣٦٧هـ.

وما دامت الطبقة العامة هي المقصودة بالبحث في تأثير الأدب فليقل (يعني العطار) أين هي دلائل الرجة الذهنية المفروضة في هذه الطبقة ؟ إن أفرادها لا يتذوقون الأدب. وقد تكون لغة الصحف مفهومة عند بعضهم، ولكن لغة الصحف لا ترقى عادة إلى مستوى الأدب الرفيع»[١].

وقد ذهب إلى مثل هذا الرأي ــ قبل توفيق ــ عزيز ضياء[٢]؛ إذ زعم أن ما كتبه الأدباء ليس إلا عبثًا، وأن تلك الكتابة لا توصل إلى غاية، وأن حق مثل تلك الكتابة الدفن !.

ومن الخير أن يلتمس له العذر في هذا الرأي العنيف، فلم يدفعه إليه إلا نيّة صالحة تبحث عن نماذج أكثر نضوجًا، وأطيب استواءً. ومثل هذه الرغبة هي التي أوجدت خصومات أدبية ماتعة، اجتهد فيها المتعاركون في أن يصلوا إلى تعريف سمح للأدب، وأن يتفقوا على وظيفته وغايته في تكوين القيم الأخلاقية للمجتمع.

يقول ضياء «غاية الأدب فيما أعتقد هي إصلاح الهيئة الاجتماعية إصلاحًا يشمل العاطفة والعقل فيتولاهما بالصقل والتهذيب، ويدفع بها في سبيل ممهدة إلى الكمال المطلق المنشود، ويحاول أن يقضي على الغرائز الغشيمة المتركزة في طبيعة الإنسان الحيوانية، ويسمو بها في أجواء الفضيلة في حدودها القصوى، ليتمكن الإنسان من إنسانيته على وجهها الصميم».

وحين يجيء إلى أدبنا يشتط في حكمه عليه شططًا بالغًا إذ يقول :

«أما أنا فإني أزعم أن الأدب عندنا لا يقصد إلى غاية، وليس فيه روح،

---

(١) المقالة السابقة.

(٢) ولد في المدينة المنورة، في ١٢ ربيع الأول ١٣٣٢هـ، الموافق ٢٢ يناير ١٩١٤م. واسمه الكامل : عبدالعزيز ضياء الدين بن زاهد، تلقى تعليمه الأولي في أحد كتاتيب المدينة المنورة، ثم في المدرسة الراقية الهاشمية، ثم التحق بمدرسة الصحة بمكة، وتقلب في وظائف عدة، وكتب في صحف كثيرة المقالة الأدبية، والتعليق السياسي، من آثاره : قصص من سومرت موم (ترجمة)، وقصص من طاغور (مترجمة)، جسور إلى القمة، وحمزة شحاتة قمة لم تكتشف.

انظر : المنهل ٢ عدد ٧ مجلد ٢٧، ص ٨١٣، ١٣٨٦هـ، وحي الصحراء، ص ٢٣٩ ط٢.
وانظر الفصل الثاني من هذا الجزء، والفصل الرابع من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

وليست فيه قوة، ولا أرى لأصحابه إلا أن يدفنوه، وإني أزعم أن الأدب لا يقصد إلى غاية، وتستطيع أن تشايعني في هذا الزعم حين تتأمل هذه الآثار التي نشرها أصحابها في صوت الحجاز، وفي أم القرى، وفي كتب مستقلة»[١].

وإذ وقف ضياء يائسًا من قيمة الأدب في هذه البلاد، ولم تزد دعوته لإحيائه على البكاء عليه، وندبه، والتحسر على نبوغ يضيع بين طيات الإهمال والتقليد، يأتي عبدالقدوس الأنصاري بما يزيد في نشاط الأدب، ويمكّنه في المجتمع، ويفسح له مكانًا من القبول والاحترام «فنحن اليوم في عصر التجديد والابتكار، فلماذا حصرنا إنتاجنا في الأدب وشغلنا أنفسنا بنظم القصائد، وتنسيق الجمل والعبارات، واكتفينا بما سميناه «نهضة أدبية وإنتاجًا فكريًّا»[٢]، وغاب عنا أن الإنتاج الفكري ليس هو نظم القصائد وتنسيق العبارات فحسب، بل هو التطبيق العملي لما ينجم عن التفكير في شتى النواحي المفيدة؛ لأن الأدب وحده لا يدر الثروة على البلاد ولا يغني المجموع، إذن فليس أمامنا والحالة هذه إلا أن نشتغل بالانتاج الصحيح، ونطبق المسألة عمليًّا بالتفكير فيما تدعو إليه الحاجة حتى إذا ما نجحنا في أمر ما وتذوقنا نشوة النجاح فيه رحنا نبحث عن أمر آخر يكون أكثر نجاحًا من سابقه، وهكذا، وهذا هو سلم الرقي الأساسي.

أمامنا الكثير من الأمور التي في حاجة إلى التفكير الصحيح المنتج الذي يعود على البلاد بالفائدة والخير»[٣].

ب ـ الإقبال الشديد على الكتابة المقالية :

لم يكن صدور الصحف بالأمر الهين في مجتمع كان لا يحفل بها، ولا يعطيها

---

(١) مقالة : «غاية الأدب عندنا» «صوت الحجاز، عدد ٢٤١ في ١٣٥٥/١١/٦هـ، وعدد ٢٤٢ في ١٣٥٥/١١/١٣هـ.

(٢) المنهل، عدد ربيع الثاني ١٣٦٧هـ، وانظر : مقالة «ما هو الأثر الذي أوجده الأدب الحديث في الحجاز؟». محمد سعيد عبدالمقصود خوجة حياته وآثاره، د. محمد بن سعيد بن حسين ص ٥٩.

(٣) المرجع السابق.

من نفسه كبير اهتمام، والنابهون فيه يتطلعون إلى ما يفد لبلادهم من مصر ولبنان من صحف لا يتصل مجيئها بسبب رداءة وسائل المواصلات، وتعرض هذه الصحف لعوادي الأحداث الأمنية والسياسية.

ولذلك ما كادت الصحافة تستقر في الحجاز، وتتعدد حتى أقبل عليها من نال حظًا من التعليم، وثقف شيئًا يسيرًا من المعارف المختلفة، يكتبون فيها آلامهم، ويفضون إليها بأحلامهم وأمانيهم لبلادهم، والجريدة لا تمانع في قبول أي فكرة، سواء كانت شريفة جدًا، أو دون ذلك؛ فالجريدة في طور النشأة، والمتعلمون قليلون، ولا بد من إزجاء ما يتيسر من تلك الأماني والآلام إلى القرّاء، ليشاركوا إخوانهم المشاعر، ويطمعوا في حياة أفضل.

وقد شغف المتعلمون بما تبثه تلك الصحف من أفكار تميل إلى الجدة، وتفتح أبوابًا للحديث كانت مغلقة، وتستقبل ما كان محظورًا نشره، في صحافة العهد السابق، فطفق الكتّاب وأنصاف الكتّاب يدبجون المقالات، وينظمون الشعر، ويرسلون الخواطر، وتسابقوا في ذلك حين وجدوا صدرًا رحبًا من صوت الحجاز، وبالأخص في فترة النشأة الأولى، أي في السنوات الخمس الأولى فامتلأت صفحاتها بالمعارك الكلامية، ونقلت ما يشرف وما لا فائدة منه، وأباحت ساحتها لكثير من القذف والتشنيع من هؤلاء الناشئة، بعضهم لبعض، ذاك يرمي صاحبه بالخيبة وسوء التفكير والآخر يرد عليه فلا يقنع بما يصيبه من أخذ الثأر، بل يزيد في ذلك ذمًا وتثبيطًا.

وقد زادت هذه الصفة زيادة أخرجت محرر صوت الحجاز عن طوره فكتب : «.. مرّ يوم أوشك الشباب فيه أن يعلق السفسطة، ويزلق في مهاوي الهرج وحب النقاش، وكاد اللهو بنافلة القول وزائف الأدب أن يسود أوساطه، وشرع فريق من الناشئة بحكم سذاجة السن وقاعدة حب الظهور الطبيعي يغويه سحر صناعة الأدب الخلاب، فنبتت أقلام لا يحصى وصفها، وظهرت أسماء لا يحصر عددها، وكادت تطغى فكرة حمل الأقلام وحب ظهور الأسماء حتى على التلاميذ في فصول دراستهم فتنسيهم وظائفهم، وتحصر جهودهم في مقالات

يحبرونها ونشرات يصدرونها وكأنه يريد أن ينبه إلى وظيفة الأدب الأساسي في بناء المجتمع وأنه التزام بقضايا رفيعة، وليس ترفًا وتسلية : «وليست أسباب الحياة **كلها أدباً، كما ليست غايتها أقلاماً تهرف أو تجيد، إنما الحياة شؤون، أولها الحياكة** وتجهيز كل أدوات الإنسان الحيوية، وآخرها إعداد الحديد في الماء واليابسة، وبين أجواء الفضاء ليفلّ الحديد، ويرد العاديات الموريات المغيرات المثيرات».

ويلتفت حوله فيصل إلى خاطره ما يطمئنه، ويبعث في نفسه السرور «مما نشعر به حولنا من تطور في الأفكار، وقابلية في العقول جعلت القوم يسمعون اليوم منّا بعض الشيء، ويفهمون توجيهات صحيفتنا»[1].

ولأن النهج الأدبي المتزن لم يتضح بعد، فهذه الشبيبة غضة طرية، جديدة على الكلمة شاب النقد ما خالطه من عنف ومهاترة، وخرج به عن طوره المطلوب، إلى طريق ما كان ينبغي له أن يسلكه، ولا غرابة في ذلك، فكل شيء في بدايته صغير ليّن، حتى يكبر وتنضجه الأيام، بما تكسبه من تجارب، وتضع أمامه من دروس، وما كان مأمولًا أبدًا أن يأتي كتّاب المقالة في بداية نشأتها بكل معجب مطرب، ولا كان قريبًا من العقل أن ينبغ بعضهم في ليلة وضحاها فيباري أساطين المقالة في البلاد العربية آنذاك !!.

وعلى الرغم من ضعف شأن كثير من النقد في هذه الصحف الناشئة، إلا أنه ما لبث سنوات حتى أخذ في الاستواء، وصار أولئك المقاليون والكتاب أصحاب طريقة قوية في البحث عن سبل الإصلاح الأدبي والفكري، فقد عركتهم الخلافات، وأفادوا من سقطاتهم، فما صاروا إلى تكرارها وما سلكوا سبلهم الأولى، وعلى أيديهم بدا للمقالة الأدبية شكلها المميز القوي، وأنشأوا لهم مدرسة خاصة، لها سماتها ومعالمها، مما سيتبين بعد إن شاء الله.

وقد شكا محمد حسن فقي أحد كتّاب صوت الحجاز من غلواء ناشئة الأدب في طريقتهم النقدية الصاخبة، واتخاذه ممرًا إلى أغراضهم الخاصة بهم، فكتب مقالة

---

(١) افتتاحية العدد ٢٩٣، بداية السنة السابعة من عمر الصحيفة ١٣٥٦/٢/١هـ، الموافق ١٩٣٨/٢/١م.

ملتهبة، تبعث على الأسى من جراء هبوط القيمة النقدية، والتكالب على النشر : «وبعد أفكلما عكف أديب موهوب على تصحيح المقاييس الأدبية، وإسداء يد صالحة للآداب بنصح المتأدبين المتهوسين في هذا البلد، ومحاولة تقويمهم وإرشادهم إلى ماهية الأدب الصحيح ركبوا رؤوسهم، وأصروا على غوايتهم، وأمعنوا في أفنهم ونقيقهم المزعج. لقد ضقنا ذرعًا بهؤلاء الذين يريدون منا أن نخرج على طبيعتنا، وأن نجعل من الأدب مطية للتهاتر والإقذاع، ونحن زعيمون بأن نركب هذا المركب الوعر، وأن نحطم تلك الهياكل والأشباح الشريرة التي تكيد للأدب مادامت تأبى إلا أن تلح في نقيقها وهرائها .. »[١].

ولكن الاتزان يقوى فيما نشر بعد عام ١٣٥٥هـ في الجملة من مقالات، مع وجود شيء من الحدّة هي وليدة الحاجة إلى التطوير والرغبة في التقويم، وإن النقد العلمي الموضوعي لا يتأتى لمثل ما يكتبه أدباء النهضة في بدايتها، لكونهم لم يدرسوا هذا العلم بقواعده وقيمه وقوانينه في محل، ولم يتلقوه من معلمين متخصصين، وإنما تلقفوا ذلك من قراءاتهم المتيقظة، وحاستهم المستقرة، مضافًا إلى هاتين الخاصتين موهبة قوية قادرة على استصفاء الجيد من الرديء ولكن حدة الطبع، ووفرة العاطفة صفتان تلازمان النقد في بداياته عادة.

ومما يدل على استقامة المنهج النقدي واعتداله مواجهة بعض الأدباء لما يكتب عن أدب البلاد، وردهم التهم وتفنيدهم بالحجج أقاويل الناقدين؛ فحين كتب محمد كرد علي[٢] مقالة في مجلة الهلال[٣] يأخذ على الحجاز فقره من كل ثقافة

---

(١) مقالة «الحالة الأدبية عندنا»، وحي الصحراء، ط٢، ص ٤٤٢. وانظر مقالة عن الخصومات الأدبية الحادة وأثرها في النقد، لحسين سرحان. صوت الحجاز، عدد ١٥٥ الثلاثاء ١٣٥٤/٢/٤هـ، ص٤. بعنوان «صوت الحجاز بين عهدين».

(٢) محمد بن عبدالرازق بن محمد كرد علي : أسس المجمع العلمي العربي بدمشق، ورأسه، وأنشأ مجلة «المقتبس» كتب في جريدة «الشام» و «المقتطف» وتولى تحرير جريدة الرائد المصري حوالي سنة، وقف في وجه جمعية الاتحاد والترقي فضايقه الأتراك، له آثار منها : مجلة المقتبس، ثمانية مجلدات وجزآن، وخطط الشام، ستة مجلدات، وتاريخ الحضارة، جزآن، ترجمها عن الفرنسية لمؤلفها شارك سنيبوس. ت ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م.
انظر : الأعلام للزركلي جـ٢، ص ٢٠٢.

(٣) عنوان المقالة : «كتبنا وتآليفنا» مجلة الهلال عدد يوليو ١٩٧٣م.

جديدة، وأن تآليفه ترجع إلى القرن العاشر، وما قبله من عصور الانحطاط، وأن صحافته تكاد لا تذكر، إذا كان ثمة صحافة في الحجاز. تصدى له عبدالقدوس الأنصاري وردّ عليه في مقالة مطولة[1]، بيّن فيها أوجه الصحوة بين أبناء البلاد، وتباشير النهضة الأدبية في مؤلفات جديدة تصور ما يضطرب في الحجاز من نشاط أدبي وفكري، مثل (وحي الصحراء) من جمع محمد سعيد عبدالمقصود وعبدالله بالخير، وكتابي للعطار، وآثار المدينة المنورة، وإصلاحات في لغة الكتابة والأدب، لكاتب المقال.

ومع التوسع في إصدار الصحف نشطت الكتابة المقالية، وبالأخص بعد الحرب العالمية الثانية، وبدأت تطرق كافة الميادين الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفنية والنقدية حتى المقالة الساخرة وجدت طريقها إلى الأدب السعودي، لكن السخرية فيها كانت تأخذ شكلًا تهذيبيًّا إصلاحيًّا [2].

جـ ـ الأسماء المستعارة :

لم يكن للتلقب بأي اسم أهمية تذكر، لولا أن التنكر بالتباس اسم أو عدة أسماء أصبح ظاهرة لافتة لمطالع أدب النهضة، ولا يكاد يخلو كاتب من كتّاب الخمسينات والستينات على الأخص من لقب أو عدة ألقاب يكتب تحت هذه المظلة التي تحميه من نظرات القرّاء وإنكارهم ما يكتب.

ولوجود مقالات كثيرة، لها منزلتها الجيدة في تقويم الفن ـ ولكنها وقّعت بأسماء رمزية ـ بات لزامًا علي أن أبحث سرّ التمسك الشديد بمجموعة من الأسماء المتلقب بها، مما له صفة الشيوع والرنين، ويوحي ـ في كثير من الأحيان ـ بمعان تاريخية أو فكرية، وربما لا يدل على أكثر من ذلك الجمال الموسيقي في اللفظ نفسه، مما دعا الكاتب أن يتحسن بالتلقب به دون غيره.

لماذا الألقاب ؟.

---

(١) انظر : المنهل عدد رجب ١٣٥٨هـ.
وانظر : د. السيد تقي الدين، مجلة المنهل وأثرها في النهضة السعودية جـ١ ص ١٠.

(٢) د. محمد بن سعد بن حسين «الأدب الحديث، تاريخ ودراسات» ص ٣٢٤.

ولماذا التعمية، والتخفي ؟.

سؤالان جديران بإجابة مستفيضة، وعلى الأخص، ما كان مقترنًا بأسماء أدبية مجيدة، ليس ثمة خوف من أن تنكشف وتظهر على الناس بأسمائها الحقيقية.

هل كانت الحالة الاجتماعية تُلزم الأديب أن يتقنع ؟.

وهل كان من الملزم للأديب ألّا يبوح بتطلعه إلى المستقبل من خلال مقالة أو قصة أو قصيدة إلا حين يصد بوجهه الحقيقي عن أبناء قومه ؟. أسئلة تثير تداعيات كثيرة يواكبها الإغراب الغامض الذي يستكن خلف تلك الألقاب، وشغف النفس الإنسانية بما طبعت عليه من فضول — إلى معرفة المخفي والمستتر دائمًا.

ولولا هذا الشغف الملازم للنفس لما كان شوق إلى المعرفة البكر؛ يسعى لها الباحث المطبوع على حب الكشف، يتأمل ويفكر ويقارن ويستدل، ويبحث عن السبب الدال على السبب إلى أن يصل إلى الحقيقة.

الحق أن هناك جملة من الأسباب دفعت الأدباء إلى الترمز. لعل من أهمها عدم الثقة في الفكرة المراد معالجتها، وقبول الناس لها بأسلوب كاتبها، أو ردّهم إياها ردًّا عنيفًا مؤلمًا، ويتفق هذا المحمل مع بداية البعث الأدبي، ومواجهة تقاليد اجتماعية موروثة، سواء كانت في الأدب أم في السلوك الاجتماعي، أم كان فيما يقدسه الناس، ويضفون عليه أفانين الاحترام والتقدير، يرثون ذلك عن سابقيهم، ويزيدون في تمسكهم بما يصل إليهم من ذلك الإرث، ولا يبيحون لمن شاء من الكتّاب أن يمس سمة اجتماعية أو أدبية بشيء من النقد، ويجد الكاتب أنه من الخير ألّا يظهر للقراء باسمه الحقيقي.

ولكن الأنصاري يرى أن السعي إلى الاسم المستعار آت من طريق تقليد المهجريين[١]، ويلح حسين سرحان[٢] على الانكشاف ويقول : «إن الشعب في

(١) عبدالقدوس الأنصاري، مقالة : «الأسماء المستعارة والرمزية في الأدب السعودي الحديث» مجلة المنهل، عدد ذي القعدة ١٣٩٢هـ، ص ١١٤٢.

(٢) ولد في مكة المكرمة سنة ١٣٣٢هـ، وتخرج من مدرسة الفلاح بمكة، واشتغل بكثير من الوظائف

حاجة ماسة إلى التعارف بأدبائه ومتنوريه وكتّابه والاتصال بهم عن طريق معرفتهم والارتباط بأحوالهم» ثم لا يعتقد أن سببًا يحول دون الظهور، ويقترح على الأدباء والشعراء «أن يصرحوا بأسمائهم ويظهروا بمظهر الجرأة والإقدام أمام العالم العربي، ويكون في هذا ما فيه من ذيوع الصيت وبعد الذكر في كل الأصقاع العربية»[١].

أما العوّاد فهو يرى أن العنف رد يلائم من يتخفى، أو ينتحل اسمًا من الأسماء «كاتبو المقالات السخيفة، يوقّعونها بأسماء نساء أو رجال أو أشباه نساء من الرجال، ليستتروا في ظلام التواقيع الكاذبة بعيدًا عن نظرات النقّاد الثاقبة، أو عن نظرات أولئك الذين صيغت من أجل إغاظتهم هذه المقالات الركاب»[٢].

وقد سخط العطار على من ترموزا، ودعا إلى مواجهة القرّاء، وتساءل «وما أدري سبب ذلك : أهو جبن من الكاتب ؟ أهو استخفاف بالقرّاء، أهو خوف من أذى يلحقه إذا عرف ؟ لاشيء من هذا فما ينشر في الصحف السعودية منخول مصفى لا يعقب أذى يركض إلى الكاتب من نشر مقالة باسمه الصريح، ولقد اختفت تلك البدعة ثم أخذت تظهر هذه الأيام، وتأخذ مكانها بوضوح في جريدة المدينة المنورة، حيث تجد على صفحتها الأولى مستعجل، حتى، ومستأن، وفي جريدة البلاد السعودية أيضًا، فهي لم تسلم من هذه البدعة.

ومن رأيي أن الكاتب الذي لا يستطيع أن يحتمل المسئولية أمام القارىء، أو لا يحب أن تكون بينه وبينه صلة روحية هو كاتب يحسن به أن يسكت لأن ذلك خير له، والكلمة التي لا يُعرف قائلها لا تحدث الأثر الذي تتركه

له شعر كثير، ومقالات متفرقة في صحف شتى، وهو من المجودين والمبرزين في فن المقالة، اسمه : حسين بن علي بن صويلح بن سرحان، من قبيلة الروسان من عتيبة. ومن آثاره :
ديوان أجنحة بلا ريش، وديوان الطائر الغريب، ومجموعة مقالات بعنوان (من مقالات حسين سرحان)، أصدرها النادي الأدبي بالرياض. انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب.

(١) مقالة «الأسماء المستعارة»، صوت الحجاز، عدد ٢٩، الأثنين ٢٣ جمادى الثانية ١٣٥١هـ، ص ٦.

(٢) محمد حسين عواد، مقالة (الدنكشة الأدبية) جريدة اليوم، العدد ٣٩١، السنة ٢٣، ربيع الثاني ١٣٩٠هـ.

كلمة معروف قائلها؛ لأن المقال يوزن بالقائل، فإذا كان عظيمًا كان القول مثله، أما الكلام الذي لا ينتسب إلى أحد، أو ينتسب إلى مجهول، فإن أثره يقلّ إلا في النادر[١]، ولهذا أدعو كتّابنا المتوارين خلف الأسماء المستعارة أو الرموز أن يظهروا أمام القرّاء بأسمائهم الصريحة، ليتلقوا ـــ إن أحسنوا التقدير ـــ أو اللوم إن أساءوا، وكل نفس بما كسبت رهينة»[٢].

ومن الأسماء المستعارة التي شاعت في المقالة الأدبية[٣]، أبو فراس (محمد سرور الصبان)، ابن رشيق (محمد سعيد العامودي)[٤]، ومن توقيعاته أيضًا بدوي الصحراء، وكاتب، وأبو عمرو، و (م.س.ع) و (س) وحسين عرب[٥] كان يوقع بـ (عربي) و (سياسي)، وأحمد عبدالغفور عطار (الجاحظ، عبدالله مكي، عبيد الحازم) وأحيانًا (شريفة عبدالله، وفتاة الحجاز)، وعبدالقدوس الأنصاري (الشاعر المجهول، باحث، ناقد، رقيب، كاتب، قارىء، مطالع) ومحمد عمر توفيق (راصد)، ومحمد حسن عوّاد (أريج نسرين)، وحمزة شحاته[٦]

---

(١) هذا رأي صحيح؛ لأن القول لا يتفق أحياناً ومنزلة القائل من حيث عظمته مقدار ما يكون واعياً لحقيقة ما يقول، مدركاً لقيمة أفكاره، فشخصية الأديب قد تعين على التأثر إذا كان ذا مركز أدبي مرموق، لكنها ليست هي كل التأثير.

(٢) مقالة : «بدعة قديمة تتجدد» المنهل عدد جمادى الأولى ١٣٦٧هـ.

(٣) انظر : عبدالقدوس الأنصاري الأسماء المستعارة والرمزية في الأدب السعودي الحديث وانظر : يوسف أسعد داغر، معجم الأسماء المستعارة وأصحابها «مكتبة لبنان، بيروت ط١، ١٩٨٢م.

(٤) ولد في مكة عام ١٣٢٣هـ، وتخرج في مدرسة الفلاح بمكة المكرمة، ناقد متزن، وناثر مجيد، أشرف على مجلة الحج منذ سنة ١٣٦٩هـ، إلى نهاية عام ١٣٩١هـ. ثم مجلة رابطة العالم الإسلامي من ١٣٨٥هـ، ١٣٩٨هـ. وتوفي عام ١٤١١هـ.

من آثاره : من تاريخنا، من حديث الكتب ٣ جـ. انتظر : معجم المطبوعات جـ٢ ص ٢٧٥.

(٥) ولد سنة ١٣٣٨هـ بمكة المكرمة، ودرس بالمعهد العلمي السعودي بمكة، اشتغل محرراً بصوت الحجاز، وتقلب في الوظائف حكومية مختلفة، أخرها وزير للحج والأوقاف في شوال ١٣٨١هـ، شاعر وناثر، صدر له عن تهامة (ديوان حسين عرب). انظر : معجم المطبوعات جـ١ ص ٣٥٨.

(٦) ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٢٨هـ، ونزح إلى جدة صغيراً، درس بمدرسة الفلاح بجدة عمل في الهند، ثم في جدة، ونزح أخيراً إلى مصر، حيث استقر بها، وهو شاعر ممتاز، وناثر متميز، يميل إلى التأمل والفلسفة. جمعت مقالاته في كتاب بعنوان (حمار حمزة شحاتة) إصدار دار المريخ بالرياض. انظر : الموسوعة الأدبية، جـ٢ ص ١٣٣. انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب

(خنفشي)، وسيف الدين عاشور[1] (جرير)، وعبدالله الغاطي[2] (الطائي الصغير)، ومحمد سعيد عبدالمقصود (الغربال)، وأحمد قنديل[3] (الصموت الحسّاس)، ومحمد حسن فقي[4] (ابن جـلا)، وحمد الجاسر (ح.ج) و (الأصمعي).

وألحظ أن الأديب الناشىء لا يقوى على مواجهة الناقدين وذوي المعرفة والبصر بفنون الكتابة فيتقي ما يمكن أن يطاله منهم بهذا الرمز الذي يصطنعه، خوفًا حينًا، ورغبة في إذاعة ما لا يقدر على البوح به لو أسفر عن وجهه، أو خشية أن يعاب في محاوراته قضايا لا يحبذ المجتمع الخوض فيها، فيما يتصل ببعض العادات، أو الدعوات الحرة القوية إلى النهوض والتماس سبل التحديث.

والرأي القريب من القبول أن القوة لا تخفي، وأن التوثب الأدبي الواثق لا يستطيع صاحبه ستره مهما جرّ عليه من وبال وعناء، وأن من يستتر هو ذاك الكاتب القلق من المجتمع على نفسه، أو من النقّاد على فنه.

والسعي إلى التخفي صاحب بداية النهضة وبدأ أكثر الكتّاب يعلن اسمه دون ترمز، حين اشتد عوده، ولم يخش محاذير البيئة الاجتماعية والنقدية، فقلّ الترمز

---

(١) ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٣٨هـ، تلقى تعليمه في مدرسة الفلاح، ثم في مدرسة تحضير البعثات، ودرس في أمريكا الأدب الانجليزي.
له رواية «لا تقل وداعاً» انظر : معجم المطبوعات جـ١ ص ٤٥٧.

(٢) اسمه : عبدالله الغاطي السليمان، ولد في حائل عام ١٣٤٠هـ، وتخرج في المعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة عام ١٣٦٠هـ، شارك في كتابه المقالة الأدبية والقصة والشعر.
انظر : دليل الكاتب السعودي، ص ١٧١.

(٣) ولد بجدة أواخر عام ١٣٢٩هـ، وتعلم في مدرسة الفلاح، ثم صار معلماً فيها، اشتغل بتحرير صوت الحجاز، وصار رئيساً لها. وعمل في وظائف عدة.
وله مجموعة دواوين منها : الأبراج، أغاريد، المركاز، قريتي الخضراء.
انظر : معجم المطبوعات، جـ١ ص ٢٨٩.

(٤) ولد بمكة المكرمة في ٢٧ ذي القعدة ١٣٣١هـز وتلقى علومه في مدرسة الفلاح بمكة المكرمة، رأس تحرير جريدة صوت الحجاز، وعمل في وظائف حكومية مختلفة.. شاعر، وناثر، صدرت له أخيراً المجموعة الشعرية الكاملة.
انظر : معجم المطبوعات جـ٢ ص ٢٣٩. وانظر الفصل الثاني من هذا الكتاب.

في الثلث الأخير من القرن الرابع عشر قياسًا إلى السنوات العشر الأولى بعد عام ١٣٥٠هـ، وان ظل ملجأ لبعض الكتّاب حين يواتيه ما خاف منه من سبقه من الكاتبين والناقدين.

غير أن عزيز ضياء لم يطمئن إلى ما يحذر منه أصحابه فلم يتلقب أو يرمز لنفسه ـ فيما أعلم، ـ وما قرأت من مقالاته الكثيرة لا أجد فيها خفاء أو مواربة أو هروبًا من مواجهة الفكرة، ومقارعة الرأي.

وهو في هذا يصدر عن مبدأ القوة والاعتزاز بالذات وإنكار الضعف وبلادة المواجهة، بيد أن الثقة الكبيرة التي يستند إليها كاتبنا لا يقدر عليها كثيرون آخرون، وسَعْي عزيز ضياء ـ في بداية النهضة ـ إلى التأكيد على هذه الثقة ليس إلا تفاؤلًا كبيرًا بما وصل إليه بعض أقرانه من ثقافة جديدة، ورأى متجاوز السائد من الرتابة والبلادة والكسل الفكري.

وقد يفيد الرمز كاتبًا ولا يفيد آخر، ويناسب ناقدًا ـ في فترة من الزمن ـ ولا يصلح أن يصطحبه ناقد آخر، لاختلاف نسب القوة والثقة والثقافة، وعنفوان الشخصية وطلعتها.

وكأن عزيز ضياء حين ينظر إلى الرموز الكثيرة لأدبائنا يتطلع إلى إعلان ثقافة الأمة، والكشف عن ملامح وجوه كاتبيها، والمباهاة بالمتقدمين في الفنون الأدبية، والمعارف العامة، وعرض هذه الألوان من الكتابة على الآخرين «لم التواضع، ولمَ إنكار الذات ؟. في وقت نحتاج فيه إلى تكوين مركز يشرفنا كأمة تتوق إلى إثبات وجودها في صفوف الأمم الحيّة الناهضة، وفي ظرف نحن أحوج ما نكون إلى أن يعرفنا الناس، ويعرفون أننا على عكس ما يصموننا به من جهل وتأخر وجمود.

إنني لا أرى لهذه الرموز معنى، وأشعر بأنني أصاب بالدوار، كلما حاولت حلّ هذه المعميات والأحاجي، وذلك حال جميع القرّاء كما يعلم الأدباء أنفسهم»(١).

---

(١) مقالة : أحاج ورموز، صوت الحجاز، عدد ٢٣٣، في ١٢٥٥/٩/٣هـ. ص١.

والقوة ليست امتلاكًا للأمة المصابة بداء الخور، فلن يرتكب مغامرة الإفضاء والقول والجهر بالرأي إلا أصحاء الفكر، نشطاء العزيمة، صادقو الوطنية، فكيف يسعى الكاتب إلى أن يتمثل هذه المعاني في بداية الوعي، واشرئباب الأعناق إلى استكناه أسرار الحياة الجديدة ومفاتيحها ؟.

إن النهضة القوية المسددة الخطى يلزمها أقوياء ناضجون محتملون مكاره الرأي، وآثار إفشائه في الناس، والرمز ليس دلالة صحة في النقد، ولا علامة نضج في التكوين.. «فالتواضع وإنكار الذات ضعف في النفس، وخور في العزيمة من حقهما أن يحتقرا. ومن حق صاحبهما ألاّ يعد نفسه في الأحياء»[١].

ومن ذكر الألقاب السابقة يتبين أن من هاجم التلقب قد وقع فيه، وأن أكثر الكتّاب المشهورين اتخذوا لهم أسماء غير أسمائهم، والتفسير القريب من الواقع أنها نظرات عدة تحيط بالكاتب في ظرف زمني معين، لا يملك المقالي في أثنائه إلا أن يتخفى، إما لكونه ناشئًا غضًّا، ويخاف من لذعات النقد، أو لعنف ما يكتب وحدّته أو تحببًا في اللقب، واستجلابًا به للقرّاء، وغير ذلك من الأسباب[٢].

ويرجع أحمد قنديل أن الجرأة هي ما نريده في حياتنا الأدبية فهو يعرض — من غير مباشرة — لمثل هذا الموضوع، ويصف الجرأة الأدبية المطلوبة بأنها «خلق راق هو في مجموعه صورة كاملة لنضج الرجولة وكمال الحيوية المهذبة»[٣].

---

(١) المقالة السابقة.

(٢) انظر مثلاً مقالة بعنوان «أعينوا هذه الكفاءات» بقلم سعد البواردي، جريدة الخليج العربي، عدد ٥٧، في ١٣٧٩/٤/١٧هـ، ص٣، حيث ذكر أسماء رمزية عديدة، منها : المنصوف، دهيران، فتى، جاسين.. وتساءل عن سبب تخفيهم، فرد عليه من رمز لنفسه بـ «فتى»، أوضح له الأسباب التي يسعى من أجلها الكاتب إلى التخفي، ومنها سطوة النقد للناشىء وإنكار بعض فئات المجتمع ما ينحو إليه الشبان العصريون، وغير ذلك، انظر مقالة «من أجل هذا اختفينا»، جريدة الخليج العربي، عدد ٦٠، في ١٣٧٩/٥/٨هـ، ص ١٢.

(٣) مقالة : «الجرأة الأدبية ومقدار احتياجنا لها» صوت الحجاز، عدد ٢٠٤، في ١٣٥٥/٢/٦هـ.

أثر الثقافة العربية الحديثة في تكوين المقالة الأدبية

ليس في وسع الدارس أن يحصي المؤثرات التي هيأت المقالة الأدبية لتصل إلى ما بلغته من تجويد وإتقان؛ ذلك أن التأثير لم يأت من ثقافة واحدة، أو مذهب أدبي واحد، بل إن الأدباء والمثقفين في الحجاز ونجد، والمنطقة الشرقية والجنوبية كانوا يتلقون تيارات ثقافية وأدبية متعددة، وبالأخص بعد الاستقرار الأمني والسياسي في السنوات التالية لعام ١٣٥١هـ، إذ تتضح في طرائق التعبير، واختيار المفردة اللفظية، وسيطرة روح رومانسية حينا، واتباعية حينًا آخر آثار مختلف المدراس، العربية القديمة، والمهجرية، والمصرية، والعالمية أحيانًا.

ولكن التأثير القوي البالغ قبل النهضة، وبعد ابتدائها في بشائرها الأولى هو ما كان من أثر الأدبين؛ المهجري، والمصري حيث أسهما في صياغة المقالة الأدبية على النحو الموجود بين أيدينا إلى قرب نهاية القرن الرابع عشر.

ولم تستطع المقالة الأدبية، وألوان الأدب الأخرى أن تتخلص من تأثيرهما العنيف إلا مع اتساع الثقافة، وتعدد مشارب التعليم، وكثرة الطبقات الدارسة للأدب على النمط الأكاديمي، درسًا يطلعها على أكثر التيارات الأدبية العربية والعالمية قوة وتأثيرًا، مما ساعد على إضعاف آثار المدرستين القديمتين، وتهيئة الراهن لاستقبال المؤثرات التحديثية الجديدة في الأدب، والثقافة بعامة، ووضوح أثر الثقافة العالمية من الأدب الأصلي نفسه مباشرة أو عن سبيل الترجمات النشطة لروائع هذا الأدب، وجيد دراساته.

أما في بداية النهضة فقد كان أثر القرآن الكريم واضحًا في كتابة بعض الأدباء، وبرز تأثير الأسلوب القرآني في صياغة الجملة، واستعارة بعض المشاهد، واقتباس بعض التعابير.

وأكثر الأدباء تأثرًا بذلك أحمد السباعي، في كتاباته الأولى حيث استمد شيئًا كثيرًا من صوره، وأسلوبه من البيان القرآني أولًا ومن الاتجاه المهجري وما يتصف به من نزوع إلى الحرية والصوفية، والرغبة في التغيير.

في مقالته «هات رفشك»[١] يقتبس ألفاظًا قرآنية كاملة ويصوغها أحيانًا بما يلائم نصّه :

«يا صاحبي هات رفشك واتبعني.

هاته وقم في أثري ولا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه أمرا ..

ألست من غراري أنت تعتلج في صدرك الآمال ؟؟.

ألست من أضرابي تختمر في رأسك الأفكار ؟؟.

ألست شابًا مثلي تتمتع بدم قوي يجري في عروقك ؟؟.

ألست نشيطًا تستطيع أن تترك في الحياة أثرًا ؟؟.

قل : إي .. وإذن أي أثر تركته في حياتك ؟ وأي أمل مما يعتلج في صدرك، أو فكرة مما يختمر في رأسك حققت ؟ أو أي خدمة أدّاها دمك القوي لبلادك ؟؟.

أتمتعض ثاني عطفك ؟ هوّن عليك، إن أريدك إلا صريحًا، فقل : هل أنت تستحق الحياة ؟.

لا وربك، وإذن أنت مثلي وأنا مثلك فاتبعني، اتبعني ورفشك. اتبعني إلى حيث ترقد الجثث الهامدة. هناك نواري جسمينا بين الحجون وكدا.

فهات رفشك.

هاته يا صاحبي.

هاته واتبعني.

أتتلكأ. ولم يا صاحبي ؟.

ألأنك تحب الحياة ؟.

إن للحياة رجالها، في كل يوم لهم أثر جديد فيها؛ لأنهم ملكوا فجاج الأرض، وذللوا متن البحار، وسيطروا على الهواء، ورادوا الجبال في كنوزها فأسلمتهم مفاتيحها، والحديد فعكفوا على تسخيره في مختلف شؤونهم.

---

(١) الرفش أداة لجرف التراب أو حفر الأرض.

وأنت ماذا فعلت ؟ أوجمت.

لا يا صاحبي، كن شجاعًا ولو مرة واحدة وتعال فاعترف معي بتقصيرك، وهلم بعد إلى رفشك وامش معي.

هناك في ظل كدا نهدأ بين ركام أمسى رفاة سحيقًا وصعيدًا جرزا، فهات رفشك.

هاته يا صاحبي، هاته واتبعني.

لا، لا تصعّد زفرة فما أغنت الزفرات يومًا، هاك التاريخ فاستنطقه هل بلغ شعب بزفراته يومًا في الحياة شوطًا ؟.

ألا إنها الحياة جهاد تتزاحم فيه المناكب والأقدام فلا تذهب نفسك حسرات على عيش لا تنعم فيه بهذا الزحام.

يا صاحبي بالأمس قرأت اسمي إلى جانب اسمك في سجل الصدقات، فما هانت نفسي هونها عليّ يومئذ، ولا صغرت عندي استصغارك آن إذ ذاك.

أرجل أنا وأنت ؟ إذن أين هي مميزات الرجولة وأنفتها وإباؤها ؟.

الحق ــ والحق أقول لك ــ إنني وإياك لا نستحق الحياة، فهلم هلم برفشك واتبعني.

اتبعني وتعال نحتفر لأنفسنا هناك في حضن الأبد مأوى نهائيًا .. »[١].

فالكاتب قد استفاد من الآيات الكريمة :

﴿قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا﴾[٢].

﴿ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله، له في الدنيا خزي، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق﴾[٣].

﴿وإنا لجاعلون ما عليها صعيدًا جرزا﴾[٤].

﴿... فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ...﴾[٥].

﴿قال فالحق والحق أقول﴾[٦].

---

(١) وحي الصحراء، ط٢، ١٤٠٣هـ، ص ٩٥.
(٢) سورة الكهف، الآية ٧٠
(٣) سورة الحج، الآية ٩.
(٤) سورة الكهف الآية ٨.
(٥) سورة فاطر، الآية ٨.
(٦) سورة ص، الآية ٨٤.

على أن التأثير البيّن في المقالة يمكن إرجاعه إلى المؤثرين آنفي الذكر :

أولًا ــ أثر الأدب المهجري :

والسباعي في النص السابق لا يخلو من آثار جبران خليل جبران في نظرته اليائسة إلى الحياة، ورؤيته القانطة للأحياء، فجبران في مقالته «حفّار القبور» يصوّر الموت على أنه أفضل من الحياة، والجن على أنهم أطهر من بني الإنسان، وأكثر حبًّا وصفاء، ويدعو إلى أن يتولى كل عاقل «رفشًا» ويُدفن فيما يحفر بها الأحياء شكلًا الأموات معنى وجوهرًا من بني الإنسان، فهم أموات منذ الولادة ولكنّهم «لم يجدوا من يدفنهم فظلوا منطرحين فوق الثرى ورائحة النتن تنبعث منهم»[١]. وكأنه يأخذ بوصية محاوره القادم من عالم الغيب ــ كما يزعم ــ الذي علمه الحكمة، وألهمه بما أبصره في حياة الناس من العدمية والعبث وردد مقولته : «علمهم حفر القبور، واعط كل واحد رفشًا ثم دعهم وشأنهم»[٢]. لأن جبران الذي تأكد له يأسه من بني قومه المختلجين أمام العاصفة، الضعيفين عن السير معها يحفر القبور ــ من تلك الساعة ــ ويلحد للأموات، «غير أن الأموات كثيرون وأنا وحدي وليس من يسعفني»[٣].

وقد رأى السباعي خلاف ذلك؛ إذ التفت إلى قومه فأبصرهم لا يعرفون للحياة معنى، ولا يعتقدون في العمل قيمة، وناجى صاحبه بما يحسّ من مرّ الشكوى فوجده من صنفه القاعد عن الحياة بمعناها الصحيح، فدعا إلى أن يدفنا نفسيهما، ويحفرا ــ ضِمْنًا ــ لقومهما مثواهم.

وقد اتضحت الآثار المهجرية في هذا النص جليّة في استلهام الطبيعة الحلول لمشكلات الواقع الأليم، ومناجاة الجمال، والكون، والنفس للإفضاء إليها بما تكنه الأرواح من آلام وتمن.

---

(١) العواصف، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران العربية، دار صادر، بيروت، (لم تذكر سنة الطباعة) ص ٣٦٧.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

والسباعي يعترف بتأثره هذا صراحة حيث يقول : «فتح عيني على الأدب جبرانٍ خليل جبران، كانت تعجبني فيه جرأته على الأفكار التقليدية، يواجه مساوئها في صراحة قليلة النظير وطريقته تمتاز بأسلوب قوي ممتع. كنت مأخوذًا به في فجر شبابي و لم أكن في هذا وحدي، فقد استطاع بسحره أن يترك أثرًا واضحًا في أكثر أدبائنا الشيوخ»[١].

وأجد شيئًا قريبًا من ذلك في مقالة عبدالوهاب آشي «على ملعب الحوادث»[٢] ففيها استجلاب لصور المهجريين، وحوار يتم عادة بين الجدول المنساب تحت ظلال كثيف من الأشجار، وخيال يزور، يتمثل في صورة حورية جميلة وادعة، أو شيخ حكيم، أو طيف من الجان يلقي بالحِكم، ويعين على استخلاص النتائج في أحداث جسيمة تعصف ببلاد الكاتب، أو خطر داهم يفسد الحياة العامة للشعب.

ويصل الآشي إلى الختام نفسه الذي يصل إليه جبران في حواره مع الأطياف الزائرة في الغابة، فزائرة الآشي، تلك الفتاة «كطلعة الشمس نورًا وبهاء» تختم حديثها الحزين عن اللغة العربية للشيخ العربي الكهل (وضيء المحيا مهيب الطلعة)؛ بعد أن لوت وجهها نحو الوادي الفسيح : «وعليكم الخزي والعار أيها الأخلاف الأشرار».

وجبران في نجواه يقول :

«أنا أكرهكم يا بني أمي لأنكم تكرهون المجد والعظمة، أنا أحتقركم لأنكم تحتقرون نفوسكم ..»[٣].

وكان استلهام أدبائنا روح المهاجر ناجم عن رغبتهم في الانطلاق من قيود الأسر الاجتماعي، والانفلات من ربقة التخلف العلمي والفكري، الذي رزحت

---

(١) جريدة المدينة المنورة، عدد ٨٠٨، في ١٣٨٦/٧/٢٨هـ، مقابلة أدبية مع السباعي، ص ١١، وانظر كتابه «أيامي» وهو سيرة ذاتية، منشورات تهامة، ط١، ١٤٠٢هـ، ص ٩٦.

(٢) أدب الحجاز، ص ٩٩.

(٣) العواصف، (المجموعة الكاملة) ص ٣٩.

البلاد تحته قرونًا طويلة.

والتقت الأفكار والأخيلة بين أدباء الحجاز وأدباء المهجر، على الرغم من اختلاف التكوين الذاتي لكل أديب في المهاجر، وفي الحجاز، وتكاد هذه النغمة اليائسة المحتجة تغمر أكثر ما أثر عن أدباء الحجاز في الخمسينات الهجرية، وقبل أن يشتد التواصل الثقافي مع مصر، أو قبل أن تستطيع التأثير في من حولها، كما حدث فيما بعد.

وبنظرة فاحصة لما كتبه محمد عمر عرب[١]، ومحمد حسن كتبي[٢]، وعزيز ضياء[٣]، تتبين ملامح تأثير المدرسة المهجرية في ضبابية الأسلوب، وانتقاء المفردة ذات المدلول الفلسفي ــ في بعض الأحيان ــ والميل إلى الكتابة الشاعرية[٤] المنثورة، وغيمة من القنوط والنقمة على الواقع تتناثر في ثنايا العبارات الذاتية الشبيهة بالنجوى[٥].

ومن الطبيعي أن يحدث مثل هذا الاعجاب، متبوعًا بمحاولة إجادة في الاحتذاء والتقليد، ولا يعيب من سلك هذا النهج كونه لم يأت بجديد؛ إذ أن العناية

---

(١) ولد في محرم ١٣١٨هـ، بمكة المكرمة، درس في مدرسة الفلاح بمكة، وتقلب في وظائف عدة، وتوفي عام ١٣٧٥هـ، انظر مقالته : إيه من أسطورة الحب (أدب الحجاز ص ١٢٥)، وقصيدته : يا شرق، نظمها مجارارة لخيائيل نعيمة في قصيدته يا نهر، أدب الحجاز ص ٤٠.

(٢) ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٢٩هـ، تلقى معارفه بمدرسة الفلاح، وسافر إلى الهند سنة ١٣٤٨هـ، في بعثة دراسية، وأتم دراسته سنة ١٣٥٢هـ، حرر في صوت الحجاز، وتولى وظائف حكومية مختلفة، وعين وزيراً للحج والأوقاف سنة ١٣٩٠هـ.

من آثاره : الأدب الفني، أشخاص في حياتي، دورنا في زحمة الأحداث، هذه حياتي، سياستنا وأهدافنا. انظر : الموسوعة الأدبية جـ٢ ص ٤٩، ومعجم المطبوعات جـ١ ص٣٤٢.

من مقالاته التي تأثر فيها بروح الأدب المهجري : «ساعات من الليل» وحي الصحراء ص ٤٥٤.

(٣) مقالة «فاجعة» وحي الصحراء ص ٣٣٠. وانظر مقالة «أغنية الليل» «لجبران خليل جبران» في (البدائع والطرائف) ضمن المجموعة الكاملة، ص ٦٠٥.

(٤) يقول د. علي جواد الطاهر : «وصف نثر أحمد سباعي بالشاعرية» مجلة العرب، رمضان وشوال، السنة الرابعة، ١٤٠٥هـ، جـ٣ ص ١٨٤.

(٥) انظر : عبدالكريم الأشتر، النثر المهجري، محاضرات ألقيت على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العليا، القاهرة، مطبعة الجنة التأليف والنشر، ١٩٦٠م.

بالتجديد لم تنضج بعد دعوتها إلا مع اشتداد عود الأدباء الرواد، وقوة شكيمتهم، بحيث استطاعوا فيما بعد أن يظهروا شخصيتهم في نتاجهم، ويتكئوا على الجديد المثري أيًّا كان.

وخير ما اتصفت به حركة البداية كونها لم تعد إلى استجداء نصوص العصور الهابطة فنيًّا، بل تجاوزتها إلى الأدب العربي القديم في عصوره الزاهية، وإلى محاكاة الأدب العصري الحي، وقد وضح أثر العودة إلى التراث في قوة الأسلوب، ونصاعة العبارة، وحسن الديباجة، وانتفاء الركاكة والضعف، وقوّى ذلك ما يتدفق في أساليبهم بعد استلهامهم روائع الجديد مع استقرار الأحوال العامة في البلاد من رؤية ذاتية نحو الفكر، والمجتمع، والحياة. فاصطبغ أدبهم بما جاش في نفوسهم من طموحات إلى مجتمع متقدم، وما يرونه حقيقًا بالاتباع للنهوض إلى سلّم الحضارة والرقي، وما اضطرب في حياتهم الأدبية من خلاف فكري، وخصام نقدي كان عنوانًا لكل ذلك.

وإن المتابع لتطور النص المقالي، منذ بداياته الأولى في أم القرى إلى قمة نضجه في منتصف الخمسينات وما بعدها ليأخذه العجب كيف استطاعت فئة من الشبان أن تنفذ من نير الركود الاجتماعي، وتبحث لها عن نهج ثقافي جديد يختلف عن نمطية التفكير السائد، فامتدت أيديهم وأنظارهم إلى ما يتفق مع نزعتهم العنيفة في تكوين بيئة أدبية جديدة، ووجدوا كثيرًا من ذلك في أدب المهجريين «فعشقوا أدبهم، والتهموه، وقلّما تجد شابًا متعلمًا يومذاك إلا وقد تأثر بالثقافة المهجرية، ولو إلى حدّ ما»[١].

وقد اتضحت آثار السمات المهجرية في أدب السباعي «وبخاصة أول أمره، فقد كان يسير على خطى جبران ثم استقل بطريقة خاصة»[٢].

وآثر العوّاد أن يستقل بطريقة خاصة، مبتعدًا عن المؤثرات كافة، إلا أنه لم

---

(١) محمد سعيد عبدالمقصود، مجلة المنهل، عدد٢ محرم ١٣٥٨هـ.

(٢) عبدالله عبدالجبار، التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية، ص ١٥٢.

يوفق إلى ذلك، ففي نثره سيماء من الأدب المهجري، يتضح ذلك في رفضه اتباع الثقافة التقليدية، وخروجه على كثير مما تواضع عليه المجتمع، ورغبته في تغيير طرائق النظر إلى التراث، وما يعده الناس من حوله آثارًا تستدعي الاحترام والقبول، ويذكر الآشي في مقدمة خواطر مصرّحة أن العوّاد يتحدّى «تجديد المهجرين السوريين — ومن على شاكلتهم من المصريين الذين ينادون بالتجديد في الأدب وأن هذه الخطة وإن لم ترق لدى المحافظين الرجعيين، غير أنها جارية على سنن حياتنا الحاضرة»(١).

وخير دليل على أثر أدب المهجر في نثر العوّاد تشابه الروح الدافعة للكتابة، والمثيرة للنقد في مقالته «البلاغة العربية»(٢) ومقالة جبران «لكم لبنانكم ولي لبناني»(٣)، فكان العوّاد يريد أن يقول «لكم لغتكم ولي لغتي»، كما قال جبران(٤).

ثانيًا — أثر الأدب المصري :

هذا ميدان واسع، فسيح الأرجاء، يتعذر حصر أوجه صلته بالمقالة الأدبية في المملكة، وحسبي أن أشير إلى ما يدل على جوانب من تلك الصلة، وذلك التلقي.

وتقدم أن أثر الأدب المهجري أسبق إلى أدب شبه الجزيرة العربية من سواه، وأن الجيل الأول الذي بعث النهضة الأدبية لم تخل نصوص كتّابه من سمات ذلك اللون من الأدب، مع وجود صلات ثقافية بأقطار عربية أخرى، لكنها

---

(١) مقدمة خواطر مصرحة، ص ٢٣.

(٢) خواطر مصرحة، (أعمال العواد الكاملة) جـ١، ص ٤١.

(٣) البدائع والطرائف (مجموعة أعمال جبران الكاملة) العربية، ص ٥٢٠.

(٤) يقول «لكم منها القواميس والمعجمات والمطولات، ولي منها ما غربلته الأذن وحفظته الذاكرة من كلام مألوف مأنوس تتداوله ألسنة الناس في أفراحهم وأحزانهم، لكم من لغتكم البديع والبيان والمنطق، ولي من لغتي نظرة في عين المغلوب، ودمعة في جفن المشتاق، وابتسامة على ثغر المؤمن، وإشارة في يد السموح الحكيم.
انظر : كتاب «بلاغة القرن العشرين» ص ٥١.

لم ترق إلى أن تترك آثارها إلا بعد أن كاد الوضع السياسي يقارب الاستقرار قبل منتصف القرن الرابع عشر الهجري، وبالأخص الأدب المصري، وما كان ينشره ويذيعه أعلام بارزون، ومفكرون متميزون كوّنوا لهم طرائق خاصة في أسلوب الكتابة، ومنهج التفكير؛ ففي ذلك الوقت كانت الرسالة لصاحبها أحمد حسن الزيّات، والسياسة الأسبوعية للدكتور محمد حسين هيكل، والهلال لجورجي زيدان، وغيرها من صحف ذلك العهد، وكان يكتب فيها عباس العقاد، وأحمد لطفي السيد، وإبراهيم المازني، وطه حسين، ومصطفى الرافعي، وسيد قطب، والدكتور محمد مندور، وعلي عبدالرزاق، وتوفيق الحكيم، وغيرهم من أرباب القلم، وحاملي الفكر، وكانت أعداد من صحف مصر الأدبية وغير الأدبية تصل إلى الحجاز بالأخص، ويتناقلها محبو الاطلاع، وراغبو المعرفة[١]، في وقت كانت البلاد خلوًا من صحافة قوية ترعى الكلمة وتقيم شأن الأدب، وليس بين يدي الشداة إلا نزر من كتب متفرقة، بعضها تراثي، وبعضها الآخر حديث يتصل في أكثر الأحيان بما يكتبه اللبنانيون والسوريون، في بلادهم، أو في المهجر، مع تجشم عناء كبير يلحق بمن يبحث عن صحيفة أو مجلة تصدر في مصر إلا أن ذلك لم يحل دون نشوء طبقة ممتازة من القرّاء الحريصين على تلقف ما يكتبه أدباء مصر، وحين هدأت الأحوال السياسية، واشتدت صلة السعوديين بمصر ازداد أثر تلك الثقافة في أدب الناشئة، واندفعوا إلى تقليد البارزين من أولئك الأدباء، وحاولوا أن يتبعوا أسلوبهم في النقد، وعاداتهم في خصوماتهم الأدبية، وأن يستشهدوا بأقوال بعضهم، وربما يلتقي أديب ناشيء من هنا بعَلَم من أعلام الفكر هناك، دلالة إعجاب وتقدير، ومحاولة احتذاء مقصودة أو غير مقصودة فيما بعد.

ولم يك هذا الإقبال النهم على الأدب المصري محل اتفاق؛ فقد انقسم الشبيبة

---

(١) انظر : محمد نصيف، مقالة «بعض ذكرياتي من قبل ربع قرن»، المنهل، شعبان ١٣٦٩هـ، العدد الثامن، ص ٢٧٥.

ولقاء مع عبدالقدوس الأنصاري يتحدث فيه عن بداية النهضة، المنهل، عدد ٤٣٠ مجلد ٤٦، السنة ١٥ محرم وصفر ١٤٠٥هـ.

إلى فئتين؛ واحدة لا ترى بأسًا في قبول كل ما يأتي من أولئك الأدباء، غير سائلة عن تميّز الشخصية في الجزيرة العربية بصفات خاصة بها، تنبثق من وحي الحياة الاجتماعية التي تعيشها، فاندمجت في هذا المؤثر اندماجًا كاملًا، وعجزت أن تتخلص منه حينما أرادت، والثانية أنكرت تلهف قرّاء البلاد على قبول الأدب المصري قبولًا مطلقًا، واحتذاء أساليبه، حتى صار الشعر والنثر لا يمثل شخصية كاتبه قدر ما يمثّل السمات الأسلوبية المصرية لدى كثيرين من أدبائنا.

وفي «مقدمة وحي الصحراء» لحظ د. محمد حسين هيكل أثر الثقافة المصرية، وغيرها «ثم إنك ترى أساليب يحتذي فيها أصحابها بعض الكتّاب المعروفين في مصر وغير مصر»[١]، ويذهب إلى أن اندفاع أدباء الجزيرة إلى الاقتباس من الآداب العربية مردّه حرصهم على أن تبلغ بلادهم ما بلغت غيرها في أقصر زمن «تستطيع أن تدرك هذه الغاية»[٢].

ويقرر أحمد العربي أن الأثر المهجري كان سابقًا غيره «في أدبنا الحديث حتى عهد قريب، أما الآن فقد بدأ يتحرر قليلًا من قيود التقليد، وأخذ يشتد ساعده، وإن كنّا نجد لنفثات أقلام الأدباء المصريين أثرًا متميزًا في السنوات الأخيرة»[٣].

ومردّ إعجابهم بالأدب المصري كونه ثري الثقافة، يصدر من أصالة وطبع، وكتّابه «أفذاذ استطاعوا أن ينهضوا بالنثر والشعر نهضة لم تشهدها العربية في ماضيها في قرن واحد لا في القرون كلها»[٤].

ثم إن آثار النهضة في مصر تصل إلى الحجاز في وقت يسير، مما كان له صدى طيب في قرّاء مطبوعاتها، ومتابعي ثقافتها «فما يلقى في مصر وغير مصر من محاضرات وخطب نسمعه ونحن في مكة، وما يكتب فيها يقرأ بعد ثلاثة أيام

---

(١) وحي الصحراء ص ٢٢.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق ص ١٢٨.

(٤) مقالة: أدب صالح للتصدير، أحمد عبدالغفور عطار، المنهل، شعبان، ١٣٦٥هـ، ص٣٦٤، وكتابه «المقالات» ص ٢٠٧، مطبوعات شركة استاندرد للطباعة، ط١، ١٣٦٦هـ.

في مكة وهي المدة التي تصل فيها صحفنا إلى المدينة، فكأن مصر والحجاز وطن واحد من الناحية الجغرافية»[١].

ويكون العواد شغوفًا بتتبع أوجه التعليم، والحياة الاجتماعية في مصر، وداعيًا إلى الإفادة منها، وحريصًا على أن تتمكن أول بعثة تتعلم في مصر ــ آنذاك ــ من «فهم الحياة العامة فتفحص تلك العقلية التي أمامها، وتقف على ما فيها من استعداد ونشاط، واتجاه، وتدرس ميول تلك النفسية وخبايا أفكارها، وتحاول ــ ما أمكنها المحاولة ــ التعرف الحقيقي إلى النفس المصرية العامة لدرك أسرارها واتجاهاتها نحو الفن والعلم والصناعة»[٢].

وأكاد ألمس تأثير قراءة شبان الحجاز الأُدب المصري في تقليد محمد سعيد عبدالمقصود إبراهيم المازني في «صندوق الدنيا»، حين يضيق الوقت به، فلا يجد ما يكتبه لأن (المطبعة كجهنم لا تشبع ولا تمل قولة «هات»)[٣]، وحينئذ لا يجد المازني مخرجًا من هذه الأزمة إلا في البحث عن موضوع؛ يقول «.. وأروح أفكر في كلام أكتبه صباح غد، وأشرب فلا أسهو، وأضحك فلا أراني ألهو، ويضيق صدري فأتمرد وأخرج إلى الطرقات، أمتع العينبما فيهامما تعرضه الحياة، فإذا بي أقول لنفسي إنّ كيت وكيت مما تأخذه العين يصلح أن يكون موضوع مقال»[٤].

ويقول محمد سعيد «.. وصدقني أيها القارىء أني خفت من أن أضل في مغارة فقمت هاربًا من جهلي المركّب الذي لم يساعدني على أن أكتب في موضوع ما وألقيت القلم من يدي وتركت المكتبة .. وقمت هاربًا إلى الشارع، علّني أرى، أرى شيئًا يمكّنني أن أكتب عنه، اخترقت الشارع العام من أوله إلى آخره وقد رأيت كثيرًا ولكن لم أجد من نفسي دافعًا يدفعني للكتابة، وأخيرًا

---

(١) المرجع السابق.

(٢) مقدمة كتاب (تاريخ الحجاز) تأليف حسين محمد نصيف.

(٣) مقدمة كتاب (صندوق الدنيا)، دار الشروق، ط١، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

(٤) المرجع السابق ص ٨.

وأولًا وقع نظري على غربال بيد أحد المارة فلم أشعر إلا ولساني يقول : غربال .. لا بأس أن تكتب عن الغربال .. »[١].

والاحتمال وارد أن المغربل الجديد اطلع على كتاب «صندوق الدنيا»؛ إذ إن مقالة محمد سعيد كتبت في عام ١٣٥٠هـ، حوالي عام ١٩٣٠م، والكتاب أخرج في طبعته الأولى عام ١٩٢٩م، ومن الجائز أن يكون من باب توارد الخواطر.

ومن اليسير أن يجد المطلع على أدب فترة النهضة بعامة اقتباسًا، أو مقولة، أو ترسم طريقة، مما يدل على المتابعة والقراءة والاقتداء، فهذا حسين سرحان يستشهد برأيين عن الأدب الكاذب لسلامة موسى الذي يسميه (الأدب الرخيص)، والعقاد الذي يسميه (أدب الأوباش).

ويقول سرحان : «إنه لا يلتفت في الجريدة[٢] إلى هذا اللون من الأدب، ويلوم الجريدة على أن «حظ الأدب الصحيح فيها من أعقم الحظوظ، وكان صوته فيها ضئيلًا خافتًا بجانب ما يعلو فيها من أصوات المواضيع الأخرى»[٣].

ويذكر حسين سرحان أنه قرأ للمازني كثيرًا من نظمه ونثره وقصصه[٤].

أما العطار فلا يُخفي إعجابه بالعقاد، وحين قدم لزيارة المملكة مع وفد رسمي من قبل الملك فاروق لمقابلة الملك عبدالعزيز هبَّ أدباء الحجاز لاستقباله، والاحتفاء به، والتحدث إليه، يقول العطار : «أما أنا فمن أشد الناس دراسة لأدب العقاد واطلاعًا عليه، وإعجابًا به وتقديرًا له، بل هو عندي الكاتب الأول للعربية في عصرنا الحاضر، وبيني وبينه صلات ودّية ترجع إلى تسع سنوات

---

(١) مقالة : مغربل جديد، أم القرى، عدد ٣٧٧، في ١٣٥٠/١٠/٢٦هـ.

(٢) يعني صوت الحجاز.

(٣) مقالة : «صوت الحجاز بين عهدين»، العدد ١٥٥، في ١٣٥٤/٢/٤هـ، ص ٤، بمناسبة مرور ثلاث سنوات على صدورها.

(٤) مقالة (السخر عند المازني)، البلاد السعودية، عدد ٨٦٥،س ١٤، الأربعا ١٣٦٩/١/١١هـ، ص٤.

خلت[١]، وهذا ما جعلني أعظم شوقًا من غيري إلى لقائه وتحيته في بلادي»[٢].

ولما زار محمد حسين هيكل، وحسن البنا، وطه حسين الحجاز للحج أو العمرة في الخمسينات، وفي أوقات متفاوتة التقى بهم طلائع الأدباء، وتحدثوا إليهم، وأقاموا لهم حفلات التكريم، وأعجبوا ببيان هيكل، وفصاحة البنا، وطلاوة حديث طه[٣].

وقد وضح تأثر العطار بالعقاد في الشعر بخاصة من حيث نزوعه إلى التأمل الذاتي والفلسفي «وتكاد لا تجد فيه عاطفة أو إحساسًا عميقًا إلا في النادر[٤]»، وليس من تفسير لرغبة الشباب الناشىء في توثيق صلاته بهذا الأدب إلاّ إحساسه بضرورة البحث عن مسار جديد حي ينقل شعورهم بفيض الآمال الغامرة التي يحسّون بها، ويخرج عن سكون الأدب التقليدي المتهالك «فلقد كانت الحياة في مصر مثلًا أو سواها تيارًا قويًا لا يسع بلدًا كالحجاز غير أن يتأثر به، وأن يتطلع إليه وإلى مسايرة الحياة في عهدها الجديد»[٥].

ولا يرى أحدهم في الإشادة بما اقتبسه زملاؤه من طليعة الأدباء بأسًا، بل يعد ذلك مدعاة إلى الافتخار والاعتزاز؛ إذ إن ذلك ـــ حسب رأيه ـــ سعي إلى الجدة والتوثب والحياة، يدفق في هذا الأدب الناشىء ماء الحياة، ويفتح له منافذ الضوء «وأغلب أدب الشباب هو الأدب العصري السائر مع نواميس الحياة العصرية في نشوئها وتطورها، كما أن أدبهم هذا مقتبس من الأدب المصري الذي تفيض علينا نوره الصحف والمجلات، وهذا تأثير عظيم في الحياة الأدبية

---

(١) كتب العطار هذه المقالة، ونشرها في صوت الحجاز، في عام ١٣٦٥هـ، بعنوان «مع الأستاذ العقاد».

(٢) المقالات، ص ١٩٩.

(٣) مقالة : ساعة مع الدكتور طه حسين بك، أحمد عبدالغفور عطار، صوت الحجاز، في عدد ٢٤٣، في ١٣٥٥/١١/٢٠هـ، ٢ فبراير ١٣٧هـ، وانظر : كتابه «المقالات»، ص٢١٢.

(٤) عبدالله عبدالجبار، التيارات الأدبية الحديثة في قلب جزيرة العرب، ص ٢٩٢.

(٥) مقالة : هل أفاد الأدب؟، المنهل عدد جمادى الأولى ١٣٦٧هـ، للعطار.

ـ طبعًا ـ من حيث النبوغ والعبقرية والروعة البيانية»[١].

وإذ عرضت آراء من أخلصوا في التقليد لهذا الأدب، فإنه لا بد من الإشارة إلى نفر آخر لم يستحسن ذلك القبول المطلق، ولم يستسغ أن تندثر شخصية الأديب هنا في خضم التيار القوي الوافد من مصر.

فحين زار السرحان المدينة كتب نقدًا للأنصاري، وأخذ عليه التزامه نهج المدرسة المصرية في الكتابة «وأسلوب عبدالقدوس نفسه كما يبدو لي يتأثر إلى حد كبير بالأسلوب المصري ـ ولكنه يلتزم السجع في الغالب، ويأنس برنين الألفاظ، وتعجبه الفصاحة، وقوة الأسر، ومتانة التركيب، قبل أن تعجبه جودة المعاني وبلاغتها وسمو الأفكار وجمالها»[٢].

ردّ عليه الأنصاري قائلًا إنه «سيحاول في دراساته هذه أن يتخلص من الأسلوب المصري والمبثوث في جرائد مصر ومطبوعاتها، ويستقل بأسلوب شخصي رفيع يجمع بين الجزالة العربية القديمة والذوق العصري الحديث»[٣]. ويعلق على ذلك السرحان «هذه محاولة طيبة نتمنى لها أن تنجح وإن كنت ضعيف الأمل في نجاحها؛ لأن الأسلوب المصري أو على الأصح الأساليب المصرية ارتسمت في الأذهان، وانطبعت في الأدمغة، وصارت طبيعة لازمة لا نستطيع مقاومتها، ولا التخلص منها مهما حاولنا»[٤].

ومن الحق أن نعترف بطغيان أثر الحياة المصرية على غير الأدب أيضًا، في الحجاز بالأخص، وأن ذلك ليس فيه من المعيب ما يلام المقلدون على انصياعهم إلى التأثربه ؛ لأن تلك سنّة الحياة؛ أن يبحث الوليد عن طريقة للخطو، فيقلد من حوله إلى أن يستقيم له المشي، ويكون قادرًا على الانطلاق والعَدْو، ولو

---

(١) عبدالمجيد شبكشي، مقالة (أدب الشباب)، صوت الحجاز عدد ١٥١ في ١٣٥٤/١/١٥هـ، ١٩ أبريل ١٩٣٥م، ص ٣. وانظر النفثات ص ٢٧.

(٢) مقالة (مشاهدات في المدينة ـ الأدب في المدينة)، صوت الحجاز، عدد ٢٣٤ في ١٣٥٥/٩/١٠هـ، ص١.

(٣) المرجع السابق، الأعداد الثلاثة المتوالية ٢٣٥ـ٢٣٦ـ٢٣٧.

(٤) المرجع السابق أيضاً، الأعداد الآنفة.

لم يكن مثل هذا التأثر في الحياة بعامة لما تقدمت الشعوب ولما تناقلت المجتمعات معارفها، وطبائعها وما لديها من مكاسب وحسنات.

وإنّ تيقظ ذوي الهمم النابهة في الحجاز ــ باعتباره سابقًا غيره من الأقاليم إلى النهوض ــ جعلهم يتأملون سير الحياة العصرية ــ كما أوصى العقاد ــ فيسعون إلى نقل ما يقدرون عليه من الجيد الممدوح «ومن حسنات تأثرنا الفكري بمصر أن حجازيًا مخلصًا أقدم على تأسيس مدرسة للبنات في جدة. وإقدامه هذا يعد خطوة جريئة في سبيل التطور، وقد لقي عنتًا من المقاومة الفكرية في بادىء الأمر، ولكنه ضرب مثالًا حيًا للناس ببنات أسرته الكبيرة»(١).

بل إن بعضهم بلغ وعيه أن يرى أسلوب الحياة الأوروبية، وغيرها مثلًا يُحتذى، ويتجاوز حياة جيرانه من الشعوب العربية، ويرى أن أدب مصر عاق تقدم الحياة الاجتماعية في البلاد، فهو يشكو من انفصام العلاقة بين الأدب والمجتمع، ويشيد بالأدب الروسي لارتباطه بمجتمعه، ويعلل ارتباط الحجازيين بالأدب المصري (لأنه لا يجد في آثار أدبائه إلاّ هموم الخاصة، فالشاعر يشكو غرامه، ويبث أحزانه الخاصة، والكاتب يدافع عن فكرة أدبية هاجمها كاتب آخر، وقد يحتدم الدفاع فينقلب هراء، والأساس في كل ما نمارسه من ضروب الأدب أدبي محض يتأثر بالأوهام الذهنية والخيالات، ولا يتأثر بالحقائق الراهنة، التي تدور عليها حياتنا العامة .. ومن يتتبع ما ينشره معظم أدبائنا وكتّابنا يهوله أنهم لا يحسبون الحياة بأحداثها الزاخرة إلا كما يحسبها الأطفال، ولو ذهبنا نتلمس صورة حقيقية لحياتنا الاجتماعية فيما يكتب أدباؤها وينظمون لهالنا إفلاس هذه الحياة وإقتارها التام من دلائل الحياة، وأسباب الأمل، مع أن الواقع لا يؤيد ذلك .. لابد أن يتغير منهج الكتابة .. ويكفي أن الناس الآن يؤمنون بضرورة التعليم، ويرتاحون إلى النقد والنصح، ويكفي أنهم يصطنعون من وسائل الحضارة

---

(١) مقالة : تعليم البنات، وقعت المقالة برمز (ح)، صوت الحجاز، عدد ١٥٤، في ١٣٥٤/١/٢٦هـ. ص١.

ما بدّل نظرهم إلى الحياة»[١].

ومن أشد الناقمين على تقليد الأسلوب المصري، واقتفاء آثار الكتابة ومدارس الأدب في مصر عزيز ضياء، ولعله لم يرض أبدًا عن مستوى الكتابة بعامة في الخمسينات وما بعدها، ويرى أن كل ما ينشر في الصحف غثاء، وإفساد للذوق، وأن «أدباء الحجاز وُفقوا كل التوفيق إلى إتقان الكتابة بأسلوب العقاد وطه حسين وهيكل والمازني».

«ولكني أحب أن يفهموا أن الأسلوب ليس كل شيء، وأن الأدب ليس إتقان الكتابة والنظم، أحب أن يفهموا أن الأسلوب ليس سوى أداة نعبر بها عن أفكارنا، ونعرض بواسطتها عواطفنا وغاياتنا، وأننا حين نملك الأسلوب ولا نملك الأفكار والغايات نكون كالذي يعرف أنه إذا مشى على طريق ما سيصل إلى نقطة معينة، ولكنه كسيح أو مقعد، لا يستطيع أن يمد قدمه بخطوة واحدة في هذا الطريق»[٢].

وتحتفي صحف الحجاز بما ينشر هناك فتعيد نشر بعضه[٣]، وتبشر بما يصدر من كتب لأدباء مصر، فيزيد ضيق عزيز بارتياح أدباء بلاده إلى ذلك الأدب، واسترخائهم عن الإبداع الذي يمثل شخصياتهم، ويصور آمالهم «.. وليس كل هذا الذي يطالعك به أدباؤنا في كل أسبوع إلّا محاكاة فاشلة لما نقرأ من أدب المصريين، وإنه ليس سوى محاكاة فاشلة، وأنت تستطيع أن تدرك درجة فشلها حين تستعرض أدب المصريين وتقارن به أدبنا الحجازي، وأنا أؤكد لك أنك

---

(١) مقالة : الأدب والحياة، وقعت برمز (....)، صوت الحجاز، عدد ١٥٦، في ١٣٥٤/٢/١١هـ. وأسلوب الكاتب قريب من مذهب حمزة شحاتة في كتابة المقال، من حيث التركيز، ودقة التأمل، وقوة النقد والاقتصاد في العبارة.

(٢) مقالة «غاية الأدب عندنا». صوت الحجاز، عدد ٢٤١ في ١٣٥٥/١١/٦هـ.

(٣) كما فعلت صوت الحجاز، حين نشرت مقالة مأخوذة عن مجلة الهلال، عنوانها : (رسالة الأدب ليست بالشيء المبتذل في الأسواق) بقلم عبدالعزيز البشري. انظر عدد ١٥٣ في ١٣٥٤/١/١٩هـ.

ستري في الأدب المصري نزعات تميّزه وتدلّ على أنه يتمتع بروح قوي يهيمن عليه، ويقوده إلى مثل أعلى». ويمتدح الأدب المصري لأنه يؤدي رسالة، وأدبنا لا يستطيع أن يصل إلى تأدية هذه الرسالة[١].

ويسرف عزيز في إنكاره الأدب الحجازي، فيشتط في نظره إلى ما تنشره الصحف، ويكتبه زملاؤه وأقرانه، فيتهكم ويسخر بما يعده الناس مثيرًا للانتباه، وداعيًا إلى الإعجاب : «هل كل ما يرتكز عليه الأدب هو هذا النوع المضحك من المقالات التافهة التي تخمت بها جرائد مصر ؟ وهل تنحصر مهمة الأديب الحجازي في ترديد صدى الأديب المصري ؟ بل هل تنحصر في هذا المجال الضيّق الموحل الذي يضحكنا ويضحك الناس علينا» ؟[٢].

والكاتب نفسه ــ الذي ينكر تقليد أدباء مصر ــ مغرم إلى حد كبير باحتذاء أسلوب طه حسين، واتباع نهجه في الكتابة، فشاع عنده ما شاع عند أستاذه؛ من التكرار والترداد، والعود على البدء، واستخدام الألفاظ السهلة الموحية، والنقد الساخر المر، والمواجهة الجريئة مع الظاهرات. ويمتد أثر أدب مصر في الأجيال الأخرى إلى قرب نهاية القرن الرابع عشر، حيث تطلع الأدباء إلى مصادر معرفية أخرى، بعد أن توسعوا في الدرس، وأتيحت لهم فرص الاختلاط الواسع، واقتناء الكتب الجديدة، والمجلات الصادرة من مختلف دول العالم.

ويلمس الباحث إعجاب الأدباء السعوديين بمفكري مصر، حين يرحل أحد هؤلاء الأدباء أو المفكرين إلى العالم الآخر، فيسرع أدباؤنا إلى رثائهم، وذكر شمائلهم، ومحاسن آثارهم، ونبوغهم الفني.

---

(١) مقالة : غاية الأدب عندنا، عزيز ضياء، صوت الحجاز، عدد ٢٤٣، في ١٣٥٥/١١/٢٠هـ. الحلقة الثانية.

(٢) مقالة (الأدب) في زاوية (حديث الأسبوع)، صوت الحجاز، عدد ١٥٧ في ١٣٥٤/٢/١٨هـ، ص٤.

وإن خير ما أختم به هذا الحديث حول الأثر المصري ما قاله عبدالله بن خميس عن تأثره بالزيات: «.. ولعل كثيرًا من إخواني الذين سألوني عن أعظم كاتب عرفته، أو أكثر أستاذ تتلمذت عليه في ميدان القلم إنني لم أزد على أن قلت لهم إنّه الزيّات.

إن الصلة بيني وبين الأستاذ الزيّات قديمة تنيف على خمسة عشر عامًا، وهي صلة قراءة لا صلة لقاء، وصداقة أدب لا صداقة أرب، لقد كانت رسالة الزيّات هي هوايتي المفضلة، وصديقي من بين سائر الصحافة، وأستاذي الأول والأخير في تكوين قلمي العاجز»[١].

---

(١) مقالة: (مات الزيات)، رثاء لأحمد حسن الزيات، مجلة الجزيرة، عدد ٥، من السنة ٢، في ١٣٨١هـ، ربيع أول، ص ٣٧.

من المراثي:

ـ أحمد الغزاوي يرثي أحمد شوقي بقصيدة (كوكب خالد مع الجوزاء)، صوت الحجاز، عدد ٣٠ في ١٣٥١/٧/١هـ

ـ عبدالوهاب الآشي (شوقي يرحل إلى عالم الفناء). في العدد نفسه.

ـ محمد حسن فقي (شوقي بك) وهي مقالة تشاؤمية رثائية تنبعث من نفسية الفقي القلقة، العدد نفسه من صوت الحجاز، ص ٣.

ـ عبدالقدوس الأنصاري، يرثي محمد حسين هيكل بمقالة (عَلَمٌ هوى)، المنهل جـ٥، من السنة ٢١، جمادى الأولى ١٣٧٦هـ، ٢٧٥.

ـ عبدالرحمن السدحان يرثي الزيات (النجم الذي هوى)، القصيم عدد ٨٤، في ١٣٨١/٢/١٩هـ، ص٧.

استقلالية المقالة الأدبية السعودية

يطرح بعض الدارسين أن يكون الأدب السعودي مستقلًا عن غيره من الآداب، وتزداد حميتهم لأدبهم فيغالون في عدم إظهار مبلغ تأثر الأدب لدينا بالآداب الأخرى.

ويرون في ذلك خطرًا داهمًا على شخصية الأدب السعودي وقضاءً على خصائصه، وإضاعة لمعالمه الرئيسة، وينسون أن التأثر والتأثير سنة الحياة، بل هي علامة ممتازة من علامات الحياة القوية النشطة، التي يتبادل فيها الموهوبون نتاجاهم، ويأخذ فيها الضعيف عن القوي، ليزداد منعة وخبرة.

وعن هذا الطريق تكمل المعارف، وتستوي الشخصيات الأدبية والفكرية، ولو دار بخلد أحدنا أن أدبًا متقدمًا لدى شعب من الشعوب حصر في دائرة ضيقة، هي قبول أهله له، وحبسه عن الخروج إلى الآخرين، ومنع أدب الشعوب الأخرى من الدخول إليه، خشية التأثير، وفقدان السمات الشخصية، لضاع منه عنصر القوة، ونقصت لديه القدرة على الاكتمال لأنه فقد خير ما يعين على النضج، وأقدر ما يدفع الأدب إلى السمو، وهو الصلة والاتصال بالثقافات الأخرى ؟.

إذًا، فلماذا يخشى عزيز ضياء، أو أحمد عبدالغفور عطار، أو عبدالقدوس الأنصاري من سلطة الأدب المصري على أدبهم .. ؟.

وهم أنفسهم لم يستطيعوا فكاكًا من سمات ذلك الأدب، ولم يقدروا على أن ينعزلوا عنه أو ينصرفوا انصرافًا كليًّا إلى غيره من الآداب. وهل كانوا يريدون من أدبنا أن يبقى حبيس تاريخه القصير الناشيء أو ماضيه المتهالك الضعيف ؟. وهل كان الأدباء السعوديون قادرين — من غير تأثر بآداب أخرى — على أن يأتوا بأدب حي ناضج متدفق بأسباب الكمال والاستواء ؟.

وأكاد أذهب إلى أن الأدب السعودي قد أفاد من صلاته القوية بالآداب الأخرى سواء كان تراثًا، أم أدب مهجر، أم أدبًا مصريًّا، أم أدبًا عالميًّا.

وهو لم يستطع إلا أن يدور في فلك أدب تأثر به، فحينًا طغت عليه السمات المهجرية وحينًا المصرية؛ لأن الأدب لم يك مستطيعًا الوقوف على قدميه بعد، وهو في هذا ليس بدعًا، فغيره من الآداب الأخرى مرّ بالأطوار نفسها التي مرّ بها أدبنا. وإنّما المستنكر أن تكون شخصية الأدب المؤثر مثبطة للأدب المتأثر عن النهوض، وصارفة إياه عن تكوين معالمه الخاصة، عن طريق استفادته أشياء كثيرة، صورًا وأخيلة، ومعاني وألفاظًا، وأنماطًا تعبيرية، ومسالك حوار وإقناع.

وهذا ما حصل للأدب السعودي، وفيه المقالة الأدبية؛ بدأ من ضعف، فتقليد، ومبالغة في الاحتذاء، إلى أن أخذ يقترب من التكوين البنائيّ الخاص به في الستينات الهجرية وما بعدها، مع استمرار أثر الأدب المصري في أسلوب الكتابة، وطريقة الأداء الفني للمقال، كابن خميس، وتأثره بالزيّات، وعزيز ضياء وتأثره بطه حسين، والسرحان وتأثره بالمازني، والعطار وتأثره بالعقاد .. وهكذا.

«فالأدب السعودي قوي التأثر بالأدب العربي الحديث، ولكن هذا التأثر لم يقف عند حد التقليد والمحاكاة، بل تعداه إلى آفاق رحبة جدًا، حيث يستقيم الدرس، ويتم الفهم، وتسمو الغاية»[١].

وأدباؤنا لم يقصروا أنفسهم على مدرسة بعينها، وإن كان للأدب المصري نفوذ على أدبهم، فثقافتهم «تشمل القديم والحديث في الآداب والعلوم والفنون، فعندنا من قرأ آداب الأقدمين، وقرأ آثار العقاد، وتوفيق الحكيم، والمازني، وطه حسين، وألمّ بمؤلفات جوته[٢]، وهوجو[٣]، وشلي[٤]، ولامرتين[٥]،

---

(١) السيد تقي الدين، المنهل وأثرها في النهضة الأدبية، جـ١ ص ٢٥٥.

(٢) جوتة، يوهان فولفجانج، فون، (١٧٤٩م)، شاعر وكاتب مسرحي ألماني، من مؤلفاته رواية بعنوان «آلام فرتر» و «ديوان الغرب والشرق». انظر : الموسوعة العربية الميسرة، جـ١، ص٦٥٨.

(٣) شاعر وروائي وكاتب مسرحي فرنسي، من أهم قصائده «الشرقيات» ومن أعظم رواياته «البؤساء» (١٨٠٢ــ١٨٨٥م)، المرجع السابق جـ٢ ص ١٩١٤.

(٤) شاعر إنجليزي أرستقراطي المولد، كانت له أفكاره التحررية، من أهم أعماله : ترنيمة للجمال الفكري، وأغنية للريح الغربية (١٧٩٢ــ١٨٢٢م). انظر : دليل القارىء إلى الأدب العالمي.

(٥) شاعر فرنسي، عاش حياة مزدوجة كشاعر عاطفي، وكسياسي ورجل حكم، ومن أهم أعماله ديوانه «تأملات شعرية» و «تأملات جديدة» و «انسجام ديني وشعري». (١٩٧٠ــ١٨٦٩م). المرجع السابق، ص ٢٦٧.

وتلوستوي[١]، وغير هؤلاء[٢]. فكتب محمد حسن فقي عن رواية «روفائيل» للامرتين[٣]، وأشار العوّاد إلى أدباء غربيين يحسن الاقتداء بهم[٤].

وترجم عزيز ضياء لأدباء عالميين[٥]، دارسًا ومعجبًا، وواقفًا على معالم القوة، ومواطن الجمال في أدبهم، فكتب عن جين دي لافونتين[٦]، وموليير[٧]، وبرنارد شو، وأميل زولا[٨]، وغيرهم.

وترجم قصصًا لسومست موم[٩]، ورابندرانات طاغور[١٠]، وغيرهما.

ولعل الدعوة إلى التخلص من آثار المدرسة المصرية جاءت مبكرة، وإحساس بعض الأدباء بأثرها البالغ كان إحساسًا مبالغًا فيه، فهذا العطار يرى أن الأدب السعودي لا شخصية له «لأنّا لا نجد فيه أثرًا للبيئة ولا للتقاليد والعادات

---

(١) روائيّ روسي، انخرط في الجيش عام ١٨٥١م من أهم أعماله «لوحات من سيباستوبول» و «طفولتي» و «الحرب والسلام». (١٨٢٨ـ١٩١٠م) المرجع السابق ص ١١٧.

(٢) محمد عمر توفيق، صوت الحجاز، عدد ٤٤٦، سنة ١٣٥٩هـ.

(٣) وحي الصحراء، ص ٤٣٥.

(٤) مقالة (البلاغة العربية) أعمال العواد الكاملة ـ خواطر مصرحة، ص ٤١.

(٥) انظر : جسور القمة، تهامة، الكتاب العربي السعودي، رقم ٥١، ط١، ١٤٠٢هـ،١٩٨١م.

(٦) شاعر فرنسي، ألف كثيراً من الحكايات، وكتب قصصاً وأحاديث، ونظم أشعاراً عن بعض الأساطير اليونانية، كما نظم مسرحيات فكاهية، ومن أروع أعماله «الحكايات المنظومة». (١٦٢١ـ١٦٩٥م).
انظر : الموسوعة العربية الميسرة، جـ٢، ص ١٥٤١.

(٧) جان بابيلت بوكلين، كاتب مسرحيات كوميدية فرنسي، من أهم مسرحياته «الأرعن» و «طرطوف» و «النجيل». (١٦٢٢ـ١٦٧٣م).
انظر : دليل القارىء إلى الأدب العالمي، ص ٣٠٩.

(٨) روائيّ فرنسي، بدأ بالكتابة في الصحف، ثم أصبح المدافع الأول عن المذهب الطبيعي في الأدب، ومن قصصه العديد قصة أسرة «روجون ماكار». (١٨٤٠ـ١٩٠٢م). انظر : الموسوعة العربية الميسرة، جـ١، ص٩٣٣.

(٩) روائيّ وكاتب إنجليزي، ولد في باريس ١٨٧٤م، ومن أشهر رواياته «حدّ الموسى» و «خبز وبيرة»، ومن أشهر مسرحياته «الدائرة». انظر : الموسوعة العربية الميسرة، حـ٢ ص ١٧٨٨.

(١٠) شاعر هندي، ولد بكلكتا، درس القانون بإنجلترا، ومن أهم مؤلفاته «الهلال» و «البستاني» منح جائزة نوبل للأدب ١٩١٣م، عن قصيدته «جيت نجالي» . (١٨٦١ـ١٩٤١).
المرجع السابق، جـ٢، ص ٤٤٧.

الحجازية، ولا نجد له علامة فارقة تميّزه عن الأدب في البلدان العربية، وأساليب الأداء ذات مظهر يدل على أنه صورة للأسلوب المصري في الآداب، وهذا طبيعي لأنه لم تكن لدينا القوة التي تمكننا من إيجاد أسلوب حجازي صحيح.

إن أدبنا ضعيف، ولهذا استطاع الأدب المصري أن يطغى عليه بأسلوبه وفكرته ومنهجه بل الصحيح أن أدبنا هو الأدب المصري لأننا غذيناه وارتضيناه واتخذناه أدبًا لنا»[١].

ثم دعا أحمد جمال «إلى الاستقلال التعبيري والاستقلال التفكيري ليكون للحجاز أدب ممتاز، كما لمصر ولبنان والعراق آداب ممتازة، ليكون لنا قصصنا المصبوغ بصبغة بيئتنا أحداثًا وأفعالًا، وليكون لنا شعرنا المصوِّر لحياتنا واقعًا وخيالًا»[٢].

ويسايره في هذا الرأي عبدالقدوس الأنصاري حيث لا يؤمن بأن الأدب السعودي له شخصية مستقلة لأن الشخصية المستقلة «هي ذلك الطابع العام الذي يشمل الأدب في شتى ألوان إنتاجه كما نراه الآن متمثلًا في الأدب المصري، والأدب المهجري، اللذين أثبت الواقع أن لهما شخصيتين متمايزتين مستقلتين، وأعتقد أن أدبنا الآن يسير في فلك الأدب المصري»[٣].

والحق أن المقالة الأدبية مرّت بحالات النشأة والضعف، والبحث عن النماذج الممتازة تحتذيها، وتتلمس مواطن الإبداع في نتاج المبرزين العرب، ثم تضيف إلى حصيلتها ما يقيم لها شأنًا، ويرفع لها ذكرًا[٤]، حتى غدت في الربع الأخير من القرن العشرين، وبالأخص قبل عهد المؤسسات لها سماتها الخاصة، وقضاياها الرفيعة، وجمالها الفني. ذلك أن القائمين على هذه الصحف كانوا من أشد الناس

(١) مقالة «أدباؤنا المعاصرون»، المنهل، عدد ذي القعدة وذي الحجة، ١٣٦٦هـ.

(٢) مقالة : «دعوة إلى التجديد الأدبي»، المنهل، محرم ١٣٦٩هـ.

(٣) المنهل، عدد جمادى الأولى ١٣٧٧هـ.

(٤) انظر مقالة «الأسلوب الأخضر»، عمران محمد العمران، المنهل، «عدد صفر ١٣٧٧هـ/سبتمبر ١٩٥٧م.

إخلاصًا للثقافة، وأكثرهم حرصًا على التجويد في الأسلوب، وقد حظيت صحف ذلك العهد بمشاركة كثيرين من الأدباء الرواد، إشرافًا وإدارة حينًا، أو تحريرًا وكتابة في كثير من الأحيان.

وإذا بحثنا عن أسماء إدارية أو تحريرية في تلك الصحف فإنا واجدون أكثرها ممن يخدم الأدب وقضاياه، وندر أن يدخل في نطاق التحرير والكتابة من ليس له صلة بالأدب، أو ليس ملمًّا بفن الكتابة والنقد والنقاش؛ إذ كان من اللازم أن يكون الكاتب مستعدًا – في الأغلب – للمنازلة والدفاع، وإبانة الرأي والدخول في مساجلات كلامية أدبية مختلفة، حول تلك المفهومات التي كانت تستأثر بالقول آنذاك، وتجد الصحافة في إثارتها متابعين وقّراءً ونقّادًا، فكانت تعمد إلى أن تستجلب انتباه أديب أو ناقد ليرد على من يختلف معه في رأيه الفكري أو الأدبي حول مسائل شتى يحتفل الناس بمتابعتها ودرسها[1].

فعلى سبيل المثال نجد في القمة من هؤلاء الأدباء المشاركين في الصحافة مشاركة ثرّة مؤثرة، كما سلف العواد، وشحاته، والعطار، وابن خميس ، وابن ادريس، والجاسر، وعبدالله عريف، والسرحان، وقنديل، والآشي، والسباعي، والبواردي، والجهيمان، والفقي، والأنصاري، والفلالي، وغيرهم، ومنهم من تولى أمور التحرير الصحفي، وآخرون أسهموا في الكتابة والنقد، والارتفاع بمستوى المشاركة الصحفية، من كونها مهنة أو ما أشبهها إلى جعلها رسالة فكرية وأدبية تحمل مضامين إصلاحية عميقة، تستمد وجهتها من اهتمام الأديب بالرفيع من القضايا، والشريف من الأماني الإنسانية والوطنية.

ثم إن الكثرة من هذه الصحف لها صلة وثيقة بما وصلت إليه المقالة الأدبية من سمو وتجويد، ونجد على رأس هذه الصحف التي تُعنى بالأسلوب الأدبي، أو تحفل بما له مساس بالذوق الفني، أو النقد، أو مسائل الأدب بعامة، أم القرى، وصوت الحجاز، والمنهل، والبلاد السعودية، والمدينة المنورة. هذا في الفترة الأولى. أما في الفترة الثانية التي تلت عام ١٣٧٠هـ من الهجرة فقد شهدت

(١) وانظر بكري شيخ أمين، الحركة الأدبية في المملكة، ص ٥٢٩.

تدفقًا في الإصدار الصحفي غريبًا، ولافتًا الانتباه إلى النسبة الجيدة المتنامية من الوعي الأدبي والثقافي، فبعد ذلك العام نجد من الصحف والمجلات التي صدرت ولها إسهام أدبي مجلة اليمامة الشهرية (عام ١٣٧٢هـ)، وجريدة الخليج العربي الأسبوعية (١٣٧٥هـ)، والأضواء الأسبوعية (١٣٧٦هـ)، وجريدة حراء (١٣٧٦هـ) التي انضمت إلى الندوة إبان صدورها عام (١٣٧٧هـ)، ثم في عام ١٣٧٩هـ صدرت مجلات وصحف عدة هي، الرائد، وقريش، ومجلة الجزيرة، وجريدة عكاظ.

وإذا تأملنا الصحف التي لا تعنى بأمور الأدب، أو لا توليه اهتمامها وجدناها قليلة موازنة بما سبق تعداده من الإصدارات الصحفية الأدبية؛ فنجد مثلًا، القصيم (١٣٧٩هـ)، وجريدة اليمامة الأسبوعية (١٣٧٥هـ)، ومجلة راية الإسلام (١٣٧٩هـ)، والإشعاع (١٣٧٥هـ) وأخبار الظهران (١٣٧٤هـ) وقافلة الزيت (١٣٧٣هـ). هي في سياقها العام لا تتسم بالطابع الأدبي، ولكنها لا تخلو من مقالات أدبية يسيرة متفرقة، لا نستطيع من خلالها أن نصل إلى تصور واضح عن الحالة الأدبية في تلك الفترة.

وتميّز الأسلوب في صحف الأفراد بميله إلى اقتباس ما كان سائدًا لدى أدباء النهضة في مصر ولبنان، من السهولة والعذوبة، والاستفادة من التراث العربي، واحتذاء الجيد منه، واستظهار أساليب البيانيين العرب المبرزين، وخفة اللفظة، وسلاستها، والبعد عن الوعورة والجفاف، وتجنب الحوشي والغريب، تلك سمات الأسلوب في المقالة الأدبية عند كتّاب صحافة الأفراد، ويُظهر هذه الميزات ما كان يدور في تلك الصحف من معارك نقدية، وخصومات ومناقشات، وردود، بعضها له قيمة نقدية عالية، وبعضها الآخر يُرد إلى عاطفة مؤقتة مبعثها الإثارة والغضب وتبرئة الكاتب من اتهام أو نفي مقولة، أو إظهار لتأييد رأي أدبي أو فكري.

وفي هذا تأسٍ بما كان يجري في الصحافة الأدبية العربية من معارك وخصومات.

ولعل كثرة هذه الصحف، وعنف النقد الدائر في بعضها، وفداحة أخطاء بعض الناقدين فيها، وما كان يقذف به بعض المحررين والكتاب أقرانهم وزملاءهم في الصحف الأخرى كل ذلك يمكن أن يكون سببًا في حل كثير منها، وحجبه، وإحداث نظام جديد يرعى الصحافة، وينظمها، ويعالج ما قد يحدث فيها من انحراف؛ فصدر نظام المؤسسات الصحفية، عام ١٣٨٣هـ، وانقضى بذلك عهد صحافة الأفراد، وانحسر بغيابه نشاط للأدب، وقوة للأسلوب، وحماسة مثيرة الإعجاب بما يسمو بالكلمة، ويرفعها إلى منزلتها الفنية والذوقية اللائقة بها.



جـ ـ المقالة الأدبية منذ صدور نظام المؤسسات عام ١٣٨٣هـ إلى نهاية القرن الرابع عشر

ـ نظام المؤسسات الصحفية.

ـ المقالة الأدبية في المؤسسات الصحفية.

ـ أسباب ضعف المقالة الأدبية في هذه الفترة.



نظام المؤسسات الصحفية :

ليس من طبيعة بحثنا درس هذا النظام وتقويمه، والوقوف على ما نفع به الصحافة السعودية من حماية ودعم، أو ما كان فيه من تقصير وإخلال، فهذا شأن من يعنى بتتبع حالة الصحافة من حيث هي مهنة لها مقاييسها وشروطها، وأصولها المعروفة التي تكفل لها النجاح والقوة، إن توافرت المعرفة بتلك الأصول، وتيسر للعارفين والملمين بها أن يعملوا بما علموه في هذا الفن.

وإنما يهمني هنا تتبع حالة الصحافة من حيث صلتها بالأدب، وصلة الأدب بها، ومن حيث أجد للمقالة الأدبية عزًّا وتمكينًا، أو أجدها ضعيفة مخذولة.

وهذا ما عهدناه في الصحافة الأدبية في العالم العربي، حين قام على أمرها الأدباء النابهون الموهوبون، وما كانت تعنى به صحافة الأفراد لدينا من ذلك النتاج الأدبي الثر، بما حمله من نقد وإبداع، ونظرات مختلفة لأحوال المجتمع المضطربة الساعية إلى إبداء رأي يقود إلى الإصلاح، أو باقة عاطفة جيّاشة صادقة في موقف يتصل بالدين، أو بالوطن، أو بصور مختلفة أخرى.

ولا شأن لنا بالصحافة الخلو من شجون الكلمة الأدبية، البعيدة عن معترك قضايا النقد، ومسائل الشعر، وأحوال القصة، وشجون النفس، وشئون الحياة، يصاغ ذلك كله بأسلوب المقال الأدبي المعبّر الممتع، مما يفترق بسماته المميزة عن سواه من المقالات الصحفية السريعة العابرة، التي لا يهتم كاتبوها بشأنها في جودة الأسلوب، أو التطرية، أو اختيار اللفظة، والعناية بحسن السبك، وقوة التأثر وإنما يؤخذون بما يمليه عليهم الموضوع من الدقة العلمية حينًا، أو الوصف المجرد لحالة سياسية أو اقتصادية حينًا آخر، دون وضوح عاطفة الكاتب فيها، أو ما تفرضه حالة الصحيفة من سرعة ولهاث، في بحث مضنٍ عن المادة المقالية السهلة الميسرة لجميع القرّاء، تسد بها الزوايا، وتملأ بها الأركان، دون اهتمام بحسن الصياغة، أو جمال الصور، أو وضوح شخصية الكاتب.

إذًا فالذي يمس المقالة الأدبية في نظام المؤسسات تأثيره على مستواها الفني،

بما أدخله عليها المبتدئون في ميدانها، وفي مجال الصحافة من المتسرعين، وطلاب الشهرة؛ من ركاكة، وضعف، والتواء، وتقليد فج لبعض المحدثين في المقالة الأدبية العربية دون تبيّن واع لما توحيه تلك الأقلام من أفكار، وما تنزع عنه من مبادىء أو تستقيه من قيم.

وقبل أن أستطرد في هذه السمات التي صاحبت المقالة الأدبية بعد صدور نظام المؤسسات، يحسن بي أن أقدّم معلومات ميسّرة عنه.

في السنوات الأخيرة قبل عام ١٣٨٣هـ ظهرت صحف عدّة، كان بينها تنافس وصل إلى الحدة في القول، والنزاع الشائن غير الشريف فكثرت الاتهامات بين الصحفيين والكتّاب، وتعددت الجبهات المتخاصمة، وأصبح لكل صاحب جريدة أتباع ومناصرون؛ ينافحون عنه ويدافعون، بما يهيئه لهم من تيسير النشر، والبحث عن المصالح، وبما يذيعون من ألوان المديح والإطراء لمن يقدم منفعة، أو يسهل لهم طريقًا إليها.

ودخل إلى ميدان الصحافة أقلام عربية كثيرة، ضيقت على أبناء البلاد، وحصرتها في زوايا صغيرة، بل وصلت الحالة أحيانًا إلى أن تسرف تلك الأقلام في حماية نفسها من نباهة بعض الأقلام الوطنية فتسعى إلى إبعادها، والتقليل من قيمتها، ومحاولة التفرد في الساحة الأدبية والصحفية.

فرأت الدولة علاجًا لهذه الحالة أن تصدر نظامًا يحمي الصحافة من أن تهدر قيمتها بالهمز واللمز، وأن تسلب واجبها في الإصلاح والتقويم، والإبانة عن الرأي الحق، وأن تتيح لأبناء البلاد سبيلًا سهلًا للمشاركة في الصحافة، تحريرًا وكتابة. فصدر قرار مجلس الوزراء في ١٣٨٣/٥/٢٣هـ، الموافق ١٩٦٣/١١/٨م؛ برقم (٤٨٢) ناصًا على إلغاء امتياز الصحف والمجلات التي كانت تصدر في جميع مدن المملكة، والأمر بتحويلها إلى مؤسسات أهلية.

ثم أعلن مرسوم ملكي في يوم ١٣٨٣//٨/٢٤هـ الموافق ١٩٦٤/٢/٤م ينص على تفاصيل هذا النظام، وشروطه وطريقة العمل به.

وقد وافقت وزارة الإعلام على إنشاء ثماني مؤسسات صحفية بعد إلغاء امتياز ما كان يصدر سابقًا واستثناء القليل.

أما المؤسسات فهي :

- مؤسسة الجزيرة للصحافة، وتصدر عنها جريدة الجزيرة الأسبوعية.
- مؤسسة اليمامة للصحافة، وتصدر عنها جريدة الرياض اليومية، واليمامة الأسبوعية.
- مؤسسة الدعوة الإسلامية، وتصدر عنها جريدة الدعوة الأسبوعية.
- مؤسسة عكاظ للصحافة، وتصدر عنها جريدة عكاظ اليومية بجدة.
- مؤسسة البلاد للصحافة، وتصدر عنها جريدة البلاد اليومية بجدة.
- مؤسسة الندوة للصحافة، وتصدر عنها جريدة الندوة اليومية بجدة.
- مؤسسة المدينة للصحافة، وتصدر عنها جريدة المدينة اليومية بجدة.
- مؤسسة اليوم للصحافة، وتصدر عنها جريدة اليوم الأسبوعية بالدمام.

واستثني من الإلغاء، المنهل، والحج، ورابطة العالم الإسلامي، وقافلة الزيت، وأعطي حمد الجاسر رُخصة بإصدار «العرب»[١].

وقد ألمحت الوزارة إلى بعض الأسباب التي دعت إلى سّن هذا النظام الجديد؛ لأنها «أرادت أن تكون صحافتها رسالة لا حرفة، تسمو على المادة، وتسعى للتهذيب والإصلاح وتوجيه الرأي العام السعودي توجيهًا مثاليًّا، تمد وجدانه، وتخاطب ذهنه، وتخدم المجموع ولا تنزلق إلى «عبادة الشخصية» وخدمة «المصالح الفردية» اللتين ينبذهما الدين الإسلامي، وأن انفراد شخص واحد أو شخصين بالحصول على امتياز الجريدة وتحريرها، دون الاستعانة بعدد من المواطنين من

(١) انظر : هاشم عبده هاشم، الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية، تهامة، ط١، ١٤٠١هـ.

(٢) انظر : الصحافة السعودية، إصدار وزارة الإعلام، ص١٥.

ذوي التجارب والقدرة على الإدارة والتوجيه أمر لا يخلو من المساوىء، كما أنه لا يتيح للصحيفة القيام بمسئولياتها قياماً كاملاً»[١].

(١) انظر : الصحافة السعودية، إصدار وزارة الإعلام، ص ١٥.
وقد أصلح هذا النظام كثيراً من الأخطاء، وأعان المؤسسات على القيام بواجبها الصحفي في أوجه كثيرة، لكنه لم يخل من جوانب السلب، فقد انصرفت أذهان أعضاء المؤسسة الصحفية إلى مصادر الربح المختلفة، من الاعلان وغيره، فاجتهدوا أن يدخلوا إلى خزينة الصحيفة ما في وسعهم الحصول عليه من مكاسب، غير ناظرين إلى ما تقدمه الصحيفة من موضوعات ذات جدوى بل مبتعدين عن تلك النقاشات التي تثير عليهم الناقدين أو تسلط عليهم قانون المطبوعات القابل لتفسير كل مجتهد.
وأرى أن إصلاح المؤسسات ضرورة لازمة، لكي لا تصل الصحافة السعودية إلى أكثر مما هي فيه الآن من الخواء الفكري، والهشاشة الأدبية، وخفوت صوت النقد الأدبي والاجتماعي، وغياب الواعين والمثقفين عن ساحاتها.

المقالة الأدبية في المؤسسات الصحفية :

توقفت مجلات وصحف، وغابت أقلام، وبرزت إلى ميدان الكتابة أقلام أخرى، وظهر في الصحافة في هذا العهد لون جديد من الكتابة السريعة العابرة، والحق أن هذا العهد الصحفي الأدبي يكاد ينفصل عن سابقه؛ على الرغم من أن الكتّاب المشاركين في إحياء الأدب، وبعث النهضة الفكرية في صحافة الأفراد مازالوا على قيد الحياة في السنوات الخمس عشرة ــ على الأغلب ــ أي قبل نهاية القرن الرابع عشر الهجري، ولكنهم لم يكونوا كعهدهم السابق من حيث النشاط والتوقد، والبحث عن المعنى الأدبي أو الفكري الجديدين، والسعي إلى المنازلة النقدية مع الأصحاب والناقدين.

وبدأت الشعلة المضيئة تخفت، ويضعف نورها البهيج المفرح، وانزوى كثيرون تاركين هذا النظام وما جلبه من أوامر، ومن إداريين جدد، وطلاب شهرة، وباحثين عن الكلمة العادية العابرة.

ولهذا اتصفت المقالة الأدبية في هذه الفترة بخلوها من العمق الأدبي، وبعد كثير منها عن الأصالة في الأسلوب، واهتمامها بالجديد من اللفظ، والحديث من المعنى، وتكالب الجيل الجديد الثاني المتعلم على أساتذته وسابقيه في الأدب والنقد؛ يقلل من شأنهم حينًا، ويلحق بهم التهم المضعفة من قدرتهم الفكرية والأدبية حينًا آخر، ويسعى إلى أن تخلو له الصفحات ليملأها بما يشاء من الجديد في الشكل والمضمون.

ويبدو أن الجيل الجديد من أبناء العقد الثامن من القرن الرابع عشر الهجري وما بعده كانوا يضيقون بتقدير الرعيل الأول من الأدباء للأدب ومسائله، ويرون أن إحلال القضايا الأدبية والنقدية وما يتصل بها من خلاف حول الأساليب، والتجديد فيها، أو الميل إلى القديم وانتقاد ذلك من المجددين ــ يرون في ذلك مضيعة للوقت وتشتيتًا للجهد، وإفسادًا لمهمة الصحافة التي يحسن أن تسعى إلى معالجة قضايا العصر الحياتية المختلفة، وما يضطرب في أذهان الناس من أفكار

لها مساس بمصالحهم، ولها تأثير على تيسر الحياة والمعيشة، والارتفاع بالمستوى الاجتماعي والاقتصادي للإنسان بعيدًا عن المثاليات الأدبية والأخيلة الشاعرية، التي لا يعيش في عالمها إلا قلة من الناس، هم الأدباء ومن شاكلهم.

وقد اتضحت رؤى هذا الجيل في مقالات مختلفة، نشرتها صحف ذلك العهد ومجلاته، يسعى فيها أصحاب تلك المقالات إلى التقليل من شأن الأدب، وعدّ ذلك لونًا من ألوان الخيال، وجزءًا من الأحلام اللذيذة الخاصة بالأدباء، وأن ما يجب الاهتمام به والاحتفال بشأنه التفكير العلمي والاقتصادي والاجتماعي «إن العقلية الغالبة التي تسيطر على الطبقة المتعلمة ــ سواء ارتفع أو قلّ نصيبها من العلم والمعرفة ــ عقلية أدبية خيالية، تفسح مجالًا كبيرًا للخيالات والخرافات.

فقصيدة عاطفية، أو قصة خرافية، أو مقالة إنشائية لا تهدف إلى معنى من معاني الحياة، تصاغ بأسلوب جميل، تستحوذ على اهتمامنا، وتلقى من تقديرنا أكثر مما تلقى مثلًا نظرية اقتصادية، تحقق لنا وفرًا من تكاليف المعيشة، أو نظرية علمية، تعمل على تبسيط وسائل الحياة، أو اكتشاف جديد في عالم الطب يساعد على إنقاذ الإنسانية المعذّبة من براثين الموت والمرض.

إن ملكة القراءة عندنا ضعيفة، لا تقوى على هضم المواد الدسمة الغنية بالأفكار والحقائق العلمية، إننا نقرأ ــ لا لنستفيد، ولكن لنتسلى، ونكتب ــ دائمًا ــ لا لنفيد، ولكن لنرضي غرور الكتابة عندنا، ونشبع رغبة القرّاء .. »[1].

وتشتد بهم الرغبة إلى أن تكون الصحافة متخصصة، فيدعون إلى التفريق بين المفهوم الصحفي، والعمل الأدبي الخالص، فيرون ضرورة إنشاء صحافة أدبية متخصصة، وتحرير الصحافة القديمة، من قيود الدرس النقدي، والمقالة الأدبية،

---

(١) مقالة : مزاج القراء، حسن المشاري الحسين، اليمامة، عدد ٥؛ السنة الأولى، في ربيع الثاني ١٣٧٣هـ، يناير ١٣٥٤هـ، ص ١٤.

وتعلق المجلة على هذه المقالة : «حقاً ما يشكو منه الزميل، وإن هذه الظاهرة التي تسوء قراء العربية لفي أشد الخطورة على كياننا، ونرجو أن يتجه القراء إلى الأبحاث العلمية النافعة متآزرين مع المجلات التي تهدف إلى هذا التوجه.

بحيث تهتم بصناعة الصحافة العصرية، من صورة وخبر، ومقال خال من التزويق والتطرية الأدبية.

وسعت الصحافة ـــ في عهدها الجديد ـــ إلى تمثل هذه الآراء، فصارت القضايا الأدبية في زوايا محدودة، وفي يوم من أيام الأسبوع، على هيئة صفحة متخصصة، أو جزء من الصفحة، وانشغلت أقلام المحررين في هذه الصحف بمعالجة كل ما يتصل بالحياة الاجتماعية والاقتصادية ونقد ذلك في سبيل إصلاح ما نقص منه، أو ما كان فيه من خلل، بأسلوب هادىء متحفظ، هو أقرب إلى الهمس والرجاء منه إلى التقويم والمكاشفة، على خلاف ما كان في صحافة الأفراد، من نقد يتسم بالصراحة في القول، والحدة في الرأي، واستعجال وسائل الإصلاح، والنهوض بالمجتمع، ولعل في ذلك شيئًا من الأسباب الداعية إلى حلّها وتنظيمها فيما بعد ١٣٨٣هـ من قيود وتعليمات وضوابط.

ونتيجة لهذه الأحداث العاصفة بأمور الأدب، ولهذه التغيرات في قيادة الصحف، وما آلت إليه من هدوء وسكينة، وعمل صحفي مقنن ضجت الشكوى من الحريصين على الوعي الفكري والأدبي تعرض بهذا السكون إلى الصمت، وانصراف الأدباء الرواد والقادرين من الجيل الثاني عن الإسهام والمشاركة بالمقالة والدراسة في الصحف، ومعاتبة النقاد من ذوي النشاط المؤثر في النهضة الأدبية على التزامهم الهدوء، وابتعادهم عن إبداء الرأي في قضايا الحياة بعامة[١].

يقول محمود عارف : «.. وفي السنوات الأخيرة ـــ يعني عهد المؤسسات ـــ أصبح الأدب عامة هنا، وفي البلاد العربية من المشرق إلى المغرب العربي باهت الألوان خافت الأصداء»[٢].

---

(١) مثالاً على ذلك طالع استفتاء لشر في جريدة عكاظ يوم الخميس ١٣٩٦/١/٢٨هـ، بقلم أمين ساعاتي، حول ضعف الحركة الأدبية في هذا العهد.

(٢) «أصداء قلم» تهامة، ط١، ١٤٠٢هـ، ص ٣٢.

وأصبحت المسألة الأدبية باعث قلق وخوف على المنجز الثقافي الذي حققته البلاد في الفترات الماضية، وصار انشغال الأدباء عن الأدب بغيره، وصمتهم، وشعورهم المتذمر من الصحافة سببًا في صيحات استنفار من بعض محرري الأدب في هذه الصحف، ودعوات إلى اقتحام الركود المهيمن على الساحة الأدبية، فأحد هؤلاء المحررين يقول :

«ليس هذا الكلام إلا مجرد دعوة لأصحاب الأقلام النظيفة المسئولة التي تؤمن برسالة الأدب والتي تعرف أن الركود حين يدب في حياتنا الثقافية، فإننا نفقد كثيرًا من مقومات حياتنا، وهذا الركود الذي ينتاب الحياة الأدبية يعود في الدرجة الأولى إلى تقصير النقاد أو أولئك القادرين على النقد، والذين نستطيع أن نشير إليهم بالأصابع واحدًا واحدًا نطالبهم باليقظة لكثير من التعاسات العقيمة التي أصبحت وسائدنا نسترخي عليها في عز الصيف»[1].

ويشعر بعض الكتّاب بمسببات هذا الركود فيومئون إليه، ويتألمون منه، ويشيرون إلى أنه جديد على أدب البلاد، بعد استحداث صحافة المؤسسات «فمن الملاحظ في الآونة الأخيرة، في وسطنا الأدبي، الركود الممل، الذي طرأ على النهضة الأدبية في بلادنا، خلال الأعوام الأخيرة، ولعل الباحث المتعمق في أسباب ومسببات هذا الركود يجد أن من بين العوامل الرئيسة التي أدت إلى ذلك هو اهتمام الصحف بمتابعة الخبر والصورة، مكتفية بالتزويق والتشويق، وشدّ القارىء إليها بأي شكل، وبأية وسيلة، وإن كانت تلك الأشكال وهذه الوسائل التي تقوم بتنويعها وعرضها يوميًا هي بحد ذاتها قشور لا لباب، ولا طعم فيها»[2].

ثم يشكو الكاتب غياب جهد الأدباء، ويضيق بصمت القادرين على الكتابة، ثم يلتمس لهم بعض العذر في أن القدر المسموح به للقلم أن يصدر الرأي، أو يدبج خاطرات النفس ويرسل إلهامها الفني المنطلق قليل وضيق، ولعل ما يريده

---

(١) مقالة : «أزمة الأدب.. والنقاد؟» لم يبن الكاتب عن اسمه، اليمامة، عدد ٦٤، الجمعة ٢٦ ربيع الثاني، ١٣٨٩هـ.

(٢) مقالة : «الركود الأدبي» عبدالعزيز عبدالله التويجري، مجلة اليمامة، عدد ٧٠، الجمعة ٩ جمادى الثانية ١٣٨٩هـ، ص٨.

الكاتب أن الصحافة لم تعد تعبأ بالجاد من الرأي، ولا العميق من المقالة، و لم يكن القائمون على أمرها ــ وهم من شبان تلك المرحلة ــ مريدين لأنفسهم أن تلقى عنتًا، أو يصيبها مشقة في سبيل البحث عن الكاتب المضيء، والمقالة القوية الصادقة، والمبحث النابة المفيد .. «فقد افتقدنا البحوث الأدبية الرائعة، التي كانت تنشرها لنا اليمامة في فترات من عهدها، كما افتقدنا البحوث التي كانت تنشرها لنا الجزيرة حينما كانت مجلة أدبية، ثم أين المناقشات الطويلة العميقة التي كنا نقرأها لكبار الكتّاب، وأعلام هذه المملكة، أين النقد الأدبي والمناقشات الأدبية التي لمحنا يومًا أشعتها تنبثق، أين أعلام الفكر في بلادي»[1].

ثم يقول : «إن البلاد لم تعقم، ولكن أين المحيط الفسيح الذي يمكن عرضه فيه ؟»[2].

والحق أنني لم أجد نصوصًا مقالية تثير انتباه الناقد والباحث سوى نزر يسير لا يمكن أن يعد شاهدًا على نضوج المقالة في هذه الفترة؛ إذ أصبحت المجلة والجريدة غنية بالتحقيق الصحفي، والمنوعات المتصلة بأخبار الفنون، وأبواب في متابعة الأحداث السياسية.

وهي في كل ذلك لا تذهب إلى وضوح في الرأي، أو حدة في الإعلان عنه، أو الدفاع عن رؤية الكاتب في القضية التي يتحدث عنها.

وما يتصل بهذه الألوان من الفنون الصحفية من هشاشة الرأي وضعفه جزء يسير مما يحيط بالكاتب الأديب من دواعي ضعف الفكرة، وأسباب تصرمها،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

انظر مثلاً هذه المقالات الشاكية :

مقالة : المحذوفون بالصمت، علوي طه الصافي، اليمامة، عدد ١٣٠، في ٨ رمضان ١٣٩٠هـ، ص ٨.

مقالة : حتى يهتز الواقفون، عبدالله القرعاوي، اليمامة، عدد ١٢٩، في ٢٩ شعبان ١٣٩٠هـ، ص ٣٠.

مقالة : منتدي «خالد» الأدبي، حمد الجاسر، مجلة العرب، عدد ٦، س ٣، ذي الحجة ١٣٨٨هـ، ص ٣١.

وانظر حواراً صحفياً، مع ضياء الدين رجب، اليمامة، عدد ٢٥٥، ٢٩ ربيع الثاني ١٣٩٣هـ، ص ١٤.

وإحجامه عن الإقدام على التعبير الحر، أو التطلع إلى تجاوز السائد من أنماط الرضا بالواقع، والإيمان بما هو كائن.

فما قرأته من زوايا، أو طالعته من مقالات يائسة، وشكاوى متبرمة ليست في الحقيقة غير علامات قليلة على إشكالية النص الأدبي بعامة؛ شعرًا وقصة ومقالة، مما كان سببًا رئيسيًّا في استشراء داء الرمز، واقتفاء آثار الرمزيين، وبخاصة الشعر والقصة.

والإيغال في الرمزية ألحق بالأدب تشويهًا في الصورة، وضياعًا في الهدف، وارتباكًا في أسس بناء الصورة الخيالية المؤثرة.

وأثمرت الرمزية هذه عن وهنٍ في بث الرأي الاصلاحي وتعويد القارىء على قبول المهمة الجديدة للصحافة، وهي معالجة بعض القضايا الاجتماعية في شيء من الحذر، وعرض ما يحيط بها مما يسلّي ويشغل من الآراء والمناقشات، كالرياضة والفنون، والانصراف عن الجاد المتطلع مما كان يعرض له المقاليون المتمكنون من فنّهم ووعيهم الثقافي الذي كوّن ــ في مرحلة صحافة الأفراد ــ هذا الزخم الجميل من الثراء الأدبي في قضايا مختلفة، ذاتية واجتماعية وأدبية.

وأترك أمر التدليل على ضعف الأدب، وضيق الفسحة في الرأي لمن عاش هذه المرحلة، وتألم من صمتها، ومرارتها «أجدني ملزمًا لأقول غير متبرم : «إننا بحاجة إلى فئة واعية في حياتنا الأدبية، تقيّم الإنتاج، ولها أن تحاسب أدبنا في نتاج ما مضى من الزمان خلال حياتنا، وتعدد القوالب الأدبية في هذا الانتاج، لقد بحثت ذلك وأجريت كشفًا لحساب الأدب خلال عامين مضيا، ولم أجد غير نتاج عصارة أفكار منهكة .. إلا ما قل من هذا النتاج، والقليل نادر ينهل كقطرات المطر في يوم صحو !»[1].

وبعد أن مرّ على صدور مجلة اليمامة عامان وهي أسبوعية، بعد أن كانت

---

(١) مقالة : مشكلة الأدب، عبدالله علي الماجد، مجلة اليمامة، عدد ٥٤، الجمعة ١٥ صفر ١٣٨٩هـ، آيار ١٩٦٩م.

جريدة كتب المحرر يقيم مساعي المجلة في شئون عدة : « .. وفي المجال الأدبي يمكن أن نقول مباشرة لقد كان أقلّ المجالات الأخرى تحقيقًا لمهمته، لقد كان رديئًا بشكل يدعو للأسف»[1].

وحتى أولئك المتعلمين الجدد من الجيل المعاصر لهذه الفترة كانوا منصرفين عن المشاركة مشغولين بدرسهم الجامعي، وبأمور الحياة عن الخوض في قضايا أخذت تبهت، ويخفت صوتها لابتعاد القادرين.

وهل نلتمس لهم عذرًا في قعودهم عن المشاركة ؟ هل نقول : إن هؤلاء الجامعيين، ومن شاكلهم من الأكاديميين يرون في أنفسهم معاني كثيرة لا تستوعبها الصحافة في عهدها الحاضر، بصبيانها، وهواتها، وضعفها ؟.

قد يكون هذا الاحتمال صحيحًا، وقد يكون من الصواب أن هؤلاء اختاروا الصمت حلًا فاضلًا يقيهم سوءات المشاركة مع جيل من الهواة والمتشبثين بالصحافة والأدب ادعاء.

ونجد أحد أبرز هؤلاء الشباب المندفعين إلى الجديد في الأدب، وإلى التغيير في معاني التعبير الأدبي يسائل زملاءه ورصفاءه من الصفوة عن صمتهم : «هذه النخبة المتعلمة الممتازة في اللغة والتاريخ والأدب وعلم النفس والتربية والاجتماع والصحافة، هؤلاء الذين نالوا قسطًا وافرًا وغنيًّا من التعليم المتخصص المنظم العالي حتى إنّ بعضهم يحمل أعلى الشهادات الجامعية كالدكتوراه، وهم كثر.

هؤلاء الذين خرجوا إلى الدنيا الجديدة، هؤلاء الذين قدمت لهم البلاد من عرقها، ودمها، وعطفها ورعايتها الكثير، وانتظرتهم بشعور الأبوة والأمومة الحانيين .. أين هم ؟.

ماذا قدموا ؟، أين ضريبة العلم والوطنية، أين جزاء العرق والدم، والرعاية

---

(١) مقالة : أزمة الأدب.. والنقاد، لم يبن المحرر عن اسمه، عدد ٩٦، ٥ محرم. ١٣٩٠هـ، ص ٥، وأذهب إلى أنه عبدالله الماجد، لأنه تولى الاشراف على صفحات الأدب في اليمامة آنذاك، ولتشابه فكرة هذه المقالة، مع مقالته السابقة.

والعطف ؟.

.. نتساءل، ونتساءل بلا جدوى ــ وقد عادوا إلى بلادهم وأصبحوا كفص ملح ذاب.

يا حسرتي عليهم، وعلى الوقت الطويل الذي قضوه في الدرس والتحصيل.

يا حسرتي عليهم، وعلى العرق والدم والعطف والرعاية التي حظوا بها .. »[١].

ولا يفتأ بعض الأدباء ــ ممن عاصروا العهدين ــ يذكر صحافة الأفراد بالخير، ويشيد بما قدمته للأدب وللقضايا الفكرية والثقافية «إن الذين يعودون لصحف تلك الأيام ويراجعونها يشعرون بالدهشة لأن موجة الأدب قد انحسرت كثيرًا في هذه الأيام عمّا كانت عليه في السابق فلقد اتجهت عناية الصحف في هذه الأيام إلى المواضيع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والرياضية ــ إلى المواضيع الحيوية اليومية وأصبحت بضاعة الأدب كاسدة»[٢].

ويتطلع بعض المخضرمين ممن عاصر المرحلتين إلى ألّا يعتمد أدباؤنا الكبار على ما قدموه وما كان لهم من تأريخ أدبي، فيدعوهم إلى «.. أن ينزعوا ثوب السلبية، ويبدأوا الحوار مع مشاكل العصر .. إن السلبية ليست أسلوبًا منتجًا، ومع هذا فما زال الأسلوب السائد خاصة بين الكبار من أدبائنا»[٣].

لكن القضية لا يمكن أن تُحل على هذا النحو، فامتناع «الكبار من الأدباء» له أسبابه، وهجرة بعضهم إلى عواصم عربية ، بحجة توفر وسائل النشر والطباعة، أو البحث عن العمل ومصدر رزق له ما يبرره مما أشرت إلى شيء

---

(١) مقالة : شباب الأدب وكشف الحساب..، علوي طه الصافي، مجلة اليمامة، عدد ١٦ في ١٦ ربيع الثاني ١٣٨٨هـ، ص١٠.

(٢) مقالة : الأدب في الصحافة السعودية، عثمان حافظ، بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين، جامعة الملك عبدالعزيز بجدة، ١٣٩٤هـ، جـ٢، ص٧٧٣.

(٣) مقالة : بأظافرنا نبحث عن شيء ما، «عبدالله بن حمد القرعاوي، اليمامة، عدد ١٠٠، ٣ صفر ١٣٩٠هـ، ص ٣٠.

منه في الصفحات الماضية.

ومادام قانون الصحافة الحاضر يرى في انطلاقة الأديب الفنية والتعبير عن هواجسه وآرائه وخواطر نفسه والبحث عن ذاته مسألة تضر بالقيم، وتفسد ما يريده النظام الصحفي من استقرار وهدوء، فلن يتقدم إلى الساحة الكتابية إلا من ضعفوا أمام هذا الإجراء، أو من يستهويهم بريق الشهرة، أو يبحثون عن أية فرصة عمل، مهما كانت في الكتابة أو جمع النفايات، كلا الأمرين سواء.

وقريبًا من نهاية العشر الأخيرة من القرن الماضي شكا كتّابنا من صمت الأقلام، ومن اختفاء الإبداع في صحفنا. فهذا أحد الأدباء يستنكر هذا الركود، ويسميه «صمت شهرزاد»[١]، ويتساءل عن دواعي إحجام المثقفين والكتّاب عن المشاركة الأدبية والثقافية، والإسهام في طرح الرأي ؟ ويرد عليه آخر «إن هذا الجيل يتميز بالتمزق والقلق فهو جيل الهزيمة التي نالت من معنويات العرب في جميع أقطارهم وأمصارهم، وهو جيل الانتعاش الاقتصادي والترف والتكالب على جمع المادة، جيل المؤسسات التجارية، كما أنه جيل السلبية واللامبالاة .. ومن يدري فلعل في صمت شهرزاد حكمة لا ندركها .. »[٢].

---

(١) مقالة : «صمت شهرزاد»، د. أحمد الضبيب، جريدة الرياض، العدد ٣٧٦٨، في ١٤/١١/١٤٩٧هـ.

(٢) مقالة : «حول صمت شهرزاد»، د. منصور الحازمي، في البحث عن الواقع، ص ٩٧، دار العلوم، الرياض، ط١، ١٤٠٥هـ.

أسباب ضعف المقالة الأدبية في عهد المؤسسات الصحفية :

من أبرز ما أضعف المقالة الأدبية في هذه الفترة انصراف القادرين على كتابتها عنها، وإيثارهم السكينة؛ فامتهن الصحافة من لا قدرة لهم على كتابة المقالة الأدبية، ولا مفهوم لديهم عن الأدب، ومسائل الفكر، والثقافة الأصيلة، ووجدوا من إدارات هذه الصحف العون والمساعدة، تحبيبًا لهم في العمل الصحفي، ورغبة من مديري الصحف في ملء الفراغ والسعي إلى تحرير مادة صحفية خالية من أي اهتمام أدبي، همّها إرضاء القرّاء بعامة، وتيسير ما يميلون إليه من اهتمامات كثيرة، فيها شيء من التسلية، كالرياضة، ووسائل اللهو، أو المتعة الفنية والترفيه، كالصفحات الفنية وما شابهها.

وقد تولى الصفحات الأدبية في هذه الفترة نفر من الطارئين على الكلمة الأدبية، ومن المحاولين البحث عن هوية لذواتهم، من خلال التجريب، والوقوف على كل المذاهب والتيارات الفكرية والأدبية الجديدة، فأخذوا يقلدون دون وعي، ويحتذون دون قدرة على الابتكار، وصار من سمات تلك الصفحات النقص لكل قديم، والاعتناء بالأدب المترجم، والهجوم على الأعلام، والتشتت الفكري، الذي ظهر أثره في كتابات لا تستقيم في أسلوب، ولا ينتظمها تفكير واحد، كانت تملأ بها زوايا هؤلاء المحررين والمشرفين على الأدب في هذه الصحف.

ثم إن الأجيال الجديدة في الثمانينات وما بعدها كانت تُعنى بالعلم في سبيل الوصول إلى الوظيفة، والقليل من أبناء هذا الجيل من كان يحتفل بالأدب لحبه له، ولموهبته فيه، ورغبته أن يكون شيئًا مؤثرًا في أحد فنونه، «لأن رغبة هذه الأجيال كانت منصرفة إلى التزود من العلم بقصد نيل الشهادة الجامعية فحسب»[١].

وإلى جانب ذلك انصرف من لديهم رغبة في الأدب إلى طرائق البحث العلمي

---

(١) محمود عارف، أصداء قلم، ص٤٠.

المدروس، وشغلوا به عن قضايا التنوير والتطوير، فغلب على مقالاتهم ما يتصف به البحث العلمي من رؤى مقننة محددة، هدف الكاتب فيها الوصول إلى إثبات أو نفي، معتمدًا في كل ذلك على الدليل والمثال، دون أن تكون لشخصيته أي ظلال في المقال.

فكانت الصحافة لا تخلو من مثل هذه الكتابات البحثية الرصينة التي تفيد في مجالها، لكنها لا تتصل بالمقالة الأدبية، التي نحن بصددها.

ولعل من الأسباب التي مكّنت الضعفاء من المحررين والكتّاب ــ إضافة إلى ما سبق ــ في هذه الصحف انشغال المهتمين بأمور الثقافة وقضاياها في بحوثهم ودراساتهم، ممن واصلوا تحصيلهم العلمي، وحصلوا على الشهادات العالية في فنهم، فطبع ذلك كتابتهم بالرصانة والجد، وسمات البحث، مع عكوف الأدباء الرواد في عزلتهم، مبتعدين عن الساحة وما يدور فيها، إلاّ في مرات قليلة حين يستثارون، ويُرغبون في الكتابة بنقد مستفز حينًا، أو مداعبة حينًا آخر.

وقد تضافر صدور نظام المؤسسات الصحفية مع تطلع الجيل الجديد من دارسي الصحافة، وراغبي العمل في وسائل الإعلام نحو تحديد مفهوماتهم العملية في هذا النطاق، وتأييد وجهتهم هذه بالدراسة الجامعية وما بعدها، حتى غدا جيلًا تغلب عليه سمات التخصص في فن الصحافة، فاتخذوها حرفة وصناعة، بدل أن تكون هواية وسبيلًا إلى بثّ الرأي، والإصلاح، وميدانًا لإذاعة كثير من ألوان الإبداع الأدبي والنقدي.

وبمطالعة ذلك الاستفتاء الذي أجرته مجلة المنهل تحت عنوان «تخطيط وسائل النهضة الصحفية في بلادنا» يتبين لنا أن مجمل الآراء اتفقت على إحداث صناعة جديدة للصحافة، تفصل الأدب عن المهمة الصحفية الحقيقية، فأحد المشاركين في هذا الاستفتاء يرى «أن الأدب هو المسيطر على كافة الصحف السعودية، كأن الأدب هو المشكلة الرئيسية.[١]

---

(١) محمد علي حافظ، المنهل، محرم، ١٣٧٩هـ، يوليه ١٩٥٩م.

والظاهرة الحميدة الآن هي تطور المقال السعودي، واستيعابه جميع الموضوعات الأدبية والسياسية، والعالمية والصحفية والاجتماعية، وظهور طبقة جديدة من الكتّاب تخصصوا في هذه الأنواع، وهذا قطعًا من المظاهر الحسنة، لأن الخروج عن نطاق الأدب ومشاكله ومذاهبه معناه إحساس من هؤلاء الكتّاب بالرسالة الملقاة على عواتقهم»[1].

وكان هذا الرأي يمثل وجهة جديدة شابة، تدرس الصحافة[2] في الجامعة، لتسعى من بعد إلى تحقيق شيء منه في الواقع.

وقد هيأ نظام المؤسسات لكثير من هذه المفاهيم السبيل إلى أن تكون مهنة الصحافة جزءًا من الوسائل الإعلامية الأخرى المعنية بتتبع الأحداث ونقلها، والسعي وراء مصادر الأخبار، وإذاعتها بأسلوب قريب من أذهان القرّاء العاديين، والناس المنصرفين عن مسائل الفكر والأدب.

ثم كان النظام دقيقًا في تحديد عمل الكاتب والمحرر، وإبانة مقاييس النقد وآفاقها، ووضع في ذلك قوانين ترهّب من الاقتراب النقدي من المحظورات الاجتماعية والسياسية، وما أكثرها. وتحبب في السكينة وإخلاص الكتابة لمجالات حياتية كثيرة؛ فيها المتعة المسلية، والطرافة، والمجاملات، والقص، والتعليق السياسي، مما انحرف بالمطبوعة الصحفية عن تاريخها الماضي المشرق في زخم الإبداع الأدبي، والمصاولات النقدية، والحماسة الوطنية، والتطلع إلى التقدم وتجاوز عقبات التخلف.

---

(١) انظر دليلاً على هذا قضية «الدكاترة»، وما دار من نقاش حول إسهامهم في خدمة الأدب :
مقالة : أما بعد — زاوية — علي أحمد النعمي، اليمامة، عدد ١٥٤، في ١٣٨٧/٢/١٧هـ، ص ١٨
مقالة حول مقال — الدكاترة ومسئولية الكتابة، الدكتور منصور الحازمي، اليمامة، عدد ٦٠، في ١٣٨٧/٣/٣٠هـ، ص ١٩.
مقالة الدكاترة.. وأنا.. والله أعلم؟ علي العمير، اليمامة، عدد ١٦١، في ١٣٨٧/٤/٧هـ. ص١٥

(٢) كان من هؤلاء المشتركين في هذا النقاش، حمود البدر، ومحمد عبدالقادر علاقي، ومحمد علي حافظ، وغيرهم من طلبة قسم الصحافة بكلية الآداب في جامعة القاهرة، وقد أثر هؤلاء في تكوين المفهوم الجديد للصحافة، مبتعدين عن الأدب وقضاياه، وبرز ذلك في أسلوب الإدارة الصحفية الذي اتبعه بعضهم، وفي مقالاتهم، ودرسهم الجامعي في مقاعد هذا العلم.

على أن صحافة هذا العهد استقبلت الشبان، وفتحت لهم الأبواب دون منافسة أو مزاحمة من كبار الكتّاب، فقدموا محاولاتهم الأولى التي كانت قد بدأت في نهايات صحافة الأفراد.

ومن هؤلاء أبو عبدالرحمن محمد بن عمر بن عقيل[١]، وعمران محمد العمران[٢]، ومحمد بن عبدالله الحمدان[٣]، وعبدالله الجفري[٤]، وعبدالله منّاع[٥]، وغيرهم.

إلا أن النضج الفني والاستواء في الشخصية الإنشائية والمعرفية يحتاج إلى زمن، فلم يكن لهم في بداية صحافة المؤسسات تميّز يذكر، وإنما ابتدأت ملامحهم تتبين عند نهايات القرن الرابع عشر وما بعده، وأصبحوا في هذه السنوات العشر الأولى من القرن الخامس عشر، كتّاب هذه الصحف البارزين، وكوّنوا الجيل الثاني بعد جيل الرواد، وامتازت المقالة لديهم بتكوينها الحديث المهجن، المستمد من الأدب شيئًا من طلاوته دون إغراق، ومن الصحافة والتعابير الحديثة والتراكيب الجديدة والصور المستجدة الكثير من مقوماتها.

فغدت مقالات هذا الجيل بين الصحافية والأدبية، وبين العلمية والانطباعية، فيها من الأدب سمات، ومن الصحافة علائق، ومن معارف هذا العصر وجديده ما يقوّم الفكرة ويصلح بناها.

إلا أن الزخم الأدبي الذي، صاحب المقالة قبل المؤسسات تلاشى واختفى،

(١) سيرد الحديث عنه مفصلاً في المقالة الذاتية كأحد كاتبيها، ص ٢٨٢.

(٢) ولد عام ١٣٥٢هـ، في الرياض، وتخرج في كلية اللغة العربية بالرياض، ثم أكمل دراسته في مصر في معهد الدراسات العربية، رأس تحرير جريدة الرياض فترة وجيزة، وعمل في وظائف حكومية عدة، له : ابن مقرب، من أعلام الشعر اليماني. انظر المعجم ١٤٦/٢.، والدليل ص ٢٠٥.

(٣) ولد عام ١٣٥٧هـ، في بلدة البير، وتخرج في كلية الشريعة بالرياض، له إسهام في كتابة المقالة الأدبية النقدية والاجتماعية، ويعني بالقديم من الآثار والتحف والصحف والكتب، له مكتبة قيس في هذا الشأن، وله عدة مؤلفات، وقد أفادني كثيراً بما لديه من الدوريات والمجلات القديمة، الدليل ص٢٤١.

(٤) سيرد التعريف في به المقالة الذاتية واحداً من كتابه. انظر ص ٢٨٩، من هذه الدراسة.

(٥) سيرد التعريف به في الخاطرة واحداً من كتابه. انظر ص ٢٣٧ من هذه الدراسة.

وافتقدنا القوة في الأسلوب، والنضج في البناء، والانطلاق المتدفق الواثق، وجمال التركيب، وحلاوة المصاولة والنقد.

وبدأ الأسلوب المقالي فيما بعدها عجلًا ناضبًا، يفتقد العمق والقوة والجمال، ولا يصور في كثير منه نفسية أصحابه وتطلعهم وطموحاتهم، وكأنهم قنعوا من الكتابة بالوظيفة، ومن جمال الفن بتشتت التناول، وتعدد أغراض المقالة، وحشوها بالأسماء والمعارف والصور الغامضة المبهمة، والنقول المختلفة، وكأن بعضهم يريد أن يوحي إلى قارئه بسعة ثقافته، وعمق اطلاعه، وشمول معارفه، وهذا البعض لا يعلم أنه يتخلى بهذا التزييف عن أبرز خصائص الفن؛ من الصدق والعفوية وشرف المعنى.

ويكاد قليل منهم يتميز ببعض السمات التجديدية في الصورة والعاطفة واللفظة، مما يتطلب درسًا نقديًّا مستقلًا يبدأ مع مطلع هذا القرن الجديد.

ومن مقاليي عهد المؤسسات الجامعين لأكثر ما فيه من التزام بالأدب وانطلاق إلى الأسلوب الصحافي، وإسراف في البحث عن الجدة، وإغراق في الصورة الغامضة، والتركيب اللفظي الغريب على اختلافهم في ذلك هاشم عبده هاشم[١]، وعلوي طه الصافي[٢]، وعبدالله منّاع[٣]، وحمد بن عبدالله القاضي[٤]، وعبدالله الماجد[٥]، وفهد العرابي الحارثي[٦]، ومحمد رضا

---

(١) ولد في مدينة جيزان عام ١٣٦١هـ، دكتوارة في المكتبات والمعلومات، رئيس تحرير لجريدة عكاظ، أسهم بالكتابة في مجلة الرائد، والمدينة، وعكاظ.
المعجم ٢/٥٣٩، والدليل ص ٢٨٧.

(٢) ولد في جيزان عام ١٣٦٣هـ، ودرس الحقوق في الجامعة الأمريكية ببيروت، يكتب القصة والمقالة، وبخاصة النقدية، وكان يوقع برمزين «مسمار» و «نورة سلمان»، يرأس تحرير مجلة الفيصل، وله عدة مؤلفات. الدليل ص ١٩٤.

(٣)،(٤) سيرد التعريف بها في الخاطرة.

(٥) رأس القسم الأدبي بجريدة الرياض عدة سنوات، وكان له إسهام نقدي في التسعينات الهجرية وما قبلها، عمل في وزارة المعارف، ثم جامعة الرياض، وفي هيئة تحرير الدارة، وفي مجلة العرب، وافتتح داراً للنشر باسم «دار المريخ»، المعجم ٢/٩٠.

(٦) ولد عام ١٣٦٥هـ، ونال الدكتوارة في السوربون في الآداب والعلوم الإنسانية عام ١٤٠٠هـ، الموافق ١٩٨٠م، اشتغل بالصحافة مبكراً، وهو الآن رئيس تحرير لمجلة اليمامة، الدليل ص ٢١٢.

نصر الله[١]، وسعد الحميدين[٢]، وعبدالعزيز بن عبدالله التويجري[٣]، وعبدالله ابن محمد الشهيل[٤]، وراشد الحمدان[٥]، وعبدالله نور[٦]، وتركي بن عبدالله السديري[٧]، وحسين علي حسين[٨]، ومشعل السديري[٩]، وخيرية السقّاف[١٠]، وغيرهم.

وهؤلاء يخلطون في مقالاتهم بين الحس الأدبي والشكل الصحفي، وتضعف أو تقوى في نصوصهم نوازع الأدب، ودواعي الصحافة، وطبع الفن، وضرورة التواجد، وحب الاشتهار، والاستدرار الكتابي اليومي، الذي استبد بمقالاتهم فأفنى ما لديهم من عزائم الإبداع الأدبي الرصين، ولكن فيهم من يميل إلى الإشراق في الأسلوب، وترسم طرائق المنشئين العرب المجددين، فنجد لديهم آثار بعض القديم من أدبنا الإنشائي العربي، وآثار المدرسة البيانية الحديثة، مع عدم خلو

(١) ولد في القطيف عام ١٣٦٢هـ، وتخرج في كلية الآداب بجامعة الملك سعود، وله نشاط ثقافي متعدد. يكتب زاوية يومية بعنوان «أصوات» بجريدة الرياض، الدليل ص ٢٢٧.

(٢) ولد عام ١٣٦٧هـ، وحصل على الثانوية العامة، له ديوانان من الشعر، ويرأس القسم الأدبي بجريدة الرياض، وبدأ محاولاته الأولى في مجلة الجزيرة، وفي اليمامة. الدليل ص ٩٢.

(٣) ولد عام ١٣٥٤هـ، في مدينة بريدة، اجتهد في تثقيف نفسه، وعمل بالتدريس فترة، ثم في وظائف حكومية مختلفة، ورأس تحرير جريدة القصيم، واختير مديراً لتحرير جريدة الرياض أوائل عام ١٣٨٥هـ، ثم أسند له الإشراف على التحرير حوالي عامين، له مقالات أدبية نقدية واجتماعية. الدليل ص ١٣٧.

(٤) ولد في مكة عام ١٣٥٨هـ، وحصل على بكالوريوس في التاريخ، وماجستير في التخصص نفسه. أشرف على الملحق الأدبي بجريدة الجزيرة عندما كانت أسبوعية، وكتب في مجلة اليمامة، وصحف أخرى، له نشاط ثقافي متعدد، ومؤلفات في التاريخ، ومقالات. الدليل ص ١٧٧.

(٥) ولد في المجمعة عام ١٣٦٠هـ، وتخرج في كلية الشريعة بمكة عام ١٣٨١هـ، وتلقى معارف مختلفة أخرى، وكتب المقالة مبكراً في أواخر صحافة الأفراد، ثم في صحافة المؤسسات، يميل إلى الشعبية والسخرية في أسلوبه. الدليل ص ٨٣.

(٦)،(٧) سيرد التعريف بهما ضمن كتاب الخاطرة. في هذه الدراسة.

(٨) ولد في المدينة المنورة عام ١٣٦٩هـ، يكتب المقالة والقصة. الدليل ص٦٣.

(٩) ولد عام ١٣٦٠هـ ودرس الفنون الجميلة في إيطاليا، كتب المقالة الأدبية القريبة من مفهوم الصحافة، ذات أبعاد اجتماعية ونفسية وسياسية، وهي أقرب إلى المقالة الصحفية الدليل ص ٢٧٦.

(١٠) ولدت عام ١٣٦٩هـ، تخرجت في كلية الآداب جامعة الملك سعود، ثم حصلت على الماجستير في مناهج وطرق التدريس، ثم الدكتوراة في التخصص نفسه، شغلت وظيفة مديرة تحرير في جريدة الرياض، كتبت القصة والمقال. الدليل ص ٨٠.

أساليبهم من طبع الصحافة اليومية العجلى، ومنهم القاضي، ونور، وقُرب نهاية القرن الرابع عشر الهجري توافر عدد من الأكاديميين والمتخصصين في درس الأدب، ممن أسهموا في كتابة المقالة النقدية بالأخص واتسمت لديهم بميلها إلى نهج البحث العلمي، متأثرة بأسلوب كاتبيها ومزاولتهم الدرس الجامعي المتخصص، فخدموا هذا الجانب بما أثاروا من قضايا، وما ناقشوا من مسائل، وبعضهم كان ــ آنذاك ــ في سعيه إلى أن يحصل على الشهادة العالمية فلم يخل أسلوبه من السمات الآنفة الذكر، ومنهم الدكتور محمد بن سعد بن حسين[(١)]، والدكتور عزت خطّاب[(٢)]، والدكتور منصور الحازمي[(٣)]، والدكتور محمد الشامخ[(٤)]، والدكور أحمد الضبيب[(٥)]، والدكتور إبراهيم الفوزان[(٦)]، والدكتور

---

(١) ولد عام ١٣٥٧هـ، في بلدة العودة إحدى قرى سدير، وتعلم فيها، ثم أكمل دراسته فتخرج في المعهد العلمي عام ١٣٧٤هـ، وكلية اللغة العربية عام ١٣٧٨هـ، وعمل في التدريس، ثم حصل على الماجستير من جامعة الأزهر عام ١٣٩٥هـ، ثم الدكتوراة عام ١٣٩٨هـ، له مؤلفات عديدة في النقد والتأريخ الأدبي، ويعد من الدراسين القليلين لأدب الجزيرة العربية. وقد أعطى دروسه في الأدب الحديث لطلبة كلية اللغة العربية، ثم رئيساً لقسم الأدب والدراسات العليا، إلى أن أحيل على التقاعد في سنة ١٤١٠هـ.
المعجم ٢/٢٦٥، والدليل ص ٢٢٨.

(٢) ولد عام ١٣٥٤هـ، في المدينة المنورة، ودرس بمصر وإنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية، متخصص في الأدب الانجليزي، له أبحاث ودراسات، وهو الآن أستاذ بكلية الآداب، جامعة الملك سعود بالرياض، الدليل ص ١٩٠.

(٣) ولد بمكة ١٣٥٤هـ، وحصل على الدكتوراة من مدرسة الدراسات الشرقية بلندن عام ١٣٨٦هـ، اشتغل بالتدريس في كلية الآداب بجامعة الملك سعود إلى أن ترق فوصل إلى مرتبة أستاذ، يكتب القصة والمقالة والبحث، وله مؤلفات وشعر.
المعجم ٢/٤٩٤، والدليل ص ٢٧٩.

(٤) ولد في مدينة عنيزة بالقصيم عام ١٣٥٣هـ، حصل على الليسانس من قسم اللغة العربية بكلية الآداب في جامعة القاهرة عام ١٣٧٦هـ، وحصل على الدكتوراة من جامعة لندن في عام ١٣٨٧هـ، عمل فترة طويلة أستاذاً للأدب في جامعة الملك سعود، كلية الآداب له أبحاث في النثر الأدبي السعودي، وفي الصحافة، ومقالات متفرقة. المعجم ٢/٣٠٠، والدليل ص ٢٣٦.

(٥) ولد في مكة المكرمة، وحصل على الدكتوراة من جامعة ليدز في بريطانيا عام ١٣٨٦هـ، واشتغل أستاذاً بكلية الآداب بجامعة الملك سعود بالرياض وعين في عام ١٤١٠هـ مديرًا لجامعة الملك سعود، وله مؤلفات في تحقيق عديد من كتب التراث، المعجم ١/٢٩٦٤، والدليل ص ٢٨.

(٦) ولد في بريدة عام ١٣٦٤هـ، وحصل على الليسانس من كلية اللغة العربية بالرياض سنة ١٣٨٧هـ

عبدالله الحامد[١]، وغيرهم.

ووجد أيضًا في هذه الفترة كتّاب آخرون، تبوأوا مكانة مرموقة في الصحافة، وكتبوا المقالة الصحفية فنجد لديهم سمات الكلمة السريعة والفكرة الطارئة، والأسلوب الخالي من الإتقان والتطرية، والإنصراف عن الاحتفال بالباقي من المعاني، والمؤثر من صور البيان، وجميل التعابير.

ولا شك أن حظ الأدب لدى أكثرهم من أبخس الحظوظ، وأن نصيبه لا يتعدى اللمحة العارضة، والرأي الشارد[٢].

ثم لا خلاف أن الصحافة في هذا العهد ــ كما سلف ــ حظيت بنصيب كبير من التطور في شتى مناحيها التقنية والفنية، فأبطلت كثيرًا مما تعود عليه الصحافيون القدامى في التبويب والعنونة، ونوع الموضوع، والاهتمام بالخبر والصورة.

فذكرنا لضعف الأدب في هذه الصحافة، وخفوت الرأي فيها لا يعفينا من أن نعترف لها بالتفوق في كثير من ميادين المهنة الصحفية مما تستأهل به الإعجاب والتقدير.

والماجستير والدكتوراة من جامعة الأزهر في الأدب والنقد، أحد دارسي الأدب السعودي المعجم ٢٣٨/١، والدليل ص١٢.

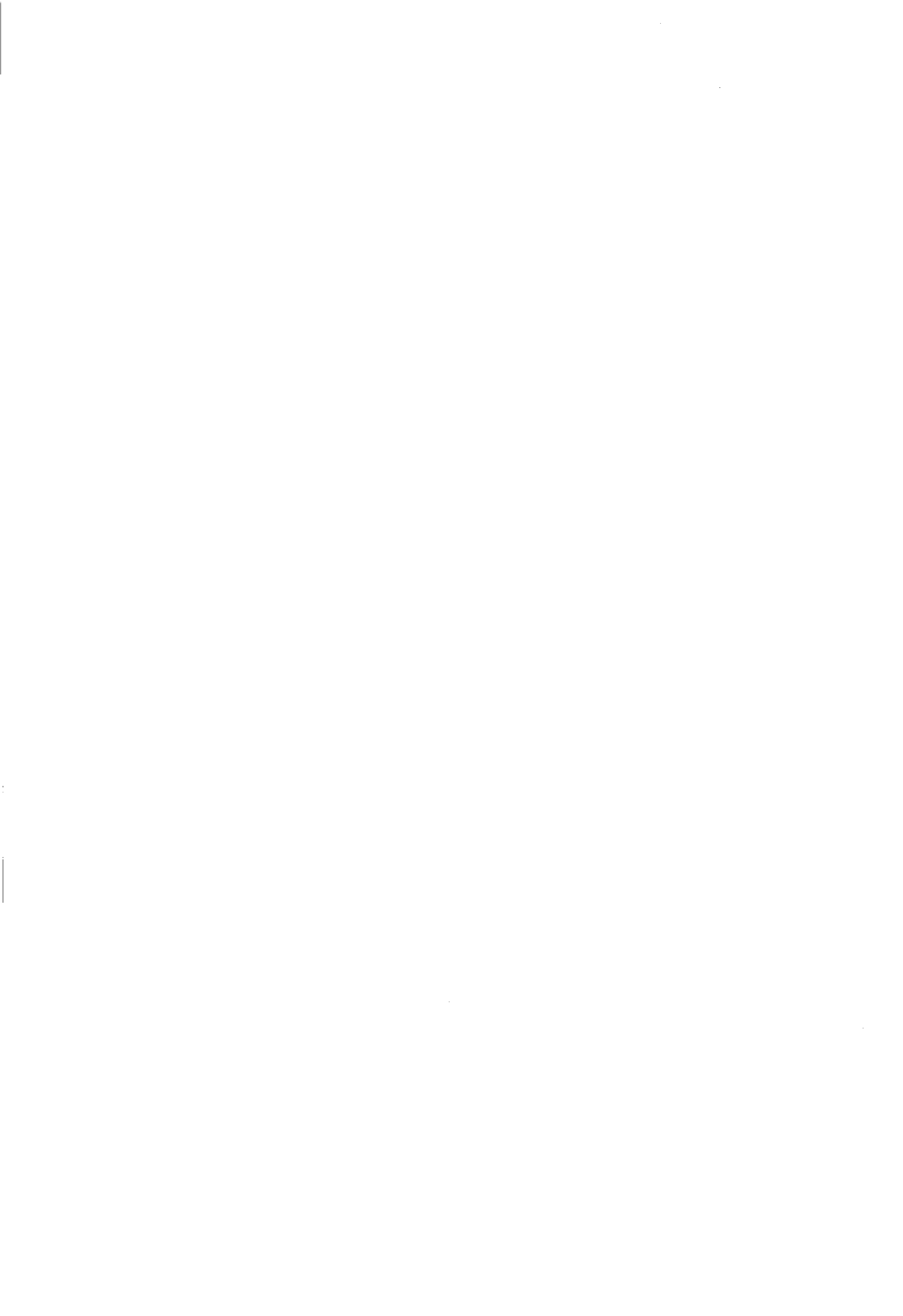
(١) ولد في بريدة عام ١٣٦٩هـ، وحصل على الليسانس من كلية اللغة العربية، جامعة الامام ١٣٩١هـ، والماجستير والدكتوراة في الأدب العربي من جامعة الأزهر عام ١٣٩٨هـ، له دراسات عن الأدب في المملكة، المعجم ٣٨/٢، والدليل ص ١٥١.

(٢) من هؤلاء ــ على سبيل المثال ــ فهد العريفي، وعبدالعزيز بن حسن العمران، ومحمد العجيان، ومسلم عبدالله مسلم، وعبدالله الحصين، ورضا محمد لاري، وهشام ومحمد علي حافظ، وإياد أمين مدني، وعبدالله عمر خياط، وعبدالله الداري، ومحمد ناصر بن عباس، وراشد فهد الراشد، ويوسف الكويليت، ومحمد الحساني، ومحمد عبدالواحد ومحمد أبا حسين، وعبدالله الجعيثن، وغيرهم وهذا الأخير أقربهم، إلى الأسلوب الأدبي، وهو من كتاب المقالة الاجتماعية.

مدخل
إلى ألوان المقالة الأدبية

الدينية ـ السياسية ـ العلمية ـ الفلسفية

الخاطرة ـ الرسالة ـ مقالات أخرى



حين أطلت القراءة في مصادر المقالة الأدبية السعودية، من صحف وكتب وجدت ألوانًا مختلفة من هذا الأدب، يصعب على الباحث أن يلاحقها جميعها بالدراسة والتحليل والاستقراء.

ذلك أن الأدب السعودي ـــ كغيره من الآداب العربية ـــ حوى في نثره مشارب فكرية وأسلوبية مختلفة، تقترب حينًا، وتتباعد أحيانًا أخرى، ويكثر منها نوع في فترة زمنية واجتماعية وسياسية معينة، ويقل آخر في فترة أخرى حسب ما تفرضه الأحداث، وتصير إليه الأحوال الاجتماعية، وما ينتج عن كل ذلك من أثر على نفسيات الكتّاب وأفكارهم.

وإن من أقسى الأمور أن يعمد أحد الدارسين إلى تطبيق أسلوب نقدي دراسي متوارث، يراد منه أن يقسّم أدب المقالة السعودية إلى شرائح وأنواع، ويفصل بعضها عن بعض، موضوعًا وأسلوبًا، كما يمكن أن تكون عليه المعالجة النقدية للمقالة في مصر، أو لبنان، أو العراق مثلًا.

ووجدت أن طريقة المعالجة النقدية الدراسية التي سبق أن اتبعت في درس بعض الآداب العربية ـــ وأعني منها المقالة ـــ لا تفيدني كثيرًا في الوصول إلى ما أريده من كشف ونتائج واستبانة. فلكل مجتمع طبيعته؛ على الرغم من التشابه العام في بعض الصفات، إلا أن الهموم الداخلية لكل مجتمع قد لا تكون متماثلة؛ إذ تفرض البيئة السياسية، والحالة الاجتماعية والنسق التقليدي المتوارث، والمؤثرات الأخرى سمات مميزة لهذا المجتمع العربي عن ذاك المجتمع العربي الآخر.

فما كان مني ـــ في بداية الأمر ـــ إلا أن أجمع كثيرًا من ذلك الشتات الهائل المتفرق من المقالة الأدبية، فأتعرف على مناحيها، واتجاهات كتابها، وأتتبع ذلك في كل الفترات التي مرت بها المقالة، وكان للكاتب المقالي تأثير قوي أو ضعيف في سبر المجتمع نحو التقدم وتجاوز عوامل الركود والتخلف، ثم أعمد إلى تصنيف ما وقعت عليه يدي من كل ذلك، فأجد منها ما يمكن ردّ بعضه إلى بعض فيكون تيارًا متشابهًا، من حيث الموضوع، والأسلوب، ومؤثرات الكتابة، وأجد مقالات أخرى كثيرة متفرقة، لا ترتبط بموضوع، ولا تتشابه في سمات فنية.

وبعد الاستقراء الطويل، والنظر المتأمل، وصلت إلى أن المقالة الأدبية السعودية في الأعم الأغلب يمكن حصر مناحيها في ألوان أربعة هي : المقالة الذاتية والاجتماعية، والنقدية والوصفية[١].

أما ما سوى ذلك فكثير متفرق أيضًا، ولكنه لا يستقيم إلى حد كبير مع الشروط التي تتطلبها المقالة الأدبية، ولا يتمثل كتّابها الخصائص الفنية تمثلًا كاملًا أثناء كتابتهم؛ ولذا لم تكن موضع اهتمام الدارس أو الناقد، لضعف مقومات الأدب في أكثرها.

وسأعمد إلى عرض أمثلة ونماذج لعدد من المقالات المختلفة عن الألوان الأربعة التي ذكرتها، لعل في ذلك وقوفًا على جوانب أخرى من المقال في الأدب السعودي، صال وجال فيها كتّابنا، وارتقوا بها وبغيرها إلى مراتب عليا في استشعار وظيفة الكاتب، وأداء ما عليه من حق تجاه مجتمعه وأمته، فكان لهم إسهام طيّب في المقالة السياسية، والدينية، والعلمية، والفلسفية، والخاطرة، والرسائل، وعرض الكتب وغيرها.

أولًا ـــ المقالة الدينية :

وهي تلك المقالة التي يهتم صاحبها بإبراز عاطفته الدينية نحو أمر يمسّ العقيدة، أو يتصل بقضايا المجتمع، فيكتب مقالة تبين عن رأيه فيما هو بصدده، متسمًا أسلوبه بالتدفق الشاعري نحو القيم الدينية، والذب عنها، والإخلاص لما تدفع إليه. فهو لا ينطلق في توجهه من عبث، أو تله، أو استدرار قدر ما يستند إلى ذلك المنبع العظيم النيّر المشرق، يستمد منه توجّهه، ويمتح من نميره أفكاره.

فلا ريب أن جاءت المقالة في مثل هذا اللون تحمل شيئًا كبيرًا من الصدق والإقناع، ونقل مشاعر القارىء المسلم، وإن لم تتصف بكثير مما يزيّن الأسلوب الأدبي من العذوبة والرقة، واختيار العبارة الموحية الجميلة، فليست هذه السمات لازمة في المقالة الدينية إلا عند الأدباء المطبوعين الذين يكتبون في مثل هذه

---

(١) سيرد الحديث عن هذه المقالات في الفصول التالية بعد هذا المدخل.

القضايا التي تتصل بالدين، أو ما تبعثه الأمور المتصلة بالمجتمع الإسلامي، من بعض مقالات العطار[(١)]، والفقي[(٢)]، وابن خميس[(٣)]، وأحمد محمد جمال[(٤)]، وعبدالقدوس الأنصاري[(٥)]، والسباعي[(٦)]، وغيرهم.

فهذا إبراهيم هاشم فلالي يكتب عن (الإيمان) فيقول :

«إن رسالات السماء نظمت شئون الحياة تنظيمًا روحيًا عقليًا نفسيًا واقعيًا في كل ما يحيط بالإنسان وما يصل إليه عقله وما تتطلع إليه نفسه وما يرمي إليه خياله وما تمتد إليه يده وما يدور بصدره وما تنزع إليه عواطفه وما يهجس به ضميره، وما تحنّ إليه روحه، ولم تدع شيئًا يضر بالإنسان إلا وأبانت عن مفسدته، ولم تترك شيئًا ينفع الإنسان إلا وأوضحت عن منفعته»[(٧)].

فهو يعمد إلى الأسلوب التقريري المباشر البعيد عن الخيال المجنح، الملتزم بالعبارات الواضحة القصيرة، مع صدق في المشاعر، وعمق إيمان بما يذهب إليه.

والملامح الأدبية تختلف في المقالة الدينية بإختلاف كاتبها، من حيث ميوله إلى الأسلوب الأدبي الرقيق، أو خلوه من صبغات الكتابة الفنية، وإخلاصه للفكرة دون سواها.

والكتابة المقالية الدينية غير الأدبية كثيرة جدًا، ولا تكاد تخلو منها صحيفة أو مجلة؛ ذلك لأن هذا البلد المصدرُ الأول للإسلام، وحافظ بطولاته وفتوحه، وباعث حملاته الخيّرة إلى العالم، وبه قبلة الإسلام، ومسجد رسول الله صلى

---

(١) مقالة : السلام بين المسيحية والإسلام، المقالات، ص ٢٦، شركة استاندرد للطباعة، ١٣٦٦هـ،

(٢) مقالة : رمضان، وحي الصحراء، ص ٤٥.

(٣) مقالة : كنتم خير أمة أخرجت للناس، فواتح الجزيرة، ص ٣٠٦، جـ٢، طـ١، ١٤٠٤هـ.

(٤) مقالة : الجامعة الاسلامية الموعودة، من كتاب (استعمار وكفاح) ص ١٩٢، مكتبة الثقافة، مكة طـ١، ١٣٧٤هـ، المقالة مؤرخة بتاريخ ٢٣ ديسمبر ١٩٥١م.

(٥) مقالة : من مفارقات الاشتراكية، المنهل، ١٣٨١هـ، ذو الحجة.

(٦) مقالة : حضارة الإسلام، أوراق مطوية، ص ٢٠١، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، طـ١، ١٤٠٢هـ.

(٧) مقالة : الإيمان، المنهل، ١٣٧١هـ، ربيع الأول.

الله عليه وسلم، فليس من الغريب أن نرى هذه العاطفة الدينية في كتابات كثيرة، يصعب حصرها أو تتبعها، لأن هذه العاطفة هي الغالبة على كثير مما يكتب.

ولكن الذي يعني الباحث في المقالة الدينية صلتها بالأدب وهذا قليل جدًا إلا في الأدباء المطبوعين الذين ذكرت بعضهم، ممن يحسنون صناعة المقالة الأدبية بطبعهم، ويخلصون لها، ويتعبون أنفسهم في سبيل تجويد الأسلوب وتنقيته مما يشوبه من عيوب الفن المعروفة، كالعاميّة، والضعف اللغوي، وسوء التركيب، واختلال موازين الكتابة؛ كالجهل بالعبارة المناسبة، وعدم التوفيق إلى اللفظة تجيء في محلها والسوقية في الصياغة، والابتذال في الفكرة ورداءة العرض.

ومن الأمثلة على حسن العاطفة وجمالها، مع رشاقة اللفظة وخفّتها وميلها إلى الطابع الديني من حيث الوعظ والنصح ما كتبه عبدالله خياط[١] ردًا على من كتب مقالة (ذكرى عام ١٣٥٠هـ السيئة)[٢]، في جريدة صوت الحجاز، حيث شتم الدهر، والدهر هو الله، يقول خياط :

«وما عام الألف والثلاثمائة والخمسين إلا جزء من الدهر، وحلقة من حلقاته، أجرى الله فيه ما شاء على خلقه من ضروب النعم والنقم والمصائب والأكدار ليبتلي المؤمنين وينظر الشاكر نعمه والكافر بها والصابر على أقداره والمتبرم بها، ولسوف يشهد علينا العام بما أودعناه من خير وشر، فهل يجوز للكاتب أن يقول مخاطبًا العام : إنّك لا تستحق مني سوى اللعنات»[٣].

---

(١) عبدالله عبدالغني خياط، ولد بمكة سنة ١٣٢٦هـ، تعلم في مدرسة الخياط والصولتية ثم ثانوية المدرسة الراقية والمسجد الحرام، والمعهد العلمي السعودي، وقد تخرج فيه عام ١٣٥٠هـ، تنقل في وظائف مختلفة كان آخرها خطيباً للمسجد الحرام، ومستشاراً لوزارة المعارف في المنطقة الغربية بدرجة أستاذ منذ عام ١٣٨٠هـ. له مؤلفات متعددة في الدعوة، ومسائل دينية.
انظر : معجم المطبوعات العربية، د. الطاهر. ص ٥١، ج٢.

(٢) مقالة : ذكرى عام ١٣٥٠هـ، السيئة) وقعها كاتبها بـ «أنا» مكة، صوت الحجاز، عدد ١٢، في ١٣٥١/٢/٢٢هـ، ص ٧.

(٣) مقالة : لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر، صوت الحجاز، عدد ١٧ في ١٣٥١/٣/٢٨هـ، ص ٦.

ثم نشرت الجريدة مقالة بعنوان (وداع عام)[1] فيها وصف مصطنع ليس فيه صدق للحظات وداع عام الخمسين، وكأن كاتب المقال يريد أن يصحح التوجه، يقول في النهاية: «وداع لك أيها العام المنصرم من أعماق القلوب المكلومة الحزينة والنفوس المضطربة الحائرة، وتحية لرفيقك الجديد الذي نأمل فيه الراحة، ــ ولو لمامًا ــ من أوصاب الحياة وعنائها ــ ونرجو أن تكون الأقدار قد خطت لنا فيه شيئًا من دواعي الارتياح .. ». وهو هنا هادىء رصين، متحفظ في ألفاظه، كأنه يريد أن يرضي أحدًا.

ولكن من رمز لنفسه بـ «أنا» لم يدع هذا المفهوم السيء يتسرب إلى النفوس فكتب يدفع عن نفسه التهمة، ويبعد المقالة عن المساس بالقيم الدينية، ويرى له سببًا دافعًا إلى القول، وحاثًا على الشكوى، في تصرم مسائل العيش، واحتدام دواعي الضيق بذلك العام، من فقر وفاقة وعوز، وهو في كل ما ذهب إليه من سخط على الدهر، وربما عتاب على الأقدار يريد أن يقدم الاعتذار «والحق أقول إنّي تبرمت كثيرًا وتطرفت بعض الشيء في شتم عامنا والتهكم عليه، ولكني لأني مسلم أوحّد الله وأؤمن برسوله لم أقصد (الله) في هيكل العام، وحاشا أن يكون مني ذلك»[2].

ويرد عليه الشيخ عبدالله خيّاط محييًا ندمه، ومنكرًا كونه أخرجه من الإسلام، وطالبًا منه النقاش الهادىء الموصل للحقيقة[3].

ويذهب إلى تأييد الشيخ خياط حمد بن محمد الجاسر، مؤكدًا المعنى الديني السامي في النهي عن سبّ الدهر، وموردًا أدلة واستشهادات دينية، وداعيًا إلى التفريق بين العقل والنقل، ثم موفقًا بينهما في الدين، وممتدحًا الجريدة التي «جعلت نفسها وقفًا لنصرة الحق، و لم تتقيد برأي أحد ــ فيما أرى ــ بل أطلقت حرية النشر لكل رائد للحق»[4].

---

(١) مقالة : وداع عام، محمد حسن عواد، صوت الحجاز، عدد ١٨، في ١٣٥١/٤/٥هـ. ص ٧. وسيرد حديث آخر عن مقالة (ذكرى عام ١٣٥٠هـ) في فصل المقالة الذاتية.

(٢) مقالة : بين المتناظرين، وُقِعَت بـ «أنا» صوت الحجاز، عدد ٣٠ في ١٣٥١/٧/١هـ، ص ٧.

(٣) مقالة : حول مقال بين المتناظرين، المصدر السابق، عدد ٣١، في ١٣٥١/٧/٨هـ.

(٤) مقالة : قل الحق ولو كان مرا، المصدر نفسه، عدد ٣٧، في ١٣٥١/٨/٢١هـ،ص ٧.

وقد اشترك في معالجة هذه القضية كتّاب كثيرون مدفوعين بعاطفتهم الدينية، وبغيرتهم على الفكر الديني أن تقترب منه الشكوك، وإن كان أكثر المكاتبين المدافعين محتدين في رأيهم مشهرين المواجهة والصدام، ومن الخير أن يلتزم أطراف الحوار بالاتزان والهدوء والتعقل ومحاولة الفهم لأي فكرة جديدة، والاجتهاد المبني على الأصول المتبعة الثابتة التي لا تقبل النقض.

وقد حفل المقال الديني بأمثال هذه المعالجات النقدية المثرية، وبكثير من الرؤى المعبرة عن صفاء في العقيدة، وسمو في الروح.

ويأتي بعض الكتّاب بعاطفته الدينية المتأججة على سبيل النجوى والدعاء، مع ما تحمل من ملامح النقد حينًا، والتبرم والضيق بالواقع الذاتي أو الاجتماعي حينًا آخر، فهذا سعد البواردي يناجي خالقه في شيء من شكوى ما حوله، وطلبه من الله أن يصلح ما اختل من أمور الأمة الإسلامية.

«يا رب آمنت بك رغم كل شيء .. ورغم الخطيئة التي تعيش في أعماق الإنسان .. رغم العصيان الذي يتأجج لهيبه بين جوانح البشرية .. رغم الكساد الذي لا ترضاه .. رغم الفساد الذي حذرتنا عنه.

رغم الإسراف حيث لا ترضى الإسراف .. رغم التقتير حيث خشيت على خلقك أن يكون شعارهم البخل والشحّ في سبيلك.

آمنت بك يا رب رغم الفوضى .. رغم هواي .. رغم شبعي الذي كاد ينسيني فضلك بعد أن شبعت .. رغم جوعي الذي كاد يمنعني من ذكرك وأنا بين أنياب الفاقة.

آمنت بك يا رب رغم المراء .. رغم الوحدة .. رغم الظلم والظالمين، رغم الهوى الذي صنعه الشيطان .. ونسج خيوطه ثم كاد الكثير من خلقك والكثير أن يتردى فيه.

آمنت بك يارب سلطانًا لا يقهر .. عادلًا لا يظلم .. عظيمًا لا يهون .. كبيرًا تتضاءل أمامه الحسيّات والماديات والروحانيات .. آمنت بك سلطانًا

أوجدنا للحق .. ربانا دفعنا لعبور قنطرة الخير .. وحكيمًا وهبنا العقل .. ثم دعانا إلى تحكيمه .. حتى في تعرفنا عليه .. في علاقتنا ووشائجنا به ..»[١].

وحري بهذا اللون من المقالة أن يفرد لها فصل مستقل، ليس من حيث صلتها بالأدب فقط، وإنما من حيث تفاصيلها وهمومها وأفكارها ومرامي كاتبيها[٢].

ثانيًا ــ المقالة السياسية :

تتميز المقالة السياسية بجدتها، وقصر عباراتها، وارتفاع صوتها، ومواكبتها للحياة، بما يصطرع فيها من تيارات مضطربة، يعمد الكاتب فيها إلى إبراز وجهة نظره إزاء الأحداث، والذب عن معتقده السياسي، أو الدفاع عن حزب أو فصيل، أو تيار.

ولأن المقالة السياسية يوجهها كاتبها إلى الجمهور بعامة يعمد إلى الأسلوب السهل الخالي من التعقيد البعيد عن التكلف، المعتمد على الأدلة والأمثلة المقربة للمعنى المقصود يزاوج فيها بين عاطفته المتأججة والعقل الهادىء، لكي يصل إلى قلب قارئه وعقله، «ومن ثم لزمه الوضوح والدقة والإمتاع»[٣].

وقد كانت المقالة السياسية ذات شأن كبير في تغيير مفهومات الرأي العام إبان تناحر المطامع السياسية، وتعدد مصادر القوى، في الثلاثينات الهجرية من القرن الرابع عشر وما بعدها، فكاتب يدعو إلى الانتصار للأتراك، ويذكرهم

---

(١) مقالة : «أمام المحراب»، من كتابه (أجراس المجتمع)، ص ٢٥.
وانظر في المصدر نفسه مقالتي : الذين يحرفون الكلم، ص٢٠، وفلسفة الصلاة، ص ٩٢.
الكتاب من نشر دار الإشعاع، ط١، ذو الحجة ١٣٨٣هـ، الرياض.

(٢) من المقالات الدينية الأدبية المتميزة :
ــ التبيشر والمبشرون، محمد سعيد العامودي، صوت الحجاز، عدد ٦٤، ١٣٥٢/٣/١١هـ.
ــ أهذه فكرة الحج الصحيحة، أحمد السباعي، سباعيات، جـ٢، ص ٤٣.
ــ النظرة الحريصة، أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، الفنون الصغرى، السر الخامس، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، ط١، ١٤٠٥هـ، ص ٢٦٨.
ــ صلوات قلب، أبو عبدالرحمن بن عقيل، هكذا علمني ورد زورث، ص ٣٤٠.

(٣) د. السيد تقي الدين، مجلة المنهل وأثرها في النهضة السعودية (١٣٥٥هـ ــ ١٣٨٣هـ)، ص ٣٦٥.

بالخير، وآخر لا يفتأ عن ذكر الأشراف، وتمجيد أفعالهم، وإطراء الحسين بن علي والثناء عليه، وثالث يرى أن الخير كله في هذا القادم من نجد، حيث تبدو مخايل الشجاعة والعقل والدين، وكل فئة لها صحافة تبين عن وجهة نظرها، كالحجاز للأتراك، وبريد الحجاز للمنضوين تحت لواء الحزب الوطني في جدة، والقبلة للهاشميين، وأم القرى للسعوديين(١).

على أن المقالة تميزت بالهدوء والاتزان بعد الاستقرار، وتوحيد البلاد، وابتعد كاتبوها عن الانفعال والمهاترة، والتزموا جانب الحياد في كثير من جوانب المقالة السياسية، ومال الكاتبون إلى الصياغات الصحفية المعتادة، البعيدة عن التطرية والتوشية والامتاع الفني، وأخذوا المقالة على أنها فن صحفي بحت، فأثرت على كتابتهم طرائق صياغة الخبر، ونقل الأحداث، وسرد المعلومة، حتى غدا المقال السياسي شبيهًا بالتعليق، أو صار تعليقًا سياسيًّا في أحيان كثيرة، يحمل إلى الناس ما تراه الجهة الرسمية، وما تعتنقه من أفكار، أو تسعى إليه من ضروب الرأي في الأحداث «ولا يعني هذا قصر المقالة السياسية على الهجوم والتأييد الخارجي حسب مايتفق مع سياسة الدولة، فقد أسهم كتّاب هذه المرحلة ببعض المقالات الوطنية والقومية، وذلك في المقالات المكتوبة في الخمسينات، والستينات، أمّا الوطنية فبدافع سياسة الدولة الداخلية التي تقوم على توحيد أقاليم شبه الجزيرة العربية التي كانت قبل الحكم السعودي أشبه ما تكون بالزجاجة المفرقعة، وأما القومية فبدافع ثقافتهم التي أخذها بعضهم بطريق مباشر، وأخذها بعضهم الآخر عن آبائهم، فيتجه لما كانت تقوم عليه سياسة الشريف حسين بن علي من الدعوة إلى القومية وتعليمها وشرح أهدافها في سائر وسائل الثقافة لسكان الحجاز وغيرهم، إلى جانب الروابط الدينية واللغوية بين العرب وإيمان الملك عبدالعزيز بها كأسلوب علاقة لا فلسفة حكم .. »(٢).

فقبل توحيد البلاد كان الناس لا يعون كثيرًا ما سينتهي إليه الصراع في الحجاز

---

(١) سبق أن ورد التفصيل في ذلك حين جاء الكلام على المقالة في العهدين التركي والهاشمي، انظر الفصل الأول.

(٢) د. إبراهيم الفوزان، الأدب الحجازي بين التقليد والتجديد، جـ٢، ص٦٤٤.

مثلًا ــ فكان الكتّاب يسعون إلى مناشدة طرفي النزاع اللجوء إلى السلم، والابتعاد عن إراقة الدماء[١]، والخوف على النساء والأطفال والعزّل من ويلات الحرب[٢]، ومن الواضح أن المقالة السياسية في الفترة السابقة لتوحيد البلاد قد تخلصت من شوائب النثر التقليدي، واعتمدت اللفظة الرشيقة الخفيفة، فهي تنتمي إلى المدارس المحدثة أكثر من تأثرها بالأسلوب القديم، وظهرت فيها السمات الملازمة عادة للمقالة السياسية من السلاسة والقرب من فكر القارىء.

وقد حملت أم القرى منذ إنشائها في الأربعينات الهجرية من القرن الرابع عشر لواء المقالة السياسية، وجاءت افتتاحياتها واضعة منهجًا جديدًا سهلًا لهذا اللون من الكتابة، وإن كانت تقسو حينًا على الخصوم، تقول في افتتاحية بعنوان «ماذا يبتغون» (لم نعتب على هؤلاء الشراذم اللقطاء في قدومهم وفيهم أخلاط أنواع الأمم ممن ضاقت عليهم حلقة الرزق فطفقوا يبتغونها من مال الحسين وأولاده لا ليدافعوا بثمنها عن تاج مصطنع بل ليدفعوا بها عن أنفسهم غائلة الجوع، ويحيوا عيالهم من الفاقة ..)[٣].

ولكن مسألة الوحدة غير مفهومة بمعناها الواسع عند الحجازيين في سنوات لمّ الشمل، حتى بعد إعلان توحيد البلاد، فكثيرًا ما وردت على ألسنتهم ألفاظ يريدون بها تحديد الاقليم فقط، مثل (الأمة الحجازية)، يقول أحد الكتاب

---

(١) مقالة «نداء» بقلم «عربي صميم»، بريد الحجاز، السنة الأولى، عدد١، ١٣٤٣/٤/٢٩هـ، ٢٦ نوفمبر ١٩٢٤م.

(٢) مقالة «إتقوا الله».. بقلم «آسف»، بريد الحجاز، السنة الأولى، عدد ٢، ١٣٤٣/٥/٣هـ، ٣٠ نوفمبر ١٩٢٤م، ص ٣.

ومثل مقالة : «عصبة الشعوب الشرقية المهضومة ومصير الأراضي المقدسة» ولم يذكر اسم الكاتب، انظر بريد الحجاز عدد ١٦، ٢٣ جمادى الثانية ١٣٤٣هـ، ١٨ يناير ١٩٢٥م.

ومقالة «غارة استطلاع جنودنا الأشاوس على الأعداء» بريد الحجاز، السنة الأولى، عدد ٣٢، الأربعاء ٢٣ شعبان ١٣٤٣هـ.

ومقالة «وإن غداً لناظره قريب» الصحيفة نفسها، العدد ٥٤، في ١٧ ذي الحجة، ١٣٤٣هـ، ٨ يوليو سنة ١٩٢٥م.

(٣) مقالة : ماذا يبتغون، عدد٣، السنة الأولى، الجمعة ٢٩ جمادى الأولى ١٣٤٣هـ، ٢٦ ديسمبر ١٩٢٤م، ولم يوضح اسم الكاتب. ص١.

« .. وفي مصلحة أمتنا الحجازية العربية التي اختارها لسكناها، كما اختارها لجوار بيته العظيم، وخدمة وفوده الأكرمين. ثم يقول : «.. يدفعنا الواجب الوطني المقدس إلى أن نرفع صوتنا بهذه الصحيفة جهوريًا، كي نحدث العالم عن حياتنا نحن الأمة الحجازية، وعن حياة بلادنا، ولنعرض على بساط البحث آلامنا وآمالنا»[١].

فمهوم الأمة أشمل من أن يضمه الحجاز بحدوده الضيقة، أو ما يتصل بالاقليم من هجر وقرى، فالمعني بالأمة هي تلك الشعوب التي تتفق في توجهها العقدي ممن يسكن أقاليم متقاربة أو متباعدة، يربطها دين واحد، أو لغة قد تكون واحدة أو متعددة، فنحن نعني بالأمة الإسلامية جميع الشعوب العربية وغيرها ممن لا يتحدثون العربية، ولكنهم يدينون بالإسلام، ونعني بالأمة العربية كل من اتخذ العربية لغة، والعرب قومًا.

وقد أسهم كتّاب المقالة السياسية في كثير مما يهم الأمة العربية والإسلامية كقضية فلسطين[٢]، والاستعمار في الخليج العربي[٣]، وعلاقة الشرق بالغرب[٤]، وتوجه الحجاز السياسي[٥]، وخلاف العرب فيما بينهم[٦]،

---

(١) مقالة : افتتاح الصحيفة، صوت الحجاز، عدد١، الاثنين ٢٧ ذو القعدة ١٣٥٠هـ، ويُعتقد أن الكاتب عبدالوهاب آشي، لتشابه هذه المقالة مع أسلوبه السهل المتدفق، وقد كان يتناوب على كتابة الافتتاحية، محمد حسن فقي، والآشي، والعواد في السنوات الأولى لنشأة الصحيفة.
وانظر مقالة «الانسانية المعذبة تستصرخ الأمة الحجازية» بقلم هاشم يوسف الزواوي، صوت الحجاز، عدد ١٣٩، في ١٣٥٣/٩/١٨هـ.

(٢) مقالة : «السياسة الجديدة في الشرق الأوسط» بقلم عبدالكريم الجهيمان، أخبار الظهران عدد ١٣٧٥/٦/٢٨هـ.
ومقالة : «العرب.. وقضية فلسطين، عبدالله بن محمد بن خميس، من جهاد قلم جـ٢، ص ٢٩، مطابع الفرزدق، طـ١، ١٤٠٤هـ.
ومقالة «قضية فلسطين» للكاتب نفسه، اليمامة، عدد١١، السنة الأولى، شوال ١٣٧٣هـ، يونيو ١٩٥٤م، ص ٣٦ (مجلة شهرية).

(٣) مقالة بهذا العنوان : بقلم عبدالكريم الجهيمان، أخبار الظهران، عدد ٢٦، في ١٣٧٥/٦/١٣هـ.

(٤) مقالة : «الشرق والغرب هل اقترب تلاقيهما في مجال النهوض أم لا يزال البون شاسعاً»، بقلم محمد حسن فقي، المنهل، عدد ١و٢ عام ١٣٦٩هـ.

(٥) مقالة «الحجاز إلام يدعو؟» بقلم أمين بن عقيل، وحي الصحراء، ص ١٤٨.

(٦) مقالة «الأزمات.. وواقع العرب»، عبدالله بن خميس، مجلة الجزيرة الشهرية، عدد ٤ صفر

ويتحدث بعضهم عن الشخصيات السياسية المؤثرة في حينه[1]، وقضية الجزائر[2]، وكشمير[3]، وليبيا[4]، وحادثة دير ياسين[5] ، وغيرها.

وبرزت عند الكاتبين السياسيين الملامح الإسلامية في دعواتهم إلى إقامة حكم إسلامي على قواعد الشريعة، ومهاجمة الداعين إلى تقليد الغرب ؟ : «إن الفكرة الإسلامية خير قاعدة يقوم عليها كياننا السياسي، والنسب الديني فيما بين الدول الإسلامية أقوى عماد يسند هذا الكيان ويصونه من الانصداع.. فلنقم إذًا بيننا جامعة إسلامية، ميثاقها ووسائلها وغايتها إسلامية بحتة، ومن يبتغ غير الإسلام دينًا ودولة فلن تقوم له قائمة، ولن يرهبهم عدو، ولن يسعدوا بالعزة والكرامة والرخاء والإخاء، ولن تكف عنهم هجمات اليهود ومكائد النصارى. .»[6].

وخير ما يمثّل إسهام المقالة السياسية في قضايا العرب ما كتبه عبدالله بن خميس في قضية فلسطين، حيث يقول : «سلام عليكم زعماء العرب تلتقون في بغداد،

١٣٨١هـ، يوليه ١٩٦١م، ويتحدث فيه الكاتب عن الأزمة السياسية بين العراق والكويت.

ومقالة «ماذا ينقم منا هؤلاء» للكاتب نفسه، المرجع السابق، عدد ١٠، السنة الثانية، ١٣٨١/٨/٢هـ يناير ١٩٦١م، نقد لسياسة عبدالناصر تجاه المملكة.

ومقالة : «عبدالناصر وسياسة ذر الرماد»، المرجع السابق، عدد٢، السنة الثالثة، في ذي الحجة ١٣٨١هـ.

(١) كتب العواد عن : أودلف هتلر، ص٣٥٦، تأملات في الأدب والحياة وبتينو موسوليني، ص ٣٠٤، المرجع السابق. المجموعة الكاملة، مجلد١.

(٢) مقالة : «الإسلام الذي يُمتحن اليوم في الجزائر»، حسن الشيخ، ص ٧١، من كتابه (دورنا في الكفاح، ط١، ١٣٨٣هـ، مطابع نجد التجارية.

ومقالة : ماذا بعد النصر يا جزائر، ص ٧٧، المرجع السابق

ومقالة : سر انتصار الجزائر، فواتح الجزيرة، ص ٨٠ ابن خميس.

(٣) مقالة : «قضية كشمير»، أحمد محمد جمال، عام ١٩٥١م في ١٧ مارس، انظر : (استعمار وكفاح) ص ١٠٢، مكتبة الثقافة، مكة.

(٤) مقالة : «ليبيا بين الاستعمار والاستقلال» الكاتب نفسه، المرجع السابق، ص ٣١.

(٥) مقالة : حادثة دير ياسين يجب ألا تتكرر، عبدالعزيز الرفاعي، البلاد السعودية، عدد ٧١٢، ص١، في ١٣٦٧/٦٤/١٦هـ.

(٦) مقالة : كياننا السياسي كيف نقيمه؟ أحمد محمد جمال، اليمامة، عدد ٤، السنة الأولى، ربيع أول ١٣٧٣هـ، نوفمبر ١٩٥٣م، ص ١٨، وارجع إليه في كتاب (إستعمار وكفاح)، ص٩، مكتبة الثقافة، مكة، ط١، ١٣٧٤هـ.

وتحملون آمال أمة، ومستقبل أجيال، وأمانة وطن، وعهد وتاريخ.. تلتقون حيث لابد من اللقاء، وتفرض عليكم الأحداث وضعًا لا خيار فيه، وتقفون على مفترق طرق ونهاية مطاف فقد زجت الأحداث بقضيتكم الأولى عبر ما يزيد على خمسين عامًا، ودخلتم عدة حروب لم تحظ واحدة بحشد جميع طاقاتكم، ولا بموقف منكم حاسم حازم .. فنلتم ونيل منكم .. ولكن القضية ظلت قائمة، وبقيت الذحول نائمة، والثارات تشكل مرضًا في القلوب، وغيظًا في الصدور.

عقدتم عدة قمم، جاءت بمسكنات، وترضيات، ولامست جوانب القضية، وتركت صميمها يختزن الداء، وجذورها تخفي الفتنة، وأقحمتم القضية في خلافاتكم المبدئية.. فجعلتموها قميص عثمان، ووصل ليلى، فلا انتصرتم لعثمان، ولا وصلتم ليلى .. بل زادكم هذا السلوك بعدًا عن القضية، وزاد عدوكم طمعًا في المزيد، وعدوكم الأبعد الذي يحرك دمى الشطرنج آمن جدكم، وفي راحة من همكم .. فنام قرير العين، وأعطى لعدوكم الأقرب باليد الملأى، ورباه فأحسن تربيته.

هذا السلوك تدرج بقضيتكم، حتى وصل بها إلى مستوى جعلكم تفزعون إلى مؤتمركم هذا، وتقفون أمام الأمر الواقع .. ونتائجه هي التي سوف تحدد مصير القضية، وتضع الزعامات العربية في مكانها الحقيقي من : الوطنية، والتاريخ، واللياقة .. وأمام ذلك، فإننا نقف أمام مؤتمركم هذا : مشفقين، ومذكرين، ومتمنين.

مشفقين علي كيان عربي، هلهلته الخلافات، وفرقته الانقسامات، ولعبت به الأهواء والاتجاهات، وحملت من جراء ذلك الصدور غيظها، والقلوب مرضها، فعسى ألّا يكون في ذلك متنفس للتشجنات عن كثب، ومسرح للعنتريات تضج بها قاعة هذا المؤتمر، ثم تكون سببًا في إفساد خطته والتقليل من شأنه.

ومشفقين من مقررات تتصدرها عبارات الاستنكار، والشجب، والرفض، وما إلى ذلك مما عهدناه وعهده من توجه إليه هذه العبارات، ثم لا يكون منه إلا مط شفتيه، والضحك بملء شدقيه، ثم لا يغير ذلك من الواقع شيئًا .. ومذكرين بثأر

الأيامى، واليتامى، والشيوخ، والعجائز يبادون بالجملة، وتشق بطون الحوامل، وتزهق أرواح الأطفال، وتنسف البيوت على من فيها، ومذكرين بمخيمات اللاجئين مبعثرة في شتى البلدان، يلفها البؤس، ويخيم عليها الشقاء، ويسودها الجوع والعري والمتربة، وتتعرض كل حين للقصف بالنابالم والقنابل المحرقة والإبادة بالجملة ..»[1]

فالكاتب ينشد من قادة العرب الاتفاق، ويدعوهم إلى التبصر في أحوال أمتهم، ومصير شعوبهم، في مخاطبة ليس فيها دهاء السياسة، أو نفاق الإعلام، أو ضعف الاستجداء، وفي أسلوب أدبي مجود، بعيد عن تلك المقالات السياسية التي تنشرها الصحافة كل يوم في تعليقاتها، وكتاباتها حول الأحداث العامة.

ولعل الكاتب أراد من مكاشفته أن يذكّر الزعماء العرب ببؤس التشرد، ومرارة الشتات، وعذاب الفاقة، في هروب أبناء الأوطان إلى ديار أخرى لا يجدون فيها المأوى، ولا أسلوب العيش، ولا أمان الإيواء في كل حال.

يذكّرهم بأن الاجتماع نصر، والاختلاف هزيمة، وأن إدعاء الزعامة، والبحث عن السيادة ليس في الخطب الرنانة، والوعود الوهمية، وإنما في الصدق مع الشعوب، وإنجاز الوعود، وتيسير آمال الناس من أبناء الوطن في الأمن والمنعة والعزة.

وهذا الخطاب السياسي الأدبي الملتزم يقل كثيرًا في صحافتنا بعامة، فكاتبوه على هذا النحو من الصدق قليلون، والمبيحون له بهذه الهيئة من المصارحة أقل، فقد تعودنا أن نلقى من الصحيفة تردادًا لنغمة سياسية يومية نسمعها في كل حين، بين الإشادة والرجاء والإطراء وانتظار مواعيد النصر والتذكير بالأمجاد، أو الشتائم، عند الاختلاف مع الفرقاء والخصوم من أبناء الأعمام أو العشيرة.

وهنا يتداعى المقال السياسي الأدبي، في أتون هذا الخوض العشوائي من الصحافة السيّارة، وسيطرة الموظفين من السياسيين، أو المسيّسين والإعلاميين

---

(١) مقالة : «مع التحية يا قمة بغداد»، فواتح الجزيرة، ص ١٠٤.

على مثل هذه المنافذ، دون وعي أدبي أو لغوي، ودون إحساس كامل بمسئولية الكلمة الملتزمة، وشعور بأمانة الموقف تجاه الأحداث العاصفة في ديار العرب والمسلمين.

فلا يبقى إذًا من المقالة الأدبية السياسية إلا هذا النزر اليسير منها يكتبه الأدباء الواعون القادرون الملتزمون بالتعبير عن آمال وآلام أمتهم وتطلعها إلى بناء مجدها وحضارتها.

ثالثـًا ــ المقالـة العلميـة :

تكاد تكون هي المقالة الموضوعية، من حيث التزامها بالتقسيم المتبع في الكتابة المقالية عن أي موضوع علمي لتكون قضاياه متواصلة بحيث تكون كل قضية نتيجة لما قبلها مقدمة لما بعدها حتى تنتهي جميعًا إلى الغاية المقصودة، وهذه الخطة تقوم على المقدمة والعرض والختام.

فالمقدمة : تتألف من معارف مسلم بها لدى القراء، قصيرة متصلة بالموضوع معينة على فهمه بما تعد النفس له وما تثير فيها من معارف تتصل به.

والعرض : أو صلب الموضوع هو القضية الرئيسة أو الطريقة التي يؤديها الكاتب سواء انتهت إلى نتيجة واحدة أم عدة نتائج هي في الواقع متصلة ومتسقة معًا لفكرة رئيسة واحدة، ويكون العرض منطقيًّا مقدمًا الأهم على المهم، ومؤيدًا بالبراهين أو القصص أو الوصف أو الاقتباس متجهًا إلى الخاتمة لأنها المنارة التي يقصدها.

والخاتمـة : هي ثمرة المقالة، وعندها يكون السكون، فلابد أن تكون النتيجة طبيعية للمقدمة والعرض، واضحة صريحة ملخصة للعناصر الرئيسية المراد إثباتها، حازمة تدل على إقناع ويقين لا تحتاج إلى شيء آخر لم يرد في المقالة»[1].

وليس من طبيعة المقالة العلمية أن تتحلى بالزخرف والتنميق، أو أن يجتهد كاتبها في التطرية وتزيين أسلوبه بجميل العبارة ورشيق اللفظ، وإنما شأن العلم أن يكون محدد المآخذ واضح المناهج، مبنيًّا على اليقين، أو هو في سبيله إلى بنائه، معتمدًا على التحليل والتدليل، منصرفًا عن ذاته وما تثيره من نوازع أو أشواق، وقريبًا من عقله وما يبعثه بعد طول النظر والتفكير من استنتاج وحقائق.

ولذا كانت المقالة العلمية أبعد المقالات عن روح الأدب، وأبعدها عن آفاق

---

(١) د. محمد يوسف نجم، فن المقالة، ص ١٣١.
وانظر : الأسلوب، أحمد الشايب ص ٧٤.، الأدب الحديث، تاريخ ودراسات، د. محمد بن سعد بن حسين، ص١٨٦.

الفن، ونزعات الخيال، وجمال التصاوير، وإن عالجت بعض مسائل الأدب وقضاياه، لأنها تنظر إلى المسألة الأدبية من وجهة نظر علمية، تاركة جانب الفن وشجونه.

ولكن ذلك لا يمنع أن نقرأ مقالات علمية قليلة فيها سمات المقالة الأدبية وشيء من ذوات كاتبيها، لأن صانعيها لم يستطيعوا التحلل من نزعاتهم الأدبية، ولا تسلط الفن على أذهانهم، فنجد مقالة علمية أدبية لكتّاب عرب كثيرين[1]، وفي أدبنا السعودي نجد مقالة علمية أدبية لعبد القدوس الأنصاري، ولحمد الجاسر، ولمحمد حسن كتبي، ولمحمد سعيد عبدالمقصود، وللعطار، وللسرحان، وغيرهم.

فقد كتبوا في مسائل شتى، وأسهموا في التذكير بألوان من المعارف في تراثنا الأدبي والفكري، عن منازل العرب في الجاهلية وصدر الإسلام[2]، وتتبع مصادر العامية، وردّ أكثرها إلى الفصحى[3] والبحث في أنساب القبائل، وحصر ما كان متفرقًا غير معروف من أفخاذ العرب وسلالاتهم[4]، ودرس الشعر العربي، والوقوف على جيده[5]، وما كان من جهد للمؤرخين العرب في حفظ الأحداث من الضياع[6]، ودراسة أثر الشعراء العرب الفحول في موروث الشعر، كأبي تمام

---

(١) منهم : شبلي شميل، وسلامة موسى، ود. أحمد زكي.

(٢) مقالة بهذا العنوان لحمد الجاسر، مجلة الجزيرة، عدد(١)، ص ٢١، ذو القعدة، ١٣٧٩هـ، أبريل ١٩٦٠، في حلقات. وتتصف مقالاته هذه بالتحديد والدقة، والبعد عن الطراوة الأدبية، وبقوة اللفظ، وذكر المصادر، والمواقع، وما قيل فيها من الشعر.

(٣) مقالة : «عاميتنا تنتمي إلى الفصحى، أحمد عبدالغفور عطار، مجلة الجزيرة، العدد٢، ذو الحجة ١٣٧٩هـ، مايو ١٩٦٠م، السنة الأولى. ص١٩.

ومقالة : «لهجاتنا العامية وصلتها بالفصحى، محمد ناصر العبودي، المرجع السابق.

(٤) مقالة : «قبائل عسير من عرب الجزيرة الأقحاح، محمد عبدالله الحميد، المرجع السابق، العدد٢، السنة الأولى، ص٢٦.

(٥) مقالة : «من روائع الشعر العربي، محمد علي السنوسي، مجلة الجزيرة، عدد ٣، محرم ١٣٨٠هـ، ص١٥.

(٦) مقالة : «التاريخ والمؤرخون، حسين بن سرحان، صوت الحجاز، عدد ١٦٨، في ٦ جمادى الأولى ١٣٥٤هـ، ص٤، وهو عرض تأريخي علمي.

والبحتري والمتنبي[١]، وصلة الذوق باللغة العربية، وأيهما يؤثر في الآخر[٢]، ثم درس الأدب العربي في فصوله التاريخية[٣]، ومدارس التجديد في الأدب الحديث وأثرها على الأدب في الجزيرة[٤]، والردود النقدية العلمية حول الكتب الصادرة حديثًا[٥]، وما تثيره من إمتاع وفائدة وإشباع لفكر القارىء.

ومن الأساليب الأدبية العلمية في هذا اللون من المقال ما كتبه محمد حسن كتبي حول المتنبي وأثره في الأدب، ذلك الأثر الذي أحدثه المتنبي في ديوان الشعر العربي، «كان المتنبي عظيم الأثر في الأدب العربي على الوجه الذي قدمنا من الابتكار والتحسين والاختراع، وليس هذا كل ما يشرف المتنبي، وإن الذي يشرف به حقًا هو سموه في الكثير من شعره إلى ذرى الفلسفة وإرسالها في صدى موسيقي ملحن يدعو للغبطة ويسمو بالنفس إلى آفاق المعرفة في الحياة العامة»[٦].

---

(١) مقالة : «أبو تمام والبحتري والمتنبي، محمد حسن كتبي، صوت الحجاز، عدد ١٧٥، في ٢٦ جمادى الثانية ١٣٥٤هـ، وتتواصل في أربعة أعداد لاحقة، وهي مقالة علمية، تدور حول ما كتب عنهم، وليس فيها شيء من ذات الأديب.

(٢) مقالة : «اللغة العربية والذوق : هل هي تكيفه أم هو يكيفها؟ عبدالقدوس الأنصاري، صوت الحجاز، عدد ١٧٥، في ٢٦ جمادى الثانية ١٣٥٤هـ، ص٤.

(٣) مقالة : «الأدب العربي في القرن الرابع الهجري»، محمد سعيد عبدالمقصود، أم القرى، الأعداد ٥٩٦،٥٩٨،٦٠٧،٦١١،٦١٥،٦١٧،٦١٨،٦٢٠، من عام ١٣٥٥هـ، وأبحاثه عن الأدب الحجازي.

(٤) مقالة : في الأدب القديم والحديث، محمد حسن كتبي، أم القرى، الأعداد ٦٠٩،٦١١،٦١٢،٦١٤،٦١٥،٦١٧.

وانظر مقالة : الاتجاهات الجديدة في الأدب الحجازي، عبدالقدوس الأنصاري ومن موضوعاته (اتجاه الأسلوب الكتابي، اتجاه النقد، اتجاه الأفكار إلى التأليف والنشر)، صوت الحجاز عدد ١٧٠ في ٢٠ جمادى الأولى ١٣٥٤هـ. ص ٤.

(٥) مقالة : تعقيبات حول مقال (نقد كتاب آثار المدينة المنورة). بقلم : معقب، صوت الحجاز ١٦١ في ١٦ ربيع الأول سنة ١٣٥٤هـ.

ومقال : حاجتنا إلى النقد النزيه، بمناسبة صدور كتاب آثار المدينة المنورة بقلم ناقد. صوت الحجاز، عدد ١٥٤، في ٢٦ محرم ١٣٥٤هـ. ص٤.

(٦) مقالة : أثر المتنبي في الأدب العربي، صوت الحجاز، عدد ١٧١، في ٢٧ جمادى الأولى ١٣٥٤هـ.

ومقالة العواد عن جبال السراة وأوديتها وطبيعتها، وهما مقالتان متواليتان عن السراة من حيث الطبيعة والجغرافيا والخصائص اللغوية، يستعرض فيهما آراء الباحثين، ويحيل إلى كتبهم ويبدي رأيه في طبيعة البلاد، يقول :

«جاء في كتاب «تاريخ العرب قبل الإسلام» تأليف الدكتور «علي جواد» العضو في المجمع العلمي العراقي، في صفحة ٨٧ من الجزء الأول. «أن هنالك — أي في شبه جزيرة العرب — سلاسل من المرتفعات متصل بعضها ببعض، تمتد من سورية وفلسطين إلى اليمن، ويقال لهذه المرتفعات جبال السراة» وهي توازي ساحل البحر الأحمر، وتقترب منه في مواضع عديدة.

ويبلغ متوسط ارتفاعها زهاء خمسة آلاف قدم، أما أقصى ارتفاع لها فيبلغ زهاء ١٢٣٣٦ قدَما، وهو في اليمن».

وجاء في صفحة ١٠٣ من الكتّاب نفسه :

«تكّون سلسلة جبال السراة العمود الفقري لشبه جزيرة العرب، وتتصل فقراته بسلسلة جبال الشام المهيمنة على البادية، المتحكمة فيها تحكم الجنود في القلاع، وبعض قمم هذه السلسلة مرتفع، وقد تتساقط الثلوج عليها كجبل «دباغ» الذي يرتفع ٣٢٠٠ متر عن مستوى سطح البحر، وجبل «وثر»، وجبل «شيبان».

وتنخفض هذه السلسلة عند دنوها من مكة، وتكون القمم في أوطأ ارتفاع، ثم تعود بعد ذلك إلى العلو حيث تصل إلى مستوى عال في اليمن، حيث تساقط الثلوج على قمم بعض الجبال .

وجاء في كتاب «أسماء جبال تهامة وسكانها الخ» تأليف عرام بن الأصبغ السلمي، وهو الكتاب الذي عني بنشره الوجيهان النبيلان : السيد «يوسف زينل علي رضا» رحمه الله، والسيد «محمد حسين نصيف» حفظه الله، في الصفحات ٣٩، ٤٠، ٤١، عندما ذكر «وادي تربة» أن : «حواليه من الجبال : السراة» و«بيوم» و «قرقد» و «معدن البرام» وجبلان يقال لهما «شوانان» وأحدهما «شوان».

وهذه الجبال كلها لغامد، ولخثعم، ولسلول، لسواعة بن عامر، ولخولان،

ولعنزة، وكل هذه الجبال تنبت القرظ، وهي جبال متقاورة بينها فتوق»[١]. فالكاتب هنا بذل جهدًا في سبيل جمع المعلومات وترتيبها، والتعريف بموضوعه، دون أن تتضح شخصيته، أو أن تبرز ذاته في ثنايا المقال ولذا كانت جافة لا رواء فيها ولا إمتاع، إلا ذلك القدر المتيسر من الفائدة العلمية الذي تمنحه المقالة لقارئها، لأن من أهم سماتها الدقة والموضوعية.

وليس من صلة بين المقالة العلمية والأدب إلا بمقدار ما يطبع الكاتب الأديب ما ينثره من إمتاعه الذوقي، كما ضربت لهذا مثلًا ببعض الأدباء العرب، وعدد من أدبائنا. لكنني لا أعد المقالة العلمية التي تنحو إلى البحث العلمي بأدواته المعروفة من الأدب ولا من أي لون من ألوانه.

لأن من كتب يريد أن ينقد أو يصلح شأنًا من شئون الأدب، أو يقعد لرأي في الفكر أو الفلسفة إنما يسعى إلى أن يتوصل إلى مسألته بأسلوب علمي بحت، معتمدًا على التقديم ثم العرض ثم النتيجة، فهو أقرب ما يكون إلى الباحث، ولو استطرد في دأبه العلمي لأوفى ما يريد في كتاب قيّم جامع «.. أما إن كان الفصل المكتوب بحثًا منسقًا فسمّه ما شئت، فقد يكون علمًا، وقد يكون فصلًا في النقد الأدبي، وقد يكون تأريخًا أو وصفًا جغرافيًا كتبه قلم قدير، ولكنه ليس مقالة أدبية، كما أنه ليس بقصيدة ولا قصة»[٢].

ولكن الجانب المثير لحاسة الناقد أو الدارس ما كان قريباً من هذا اللون إلى الأدب، بما يصبغه الأديب الموهوب على نثره، وما يضفيه من أحاسيس ذاتية «لأن العالِم يجب أن يكون فيه شيء من طبع الأديب ليلج إلى القلوب دون استئذان»[٣].

---

(١) المقال الأول : في عالم الطبيعة، خواطر مصرحة جـ٢، مجلد١، ص ١٨١.
المقال الثاني : في عالم الفكر. المرجع السابق، ص ١٨٦.

(٢) د. زكي نجيب محمود، جنة العبيط، ص١٥.

(٣) مقالة : هجيري الذات أيضاً، أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري، من كتاب : هكذا علمني وردز ورث ص ٢٥٧، ط١، ١٤٠٤هـ، تهامة.

رابعًا ـــ المقالــة الفلسفيــة :

وهي مقالة رحبة متشعبة، متعددة النزعات، تختلط فيها دقائق الفهم والتأمل بسبحات الخيال والتصوير والمثال، تبحث في النفس وتكوينها، والخلق والوجود، وإثبات حقيقة، أو نفي نتيجة، ويأتي ذلك في سياق علمي موضوعي.

والذي يتصل بموضوعنا هو ما تضيفه هذه المقالة إلى فن كتابة المقالة الأدبية من تحليل دقيق للنفس والكون والمشاعر، وما يبدي الكاتب الأديب الموهوب من صور وأمثلة، وما يسوقه من عبارات وما يرصفه من جمل متناسقة.

أما الغرض العلمي المجرد الذي تقوم عليه المقالة الفلسفية فلا شأن لنا به، وأما طريقة الكتابة العلمية الجافة في سياق الإثبات الفلسفي، أو النفي العقلاني فلا توقفنا على شيء جديد في هذا الباب، كما سلف.

ولذلك يتوافر في أدبنا المقالة الفلسفية ما يثير نهم الناقد إلى التحليل والاستشهاد والإشارة إلى الجميل في المرمى والعبارة والغاية، ولكنه قليل إذا ماقورن بالمقالة الأدبية الذاتية المنطلقة من قساوة الحدود العلمية والموضوعية أيًّا كانت.

ومن أدبائنا الذين كان لهم إسهام في المقالة الفلسفية المتصلة بالمقالة الأدبية، حمزة شحاتة، وأبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، وحسين سرحان، ومحمد عمر توفيق وغيرهم.

وقد كتب هؤلاء وغيرهم في مسائل شتى من المنازع الفلسفية، التي تهم الإنسان أيًّا كان، وتخص أحيانًا الإنسان في الجزيرة العربية، بما يكتنفه من تاريخ عقائدي، وتراكم حضاري، وفترات غير قصيرة من الإهمال، وفقدان الهوية الثقافية.

فقد كتب حسين سرحان عن فلسفة الجوع، وما يبعثه في النفس من قلق، وَمَنْ هم الجائعون، وإلى أي المشارب ينتمون[1] ؟، وكتب غيره عن فلسفة الوجودية، ورؤيتها إلى الحرية[2]، وعن اللذة ومفهومها، وتأثيرها على السلوك،

---

(١) مقالة : أهل الجوع، المنهل جـ١، ص٧ صفر ١٣٦٦هـ، ص ٦٧ـــ٦٩.

(٢) مقالة : أزمة الحرية في نظر الوجوديين، خليل الفريع، أحاديث في الأدب، ص ١٦٧.

وتكوين الرأي[١].

وكتب الفلالي عن الخلاف وكونه ضرورة، فجاء بالدليل تلو الدليل ليثبت أن الخلاف رحمة لا نقمة، وأنه مدعاة إلى الاطمئنان والتفاؤل بالوصول إلى الإنجاز والعطاء الإبداعي، وهو يتساءل في البداية فيقول : «لِمَ يختلف الناس ؟ وما الدافع لهم على الخلاف ؟ وهل الخلاف بين الناس يؤدي إلى النفع أو إلى الضرر ؟.

إن الخلاف أسلوب الله في صنع هذه الكائنات. السماء تختلف عن الأرض، والليل يختلف عن النهار، والإنسان يختلف عن أخيه الإنسان، والحيوان يختلف عن رصيفه الحيوان.

ألم ينتقل بك الزمان من فجر إلى ظهيرة إلى أصيل .. الأزهار أشكال وألوان، والأشجار ذات حسيس وحفيف، والأثمار مختلفة الطعوم، والمعادن بين سائل لا يجمد وجامد لا يسيل .. الإنسان كبير وصغير، سمين ونحيل، أسود وأبيض، صحيح وسقيم.

.. ومـا الإنسـان ؟.

أليس هو جزء من هذه الكائنات المختلفة، تتصل به ويتصل بها اتصالًا وثيقًا، تقله الأرض وتمده بالطعام والشراب، وتظله السماء وتمده بالضوء والحرارة، يستمتع من الأولى بالثمار والأزهار المختلفة الطعوم والألوان، ويستمتع من الثانية بالشموس والأقمار المتباينة الشكول والأحجام، حوته عناصر مختلفة، وغذته عناصر مختلفة، منها تكّون دمه ولحمه، ومنها تألف عصبه وعظمه، فهو ابن الخلاف وربيب الاختلاف، ولِم لا يختلف مع أخيه الإنسان ؟.

ألم يختلف مع أخيه الإنسان في الخَلْق الذي لا حيلة له فيه؟ فلماذا لا يختلف معه في الخلق وأمر تكييفه بيده.

---

(١) مقالة : الهدف الأكبر، محمد عمر توفيق، مجلة الجزيرة، عدد ١،ص ١٢، ذو القعدة ١٣٧٩هـ، إبريل ١٩٦٠م.

وما دامت الأقدار خالفت بين الناس في ألوانهم وأزيائهم فلماذا لا يختلفون في أفكارهم وآرائهم ؟ ألم يختلفوا بغير اختيار منهم في اللغات والسحنات ؟ فلماذا لا يختلفون مختارين في المبادىء والمعتقدات ؟.

فإن لم يدفع الناس تلك الدوافع التي بيّنا إلى الخلاف فليغرهم على الاختلاف هذه النتائج الرائعة التي يسببها احتكاك المتخالفين على الخلاف، ألم يكن الولد نتيجة احتكاك الذكر بالأنثى ؟ ألم تنبعث القوة من احتكاك الموجب والسالب ؟.

كل هذا أو غير هذا مما هو في معناه إن هو إلّا نتيجة لاحتكاك المتخالفين فاختلف الناس «ولا يزالون مختلفين».

وكان اختلافهم نعمة سيقوا إليها، «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض». إذ لولا الاختلاف ما دافع إنسان عن وطنه، وما ذبّت أمة عن كيانها، ولما ضحى أحد بنفسه في سبيل معتقده ..

ولولا الخلاف ما كان للبشر تاريخ ولا كان للإنسان حضارة، ولولا الخلاف ما شيدت الحصون ولا اختطت المدائن، ومن أين للعلوم أن تنمو وللمعارف أن تتضخم لولا الخلاف ؟.

أترى يعبأ الله بعباده لو لم يختلفوا ؟ فيرسل إليهم بين الفترة والفترة رسولًا» ؟[1].

ويبدي كتّابنا آراء جيدة في العلاقة بين الجسد والروح، والعاطفة والمادة، فيميلون إلى التعقل والاتزان، والابتعاد عن الإسراف في العاطفة الجنحة.

فهذا أحد الكتاب[2] يحلل العلاقة بين الحبيب والمحبوب، ودوافع الغريزة والعاطفة، النبل والترفع عن المحسوس، ويتساءل أهذا من سمات الحب ؟ فيرى

---

(١) مقالة : «فلسفة الخلاف»، إبراهيم هاشم فلالي، المنهل، رمضان ١٣٥٩هـ.

(٢) لم يكتب اسمه، رمز له بـ «....»، وتذكر الصحيفة أنه «أديب بارز لم يشأ أن يعلن اسمه من مكة ، واعتقد أنه حمزة شحاتة، إذ في هذا المقال مشابه من أسلوبه ونظرته الفلسفية إلى الأشياء.

أن اقتطاف العلاقة بالمحسوس يفترها ويذهب بعاطفتها، «ولسائل أن يسأل : أفلا يعد الكبح والمقاومة لإلحاح الغريزة ودوافع النفس فضيلة تقي الحب شر الحيوانية الشرهة ؟ ونقول : كلا. لأنه إنما يعبر بهذا الكبح عن حرصه الشديد على دوام لذة الحب ووحيه وخياله، فشأن الاستجابة لمطالب الجسد أن تنتهي بالحب إلى درجة من الفتور والكلال، يحرم معها أقوى دواعيه، وحوافزه، وأضمنها لبقائه، وأعونها على تجديد اللذة، وتلوين الخيال. وقد يكون فضيلة لو اقتصر على رياضته للنفس وكبح الشهوة في مطلب لا تتطلع من ورائه النفس إلى مستقبل ممتد، ولذة مقبلة، ترجو دوامها واستمرارها .. ثم يقول : «وإنا لنخشى أن تكون نظرتنا مثار جدل. فمالنا على احتماله قدرة، وإنا لنرجو أن تمرّ مرّ النسمة الضعيفة لا يشعر بها إلا مكدود مرهق يترقب مثيلاتها، ولا يواتيه نشاطه على الصيال»[1].

ثم يكتب في العدد التالي من هذه الجريدة مقالًا في الموضوع نفسه، يبين فيه عن رأيه، ويصل إلى أن الحب أنانية يفهمه الناس في ثوب الفضيلة والسعادة، يقول :

«صديقي : لقد كدنا نتفق إلا قليلًا، وأحسب ذلك يرجع إلى أن الكتابة تمتاز عن الحديث بالترتيب والاطراد والفكرة التي ينضجها الهدوء والتروي، تقول بأن الإحساس الجنسي هو باعث الحب الخفي وحافزه الملح وأقول معك بذلك ولكن أضم إلى هذا الإحساس بواعث أخرى، أهمها الإعجاب العميق بحسن التكوين الجثماني، والتجاوب النفساني بين المحب ومحبوبه، فالحب الذي يبعثه الإحساس الجنسي وحده هو حب قصير العمر يموت بممارسته العادة الجنسية مرة واحدة أو مرات قلائل، وهو خليق بأن يسمى شهوة لا حبًا.

أما الحب الذي يقوم على رجلين إحداهما تستمد عنصر الحياة من الحس الجنسي، والأخرى تستمده من إحساسات أخر فهو الحب الذي يقدر له البقاء،

---

(١) مقالة : «نظرة في الحب، صوت الحجاز، الممتاز، ١٩٥، في ٢٥ ذي القعدة، ١٣٥٤هـ، ص ٤.

وتنتج عنه اللذة الكاملة».

ويستطرد في مقالته : «وتقول بأن الحب في أدق معانيه أنانية لا فضيلة، وأقول معك بذلك إذا سمحت لنفسي أن تنطلق وراء فلسفة لا تقوم على الواقع وتزويد الحياة بما ينفعها ويرقى بها ..

«أجل إنها أنانية ولكنها أنانية أجمع الناس بحق على توشيحها بثوب الفضيلة لخير المجتمع، ولأنها أنانية لا تشمخ ولا تغتصب سعادة سواها، وتسير تيّاهة على نغمات نشيجه وأعواله»[١].

وهذا أديب آخر هو أحمد السباعي يذهب إلى أن الحب أكذوبة، وأن العواطف من صنع الرغبات الشيطانية وفورة الدم، وقد أقام مقاله على محاورة بينه وبين فتاته، فهي تسأله :

ـــ ألا زلت على عهدنا بك تدرج الحب في قوائم الماديات، وتوليه من البحث ما تولي شئون الحياة مما يتناوله عقلك؟.

فيرد الأديب : وما يمنعنا ؟.

فتجيب الفتاة : يمنعنا الواقع، فقد شهدنا الحب يسمو بمعانيه عن المادة وفروض العقل». ولكن السباعي يرد عليها .. «بل يمنعنا ما تركّز في أعماق خفايا عقلنا الباطن من أوهام كاذبة، والمسئول عن هذا أول مشعوذ اخترع أكذوبة الحب في صورة أسندها إلى الشيطان مرة، وإلى استجابة الدم أخرى، وسايره في هذا غافل أو مجنون فتبلورت الفكرة ووجدت على مرّ الأيام من يشايعها، واغتنمها القصاصون لترهاتهم فجعلوا منها مصدرًا ثرًّا حافلًا بالمبكيات والمضحكات ترويجًا لبضاعتهم، واهتبلها منتحلو الشعر فأشبعوا رغباتهم في انتحال المواقف الشعرية واختراعها، وخلف في أعقاب هذا خلف يجلون ما ترويه الكتب في فحص، ويقدسون الفكرة ما تحدّرت بها الأجيال قداستهم لكل مأثور مقدس»[٢].

---

(١) مقالة : «نظرة في الحب أيضاً، بقلم (٠٠٠٠) بحث وفلسفة، وصوت الحجاز، عدد ١٩٦، في ١٣٥٤/١٢/٢هـ. ص٤.

(١٢) مقالة : «في فلسفة الحب»، أحمد السباعي، المنهل، عدد ذي القعدة وذي الحجة ١٣٦٧هـ.

وتمتد المقالة الفلسفية إلى ميادين أخرى فيدقق ابن عقيل في مذاهب الفلاسفة، ويوضح عدم ارتياحه لمنهجهم الفكري، لأنه لا يرى أخذ العلوم جافة بعيدًا عن مخالطة العاطفة والوجدان، يقول : «وما رأيت في حياتي قط أشد جفافًا من الفلاسفة، قد وأدوا في أنفسهم كل بشاشة للأريحية والمرح.

فلعدم إيمانهم بالوعي تراهم مفرطين في حق التفكير الذي يدعون سدانته، لأن معارفهم مجرد ترديد لوقائع حسية، وليست إيجابيات فكرية ولّدها الواقع.

ولحيفهم على عواطفهم تراهم يروضون سلوكهم على مثاليات فكرية جافة لا بهجة وراءها. وفتّش كيفما شئت فلن تجد فيلسوفًا حقيقيًّا يتمتع بكبير ظرف»[1].

ولا يفتأ حسين سرحان يقف على النفس الإنسانية محللًا، فيبحث عن القيمة الحقيقية بالتقدير في الإنسان ذاته، قال بعد سماعه شيئًا كثيرًا من جدته وصويحباتها عن سلوك مشين لابن آدم .. «وأصاب رأسي الدوار، وكدت أنشق غيظًا من ابن آدم هذا، وذهبت إلى فراشي، وهو يخايلني من بعيد ومن قريب، وظللت استمطر اللعنات على هذا المخلوق الأعوج المتعسف الذي لم أسمع عنه قالة طيبة أو خلقًا كريمًا.

وانتابتني الحيرة وتجاذبتني عوامل مختلفة من الحنق عليه والاشمئزاز منه ووددت لو رأيت ابن آدم هذا لأبصر عن كثب على أي نمط ركّب، وفي أي خلق استوى هذا المخلوق العجيب.

وبتّ ليالي كثيرة مسهدًا مضطربًا أحاول بكل ما استطعت أن أتعرف إلى هذا الحيوان الذي يسمى (ابن آدم).

ومكثت أطيل النظر وأردده في وجه الرائح أو الغادي من كل صامت أو ناطق.

---

(١) مقالة : «كيف نبرهن على التجربة؟»، أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، هكذا علمني وردز ورث ٣٥١.
وانظر مقالته : (هل أنا في الكون أم الكون فيّ؟ المرجع السابق ص ٢٥٣.

وأتساءل في قرارة نفسي، ترى متى أعرف هذا العجب العجاب ؟.

وتسللت يومًا إلى جدتي على فراغ منها، ولثمت جبينها، وقلت : ياجدة. أين ابن آدم ؟ إنّي أريد أن أراه. وكان سؤالًا لم يخطر لها على بال ولا يجدي فيه تعليق حكيم ولا سقيم.

والحق أني ما كنت أتوقع أن هذا السؤال سيزلزل جدتي ويعصف بما في رأسها من ذخائر التجارب والأجيال.

نظرت إليّ جدتي نظرة ممسوخة خلت من كل معنى، وقالت بعد صمت. ماذا تقول يابني ؟ قلت : ـــ وكدت أن أجهش بالبكاء ـــ ابن آدم : ابن آدم ياجدتي أريد الآن أن أعرفه.

وقامت جدتي لتصلي، وعلمت أنه سؤال ذهب مع الريح. وقمت أنا أتميّز من الجهل والغضب معًا، على هذه الدابة السخيفة التي ترعن كل هذه الرعونة، ولا يمكن مع ذلك أن نتعرف إليها أو نراها.

ترى من هو الذي يعرف ابن آدم اليوم إن كان يعرف أو يسبر له غور أو يكبح له جماح»[1].

والذي يظهر أن أثر الفعل السيء كالذي سمعه الكاتب ـــ من الزوج إلى زوجته في أول المقال، وإهماله إياها بعد غنى، ونسيان كفاحها معه إبان الفقر، وتنكب هذا الزوج عن الإحساس بمشاعر امرأته، كان دافعًا إلى هذا التساؤل القلق الملح عن ماهية الإنسان ؟ وعن سر تكوينه ؟ أمن الخير أم الشر ؟ أمن العطف أم القسوة ؟ أمن الإحساس بالآخرين أم الصد والجنوح إلى تحقيق رغبات الذات فحسب ؟.

---

(١) مقالة أريد أن أرى ابن آدم، البلاد السعودية، عدد ٦٢٦، س١١، الاثنين ١١ ذو الحجة ١٣٦٥هـ، ص ٤.

وانظر «من مقالات حسين سرحان» ص ٤٤، بعنوان : كنت أتمنى أن أرى ابن آدم، ولست أدري لماذا أخلف د. يحيى ساعاتي ـــ جامع هذه المقالات ـــ عنوان هذه المقالة؟ أهي العجلة؟ أم أنه يرى المعنى واحداً في العناوين، ومن ثم فلا ضرورة للتقيد بالأصل..

وجدته لا تملك أن تهديه إلى ما يبرد غلته، ويوقفه على ما يطمئنه، فهي أيضًا تعجب من سوء بعض بني آدم، ولا يسعها إلا أن تستسلم لما هو كائن، وتنجو منه باللجوء إلى الصلاة، للخلاص من مثل هذه الأوباء العالقة بالآدميين.

وفي تساؤل الكاتب تتجلى طهارة النشأة، وبراءة الفطرة، وبكارة التفكير، فهو لم يتعود بعد تدليس المدينة، ولا تزييفها بعض القيم، ولم يستقم في سلوكه هذا الطبع الشائن مما يأباه الخلق السوي، وتتحاشاه الفطرة النقية.

والمقالة الفلسفية على هذا النحو تذهب إلى جلاء شيء من تطلع كاتبيها إلى فهم عقلي سليم لما يمكن أن يقدر الإنسان على فهمه ـــ حسب طاقته البشرية ـــ مما يلح على الخاطر في الكون والحياة، والمصير.

واستبانة المنهج الفلسفي والعقلي الذي يحسن أن يسلك، وصولًا لما يتفق والشعور بالأمن النفسي والذهني.

ونرى أن المقالة الفلسفية تجنح إلى التفكير أكثر من ميلها إلى عاطفة الأدب، وخيال الفن، فالسمة الأدبية فيها غير بينة إلا لدى قليلين من كتّابها الأدباء المطبوعين، فهي ليست تيارًا متميزًا له خصائصه الواضحة الجلية التي تشير إلى الناقد بمعالمها وسماتها.

خامسًا ــ الخاطــرة :

هي فن مستقل عن المقالة الأدبية، له سماته وخصائصه، تأخذ الخاطرة من المقالة الأدبية نسيجها البنائي المحكم، ووضوح شخصية كاتبها، وتبتعد عنها في كونها اجتزاء لفكرة عابرة، غير مكتملة، أو التقاطًا لصورة خاطفة مرت بالذهن، فليس فيها عمق ولا سعي إلى الإلمام بما يعرضه الكاتب من رؤى، فهي «ضرب من الكتابة الأدبية ليس ناضج الفكرة، وهذه الفكرة نفسها طارئة، وتعرض كاللمحة، ولا تحتمل الأخذ والرد، لأنها مدعمة بالحجج التي تثبتها»[1].

ولكن الروح الشاعرية الدفاقة، والصور الخيالية التي تكتنف الخاطرة في أكثر جوانبها تقربها من القصيدة الغنائية المجنحة، وهي هنا تلتقي مع المقالة الأدبية الذاتية، حين يتخلى كاتبها عن عوائقه وموانعه من الاندفاع إلى البوح والتعبير المنطلق، البعيد عن الماديات القاسية، والقريب من شفافية الشعر، ورقة الأحلام، وعذوبة الخيال، وروعة العفوية النقية في الفن.

إلا أن المقالة تميل إلى طول النفس، وتتبع التفاصيل، والإتيان بالشواهد، إن دعت الحال إلى ذلك، وشيء من التجويد والصنعة غير المتكلفة، بخلاف الخاطرة السريعة، الآتية عفوًا ــ كالقصيدة ــ تفاجيء كاتبها، فيعتقل الفكرة الصغيرة، يثيرها أقل الأشياء أمامه، أو ما يمر في ذاكرته من استعادة لمشهد ماتع، أو استسلام لحلم رقيق، فلا يملك إلا أن ينهل على الورق متدفقًا في عذوبة، ساكبًا من مهجته في صورة محلقة بوحًا خاطريًّا جميلًا.

ولذلك لا يمكن أن يخلط الدارس بين هذين اللونين من النثر الفني، فلكل خصائصه وسماته العامة، تتبيَّن من خلال هيكل القطعة الفنية المقروءة، فإذا كانت من النصوص الخفيفة السهلة المقتضبة، التي لا تحتمل الأخذ والرد ــ كما سلف ــ فهي خاطرة.

---

(١) انظر «كتاب الأدب والنصوص والنقد والبلاغة والعروض، تأليف د. بدوي طبانة، د. أحمد كمال زكي، عبد العظيم بدوي، ص٤٠، الناشر وزارة التربية والتعليم بمصر، سنة ١٩٧٢م. وانظر : الأدب وفنونه، د. عزالدين اسماعيل، ص٢٩١، دار الفكر العربي، ط٦، ١٩٧٦م.

أما إن كانت من تلك النصوص النثرية العميقة في مضامينها، المتشعبة، المتدفقة، الطويلة، الموجودة، فهي مقالة أدبية.

على أن الخاطرة قد تكون نواة أولى لمقالة أدبية متميزة ــ من اللون الذاتي، إن أحسن الكاتب الاستفادة مما عرض له من خاطر فيقلبه على وجوهه المختلفة، ويضيف إليه، ويستدعي من مخزونه المعرفي ما يبسط له الفكرة وييسرها، ثم يضع عباراته، ويتتبع صوره، بحيث لا تكون خليطًا غير منسق، ولا حديثًا لا فكرة فيه.

وكثيرًا ما كانت الخاطرة نوعًا من الحلم غير المكتمل، أو جزءًا من الحديث الناقص، فهي تأتي عند بعض الكتاب استدرارًا لصورة قديمة، أو تمنيًا لأمر ما، أو تعليقًا أدبيًا نفسيًا جميلًا على مشاعر سكن إليها الكاتب، أو ذلك كله أو بعضه في غير تنميق، ولا تهذيب ولا إطالة .. حتى يحار القارىء ــ في بعض الأحيان ــ أي المعاني يقصد الكاتب، وأي السبل أراد أن يسلك إليها، وماذا يريد أن يقول ؟.

تلك هي الخاطرة، أو بعض ما أفهمه عنها، من خلال قراءة لأكثر ما كتبه أدباء عرب بارزون، وكتّاب من بلادنا على هذا النحو من التعبير.

وسيجد الباحث اللونين مجتمعين عند بعض الكتّاب، أو يجد خاطرة مجودة متميزة، ولا يجد تجويدًا ولا تميزًا في المقالة الأدبية، على الرغم من شدة تشابههما، وتقارب أساليبهما.

ونجد في أدبنا العربي الحديث من أدب الخاطرة ما يستحق الدرس والبحث، ويوقف على قيم جمالية وفكرية حقيقة بالإعجاب[1].

---

(١) انظر مثلاً العقاد في كتابه «الشذور» و «خلاصة اليومية».
والرافعي في كتابه «السحاب الأحمر»، خاطرة «كلمة» ص ٢٣. دار الكتاب العربي، بيروت، ط٧، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م
وزكي مبارك في كتابه «الحديث ذو شجون»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م، وخاطرة «الغصن الوريق»، مجلة الرسالة، العدد ٥٢٢، الخامس من يوليه ١٩٤٣م

وأدباؤنا ضربوا في ذلك بسهم وافر ــ على اختلاف حظهم من التجويد ــ فقد كتب في ذلك حمزة شحاته(١)، وغازي القصيبي(٢)، وحسن آل الشيخ(٣)، ومحمد حسين زيدان(٤)، وأحمد السباعي(٥)، وأبو عبدالرحمن بن عقيل

والمازني في كتابه «صندوق الدنيا» إذ تقوم فكرة المقالات على المصادفة، وصيد اللحظة، دار الشروق، ط١، ١٤٠٠هـ.ج

والمنفلوطي في كتابيه «العبرات» و«النظرات»، وتختلط في كتاباته الخواطر مع القص، مع السرد المقالي.

وجبران في كتابه «دمعة وابتسامة»، دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٨٤، خاطرته «رحماك يا نفس» ص ٧٩.

(١) انظر : «رفات عقل»، جمعة عبدالحميد مشخص، ط١، ١٤٠٠، وتمر الخاطرة سريعة في هيئة حكمة أو رأي، أو نقد خفيف.

(٢) انظر كتابه «في رأيي المتواضع «خاطرته المعنونة» بـ «خواطر حربائية» ص٧٥.
مطبوعات تهامة، ط٢، ١٤٠٢هـ، جدة.
وهو غازي عبدالرحمن القصيبي، ولد عام ١٣٥٦هـ، في الأحساء، ودرس إلى الثانوية في البحرين، والجامعية في القاهرة متخصصاً في الحقوق، وشهادة الماجستير في العلاقات الدولية، من جامعة جنوب كاليفورنيا، والدكتوراة في العلاقات الدولية من جامعة لندن. عين إستاذاً في كلية العلوم الإدارية، ورئيساً للسكة الحديد، ووزيراً للصناعة ثم الصحة، وجمع بين الوزارتين في أحوال كثيرة، شاعر رقيق، وناثر متميز، له مجموعة شعرية وافية في مجلد أنيق وكتابات نثرية أخرى، انظر في ترجمته، سيرة ذاتية من تأليفه.
مطبوعات تهامة، ط٢، ١٤٠٨هـ، المعجم ١٦٦/٢، والدليل ص ٢٠٦.

(٣) انظر كتابه «خواطر جريئة»، مطبوعات تهامة، ط١، ١٤٠٢هـ، وتغلب على خواطره الرؤى النقدية الاجتماعية، يقول : «إنني أريد بها إسهاماً عملياً متواضعاً في «موكب الإصلاح» الذي يستدعي كل قلم وصوت ودم من المقدمة. وللاستزادة يمكن الرجوع إلى مقال حول هذا الكتاب المجلة العربية، عدد٦٣، السنة السادسة، ص ١٦، ربيع الثاني ١٤٠٣هـ، بقلم رابح لطفي جمعة.
وقد ولد الكاتب بالمدينة المنورة سنة ١٣٥٢هـ، وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي والعالي بمكة المكرمة، تخرج في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة عام ١٣٧٣هـ، وتلقى دراسة دينية على يدي والده، عين وزيراً للمعارف عام ١٣٨١هـ، ثم وزيراً للتعليم العالي عام ١٣٩٦هـ، وتوفي في ١٤٠٧/٥/١٧هـ، انظر مجلة الفيصل، عدد ١٢١، رجب ١٤٠٧هـ، ص ١٤٠.

(٤) في كتابيه «خواطر مجنحة» و«ثمرات قلم»، وكلاهما من منشورات تهامة، الأول عام ١٤٠٤هـ، ط١، والثاني عام ١٤٠١هـ، ط١.

(٥) انظر : خاطرته المعنونة بـ «عدوي اللدود»، حول الناموسة، من «كتاب» أوراق مطوية» مطبوعات نادي الطائف الأدبي، ط١، عام ١٤٠٢هـ.

الظاهري[١]، وعبدالله الجفري[٢]، وتركي بن عبدالله السديري[٣]، وغيرهم.

ومن الواضح أن الصحافة تولي هذا اللون من الكتابة اهتمامًا خاصًا، إذ لا تخلو مجلة أو جريدة من زاوية أو زوايا، هي في حقيقة الأمر خواطر بأسماء مختلفة، وقد يكون هذا الخاطر الذي عنّ للكاتب ذاتيًا أو اجتماعيًا، أو علميًا، ولكنه في الأعم الأغلب ينبعث لمرأى أو مشهد أو حادث أو ذكرى، ويثير في النفس ما يثير من الشجن ورهافة الحس والانعتاق من قيود الصنعة.

ومثال ذلك ما حفلت به صحفنا من زوايا عديدة، ليست بالمقالات الأدبية، ولا بالمقالة الصحفية المحضة، وإنما نحت إلى الخاطرة العفوية السريعة، التي تستدعيها ضرورة الحياة، وأسلوب العصر، وحاجة الصحيفة، ولذلك فهي غير معروضة للدراسة النقدية فيما تعرض له المقالة الأدبية المعروفة، بما لها من حدود وقيود، ومجال ومعان، ورونق وإمتاع.

ومن تلك الزوايا : على الماشي، وتحت الشمس لعلي العمير[٤]، وجداول

---

(١) خاطرته «ألف تحية من السيرانادادا» انظر «هكذا علمني وردز ورث» ص ٢٨٤.

(٢) انظر كتابه «لحظات» مطابع الأصفاني ــ دون تاريخ. وكتابه (حوار في الحزن الدافىء) مطبوعات تهامة، ط١، ١٤٠٣هـ، وهو من أبرز كتاب هذا الفن.

(٣) ولد في الرياض عام ١٣٥٩هـ، ودرس المراحل التعليمية بها إلى أن حصل على بكالوريوس في الجغرافيا من جامعة الملك سعود، له إسهام كتابي في المقالة الاجتماعية والسياسية، والخاطرة، فهو يكتب في فترات متقطعة صفحة كاملة كل يوم اثنين بعنوان لقاء الاثنين، وزاوية يومية بعنوان لقاء، وقد بدأت زاويته اليومية في جريدة الرياض منذ عام ١٣٩١هـ، تقريباً وهو ينوي اختيار ما يصلح منها للنشر في كتاب حسبما أفادني.

(٤) الأولى كان ينشرها في جريد البلاد أوائل الثمانينات إلى منتصف التسعينات الهجرية تقريباً، وقد جمع إضمامة مختارة منها في كتاب باسم الزاوية صدر عن دار يملكها للطباعة والنشر عام ١٤٠٢هـ، ط١، أما الثانية فكان ينشرها في عكاظ بعد توقف على الماشي وقد جمع شيئاً منها في كتاب باسمها، صدر عام ١٤٠٣هـ، عن داره.

والكاتب من مواليد عام ١٣٥٧هـ، في الجرادية، إحدى قرى جيزان، ودرس على يد عدد من المشايخ ونال الشهادة الثانوية من المعهد العلمي بسامطة، ثم اجتهد في تثقيف نفسه ومتابعة الأدب وقضاياه بدأت زاويته «على الماشي» عام ١٣٨١هـ في مجلة الجزيرة الشهرية، وكان يكتبها برمز «صعصعة»، ثم انتقلت إلى البلاد بعد أن تحولت الصحافة إلى مؤسسات مباشرة أوائل ١٣٨٤هـ، وظلت متوالية الصدور، معروفة لدى عامة المثقفين إلى عام ١٣٩٥هـ، حيث ترك

لحمد القاضي[١]، وظلال وحوار، لعبدالله الجفري[٢]، ولهاث الشمس لعبدالله نور[٣] وتمر وجمر لمحمد حسين زيدان[٤]، وخواطر جريئة لحسن آل الشيخ[٥]،

الكاتب الصحافة كلية، وأصبح يسهم فيها من بعيد كاتباً فحسب أما زاويته «تحت الشمس» فقد بدأت مع بداية مجلة اقرأ عام ١٣٩٦هـ، يقول : «ثم انقطعت مدة ثمان سنوات عن الصحافة، وعندما عدت إلى الكتابة مدة وجيزة في عكاظ، ثم سنتين في الشرق الأوسط، ثم عادت هذه الزاوية إلى عكاظ كما هي الآن.. من حديث شفهي مع الكاتب. وقد صدر له من ضمن كتبه كتابان، إختار مادتها مما نشره في هاتين الزاويتين، وهما كتابا «على الماشي» و «تحت الشمس» وقد صدرا في طبعتهما الثانية عام ١٤٠٤هـ، و ١٤٤٠٥هـ. عن دار العمير للثقافة والنشر، جدة، انظر المعجم ١/١٥٠، ودليل الكاتب السعودي، ص ٢٠٣.

(١) كان ينشرها بجريدة الجزيرة منذ عام ١٣٨٩هـ، تقريباً. واستمرت حوالي خمسة عشر عاماً. ولم يجمع شيئاً منها، وهي تراوح بين شجون النفس، والتطلع إلى مجتمع أفضل. والكاتب من مواليد مدينة عنيزة عام ١٣٧٠هـ، وتخرج في كلية اللغة العربية عام ١٣٩٢هـ، ثم درس الماجستير فحصل على درجتها بأطروحته عن «النصيب بن رباح، حياته وشعره عام ١٣٩٥هـ، من القاهرة ويرأس الآن تحرير المجلة العربية.

(٢) الأولى كان ينشرها في عكاظ في التسعينيات الهجرية من القرن الرابع عشر، والثانية بدأ في نشرها في جريدة الشرق الأوسط، وظل يكتبها، ثم نقلها إلى عكاظ.

(٣) نشرها بجريدة المدينة المنورة.

وهو عبدالله بن محمد بن عبدالله بن فراج النور، ولد عام ١٣٥٧هـ، بمكة المكرمة، وأنهى الثانوية العامة، ثم انصرف إلى القراءة والكتابة، له أعمال روائية ومقالية وبحثية مخطوطة، انظر دليل الكاتب السعودي، ص ١٧٩.

(٤) كان ينشرها في جريدة عكاظ، منذ التاسع عشر من ربيع الثاني عام ١٣٨٦هـ، ثم تابع نشرها في مجلة اليمامة منذ ١٣٩٥/١/٢٦هـ، ويقول عنها : إنها «خواطر من التحرك في الوجدان،.أو هو الاحتراق في الوقت نفسه، لا يحرج الرفاق «مقدمة كتابه «تمر وجمر» حصيلة هذه الزاوية. نشرت بمطابع الأوفست، الرياض، دون تاريخ.

وانظر كتابه «صور» الدار العباسية للنشر، الرياض، دون تاريخ، وهو من الكتاب المكثرين في كتابة الخاطرة على الأخص، ومن المعنيين فيها بصناعة اللفظ، يقول (لا يفهمني من يقرأني واقفاً أريد لتفهمني أن تقرأ وأنت جالس لتستوعب. فالكلمة العربية لا تفهم إلا بفهم السباق واتساق السياق، الجرس هو رسالتي إلى أذن ثم إلى وجدان، وبعدها لتفحص العين ما فهمته الأذن «من مقدمة «تمر وجمر»، ص٧.

---

(٥) كان ينشرها بجريدة البلاد.

وفي رأيي المتواضع لغازي القصيبي[١]، ولقاء لتركي السديري، والرأي الحر[٢] لعبدالله الغاطي، وحبات من الدموع[٣] لعبدالله منّاع، وأود أن أقول لخيرية السقاف[٤]، وغيرها كثير.

وفي مجمل هذه الزوايا نجد ألوانًا مختلفة من الأسلوب، من شاعرية مجنحة لدى المناع، ومزاوجة بين الواقع والوجدان لدى السديري، ورومانسية شفافة تميل إلى التأمل وشيء من الحزن لدى خيرية السقاف، وجنوح إلى مثالية الريف، ونقاء الفطرة، وسمو الخلق في كثير من خواطر القاضي.

ونجد تفاوتًا كبيرًا في أسلوب كتّاب هذه الزوايا، فآل الشيخ لا يتحرى التجويد والابداع الفني، ويكتفي بالوضوح وجلاء المعنى. والقصيبي يخلط بين الخيال والواقع، فهو واقعي التفكير، خيالي المشاعر. والسديري يمسك في يديه بالكلمة الأدبية وبالكلمة الصحفية، ويجود في كثير من خواطره الأدبية. وخيرية تريد أن تكتب الشعر بأسلوب النثر فتجيىء خواطرها على هذا النحو من الرقة والجمال، غير أنها وقعت في النمطية واستهلاك المعنى.

ومن ذلك ما يدخل في باب اليوميات، التي تأتي منجمة على عناوين متعددة

---

(١) كان ينشرها في مجلة اليمامة.

(٢) نشرها في مجلة اليمامة في أعوام ١٣٨٧ه، ١٣٨٨هـ، ١٣٨٩ه، تقريباً، على عمودين في الصفحة الثالثة، ذات طابع اجتماعي وسياسي، وبأسلوب أدبي.

(٣) كان ينشرها بمجلة اليمامة في عام ١٣٨٨هـ، وما بعده بسنة أو أكثر بقليل، في الصفحة الثانية على الغلاف الداخلي، ذات طابع وجداني رمزي، وينحو في كتاباتها إلى الرؤية الشعرية القلقة الباحثة عن الأمان في غير الواقع.

وقد ولد الكاتب في جدة عام ١٣٥٨هـ، وأتم تعليمه الثانوي ــ القسم العلمي ــ في مدارسها سنة ١٣٧٦ه، ثم ابتعث لدراسة طب الأسنان في جامعة الاسكندرية، وتخرج فيها عام ١٣٨١هـ ورأس تحرير مجلة اقرأ منذ إنشائها إلى عام ١٤٠٧هـ، وله نتاج مقالي وروائي ثر. انظر : الفوزان ١٠٨٦/٣، والطاهر ١٠٠/٢.

(٤) كانت تنشرها باليمامة في الأعوام التالية ١٣٨٧هـ، وابتدأت في كتابتها على الصفحة التي تسبق الأخيرة، ثم انتقلت إلى الصفحة الثانية، تكتبها في عمود، وذات طابع رومانسي شفاف.

عند أكثر كاتبيها، كما كان يفعل عبدالعزيز الرفاعي[١] في جريدة البلاد.

فمثلًا يكتب في إحدى يومياته عن أشواق الروح إلى مجالس الذكر، وكيف أنها تبعد بها عن الصبوة، ثم يحلق في أجواء عالية من الصفاء والنقاء، حين يستشعر عظمة القرآن، وعبق منحه الطمأنينة[٢].

وفي يوميات أخرى يكتب بعدد أيام الأسبوع، وكل يوم له عنوان، من عناوينه أو خواطره ما كتبه ليوم الاثنين «قط وكلاب»، وإذا تتبعنا بداية تكوين الصورة وجدناها تتآلف من مشهد صغير، تثيره القطة الناعمة، وما تجر إليه من سلوك اجتماعي قد يقترن بما تفعله القطة المحابية، في سبيل حصولها على ما يشبع جوعها «خفت إلي، وتمسحت بقدمي، ومضت تتملقني لمسًا وتعبيرًا بقدر ما يسعها التعبير على طريقتها، فرأتني خامدًا لم تمتد يدي إليها بشيء، فلم يكن لدي شيء مما يرضيها، فلما دبّ اليأس إليها خمشتني في سرعة خاطفة ومضت غاضبة. وهذا دأب أية قطة أخرى. تتملق وتتمسح مادامت في حاجة إليك أو إلى عطفك، فإذا أرضيتها رضيت، وإذا منعتها سخطت ونسيت كل ما قدمته إليها من معروف.

وفي الناس فصيلة قططية، لها أخلاق القطط، تتملقك إذا التمست إليك حاجة، وتظل تتملقك مادمت تعطي، فإذا منعت يومًا ما، لسبب ما، نسيت كل

---

(١) هو عبدالعزيز أحمد الرفاعي، ولد عام ١٣٤٢هـ، في بلدة أملج، ونال شهادة المعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة، وشارك في كتابة المقالة الأدبية الذاتية والنقدية والاجتماعية، بحيث لم يبرز في أي منها، ولكنه يميل كثيراً إلى كتابة أدب الرحلات، وعرض الكتب، له صالون أدبي أسبوعي يضم نخبة من الأدباء، ويملك دار نشر، وأنشأ سلسلة لإصدار الكتب بعنوان «المكتبة الصغيرة»، من مؤلفاته : خمسة أيام في ماليزيا، الحج في الأدب العربي، عبدالحميد الكاتب، كعب بن مالك، أم عمارة. يتسم في كتابته بالهدوء والأناة والسهولة.

انظر : جريدة الجزيرة، عدد ٥٩٥٠ في ٥ جمادى الثانية ١٤٠٩هـ، الخميس، ص ١٣، والمعجم ٥٩٠/١، والدليل ص ١٢٨.

(٢) خاطرة «للروح فقط»، البلاد السعودية، كل أسبوع، ص ٥، عدد ١٧٨٤.

معروفك، وخدشتك .. »[١].

ومن كتّاب الخاطرة المتميزين بالرقة وكثرة الصور، والإغراق في الخيال مع رشاقة اللفظ عبدالله منّاع، فهو يحلم بالدفء والحنان، ولقاء حلمه هذا في عينين والهتين «كلمة واحدة، همسة واحدة، صمت رقيق يقول : نعم، ألف نعم، همزت جوادي، وأخذت أركض، أسافر فوق الموج، فوق السحاب، الفرح يدفعني ويلقاني، الليل موسيقى، القمر موسيقى، والنجوم تومض حولي إيقاعًا في لحن الكون البديع، والنشوة تتدفق شلالًا يغمرني، هذه حدائق بابل ودنيا حامورابي، وهذه قباب سان بيتر البيضاء ونوافيره وحماماته، وهذا الطرف الأغر ويماماته الزرقاء الوادعة وحبّات القمح، وهذه «الطريق» الأرجوانية مكللة حواجزها بماء الذهب، وهذه سنديانات بولنيا وشوق المحبين ودمع الفراق ما زال على أغصانها.

لهث جوادي، فاحتضنتني الغابة واحتضنتها وأغفيت وحيدًا إلا من تلك العيون الساجية بفرحها الحزين : لا تنم، فالليل قصير، والعمر قصير، والرحلة سرعان ما تبلغ منتهاها، فلا تقل وداعًا لمن يناديك.

جاء «الصباح» قاضيًا قاطعًا حكمًا، ليته لم يأت، فقليلًا ما نسافر في الحلم»[٢]

وهذا كاتب آخر، تأتي خاطرته في هيئة نثر لكنها شعر، فيها دفق المعاني

---

(١) خاطرة «قطط وكلاب»، البلاد السعودية، كل أسبوع، ص٤ عدد ١٥٣٦ في ١٣٧٣/٨/٢٧هـ. والرفاعي من كتابنا الذين لم يجمعوا ما نشروه، وقد قال عن ذلك.. «يحول بيني وبين تحقيق هذه الغاية سبب يسير صغير هو أنه ليست لي آثار، أو ليس لي أثر.. نعم ليس لي أي أثر أدبي يسعني أن أنشره..».

ثم تحدث عن تجربته في كتابة القصة، والشعر، وندمه على نشر ما قرأه الناس منها، «ماذا بقي بعد ذلك من آثاري؟؟ مقالاتي في الصحف؟ وأحاديثي في الاذاعة؟ إنني لست من القائلين بنشر مثل هذه المقالات والأحاديث إلا لمن بلغ في الكتابة شأوها الكبير كطه حسين والعقاد. هل آمنت أنه ليس لي أثر».

يرد بهذا على سؤال وجهه القارىء محمد سعيد طيب في البلاد السعودية، عدد ١٦١٧.

(٢) خاطرة : حلم، انظر «الطرف الآخر» ص ٤٠، مطبوعات جمعية الثقافة والفنون بجدة، دون تاريخ. وانظر كتابه «ملف أحوال»، المركز الثقافي الجامعي، مصر، دون تاريخ.

الشجية، والخواطر الشفافة :

طويلًا انتظرتك أن تأتي ..

مرت كل المواسم.. مواسم الهجرة والرحيل

مواسم الصيف والشتاء ..

والربيع والخريف ..

سألت عنك كل القوافل التي مرت وتمر، حملت لكل الشواطىء سفني وأشرعتي لأبحث عنك في الأعماق، وبين الأمواج القادمة والعائدة، وتحطمت كل الأشياء بلا ندم»(١).

فهي لمحة لجزء من فكرة سريعة، لم يتمالك كاتبها إلا أن يدونها فجاءت على النحو الذي مرّ.

وفن الخواطر في النثر السعودي مشتّت متفرق كالمقالة، يضيع أكثره في ثنايا الصحف النافدة والمنقضي على صدورها سنون طوال، فيندثر مع ما يندثر من ألوان الحديث الأخرى الجيد والرديء، ولا يعاد نشر المختار منه إلا القليل، ثم يكتب على طرائق مختلفة من الاقتضاب والترسل الخيالي، والإغراق في العواطف، ولا يخلص له الصفوة من الكتّاب البالغين شأوهم في صناعة الكتابة، فقد تركه أكثر هؤلاء للمبتدئين في فن النثر بعامة، والمستصحفين، وناقصي الموهبة، مما نزل بقيمة الخاطرة إلى درجة هابطة من الغثاثة والاختلاط وسوء السبك، وفقدان المعنى(٢).

---

(١) خاطرة «الانتظار الطويل»، لعلي خالد الغامدي، انظر كتابه «السفر إلى عينيك» ص ٤٠، الناشر مؤسسة آمون للطبع والنشر، سنة ١٩٨١م.

(٢) من الكتب التي حوت شيئاً من الخواطر المتصلة بالعواطف والأشواق كتاب «محطات مسافرة» لهند باغفار، مطابع البلاد، جدة، ط١، ١٤٠٢هـ، قطيع الكلاب والنساء «لمحمد عبدالواحد، سلسلة الكتاب العربي السعودي، عدد ٣، الشركة التونسية، للتوزيع، ١٩٧٩م.

و«كلّ يبكي من ليلاه» لإبراهيم عبدالعزيز الدعليج، دار العالم العربي للطباعة، القاهرة، ط١، ١٤٠١هـ.

و «نبت الأرض» د. فاتنة شاكر، مطبوعات تهامة، سلسلة الكتاب العربي السعودي، ٣٥، ط١، ١٤٠١هـ.

سادسًا ــ الرســالــة :

لعل من الصواب أن تعد الرسائل الأصول الأولى لفن المقالة الأدبية، والجذور التي نمّت هذه الألوان المخلتفة من النثر الفني، حيث نضجت القدرة البيانية الترسلية عند عبدالحميد الكاتب وابن المقفع وأبي حيان، والجاحظ، وغيرهم من الأسلوبيين[١].

وكانت تلك الرسائل يكتبها الناثرون في أغراض شتى، منها الاخواني المعني بالعواطف والسؤال عن الأشواق، والديواني المتصل بأمور الدولة والسلطان، وفي مسائل علمية متعددة، فالرسالة في بداية نضجها كانت تحمل بذرة المقالة في تعدد مواردها، وتنوع مقاصدها، واختلاف طرائق كاتبيها في الاسترسال والانقباض، والحشو العلمي، والتدفق الذاتي.

فقد كتبوا ــ من هذه الرسائل ــ في موازين البلاغة وأدوات الكتابة[٢]، وفي اختيار الأصحاب، والعناية بالأصدقاء والخلان وإكرامهم[٣]، وفي الموعظة والحكمة والاعتبار بأحداث لزمان[٤]، وفي الأحكام النقدية على الشعر، وأرباب صناعة الكلام[٥]، وفي الذم والهجاء، والقذع بأقبح الصفات لمن يرونه أهلًا

---

(١) سبق أن مر شيء من هذا في الحديث عن المقالة في الأدب الحديث، التمهيد.

(٢) رسالة كتبها إبراهيم بن محمد بن المدبر، وتسمى «الرسالة العذراء».
انظر : ابن عبد به، العقد الفريد، جـ٢، ص١٧١.
وفي جمهرة رسائل العرب جـ٤ ص ١٧٦، المكتبة العلمية، بيروت، أحمد زكي صفوت

(٣) رسالة الصحابة، لابن المقفع، المجموعة الكاملة لمؤلفات عبدالله بن المقفع، دار التوفيق للنشر، بيروت، ١٩٧٨م.

(٤) الرسالة اليتيمة لابن المقفع، انظر : ابن طيفور.
«اختيار المنظوم والمنثور»، جـ١٢، ص١٦٠.
وفي «جمهرة رسائل العرب» جـ٣، ص٤٨، أحمد زكي صفوت.
ورسالة الامام مالك في السنن والمواعظ والآداب، المطبعة الأميرية سنة ١٣١١هـ، دار الكتب المصرية، رقم ١٣٠١هـ/قسم التصرف والأخلاق، وفي الجمهرة جـ٢ ص ٤٠٣.

(٥) رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، المكتبة الثقافية، بيروت.

لذلك[١]، وفي التكليف بالولاية، والالتزام بالخدمة في الوظيفة[٢]، إلى غير ذلك مما عنّ من شئون الحياة، ودواعيهـا.

وحين أخذت المقالة الأدبية سماتها الواضحة من التجويد في الصياغة، وتجنب الحوشي، وقصد السهولة، وتخير اللين العذب من العبارات والألفاظ، والاسترسال في بوح الذات، والصدق في كشف أحاسيسها نحو ما يعن لها، وما يثير شجنها، ويدفعها إلى الانطلاق في التصوير لم تعد الرسالة تستوعب هذا القدر من التدفق الشعوري، والانثيال الذاتي، وانحصرت أغراضها في الاخوانيات، وتبادل التحيات، وبثّ العتاب والنجوى، والتهنئة، أو الشكوى.

وانصرف عن كتابتها أدباء كثيرون إلى فنون البيان الأخرى التي تتسع لما يريدون من القول، على أن نفرًا من الأدباء ظل بين حين وحين يتفنن في صياغة رسائل أدبية ذات معالم جديدة، تكاد تقترب من الشعر، في رقتها وسلاستها، وفي صدق كاتبها.

فمن هؤلاء الذين أسهموا في كتابة الرسائل على ما وصلت إليه في صورتها المتميزة السهلة الرقيقة مصطفى صادق الرافعي، وأمين الريحاني، وسواهما.

وكان المنفلوطي يطلق على ما يكتبه من مقالات رسائل، اتباعًا لسنن بعض الكتّاب العرب القدامى حيه ينعتون الفصل من الكتاب بالرسالة، أو المقالة العلمية، أو المبحث، أو الجزء، ولم يفرّق المنفلوطي بين المقالة الأدبية التي يكتبها والرسالة التي يخص بها أحدًا من الناس، أو ظاهرة، أو أمرًا، فهو يقول :

(١) رسالة التربيع والتدوير، لأبي عثمان الجاحظ، رسائل الجاحظ، (الرسائل الأدبية) ص ٤٣١، دار مكتبة الهلال.

(٢) رسالة بتقليد كفالة السلطنة بالشام، كتبها الأمير سيف الدين تنكز الناصري، في ربيع الأول سنة اثنتي عشرة وسبعمائة من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي. صبح الأعشى جـ١٢، ص ١٥، القلقشندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.

(٣) رسائل الأحزان في فلسفة الجمال والحب. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٤هـ.

(١٤) الرسائل، من الريحانيات، المجلد ١٢، لأمين الريحاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.

«يسألني كثير من الناس كشأنهم في سؤال الكتّاب والشعراء كيف أكتب رسائلي .. »[١].

ويقول في أثناء كتابة مقدمته «للنظرات» : «ولقد كان لهذا الأدب الذي توليت نفسي به أثر باق عندي إلى هذه الساعة التي أكتب فيها رسالتي هذه ـــ يعني المقدمة ـــ»[٢].

وتكاد الرسالة تجمع خصائص المقالة والخاطرة، فهي نص نثري سهل، يوجه إلى إنسان مخصوص[٣]، ويمكن أن يكون الخطاب فيها عامًّا[٤]، في صياغة وجدانية حانية مؤنسة، وفي عتاب رقيق، يظهر النجوى أو الشكوى، ويبوح بما في الوجدان من أحاسيس وأشجان، وتتوارد الخواطر فيه ـــ بلا ترتيب ولا انتظام ـــ لتغدو الرسالة ـــ إن قصرت أو طالت ـــ قطعة فنية مؤثرة دافعة إلى استجابة المشاعر لها، وقبولها ما باحت به.

وفي أدبنا من هذا الفن نصوص كثيرة لم تأخذ حظها بعد من الجمع والدرس والتأمل، لأن المقالة زحمتها، واستأثرت بكثير من الاهتمام الكتابي والنقدي.

ومن خير ما يميز أدب الرسائل أن الكاتب فيها ينثر ذاته، ويستقرىء دخيلة نفسه، ويفتش فيها عن وهجه وقيمه وحزنه وألمه وفرحه، فكأنه يكتب مقالة ذاتية لصيقة به، إلا أنه قصد بها من وجّه الرسالة إليه يبثه ما يريد، فهو «يودع نفسه صفحات معدودات تكون هي خلجاته وصدقه وحديثه الحميم»[٥].

فحمزة شحاته يكتب إلى ابنته شيرين خصائص روحه، وتدفق مشاعره في أبوة حانية معلمة، يثير فيها معاني الأخلاق الكريمة، والتطلع الوضيء إلى معالي الأمور، وشريف المقاصد ويهديها من تجربته في الحياة ما تعلم من بصر وبعد نظر، ومن

(١) مقدمة كتاب (النظرات) جـ١، ص٥١، منشورات بحسون الثقافية، ط١، ١٤٠٠هـ.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٦.

(٣) كالرسالة الجدية لابن زيدون.

(٤) كرسالة الغفران لأبي العلاء المعري.

(٥) انظر مقدمة «النظرات» للمنفلوطي، ص٧١، بتصرف.

صبر وأناة، ولا يخلو كل هذا الحديث العذب الدافق النقي من لمحات الذكاء، ووقفات النكات المرحة، تخلقها نفس تعبأ بكل ما يكون في الحياة من رادءة وشذوذ وانصراف عن الحقيقة في هذا الكون :

«ابنتي شيرين

أسلوب رائع هذا الذي طالعتني به رسالتك وملحقها، وأعترف أنك تجاوزت كل حد كان يبلغه خيالي المنطلق عمّا يحتمل أن تصل إليه قدرتك.

الذي يدهشني ويحيرُني في ذات الوقت أن يتسع مجال إحساسك إلى الحد الذي تدركين به آلام النفوس وعذابها من خلال البسمات.

هذا الإحساس أيتها الحبيبة هو النار التي أخشى عليك منها، وهي الضريبة التي ستفرضها عليك الحياة، رحلة متصلة ..

أنت نموذج لإنسان رائع وحساس ومرهف، إنسان مختلف تمامًا، ومع ذلك فلا أجدني فرحًا بأنك لم تكوني كالآخرين، وإن كنت أرجو ألّا تتعذبي بهذا الاختلاف ..

إن أي تقدم أو استعلاء يتطلب منّا ثمنًا كبيرًا يتحتم علينا أداؤه هو ضريبة أن نحيا على أن نعيش.

إن الذين يعيشون فقط ــ وكالآخرين ــ لا يدفعون هذه الضريبة التي نشعر بقسوتها كلما انطفأت في ظلمة حياتهم شمعة بما يتساقط عليها من دموع جراحهم الصامتة.

كان سيزيف الأسطورة يحمل الصخرة جاهدًا إلى القمة معذبًا يتصبب عرقًا، فإذا كاد أن يصل انفلتت وعادت إلى السفح .. إنه شقاء كتب عليه، وكذلك من يحلمون بأن يحيوا حياة ترتفع عن مستوى العيش.

ولماذا القمة ؟ لماذا الابتعاد عن التراب الذي يعيش عليه ويستقر فيه الآخرون

ـ كل الآخرين»؟[١].

وهو أسلوب مقبول، ليس فيه غلو ولا تكلف، ولا طلب للتجويد، انطلق الكاتب على سجيته وطبعه، وتخلى عن أسلوبه الأدبي المتقن، وإن لم يستطع أن يدع شيئًا من رؤاه الحياتية، وفلسفته للأمور، وسخريته من الواقع.

«.. لقد عوملت بقسوة .. لا تتأثري إنها النهاية الطبيعية لإنسان لم يسر على الطريقة التي يسير عليها الآخرون، بل ظل يحلم بأن يعلو عن مستوى الطين والتراب، ويخالف معرفته للحقيقة التي فهمها الجهلاء والأغبياء، على الوجه السليم.

لا تظني أنني أبكي بهذه الكلمات ..

إنّي أضحك بها وأقهقه ساخرًا بنفسي، لأني كنت الغبي الذي يتهمه الناس بالفطنة، والضحك بهذا الأسلوب .. هو العزاء الوحيد الذي بقي لي..

لقد فهمت الحياة جيدًا، ولكن بعد فوات الأوان، فلم يعد لهذا الفهم معنى ولا جدوى.. هذا هو كل شيء ..»

ويختلط لديه الألم بالضحك، والابتسامة بالتأمل المر في سلوك الإنسان، فكأنه يريد أن يعزّي نفسه بهذه القهقهة العالية من كل شيء ..

«ابنتي الحبيبة شو ..

لا تتعمقي، خذي الأشياء عفوًا كما تجيء عفوًا .. أليس من الجائز أن تجدي في هذا اللون جديدًا يكون حلًا مباشرًا أو غير مباشر لصراع في نفسك، لم تعثري على حل له حتى الآن ؟..

ألا ترين ياشو أن الضحك أحيانًا يحتوي على مقدار من المرارة أكبر؟ وأنه عبارة عن عملية تهرب من المواجهة المباشرة لواقع معين ؟.

---

(١) الرسالة الثامنة والعشرون، حمزة شحاتة، إلى ابنتي شيرين، تهامة، سلسلة الكتاب العربي السعودي، ط١، ١٤٠٠هـ، ص ١٢٠.

(٢) الرسالة السابعة والعشرون، حمزة شحاتة، ص ١١٨.

إن الانفجار بالضحك يكون انفجارًا بالبكاء بأسلوب مختلف يحتم عليّ ما أعانيه وبإلحاح أن أتحدث علانية إلى الناس بما أحسّ، ولذلك عندما نتكلم كثيرًا وننفجر لا نقول كل شيء، حتى عندما يكون مفهومًا واضحاً عند من يعرفون كل شيء، ولا يقولون كل شيء، لأنهم عادة يكونون مصابين مثلنا ..

ما أسهل أن نعرف، وما أيسر أن نقول، ولكن ما أفظع أن نكتم ما لا يسعنا أن نقول .. »[1].

ولكن شحاته يختار لأسلوبه ما يستحقه من الافتنان والكلفة بحسن اللفظ، وجيد التصوير، وعميق المعنى، واتصال الأفكار في رسائله الأدبية التي يكتبها في أناة وروية، ورغبة ملحة في الحديث إلى من يجد لروحه وفكره صدى حميمًا لديه.

«أخـــي ..

ما تزال لك قدرتك على القول ووصفه وتلوينه، وهذه حال ينبغي أن أحسدك عليها بعد أن علت بي السن وفترتها، واصطلح عليّ من دواعي الركود وأسبابه شرها ..

أكنت تظن أن في الصداقة سر الحب ومعناه الثابت، حين ابتعثت فيك بقايا رسائلي هذا الشعور الذي دفعك إلى تصوير الماضي في صوره الحية تناغيك وتناغيها ؟ .. إنها الصدفة.

أنا مثلك أقرأ ماضيّ في أوراق، مات فيّ حتى مطلب العناية بها، فلا أجد ممن أحببت إلا جانب الصداقة ــ إن كان ــ .. فإن كانت هذه حقيقة حياة الحب في الماضي .. وهو أعنف ما يتصل بنفوسنا وأفكارنا فما حقيقة آثار هذا الحب، وأسبابه.. وحوادثه ؟ ..»[2].

---

(١) الرسالة السادسة والعشرون، حمزة شحاتة، ص١٠٦

(٢) رسالة الحاضر «الماضي» حمزة شحاتة، الموسوعة الأدبية، عبدالسلام طاهر الساسي، جـ٢ ص ١٥٦، دار الثقافة، مكة، ط١، ١٣٩٤هـ.

وهذا أحمد السباعي يكتب عن ذاته، وعن سلوكه، ورؤاه الأدبية، ويوجّه رسالته ــ فيما يبدو ــ إلى قارئه، أو صديق يعنيه ويخصه بما يرى في كل ذلك : «ثق أنّي لا أكتب شيئًا أتصنعه، وإذا بدا لك أنّي أسخر وأتهكم فليس في الأمر إلا أني درجت في الحياة أعايشها على سجيتي فليس غريبًا أن يترك هذا أثره لا في كتابتي وحدها، بل وفي كل علاقاتي بالناس.

عشت لا أتكلف التكتيك المتعارف بين الناس، ولهذا كثيرًا ما أبدو صفيقًا لمن لا يعرف بداوتي.

وعشت لا أتكلف الحياة نفسها ولا أزاحم في مناكبها إلا بالقدر الذي لا يثير في نفسي همًّا ولا يكبدني ما ينغصني فإذا أبت المسيرة إلا أن تجابهني خلال الطرق بما يكدر صفوي فإنّي لا ألبث أن أدير لها ظهري»[1].

وفيه ــ أي النص الآنف ــ من الصدق والعفوية، وعذوبة الإفضاء ما استحال معه إلى همس ومحادثة، وانكشاف لذيذ.

ولا يخفى أن الكاتب لم ينس لغته الأدبية المتميزة التي يكتب بها مقالاته الأدبية، إلا أنه يتخفف من المبالغة في اختيار اللفظ ووصفه، ويدع ذلك لسجيته ورغبتها في القول والإفاضة، بخلاف شحاته الذي كان يكتب بغير لغته الأدبية المعروفة، لأنه لم يدر في خلده أن هذه الرسائل التي كتبها لابنته سيقرؤها الناس.

ولكننا سنقف على رسالة أخرى غاية ما يكون التجويد والإتقان في فن الرسائل، كتبها حسين سرحان مجتهدًا في الاحتذاء والتقليد لطه حسين، ومحتفيًا بما يرتفع بأسلوبه إلى الإثراء والإمتاع، وكلفًا بالموسيقى الصوتية ينثرها في ثنايا النص باعتدال وانتظام لا تخطىء الأذن موقعها من السماع حين يرتفع الصوت بالتنغيم والوقفات والابتداء[2] :

---

(١) الرسالة الثالثة عشرة، رسائل مطوية، من «أوراق مطوية» ص ٤١٠، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، ط١، ١٤٠٢هـ.

(٢) قدمها بهذه العبارة «رسالة لم يكتبها طه حسين. مع الاعتذار للدكتور طه حسين الذي كتب مرة بعنوان «رسالة لم يكتبها الجاحظ».

«لا ينفع الكلام ــ كما يقول العوام ــ فقد قضي الأمر وغادرتنا إلى ميدان الشرف بفلسطين، وكان من العبث أن ترد عن غايتك بعد أن يئس أولو أمرك من ردك، ولن نريد مهما حاولنا وأضمرنا أن نفتنك عن مثل ذلك الميدان الكريم الذي تتساقط فيه النفوس ذيادًا عن كرامة الأوطان وتساميًا بالجوهر الحقيقي المكنون في قلب كل إنسان.

وكم وددت بشوق عظيم لو كنت معك في الطليعة، فإنك من بيت حرب وضرب، فما ينكر ذلك من يعرف حقيقة بيتك، وبيوت العشائر الأصيلة من أبناء عدنان وقحطان.

وددت ذلك، ثم لم أودّه، وددته لو لم تذهب واكتفيت بمكانك من أهلك وبلادك، وعملك بين أصدقائك وزملائك، ثم لم أودّه برغمي، فما يسع بيتنا أن يفقد اثنين في وقت واحد إلى حين أو إلى غير حين، ومع ذلك فليس مع أهلي وأهلك هنا إلا جسمي ليس غير، فأما روحي وقلبي وذهني وخيالي وآمالي، فإنك لموقن كل اليقين، أنها ممتزجة موقوفة عليك نزّاعة إليك، فما من سبيل إلى انفصالها عنك، مهما يكن من أمر، ومهما يحدث من احتمال .. »[1].

وأثر طه حسين واضح في صوغ العبارة والتكرار، والعود على البدء، وأثر الأدب العربي في عصور البيان جليّ بيّن في الإشراق والتماسك وقوة الرصف.

وتأخذ الرسالة في أدبنا سبيلها إلى الإلمام بما يعنّ للكاتب من أشجان، وما يراه من نقدات لمجتمعه، وما يعتقد فيه الإصلاح لما مال أو انحرف عن الطريق القويم، فيكتب سعد البواردي «رسائل إلى نازك»، ــ ابنته ــ يحكي لها فيها عن آرائه، وحياته، وأفكاره، وعذابه، وجنونه، وفلسفته، وطموحه إلى الحرية والحق والعدل والسلام :

«أي صغيرتي نازك .. أيها الملاك الصغير الذي ما برحت تدغدغه آفاق

---

(١) رسالة «إلى أخي في فلسطين»، حسين سرحان، البلاد السعودية، عدد ٧٦٠، ص٤، الأحد ذو الحجة ١٣٦٧هـ.

الطفولة الحالمة، لقد كنت منذ أعوام مضت .. أعوام انغمست في غور الماضي كانت مثلك الآن وفي سويعاتك المتعانقة المتلاحقة، صفاءً في العينين، بهاءً في الطلعة، براءة في القلب، رقة في المشاعر، رفقة في الحب، والأمل، الأمل الكبير الذي أسرح وأمرح معه باسمًا باسم الحياة باسم أيام الطفولة اللذيذة الخفيفة الظل.

كنت، ألهو بلا صخب، أحب بلا نفاق، أقول بلا مراوغة، أعمل بلا مكيدة، لا رفيق لعمري إلا الأطفال الصغار، إلا العصافير، إلا الحمام وإلا الأرانب التي تقفز وتلهو في هدوء وصفاء .. »[1].

ثم يتحدث عن بؤس الواقع، حين شبّ عن الطوق، وعرف كيف يحقد على الناس، ويتلقى الأذى، ويرى الأنياب تكشر، والقيم تهدر، ويقارن هذا بإنسانيته ورقته، حين كان يحنّ على أصحابه الصغار في طفولته، وحين كان يلثم أمه ويحضنها بعد خصام، كيف غدا القلب المحب الرقيق شيطانًا مريدًا، يتعلم أين يجد فريسته من أقرانه الشياطين الكبار.

ونلحظ أن أسلوب الكاتب سلس مألوف، بعيد عن الغرابة والاستكراه، يميل إلى الذيوع وما يكتبه أرباب الصحافة ومحرورها من مقالات تخلو من التزيين والتكلف في مراجعة النص الأدبي، ومعاودته بالتنقيح والطراوة، إلا أنه يرتفع عن هذا الأسلوب في رسائله المذكورة آنفًا إلى طريقة في كتابة الرسائل أكثر تجويدًا، وآنق عبارة، وأطرى حاشية فيما كتبه من رسائل إلى صديقه «الكجا» وهو شخصية تتهم بالجنون، وقلة المعرفة بأمور الحياة، والرثاثة في الملبس والهيئة، يتخذ منها الكاتب وسيلة لبثها فلسفته ورؤيته في الحياة، ومواساة هذه الشخصية البائسة المعدمة، بما يذهب إليه المفكر والأديب من التماس للعزاء في كثير من التعليل لانحراف السلوك البشري القاسي، وغلوائه على الطيبة والسماحة وكريم الأخلاق، وهي والحق رسائل تتسع لأبعاد التأمل الإنساني الصادق، وأمنيات ذوي

---

(١) رسالة «من الطفولة»، رسالة إلى نازك، سعد البواردي، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، ط١، بدون تاريخ. ص ٢٦.

المشاعر النبيلة لمجتمع مكبل بخطيئات موروثة تصرف عن التفكير السوي والحلم الجميل[١].

ولا يمكن أن يختم الحديث عن فن الرسالة في أدبنا دون الإشارة إلى كاتب مكثر في هذا اللون من النثر، اتخذه سبيله الوحيد للتعبير، وطريقه في البوح، وهو عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري[٢]، وقد ناجى أبا الطيب المتنبي، ونادمه، وشكا له، ونثر أمامه ما في أعماقه من العتاب على من يجهلون حكمة الصحراء، وغاية ما تعلمه أهلها من الصبر والقوة، وصدق العزيمة[٣]، ثم كتب «رسائل إلى ولدي ـــ حتى لا يصيبنا الدوار»[٤]، ـــ منازل الأحلام الجميلة»[٥]، يقول :

(كلما صرخت أعماقي وبكت هواجسي وظنوني وضاقت الدروب في خطوي وأثقلتني صخور الدرب الوعر وأدمت قدمي، وأرهقت نفسي وعثاء السفر تذكرتك وناديت عليك أن شاركني همومي، ارفع عن كاهلي جلابيب الهموم .. »[٦].

ويرى أن هذه الرسائل هجاء لنفسه وذّم لها يريد منها أن يكفر بها عن خطاياه، بعد أن أضناه السفر، وأعيته الرحلة، فلعل ابنه يبرّ به بعد أن يرى الجرح ينزف من الورق، ويدعو له[٧].

ويدميه ما يراه من انصراف الإنسان عن ذاته، ونكرانه لها «فمتى يصغي إلى ما في داخله ؟ متى يبحر في جداول النفس ؟»[٨].

---

(١) انظر : فلسفة المجانين، سعد البواردي، تهامة، ط٢، ١٤٠١هـ، من رسائله : أغنياء .. أغبياء.. ص ٢٠، القدرة على تغيير الأخطاء ٢٨، لا شيء ص ٤٥، نثر في كلمات ص ٦١.

(٢) ولد في المجمعة، وتعلم في كتاب القرية، ثم ثقف نفسه ثقافة ذاتية من قراءاته وتجاربه. في العقد السابع من عمره، ترقى في العمل الحكومي حتى وصل إلى رتبة نائب رئيس الحرس الوطني المساعد، ولم يبدأ في الكتابة إلا بعد أن تجاوز الخمسين من عمره.

(٣) كتابه «في أثر المتنبي بين اليمامة والدهناء» ط١، ١٤٠٢هـ، القاهرة، المكتب المصري الحديث.

(٤) نشرته الدار العالمية للنشر، لندن، ط١، ١٤٠٣هـ.

(٥) نشرته الدار العالمية للنشر، لندن، ط١، ١٤٠٣هـ.

(٦) «رسالة لاهثة» حتى لا يصيبنا الدوار»، ص٣٥٩.

(٧) رسالة «أزرقاء اليمامة رأت شيئاً فأسرته إليكم؟»، حتى لا يصبناالدوار، ص ٣٨٢.

(٨) رسالة «هبطت عليك من المحل الأرفع»، منازل الأحلام الجميلة، ص ٣٧٢.

ولا ينسى أن يذكر ولده بمنبته في الصحراء، وبعراقة تلك الحياة وطيبها وشقائها، وقوتها وكرمها :

«ولدي .. لا أعرف كيف تأخذني نزعة إلى الهيام بالصحراء، وبالوادي المقفر وبالنجم الذي يطل عليه وعليها من منازله البعيدة .. »[١].

ثم يرسل إلى أبويه أشجانًا أخرى، فيها شيء من الوفاء وشيء من إنكار مادية العصر، والتنكب عن سيرة الآباء، والرغبة في الترف الناعم المفسد للشهامة، وكريم الخلق.

ولا يفتأ يذكر الصحراء، وما تمنحه أهلها من عذوبة وشاعرية وفطنة وصفاء سريرة، ويتأمل في الملكوت والكون فيؤمن بحقيقة الخالق العظيم، وبضعف النفس الإنسانية وحقارتها أمام ما تلتوي فيه من الشرور والمفاسد[٢].

وكأنه حين يرى ما تجنيه خواطره بعد طول التفكير، ومداومة النظر، وما يختلط أمامه من الرؤى والأفكار والحكم والحسرة على الماضي، وانتظار ما سيجيء لا يطمئن في عباراته، ولا يستكين إلى طريقته في الحديث، فيأتي السياق التعبيري متداخلًا متفرعًا، لا يستقيم ولا يتواصل في انسياب نحو الأفكار المتسلسلة المترابطة، فهو يقول : «تتساقط الألفاظ في هذه الرسائل في حالة عشوائية لا أنساب بينها ولا تجانس في الخطى، فكل واحدة من هذه الألفاظ ربيبة لظرف يومه أو غده، صباحه أو مسائه، قاتم أو مشرق، جائع أو ظامىء، حالم أحلام اليقظة أو أحلام منام، تضاجعه فيه همومه وتساؤلاته التي كلما أرسلها لتأتيه بالخبر، عادت إليه مكسورة الجناح .. »[٣].

ومن الحسن أن نلتمس له في ذلك عذرًا، فهو لم يدخل جامعة، ولا درس منهج التفكير، ولا ثقف أساليب التعبير، بل اندفع إلى الارتواء من منابع المعرفة بأسلوبه الخاص، وطريقه في اكتساب الوعي من التجربة والتأمل «فالحياة هي التي

---

(١) رسالة «أبوك يوم تحوّل عن جمله، ماذا ركب؟» منازل الأحلام الجميلة، ص ٣٨٣.

(٢) رسالة «لو أن رواد الفضاء»، حاطب ليل ضجر، جـ١، ص٢٢٣، دار الشروق، ط١، ١٤٠٨هـ.

(٣) رسالة «خرائب التاريخ» «حاطب ليل ضجر، جـ١، ص ١٩٢.

علمتنا ــ نحن الأميين ــ وهي التي رمت الحجر الثقيل في أعماقنا فظل يدوي ونحن نصغي إلى دويه داخل النفس، فنسجل في دفاترنا وفي أحلامنا ما نقوى على تسجيله، وإن كان رذاذًا ضحلًا لا يروي ظمأ طفل في سنته .. »[١].

ويحنّ إلى نقائه القديم، وسيرته الصافية الأولى، ويتمنى لو عاد طفلًا بريئًا في بيئته تلك التي لا تعرف الخداع، ولا تتكلم بصوتين .. «ومجاهل الصحراء ومتاهاتها ليتها ظلت ــ كما كانت ــ منازلي ومنازل أحلامي .. ليت الجمل راحلتي .. وبيت الشعر بيتي .. والبدوية ربته .. »[٢].

واضطراب الرؤية لدى الكاتب، وتداخلها أثّر على الأسلوب، وطريقة رصف العبارات، من انتقال فجأة، والتواء وتطويل، وخشونة وقسوة في الصياغة، وغلبة للعادي والسائد من اللفظ والتركيب، فليس ثمة مزية أسلوبية توازي جمال بعض التأملات، وصفاء الرؤية في خاطرات أخريات.(٣)

ومن الشمولية لهذا الفن أن أشير إلى رسائل أخرى كثيرة سمتها العاطفة والجنوح إلى الخيال، والارتحال خلف غيمات الأحلام والآمال، في مناجاة الحبيب، أو تطلب لوجد يتكالب الزمان على درسه، أو بقايا طلل في القلب تتعاوره الأيام بالمحو والنسيان[٤].

وبعضها الآخر يسعى إلى سبر أغوار الأخوة الحقّة، وتلمس العذر للهفوة والزلة، وارتياد معانٍ سامية في الخلق الكريم، لابد من اصطفائها للصحب والخلان[٥].

---

(١) رسالة «أرحم مثقف العصر»، حاطب ليل ضجر، جـ١، ص٨٩.
ورسالة «ما أحد استطاع أن يقول علمته..» حاطب ليل ضجر، جـ٢، ص١٩٣.

(٢) الرسالة السابقة، ص ٢٠٠.

(٣) رسالة «ما أبعد المسافة بينهم وبين أنفسهم «حاطب ليل ضجر، جـ٢، ص٦٧.

(٤) انظر : نافذة على الحائط المهدوم، هند صالح باغفار، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، ط١ ١٣٩٨هـ، رسائل وجدانية.
وانظر : رسالة إلى حبيبتي، د. منصور الحازمي، في البحث عن الواقع، ص١٨٧، ط١، ١٤٠٥هـ، دار العلوم.

(٥) انظر : رسالة «إلى صديقي البريء في الخيال»، عبدالعزيز عطية أبو خيال، جريدة البلاد السعودية

سابعًا ـــ مقـالات أخـرى :

وفي أدبنا ألوان مختلفة من النثر المقالي المتعدد الأغراض، الذي يشق حصر أشكاله وأبعاده لأن المقالة «موكلة بكل مواضيع الحياة، لذا فإن رصد جميع هذه الألوان أمر مستحيل»[1].

وسيجد من يعرض لها بالدراسة والمقارنة تداخلًا في السياق الكتابي، وفي أسلوب العرض، وطريقة التناول، بحيث يمكن أن يصح إطلاق أي صفة من مسميات المقالة على بعض النصوص المختلطة فإذا قيل عنها وصفية فهي كذلك، وإذا قيل ذاتية فهي كذلك أيضًا، وإذا طال التمعن وتكررت الرؤية إليها يمكن أن تتضح صفات أخرى من القص، أو النقد، أو المحاورة.

ولكن الناقد لمثل هذا الفن العسير لا ينظر إلى اللمحات العارضة في المقالة، وإنما يعيد التأمل مرة بعد مرة في البعد الأول الرئيس الذي أدار عليه الكاتب معانيه، ويكون هو الموضوع للحديث في المقالة إبداعيًّا، وللباحث نقديًّا.

ولأدبائنا كثير من المقالات المختلفة الممتازة ذكرت أن المشقة تكتنف عمل الباحث حين يتجه إلى حصرها وتقسيمها ودرسها، ولذا أكتفي بالإشارة إلى المتفرق المتعدد منها البعيد عن فن المقالة الأبية ـــ حسب التحديد المبدئي لمفهومها ـــ وأقف مليًّا أمام ما امتاز به عن سواه بالخصائص الفنية والجمالية، وأصبح فنًّا مقاليًّا أدبيًّا رائدًا متفوقًا، كما سيمر في الذاتية والوصفية بالأخص.

في ١٣٧٩/١٢/٥هـ.
وكتابه (تجربتي في الأدب والخيال) ص ٢٤٩، مطابع دار البلاد، جدة، ط١، ١٤٠٥هـ، وانظر : رسالة (ذكريات) لمحمد حسن عواد، في كتابه (تأملات في الأدب الحياة، أعمال العواد الكاملة، مجلد١ ص ٤٣٩.
وكذلك رسالتين أخريين للكاتب نفسه : شئون، ص٤٤٢، مناقشة، ص ٤٤٥ المصدر السابق.
وانظر : رسالة ليست للنشر، لحسين سرحان، البلاد السعودية، عدد ٨١٦، السنة الرابعة عشرة، الأبعاء ١٣٦٨/٧/٧هـ. ص٤.

(١) المدخل لدراسة الفنون الأدبية، ص١١١، قطر بتصرف، لمجموعة من المؤلفين.

وكان للأدب السعودي مشاركة في شئون الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية، والوجدانية، فليس غريبًا أن تتوافر أمامنا مئات النصوص المقالية المتعددة الأغراض.

ففي ميدان المقالة الرمزية الساخرة كتب حمزة شحاته ثلاث مقالات[١] في فلسفته الخاصة عن الحمير .. ضمّنها نقده كثيرًا من تصرفات الإنسان، وغبائه، وتهوره، ووحشيته، واستطلف صديقه الحمار لميزاته المتعددة التي يجهلها الإنسان، بل لا يستطيع أداءها، «وهوجم اللطف والتواضع، وفيه إنكار عميق للذات، ووفاء يجب أن يكون مضرب الأمثال .. »[٢].

ثم يسوق أمثلة من ظلم الإنسان للحمار، ورهقه إياه بالشاق من الأحمال، والمضني من الأعمال، ويرى أن سبب اتهام الحمار بالغباء، والبلادة مردّه أن جدّ الحمير الأعلى في التاريخ القديم «قد تمكنت منه الفلسفة، أو تمكن منه الضعف والخرف، ونشأ عن هذا إخلاله بواجباته المفروضة عليه إخلالاً يدل على الغباء، والذهول حتى اشتهر أمره، وتنادر الناس ببلادته وغبائه .. »[٣].

ويمضي الكاتب في دعاباته المرحة الفكهة يصور نفسه من خلال الحمار، وهو يعتقد أنه إنسان يملك حسًّا صادقًا ونقاء وطيبة، وقدرة على العطاء ثم لا يجد من مجتمعه ما يستحقه فيهم المفكر والأديب كالحمار يقول عن صاحبه : «.. وفي الحمار خفّة، وفي حركاته حلاوة، ونظراته لا تخلو من معان تفيض منها العذوبة، وفيه ديمقراطية تصرفه عن الخيلاء، فهو أبدًا مقضي علي أخلاقه وعاداته وميوله التي يندر ألا تكون هادئة جدًا، في سبيل إرضاء صاحبه أو راكبه .. »[٤].

ويصل الرمز إلى الانكشاف والوضوح في تصويره رحلة مع صحبه (التي هي

---

(١) مقالة «حمار» صوت الحجاز، الأعداد المؤرخة بـ «١٣٥٥/٧/٢١هـ، و ١٣٥٥/٧/٢٧هـ، و ١٣٥٥/٨/٤هـ، وهي ٢٢٧ و ٢٢٨ و ٢٢٩. وقد جمع هذه المقالات وغيرها عبدالحميد مشخص ونشرتها دار المريخ بعنوان حمار حمزة شحاتة»، ط١، ١٣٩٧هـ.

(٢) حمار حمزة شحاتة، ص ٢٨.

(٣) المصدر السابق، ص٢٩

(٤) المصدر السابق أيضاً ص ٢٩.

رحلة الحياة الواقعية)، فهم لا تؤلف بينهم إلّا «الإنسانية وإلّا الصحبة»، وحميرهم أشبه شيء بهم (فكان بينها الحمار الحضري والبدوي والأنيق والبوهيمي)[١] .. ويجد أن حماره يتصف بالمزاجية (التي هي طبع الكاتب)، وحب الاستقلال في الرأي، والبحث عن غير المألوف (ولم أجد ضرورة تدعو إلى التحكم في ميوله عندما كان ينتحي يسار الطريق بظرف مخالفًا في هذا الحمير الأخرى التي كانت تتجه إلى اليمين أو إلى الأمام بعناد»[٢].

ثم يطري صوت حماره، ويعرض بأصوات بعض الآدميين المنكرة، ويرى أن صديقه الحمار، أكثر منهم ملاءمة لإجادة درجات السلم الموسيقي، وأكثر رهافة حس، ولطافة معنى، وعلى هذا النحو يصف ما يختلج بخاطره من رؤى وأفكار يجدها أو أكثرها في هذا الحمار الطيّب.

ومقالاته هذه من أجود الأدب الرمزي النثري ومن ألطفه، وأدقه تصويرًا، ففيه القص، والسرد، والفلسفة، والوصف، والإيماء، والسخرية، والنقد العميق القوي يجيء هادئًا متزنًا متشربًا به صاحبه، ومختمرًا في ذهنه من طول مداومته النظر فيه، والإمعان في معانيه.

ومن المقالات القصصية[٣] الجميلة ما كتبه حسين سرحان عن فتى اسمه رشاد «واسع أفق النفس، مختلف مناحي التفكير، على جانب حسن من الثقافة، وقد جاوز الثلاثين، وفيه حياء وفكاهة، وهو ــ بعد ــ عزب وإن كان يحب النساء، كما يحبهن كل رجل، ولكن على بعد وتخوف»[٤].

ثم يذكر الكاتب عن رشاد هذا أنه رأى في السوق امرأة فاتنة الجمال، فلم

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٣.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٣.

(٣) هي قريبة من الأقصوصة إلى حد بعيد، إذ تقدم حكاية، أو جزءاً من حكاية ولكنها تختلف عنها في أنها لا تحفل بالأساليب الفنية لكتابة الأقصوصة». انظر المدخل لدراسة الفنون الأدبية، ص١١٣.

(٤) مقالة : «حلم غريب»، الأضواء، في العدد ٥٥ في ١٣٧٧/١٢/١١هـ، الموافق ٩/يوليه/ ١٩٥٨م، وجميع النصوص المقوسة في الرمز بالحمار من هذه المقالة.

يبح له حياؤه أن يرفع نظره إليها، «غير أن صورتها ظلت راسخة الجذور في ذهنه .. » ثم رأى حلمًا غريبًا، انقلب فيه إلى أذن حمار (لا حمارًا كاملًا) .. (ولكن هذه الأذن اجتمعت فيها كل غرائز الحمار وأحاسيسه وبوهيميته»[١]، ويأخذ الكاتب بعد في قصّ ما حدث لرشاد بعد أن صار تلك الأذن الحمارية ويصفها، وما تدعو له، وما تثيره من رغبات، وما تسكن إليه من أهواء ..

على أن القصد في هذه المقالة الرمزية السخرية والفكاهة والنقد، يتكىء في هذا على نفسية رشاد، ورؤيته لأشياء كثيرة ويأسه من واقعه «حتى في الأحلام لا يمكن أن أكون تامًّا .. أذن حمار؟!»[٢].

ومن التوسع أن نعدد كل ما جاء في هذا الفن وحسبنا أن نقف على نماذج تصور المدى الواسع الذي وصلت إليه المقالة في الأدب السعودي، ومن هذه، مقالات كثيرة عرض بها أصحابها الكتب التي صدرت، أو ما قرأوا وما وصل إليهم إهداء أو شراء[٣]، وقد تعودوا أن يشرحوا ما جاء في الكتاب وينقدوه، ويتتبعوا فصوله، وعناوينه، ثم يذكروا رأيهم في أسلوبه وفكره، فهذا عبدالعزيز الرفاعي يتحدث عن كتاب «الفتنة الكبرى. عثمان» لطه حسين، فيقدمه إلى القرّاء فكرًا وأسلوبًا، ثم يقول : «إنه يجذبني إلى متابعة بحثه الطلي بأسلوبه الشهي الممتع المتدفق»، ثم يقول : «للدكتور طه طريقة فريدة يسلكها في بحوثه عرف بها، فهو لا يتناول الحوادث أو النقاط التي يريد أن يجعلها مدارًا لبحثه ــ آحادًا متناثرة،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر نفسه، بتصرف يسير.

(٣) من هذه المقالات :

ــ الشاعر محمود غنيم، مقال عن حياته، وشعره، وتميزه ببعض السمات الخاصة به. بقلم محمد سعيد العامودي، مجلة الحج عدد ربيع الأول ١٣٦٨هـ.

ــ كلمة عن شوقي «بقلم العامودي أيضاً، المنهل، صفر ١٣٥٧هـ، حياة محمد (تأليف د. محمد حسين هيكل)، بقلم أحمد عبدالغفور عطار، المقالات ص ١٨٦ ــ همسات، ديوان لطاهر زمخشري، بقلم عبدالفتاح أبي مدين، (أمواج وأثباج)، ص ١٩٠، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ط٢، ١٤٠٥هـ.

وانظر : كتاب «من حديث اللغة» لمحمد سعيد العامودي، ثلاثة أجزاء، تهامة، ط٢، ١٤٠٣هـ. وكتاب «كتب وآراء» للدكتور محمد بن سعد بن حسين، جزءان، مطابع اليمامة، ط١، ١٤٠١هـ.

بل يتمثل هذه النقاط ويصهرها في بوتقته الخاصة، ويحيلها إلى رؤى أو فكرة متناسقة متحدة لا تتجزأ، يأخذ بطرف هذه الحادثة ليضمها إلى تلك، وإلى تلك ليقرنها إلى هذه كطرق تتشعب وتختلف لتنتهي عند نقطة ارتكاز واحدة، على هذه القاعدة سلك الدكتور طريقه في بحث هذا الموضوع الدقيق الخطر موضوع الفتنة الكبرى، وعلاقة عثمان رضي الله عنه بها»[١].

ويكتب أدباؤنا عن شخصيات عربية وعالمية مؤثرة في المسار الأدبي والفكري، فيضيفون إلى النثر الأدبي السعودي لونًا متميزًا بالإعجاب الذي يكنه الكاتب للشخصية المعروضة، وشيئًا من الذاتية العاطفية والفنية في هذا العرض[٢].

على أن أدب السيرة الذاتية[٣] في الأدب السعودي لم يصل بعد إلى المرتبة المرجوة من التجويد والاتقان، فنجد منه ألوانًا متفرقة تنحو إلى شيء من ملامح السرد القصصي كما فعل السباعي في كتابه «أيامي»[٤] والتي كانت سابقًا باسم «أبو زامل»، وهو يسجل فيها طبيعة مجتمعه آنذاك في نظرته إلى المرأة، والتعليم، والطب، وتربية النشء، ويصف في مقالات متلاحقة هذه الأنحاء، وفي ترابط يقربها من القصة في ملامحها العامة، أو كما فعل محمد حسين زيدان في أكثر ما كتب عن نفسه، فلا ينسى أن يسرد شيئًا من ذكرياته وما مرّ به من أحداث، ومن التقى بهم ممن أثروا في تفكيره وفي وجدانه، ففي مقالته المتصلة بالسيرة

(١) مقالة : الفتنة الكبرى. عثمان، ثلاث حلقات، البلاد السعودية، تبدأ من العدد ٧٥٨، ١٣٦٧/١٢/٣هـ، ص٧.

(٢) انظر : عزيز ضياء، جسور إلى القمة، تهامة، ط١، ١٤٠٢هـ، من مقالاته ابن سينا، جوته، نوبل، عبدالعزيز البشري، مي، موليير، وغيرها.
وانظر لمحمد سعيد العامودي : عبدالواحد الأشرم، إبراهيم الأسكوبي، في كتابه «من تاريخنا» من ٢٢٩-٢٦٠. منشورات دار الأصالة، الرياض، ط٣، ١٤٠١هـ.

(٣) لمطالعة شيء عن هذا الفن في أدبنا العربي يرجع إلى كتاب «الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث» تأليف : د. يحيى إبراهيم عبدالدايم وكتاب «فن السيرة» د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، سلسلة الفنون الأدبية، ط٢، دون ذكر التاريخ والطباعة نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت ط١، ١٩٧٥م.

(٤) صدرت الطبعة الأولى باسم أيامي عام ١٤٠٢هـ، منشورات تهامة، جدة.

الذاتية تختلط ألوان من المعارف على نسق غريب من تتالي المعلومة وتواردها، كما يتبين لدى الكتّاب الاستطراديين، فنلمح في مقالته التاريخ والنقد والمعارف اللغوية، وذكر خصائص نفسه، ممّا يميز الكاتب المقالي الأديب عن سواه.

فهو في كتابه «العهود الثلاثة»[(١)] يذكر نشأته، وبيئته، وما شاهده في بيئته من تبدل وتغير، وما تعاقب عليها من طرائق وأسباب للحياة والعيش، في الفترة التركية، وقد ألم ببقايا ما يتذكره المسنون من أصحابه عنها، وفي العهد الهاشمي، حيث لم يزل أهله وصحبه قريبين من أحداثه وطبيعته، ثم ما جاء بعد به العهد السعودي على بيئته، وما أحدثه من تغيير كبير في نمط الحياة، وأسلوب العيشة، وطريقة التناول الفكري والأدبي، وانتشار التعليم في معظم أنحاء البلاد.

وهو يتميز باللفظة الرشيقة، والتوالي المعرفي، والتنقل فيه من فن إلى فن، وذكر خصائص النفس تجاه ما يتحدث عنه، فهو يكتب المقالة المندفعة من النفس كالحديث الحميم.

ونجد في أدب السيرة الذاتية الناشئة من المقال ما كتبه د. غازي القصيبي عن نشأته مع الشعر، والمراحل التي مرّ بها، وهو لون جديد في هذا الباب[(٢)].

ونجد أيضًا تلك المقالة القائمة على الحوار والمناقشة، أو إشراك مستمع، أو صديق، أو أخ في تجاذب أطراف الحوار، كما فعل السباعي[(٣)] والجفري[(٤)]، على أن هذا جزء من الشكل الفني، ولكن الموضوع يتعدد باختلاف الكاتب، وتنوع مصادر تفكيره واهتمامه الأدبي، والاجتماعي والعاطفي.

---

(١) نشر عام ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.
وقد ولد الزيدان عام ١٣٤٦هـ، في المدينة المنورة، انظر كتابه «تمر وجمر» الغلاف الأخير.

(٢) انظر كتابه : سيرة شعرية، مطبوعات تهامة، ط٢، ١٤٠٨هـ.

(٣) في كتابه (قال وقلت) مطبوعات تهامة، ط٢، ١٤٠٢هـ.

(٤) في كتابه (حوار في الحزن الدافىء) مطبوعات تهامة، ط١، ١٤٠١هـ.
وانظر مقالة (قتلى وجرحى ومعركة حامية) لحسين سرحان، مجلة قريش، العدد ١٣٠، السنة الثالثة (الثلاثاء ١٣٨٢/٣/٧هـ). ص١٦.

ثم يلفت اهتمام الباحث تلك المقالة الساخرة الفكهة التي كان يكتبها حسين سرحان[١]، وأسهم فيها كاتب آخر اجتهد أن يقتفي أثر السرحان، وهو علي العمير[٢]، ولكن هذا الأخير يختلف كثيرًا عن سابقه من حيث الأسلوب، والتناول، والموضوع.

وأول ما يعجب له قارىء السرحان قدرته على التفكير المبتسم، وغمطه حق نفسه، وإهماله الحديث عنها في مزاياه، واحتفاله بتعداد معايبه ومثالبه، والتندر منها، وإن عرض لعيوب في المجتمع فإنه لا يصدمك بها مباشرة، بل يذهب إلى الاتيان بها بهذا الأسلوب الساخر الممتع، في قوة عبارة، وحسن اختيار للألفاظ، وترابط في الجمل، وفخامة وجزالة، تذكرك بأساليب المجودين في تراثنا، والمجددين في أدبنا الحديث من أعلام البيان، حتى تكون اللفظة في محلها لا تغني عنها سواها، ولا يستقيم السبك بدونها.

---

(١) من هذه المقالات :

ـ أديب يسخر من نفسه.. البلاد السعودية ١٢٥٠، السنة السادسة عشرة، الأحد، صفر، ١٣٧٢هـ، ص ٤.

ـ كراث بن ليمون الفجلي، البلاد السعودية ١٢٦٥هـ، السنة السادسة عشرة، الأحد ٢٦ ربيع الأول ١٣٧٢هـ، ص ٤.

ـ برمانا، البلاد السعودية، ١٧٧٤، س ١٩، الاثنين ١٣٧٤/٦/٢١هـ، ص ٣.

ـ الحلاق ميشال، البلاد عدد ١٣٨٨هـ، السنة الخامسة، الأحد ١٣٨٣/٤/٦هـ، ص ٥.

(٢) انظر بعض مقالاته في كتابه «تحت الشمس».

الفصـــل الثانـــي

المقـــالة الذاتيـــة

أ ــ مفهـوم المقالـة الذاتيـة.

ب ــ أشهـر كتّابهـا.

جـ ــ نماذج من المقالة الذاتيـة.

د ــ الخصائـص الفنية للمقالة الذاتيـة.

أ ــ مفهــوم المقالـة الذاتيـة :

ليس هناك مفهوم محدد لأنواع المقالة بعامة، ولكن آراء النقاد والدارسين تقترب في كثير مما تذهب إليه فيها من تمييز الملامح الرئيسة لكل لون.

وقد نجد شيئًا من الصفات الخاصة بالذاتية في الوصفية، أو النقدية، وخلاف ذلك، بل إن الخصيصة المتصلة بالذات لابد أن تكون واضحة في كل ألوان المقالة الأدبية، لأن الأديب يخلع على كتابته أيًا كانت شيئًا من روحه ووهجه، ونفسًا من عاطفته وانفعاله بالموضوع الذي يكتبه.

فالذاتية إذًا سمة ملازمة للأديب، ولكننا نجدها عاطفة متدفقة قوية في بعض المقالات، ولدى بعض الأدباء، فلا نملك إلا الإعجاب والقبول نبديه لروح الأديب والكاتب، وتدخل مقالته إلى نفوسنا، وتكون أحيانًا جزءًا من ذاتيتنا، لأنه قد يلامس ما في وجداننا من أحاسيس مختلفة، تضطرب بين الألم والفرح، والمسرة والحزن، وتندفع حينًا، ثم تقصر حينًا آخر عن اندفاعها وظهورها.

فالأديب المقالي المبدع هو الذي يرينا من خصائص نفسه ــ التي هي جزء من خصائصنا ــ ما يدعونا إلى أن ننساق إليه مدفوعين بحب البوح، واستقباله، والرغبة في التعبير والإفضاء إليه، عن طريق هذا الاختلاط العجيب بيننا وبينه.

ولعل من أقرب الناس إلينا أولئك النفر الذين يفضون إلينا بما تكنه قلوبهم، وما يسكن في داخلهم، وحين يبتعد حرج الافضاء بين الأصدقاء تكون الصلة أوثق وأقوى، وكذلك الرابطة بين المقالي وقارئيه، وقد وصف المنفلوطي هذه الحالة فقال : «.. وكان أشعر الشعراء عندي وأكتب الكتّاب سواء في ذلك المتقدم والمتأخر والنابه والخامل أوصفهم لحالات نفسه أو أثر مشاهد الكون فيها، وأقدرهم على تمثيل ذلك وتصويره للناس تصويرًا صحيحًا كأنما هو يعرضه على أنظارهم عرضًا، أو يضعه في أيديهم وضعًا .. »[1].

وإذا غابت عن المقالة تلك الروح الشفافة التي تبرق في أثناء الصور

---

(١) النظرات، ص٦٠، جـ١، منشورات بحسون الثقافية، ط١، ١٤٠٧هـ، دراسة وتقديم رياض قاسم.

والكلمات، وتتخطف القارىء إلى خيالات يرى فيها نفسه وذاته غدا هذا النص تصويرًا آليًّا جامدًا، ليس فيه حياة ولا نبض.

فالعاطفة ـــ ومصدرها ذات الأديب ـــ شرط لابد منه لنجاح أي عمل أدبي، يراد له الخلود والبقاء، وربما ما يميز نصًّا علميًّا عن نص أدبي هو خلو الأول من هذه العاطفة الجياشة المتدفقة الفياضة، ولزوم تبينها في ما يصنعه الأديب، إذ هو لا يصور مادة منفصلة عنه وإنما يصور ما يختلج في نفسه من آثارها، وما يمكن أن يضيفه إلى تلك المادة «الموضوع» من عوامل الحركة والنماء والحياة.

إن العالِم ليس له في هذا الباب من نصيب، وليس للعلم ولا للفلسفة، ولا للحكمة، ولا للقوانين، وعلم الحساب، وما شاكل كل ذلك من حظ في التجويد والإمتاع، والتفنن في رسم الصور، وبناء الأخيلة والأحلام، إلا حين يتخلى العالم في شيء من تلك عن نزعته العلمية الجافة المحددة إلى بسط شيء من ذاته، والبوح بما يتأثر به أو يؤثر فيه، حتى يذيب جفاف الأرقام، وقسوة المعادلات وسطوة العقل في السياق الأدبي الجميل. ولكن ذلك أصبح في عداد النادر، فلسنا نرى من العلماء من يكترث بالتزويق، أو يميل إلى البحث في ذاته عن شجونها، وينعكس أثر ذلك في ما يكتب بل إن السمة الغالبة على ما يكتبه العلماء ـ إلّا أقلهم ـــ هي تلك العزلة الكبيرة، والفجوة الواسعة بين ذواتهم ونصوصهم، التماسًا لحقيقة العلم، أو بحثًا عن التجرد من النزعات الذاتية، وابتعادًا عن هوى النفس، ومطامعها في القول والإفضاء .. والبوح والهوى الذاتي هما أبرز ما يمكن أن يتسم به النص المقالي الأدبي، وإذا خلا من أثر لذات الأديب، لم نحسبه في الأدب، ولم نعدّ كاتبه أديبًا مجودًا، ولا مصورًا بارعًا، لأنه أخلى نصه من نفسه، وأبعد هواجسه وخواطره عن هذا الحديث المجرد الذي أسماه مقالًا أو نصاً أدبيًّا.

وهل يميز الشعر عن سواه إلا ما تصوره القصيدة من نفس صاحبها، وما تحلق فيه من أجواء الروح، وأحاسيسها ؟، وهل يقدر ناقد على قبول تلك المقالات العديدة في أبواب العلوم المختلفة، وأفانين مايضطرب في حياتنا من ألوان

المعارف والمخترعات؟.

أليست المادة التي ينسج منها المقالي أسلوبه واحدة ؟ وهي الكلمات والجمل، وربما بعض التعبيرات ؟. إذًا فلماذا ميّزنا هذا النص الذاتي الأدبي عن ذلك النص العلمي الجاف ؟.

والذي يبدو أن المسألة في المقال الأدبي ــ وبخاصة الذاتي منه ــ هي نفسها في القصيدة، فالقصيدة والمقالة الذاتية صنوان، مادتهما واحدة، ونسجهما واحد، ونبضهما واحد أيضًا، وهو دفق القلب، وخفق الوجدان، وتلمس أبعاد الأثر الذي تحدثه الحياة بكل ما فيها من مثيرات على العاطفة والإحساس، «لأن كلتيهما تغوص بالقارىء إلى أعماق نفس الكاتب أو الشاعر، وتتغلغل في ثنايا روحه حتى تعثر على ضميره المكنون، فكل الفرق بين المقالة والقصيدة الغنائية هو فرق في درجة الحرارة تعلو وتتناغم فتكون قصيدة، أو تهبط فتكون مقالة ذاتية»(١).

ولكي نصل إلى مفهوم واضح لهذه المقالة لابد من إيراد أقوال عدة، تكشف عن ملامحها، وتبين منهجها :

فالمقالة الأدبية الذاتية هي تلك التي «يصطنع كاتبها النثر الفني وسيلة للتعبر عن إحساسه بالحياة وتجربته فيها .. »(٢).

وهي «التي تتصل اتصالًا مباشرًا بحس الإنسان وشعوره ونظرته الشخصية إلى الكون»(٣).

وهي «المقالة التي تعتمد على تأمل عميق وتجربة ذاتية، وعناية بالأسلوب من النواحي الجمالية، وأنها أوفى طولًا وأكثر انطلاقًا، وأرق سلاسة، وأن محورها الأساسي الذي تدور حوله هو ذات المقالي، بما تختزنه من تجارب، وما تموج به من انفعالات»(٤).

---

(١) د. زكي نجيب محمود، جنة العبيط، ص ١٤، دار الشروق، ط٢، ١٤٠٢هـ.

(٢) د. محمد يوسف نجم، فن المقالة، ص٩٨، دار الثقافة، ط٤.

(٣) د. محمد بن سعد بن حسين، الأدب الحديث تاريخ ودراسات، ص ٨٥.

(٤) المدخل لدراسة الفنون الأدبية ص ١٠٥.

فقوام المقالة هنا شخصية كاتبها، وتفننه في التعبير عن نفسه، والتماس أجمل العبارات، وأرق الأساليب وأكثرها انطلاقًا وصولًا لصنع نص أدبي موحٍ، في صور وأخيلة، وكشف لذاته وما يعتمل فيها بعيدًا عن التعقيد، والجدل، وإيراد الحقائق المجردة، وسرد المواعظ، وتقمص شخصية الحكيم والمرشد، فهمّ كاتب المقالة الذاتية أن يعبر عن «تجربة حيوية تمرس بها، وتقلب على جمرها»[1].

والذاتية بهذا المفهوم أقرب من سواها إلى المصطلح الذي قدمت به لفن المقالة الأدبية[2]، وألصقها به، وأقواها صلة بنسيج العمل الأدبي بعامة، لتوافر خصائصه فيها، من العاطفة، والخيال، والسلاسة، ورقة الأسلوب، مما يعد من أركان البناء الفني في النص المؤثر الجميل.

وفي الأدب السعودي من هذه المقالة كثير متنوع، فقد عبّر أدباؤنا عن ذواتهم، ووصفوا حالات نفوسهم في مواجهة المتغير الطارىء، وفي التذكر، والنسيان، والغربة، والأماني، والطموح، وحب الوطن، وأحلام تجاوز الرديء إلى الرائع من الرؤى، والجميل من الخيال، واختلفت أساليبهم في تصويرهم هذه الحالات، باختلاف أثر ما يستقبلونه، وما تموج به حياتهم من دواعي الفيض، وعوامل إبداع الأديب البيئية، وباختلاف الطبائع والملكات.

(١) د. محمد يوسف نجم، فن المقالة، ص١٠١.

(٢) انظر : مفهوم المقالة الأدبية، مدخل الفصل الأول، ص ٢٧.

ب ـ أشهر كتّابها :

ليس لأية مقالة كاتب مخصوص، منحها نفسه وجهده، ووقف قلمه عليها، لا يتعداها إلى غيرها، ذلك أن الحياة تدعو الكاتب إلى أن يتماشى مع شئونها المختلفة، وما تبعثه في نفس الأديب من عوامل السخط والرضا، ومظاهر القبول والصد، وما يحدث في المجتمع والبيئة الأدبية من نزعات تقود إلى التفوق والقوة، أو ما يثار من دعوات، وما يمكن أن يشاهد من مسلك لا يرتضيه المقالي، ولا يرى فيه إصلاحًا، أو نزوعًا إلى التسامي والكمال.

ولكن كاتبين معدودين تميزوا بلون دون آخر من فنون المقالة، بما انطبعت عليه نفوسهم من خصائص، وما جبلوا عليه من طرائق في المعالجة والتحليل وإبداء الرأي، فجاءت مقالاتهم صورًا لتلك الطبائع، وانعكاسًا لتلك الجبلات.

فواحد تراه متمرسًا بالجدل والنقاش، والمصاولة في أمور الفكر، أو النقد الأدبي، أو ما يتصل بالعقل والمنطق، فنعده من كتّاب المقالة الفلسفية، والنقدية، وآخر لا تمل منه إفضاء للشجن، وتعبيرًا عن النفس، شاكيًا متبرمًا، أو ساخطًا في غير نقمة ولا تحريض مشين، أو منتظرًا ما يجيء من داعيات الفرح والسرور، يمتح من خياله فيرسم، ويستمطر من سمائه فيروي، حتى يتنامى مقاله بين أفراح ذاته، وآمال روحه، وشجن قلبه، فلا نملك إلا أن نصنف هذه الفئة من المقاليين بأنهم كتّاب للذات، ومعبرون عن النفس، فهم من أرباب المقالة الذاتية المجنحة الموحية.

وتأتي فئة أخرى من غير الفلاسفة والناقدين، ومن غير الذاتيين تصور فتجيد في ما تعرضه من مرامي الجمال، ومسارح الفن البديع، في الطبيعة، والإنسان، في لقاء الخلان واحتفال المكان، ونثار الخيال بما تقع عليه العين، أو ما توحيه النفس إلى صاحبها، فيذهب يصطنع بريشته لوحات جميلات، يتتبع فيها أثر نفسه، وأثر المشهد فيها، وهؤلاء الكتّاب ممن يحتفلون بالتصوير يجوز للناقد أن ينعتهم بالوصفيين فهم كتّاب المقالة الوصفية.

وثمة مقاليون آخرون لا يملكون زمام عاطفتهم الوطنية في الإصلاح واتباع

السبل المفضية إلى تقويم الاعوجاج، والمشاركة بالرأي في مشكلات المجتمع وقضاياه، وما يقف دون تقدمه، وتخطيه حواجز الركود والتثاؤب، فيسهمون بالرأي، يبدونه لينًا طيعًا حينًا، وشديدًا عنيف اللهجة حينًا آخر، وتبدو ذواتهم في انتمائهم إلى الأرض التي عاشوا عليها، يحلمون، ويتمنون، ويحترقون بأحلامهم وأمانيهم حين يطول صبرهم، وينعمون ببعضها حين يرون ما أرادوه في سبيله إلى النضج والاستواء، فهؤلاء من المعنيين بالبحث عن المجتمع الفاضل الرشيد ننعتهم بكتّاب المقالة الاجتماعية.

وقد يتوافر على كتابة لونين من كل ذلك كاتب أو أكثر، بل قد يعرض للباحث كاتب أسهم في فنون المقال كلها، فصور، وباح، ونقد، وأفضى لمجتمعه بآرائه الإصلاحية، ولكنه لابد أن يميّز نفسه في لون دون آخر، وهذه مهمة المتتبع لزخم المقالة الأدبية، وتنوعها، وتراكمها عبر السنين الماضية دون درس ولا استقراء.

وتقضي طبيعة البحث أن أصنف مجموعة من المقاليين في نوع ثم أصنف بعضهم في نوع آخر، مع ما يجلبه هذا التقسيم من مشقة، لاختلاط المقالات، وتعدد مشاركة الكتاب في أغراض كثيرة، ومناحي مختلفة.

وإنما العبرة بالتميز في فن دون آخر، وبظهور خصائص الكاتب الفنية والوجدانية، ودواعي الإبداع في غرض مقالي دون غيره.

وقد حظيت المقالة الذاتية باهتمام أدبائنا الكتاب، لاتساع آفاقها، ورحابة موضوعاتها، فعبروا فيها عن آلامهم وطموحاتهم وأفضوا بمكنوناتهم، وما أثّر في دواخلهم من أسباب الوجد، ونزعات التأمل، والجنوح إلى الخيال.

وقد وجدت أن كتّاب المقالة الذاتية كثر، وأن نتاجهم كثير متفرق غير مجموع، ويصعب حصره، أو الإلمام به، وهو متداخل مع فني الخواطر والرسائل، لبروز ظاهرة الذاتية فيهما، ولكن المقالة باتساعها وما تمنحه لكاتبها من الرحابة تبدو أظهر خصائص، وأوضح سمات، وقد وقفت على أكثرها إشارة إلى التميز، وأقواها دلالة على خصائص كاتبها.

ومن الكتّاب الذاتيين المكثرين :

١ ــ عزيز ضياء[١] :

بدأ حياته الأدبية كاتبًا ذاتيًّا، مغرقًا في رومانسيته وشاعريته، اقتفى أثر صحبه ولداته من أبناء عصره في إقبالهم على الروح المهجرية واستلهام الطبيعة، واللجوء إلى سرحات النفس ومناجاة الروح والتلذذ بالوحدة، والهروب من الواقع إلى الطبيعة والكون في سبيل البحث عن الخلاص الفردي والجماعي.

وكان حب الوطن همّ أكثر الناشئة والشداة ممن وعوا على نهوض العرب في الأقطار الأخرى، واستفاقة الذهنية العربية، وطلبها التجديد، ونبذها قيمًا هشة متخلفة، نمّاها الاستعمار، وأكدها المستوى المتردي للحكم التركي في أواخر عهده، ولعل هذه العوامل وغيرها دفعت الشبان ــ آنذاك ــ إلى الشعور بالملل من الركود السائد، وطلب التغيير، وإثارة الأسئلة المتلاحقة ــ عبر نصوصهم، نثرًا، وشعرًا ــ عن الإصلاح، وبناء الذات بناء جديدًا، مستمدًا من نور الماضي، وإشراق الحضارة الجديدة، وفتوة هذا التطلع لديهم إلى الجديد.

وعزيز كان واحدًا من هؤلاء اتصف بالشاعرية، وتطلب في سكون الطبيعة وعالمها الخاص ما يصرف عنه ضجره وسأمه من الإنسان البائس، والإنسان المتواكل، والإنسان الضعيف الخائر.

وحين تجاوز سن الحداثة، ونشط في حياته العملية انصرف عن مثل هذه الأجواء الحزينة اليائسة من الواقع، إلى معايشة أنضج، ومحاورة مع شئون الحياة أكثر وعيًا ونضالًا، فقد اجتهد كثيرًا في المصاولات النقدية والاجتماعية ــ كما سيأتي[٢] ــ ثم ولج بابًا جدياً في فن الكتابة الصحفية ــ وهو ميدان التعليق الإذاعي، والكتابة السياسية، وهذه ليس لنا بها شأن، لأن كاتبها لم يكن يكتب ليجود، ويبلغ شأوه في فن الأسلوب، قدر اهتمامه بإنجاز ما يطلب منه، مواكبة لحدث، أو شرحًا سياسيًّا لوجهات نظر مختلفة.

---

(١) انظر ترجمته في ص ١٤١ من هذا الكتاب.

(٢) في الفصل الرابع من الجزء الثاني؛ المقالة النقدية.

ولكن الذي يبقى لكاتبنا تلك المقالات الذاتية والنقدية والاجتماعية التي كتبها في السنوات الأولى ــ بخاصة ــ من عمر جريدة صوت الحجاز، وظهر فيها توجه جديد في الكتابة النثرية، تتسم بالسلاسة والسهولة والتكرار، والأخذ بأسباب جمال التدفق النثري، ومحاولة استلاب القارىء وإثارته بما يضيفه الكاتب إلى أسلوبه المنسجم في جمله وعباراته من أفانين الصنعة المقبولة، ومظاهر الشخصية القوية في كل ذلك.

وهو في ذلك يسعى إلى أن يكون طه حسين جديدًا، من حيث هو معجب بالأسلوب السهل الممتنع، وبالإيقاع الطويل المتوازن، وبالتكرار والإعادة، وبإحياء عبارات تراثية لها إيقاع موسيقي خاص، وبالسخرية المبطنة، والنقد العنيف، والرفض القوي لما يعتقد أنه صالح ومقبول.

وحين تطغى صفات كهذه على شخصية المقالي فلابد أن تكون آثارها بينة في أسلوبه، وفي مناحي تفكيره، وفي مجالي نفسه، فلا يملك إلا أن يتحدث عن ذاته، لأنه يعتز بها، ويراها حقيقة بالتعبير عمّا تكنّه، وما تشعر به، ثم لا يملك أيضًا روحه عن الانطلاق إلى حيث ترى أمانيها وأحلامها، في شاعرية اللفظ، وخيالية المعنى، وطبيعية الإفضاء السهل في كل ذلك.

وقد عدّه دارسون رائدًا من رواد النثر السلس الممتع، على الرغم من قلة المتيسر من نثره هذا بين أيدي القارئين والدارسين لضياعه في بطون الصحف، إلا أن عنايته بالأسلوب تكاد تطغى على صناعته للفكرة، وعنايته باكتمالها ونضجها، فكأنه يرى ذاته في أسلوبه، تجويدًا وإيقاعًا، وتناغم عبارات فهو «يبلغ حقًّا الذروة في النثر السائغ السلس القوي الآسر .. »[1].

واعتناؤه بالفن الأدبي في مقالات النقد والحديث عن الذات لا يعفينا من أن نجد شيئًا من المتعة الفنية في مقالاته الأخرى، لأنه «يمكن أن يعد من كتّاب المقالة السياسية ــ الاجتماعية الناقدين المجيدين»[2] أيضًا.

---

(١) عبدالعزيز الرفاعي، الغلاف الأخير من كتاب عزيز ضياء «حمزة شحاتة قمة عرفت و لم تكتشف»، سلسلة المكتبة الصغيرة، ط١، ١٣٩٧هـ

(٢) د. علي جواد الطاهر، معجم المطبوعات العربية، جـ٢، ص١٢٨.

٢ ــ حسين سرحان[١] :

ناثر من طراز خاص، استقل بشخصية كتابية متميزة، قلّد المازني في سخريته، وفي الحديث عن نفسه، وفي بعض أسلوبه، ثم انفرد بطريقة في الكتابة غير متبعة عند غيره من الكتّاب السعوديين، إذ يعمد إلى إحياء كثير من اللفظ الأصيل في غير تقعر ولا إغراب، ويطيل في اتباع التوازن الموسيقي للفقرات، فلا تذهب في قراءته بعيدًا، حتى تعود إلى الإيقاع نفسه، مما يضفي على النص جمالًا فنيًا خاصًا، فهو يجمع بين متانة العبارة وأصالتها وحسن سبكها إلى الخفة والرشاقة، والسماحة، وحسن المدخل، وجميل الاعتذار، ولطافة الفكاهة التي ما تنفك تشيع في ثنايا أكثر مقالاته.

والعجيب في شخصيته أن السخرية المرة الحزينة لا تفارقه، ولا ينساها في جلّ ما يكتب على إحساسه المفرط باليأس وغلبة التشاؤم واستيلاء هاجس الموت على روحه، بل طلبه له، وسعيه إلى النجاة ممن حوله عن سبيله.

فصورة «الزمان الأنكد»[٢] تتراءى له في تحليله، وتعليله، فليس ثمة فضل في هذه الدنيا، ولا يمكن أن تقع العين على فاضلين، ويرى أن ذاته ليست فاضلة، لأنها من هؤلاء الناس غير الفاضلين، (كلا إني لست فاضلًا، بل ما زلت من أبعد الناس عن أن أكون ذلك الفاضل)[٣].

وهذا الإحساس اليائس يدفعه إلى السخرية بما في أيدي الناس، والشعور بالراحة لفراغ اليد من المال والنشب، «راحة الذي لا يأسف على شيء، ولا يتحسر على مفقود، لأنه لا يستشعر لذة الملك، حتى يحسّ بألم الفقدان»[٤].

---

(١) سبق أن تقدم التعريف به.

(٢) مقالة : قيمة الانسان، البلاد السعودية، عدد ٩٥٠، س١٤، الأحد ٢٧ ذو القعدة ١٣٦٩هـ، ١٠ سبتمبر ١٩٥٠م ص٤.

(٣) مقالة : أنا لست بفاضل، البلاد السعودية، عدد ٧٧٢، س١٣، الأحد ٢٧ محرم ١٣٦٨هـ، ٢٨ نوفمبر، ص٤.

(٤) مقالة : قيمة الإنسان، الآنفة الذكر.

وهو لذلك ليس غريبًا على عالم الفناء، ولا نكرة في عالم الأموات، لأنه لا يستلذ بمعاني الحياة، فحين يجيء إلى خاطره هذا الهاجس لا يملك نفسه من تمني الموت واستعجاله[١]، في روح يائسة محبطة.

ولعل هذا كان سبباً في قلة احتفاله بنتاجه الأدبي، وانصرافه عن جمعه ونشره، وكلفه بنسيانه، ومحوه، «.. وأحرقت شعري وآثاري الأولى، وأرحت الناس ونفسي من شرها وركاكتها، فإن الناس لا يزاد على ما بهم، فلعل الله يلطف بعباده»[٢].

وقد ملكت عليه هذه النفس الكئيبة دروب حياته، فما زال يردد برمه من الحياة والأحياء فذهب في عزلة خاصة به، لا يقربه أحد، ولا يقرب أحدًا، بل دعا إلى ذلك في إحدى مقالاته، مما أثار الحريصين على أدبه وفنه[٣].

وقد لامه الناقدون على ضعفه وتهالكه أمام صرامة الحياة، وشعث العيش، وسقم بعض الأحياء، فهو عند بعضهم «لا يعيبه شيء غير أنه يؤثر العزلة والانطواء .. »[٤].

---

(١) مقالة : ساعة صمت، البلاد السعودية، عدد ٧٨٣، س١٣، الأربعاء ٦ ربيع الأول ١٣٦٨هـ، ٥ يناير ١٩٤٩م، ص٤٤.

(٢) مقالة : النشر والشعر وأشياء أخرى، البلاد السعودية، العدد ٦٤٨، س١٢، الاثنين ٨ جمادى الأول ١٣٦٦هـ.

(٣) مقالة : فك الارتباط بين السرحان والأدب، المحرر، البلاد، عدد ٤٥٧٥، في ١٣٩٤/٢/١٦هـ، ص ٥، حيث أشار السرحان في رسالته إلى محرر صفحة «أدب وأدباء» إلى أنه يائس محبط من كل شي..، وانظر قصيدته (رثاء) التي يقول فيها :

ارثنـــــي ارثنـــــي فسوف ألاقي	لذة الوصل بعد طول الفراق
لـــذة الـوصل في تـراب بـرود	بـرد لقيـا الهوى على الـعشاق

ثم يقول :

فمتـــى يستـريح جسم عليـــل	أنفـــق العمـــر أيمـــا إنفـــاق
في كِذاب من الحياة وفي بحر من	الجهـــل وفي مهمـــه الإخفـــاق
ومتـــى يستعـــاد روح لطيـــف	بعـــد إشفـــاق إلى الإرمـــاق
إنّ عـيشاً على نفـــاق وجبـــن	لهو الموت تحت سبـــع طبـــاق

انظر : الأربعاء الأسبوعي، السنة٥، ٢٤ صفر ١٤٠٩هـ، عدد ٢٧٥، ص٥.

(٤) انظر : كتب وآراء، جـ١، ص١٨٨، د. محمد بن سعد بن حسين، ١٤٠١هـ.

وأبدى بعضهم أسفه لاحراقه جملة من أعماله، وتناسيه بعضها، وإهمالها في طيات الغيب. ثم عابه آخرون لاغراقه في ما ينسجه لنفسه من عوالم وخيالات يعيش فيها منفردًا معزولًا، فكأنها ضرب من البوهيمية المطلقة المتصلة بالذهن والتفكير، والمحاطة باليأس.

ولكنهم لا ينسون أبدًا الاعتراف «بتفوقه في كتابة المقال»[١]، والتقدم فيه على كثيرين[٢]، فلمقالاته شخصية متميزة «هي سمة الإبداع، وفي مقدمتها، غير بنائها العام وتسلسل فقرها عنف في الروح، وسخرية، وقوة في الرأي، وجمال في الصورة، ووثبات تزيد النص حياة، والقارىء تنبهًا .. »[٣].

ولم يجمع من مقالاته إلا القليل، وبقي له متفرق كثير في الصحف والمجلات، تحتاج لمتتبع دقيق ينقب عنها[٤]، ويدرسها، فميزته في النثر الفني توشك أن تتفوق على كونه شاعرًا[٥]، لأنه في القصيدة يكدها في التفكير والتساؤل ومحاورة الغيب والكون والفناء، على حين يتبسط في هذه المحاور عندما ينثر، فيملحها بشيء من الدعابة والسخرية، ويحسّن ما كان منها ثقيلاً على النفس، دافعًا للتشاؤم بالحبكة القصصية والعبرة، والتفكه الجميل.

ولربما كان لعيشة الصحراء التي نال طرفًا منها في البادية أثر في ترفعه عن البهرج والزيف والتضليل[٦]، واتباعه طرائق الخلق الحميد في الصدق مع النفس، والكلف بما تحض عليه قيم تلك الصحراء من الصلات الحسنة والترابط بين المجتمع، والإحساس بعمق الانتماء إلى الأسرة والأهل، ومن ثم لما رأى أن

(١) د. عمر الطيب الساسي، الموجز في تاريخ الأدب العربي السعودي، ص ١٠٩.

(٢) انظر : الأديب الحديث تاريخ ودراسات، ص٣٢٤، د. محمد بن سعد بن حسين.

(٣) د. علي جواد الطاهر، مجلة العرب، رمضان وشوال جـ٣، السنة ١٤٠٥ﻫ، ص ١٨٥.

(٤) قام الدكتور يحيى محمود ساعاتي بجمع نخبة مختارة من مقالات السرحان، من صحف مختلفة، وطبع ذلك النادي الأدبي بالرياض (من مقالات حسين سرحان) طـ١، ١٤٠٠هـ، وله كثير غير هذا ينتظر الاخوة دارسي البيلوجرافيا لأرشفة مقالاته، ومقالات غيره التي تكتظ بها صحفنا ومجلاتنا.

(٥) انظر المقدمة التي كتبها حمد الجاسر لديوان السرحان «أجنحة بلا ريش»، ص١٠، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، طـ٢، ١٣٩٧هـ.

(٦) عبدالسلام طاهر الساسي، الموسوعة الأدبية، جـ٢، ص٨١.

المدينة في غلوائها وسعارها المشينين يلتهمان كثيرًا مما تعارف عليه بين أهله في الصحراء، واصطلح عليه مع نفسه، لم يحتمل هذا الاغتيال لمعانيه المضيئة الجميلة التي نشأ عليها، مما أحدث في روحه تصدعًا نفسيًّا كليمًا، عبّر عنه بالأسى المر، والخيبة من الواقع، والكآبة السوداء، وتمنى الرحيل.

٣ ـ محمد حسن فقي[١]:

يعبّر عن الألم والأسى في شعره ونثره، ويدير حواره مع نفسه ومع أشجانه بأسلوب سهل، وصور قريبة من الذهن، عميقة التجربة، إنسانية الهدف والغاية.

ولعله في شعره أكثر وضوحًا، وأجلى صورة، وأوفر تدفقًا وإكثارًا، إذ إنه في نثره مقل مقتضب، موازنة بشعره الكثير المتوالي، إلا أن روحه اليائسة، ومزاجه القانط من إصلاح المعوج في السلوك الإنساني، والبيئة الاجتماعية لا يفارقان نتاجه النثري أيضًا، على الرغم من اتخاذه العقل مناطًا لكل ما يبحث عنه، واتباعه سبل المحاورة الفلسفية الهادئة، وبحثه عن الحلول المثلى لمشكلات الإنسان في أسلوب هادىء متزن.

وقد كان في مقتبل حياته مقبلًا على النثر، والكتابة المقالية، إبان نشأة صوت الحجاز أوائل الخمسينات الهجرية من القرن الماضي، ثم اضطرب نتاجه بعض السنوات، وأخذ يطيل الغياب، ثم يعود معتلًا، شاكيًا، باثًا همه النفسي، وتبرمه بما يحيطه من موانع وعقبات، ومظهرًا للناس شكواه من «نفس دائمة الألم، دائمة القلق»[٢].

ومبينًا كلفه بالتعبير في جو طلق نقي غير ملوث «وكم جرّ علي هذا التنفس الحر من عداوات ذات مخالب وأنياب .. لكن الله سبحانه أعانني على احتمال كل هذا العنت بصبر جميل .. »[٣].

ثم يزيد من أساه ما يراه من الاسفاف في الأخلاق، ومن الاستهانة بالمثل العليا، ومن الوصولية والنفعية، حتى أصبح الأدب بابًا لكل رزق، سواء كان طيبًا أم رديئًا ..، وحتى غدت صناعة الكلمة منفـذًا للواغلين والقاصرين والطامعين «إن أشد ما أعتز به في آثاري الشعرية والنثرية، إن كان عندي ما يستأهل الاعتزاز هو

---

(١) سبق أن ورد التعريف به في هذه الدراسة.

(٢) مقالة : جواب على سؤال، زاوية (لمسات)، جريدة البلاد، عدد ٦٩٧٣ وتاريخ ٢ جمادى أولى ١٤٠٢هـ، ٢٥ فبراير ١٩٨٢م، الخميس ص١٢.

(٣) المصدر نفسه.

صدق الإحساس، فأنا دائمًا صادق مع نفسي، مع مشاعري وأحاسيسي، مع أفكاري .. وسواء أكان ذلك دسمًا أو هزيلًا، لا فرق عندي ما دمت أصدر عن صدق لا مَنَّ فيه ولا رياء ولا زلفى وتملق .. »[١].

وحين عزم على نشر يومياته في صوت الحجاز قدمها له أحد أصدقائه شارحًا مذهبه في الحياة، ونظرته إلى النقد، وأسلوبه في فهم الناس، ومعللًا ما يعتوره من الحزن والأسى، «والدموع في هذه اليوميات، دموع القوة المغلوبة على أمرها ودموع الرجولة المقيدة، والطموح المكبوت، والفضائل المجفوة، ولن تجد فيها أثر الضعف والاستسلام.

أما كاتبها الأستاذ الصديق محمد حسن فقي فإنه مفكر كثير الصبر، وهمومه من ذلك الطراز الذي تتمثله في ذوي الأمزجة الحساسة .. »[٢].

ويأخذ الفقي في ملامته الدهر، فتستولي عليه هذه الرؤية للزمان، وتقلب الحظوظ، ويرى نفسه لم تنل مما يصلح لها إلا أقله، على حين يعتريها المين والغبن من تقلب كثيرين في رغد العيش، وجميل المنقلب، فهو لا يرى لهم في هذا الحظ الطيب إلا أقله، لتفريطهم في القيم، وسوء طبعهم، وقلة إدراكهم، فهو يسأل شيخه عن هذا المعنى فيقول : «فإني لا أود أن أسأل شيخي عن القدرة والشهرة، فلقد أعياني حلّ لغزهما المحير، فهناك قدرة فائقة ما يرتاب أحد في أن صاحبها جدير باحتلال أرفع مكانة والاستحواذ على أبعد صيت .. ولكننا نجده برغم هذا مغموراً حتى ليحسبه الجاهل خاملاً وهو أبعد ما يكون عن الخمول، فندهش لما نراه .. وتتضاعف دهشتنا حينما نرى إلى جانبه آخر يحتل المكانة المرموقة ويتمتع بالصيت البعيد ويحظى بالشهرة المستفيضة، وما هو من ذلك بمستحق، فهو ضيق العطن سطحي الخبرة، قليل العلم، ولقد يكون إلى جانب هذا سيء الخلق فظ الطباع، وصاحبه منه على النقيض .. فما هو سر هذا

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مقالة : يوميات محمد حسن فقي، بقلم (ح)، وأذهب إلى أنه حمزة شحاتة، وقد يكون أخذ حرف الحاء من (حمزة)، وفي مقالته هذه صلة كبيرة بأسلوبه المعروف بالقوة والمتانة والثقة. صوت الحجاز، عدد ١٥٩ في ربيع أول ١٣٥٤هـ، ص١.

وما تعليله عند شيخي ؟.

قال له الشيخ وهو يرى مريديه يصيخون السمع إليه باهتمام ويرتقبون إجابته بشوق متلهف : «إنك — يابني — لتضع يدك على سر من أسرار هذا الكون العجيب. وكأني بك تتمثل قول القائل :

كم عالم عالم أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

..إن القادر المغمور واجد ولاشك فئة خاصة من الناس تؤمن بقدرته وتعجب بها وتحلّها وإياه من نفوسها مكانًا عليًّا .. وما عليها من تلك الشهرة والمكانة، ولا ذلك الصيت المدوي. فإنها لتراها أشبه بالفقاقيع التي سرعان ما تتلاشى ولا تترك وراءها إلا الفراغ، وهي لا تحفل بها ولا بأولئك المنخدعين بها من العامة، وهي — إلى ذلك — تعرف أنه سيأتي اليوم الذي تأخذ فيه هذه القدرة حقّها الأوفى من المكانة والاعتبار والذي تتوارى فيه تلك الأضواء الكاذبة التي غرّت من لا يستحقها، وتتلاشى وتتقلص المكانة والتقدير، وينفض الناس من حول مخلوق هو أشبه بالتمثال منه إلى الإنسان، الذي كرمه الله بالعقل والخلق والعلم .. »[1].

وهو يصف لنا شيئًا من هذه النفسية القلقة التي يحملها بين جوانحه، حين يتحدث عن ملامح أديب أخفق في البحث عن مكانة له بين أهله ولداته، لأنه مسكين طيب المعشر، فقد «جنى عليه إحساسه فهو يعيش بغير قصد، ويسير لغير وجهة، ويسعى لا إلى غاية.

نبيل في وقت قلّ فيه أن تجد النبيل، كريم في زمن ندر أن تعثر فيه على كريم، مثقف كأحسن ما تكون الثقافة آخذ من كل شيء بطرف، ينظر إلى لباب الحقائق، فيحفل بالجوهر دون العرض، كريم طيب لكنه مسكين .. »[2].

---

(١) فيلسوف، ص ٦٧،٦٨، المكتبة الصغيرة، رقم ٣٢، ط١، ١٤٠٠هـ، مطابع الروضة، جدة.

(٢) مقالة : أديب، صوت الحجاز، عدد ٢٤٩ في ١٣٥٦/١/١٠هـ، ص ٤، وقعها بـ «م» جدة، وأرجح نسبتها إلى محمد حسن فقي، لوضوح شخصيته فيها، من حيث النفسية القلقة، وتبين خصائص الفقي الأسلوبية من الجزالة والتماسك، وانظر مقالة الفقي «يوميات» «في صوت الحجاز، عدد ٢٠٤ في ٦ صفر ١٣٥٥هـ، ص١، من حيث أنه عبقري رهيف الحس، أوصدت في وجهه السبل. وسيرد ذكر هذه المقالة في نماذج هذا الفصل، ص ٣٠٥.

وأحسب أن من يتبرم بالسلوك الشائن هو ذلك الإنسان الرهيف، اللين الجانب، الكريم المعشر، وأن من يلقي من أمره عنتًا هو من يحزم في سلوكه قولًا وعملًا، فحين يفجؤه أحد ممن حوله بما يخرق ناموسه الذي يتبعه يشعر بمهانة الخلق، ودناءة السلوك، وانحطاط المعاني الفاضلة في نفوس البشر.

والفقي يلقي لائمته على البشر أنفسهم، لا على التقاليد، ولا على الموروث من العادات، ويصف الدهر بأنه أكثر لطفًا، وأوفر مجاملة للإنسان نفسه، فهو في مقالة حوارية أخرى يخاطب الدهر فيقول :

«إنك أيها الدهر قاس في نفسك صارم في أحكامك، ففيم هذا المظهر المغري الجذاب»، ويرد الدهر :

ــ ألا تعلم أنكم أيها البشر فيكم من له نفس الذئب في جلد الحمل ورقة الماء في صلابة الحجر.

ثم تغيّر فجأة واخشوشن صوته، وزعق بصوت دونه الرعد :

ــ خدّاعون أنتم أيها البشر ــ وقليل منكم من يدين بالحق ويعرف الصراحة.

قلت : ألست الأستاذ العظيم ؟.

قال : بلى، ولكن فيكم من بزني نفاقًا وقسوة، فيكم من هو أفتك من الوباء وأضرى من الوحوش، فيكم من هو أعتى مني عليكم، ولكنهم مع كل ذلك يسترون قبح نفوسهم وشراستها بطلاء من الخداع والمجاملة .. ألا إن أولئك لهم معي يوم عصيب، فلينتظروا .. »[1].

ولربما أن وراء هذه الشكوى من قسوة الإنسان تجربة قوية عنيفة هزت مشاعر الكاتب، وأثارت كوامنه، ودعته إلى أن يتأمل ويناجي ويشكو «إنه يستلهم تجربة واحدة، لابد أن تكون قاسية، أو أنه رآها على درجة عالية من القساوة بمقتضى رهافة في الحس ونقاوة في النفس وعزة في الخلق وترفع عن الشكوى المباشرة. يستلهمها ولا يحددها أو يصرح بها. وفي هذا سر لديمومتها وسر لغموض

(١) مقالة : خواطر الأسبوع، وقعها بـ «ابن جلا» صوت الحجاز، عدد ٢٩ في ١٣٥١/٦/٢٣هـ.

جوانبها على القارىء والسامع»[١].

وهو في هذا ينزع إلى حيث يكون التفكير النفسي الصوفي، الغامض أحيانًا، والواضح أحيانًا أخرى، والمستشف إجاباته في شواهد الكون، وأحداث الطبيعة، وتقلبات الخلق، ودلائل الإعجاز الإلهي، وقد سعى إلى أن يكون صاحب رؤية فكرية محددة، وبخاصة في كتابه «فيلسوف»، المتكون من أربع مقالات بين الشيخ ومريديه، في حوار أجراه كاتبه بأسلوب النثر الفني المجود حول مسائل مختلفة، من الجمال، والعقل، والعلم، والشهرة، والحظ، والمسئولية، والفن، وسواها[٢].

غير أن روحه الرهيفة لا تحتمل الصدمات المتوالية، فلا يملك إلا التعلق بالرجاء، والسعي إلى استجلاء الآمال الخلب، يكبو في طريق وعرة وعثاء فيستجمع ما تبقى فيه من عزيمة ينهض بأثقال نفسه، ويمضي يستدر ابتسام الأيام، ويناشد الجميل في القادم من الحظوظ.

ونفسيته القلقة الوثابة هيأت له أن يرى ـ في بعض ما يراه ـ الحلو مرًّا، والانتصار كبوة، والأحلام سرابًا، فعاش تتنازعه قوة الطموح وضعف اليأس، وانداياح الخيال في ما يحسب أنه سيفوز به أو ببعضه ثم الخيبة وقبض الريح.

وحين تكون الرغبة في امتلاك السامي من الأمور، والعالي من الإنجاز أكبر من مساحة الواقع الاجتماعي ترتد الآمال السامية الكبيرة سهامًا تأكل صدر صاحبها، وعذابًا ينهش أحاسيسه وتفكيره.

والفقي ـــ في نثره وشعره ـــ يصور نفسه بالعائد من رحلة الحياة بلا غنم، وبالكبير الذي يستصغره قومه، بالموهوب الصناع الذي يضيع قدره عند العاجزين وقاصري الموهبة وكارهي التميّز.

---

(١) د. علي جواد الطاهر، معجم المطبوعات العربية، جـ٢، ص٢٤١.

(٢) احتذى في هذا أسلوب طه حسين ونهجه في كتابه «جنة الشوك» «حيث أجرى حواراً في شئون شتى بين التلميذ وأستاذه، وأجرى الفقي حواره بين الشيخ ومريديه، فوفق في الصياغة، وحسن التأمل، وقوة العرض.

ولنقرأه يصف لنا لحظة فشل واحدة اعتورته فصار يقتات آمالًا مختلطة مضطربة بين التعلق بالأحلام ومكابدة ألم الإخفاق :

«.. لقد فشلت اليوم فشلًا بغيضًا مزدوجًا فاصطرعت بصدري عاطفتا يأس ورجاء، وسيتغلب الثبات والمغامرة برجائها على التقهقر والخوف بيأسهما، وسأفوز بمبتغاي ما لم أكن مُحارياً من القدر، وما لم يضع نحس المطامع أشواكاً في طريقي.

أيتها الخيبة، أنت درس واعظ هزاز ينير الأذهان، ويفتح البصائر ويباعد العثرات فحيهلًا بك وبالفوز المترائي من خلف.

فهو يرى أن القدر قد رسم له طريق الفشل، وأن الحظ الرديء يلازم مساعيه، والناس أعوان لهذا الحظ في إعثاره وخساره، فيأخذ في معاتبة نفسه حينًا، وفي معاتبة من حوله حينًا آخر.

ويقترب كثيرًا من التفكير الرومانسي «في تناقض الشعور، بين اليأس والقنوط، والأمل الذي لا حدود له، وبين حب الحياة والغناء لها، وبين السأم منها والنقمة على الشريرين من الأحياء فيها، فهو في لحظة واحدة قد يجمع بين قمة الشعور بالخيبة والحزن، وبين السعادة المفرطة .. »[(١)].

أما أسلوبه فقد وصل به في بعض مقالاته ـــ ومنها فيلسوف ـــ إلى مرتبة عالية من التجويد والإتقان، واحتذاء مدرسة البيان الأولى أمثال الجاحظ، وابن المقفع، وأبي حيان، والمدارس المتأخرة في النثر الفني، بأعلامها البارزين في عصر التجديد، أمثال طه حسين، وزكي مبارك والمازني وغيرهم.

وأظهر اهتمامًا كبيرًا باللفظة يشتارها من تراث الأقدمين، مما له رونق وبهاء، يحييه في أسلوبه، ويتنغم به في جمله، فهو «رشيق الأسلوب، قوي العبارة، واضح الفكرة عميقها، واسع الثقافة»[(٢)].

---

(١) د. عمر الطيب الساسي، الموجز في تاريخ الأدب العربي السعودي، ص ١٠٤.

(٢) د. منصور الحازمي، مقالة «مواقف نقدية»، جريدة الرياض، عدد ٦٠١٠، السنة الحادية والعشرون، الخميس ١٤٠٥/٣/١٤هـ، ١٩٨٤/١٢/٦م، ص١٣.

وله آثار نثرية متفرقة في صوت الحجاز، والبلاد السعودية، وغيرهما يمكن أن تدل عليه ناثرًا متميزًا، متفوقًا في هذا النثر، ومتسمًا بخصائص فردية في الصياغة والعبارة أكسبت مقالاته قوة وجمالًا وقد تحدث عن نهجه الاستقلالي في بناء ذاته فنيًّا «لن أنام على وسائد غيري، ولن ألاشي شخصيتي في شخصية مهما عظمت، ومهما كان لها في نفسي مكانة التقدير والإعجاب .. قد أتأثر وأنفعل وأكبر وأجل، ولكنني لن أسمح قط بانصهاري في بوتقة تلك الشخصية، بحيث أكون صورة ممسوخة منها، أنا راض بفكري، راض بمشاعري، حسبها أنها صريحة صادقة، وحسبها أنها إذا لم تجد معدى عن الصراحة آثرت الصمت، أو قنعت بالرمز والايماء تاركة للعقول النيرة فهم ما وراء السطور»[1].

---

(١) مقالة : جواب على سؤال، جريدة البلاد، العدد ٦٩٧٣ وتاريخ ٢ جمادى الأولى ١٤٠٢هـ، ص ١٢.

٤ ــ أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري[(١)] :

مقالي ثر اللفظ والمعنى، اجتمعت لديه أسفار عديدة من كتاباته الكثيرة في صحف مختلفة تتبين في كتاباته آثار التفكير والنزوع إلى العقل، كما تتبين منها أيضًا ذاته دون خفاء أو التواء، حينما يتحدث عن نفسه بين حين وحين، تاركًا لما في خاطره من هاجس أو رأي أو عاطفة جامحة يظهر دون ممانعة منه ولا إعسار، وهو يقتدي في هذا بشيخه ابن حزم فقد «كتب عن نفسه في (مداواة النفس) وفي (طوق الحمامة) وفي أكثر موسوعاته الخالدة : لا ينسى نفسه وهل أنا إلا من غزية .. الخ إنها غزية الذي يقول : وتشبهوا إن .. الخ»[(٢)].

وفي مقالاته نجد روحه جلية واضحة، تحيط بها هالة من البحث عن الحق والخير والجمال، ويلفها شيء من السمات العالقة بحرص العلماء على اتباع المأثور من محامد السلوك، ومحاسن الخلق، ويخرج عن هذا الوقار بعض ما يستملحه من أطايب الفن، ونزعات النفس، وسرحات الهوى.

---

(١) محمد بن عمر بن عبدالرحمن العقيل، من آل عبدالوهاب من الخزرج، ولد عام ١٣٥٩هـ، بشقراء ودرس في الكتاتيب، ثم الابتدائي، وعاد للتمهيدي ــ وهو ما يعادل الخامسة أو السادسة الابتدائية ــ لأجل الالتحاق بالمعهد العلمي، ثم درس في المعهد العلمي، فكلية اللغة العربية، السنة الأولى، لكنه لم يكمل دراسته فيها، فالتحق بكلية الشريعة، ثم معهد القضاء العالي، ونال الماجستير في موضوع «تفسير آيات الأحكام في سورة الطلاق»، ولم يكمل دراسته العالية، لأنه يقول : «لن أسلم لحيتي لمشرف يتحكم في عقلي».

رأس النادي الأدبي بالرياض سنوات، وعمل في وظائف عدة آخرها مديراً عاماً للادارة القانونية في وزارة العمل والشئون الاجتماعية، وهو عضو في المجمع اللغوي بالقاهرة، ورئيس كتبة التوباد (وهي مجلة فصيلة تعنىٰ بالبحوث الأدبية والفكرية).

وصدر له حتى الآن ستة وأربعون كتاباً كان يوقع بعض مقالاته في جريدة القصيم ومجلة اليمامة بأبي نفلا.

اعتزل مداعباته الفنية، وعبثه الأدبي ـ كما يزعم ـ إلى شيء من الصرامة والأخذ بالمستحبات والنوافل.

انظر الصفحة الأخيرة من كتابه «لن تلحد» مطبوعات تهامة، طـ١، ١٤٠٣هـ، وقد أفادني مشافهة بما ذكرتُ عن حياته.

(٢) مقالة : أذكياء بلا عقول، الفنون الصغرى، السفر الخامس، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، طـ١، ١٤٠٥هـ، ص٢١١.

ولولا ما خرج به ابن عقيل في مقالاته الذاتية من هذا القبيل وإلا لعدّ من كتّاب المقالة العلمية أو الفلسفية، وربما النقدية، لأنه ينزع في أكثر ما يكتب إلى طرائق البحث العلمي، واستقراء النصوص، واستبطان الأقوال، ثم إبداء الرأي الجامع في المسألة، وهذا ليس من أدب المقالة الأدبية ولا من صفات الكاتب الذاتي.

ولكننا نجد ابن عقيل المنطلق المتدفق المترسل فيما يكتبه عن نفسه، وعن خطرات روحه، ومكامن الحسن التي ينشدها، ويتعلق بها في المرأة، والفن، وجمال الكون، ويكاد يقترب من الكتاب الذاتيين البليغين لو أخلص لهذا الجانب، ومنحه من ذاته مزيدًا من الفيض، ومن روحه الرهيفة شيئًا من التتابع، إلا أن خصيصته الذاتية تضطرب في زخم المعارف التي يلقنها طرسه، ويحفظها قلمه، وما يفتأ يأخذ نفسه بالعزيمة والجد لتحصيلها، واكتساب ما توصل إليه من حقائق وإجابات، فتضيع في نصه ذاتيته المشتتة بين الدفق العاطفي البارق، وبين المعلومة الحاضرة والموقف الفكري العقلي المستحكم.

ولذا لن يحسبه ناقد كاتبًا مخلصًا للذات، وإن وجدت له تلك المقالات النفسية المتفرقة، فهو يجمع بين الروح العلمية، والرؤية النقدية، واللمحة الذاتية الذكية الواثقة.

وأكثر ما يثير ذهن قارىء هذا الظاهري[١] اعتداده بنفسه، وذكره غمط من حوله لمن يمتلكون الذكاء والكياسة، والابداع، وقلقه من التفكير في وسيلة العيش، وأن هذا مما يصرفه عن الفكر العقلي المحض، فهو يستجيب لدواعي الحياة على الرغم منه، ولا يملك نفسه أمام الضرورة المعيشية، ويسميها «العقل المعيشي»، ويقرن

---

(١) الظاهرية نسبة إلى الأخذ بظاهر النص ــ فهم يقبلون «كل ما نص عليه القرآن أو ما ورد في الأحاديث الموثوقة على ظاهر معناه، إلا أن يكون هنالك ضرورة من عقل أو حس تدعو إلى صرف المعنى عن ظاهرة وإلى الأخذ بالتأويل» انظر (تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، ص ٥٩٥، د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، ط٤، ١٤٠٣هـ.

والامام الأول للمذهب داود بن علي الظاهري، ثم هذبه أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري.

الذكاء بالظاهرية، ويتجنب أن يقول ما يفهم لئلا يؤاخذ عليه، «ولكن ميزة القلم الأصيل والفكر الأصيل ألا يفهمه إلا الفكر الأصيل.

وموهوبو كل أمة هم شعرة الثور البيضاء التي تذكر.

منحنا الله عقلًا نروض به ذكاء عتيًّا.

أو أدر لنا رزقًا نعمر به صومعة رهين المحبسين فإن الإبداع الجيد ابن الذكاء الحر. ولا إبداع لعقل معيشي»[١].

وهو في كل هذه المعاناة رقيق المعشر، سهل المداخلة، طيب القلب، قريب الدمعة، عميق الشجن، « .. ومرّت بأبي عبدالرحمن فترة كان يسمع فيها هنيمات ما فيخضل دمعه، ويغص بريقه .. »[٢].

ومن هذه الرقة جاءت دفقاته الذاتية حالمة جامحة، ينثرها نزوع شديد إلى المتعة المباحة والسمو بالفن والجمال، ويقيدها عقل مستكن، وعاطفة دينية مترصدة، ولفظ مختار حوشي يجتهد في اختياره.

ولو سلم من بعض هذه المقيدات لكان خير المنطلقين، ومبرزًا بين المترسلين الذاتيين، ومن ولعه بالتعبير المتفجر عن الذات عجز أن يجد أسلوبًا يكفيه مئونة الإفضاء عن داخله، فقد قرأ للأقدمين المجودين من الناثرين، واقتنى أجود الأقلام «فلم يكشف ذلك عمّا في عواطفنا من جيشان.

إن من أعير لسان سحبان وخط ابن مقلة وترسل عبدالحميد وفحولة الزيات وظرافة زكي مبارك وسخرية مارون عبود لن يعبر عن أدغال نفسه كما في نفسه.

وإنما يكشف عن أدغال النفس وحرارة العواطف طريقة في الرسم لم تحذقها الشناتر والبراجم بعد ولكنه رسم صامت ينقشه القلب على الحنايا إنه مداد الموسيقى.

---

(١) مقالة : ليت للبراق عينا. هكذا علمني ورد زورث، ص٢٨٢.

(٢) مقالة : إما النبوغ وإما ..، هكذا علمني ورد زورث، ص ٢٨٨.

أخ ثم بخ لو استطعنا أن نكتب بالموسيقى بدلًا من الدفلجة بها .. »[1].

فالكتابة عاجزة ـــ في رأيه ـــ عن التعبير، وخير مايجود بما في النفس من أشجان هي الموسيقى الموحية الآسرة.

ودافعه إلى تولد الأماني، وتناغم العاطفة، وتبريح الشجن «عين تشتاق وتدمع، وقلب يرق وتكسره علامة الجر الباطنة، وكبد تتفت في ليالي التشرين»[2].

وهو يخشى ضيعة الشباب «كلما وخطته شيبة تهدد متعته وتنغص طموحه»[3].

ويتأسى في هواه بشيوخه الظاهريين، فقد سبقوه إلى كثير من نغمات الظرافة واللطف، والأناقة وابتغاء اللين في الملبوس والمركوب، والبحث عن سبيل اللذة الجميلة الراقية في مجالي الحياة بعامة.

وليس أكثر إنصافًا لهم، ولا حديثًا عن مثل هذه الخصائص غير أبي عبدالرحمن، التلميذ النجيب لهذه المدرسة : «.. إذا آمنا بالفكرة طبقناها تطبيقًا سافرًا وأنف الأعراف راغم ولصراحتنا هذه لم تقم لنا دولة، وقد أخمدوا مجدنا في الأندلس بتسليط العوام علينا يرجموننا من الأعقاب، ومن ذلك أننا ضعفاء أمام الجنس الآخر، تأسرنا اللمحة السريعة فنبكي لها شهرًا ولكننا نخاف الله رب العالمين، وندرأ موبقة فيها الجلد والتغريب والرجم، ثم إنها كبيرة عليها مقت الله في الآخرة.

فنجنح إلى الأبواق ننفخ فيها صفير العواطف، وزفير القلوب، وأحلام النفوس، فإذا رآنا عاقل قال : اللهم لك الحمد لو استتر هذا الظاهري، بستر الله لكان خيرًا له.

ونحن نقول : متى جاء تحريم الهوى عن محمد .. الخ كما قال شيخنا،

---

(١) مقالة : الكتابة بمداد الموسيقى، المصدر السابق، ص٢٩٦.

(٢) مقالة : لا تقل شيئاً، المصدر السابق، ص٢٨٦.

(٣) المقالة السابقة.

ونقول كما قال أبو عبادة : (بودي لو يهوى العذول ويعشق ليعرف أسباب الهوى كيف تعلق) ومن ذلك أننا أنيقون لا نرضى من المجلس إلا بالسرير ولا من اللباس إلا بالحرير.

ولهذه الأناقة فالذوق الظاهري فريد في بابه تحتكم إليه الحواس سمعًا ولمسًا ونظرة .. الخ، فالظاهري يمتطي الدنيا والدرهم ولا يستعبدانه .. »[1].

وتظهر في أسلوبه لمحات من الذكاء والاعتداد بالنفس، والطرافة الجميلة المأنوسة، فهو حين يرد على ناقديه من الشبان يترفع عن المهاترة واللجاج، بل يأخذ أسلوبًا فريدًا من السخرية والثقة وجلاء الفكرة، فهو متهم من قبل بعض الشبان من المتأدبين بانصرافه إلى الماضي، وولعه بالقديم «وهيهات يأبى الله ما زعموا، وإنما كنت — لو أنصفوا — نافورة تمج من قعر التاريخ ما هو أعذب وأصفى من قطرات الندى مع ألوان زاهية يتضاحك في جهوريها تعانق المعارف البشرية وتآلفها .. »[2].

فالذاتية طاغية عليه حتى في نقداته وردوده، وفي الإبانة عن منحاه الفكري، ورؤيته إلى الجمال وما يحلو له من اللهو، ويعلل إقباله على ما يستحبه من أفانين متع الحياة ما يلقيه عليه بعض أصحابه فهم يقولون «إنني متخثر لا أحسن سوى التقعر في اللغة، ولم يدرِ هؤلاء الأحباب أن بين جوانحي قلبًا خفوقًا رمضته شمس بودلر الحمراء، فلهث وراء كل ملمح شاعري يداعب فيه ذكريات أمرّ ما فيها اليأس. قلت لهم في حينها :

أنا إن نفحت عليكم مخاشنًا أنغصتم رؤوسكم، وإن تجليت لكم متصابيًا

---

(١) مقالة : أذكياء بلا عقول، الفنون الصغرى، السفر الخامس، ص ٢١٢.

(٢) مقالة : ابن اللبون، هكذا علمني ورد زورث، ص٣١٦.

وقعتم في أسري وخلبي .. »[١].

وهو يميل في أسلوبه إلى إحياء بعض الغريب، واقتباس تراكيب عربية قديمة، اشتهر بها أدباء ومحدثون في العصر العباسي بالأخص، فنجد لديه «برجمها لكم»[٢]، «وجمل الشيخ نقيرًا نطيحًا»[٣]، «قبع في صوامع الطرس ما شاءت له وحشته، وكرع في نمير الحرف ما شاءت له نغبته»[٤]، «فابترد والتمظ وخضد الكلمة فامتحن حلوها ومرها»[٥] « .. لكثرة ما في صقبهم من مبكيات القلوب»[٦]. «وهناك أهداب متضامنة متراصة تراش عن يضاضة وغضارة ورواء .. »[٧].

وفي أسلوبه نسمة من التحديث البياني الجميل الذي حملته مجلة الرسالة «التي كانت تزن العمل الأدبي بالمعيار الجمالي والنفسي «ومجلة الآداب» التي

---

(١) مقالة : مؤخرة، المصدر السابق، ص ٣٤٣.

(٢) عبارة يختم بها أكثر مقالاته، ورد في القاموس المحيط للفيروز آبادي «البرجمة بالضم : المفصل الظاهر أو الباطن من الأصابع، والأصبع الوسطى من كل طائر ج : براجم، أو هي مفاصل الأصابع كلها.. «ص ١٣٩٥هـ، باب الميم، فصل الباء، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٦هـ.

(٣) نقرت الرجل : اغتبته وعبته، ونقرت الرجل، إذا دعوته إليك من بين الجماعة «انظر أحمد بن فارس، مجمل اللغة، مجلد ٢، ص٨٨٢، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٤هـ.

(٤) قبع قبوعاً : أدخل القنفذ رأسه في جلده، والرجل في قميصه، بتصرف، القاموس المحيط، باب العين، فصل القاف، ص ٩٦٦. وكرع : في الماء أو الاناء ـــ كرعا، وكرعا، تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفيه ولا إناء «المعجم الوسيط، جـ٢، ٧٨٣، المكتبة الإسلامية تركيا. النغبة : الجرعة، والجوعة، وإقفار الحي، ونغب الريق : ابتلعه «انظر القاموس المحيط، باب الباء فصل النون، ص ١٧٨.

(٥) ابترد : اغتسل بالماء البارد، وشرب الماء ليبرد جوفه، المعجم الوسيط ص ٥٧. التمظ : بشفته، أي ضم إحداهما على الأخرى مع صوت يكون منها، المصدر السابق ص ٨٣٨.

(٦) خضد : أكل شيئاً رطباً، والشجر : نزع الشوك عنه، والشوك : نزعة من شجرة، فقال : خضد شوكة فلان : كسر حدته فهو مخضود، وخضيد» المصدر السابق، ص٢٤٠.

(٧) أصقبك الصيد : دنا منك وأمكنك رميه، والجار أحق بصقبه»، أي بما يليه ويقرب منه. بتصرف، القاموس المحيط، باب الباء، فصل الصاد، ص١٣٥.
راش الطائر : نبت ريشه، وفلان : استغنى، والريش : كسوة الطائر. الواحدة : ريشة، واللباس الفاخر، والأثاث، والمال، والخصب، والحالة الجميلة، انظر : المعجم الوسيط، ص٣٨٥، أبو عبدالله بن عقيل، مقدمة الطبعة التي لم تنشر، ص ١٣، هكذا علمني ورد زورث.

كانت تزن العمل الأدبي بتقنية الرؤيا».

وفي كل هذا الخلط العجيب بين المدارس والتلقي والتفرد الذاتي تبرز خصيصة لابن عقيل في استلابه وجدان وعقل قارئه، وإشغافه إياه بالمتابعة والقبول، والاستفزاز حينًا، والرفض حينًا آخر، ففن المقالة لديه «متميز بالعنفوان الفكري، لدرجة أن يبدو اضطرابًا وشذوذًا وثقة مطلقة بالذات وما تعتقده هذه الذات، وتتميز ــ كذلك ــ بـ (التلاعب المنطقي) إن طلبت بديلًا عن (التلاعب اللفظي) الذي تراه لدى غيره واضحًا أو خفيًّا.

وإذا بدأت معه مقالة .. لم تجد بداً من السير معه حتى ينتهي، وعند الانتهاء ــ ترضى أو لا ترضى ــ تضع علامة العجب والتعجب وكأنك تعايش (طفلًا شكسًا)»[1].

---

(١) د. علي جواد الطاهر، مجلة العرب، رمضان وشوال، جـ٣، السنة ٤، ١٤٠٥هـ، ص ١٩١.

٥ ــ عبدالله الجفــري[١] :

يكاد يكون الكاتب المقالي الذاتي الأول في الأدب السعودي، إذ أخلص لفن التعرف على الوجدان والحديث عنه، والإفضاء إليه.

ولولا مراعاتي لتوالي الأجيال في الأدب لكنت قدمته على سابقيه في هذا الفصل، لأن من تقدم الحديث عنهم يكتبون المقالة الذاتية مثلما يكتبون ــ أحيانًا ــ مقالات أخرى في شئون مختلفة، إلا أن الجفري من الكتّاب الوجدانيين الشعريين الذين تستولي عليهم الرقة والعذوبة وشفافية الحلم.

وقد جاء بمقالة جديدة تختلف في سياقها وتكوينها وبنائها اللفظي وخيالها عن المقالة المأثورة المطروقة عند سواه، فلم يكتب تلك المقالة المباشرة المتوالية الايقاعات، التي تبدأ باستهلال ينبىء عن خاتمتها، ويتوسطها الاتكاء على الفكرة، والمداورة فيها، ويخرج قارئها منطفئًا عند نهايتها لوصوله إلى غاية الكاتب المباشرة دون عناء، ودون إسراف في الخيال، ودون محاولة للتفكير، أو إثارة التساؤل حول موضوع النص.

الجفري اتخذ أسلوب الخيال، والرسم بالكلمة لصور متعاقبة، لا يربط بينها إلا الموضوع الرئيسي ثم هو ينقلك في قفزات متوالية سريعة إلى قلقه وألمه ووجعه الذاتي عبر أكثر من جملة مقوسة، وصورة مجنحة، وتساؤل مرّ ؟.

---

(١) ولد بمكة المكرمة عام ١٩٣٩م وتلقى فيها تعليمه حتى المرحلة الثانوية، وعمل موظفاً بإدارات مختلفة، واستقر بعد ذلك في وزارة الإعلام السعودية. عين سكرتيراً للتحرير في صحف عدة، البلاد، عكاظ، المدينة المنورة، ثم مديراً مسئولاً عن التحرير في صحيفة عكاظ.

أشرف على الصفحات الثقافية لسنوات في جريدة الشرق الأوسط، وأسهم بمقالاته في مجالات وصحف مختلفة.

صدرت له مجموعات قصصية ثلاث، حياة جائعة، الظمأ، الجدار الآخر، ورواية قصيرة بعنوان : جزء من حلم، وأصدر كتباً أخرى بين الخاطرة والمقالة وهي : لحظات، حوار وصدى نبض، حوار في الحزن الدافىء.

انظر ترجمته في : الغلاف الأخير من كتبه المقالية، ومجلة المنهل، العدد الخاص بتراجم أدباء المملكة ص ٩٠٦، الموسوعة الأدبية جـ٣، ص١٣٥، ومعجم المطبوعات العربية جـ٢، ص ٦٨.

يبدأ في المقال متوترًا غامضاً جوانيًّا[1]، في حديث عن النفس، أو العصر الرمادي، أو الخفق المقتول، أو الحلم الهارب، ثم يداريك حتى يتمكن منك فيلقي عليك بأثقاله النفسية، وكأنه يسعى إلى أن يستأمن من جانبك أن تفر منه، أو تصد عن سماعه، فيأخذ بتلابيبك في بكائية توجع وتضحك، فيها الأسى، وفيها الفرح المنتظر، وفيها أشواق إلى الطمأنينة، وشيء من الوفاء للقلب، والرأفة بالمشاعر المحروسة في انتظار الحبيب الغائب.

إنها آلامنا، وأمسنا، وغدنا، وأشواقنا، ننثرها بالكلمات على الورق في هذه الركضات السريعة الخاطفة، لا يدعنا الكاتب حتى يرهقنا شجنًا وبوحًا، وحتى يرأف بنا أن نكلّ من سماع قلوبنا، والإنصات لترنيمة أفراحنا.

ولهذا لا يمكن أن ننتظر منه خلاصة للموضوع في كلمة يُنهي بها المقال، وإنما نسعى إلى مراجعة النص في أوائله، وأوساطه وأواخره، فالدفق في أجزائه متقارب، والروح التي خطت الاستهلال هي الروح ذاتها التي كتبت التوقيع، وختمت القول.

فليس من هوادة أو تأن في التعبير، وإنما هي الفكرة الملحة، والألم الإنساني المجنح يتدافع في الأسطر كلها، ويكوّن المقالة الذاتية القلقة المتحفزة المحرضة على التأمل والتفكير ومعاودة النظر في الذات.

وهي ــ أي المقالة ــ لدى كاتبنا مختلفة في تركيب اللفظ عن المتبع في المقالات التقليدية، إذ يسعى إلى أن تكون اللفظة رشيقة خفيفة على الأذن، بعيدة عن التكرار، سليمة من الابتذال، فهي العبارة السهلة القريبة من الذاكرة، التي تكوّن مع أخواتها سياقًا أسلوبيًّا جديدًا مبتكرًا غير رتيب، ولا ممل.

فقد هجر أساليب المنشئين من أدباء التجديد في هذا العصر، وأفاد من طرائق المدرسة الحديثة في استخدام العبارة وتوظيفها، ولم يراع القواعد المأثورة في بناء

---

(١) جاء في القاموس المحيط.. وداخل البيت، كجوانيه «الفيروز ابادي ص ١١٤١هـ، باب الواو والياء، فصل الجيم، مؤسسة الرسالة، ط٦ ١٤٠هـ.

الأسلوب المقالي في هذه الناحية، فأثرت عليه الروح الشعرية الحديثة، بصورها، وموسيقاها، وأجوائها الرامزة الموحية، ونسيجها الجديد الغريب المؤثر، ووظف خاصية الشعر في نثره حتى صار النص لديه في منزلة بين المنزلتين، فيه خصائص النثر من التدفق والسيولة، والإسهاب، وتنوع الأفكار، وتشعب الحديث عنها، وخصائص الشعر، من الموسيقى، والجرس، ونماء العبارة وثرائها الموحي، والهمس النفسي الحميم.

فمقالته لون جديد من النثر، مخالف للمقالة المعهودة، ويختلف عن الشعر المعروف بقيمه الفنية وقواعده الموسيقية، وبنائه العروضي.

وأدخل في المقالة لونًا جديدًا من الصياغة، يدعم به الفكرة، ويشرحها، ويتتبع في أثنائه تشعبها ونثارها، وهو فن الحوار .. فهو من الكتّاب القلائل الذين يتبعون هذا النمط من بناء المقال حتى يمكن أن يخرج القارىء بانطباع عام عن النص على هذا النحو، إنه قريب من حوار مسرحي، أو قصة شخوصها اثنان، أو مناجاة شاعرية حانية بين اثنين أيضًا «فالروح الشعرية عنده واضحة في اهتمامه الذي لا افتعال فيه باختيار ألفاظ تقطر بالندى الشعري، وفي حرصه على توفير جو من «الموسيقى الداخلية» لكتاباته حتى تبدو في معظمها وكأنها من (الشعر المنثور)»[١].

فهو من النثر الفني المحلق، القريب من روح الشعر، وليس شعرًا، ولا نثرًا مشعورًا، ولا شعرًا منثورًا، وإنما هو انطلاق بالنثر جديد إلى آفاق النفس يحلق فيه الكاتب «بخياله الخصيب، ويحلم، ويغفو، ويبني آماله، ويشكو آلامه، كأروع ما تكون الاغفاءة والحلم، وكأحلى ما يكون الأمل، وأمرّ ما تكون الشكوى»[٢].

---

(١) رجاء النقاش، مقدمة كتاب «حوار في الحزن الدافىء» لعبدالله الجفري، ص١٧، مطبوعات تهامة، ط١، ١٤٠٣هـ.

(٢) سباعي عثمان، مقدمة «نبض» لعبدالله الجفري، مطبوعات تهامة، ط١، ١٤٠١هـ، ص٢٣.

والمعاناة لدى هذا الكاتب تتسع فتشمل الإنسان على هذا الكوكب بما يرجوه، وما ينتظره، وما يشكو منه، وما يختلج في داخله، الإنسان المطارد من وحشية الآلة، وجفاف ينبوع الحنان، وتسلط الأثرة، وطغيان المطامع، وفقدان الحب، وانتشار الرعب والخوف، والقلق من المستقبل، وهي «مضامين إنسانية مغرقة في الرومانسية، فأنت تعيش معه الصدق «الحزين»، أو الحزن «الصادق» إنه يغرق في الألم كثيرًا، وينزف كثيرًا .. »[١].

ويدعو إلى أن يكون الوجدان هو الرقيب على الفعل البشري، فمتى ما احتكم الإنسان إلى وجدانه لم يستمرىء الزلل، ولم يستنكف عن العودة إلى الرشد، ولم يتوار عن الأعين لفعل البشاعة بأخيه الإنسان، فالجفري يريد «الإنسان الذي ينظر إلى الحياة بوجدانه ويتعامل مع حقائق الواقع بهذا الوجدان»[٢].

والكاتب يسعى إلى غرس الأخلاق وتثبيت دعائم الفضائل، ويتألم من الحقد، والأنانية، وفقدان الصدق، والدمعة الصافية المغتسلة بأوجاع النفس ومتاعبها[٣].

وحينما يلجأ الإنسان إلى إعادة جميل الذكريات فإنما يتعزى عن حاضره المؤلم بشيء فات كان سعيدًا :

«ودائمًا يتحدث الناس — يا صديقي — في الذكريات،
ولم يكن حديثهم ملـلًا،
لكنه الهروب إلى الحلم الجميل ..
حتى ولو كان اجترارًا ..
حينما يتجسد .. يذكر الإنسان بالمدد والجزر ..»[٤].

ومن فرط إعياء الحياة وإعناتها يراها غير جديرة بأن يحتفل الإنسان بها، ويوليها همه وكفاحه وروحه، فالخير — فيما يرى الكاتب — ألّا يلقي لها بالًا فهو

---

(١) المرجع السابق، ص ١٦. بتصرف.

(٢) رجاء النقاش، مقدمة كتاب «حوار في الحزن الدافىء» لعبدالله الجفري، ص ٢١.

(٣) مقالة : لا شيء كاللهب.. لا شيء كالحرير، نبض، ص٢٦.

(٤) مقالة : حكاية عند الفجر، نبض ص١٣٣.

يتمنى أن يكون :

«درويشًا متجولًا ينام على رصيف الحياة ..

يرى أن الحياة لا تستحق الإدراك الكامل،

وقليل جدًا من الإدراك ..

يكفي الإنسان زادًا لاجتياز هذه القنطرة التي اسمها الحيـاة ..

حقـًا — يا صديقي —

إن الحقائق لم تعد تهمّ،

والحب لم يعد يهمّ ..

المهم الآن هو الموت ..

ذلك أن الموت في عصرنا ..

أصبح هو الاختيار،

وهو الأغنية المتوحشة ..

هو — يا صديقي — أوان الطلوع والاقتحام .. »[١].

والهروب من الحياة على هذا النحو ليس عبثًا ولكن للخلاص من وحشية الآدميين «فلم تعد أسماك القرش تلتهم الإنسان ..

بل الإنسان هو الذي يلتهم الإنسان، أو نفسه»[٢].

والكاتب في هذه المصاولة اليائسة ليس أمامه إلا أن يلجأ إلى نفسه، يبحث فيها عن الدفء والحنان، وليس أمامه إلا الإيمان بقيمه الفاضلة الكبرى، فهو يرى أن :

«حروفنا فقدت بكارتها، فشاعت.

فقدت رونقها، فشاخت.

حروفنـا ..

كيان اللهب فوق مساحة الاغتيال .. »[٣].

---

(١) المقالة السابقة، ص١٣٤.

(٢) مقالة : الظل المكسور، نبض، ص١٤٠.

(٣) مقالة : أقراص منع حمل الغد، نبض ص ١٧٦.

وحتى الشباب الذي يمر به الكاتب، أو يصافحه ليس فيه إلا السخرية وألم فقدان الأشياء، وحينما تأتي الشيخوخة يندب حظه العاثر في شبابه، ولا يرى له بارقة من أمل إلا في أطفاله الصغار، لعلهم يستنبتون الفرح الذي غاب عنه :

«ها أنذا أحتضن زهرتي الأولى البكر،
وقد تفتحت كالأمل.
وعبقت كالشوق.
وشمخت تنتشر في عمري كشعاع الفجر الجديد.
ها أنذا أرفعها إلى الحياة.
وأذوب كما لحظة العناق ..
أمنحها فيئًا، وأستمد منها ذاكرة جديدة للعمر المتبقي.
هاهي ــ ابنتي ــ عروسًا،
كأنها الميلاد الجديد لأمانيّ ..
كأنها التفاؤل الأخضر في تأملي ..
كأنها إكسير الفرح الذي يبدد من بين ضلوعي غربة
العشــور،
ويروي جوانحي بالغد»[1].

ومن الواضح أن التشاؤم صفة مشتركة بين الكتّاب الذاتيين، أو معظمهم، وأن اليأس يكاد يغلبهم في أكثر نصوصهم، «وهل تبقى على الأرض في امتداد الكون: محب ومحبوب.. عاشق ومعشوق؟ وهل ما زالت الذكرى صبابة يجدها الإنسان كلما رمى به الظمأ تحت الهجير ؟»[2]. وهو يرى أنه «قادم من خارج الزمان .. والحياة لم تعد تحتمل الشعر .. كلها ماديات وحقائق مجردة .. »[3].

ومثل هذا اللون من التفكير المكتئب لا يدع مكانًا في وجدان الكاتب لتأمل

---

(١) مقالة : يا ليته يرتاح، نبض، ص١٩١.
(٢) مقالة : واحد حزين جداً، من كتابه «حوار في الحزن الدافيء» ص ١٥٨.
(٣) مقالة : واحد قاسي. جداً بتصرف، حوار في الحزن الدافيء، ص٩٤.

الفرح أو انتظار ما سيأتي من جميل الأحلام، وصادق الرؤى، ولكن بعض الناقدين يرى أن شيئًا من هذا التأمل النفسي الصادق له أثر في إحياء ما مات من شمائل الذات النزيهة، وما اندثر في ماديات العصر من خفقات القلب، وأشجان الروح، فمثل هذا التعبير «قوة ترش الخصب والنماء في قلب الواقع المتحجر»[١].

ثم ماذا يملك وجدان الكاتب الشاعري أمام القسوة والعقوق، وأمام زحف الأرقام، وغوائل النسيان، هل يصمت مجروحاً. أم يناثر شظايا موجعة كهذا النثر الجارح، أم يترمل بفقدانه دفقه ورؤاه ورواءه ؟ «وما قيمة الإنسان بلا روح، وبلا شعور يرق بالأحلام .. وما قيمة الإنسان بلا صبر ومعاناة وبلا رؤية للحب تحقق له اكتشاف الإنسان فيه ؟»[٢].

---

(١) د. غازي القصيبي، مقدمة كتاب «جزء من حلم لعبدالله الجفري، مطبوعات تهامة، ط١، ١٤٠٤هـ.

(٢) عبدالله الجفري، «أنفاس.. على جدار القلب» كتاب الشرق الأوسط، الشركة السعودية للأبحاث والتسويق، دون ذكر لتاريخ الطباعة، مطابع شركة المدينة المنورة، ص ٨٧.

نمـاذج من المقالـة الذاتيـة :

تناول كتّاب المقالة الذاتية ضروبًا مختلفة من فنون الحديث عن النفس وما يتصل بها، أو يؤثر فيها، فشكوا بُعد الحبيب، وطول السهاد، وأشجان الروح في الغربة، ووصفوا حالة النفس حين يصمت كل شيء وتبقى في التذكر والتأمل، وطرقوا تلك الأسباب المقلقة للذات، الموجعة للقلب من تنكر الصديق، وتغير الخلان، وفساد الزمان، وتمني بعضهم أن يعيش براءة الريف، وطهارة القرية، فشكا الغربة، ووصف هجيرها، وأسهب في ذكر الناس الطيبين في الزمان القديم، وذهب آخرون إلى ابتداع أساليب متعددة في الشكوى وبث الشجن، فاستحدث بعضهم من «المجانين» صديقًا يسرّ إليه بما يلقاه، ويبحث عنده عن الدفء المفقود لدى العقلاء، ووجد آخر في مستمع إليه في الخيال مسائلًا ومناغمًا، فحاوره وأفضى إليه، ولامه، وامتدحه، وتشارك معه في النجوى.

وقد أدار كتّاب المقالة الذاتية مقالاتهم على كل ما يتصل بالنفس من أسباب السعادة أو دواعي الشقاء، سواء كانت منبعثة من ذات الكاتب، أو من المجتمع المحيط به، فهي – في الحقيقة – تصوير من جانب آخر لطبيعة الصلة بين المبدع ومجتمعه، وما يسر فيه ويبهج، وما يبعث على العتاب والتذمر.

وسأكتفي باختيار عدد من النماذج تصور ما ذكرت، وتشير إلى مجالي المقالة الذاتية في الأدب السعودي، في مختلف مراحلها.

١ – الهــروب إلى الطبيعــة

هذا عزيز ضياء يرى في الليل أنيسه وسميره، ومنقذه من الهموم، وفارج ما يضيق به صدره من ألم وقلق وقنوط، ويدعوه إلى ألّا يهرب منه، ويدعه لمن حوله من البشر القاسين الظالمين.

وكأن الطبيعة التي تحيط بالكاتب تستجيب لمشاعره لحزينة فتكسوها علامات الأسى، وتبدو على مظاهرها أمارات الوجوم، في الزهر، والجدول، والنسيم،

والقمر، والطير، والقيثار.

وفي حالة الغربة هذه لا يجد الكاتب الشاعري له ملجأ إلا سواد الليل يلفه في ديجوره، ويبعده عن الأشباح الإنسية المضنية، فهي لا تسمع له شكوى، ولا تنظر إليه بعين عطف أو حنان، بل لعلها كانت أحد الأسباب التي أشقته وآلمته، فهو يلتمس في الليل مناجيًا، وفي صمته وهدوئه خافقًا يعزف عليه مشاعره وأحاسيسه، وليطوه فيما بعد إلى حيث المجهول، فليس على هذه الحياة — كما يرى — أسف ولا حسرة، فذهابه مع الليل إلى العدم، والعالم البعيد خير من بقاء حول قلوب قاسية.

ويبدأ مقالته الشعرية بشيء من النجوى والنداء الحميم :

«أيها الليل.

يا مستودع أنّات قلبي الكسير، وآهات صدري الكليم.

أيها الليل.

يا شريك سعادتي الذاهبة، وشاهد أفراحي الفانية.

أيها الليل.

يا ناموس القلوب الملتهبة الشاكية، ويا مجير النفوس المظلومة الخائفة

أقبل بربك ياليل، إليّ، إليّ، فقد نفد الصبر وعزّ الدواء..

إليّ وليتدفق دمعك هتونًا، وليرتجف قلبك الجبار هلعًا.

إليّ ولا تهرب حين ترى آثار العدم والبلى تلوح على الرياض والحقول.

إليّ ولا تهرب حين ترى العبوس مرتسمًا على وجه الأفق والجزع يتمشى في أطراف الصحراء السعيدة.

إليّ ولا تهرب حين ترى الطير لا يشدو بألحانه، والهواء لا يعزف على قيثارته، والأشجار زاهدة في الرقص.

إليّ ولا تهرب حين ترى الطبيعة كلها في نحيب وأنين.

إليّ وليتدفق دمعك هتونًا، وليرتجف قلبك الجبار هلعًا»[1].

---

(١) مقالة : فاجعة، وحي الصحراء، ص٣٣٠.

ثم يصف استجابة ما حوله ــ سوى البشر ــ لشجاه، فبدت عليها ملامح الحزن، في الورد، وأسراب الطير المهيضة، وأشعة الشمس الصفراء، والأفق المتلظي ألمًا، والنسيم الذي يعزف لحن الرثاء له، ويمد إليه آهات النداء ليكون معه :

«حسبي منك يا ليل هذه الأنامل الناعمة تلمس بها نفسي فتخفف عنها ما بها، تخفف الأم على ابنها ما به.

حسبي منك يا ليل هذا القلب الذي لا يضيق بشكواي وعويلي.

حسبي منك يا ليل أنك تصد عني هجمات الناس ومضايقاتهم.

حسبي منك يا ليل هذه الأجنحة البليلة تحتويني فتخفيني عن أعين الإنسان.

هذا الإنسان، يا لظلمه، يا لقسوته، يا له من كائن هائل مخيف

هذا الإنسان الذي يرقص فوق الجثث ويداه ملطختان بالدماء.

هذا الإنسان الذي يضحك، والدم من قلبه صبيب، والدمع من عينه لا ينقطع.

هذا الإنسان الذي يمضي في سبيله كالمجنون، لا يبالي بأحد، ولا يهمه أحد، كآلة مسلوبة الشعور والحس.

هذا الإنسان الذي يبتسم حين أتأوه ويرقص حين أصرخ.

حسبي منك يا ليل، هذه الأجنحة البليلة تحتويني،

حسبي منك أن تحملني على هذه الأجنحة إلى حيث تذهب في كل صبح إلى حيث لا شيء، إلى حيث العدم والفناء .. »[١].

ولأن هذه المقالة من بواكير النثر الأدبي السعودي فقد تأثر صاحبها بأدب المهجر، فأفاد من روح جبران خليل جبران، وجاراه في أسلوبه الشاكي الحزين، وفي طلبه الطمأنينة في الليل، وهروبه من النهار، لأنه «نور يغمرنا بظلمة الأرض»[٢]. فكلاهما يرى في الليل صديقًا حميمًا، ونديمًا رحيمًا «أنت عادل

---

(١) المقالة السابقة.

(٢) مقالة : أيها الليل، جبران خليل جبران، العواصف، ص٣٨٣، من المجموعة العربية الكاملة، دار صادر، بيروت، دون ذكر لسنة الطباعة.

يجمع بين جنحي الكرى أحلام الضعفاء بأماني الأقوياء، وأنت شفوق يغمض بأصابعه الخفية أجفان التعساء ويحمل قلوبهم إلى عالم أقل قساوة من هذا العالم .. »[١]، وكلاهما لا يثق بالبشر، ولا يطمئن إليهم، «عندما ملت نفسي البشر .. »[٢]، لأنهم لا يشاركون الكاتب آماله، بل يحزنون حين يفرح، ويطربون حين يتألم فلابد أن يعلم قلبه «محبة ما لا يحبه الناس وكره ما لا يكرهونه..»[٣].

وهما أيضًا يتفقان في النهاية، حيث العدم في انحسار الليل — كما يرى ضياء، وحيث الفناء في فوات الليل وتقضيه كما يرى جبران «.. أنا مثلك أيها الليل ولن يأتي صباحي حتى ينتهي أجلي»[٤].

ونلحظ شيئًا من هذا الأثر في البعد الفلسفي والصوفي الذي رآه الكاتب في الموت والحياة، حيث عبّر بالعدم والفناء، واستسلم لدورة الطبيعة وما تصير إليه من مجاهل تخفى على الإنسان حيث النهاية «لا شيء»[٥].

وقد لا يكون من المبالغة أن يجد الدارس ظاهرة اللجوء إلى الكون، ومناجاة الطبيعة، واستنطاق شخوصها، واتخاذها نديمًا أليفًا، عوضًا عن الإنسان المسامر السامع للشكوى، الطيب القلب، الذي عزّ وجوده، وتبدل باللطافة قسوة وجبروتًا. فإذا نعتها بظاهرة، فإن ما يؤكدها هذه النصوص الكثيرة في نثر الرومانسيين، والكتّاب الذاتيين، وضياء واحد من هؤلاء وسيأتي ما يؤكد هذا، شواهد على إسراف الذاتيين لدينا في اللجوء إلى الطبيعة، فهي تتألم لألمهم، وتسعد لسعادتهم، وتستفيق على دعواهم لها، فذلك المكان البهي الذي كان عش هناء ولقاء حزين مفتقد وضاعة الحسن لغياب الحبيبين، مشارك في ما يشكوانه، فهو «دائمًا صمت» دائمًا عبوس .. دائمًا وجوم.

---

(١) المقالة السابقة.

(٢) المقالة السابقة نفسها.

(٣) المقالة السابقة.

(٤) المقالة السابقة.

(٥) مقالة : فاجعة عزيز ضياء.

آأنت مثلي أيضًا يا عشي حزين ؟.
آأنت مثلي أيضًا محروم الحنين ؟.
آأنت مثلي أيضًا، ثائر حائر دائم الأنين ؟»[1].
... أم أنت يا عشي لك قلب ينبض، ويحسّ، ويتألم ؟ فأحسست بشقوتي ؟ وتألمت لحالي ؟ فظهرت على محياك هذه الكآبة الخرساء ؟»[2].

هذه الرومانسية الشفافة التي تأخذ القلب إلى أن يجنح إلى بديع الأحلام ولذيذ التخيل يقابلها تفكير آخر شديد الواقعية، قريب من الألم الجماعي، المتشقق من ألم النفس، وتعب ذات الكاتب.

٢ ــ الذاتيــة الســاخــرة

إن نقد السلوك الاجتماعي يجيء ــ أحيانًا ــ من نقد الذات نفسها، فحسين سرحان لا يدع شاردة أو واردة من صفاته التي يعيبها حتى يراها حقيقة بالتفنيد، جديرة بالعرض، فتعبه من نفسه هو التعب نفسه الذي يشكوه الناس من نفوسهم، وتبرمه وسخطه من شطط من حوله لن يستطيع له أن يأتي على شيء منه إلا بنسبته أو بعضه إلى نفسه، إذاً فليكن هو الصورة القريبة البينة لأدواء النفس البشرية حوله، وليكن إتيانه للألوان من هذه الصور المنكرة خفيفًا على الناس، غير مكروه في التفصيل والتعليل، فالسخرية هي أنسب ما يتأتى إلى ذهن الكاتب من طرائق لعلاج ما يراه شاذًا أو معوجًا، فهو يعتقد ألّا جدوى ترجى من الحياة على النحو الذي عاشه كما تتمنع الجدوى على المجتمع نفسه في صورته التي نقدها، فضيقه من نفسه القنوطة ليس إلّا جزءًا من يأسه البالغ من عطاء مجتمعه وصلاحه، «لأن الوجود الحي الذي لا يأخذ ولا يعطي ولا يتفاعل ولا يؤثر ولا يستجيب للتأثر هو وجود أفضل منه العدم المطلق»[3]، ولأن المجتمع الفاضل

---

(١) مقالة : في الخريف، وحي الصحراء، ص٣٢١.
(٢) المقالة السابقة، ص٣٢٦.
(٣) مقالة : قيمة الانسان، حسين سرحان، البلاد السعودية، عدد ٩٥٠، السنة ٢١٤، الأحد ٢٧ ذو الحجة القعدة ١٣٦٩هـ، ١٠ سبتمبر ١٩٥٠م، ص ٤.

الجدير بالحياة والتقدير غير متحقق، ولكي يكشف بعض عوراته يذهب إلى إدعاء هذه العيوب، والاعتراف في غير مواربة ولا خشية بما يجتهد الناس في إخفائه وستره.

وقبل أن يعدد صفاته التي تنفي عنه الفضل والطيبة ينكر على من يخاطبه إكثاره من نعته بها على غير استحقاق لها، حتى أوشك أن يشك في أنه فاضل .. من طول ما يسمعها، وكثرة تردادها في كل مناسبة.

وهي لون من أدب الاعتراف الجميل الذي يقل في أدبنا قلة وشحًا يدعواننا إلى البحث في نفسية الأديب العربي، وسلطة المجتمع عليه بما يمليه من تقاليد وقيم تحبذ الصمت في سيرة الكاتب، والستر على السلوك، وتجنب ما يثير الدهشة، أو يدعو للعجب، وهذا آت من طبع العرب في حياتهم، فهم لا يميلون إلى التحدث عن عيوبهم قدر ميلهم وشغفهم بالحديث عن حسناتهم وأفضالهم.

ولكن السرحان أراد أن يصل إلى كشف هذه العيوب دون أن يصدم من حوله، فأخذ يتلبس هذه الصفات الذميمة، ويدعيها ثم ينقدها ويشمت بها، ويراها داعية للضعة والخور وسوء الطباع. ولا يرى المجتمع الذي يتصف بهذه النقائص أو بعضها إلا مجتمعًا خائرًا ناقص التكوين، يحتاج إلى جهد كبير في سبيل إصلاحه وتقويم الشطط فيه.

ولا يتبادر إلى الذهن أن الكاتب، ادعى هذه الصفات على أنها تصور شخصيته في الحقيقة، بل إن إتيان الكاتب بمثل هذه الصور الاجتماعية يدل على رغبته الصادقة في الاصلاح، وفي إبراز هذه العيوب المخلة بالبنية الاجتماعية من حيث الأخلاق والقيم الفاضلة.

وقلت إنه من أدب الاعتراف الذاتي، — وإن لم يكن في الواقع من سيرة الكاتب — ولون من أدب الاعتراف الجماعي، لأنه عبّر عن نفسه وأراد المجتمع، فهو كتب عن المجتمع من خلال ذاته، وما يلصقه بها من نعوت تأباها الطبيعة المستوية الرشيدة، ويتجافى عنها كل ذي لب وخلق.

ولكن هذا لا يمنع أن يلتفت الذهن إلى كون الكاتب قد يكون متصفًا بشيء، مما ذكر، وأراد — رغبة في الإصلاح — أن يقدم نفسه ضحية للمبدأ فابتدأ بذاته يعريها على هذا النحو، وزاد عليها ما يسلكه مجتمعه من معايب في الأخلاق.

بينما يرجح أن يكون الكاتب يريد ممن حوله أن يترفعوا عن هذه المعايب، فادعاها لنفسه ونقد ذاته، وهو يريد من حوله تأدبًا ولطفًا، وهذا ما يستقيم مع شخصيته المسالمة الساخرة المبطنة النقد والتتبع.

وهو هنا يكاد ينفرد بأسلوب خاص في هذا النقد، إذ يميل إلى المكاشفة في غير تجريح وإلى الصدق في الخطاب، والصدق في التوجه، والابتعاد عن التغطية على السوءات، ومداراة الأخطاء.

وقد جانف أديبنا السرحان هذه الخاصية التقليدية في ستر المعايب الاجتماعية، كونه غير فاضل، والصفات التي يتحلى بها من يسلك سبيل غير أهل الفضل :

«أنا لست فاضلاً[1] ..

أنا أكذب دائمًا — لا أحيانًا — وأيسر كذبي، أني أستحي من صديق، فأصوب فعله وإن كان مخطئًا وأنافق مع كبير، فأراه عدلًا، وإن كان ذا عوج.

ولا ريب أني مداهن، كلما أجمع مجلس حاشد على مدح إنسان فشايعتهم على هذا المدح، وإن كنت أعتقد في قرارة نفسي أنه يستحق الذم.

ولا جرم أني لص. لص صغير طبعًا، فإني أحب أن يزداد مالي، ويمد أخطبوط

(١) وقد جاء بما يشبه هذا الاعتراف الدكتور الشاعر غازي القصيبي في قصيدته الحب والموانىء السود، إذ يتراءى له أن الحب أصبح هشاً ضعيفاً، تتقطع في أثنائه حبال الوصل، ولا تجتمع القلوب فيه على النقاء والطيب «لأن القلب ما عاد — كما كان بريئاً طيباً كالنبع، كالفكرة في الليل.. » فقد صور الشاعر حصوله على خمس صفات رديئة بارتياده خمسة موانىء، كل ميناء يتعلم فيه خلة غير فاضلة، فقد نسي براءته وتعلم في الأول الخوف وفي الثاني الكذب، وفي الثالث بداء المال، وفي الرابع بحمى المجد، وفي الخامس فقد الاحساس.
انظر ديوان «أنت الرياض» ص ١٠٣، دار العلوم، الرياض، ط٢، ١٤٠٠هـ.

ثروتي ذراعه في كل ناحية، وكأنه ليس من شأني أن أسأل من أين جاءت هذه الثروة وهل تحل أم تحرم ؟ لا من ناحية الدين فقط، بل كذلك من ناحية المروءة والإنسانية والضمير.

ولا شك في أني أعمل المخازي في الليل، ولو لم يكن في ذلك إلا أني أتمثلها وأستعيد ماضيها أو أحمله بما أستقبل منها، ولكني أمام الناس ألبس مسوح الزاهد العابد المتبتل، لا الفاضل فحسب.

وقد تكون سمعتي سيئة عند الكثيرين، ولكني أوهم القليلين الذين حولي أن سمعتي عند الناس جميعًا أحسن من البدر ليلة التمام، وأتسلى بالقلة من الناس عن الكثرة في سمعتي المثلومة.

وقد احترم إنسانًا، وأتعلم من أجله آخر وأحدث فنون (الإنحناء) حتى أقدم إليه أرفع احترام ممكن، وأنا أفهم كل الفهم بعد إيمان صحيح أنه جدير بالصفع والازدراء.

وقد تخدعني الكلمة الطيبة من إنسان فأضفي عليه بالمثل أطيب منها وأنا أعلم صدق العلم أن كلينا غير حقيق بهذه الكلمة الطيبة.

ويشهد لي أحدهم بأني بارع في الشعر، فأضطر إلى أن أشهد له بأنه هو الآخر بارع جدًا في القصة — مثلًا — وأن ذوقه من أسمى الأذواق. وبعد أن يذهب (أجبر الكسر) في نفسي، وتنتهي العملية الحسابية، وأنا غير بارعين في كل ما شهد به أحدنا للآخر.

ويحدثني بعضهم عن شخصيات ويحسن النفخ في البوق، فإذا أنا بفعل الايحاء، قد سحرني النغم، وتهيأت للرقص، ويترك مجلسه وأنظر إلى الأمر نظرة عقلية مجردة، وإذا أنا أحس بأن اللعاب يتحلب في فمي، ولكن أين من أبصق عليه ؟.

إلى كثير وكثير، فأين الفضل ؟ كلا .. إنّي لست فاضلًا، بل ما زلت من أبعد الناس عن أن أكون ذلك الفاضل.

ومع ذلك، فعلى القارىء الذي يعنيه أن يقرأ مثل هذا الهراء أن يبسط أنامله، ويعد على مثل المقياس، وعلى مقياس أدق وأضبط منه، ويفيدني أفاده الله.

كم فاضل نجد في هذه الدنيا»[1].

ولا يغرب عنّا أن هذا في الواقع من باب الرمز، فالكاتب لا يشهد على نفسه بهذه العيوب، وإنما يشهد على مجتمعه، ولكنه استعار ذاته لمجتمعه، ولذا لم يجد ضيرًا أن ينسب إلى نفسه الكذب، والنفاق، والمداهنة، واللصوصية، وفعل ما تنكره الأخلاق، ورداءة السمعة، والالتذاذ بالمديح ومجانبة الصواب في تقويم الأشياء، وهي من المذموم المتفشي في المجتمع، وليست فيه وحده، ومن سخريته بمن حوله أن يسخر من نفسه أولًا، وهل أبلغ من النكاية بالذات أن يرى الكاتب له رأسًا «يقوم على غير جسد»[2]. من ضآلته ونحافته، ويتعجب كيف يقدر مثل هذا الجسد الضعيف على حمل رأس مليء بالهموم والمتاعب، فهو يرى هذا المجتمع الضعيف المتهالك ــ كجسده ــ يضيق بهمومه، ويكاد يتداعى لفرط تناوب الأدواء والعلل عليه، ويحمل على الهيكل الخَلِق من التخلف والضعف والشتات ألوانًا سوداء من التفكير، وأنماطًا مختلفة من إدارة النظر والاختلاف حول مسائل حياته، فما أصبره، يحمل رأسه المهموم المتعاظم بأثقاله على رثاثة وإعياء وتهالك في جسده. وفي ساعة فرغ إلى نفسه، وتصورت له آلامه، وضاقت عليه الأرض بما يتقاطر على ذاكرته من أسباب العنت ودواعي الكدر، ولكنه لا يملك أمامها إلا أن يتأمل ويسخر، «ساعة صمت وكل ما حولي يعج ويصخب إنه صمت عميق ساج مثل الليل، هائل فازع مروع مثل القبر الذي لم تقذف فيه جثة لميت بعد. صمت عجيب نادر».

وشعرت بأشياء كثيرة تعمل في رأسي، وتتطاحن، وتشتغل وتؤوب وتذهب، وأحسست بهنات أخرى تصعد من قلبي رويدًا رويدًا وتحتل أيضًا من رأسي مكانًا فسيحًا، وتعمل هي الأخرى، وتعتلج وتتزاحم.

---

(١) مقالة : أنا لست بفاضل.

(٢) مقالة : ساعة صمت ..

أصبحت (رأسًا) حيًّا متوهجًا ونسيت بقية جسمي، حتى لكدت أن أعتقد أن رأسي يمتد إلى أصابع قدمي، وآدني فرط ثقله وضخامته وعزب عن بالي أن هذا (الرأس) يقوم — في وهمي — على غير جسم.

مئات ومئات من الأفكار، وأنصافها، وأرباعها، وأجزائها وأجزاء أجزائها، تدور وتدور، وتتفرق وتتجمع وتنضح وتختلط وتسكن ثم تضطرب.

وذكريات وأحاديث نفس، منها ما يتصل حتى يتم فصوله، ومنها ما ينقطع قبل ذلك.

في ساعة الصمت هذه، اضطربت نفسي وقلبي بتيارات كثيرة من المشاعر والعواطف والإحساسات، والأفكار والذكريات.

إنّي أعيش في حندس من الليل في هذه الحياة، أمد يدي هنا وهناك وأنا في مكاني، فما تقع على شيء يصلح للاستعمال والاستهلاك إلا دفعته إلى موضعه من جسمي ونفسي، فإن لم أجد شيئًا وضعت رأسي بين ركبتي، وغططت، فإن هزتني فكرة — مهما كانت — قلت ارجعي إلى مكانك ونامي، فلست بخير مني على أي حال.

ولن يكون الفعل مهما كان عظيمًا بأعظم من الفاعل الذي يأتي به وبأفضل منه بلا عناء .. وما أزال نادمًا .. فمتى تأتي فتفرج عني القبعة الأخيرة ؟.

هذه ساعة صمت واحدة فكيف لو كانت ساعات»[1].

٣ — الذاتيـة المتشائمـة

حينما ولى عام ١٣٥٠هـ لم يتذكر الناس سوى الإدقاع والعوز، ومس الحاجة إلى ما يستر الحال، ويقي من الجوع، وقد تألم من رمز لنفسه بـ «أنا» من هذه الشدة، التي أثقلت كاهله بمئونتها وقسوة وطأتها فكتب مقالة طويلة استعاد بؤسه

(١) المصدر السابق.

وشقاءه في العام الفائت، وتمنى ألّا يعود، وأقحم ألفاظًا عامية كثيرة للمبالغة في تجسيم بعض المسميات في ذهن القارىء، وبناء هيكلها في ذهنه، لأنه هنا يستعين بالوصف الدقيق على التعبير عن ألمه ومعاناته من شقاء الزمن، وتوجع الأيام، يقول بعد مقدمة طويلة عن ذلك العام :

«والآن أيها العام. ها أنت عبرت ضفاف شاطيء العدم وسوف تبتلعك اللجة وتذهب بك في عداد الحقبات الطويلة التي ذهبت ولكنك تترك أثرًا لا يمحى وذكرًا لا يضمحل إلّا أنه أثر سيء وذكر مرعب، خصوصًا أنا، فإني سوف أذكرك والألم ملء جوانحي لأنك اضطررتني إلى هجر كثير من عاداتي التي كنت أتمتع في بحبوبتها. فمنها المسكن المتعدد الطبقات، فإني قد استبدلته بصندقة بسيطة .. »[1].

ثم يذكر أنه هجر الفاكهة، وطارده صاحب المسكن، واستبدل الجزمة بالنعل، والإضاءة القوية بالمسرجة نمرة ٢، والأثاث حنبل فقط، والملابس بفتة حاف بدلًا من سلطان الدوبلين وفخر العرب، وُحرم الماء المثلج .. وهكذا يسير في الوصف. مستعينًا بالعامية في بعض الألفاظ كي يقتدر على تصوير الواقع الذي عاشه من الإدقاع والعوز. ولكن استعانته بالعامية غير موفقة، لأن العربية قادرة على استيعاب المضمون، وفي وسعه أن يستبدل كلمة «حنبل» ببساط أو فراش، ونحوهما . وأن يقوس على ما كان مصطلحًا على شيء ما من المستعمل اليومي في حياة الناس، ولا يُعرف إلا به، أو لا يكون تصوره تامًا إلا بإيراد ما اصطلح عليه مستعملوه مسمى متداولًا، وليس أسلوبًا في الحديث الأدبي، أو المقال الفني.

---

(١) مقالة : ذكرى عام ١٣٥٠هـ، السيئة بتوقيع «أنا»، صوت الحجاز عدد ١٢ وتاريخ ١٣٥١/٢/٢٢هـ، ص ٧، وهي سنة جدب وقحط وإملاق، وتذكر مجلة الفتح المصرية أن عدد الحجاج هذا العام قد لا يتجاوز ثلاثين ألفاً من أربعمائة مليون مسلم، أما المدينة المنورة فسوء الحالة ظاهر، وليس فيها مجاعة، ولكن فيها جائعون في حاجة إلى الطعام..» عدد ٢٩٠، الخميس ١٧، ذو الحجة، ذو القعدة ١٣٥٠هـ السنة السادسة، رئيس تحريرها محب الدين الخطيب.

وقد أثارت هذه المقالة حفيظة علماء الدين فكتبت ردود كثيرة عليها، انظر مدخل الفصل الثاني من هذه الدراسة، المقالة الدينية.

مثل كلمات : نمرة ٢، للمسرجة، و «بفتة حاف» و «سلطان الدوبلن»، و «فخر العرب» وهي علامات أو مسميات لأنواع من القماش الذي يُصنع منه الثوب، والأول منه رديء على خلاف الأخيرين فهما من الجيد المرغوب فيه، كما أومأ إلى ذلك الكاتب، وتباكى.

على أن الإغراق في اللفظ العامي ـــ حتى ما اصطلح عليه الناس من المسميات ـــ لا يحمد للكاتب، بل إنه يضعف النص الأدبي ويفتته ويذهب برونقه، وإن كان يمنحه شيئًا من الواقعية..

واستعمال بعض الأدباء والكاتبين ألفاظاً عامية ـ رغبة في دقة النقل والتصوير ـــ لا يبيح أن يكون هذا الاستعمال مطلقًا، ففي العربية غناء ووفرة من اللفظ المترادف وغيره، في وسع الكاتب المقتدر أن يمتح منه ما يشاء.

إن إتيان الكاتب على هذه الأنماط من المأكل والملبس أضاف إلى النص ثراء وتفاصيل معيشية مهمة.

فقد أعطى دلائل واقعية حسية، في رسمه لوحات اجتماعية نابضة للحياة اليومية المتحولة نحو الكآبة، بسبب الفقر.

ولا يتورع من وصف العام المذكور بأبشع الصفات لأنه «لا يستحق سوى اللعنات، فإلى الهاوية، وإلى الجحيم يذهب من كان على شاكلتك نحسًا باردًا ثقيلًا، ولتغضب ولتحتج مهما أردت فإني قد سددت [أذناي] عن هرائك وفتحتها لنغمات عامنا الجديد .. ».

ولتلحظ خطأه النحوي في رفعه كلمة «أذناي» بينما حقها النصب بالياء لأنها مثنى، وفي مطلع مقالته وردت عبارة «وما كدت أفرك عيناي لأتحقق الوقت»، وهو الخطأ نفسه الذي كرره في كلمة «أذناي»، وكأن الكاتب بهذين الخطأين لا يستقيم مع ما يكتبه أقرانه في الجريدة من تجويد ومعرفة بقواعد اللغة، واختيار الجيد من اللفظ.

وحين كتب عبدالله خياط مقالته في ردّه عليه أيدته الجريدة قائلة «نشارك

الكاتب في دفاعه، ولنا كلمة في هذا الصدد بعنوان وداع عام، سننشرها في العدد القادم».

وقد برّت بوعدها، فنشرت المقالة المعنونة بـ «وداع عام» وفيها برود، وطلب لما يكفّر عن خطأ الكاتب في مقالته السابقة عن الدهر .. وكأن الجريدة أرادت تجنب غضب علماء الدين فأوحت إلى الكاتب بإعادة كتابة الفكرة ثانية بأسلوب أقل إثارة.

ومن خير ما يصور الروح المتشائمة اليائسة في النثر الأدبي السعودي ما كتبه محمد حسن فقي من مقالات ذاتية وفق فيها إلى جلاء ما في نفسه من نوازع القلق، ونيران الحرقة بالطموح إلى الرائع من الأحلام، والناعم من الرؤى فشكا إلى صديقه الفقر، وضيق ذات اليد، وهمهم في أعماقه بشيء يشبه الدعاء أن ترتاح نفسه من مطاردة الألم خفقاتها، ومحاصرته توثبها ورغبة الحياة ألّا تمتعه بما يسعد ويرضى.

وما تفتأ ظلال الشك تعتوره في ذاته، وما ينفك التساؤل الملح المغروس في أعماقه يتردد عن ماهية الضعفاء والحمقى، وينزوي القادرون والموهوبون خلف آكام النسيان والضياع ؟ وهل يخلق بمن يمتلك المشاعر الصادقة، والموهبة المبدعة، والفكر المتوثب أن يستسلم لإحباط المثبطين والعاجزين ؟.

وقد نجد للكاتب حجة في اعتزاله المجتمع فترات، وانقطاعه عن المشاركة الأدبية، وسيطرة التشاؤم على نثره وشعره، لإحساسه المفرط هذا بالخيبة، وشعوره القانط بمرارة الإجحاف، وظلم الناقدين والمقدرين الأمور توثب الروح لديه، واقتدار الملكة في فنه، وإني لأعجب كيف يواجه من يقترب من هذا القلق المقض، والتوجس المعنت مسائل الحياة، وتقلب الأيام، ومضاضة انتظار الآمال ؟.

«قال لي صديقي : مالي أراك شاحبًا معروقًا تحجب محياك غيمة مظلمة من الكآبة وتعلو وجهك غبرة موحشة من الانقباض، وتبدو كأنك تعالج بين جنبيك همًّا قاتلًا، وألمًا حادًا ويأسًا مرعبًا، إن صدمات الحياة — يا صديقي — مهما

قست لأحقر من أن تغيض ماء شبابك وأن تفلّ عزمك وتميت حيويتك، وإن هذا الإمعان في الأفكار السوداء لضلة يجب أن يتحاماها من كان على غرارك ثقافة ولبًا، وإن هذا النحو الذي تنحوه في تفكيرك لا يصل بك إلى الغاية التي يرمي إليها شباب يقدر نفسه، فيتأهب للحياة، ويستعد لنضالها فيقهرها وتقهره، ويأخذ بخناقه فيتشبث بها، ويتعلق ويبرهن لها أنه خليق بأن يحيا وأن يغالب الكوارث وأن يتخطى العقبات وأن يجالد النكبات فتجله إذ ذاك الحياة وتكشف له عن نفسها ما تحجبه عن الأغرار الجبناء فيهتبل فرصها ويصرف من حوادثها كما تشاء الرجولة، وكما يشاء الجلد وبعد النظر.

وبعد فأرى لك — يا صديقي — أن تعيد إلى وجهك طلاقته ونضارته، وأن تعيد إلى نفسك مرحها وحبورها وإلى فكرك استقامته واتزانه فمتاعب الحياة أهون من الضجر والتأفف اللذين نخلقهما لأنفسنا أكثر مما تخلقهما لنا الحياة، وأرى لك ألّا تتعجل الراحة والفوز فإنك ستصطادهما متى أحكمت تدبير السبيل إليهما وصمدت صابرًا»[١].

ويناجي نفسه بمثل هذا الحديث مسليًا ومعزيًا، وجاعلًا منها رفيقًا يبعث الرجاء، ويثير ما يزين له طرائق الحياة، والاختلاط مع الأحياء.

ولأن النفوس أشكال مختلفة، منها الرهيفة الشفافة التي تتأثر بأقل المسببات للامتعاض فتشكو وتتذمر، ومنها المجبولة على الأناة وانتظار الفرح في العام القادم من الأيام والاتصال بالتفاؤل في طوالع الأمور ومقدمات البذل والعطاء، فلا نراها قانطة أو يائسة أو ملتجئة إلى التواري والمسكنة وشحذ الرجاء، لا نتطلب من أديبنا الفقي أن يخفف من إعناته نفسه، وإشقائه ذاته بمر الشكوى، فلعله جُبل على هذا التردد بين الأمل والقنوط والفرح القليل والشعور الممض بطول المرارة والحرمان.

فهو من هذه النفوس الرهيفة التي لا تملك طبعها، فتعدل منه ما اشتط عن

---

(١) مقالة : يوميات، صوت الحجاز، عدد ٢٠٤، في ٦ صفر ١٣٥٥هـ، ص ١.

المألوف أو ما خرج عن المعروف من انفعال الفنان الشاعري تجاه الأحداث والسلوك والظواهر.

وكأنه لا يرى فيمن حوله إلا مناصرين لهذا الشقاء الذي يعيشه، ومؤيدين لأن يلاقي من مرارة الأيام ما يلاقيه، فهو يعمل في اجتهاد ــ كما يذكر ــ ولكن بلا حمد أو شكر، ويبذل في عطاء دون أن يقدر له أحد ممن يعمل معه في صحيفته التي اشتغل بها هذا العطاء، وهذه الموهبة. «.. ثم ما هو عذر الحياة في العبقري الرهيف الحس توصد في وجهه السبل وتمهدها للحمقى والجهلاء ؟ ألم يك من واجبها أن تسلبه حسّه حتى لا يعاني جحيم الخيبة وجحيم السخرية المريرة التي تفتك بأعصابه، وتهدها حين يتسيطر عليه الأغبياء ويسخرون مواهبه تسخيرًا في غير تقدير ولا حمد ؟»[1]، فهو يؤكد خاصية الحزن التي جبل عليها.

ويلجأ إلى الليل يخفيه عن الأعين، فيستلهم منه الشعر والمعاني الجميلة، ويبثه الحرقة واللوعة، ويجد فيه الأمان من القسوة، والأنس من الوحشة، وهي مقالة مغرقة في الاستسلام للضعف النفسي، على عادة الرومانسيين، ومسرفة في ملامسة الواقع، باحثة عن البديل المبهج في أنواء الطبيعة :

«أيها الليل .. في سكونك الرهيب وبين أحشائك الموحشة القاتمة وخلال ساعاتك الدهرية المملة سكبت دموع الأسى يصعّدها قلب متأجج حزين.

وفي سديمك المخوف ووسط عبابك المظلم الزاخر، تماوجت أنّاتي المتقطعة وزفراتي الملتهبة إلى حيث تلقى جوًا فسيحًا غير صدري الضيق المصطخب.

أيها الليل .. كتوم أنت حينما تجمع في حقيبتك السوداء آهة الحزين، ولوعة اليائس، وألم المنكوب، ودمعة الثاكل، ولهفة العاشق، وتململ السقيم، ومضاضة المظلوم، وتسدل عليها غطاء من ردائك الأبدي الكثيف، وعندما تنتثر كواكبك

---

(١) المصدر السابق.

المتلألئة الخفاقة كعيون تحاول الإغماض، أو كقلوب أقلقها الشوق وأترعها الأسى، فهي ترتعش كقلبي الكسير وتقاسمني شقاء عيشي المرير.

وحينما يشرق قمرك الجميل فيتمشى في سمائه ببطء وتثاقل، ويرسل أشعته الفضية المنعشة إلى الجفون الساهرة، والقلوب الكليمة فيذّر عليها بلسمًا وغذاء، ويكون كشاهد على آلام البشر التي تطويها في بردك الفاحم المهيب وتطغى السحب المتراكمة، «أحيانًا» فيحجب عني ذلك السمير المحبوب، فأتقلب على فراشي بمضاضة وحسرة، وأخترق ظلامك الدامس بتأوهاتي المذيبة، ثم أعود فأرتمي في «أحضانك كما يرتمي الطفل في أحضان أمه الرؤوم، وأبثك شكاتي أيها الليل الكتوم.

وحين ينبثق ضياء الفجر، وتطلّع على هذا الكون شمسه المنيرة الفاضحة .. حينذاك أسحب من جوفك العميق استرسالاتي الأليمة، وأهب من ضجعتي مسارعًا خوفًا على أسراري من النهار النمّام.

فلسكونك وكتمانك وظلامك وقمرك وكواكبك محبوب عندي أنت أيها الليل»[1].

٤ ــ الذاتيــة المتفلسفــة

وتنحو المقالة الذاتية إلى سبر أغوار النفس واستكناه حقيقتها، والنظر إلى المغيب على الإنسان برؤية الفيلسوف المتأمل، ومحاولة الاجابة على شكوك الإنسان في ما يقدم عليه، وما ينتظره، وما يحيط به من عوالم مضطربة متناقضة من الخير والشر، والصلاح والفساد، والفناء والديمومة، وأبرز ما يمثل تيار المقالة

(١) مقالة : أيها الليل، صوت الحجاز، عدد ١١، في ١٣٥١/٢/١٥هـ، ص٦، وقد كتب بجانب العنوان (شعر منثور).

الذاتية ذات البعد الفلسفي الضجر هو حمزة شحاته، فهو يميل في نسجه اللفظي إلى التأني والتؤدة، كما يفعل بالفكرة تعتريه فيتفاعل معها، ويفصّل فيها القول فيبين عمّا يريد منها، ويختزل ما لا يصلح أن يقرأه الناس، ثم يداري نفسه، في طياتها، وتنضح رؤاه هادئة قوية، هدوء المتعقل، وقوة المفكر البصير، وقلق الباحث عن الحقيقة، ففي مقالته التي بين يدي لا يجد مفرًا من مواجهة القدر المحتوم على المخلوقات كلها، فيتأمل فيمن سبقه، وما هدّ الموت قبله، وتأخذه الشفقة على من يتولى جاهلًا مستكبرًا غير معتبر ولا متدبر هذا المصير لكي حي.

وهذه الدنيا بتجاربها المرة والحلوة قد روضته، وعلمته أن يستقرىء في هدوء وتأمل أحداثها، وتوالي أجيالها وقرونها، فيرى أن النهاية هي الهمود والخلاص من هذا الذي يقض الفؤاد بالسهاد والضنى، وهو يتمناه، ويستعجل مجيئه، لأنه يعتقد أنه في هذه الحياة ليس مع الأحياء، وإنما هو ميت مع الأموات، فلا يجد ما يبعث في نفسه الرغبة إلى التمتع في الدنيا من مباهج ومسرات، بل إنه لا يرى فيها غير العبث والصخب والتطاحن، فما الداعي لأن يحرص المخلوق القلق الجاهل بما سيقدم عليه على أن يبقى ويُعمر ؟. أليس في الاستسلام للقدر خلاص من عناء الخوف من المجهول، وقلق انتظار ما يسوء ويفزع من الأحداث ؟. ثم أليس في القبر منجاة من ضيق الحياة وكدرها ؟ ومادام الكاتب يحمل في جوانحه قبرًا مظلمًا كنفسه فليعجل بالذهاب إلى حيث مقره الأخير، ليتصل الزمن، ويلتقي التراب بالتراب.

وهذا الأسى المفجع لدى شحاته ولّد شواظ تفكير حار متدفق في الذات البشرية، وفي السلوك الجمعي للإنسان، ولم يجد بعد طول النظر، والإسراف في التأمل غير الخسار والرهق والإفلاس، فما القيمة المتحققة من وجود الإنسان إن كان غير ذي خلق ولا مثل ؟. وهو لم يجد في من حوله ما يدعوه للتفاؤل والسعة في الحلم، أو الانتظار الجميل لما يحسن أن يأتي في قادم الغيب.

وقد عُرف هذا الأديب بما يكتبه من نقد عميق متبصر للنفس الإنسانية،

ولمعاني الجمال في الفن والحياة، وملامح التأثير في الروح المتلقية لألوان الإبداع الأدبي والفني، وما يحسن بمن يريد الوصول إلى غاية النص، وفائدة العمل الأدبي، أن يتبعه في بوحه الصادق عن نفسه، وقربه الحميم من مشاعر الإنسان.

وفي هذا النص يأس من جدوى الحياة وهوان للنفس من سلطة الفناء، فليس عليه أن يقاوم اجتماع الزمان والبشر على نفسه وعلى أسلوبه في التفكير وإيمانه بالحقائق التي وصل إليها، ولا عليه أن يضعف حتى يتضاءل ويصغر ثم يتلاشى ويطلب الفناء في التراب :

«.. ورأسي الآن شبيه بالكوخ الخاوي تصفر فيه رياح الصحراء أو أرواحها، وروحي خامدة، وكل ما في نفسي هامد لا ينبض، وأحس في قرارة نفسي أني منطو على قطعة مجدبة جافة من الأرض، لا يرف فيها دليل من دلائل الحياة، ولا تلح بمعنى من معانيها، وقد تضيق سبلها أحيانًا حتى أشعر بانطباقها على جانبيّ، وطالما انتهى بي تطويفي فيها إلى جبال ووعور يأخذ بعضها بأطراف بعض فأمضي فيها ما أثقل رجلًا، حتى إذا تكشفت لي عن أمل، تدحرجت منحدرًا، متخذًا من رأسي قدمًا ثالثة، ولا ألبث أن أفتح عيني على الأمس بهوله وجدبه.

ولكن مع هذا أضحك كلما وجدت إلى الضحك سبيلًا، وآكل كما تأكل الأنعام، وأغمض عيني كما تفعل الأحياء، وأحس دائمًا بأني لا أنام نومًا طبيعيًّا، أذهل به عن نفسي .. »[1].

وقد يتساءل قارىء شحاته : ولماذا كل هذا الألم ؟، وهل ثمة ما يدعو لأن ينظر أي إنسان إلى الحياة على هذا النحو المتشائم القنوط ؟.

قد يكون التساؤل حقًّا في غير قلق هذه الطائفة من الفنانين والشعراء والمثاليين، ولكنه يصبح أمرًا عاديًّا لدى هؤلاء، منه يقتاتون عجينتهم الإبداعية، وفي أتونه يصلون أفكارهم ورؤاهم وامتدادهم إلى غيمات المنتظر والقادم.

---

(١) مقالة : صراع، صوت الحجاز، عدد ٢٣٦، في ٢٣ رمضان ١٣٥٥هـ، ١٠ نوفمبر ١٩٣٦م، وفي كتاب «حمار حمزة شحاتة» ص ٥٠، دار المريخ للنشر، الرياض، ط١، ١٣٩٧هـ.

إن شحاته يعبّر عن مثالية إنسان اكتوى بتجربة الواقعية في البدء ثم أراد أن يهرب منها إلى عالمه الميثولوجي الخاص دون أن يستطيع !.

«وبعد فما أنا غير سجن مظلم مهدم تجرّه روح قديمة، شبيهة بالسلع، أو بفضلاتها التي تعرض في أسواق النفايات، وفي عيني معين يفيض بالهموم والكلال، ما أرى من ورائه إلا الشيخوخة تدب في كل شيء دبيب الفناء في كل حي.

والدنيا نفسها هذه العجوز الشمطاء المتوكئة عل عصوين من عمى الأفكار وتزيين الأقدار، أليست في حقيقتها شيئًا قديمًا جدًا، لم يُبقِ فيه تعاقب الأزمان، وكرّ العصور معنى للجدة، أو رمزًا للشباب.

والزمن الرافض الدال على نفسه بتحول المرئيات وحركتها، أفتراه ساكنًا ككل شيء مما أراه لا يريم مكانه، أم هو وحده السائر المجد لهذا الموكب الحافل إلى نهايته المحتومة ؟ أم تراه ميدان حرب تتطاحن فيه الجموع وتقتتل وتتنازع البقاء الرخيص، غافلة عن سيره الحثيث بها.

لقد هدّني السهر، وبرمت بعبء أثقل كاهلي الضعيف، وما يفتأ يسلط على قلبي الضعيف وأعصابي المخطوفة شواظًا من اللهب، يدفىء هذه الصحراء القارصة التي أجوبها وأضرب في حواشيها إلى غير غاية، ولكنه يلتهم منها كل معنى للعزاء وكل رمز للطمأنينة، طاويًا منها كل ما آنس إليه.

ذلك العبء الثقيل، هو رأسي الذي أنوء بحمله منذ تفطنت للحياة وتمرست بتجاربها القاسية، ولو أن لي في موضعه عن عاتقي رأس حيوان أعجم لما أخطأت العزاء في محنة .. فمن لي بذلك ؟»[١].

وهنا خاصيتا العقل والعاطفة، حكمة الفيلسوف، ومشاعر الأديب المرهف، تتخاصمان على التفسير الحق لمعنى الحياة، أيقبل إليها وهي على هذا النحو من الإفلاس والإملاق والقِدم ؟ أم يدعها تتحول به من وجهة إلى أخرى في سيرها

---

(١) المقالة السابقة.

المحتوم دون اختيار ولا وعي ؟.

ولا يملك إلا أن يعلن الاختيار البشري الجبري وهو التسليم والانقياد لسنة الله في الحياة لكون، أن يدع مقاليد الأمور والتسيير للخالق، فهو لا يعلم غاية هذه الحياة، ولم يأنس فيها بالطمأنينة والعزاء، ربما لأنه يحمل هذا القلق الأبدي المثالي حول معنى الإنسان الفاضل.

«وفي نفسي مقبرة، تنبت فيها قبور مليئة بالذكريات، أعشق فيها العداء والصداقة، والحب والبغضاء، والفوز الحلو والفشل المؤلم، والمادة والروح وغدت كلها ترابًا صامتًا وخواء موحشًا منقبضًا لا يتصل من الحياة بعد اتصاله بنفسي وموطن الذكرى فيها بشيء.

وقبري بين هذه القبور فارغ يتثاءب قد ملّ الانتظار .. الطويل، كما مللته، فمتى يعتنق التراب بالتراب، فيخفت هذا الأنين، يتصل بالزمن»[١].

ثم هو لا يملك شيئًا من ماضيه، بما فيه الطيب والرديء، ولا يراه إلا مقبرة غدت ترابًا .. فماذا يرجو بعد ؟. إنه ينتظر أن يلتقي بترابه الذي عاشه وإن كان مرًّا ليصير التراب إلى تراب.

فلسفة قاسية مؤلمة، وروح شاعرية مكدودة مهزومة، لا يسع من يلتقيها إلا التأمل في شفافيتها وعمق حدسها، وصبرها الطويل في البحث عن الحقيقة.

ومن غير المبالغة القول بأن الهروب من الحياة، وطلب الوحدة، وتمني نسيان الواقع الذي يعيشه الكاتب يشكل ظاهرة نفسية وأدبية عامة، تتصل بما يعرف في علم النفس، بـ «سيكلوجية» الفرد في مواجهة الأشياء العامة.

ولم يتفرد الأدب العربي بهذه الظاهرة، فقد عرفها الأدب الأوروبي بعد الحربين العالميتين وعرفها الأدباء العرب في السنوات الأولى للتحول الثقافي والحضاري من الريف إلى المدينة، ومن الطبيعة وعالمها إلى التقنية ونظام الآلة، وبرزت ملامح هذا

---

(١) المقالة نفسها.

التوجه بعد الهزائم العربية، وانتكاسة الثورات العسكرية في بعض أقطار الوطن العربي، وفشل كثير من الرؤى الوحدوية والقومية في تثبيت مشروع عربي واحد يمثل وجهة حضارية وإنسانية للشعوب العربية.

بينما تلقاها أدباؤنا في الجزيرة العربية أول الأمر من المهجريين، فاحتذوهم مقلدين، ثم أصبحت حقيقة مع بذور التغيير الطارئة التي صدمت مفاهيم القديم، والدعوات القوية إلى الاستنارة والأخذ بالجديد، ووجد كثيرون من الأدباء والشعراء أن الفترة الانتقالية بين القديم في الأدب والسلوك والتقاليد إلى الجديد فيها كلها تثير مسائل شتى من الإيمان بهذا المنطلق ورفضه، أو الانقياد له والصدود عنه.

وكثيرًا ما يهرب الأديب من واقعه حينما يعجز عن فهمه، أو حينما يعجز الآخرون عن فهم رؤى الأديب وقبول شخصيته بما تحمله من أفكار ونزوع إلى المثالية والبحث عن الإنسان القيمي.

وقد لجأ أدباؤنا، أو بعضهم ــ ونخص منهم الذاتيين إلى الطبيعة، وإلى عالمهم النفسي الخاص، ينشئون مع ذواتهم الأحاديث والقصص، ويتبادلون الأفكار، لأن من حولهم رافضون فكرهم، أو لأنهم ــ في المبدأ ــ لا يصيخون السمع لهم، بل لا يحبذون الاستماع إليهم.

وحينما يجد الأديب الآذان غير واعية، والأصابع تشير بشيء من الرهبة إلى لمعات الأديب وإضاءاته تكون الهجرة إلى الداخل إو إلى الطبيعة أمرًا مشروعًا، للبحث عن الخلاص، والنجاة من صمت الجماعة إلى الإفضاء الفردي.

وقد تناول دارسون كثيرون[1] من النقاد هذه الصلة الوشيجة بين النفس والإبداع، «لأن النفس تصنع الأدب، وكذلك يصنع الأدب النفس، فنجدهم

---

(١) انظر : حامد عبدالقادر، دراسات في علم النفس الادبي، لجنة البيان العربي، ١٩٤٩م ود. عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، دار المعارف بمصر، ١٩٦٣م ومحمد خلف الله أحمد، من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، ط٣، دار العلوم الرياض، ١٤٠٤هـ.

يتحدثون عن صلة علم النفس بالنص الأدبي، وأثر نفسية المبدع على نتاجه، ويحللون آثار التصور والخيال النفسي، والألم والغربة، والاعتزال، وغيرها في ما يكتبه الأديب أو يذهب إليه.

ومن الممكن أن يكون هذا الهرب من الحياة عن طريق تمني الموت كما فعل السرحان، أو الشعور بطول انتظار المثوى الأخير لصاحبه كما ألح شحاته، أو اللجوء إلى الطبيعة سلوى وعزاءً، وبثًا للشجن، وبحثًا عن الفرج من أعباء اليأس كما هي نفسية الفقي، أو إسرافًا في التمني، وإلحافًا في طلب الإنقاذ من عالم وهمي، يخيل للأديب أنه ملجأه وناصره، وباعث الغوث إليه، كما سأعرض في نص محمد البياري[1] الذي تألم فيه من الوحدة وقسوتها.

٥ ـ الإحساس بالوحدة

فهو يشكو وحدته النفسية، وغربته الروحية في قومه، ويخاطب أهله وأصدقاءه القاسين، يستثير فيهم همة الترقي، وطلب المعالي، والتخلي عن البالي من العادات، والمبتذل من القيم الاجتماعية المتخلفة، ويرى أنهم ليسوا كما يراهم الرائي، ولكنهم يتمسحون بثياب الإنسانية والأخلاق، وهم منها براء.

وهو يرى أن وحدته فيها «شيء من الخلود»، وأنهم في وهم من أمرهم حين يتغنون بأناشيد الطيبة والوئام. فهم كاذبون، إذ إن تعلقهم بالحب ليس إلّا عرضًا، ونشدانهم للسلام ليس إلّا ضعفًا وهوانًا، لانعدام مقدرتهم على الفعل واتخاذ ما تذهب إليه عقولهم رأيًا واعتقادًا. ومن إلحاح الكاتب على الوحدة، وشغفه بالعزلة تتبين رؤيته الاجتماعية ونقده القاسي له، فليس خطأً أن نعد هذه المقالة في باب النقد الاجتماعي، لولا ما نلمسه من ذوب الذات، ووضوح الشفافية، وانكشاف التعب الذي يقاسيه الكاتب من هذا المجتمع المكبل بالقيود.

---

(١) كاتب ولد بمكة سنة ١٣٢٢هـ، وتلقى علومه بها، انظر «أدب الحجاز» ص ١١٧، ط٢، ١٣٧٨هـ.

فلا حرج في أن نتتبع هذه النفس الطامحة إلى التغيير، الناقمة على الركود، الباحثة عن النور والحرية وتكسير الأغلال.

«يا أهلي وأصدقائي :
أنا وحيد، وفي وحدتي شيء من الخلود.
أنا وحيد، ولكن ليس في وحدتي من يملؤها منكم بابتسامته جمالًا وجلالًا.
أنا وحيد، ولكن أرى في وحدتي شيئًا من الخيالات السحرية التي تختلب لبي بهيبتها.
أنا وحيد، ولا أريد شريكًا في وحدتي. وحيد ولكن يا أعزائي، أليس في الوحدة شيء من العزاء ؟.
أليس في الوحدة ما تريده النفس المعذبة الهائمة ؟.
أليس في الوحدة من الأشباح ما تسر به العين الزائغة والقلب المروع ؟.
بلى، بلى ولكن يا أعزائي :
لا أريد أن أحملكم ثقل التسليم بما أراه في وحدتي بل أقول لكم :

إن كنتم لا تصدقونني فتخلوا من عاري قوانينكم المقيدة فإني لا أخضع لأغلالها ولا أتجرع كؤوس سمومها. لا أريد أن أكون فردًا منكم يعجبه ما تذوب له عواطفكم رقة وسرورًا في حين تتلاشى أمامه كل مداركي ضجرًا وسآمة.

أنا لا أريد إلا أن يقول فيّ قائلكم : (إنه فتى غريب الأطوار بعيد المشارب). أنتم تغتسلون من مياه الشلالات والجداول، وأنا أغتسل من ينابيع الحب الخالد ومجاري الحرية النفسية المقدسة.

أنتم تسيرون مع أحبائكم والذراع ملتفة بالذراع أما أنا فأطوق خصر وحيدتي وأحلق بها في العالم الذي أتمناه عالم الطهارة والعفاف والنزاهة.

لكم بسط العشب الخضراء تمرحون عليها، والأزهار الزهراء تتلذذون بمرائيها، وأنا لي من وحيدتي قلب وحب أمرح فيه فتتلذذ به نفسي.

لا أريد يا أعزائي غير وحدتي لأكون بها بعيدًا عن استنشاق تلك الجرائيم

المتطايرة من مستنقعات عاداتكم وقوانينكم التافهة التي لا ترمون بها إلّا إلى ابتعاد الأرواح وتقييد العواطف.

وحدتي نسيج شفاف ولكن أجسامكم لا تحبه لأنها لم تألف إلا المآزر الكثيفة الضافية. وحدتي مخدع ناعم ولكن ليس فيه المجلس الوثير الذي تتطلبه أذواقكم الذابلة»(١).

وهذا لون من الهروب السلبي، الابتعاد عن الواقع لفساده، والبحث عن النجاة بالعزلة.

ونحن نرى أنه لم يوفق إلى السبيل الحكيم لايصال رؤاه إلى أهله ومن حوله، فهروبه لا يخفف شيئًا من غلواء صحبه في التشبث بالقديم والفناء فيه.

ولعل رغبة الشبان آنذاك في تخليص الواقع من إشكالاته المتعددة أثّرت في نفسياتهم كثيرًا، وتبنت ملامح هذا التأثير في مثل هذه النصوص النثرية اليسيرة التي وجدناها.

وقد يشتد هذا الهروب من الواقع إلى التخلص من جميع العلائق والوشائج التي تصله بأهله، والارتماء في أحراش الطبيعة وتخومها، فهي الأم الرؤوم التي تستقبل أبناءها حين يضيق أهلهم وأحبابهم بهم، أو ربما يرتمي هذا الأديب الشاب في فكر مناقض لمبادئه، أو مختلف عن إيمان صحبه بقيمهم، كما يحدث الآن من اندفاع غير محمود لدى بعض الشبان إلى أنماط مختلفة من الأفكار الأوروبية وغيرها، وليست بالضرورة متفقة مع المعتقد العربي الإسلامي العام.

ولكننا نحمد لأديبنا البياري هذه النقمة، فالواقع أن المجتمع آنذاك كان مغرقًا في إسرافه نحو الموروث، والتقليد، ومصمًّا أذنيه عن دواعي التحديث، وأسبابه، كالتعليم، ونبذ العادات المنافية لقيم الدين، والتسامح، والائتلاف وغيرها.

---

(١) مقالة : وحدتي، أدب الحجاز، ص ١١٧.

ولذلك نرى أن المنحى الذي سلكه هذا الأديب في الثورة النفسية والذاتية على الواقع، والشعور بضرورة الوحدة والعزلة ضرب من الكفاح والتضحية، ولكنها تضحية لم تؤد نتائجها المرجوة، لأنه لم يواجه أهله، ويصدمهم في أفكارهم، بل انتحى بعيدًا وغنّى لنفسه هذا النشيد العزائي اليائس :

«أنا ـــ يا أعزائي ـــ مغرم بوحدتي ولكن لا تخافوا على فتاكم فقد تكذبكم معالم جسمه الناحل بل اسمعوه في وحدته يعزف على أوتار قيثارته اللحن الذي تطلبه منه حياته وحريته، وأحسبكم لا تسمعونه لأنه عميق كهجو البحر هادىء كانسلال النسيم الهادىء على وجه البحيرة الهادئة.

أنا مغرم بوحدتي ـــ يا أعزائي ـــ ولكن لا تعجبوا، فإن لي فيها عالمًا أرافقهم متحدًا معهم في العواطف والمدارك والمشارب في حين تجدون أنفسكم غير متحدة في الأذواق والمقاصد والشعور. فلا تخافوا على فتاكم يا أعزائي.

آه، من لي بمن يأنس كما آأتنس بك أيتها الوحدة القاسية، التي لا تمنح فياض معانيها وجلائل أسرارها إلا لمن أذعن لحكم إرادتها واستسلم لما تلقيه عليه من الدروس الوخازة والتعاليم المعذبة القاهرة الغالبة»[1].

فالبياري لا يجد في أهله غير السوء، فهم يتنعمون بـ «المجلس الوثير»، والمآزر الكثيفة الضافية، وبسط العشب الخضراء، يمرحون عليها، والأزهار المنوّرة يتلذذون بمرائيها وكأن هذه الحياة اللاهية تصرفهم عن التفكير الجاد، ومعرفة ما يصلح للحياة من أساليب العيش السليمة، وطرائق الحياة الحرة الكريمة، بعيدًا عن أغلال العادات ـــ كما يرى ـــ وأصفاد التقاليد.

وقد اتخذ أسلوبًا عمليًّا في مواجهة ما ينقده غير مجد، فهو لم يسع إلى الإصلاح، ولم يبادر إلى الاختلاط بمجتمعه ليتمكن من إبانة أفكاره، بل رأى أن العزلة خير من مخالطة غير مجدية.

وهو في سعيه غير بعيد عن أسلوب المهجريين، بل إنه يوشك أن يكون مقلدًا

---

(١) المقالة السابقة.

لجبران في سعيه نحو العزلة والوحدة والإحاس الممض بالغربة[١]، فقد بنى جبران في ذاكرته صورة جميلة لما يريد في مجتمعه بعيدًا عن واقع أليم، وخضوع ذليل لقيم بالية[٢]، ثم يرى ضعف أمته فيتساءل عما ماذا تريد منه ؟. وهو يشفق على ضعفهم ويشمئز أحيانًا من استكانتهم واستذلالهم فيناجيهم «ماذا تطلبون مني يا بني أمي، بل ماذا تطلبون من الحياة والحياة لم تعد تحسبكم من أبنائها؟»[٣].

لكن البياري اشتط في بحثه عن الأشباح المنقذة المسلية التي تصرفه عن التفكير في أهله ورأى أن جنيته تعانقه في خياله ووحدته خير من معانقة أفراد أهله لأحبائهم من غير شعور بعمق الحب ولا روعته ولا جماله، لأنهم لا يدركون كنهه، ولا يعلمون تفسيرًا لمعانيه.

فعزلة جبران عنيفة تحمل بعدًا نقديًّا فلسفيًّا، ثم رأيًا مثمرًا من هذه العزلة، وعزلة البياري المقلد تحمل هروبًا وبعدًا وغضبًا، من غير أن يكون لها إيحاء إصلاحي فعلي، أو رأي بديل يمكن أن يقوّم المعوج من التقاليد، أو يفند ما خطل منها[٤].

وهذا النوع من المقالات الذاتية لا يضيف إلى الفن الأدبي النثري شيئًا يذكر، فليس فيه سوى استجداء الإنقاذ، والتعلق بالوهم، والإغراق في الألم، وكل ذلك في صياغة أسلوبية تقليدية، ليس فيها تجديد في اللفظ، أو ميزة في الأسلوب، أو روعة في الصورة.

ونلتمس للكاتب شيئًا من العذر في حداثة سنة[٥] حين كتب هذه المقالة، وفي ثورته الجامحة على مجتمع كبّل بقيود متخلفة من الجهل والأمية والتواكل، ولولا هذه الروح الاجتماعية الناقدة لما كان لهذه المقالة أية قيمة تذكر.

---

(١) مقالة : الشاعر، العواصف، المجموعة الكاملة العربي، ص٤٨٦.
(٢) مقالة : لكم لبنانك ولي لبناني، البدائع والطرائف، المجموعة الكاملة،ص ٥٢٠.
(٣) مقالة : يا بني أمّي، العواصف، ص٣٩٠.
(٤) انظر تحليل د. محمد الشامخ لهذه المقالة ص ١٢٢، النثر الأدبي في المملكة العربية السعودية.
(٥) من المعتقد أنه كتبها في أوائل العشرين سنة من عمره، كما يشير د. الشامخ.

ولكن محمد عمر عرب[1] أكثر تفاؤلًا وأهدأ نفسًا، وأعمق نظرة، فهو في مقالته يجتهد في إيصال أفكاره إلى أهله، وبثهم ما يريد من نظرات جديدة مشعة بأغاني الحياة وأناشيد الحرية.

وهو مبتهج بما تمنحه الطبيعة من سعادة لمن يحسن تأملها والنظر إليها، فلا يرى فيها إلا ما يدعو إلى الحياة والاستزادة منها، ثم لا يرى في «عروس الفجر» إلّا ملهمته ومعلمته أسرار الوجود، فيعزف على قيثارته أحلى الأنغام ليسمع قومه منه شكاته علهم يسمعون.

«فـي الريـاض

بين حفيف الأشجار وأريج الأزهار رأيت عروس الفجر ترتل نغمة الحب.

في الرياض، بين النسيم العليل والهواء الرقراق البليل سرت في أعضائي تلك النغمة السماوية وجعلت روحي ثملة من خمرة الحب.

في الرياض، تحت أشعة القمر الفضية، ورقابة أعين الدراري جلست أردد نغمة الحب تلك النغمة التي أرسلت إلى نفسي شعاع الأمل.

في الريـاض :

دعوت قومي لألقنهم دروس المعيشة العالية.

لأعلمهم سر الحياة الهادئة. دعوتهم لأشنف أسماعهم بأسطورة الحب، التي سمعتها من عروس الفجر، فوجدتهم عجماوات لا يسمعون. يصيخون لنعيق الغربان ويطربون من صوت الزوابع الثائرة.

حينذاك علمت أن القلب المظلم لا تنيره إلّا أشعة الحب، علمت أن الأدمغة السوداء لا تضيئها إلّا أغاني الحياة وأناشيد الحرية.

فرتلت على مسمع منهم أسطورة الحب بتلك النغمة التي تستفز حتى العجماوات، فإذا بهم يضحكون ويبكون معًا.

---

(١) كاتب وشاعر، ولد بمكة المكرمة سنة ١٣١٨هـ، وتلقى معارفه بها، ويذكر صاحب أدب الحجاز (محمد سرور الصبان) أنه في شعره أبلغ منه في نثره. انظر ص ٤٠.

(٢) مقالة : إيه من أسطورة الحب، المصدر السابق، ص١٢٥.

حينذاك علمت أنهم مخدرون «بمورفين» الجهل لا يفيقون إلا متى جرت في دمائهم الحياة الحقيقية، وأنّى لهم ذلك وهم كذلك حتى تطأهم حوادث الأيام ويذهبوا في خبر كان.

حينذاك ..

ودعت قومي.

تركت مسقط رأسي.

عفت مربى طفولتي.

وأخذت قيثارتي بيدي.

وذهبت أسعى وراء عروس الفجر عازفًا عليها أسطورة الحب وطفقت أجوب السهول والأوعار والأنجاد والأغوار.

أبحث عن ضالتي المنشودة، حتى عثرت عليها واقفة على ربوة الحياة مشرفة على الأفق من وراء العالم.

تبسم للمحبين.

وتحنو على البائسين.

وتسحق بأرجلها المجرمين.

فجلست معها. جلست مع عروس الفجر تلك التي علمتني نشيد الحرية وهدتني إلى أسرار الوجود ؟»[1].

وهذه الروح الحالمة الرومانسية تتجلى مع النغم الإشراقي الجميل المنطلق من القيثارة التي تعزفها أنامله جوّالًا وراء عروس الفجر، طوّافًا منشدًا قصائد الحب، وأغاني الوجدان، لكن الجدوى من أنشودته الواعية لم تثمر اجتماعيًّا، فقومه لم يستمعوا إليه، بالرغم من أن نغمته تستفز حتى «العجماوات» فهم ما بين ضاحكين أو باكين .. لأنهم مخدرون بالجهل، ومغلفون بالأمية، وفي هذا لقاء مع جبران حين رأى أنه لا يريد أن يستيقظ، ولا أن يصحو لأنه تعود المسكنات والمهدئات كما يفعل المخدر بالمعتل «وكلما ظهر في الشرق مرض جديد يكتشف له أطباء

---

(١) المصدر السابق.

الشرق مخدرًا جديدًا»(١).

وأديبنا محمد عمر عرب يداري يأسه، ويكتم جواه عن أهله المخدرين بانطلاقه نحو الحب والحرية، وعزفه أغانيها، وتمتعه بما توحيه الرياض في النفس من أفانين المتعة، وألوان الرضا، فهو يستعيض بهذا الجمال الطبيعي وما تنشده عروس الفجر أو ما ينشده لها عن تخاذل واقعه الاجتماعي، وانصراف من حوله عن البحث في سبيل السعادة الحقيقية في أشعة الحب التي تجهلها «الأدمغة السوداء».

وبمقارنة موقف الكاتبين في طلبهما العزلة نجد أن «عالم البياري مخيف موحش، ولكن العالم الذي لجأ إليه عرب كان سعيدًا مشرقًا»(٢).

وكلاهما هارب من مواجهة الواقع، الأول لم يبذل أدنى جهد، لبلوغ اليأس منه مبلغه، والثاني أسمعهم ولكنهم لم يصيخوا فآثر أن يستمتع وحده بحريته، وتوطّن في نفسه ألّا جدوى من وراء عقول متحجرة، والأول جاء بأسلوب ليس فيه تجويد ولا اعتناء، أما الثاني فكان أكثر إتقانًا وأوثق ترابطًا، وأقرب إلى الإقناع والإمتاع.

٦ ــ الهمّ الوجداني

وهذا نمط آخر من المقاليين الذاتيين مختلف عن السابقين، غير مشابه وغير مقلد، فأبو عبدالرحمن بن عقيل يكتب لونًا من المقالة مستقلًا، لا يشبه فيه أحدًا، ولا يترسم طريقة أديب سبقه، أو كاتب أعجبه، إلّا أن سليقته تأبى الانقياد التام للعاطفة فتتشتت من هنا وهنا، تارة تقف عند التجويد اللفظي، تضع فيه، وتبدي وتعيد، فترى أبا حيان، والرافعي من زعماء مدرسة الصنعة في القديم والحديث، وتارة يستبد بها التفكير الفلسفي والعلمي، فيأخذها تنظير علماء

---

(١) مقالة : المخدرات والمباضع، العواصف، المجموعة الكاملة، ص٤٠٦.
وانظر محاكاة محمد عمر عرب لميخائيل نعيمة في قصيدته «يا نهر» أدب الحجاز، ص٤٠.

(٢) د. محمد الشامخ، النثر الأدبي، ص ١٢٤، بتصرف.

المنطق وأرباب الكلام، فتستدل بنظرية، أو تستشهد بمقولة، أو تبنى على استنتاج، لكن هذا الكاتب حين يستسلم لذاته وينجو من الصنعة في اللفظ والتكلف في المعنى يبلغ من التجويد منزلة عالية، وتظهر روحه في أكثر ما يكتب، شفافة جلية، وطيعة رضية، فهو يكتب نفسه في انكشاف على ملامحها، ووضوح على رغباتها، ووقوف عند انكسارها، وارتفاعها، يعتب حين يعتقد أنه اشتط أو أبعد عن جادة الصواب والعقل، ويرضى حين يتبين من نفسه نقاءها وبحثها عن الخير، وطلبها معالي الأمور.

ومقالة ابن عقيل فيها اختلاط عجيب من عناصر عدة، حيث تبدو روحه جلية واضحة، فلا يخفى منهج تفكيره، ولا تتوارى منابع ثقافته، وحسّه النقدي.

فالمقالة لديه إن خرجت عن العلمية البحتة لا تكاد تتعدى ما ذكرت آنفاً، والذاتية لديه طاغية على كل شيء، والموهبة الفنية التي تجلو المقال وتصقله، وتثير فيه ميزات من القبول والحسن سمة من سماته الخاصة.

وإن خصصت هذا المقال أو ذاك بأنه ذاتي، أو وصفي أو اجتماعي فلن أعدم أن أجد العناصر الثلاثة كلها في واحد، بل إن ذلك كثير كثرة ظاهرة لا يخطئها الحس النقدي الذوقي.

ففي مقالاته تتلازم العناصر الثلاثة، الذاتية، والعلمية، واللفظية، يجتهد في أن يجمعها، أو يغلبه طبعه وشغفه العلمي، وحبه التفرد والتميز في الصياغة، فهو بين الطبع والصنعة، وبين الذاتية والعلمية، يريد أن يقول كثيرًا فيحجم، ويريد أن يسرف في التمتع بعطايا الفن والجمال فيقعد به عزمه المحافظ عن الإقدام، ويريد أن يغلب العلم على كل ذلك فلا يكبح جماح نفسه، وتدفق عاطفته وطبعه.

وهو في كل هذا يحسن فيستولي على اهتمام القارىء، ويقسو فيهرب قارئوه ثم يعود أخرى كالمخاتل الصائد، كلما فرّ صيده أو بَعُد سعى إليه في حذر واختفاء حتى يبلغ منه ما يريد.

ومن ميزاته النفسية غير الأسلوبية وضوح الطيبة في المعنى العام للمقال، في

أكثر ما يكتب وهو لا يتكلفها ولا يسعى إليها، فلا تفتأ تظهر ريفيته وحنينه إلى القرية ومَوّالها في سياق مقالات متعددة[(١)].

وقد فتن ابن عقيل بالجمال، يستلهم فيه معاني السمو والسعادة والكشف، فاستسلم لهوى القلب يلقيه بين الأفنان والأغصان والمروج، وراح ينشد قصائد الغزل، ويبعث خلجات عاطفته تعتصرها الأشواق إلى ما يروي ظمأه ويشبع نهمه، وقد حرم سنين طوالًا من لفتة، أو سبحة، أو إطراقة، فهو له «عين تنظر وقلب يخفق وروح ترفرف ونياط تنبض وكبد تتفتت وموق يدمع وعاطفة تخشع وأحلام لا تشبع وأضلاع لا تدفع»[(٢)].

ولا يستطيع أن يدفع بصره عن معالم الفتنة، ودواعي الإلهام الشاعري، ومسارب التدفق العاطفي «فقد خلقنا الله من دم يفور في الوجنة، ومن عيون تنظر فتسبح وتمرح .. »[(٣)].

وحين سأله أحد أصدقائه عن نظارته التي أحدثها ليستعين بها على الرؤية، أمن طول النظر في الكتب، ومداومة الدرس ؟، قال : «ما كلّ نظري إلّا من سحر الألحاظ»[(٤)].

ونيّف على الأربعين ولازال الهوى يعبث بفؤاده فكتب معاتبًا شاكيًا، موحيًا بالتوبة، وآملًا الصبر على الفراق، والعون على البعد :

«ماذا بعد أيها الظاهري ماذا ؟

أبعد أربعين عامًا ونيفًا لاتزال عائمًا في بحر لم تهتد إلى شاطئه ؟

أبعد الأربعين تقذفك الحقيقة على الهامش، فتذهب إلى عبقرية ابن حزم وبلاغة الزيات وطراوة ابن فارس ولوثة زكي مبارك وسخرية مارون عبود لتقيم من كل هذه العناصر بلاغة متلاعبة وتنفخ في كهوف الأحلام والأوهام روحًا جدلية لتؤكد

---

(١) مقالة : أنا مغترب والراحلون همو.. هكذا علمني ورد زورث، ص٣٠.

(٢) مقالة : هجيري الذات أيضاً. المصدر السابق، ص٢٥٧.

(٣) مقالة : هكذا علمني ورد زورث، المصدر السابق، ص٢٧.

(٤) مقالة : قاموس الغزل. المصدر نفسه، ص٣٠٢.

للناس أنك لا تعيش في كبد الوهم على هامش الحقيقة.

وإن التي سرقت قلبك هي التي لونت مشاعرك بكل توثبات الطفولة.
وإن التي سرقت قلبك ـ يا ظاهري ـ تتنفس برئتين سليمتين، وتوقع على الكورنيش بساقيها الخدلجتين أحلى إيقاع لأحلى رقصة شرقية.

بينما أنت بين أحراش الضباب يزكم أنفك غبار الأوراق الصفر فيحشرج في رئتيك المكدودتين فحيح الأموات من سرقات ابن حجة إلى بديع التلعفري.
كأنك برمت بالناظر فتلفعت بالغابر ..
وإن التي سرقت قلبك تكبرك بسنين فلا تزداد إلّا شبابًا ؟؟؟؟!!
وأنت ـ على صغر سنك ـ تدنو من الشيخوخة رويدًا رويدًا، وإن غالطت أترابك بأصباغ الحناء والكتم..

وكلما كبر هواها في قلبك كبرت مساحة حرفك، وإن كنت مجرد شبح في لطافة الروح وكثافة الكبرياء.

وإن التي سرقت قلبك لا تحمل شيئًا من أعبائك، ولا تعرف أن عينًا في الظلام تغمز .. ولكنك لطفولتك الرومانسية تدفن رأسك في الرمل، وتزعم أنك ملء السمع والبصر وتصر على هذا الوهم، وتقسم عليه ولا ترى أنك تحنث، لأن (الطير المسافر) تأوهات انسابت إليك رغم شماريخ طويق الأرعن، وخلت أنك المتهلف عليه في الغربة، وأن القوم يشغلهم فرحك أو حزنك، وراحتك أو تعبك.

إلى متى أيها الظاهري تبقى في الظل ينحسر عنك الفيء فلا تصحو ؟
ستقول إن قلبك مفعم بعواطف لا تدري بدايتها من نهايتها، وإن أشجانك لو تفجرت لاكتسحت كل ديوان شعر رومانسي على وجه المعمورة.
نعم نعرف هذا ..

لله درك إن كل سنة من سني حياتك في عمل عمر من الأعمار العبقرية النادرة،
وإذا كان هذا الحب العارم يدنيك للشيخوخة، فإن فكرك يتدفق شبابًا.

أما التي سرقت قلبك فقد أحسنت أنت للفن غاية الإحسان عندما قلت :

كبرى الهوى وبحكمة أنت الصغيرة ..

هذه صبوات قلبك، فهل لك أن تسمعنا صلواته ؟

أجل ستسمعون صلوات هذا القلب، وإنا بالله على هواها لمستعينون .. »[١].

وقد وفى هذا الكاتب العاشق بوعده ولم يحنث به، فانصرف في حسرة عن هذه المعابثات، وترك مصايلة الفتنة، ومكابدة الشجن، وأرغم نفسه على أن يلتزم بالجاد والرزين، فقلّ في أسلوبه جمال الانطلاق، وروعة العاطفة، وأخذ من الجد سمات التحديد والفهم، وتقسيم المعارف وأوجه الاستشهاد.

وكان يقول بعد أن أدرك الشيب بعض فوديه «فحسبنا أن نتدارك فضلة العمر بعد أن تضاحك الفوادن، وتقوّس المرفقان .. »[٢].

ويعلن عهده بالجد، والتزام ما يدعو له العقل، واطراح العاطفة، «وقد آليت منذ اللحظة أن أعجم سنة هذا القلم الشرود الطموح المتوثب ذي النزوات المكبوتة.

فلن يُرى بعد اليوم في صيال أو مخاتلة.

وعهدي به غزل مدلل يضمّخ الطرس بتهويمات النسيب يحدوه قلب عرم الشبوب»[٣].

ولا تفارقه الثقة المفرطة، فيرى في عزمته على الجد إثمارًا وعطاء جيدين، ويستملح ما سيأتي به من فكر وأسلوب، ومن درس وبحث، فهو يخاطب قراءه في مقالة توديعية، تطوي الماضي، وتدعو لكتابة جديدة :

«وثقوا بعرك ظاهري منجب فيه ـــ إن شاء الله ـــ ذكاء متدروش، وعاطفة صادقة، وجمال مغرد.

وإياكم أن تتوقعوا مني ما أستحي منه عند ربي.

(١) مقالة : هجيري الذات، المصدر نفسه، ص٢٥٥.

(٢) مقالة : هكذا علمني ورد زورث، المصدر السابق، ص٢٦.

(٣) مقالة : آن له أن يعجم، المصدر نفسه، ص٢٥٩.

فإن ذكرتم (النغم الذي أحببته)[1] فاعلموا أنني عليه لمن النادمين.

وقد أحرقت بقايا من بقاياه وقلت :

ما أمر الرجوع إليه ..

فإن قبلتم مني جديتي ودعابتي ووعظي على استحياء : فذاك أرفق بي وأعود لكم. وإن أبيتم إلّا الثانية فصومعتي أرحم بي وأنا لها من الشاكرين»[2].

واستمطر ذاته روحيًّا ودينيًّا في مقالة دعائية، انسكب فيها، ورّق القلب، وترطب اللسان بالابتهال :

«إلهي يا أكرم الأكرمين لقد ابتهلت إليك وأنا أحسّ دبيب خطاي في هذه الفانية ..

إلهي يشفع لهذا القلب ــ إذ يفيىء إلى رحابك ــ أنه لم ينقطع عن عبادتك حتى في لحظات جنوحه.

لأنه يستشعر مقامك ويخافه فلا يصحو إلّا على وخز وألم وانكسار.

يشفع لهذا القلب إذ يناجيك وإن جرحته الآهات وابتلعته اللذات أنه مؤمن عاص ..

إلهي امنحني فضلة من العمر تبدد مخاوفي من سالفـه، ولا تأخذني إليك إلّا وأنا مشتاق للقائك .. »[3].

لكن كاتبًا آخر ينحو في مقالته إلى تجلية هموم الذات، ويسعى إلى أن يبوح

---

(١) اسم ديوانه، صدر عام ١٣٩٩هـ، في طبعته الأولى عن دار الوطن الرياض. ولم يُعد طباعته مرة أخرى، بل سمعت أنه أحرق ما لديه من نسخه.
ويعني بالنغم صوت مغنية مصرية رقيقة، فقد تولع بها، وعشقها، وفي هذا المقال إشارات كثيرة لكلمات من أغانيها.
يقول في إهدائه الديوان إليها «إلى التي أخرجتني من القوقع، وعلمتني أن أكتب بالأهداب حرف المداد، سلمت حنجرتها الدافقة من «كح وبح» ـ : أهدي هذه القوافي المرتعشة» ص٥.

(٢) مقالة : إن أبيتم فصومعتي أرحم بي. المصدر السابق، ص ٢٦١.

(٣) مقالة : صلوات قلب، المصدر نفسه، ص٣٤٠.

بآلامه وشجونه، ويقترب في بعض ما كتبه من التعبير عن رؤية الإنسان بعامة إلى الأشياء، وما يتصل منها بالنفس، أو يؤثر على صفاء الوجدان الإنساني، ونقائه.

هذا الكاتب هو عبدالله الجفري الذي يخلط في نثره بين ألوان الكتابة كلها، لأن مرماه الذي يصوب الهاجس إليه هو البوح، وهو يريد أن يصل إلى القول عن الذات، والحديث عن المشاعر المتدفقة أو المنكسرة في مواجهة الحياة بأقرب السبل إليه، ويجد الموصل إلى التعبير والبوح أحيانًا سبحات الشعر، وعوالم الخيال، فيرتقيها، ويتناول أفكاره برؤية الشاعر، ويجد ما يريده في النثر السهل المتدفق كاللمحة الخاطرة على الذهن فيسعى وراءها، ويجد أن التوسع في الكتابة أجدر بإبانة الفكرة، وأحرى بنجاحها فيكتب المقال بشروطه المعروفة.

ومن هذا العرض الموجز لنهجه في الكتابة نرى في نثره المقالة المشوبة بروح الشعر وبلمحة الخاطرة، وبانداح النثر السهل واتساع آفاقه، فالكاتب لا يلتزم في كثير من نثره بمقاييس النقاد للمقالة الأدبية. فقد تكون مقالته خاطرة، توسع في جلائها، أو شعرًا ساقه على هيئة النثر (بين المقالة والخاطرة).

وحتى في رسائله التي يكتبها إلى ملهمته وباعثة الوجد والصبابة في وجدانه يرسلها في هيئة المقالة الأدبية الذاتية، ذات السمات الشاعرية، لا تخلو من خصائص الرسالة، وميزات الخطاب بين اثنين حميمين[1].

وأبرز ما في منحاه الكتابي من حيث الموضوع مذهبه في النظر إلى الحياة، وأنها قاسية مرة حين تخلو من العاطفة، وجميلة لدنة حين يمنحها الإنسان الصدق والنقاء والطيبة، ونراه يسرف في تقصي هذه الرؤية، ومنحها القبول المطلق، حتى يكاد يقترب من التشاؤم والسوداوية في قبول الحياة أو رفضها، فكثيرًا ما يورد أن الإنسان لا يهمه من الوجود إلا الألم وأن البشر يقاسون الشقاء أكثر من تمتعهم بالنعيم في هذه الحياة، وأن نهاية كل حب هي الفراق والبعد، وأن الآلة على الرغم من عونها الإنسان ـــ سلبته الأريحية وجمال التعبير، وتلقائية التعامل،

---

(١) انظر كتابه «رسائل حب عربية» دار الشريف للطباعة والنشر، جدة، ط١، ١٤٠٨هـ. مائة وتسعون صفحة من القطع المتوسط، حوت إحدى وعشرين رسالة.

وهذه الأفكار الرومانسية على ما تحمله من الحق ـــ ليست مقبولة ومسلمًا بها على الاطلاق.

ولكنها روح الشاعر، وخيال الفنان، وعاطفة الأديب حين تبالغ في التسليم بالشيء أو رفضه، ولعل جمال الفن في مبالغته وإسرافه في التصوير، لأن العلم وليد الحقائق، والفن ثمرة الخيال.

وقد نجد لدى الأديب المجنح في التصوير ـــ مثل كاتبنا ـــ سموًا في الفكر، وتطلعًا إلى جمال المعاني، نخلص إليه من مجمل نثره، وعام كتابته، فنُقبل إليه، ونرضى به على ما يصد منافسيه حينًا من التشاؤم والسخط والنفور من الحياة، أكثر من قبولنا الأفكار العلمية المجردة التي يوردها العالم جُملًا مختصرة لا تقبل الجدل، ولا تثير الخيال.

«كنت أتمدد أحيانًا كالظل المكسور ..
فلا أقدر أن ألمّ نفسي ..
فالإنسان هو ما بين تمزقه بسبب أن يكون وحده في هذه الغابة الأنيقة ـ الحياة ـ وما بين لحظات التفاهة (الواعية) أو التفاهة المثقفة..
فأغلب الأشياء التي ندور حولها، وتدور حول العمر والجهد.
ليست إلا صغائر الأشياء .. أما أشياؤنا الكبيرة والحميمة، فهي تلك التي تبقى في الصدر .. تحرق و تحترق.

نحن لا نهرب من شيء ..
نحن ننغمس في كل الأشياء التي تسكننا، أو تعبر بنا ..
مسافة الحياة قصيرة في الحلم.
ماتعة في التخيـل ..
بخيلة العطاء،
والخطر الرهيب أن يحاول الإنسان تفريغ أعماقه ..
فالضياع معناه ليس التبديد ..
بل الأقسى أن يكون الإنسان في الوجود كله ليكون

الضياع والتمزق ألمًا.
فالوجود هو إحساس بهذا الألم .. »[1].

ولا يترك المقالة تأخذ مداها الأرحب في الإفضاء المنطلق من قيود اللحظة الشعرية، فيوقع أحيانًا ما يرد له من فكر على هذا النحو من التزامن والإيقاع، حتى لتفقد المقالة أبرز خصائصها، وهو الانطلاق والتوسع في إجلاء ما يريد.

وإن تضييقه مساحة النص النثري أمامه على نحو ما فعل يحيل كتابته إلى خاطرات وجدانية سريعة، أو أغنيات يمكن أن تنشد وتردد، لقصرها، وتقارب موسيقى لفظها.

انظر إليه يصف ساعة لقاء مع محبوبته، تتداخل في معانيه غموض الصورة وإبهامها، وصوفيتها، وولهها، وضعف الشاعر أمام ملهمته :

«بلا ساعة أتعرف على زمنك.
شراعك يبدأ مسيرته في بداية المساء..
حتى يصل بي ..
مدن العصافير المتجمعة في لقاء ثنائي.
وحدنا.
والحب يصبح بيتًا،
ومدى، وعمرًا جديدًا.
وحدنـا ..
ونجتاز نهايات القصائد الشجنة.
رؤوسنا تهب من داخلها الرياح الشمالية ..
كلما أخذنا التفكير مع أحلامنا ..
في التوحد والتكامل.
صدرنا مرتع النشوة ..

---

(١) مقالة الظل المكسور، من كتابه «نبض»، ص ١٣٧.

التي اشتاقت للغناء، وللفناء في الروح .. »[١].

ومن غير مجانفة الحقيقة أن الكاتب لم ير في أنثاه هذا الملجأ الحنون إلا خوفًا من الواقع الأليم، وهروبًا من مادية العصر، وارتفاعًا فوق آثام تهديها هذه الحضارة إلى أهلها مع كل منجز جديد، أو اختراع يدهش العقل ــ كما يرى الكاتب ــ.

«حقًّا ــ يا صديقي ــ
إن الحقائق لم تعد تهم،
والحب لم يعد يهم ..
المهم الآن هو الموت ..
ذلك أن الموت في عصرنا ..
أصبح هو الاختيار .. ،
وهو الأغنية المتوحشة ..
هو ــ يا صديقي ــ أوان الطلوع والاقتحام .. »[٢].

---

(١) مقالة «هذا المساء»، المرجع السابق، ص١٥٠.

(٢) مقالة «حكاية عند الفجر»، المرجع السابق، ص١٣٤.

د ـ الخصائص الفنية في المقالة الذاتية :

يختلف الكاتبون في خصائص أعمالهم الأدبية ومميزاتها، وهذا الاختلاف لا ينحصر في الأعمال البعيدة عن التشابه، كالشعر والقصة، بل في تلك الأعمال المتفرعة من ينبوع واحد، كاختلاف الأشكال الأدبية في جنس النثر، واختلاف الأساليب في أنواع جنس واحد كالمقالة مثلًا.

وهذه الخصائص تتناول جميع جوانب العمل الأدبي، سواء في ذلك الصياغة والتأليف، أو التصوير، أو طريقة التعبير الأدبي المباشر أو غير المباشر.

ولاختلاف الكاتبين في طرق تعبيرهم عن مقاصدهم برزت الخصائص التي يتميز بها كاتب عن كاتب.

ونستطيع القول : إن كل جنس مقالي داخل الجنس النثري العام يمكن أن تكون له خصائص مميزة له عن غيره، فخصائص المقالة الاجتماعية غير النقدية وخصائص الذاتية غير الدينية، وهكذا ..

من هنا كان لا بد لنا أن نتناول هذه الخصائص بالقدر الذي يجلو حقيقتها للباحث.

ويختلف النقاد في نظرتهم إلى النصوص النثرية في المقالة باختلاف اتجاهاتهم المدرسية في النقد، فمنهم الشكليون، الذي يولون اهتمامًا كبيرًا بالإطار الفني، وبالهيئة الخارجية للنص، وبالصورة الجمالية، وبأدوات الكاتب التي استخدمها في رسم الصورة الفنية، ومنهم نفر يولون اهتمامًا كبيرًا بالفكرة والمضمون دون النظر إلى الأشكال الفنية، ومنهم من يجمع تلك وهذه، فيوفق بين المدرستين ويرى محاسن الفكرة، ومحاسن الشكل، وما فيها من قصور فيقف عند كل جانب محللًا دارسًا.

وقد أولى نقادنا العرب جنس الشعر عنايتهم وجهدهم، فدققوا النظر فيه، وقعدوا أصوله، ورسموا حدوده، وبينوا الحسن منه والرديء، ووقفوا عند خصائصه الفنية

والمعنوية، ورأوا أنه المعبر الأمثل عن الشجن والتمني، والمصور للأحلام، والناقل لأدق خصائص النفس وخطراتها، ومني النثر بإهمال أكثر الناقدين وقلة احتفالهم به، فرأوه تأريخًا ودرسًا وبحثًا، ولم ينج من هذا الإهمال الوبيل إلا ما كان من إبداع كتّاب قلائل في النثر الفني من تاريخنا الأدبي القديم، غير أن النقد لم يواكب ما تميز به بعض الكتّاب العرب الأوائل[1] من سمو في التعبير الفني، وانطلاق من قيود الوعورة والسجع والصنعة، وتوقف النظر النقدي عند جوانب محدودة من ميزات هذا النثر الفني.

ولعل اهتمام العرب بالشعر وإهمالهم النثر يعود إلى طبيعتهم الشاعرية الشفافة، وإلى كونهم مولعين بالتعبير عن الآلام والأحزان والأفراح والانتظار والرجاء في شيء من الأسى الموجع، أو البهجة الغامرة، فهم ميالون إلى العاطفة أكثر من ميلهم إلى حدس العقل، وإحكام البصيرة، وإعمال الفكر.

وإن الناظر في تاريخ الأمم يرى أن الأمة التي تتخذ الأشكال الشعرية لتنقل من خلالها ما تختلج به خواطر أبنائها من طموحات وآلام، ومن رؤى وخيالات هي أمة تحتكم إلى العاطفة والإحساس المرهف أكثر من احتكامها إلى الحقائق، وإلى الأفكار القريبة من الواقع.

وحين تزدهر الحضارة لدى أمة من الأمم أيضًا تتبين خصائصها الفكرية الثابتة في ما يبدعه أبناؤها من رؤى عديدة تصور الحياة بما يضطرب فيها من اختلاف في الآراء، وتباين في الأفكار، في هذه النصوص النثرية المتداولة الآن، وأخصها المقالة بكل فروعها وأنواعها، وليست الخاطرة الشعرية، والمقالة الذاتية إلا تطورًا طبيعيًا للحس الشعري جاء في هذه الصياغة النثرية الشفافة، ثم سعى أكثر

---

(١) من هؤلاء على سبيل المثال : عبدالله بن المقفع (ت ١٤٢هـ)، وأبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، وأبو الفضل بن العميد (ت ٣٦٠)، والصاحب بن عباد (ت ٣٨٥هـ)، وبديع الزمان الهمذاني (ت ٣٩٨هـ)، وأبو حيان التوحيدي (ت ٤٠٠هـ)، وأبو العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ)، وأبو محمد القاسم الحريري (ت ٥١٦هـ)، ولسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦هـ)، وغيرهم كثيرون.

الكتّاب إلى تضمين أفكارهم ورؤاهم ومباحثهم العلمية في كثير من أنواع المقالة المختلفة.

على أن هذا الكلام السابق ليس إلا تقدمة لتبين مناهج النقاد المحدثين في النظر إلى النصوص المقالية، وإلى النثر بعامة، وعلى الرغم من أن الاهتمام الأكبر ما زال الشعر في المرتبة الأولى فإن إسهام بعض الدارسين للفن الأدبي النثري قد يوقف على خصائص كل نوع من أنواع المقالة المدروسة في هذا البحث.

وقد رأيت — بعد طول النظر — أن المقالة الأدبية السعودية يمكن أن يتأملها الدارس من خلال تيارين أدبيين معروفين على نطاق العالم الأدبي، ولهما أثرهما في سياق الإبداع الأدبي بعامة، في أقطار الوطن العربي وفي غيره، وهما : المدرسة «الرومانسية أو الرومانتيكية»، والمدرسة الواقعية.

فالرومانسية في خصائصها العامة — كما سيتبين بعد قليل — تنطبق على نوعين من المقالة الأدبية هما : الذاتية والوصفية. والواقعية لا تبعد كثيرًا عن نوعين آخرين من المقالة الأدبية السعودية هما المقالة الأدبية النقدية، والمقالة الأدبية الاجتماعية. أي النقدية في الأدب والنقدية في المجتمع.

ويمكن النظر إلى المقالات الأربع المدروسة من خلال هذين التيارين الرومانسية والواقعية.

والمدرسة الرومانسية[1] تسعى إلى الانطلاق من أسر الواقع والتقليد إلى فضاء

---

(١) هي تيار أدبي نشأ في القرن الثاني عشر الهجري، الموافق القرن الثامن عشر الميلادي، وتعلق به أدباء كثيرون من فرنسا وبريطانيا، وجاء في أعقاب الكلاسيكية، هادفاً إلى التغيير، والانطلاق نحو العاطفة والخيال، وإيثارها على العقل والمنطق، وشمل هذا التيار أكثر فروع الفن، وكان للأدباء الرومانسيين تأثير كبير على الابداع الروائي والقصصي والمسرحي، وعلى الموسيقى والرسم التشكيلي، وعلى الأخص في مطلع القرن الثالث عشر الهجري، ومن هؤلاء الأدباء فيكتور هوجو، وجان جاك روسو، وفولتير، ولا مرتين، وورد زورث، وكولدريج، وبيرون، وشيلي وكيتس.

وقد غلب على أدب هؤلاء الاحساس المفرط بالذات، والنزوع إلى الخيال وشيء من الصوفية، واعتنوا ببعض المثل الجمالية في النص، وصوروا المبادىء الانسانية العليا.

رحب من الحرية والبوح، وكسر بعض القيود العائقة عن التعبير المنطلق، وهي ترفض الانصياع إلى الموروث في الاحتذاء والتأسي به، وتريد من المعبر أن يتخذ له المنهاج الذي يراه مناسبًا في إفضائه وبوحه ورسم صوره، ولا تنسى ـــ مع كل ذلك ـــ فضل القديم، أو تتنكر له، بل تحترم الأصول الثابتة في الفن، وتسعى إلى الخروج على ما علقها بفعل التقليد والمحاكاة.

ثم هي تجنح إلى الطبيعة تحمّلها الأشجان وتبوح لها بالأسرار، وتفضي لها بالنجوى، وتقدر في الفرد نزعته إلى التحرر من أثقاله النفسية بالشكوى والبث، وينحو أصحابها إلى العاطفة الجياشة والإحساس الدافق بجوى الحب، وحرقته وعذابه، فينطلقون في غناء نثري جميل، فيه الصورة الغنية بالتفاصيل، والكلمة الموحية، والحس الشعري، والخيال الخصب، والنماء في العاطفة.

وكتّاب المقالة الذاتية في الأدب السعودي عبروا عن كثير من هذا الجوى وباحوا بأسرارهم إلى الطبيعة، ونثروا أشجانهم على معالمها ورسومها، وحاكوا الخليل الوفي، والمنادم في الخيال، وخرجوا على مجتمعهم التقليدي ساخطين ناقمين، باحثين عن حياة أخرى جديدة، ينشدونها في الخيال والحلم، بعد أن لم تكن في الواقع والحقيقة.

والتيار الذي كان سائدًا قبل «الرومانسية» في الأدب السعودي، كان تيار

وساد هذا التيار إلى منتصف القرن الثالث عشر الهجري، الموافق منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، حيث سئم الناس مناجاة الطبيعة وتضخيم الفردية، وتقديس الذات، فنشأ تيار «الفن للفن» غير أن المرحلة التاريخية والاجتماعية والتقليدية كانت تستدعي الإحساس الرومانسي المفرط، مثلما استدعته الحالة الاجتماعية والاحساس بضعف الذات في منتصف القرن الهجري الماضي في مجتمع الجزيرة العربية. وتسمى رومانتيكية أو رمانطيقية، والرومانسية أصح ـــ كما يرى الدكتور عبدالواحد لؤلؤة لأنها أقرب إلى أصلها الانكليزي.

للتوسع انظر : المعجم الأدبي، جبور عبدالنور، ص ١٣١، دار العلم للملايين موسوعة المصطلح النقدي، ترجمة د. عبدالواحد لؤلؤة، وتأليف ليليان لـ. فرست (الرومانسية). المؤسسة العربية للدراسات والنشر، طـ١ ١٩٨٣م، ص ١٦١ المجلد الأول. معالم النقد الأدبي، د. عبدالرحمن عثمان، ص١٨٧ مطبعة المدني ١٩٦٨م، طـ١.

الكلاسيكية[1] والتقليد، فقد كان لأصول الفن الشعري والنثري بعض الإجلال والتقدير، غير أن التقليد كان حائلا دون بروز خصائص الكلاسيكية الأصيلة، التي تحافظ على الموروث الفني في نقاء واحتذاء وتمثل، فطغى التقليد على جوانب الحياة بما فيها الشعر والنثر والتأليف، والدرس والتلقي، وألزم كثيرون من الكتّاب أنفسهم بطرق تعاقبت عليها الأجيال، وتداولتها البيئات الأدبية فعقمت من طول بقائها على وتيرة واحدة بلا إضافة وبلا تجديد، ونضب ما فيها من ماء ورونق، وما تهبه المقبل إليها من وحي وخيال، وما تمنحه من أدوات البناء الفني، ولوازم الصنعة البيانية الطبيعية.

ويعلم الدارسون للآداب أن لها ينابيع تأسى وتجف إن لم يتعهدها المبدعون والنقاد من الرواد بالإصلاح وطول التأمل والنظر، وقد شاع في ساحة الأدب، وبالأخص — في مطلع النهضة — داء التقليد الذي ورث «الكلاسيكية» وعم بجموده ألوان الأدب، وأنواع التعبير، فكان من اللازم أن ينشأ تيار الرومانسية أو «الرومانتيكية» معبرًا عن أحلام جيل جديد سئم الخضوع للمتداول، وملّ الركود، ويئس من دعوات الإصلاح الباردة.

فنرى من هذا الجيل الرومانسي في أدب المقالة الذاتية محمد حسن فقي، ومحمد حسين زيدان، وحمزة شحاته، ومحمد البياري، ومحمد عمر عرب، وعزيز

---

(١) تطلق على الأدب الأصيل، المتفوق، الذي تحتذيه الأجيال الأدبية المتعاقبة لما فيه من قيم فنية قوية، وهو بمثابة القواعد الأولى التي ينطلق منها المجددون في كل فن، وقد أطلقت الكلمة على أدباء القرن الثامن الهجري، الموافق القرن السادس عشر الميلادي، وعلى أدباء القرن اللاحق في عهد الملك لويس الرابع عشر في فرنسا، فقد تقيد أدباء تلك العصور بخصائص مشتركة عرفت بخصائص الكلاسيكية، ومنها الميل إلى المنطق والعقل، واحتذاء القدماء والاعجاب بأدبهم، والوضوح في الأسلوب، والدقة في الصياغة، والالتزام بالقواعد الموروثة في الفن : وتعرف أحياناً بـ «الكلاسيكية» أو طبقة متميزة بالثقافة الرفيعة.

ويعرف الأدب الأصيل عادة بالكلاسيكي، مثل الشعر الجاهلي، وصدر الإسلام، والنثر التقليدي في القرنين الأول والثاني الهجريين، كنثر الجاحظ، وابن المقفع وأبي حيان.

للتوسع انظر : المعجم الأدبي، جبور عبدالنور، ص ٢٢٠، الكلاسيكية في الشعر الغربي والعربي، إيليا الحاوي، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.

ضياء، ثم في الأجيال اللاحقة عبدالله الجفري، وعبدالله مناع، وخيرية السقاف، وفاتنة أمين شاكر، وغيرهم.

ولأن الأسلوب في أوسع معانيه صفة من صفات الشخصية، أو هو الإنسان ــ كما يقول بيفون ــ نلحظ جلاء نفسية الأديب الذاتي ووضوحها الكامل في مقالاته، ذلك أن المقالة الأدبية الذاتية تعنى بهذا الجانب في المرتبة الأولى، فإذا لم توقفنا على خلجات الأديب النفسية، وخفقاته، وأمانيه وخواطره فإنها لا تصل إلى الصدق الفني الذي يتصف به الكاتب الموهوب ويصدر عنه سجية وطبعًا، والصدق الفني في العمل الأدبي معيار دقيق في مقاييس النقد الأدبي للنص، وقد صورت أساليب الكتّاب الذاتية نفسياتهم في نظرهم إلى الطبيعة والكون، وفي موقفهم من الحياة، وفي إحساسهم المرهف بالأحداث، وفي قلقهم من الزمن، وخوفهم من المغيّب، وإحساسهم بمرارة الفقدان، وحلاوة الاطمئنان، والأسلوب في كل ذلك يجيء ناقلًا في إيقاعاته وجمله وألفاظه وصوره ملامح ذلك الشعور النفسي الدقيق، ويجيء متناغمًا مع موقف الأديب من بواعث ذلك الشعور، ودوافع الإحساس به.

وكأن نظرية عبدالقاهر الجرجاني[(١)] التي أسماها بـ «النظم» تنطبق أيضًا على اتجاه الرومانسيين السعوديين في أدبهم الذاتي والوصفي، وإيحاء اللفظة بالمعنى المراد في السياق العام للنص، وهذا ما يريده عبدالقاهر حين أشار إلى أن اللفظة المفردة لا تعطي مدلولها إلا بالانتظام الجيد في النص مع ما يلائمها من الألفاظ الأخرى «فإنا نرى اللفظة تكون في غاية الفصاحة في موضع، ونراها بعينها فيما لا

---

(١) هو عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني، توفي عام ٤٧١هـ، إمام من أئمة اللغة، ومنظر بلاغي كبير، من أهل جرجان، وإليها نسب. من كتبه : أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز والجمل ــ في النحو ــ والمغني في شرح الإيضاح، ثلاثون جزءاً وإعجاز القرآن، والعمدة في تصريف الأفعال.
انظر : الأعلام ٤٨/٤.

يحصى من المواضع وليس فيها من الفصاحة قليل ولا كثير، وإنما كان ذلك لأن المزية التي من أجلها نصف اللفظ في شأننا هذا بأنه فصيح، مزية تحدث من بعد ألّا تكون، وتظهر في الكلم من بعد أن يدخلها النظم، وهذا شيء إن أنت طلبته فيها وقد جئت بها أفرادًا لم ترم فيها نظمًا، ولم تحدث تأليفًا، طلبت محالًا وإذا كان كذلك، وجب أن يُعلم قطعًا وضرورة أن تلك المزية في المعنى دون اللفظ»[1] وأن اللفظة لا تعطي مدلولًا محسوسًا واحدًا محددًا، بل لا يتأتى مدلولها الحقيقي إلا في السياق، فليست الألفاظ كساء للفكرة كما يزعم بعض النقاد، ولا ثنائية بين اللفظ والمعنى.

وإن هذه النظرية في التئام اللفظ بالمعنى داخل النص، ومن خلال اتساقه تتبين في المقالة الذاتية أكثر من غيرها، لأن الكاتب المبدع لا يتوقف متخيرًا اللفظة التي يراها مناسبة لما يريد قوله، بل تأتيه الألفاظ منثالة في توال مثير، وتتكفل موهبته وذوقه بملاءمة هذا الثنائي دون توقف أو تعسف أو تفكير طويل يخل ببناء النص، ويحدث فيه ثغرة أو هوة بين المعاني المتوالية في السياق، والألفاظ المصورة لها، فحمزة شحاته يدع الألفاظ تنثال حسبما يقتضي الحال، وتجيء الكلمة في السياق لها معناها الخاص المشبع بالمعنى العام لا نجده فيها وحدها دون الائتلاف مع أخواتها، فهو يقول مثلًا متحدثًا عن نفسه : «ورأسي الآن شبيه بالكوخ الخاوي تصفر فيه رياح الصحراء أو أرواحها، وروحي خامدة، وكل ما في نفسي هامد لا ينبض، وأحس في قرارة نفسي أني منطو على قطعة مجدبة جافة من الأرض لا يرف فيها دليل من دلائل الحياة، ولا تلح بمعنى من معانيها، وقد تضيق سبلها أحيانًا حتى أشعر بانطباقها على جانبي .. »[2].

فالصورة الوصفية للذات جلية مؤثرة، مثيرة الشفقة، وباعثة على الأسى، وقد تعاورت الألفاظ في نقل هذا التأثير، وانتظمت في النص لأداء هذه المهمة، سواء

---

(١) عبدالقاهر الجرجاني، «دلائل الإعجاز»، مكتبة الخانجي، القاهرة،ط١٩٨٤م، ص ٤٠١، شرح وتعليق محمود محمد شاكر.

(٢) مقالة : صراع، صوت الحجاز، عدد ٢٣٦، في ٢٣ رمضان ١٣٥٥هـ، ص٤.

كانت الكلمة ابتداء باسم في جملة إنشائية «ورأسي الآن .. » أو مرادفة في موقع صفة لا غناء عنها «على قطعة مجدبة جافة .. » أو مفيدة الخبر، «وكل مافي نفسي هامد لا ينبض» .. أو الاستمرار في تصاعد الحدث، ورسم الصورة وتوالي الفعل، كما في «وأحس .. لا يرف .. وقد تضيق .. تصفر ..» إلى آخره، فالكاتب يزاوج بين الاسم والفعل مزاوجة موفقة لأنه لا يشعر بالأسى فقط فيكتفي بما يليق به من الأوصاف والأسماء، وإنما يريد إشراك قارئه معه في ذلك الأسى، فيعمد إلى استمرار الفعل المأساوي عن طريق الإكثار من الأفعال، أو مزاوجتها بالأسماء في تلقائية تكاد تصور طبيعة الكاتب في تفكيره، فكأنه يتحدث عن نفسه همسًا، فتأتي مقالته تنقل همسه إلى نفسه، وأسلوبه في تفكيره، ونظرته إلى الحياة المرة كما صوّرها، فالإحساس الرومانسي المفرط بالذات أبرز ميزات المقالة الأدبية الذاتية، وقد تميزت أيضًا ـــ إضافة إلى ذلك بخصائص عدة منها :

١ ـــ السهولة والعذوبة :

فلم يعد الكتّاب الذاتيون إلى الألفاظ الصعبة أو الحوشية، أو الغريبة يصورون بها معانيهم، وما يذهبون إليه من أحاسيس ومشاعر، والرقة في اللفظ تناسب الرقة في المعنى، فلا يُختار اللفظ القوي إلا لمعنى فيه قوة، ولا يُختار اللفظ السلس السهل إلا لمعنى سهل منقاد قريب إلى النفس، ولا تتحقق غاية الإبداع إلا بانتظام الكلمة، واستقامة الأسلوب، فليس للفظ وحده معنى خاص، بيد أنه يحسن أن يختار كل لفظ للجنس الذي يحتويه، وهذا المعنى يتفق مع ما أراده ابن الأثير حينما قال : «إعلم أن الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر، فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوي دماثة ولين أخلاق، ولطافة مزاج»[1].

فأنت تجد في نسق الكتابات الذاتية أمثال هذه الألفاظ : الليل، النجوى، القمر، الأحزان، الهموم، الأفراح، الشجن، السمير، البائس، المدنف، النادم،

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، القاهرة، ١٣١٢هـ، ص٦٩.

السعادة، الروح، اللقاء .. «وهي ذات دلالات نفسية ذاتية، تتبين في سياق النص.

ويكثر مثل هذا عند عبدالله الجفري وعبدالله مناع، فنجد أن الأول يغرق في مشاعر الغربة، والآم الحنين، ويترع من حزنه ـــ كما يفعل كل الرومانسيين ـــ حتى تبتل كلماته بهذا المداد القلبي المنسكب : «إن كل يوم جديد هو حبي .. أركض خلف الحنين، وتمتزج به آفاتي ومسالكي، ولهبي، والابتكارات في تأملي، أشتاق أن أبكي بصمت، لتدق دموعي جبين الأرض، ولتختلط بمياه المحيطات، فتلد التربة زهرة لا تخضع لتوقيت الفصول، وتطلع الزهرة غدًا جديدًا للأرض والزيتون»[1] فما ينفك يصور هذا الحزن في تناغم موسيقي لفظي سهل، بعيد عن الغريب، وخال من الاستكراه، ولولا أنه يعمد إلى استعمال المحدث من المنحوت ومن الصوغ الجديد الذي قد لا يتفق مع قواعد الاستعمال العربية لكان واحدًا من المجودين في فن النثر الوجداني، وفي المقالة الأدبية الذاتية.

أما المناع فغير بعيد عن هذا الاتجاه فهو مترع بأساه، ومثقل بأشجانه، وغير قادر على الخلاص من أثقال نفسه إلا بالبوح الشجي، فتجيء ألفاظه وكلماته خفيفة مترعة كمعانيه، غير أنه أطول جملة، وأبعد خطوة من جمل الجفري وعباراته، وذلك حسبما يقتضيه المقام، إن كان شكوى طالت الجملة، وإن كان وصفاً قصرت، وصارت كلمة أو كلمتين، ويكثر فيها إيراد الفعل لينقل الحدث، «ذكرياتي، وأشجاني، وآمالي المصلوبة، وأماني التي غرقت في بحيرة يأسي، وتمرغت فوق تلال رؤياي الواضحة، وماتت عند أقدام فزعي، تركتهم جميعًا، أفلت منهم وأخذت أعدو .. أخب .. وأقفز، لألتقي بساحة ذلك السماء الرائع ضياؤه، البراقة ألوانه، الفواحة. فرحته، وكل مافي يهتف : كيف.. ولمن.. ومتى ؟! .. »[2]ونلحظ اجتزاء المعاني، وعدم ترابط اللفظ، وسرعة الإيقاع، وفواصل الجمل، وكل ذلك من دواعي ضعف الصورة التي يريد الكاتب رسمها،

(١) مقالة : سفني مسروقة، عبدالله الجفري، نبض، ص١٨١.

(٢) مقالة : نفرح حين ننسى؟، عبدالله مناع، الطرف الآخر، مطبوعات جمعية الثقافة والفنون، جدة، ص٤٤.

فلم يتخلص من هذه الأسباب التي أخلت بانتظام المعاني، وأفسدت السياق، التقطع، وسوء الوصل بين الجمل، وفساد الفصل بينها أيضًا، وضعف التركيب.

ومن سمات النثر الأدبي منذ مطلع النهضة في منتصف القرن الهجري الماضي إلى العقد التاسع تقريبًا خلوه من كثير من هذه الأوشاب الأسلوبية التي علقت بمقالات المحدثين من الأجيال الأدبية التي أسهمت في المقالة في أواخر القرن الماضي، على حين نرى التماسك في الأسلوب، وحسن البناء، وقوة الربط، وجمال الانتقال، وانتقاء اللفظ المناسب، في مقالات المتقدمين من كتّاب المقالة الأدبية السعودية الحديثة.

٢ ـ البعد عن الأسلوب العلمي :

فاللفظة العلمية المحددة لا يحسن وقعها في سياق النص الذاتي، لأن التحديد العلمي الدقيق الذي توحي به اللفظة العلمية يتنافى مع انداح دائرة الخيال، واتساع آفاق التصوير اللذين يلازمان الكاتب ذا الحس الشعري المرهف، وهو خير من يكتب المقالة الأدبية الذاتية المحلقة في الخيال الرحيب.

ولو تأملت ما جاء من المقالات في أدبنا السعودي الذاتي لوجدت أكثر كاتبيها لا يقصدون لبناء أساليبهم إلّا اللفظ السهل الموحي، والعبارة الرشيقة الموسيقية ويجانفون الخشن والصعب، والحوشي، وما رافق المصطلح العلمي، أو ما حدد مفهومات علمية، لأن هذا يضيق عليهم آفاق التصور، ويحد من امتداد رؤاهم إلى أمد قصير المدى، قريب التناول، كقرب المفهوم العلمي من الذهن حين إطلاق اللفظة التي تحدده.

٣ ـ الخيال الخصيب :

ويستمد الذاتيون من أحلامهم الواسعة ما يمكنهم من رسم صورة زاهية لتلك الأحلام، بارتيادهم آفاق الكون، وامتلاكهم موهبة التخيل، والقدرة على التصور، فلا يقف أمامهم الواقع الذي ضاقوا به فهربوا منه إلى الطبيعة وإلى الأفق البعيد الممتد بامتداد أحلامهم وآمالهم، والكاتب الذاتي الرومانسي يصنع من نفسه

مناجية معزية فيفر مما حوله إليها، يعدها ويمنيها، ويخلق أمامها الأطياف الحلوة، ويبني لها القصور المزينة، فتجتمع لديه ملكة التخيل المقتدرة على رسم ما يجول بالذهن من أفكار وأشجان وأوهام، وملكة الإحساس المفرط بإيقاع والرغبة في صوغ أنماط من السلوك، وتعديل كثير من المفهومات، ونقد ألوان عديدة من ضروب القول في المعتقد، وفي الموروث، وفي القيم.

وهم حين يضيقون ليس لهم إلّا الخيال، والطبيعة خير ما يسعف الكاتب بالإلهام الخلاق، وخير ما يوحي له بأسرار النفس وخطراتها، ومثل هذا المعنى في الخيال الخصب والالتجاء إلى الطبيعة نجده في كثير من مقالات محمد حسن فقي، وعزيز ضياء، يقول الفقي : «أيها الليل في سكونك الرهيب وبين أحشائك الموحشة القاتمة وخلال ساعاتك الدهرية المملة سكبتُ دموع الأسى يصعدها قلب متأجج حزين.

وفي سديمك المخوف ووسط عبابك المظلم الزاخر، تماوجت أناتي المتقطعة وزفراتي الملتهبة إلى حيث تلقى جوًا فسيحًا غير صدري الضيق المصطخب .. »[1].

فالليل خير مناخ، وأطيب صديق، وأوفى خليل يحفظ السر، ويرفق بالآهة، ويمسح دمعة الثكلى، ولهفة العاشق، ولعل فيه منداحًا لهموم الكاتب يبعثها لتنطوي في أسرار الأبد السرمدي، الذي يحفظ تاريخ البائحين والمناجين والمدنفين، أفليس الكون بكل أنوائه وريث الكلمة منذ خلقت في رحم المعاناة الإنسانية ؟ وأليس هو الشاهد الباقي على أنهر الدموع، وقصائد العشق، وليالي معانقة الأشواق، ومبادلة الأشجان ؟!.

إذًا فلِمَ لا يلجأ كاتبنا الذاتي الرومانسي إلى معالم الكون يستنطقها البوح، ويستدر منها الهمس، ويفضي لها بالشكاة ؟!.

إن الخيال المتولد عن إمعان الذاتيين في لجوئهم إلى أحضان الطبيعة

---

(١) مقالة : أيها الليل، صوت الحجاز، عدد ١١، في ١٣٥١/٢/١٥هـ، ص ٦.

خصيصة جديرة بالتوقف والتأمل، إذ هي تلازم الشعراء في العادة، كما تلازم هؤلاء الثائرين من الذاتيين في أكثر ما يكتبون عن معاناتهم وهجرتهم، وغربتهم، وبحثهم عن الإنسان الآخر في الأنواء، حين غاب عن الواقع !.

٤ ـ التصـويـر البيـانـي :

يستعين أكثر الكاتبين في رسم صورهم بأدوات تساعد على جلاء الصورة وإبانتها، فيعمد بعض الكتّاب إلى التشبيه والاستعارة، والتقديم والتأخير، والفصل والوصل، والإنشاء والخبر، وما سوى ذلك من وسائل تجلي المعنى وتبينه، وتقدمه في هالة من الجمال والإمتاع.

وأعرض أمثلة على بعض ما يستعين به كاتبو المقالة الذاتية تصويرهم معانيهم عن طريق رسم اللوحة الفنية، الغنية بالألوان والخطوط والمعالم، واستعانتهم بأدوات التصوير وبناء الحدث.

فهذا محمد حسن فقي يصور نجوم[1] الليل في بعض حالاتها عند بزوغها بعيون مكدودة تجتهد في الإغماض ولكنها لا تستطيع فتظل كتلك النجوم طوال الليل ترقب الكون، وتحصي لحظات الزمن.

ويقدم صورة أخرى لا تقل جمالًا عن السابقة لحاله في معاناته من القلق الممض، والحيرة المستديمة، فيرى أن تلك النجوم البارقة الساهرة، شبيهة بقلوب أقلقها الشوق وأترعها الأسى، فالنجوم في ارتعاشتها البعيدة بين التلألؤ والخفوت كوجيب قلب الكاتب وخفقاته في لياليه المعذبة بالسهاد والضنى.

أما حمزة شحاته فيصور يأسه من الدنيا، وشعوره بالملال والضجر من الحياة، وأثقال الفكر على رأسه[2]، المتعب بكوخ خاوٍ مهجور تضربه الرياح من كل جانب !!.

ولو قال الكاتب إن خواء رأسه وإن ما يلاقيه من شطط الحياة، وعنت الأحياء

---

(١) مقالة : أيها الليل، السالفة الذكرة.

(٢) مقالة : صراع، السابقة الذكر.

أصابه بالدوار، وأشعره بالإفلاس من كل شيء لما كان له المعنى نفسه الذي صوره حين شبه رأسه بالكوخ تصفر فيه الرياح !!.

وفي مقابل هاتين الصورتين اللتين رسمهما كاتباهما في شيء من المرارة والأسى نجد صورة تشبيهية زاهية فرحة لدى عبدالله الجفري، حين أراد أن يرينا مقدار ما يشعر به في تلك اللحظات التي زُفت فيها ابنته عروسًا !!.

فيصورها في حالها البهيج، وفرحها الغامر، وتوثبها بالأمل في تفتحه، وبالشوق في عبقه، وبشعاع الفجر الجديد في شموخه وانتشاره[1].

وهي من ألوان التصوير الدقيق العميق، إذ عمد الكاتب إلى المزاوجة بين (هيئة ابنته في فرحها) بالمعنوي (الأمل والشوق)، وقد اعتاد الكتّاب والشعراء أن يشبهوا المعنوي بالحسّي لتقريبه من الذهن، غير أن الجفري وفق في تقريب الصور المعنوية البعيدة وإضفائها على ملامح الفرح المتجلية في وجه فتاته الغضة الطروب !.

ولسنا هنا بصدد الوقوف على دقائق المصطلح البلاغي، وإنما الذي يعيننا صنيع الكاتب حين يبدع في تصوير المعنى، فيجليه، ويقربه من الأذهان، ويقنع العاطفة والعقل به، ويبرزه واضحًا.

فحين أراد عزيز ضياء ـــ وهو من الكتّاب الذاتيين في أول عهد بالكتابة- تصوير حبه الليل، وإحساسه بذاته في سويعاته الهادئة الموحية جعله ينبوعًا للعزاء، ورسول رحمة إلى البؤساء «أيها الليل .. يا ينبوع العزاء، ويا رسول الرحمة إلى البؤساء»[2].

ورسم له صورة أخرى حين تمثل له الليل منقذًا القلوب الشاكية من جواها، ومجيراً النفوس المظلومة من خوفها.

فيدعو الكاتب الليل إليه ليسمعه نجواه، فلا يكتفي بإقباله عليه، بل يريد منه

(١) مقالة : يا ليته يرتاح، نبض، ص١٨٩.

(٢) مقالة : فاجعة، وحي الصحراء، ص ٢٣٠.

أن يرى دمعه هتونًا، ويسمع قلبه مرتجفًا استجابة لمشاعره، وما به إياه من شكاه، وهنا شبهه بإنسان بالغ الإحساس رهيف المشاعر، صادق العاطفة، ترف منه الدمعة، ويخفق منه القلب في حالتي الشجن والنجوى !.

على حين يجيء الفقي بصورتين لسواد الليل وخفاء أسراره، واحتوائه كل شيء، فيصوره في إطباق ظلامه على أنحاء الدنيا وما تحوي من آهة الحزين، ولوعة البائس بحقيبة سوداء ملأى بمثل هذه الأسرار !!.

ويرى أن الليل في امتداد سواده المدلهم يشبه إنسانًا اكتسى برداء فاحم فغطى منه كل شيء[١].

ومن اللوحات البائسة للقلق والضجر اللذين يعتوران حمزة شحاته تصويره خلوه من الإحساس بالحياة والاحتفال بها على أنه القطعة المجدبة الجافة من الأرض، فأعماقه جافة من بشائر الحياة، واخضرار الأمل، وتفتح الأحلام، كما تخلو الأرض اليابسة من علامات النبض، ودلائل الحركة.

وتصويره أيضًا أعماقه الخاوية الكئيبة المقيدة بالهموم بالسجن المظلم المتوحش، ورؤيته نفسه على أنها مقبرة في إجدابها، وجفافها، ووحشتها، واستيلاء اليأس على نظراتها للحياة، وتفسيرها لظاهرات الكون، والأقدار، والحظوظ، بل يزيد الصورة إيضاحًا فيرى أن هذا القبر الذي يسكن في داخله قد انفتح متثائبًا مالًا من انتظار صاحبه، فليس بينه وهذا القبر المفتوح إلا الهزيمة الأخيرة ليُلقي بإعيائه وقنوطه ويأسه في خباياه المظلمة الموحشة كنفسه الكسيرة !.

ونأتي إلى صورة حديثة يرسمها خيال الكتّاب الآخذين بأسباب التجديد في الصياغة وبناء الصورة، واستخدام أدوات التعبير، والتصوير، فيوفقون حينًا، ويأتون بالغريب حينًا آخر، وتجيء صورهم حاملة الإمتاع والإضافة، والمعقول أو المستحيل، ومن هذه الصورة حديث عبدالله الجفري عن نفسه في ضياعه وقلقله،

---

(١) مقالة : أيها الليل، السالفة الذكر.

(٢) مقالة : صراع، السابقة الذكر.

وتشرده الفكري والنفسي كدرويش متجول[١]، ثم تصويره بعض تفاصيل حياة ذلك الدرويش حين يفجؤه الليل فيلقي بنفسه على أقرب زاوية تطأها قدماه، فيشبه الكاتب الحياة في امتدادها الأبدي بطريق طويل ليس له نهاية، وهذا الدرويش الضائع ينام على رصيفه في انتظار ما لا يدري عنه وما لا يعلمه !.

وحين يريد الكاتب التجديد في بعض صوره يسرف في ذلك، فيرى حروفه الباردة الباهتة فتاة فقدت بكارتها[٢] فكأنه الضيق الذي يلحق بالكاتب فتشيخ ألفاظه، وتنهك حروفه، فتفقد الرونق والبهاء والتأثير في القراء يشبه في بعض وجوهه فقدان الإمتاع والزهو والثقة من الفتاة التي ضاعت عذريتها، فطهارة القلم كطهارة العذراء، وشرف الكلمة كشرف المرأة !! فيما يرى الكاتب، إذ أن تشبيهه هذا تشبيه غير موفق.

٨ ــ المحسنـات الأسلوبيـة :

يلجأ كتّاب المقالة الذاتية ــ أحيانًا ــ إلى الاستعانة ببعض المحسنات اللفظية والمعنوية، لإضفاء الحلية والرونق على أساليبهم، ولم تتبين في أدب المقالة السعودية بعد النهضة في منتصف القرن الماضي دلائل على إسراف الكاتبين أو بعضهم في استخدام المحسنات، ولجوئهم إلى الصنعة البديعية المخلة بشكل النص، وإنما جاءت هذه الاستعانة من باب التزويق والإمتاع اللفظي، والإضاءة الموسيقية الجرسية والإيقاع، ونجد من ذلك مثلًا : الجناس في قول أبي عبدالرحمن بن عقيل : «.. إذن لن تخلو البلاد من مليح يعشق، ولكن ربما خلا القلب من عشق المليح .. »[٣]، وقول حمزة شحاته «فمتى يعتنق التراب بالتراب .. »[٤]، أو الطباق في قول حمزة : «.. أعشق فيها العداء والصداقة، والحب والبغضاء، والفوز والحلو والفشل المؤلم، والمادة والروح .. »[٥]، أو قول

(١) مقالة : حكاية عند الفجر، نبض، ص١٣١.

(٢) مقالة : أقراص منع حمل الغد، نبض، ص ١٧٥.

(٣) مقالة : عندما ينهزم الحب مرة، هكذا علمني ورد زورث، ص٢٩٣.

(٤) مقالة : صراع، السابقة الذكر.

(٥) المقالة السابقة.

ابن عقيل : «وقصة هذا التبر المترب أنه قلب تشيعه المعاني رزقنا الله الصبر على البلاء، والمكاره !!»[١]، وقوله : «وكلما كبر هواها في قلبك كبرت مساحة حرفك، وإن كنت مجرد شبح في لطافة الروح وكثافة الكبرياء .. »[٢]. أو المقابلة في قوله : «ألا ما أرحم قلوبنا وأكرمها ونحن المكفهرون الدمويون، وما أقسى قلوبكن وإن لانت ملامسكن وترنحت نبراتكن .. »[٣]. وقول حسين سرحان : «.. ساعة صمت، وكل ما حولي يعج ويصخب، إنه صمت عميق ساج مثل الليل .. »[٤]، والترادف في قول سرحان .. «إنه صمت عميق ساج مثل الليل، هائل فازع مروع مثل القبر .. »[٥]. والجمل القصيرة المتوازنة لدى الفقي : «.. وتبدو وكأنك تعالج بين جنبيك همًا قاتلًا، وألمًا حادًا ويأسًا مرعبًا .. »[٦]. والازدواج في مناداة عزيز ضياء الليل «يا مستودع أنات قلبي الكسير، وآهات صدري الكليم .. » [٧]، واعتراف حسين سرحان «أنا أكذب دائمًا ــ لا أحيانًا ــ وأيسر كذبي أنّي أستحي من صديق فأصوب فعله وإن كان مخطئًا .. » [٨] . وحديث الفقي عن نفسه : «تحجب محياك غيمة مظلمة من الكآبة، وتعلو وجهك غبرة موحشة من الانقباض .. »[٩]. والتناسب والانسجام في قول ابن عقيل عن شغفه بالجمال، وولعه بفتنته وقد وُهب حاسة الفن في مثيرات الوجد، «عين تشتاق وتدمع، وقلب يرق وتكسره علامة الجر الباطنة، وكبد تتفتت في ليالي التشرين .. »[١٠]

---

(١) مقالة : الجمال الغريق، هكذا علمني ورد زورث، ص٣٠٠.

(٢) مقالة : هجيري الذات أيضاً، هكذا علمني ورد زورث، ص٢٥٧.

(٣) مقالة : نون النسوة، هكذا علمني ورد زورث، ص٣٠٥.

(٤) مقالة : ساعة صمت، البلاد السعودية، عدد ٧٨٣، في ١٣٦٨/٣/٦هـ، ص٤.

(٥) المقالة السابقة.

(٦) مقالة : يوميات، صوت الحجاز، عدد ٢٠٤، في ٦ صفر ١٣٥٥هـ، ص ١.

(٧) مقالة : فاجعة، وحي الصحراء، ص ٣٣٠.

(٨) مقالة : أنا لست بفاضل، البلاد السعودية، عدد ٧٧٢، في ١٣٦٨/١/٢٧هـ، ص٤.

(٩) مقالة : يوميات، السابقة.

(١٠) مقالة : لا تقل شئنا، هكذا علمني ورد زورث، ص٢٨٦.

ونجد أن هذه المحسنات تأتي وفق الطبع، وغير متكلفة، ولا مصنوعة، وشأن المتكلف إفساد الأسلوب **والإفضاء به إلى ضعف التأثير والسماجة.**

وكما سلف ذكره فإن المقالة الذاتية تميل إلى السهولة واليسر في تناول المعنى وفي الفكرة نفسها، وتنحو في التعبير عن ذلك إلى أيسر السبل، وأقربها إلى الذهن وأبعدها عن الكلفة والرهق والغريب.

الفصـــل الثالـث

المقالـة الوصفيـــة

أ ـــ مفهوم المقالة الوصفية.

ب ـــ أشهـر كتّابهـا.

جـ ـــ نماذج من المقالة الوصفية :

١ ـــ وصـف الطبيعة.

٢ ـــ وصـف الرحلـة.

٣ ـــ وصف الذات والشخصيات الأخرى.

د ـــ الخصائص الفنية في المقالة الوصفية.

أ ــ مفهوم المقالة الوصفية :

من النثر الأدبي الجميل ذلك اللون الذي يعمد فيه كاتبه إلى تصوير ما يريد أو ما يخطر له، أو ما يشاهد، في أسلوب طري مؤثر، يتتبع فيه الدقائق، ويلاحق التفاصيل الصغيرة في المشهد، وينقل أثر ذلك في نفسه، وما يبعث في وجدانه من شجى أو تخيل، فكأنه الرسام الموهوب يبدع لوحة خلابة غنية بتلك الألوان والتقسيمات والنقوش مما يلهم النفس من جميل المعاني، ويوحي إليها من ثري الحياة.

وهي بهذا المفهوم أشمل من قصرها على وصف الطبيعة، ومظاهر الكون، ومعالم الحياة، فللأديب أن يصف معنى من المعاني التي عنّت له، أو خيال، أو طيف، أو فكرة محلقة بعيدة يريد تصويرها وتقريبها إلى الأذهان، وإبانة أثرها في نفسه، ومبلغ قبوله لها، وموقع ذلك القبول.

على أن أكثر الناقدين يذهب إلى تمييزها بغرض واحد أو اثنين تنحصر فيهما المقالة الوصفية، ويسخر الأديب ذائقته الفنية، وجهده التخيلي في استجلائها.

فبعضهم يرى أنها تلك المقالة التي «تصف تطور الأدب وانتقاله من عصر إلى عصر»[١]. وهي بهذا المفهوم لا تخدم غير الأدب، ولا يسعى الكاتب بها إلى تجلية ما في النفس، وتصوير جوانب الكون، وأحداث الحياة، ولا يمكننا التسليم بهذا القول، أو عدّه تحديدًا للمفهوم العام للمقالة الوصفية، إذ إن الأدب ووصفه ليس إلّا جانبًا واحدًا من جوانب المقالة الوصفية، بشروطها الفنية كما سيأتي.

على حين يذهب نقاد آخرون إلى إطلاق القول في هذا المفهوم، فلا يحددونه، أو يشيرون إلى أطرافه، فالأديب ــ حسبما يعتقدون ــ يستعين بالوصف في سبيل إبانة فكرته، ولا يتخذ الوصف غاية فهو «يعمد إلى وصف الأشياء ليفيد من ذلك في توضيح فكرته التي يريد أن يعرضها»[٢].

---

(١) د. محمد أحمد العزب، عن اللغة العربية والأدب والنقد، رؤية تاريخية، ص١٧٤.

(٢) علي بوملحم، في الأدب وفنونه، ص١٧٠.

وكلمة «الأشياء» في هذا التعريف قد تكون مناسبة لأن تشمل المقالة الوصفية جميع ما يعن للكاتب من أمور، ولكن الوصف يكون أحيانًا غرض الكاتب ومقصده، ففيه فكرته، وفي تفاصيله معانيه.

غير أن المفهوم القريب من طبيعة المقالة الوصفية هو أن يُمنح كاتبها الحرية المطلقة في وصف ما يريد بحيث يستطيع «أن يتناول كل مجال من مجالات الحياة، فيصفه وصفًا يصوره لمن لم يره، وقد يكون هذا الوصف حديثًا عن وضع اجتماعي، وقد يكون وصف روض، أو نهر، أو نجم أو نحو ذلك»[١].

فالكاتب الوصفي الحذق الماهر المتمكن من أدواته يستطيع أن يحيط بما يريد تصويره، وأن يمنح هذا المشهد أو ذاك شيئًا من ذاته، وألقًا من روحه، فيتدفق في الوصف منتقرًا من الكلمات أعذبها، ومن العبارات أرشقها، ومن التراكيب أخفها وقعًا على الأذن، وأجملها موسيقى وإيحاء في تنغيم الكلام ونسجه.

فالوصف المجرد من العاطفة ليس أدبًا، وإن نقل الكاتب دقائق ما في الصورة أمامه، لأن الصلة التي تربطه بهذا المشهد قد انفكت وهي خفق الوجدان وذوبه، فهو ليس آلة تجيد نقل الحدث بكل ما فيه من حسن ومن سيء، بل فنان يعمد إلى الحسن فيزيده حسنًا، وإلى القبيح فيفسر قبحه، ويبحث له في نفسه عن الأسباب والجذور، ويعيده إلى أصله في الفساد من الحياة والكون والنفس.

فالبعد العاطفي والتحليلي عنصران مهمان في حركة الصورة الوصفية يميزانها عن غيرها من الصور المحفوظة المنقولة مادة بلا روح، وواقعًا بلا تفسير، كما يفعل المصورون بالآلة اللاقطة.

ونكاد بهذا نخرج قسمًا كبيرًا مما نجده بين أيدينا مما يحسبه قارئوه وصفًا أدبيًّا، فيعدونه من الأدب في المنزلة الرفيعة.

والمقالة الوصفية على هذا النحو من أشد المقالات الأدبية صعوبة وتأبيًّا على الانقياد، وامتناعًا عن الطاعة، فلن يلبي الخاطر الأدبي لصاحبه إلّا حين يكون

---

(١) د. محمد بن سعد بن حسين، الأدب العربي وتاريخه، ص٧٢.

مقتدرًا دفاقًا مشرقًا، مستشرفًا البوح ومتطلعًا إلى القول الفني السمح دون إعسار ولا إعنات ولا استدرار.

وكتّاب المقالة الوصفية كثيرون، ولكن كتّابها المقتدرين المبدعين قليلون بمعيارنا النقدي الذي سبق، وغير قليل من هؤلاء الكتّاب المكثرين لا يلتزم بشروط صنعة الأدب، ولا يلزم نفسه بشروط النص الأدبي الجميل، فيكون في كثير كحاطب ليل، يستوي في يديه ما يصلح وما لا يصلح، وما يحسن في السمع وقعه وما يأباه الذوق، وتسمو عنه العاطفة السليمة.

ويستسهل أكثرهم الكتابة الوصفية، لأنه يجد مادتها أمامه ميسورة، فلا يرى بأسًا في الكتابة، آخذًا في تناول ما يريد من تصوير لمنظر، أو حدث، أو ذكرى، ولا ينتظر لهذا استجابة النفس، ورضى العاطفة، وانقيادها، أو يتحرى أن ينتقل ما يحسه في هذا الذي يريد تصويره. ومن ثم يأتي الوصف باهتًا منقطعًا عن إدراك الغاية منه، والهدف من إيراده، كالشاعر حين يريد القول فيتأبى عليه، ويُكره نفسه على ذلك، فلا يظفر منها بغير المفكك من الشعر، والضعيف منه في المعنى والبناء الفنّي.

فالقيمة الحقيقية للمقالة الوصفية تعتمد على «دقة الملاحظة، وعلى التعاطف العميق مع الطبيعة .. ثم على الوصف الرشيق المعبر الذي ينقل أحاسيس الكاتب وصورة الطبيعة كما تنعكس على مرآة نفسه، بصدق وإخلاص»[1].

والدكتور محمد يوسف نجم يحدد مجال الوصفية بالطبيعة، وهذا تضييق على كاتبيها، وصدود عن كتابات كثيرة في مناحي مختلفة جوّد فيها أصحابها، وبلغت نصوصهم الوصفية منزلة مؤثرة في النفس والوجدان.

فهم قد وصفوا الطبيعة بما فيها من البحار والأنهار والصحراء والأمطار والأنواء، والنجوم وصفاء الكون، وسماحة الربيع، واكفهرار الشتاء، وقيظ الصيف، وإعياء الخريف، ثم وصفوا الحالات المعنوية الدقيقة كالإحساس بالفرح الغامر وتتبع

---

(١) د. محمد يوسف نجم، فن المقالة، ص١١٤، بتصرف يسير.

آثاره في النفس بما يرقى بها إلى الرواء والنماء والتفتح على الحياة، ووصفوا الكدر بمعانيه البائسة المؤلمة، والبعد والهجر، والغربة وحرقتها، ثم وصفوا الشخصيات المؤثرة في حياتهم فأجالوا في سيرتها النظر كرة بعد كرة، وكشفوا عن ميزاتها وسجاياها في أسلوب وصفي تتمازج فيه العاطفة المقدرة الخلاقة بسمو الأدب وجلاء معانيه. ووصفوا حياتهم وسيرهم الذاتية وما حدث لهم، ففيه مجال رحب للتدقيق والتفصيل والعرض الأدبي الجميل، ووصفوا رحلاتهم ومشاهداتهم وما عرض لهم ـــ ثم وصفوا فصولًا من التاريخ سقوطًا أو ارتفاعًا وانكفاء أو سموًّا. ففي كل ذلك إبداع وصفي يثير حاسة الأديب الفطن المقتدر، ويفتح أمامه أبوابًا للكتابة النثرية المشوقة.

فحصر الوصف على الطبيعة تعسف في غرض هذا اللون من المقالة الأدبية، ونسيان لكثير مما سلف آنفًا من موضوعاتها.

ولا ريب أن الطبيعة مصدر من مصادر إلهام الأديب، ولكنها مع الحياة بما فيها من أحداث وطوارىء وأمور تجد في كل حين على النفس تكوّن المادة الكاملة التي يستقيها الأديب، ويجد فيها معانيه وأخيلته وصوره[1].

والشرط الأساسي في كل ما يعرضه الأديب من هذه المعاني «دقة الملاحظة، وصدق التصوير وشموله، والنظر إلى ما وراء حقائق الأشياء نظرة تأمل وتدبر، وذلك ليكون الوصف صادقًا شاملًا كل ما قد يثيره الحديث في ذهن

---

(١) انظر مثالاً على بعض ذلك :

مقالة : جمال البحر، بقلم (باحث) ـــ ويبدو أنه عبدالقدوس الأنصاري، كما أشار في مقالته عن الأسماء المستعارة في المنهل التي سبقت الاشارة إليها ـــ أم القرى، عدد ٨٢٩، السنة ١٧، عام ١٣٥٩هـ. يتأمل ذلك الجمال الساحر الذي يبعثه البحر في النفس.

مقالة : خيال الراعي، عبدالله أحمد سراج، المنهل، رمضان، ١٣٥٩هـ.

ويقدم صورة وصفية للرعي، بتدافع الأغنام وتتابعها وتسربها إلى جوانب المرعى، واستراحة الراعي المألوفة تحت ظل شجيرة في كنف الوادي.

مقالة : في الميزان ـــ أحمد قنديل ـــ (وهي زاوية مستمرة) محمد عمر توفيق، البلاد السعودية، عدد ٨٢٨، في ١٦ شعبان ١٣٦٨هـ، ويتتبع شخصية أحمد قنديل الأدبية والنفسية والشكلية، وطبائعه، وما جبل عليه، وأثر الأدب والفن على أخلاقه.

القارىء[1].

والمقالة الأدبية الوصفية في الأدب السعودي قد أخذت معانيها من الحياة بعامة، فكان لأدبائنا مقالات وصفية في موضوعات كثيرة، فيها الوصف للنفس والذات، وللطبيعة والكون، وللأحداث السياسية والاجتماعية وغيرها.

والموضوع القريب من النفس هو الذي يجد الكاتب ذاته فيه أكثر ثراء، وأوفر فكرًا، وأصدق فنًّا، فكلما كانت الصلة في العمل الأدبي بين النفس والنص قوية اقترب الكاتب من الكمال الفني، وبلوغ غاية الأدب في التأثير والإمتاع.

ولكن الشرط الذي تقدّم أخرج نصوصًا كثيرة، وكتّابًا كثيرين من ميدان هذه المقالة، بحيث لا نعرض هنا إلا ما توافر فيه شيء من هذه الشروط، لكي نقيس به هذا العمل، ونزن مقدار تفوقه بتحقيق غايتيْ الإمتاع والتأثير.

(١) د. محمد بن سعد بن حسين، الأدب العربي وتاريخه، ص٧٢.

ب ــ أشهر كتّاب المقالة الوصفية :

يتخذ الكتّاب الوصفيون من الطبيعة ملاذًا لهم، للفرار من الواقع، والبحث فيها عن منجاة وسلوى من الخذلان والنسيان والتداعي.

وإذ يسلك بعض أدبائنا هذا السبيل من تلمس العزاء في الكون والطبيعة، يتخففون من عنت النفس وأثقالها في تحميلهم الطبيعة مشاعرهم المضطربة القلقة المشبوبة بالتساؤل، والمسرفة في الشك، يبحثون في مظاهر الحياة، ومعالم الطبيعة، عمّا يسترعي نظر الفنان، ويلفت تنبه الأديب، من إجابة لتساؤلاتهم، وأمن من نوازع القلق، فيصطنعون منها محاكيًا ومنادمًا ومسامرًا وصديقًا حنونًا منصتًا للبث والنجوى، ويذهبون في تجسيم هذه المشاهد بتفاصيلها الصغيرة، وتصوير أحاسيسهم نحوها كل مذهب، فيطنبون في الوصف، ويلحفون في اتباع ما تناثر من هذه الصورة أو تلك، يجمعون أجزاءها ويردّون أطرافها، ويساوون ما نفر منها، بحيث تستقيم المشاهد، ويترابط إيحاؤها، وينتظم سياقها العام فتغدو حياة أخرى جديدة، ليست الحقيقة الكائنة في الطبيعة فقط بألوانها ولمساتها وحدودها بل بما أضافته إليها من توق نفسه، وفيض إحساسه، وقلق توجسه، وبحثه في الحركة والسكون، والامتلاء والفراغ، واللون ونقيضه عن معنى جميل، وقيمة شريفة، وصورة مشرقة لما تفيضه قيم الحق والخير والجمال من طمأنينة ورضى وإمتاع.

إن ظاهرة الهرب هذه ليست في حقيقتها إلّا بحثًا عن الذات في مظاهر الكون الأخرى، وليس الوصف الحسي أو المعنوي إلّا تجسيمًا وتمثيلًا لهذين الجانبين من ذات الكاتب فيما يعرض له من تصوير وبناء تخيلي حي، «إنّا لو نظرنا إلى الوجود لما أصبنا معناه إلا في الإنسان، ولو التمسنا معنى الإنسان لما أصبناه إلّا في الزمن الدائب.

ما معنى مظاهر الوجود في ذاتها ؟ ما معنى الجدول المترقرق والحقل المهتز والنسمة ؟. ما معنى مظاهر الوجود في ذاتها المتألق المشرق والليل الساجي ؟!.

أليست حقيقة معانيها في نفس الإنسان ونظرته وشعوره، وما كنه هذه الحقيقة ومعانيها في نفسه إلا أنها جزء من الزمن المتغير وساعاته المتجددة .. »[١].

فليس الكاتب الواصف في هذا عابثًا أو متسليًا أو منشئًا، يتخذ من صنعته وسيلة للتجمل والمتعة والوصول إلى التجويد في فنه فحسب، ويقعد به هذا دون أن يصل إلى المعاني المكنونة في أعماقه الحقيقة بالاحتفال والإبراز ومداورة القول.

واختلف حظ المنشئين الوصفيين في الإجادة، وبلوغ الشأو من الإتقان والإحسان، فنرى بعضهم لا يرضى لأسلوبه إلا الإشراق، ولروحه إلّا الصفاء، ولتصويره إلّا الوضوح، والجمال، على حين يضعف آخرون عن بلوغ هذا القدر من الإبداع فيأتي تصويرهم متكلفًا أو ركيكًا، أو لا حياة فيه ولا نماء، ولا قوة.

ويرى النقاد أن من يُعنى بأسلوبه، فيوفق إلى جمال العرض، ودقة النظر في المشاهد، والبصر بتجاريب الحياة، ويسلس في يديه القياد إلى ما يريد من عرض نفسيته من خلال ما يراه يكون من المبدعين القلائل المتميزين في فن الإنشاء، والمعدودين من رواده.

ومن المقدمين في كتابة المقالة الوصفية من أدبائنا حمزة شحاته، وأحمد السباعي، وحسين سرحان، وكان لكل منهم طريقته ونهجه، وظهرت خصائص ذواتهم في كتاباتهم الوصفية، بحيث نستطيع القول إن ما كتبوه صوّر ما اضطرب في وجدان أي منهم من فلسفة أو نقد أو سخرية.

ونذكر مع هؤلاء الثلاثة عددًا آخر من كتّابنا كان له حظ من التجويد، ونصيب من التوفيق في كتابة هذا اللون من المقالة الأدبية، وإن لم يصل إلى مرتبة أولئك في التميّز والقوة والإبداع.

وممن أسهموا في كتابة الوصف على اختلاف مناحيه محمد عمر توفيق،

---

(١) مقالة : بين الجمال والنقد، المقالة الثانية، حمزة شحاتة، صوت الحجاز، عدد ٤٥٠، في ٢٠/١١/١٣٥٩هـ، ٢٨ فبراير ١٩٤٠، ص١.

وحمد الجاسر، ومحمد علي مغربي، وعبدالله بن محمد بن خميس، وعبدالعزيز الرفاعي، ومحمد حسن كتبي، وطاهر زمخشري، وعبدالقدوس الأنصاري، وعبدالله مناع، وغيرهم.

ولكن شحاته تفوّق في هذا الميدان، بحيث يجوز أن يعدّه الناقدون الكاتب الوصفي المتميز في النثر الأدبي السعودي، لأنه يدير الوصف في أدق مناحي التفكير النفسي، فيصل إلى إظهار خفايا ما يضمره العقل، وتحتفل به الروح في مواجهة الحياة، ولذلك خصصته بالحديث التالي عن تكوينه الثقافي، ومجالي تفكيره، وخصائص التصوير لديه.

حمزة شحاته :

في شخصية هذا الأديب جانب كبير من الميل إلى الفلسفة والتفكير، فهو مغرم بتحديد المعاني وتقسيمها، وتطغى عليه مفهومات العقل، فيبدو في مقالاته شبه من طرائق المتكلمين في الفلسفة، والمعنيين بمذاهب الحكمة، وأساليب تلقين الأخلاق.

وهو يستعين بالتصوير لتقريب معانيه وبسطها، وتفصيل القول فيها، وراء كل كلمة أو استطراد لفتة عقلية ذكية، فيه تجربة وعمق وتأمل ونفاذ نظرة، واستقلال في منهج التفكير.

يتحدث عن السعادة فيصفها بأنها «المسرة المتجددة»، والمسرة هذه لا تأتي إلّا بالتغيير الدائم، والتجدد المستمر، والتطور إلى أرقى وأكمل معانيها وحوافزها وأفتن مظاهر جمالها بل هو معنى الجمال وسره فيها[1].

ويرى من جملة هذه المعاني أن الناس يختلفون في نظرتهم إلى الجمال،

---

(١) مقالة : بين الجمال والنقد، المقالة الثانية، صوت الحجاز، عدد ٤٥٠، ١٣٥٩/١١/٢٠هـ.

فمنهم من يرى أنه استواء القسمات، واكتمال القد، واعتدال الملامح، ومنهم من يرى أنه الفتنة والإثارة والرواء والاستلاب، على حين يرى شحاته أن الجمال لا يكون كذلك «إلّا بما تولّد النفوس من معانيه ونقيس من مشابهه ونتخيل من دلائله وإشاراته لا بما يلقاها به من حدود وزخرف، وإنما هو جمال بما يثير فيه من بهجة، ويطلق من أصداء ويحبو من حرية وخصب، فهل تبقى معانيه حيّة، وتأثيره دائمًا على تغير القسمات والملامح وخصب وانطفاء لمعتها البهيجة»[1].

ويقف كثيرًا عند معانٍ شديدة التعقيد، في الأخلاق والجمال والفن، فلا يقبل شيئًا من ذلك دون أن يرجعه إلى أصوله، ويجرده من ظروفه القائمة ودواعيه، ويخضعه للشك، فلا يسلّم إلّا بما كان متفقًا مع إحياء العقل، ودواعي الطبع السليم، وقد تعوّد أن يكون التجريد والتعرية مبدأ قديمًا له، أو هو مرض لا يشفى منه — كما يقول — «عرفه به من عرفوا طريقته في الحياة، ومن قرأوا نظراته القديمة في الخير والشر، وفي الفضائل والرذائل، وفي الحبّ، وفي الشعر[2].

وفي هذا السبيل يجتهد في أن يصل إلى تأثير الجمال في النفس، واستجابة النفس لمعاني هذا الجمال، وأيهما يفنى ويبقى ؟ إدمان النظر إلى صورة جميلة، يفقدها شيئًا من تأثيرها القوي كلما تجدّد إليها النظر المشغوف، وارتوى منها الحس المنهوم، حتى تفقد مقدرتها على التأثير والأداء .. »[3].

وتميز في رؤاه الفلسفية وأفكاره وأسلوبه، وطريقة عرضه بالاستقلال والتفرد، دون أن ينكر التأثر والاستفادة من غيره، كما هي سنة الحياة، فهو يدعي الاستقلال، ويسعى إليه، ويرى أنه ضرورة، ثم يشعر قارئه بتواضعه، فلا ينفي عن نفسه أن اضطراب مذهبه حينًا دليل على أنه مقلد في بعض النظرات والأفكار، في محاولته

---

(١) مقالة : بين الجمال والنقد، المقالة السادسة، صوت الحجاز، عدد ٤٥٨، ١٨/٢/١٣٥٩هـ، الموافق ٢٨ مارس ١٩٤٠م.

(٢) محاضرته : الرجولة عماد الخلق الفاضل. منشورات تهامة، ط١، ١٤٠١هـ، ص ٢٢.

(٣) المرجع السابق، ص٢٥ وانظر مقالته بين الجمال والنقد، السابقة الذكر، ففيها تفصيل واف لهذا المعنى المجمل في هذه المحاضرة، وسيرد الحديث عن هذه القضية في الفصل الرابع الجزء الثاني.

الأدبية الجريئة لتحليل الأخلاق، وعلاقتها الأصيلة بالحياة[١].

وإذ تتساوق لديه معاني الفلسفة في جميل الخيال، ولطيف الصور يكون النص الوصفي مليئًا بالتشخيص البيّن، والتحديد الدقيق للصورة المرسومة، والعمق، وصدق التجربة، والثقة المطلقة بالنفس، والاتكاء على الحدس، والإسقاط، والتنظير.

ويكاد في هذا النهج يكوّن مدرسة مستقلة في الوصف الغني السهل المتدفق، المنهل في أسلوب جزل بليغ، اجتهد في صنعه، واعتنى بألفاظه، وناغم بين كلماته، وأوجد أبعادًا متوازنة من الموسيقى والتطريب في خواتيم الجمل ونهايات المعاني.

وحسبنا من حمزة شحاته الجانب التصويري الوصفي، وهذا الغنى المفرط في الأفكار، وهذا الاجتهاد البيّن في نظمها وبنائها، ورعاية معمارها الفني، وهو أيضًا صانع صورة، يملك ريشة ثرية بالألوان والزخرف في غير ترف ولا إسراف.

وراء هذا التميّز نفسية يسيطر عليها المزاج والملال والسأم «ولا أدع الزمن يفجعني في طمأنينة شعوري بطرافة الأشياء، وأية حقيقة من حقائق الفكر، أو متعة من متعات الحس، أو طوبى من طوبيات الخيال الخلاب .. »[٢].

والنبع الخفي الهادىء الذي يمده بطاقة خلاقة من التساؤل والضجر والبحث عن الإجابة هو الحزن، حيث يظل منقبض الصدر، يحس أنه دائمًا غريب في الحياة أو عابر سبيل أو متفرج حيل بينه وبين ما يدور تحت أنفه من الحوادث[٣].

ونجد لديه من ثمرة تأمله هذا ألوانًا من الحكمة والدرس أفادها من تجاربه

---

(١) المرجع السابق «المحاضرة»، ص ٢٨، ص ٣٠.

(٢) مقالة : بين الجمال والنقد، المقالة الأولى، صوت الحجاز، عدد ٤٤٨ في ١٣٥٩/١/١٧هـ، وحمار حمزة شحاتة، ص٦٠.

(٣) مقالة : هو الليل، صوت الحجاز، عدد ٦٢٢٥، ٦ رجب ١٣٥٥هـ، ٢٠ سبتمبر ١٩٣٦م، وفي حمار حمزة شحاتة، ص ٢٢.

وولعه بالتفكير، وإخفاقه في الحياة ــ كما يزعم ــ وحصيلة معاناته مع المجتمع، ومع المرأة الزوجة والحبيبة، ومع المال والحظوظ[١].

وقد أسهم في بناء هذه الشخصية دأب على القراءة، وتواصل مع المعرفة، وشغف بالجدل والمناظرة والحجاج، وليس ثمة شك في أنه قرأ لنيتشة، «هكذا علمني زرادشت» وهو من الفلاسفة الداعين للقوة، وربما قرأ أيضًا ميكافيلي في كتابه «الأمير» ومناظراته الأخرى.

ويذكر أحد أقرانه[٢] عن هذا الجيل أنهم قرأوا كثيرًا في الفلسفة والأدب العالمي، مثل السياسة لأرسطوطاليس، وشيئًا مما كتب عن مدينة أفلاطون الفاضلة، وعديدًا من الروايات مثل «ابن الطبيعة» للكاتب الروسي «هاتزبياتشيف، وتاييس»، والزنبقة الحمراء «لأناتول فرانس»، وكتابه «مائدة أبيقور» في فلسفة اللذة، وما كتبه شكيب أرسلان عن «أناتول فرانس» في مباذله»، وقرأوا أيضًا «أنا كرنينا» و «الحرب والسلام» لتولستوي، «أما أدب المهجر وعلى الأخص من أدبائه جبران خليل جبران، وإيليا أبو ماضي، وميخائيل نعيمة فليس بيننا من ينكر أثرهم في بداية مراحل هذه الثقافة الذاتية»[٣].

وهيأ له طبعه المستفز المنتظر أن يدرك كثيرًا من المعارف، ويفيد من اختلاطه المزاجي بالناس، ومن رحلاته إلى الهند ومصر، ولقائه بأدباء ومثقفين في هذين القطرين وغيرهما، فاكتملت لديه عوامل النضج العقلي والفني بدءًا بالاستعداد الذاتي، وانتهاء بالتزود المعرفي والعلمي والأدبي، يسعى إلى هذا الزاد قارئًا وسامعًا ومتحدثًا مجادلًا.

---

(١) انظر كتابه «رفات عقل»، جمعة عبدالحميد مشخص، ونشرته تهامة، عام ١٤٠٠هـ، ط١.

(٢) هو عزيز ضياء، انظر كتابه حمزة شحاتة قمة عرفت ولم تكتشف «سلسلة المكتبة الصغيرة»، ط١، ربيع الآخر ١٣٩٧هـ، مارس ١٩٧٧م.

(٣) المرجع السابق، ص٣١.

جـ ـ نماذج من المقالة الوصفية :

ليس من اليسير حصر أغراض المقالة الوصفية كما أسلفنا في صدر هذا الحديث ذلك أن الكاتب الذاتي، أو النقدي، أو الاجتماعي، أو الفيلسوف يصف في كل ما يصنع من عمل أدبي، بل يكون التصوير الأدبي الجميل غاية ما تمنى أن يصل إليه الأديب الموهوب، لتجلية مراميه، وتقريب أفكاره.

فالأدب الوصفي النثري رحب الأنحاء، متسع الميادين، والفصل بين الأنواع الأدبية فصلًا كاملًا أمر يستحيل في علم النقد الأدبي الرصين، إذ إن الفنون متداخلة متصلة في سياق الفن الواحد، والعبرة بتبيّن سمات هذا النوع الأدبي عن ذاك داخل الفن الواحد من النثر مثلًا.

فنحن نقول إن هذه المقالة وصفية، لأن صاحبها أراد أن يبوح بما في نفسه حين استلب مشاعره جمال الطبيعة، وفتنه سحرها، فراح يهيم بما تحويه من جنان، وما يضطرب فيها من ألوان النعيم والفتنة، ولكن دخيلة نفسه قد تبرز في أثناء هذا الوصف، فتلخصها في كلمة أو صورة، أو تأثر بما يراه، فيجوز لنا أن نتخول هذا النص بالتتبع والنقد فنرى فيه ذلك الوصف المتدفق الجميل، وهذه الذاتية التي لا تخفى. ولكننا غلبنا الأول على الثاني، لبروز خصائص الوصف، وكونها السمة الرئيسة في النص. فالحكم على المقالة إذًا ينبى على توافر خصائص النوع في الفن المقالي، وغلبتها على ما سواها من الأنواع الأخرى.

وفي محاولة للم أطراف الوصف النثري في المقالة وجدت أن معظم ما كتبه أدباؤها يمكن حصره في هذه الأغراض، وصف الطبيعة، ووصف الرحلة، ووصف الذات والشخصيات الأخرى.

١ ـ وصف الطبيعة

يجد الواصفون فيها سلوى وعزاء، وتتغير الأنواء الطبيعية استجابة لمشاعرهم، فإن رضوا كانت ربيعًا واخضرارًا، وإن سخطوا لم يروا فيها إلا الهشيم والاصفرار،

والأنواء القاسية. فالطبيعة هنا هي الحانية الرقيقة، المتقبلة للشكوى، المشاركة في النجوى، بعد أن عزّ الإنسان الصديق الذي يسمع فيشجو، ويشارك فيعزى، أو يتأمل فيدفع المضرة ويرفعها، أو ينظر إلى المسرة فيجلبها.

وأحيانًا يتلبس الكاتب الخوف، ويعتريه القلق فلا يرى فيما حوله إلّا ما يتفق وهذه الحالة، فيكون الخرير نعيقًا، وصوت الطيور أزيزًا موحشًا، والتفاف الأشجار غابة مسكونة بالأشباح، لأن نفسيته غيّرت معالم ما حوله، ليستجيب الشعور الكامن في الطبيعة له، فيشاركه في قلقه، ويقاسمه ألمه، وهو شعور مناصر مقاسم أبدًا للحالتين في السراء والضراء.

ثم يلجأون إليها في بث التذمر الاجتماعي، ونشدان الأمل في التغيير، فيكون الهاجس الدافع لهذا اللجوء الضيق بالواقع وطلب الخلاص في الكون وأسراره ونواميسه.

وكما سلف، في المقالة الذاتية وجدنا أن الهرب إلى الطبيعة يكاد يُعرف بظاهرة واضحة في أدبنا، وبخاصة لدى الرومانسيين، وهم هناك يبثون الشجن والألم، و هنا يبدعون في الوصف، وملاحقة التفاصيل في المشهد.

ونجد من هذه الحالات مقالتين، الأولى لعبدالله فدا[١]، والثانية لمحمد علي قطب[٢]، فالأول حظي باستجابة الطبيعة لمشاعره، والثاني يرى أن الطبيعة تحتفل بما تملك من جمال ورواء ونضرة دون أن تمنح واقعه شيئًا من هذا، أو أن من حوله لا يفهمون هذا الجمال وأسراره، فهنا ثمة حاجز بين الواقع الاجتماعي والطبيعة.

فعبدالله فدا يصنف المشهد الطبيعي في أسلوب شاعري هادئ، ليس فيه

---

(١) ورد في «أدب الحجاز»: كاتب في العقد الثالث من عمره ـ ولد بمكة، وتلقى معارفه فيها»، وقد أخرجت الطبعة الأولى من الكتاب عام ١٣٤٤هـ.

(٢) ولد سنة ١٣٤٦هـ بمكة المكرمة، وتعلم في مدرسة الفلاح ومدرسة تحضير البعثات، وتخرج فيها سنة ١٣٦٢هـ، يعرف الانكليزية والفرنسية ويترجم عنها، له أقاصيص ومقالات متفرقة، انظر: المعجم ٢/٣٨٠.

تكلف ولا تعسف، ثم يغيّر ألوان المشهد لتتفق مع أحاسيسه الناقدة، وألمه الداخلي : «على ضفاف ماء ينساب أمامي. جلست متحيرًا تنتابني الهواجس والأفكار.

فرأيت ماء الينبوع وقد صفا كأنه عمود من لجين. ورأيت صورة السماء وقد انعكست ببدرها وأنجمها فيه.

والبدر يرسل أشعته الفضية على الأرض فينيرها وقد ساد السكون الرهيب، فتسرب إلى أعماق نفسي سرور مدهش لأني تصورت الجو يتسم بصحوه وصفائه.

والنسيم ببرودته وإنعاشه.

والليل بنجومه المتلألئة وظلامه.

والبدر بأشعته الفضية وبهائه.

والوادي بأشجاره الباسقة واتساعه.

والطبيعة بجبالها وفدافدها.

ثم مالبثت أن فكرت قليلًا. حتى تحول فرحي إلى خوف وأصابتني قشعريرة وبرودة فتصورت الأشجار كأشباح مفزعة.

وخرير المياه كنعيق الغربان.

وحفيف الأشجار كهزيم العاصفة.

وظلام الليل كظلام القبر.

فانتابتني رعدة وفزع، وتهت في بيداء الخيال فلم يعد قلبي ذلك القلب الأول .. »[1].

وهذا النص من بواكير النثر الأدبي في الحجاز، فالأسلوب ما زال إنشائيًّا تقليديًّا، يعتمد المقابلة في الصور، والألفاظ السهلة الميسورة، دون أن يجتهد الكاتب في السبك، أو يرتقي في اختيار اللفظ والمعنى، ليصل إلى مستوى جيد من الإمتاع والروعة.

---

(١) مقالة : على ضفاف ماء، أدب الحجاز، ص١٣٥.

والبدايات عادة يشوبها الضعف، ويعتريها الوهن، إلى أن يستقيم اليراع، وتنضج الملكة، فمطلع الأربعينات كان بداية المحاولة الجادة لنشوء الأدب في الحجاز ـــ كما مرّ ـــ ثم في العقد السادس ابتدأت الثمار في الاستواء، وظهرت معالم الجيل الجديد من الناشئة، وابتدأت كتابتهم تندفع في منافسة إبداعية ممتازة.

ولذلك لن نعيب كثيرًا المستوى المتواضع الذي لقيتنا به هذه المقالة، وحسبنا أن نرى التدرج الطبيعي لارتقاء المقالة الوصفية، وتنوع مراميها، واختلاف طرائق كاتبيها بين الجودة والضعف، والعادية والتفوق.

وإذ جادت الطبيعة سخية تحولها من الرضا إلى الفتور والاكفهرار لدى عبدالله فدا، أو هو ألبسها هذه الحالة حين انتقل من الإعجاب بها إلى رؤيتها جافة صامتة لا نرى إلّا الصدود والإعراض من هذه الطبيعة في مواجهة مشاعر محمد علي قطب حين لجأ إليها شاكيًا، فهو يصف المشهد ويناجي :

«هب النسيم عليلًا مداعبًا أوراق الشجر، ومؤذنًا بزوال حجب الظلام وانفلاق عمود الفجر المشرق، وتمخضت سحب الدجنة بذرات ضئيلة من الضوء تنذر جيوش الليل بالانسحاب قبل أن يكتسحها النهار بضوئه اللامع .. وهجم الفجر بضوئه على الكائنات فاستنفرت الطيور من مضاجعها تقفز قفزات الفرح والنشاط، ويأخذها جمال الطبيعة الباسم فتشجي الأسماع بتغريدها الموسيقي فتملأ النفس غبطة وابتهاجًا بغنائها الواقع على أوتار القلوب .. فتهتاجها إلى الاستمتاع بذلك الجمال الفتان والمنظر الساحر .. والماء منساب بين أضافير(٢) الغصون كسبائك اللجين يرويها بماء الحياة ويميز النشاط والنمو .. »(٣).

---

(١) في الفصل الأول، المقالة بعد أم القرى، انظر ص ٩٧ من هذه الدراسة.

(٢) استعمل الكاتب هنا (أضافير) جمعاً لـ «الضفيرة» وهي كل خصلة من الشعر تضفر على حدة، والصواب أن يجمعها على (ضفائر)، ويقصد تشبيه أغصان الشجر الملتفة بضفائر الشعر المنسوجة، دلالة على الصورة الجميلة للماء ينساب بين غصون الأشجار الكثيفة.

وبعيد عن الصواب تخيل (أظافر) جمع الجمع (أظفر) صفةً لامتداد بعض أغصان الشجر. ولأن (أضافير) التي أوردها الكاتب بـ (الضاد) أخت الصاد لا يستقيم جمعها إلا على صيغة ضفائر)، ولا يتفق المعنى المراد، إلا بتشبيه الأغصان الملتفة بضفائر الشعر المنسوجة. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، جـ١ ص٥٤١، باب الضاد، وجـ٢، ص٥٧٦، باب الظاء.

(٣) مقالة : تأملات ومناجاة، نفثات من أقلام الشباب الحجازي، ص١١٣.

وهو في الوصف يميل إلى التقريرية، ولا نرى أثرًا لنفسيته في معالم الطبيعة، وجمله طويلة مكررة، ونسق التعبير لديه يقترب من أسلوب الإنشاء المدرسي في المراحل الأولى، إذ لا تجويد في اختيار الألفاظ، ولا تفوق في عرض جزئيات الصورة، ولعل العبرة في هذا النص، بوقوفه يتأمل سحر الطبيعة وبخلها على أهله، فهي لم تُهْدِ «من ورودها الحمراء العبقة وأزاهيرها العطرية المنعشة روحًا عبقرية يتنسمها الوطن .. »[1].

ونأتي إلى التقابل في المشاهد ــ استجابة لبخل الطبيعة ــ فهي باسمة متهللة والوطن عابس، والأطيار مرحة، وما حوله أشبه بالموتى، وجذور الأشجار تمتص عذب المياه، وأهله منصرفون عن الاغتراف من نبع الحضارة.

ولا يبدو أن الطبيعة ملقية شيئًا من اهتمامها إلى الكاتب، رغم ما يراه فيها من دواعي الحياة، ومن حسناته إعلانه همه الجماعي، وضيقه به، أكثر من أن تبدو همومه الذاتية الصغرى، وهذه صفة اشترك فيها أكثر الكاتبين في بداية اليقظة الأدبية، وهي إصرار على روح الجماعة، وطلب لوسائل الرقي، وسعي إلى التغيير.

ولا أكون مُلامًا إذ التمست الجانب الوصفي الأولي في هاتين المقالتين على حين يذهب كاتباها مناحي مختلفة في بعديها الاجتماعيين، إذ قليلًا إتيان الوصف مجردًا من غرض آخر، وكثيرًا إتيانه تقدمة لموضوع يكمن خلف التصوير الأولي، إلّا إذا كان الهدف من الوصف علميًّا، وهذا ليس لنا به شأن، لأنه خلو ــ في الغالب ــ من خصائص المقالة الأدبية.

وينحو عزيز ضياء ــ متأثرًا بالمهجر ــ إلى البحث عن السعادة في مشاهد الطبيعة الخلابة، وبالأخص حين يكون على موعد مع الحب، أو تواتيه أسباب الإسعاد بلقاء مع من يهوى، فهنا تنشد له الطبيعة أجمل الألحان، وتمنحه من فيضها وشذاها ما يروي عطشه إلى الحياة وغرامة بتذوق أطايبها.

وكعادته يهرب من الإنسان، وحين يرى شبحًا يمتعض، ويفسد مزاجه، ويقطب

---

(١) المقالة السابقة.

حاجبيه، فمصدر الشقاء هو الإنسان نفسه، على حين تمنح الطبيعة النقية أبناءها الحنان والهدوء والأمان، وإذ حلّ الفراق،وصار النأي بين الحبيبين ليس ثمة ما يسعد ويبعث الأمل، ولنبدأ في متابعة المشهد منذ أن بدأ متأبطًا ذراع حبيبته كما ذكر ذلك في مطلع مقالته :

«كانت الحياة تختال في ثوب الربيع الخلاب، وكانت تفيض سحرًا وفتنة، فتغري القلوب الشابة بالحب.

وكان الحقل جاثيًا في قلب الصحراء، كالحب الطاهر في القلب البريء.
وكانت سنابل القمح تتماوج كبحر من نُضار، يأخذ بلب الغني الشحيح.
وكانت الجداول تنساب بين الأحواض، في طريق تحفة آلاف الأزهار، بآلاف الألوان وكانت تتغلغل في قلب الخضرة وتتسرب إلى صميم الحقل كما يتسرب الحب الأول في دماء الشاب الحدث.

وهناك النخلات الباسقات المتناثرة في عرض الحقل وطوله، كأنها عرائس فتانة، تهتز على مسرح الطبيعة، فتعلم القلوب البائسة فنونًا من التوجع والألم، وتعلم القلوب السعيدة، فنونًا من التثني والتهادي، كلما هبت عليها ريح الشمال القاسية.

وكنّا نشق بحر النُضار، في سير هادىء وئيد، نتأمل مناظر تبعث في نفسينا شعورًا بالسعادة، هي تلك المناظر التي ترسمها ريشة الفنان المبدع على صفحة الغروب العسجدية.

وكنا نتأمل كل شيء في صمت وابتسام، كفيلسوف حائر، أو عابد زاهد، ويطول صمتنا، ثم نهتف معاً، ما أجمل الحياة .. »[1].

ويأخذ في تصويره هذا الموقف بين أحضان الطبيعة على هذا النحو من الافتتان والجمال، في لفظ مشرق، وعبارة متناغمة، وسياق أسلوبي محكم البناء، ويحفل المقال بصور حيوية فيها جدة ونماء، فصورة الحقل في قلب الصحراء

---

(١) مقالة : بحر النضار، وحي الصحراء، ص٣٢٦.

كالحب الطاهر من أجمل الصور المعنوية الرقيقة، وحركة السنابل في استوائها ولونها الذهبي كموج هادىء من بحر تغرب عنه الشمس فامتدت أشعتها الذهبية على صفحاته، والوصف الأدبي منسجم مع الروح المطمئنة التي يحملها الكاتب، فهو يتأمل بهدوء، ويملك القدرة على التفحص والتشخيص، وكأنما يمشي الهوينى مع صاحبته بين الأزهار، والماء الجاري دون ثرثرة ولا كلام، واللغة المعبرة هي الابتسام والنظرات، فالتفكير المتفائل في هذه اللحظات يغني عن القول.

إلّا أن البين حلّ فتبدلت الحال من «ما أجمل الحياة» إلى «واحسرتاه» وحين تغيرت المشاعر من الأمل إلى القنوط، ومن الرجاء إلى اليأس، ومن الإحساس بالسعادة إلى الانطواء على الألم والقسوة ما غدت الحياة حلوة حتى في جنانها ونعيمها، فلا شيء فيها يغري، لا الحياة بثوب ربيعها الخلاب، ولا الحقل بخضرته المزدهرة وأزهاره اليانعة، ولا بحر النضار بموجاته المتكسرة، ولا الجداول بلونها اللجيني، ولا صَدْح الطيور وغناؤها. وذلك كله في الجزء الثاني من مقالته.

فنظرة الكاتب إلى الطبيعة مختلفة عن رؤى الكاتبين السابقين من حيث استجابة الطبيعة أو بخلها بالعطاء، فعزيز ضياء لا يرى السعادة إلّا في النفس الملتجئة إلى الكون، ولكن مظاهر الطبيعة لن تسعد الأشقياء كما يرى.

فهو لم يرها على غير ما عهدها من حيث الجمال والفتنة، ولكنها لا تثير فيه نوازع الشوق، ومكامن الوجد، ودواعي الارتياح كسابق عهده، لأن قلبه غير مهيأ لمثل هذا التأثير الايجابي، وشأنه أن يصد عن مطارح الحسن، ويبتعد عن مثيرات المتعة إلى أن يعود لقلبه أمنه، ولخواطره طمأنينتها بانتهاء البين وانطواء الفراق.

ولون آخر من فنون الوصف للطبيعة نجده في مقالة[1] لعبد القدوس الأنصاري، حين وصف ليلة ممطرة سحّاء، أعقبها سيل قوي جارف[2]، ووقف

---

(١) مقالة : ذكرى اليوم المطير والسيل الخطير، المنهل، ربيع الثاني، ١٣٦٠هـ.

(٢) حدث في ٦ ربيع الأول ١٣٦٠هـ.

الكاتب عند مظاهر تلك الليلة، وآثار ذلك السيل، ولم يترك من ملامح ليلة المطر ما يضيف إلى الصورة دقة وثراء، فقد ابتدأ يصور البداية في نشوء السحب وتجمعها، وما أثارت من قلق في نفوس أهل مكة، إذ تبدّت لهم السماء في غير هيئتها المعهودة، وأحاطت بهم مظاهر هذه العاصفة الممطرة من كل جانب :

«السماء مكفهرة، والسحب مضطربة تتجمع في منطقة واحدة هي سماء مكة فتبدو للناظرين سماء من تحت السماء، وأرضًا من فوق الأرض، والرعد بصوته المرعب بين تلك السحب كما يجلجل صوت الراعي بين قطعان من الغنم تفرقت في الوادي العميق فتردد الجبال صداه في رهبة وتضخيم، والبروق تلمع من خلال الغيم المنسجم كما تلمع الشهب في الليلة الدهماء، والريح تدوي من كل جانب تسوق قطعان السحب .. »[1].

أعطى الصورة الأولى قبل الانهلال المائي الغزير من السماء، وكأن الكاتب يملك أداة تصوير متقنة، تجيد إضافة اللون، وتحديد معالم المشهد، ونقل الأصوات، وتقريب الأجزاء، وتخيل رائحة المطر، وعبق الأرض المستعدة لاستقبال انفجار السماء بالوابل الصيب.

«بذلك المنظر الرائع انبثق فجر ليلة الأربعاء، وبذلك المشهد المؤثر تجلت صفحة السماء، ثم جاء الطوفان فتفتحت حلوق السحاب المهروقة عن ضوضاء لا يكاد يستبين المتأمل مصدرها. ثم تفتحت ميازيب السماء فهدأت الأصوات، وجثم كل شيء في مكانه، واستمر الوابل في فيضانه زهاء أربع ساعات، فارتوت الأباطح وأرسلت إليها قمم الجبال ما استقبلته من هدايا الماء، وسال وادي إبراهيم .. »[2].

واللفظة في المقالة تجيء في مكانها، ولا يغني عنها سواها، لأنها أفاءت على المشهد المعنى المراد، والسياق الكتابي يحفظ للكلمة قدرتها التعبيرية المشعة، ولو جاءت وحدها دون أخواتها، ودون ما قبلها أو ما بعدها لاختل المعنى، ونقص

(١) المقالة السابقة.

(٢) المقالة السابقة.

ما تمنحه اللفظة هذه أو تلك من إيحاء.

فالمقالة كالعقد إذا انفك وسقطت حبة تناثرت البقية، وضاع ما يأمله الناظر فيه من الروعة والإعجاب. ولأن الأنصاري قد عني بنصه جاء بين الطبع والصنعة، والتدفق والتوقف، كي يعيد الكاتب النظر، ويمنح عمله الإصلاح المتيسر في غير تعسف، ويدقق في نثار المشهد أمامه، فيضيف هذه إلى هذه، ويومىء إلى ما في جنبات الميدان الرحب من أصوات أو أضواء، أو تساقط.. وكل هذه المعاني، وهذا الاعتناء، وطول النظر، وسرعة الالتقاط، وملاحقة التسجيل تتم في توافق وهدوء وتوال نتج عنه امتلاء النص بعوامل الإثارة ولفت تنبه القارىء إلى انثيال الأحداث بما فيها من اختلاط وتداخل، وصمت واندفاع.

وقد استسلم لشاعرية مرهفة في تتبع التفاصيل فجاء هذا المقال «أشبه بالشعر المنثور» وتوافرت له عناصر شعرية كثيرة من عاطفة تفيض بالوجوم والقلق والذهول إلى صور متحركة مشرقة متلونة»[١].

وكي ينقل ما حدث يلقي بما يملك من أدوات التصوير في اللوحة الأخيرة لعاصفة المطر «.. واستطال السيل فاخترق السقوف ثم هوى بها، وتعانق المزن من جديد فبدت صفيحة نحاسية قائمة لا ثقوب فيها ولا شقوق وأرسلت كل ما في بطنها من مياه وبرد»[٢].

وروح الأنصاري دفاقة في أثناء الصور المتدافعة، ولهفه على انبعاث الخير في المطر لا يخفى، وتهوله من تصبب السماء، ثم فيضان السيول بدا في كلمات دقيقة التصوير للمعنى «واستطال السيل»، «وتعانق المزن»، «وأرسلت كل ما في بطنها من مياه وبرد».

وقبل هذا المشهد الختامي كانت الكلمة في غاية الدقة إيفاء لتفاصيل الحدث حقها من الرسم والتلوين : «وتفتحت حلوق السحاب المهروقة»، وإعادة الكلمة مرة أخرى استكمالًا للمشهد «ثم تفتحت ميازيب السماء»، وتصوير

(١) د. السيد تقي الدين، مجلة المنهل وأثرها في النهضة السعودية،ص ٣٤٣.
(٢) المقالة السابقة.

السماء المصطكة بسحابها الأحمر أو الأصفر كصفيحة نَحاسية لا ثقوب فيها ولا شقوق. وهو يراعي التوالي الموسيقي في الجمل، والتقابل والموازنة، فيستقيم الأداء في ارتياح صوتي يتبين في أكثر من كلمة في الجملة، ولا يكون ثمة اختلال بين الكلمة وأختها، أو تنافر أو سوء سبك، والكاتب في هذا يستمد من المدرسة البيانية العربية جمالها وإشراقها وروعة تصويرها.

ومن هذا النثر الأدبي السائغ السهل مقالة عبدالعزيز الرفاعي في وصف الشمس حالة المغيب :

«دلفت إلى البحر، تدعوها مياهه الدافئة، وتخلبها زرقته الهادئة، وتشوقها أسراره. وكانت تمشي بخطى وئيدة وانية بعد مسير طويل متواصل أفنى جهدها.

وتعرت .. وانطلقت إلى الشاطىء البعيد، وكأنها تخشى الرقباء، وتحاذر فضولهم، ولكن أعين هؤلاء ظلت تتابعها فاحمرت وجنتاها، بل التهبتا، وكسى لون الدم جسمها الفاتن.

ورويدًا رويدًا أخذت تداعب الأمواج، وتراقصت هذه تحت قدميها، وبدت كأنما تستقبلها بشوق جائع.

واحتواها الماء بين ذراعيه اللهيفين، وطفقت تستحم .. وانبهرت العيون وتلاحقت الأنفاس، وغمغم الموج، وانتشرت غدائرها الذهبية على سطح الماء، وداعبها نسيم البحر الرقراق، وتطاير رذاذ عاشق من خصل الذهب، فقد كانت تطوح به بين الفينة والفينة، وكأنما هو قطرات ولهى من دموع.

وحينما التفتت التفاتتها الأخيرة قبل أن تغوص إلى الأعماق، كانت عيناها تبحثان عن شاعر، فقد ألفت كل أيامها أن تلتمس شاعرًا كل يوم، يصور هذه الفتنة الساجية في شعر منغوم، أو لوحة ساحرة.

وهناك على الشاطىء كان يرقبها شاعر، ويرمقها فنان بين يديه لوحته، فاطمأن قلبها، وهنا غابت ذُكاء»[1].

---

(١) مقالة : على الشاطىء، البلاد السعودية، عدد ١٦٤٦، في ١٣٧٤/١/١٩هـ. ص ٤.

وقد أحسن الرفاعي، إذ كان دقيقًا في تجسيمه المشهد حين استخدم الرمز وأورد بعض صفاته، وشبّه الشمس «ذكاء» بالحسناء الفاتنة الجميلة تتطاير خصلاتها الذهبية مع النسيم والرذاذ وجاءت المقالة مطبوعة سلسلة، لأن الكاتب ابتعد عن المبتذل، وتجنب الحوشي، وسرح وراء الخيال، يبني فيه صوره التي لا تسرف في الابتعاد كثيرًا عن المقصود، وأشار إلى تعلقه بجمال البحر، وروعة الشمس حالة المغيب بكلمات مقتضبة، من خلال ما ينعت ملامح الحسن في هذا المشهد بتلك النعوت الشغوفة بامتلاك مثل تلك اللحظات إلى الأبد، ولعله يعني بالشاعر الفنان نفسه، فقد كان يرقبها ويرسم لها هذه اللوحة التي بين يدينا، ويقول فيها كلامًا ليس ببعيد عن الشعر رقة وعذوبة وتدفقًا.

ويصف حسين سرحان دخوله مع نفر من الصبيان إلى أحد البساتين في الطائف فيعمد إلى النقل الحركي في بلاغة وإيجاز، وابتعاد عن الحشو :

«وما أنفك أذكر ــ فيما أذكر ــ كيف كنا نذهب في العشي والإبكار إلى الحدائق ــ وهي مفتحة أبوابها- فنأكل ما نشاء من الأثمار، ونحمل ما نشتهي من أطايبها لا صاد يصدنا عنها، ولا مانع يمنعنا منها.

كنا كالعصافير تنطلق من أوكارها خماصًا فتعود بطانًا، وكنا نعبث ما حلا لنا العبث، حتى إذا ولجنا باب بستان بدا علينا ما يشبه الرصانة والوقار، فما نتمكن من الثمار والأزهار والجداول إلا وقد طاشت الأيدي الثقيلة، وذهبت الحلوم الرصينة وأطلت العيون الصغيرة من حماليقها، ونظل في قصف ولهو كصفقف الرومان يوم أن دخلوا قرطاجنة لولا أن قصفنا بريء أما قصفهم فقد كان فيه ما فيه.

ويأتي البستاني يهدد ويتوعد فيجد غصونًا عريت من الثمر وفروعًا عطلت من الزهر، وآثار أقدام صغيرة طارت بأهليها كالفراش، فيغتاظ في غير عناء، ويذهب إلى غير لقاء .. »[1].

وتتضافر في إنجاح النص عوامل عدة، من الإيجاز، والتركيز، والصور

(١) مقالة : الطائف في ذكرياتي، المنهل، جـ٨، رجب وشعبان، ١٣٦٠هـ، ص ٤٢ ، ٤٤. وفي «من مقالات حسين سرحان» ص ٣٦.

المتلاحقة المتحركة، والسخرية، والجمل القصيرة، والعفوية في كتابة المقالة، إذ يخيل لقارئها أن صاحبها لم يتحمل كبير عناء في سبيل صنع بنائها الفني، على خلاف ما فعله محمد حسن كتبي حين كتب مقالة يصف فيها غرور عصفور، فقد تحدث عن ادعاء الحيوانات على اختلاف أنواعها، وكذلك الطيور ــ أن كلًا منها صاحب العزة والمنعة والتفوق، والكرامة على جميع المخلوقات الأخرى. وهذه الفكرة يديرها صاحب المقال على عقلية عصفور أيقظته الطبيعة على فتنة الجمال ولذة الانتعاش، ويصور خواطر هذا العصفور ثم يأتي إلى تصوير مملكته الصغيرة في روضة فواحة بالشذى، عبقة بالأريج، إلّا أن الكاتب يلتمس لإبراز هذه المشاهد ما يمكّنه من الإحاطة والتجلية، وهو يستخدم ما يقدر عليه من أدوات الصنعة البيانية، فيكرر النعوت، ويسرح في التخيل، بل يفرط فيه، ويطيل الجمل، ويفصّل المجمل البعيد من أجزاء الصورة، فيأتي النص بعد هذا كله متكلفًا تقليديًّا، لا إبداع فيه، ولا صدق، ولا انسياق :

«أقبل الصيف فاهتزت المروج عن أعشاب مخضرة، واكتست الأشجار بأوراقها الزاهية ودبت الحياة في جذوعها وأغصانها فتمايلت مع النسائم تمايل الرقة والدلال، ورفت أوراقها تحت أشعة الشمس كما ترف الأفكار الشعرية على ضوء الإلهام الوديع، وأدركت العصافير فتنة ذلك الجو الطليق والطبيعة المتبرجة الخضرة فتطايرت في السماء هاجرة أوكارها التي قضت فيها رحلة الشتاء القارص، وأخذت تحوم على عروش الكروم المخضلة وقد تدلت عناقيدها تبشر بخير عاجل ومرح قريب، فتداعت العصافير بزقزقاتها وصريرها فكأنها مزامير هذه الطبيعة الزاهية التي تعلن بها سرورها وأفراحها، وترسل على رناتها المتنافرة غبطتها وشكرها، ولبثت العصافير تقوم عن أغصان شجرة لتوقع على عروش كرمة وتنتقل من الكروم إلى الأشجار، واستمرت على ذلك منذ أول يوم في عيد الطبيعة، تردّد ألحانها مع الفجر، ولا تختمها إلا بعد أن يسكن الليل بكل شيء حولها، وكانت ليلة صحا القمر فيها مع الطبيعة، وأخذ يردد ألحانها العذبة على وتره الفضي الجميل فارتاح عصفور للسمر مع نخبة من رفاقه .. »[1]، ثم أخذ الكاتب في

---

(١) مقالة : عقل عصفور، صوت الحجاز، عدد ٢٠٨، في ٥ ربيع أول، ١٣٧٥هـ، ص٤.

وصف المحاورة بين هذا العصفور ورفاقه، وما صار بينهم من ادعاء للأنفة والكبرياء، وتعلق بالكرامة، والمقالة يغلب عليها التكلف وتفتقد طبع الأديب، ونحا كاتبها إلى الإغراق في التأمل الدقيق ليلمح كثيرًا من الرؤى الفلسفية في الحياة، من خلال الحوار بين هذه الطيور، والحديث لا يأتي سمحًا لينًا منثالًا، وإنما يجيء بعد توقف وتلكؤ وإمعان في إدارة النظر حول الحياة. فكأن المقالة تسعى إلى الفلسفة مستخدمة الوصف والتصوير والحوار.

وربما يشمل الوصف الطبيعي ما يكتبه بعض الأدباء في تصوير الأودية والمتنزهات، والأحياء، والجبال، إذا جاء ذلك في طبع أصيل، وأسلوب فني مؤثر .. ولكن التحديد الجغرافي يغلب أحيانًا على كثير مما يكتب في هذا الجانب، وقليل منه يمكن أن يعدّ من الوصف الأدبي الجميل، لأن المصطلح الجغرافي يستولي على المقالة في أكثرها، ولأن الكاتب ينصرف عن تأثر نفسه بما يصف إلى تتبع المعلومات وسردها، وتقصي الشارد منها، فتقرب إن هي سرفت في ذلك، من المقالة العلمية في هذا الشأن[1].

ومن خير ما كتبه أحدهم في الوصف هذه المقالة في تصوير مشاهد الاصطياف والسياحة في وادي العقيق «.. تنحدر السيول من مزدلفات الجبال فتحيل العقيق نُهيرًا تصطخب أمواهه وتتلاطم أمواجه فيفيض على ما حوله من جداول يسقي نخيلها ويروي بساتينها، وتجتمع المياه في بعض منحدراته في برك تتسع أو تضيق باتساع أو ضيق الخلجان في الوادي فيهرع أهل المدينة في زمر وأمواج إلى شاطئه يمتعون أنظارهم ببهجته، ويتنزهون بين غياضه، وينفرد هواة السباحة ببعض ما التوى منه في حواشي الوادي ليبعدوا عن أنظار المتطفلين والمتفرجين.

---

(١) انظر مثلاً : مقالة : منازل العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، حمد الجاسر، مجلة الجزيرة العربية، عدد ١، ذو القعدة ١٣٧٩هـ، أبريل ١٩٦٠، ص٢١ (في حلقات) ويتصف بالدقة والتحديد، وخلوه من الطراوة الأدبية، وجاءت ألفاظه قوية علمية، ويذكر المصادر، والواقع، وما قيل فيها من الشعر، ومقالة : كنت في اليمن، عبدالله بن خميس، من كتابه (محاضرات وبحوث)، جـ٣ من جهاد قلم، مطابع الفرزدق، ط١، ١٤٠٥هـ، ص ٢٨٥.

كانت مواكب المتنزهين تمضي في حواشي الوادي فترى الرجال تحف بهم أخلاؤهم وندماؤهم، والنساء تتبعهن حاشيتهن أو جواريهن، يلبسن القمص الاسكندرانية الرقيقة والثياب القوهية المعصفرة عليها الملاءات اليمانية الفضفاضة المرقشة.

وتمضي الدواب الفارهة في أعناقها القلائد المذهبة بأصحابها من جلة القوم، وعليتهم في أقبيتهم المطرزة بالوشي تحت الثياب الرقيبة، المصبغة من الكتان أو القزّ بعضها أطول من بعض، كأنها المدارج من شدة الصقال متنقلين بين جماعات الشعراء وحلقات المنشدين ومجالس المتندرين وأصحاب المجون .. »[1].

وقد وفّق الكاتب في نقل ما يدور في هذا الوادي بأسلوب سهل، ورؤية شاملة، وعين فاحصة للألوان والأزياء والمراكب، ونوع الحديث، واختلاف الطبقة في المتنزهين معتمدًا شيئًا من القص، فكأنه المستمع المنصت لما يدور، والرائي البصير لما يحدث، ولكن جمال المقالة الوصفية يكون أبلغ وأصدق حين نلمس أثر المشهد في نفس الكاتب، وهذا ما لم يبد في وصف وادي العقيق، إذ خلت المقالة من تصوير نفسيته حين كان يرى الناس، ويتأمل في ذلك الجمال الطبيعي المثير، وبات الكاتب ناقلًا أمينًا لما صار، دون أن ينقل تفاعل أحاسيسه ومشاعره.

---

(١) مقالة : وادي العقيق متنزه الطبقة الراقية، أحمد السباعي، مجلة الجزيرة، العدد الأول، في ذي الحجة ١٣٧٩هـ، أبريل، ١٩٦٠م، ص ١١، وأفاد الكاتب من أبي الفرج الأصفهاني في كتابه «الأغاني» كما ذكر.

ومن المقالات الوصفية ـــ على هذا النحو :

مقالة : مشاهد من تاريخ مكة، أوراق مطوية، ص١٣، حيث يصف الحياة الاجتماعية في مكة قبل البعثة وبعدها بأسلوب أدبي جميل. ومقالة حسين سرحان : حول استفتاء الجزيرة، مجلة الجزيرة، عدد ٨، في جمادى الأولى أول ١٣٨٠هـ، نوفمبر ١٩٦٠م، ص ٥، يصور فيها الحياة الماضية، ويصف سوق مكة، وخروج عبدالعزيز للصلاة، ثم يذكر ما كان يجلب في ذلك السوق من ألوان الطعوم، وأصناف الملابس، وأنواع الحيوانات، وهكذا..

٢ ــ وصــف الرحلــــة

وهو فن واسع الأرجاء من فنون النثر الأدبي، وتضم المكتبة العربية أسفارًا في أدب الرحلات، ووصف البلدان، أبدع الرحالة العرب في وصف ما رأوه، وما انطبع في أذهانهم من زياراتهم لمواطن الجمال في الطبيعة والمدن، وأخلاق الناس، وألوان السلوك[١].

ويحفل الأدب السعودي من هذا الفن بزخم وافر، اختلف كتابه في النظر إليه وفي التجويد فيه، فبعضهم ينقاد لموهبته القوية في البيان، فلا يتعسف في الصياغة، ولا يضعف في اختيار اللفظ، ولا يملك زمام نفسه أمام مثيرات جيشان الروح، وحضور التدفق الفني، فيدع لقلمه الانسياق وراء كل ذلك، فيصور، ويرسم لوحة حية متناغمة، لحمتها التأثر، وسداها الطبيعة وروعة المشاهد، على حين لا تنهض ببعضهم أدواتهم الفنية فينقلون الواقع نقلًا، ويتحدثون عن الغاديات والرائحات من الأمور المتصلة بالرحلة، أو المكان أو الزمان، ولا يضيفون إلى الواقع شيئًا من ذواتهم حسًّا أو شعورًا، فتكون الرحلة رصدًا للحدث، وليس أدبًا وصفيًّا ممتازًا.

فالمعيار في تفوق هذا الأدب من النثر الوصفي أن يبلغ الكاتب غايته في وصف مشاعره تجاه ما يشاهد، «ومثل هذا اللون من الكتابة يحتاج إلى دقة الملاحظة وسرعة التكيف والاستجابة، ليدرك ويحلل، ويعبر عن انطباعاته عن هذا العالم الجديد في صور حية بوسعنا أن نألفها ونتعاطف معها»[٢].

---

(١) ممن كتبوا في أدب الرحلات أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير في كتابه المعروف بـ «رحلة ابن جبير»، دار الكتاب اللبناني، ودار الكتاب المصري، دون تاريخ. وأبو عبدالله محمد بن محمد اللواتي المعروف بـ «ابن بطوطة»، دار التراث، بيروت، ١٣٨٨هـ. ومن المتأخرين محمد الخضر حسين في كتابه «الرحلات» «المطبعة التعاونية، القاهرة، ١٣٩٦هـ، وعبدالوهاب عزام في كتابه «رحلاتي» مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٣٥٨هـ، وغيرهم كثير. وممن كتبوا عن أدب الرحلة، د. شوقي ضيف في كتابه (الرحلات)، دائرة المعارف، ط٣، ١٩٧٩م، ود. حسني محمود حسين في كتابه (أدب الرحلة عند العرب)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٧٦م.

(٢) د. عبدالقادر رزق الطويل، المقالة في أدب العقاد، ص١٨٤.

وعند النظر إلى ما أثر من أدب الرحلة لدينا نجده يتفق مع ذلك المعيار فيثير الإعجاب والإمتاع، ويقل — في بعض النصوص — فلا يحقق الأثر المطلوب.

ومن الرحلات الطريفة تلك التي كتب عنها عبدالله عريف بأسلوب ساخر، ونكتة لطيفة، وسياق كتابي سهل :

«وقربت الطائرة من «الرياض» وعرفنا هذا من الحدائق الصغيرة قبل مدينة الرياض، وقد تكون كبيرة، ولكن هكذا بدت لي من الطائرة، وهنا عاد السيد حسن شربتلي من رحلته الطويلة، وصحا من غفوته، وأسرع يمد يده إلى جيبه، ثم رأيته يأكل شيئًا لم أتبينه، وسألني زميل عمّا يأكله، فقلت : لعلها شيكات، أوراق بنكنوت، وتمنيت أن آكل شيئًا منها، وكررت النظر إليه تارة، وإلى جيوبه مرة أخرى، وانبسطت أسارير وجهي حين هش في وجهي ومد يده إلى جيبه، فجلست جلسة المتمكن، وهيأت له عبارات التقدير والإعجاب والثناء، وقلت لنفسي «يا حلم .. صحت الأحلام»، ولكنه أخرج يده — بيضاء من غير سوء — وقبل أن أفجع في حلمي اللذيذ، مد يده الثانية إلى جيبه الآخر، وأخرجها قابضة على أشياء لم أكد أراها، حتى اغشي علي — لانها كانت مليئة بالفستق، وما أحب أن أنسى أني قبل أن يُغشى علي مددت يدي بها إلى من كان بجانبي، ولم أفق إلّا على صوت من يقول .. لقد وصلنا الرياض .. »[(١)].

ومثل هذه الوقفات في الرحلة تضفي لونًا من المتعة والاستئناس بالحديث، وتجديد النشاط[(٢)]. وعنصر الطرافة والمفاجأة لازمان من ضرورات المقالة في أدب الرحلة، وإذا خلت من هذين العنصرين، ومن فيض المشاعر الذاتية تجاه المثير لدواعي الوجد، أو من البكائية أو الفرح الغامر، أو التجاذب مع الأطراف الفاعلة في الرحلة حول مسائل شتى من الفنون والتعليقات والطرافة وصدق الإحساس، إذا خلت من ذلك كله أو أكثره لم نستطع أن نقبلها في هذا الفن،

---

(١) مقالة : مع السيد الشربتلي، البلاد السعودية، عدد ١٠٩٣، الأحد ٢٧ محرم ١٣٧١هـ.

(٢) انظر مثالاً على الرحلة المليئة بالطرافة والانطلاق، وإسباغ المشاعر على المشاهد رحلة عبدالله بن محمد بن خميس إلى دمشق، وقد نشرها بعنوان شهر في دمشق، مطابع الرياض، ط١، ١٣٧٥هـ.

وكانت تاريخًا أو جغرافيا، أو أي علم شئت أن تسميه.

ويصطاف السباعي في أبها فيؤخذ بجمالها وفتنتها، ويكتب مقالة أدبية وصفية ممتازة فيها الاندفاع إلى التعبير السهل ـــ كعادته ـــ والسعي وراء الأشياء الصغيرة يحييها ويلفت إليها الذهن، ويتوقف عند قضايا اجتماعية يقول فيها رأيه، ويدير حولها الحديث نقدًا وفلسفة وبوحًا.

«.. ومضى الطريق بنا إلى قرية آل فلاح ثم استوى إلى قرن السودة فامتدت أمامنا غابات بامتداد الأفق الواسع .. غابات فيها دوح هائل من أشجار العرعر والزيتون وما لا أعرف من عشرات الأصناف وارتفعت أمامنا أكتاف تتصاعد إلى قمم شاهقة الارتفاع، وتنحدر إلى مهابط سحيقة الأغوار انتشرت فيها المزارع والأشجار وسبح النبات بينها يتماوج في رواء مخضل، فلا تكاد تقع عينك على غير اليانع الأخضر .. »[1].

ومن الكتاب البارزين في الوصف، فيما يتصل بأدب الرحلة محمد علي مغربي[2]، فحين يريد تصوير المشاهد أو الأحداث التي يمر بها يتحرى أن يكون أمينًا دقيقًا في النقل، ولعل هذه الخصيصة في نثره الوصفي أضعفت الأسلوب البياني، إذ يخلو ـــ في كثير منه ـــ من تجنيح الخيال، ورسم الصور الجمالية للمشاهد فيما وراء الطبيعة.

فهو يتحدث عن رحلة له في دول أوروبية عدة، روما وبرلين وجنيف، وما رأى في هذه البلدان، إلى أن أفضى إلى ذكر ألمانيا ففصّل الوصف في «الفارق بين نظام ونظام»، ثم ترك نفسه على سجيتها حين تحدث عن شعوره الفياض بعد سماعه صوت المضيفة تتحدث باللغة العربية، لارتباط هذا الصوت ببلده، وتراثه،

---

(١) مقالة : على أكتاف جبل السودة، أحمد السباعي، سباعيات، جـ٢، ص١٠٧، تهامة، طـ١، ١٤٠٣هـ، وانظر له من أدب الرحلات :
مقالة : أيام في تركيا، المرجع السابق، ص١١٣، ومقالة : أيام في القدس العربية قبل احتلالها، المرجع نفسه، ص١٢١.

(٢) ولد عام ١٣٢٢هـ، وتلقى تعليمه بمدرسة الفلاح بمكة، وتولى رئاسة تحرير صوت الحجاز، في بدايتها، واشتغل بالأعمال الحرة، له عدة مؤلفات، المعجم، ٣٨١/٢، والدليل ص ٢٥٤.

وتاريخه، فقد انطلق في تدفق عاطفي، أضفى على المقالة مسحة من الصدق والعفوية تجاه هذا الشعور، «إنها اللغة .. صافحت أسماعنا ونحن مغتربين، جمعت لنا الماضي من تاريخنا، والحاضر من حياتنا، وكشفت لنا عن مكاننا من المستقبل في ومضة واحدة، كأنها رجفة البرق بين السحاب، شعرنا ونحن في الغربة في قلب أوروبا أننا قد عدنا إلى أرض الوطن، وشعرنا ونحن في الطائرة كأنما احتوتنا الدار وتلاقينا مع الأهل والأحباب.

لحظة واحدة مزقت فيها كل الحجب، وأزيلت فيها كل الحواجز، وانطوت فيها كل الأبعاد .. ولهذا كانت الفجأة بها أكثر من أن تحتملها القلوب ففاضت عواطف وأشجانًا .. »[١].

ويصوّر الجبل الأبيض على الحدود الفرنسية السويسرية، وكيف رأى هذا الجمال، حين صعد إليه مع طائفة من السائحين على عربات تسير بالتيار الكهربائي، وتنزلق على أسلاك خاصة، ويصف تلك المغارة العجيبة في أعلى الجبل، وما تخلل كل ذلك من متعة[٢].

وهو يميل إلى التقرير ونقل الحدث كما رآه، لا كما أحسّ به، ويندر أن نلمس منه التدفق الشعوري في وصفه، سوى لفتات لا تكاد تذكر ـــ كما مرّ في المقالة السابقة ـــ.

والكتابة المقالية الوصفية لديه تأخذ شكل المذكرات التي حدثت وقائعها منذ زمن والكلمة لديه محدودة دقيقة.

وتتبين في مقالاته بعامة الروح الإسلامية التي تتقد حماسة في سبيل الدعوة إلى إحياء مجد الإسلام وقيمه، ويجتهد في سبيل إيقاظ المسلمين من غفلتهم، وتذكيرهم بماضيهم، ويجيء ذلك مباشرة في بعض المقالات، بنبرة خطابية، أو سياق يشبه الوعظ والتوجيه مما يفسد البناء الفني، ويذهب بجمال خفاء المعنى

(١) مقالة : اللغة وطن، حبات من عنقود، مؤسسة قنديل التجارية، جدة، ط١، ذو الحجة ١٣٨٧هـ، ص ٧١.

(٢) مقالة : الجبل الأبيض، المرجع السابق، ص٤١.

وتواريه في الصور البيانية، واختفاء الكاتب خلف جمله وعباراته وخياله. والفن يوحي بالفكرة ولا يمليها، ويومىء إليها في إشارات أبلغ من التصريح.

ومن مقالاته الوصفية الساخرة المداعبة وصفه لزوجين فرنسيين يركبان عربة، «ويحتلان مقعدهما أمامنا، فنحن نرى من شؤونهما ولا يريان .. ولاحظت أن الرجل يحمل من ضمن ما يحمل كيسًا من النايلون الأبيض بداخله حذاء لزوجه، وكانت الزوجة تغير حذاءها .. كلما دعينا إلى مغادرة السيارة، وكان الزوج قد أدركه التعب، إما من طول الرحلة أو من ضيقه بمهمة الحذائين .. ونام الزوج فيما أقدر تعبًا وغمًّا فنادته الزوجة : ماك .. ماك فانتبه مذعورًا، وأمسك بالحذاء يظن أن الزوجة توشك على النزول .. فإذا بها تقهقه متخابثة وتلفت كل من في السيارة ليشهد منظر الزوج، وقد عراه الخجل والألم !»[١].

ويتميز بدقة الوصف فالرجل «كهل يدلف إلى الشيخوخة، فهو قد أشرف على الستين، والمرأة نصف لا تقل عن الخمسين إن لم تكن قد جاوزتها ببضع سنين»[٢]. ثم يصف خط سير الرحلة، ويقف عند المعالم المادية فقط، ولا يذهب وراء الخيال أو استجلاب ما ليس بكائن، فهو موضوعي التعبير والفكرة، وقد ألحقت واقعيته هذه بمقالاته شيئًا من الجفاف والمباشرة، فحين ذهب يصف مدينة فاس ــ مثلًا ــ دوّن ما يحضر في ذاكرته من المعلومات حولها، وما رآه، ولم يلتمس سبيلًا آخر للتعبير عن إعجابه بالمدينة غير أن يفصل في القول حول جمال مباني فاس الجديدة، وحسن تخيطها وتنسيقها، وأناقة فنادقها، وضيق شوارع الأخرى القديمة والتوائها، وصغر أزقتها[٣].

وإن تقويم ما كتبه أدباء الرحلة على نحو مفصل ودقيق يستدعي لم شمل المقالات المتفرقة المختلفة، المجموع منها في كتب والمدفون في بطون الصحف، وتجتاحه غائلة النسيان، وسأكتفي بذكر أبرز من أسهم في المقالة

---

(١) مقالة : حامل الحذاء، المرجع السابق، ص ١٠٧.

(٢) المقالة السابقة.

(٣) مقالة : مدينة فاس، المرجع السابق، ص٩٧.

الأدبية المتصلة بالرحلة، فقد كتب محمد عمر توفيق سلسة متصلة حينًا ومتباعدة حينًا آخر من المقالات عن رحلاته إلى أسمرا وبلدان أوروبية وشرقية متعددة، ونشرها في صحيفة البلاد، وجريدة المدينة المنورة، ومجلة أقرأ، وتميز فيها بأسلوب قوي، وصياغة جميلة، جاء ذلك من موهبته البيانية التي طورها بتكرار المحاولة ومتابعة النشر منذ صوت الحجاز في أيامها الأولى، فأتت مقالاته على نسق متقارب من الإمتاع وسلامة اللفظ، وإشراق الصورة[١].

وكتب حمد الجاسر مقالات متفرقة نشر أكثرها في مجلته العرب، ثم جمعها في كتاب من عدة أجزاء[٢]، وهو يميل إلى قوة اللفظ، ورصانة الأسلوب، والجزالة في التعبير، إلا أن صفة الباحث تعوقه من الانطلاق في الترسل الكتابي، إذ يقف ويطيل هذا الوقوف عند الآثار العلمية يدقق فيها، ويتحقق من صحتها، ويسرف في إفاضته حول مسائل الأنساب والأحساب، والمخطوطات، وأسماء الخيل، والغريب من الكتب، أو النكرة من الأسماء، والمواقع، وهذا أضعف من انسياق مقالاته إلى البيان، وانصرافها إلى البحث في الكثير الأغلب.

ولعل عبدالكريم الجهيمان أميل إلى السهولة والسلاسة وأقرب إلى الإفضاء بالرأي والنقد والمشاعر، وألصق بالمقالة السريعة المتخففة من أثقال البحث، وبأس المسائل العلمية، فقد كتب عن زيارات له مختلفة إلى مدن أوروبية وأمريكية وشرقية[٣]، وأسلم قلمه لجمال المفاجأة، وروعة المشهد، وطرافة المصادفة، وتداعي الأفكار، وانثيال الأحاسيس المنبعثة من ذكرى، أو رمز جمالي، أو صورة، أو نغمة.

وينحو كاتب آخر هو عبدالله مناع إلى الشاعرية في الرؤية، فيسكب فيض

---

(١) جمعها في كتاب بعنوان «من ذكريات مسافر» تهامة، ط١، ١٤٠٠هـ.

(٢) انظر : رحلات، حمد الجاسر، الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، الرياض، ط١، ١٤٠٠هـ.

(٣) له في هذا كتابان :

— «ذكريات باريس»، النادي الأدبي بالرياض، ط١، ١٤٠٠هـ.

— «دورة مع الشمس»، الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، ط١ ١٤٠٠هـ، وقد نشر مقالات هذا الكتاب في جريدة الجزيرة ابتداءً من ٢٥ محرم إلى ٢٥ ربيع الثاني من عام ١٣٩٧هـ.

عواطفه على المثير من الرؤى، والمبهج من المناظر، والممتع من حسن الصوت واللون والرائحة، فهو فنان يسعى إلى أن يشبع ذائقته من كل ألوان الجمال، ويمتع وجدانه بما يثري ويطرب.

ويكون المقال لديه في بنائه الفني مزيجًا من النثر الشاعري، والصور الغامضة، والتعليق والمعلومة، والسياق الوصفي الشامل في كل ذلك[١].

وهناك من الرحلات ما كتبه أدباء وافدون على هذه البلاد، تأثروا بأدبها وعاداتها، وتفاعلوا مع أحداثها وقضاياها، وأثروا في النهضة الأدبية، ونقلو ا في أدبهم النثري والشعري ما جال في خواطرهم عن الحياة الثقافية، وعن التطلع مع أبناء البلاد وشبابها إلى التقدم في مجالات الحياة الحديثة، ومن هؤلاء «يوسف ياسين»[٢] الذي أسهم في تطور النثر من خلال ما كان يكتبه في افتتاحيات صحيفة أم القرى، وما كان يسهم به أيضًا في قضايا اجتماعية وأدبية عـدّة.

ومن المقالات الأدبية في وصف الرحلة ما كتبه في تصوير رحلة الملك عبدالعزيز من الرياض إلى مكة، حيث يذكر المدن والقرى والهجر التي يمر عليها الموكب، والقبائل، والمياه، وأماكن الرعي، وأشكال الملبس والهيئات، وصفات كل وقد، ويطنب في تفاصيل مقار السلطان عبدالعزيز، فمقالاته تجمع التأريخ والفائدة المعرفية المتفرقة، والأخبار، وطرائف من الأدب والسياسة، «.. جاءت الساعة التاسعة والنصف من الليل، فنادى منادي الحي (توكل على الله) فما كانت تسمع بعد هذا غير رغاء الإبل يبلغ عنان السماء، وما هي إلا نصف ساعة حتى تسير حملة المؤن وأمامها (العلم) وبجانبه ركب يحمل قنديلًا يهتدي

---

(١) انظر كتابه : «العالم رحلة»، دار البلاد للطباعة والنشر، جدة، ط١، ١٤٠٩هـ.

(٢) هو يوسف بن محمد ياسين (١٣٠٩هـ ـ ١٣٨١هـ) عمل في خدمة الملك عبدالعزيز، سوري الأصل، رأس تحرير جريدة أم القرى، تولى مناصب مختلفة في وزارة الخارجية بالمملكة وله مذكرات مخطوطة. انظر : الأعلام ٢٥٣/٨.
نشرها في أم القرى، من عددها الأول إلى عددها السادس عشر في ثلاث عشرة حلقة. وقد أشرفت جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية على نشر هذه الرحلة مع ثلاث رحلات أخرى في كتاب واحد، وفي طباعة أنيقة، بعنوان (الرحلة الملكية)، مع تعليقات مفيدة.

المدلجون على نوره، ثم يركب السلطان ومن معه، حتى إذا استووا على رواحلهم ينادي السلطان (العجيري)[1]، فيردد الخدم النداء حتى يسمع المنادي فيقبل .. فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم اختار موضوعًا من فنون الأدب في مكارم الأخلاق أو في التقوى أو مخافة الله أو في السير والتاريخ، إلى غير ذلك من فنون القول، فبدأ كلامه بقوله (فصل في مكارم الأخلاق)، فذكر جميع ما ورد في كتاب الله عنها، ثم ذكر ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن الصحابة والتابعين، أو عن العرب من جاهليين وإسلاميين ومخضرمين ومولدين ومحدثين، أو ما ورد في أقوال أئمة الهدى من العلماء الأعلام، فإذا بدأ في روايته رأيته كالسيل المنحدر، يغرف من بحر، لا يتلعثم ولا يتلكأ، يصل القول بالقول، ويعزو كل قول لقائله، ثم تراه يغرب ويشرق، ويجوب حدائق الأدب العربي فيقتطف من كل غصن زهرة، وينثر علينا من زهور اجتناها وأودعها ذاكرة ما رأيتها خانته في ليلة، ولا عزّت عليه على طول الإدلاج وتكرر الأيام .. »[2].

وتأتي جمله أحيانًا مختومة بالسجع، أو تترادف الكلمات في إيقاع واحد متأثر بالبيان العربي القديم في بعض وجوهه.

وهذا النص من بواكير أدب الرحلة، إذ كتب في وقت كان الأدب فيه خاملاً، والأذهان تستعد للابتداء في طور جديد من أطوار الحياة، ونحت أم القرى في أول

---

(١) هو عبدالله بن أحمد بن محمد بن الشيخ سعد العجيري، ولد في مدينة حوطة بني تميم، سنة ١٢٨٥هـ، حفظ القرآن صغيراً، وتزود معارف مختلفة على أشياخ بلدته، وبعض علماء الرياض، ورحل إلى البادية حيناً من الزمن وأفاد من كل ذلك ثقافة أدبية وفقهية وتاريخية شاملة، وتميز بسرعة البديهة، وقوة الحافظة، حتى عد من النفر القليل المعدود في فن الرواية، كما يشير هذا النص الوارد في سياق وصف الرحلة ــ توفي عام ١٣٥٢هـ.

انظر في ترجمته : مقالة، الشيخ عبدالله العجيري،، ١٢٨٥هـ ــ ١٣٥٢هـ، بقلم عبدالرحمن بن عبداللطيف آلشيخ، مجلة الدارة، عدد ٢، السنة ٣ عام ١٣٩٨هـ، ص ١٠.

وكتاب : علماء نجد خلال ستة قرون، عبدالله بن عبدالرحمن بن بسام، جـ٢ ص ٥١٤.

وانظر صوت الحجاز عدد ٧٤، في ٢٢ جمادى الأول ١٣٥٢هـ، ص ٢، خبر بعنوان : وفاة عبدالله العجيري الأديب الراوية المشهور).

(٢) مقالة : الرحلة السلطانية، جـ١٢، ١٣، أم القرى، عدد ١٥، الجمعة شعبان ١٣٤٣هـ، وعدد ١٦، الجمعة ٢ رمضان ١٣٤٣هـ، بتصرف. وفي كتاب (الرحلة الملكية) ص ٩٩، ١٠٣.

عهدها هذا النحو من العناية بالكتابة النثرية في مختلف فنونها، سياسة أو اجتماعًا، أو نقدًا، أو أخبارًا في صياغة أدبية.

فالمقالة الآنفة الذكر تعد متقدمة في أسلوبها، وفكرتها، وألوان المعارف التي تحويها إذا وازنا بينها وما كان يُكتب في تلك الفترة من نثر مسجوع، وصياغات مكررة متكلفة.

ويبقى من أدب مقالة الرحلة الوصفية شتات متفرق يميل به كاتبوه إلى التسجيل والرصد، ويتخيرون اللفظة المفهومة القريبة من الناس، ولا يتكلفون الأسلوب الأدبي، ولا يسعون إلى التجويد في رسم الصور قدر عنايتهم بالدقة والنقل، وسرد المعلومات، وذكر المواقع والأزمنة، ومن هؤلاء محمد بن ناصر العبودي(١)، وفهد بن علي العريفي(٢)، وعاتق بن غيث البلادي(٣)، وعبدالله بن حمد الحقيل(٤)، وغيرهم.

---

(١) ولد في بريدة عام ١٣٤٥هـ، ونشأ بها وتعلم، وتقلب في وظائف متعددة، إلى أن وصل إلى وظيفة مساعد أمين رابطة العالم الاسلامي، له كتب عديدة في الأمثال الشعبية، وستة مجلدات في معجم بلاد القصيم، وله في الرحلات أكثر من عشرة كتب منها : في أفريقيا الخضراء، وجولة في جزائر البحر الزنجي، ورحلة إلى جزر المالديف، وحلة إلى سيلان، وشهرٌ في غرب أفريقيا، ورحلات في أمريكا الوسطى، وإطلالة على نهاية العالم الجنوبي المعجم ٣٦٥/٢/، والدليل ص ٢٦٩.

(٢) ولد عام ١٣٤٩هـ، في حائل، واشتغل في عديد من وظائف الدولة، كان آخر عمل قام به مدير عام مؤسسة اليمامة الصحفية. وله نشاط ثقافي وكتابي. له في الرحلات «من وراء الحدود»، النادي الأدبي بالرياض، ط١، ١٤٠١هـ، الدليل ص ٢١٣.

(٣) من المهتمين بالعمل المعجمي والجغرافي والرحلات وله كتب عدة في ذلك، من رحلاته «الرحلة النجدية»، دار المجمع العلمي، جدة، ط١، ١٣٩٦هـ. المعجم ٥١٧/١.

(٤) ولد في المجمعة عام ١٣٥٤هـ، وتخرج في كلية اللغة العربية سنة ١٣٧٨هـ، وشغل عدة مناصب، وهو الآن مدير دارة الملك عبدالعزيز، له كتب مختلفة، منها في أدب المعجم ٤٣/٢، والدليل ص ١٥٤.

٣ ــ وصف الذات والشخصيات الأخرى

يصف بعض الكتّاب نفسه في تجربة مرّ بها، أو مرّت به، أو يصف طبعًا يتملكه، أو خلقًا يتمسك به، وهي قريبة من السيرة الذاتية، وقد تكون إذا طالت وتتالت سيرة ذاتية وافية منشأها مقال إثر مقال.

وقد كتب كثيرون مذكراتهم وفصلاً من حياتهم بأسلوب تدوين ما كان، من غير اعتبار للنسيج العاطفي الذي يحسن أن يتفاعل مع النص، فالسرد التاريخي، وذكر الأحداث والإحصاء وما إلى ذلك ليس من المقالة الوصفية المتصلة بالذات في شيء، ولكنه تجلية ما في النفس، إظهار دفق الوجدان في موقف، أو ذكرى، أو حدث ووصف ذات الكاتب في هذه اللحظات هو الفن التصويري الحقيق بالتأثير والإعجاب.

يتحدث عدد من كتّابنا عن تجربتهم الكتابية في المقالة والشعر، فيذكرون كيف ابتدأت ملامح هذه الموهبة في الجلاء، ثم كيف تجاسروا على إعلان أول مقالة، أو قصيدة على الملأ، وما أحدثه ذلك في نفوسهم، ونفوس معارفهم من استحسان أو خوف، أو قلق.

فحين تحدث أحمد عبدالغفور عطار عن أول مقال كتبه ذكر أن شغفه بالأدب بدأ مبكرًا، بقراءة الصحف والقصص، ثم كيف استفاد من كتب التراث، ومصادر دراسة الأدب، «أما أول مقال كتبته وأعجبني فهو مقال إنشائي لا يعدّ أدبًا، وإن كان يشير إلى وجود الموهبة، وقد وقفته على الكتابة في تأخر المسلمين والتألم لحالهم .. أما شعوري عندما نشر فلا أستطيع أن أصفه لمضي زمن طويل عليه، وإن كنت أذكر أنني شعرت بسرور لا مزيد عليه، وفرحة وثبت بي في عالم الخيال، وحملتني على أن أشتري أكثر من خمسين نسخة وأقدمها إلى أصدقائي دون ثمن .. وما ذكرت ذلك المقال على ضعفه، أو قرأته إلا وشعرت بفيض من السرور واللذة لأنه يذكرني بأيام سعيدة من العمر الحالم والصبا الجميل.

فهل تعود تلك الأيام ؟ ياليتها تعود إليّ أو أعود إليها»[١].

---

(١) مقالة : أول مقال كتبته، البلاد السعودية، عدد ممتاز ٧٩٠، في ١٣٦٨/٤٤/١هـ، ص١٢.

والعطار يحكي عن أحداث مرّت في شيء من اللهفة إليها، والشوق الغامر إلى عودتها، ويتمنى أن تعود صبوة الشباب وجموحه وتطلعه، وفي هذا الإحساس العنيف قوة لهذه المقالة ورُواء.

ويكتب طاهر عبدالرحمن زمخشري[1] عن ذاته حين بدأ التعلق بالأدب، وأدركته الموهبة الشعرية، فيصور إغواء شيطان الشعر له، وتزيينه دروب الخيال والهيام بالأطياف والألوان والأحلام، ويختار من اللفظ في هذا التصوير ما يتناسب واللحظة الشعرية الدافقة التي تحتويه، فهو حين تحدث عن تجربته مع الشعر دهمته الحالة الشعرية نفسها، فأخذ يتصرف في عاطفته الجامحة، وأحاسيسه الفوّارة تدفعه إلى أن يحسن التعبير عن هيجانها في داخله.

ولجمال هذه المقالة واتساق لفظها، وتناغم كلماتها، وسهولتها، وعفويتها، استشهد منها بما يتفق مع أسلوب العرض والتحليل في هذه النماذج.

«لقد كان يسهل على نفسي الأمّارة بالسوء أن أتحدث عن أول جريمة ارتكبتها أكثر مما يسهل الحديث عن أول قصيدة نظمتها، لأني عندما نشأت ما كنت أظن أن شيطانًا ماردًا يندس في خلجاتي .. ليغرر بي حتى يقذف بي في هاوية سحيقة، ويرمي بي في غورها إلى أن واتته الفرصة الملائمة فإذا بي في الأغوار أعيش في لجة، وأحيا مشتت الفكر في قرار سحيق، ساهمًا مطرق الرأس وكلما دعاني إليه ليسخر مني تجدني ذاهلًا شارد اللب في سهوم، فويل له من أثيم يستحق الرجم بتنابل[2] ذرية تمحي أثره إذ لا يكفي أن تمحيه هو ليبقى أثرًا بعد عين.

وإلى الآن وإلى ما بعد سنوات أيضاً لا أستطيع الحديث عن أول قصيدة

---

(١) ولد بمكة سنة ١٣٣٢هـ، ودرس في مدرسة الفلاح وتخرج فيها عام ١٣٤٩هـ، وشغل وظائف حكومية مختلفة منذ عام ١٣٥٠هـ، ثم استقر في مديرية الاذاعة بجدة، مذيعاً ومقدماً لبرامج الأطفال، وأصدر مجلة «الروضة» للأطفال، له شعر كثير يصل إلى سبعة عشر ديواناً، وله أعمال نثرية مخطوطة، من كتاب المقالة المتميزين، ولكنه مقل فيها، حاز على جائزة الدولة التقديرية الثانية في الأدب عام ١٤٠٤هـ. وتوفي بعد معاناة طويلة مع مرض في الكلى عام ١٤٠٧هـ، المعجم ٤٨٧/١.

(٢) هكذا جاءت في النص، ولعلها من وحي روحه الساخرة أحياناً، على أن المراد بها «قنابل» بتفسير الوصف بعدها «ذرية».

نظمتها، وإن كنت حتى هذه اللحظة أعيش مخمورًا بنشوتها وذكرياتها السعيدة العذبة التي لاتزال مرائيها مجسمة أمامي ملء السمع والبصر.

فهي في أذني تراجيع ألحان عذبة مازلت أسمعها نغومة آتياً من أعماق الماضي منسكبة في شغاف نفسي وممتدة فيها كماء الساقية بين المروج الخضر.

وهي في بصري خيال ملتف بوشاح من صنع النور مطرز بأكاليل فيها الورد الأحمر، والزهر الأبيض، وكأني بهذا الخيال يبتسم لي في خبث قائلًا : خذ هذه وردة حمراء واحتفظ بها ذكرى مدى العمر، وإذا خفت عليها أن تذبل فاحفظ رواءها بدموعك، وإذا رأيتها أوشكت أن تذبل فعلًا فاصبغها بدمائك.

هذه الألحان بل وهذا الخيال لا يزال يردد في نفسي أصداء ذكريات أو قصيدة قلتها ..، ففي ظلال هذه الأشباح وحدها كان شيطان شعري متفيئًا إذا صح أن للشعر شيطانًا، وكل ما نظمته إذ ذاك فعن صبوات وبدوات غريرة مائعة .. ولقد كان قرّائي في تلك الآونة ثلاثة فقط زوجتي رحمها الله وصديقي عفا الله عنه، وشيطاني لعنه الله، لأن لعنة الشيطان طاعة نتقرب بها إلى الله»[1].

فالصورة التي رسمها لشاعريته تغرر به وتزيّن له طرائق البهجة الفنية، وتدفعه إلى أن يتخذ من الكلمة جدولًا، ومن نغمها حداء يفضي به إلى الحياة، ومن همهمات الوجد غيمة يستظل بها من الهجير.

وخير ما يبدو في الصورة التي قدمها الزمخشري ضعفه أمام دواعي الهاجس الشعري، واستسلامه لِطَرْقِهِ، وإتيانه ما يختلج في وجدانه من أسباب الهوى وعلائق الصبابة على هذا النحو من الكشف والتصريح.

ويكتب حمزة شحاته في وصف نفسه فيشبهها بالليل، وربما لأن مشابه تصل بين الاثنين، حمزة والليل، من حيث السمرة والطول، والصمت ـــ كما يرى ـــ،

---

(١) مقالة : أول قصيدة تنظمها، المرجع السابق، ص ١٢.
وانظر أيضاً مقالة : أول مقال كتبته، لهاشم يوسف الزواوي، المرجع السابق.

وقد تلقب بـ (هول الليل)، ويحسب أن أقوامًا تخافه، وتهاب سلطته النقدية، وحدة بصيرته كما يخافون الليل وأهواله وخفاءه وما يطويه من أسرار، وأطنب الكاتب كثيرًا في وصف الليل والدفاع عنه، وانتقاص من يثلمه، فرأى أن في جنحه يهمس العاشقون، ويلهم المبدعون، ويتفكر المتأملون، ويصمت فيه الكل خضوعًا للسنة الأزلية في الحياة، ويريد شحاته أن يدفع تهمة من يشنأ عليه هذا التلقب، وانتقاصه إياه بالسواد والبلادة والغفلة(١).

ويبوح بهذا الضيق الذي يسد عليه منافذ الحياة، ويلتمس له سببًا فلا يجد ما يشفي وتتكشف له نفسه عن طبع سوداوي متشائم قاتم، وكأنه الليل في الحلكة وانتظار السرمدي، ويُسلم نفسه وهواجسها لتآكل الليالي، وتوالي الأيام تفعل ماتشاء، ويكفي صفاء وطيبة أنه يعلم ما تنطوي عليه نفسه من حب الخير، وكره الشر، على شبهه بالليل، وهو موضع تهمة من الناس بالسوءات وسوء الظن.

«و .. بيني وبين «هول الليل» مشابه. فأنا طويل مثله، وفي طباعي جفوة ووعورة تصرف الناس عن الاطمئنان إلى عشرتي. فأنا وحيد مظلم النفس، أنطوي منها على ما يشبه القبر العميق المهدّم، وفيّ ميل إلى الصمت، الصمت الطويل، ولو اخترت لكنت أبكم، وكل ما يهمني أن أسمع وأرى، وفيّ ميل إلى الأذى ككل الناس ولكني أمقت الشر وأعافه، وأذاي من نوع الفكاهة والسخر.

وأنا حزين منقبض الصدر أحس دائمًا بأني غريب في الحياة، أو عابر سبيل أو متفرج حيل بينه وبين ما يدور تحت نفسه من الحوادث، ويستفزني المزاح أحيانًا فأسخر بالحياة، وأستجيب لبواعث السرور لحظات. وهذه اللحظات نادرة في حياتي الآن، وبالرغم من أنني لا أزال غض الإهاب..»(٢).

---

(١) اتهمه العواد بذلك، وهجاه بقصائد، ورد عليه شحاتة بقصيدة منها :

أنا الليل يغشاك بالهول والظلمـ ـة والليلُ بفزع الجبناء
أنا والليل منذ كنا شبيها ن جلالا وقوة وحياء

انظر صوت الحجاز، عدد ٢٤٦، ١٩/١٢/١٣٥٥هـ.

(٢) مقالة : هول الليل، صوت الحجاز، عدد ٢٢٥، في ١٦/٧/١٣٥٥هـ، وحمار حمزة شحاتة، ص ١٨.

ونلحظ قوة الصياغة، وجزالة العبارة، والصدق الفني، وسعي الكاتب إلى أن يكون مفهومًا واضحًا سهل القياد والمعشر.

ومن ذلك وصفه أحمد قنديل[1]، وتصويره إياه بذلك الإنسان البلدي المحب للوضوح والسماحة، والملتزم بخلقها من الاحتفاء بالزائر، إلى التبسط في الحديث، والانطلاق في غير تحفظ ولا مواربة.

وقد اجتهد شحاته في تقديم هذه الصور المتداخلة لشخصية قنديل، فجاءت توحي بالمديح، وتومىء إلى غيره، مما يراه في ذهنية صديقه أو أسلوبه أو هيئته من أوجه تستدعي الإصلاح والتقويم.

«وقنديل كاذب، ممعن في الكذب، وما إخاله إلا كذبة تدفعها الحياة في شكل آدمي ليسهل تسربها إلى النفوس والأذهان .. يكذب بعضه على بعضه، وظاهره على باطنه، فهو في مجموعه مثال للتنافر، وكأنه نقيضة من نقائض الطبيعة تهجو بها الحياة نفسها، مبالغة في التطرف والمرح.

وليس بين أدبنائنا وشعرائنا الكثيرين ـ والحمد لله ـ من يستطيع أن يبلغ في تمثيل (الراجل البلدي الأصيل) بجميع حدوده وصفاته مبلغ القنديل، فهو بلدي قح بقفاه وبوجهه أو بما يلقاك منهما، وبضحكته وحركاته وسماته، وبلدي بهذه النفس القانعة، المستسلمة، وبهذا الصوت الغليظ الذي تتردد منه الألفاظ، وتتدحرج في مثل البئر العميقة المهجورة، وبلدي باطمئنانه إلى الزّي العادي الذي يمثل تخمة الحجاز بعادات الأمم المختلفة ونفاياتها.

وجسمه المتوسط المتماسك خير دليل على أن الرجل البلدي يجب أن يكون هكذا محدودًا، معقولًا، لا فضول فيه .. »[2].

---

(١) ولد في جدة عام ١٣٢٩هـ، ونشأ بها، وتعلم في مدرسة الفلاح، ثم صار معلماً فيها، وانتقل إلى مكة المكرمة، واشتغل بتحرير صوت الحجاز، وصار رئيساً لتحريرها، وتقلب في عدة مناصب بوزارة المالية، وكان آخر وظيفة له مدير إدارة الحج العامة بجدة، وله شعر كثير، وعدة دواوين. انظر : عبدالسلام الساسي، شعراء الحجاز الثلاثة، والمعجم ٢٩٠/١.

(٢) مقالة : خنفشعيات «أستاذ»، صوت الحجاز، عدد ٢٣٥، في ١١/شعبان ١٣٥٥هـ.

ولا ريب أن هذه الصورة الساخرة تثير الاستهزاء وتثير الإعجاب في الوقت نفسه، فالكاتب قد اشتق منه الصفات الاجتماعية التي يتلبسها الناس آنذاك، بل وجد فيه شيئًا كثيرًا منها، القناعة المصاحبة للاستسلام، وهي صفة ذميمة على كل حال، فليس من الفضائل الانقياد الأعمى للنمطية السائدة اجتماعيًّا في كل حين، فقد يكون الاستسلام هذا إمعانًا في دفع المجتمع إلى الركود والموات. ولعل القنديل كان يمثل الوجه الآخر المناقض لتفكير شحاته، إذ لا يفتأ حمزة في دعوته إلى التجديد، وبعث الأصيل في الأخلاق، والتراث، وما يتصل بحياة العصر من أسباب القوة والتقدم.

ثم يشير في أدب جم إلى الهيئة الحجازية ــ في ذلك الحين ــ وهي تستقبل من الشعوب الإسلامية والعربية أنواع الأزياء والألبسة، ومختلف الأشكال، ما يصلح منها وما لا يصلح حتى وصلوا إلى الاتخام ــ كما يقول الكاتب ــ وحري بصاحبه القنديل أن يتنبه إلى هذه المسألة، التي لم يغفل عنها كاتبون حجازيون كثر، فقد دعوا إلى توحيد الزّي[(١)]، والاكتفاء بالسهل الميسر الأنيق.

ثم يستكمل أجزاء أخرى من الصورة : «وقد تعاشره، أو تسايره، حولًا كاملًا، لا يقوم لك في أثنائه دليل أو تلوح شبهة على أنه أديب أو شاعر، ومعظم الذين يرون كثرة تردده بين إدارة الجريدة والمطبعة يظنونه صفّافًا، أو خبيرًا في الرزم، أو مخبرًا متجولًا .. »[(٢)].

ويذكر أيضًا أنه كان أستاذًا مكافحًا، وأن التدريس أبقى أثره على شخصيته بعامة، في الحديث والإشارة، والتكرار، ورفع الصوت، ثم أشار إلى لحية تفترش معظم صدره، وأنه لا يبالي بلباسه، ولا يتحدث في السياسة، وإنما يسرف في السؤال عن أسعار الخضار وما حولها، وأنه لا يكلف بالترف، ولا بالأكل، وفيه ميل إلى الابتكار والتجديد إلّا فيما يتصل بمطالب جسده وعيشه، فإنه رجعي

---

(١) انظر حديثاً عن الدعوة إلى توحيد الزي، في الفصل الخامس، المقالة الاجتماعية جـ٢.

(٢) المقالة السابقة.

حتى أطراف أذنيه، «وما فتيء بحاجة إلى ثورة إصلاحية تتناوله من جميع نواحيه الظاهرة، وتقوم بها (مصلحة تنظيم) مستعدة.

وما نرى للبلدية عذرًا في إغفال هذا الواجب، فسوف يجيء يوم يكون فيه الأستاذ القنديل جزءًا من تاريخ البلد، وجزءًا من تاريخ نشاطه الأدبي»[١].

والكاتب يستحلي اندفاعه وراء التصوير، ووراء التقاط ألوان من اللفظ الأدبي، يجد فيه التعبير والغنى، فكأنه يتنغم ببعض الكلمات والجمل، ويتعمد أن يسترسل في إنشائه مستسلمًا لتلك الرغبة الفنية، ويجد في نهاية ذلك الاندفاع مقالة أدبية لها صفاتها وشروطها وجمالها.

وحمزة من الكتاب المتميزين في كتابة الوصف، ولعله الكاتب الوحيد في أدبنا القادر على استيفاء خصائص الصورة المادية والمعنوية، وإظهار ما يختلج في نفسه أمام كل ذلك.

ونجد للوصف ميادين أخرى كثيرة متفرقة، لكن الأغراض الثلاثة السابقة أكثرها توافرًا، وأقدرها على إيفاء مطالب فن الوصف، وربما يأتي كاتب وصفي على تصوير أدق الخصائص المعنوية النفسية، كما فعل حمزة شحاته، وفي ثقة واقتدار وطلاوة.

ولعبدالله بن خميس مقالة في وصف حالة معنوية تقترب من مقالات شحاته في الجمال والتماسك والإيقاع، على اختلاف ما بين الكاتبين في مناحي التفكير، ومصادر الثقافة.

وكأن ابن خميس حين أراد أن يبوح بشيء مما في دخيلته من مظلمة الهوى لجأ إلى الشاب الظريف[٢] يستمد من مكابدته الهوى عونًا له على الصبر، ومن

---

(١) المقالة نفسها. وانظر في وصف أحمد قنديل «في الميزان» لمحمد عمر توفيق، البلاد السعودية، عدد ٨٢٨، الأحد ١٣٦٨/٨/١٦هـ، ص١.

(٢) هو محمد بن سليمان بن علي بن عبدالله التلمساني، المعروف بالشاب الظريف، ولد بالقاهرة، وتولى عمالة الخزانة بدمشق، وفيها توفي، وله ديوان شعر مطبوع، ٦٦١ــ٦٦٨هـ، الأعلام ١٥٠/٦. وقصيدته التي نثرها ابن خميس مطلعها :

معانيه وصوره زادًا يبرح به إلى العزاء، «يفلسف الشاب الظريف هواه، ويعلن نجواه، فيصطنع السلوان، ويتأبى على الحب، فيجرد من نفسه شوقًا، فيناغيه ويناجيه، ويحمله على إعلان حبه، وإظهار وجده، فكل من حوله واجد، ومكاشفة ذوي الغرام، ومواجدتهم يواسي ويسلي، فكلّم رفيق درب، طليح حب، وبُح بما لديك فكلنا بائح، فلست أول مغرم تعرض الوجد، وفتكت به الوجنات والألحاظ، وأعملت سهامها في حبة قلبه، فاطرح الجزع وتجلد بالصبر، ووطّن نفسك على ما تلقاه .. ، وإن ألحّ عليك السُقم، واستبطنك الداء فربما يكون هذا منك مدعاة لوصل الحبيب، فالهوى له أخلاق، وهذا من خلقه.

ألم ترني يمضي عليّ ليال وليال، وأنا حليف السهر، رفيق الألم، وأفكاري محدقة بي، وهمومي ملازمة لي، فصبرت، ونؤت بحمل الهوى، وديدني تقليب كفي، وتساؤلي لماذا بَعُدَ من أحب، وألفوا الفراق، وكأنما هو هجيراهم، وديدنهم.

يا لهم من عريب، ليس لهم في الهوى ميثاق، بل أصح ميثاق لديهم ألّا يصح لهم ميثاق، تكبدني بأوراك المطي، معنقات بمن أحب، وعلى أكلتها المزركشة الغامقة معرض، فيه نفار ونفاق، ما أقسى قلبه، وأشد إعراضه، وأنآه عن رحمة من يحبه، والشفقة على إلفه.

لكأني أنظر إليه كلما ناء، تحمل خصره الرشيق، وما فوقه، وما تحته، فيكاد ينقد بضاضة ورشاقة ولينًا .. آه ما أنثلم هذا الفوق، وهذا التحت، يجني عليّ هذا الخصر الضعيف اللطيف، لقد رُكّبت فيه العيون، وضربت حوله نطاقًا لو جسمت لكانت زنارًا من أحداق . هي دائمًا ترنو إليه، ولا تنفك مسمرة ألحاظها فيه، لكن إذا نظرها انبهرت، وانكسرت، وأطرقت، وإذا غضّ عنها عادت»[1].

لا تُخف ما فعلت بك الأشواقُ ... واشرح هـــواك فكلنـــا عُشاق

فعسى يُعينك من شكوتَ له الهوى ... في حَمْلــه فالعاشقـــون رفـــاقُ

لا تجزعًــن فــلستَ أول مغــرمٍ ... فــتكت بــه الوجنــاتُ والأحــداقُ

(١) مقالة : فلسفة حب، فواتح الجزيرة، ص٥٦٣.

وتصوير الحالة المعنوية يتطلب استعدادًا فنيًّا وتجربة صادقة عاشها الكاتب، واكتوى بحر هجيرها. وابن خميس نثر الصور المعنوية والحسية في قصيدة الشاعر، وحوّل ذلك النص من شعر إلى نثر، في غير زيادة ولا إضافة، سوى إحساس الكاتب، وتأثير التجربة العاطفية والحسية على وجدانه.

والخلاصة في الوصف ـــ بعد ذكر أبرز أغراضه ـــ أنه لا يتجلى في مثل الأفكار العلمية، والأداء الموضوعي الصرف، فليس من المقالة الأدبية الوصفية التفصيل في أوجه النهضة الحديثة في الحجاز[١]، وليس منها درس الأدب الحجازي، وذكر تطوره التاريخي، وتعداد الفصول التي مرّت به[٢]، وليس منها الحديث عن نشأة القصة القصيرة في الأدب السعودي[٣]، أو مدارس الأدب[٤]، أو الجماعات الأدبية[٥]، ونحو ذلك، فهي مقالات وصفية علمية.

---

(١) مقالة : النزعة الأدبية في الحجاز، عبدالمجيد شبكشي، صوت الحجاز، عدد ١٦٩، في ١٣ جمادى الأولى ١٣٥٤هـ.

(٢) مقالة الأدب الحجازي والتاريخ، محمد سعيد عبدالمقصود، وحي الصحراء، ص٣١.

(٣) مقالة : بهذا العنوان للدكتور محمد الشامخ، أحاديث «مجموعة أحاديث أدبية وثقافية» دون ذكر لسنة الطباعة أو مكان الطبع، ص٤٦.

(٤) مقالة : الكلاسيكية في الأدب، للكاتب نفسه، المرجع السابق، ص٤٤

(٥) مقالة : جماعة أبولو، عبدالعزيز الرفاعي، المرجع السابق، ص٢٣.

د ــ الخصائص الفنية في المقالة الوصفية :

تتميز المقالة الأدبية الوصفية ــ في كثير منها ــ بالاغراق في العاطفة واللجوء إلى معالم الكون، وأرجاء الطبيعة بثًا للشكوى، وتعبيرًا عن الذات.

وتحميل الطبيعة المشاعر على هذا النحو خصيصة من خصائص الرومانسيين الحالمين، الباحثين عن المنقذ في ما يلقونه من إبهار وانشداه بعالم الطبيعة المحاط بضبابية غريبة غير مدركة، من السحر والإثارة والتساؤل.

لقد انصرف أكثر الكاتبين إلى ما تقع عليه عيونهم من مشاهد جميلة خلابة يستنطقونها البوح، ويفضون إليها بالأسرار، وينصتون إليها في همسها الأبدي الموسيقي، وفي صخبها الأبدي المنذر بتدفق تيار الحياة بعد سكون وخفوت !.

وفي هذا الجانب من المقالة الوصفية تبدو أدق سمات الرومانسية من الضيق بالواقع، والبحث عن الخلاص في المُغيّب، وفي الضبابي الغريب، البعيد عن دائرة العقل البشري، وكأن إشكالية الإنسان الدائمة هي البحث عن القوي المخلص في ما يتلمسونه من الحكمة والاستنارة، والرشد، والوصول إلى الطمأنينة حين يناجون أو يشكون أو يرسلون أناشيد حيرتهم وقلقهم من خلال موج متلاطم، أو نسمة عابرة، أو أفق بعيد غير مدرك، أو التفاف الليل بصمته الرهيب على ما في الكون من حركة وسكون، وسعادة وشقاء، وأمل وقنوط.

وسبقت الإشارة إلى أن الذاتية والوصفية يستمدان معانيهما من هذا الدفق الشاعري الرومانسي، وأن السمات العامة تكاد تكون واحدة، فهما متقاربان في وضوح شخصية كاتبهما، وفي طغيان الإحساس الذاتي، وفي وضوح أثر المشهد ودوافع القول في نفسيتهما، ثم إن الأصل في المقالتين الذاتية والوصفية عدم الخروج عن الأسلوب المطبوع، المتميز بصدق العاطفة، وسهولة المأخذ، ورقة الحاشية وسلامة اللفظ. والطبع المتدفق خير ما يرتفع بالنص من الصنعة المتكلفة إلى الانطلاق الممتع، ويختلف الأسلوب باختلاف الطبائع، وتباين

النفسيات ــ كما يذكر القاضي الجرجاني[1] ــ ولو بحثت عن صاحب التوعر، والكزازة لوجدته خشن المسلك، عسير الانقياد، على حين نجد الأسلوب السهل الطيّع من ذوي الخلق الدمث والطبع السليم، لأن الأسلوب صورة للنفسية، «وأنت تجد ذلك ظاهرًا في أهل عصرك وأبناء زمانك، وترى الجافي الجلف منهم كز الألفاظ معقد الكلام وعر الخطاب، حتى إنك ربما وجدت ألفاظه في صوته ونغمته، وفي جرسه ولهجته»[2].

ومن أهم خصائص المقالة الوصفية :

١ ــ رســم اللوحــة :

وأعني بهذه الميزة أن الكاتب الوصفي لا يكفيه حديثه عن ملامح الجمال في المشهد، ووصف ما رآه وصفًا يفيد القارىء بما أدركه الكاتب من معالم الحسن ومواطن الإعجاب فيما وقعت عليه عينه، وارتاح له ذوقه. وإنما المقصود أن يكتب الأديب الوصفي ما يجلو تلك المحاسن، ويبرزها، ويظهر أوجه الإعجاب فيها، وما تختلج به من حركة وأصوات وألوان، وما يحيط بها من بواعث المسرة والابتهاج. وكأن الواصف المقالي هنا راسم لوحة وكاتب فنان معًا، فعمل المقالي يقرب من صنيع الفنان حين يتناول ريشته ويختار من ألوانه ما يبرز نتوء مرتفع، وعلو سفح، وانحدار واد، وتدفق صيّب، وتمايل نخلات على جانبي ساقية، وخيال أحلام بعيدة تغيب خلف عناق أشجار ونخيل مرتفعات في أقصى هذا المشهد الطبيعي الخلاب. إن كاتب المقالة الوصفية الموهوب يستطيع أن يقدم لنا لوحة أكثر ثراء من هذه، وأوفر تفاصيل، وأغنى تعبيرًا، وأكثر حظًا في الإمتاع والتأثير.

---

(١) هو علي بن عبدالعزيز الجرجاني، فقيه، أديب، شاعر، مؤرخ، مفسر، خطاط، كاتب، ولي القضاء بالري في أيام الصاحب بن عباد، وتوفي بها في ١٣٩٢١٢/٢٣هـ، من مؤلفاته : الوساطة بين المتنبي وخصومه، تهذيب التاريخ، تفسير القرآن المجيد، كتاب في الوكالة، وديوان شعر. انظر : معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، ١٢٢/٧.

(٢) علي بن عبدالعزيز الجرجاني، المعروف بـ «القاضي»، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، القاهرة ط٢، ١٩٥١م، ص ٣٣.

ولأضرب على هذا مثلًا بعرض لوحات مقالية رسمها كاتبون متميزون في فن الوصف، على اختلاف حظوظهم فيه، ومبلغ إجادتهم أنواعه.

يرسم عزيز ضياء لوحة شاعرية للحظة الغروب حيث تُلقي الشمس بآخر أشعتها على سنابل القمح المتموجة المصفرة، التي بلغ بها الاستواء حد التثاقل واكتمال لون النضج الشبيه بلون الذهب الخالص من الشوائب .. فكأن المسافة بين الشمس وامتداد سنابل القمح الصفراء بحر من نُضار !!»[1].

أما عبدالقدوس الأنصاري فيرسم لوحة فيّاضة بالمعاني، دفاقة بالصور، هذه اللوحة تحوي مشهدًا مؤثرًا لليلة من ليالي المطر، والسماء تبدو في حالة تأهب للإفضاء، والسحب مضطربة داكنة، والمشهد يضيء البرق أجزاء منه بين فينة وأخرى، ويقطع السكون المنتظر جلجلة الرعد، وهزيم الرياح.

ثم يتغير المشهد، وتبدو لوحة جديدة : السماء تصب ماءها على أرض عطشى، ولا صوت غير هذا الانصباب المخيف ، ثم الأودية تتحدر من كل جانب ! وأكواخ تتهاوى، وأسقف تتساقط، وأشجار تتمايل، وحالة من الرعب والابتهاج والقلق تتخلل المشهد في جزيئاته وتفاصيله[2].

ويرسم حسين سرحان لوحة ناطقة بالبسمة والسخرية والبراءة لثلة من الصبيان دخلوا أحد البساتين، فلا يترك أثرًا لحركة، أو استجابة لالتفاتة من أحدهم إلى حارس البستان الغائب، خوفًا من قدومه، .. اللوحة : أطفال صغار أبرياء، يتقافزون في مرح غامر، وشهية مفتوحة لقطف الثمار، وحين يقتربون من البستان تبدو عليهم أمارات الرصانة والوقار، لئلا يوحي طيشهم بما يُخشى منه، وحين يأمنون عين الرقيب تعيث أيديهم الصغيرة في الثمار قطفًا وقضمًا وأكلًا، ثم قصفًا فرحًا بالفوز والانتصار !.

---

(١) مقالة : بحر النضار، وحي الصحراء الخالص من التبر..، والنضر والنضير والنضار والأنضر : الذهب، أو الفضة. انظر : القاموس المحيط، للفيروز آبادي، باب الراء، فصل النون، ص٦٢٢.

(٢) مقالة : ذكرى اليوم المطير والسيل الخطير، المنهل، ربيع الثاني، ١٣٦٠هـ.

وجزء آخر من المشهد : صورة لهروب هؤلاء الصبية حين فاجأهم البستاني، وألوان وخطوط وأصوات هروبهم كالفراشات اختفت في لمح البصر[١] !.

٢ ـ استيفاء التفاصيل :

وذلك عن طريق استخدام ما يقرّب البعيد من خصائص الصورة، ويدني النافر منها، ويؤكده بالتكرار، وتتبع الأجزاء الصغيرة بالإيضاح والشرح، وترادف العبارات، والابتداء بالجملة الفعلية لزيادة الإبانة في قوة المشهد التي يوحي بها الفعل حين يضفي أثره في الوصف، فمن هذا ما وُفق إليه حمزة شحاته من إبانة وجلاء ذاته حين أكد المعنى العام الذي أوحت به المقالة في وصف قنوطه ويأسه، والمعنى الدقيق الخاص الذي تفضي به كل كلمة في الجملة «.. فأنا وحيد مظلم النفس، أنطوي منها على ما يشبه القبر العميق المهدم .. »[٢]. فصفتا العمق والتهدم أضافتا أبعادًا جديدة للمشهد النفسي البائس. ونلحظ في المقالة الوصفية غرام كاتبها بتتابع الصفات، وما يعرف في البديع بـ «الترادف»، فالكلمة تعبر عن معنى، وتجيء كلمة ثانية أو ثالثة تعطي مدلولًا إضافيًا آخر في سياق المعنى العام، ولكنه لا يتفق بالتمام في الكلمات المترادفة، لأن لكل صفة مدلولها الخاص، واتهام اللغة العربية بأنها تميل إلى الترف في التعبير حين تجيء الكلمات المترادفة المتشابهة اتهام لا وجه له من الصواب، فاختلاف الكلمات لاختلاف المعاني التي توحي بها، زيادة أو نقصًا. ومن هذا صفتا الرصانة والوقار التي وصف بهما حسين سرحان أولئك الأطفال العابثين في البستان، فالرصانة هي الكياسة والعقل، وأما الوقار فهو سعة الحلم والأناة[٣]، وصفتا التهديد والوعيد في قوله : «ويأتي البستاني يهدد ويتوعد .. «فقدّم التهديد لشدته في الوقت الحاضر، أما الوعيد فلما يقدم من الأيام[٤].

---

(١) مقالة : الطائف في ذكرياتي، المنهل، رجب وشعبان ١٣٦٠هـ، ص٤٤٢.

(٢) مقالة هول الليل، صوت الحجاز، عدد ٢٥٥، في ١٣٥٥/٧/١٦هـ.

(٣) انظر : نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد، إبراهيم اليازجي، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٧٠م، جـ١، ص٩٦، ١٠٨.

(٤) المرجع السابق، ج٢، ص١٥٨.

ويستوفي الكتّاب الوصفيون الصفات التي تحيط بالمشهد، ومن ذلك توالي صفات الوحدة والحزن والغربة والحرمان في تشبيه حمزة شحاته نفسه بالليل[١].

أو نعته أحمد قنديل بأنه كذبة (على غير وجهها المعروف)، وكيف تكون هذه الكذبة مزيفة في هيئة آدمي، ثم صفات هذا الإنسان المتنافر، المتناقض الرث[٢].

ومن استيفاء الصورة منحها القوة في الابتداء بالفعل، إذا كان الحدث مستمرًا، ويراد تصوير حركته وانطلاقه وتدفقه، والفعل يفيد الصفة الحركية أما الاسم فيفيد الحالة التي كانت. انظر حركة السيول في الوادي وتدفقها، وحركة المصطافين والمتفرجين واندفاعهم بهذه الأفعال : «تنحدر السيول .. تصطخب أمواهه وتتلاطم أمواجه فيفيض على ما حوله .. وتجتمع المياه .. فيهرع أهل المدينة .. ويتنزهون .. وينفرد .. »[٣].

أو تلك الأفعال التي استخدمها عبدالعزيز الرفاعي في تصويره غروب الشمس، فرسم حركة اختفاء أشعتها الذهبية على سطح البحر، وتموج هذه الألوان في لوحة بهيجة ساحرة : «دلفت إلى البحر، تدعوها مياهه الدافئة .. وتخلبها .. وتشوقها .. وتعرّت .. وانطلقت .. واحتواها الماء .. وطفقت، وانبهرت، وتلاحقت، وغمغم الموج، وانتشرت غدائرها .. «وداعبها النسيم .. وتطاير رذاذ .. »[٤].

٣ ــ الصــورة البيانيــة :

يبتعد الكاتب الواصف عن الحقيقة، ويجنح إلى التأثير على قارئه بالمبالغة والتهويل فيعمد إلى تجلية الصورة بالتشبيه، وربما حذف الأداة، وأبقى ما يدل على المعنى الأصلي فكان ذلك من قبيل الاستعارة، وهي من أعلى درجات المجاز،

---

(١) مقالة : هول الليل السابقة.

(٢) مقالة : أستاذ،صوت الحجاز، عدد ٢٣٥، في ١١ شعبان ١٣٥٥هـ.

(٣) مقالة : وادي العقيق متنزه الطبقة الراقية، مجلة الجزيرة، العدد الأول، ذو القعدة ١٣٧٩هـ، ص ١١.

(٤) مقالة : على الشاطىء البلاد السعودية، عدد ١٦٤٦، في ١٣٧٤/١/١٩هـ.

وأكثرها إغراقًا في الخيال، ونسبة الشبه إلى المشبه به، وذلك لتبين الصفة المرادة، من التهويل أو المديح أو التفخيم وما إلى ذلك في المشبه به.

ونلحظ ضعف أركان المجاز في لوحات المحدثين البيانية، فعند كتّاب المقالة الأدبية المتأخرة قُرب نهاية القرن الماضي لا نجد الوضوح في الصورة، بل تختلط الحقيقة بالمجاز، ويسرف الكاتب في صنع صور مجنحة بعيدة عن الإمكان والتصور، وتقرب أحيانًا من الإحالة، كما في بعض مقالات عبدالله الجفري(١)، وصور عبدالله مناع(٢).

غير أن البناء المجازي التقليدي إذا خرج عن النمطية والاتباع الساذج يكون مؤثرًا في وجدان القارىء، ومانحًا النص أبعادًا فنية خيالية واسعة.

ومن هذا الملمح أشير إلى عدد من المجازات جاءت ـ فيما يبدو ـ عفو الخاطر وأضفت على النصوص المقالية بهاء وروعة ومن هذه الصورة تشبيه ماء الينبوع المتدفق في استقامته بعمود ممتد من لُجين(٣)، وتشبيه الحقل في قلب الصحراء بالحب الطاهر في القلب النقي(٤)، وتشبيه الأطفال بالعصافير(٥)، وتشبيه هروبهم في خفة وسرعة وانطلاق بالفراش(٦).

وتتميز أكثر هذه الصور بالعمق ووفرة التفاصيل، والصدق في المعنى، والإحاطة به فحين أراد عبدالقدوس الأنصاري رسم لوحة لتلك الليلة الممطرة، صوّر هزيم الرعد، وتلبد الغيوم، ولمع البرق، وإقبال المطر، ودوي الرياح تسوق قطعان السحب لتجري خوفًا وفزعًا(٧).

---

(١) انظر كتابه : نبض.

(٢) انظر كتابه : الطرف الآخر.

(٣) اللجين : الفضة، انظر القاموس المحيط/ الفيروز آبادي، ص ١٥٨٧. من مقالة : على ضفاف ماء، عبدالله فدا.

(٤) مقالة : بحر النضار، عزيز ضياء سبق ذكرها.

(٥) مقالة : الطائف في ذكرياتي، حسين سرحان، سبق ذكرها.

(٦) المقالة السابقة.

(٧) مقالة : ذكرى اليوم المطير والسيل الخطير السابقة.

وحين أذن الله للسماء أن تمطر صوّر الكاتب انصباب الماء بأوصاف عدة، فالسماء لها أفواه واسعة كالإنسان تفتحت لحظة الهطول، والمطر من بياض ولمعان البرق فيه استحال إلى ضوء لامع متواصل، ثم جاء بصورة ثالثة، فشبه السماء حالة اشتداد السحب وتعانقها وامتلاء السماء بها بصفيحة من النحاس مستوية تحفظ ماءها، وهنا إحاطة بالصورة من أطرافها كلها، تماسك السحب، ولونها الداكن مع بقايا ألوان أخرى مختلفة من البياض والسواد وغيرهما، ثم انصباب الماء دفعة واحدة كأن الصفيحة النحاسية انشقت فأهريق ما في داخلها كله !.

وتصوير الشمس في لحظة الغروب وهي تختفي في المدى البعيد[١]، في منتهى ما تدركه العين من البحر بالمرأة الفاتنة المتعرية التي تريد أن تستحم .. ! كما فعل الرفاعي في مقالته «على الشاطىء».

وتصوير[٢] العيون المحيطة بحبيبة الشباب الظريف في انصبابها عليها وتوالي النظر، واستمراره بالنطاق المحيط بالحبيبة الفاتنة، التي لا تتخلف العيون عنها، كما فعل ابن خميس في مقالته «فلسفة حب».

٤ ـ المحسنات الأسلوبية :

وحين تأتي عفوًا في غير مبالغة، ولا إهمال للمعنى فإنها تزيد النص جمالًا في الإيقاع والتنغيم والتناسق والانسجام.

ولا تكاد تختلف المحسنات المعنوية واللفظية من البديع في الوصفية عنها في الذاتية، لتقارب إيقاع المقالة في الأسلوب من حيث البناء وتقارب كاتبيها في نحوهم إلى الافضاء والتحليل والبوح فالمعنى فيها غير متنافر مما يدعو إلى تشابه الصورة والحلية.

---

(١) مقالة : على الشاطىء السابقة.

(٢) مقالة : فلسفة حب، فواتح الجزيرة، ص ٥٦٣.

وقد يكون التحسين من باب التشابه في اللفظة، مما يعرف بـ «الجناس» كقول حسين سرحان «وكنا نعبث ما حلا لنا العبث»[١]، وقول عبدالقدوس الأنصاري «فتبدو سماء من تحت السماء .. »[٢]، وقول حمزة شحاته «يكذب بعضه على بعضه»[٣]، وقول عبدالله بن خميس : «.. وبح بما لديك فكلنا بائح .. »[٤]، وقوله : «بل أصح ميثاق لديهم ألا يصح لهم ميثاق .. »[٥].

والطباق وهو تضاد المعنى، أو اختلاف اللفظ كقول السرحان : «كنا كالعصافير تنطلق من أوكارها خماصًا فتعود بطانًا»[٦]. وقول شحاته عن صديقه القنديل «وظاهره على باطنه .. »[٧]، وقول ابن خميس : «آه ما أظلم هذا الفوق وهذا التحت .. »[٨].

والازدواج، وهو تساوي الجمل، وتقاربها إيقاعًا وبناء، فيأتي الأسلوب مموسقًا قريبًا من التوازن كقول الرفاعي في وصف الشمس : «وطفقت تستحم، وانبهرت العيون، وتلاحقت الأنفاس وغمغم الموج، وانتشرت غدائرها الذهبية .. »[٩] وقد تميز بهذا الازدواج والتوازن عبدالله بن خميس في أكثر مقالاته، بخاصة ما كان منها ذاتيًا أو وصفيًا، وهو يميل إلى الجمل القصيرة الموقعة التي لا تزيد كثيرًا عن أربع كلمات : «.. فكلّم رفيق درب، طليح حب، وبح بما لديك، فكلنا بائح، فلست أول مغرم تعرض للوجد، وفتكت به الوجنات والألحاظ وأعملت سهامها في حبة قلبه، فاطرح الجزع وتجلد بالصبر، ووطّن نفسك على ما تلقاه .. »[١٠]

---

(١) مقالة : الطائف في ذكرياتي السابقة.
(٢) ذكرى اليوم المطير والسيل الخطير السابقة.
(٣) مقالة : أستاذ السابقة.
(٤) مقالة : فلسفة حب السابقة.
(٥) المقالة السابقة.
(٦) مقالة : الطائف في ذكرياتي، سبق ذكرها.
(٧) مقالة : أستاذ، السابقة.
(٨) مقالة : فلسفة حب، السابقة.
(٩) مقالة : على الشاطيء، السابقة.
(١٠) مقالة : فلسفة حب، السابقة.

ويزين بعضهم أسلوبه بالاقتباس من القرآن الكريم، أو من المأثور من كلام العرب، كاقتباس عبدالله عريف من القرآن في قوله : «.. ولكنه أخرج يده ــ بيضاء من غير سوء ــ .. »[١]، واقتباس طاهر زمخشري من القرآن في قوله : «لقد كان يسهل على نفسي الأمارة بالسوء أن أتحدث عن .. »[٢].

واقتباس أحمد السباعي من القرآن في قوله: «لا تأس علي يا صاحبي، وإذا كنت قد تعشقني فلا تذهب نفسك حسرات على ما حرمني الله من سعة الذهن .. »[٣].

وقوله مقتبسًا من القرآن أيضًا : «.. لئن مسنا اليوم قرح فقد مسّ آلاف الأقوام قبلنا قرح مثله، بل وأكثر منه أثرًا وأشد فداحة .. تلك أيام الله يداولها بين الناس، وتلك سنته في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلًا .. »[٤].

وقد يوفق كتّاب إلى إضفاء الانسجام والتناسق والإيقاع على مقالاتهم فتأتي مؤثرة في الوجدان بالمعنى الجيد، وممتعة للذائقة الفنية بالتوقيع والتقابل والانتظام الموسيقي.

وإذا تكلف الكاتب نسي معناه، وألحف في سبيل التزويق والتطرية، فيجيء النص فاقدًا الحسنين، المعنى، والفن !.

---

(١) اقتبس من الآية الكريمة : ﴿وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء..﴾. سورة النمل الآية الثانية عشرة.

(٢) اقتبس من الآية الكريمة : ﴿وما أُبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء..﴾. سورة يوسف، الآية الثالثة والخمسون.

(٣) مقالة : أمام الحواجز، سباعيات، تهامة ط١، ١٤٠٣هـ، جـ٢،ص ٨٢ اقتبس من الآية الكريمة : ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾. سورة فاطر، الآية ٨

(٤) مقالة : لا يجب أن نتخاذل، قال وقلت، تهامة، ط١، ١٤٠١هـ، جـ١، ص٤٧.
اقتبس من الآية الكريمة : ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس..﴾. سورة آل عمران، الآية الأربعون بعد المائة، ومن الآية الكريمة ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾. سورة الأحزاب، الآية الثانية والستون.



الفصـــل الرابــع

المقالـــة النقديـــة

أ ــ مفهـوم المقالة النقدية.

ب ــ أشهـر كتّابهـا.

جـ ــ نماذج من المقالة النقدية.

١ ــ تطوير مفهومات الأدب والنقد.

٢ ــ بين القديم والجديد.

٣ ــ معارك ومناوشات أدبية.

د ــ الخصائص الفنية في المقالة النقدية.

أ ـ مفهوم المقالة الأدبية النقدية :

قد ينصرف الذهن إلى أن المقالة النقدية هي ما جاءت تقعد للمسائل الأدبية، وتشقق للقضايا حدودًا ومفاهيم، وتنظر إلى محاسن العمل الأدبي ومساوئه فتحل ذلك حيث يكون، وتقبل الجيد وتحببه، وتبدي مآخذها على الهزيل والضعيف، فتشهرها مقومة دارسة.

وليس هذا إلا جانبًا واحدًا من جوانب كثيرة تبدو فيها المقالة الأدبية النقدية.

ويختلف النقاد في مفهومهم لها، فبعضهم رآها على النحو السالف من الصرامة والموضوعية والتمعن الدقيق في النص المنقود، فلابد أن يكون النقد علميًّا، أي قائمًا على قيم علمية نقدية يتداولها الناقدون، ويؤطرها الدارسون ثوابت في هذا الفن، ثم يأتي النقد كاشفًا المحاسن، مظهرًا العيوب «بأسلوب مبني على أساس من الإلمام بالضوابط والمعايير النقدية للفن الذي ينقده .. »[1].

ومن الحق أن نرى ذلك الجهد الكبير الذي قام به أدباؤنا في تراثنا العربي القديم وما أفاض به المحدثون من النقاد، حيث الدرس والتقويم والإصلاح، وحيث الرأي والذوق، والانطباع الذاتي عن العمل الأدبي وآثاره في نفس الناقد، ونقف كثيرًا بالدرس والتأمل أمام قسط كبير هائل من أدبنا العربي في هذا النطاق النقدي، في مختلف صور ذلك النقد ومذاهبه وطرائقه، وما قام حوله من تنظير ودرس، في سبيل إظهار الرؤية النقدية الصائبة التي تقترب منها مفاهيم النقاد، ويصطلحون على أكثر جوانبها.

وإذا قلنا إن المقالة النقدية تتضمن جوانب إبداعية في بعض الأحيان فلن نجانب الحقيقة، لأن الإبداع بعامة وحي ومضة إشراقية خاطفة، تسرق الكاتب من واقعه إلى المثال ليرى ويحلم ويخاصم ويصالح، ويرسم ما يشاء له حظه من تلك اللحظة، من حيث سعتها وعمقها وشمولها. وهي لا تواتي في كل حين

---

(١) محمد بن سعد بن حسين، الأدب العربي وتاريخه، ص٧٢.

(٢) د. عبدالقادر رزق الطويل، المقال في أدب العقاد، ص ٢٣٩.

ولا تمتلكها النفس حين تشاء، بل هي محط الصدفة حينًا، أو وفق المنبه المثير من أمور الحياة وتداعيها، فهي ليست من الكثرة التي يصيبها كل إنسان، وإلّا لكان أكثر الناس كاتبين موهوبين، وشعراء وقصاصين، بل ورسامين أيضًا وموسيقيين، ومالكين لأنواع الفنون القائمة على مثل تلك اللحظة الإشراقية المبدعة.

ولكن النقد يجمع إيحاء لحظة الإبداع الوامضة، وتصور العقل وحُكمه على الأشياء، فليس النقاد كلهم يمتلكون ما يحظى به المبدع الأول للنص من إشراق الصورة، وفيض الإفاضة والتجديد، بل إنهم ينظرون إلى هذا النص من وجهات نظر مختلفة، يسيّرون إليها نفوسهم لتراها وتتفحصها، ويدفعون إليها الرأي إثر الرأي في سعة من الأمر، وبصر بقوانين النقد وقيمه المصطلح عليها.

فحظ العاطفة في النقد قليل، ونصيب العقل والعلم كثير، والجانب الإبداعي الضئيل يتوافر في توافر هذا القليل من العاطفة في المقالة الأدبية النقدية.

ونحن لا نذهب إلى مايكتبه النقاد المتجردون من عواطفهم، الذين لا يرون إلّا قوانين ومقاييس لا يتم النظر إلى العمل الأدبي بها، دون وحي من ذائقتهم وقبولهم لذلك النص أو تلك القضايا أم لا !.

فذلك النقد علم سمته الموضوعية والتجرد، والبحث الدقيق عن مصطلحات النقد وتطبيقها في صورة مثلى غايتها الوصول إلى الحكم على مابين يدي النقاد من جوانب في العمل الأدبي تستحق منه النظر المتزن الهادىء، والتبصر في إطلاق رأيه النقدي عليها(١).

وحقيق بمثل هذا أن نصنفه في أبواب العلم الواسعة، لاستفادته من مذاهب شتى في الفلسفة، وعلم الجمال، والأخلاق، والنحو، ومدارس الكلام، وأساليب

---

(١) انظر مثالاً للمقالة النقدية العلمية :

مقالة : مع ابن خلدون في مقدمته، عبدالقدوس الأنصاري، المنهل، عدد جمادى الأولى ١٣٧٤هـ.

مقالة : مظاهر التجديد في شعر أبي تمام، محمد حسن عواد، المنهل، عدد صفر ١٣٦٧هـ.

الصياغة، وربما خلط الناقد ما تقدم في شيء يسير من العاطفة المتخفية.

على أني لن أطيل في تتبع المقالة النقدية العلمية، لأنها ليست منضوية في درسنا هذا حسبما يصوره التحديد الآتي لمفهوم المقالة الأدبية النقدية، وإنما أعني بإبانة بعض ملامح المقالة النقدية والمقالة النقدية العلمية لما بينهما من مسافة ضيقة ولالتقائهما في مناحي مختلفة، من ضرورات النظر إلى الفن وامتلاك أدوات الناقد وملكاته المعينة على تحقيق غايته.

بقي أن ألتزم بالشرط الآنف الذكر في تعداد صفات النقد الأدبي المقالي وهو وضوح عاطفة الناقد، وأضيف إليه تبيّن خاصته الذوقية، وبروز شخصيته في كل ذلك فكأنه يسخّر مكاسبه العلمية، وما حصله من نظريات، أو وقف عليه من معارف مع ما لديه من حسن ذوقي رفيع، وملكة فنية في سبيل صياغة رؤيته النقدية التي تجيء بين العلم والفن، وبين الرأي الذاتي وقوانين النقد، وبين العاطفة الجامعة وتقييد البصر العقلي.

وإذا ذهبت إلى أن العاطفة في كل ألوان المقال الأدبي ركيزة مهمة، فإنني لا أعدو حقيقة الفن، ولا أنسى مقاييس الإبداع، والمقالة الأدبية لا تقل في كثير من جوانبها عن النصوص الإبداعية في الشعر والقصة إذا التزمت بشروط المقالة من الطبع والموهبة والعفوية والصدق وامتلاك أدوات الكتابة. أي أن العاطفة إذا كانت واضحة في المقالة فإنها تدنو من العمل الإبداعي، وتحقق نسبة كبيرة منه.

فالمقالة الأدبية النقدية هي التي يسعى بها كاتبها إلى إبانة رؤاه في مسألة أدبية، أو ما يقبله ذوقه أو يمجّه في نص إبداعي، فلا يخرج ذلك عن طبعه العفوي، وعاطفته الجياشة، مصوّرًا ذلك في أسلوب فني متدفق، لا يعوقه جفاف الحقائق العلمية أحيانًا، ولا إطالة الوقوف أمام ما يستدعيه النقد من تبصر وأناة، فالكاتب المقالي الناقد يبدع النص مرة ثانية في شيء من التفصيل، وإبانة التذوق لأوجه الكمال والنقص في النص الأدبي، «ويكون هذا النقد أدبيًا عندما يتناول الأديب أثرًا أدبيًا وصفيًا فيحلله ويقوّمه، وقد يكون هذا النقد خلقيًا أو شخصيًا عندما يعمد الأديب إلى شخصية أثارت إعجابه أو اشمئزازه فأظهر ما فيها من

حسنات أو عيوب بأسلوب فكه أو ساخر أو جارح حاد .. »[١].

ويطلق بعض الدارسين كلمة «النقدية» على المقالة في معالجات مختلفة لقضايا اجتماعية وسياسية وأدبية وغيرها، فتختلط بهذا المفهوم أغراض متعددة للمقالة، ولا يُعرف النقد في الأدب من سواه في ظل هذا المسمى.

على حين يجب أن يكون المعني بالنقد الأدبي الأدب وقضاياه، فإذا أطلقت المقالة النقدية الأدبية لا يلتفت الذهن إلّا إليه. ويدخل النقد الإصلاحي الاجتماعي وما شاكله في المقالة الاجتماعية، وهي باب واسع يستغرق كل مايتصل بالمجتمع من نقد وإصلاح وسعي إلى التغيير إلى الأقوم والأفضل من طرائق الحياة ومذاهبها، وهكذا يلحق كل نقد بجنسه الذي يندرج فيه.

فأنا أعني بالنقد إذًا ما يكتبه المقاليون من نقد للأعمال الأدبية، أو لبعض مفهومات الأدباء وأساليب تعبيرهم في أدبهم، أو لقضايا الأدب، وما يصطرع حول ذلك كله من آراء، وأخذ ورد، وفورة وخفوت صوت، مبقيًا لنا بعد المماحكات والمناورات والمواجهات المختلفة زادًا من المقالة الأدبية النقدية الفياضة بمعاني الشخصية الوثابة الساعية إلى بثّ الرأي، وإشاعة الذوق الفني، وكشف مغاليق النصوص.

وليس من قبيل المبالغة أن نلحظ زخم النتاج المقالي النقدي في أدبنا السعودي فنعده الجانب الأكبر والأوسع لميادين الكتابة، في فترات طويلة من زمن هذه الدراسة.

فالكتابة النقدية تحظى بالنصيب الأوفر في أدبنا المقالي، تليها الكتابة المقالية الاجتماعية.

وقد شكا بعض المحررين من إقبال الناشئة في أواخر العقد الخامس على

---

(١) علي بوملحم، في الأدب وفنونه، ص١٧٠، وانظر للنقد الذاتي مقالتي حسين سرحان، ذيل الطاووس، البلاد السعودية، عدد ٦٨١، في ١٣٦٧/١/١١هـ. ص٦، والصياد والسمكة، البلاد السعودية أيضاً، عدد٦٩٣ في ١٣٦٧/٤/٦هـ، ص١٣.

الكتابة في الأدب ومسائله وعدّ ذلك مفسدة لهم وللأدب، مما أشرت إلى طرف منه سابقًا[١].

وإذا كانت المقالتان الذاتية والوصفية يلزمهما حضور العاطفة، وتوافر الداعي للكتابة، وصيد اللحظة الملهمة القول، فإن المقالتين النقدية والاجتماعية أقل من سابقتيهما حظًا في هذا السبيل، فهما في حاجة إلى عاطفة فياضة، ولكنها ليست الباعث الأول للكتابة، فمعها أسباب أدبية واجتماعية أخرى قوية، تتعاون معها لانجاح المقالة، واكتمالها. ويبقى للعاطفة نصيبها المسلّم به في صنع العمل الأدبي، وصياغة البعد الفني فيه.

فمشاركة الكتّاب السعوديين في النقد الأدبي المقالي مثار تساؤل وعجب، ولو أردنا أن نفرد دراسات متعددة لقضية النقد في الأدب السعودي لما وسع ما أردناه فيض الكتابة النقدية، واختلاف منازعها، وتشعب طرائق الكتابة فيها، وما أحدثته من حركة وإنماء لمفاهيم أدبية كانت منكورة، أو منسية. ثم ما أضافته إلى تاريخنا الأدبي من محاورات ومعارك ومصاولات أثرت الصحافة، وأشغلتها، ورفعت لواء الأدب عاليًا في مزاحمة العلوم الأخرى.

والخلاصة أن المقالة الأدبية النقدية قد تحوي جوانب إبداعية مختلفة، إذا توافرت فيها الشروط السابقة، من العاطفة، والطبع، وامتلاك أدوات الكتابة، ولكنها تختلف عن المقالة التنظيرية العلمية، لأن المقالة الأدبية النقدية لا تلتزم بالضوابط والمعايير التي يلتزم بها المنظر للنقد تنظيرًا علميًّا.

والناقدون مختلفون في مرجعيتهم العلمية، فبعضهم يعتمد المنهج النفسي، وبعضهم يتكىء على التاريخ، وبعضهم ينظر إلى الواقع، وبعضهم يهوّم وراء الرمز و «اللامعقول»، وبعض الناقدين يستوحي العاطفة، ويُصنف مع «الرومانتيكيين» الذين ينظرون إلى ذات المبدع، ووضوح شخصيته، ويسعى آخرون إلى المدرسة التي تتبع الرؤية التكاملية في النقد، وهو الذي يأخذ من هذه المذاهب وما يتطلبه النص المنقود، وما يستدعيه الحال.

---

(١) جاء ذلك في الفصل الأول من هذا الكتاب، تحت عنوان : مظاهر المقالة الأدبية، الجزء الأول.

ونجد أن أقرب الاتجاهات النقدية إلى المقالة الأدبية هو ما اعتمد على «الانطباعية»، أو التأثرية، وتبينت فيه شخصية الناقد، ولم تختف كثيرًا خلف الحقائق العلمية الجافة، والسرد المعرفي أو التنظيري(١).

ولا نهمل أيضًا مقالات كثيرة سعى فيها كاتبوها الناقدون إلى تحقيق بعض غايات عدد من المدارس الأخرى في النقد غير أنها لم توار ذوقهم، ولم تخف ملامح الإحساس الفني لديهم، فكتبوا مقالات نقدية فيها نقد على الدرس اللغوي حينًا، وعلى التماس ومضات الجمال حينًا آخر، وعلى استكناه البعد النفسي في أحايين أخرى، ولم نُخرج إلّا ما كان درسًا علميًّا تنظيريًّا في النقد على شاكلة البحوث الموضوعية المتجردة فهو إلى أبواب العلم أقرب كما سلف.

ويهمنا ــ أدباء وعاشقين لجمال الصياغة، وروعة البوح ــ أن نتلمس مواطن الإحساس بالجمال، ومواضع التأثر به، ومكامن الحدس الذاتي المستفيد من العلم ومن التجربة ومن كل شيء، والمنهل بين يدينا من كاتبيه نقدًا أدبيًّا فيه جمال، وفيه صدق، وفيه علم، ثم فيه رؤية يريد كاتبها أن يبعثها إلينا في هذا السياق الجميل.

ونجد من النقاد البارزين الذين كان لهم نشاطٌ أدبي مؤثر محمد حسن عواد، وأحمد عبدالغفور عطار، وعزيز ضياء، وعبدالقدوس الأنصاري، وحسين سرحان، وإبراهيم هاشم فلالي، وعبدالله بن خميس، ومحمد بن سعد بن حسين، وعمران محمد العمران، وغيرهم.

ولكنني أختار من كتّاب المقالة النقدية الكثيرين ثلاثة منهم، مختلفين في كتابتهم المقالية أسلوبًا، ومختلفين في طريقتهم النقدية منهجًا، فأحدهم كان ثائرًا بالغ الثورة وهو العواد، والآخر يميل إلى الرصانة في الأسلوب، والتعلق بالقديم وهو العطار، والثالث يجمع بين القديم والجديد، ويتبع الإشراق في الأسلوب، مأخوذًا برغبته في التميز الفني وهو عزيز ضياء.

---

(١) انظر في مدارس النقد : الدكتور رشاد رشدي، النقد والنقد الأدبي، دار العودة، بيروت، طـ١، ١٩٧١م، والدكتور عزالدين إسماعيل، الأدب وفنونه، دار الفكر العربي، صـ٦، ١٩٧٦م.

ب ــ أشهر كتّاب المقالة الأدبية النقدية :

يحكم عملية الاختيار للأشهر في هذه الفقرة من كل فصل عوامل عـدة، منها التميّز، والإسهام الجيد في فنون المقالة، ووضوح الشخصية في كل ذلك، وهي صفات تجتمع عادة في الرواد من كل فن.

وإن اختيار من يشير إلى الظواهر الأدبية السائدة في عصره يغني كثيرًا عن ذكر غيره من المشابهين أو التابعين، أو غير المتميزين.

وقد أسهم في كتابة المقالة الأدبية النقدية كثيرون كان لهم حظٌ من التوفيق في كثير من المسائل، وفي أوجه مختلفة من إشراق الأسلوب وجودة المعالجة، وصدق العاطفة، وغيرها. كالفقي، والآشي، وكتبي، وسيف الدين عاشور، والفلالي، والسرحان، والعامودي، وأحمد قنديل وغيرهم، إلّا أنهم برزوا أيضًا في جوانب أخرى من كتابة المقالة، واختياري العواد ــ رغم ريادته الاجتماعية أيضًا، والعطار، وضياء ليس إلا رغبة في تمثل البيئة النقدية المقالية التي نتصورها في أكثر ما يذهب إليه هؤلاء الثلاثة، ولأن هذا الدرس الذي نحن بصدده لا يستقصي ولا يلاحق كل ما ورد في باب المقالة، أو من كتب فيها، فهذا أمر يشق ويكاد يكون من المستحيل على فرد واحد القيام به. إذ أطمح ــ والحالة هذه ــ أن أقف على أبرز الظواهر، وأبرز الكتّاب، وأكثر القضايا شيوعًا وذيوعًا.

ومن المفيد أن يكون التتبع الدراسي هنا في تأمل شخصية المقالي، والنظر في مصادر ثقافته، ومناحي تفكيره، وأبرز ملامح رؤاه الأدبية وبخاصة في الباب الذي يندرج فيه.

١ ــ محمد حسن عوّاد

نشأ العواد في بيئة تتنازعها عوامل التخلف، وأسباب الركود، وأنماط من العادات المستحكمة في التفكير والسلوك، وتلقى معارفه الدينية والأدبية في وحي

من هذه البيئة فاكتسب قيم التعليم التقليدي، ولكنه مطبوع على الاستقلال في الفكر فأخذ يبحث في حصيلته الثقافية التي اكتسبها من هذا التعليم، وفي القيم العامة من حوله، عن الجيد الصالح منها للحياة، والذي يقبل النماء والتطويع فيركن إليه وينافح عنه، ثم يولي وجهه شطر البقية من هذا التفكير فيعيد فيه النظر حتى إذا اطمأن إلى رداءته وجموده وتثبيطه أصلاه نار نقده، وصوّب إليه معول الهدم يعمله فيه حتى يقضي عليه ولا يدع الفاسد من ذلك ـــ حسب رأيه ـــ حتى يطمئن إلى سماع رأي الناس المؤيدين له من الشبان فيه.

وقد يكون لعصاميته في حياته، وعمله في دائرة مراقبة الكتب فترة من الزمن، وطبعه المستقل أثر في هذا التوجه النقدي المتميز.

ولا شك أنه ـــ في أقرانه ـــ غير مسبوق إلى ما أحدثه من آثار إيجابية في الحياة الأدبية والفكرية، وفي زمن مبكر من نهضة البلاد، ولعله أحد الأقلام التي ساعدت على التفكير بأخذ أسباب الفكر الجديد في الأدب والمجتمع.

وقد توافر في شخصيته ما أهّله للقيام بمهمته التغييرية الجديدة، من الطبع الحاد الثائر، والاستقلال في التفكير، والاطلاع المبكر على ألوان مختلفة من الآداب العربية والأجنبية، وإحساسه الذاتي الناضج بضرورة التحول، والتزامه برسالة الكلمة في تهيئة المناخ لمثل هذا التحول، ثم وقوفه صامدًا في مواجهة أعاصير النقد العاصفة التي استقبلها من معارضيه، ممن يميلون إلى المحافظة، وتأسي القديم، والاعتزاز بالتراث، أو محبي السائد والخائفين من الجديد.

وإن من يملك شيئًا من تلك الصفات لحقيق بالريادة، وجدير بأن يُنظر إلى عطائه في شيء من التقدير والاعتراف بالفضل.

ولولا أن العواد أخذته في نزعته الثورية هذه نوازع الصلف وشبوب العاطفة، والمبالغة العنيفة في الصدام لكان من المفكرين الصامدين المحافظين على منهجهم ورؤاهم الأدبية والفكرية.

ثم إن العواد اهتم كثيرًا بالأفكار من حيث قيمتها الحضارية، وقابليتها للحياة،

ونسي أن الفكر العظيم لا بد له من هيئة تليق به، وتنقله إلى الناس في ذلك الأسلوب الأدبي السلس المؤثر، الذي يقربه إلى القراء، ويقنع به المشككين، ولكن اهتمامه بالفكرة من حيث هي طغى عليه، فلم يلتفت إلى الشكل الفني للعمل الأدبي، وأهمل التأثير عن طريق اللغة الجميلة، واللفظة الموحية، والتناسق في الموسيقى، والتوازن في الإيقاع.

منهجه النقدي وبعض أفكاره :

لم يَبْدُ على العواد مظهر من مظاهر التأثر بما قرأ من آداب المهجريين والمصريين، والمترجمات، إلا في النزعة التجديدية، وفي مباشرة الفكرة، وصلفها ــ كالعقاد ــ وكاتبنا يدعي أنه أخذ بأسلوبه، وتتبع نهجه النقدي، والحق أنه أشبهه كثيرًا في قسوة الأسلوب، «وشدة الطبع وحدة المزاج والمبالغة في الاستخفاف بالخصوم .. »[1]. ولم تلن شخصية العواد النرجسية لمذاهب الكتابة وطرائقها عند من قرأ لهم فيكتسب من جيدهم سلاسة في الأسلوب، ورقة في الحاشية، وسماحة في الطبع .. وهي سمات تقل كثيرًا في أسلوبه. بل أزرى على من قلّد، وعاب من اعتنى بأشكاله الفنية، وراح وراء التزيين والتطرية والتنغيم، فعدّ هذا عيبًا شنيعًا في الموهبة، وخواء في الذهنية، يستره السعي نحو الزخرف.

ولكن العواد نسي أن الطبع والسليقة والموهبة الحقّة غنية بالممتع من اللفظ السهل المشرق، وثرية بأشكال البيان المؤثر الجميل، الآتي عفو الخاطر، يستدعي المعنى، ويتلاءم حينئذ الشكل والمضمون.

ولأن العواد أميل إلى العقل يضعف لديه الجانب الفني، أو كما قال عبدالوهاب آشي عنه إنه «أسلوب من يفكر فيما يكتب لا من يفكر في كيف يكتب»[2]. فالموضوع لديه هو الأول والباقي مكمل له، وكأنه يعتقد بفوزه في

---

(١) محمد بن سعد بن حسين، الأدب الحديث، تاريخ ودراسات،ص ٣٦٨.

(٢) مقالة : الخواطر وملاءمتها لروح الحالة النفسية في الحجاز، عبد الوهاب آشي، مقدمة كتاب خواطر مصرحة. مؤرخة في ٢٧ صفر ١٣٤٥هـ. انظر : الأعمال الكاملة للعواد، مجلد١، دار الجيل للطباعة، مصر. وانظر الفوزان، جـ٣، ص ١٣٣٨.

مهمته التوصيلية حين يحيط بجوانب الفكرة، فيمتلىء بها، ثم يدفعها إلى القرّاء في عنفوان تفكيره فيها غير ناظر إلى وسيلته في هذا الإيصال وهي الكتابة الفنية. ومن المؤكد أنه يعتقد أن الاهتمام بالشكل غير مجدٍ، وأن سمو الكاتب في الارتفاع بمعانيه، ولذلك ضعف الجانب الفني لديه، ولو وعى هذه الحقيقة كاملة لالتفت إلى المدرسة البيانية المشرقة يصغي إليها، ويمتع مزاجه الفني بسلاستها وعذوبتها، ويسعف خياله وصوره ومعانيه، مايراه دافعًا له إلى التجويد والتأثير.

ولأنه يميل إلى التفكير والتأمل الذاتي ــ كما يرى عبدالله عبدالجبار ــ قلّ أن تجد فيه شعورًا أو انفعالًا[١].

ولو عمدنا إلى موازنة يسيرة بينه وعبدالوهاب آشي ــ في المقدمة التي كتبها لخواطر مصرّحة ــ ومقالات العواد المختلفة لتبينّ كيف يفكر العواد، وكيف يكتب، ثم كيف ينحو نحوًا خاصًا غير متشابه.

ونلحظ ــ في البدء ــ تفاوت أسلوب الرجلين، المقدِّم والمقدَّم له، فالآشي يلتزم بنهج المدرسة النثرية القديمة، ويجتهد في محاكاتها، من حيث السلاسة والرشاقة وتناسق اللفظ وتجانسه في قوة، بينما ينحو العواد إلى التجديد، وعدم الاحتفاء بالتجويد في فن الكتابة، ولو أراد ذلك لما أدركه «فكأن سجيته تأباه وتقلوه»[٢].

والملاحظ على نقد الآشي للعواد الالتزام بنهج القدماء، وميله إلى القديم، إذ لا يعجبه من العواد انصرافه عن الماضي إلى الحاضر، وإقباله على الغرب ومديحه لهم، وافتتانه بكل جديد، «كان الأحرى بالأستاذ أن يرجع بنا إلى ما كان في عهد أجدادنا الغابرين أساتذة العالم ورواده في ميادين العمل الصحيح، والمدنية القويمة، ففيه الغناء عن ذكر أي مفخرة يجب أن تُحتذى بعده»[٣].

---

(١) انظر : التيارات الأدبية، ص٢٩٢.

(٢) مقالة الآشي السابقة، المقدمة.

(٣) مقالة الآشي السابقة.

فالعواد يذهب إلى الإعجاب الكامل، والآشي يريده أن يعتدل في إعجابه ولا يسرف في وجهته نحو الغرب، وأرى أن الاثنين مبالغان، والأمر المقبول الأخذ من تراثنا ومن إنجاز الحضارة المعاصرة ما يزيدنا ثراء وتجاوزًا.

ولكن الآشي يتفق مع العواد في هجومه على «المحافظين الرجعيين من المتدينين[١]» إذ يعيب عليهم لومهم أصحاب التجديد، ورميهم الشباب بالسيء من القول اعتقادًا منهم «أننا مرقنا من الدين وتجاوزنا حدود اللياقة الأدبية معهم»[٢].

ولا يتفق العواد مع أولئك التقليديين الذين يكدون أذهانهم في سبيل التزيين والمقابلة والإيقاع المفتعل، وهذا الفريق سيأتي «زمن تُزجي فيه بضاعتهم، ويقف سوقهم»[٣]، كما يقول الآشي.

ولو تأملنا حال الأدب اليوم لوجدنا أصحاب المدرسة التقليدية القديمة الراكدة ليس لهم شأن في إبداع أدب يؤثره الناس ويصطفونه، بل إن المتلقين الأدب الآن يقبلون على السهل المجوّد، البعيد عن التكلف والعنت.

ولعل الآشي أُخذ بروح هذا الشاب الجديد المتدفق حياة وعطاء، وألقًا، فتناول منه هذا الجانب يذكيه، ويبرزه للناس، ويمجد روحه وانطلاقه، ولكنه لم يشأ أن يضع معول النقد في الشكل الكتابي للعواد، وإلّا لقسا أشد القسوة على الصورة الأدبية، وكيان الأسلوب العام، من اللفظة، إلى الترابط، إلى النسق السياقي في الجمل، وهو مأخذ يلاحظه دارس أدب العواد، فاكتفى الآشي بالإشارة إلى اعتناء الكاتب بالمعنى دون اللفظ وعذره أنه خلق هكذا ـــ كما قال ـــ حتى لو أراد غير ذلك لم يستطع.

---

(١) المقالة السابقة.

(٢) المقالة السابقة أيضاً.

(٣) المقالة نفسها.

العـواد في ميـزان النقـد

يرى بعض النقاد أن العواد كان مسرفًا في «الصلف والعنف والتحامل على مجتمعه، ظنًّا منه أن هذا أفضل سبيل لإيقاظ المجتمع وتجديد ما اخلولق من عاداته وتقاليده»[1].

وأرى أن العواد يمكن أن يلام بعض اللوم على اندفاعه الشديد في نقده الأدبي والاجتماعي إلّا أنني ألتمس له بعض العذر، حين أقبل على الوهم والجمود يهدمهما، أو التقليد الأدبي ينقضه، أو العادة الاجتماعية السيئة يسفهها، والذي كان يدفعه إلى هذا النهج أو قريب منه ماكان يحيط بالمجتمع من مفهومات متخلفة في بعض جوانب الحياة، فهو لم يكن مخطئًا في بعض ما ذهب إليه، لأن الأدب كان في حاجة إلى من يعيد بناء مفاهيمه، ولو التزم الهدوء، وآثر النغمة المسالمة المتعقلة لما كان مفعول هذا الصلف النقدي الهادر.

يمكن أن يعاتب الكاتب على إسفافه في النقد الشخصي ــ كما سيأتي ــ وعلى ارتفاع صوته في مواجهة خصومه، بيد أن إقباله على التجديد، وسعيه إلى التحديث، وولعه بنقض القديم، وتأسيس العصري كل ذلك تحسبه له الأجيال، فهو حقيقة زعيم الثورة الأدبية[2]، ومدرسته النقدية أجرأ[3] المدارس وأكثرها توفيقًا إلى المواجهة والخصومة والإثراء الفكري والأدبي.

أما اعتداده بشخصيته، وإحساسه المفرط بوعيه الفكري، ونرجسيته فلا يقلل من نقده، إذ يلزم الناقد المواجه لتراكم التخلف بأنواعه قوة في الشخصية، واعتداد بالنفس، وسعي إلى تمثل أسباب العزة والمنعة، وقد رأى العواد في الكبار من القواد، والعظماء من المفكرين قدوته ومعلميه، ولو كان ضعيف الجانب، خائر القوى، قليل الثقة بوعيه لما استطاع أن يصمد في مواجهة الحملات الشرسة

---

(١) د. محمد بن سعد بن حسين، الأدب الحديث، تاريخ ودراسات، ص٣٦٩.

(٢) د. إبراهيم الفوزان، الأدب الحجازي الحديث، ص١٣٤٠.

(٣) مقالة : دراسة في الأدب المحلي، حركة النقد الأدبي، د. عبدالله الحامد، مجلة اليمامة، عدد (٨٤)، في صفر ١٣٩٨هـ، ص ٣٧.

العنيفة التي قوبل بها.

ونون التفخيم المصاحبة له حين يريد إبداء رأيه ليست إلا شعورًا مفرطًا بالريادة، وطلبًا لحقه في نيل الأسبقية إلى التحديث والإحساس بضرورة التغيير، وكأنه في بعض مقالاته زعيم مدرسة، أو حامل دعوة أو معلم لمنهج جديد في الحياة، يندفع إليه بوحي من ذاته المستقلة، وتشجيع من تلامذته وأنصاره، وربما خصومه أحيانًا على غير رغبة منهم.

أما أسلوبه فقد قدمت أنه لم يكن في مستوى فكره الطليعي، ووعيه المتقدم، ولقد خانته الموهبة الفنية في إيصال شعلة الفكر النيّر الجديد في بعض ما دعا إليه، في مجتمع مصاب بالعشى وخور العزيمة.

٢ ـ أحمد عبد الغفور عطّار

تصدى العطار في وقت مبكر من تاريخ النهضة الأدبية للدفاع عن الأصالة، والذود عن التراث العربي، ووقف في وجه الدعوات الرامية إلى التقليد لصور التحديث في الشعر وألوان الأدب الأخرى، وفي الفهم الثقافي لأنماط من الرؤى والمفاهيم الفكرية والاجتماعية.

وهذا الموقف النقدي الذي اتخذه من الجديد دفعه إلى الدخول في مناوشات أدبية، وجرّ عليه سخط كثيرين من الأدباء والداعيين إلى التجديد، وإلى اتباع ما يبتدعه القادرون من أدباء العصر من إضافات حديثة في الفنون.

وقبل أن أعرض لمواقفه النقدية بعامة يحسن أن أتتبع مصادر ثقافته، التي هيأته أن يكون على هذا النحو من الميل إلى الأصالة، فقد كان يعد نفسه لأن يكون عالمًا في الدين، وفقيهًا في الشريعة فاتصل بعلوم الفقه، وقضايا المذاهب، متأثرًا بما كان يشغله أبوه من تدريس لهذه المسائل في الحرم المكي الشريف.

ولكنه وجد ضالته في الدراسات اللغوية والأدبية فأقبل على مصادرها الأولى يقرأ

كل ما وقع تحت يده منها، وما كان يتخير ما يقرأ، بل كان نهمًا ـــ كما يذكر ـــ يقرأ كل ما تصل إليه يده(١).

ثم قرأ كتب المحدثين من أمثال المنفلوطي، والرافعي، والعقاد، والمازني، وطه، والزيات، وهيكل وغيرهم، «وكنت أقرأ مجلات تلك الأيام كالهلال والمقتطف والرسالة والجرائد اليومية التي كانت تحرص على الأدب حرص صحف اليوم على أخبار الجرائم وقصص الممثلات»(٢).

وأقبل على القراءة في كل الفنون، الرواية، والشعر، والنقد، والأدب الشعبي «كنت أقرأ أربع عشرة ساعة، ومع ذلك أشكو الفاقة في الزمن .. »(٣).

وغني عن البيان أن الأديب يستفيد من كل مايقرأ، ويخزن عقله ووجدانه تأثره بهذه القراءة، وربما لا يبين الأثر المحدث في العقل والوجدان إلّا بعد حين، وفي فترة يشتد فيها عود الكاتب ويقوى ليكتشف أبعاد نفسه، وعمق حصيلته، وقوة تأثره بالأشياء والأفكار، والعطار يذكر أنه قرأ كل شيء واستفاد منه «وكل ما قرأته أثّر فيّ، حتى نوادر جحا وقصص رأس الغول وعنتر وسيف بن ذي يزن وحمزة البهلوان .. »(٤)، ولكنه يذكر أن أحب الكتب إلى نفسه هي التي «يتوفر لها الامتياز العقلي والفني والجمالي»(٥).

وفي مقالته «طلاق الكتب»(٦) تهويم شاعري بالكتاب، وعتب عليه وعلى الحياة، فهو يرى أن الكتب قد جرّت عليه ويلات كثيرة، وأصابته بالفاقة، وحرمته من الاتصال بالناس، وأرته أن الفضيلة مثال جميل لكنها ليست في الواقع، وسخر منه القوم على صحبته الشديدة للكتاب «لأني لا أكاد أُرى بدون كتاب أينما

---

(١) مقالة : أسئلة أدبية، أحمد عبدالغفور عطار، كلام في الأدب، المؤسسة العربية للطباعة، جدة، دون ذكر سنة الطباعة، والمقدمة كتبت عام ١٣٨٤هـ، ص ٣٨.

(٢) المقالة السابقة : المصدر نفسه، ص ٣٨.

(٣) المقالة السابقة أيضا، ص ٣٩.

(٤) مقالة : الكتاب الذي تأثرت به، العطار، كلام في الأدب، ص٩٧.

(٥) مقالة : أسئلة أدبية، كلام في الأدب، ص ٣٩.

(٦) انظر كتابه : المقالات، شركة استاندرد للطباعة، ١٣٦٦هـ، ط١، ٣٦.

كنت، فهو ضروري لي كثوبي أو عباءتي أو قلنسوتي، وأنا أحوج إليه مني إلى الطعام»[١]، ويعقد عزمه على طلاقها، وتجنب السحر النافذ الغريب الذي تبعثه في نفوس محبيها، وليسلك الطريق مع القافلة، «فالمساواة في الشر خير من التفرد على الحق»[٢].

وهي والحق كلمة صراح في عبودية القارىء الكتاب، وتمثله مبادئه، وبحثه عن المدينة الفاضلة، وحرمانه من أشياء الحياة العادية، ولكنه الولع، والبحث عن المجهول، والسعي وراء التفرد والتميّز، وكاتبنا قد أخلى يديه من هذا السعي، وآمن أن الحياة المادية خير من حياة خيالية «فوداعًا أيتها الكتب .. لست أدري أَلِيَ رجعة إليها مرة أخرى فأنكب عليها كما ينكب المفارق المعمود على وجه معشوقه لثمًا وتقبيلًا ؟»[٣].

ولم هذا الطلاق البائن — كما يزعم — ؟.

يجيب الكاتب في إشفاق وحرقة «استعبدتني وأنا من شيمتي الانطلاق والتحرر، حرمتني لذة الحياة الدنيا بمتعة يلتذ بها الخيال ويرضى بهذه القسمة ولا يشعر بالغبن وإنما يحسب أنه الرابح المقرور : أخذت مني ضوء عيني ونضارتي وبلهنية عمري وألقت بي بين براثن المرض والسهر أتململ وأهتف بالأماني والأحلام الذهبية، قد تلاشى ذلك السحر والجو الحالم واصطدمت بالواقع فإذا الكتب تشق طريقًا آخر، أفلا أتهمها بامتطاء الفرية وتزيين الكذب وسوقه في ثوب قشيب ؟!»[٤].

إلا أنه لم يبر بوعده، فلم يبرح مكانه من الكتب، ولم يزدد إلا تعلقًا بها.

---

(١) المقالة الأدبية.
(٢) المقالة السابقة أيضاً.
(٣) المقالة نفسها.
(٤) المقالة السابقة.

مواقفــه النقديــة :

لأن كاتبنا يعشق التراث، ويفنى في الماضي وجد لزامًا عليه أن يواجه حملات كثيرة على الأُصالة العربية، وعلى القيم العامة التي توحي بها الأُصالة وتحبذها.

وهو هنا متأثر إلى حد كبير بالعقاد في معاركه الأدبية التي خاضها، فقد حاول العطار أن يكون عقّادًا ثانيًا، وأفلح في جوانب ولكنه أخفق في أخرى.

فقد نجح في مقاومة الخارجين على التراث العربي ــ كما يذكر ــ وأصاب حقائق كثيرة في رده عليهم، وعلى المتنكرين لقيمهم، وعلى المدعين الأدب من غير أن يكون لديهم استعداد لحمله والإبداع فيه. ونجح في تكوين أسلوب إنشائي خاص به، يتميّز بالقوة والجزالة، والعمق، وهنا يكاد يفوق صاحبه العقاد، ومن حيث الجانب الفني الجمالي في الأُسلوب، على حين لم يلحق به في ثقافته الموسوعية الواسعة، وفي تعدد مهامه الكتابية، فالعطار قصر قلمه على التحقيق، والكتابة المقالية النقدية، وترجمة بعض القصص، ولا يُخفي تأثير العقاد عليه، وعلى تفكيره، فهو يقول: «.. يدفعني الحق إلى أن أذكر أن العقاد هو الكاتب العربي الفذ الذي تأثرت به كثيرًا. والعقاد ــ في نظري ــ هو كاتب العربية في هذا العصر، لأن كتبه التي تجاوزت السبعين خلاصة الثقافة الإنسانية وهو نفسه موسوعة ضخمة تتضاءل بجانبها الموسوعات الآدمية الكبيرة»[1].

وهذا التأثير لم يكن غريبًا حينذاك ــ وإن كان يكرهه بعضهم، وينكره آخرون ــ فقد حاول حسين سرحان أن يكون المازني في سخريته، وسعى عزيز ضياء إلى التشبه بطه حسين في أسلوبه ونقده وثورته، وهذا العطار يجتهد أن يأتي في الفكر بمثل ما جاء به العقاد.

وقد أشرت إلى أن التأثر والتأثير نتيجة طبيعية بين الأمم والشعوب، فكيف يصير الأمر إذا كان ذلك بين شعبي أمة واحدة ؟ وهو أشد ما يكون وضوحًا في تأثر الضعيف بالقوي، والصغير بالكبير إلى حين اشتداده واستوائه، ليأخذ سماته

---

(١) مقالة : أسئلة أدبية، كلام في الأدب، ص٣٩.

الخاصة بعد، ويسلك في تميّزه ما يرقى به إلى التأثير في قرّاء هذا الأدب من حوله، وربما في الأقوام الأخرى.

وتبرز مواقف العطار النقدية في تصديه ـــ لمن يسميهم الملحدين والشيوعيين ودعاة العامية، ومن يريدون «هدم الفصحى باستبدال العامة بها»، ووقف في وجه المذاهب الهدامة التي «تريد القضاء على الامتياز الخلقي والمعنوي والمادي حتى تستطيع أن تهدم القيم الإنسانية والدين والفضيلة ليسعها الحكم «الجماهيري» الذي يحيل بني الإنسان قطيعًا لا إرادة له»[١].

وفي هذا الجانب دعا إلى التأكيد على مبادىء الحرية، ورفع لوائها، وتقدير قيمة التعبير عن الرأي، ورأى أنها من الخلاصات الخلقية الرفيعة التي يصل إليها الإنسان بعد كفاح طويل مع الجهل والتخلف التراكمي «إن الحرية مطلب من المطالب أو ضرورة من الضرورات مثل الخبز للإنسان، كلاهما قوامه : الحرية لكرامة الإنسانية ولإنسانيته، والخبز لكيانه المادي، والحرية في صميمها ليست مادة بل شعور تحركه دوافع النفس وبواعث الروح والشوق إلى الحياة التي يؤودها الاستعباد والإكراه»[٢].

ومن الحق أن يذهب أي باحث عن الخير والنبل وسيادة القيم إلى السعي في سبيل هذه الحرية، وإلى أن تكون قسمة مشاعة بين الناس كالهواء النقي في ضرورته للحياة، وليس المعني بها الحرية المطلقة، فليس ثمة أمر مطلق في الحياة، فكل قيمة مقيدة بما ينقضها «وبقدر نصيب الأمة والأدب أو الإنسان من الحرية يكون نصيبه من الرفعة»[٣].

ويذهب العطار إلى أن الفن للفن، من حيث إحداثه الشعور في وجدان المتلقي بالجمال والسمو والمتعة، ولا يرى أن يسخر الأدب لخدمة المذاهب الاجتماعية، أو النظريات السياسية، أو الدعاية لحاكم أو سلطان، وإنما شأن

---

(١) مقالة : كلام في الأدب، من كتابه : كلام في الأدب، ص٣٦.

(٢) مقالة : هل انتهى عصر الأدب والشعر، المرجع السابق، ص٥٥.

(٣) مقالة : أدبنا الحديث، المرجع السابق، ص٢١.

الأدب أن يكون هدفه السامي إيجاد المتعة الفنية وإبداعها، ثم معالجة الموضوع، فالخدمة التي يؤديها الفن ليست هي التي توجد الفن أو توجهه أو تأسره ليخدمها «فالفن يجب ألّا يكون إلا للفن قبل كل شيء»[١].

ومن غير شك أن العطار يغالي في هذا الرأي، ويسرف في إخلاصه الفني للأدب، وإذا لم يكن للأدب إلّا الإمتاع هدفًا أولًا ضعفت مراميه، وقصّر دون بلوغ غايته الشريفة في الإمتاع والإصلاح، ولا نريد أن نرى الأدباء عابثين مهومين في بروجهم العاجية، يذهبون في صنع دُماهم الجميلة كل مذهب، ويعاودون هذه الدُمى بالتزيين والنقد والتطرية الفنية، والعطار حين يرى «البرج العاجي ضرورة في المجتمع الإنساني»[٢] لم يدرك ماذا أحدثه البرج العاجي في الأدب من عزلة ووحدانية. وابتعاد الناس عن النتاج الأدبي والفني ليس إلا من إحساسهم بالهوة السحيقة التي تفصلهم عن معانيه الجمالية، ولخلوه من القضايا الإنسانية المشتركة.

على أن الفن ليس سوقيًا، وليس مترفًا، فللخاصة فيه نصيب، كما أن للعامة فيه شئونًا، والمزاوجة بين الرفعة في الفن، والهدف العام لا يقدر عليها إلّا قلة موفقة من الأدباء، ممن استطاعوا أن يرتفعوا بالعامة عن الابتذال في تناول قضاياهم، وأن يهدموا العظمة الموهومة للفنان، تلك التي عزلته عن الدنيا، وأبعدته عن الأنظار والقلوب، فليست القيمة التعبيرية هي الشيء المطلوب من الأدب أو الأديب كما يزعم العطار[٣] ـــ وليس كلّ أثر أدبي يوزن بقيمته التعبيرية وقيمته الشعورية معًا ـــ ليس إلّا، فقبل ذلك شرف المعنى، وسمو الهدف، ونبل التوجه، أما كون الأديب يسعى إلى تصوير مراميه بطرائق لا ترضى عنها الأخلاق العامة أو لا يحبذها الشعور العام فلا ضير في ذلك، لأن من شرط الإبداع في الفن ألّا يقف أمامه ما يمنعه من التعبير عن الفكرة، والمعوّل في هذا إدراك الفنان والأديب

---

(١) مقالة : البرج العاجي، المرجع السابق، ص٢٠.

(٢) المقالة السابقة، ص ٣٣.

(٣) مقالة : أدبنا الحديث، المرجع السابق، ص ٢٧.

الفكرة السامية التي تقدم للإنسانية إضافة جديدة للمثل العليا، أو تسهم في إيقاظ الشعور العام بضرورة إدراك معنى جديد في الحياة، قد يتصل بالعدل أو الحرية، أو الرخاء، أو الوعي .. ولأن الوسيلة ليست مربوطة بالغاية، فمن الجائز أن يسلك الأديب إلى غرضه سبيلًا لا يتفق عليه الجميع في التصوير والوصف والإثارة، وتنبيه الشعور، وهذا ما يذهب إليه العطار[١]، ولا أكاد أذهب إلى غيره.

ودافع عن الأدب في زحام المادية، وغلواء من ينادون بسيطرة العلم، ويذهبون إلى أن الأدب ليس فيه فائدة العلم، ولا يحقق للإنسان ما يحققه المنجز العلمي والتقني فهو يرى أن «الأدب ضرورة، والعلم ضرورة»[٢]، واجتهد الكاتب في دفع تهمة خواء العمل الأدبي، وأفرد في هذا الغرض مقالات عدة ليؤكد أن الأدب «لا يمنع من العلم والمعرفة، بل هو الذي يدفع إليها دفعًا، لأنه يشعرنا بحاجتنا إلى الكمال الإنساني الذي يعرف بغير الضرورة، التي يستوي فيها الحيوان والإنسان»[٣].

والحاجة إلى الأدب تتعاظم حين يشتد العصر في ركضه المادي، وحين يستبد بالإنسان سُعار المادة فيجد أشواقه مخضوبة بالأحلام إلى مثال آخر مختلف عن الواقع، هو الأمنية في خيال كل إنسان تقتله الحياة اللاهثة، وصرفه الركض المحموم عن ذاته وأشواقه ومشاعره، فالعطار لا يبتعد كثيرًا عن مذهبه في تقدير قيمة الفن في الحياة، وإحلاله المنزلة الرفيعة في تاريخ الإنسان، ولهذا يواجه العاصفة المادية، ويسخر من العلميين، ويناكش الدعاة الميالين إلى الحقائق المجردة الجافة.

ولأنه لا يفرط في التراث دخل في معارك كثيرة مع الأدباء الشبان، وفي السياق ذاته مع دعاة التجديد فسخر منهم، ومن أدبهم، وسماه «موضة»، وتقليدًا، ونقصًا في الشخصية، «فهؤلاء المجددون ليسوا مجددين بل رجعيون وهم ليسوا متقدمين

---

(١) المقالة السابقة.

(٢) مقدمة كتابه «كلام في الأدب» ص ٦.

(٣) مقالة : العلم لا الأدب، المرجع السابق، ص٤٦.

بل متخلفون، وهم ليسوا مبتكرين بل مقلدون يتأثرون بخطى من لم يستقم لهم التعبير، ومن لم تتقدم بهم الحياة»[١].

ولم يكن العطار في هذا الموقف النقدي عل صواب في جل ما رآه فيهم فميله إلى القديم دفعه إلى أن يتهمهم بالنقص في خصيصة الإنسانية، وأنهم جهلة ولصوص، ومتنكرون لماضيهم، كما فعل مع عباس أحمد الزواوي[٢]، حين كتب الزواوي مقالًا[٣] عن الألم وأثره في الإبداع، فرد[٤] عليه العطار بمقالة كشف فيها اقتباسه كثيرًا من أفكار وأساليب المقال من كاتبين هما العقاد في الفصول، والمازني في حصاد الهشيم، ثم رد الزواوي[٥]، ينقض رأي العطار، ويدفع التهمة، فيرد العطار[٦] مرة أخرى يوضح ما التبس على الكاتب في حدة وصلف شديدين، وهدفت الجريدة إلى تشجيع الاتجاه الفكري لدى الناشئة فنشرت مقالة الزواوي، وأثنت على ما في مقالته من ابتكار جزئي يُغبط عليه.

ومع عبدالمجيد شبكشي[٧]، حين كتب مقالة عن فقدان النقد في أدب الحجازيين[٨]، فرد عليه العطار، يقول إنه سرق مقالاته من مجلات عدة[٩]، ويذكر

---

(١) مقالة : أدب جديد، المرجع نفسه، ص٥١.

(٢) يبدو أنه انقطع عن الأدب، ولم يشتهر بشيء منه، ولم أجد له ترجمة في مظان التعريف بأعلام الأدباء، كالعدد الخاص من المنهل بالأدباء السعوديين الصادر في رجب ١٣٨٦هـ، أو معجم المطبوعات السعودية، أو دليل الكاتب السعودي.

(٣) مقالة : عصور الألم عصور فن وإبداع، صوت الحجاز، عدد ٢٠٨، في ٥ ربيع أول ١٣٥٥هـ.

(٤) مقالة: للحقيقة والتاريخ، صوت الحجاز عدد ٢٠٩ في ١٣٥٥/٣/١٢هـ، ص ٤.

(٥) مقالة : كلمة عجلى، صوت الحجاز، عدد ٢١٠، في ١٣٥٥/٣/١٩هـ، ص٤.

(٦) مقالة : رد على رد، صوت الحجاز، عدد ٢١٣، في ١٣٥٥/٤/١٠هـ، ص٤.

(٧) ولد عام ١٣٣٨هـ، وتلقى دراسته الأولية في مدرسة الفلاح، بدأ حياته العملية بسلك الشرطة، وتنقل في وظائف مختلفة، ورأس تحرير البلاد.
انظر المنهل عام ١٣٨٦هـ، العدد الخاص، والمعجم، جـ٢/١٠٥.

(٨) مقالة : فقدان النقد النزيه من أدبنا المزدهر، صوت الحجاز عدد ٢١٧، في جمادى الأولى ١٣٥٥هـ، ص٤.

(٩) من مجلة الصباح، عدد ٤٧٩، رمضان ١٣٥٤هـ، مقالة: مشكلة النقد والنقاد، لكاتبها مصطفى القشاش. حسب رأي العطار.

أن الكاتب نقل أكثرها بتحريف بسيط فيثبت ذلك ويتساءل[١] كيف يكون اللص أديبًا ؟ ثم كيف يكون أديبًا وهو جاهل لا يفهم من الأدب إلّا أنه وصف وكلام فيأتي عابثًا غير شاعر بقصوره الفكري وفسولة رأيه السقيم، وقد يشعر ولكنه يحمّل نفسه ما لا طاقة له به، ويزيّن له الغرور سوء عمله فيحسب أنه يحسن صنعًا ؟.

ومع عبدالعزيز فرشوطي[٢] وذلك بعد هجوم الفرشوطي على الأدباء الكبار، وعتبه على صمتهم وتخليهم عن مسئوليتهم «مع أنهم لم يبلغوا المكانة التي بلغها غيرهم في عالم الأدب في البلاد العربية الأخرى، فكيف وهم لا يزالون يُعتبرون في دور التكوين والنضوج، ومع هذا فنحن نعتبرهم الطليعة في البلاد وهم مسئولون عن انتكاسة الأدب في بلادنا .. »[٣]، فيرد عليه العطار في عنف وقسوة يدعوه فيها إلى الاستزدادة من القراءة، والعمق، واحترام الأساتذة[٤].

وكان الأجدر به أن يترفق بهم، وبخاصة حين بلغ من السن مبلغه في هجومه على الفرشوطي، وتسفيهه التجديد، ومذاهب الشبان في الكتابة.

ومن المعلوم أن كل جيل يذهب إلى إحداث التميّز بالبحث عن أشكال جديدة، وإضافة خصائص محدثة، يبقى منها الصالح مما يستطيبه الذوق الصحيح السليم، ويفنى ما لا يتفق وهذه الذائقة العربية الأصيلة.

ولكن العطار يعد نفسه حاميًا من حماة العربية وتراثها فقد عاهد نفسه على أن يقف بالمرصاد «لكل من تحدثه نفسه بالنقل والمسخ والتشويه، وسوف نشتد

---

(١) مقالة : لصوص الأدب أو مجانين الشهرة، العطار، صوت الحجاز، عدد ٢٢١ في ٧ جمادى الثانية ١٣٥٥هـ، ص ٣. والمقالات، ص٢٢٠.

(٢) عمل سكرتير تحرير كتاب الأضواء، وهي سلسلة كتب أدبية شهرية، وكان له نشاط أدبي في جريدة الأضواء، ثم اختفى بعد ذلك، ولعله اعتزل الأدب. انظر المعجم جـ١/٦٠٠.

(٣) مقالة : انتكاسة الأدب، مجلة الرائد عدد ١١٩ في ١٢/٣٠/دد١٣٨١هـ.

(٤) مقالة : انتكاس بعض الناشئة، العطار، كلام في الأدب، ص٧٩. وانظر : الرائد، عدد ١٢٣، في ١٣٨٢/٢/٢٨هـ، ففيه نقاش طويل بين الشيوخ والشباب، واشترك فيه العواد، والزيدان، ومحمد سعيد باعشن وعبدالعزيز فرشوطي وغيرهم.

ونجعل لهجتنا في الكتابة النقدية شديدة مؤثرة، ونضرب ـــ بقوة ـــ بمعول نقدنا كل سارق حتى نقوّض بنيان فكره ونهدم مادته الأدبية المهلهلة فنجعلها رسمًا يندب، أو طللًا يبكي، أو بلقعًا تعوي فيه الذئاب، وثم نكون معذورين»[١].

وقد جرّ عليه العنف في النقد اختلافًا كثيرًا مع أدباء ونقاد كبار وصغار، فندم فيما بعد على بعض ما كتبه في النقد، وعلى اشتغاله بالأدب والصحافة وصولاته النقدية، ودخوله مع أناس «يعيشون بلا أخلاق ولا مُثل»[٢]، فهو يرى أنه لم يستفد من الأدب إلّا القلق والفاقة ـــ كما كان شأنه مع الكتّاب، فهو يعترف بأن سبب بلائه وشقائه اشتغاله بالأدب، وتعلقه بالفن «فإن أرسلت كلمة الحق وُضعت في غير ميزانها، وما من أحد نقدته مخلصًا إلّا طوى صدره على حقد يحمله على أن يزيحني من الوجود انتقامًا وتشفيًا، ونثر في طريقي الشوك، ونشر عني الكذب، وترصد خطواتي وحاربني في رزقي»[٣].

وقد أدرك العطار هذه النتيجة الفكرية متأخرًا، فلم يكن يتحر الدقة في الحكم على الأشخاص ونواياهم، ولا في فهم الظاهرات الفكرية والأدبية، ولا في إدراك معاني التجديد، وضرورة الإضافة إلى كل قديم، لدفع البوار والموات، وقذفه التهم جُزافًا وبالجملة ألحق بنقده عيب التعميم والبعد عن التحديد، على ما فيه من نظرات ذات معنى سام، وأبعاد ذات هدف كريم.

---

(١) مقالة : لصوص الأدب ـــ أو مجانين الشهرة، سبق ذكرها.

(٢) مقالة : ماذا أفدت من الأدب، كلام في الأدب، ص٧٠.

(٣) المقالة السابقة، ص٧٠.

عزيز ضيـاء

بدأ تعلقه بالأدب ذاتيًا رومانسيًا، مغرقًا في بحثه عن العالم المثالي ومتأثرًا بأدباء المهجر ــ كما قدمت[١] ــ، ولكنه لم يقصر نفسه على هذه الشفافية والرقة، فحين نضجت مشاعره، واستقل تفكيره بحث عن المثال في الواقع، وتوجه إلى النقد بأشكاله الثلاثة، الأدبي، والاجتماعي، والسياسي، مشاكسًا مختلفًا طامحًا إلى الكمال في الصورة الأدبية والاجتماعية، ولعل انصرافه إلى الواقعية لم يواته إلا متأخرًا، فقد كان مغرمًا بمدرسة أبولو في الشعر، أو لعلها فرضت ذوقها وتوجهها عليه وعلى كثير من أقرانه، فحين ابتدأ في قراءة الشعر الحديث بما فيه من رموز وواقعية وانكشاف على النفس يختلف مع ما عهده من شعر التهويم النفسي الشفاف من المدرسة الرومانسية رأى أن سلطة هذه المدرسة بدأت تتضاءل أمام واقعية الأدب[٢].

ولا أجد سببًا لإقباله على النقد وشغفه به، واحتفاله بالرأي يقلبه على كل وجوهه مخاصمًا ومتبرمًا ساخطًا إلّا النضج وتجاوزه سن اليفاعة والبحث عن وجهته الصحيحة في الحياة، وامتلاكه أداة النقد القوية الفاعلة وهي اكتمال الرؤية في شخصية الناقد، وإحساسه المفرط بها، وسعيه إلى ما يضيف للإبداع الإنساني في الفكر والفن طاقة جديدة تدفع الإنسانية إلى الأمام، وتبعد بها عن الركود.

فالناقد الجيد هو المتملك زمام شخصيته، المستقل في تفكيره، المغرم باكتشاف مواطن الجمال في الإبداع الفني، والساعي إلى التغيير والتبديل والإضافة في القيم التي تحتمل ذلك وتنضج به وتينع.

وعزيز نهج قريبًا من هذا، فقد تأثر في كثير من طرائقه النقدية الثائرة الرافضة

---

(١) انظر الفصل الثاني من هذا البحث، فقرة : أشهر كتاب المقالة الذاتية .

(٢) انظر مقالته : نزار قباني.. من طفولة نهد.. إلى نفق مسدود، جريدة الرياض، عدد ٧٦٤٨، في ٢٧ شوال ١٤٠٩هـ، ص ٥، فقد تحدث عن المرحلة الرومانسية التي مر بها.

بطه حسين، واتبعه في أسلوبه الكتابي، وفي صياغاته وجمله، وعجز عن الفكاك من التكرار والإعادة وبسط الجملة، وتسهيل المعنى بالمترادف من اللفظ، والتأكيد والشرح، وعجز عن أن يتخلص من فرط غلبة الشخصية القوية الموحية بالرأي التي تبدو في نقد طه كما تظهر جلية في نقده ورؤاه وأفكاره.

والقارىء له قد تصدمه هذه الشخصية بادىء الأمر، تصدمه بعنفوانها واعتزازها وقوتها وثورتها على الواقع، ودعوتها إلى التغيير في الأدب والمجتمع وفي كثير من القيم العامة السائدة.

ولم يطرأ على هذا المنهج تغيير يذكر، فعزيز لايزال ينحى في نقده شيئًا من الصلف والسخرية، والطموح إلى جديد في الشعر، وفي النثر وفي الفكرة.

مصـــادر ثقافتـــه :

يتميز عزيز ضياء بثقافته الأدبية الواسعة فلم يقصر قراءته على التراث أو كتب العرب القديمة، بل سعى إلى إنشاء رافد عظيم يمده بالجديد والمضيء من نتاج الأمم الأخرى، وساعدته إجادته اللغة الانجليزية على الاطلاع على ألوان مختلفة من الأدب العالمي في مختلف عصوره.

وفي هذا السعي كان يجهد عقله وجيبه للحصول على نسخة من كتاب نادر، أو متابعة الساعات في الليالي الطويلة، لإكمال رواية أو قصة أو نقد، «ومازلت أذكر، ولا ينسى رصفائي من الشيوخ كيف كانت تنقضي الليلة من الغسق حتى الفجر في حوار حول آراء إفلاطون في جمهوريته .. ثم حول الفارابي ومدينته الفاضلة، بل حول داروين ونظريته في أصل الأنواع، وهذا إلى جانب تهافتنا على جريدة (السياسة الأسبوعية) التي كان يصدرها ويرأس تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل.. »[1] ثم يذكر إقباله على قراءة كتاب الأغاني، وكيف أنه أخذ يوفر قيمة أجزائه المجلدة تجليدًا أنيقًا ـــ من الراتب الذي لم يكن يزيد عن ستة جنيهات ذهبية، ويطلع على كتاب «في الشعر الجاهلي» لطه حسين، ويتابع مع

---

(١) مقالة : كيف عرفته، حمزة شحاتة قمة عُرفت و لم تكتشف، ص١٦.

صحبه ما أثير حوله من ضجة في الصحافة المصرية، ويعود بهم هذا الكتاب إلى مراجعة الشعر الجاهلي، ودراسة معلقاته في سعي إلى التثبت من جيده ورديئه، ومنحوله، وما كان ثابتًا لا يقبل الشك.

ومن الراجح أن رؤية طه حسين المعتمدة على الشك والتساؤل في قيم تاريخية وتراثية وفكرية سرت إلى شبان عصره فاعتنقها كثيرون، وراحوا يجرون هذه النظرة على ما حولهم من الأشياء، وكان عزيز في كثير من نقده يصدر عن الشك في قيمة أدب البلاد، وعن الشك في وجود رجال في الحجاز، وعن الشك في صدق كثير من القيم الاجتماعية والخلقية في الحجاز آنذاك.

ويتبين من كتابات عزيز ما يملكه من اطلاع، وما حصله من معارف في الآداب والفكر، والثقافة العامة.

ولكنه لم يُعن بنشر أكثر ما كتب، فأبقاه طي الكتمان، أو حبيس النسيان، ولو أراد أن يصدر من مقالاته المتفرقة في صوت الحجاز، وأم القرى، والبلاد السعودية، وعكاظ، وغيرها كتبًا كثيرة لما شق عليه، وهي مقالات تمثل الصورة الأدبية الجميلة في النثر المقالي، وبخاصة في الشكل من حيث السلاسة والسهولة والعفوية، ومن حيث كون صاحبها لا يتعمد التقعر والتفاصح والتعالم أو يسعى إلى البحث العلمي، فهو يندفع إلى الكتابة بوحي من مؤثرات الحياة ومثيراتها، فيأتي إلى مقالته لا يملك غير ما يجول بخاطره من صور ومعان، وانفعال بالحدث، أو رضى عن فكرة، أو سعي لرد مقولة في النقد أو التفكير أو الإبداع.

وإذا بحثت عن سبب يمنعه من النشر فستجده راجعًا إلى ذاتيته الساخطة الباحثة عن الكمال في صور الإبداع الفني المختلفة، ولعله يشعر أن مقالاته لا تصل إلى ما يرجوه من تجويد وإمتاع، وربما تطوف في مخيلته وقفاته النقدية العنيفة أمام ما نشر من أشكال الفنون الأدبية المختلفة، وتولاها بالنقد والتقويم، واشتد في تتبع مواطن الضعف والحرن، ولا يريد لنفسه أن تصير إلى ماعاب وكره من المنشور من أدب أقرانه ولداته.

وهذا المحمل ــ إن صحّ ــ لا يعفيه من اللوم، ولا يخليه من المسئولية، فالكلمة تصبح ملكًا للتاريخ الأدبي حين يدفعها صاحبها إلى النشر في الصحيفة. ومن الإقدام والجرأة أن تأخذ محلها من النقد والدرس، ويواصل الكاتب من خلال نشرها في كتاب رسالته الإبداعية التي لا يتكلف بحملها في أمانة وصدق إلا المخلصون من أرباب القلم، وحملة الفكر.

وهو يعترف بتقصيره في النشر، وبأن لديه أعمالًا عديدة حبيسة الملفات الكثيرة التي تجمع ما ينشر من نتاجه[1].

وقد سبق له أن أومأ إلى ما يمنعه من النشر ــ خلاف ماذكرت ــ فألمح إلى أن الكاتب يرتكب مجازفة في سعيه إلى النشر بلا عون من قراء متابعين ومتلهفين، ومن جهات تُعنى بالثقافة والكتاب، «أنا لا أستطيع أن أنشر كتبي ومؤلفاتي، فليس معقولًا أن أنشر على حسابي ثم أبحث عن قيمة ما دفعت للنشر .. كثيرون نشروا، كان الله في عونهم، لا أدري كيف استطاعوا تصريف ما نشروه، ولكن أعرف أنه لا سبيل للتصريف إلّا الاستجداء، وهذا أسلوب أعتقد أن كبريائي لا يسمح به .. »[2].

مواقفــه النقديــة :

لم يتوان عزيز ضياء الناقد في الدعوة إلى التجديد، ونبذ التقليد، وتزيين الأفكار النيرة المتطلعة إلى التقدم، تلك التي يدفعها بعض الأدباء الشبان، يستمدونها من عزمهم المتوثب، ومن قراءاتهم ومن صلاتهم المختلفة ببعض الأقطار العربية، وببعض الأدباء العرب وبخاصة في مصر ولبنان.

وحمل الكاتب على الزخرف والصنعة، ورأى أن من يصطنع الأدب ليس أديبًا، وأن الأدب فكرة وموهبة، وحين يوجدهما الحس اليقظ والوعي القوي تكتمل

---

(١) مقالته السابقة في جريدة الرياض، عدد ٧٦٤٨، في ١٤٠٩/١٠/٢٧هـ.

(٢) من لقاء أدبي معه، أجرته مجلة اليمامة، عدد ٢١٠، في ٢٦ جمادى أولى ١٣٩٢هـ، ص ٢٠، الجزء الثاني، بتصرف يسير.
وقد نشر الجزء الأول منه في عدد ٢٠٨، ١٢ جمادى الأول في ١٣٩٢هـ.

شخصية الأديب.

ومن مقالاته العديدة في هذا الشأن ماكان يكتبه من نقد في صوت الحجاز بعنوان (حديث الأسبوع) سعى فيه إل الوقوف على مهمة الأديب في الحياة، ودور الأدب في تغيير مفاهيم الأحياء، ودعا إلى ترك التقليد الأجوف، والتزويق في الأسلوب.

وحيث إنه يريد أن يصل الأدب إلى التأثير في الحياة ــ ولن يتأتى له ذلك إلّا باكتمال نضج مفهومه في أذهان كاتبيه، وفي أذهان متلقيه ــ أخذ ينكر الأسلوب الأدبي الذي يكتب به صحبه من حوله أدبهم، وينكر أن يكون ذلك أدبًا قويًّا مؤثرًا، فهو في أول مقال كتبه في حديثه الأسبوعي نفى قيامه بكتابة نقد للأدب، أو تنظير لمفاهيمه، ولكنه ــ من غير إرادة منه ــ كتب أدبًا نقديًّا وذاتيًّا رفيعًا «وأحسبك تظنني سأحدثك عن الأدب كما يحدثك عنه هؤلاء الذين يعدهم الناس عندنا أدباء، فأقول لك ماقيل في هذه الجريدة أكثر من مائة مرة ــ وأنت محق حين تحسبني كذلك ــ لأنك قد اعتدت أن تقرأ هذه الأحاديث في كل أسبوع، وربما قرأتها متبرمًا ساخطًا، متسائلًا : أي أدب هذا الذي يحدثوننا عنه ؟ أين هو ؟ في أي كتاب ؟ في أية رواية ؟ وأنا في الواقع حين أتحدث إليك عنه أشعر بأني أتحدث عن شيء أوجده الوهم في مخيلة الشباب الحجازي .. »[1].

ويسرف في إنكاره ألوان الفنون التي يكتبها الحجازيون على قلتها، فلا يرى أن لذلك صلة بالأدب، وأن المقالات التي تنشر لا تمتّ لقيم الأدب بصلة لما فيها من السخف والركاكة والإفلاس والاضطراب، وحين يبالغ ضياء في هذا المنحى النقدي لا يبتعد كثيرًا عن هدفه في إصلاح ما يراه فاسدًا، والتنبيه على النقص الذي يشعر به، واصفًا له العلاج، على قدر ما ينتهي إليه تفكيره[2] فكتب عن العلم المفقود في البلاد، كالأدب الموهوم، ويتشاءم في رؤيته للمستقبل، ويلح في

---

(١) مقالة : الأدب، صوت الحجاز، عدد ١٥٧ في ١٨ صفر ١٣٥٤هـ.

(٢) المقالة السابقة.

وجود علماء في الطب والهندسة والصيدلة والكيمياء[١].

«ولا أكتمك أنني أشعر بالنقص في نفسي وفي أصدقائي، وفي أمتي وفي كل ناحية من نواحي الحياة. ولا أجادلك في أنك أنت أيضًا تشعر بهذا النقص، وتود في شيء من الحيرة، والألم أن تنبه الناس إليه وأن تحثّهم على التخلص منه، وأنا أؤكد لك أن في الناس عمومًا نفس ما فيّ وفيك لا فرق في ذلك بين عالمهم وأميهم وكبيرهم وصغيرهم .. »[٢].

ويذهب إلى أنه حين ينطلق في حرية التعبير عن هذه النقائص فإنه مدفوع بوطنيته، وما يفرض عليه الشعور بالنقص، والشعور بالواجب، ويفرضه عليه إشفاقه من هذا الجمود الممل الذي يجعلهم شبيهين بالموتى[٣]. ويقول إن الأدب مرآة يرى فيها القارىء أخلاق الأمة وعاداتها وحسناتها وسيئاتها واقتصادها وسياستها .. ولكنه لا يرى ذلك في أدب الحجاز، ثم ينكر أن الأديب الحق له صلة بالمظاهر التي يتشكل فيها الأدب المصنوع من التزويق والزخرفة.

وقد تأثر في بعض مواقفه النقدية والفكرية بحمزة شحاته، وبخاصة في طلبه القوة وسعيه إلى تكوينها في نفوس الناس، ونفسيات الكتّاب، فدعا إلى الرجولة الكاملة، وكما دعا من قبله شحاته[٤]، وأكد على أن الأديب هو الرجل الذي يمثل الرجولة الكاملة «هو هذا الرجل الذي يستطيع التحدث إليك بجرأة وقوة وحماس، هو هذا الرجل الذي يغتصب إعجابك وتقديرك واحترامك بدون وضع النظارة وتقصير الشارب، هو هذا الرجل الذي يعرف كيف يقنعك أنه على صواب في رأيه، وعلى علم من أمره. هو هذا الرجل الذي إذا كتب لا يكتب لغوًا أو حديثًا معادًا، وإنما يكتب علماً ينفع العلماء، وفنًا يعجب الفنانين، هو هذا الرجل الذي يستطيع أن يحتل مكانته بين الرجال وكرسيه بين الأفذاذ، وصفته بين

---

(١) مقالة : العلم، صوت الحجاز، عدد ١٥٩، في ١٣٥٤/٣/٢هـ، ص٤.

(٢) مقالة : الأدب السابقة.

(٣) المقالة نفسها.

(٤) انظر محاضرته : الرجولة عماد الخلق الفاضل. تهامة، ط١، ١٤٠١هـ، جدة.

الأدباء، هو ذلك الرجل الذي يكتسب ثقة الشيوخ والشباب والعلماء والأدباء أو الذي يحترمه قسم من هؤلاء على الأقل، وهو قبل كل شيء ذلك الرجل الذي يأخذ على عاتقه مهمة الإصلاح قبل أية مهمة أخرى خصوصًا في أمة كأمتنا»[1].

ونلحظ براعة الكاتب في تجويد الأسلوب، وفي سهولة انسياب الفكرة، وأثر طه حسين — كما سلف — في التكرار والسخرية والإعادة، والمداورة واختيال ذهن القارىء في ذكاء للوصول إلى الإقناع.

وفي مقالة أخرى[2] يصرّح بفقدان الرجال الأكفاء القادرين على القيام بمهمة النهضة، ويسخر من أنصاف الرجال، ومن أدعياء الرجولة.

ومن مبدأ القوة هذا وما سبقه تتبين رؤية عزيز ضياء النقدية، ومحاكمته النصوص الأدبية، وما أحدثه من معارك أدبية مع أقرانه.

ويجد الباحث في المقالة الأدبية النقدية أن نفرًا من كتّابها في الأدب السعودي يميلون إلى النقد الانطباعي الذي يحتكم إلى الذوق وحسب، غير ناظرين إلى قيم النقد في مدارسها المعروفة، وغير مهتدين بما يذهب إليه النقاد العلميون من تأطير لنظريات في النواحي الفنية والجمالية، وربما الموضوعية في النص الأدبي، نثرًا وشعرًا.

ومن هؤلاء النقاد الانطباعيين إبراهيم هاشم فلالي، وأحمد عبدالغفور عطار، ومحمد حسن كتبي وغيرهم، وأبرز أقطاب هذه المدرسة عزيز ضياء، فهو الناقد الانطباعي الأول الذي لا يخرج كثيرًا عن ذائقته الفنية مصدرًا أولًا لرؤية العمل الأدبي، يساعده في هذا دربته الطويلة على التذوق، واستسلامه لمزاجيته المستحكمة، مع ما حصله من معارف وثقافات مختلفة، توهم القارىء بأن هذا الناقد لا يخرج عن المنهجية النقدية، ولكن هذا ليس إلّا طلاء، فهو غير قادر

---

(١) مقالة : الأدب، حديث الأسبوع، سوت الحجاز، عدد ١٥٧ في ١٣٥٤/٢/١٨هـ.

(٢) مقالة : نريد رجالاً، صوت الحجاز (عدد ممتاز) ١٩٥ في ١٣٥٤/١١/٢٥هـ. ص٦

على طرق هذا الباب من حيث هو علم، ولكنه يأتيه على أنه فن، وفن خالص جـدًا.

وأدعه يشرح هذا المعنى، ويبين عن أسلوبه في النقد، فقد أشار إلى عبدالعزيز الربيع[١] ناقدًا فوصفه بـ «الأكاديمية» من حيث كونه يعتمد على المراجع وعلى السوابق وعلى الأمثال.. على حين يرى عزيز ضياء أن مفهومه في النقد يختلف «صحيح أن هناك أصولًا ينبغي أن تتبع، ولكن الإغراق أو الإسراف في الأكاديمية يعزل ذوق الناقد عن إثراء المنقود»[٢].

وهذا الرأي أقرب إلى مفهوم المقالة الأدبية النقدية، فهي لا تلجأ إلى العلم تستند إليه لضعف الملكة الإنشائية، أو قصور الناقد عن تلمس مواطن الجمال، والفتنة، أو تلاشيها، ويستمد الكاتب المقالي الناقد الموهوب من علم النقد، وقيمه المقعّدة، ومدارسه ما يعينه على التجويد، ويترفع بأسلوبه عن الإنشاء المطلق، إلى المقالة المقنعة الثرة بمعانيها ولفتاتها، ووضوح شخصية كاتبها، وبراعته في الاستنتاج والحكم وارتفاع تذوقه لمعاني الجمال، وصور الإبداع المختلفة.

فعزيز في مقالاته النقدية المتفرقة وآرائه المنثورة يصوّر طبعه، وينقل نتاج ذوقه الذاتي المصقول، ولعل هذا من ميزاته في هذا اللون من الكتابة المقالية المتدفقة المحتكمة إلى الذائقة البعيدة عن المنهج الدراسي النقدي، ولكي أدلل على هذا المنحى أعرض شيئًا من آرائه النقدية في عدد من المبدعين، كتّابًا وشعراء، يقول عن العواد إنه يمكن أن يكون في مقدمة الشعراء، لو استطاع أن يخلص شعره من

---

(١) ولد بالمدينة المنورة عام ١٣٤٦هـ، وحصل على شهادة كلية دار العلوم بالقاهرة، قسم اللغة العربية، وعلى الدبلوم العالي في التربية وعلم النفس من جامعة الاسكندرية، تولى أعمالاً وظيفية مختلفة، كان آخرها مديراً للتعليم في منطقة المدينة المنورة، ورئيساً للنادي الأدبي بها، توفي عام ١٤٠٢هـ، وله كتب كثيرة مخطوطة، وصدر له «ذكريات طفل وديع».
انظر : الموسوعة للساسي ٧٥/٣، والمعجم للطاهر ٥٨٨/١.

(٢) اللقاء الأدبي السابق الذكر، الحلقة الثانية، ص٢٢.

عنصر الفكر ـــ التعقل والمنطق»[١]، فناقدنا لا يرى العلم مصدرًا للإبداع الشعري «فالشعر ينبع من الوجدان، وبقدر ما يكون الشاعر صادقًا مع عواطفه ووجدانه بقدر ما يكون أكثر إبداعًا .. »[٢].

ويقول عن طاهر زمخشري «إن كثيرًا من شعره مايزال يدور في حلقة مفرغة»[٣]. ويعني ناقدنا أن التكرار سمة في شعر الزمخشري.

وإذا أتينا إلى الكتاب نجد عزيزًا يقف عند أدق خصائص الكاتب الفنية والموضوعية، وفي تذوق لإشراق الأسلوب، وصفاء المعنى، وبراعة الصورة، ومحاولة لإبانة مكامن الإخفاق أو التوفيق في مسعى الكاتب إلى الكمال والنضوج.

فحين أشار إلى محمد حسين زيدان وصفه بأنه يتحدث خير من أن يكتب، فهو «يصلح أن يكون خطيبًا لو وقف أمام الجماهير يرونه ويراهم .. هنا يستطيع أن يقول كلامًا مفهومًا، ولكنه لا يستطيع التعبير عمّا يريد كاتبًا .. »[٤].

وأحسب أن الزيدان يكتب كما يتحدث، وتتوالى لديه المعاني في غير ترتيب ولا تنسيق ويقتطف الشوارد حيثما تأتي عفو الخاطر، ويفتقد المقال لديه الانتظام والانسجام، ويميل إلى تشقيق الأفكار ونحت الكلمات، والإفادة من ظاهر اللفظ لتكوين معنى يخرج من باطنه أو مفهومه، وهذا ما أوقفه عند المقالات القصيرة القريبة من الخاطرة واللمحة التي تذهب سريعًا كلحظة انبلاجها.

على حين يرى عزيز ضياء أن عبدالله بن خميس «أنيق كل الأناقة في عبارته، وحريص على أن يعطيني الأسلوب العربي الفصيح .. »[٥] ولعل هذه أبرز ميزات أسلوب عبدالله بن خميس، في ميله إلى الإتقان، والتفنن في اختيار القوي

---

(١) اللقاء السابق.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه أيضاً.

(٤) المصدر نفسه، بتصرف.

(٥) اللقاء السابق.

والمشرق من الألفاظ.

ويقف في ذكاء وفطنة لدى ملمح مؤثر في أدب عبدالله الجفري المقالي، فيرى أن مقالاته لا تخلو من النبض والحركة «ولكنه أغرق إلى حد مسرف جدًا في مواضيع بذاتها، وهي مواضيع الحب والجمال .. كان يمكن لكتاباته أن تجد مستراحها في نفوس القرّاء لو أنه نوّع ولم يكرر نفسه .. »(١).

وهذه الآراء السريعة ترد في مقالات عزيز ضياء الطوال(٢) المشبعة باللفتات الذهنية، والمليئة بالتحليل والاستشهاد. والمنساقة إلى ذوق كاتبها، واقتداره على صياغة نتيجة هذا الذوق، وما وقف عنده من أفكار أفاضها إليه النص، وما ذهب إليه في تحليلها ونقدها، بأسلوب عفوي سهل خال من الإحالات الكثيرة، ومن التعقيد، ومن الابتذال.

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) مقالة : تصفية. مجلة الاذاعة السعودية، عدد ٣٦، ربيع أول ١٣٧٨هـ، ص ٦، والأعداد التالية له. وهي سلسلة مقالات كتبها في نقد وغربلة عدد من الشعراء السعوديين.

جـ ــ نمـاذج من المقالـة النقديـة :

إن من يدرس النثر في الأدب السعودي يجد نتاجًا هائلًا من المقالة، وبالأخص ما يتصل بالنقد، ومعالجات شئون الإبداع والتقويم والإصلاح.

ذلك أن النهضة الحضارية في تاريخ الأمم تبدأ من القول وتتدرج في سلم الرقي مستصحبة النقد وإذاعة الرأي، وتجاوز الضعف إلى القوة، والخطأ إلى الصواب، وتلك سنة الحياة، تُشع الفكرة الإصلاحية في أذهان البناة والمفكرين كومضة البرق الخاطفة، ويعقبها تفكير وبحث، ثم قول ونشر، ويأتي الفعل حصيلة لثمرة ما سبق من اجتهاد في الوصول إلى الفكر الصحيح، ومواضع الحق والخير والجمال في الحياة بعامة، وفي النص الأدبي الذي يصوّر ــ فيما يذهب إليه ــ تقلب الإنسان في حيواته المختلفة، واضطراب شئون الفكر والخيال في هذه المساعي المتلاحقة المتعانقة التي يسرف الإنسان في الركض فيها تعلقًا منه بالحياة، وابتغاء مكاسبها ومغانمها.

وليس النقد الأدبي إلّا صورة مجملة للواقع، حين يذهب المبدع فيما يقدمه للناس إلى الرسم الجديد لما يبتكر من المعاني، ولما يصل إليه خياله من استحياء لفكرة شاردة، أو قيمة مغمورة يرقى بها إلى الذيوع والانتشار، أو استحثاث عنيف للتبصر في التجربة الفنية المثالية التي مرّ بها المبدع، بما أضاف من وحي ذاته، ومن حرقة معاناته، ومن مكابدته الفكرة السمحة المبتكرة التي عالجها.

فيأتي الناقد يتفطن أجزاء هذه الصورة، ويتحسس مواضع الجودة فيسعى إلى إظهارها وإبانة ملامح الجمال فيها، ثم يقف عند ما يراه واهنًا يخدش بريق المعنى، أو يذهب بشيء من رُؤاه، فيبدي رأيه النقدي في أسباب هذا الضعف، ثم يجيل النظر الفاحص الذواق في ما يصلح العمل الأدبي المنقود، وما يرقى به إلى الكمال والامتناع.

وسبق أن ألمحت إلى أن النقد العلمي المنهجي المتأني والمحتكم إلى

مدارس النقد ومعارفه المتوارثة ليس مجال بحثنا في المقالة الأدبية النقدية المنساقة إلى ذوق كاتبها، وانطباعه عن النص، والمستفيدة من معارف النقد المختلفة في استقامة هذا النقد لئلا يشتط عن الصواب، أو يبتعد عن جادة الحق[١].

لكن الشخصية النقدية بما يعتريها من إفراط في الإعجاب، أو إسراف في الرفض، أو بين بين، هي المؤثر القوي في إبداع المقالة الأدبية النقدية، وإثرائها بالرأي والجمال وروعة الجدل والنقاش.

والذي أهدف إليه من هذا التقديم أن النثر الأدبي السعودي كثير كثرة ظاهرة، وأن المقالة النقدية ـــ بالأخص هي أكثر ألوان المقالة حظوة بإسهام الكتّاب فيها، ومزاولتهم لها..

وأن النهضة تبدأ عادة بالقول[٢]، ثم تصل إلى الفعل، ويندر أن نرى أمة تبني الفعل قبل أن تعتقد الرأي وتذيعه.

وقد تأسى كتّابنا في مستهل نهضتهم الأدبية بكتّاب بعض أقطار الوطن العربي في مراودتهم القول، واتخاذهم النقد وسيلة للإقناع بصواب الحجة، وصلاح المذهب، ومكامن الحسن في ما يقرأونه من نصوص أدبية تضطرب بين القوة والضعف.

---

(١) انظر مثلاً مقالة : مقاييس الأدب، عبدالقدوس الأنصاري، أم القرى ٤٨٦، السنة السابعة عشرة ١٣٦٠هـ، ص٣، عن الأدب والعلم.
ومقالة : مقاييس الأدب أيضاً، للكاتب نفسه، وفي الجريدة نفسها، عدد ٨٥٤، السنة السابعة عشرة، ١٣٦٠هـ، ص ٣، عن أدب الشعر والنثر.
ومقالة : أثر المتنبي في الأدب العربي، محمد حسن كتبي، صوت الحجاز عدد ١٧٠ في ١٣٥٤/٥/٢٠هـ، ص١، وعدد ٧١ في ١٣٥٤/٥/٢٧هـ، ص٤، وفيهما يدرس الكاتب تأثر شعراء كثيرين بشخصية المتنبي، ويقف على جوانب التجديد والابتكار في شعره، وفي ما حفل به أدبه من معارف فلسفية ونفسية مختلفة.

(٢) انظر شكوى كتاب المقالة الأدبية، وأكثر المثقفين في مطلع النهضة. من إقبال المتعلمين والناشئة على الكتابة، وانشغال ذوي الخبرة بالحياة والمفكرين عن فنون القول :
مقالة : نهضة الشباب القولية فهل تتبعها نهضة عملية؟ وطني غيور، صوت الحجاز، عدد ١٢٥، جمادى الثانية ١٣٥٣هـ، ص١، وصوت الحجاز، عدد ١٢٦، ١٥ جمادى الثانية ١٣٥٣هـ، ص١.

وهذا التأسي في فنون الخصام والجدل والنقاش تبين في مصاولات النقد، ومعاركه العنيفة، وتصيّد المداخل على المبدع، وابتغاء الرقي إلى منزلة الأستاذ والرائد والبصير بأمور الأدب، وتقاليد الفنون.

فذاعت الخصومات الأدبية، وانقض جيل على جيل، واستقبل الناقدون ما يصدر من زملائهم مقالة، أو قصة، أو شعرًا، أو كتابًا بالترحاب حينًا، وبالتثبيط واللوم أحيانًا أخرى.

وذهب نقادنا إلى التفكير في تلك الأسباب المعيقة لتقدم الأدب، والمشينة لمفهومات النقد، فكتبوا مقالات نقدية يحتكمون فيها إلى الذوق ومعارف الفن الأدبي ابتغاء الوصول إلى ما يصلح الحياة العامة بهذه الصور الأدبية التي يسعون إلى إبداعها ورسمها.

وعند النظر إلى ما توافر من عطاء الناقدين السعوديين رأيت أن درسه على نحو من التفصيل والتمثيل والاستشهاد سيطول ويمتد امتدادًا يخل بنظام هذا البحث، فعمدت إلى تقسيم ما وقفت عليه من موضوعات المقالة الأدبية النقدية في عنوانات متتالية ليسهل الإلمام بمجالاتها، وتتضح الصورة العامة لها.

١ ــ تطوير مفهومات الأدب والنقد :

سعى الأدباء في طور التكوين الأولي للنهضة الأدبية إلى محاولة تحديد معنى الأدب ؟ وإلى فهم غاياته في الإمتاع، والإصلاح، والارتقاء به من التقليد إلى الابتكار، ومن الاتباع إلى الاستقلال، ومن الأهداف البليدة إلى شرف الغاية وسمو المقصد.

واختصم هؤلاء الأدباء شيوخًا وشبانًا، قادرين وناشئين ــ شداة ــ على قضايا عدة في قيمة الأدب عامة، وفي مفهوم الأدب الصحيح، وإدراك وظائفه، وتقويم ما ينشر من ألوان الأدب المختلفة في صحف ذلك العهد، ثم اختلفوا في طرائق توصيل هذه الأفكار النقدية واشتد بهم الخصام حول أنجح السبل لمعالجة أدواء هذا الأدب في الشكل، وفي المضمون، هل يلجأون إلى المشادة في الرأي، والعنف في السجال ؟ أم يدعون الحدة في النقد، ويلزمون أنفسهم بالأناة والتماس سبل العقل لإيصال أفكارهم، وإقناع خصومهم، وبسط آرائهم ؟.

وقد اختلف مستوى هذه النقاشات والمصاولات النقدية من قوة إلى ضعف، ومن حماسة إلى فتور، ومن إقبال شديد عليها إلى استسلام يائس لما تضطرب به الحياة من فنون القول، وجديد الفعل.

وسأتناول هذه المعاني في جزئيتين، أوجز أبرز ما عمر الأدب والنقد بالنشاط، وملأه بالعنفوان وارتقى به إلى التأثير في الناس وفي الحياة.

أ ــ مفهــوم الأدب

اجتهد بعض الأدباء في إبانة مقاييس الأدب الصحيح، ودرس غاياته وأهدافه، وذهب كثيرون من كتّاب المقالة النقدية يكشفون هذه الغايات فيعنون منها بما هو نبيل سام، يقربونه إلى الأذهان، ويكتبون المقالات في سياق الدعوة إليه، وحث الكتبة على الإسهام فيه، ويقفون ناقدين ساخطين على غايات أخرى غير شريفة،

ولا تتصل بالحياة العامة، ولا بما يطمح إليه متلقو الأدب، من إنارة لسبل التقدم، وصون للقييم الرفيعة في الفن والحياة الاجتماعية بعامة.

وأوشك هؤلاء الكتّاب النقديون أن يتفقوا على أمرين، أولهما : التأكيد على صلة الأدب بالحياة في جميع شئونها.

وثانيهما : إنكار كثير من صور الأدب في أقاليم البلاد، والسخط على نفر غير قليل من الأدباء التقليديين الذين يكتبون كلامًا ليست له قيمة في معيار النقد، لا من حيث الفكرة، ولا من حيث الأسلوب، في رأي هؤلاء.

ولم يهدأ تذمر أكثر الناقدين والكتّاب مما آل إليه حال الأدب، وقيمة ما يذهب إلى كتابته المتصدرون للرأي والدرس والإبداع الفني، فظلت الشكوى من ضعف مستوى الأدب السعودي إلى قرب نهاية القرن الرابع عشر، تزداد مع انصراف القادرين والموهوبين عن الكتابة، وتقل حين يقبل هؤلاء أو بعضهم على المقالة والشعر وسائر فنون الكتابة، فيطمئن الحريصون على أن الأدب بخير، وأن أدب البلاد سيحقق الغايات المأمولة فيه.

ويعتقد الكثيرون أن الأدب الحقيق بالتقدير والتدوين والاحتفال هو ذلك الذي يؤثر في الارتقاء بمفهومات الحياة العامة، ويسعى بالإنسان إلى الخير، ويدله على مواضع الجمال في النفس والكون، والحياة، أو يسعى بالحق والخير إلى الناس، يعلن عنهما، ويبشر بهما، ويبتكر الأساليب التي تدل عليهما، وتحبب فيهما.

ويحثون على العودة إلى الواقع، والإيمان بالحقائق، والابتعاد عن الأوهام، واطراح الكسل، واستقبال ما يرقى بالعقل إلى السمو، وبالخيال إلى الإبداع والإضافة، وربما ذهب بعض الكتّاب إلى مثل هذا الاعتراف بالسوءات في شئون الفكر، وأساليب الأدب رغبة في تخطيه، ونبذه، والتحريض على بناء تصور جديد أقرب إلى فهم رسالة الأدب، وأكثر صدقًا مع حقائق الحياة، «والأساس في كل ما نمارسه من ضروب الأدب أدبي محض يتأثر بالأوهام الذهنية، ولا يتأثر بالحقائق الراهنة التي تدور عليها حياتنا العامة، وانصرافها إلى هذا الجانب اللين الذي لا يقتضي منّا جهدًا وتضحية دليل على فتور الطباع وكلال الأذهان وما نقرأه

دائمًا لكثرة أدبائنا لا يعدو أن يكون زينة يتعمل بها الكاتب بما يتلمس لها من الألوان والأصباغ ليفتن القراء بقوته ورسوخ قدمه في الزخرفة والهندسة، وليكن بعد ذلك خلوًا من الجد واللباب، وخلوًا من الصدق والحق .. »[1].

فالكاتب يريد من الأدب الصدق، ويريد منه تصوير الحقائق، ثم يريد أيضًا البعد عن الاصطناع والزخرفة، والأدب في بداية النهضة كان — في كثير منه — يميل إلى التقليد في الأسلوب، وإلى الهمس بالفكرة، والأدب الجديد الذي يسعى له الشبان — آنذاك — يرونه خلوًا من الزيف اللفظي، ومصورًا لآمالهم وتطلعاتهم إلى الرقي الحضاري الشامل، وليس الأدب في مجمله إلّا جزء من هذا الرقي، وربما مرآة ناقلة له، بما يعمره من نشاط، وما يتدفق فيه من نماء وابتكار.

ومن خير مايصور هذا المعنى إدراك حسين سرحان لغثاثة الأدب حين ينطوي على قصور وعجز عن استيعاب هذه الوظيفة المتصلة، التي شرف الأدب بتوصيلها وبلورتها، ويرتقي بها في معانيه وأغراضه وأهدافه «لست أفهم للأدب معنى ولا أقيم له وزنًا مالم تقو وشائجه بالحياة، ويندمج فيها اندماجًا كليًّا حتى يتبطن أسرارها، ويستعرض صورها في أتم ما تكون من الجلاء والوضوح، وحينئذ يكون الأدب قد أدى رسالته السامية كما يجب أن تؤدى سالمة من شوائب السخف والغثاثة والتخليط .. »[2].

والأدب الحي القادر على نقل مشاعر الإنسان، وحمل الرسالة الأخلاقية السامية لا بد أن تتوافر له شروط تدفع به إلى الإبداع، وتحميه من السقوط، وتمده بخصائص التفوق، وتلك هي«الصدق والاستقلال والحرية»[3]، فإذا كان الأدب

---

(١) مقالة : الأدب والحياة، رمز كاتبها لنفسه بـ (...)، وأذهب إلى أنه حمزة شحاتة؛ لأن في هذه المقالة من أسلوبه وطريقة تفكيره ما يدل عليه، صوت الحجاز، عدد ١٥٦، ١١/٢/١٣٥٤هـ.

(٢) مقالة : صلة الأدب بالحياة، حسين سرحان، صوت الحجاز، عدد ١٨١، ٨/٨/١٣٥٤هـ، ص١، وانظر «من مقالات حسين سرحان» ص ٢٢.

(٣) مقالة : في موازين النقد — ٣ — محمد عمر توفيق، صوت الحجاز، عدد ٤٨١، ١٠/٥/١٣٥٩هـ، ص٣، كتبها يرد على أحمد عبدالغفور عطار في مقالته : «ونقاش أيضاً» صوت الحجاز، عدد ٤٧٥، في ١٨/٤/١٣٥٩هـ، ص١، وصوت الحجاز، عدد ٤٧٦، في

صادقًا أمينًا في معانيه وخيالاته وأهدافه قدر على أن يوصل أفكاره وما ينشده في قبول وإقناع، وإذا كان مستقلًا غير متهالك ولا ضعيف صوّر أحلام بيئته وآمالها، ونقل ميزاتها، وتحدث عن أدق صفاتها وملامحها، وإذا كان حرًّا منطلقًا، غير مغلول، ولا مقيد، وغير متوجس من معنى، ولا خائف من كلمة، ولا قلق حول إيحاء استطاع أن يرتفع في الآفاق، يقطف من كل خميلة فواحة عبقة ما يضوّع معانيه بأريج الحرية الماتع، وشذاها الفواح المبدع.

وهل كان الأدب في البلاد ــ وبخاصة في مطلع النهضة ــ محظيًّا بهذه الخصائص ؟! متجاوزًا عقابيل الركود، وسدود التخطي ؟!.

البيّن من مقالات النقد أن الأدب كان مغلولًا إلى سلطة التقاليد، لا يملك الحرية الدافعة له إلى الانطلاق والبحث والتفكير، تأسره بيئة راكدة، وتقعد به آمال عاجزة، فما ركن إلى أدب هذا شأنه، في فجر النهضة وما قبلها ــ نفر من الشبان المتوثبين الطامحين إلى التجديد، والمتعشقين سمو الحياة ومنعتها حتى أخذوا يشكون ويطيلون الشكوى، ويتذمرون فيسرفون ما وسعتهم الحيلة، وبلغ بهم الجهد مبلغه وراحوا يجربون أدواتهم، ويختبرون معارفهم، ويجسون مواهبهم في التجديد الأدبي الذي يسعون إليه، فيوفقون مرة، ويجيئون دون ما طمحوا إليه مرة، ولكنهم في الحالات كلها مدفوعون بعزيمة غير مهزومة، وبآمال تطال السحاب، وهم ــ إن خالطهم اليأس، وبانت في مقالاتهم النقدية الشكوى المرة ــ لا يركنون إلى التثبيط، ولا يقنعون بما يتساقط تحت أقدامهم من موات المعاني ونافد الكلمات، وهزيل العزائم، فيذهبون يعيدون الكرة في هدم وبناء، ونقض وإصلاح «يشمل العاطفة والعقل فيتولاها بالصقل والتهذيب، ويدفع بهما في سبيل ممهدة إلى الكمال المطلق المنشود، ويحاول أن يقضي على الغرائز الغشيمة المتركزة في طبيعة الإنسان الحيوانية، ويسمو بها في أجواء الفضيلة في حدودها القصوى

١٣٥٩/٤/٢١هـ، ص١.

وذلك على إثر المحاضرة التي ألقاها محمد عمر توفيق في دار الإسعاف بمكة، مساء يوم الأحد ١٣٥٩/٣/٣٠هـ وكان عنوانها «الأدب الحجازي بين المد والجزر».

ليتمكن الإنسان من إنسانيته على وجهها الصميم .. فغاية الأدب أن يسمو بالإنسانية إلى المثل الأعلى في الحب والحياة وفي الحرية وفي الفن، وأن يصهر العواطف صهرًا يتلاشى مافيها من أدران تبعثها الغرائز القديمة، وأن يجلو العقل ويصقله فينفي عنه ما تركته عليه الأطماع الإنسانية المتوارثة»[١].

وقد اشتدت بهم الدعوة إلى مقومات الأدب الصحيح، وأبانوا كيف يبنى الأدب الهادف المؤثر، وكيف يصل الأديب بتأثيره إلى ما يريده من التغيير والإصلاح، فأكدوا على أن الحرية «أول عامل من عوامل نهضة الأدب، وهي أول مقوماته، والأدب لا يبلغ شأوه ولا يستطاع تقديمه بغير الحرية .. »[٢]، ويبعد أحمد عبدالغفور عطار عن الذهن ما يمكن أن يعلقه من مفهومات خاطئة حول معنى الحرية، فينفي أن يكون انتهاك القيم العامة من الحرية، أو المتاجرة بالغرائز من هذه الحرية.

ويبين عبدالكريم الجهيمان أن إطلاق الحرية للأديب سيدفعه إلى الإبداع، وسيفتح أمامه آفاقًا رحبة من المعارف، وسيسلمه ذلك كله إلى الثقة والقوة والوقوف مع الحقيقة، وكشف الزيف في الحياة بعامة، ويرى أنها «الدعامة الكبرى التي يجب أن يقوم عليها أدبنا الحديث، الحرية بمعناها الذي يفهمه المفكرون والعقلاء، لا الحرية التي يفهمها المهوشون والبسطاء .. »[٣].

فمقومات الأدب ـــ حسب مفهوم أدبائنا ـــ هي الحرية، والاستقلال، والصدق.

فأين هذه مما ينشره أدباء البلاد من ألوان مختلفة من الأدب ؟!.

هل يقبلها أصحاب النقد، وكتّاب المقالة النقدية على أنها أدب ممتاز، صادق الحس والشعور، معبّر عن أفكار أصحابه، وناقل لهواجسهم، ومحقق

---

(١) مقالة : غاية الأدب عندنا، عزيز ضياء، صوت الحجاز، عدد ٢٤١ ، في ١٣٥٥/١١/٦هـ.

(٢) مقالة : أدبنا الحديث، أحمد عبدالغفور عطار، كلام في الأدب، ص٢٥.

(٣) مقالة : ما هي مقومات أدبنا الحديث، عبدالكريم الجهيمان، الأضوا، عدد ٦٢، في ١٣٧٨/١/٢٦هـ.

لغايات الأدب النبيلة ؟!.

لقد تساءل كثيرون عن هذه القضايا فرأوا أن الأدب لديهم خلو منها، أو من أكثرها، ودفعهم الإخلاص لرسالة الكلمة إلى أن يحتدوا في سعيهم إلى التغيير الفكري، والوعي بغاية النص، وهدف الفن، وقيمه الرفيعة.

على أن المقالة الأدبية لم تخل من سمات إبداعية كثيرة في مطلع النهضة، ولم تكن كما يصورها كتّاب المقالة النقدية، ولم يكن الأدب بعامة مفلسًا إلى هذا الحد من معاني الجمال، وصور الابتكار، فقد كان إلى جانب الكتّاب المقلدين والاتباعيين كتّاب آخرون مبدعون ومبتكرون، وكانت الجريدة تمثل أنماط التفكير السائدة، وصورًا مختلفة من الأساليب والنتاج الأدبي.

فالشكوى التي يعلنها الناقدون لم تأت موضوعية دقيقة، فقد بالغوا في ذلك واندفعوا بآمالهم متطلعين إلى احتذاء ما يكتبه الأدباء العربالآخرون، وما وصلوا إليه من سبق أدبي وفكري، وغاب عن ذاكرة ناقدينا ــ أو أكثرهم ــ أن بعض أقطار الوطن العربي سبق إلى النهضة بأكثر من خمسين عامًا، وأن بلدانًا عربية أخرى لا تستسلم للقيم التقليدية الموروثة، ولا تحرص على المحافظة عليها وليست مسئولة عن رعايتها، والإبداع ــ كما سلف ــ نتيجة طبيعية للحرية، وانسلاخ القيود.

لكنني أتناول نماذج من المقالة النقدية الشاكية، الهادفة إلى صياغة المفهوم الجديد للأدب في البلاد انسياقًا مني إلى ما تفرضه المسئولية التاريخية والنقدية على حد سواء.

فعندما تحدث عزيز ضياء عن الأدب[1] في الحجاز ذهب إلى الزعم بإنكاره، وإفلاس ما يقرأه الناس من أصحاب هذا الأدب من خصائص الأدب الجيد، ومقومات الإبداع فيه، ولا يرى ضيرًا في أن يتحدث إلى الشباب المتعلق بأذيال هذا الأدب عن شيء أشبه بالوهم، أو أقرب إلى الشعوذة والدجل، على حين يزعم

---

(١) مقالة : الأدب، حديث الأسبوع، صوت الحجاز عدد ١٥٧، في ١٨ صفر ١٣٥٤هـ، ص٤.

كثيرون ممن يحسبون أنفسهم في عداد المبدعين والمثقفين أن «أدبهم قد بلغ أشده، وأصبح قادرًا على أن يدعي لنفسه شخصية قوية مستقلة، وصفة ممتازة مشرقة»[١]. بيد أن عزيز ضياء يرى أن الأدب في الحجاز «لا يقصد إلى غاية، وليست فيه روح، وليست فيه قوة»[٢]. وفي هذا شيء من التحامل على أدب رجال لا يقلون عن عزيز ضياء إبداعًا وابتكارًا.

ويبدو مفهوم الأدب مضطربًا أشد الاضطراب في أذهان الناشئة، في ابتداء النهضة الفكرية والاجتماعية في البلاد، فلم يكونوا يكتبون ـــ كما يرى عبدالسلام الساسي[٣] ـــ للإصلاح أو للإسهام في بناء الحياة العقلية والأدبية، بل كانوا مدفوعين إلى الكتابة للاشتهار والبروز، وتعلق بها بعضهم باعتباره فنًا جميلًا يرقق الإحساس، فتكالبوا على الأدب ومسائله، وفيهم القادر الموهوب، وفيهم العاجز الضعيف، وتوهموا أن الأدب كل شيء.

فيدعوهم الساسي إلى العمل، «لأن الأمم لن تتقدم إلا على أساسه، ولأن الحياة ليست أدبًا فحسب، وإنما هي عمل وجهاد ونضال»[٤]، ويدعو إلى ألّا تأخذهم بهرجة الشعر، وبراعة التصوير في النثر والقصص.

ودفعت هذه الرغبة الجامحة ببعضهم في البروز إلى السطو على أفكار غيرهم، وانتحالها، وسرقة آثار أدبية كثيرة، فازداد مفهوم الأدب أمام هذه السوءات ضعفًا ورداءة، ولعل أحد الكتّاب الدارسين، والمعنيين بنضوج نهضة الأدب واستوائه عانى من خفاء المفهوم الجيد للأدب، ولتعاطي الكتابة فشكا وتذمر، وعدد

---

(١) مقالة : غاية الأدب عندنا، صوت الحجاز، عدد ٢٤٢، في ١٣ ذي القعدة ١٣٥٥هـ،ص ٤.

(٢) المقالة السابقة.

(٣) ولد في المدينة سنة ١٣٣٥هـ، ودرس بمدرسة الفلاح في مكة وجدة، وشغل وظائف عدة، أسهم في الحياة الأدبية، وأرخ لكثير من نشاطها وحيويتها، له في ذلك (الموسوعة الأدبية) في أكثر من ثلاثة أجزاء، ولكن لم يصدر منها ـــ حسب علمي ـــ سوى هذه الثلاثة، وله (شعراء الحجاز في العصر الحديث) و (الشعراء الثلاثة في الحجاز)، وغيرهما، توفي عام ١٤٠١هـ، انظر المعجم ٥٦٩/١، والموجز في تاريخ الأدب العربي السعودي للدكتور عمر الطيب الساسي، ص٩٤.

(٤) مقالة : جناية الأدب على الجيل الحاضر، صوت الحجاز، عدد ٢٧٩، في ٧ شعبان ١٣٥٦هـ، ص٧.

أسباب التأخر في الميدان الأدبي، فقد ذكر محمد حسن كتبي أنه سينشر في مجلة عربية خارج نطاق البلاد، استجابة لدعوة وجهت إليه منها، هروبًا إليها من فساد الحياة الأدبية، وإسفاف النقاش الدائر فيها، مما أفقد الناس «فضل الثقة في الأدب. حتى لقد أصبح لقب الأديب مهزلة عامة يسخر الناس به بعضهم من بعض»[١].

ويرى أن الأدباء القادرين منصرفون عن دفع هذا السخف والتهويش، حتى غدا الأدب تسلية واستثارة للضحك والممازحة الممجوجة، «فذاك سرق مقالًا وحرّفه ثم نشره باسمه، وآخر ألمّ إلمامًا بسيطًا بالقراءة والفهم فراح يتنطع بآرائه التي لا أثر فيها لتعقل ولا علم، وغير هذا وذاك من أخذ يعتدي باسم الأدب على جميع التقاليد المحترمة والآداب الاجتماعية المرعية ويعبث فيها بالفساد، فلا يحترم من هو أكرم منه علمًا أو سنًّا أو مقامًا، ولا يحفل بمن هو دونه أيمّا حفل فكيف لا تهزل الجماعة من الأدب؟!»[٢].

ثم يستجيب لدعوة ثانية من محمد سعيد عبدالمقصود المسئول عن أم القرى للمشاركة بالكتابة الأدبية في الجريدة، رغبة في تطويرها والارتفاع بما تنشره من ألوان أدبية مختلفة[٣].

والكاتب يعتب من طرف خفي على ما تنشره صوت الحجاز من نقد ونقاش بين عدد من الأدباء، وعدد من القراء، في غير انتقاء، ولا اختيار للجيد من النقد، والمفيد من الآراء .وكانت الجريدة قد أباحت ساحتها للأدباء والهواة الشادين على السواء، فنشرت كثيرًا من الأدب الجيد، وأذاعت أيضًا محاولات عديدة لناشئين وشداة كثيرين.

---

(١) مقالة : دراسات في الأدب القديم والأدب الحديث، أم القرى، عدد ٦٠٩ في ١٩ جمادى الأولى ١٣٥٥هـ، ص٧.

(٢) المقالة السابقة.

(٣) سخرت من هذه الاستجابة جريدةُ صوت الحجاز، وأشارت في أسلوب المتندر إلى أن مقالاته ليس لها كبير حظ في التأثير بعامة القراء. انظر : عدد ٢١٩ من الجريدة نفسها في ٢٣ جمادى الأولى ١٣٥٥هـ،ص٤.

ويتفق مع محمد حسن كتبي كتّاب آخرون، يتألمون من لصوص الأدب، وسراق المقالات «لقد كثر هؤلاء ــ وأيم الله ــ كثرة هائلة يشكو منها الجميع، .. إنها فوضى أدبية حقًّا ! من الواجب مكافحتها بكل أنواع المكافحة، والكتابة حولها في كل المناسبات وعدم ترك حبل طلاب الشهرة الأدبية الزائفة على غاربهم، أولئك الذين قد عكروا الجو الأدبي بزيفهم وتضليلهم .. »[1].

ومن المؤسف أن مفهوم الأدب الجيد ظل قلقًا غير ثابت في أذهان المبدعين والنقاد، فالكل يشكو، الأديب المبدع غير مطمئن إلى استجابة النقد، والأديب الناقد غير قانع بما يكتب وينشر من فنون القول الأدبي بعامة.

والحق أن التذمر قد يكون في بعض جوانبه صدى لبدء المحاولة في تأسيس مفهومات الأدب في البلاد، وفي تحديد خصائصه وميزاته، ومن طبيعة المحاولة أن تكون عرضة للتوفيق والإخفاق، ومن طبائع البدايات أن تحفل بكثير من الغثاثة والهشاشة مع ما قد يبرز فيها من لفتات جيدة لبعض الكاتبين الموهوبين، ومن نصوص لها حظ من الإبداع، تكون الخطوات الأولى المؤسِسة في الطريق إلى النبوغ والتميّز.

ولكن عدوى الشكوى صحبت الأدب السعودي في أكثر أطواره، وأصبحت لازمة من لوازم الأجيال، فهي بدأت مع النشوء الأولي للأدب، ثم لحقته حين بدأ يزهر في منتصف الخمسين بعد الثلاثمائة والألف، واشتدت بعد الستينات، ثم أخذت تختفي وتظهر مع طغيان المفهوم الصحفي، وذيوع أساليب لكسب المعارف جديدة، تصرف الناشئة عن تحصيل الأدب، وتشغل القراء عن متابعة موضوعاته.

ولا زلت أحمل ذلك على طموح الناقدين وبعض الأدباء الساخطين على نصيب الأدب الضئيل، من التوفيق والنجاح في الوصول به إلى القمة من الريادة والتأثير.

---

(١) مقالة : هي فوضى أدبية حقاً، بقلم (أ،س،ع)، صوت الحجاز، عدد ٢٢٠ في ٣٠ جمادى الأولى ١٣٥٥هـ ص٤.

ففي السبعينات أحس بعضهم بخطر الصدود عن الأدب، وبمنافسة المعارف الأخرى وبانشغال الصحافة ــ إلى حد ما ــ عن الأدب بأمور الحياة العامة، وبعبث كثيرين من ناقصي الموهبة، ومتعشقي الظهور، والمحاولين خوض عباب الأدب في غير استعداد وفي غير امتلاك موهبة حقيقية، فكتب الحريصون يستثيرون همم الأدباء القادرين على إدراك ما تبقى للأدب من آثار، وما وقر منه في نفوس متابعيه وعشاقه، ممن تلقوا جيده ورائعه، حين كان هناك جيد ورائع ــ كما يرون ــ!.

وأحد هؤلاء المتشائمين من انحدار المفهوم الأدبي إلى الحضيض عبدالقدوس الأنصاري فهو يرى أن كثيرًا مما ينشر ليس إلّا من هشيم الأدب وفتاته، وأنه ليس له قيمة تذكر في مقياس النقد الصحيح، وأن ضرر هذا الغثاء المنشور أكثر من فائدته، ولذا برم به، وضاق منه أشد الضيق، لأن أكثر ما نُرزأ بقراءته، أو نمر به مرّ الكرام اليوم، مما ينشر على أنه أدب، لا يصح مطلقًا أن ندخله في حظيرة الأدب فهو مجرد كلام أجوف، كتب في أغراض تافهة، وبأسلوب بدائي، ويتعاطاه نفر من أدعياء، ونفر من ناشئة، وأطفال كبار، وأطفال صغار ..». وإذا كان الأدب كما يذكر عبدالقدوس ــ على هذا النحو من القتامة والإقتار ــ فبماذا كان يصاول ؟! ومع من كان يختصم ؟!، وكيف سيّرت مجلته ألوانًا من الأدب مختلفة، بين النقد، والإبداع، والدراسة، خلال عقود من عمر النهضة الأدبية ؟!.

أترى لو كانت الحال كما ذكر يستطيع أن ينشر كل ذلك ؟! وهل توجد أزاهير إبداعية ــ كما يسميها ــ دون قراء ومتابعين ؟! وهل يملك الجَلد على متابعة الأدب طيلة نصف قرن لو لم يكن ثمة ما يدعو للاستمرار في الكتابة والنقد ؟!.

ومفهوم الأدب الجيد عند بعضهم أن يكون مستقلًا في التعبير، ومستقلًا في التفكير عميقًا في مضامينه، متصلًا اتصالًا وثيقًا بالحياة، «ليكون للحجاز أدب

---

(١) مقالة : هشيم الأدب، المنهل، رجب وشعبان ١٣٧٦هـ السنة الواحدة والعشرون.

ممتاز كما لمصر ولبنان والعراق آداب ممتازة، ليكون لنا قصصنا المصبوغ ببيئتنا أحداثًا وأفعالًا، وليكون لنا شعرنا المصور لحياتنا واقعًا وخيالًا»[١].

ومما يدعو للأسى أن طائفة كبيرة من كتّاب منطقة الحجاز لم تع معنى الوحدة الوطنية، ولم تك تدرك أن وحدة الأدب خير ما يصور قوة العلائق الاجتماعية والسياسية، وخير ما يرسم الطموح الشعبي الواحد في الحياة المتحضرة المستنيرة.

فهم يدعون إلى أدب إقليمي ضيق الآفاق، قصير النفس، حين يرون أن الأدب هو ما صور آمال الحجاز، ونقل طموحات الحجازيين في التقدم والنهضة !، على الرغم من مرور سنوات طويلة على الوحدة السياسية، والتئام شمل الأقاليم في شبه الجزيرة العربية، وكان أولى بهم لو تحدثوا عن أدب البلاد، وطموحات البلاد، ومستقبل البلاد الحضاري، وبخاصة أن الحجاز مهوى الأفئدة، وجامع شمل المسلمين، وأبعد ما يكون عن النظر في مثل مفهومات بعض أدبائه عن الأمة والقومية الضيقة.

على أنني أتجاوز ماتقع عليه عيني حين قراءة نصوص هذا الأدب، وألتفت إلى المعاني الجيدة الأخرى التي يدعو إليها، وإلى ما يمثله في أدب البلاد من سبق إلى النشوء والتكوين، والبحث عن مسار يلائمه، وأسلوب يتفق مع غاياته في الحرية والإبداع والإمتاع.

وإن مفاهيم الأدب الجيد لدى عدد منهم تكاد تلتقي مع الطموح الإنساني العام في أن يكون الأدب طريقًا إلى الخير، ومعبرًا عن سعي الإنسان الدؤوب إلى الحقيقة، وراية خضراء تعلن معاني الجمال، في المشاعر الراقية، والأحاسيس المثالية الأخلاقية نحو ما تضطرب به الحياة من أفانين القول الجميل، ومن ألوان الفعل الإنساني الكريم.

فهذا محمد حسن عواد يكتب مفهومه النقدي لمعنى الأدب الجيد، فيراه في

---

(١) مقالة : دعوة إلى التجديد الأدبي، أحمد محمد جمال، المنهل، عدد محرم ١٣٦٩هـ.

كل ما صور نوازع الخير، ودعا إلى الفضيلة والصدق، على حين يسمي الأدب المسف الضعيف أدبًا هلاميًّا، ويذهب إلى تعريفه بأنه «كل أثر فكري تنقصه عوامل الصحة والقوة والاستكمال والصدق، وهو الذي يجب أن يوصم به كل أديب ــ أو مستأدب أو شيء له شبه بأهل القلم والفكر ــ بضاعته الغرور وحب الشهرة، والفجاجة والمماحكة الوقحة، وهو فارغ من كل شيء»[1]. ويأتي فيما بعد من هذه المقالة إلى مزيد من ألوان هذا الأدب الهلامي فيرى أن «أدب الدعوى المجردة التي لا ينهض بها دليل، وأدب الهزيمة المخجلة التي تنشأ من خوف المنهزم على ماضيه وحاضره، ومستقبله أدب هلام .. وأدب المسكنة والرياء العاجز عن الاستقامة، وعن التعبير الحق أدب هلام وأدب الالتواء والحذلقة أدب هلام»[2].

وهلامية الأدب في بعض جوانبه ــ كما يراها هؤلاء الناقدون الذين أعرض آراءهم ــ دفعت عددًا منهم إلى اتهام الحركة الأدبية بعامة بالإفلاس والوهم، وأن النهضة الاجتماعية سبقتها في كثير من الأمور، وأن ما جدّ على البلاد في السبعينات من نماء وتطور لا يصل الأدب إلى مواكبته بل استباقه والتبشير بما سيأتي من تغيّر في العقلية الأدبية، والوعي الاجتماعي[3].

ودفعت آخرين ــ بعامل اليأس ــ أن يناقشوا مقدار استفادتهم من هذا الأدب، وجدواه على حياتهم، وهل في إمكانه أن يحدث التغيير المنشود، فيرى محمد عمر توفيق أن إجادة التعليم غير وعي المسائل الأدبية، وإدراك مسئولية الفكر، فكون طبقة كبيرة تعلمت لا يعني أن الوعي قد تقدم، مدفوعًا بنهضة الأدب وازدهاره، ويرى أن الصحف لا تنشر إلّا غثاء، وأن القراءة الموقوفة على هذه

---

(١) مقال : هلام، خواطر مصرحة، جـ٢، المجلد١، ص١٢٧.

(٢) المقالة السابقة.

(٣) انظر مقالة : هزيمة الأدب، طاهر زمخشري، البلاد السعودية، عدد ٨٥٤، في ٢٦ ذي القعدة ١٣٦٨هـ.

ومقالة : الحياة الأدبية وما لها وما عليها، للكاتب نفسه، المنهل، عدد١ ذي القعدة وذي الحجة ١٣٦٨هـ، «عدد ممتاز» ص ٥١٢.

الصحف غير نافعة في إنضاج العقلية الفكرية، وإثراء الوجدان الأدبي[١]، على حين يرى أحمد عبدالغفور عطار خلاف ذلك، فالعلم والتعليم أثمرا في إحداث «تقارب الطبقات، وسمو الذوق والوعي القومي والاتجاه إلى العمل، والصبوة إلى الكمال، والتوثب إلى العلا، والقلق الذي يحمل على السعي والكفاح، والاتصال بالعالم، والتأثر بحركاته وأحداثه .. »[٢].

ويصر محمد عمر توفيق على اعتقاده بإفلاس الأدب من التأثير، وفقدانه عوامله، فهو لا يرى «غير استقرار ذهني رتيب .. ومادامت الطبقة العامة هي المقصودة بهذا البحث في تأثير الأدب، فلنقل : أين هي دلائل «الرجة الذهنية» المفروضة في هذه الطبقة ؟ إن أفرادها لا يتذوقون الأدب، ولقد تكون لغة الصحف مفهومة عند بعضهم، ولكن لغة الصحف لا ترقى عادة إلى مستوى الأدب الرفيع .. »[٣]. ويرد عليه أحمد عبدالغفور عطار شارحًا أوجه التأثير، وملامحه في تفاعل فئات عديدة من المجتمع مع نضج ألوان كثيرة من الأدب، واعترافه بقصور بعض الأنواع الأدبية عن النضج، ويسلم للمقالة الأدبية في ما بلغته من رقي، «وعندنا طائفة من الأدباء استطاعت أن تحلق في هذا الجو وترينا نماذج صالحة منها، وفي وسع أدب المقالة عندنا أن يرفع رأسه لأنه استوى ونضج، إلا أن الذي نفاخر به منه قليل محدود .. »[٤].

وبَعْد فإن سعي أدباء البلاد ــ في مطلع النهضة، وإبان نشاطها وثرائها الفكري والأدبي إلى إنكار نتاج كثير مما يكتبه زملاؤهم وأقرانهم، وربما ما يكتبونه هم من إبداع ونقد سببه على الراجح طموحهم الوثاب إلى تكوين مفهوم متميّز بالنضج والفاعلية للأدب، وللعطاء الأدبي.

---

(١) ندوة المنهل، هل استفدنا من الأدب، واشترك فيها محمد عمر عرب، ومحمد عمر توفيق، وحسين عرب، ومحمد حسين زيدان، والسيد أمين مدني، وعبدالله عريف. المنهل عدد ربيع الثاني ١٣٦٧هـ، مارس ١٩٤٨م، ص١٤٠.

(٢) مقالة : هل أفاد الأدب، المنهل، جمادى الأولى ١٣٦٧هـ، إبريل ١٩٤٨م ص ٢١٠.

(٣) مقالة هذا الأدب، المنهل، عدد رجب ١٣٦٧هـ، ص ٢٧١.

(٤) مقالة : أدبنا المعاصر، المنهل، عددا ذي القعدة وذي الحجة، عام ١٣٦٧هـ، ص٥٠١.

ولذلك قرأنا اختلاف الآراء وتباينها حول حدود هذا المفهوم، ونصيب الأدب منها، وسخط بعضهم على ما يكتب لافتقاد المفهوم المتميز السالف الذكر فيه، واحتياجه الشديد إلى عوامل القوة والحياة والتأثير.

وغير خاف أن كثيرين منهم مغالون في دعواهم، ومسرفون في إنكارهم أدبًا تبينت معالمه، واتضحت غاياته، واستطاع أن يصور هموم حياتهم، ونبض بيئتهم، وفورة عزائمهم في التغيير والتطوير لتلك البيئة الراكدة ولأسلوب التفكير السائد فيها.

ب ـ مفهــوم النقــد

استفاد كتّاب المقالة النقدية من تيارات النقد المختلفة، واتضح في نقدهم تأثرهم بمدارس النقد القديمة والحديثة، وبخاصة من كانوا يميلون في مقالاتهم الأدبية النقدية إلى الأسلوب المتزن الهادىء الرصين، البعيد عن العلمية، والمبني على الذائقة والانطباع الذاتي، وفي السنوات الأولى للنهضة لم يكن النقد العلمي المنهجي سائدًا، وكان من يكتبه لا يتجاوز المآخذ اللغوية، ومحاكمة الأسلوب من حيث المنهج البلاغي فحسب، كما كان يفعل أحيانًا عبدالقدوس الأنصاري وإبراهيم هاشم فلالي، وأكثرهم التزامًا بالسمات العلمية في النقد محمد حسن كتبي في دراساته عن الشعر العربي القديم، وموازناته بين بعض الشعراء غير أن النقد الانطباعي المعتمد على الذائقة الذاتية ظل السبيل السهل لكل من اعتقد رأيًا، أو استطاب معنى، أو استراح إلى جمال فني في صورة أو خيال، أو تعبير صادق عن تجربة في الحياة، أو معاناة مع الشجن، وهذا الكلام العام مقدمة لحديثي المفصل عن مفهومات النقد، وأسلوب الناقدين، وخصامهم حول أنجح الطرائق وأكثرها توفيقًا إلى الإلمام بالنص، والإحاطة بالمعنى، وتفسير العمل الأدبي بعامة.

واتجاه أكثر كتّاب المقالة النقدية إلى الذوق، واحتكامهم إليه عند النظر إلى النصوص، أو معالجة مسائل الأدب وقضاياه منح المقالة النقدية لمسات إبداعية،

يصور فيها الناقد ــ من خلال نظرته إلى النص ــ خواطر نفسه، ونوازع ذاته، ومقدار أثر العمل المنقود في وجدانه، ومبلغه في تحريك مشاعره نحو القبول أو الرفض، وهكذا، فالناقد في مثل هذه الحالة لا يكتب نقدًا فحسب، ولكنه يكتب مقالة أخرى ضمنية عن نفسه من حيث لا يريد !.

ولو كان النقد علميًّا جافًا منعزلًا عن نفسية صاحبة، وعن سبر أغوار النص، وعلائقه الموصولة أو المبتورة بمبدعه ما استأنسنا إلى شيء من التدفق والعذوبة والانشداد إلى الرأي النقدي، يدفعه كاتبه إلينا في مختلف التصاوير، وأساليب متعددة بين اللين والعنف، والهوادة والشدة، والخصام والقبول.

وقد تبين أثر المعارف القديمة والحديثة في مفهوم النقد لدى محمد علي مغربي، مما يصح أن يطلق عليه المفهوم الشامل في النقد المعتمد على تيارات مختلفة، يوفق بينها الناقد، ويستفيد منها على قدر ما يخدم النص، ويفتح مغاليقه، ويكشف أوجه الجمال، أو مواضع السوء.

فهو يرى أن النقد ليس «لازمة من لوازم الأدب فحسب ولكنه لازمة من لوازم الحياة نفسها .. »[1]، وهذا استهلال ينبى عليه جدوى سعيه في مقالاته هذه عن النقد، وفائدة إتيان النقد بما يُرجى منه في إصلاح النص المصور للحياة وللإنسان في مختلف الشئون، وكأن النقد للحياة والنقد للنص الأدبي أمران متلازمان، يصلح أحدهما الآخر، ويسعى الكمال إلى الحياة من خلال وصول الناقد والمبدع إلى الصورة المثلى التي يحلمان بها، ويدفعانها إلى الناس، لتمعنها وتبصرها، وكشف مجاليها.

أليس النص جزءًا من صور الحياة المختلفة ؟!؟ ثم أليس الإنسان الفنان المبدع أحد المؤثرين في هذه الحياة والمتأثرين بها ؟ فلم لا يكون إصلاح النص نقديًّا، وكشفه تفسيريًّا إصلاحًا لشأن من شئون الحياة، وكشفًا لسر من أسرارها المغلوقة ؟!.

---

(١) مقالة : في النقد ــ١ــ صوت الحجاز، عدد ٣٩٠، في ٢٨ جمادى الأولى ١٣٥٨هـ، ص١.

وهذا التلازم بين الحياتين، الحياة في النص، والحياة في الواقع أفضي بكثير من الأعمال الأدبية والنقدية في أدبنا السعودي إلى الخلود. فنحن نقرأ الآن ألوانًا متعددة منها فنحس بذائقتنا تستجيب لها، اتفاقًا على جمال في الصور، أو على نضج في الفكر، أو على أسلوب سلس في توصيل تلك المعاني والأفكار، وتصوير نفسية صاحبها وخلجاته الذاتية.

ثم يرى أن النقد يصل إلى سبر أغوار النص، وكشف دخائله، وفضح مكنونه، ولا يكتفي بالحلم، فإن بعض المتلقين للأدب قد يظهر حكمًا بالجمال أو القبح، وبالكمال أو بالنقص، بيد أنه لا يستطيع تفسير هذه الأحكام، لأن هذا التفسير وظيفة الناقد المدرب الصناع، «ولهذا كان ظهور النقاد الممتازين والنقد الجيد في أدب أمة دليل حياة هذا الأدب ونموه وتدرجه نحو الكمال»[1].

ويشترط لمن يقوم بهذا العمل أن يستجمع أدواته من التجربة والدرس والفهم والملكة الصحيحة، والإنصاف والعدل، ثم لا بد للناقد من ثقافة اجتماعية وأدبية كاملة، ومعرفة واسعة بشتى شئون الحياة.

ويعرج محمد علي مغربي على صلة النقد بعلم النفس، ودراسة الأديب قبل دراسة أدبه، ومعرفة بيئته، وفهم شخصيته فهمًا حقيقيًا يكشف النص، ويقربه من المعنى المراد.

وحين ينظر إلى النقد في أدب البلاد لا يرى إلّا إفلاسًا ـــ حسب زعمه ـــ فالأدب «لم يصل إلى هذه الدرجة من الازدهار .. والأدباء لا يستطيعون الإقدام على هذه الدراسات في جو رحيب من الحرية والطلاقة»[2].

ولا يعد من النقد ما يكتبه نفر من النقاد مقذعين وشاتمين، ولا يعد منه ماكان محاولة للوصول به إلى الشهرة، وما كان منه مماحكة لفظية خاوية من

---

(١) المقالة السابقة.

(٢) مقالة : في النقد ـــ٢ـــ صوت الحجاز عدد ٣٩١، في جمادى الثانية ١٣٥٨هـ ص٤ بتصرف يسير.

الهدف الشريف، والمعنى الواضح، «فهذا عبث لا يقابل إلّا بالإعراض والسخر»[١].

ويذهب إلى أن الأدب لم يوفق إلى النقاد المتمكنين من أدواتهم، والمتيقظين لمهمتهم مما أخل بمقاييس الأدب، وأحدث فيه أوجهًا من النقص، وجعل الأمر موكلًا إلى من لم يستكمل أسباب هذه الوظيفة الشريفة من الأدب.

وإذا كان المغربي يريد من النقد أن يكون على هذا المستوى من التبصر والتذوق، واكتمال الشخصية، وتوافر المعارف المختلفة، فإن نقادًا آخرين لم يتحلّوا بهذه الروح المعتدلة المستندة إلى مدارس النقد العديدة، فوجهوا غايتهم إلى البعث والإحياء، واطراح التواكل والكسل، وإنهاض الأمة بالمصاولة النقدية بين الكتّاب النقديين والمبدعين، واختلف حظ كل فئة من الاعتدال والقسط، أو الثورة والمهاترة !.

وسأتناول طرفًا من مراودة فئة من كتّاب المقالة النقدية معنى النقد، ومصطلحه في فترة التأسيس، والبحث عن ملامح أدب البلاد.

تساءل محمد حسن فقي عن الأسلوب النقدي الملائم لحالة الأدب في مستهل النهضة الأدبية، أيكون عنفًا أم اعتدالًا ؟ ويكون على هذا النحو من الكثرة والموالاة أم يقتصد الكاتبون، فلا يتولون عملًا أدبيًا بالنقد إلّا حين يصل مرتبة يستأهل فيها إمعان النظر، وإعمال الفكر ؟.

ولا يأخذه الخوف على مستقبل الأدب إلا من تهور بعض الناقدين وصلفهم، «فالاندفاع في النقد اللاذع يوهم النفوس التي لم تتعود النقد بعد أنه شتم وسباب، وتلك معضلة تسد باب المفاهمة»[٢]. فلا يرى الكاتب ضرورة للصلف والمغالبة في المواقف التي يتخذها النقاد من مسائل الأدب، ولا يثمر ذلك غير قطيعة بين الأدباء، ومفسدة لفهم النصوص، بيد أن محمد على مغربي ــ صاحب الرؤية

---

(١) المقالة السابقة.

(٢) مقالة : كيف يجب أن نكتب، صوت الحجاز عدد ١، في ١٣٥٠/١١/٢٧هـ، ص٦.

النقدية المتزنة السالفة ـــ لا يتفق مع الفقي في طلب الهدوء، والابتعاد عن المشاكسة في النقد !!.

ويقول: «إن النهضة الأدبية لا تقوم إلا بالنقد العنيف. . وأنت أظنك سمعت ـــ أو ستسمع إن كنت لم تسمع بعد ـــ عن المعارك القلمية الدائرة بين أنصار الأدب القديم والحديث في مصر وسوريا والمهجر، وقد رأينا أن الأدب العصري لم يقم إلا تحت حرب قلمية عنيفة قام بها دعاته وزعماء مذهبه حتى أمكنهم أن ينتزعوا له المكانة العظمى التي يتسنمها اليوم»[(١)].

فالهوادة والرفق والمجاملة ـــ حسبما يرى ـــ لا تثمر أدبًا قويًّا، ومن يريد إقناع الخصوم ليس له إلا أن يعنف ويشتد في رأيه كي يقنع ويدفع الضعف، ولا ريب أن الفقي ينساق مع طبيعته الشفافة المسالمة التي تميل إلى الرفق والهدوء، على حين يلتزم المغربي بمبدأ المواجهة، والدفاع عن الرأي ما وسعه ذلك بكل ما يملك من أدوات النقد وأساليبه.

ويرد من رمز لنفسه بـ «طفيلي» منكرًا على الفقي تعاليه، ونعته الشباب بالطفيليين، وداعيًا إلى الجمع بين اللين والشدة، والسماحة والقوة، فهو لا ينكر «أن النفس بميولها وعواطفها تتألم من النقد بأي وجه كان، ولكن هذا لا يمنع العقل وهو ذو شكيمة وحزم أن يأخذ بها إلى طريق الخير، فإن استعصت وتمردت فلا مندوحة إذن عن القوة»[(٢)].

ويرى غيره أن الإفراط في الخيال يبْعُد بالأدب عن الواقع الذي يعيشه الناس، فيدعو من رمز لنفسه بـ «متألم» إلى الواقعية في النص الأدبي، وإلى الواقعية في

---

(١) مقالة: «حول كيف يجب أن نكتب» رد وتفنيد، صوت الحجاز، عدد ٤، في ١٨/١٢/١٣٥٠هـ، ص٤، ويستشهد المغربي بأبيات في النقد لمحمد سعيد العامودي:

يـــا قائـــلاً لي ترفـــق	في النقـــد فالنقـــد يجرح
إلـــيك عنـــي فإنـــي	أرى الصراحـــة أصلـــح
إن كـــنت تـــرغب مسحـــاً	للجـــوخ فـــاذهب تمسح
أمـــا أنـــا فشعـــاري	في النقـــد : نقـــد مسلـــح

(٢) مقالة: حول كيف يجب أن نكتب، طفيلي، صوت الحجاز، عدد ٥، في ٢٥/١٢/١٣٥٠هـ.

نقد هذا النص الأدبي، فهو يرفض الخيال المجنح الذي يسبح فيه بعض الأدباء، وينفصلون به عن قضايا المجتمع، ويقول إنه يعترف بما للكتابة الخيالية من التأثير والذيوع في العالم المتمدن اليوم إلا أننا نحن أهل الحجاز احتياجنا للحقيقة في الوقت الحاضر أكثر بكثير من احتياجنا للخيال وجميع أقوالنا وأفعالنا، وحركاتنا وسكناتنا تحتاج إلى بحث وتحقيق»[١].

والذي يظهر في هذا الأسلوب المتقدم ضعف الصياغة، وفقدان الطبع الأدبي في اختيار اللفظة وسبكها، وقربه من أسلوب الصحافة المباشر، وخير ما واتانا به، ميله إلى فهم الواقع، ودعوته الأدباء إلى الاستجابة لمطالب بيئتهم في التغيير، والانصراف عن الخيال المبعد بهم عن قضايا مجتمعهم.

على أن الدعوة إلى الواقعية الخالصة مهلكة للأدب، ومتلفة للصور الإبداعية الجميلة، فقد يخدم الخيال اتجاه الكاتب إلى النقد الواقعي، وقد يقرب فكرته إلى الأذهان بالرسم والتصوير.

ويلزم الاستفادة من الجانبين كليهما النظر إلى القضايا المجردة، والانطلاق إلى عالم الفنان المبدع المصور الذي يستجلي فيه رؤاه، ويبحث فيه عن الحقائق الهاربة من الواقع المادي المحسوس.

ثم يرى أن بعض الأدباء لا يُعنى بالموضوع، وإنما يقصر جهده على «تزويق الكلام وصقله ورصفه وأبهته وبهرجته»[٢]، ثم يعلل مذهبه في الابتعاد عن التحسين والطراوة بأن القصد من الكتابة الفائدة، وليس التحبير والتسطير[٣]. ويحمل على نفر آخر من النقاد يتخذ من الأدب والنقد سُلمًا لأغراضه الشخصية «فيمسون الشخصيات ويحرجون العواطف، مع أن الانتقاد بريء من ذلك»[٤]. والحاجة إلى التشجيع أكثر من الاحتياج إلى الخصام والنقد المثبط للعزائم

---

(١) مقالة : الأدباء في بلادنا وما عليهم، متألم، صوت الحجاز، عدد ٧، في ١٣٥١/١/١٧هـ، ص ٧.

(٢) المقالة السابقة.

(٣) المقالة السابقة أيضاً.

(٤) المقالة نفسها.

ـــ كما يرى ـــ، والميدان أمام الكتّاب فسيح بما يحفل به من أمراض اجتماعية وعادات مرذولة، حق الكاتب أن يقف أمامها بالنقد والتشريح واللوم.

ويتفق مع هذا الرأي من رمز لنفسه بـ «ابن رشيق»، فهو لا يذهب إلى النقد بمعناه المعروف عند العامة «فالنقد ليس هو الشتم، وليس هو الهجاء، وليس هو مهاجمة الناس والتحامل عليهم، إنما النقد في صميمه ولبابه ملاحظة وتأمل، ودراسة وتحليل، وغربلة ووزن ومناقشة للأشياء، ثم إظهار كل ذلك في أسلوب من أساليب الحكمة، وإبرازه في قالب من قوالب البيان، يتفق مع السداد والمنطق، ويلتئم مع أدب اللياقة والذوق السليم»[١]. وهو لا يريد من النقد المنافع، ولا يريد منه الصلف والشتيمة.

وكأن ابن رشيق يومىء إلى بعض ما يكتبه العواد والعطار ـــ على الأخص ـــ من إسراف في التقريع، وخروج عن طور الأدب العام، وعدم تورع من استخدام اللفظ الموجع القاسي، مما ورد منهما في ردودهما حول مسائل كثيرة، أو ما كتباه يهاجمان أو يردان على كتّاب آخرين[٢].

ويقترب ابن رشيق من الإشارة الواضحة إلى مذهب الداعين إلى أن يكونوا أحرارًا في النقد، وأحرارًا في الفهم، وأحرارًا في كل شيء، فيقول عنهم دون تصريح «يريدون من النقد أن يكون سلاحًا لهم، ولكن كي يستعملونه كيفما شاءوا، وبأي طريقة من الطرق أرادوا، وعلى أي منهج من المناهج ساروا، يريدون أن يكونوا أحرارًا، ولكن في غير الدائرة التي تتسع لحرياتهم، وفي خارج الحدود التي تفصل بين الحرية وعدم الحرية، يريدون أن يكونوا أحرارًا حتى في طريقة الفهم»[٣].

---

(١) مقالة : النقد ومعناه، ابن رشيق، صوت الحجاز، عدد ٣٢، في ١٣٥١/٧/١٥هـ، وهو محمد سعيد العامودي كما ذكر ذلك الأنصاري في مقالته عن الأسماء المستعارة.

(٢) سيرد ما يؤكد النزق في النقد، والصلف في الخصام عند العواد والعطار وغيرهما في جزئيه قادمة من هذا الفصل بعنوان (معارك ومناوشات أدبية).

(٣) المقالة السابقة.

فهو لا يؤيد الحرية في سياقها العكسي، ولا يدعو لإطلاق الرغبات الهامشية الهوجاء، دون ضوابط وقيود من ضمير وقيم وأعراف.

ويرد عليه من رمز لنفسه بـ «ملاحظ» مهاجمًا بألفاظ قاسية، ومحددًا معنى النقد في البدء بأنه الإصلاح والتقويم والنزاهة، «إن الله لم يعط الكاتب الفذ بلاغة المنطق وقوة التعبير عبثًا ليلعب بها كألعوبة صبيانية أو ليصور الباطل حقًا، ويحيل الحق باطلًا»[1].

ويدخل ابن رشيق وملاحظ في خلاف عقيم، حول مفهوم النقد، وأساليبه، وما يصلح من طرائق النقد لإنضاج الأدب في البلاد، ويخرجان عن النهج المعتدل في النقاش إلى ضروب من اللجاج والتنقيص والإقذاع، على حين أرادا أن يقوّما المعوج من أساليب النقد في بيئتهما، فما استطاعا أن يكونا في نقاش قضية النقد مثالًا لما يدعوان إليه من اعتدال وتبصر وبعد عن الشطط في الرأي، والتعجل في الإفضاء بالأحكام.

وعلى الرغم من أننا غير واجدين في ما كتباه من هذه المقالات فكرة جديدة مبتكرة أو اتجاهًا قويًا يصلح أسلوب النقد الناشىء ويوقفه على الطريق السوية، إلا أنهما يومئان إلى ما كان يعتور الأدب والنقد في تلك المرحلة من انفعال بالرأي، وضعف في عدم احتمال الخلاف حوله، ولعل من طبيعة النشأة أن تفسح المجال أمام الطموح الوثاب، والعاطفة المشبوبة، سعيًا إلى اكتشاف ما يستقيم مع الحياة من الآراء، وما يلائم ألوان الأدب المختلفة من مناهج التقويم والدرس.

وقد أخذ «ملاحظ» على «ابن رشيق» عجزه عن الوصول إلى لب البحث «فلم يوفه حقه من الدراسة والتعمق، ولم يعطنا رأيًا استنتاجيًا نفهم منه ماهي المسألة كما يجب : وهذا شأنه دائمًا في ضعفه.

نحن نعرف منذ لابسنا حياة الأدب، وعرفنا كل ضروبه أن النقد ضروري، وأنه

---

(١) مقالة : ابن رشيق وكلمته في النقد ــ رأي اعتراضي، ملاحظ، صوت الحجاز، عدد ٣٣، في ١٣٥١/٧/٢٢هـ.

إلى هذا يجب أن يكون بريئًا متنصلًا من الأغراض بعيدًا عن كل نزعات النفس الذاتية، ولكن مقالة الأديب ابن رشيق لم تزدنا بالمسألة معرفة، ولم تفك المشكل الذي نحن الآن نحلق في فضائه .. »[١].

ويوالي هجومه القاسي فلا يرى في مقالته «نظرة عميقة فنية، ولا رأيًا طريفًا .. فهي جمل مرصوصة، ومعان كلها قديمة، وموضوع أقدم». ويعده ببحث وتحقيق يكشف فيه اللثام عن هذه الشخصية الضعيفة الزائفة !!.

ولكن ابن رشيق يهزأ بنقد «ملاحظ»، ويراه كلمات مصفوف بعضها فوق بعض، الأمر الذي أذكره أيام المدرسة، حيث كان يتسابق مع أقرانه في كتابة مواضيع الإنشاء»[٢]، ثم ينكر غرور الكاتب، ويقول «إنه مرض متأصل فيه» .. وهو مازال شابًا في ميعة الصبا لم يدرك بعد الحقائق والمعارف»[٣].

وأمام هذه الحدة في اللفظ، والشدة في الاعتصام بالرأي، وعدم التسامح فيه، وما ساد الصحافة من منازعات وخصومات دعا بعض الحريصين على الأدب النزيه إلى التعقل والاتزان، والابتعاد عن الهوى، وتسخير الأدب لخدمة الأغراض الشريفة، ونوازع الإصلاح، وحمل عمل أكثر الناقدين على حسن النية ونبل المرمى، بيد أن هذين الأمرين لا يبرئان ساحة من يهيىء نفسه لهدم آراء غيره، وإبطال ما يعتقدونه، ويقف لهم بالمرصاد «في كل سانحة فكر وخطرة نفس ونفثة قلم لينقضها من أساسها مهما كانت ذات دلالات بينة وفيها حقائق ناصعة لا تقبل التحوير ـــ فقط ـــ ليثأر لنفسه وليشفي غليله وليساير شهوة نفسه وجموح هواه .. »[٤].

وهذا لا ينفي حاجة الأدب إلى النقد، والمجتمع إلى الإصلاح، فالدعوة إلى

---

(١) المقالة السابقة.

(٢) مقالة : خداع العناوين، ابن رشيق، صوت الحجاز، عدد ٣٥، في ١٣٥١/٨/٧هـ.

(٣) المقالة السابقة.

(٤) مقالة : الأدب والنقد، وقعها كاتبها بـ «صاحبكم»، أم القرى، عدد ٣٩٣، في ١٢ صفر ١٣٥١هـ، ص٤.

النقد قائمة، ولكن تجريد النفس من الأغراض، والميل من الأهواء، ودفن الأضغان أمر تفرضه العزيمة الصادقة في الإفادة من الأدب والإقبال عليه لئلا يكون منبوذًا لا رغبة فيه «ثم إن النقد العنيف البذيء كثيرًا ما يضر بالأدب ضررًا بالغًا، بتزهيد العلماء والأدباء في نشر تعاليمهم وآرائهم صونًا لأعراضهم من أن تعلق بها الألسنة السلطة التي لا تفهم من النقد إلّا التهجم والهدم والمعارضة .. »[1].

ويدعو آخر إلى استثارة همة القادرين لحماية النهضة الأدبية المبتدئة من «جعجعة الأدعياء، وتهويش البسطاء[2]، .. «ولا يجد سببًا لانصراف أصحاب الشأن عن الكتابة والنقد إلا ما تتبادله الأقلام من شتائم، ولأن «الجنايات الأدبية والمآسي الدامية تمثل على مسرح أدبنا الفتي في كل ظرف ومناسبة، الفينة تلو أختها، أفلا تأخذ هذه الطبقة الغيرة على الفن وتحفزها لحمايته والذود عنه من تهجم الأدعياء وادعاء البسطاء وشذوذ المغرورين ؟!»[3].

ويخشى أديب آخر على النهضة الأدبية الناشئة من أقلام غريرة طائشة، فيدعو إلى الرفق في النقد[4]، وعدم التجريح، ويذكر بأيام كانت الأقلام في الحجاز خافتة الصوت، ممنوعة من الظهور، فلا يحسن أن تترك فرصة النشر دون اهتبال، ولكن في تأن وبصيرة بما يدفع الحياة الأدبية والاجتماعية في تقدمها إلى الإشراق والاكتمال.

وحين دخلت جريدة «صوت الحجاز»عامها الرابع توجه حسين سرحان بكلمة

---

(١) مقالة النقد ــ حديث الجمعة، وقعها كاتبها بـ «د.ح.ط»، أم القرى، عدد ٦٢٣، في ٢٨ شعبان ١٣٥٥هـ، ص ٣، وانظر نقداً لهذه المقالة كتبه أحمد عبد الغفور عطار بعنوان : «النقاعون في الأدب»، المقالات، ص٦٦، وكأن (د.ح.ط) يعني بنقده العطار، ويدعوه إلى الاعتدال، والرفق في المخاصمة.

(٢) مقالة : الأدب الذي يمثلنا ــ كلمة إلى الأدباء، وقعها كاتبها بـ «ط..» أم القرى، عدد ٦٥٣، في ١٣٥٦/٤/٢هـ،ص ٣.

(٣) المقالة السابقة.

(٤) مقالة : نهضتنا الأدبية المزعزعة البنيان هل من أمل في إصلاحها ؟، وقّعها كتابها بـ (م.ص، نصيف) ويبدو أنه محمد صالح نصيف، صوت الحجاز، عدد ١٣٢، في ٢٧ رجب ١٣٥٣هـ.

رصينة هادئة، يحاسب فيها الماضي الأدبي والنقدي، ويراه مفلسًا من الأدب الجيد، والنقد الهادف، ويرى أن الأدب الصحيح فيها شحيح، وكأنه يشير إلى حظ الأدب بعامة في المرحلة الأولى من النهضة فهو في رأيه «عبارة عن مهاترات متبذلة تطول على غير جدوى، وأبحاث سخيفة تصاغ لغير غاية سوى حب الظهور أمام الناس بالمظهر الأجوف .. »(١).

وقد هدأت المقالة الأدبية النقدية، والتزمت جانبًا من جوانب الاتزان، ولكن الجريدة لم تستطع أن تفي بما وعدت به فحملت أعدادها فيما بعد ألوانًا من المقالات النقدية الحادة، وما كانت بمستطيعة ذلك وفورة العاطفة على نحو ما كانت عليه من الشبوب والثورة والصدام مع الماضي.

وإذ حملت الصحف الأسبوعية واليومية إلى قرائها ذلك الخصام النقدي العنيف نجحت مجلة «المنهل» في اتباع أسلوب رصين، بعيد عن اللجاج، فكانت المقالة النقدية فيها تميل إلى ما تفرضه — في الغالب — قيم النقد العلمي من درس واستقراء، ولم تدخل في معترك النقد الثائر بين الفئات المتعارضة وفاء بوعد صاحبها، وحين مضى على صدورها أربع سنوات كتب يؤكد هذا النهج قائلًا : «سنحافظ على مبدئنا العام، وهو أننا : نتجنب المراشقات بالكلام، ونسعى للتقدم على الدوام»(٢).

وأخذ عليه بعض الأدباء صرامته في عدم قبول شيء من حدة النقد المفيد في تنشيط الأدب، وحثّ الأدباء على الكتابة «يجب أن نقول لصاحب المنهل إن مبدأه القديم في امتناعه عن نشر الانتقادات العلمية والأدبية في مجلته الذي لم يزل متمسكًا به إلى اليوم قد آن أن يتخلى عنه، لأن النقد يسترعي انتباه القراء. على أني أشترط ما يحبه صاحب المنهل لتحقيق هذه الدعوة إلى نشر النقد

---

(١) مقالة : صوت الحجاز بين عهدين، صوت الحجاز، عدد ١٥٥، في ٤ صفر ١٣٥٤هـ، ٧ مايو سنة ١٩٣٥م ص١.

(٢) مقالة : افتتاحية، المنهل، عدد ذي الحجة عام ١٣٥٩هـ.

بمجلته : أن يلغي من مقالاته ما يمس الأشخاص، ويبقي ما يتصدى للأفكار والآثار»[١].

غير أن هذا الحث لم يفلح في تليين عزيمة صاحب المنهل لقبول المقالة النقدية الحادة، فقد كتب بعد خمس عشرة سنة من صدورها يقول «سار المنهل على منهجه المرسوم مؤديًا رسالته الأدبية والعلمية، يقول الحق في غير عنف ويرسم الخطط في هدوء وإمعان، ولا يتورط في الزيف، ولا يساهم في الإطراء الواهي، ولا يتفحش في الشخصيات .. »[٢].

ويذهب إبراهيم هاشم فلالي إلى اتباع الأسلوب النقدي العنيف عند النظر إلى الأعمال الأدبية، دون إسفاف أو تدن أو مهاترة، ولكنْ قوة وصحة وثبات على الرأي، فبعد أن أصدر الجزء الأول من «المرصاد» قابله عدد من الأدباء المنقودين بمقالات متوالية، تحمل عليه وعلى مرصاده، تهدم عمله النقدي، وتراه غير بصير بأمور النقد وأساليبه، ولكن الفلالي يخلص من هجوم هؤلاء المنقودين عليه إلى غايته التي يريدها في إيقاظ النوّم من غفلتهم بقوله «.. نحن لا تسوءنا قذائف الشتم والسباب من جماعة المفجوعين والمتفجعين بقدر ما تسرنا اليقظة التي انتابتهم بعد الهجوع الطويل»[٣].

والنقد القوي يوقظ الأدباء من غفلتهم، ويحرك الساكن من دواعي القول، ويدل على وجود أسباب الحياة في الأدب والفكر، بيد أن هذا النقد يجب ألّا يخرج على أدب المناظرة والجدل، ولا يتعدى قيم الأخلاق ووقارها، ولا يتأتى له أن يقذع ويتسمل ويؤذي إيذاء شخصيًّا.

فالمقالة الأدبية النقدية هي ما هدفت إلى تصوير النص وتشخيصه وإبانة أوجه الحسن فيه، أو أوجه القبح، ثم صورت أثر هذا النص نفسية ناقدة، وجاءت

---

(١) مقالة : دعوة إلى التجديد الأدبي، أحمد محمد جمال، المنهل، عدد محرم ١٣٦٩هـ.
(٢) مقالة : عامنا الجديد، عبدالقدوس الأنصاري، المنهل، عدد محرم ١٣٦٩هـ.
(٣) مقالة : المقدمة التي لا بد منها، إبراهيم هاشم فلالي، المرصاد، جـ٢، ص١٠٤، مطبوعات النادي الأدبي بالرياض، سنة ١٤٠٠هـ.

المقالة في أسلوب متدفق سهل، غاضب حين يجد للغضب سببًا وجيهًا، وليِّنًا راضيًا حين يقف على ما يعجب ويرضي.

بل إن بعض الأدباء يرى أن النقد يبني، ولا يهدم، فـ «تقوية كل بناء في الحياة الأدبية يضمن توطيد الأسس التي يقوم عليها صرح الحياة الأدبية في المستقبل»[١].

وأرى أن الهدم واجب كحتمية البناء، فهدم المتهالك والرديء والضعيف لازم من لوازم النقد، ولكن بشروطه التي قدمت، والبناء للأدب أمر لازم أيضًا لما ينمو منه ويترعرع ويحتاج إلى التشجيع والعون والكشف، ويتضمن قيمًا صحيحة تُسرع إلى الإبداع والتأثير.

---

(١) مقالة : الحياة الأدبية بين الهدم والبناء، فؤاد شاكر، صوت الحجاز، عدد ٤٨٠، في ٦ جمادى الأولى ١٣٥٩هـ، ص ١.

٢ ــ بين القديم والجديد :

من سنة الحياة أن يظل فيها قديم يسعى للحفاظ على خصائصه من الاندثار وجديد متوثب تدفعه روح قوية طامعة في تكوين ملامحها، وإضفاء تأثيرها على القديم، ويولّد هذا الخلاف رغبة لدى الفريقين في البحث عن مواضع القوة، ودوافع النماء والاستمرار فيما يميلان إليه، ويكون من ذلك نقد عنيف أو هادىء، ويكون من ذلك محاولة للوقوف على قيم مشعة قابلة للحياة في القديم، وقيم أخرى نابضة بالتدفق والإضافة والثراء في الجديد، ومن هذا الخلاف الذي يحدثه الطرفان المتعلقان بالاتجاهين تكسب الحياة توالدها الطبيعي في الفكر والأدب والفنون بعامة، والأخلاق السامية، ويضيف النابهون في كل جيل معارف جديدة تزداد رسوخًا وتأكيدًا.

وهذا الخلاف لم يكن وبالًا كما يعتقد بعض النقاد، ولم يكن استهلاكًا للجهد والوقت والفكر كما يذهب آخرون، فهو دليل قوي على الرغبة العنيفة في تكوين حياة أكثر رقيًا وأحفل بالزاهي النابض من الجمال والإمتاع في الفنون والآداب والقيم.

ولو ركن كل فريق إلى ما يؤمن به، وخفتت الأصوات، وانقطع مابين الفئتين من أخذ ورد لفقدت الحياة دافعًا خلاقًا من دوافع الإبداع والتكوين والإضافة.

ولا يتوقف هذا الخلاف ــ لأنه مستمر إلى الأبد ــ إلّا في الأزمنة البائسة، التي يعلوها الصدأ، وتطمر معارفها في ذاكرة النسيان، ويجهل الناس فيها ما يريدون، وإلى أين هم مقودون ؟!.

إن هذا الصدام، حين يشتد ــ بين قديم وجديد ــ ينبيء عن عناصر قوية تتدافع للظهور، وعن آراء قد تكون شديدة ناضجة، وقد تكون فجّة طرية، دلائل على الوعي بضرورة الإبداع، وأهمية أن يكون الرأي غير مسلم به على الإطلاق، وخطورة الصمت على المعتقد في مسائل الحياة، ومنها الآداب والفنون ــ صمتًا يذهب به ويدفنه في موات من الإهمال والإنكار والجهل.

والخلاف في الرأي حين يبدو دليل أكيد على الصحة العقلية لدى الأمة، ودليل آخر على أن نعمة العقل التي وهبها الله للإنسان لم يكفر بها، فيغتالها قانون تسنه فئة من البشر المرضى يحب التسلط والاستعباد.

وليس أكرم من أمة تقول ما تؤمن به، وتعلن ما تنكره، وليس أقرب إلى الرقي والحضارة والسمو من هذه الأمة، حين تدافع عن حياتها العقلية والوجدانية، فلا تخضع لمن يريد سلبها كرامتها وبقاءها وعفتها الإنسانية. والأمة المغلوبة على أمرها هي تلك التي ينتزع منها جهلاؤها إشعاع العقل، ويقظة الضمير، وحضور الوجدان. وحين يموت الرأي وينطفيء الخلاف نعلم أن الأرض يابسة يباب ليس فيها نماء ولا حياة، لأنها سرقت ماءها من حيث لا تعلم.

وتجد هذا الصدام في تراثنا الأدبي على أشده بين التيارين، يضيف الطريف للتالد ما استحدثه، ويمنح التالد الطريف من نضج وقوة، ومن المقالات الأولى المبكرة التي فصّلت القول في هذا المعنى ما نشرته أم القرى عام ١٣٥٥هـ، محاولة تحديد مفهوم القديم، وإيضاح مرامي التجديد التي يدعو إليها الشبان ــ آنذاك ــ على الأخص.

والمقالة تمثل تيارًا ناشئًا في خضم التشبث بالقديم أيًا كان، فكثيرًا ما استخدم كاتبها عبارة «وإنا نرى ..» أو «وإذا قلنا إننا من دعاة التجديد» مما يوحي بأن الكاتب لا يعني اتجاهه فحسب، وإنما يقصد تيار الوعي الناشيء، من المتعلمين الجدد، ومن شداة الأدب النابهين، ومن قرّاء الآداب العربية، الذين ضاقوا ذرعًا بسلطة القديم في كل شيء، ورغبوا أن يبنوا مفهوماتهم لما يجلونه في الأدب والتراث العربيين، وما يطمحون إلى إضافته من معارف العصر، وأوجه الإبداع الحديثة، فكرًا، وفنًا، وأسلوب حياة.

وقد أنكر كاتب المقال أن يتم «تحويل القلوب واتجاه الأفكار دفعة واحدة»[١]، ولكنه يدعو إلى اتباع العقل والمنطق في مواجهة المؤيدين أو

(١) مقالة : القديم والجديد ــ التجديد الذي ندعو إليه، دون توقيع، أم القرى، عدد ٦٠١، في ٢٢ ربيع أول ١٣٥٥هـ، ص ١، افتتاحية.

المعارضين للقديم أو الجديد، ويدعو كذلك إلى فهم معنى القدم، ومعنى الجدة فهمًا سليمًا، ويشير إلى أن كثيرين يبنون تصورهم عن هذين المعنيين بناء مخلوطًا مضطربًا.

وكأن «المقالة» تضع منهجًا عقليًّا ونقديًّا للناظرين في هذه القضية، ولكأنها أيضًا تبين عن نهج الجريدة الفكري، والأدبي حين تتصدى لنشر نصوص إبداعية من التراث، أو ما كُتب على منواله، ونصوص أخرى من جديد العصر، وما ابتدع فيه كاتبوه من صور وأساليب وأفكار.

وفي البدء أوضح كاتب المقالة أن الاتباع والتقليد وتأسي القديم ليس وقفًا على الشيوخ، ولا صلة للسن باعتناق المبادىء والأفكار، وأن الانتماء إلى الجديد ليس مقصورًا على الشبان «إن هذا الاعتقاد اعتقاد فاسد من أساسه يجب أن يزول، إذ لا دخل للمبادىء في الأعمار.

إن المبادىء من الاعتقاد، والاعتقاد نتيجة التفكير، وأفكار الأفراد تختلف باختلاف الوسط والبيئة واتجاهات الحياة التي فيها يعيشون. إنا كثيرًا ما نجد شابًا في ريعان الصبا ومقتبل الشباب، ولكنّ مبدأه الدفاع عن القديم، وكثيرًا ما نجد شيخًا في مكتهل العمر، ولكنّ مبدؤه الدفاع عن الجديد»[1].

وليس في هذه الفكرة اكتشاف جديد، وإن جودتها التأكيد على معنى دقيق في فهم طبيعة الخلاف بين التيارين، وفي مقتبل انتقال من أسلوب في الحياة قديم إلى أسلوب في الحياة جديد ومختلف.

والمسنون والشبان حين يصطدمان، ويوحى إلى أي منهما بأن الخصومة بين جيل وجيل، وعُمر وعُمر، ليسا على صواب في كل ما ذهبا إليه، فالحق أن الخصومة بين فكر بدأ يخفت صوته ويضيع منه بريقه، وفكر آخر تبنته العزيمة اليقظى، والروح العطشى، وإضافة الحياة المستمرة، الحافظة للنوع الفكري والأدبي، كما تحفظ النوع البشري.

---

(١) المقالة السابقة.

«ليس معنى القديم هنا ما تعاقبت عليه العصور والأجيال، كما أن ليس معنى الجديد هنا كل ماظهر وحدث، ولو كان الأمر كذلك لاختلط نظام الحياة ووقعت الانسانية في فوضى لا نهاية لها : إن القديم هنا التفكير السيء والعمل المعوج، والاتجاه المضر، والجديد هنا : الإصلاح وإنقاذ الإنسانية من شرور الحياة، والاتجاه لخير البشرية وسعادتها. ولذا قيل «المجددون هم المصلحون». هذا معنى القديم والجديد هنا، وإذا فهمنا غير هذا فيكون فهمنا شططًا»[1]. ويظهر أن الكاتب لم يستطع أن يأتي بما يريد كاملًا خشية أن يقف أمامه محبو التقليد، ومن يفنون في القديم.

وهو ــ خوفًا من أن يسبق فهم سيء إلى أي منهم ــ يعلن استماتته في الحفاظ على الجميل من الماضي، والزاهي من التراث بقوله «إن لنا في قديمنا مالو قُطعت منّا الأعناق، وبُترت منا الأوداج لما تخلينا عنه»[2]. بيد أنه يومىء إلى أولئك المتباكين على الماضي الجميل، والنائحين عليه، فلا يرى في قعودهم على تأسي ما يندبونه، أو فهم المستجد من علوم العصر نفعًا، لأنهم غافلون عن حقيقة الصراع الأبدي بين القوة والضعف، الإضافة والنقص، الأخذ والعطاء، وخير لأولئك القاعدين مع الخوالف أن يؤمنوا ــ مع الكاتب ــ «أن الحياة اليوم حياة جهاد وعمل وليست حياة أنشودة، ولطم، وبكاء .. »[3].

ومن الإنصاف أن يُنظر إلى هذه المقالة التأسيسية على أنها جهد نقدي وفكري مشكور من الجريدة، فقد فتحت أبواب الفهم لقضية أبدية لازمة، والبحث فيها لا يقصر على الأدباء فحسب، بل يتعداهم إلى المعنيين بأمور الفكر، ودرس الحضارات، وتأمل التاريخ، كما نقرأ ــ هذه الأيام ــ لأولئك المفكرين الراصدين لماهية الصلة بين الشرق العربي المسلم والأمم الأخرى، والجدل المحتدم ــ كالعادة ــ في هذا الشأن، وهو في طبيعته لا يخرج عن رغبته في التمسك بقديمهم، ورغبة أخرى في الإضافة والابتكار.

---

(١) المقالة السابقة أيضاً.

(٢) المقالة نفسها.

(٣) المقالة السابقة.

ومن الداعين إلى الأخذ بالجديد ومواجهة من يدعون إلى فيء الماضي، وظلاله الخيالية عزيز ضياء، إذ كتب ساخطًا على التقليد، وعاتبًا على المقلدين تعصبهم لماضيهم وإنكارهم إبداع الإنسان في هذا العصر، ومبديًا ثقة كبيرة بانتصار التجديد، واندثار التقليد، كما هي سنة الحياة، ومتوقفًا عند مفهوم الجديد الذي يريده، والقديم الذي ينبذه، ويدعو إلى عدم الغلو فيه.

وهو يرى أن المقلدين ينكرون علوم العصر لقلة ثقافتهم، ولطبيعة التربية التي نُشِّئوا عليها، ولأنهم «نشأوا في جو تعيش فيه أشباح القديم فتسبغ على كل طللٍ جلالًا مصدره ما جرت به العادة من احترام الموتى، وقدسية منشأها الحرص على التراث التليد كثروة غالية وكنز ثمين وهم إنما يحتقرون الجديد، ويشمئزون منه، لأن مصدره ثقافة ينبوعها الغرب، والغرب في نظر الشرقي خطر لا بد من الوقوف في سبيله، ولا مناص من إشهار السلاح في وجهه مهما كان جميلًا، ومهما كان متنبهًا، ومهما كان جديرًا بالتقدير»[1].

وتبلغ الثقة في انتصار الجديد إلى أن يرى أن الحياة كافلة هذا الحق للإنسان، وأنها ستبلغ الغاية التي تريد، وملتمسًا من أنصار القديم الرفق في الخلاف، والسماحة في فهم تطور الحياة ونمائها، وفهم معنى الابتكار والإبداع، ومبديًا ولاءه لكثير من القديم حين يجد فيه «كفاءة تلائم حاجة الإنسان العصري»[2]، وهو في نظره جديد «مادامت له القدرة على البقاء، وسيكون قديمًا حين أجد في الجديد أصلح منه للحياة وأنفع منه لحاجة الإنسان العصري[3].

ولكنه يجد عقبة كأداء من مخالفيه في الرأي، ومناوئيه في الاتجاه، ويجد أن خصومتهم غير شريفة، ولا يسعون فيها إلى الوصول إلى الحقيقة، وهم مسرفون أشد الإسراف في حبهم القديم، وكرههم الجديد، وغير متورعين عن قذف الداعين إلى التجديد «بالزندقة والإلحاد، ويبالغون في تحقيرهم، ويرون فيهم زعانف جديرة بالسحق»[4].

---

(١) مقالة : بين القديم والجديد، عزيز ضياء، أم القرى، عدد ٦٢٤، في ٦ رمضان ١٣٥٥هـ، ص٢.

(٢)(٣)(٤) المقالة السابقة أيضاً.

وإنّ هذا الوعي المبكر بضرورة التجديد لأمر لافت الانتباه إلى عقل مستقبل الجدة، ونفس راغبة في التغيير، وناقمة أشدّ النقمة على ما يحكم المجتمع بعامة من رتابة وموات واندثار.

وسعى المقلدون إلى فئات كثيرة، يستثيرون فيهم النزوع إلى الماضي، والخوف على القيم والخشية على أنماط التربية، وأنماط السلوك من رغبات الشبان الآخذين بحديث المعارف، وجديد الفكر، ويقظة الوعي، فكوّن أولئك سدًّا عاليًا مواجهًا لتيار التغيير، وأحدث في ميدان الأدب لغوًا ماكان ليحدث لولا غلواء العاطفة، والانقياد إلى العادة، وأفسح المجال للمدعين، والواهمين، وللصالحين ولغيرهم أن يفتئتوا على أصحاب الدعوات الحديثة إلى التطوير والجدة بأنهم ضعيفو الولاء للماضي، غير مدركين لضرر التجديد على الموروث بعامة.

على حين يذهب عزيز ضياء — في شيء من السماحة والاعتدال — إلى قبول المشرق من الماضي، ومحاولة فهم المضيء من الحاضر، ويطلب اللين في مقابلة الرأي، والرفق في معارضته، فهو حين يتحدث عن تيار الجديد — الذي ينوب عنه — كما يوحي بذلك في مقالته يؤكد على «أننا لا نكره لأنصار القديم أن ينتصروا لقديمهم، ولكننا نكره أن يكون هذا الانتصار بطريق غير طريق الشرف، وبوسيلة غير وسيلة المنطق، إذ لا يعدّ هذا انتصارًا فيما نرى إنما هو نذالة وخسة وزحف على الرغام»[1].

ولم تسلم الدعوة إلى التجديد مما تخوف منه عزيز ضياء، فرد عبدالكريم الجهيمان منتصرًا للقديم وخائفًا عليه، ومظهرًا خشيته على العقيدة الدينية، وعلى المفهومات المتصلة بكل شيء مقدس، ومشككًا في تجديد الداعين إلى التطوير والتغيير، وموحيًا بأن كثيرًا من دعواتهم لا تسلم من خدش مقصود وغير مقصود للعقيدة والدين.

وقد سعى الكاتب إلى أسلوب خال من التقدير لخصمه، فلم يشر إلى كاتب

---

(١) المقالة نفسها.

المقال المنقود، مكتفيًا بأنه «أحد الأدباء»، وهذا فيه دلالة على عدم قبوله لاتجاه خصمه جملة وتفصيلًا، وتبدو نفسية الكاتب القلقة من الجديد، والخائفة من زحفه على موروثه الذاتي والجمعي، وعلى ما اعتاده من أسلوب ومفهومات في تساؤل وجهه لعزيز ضياء «.. ما الذي يريد الأديب طرحه من هذه الأشياء (القدم) وما الذي يريد إبقاءه ؟»[١].

وقد اختار الجهيمان أن يكون وسطيًّا لا يرفض من القديم إلا ما يخالف الشريعة، ولا يأخذ من الجديد إلّا ما يوافقها[٢]، وهو اتجاه فضفاض واسع الأطراف، قابل للنقص والزيادة، والاتفاق والاختلاف، والوسطية في مثل هذه القضية لا تنصف القديم، ولا تحترم الجديد، فلا بد من تحديد منهج عقلي ونقدي، بل حضاري شامل يصلح لدرس القديم، وفهم الجديد، وإضافة الإبداع الذاتي إليهما كليهما.

وإنّ فهم التجديد على أنه مناقشة ما يتصل بالعقيدة فهم ساذج ومضطرب، ينمّ عن ضيق في الأفق، وقلق على المكنون من الآراء، ورغبة جامحة في مصادرة الفكر الآخر، وإيقاعه في مصيدة يصعب الخلاص منها، وهي مصيدة أكثر العاجزين في كل عصر، الاتهام بنقص الدين، والتشكيك في سلامة المقصد !.

ومن أبرز الداعين إلى نبذ القديم واطراحه، واحتذاء أساليب المجددين، من مبدعي الأدب في الوطن العربي، والمهجر محمد حسن عواد، وهو من أكثر الداعين إلى الجديد صلفًا واندفاعًا، ومن أوفرهم جرأة على التصريح بما يريد نقضه وهدمه، في الأدب، وفي قيم المجتمع، وفي أساليب الحياة.

وسأكتفي في هذه الجزئية بتحليل بعض آرائه النقدية في الأدب ــ على الأخص ــ تاركًا ما يتصل بالمجتمع ــ وهو كثير ــ إلى أن يحين نقاشه وعرضه في مكانه المناسب[٣].

---

(١) مقالة : بين القديم والجديد ــ رد على مقال، عبدالكريم الجهيمان، أم القرى، عدد ٦٢٨، في ٤ شوال ١٣٥٥هـ، ص٢.

(٢) المقالة السابقة.

(٣) انظر الفصل الخامس، المقالة الاجتماعية جـ٢.

قد نبحث للعواد عن عذر نلجئه إليه يشفع له في شططه وجموحه إلى التجديد في كل شيء، وهو ضيق الأفق الاجتماعي المحيط به، وقسوة الحياة الفكرية التي تكتنفه، يصاولها أمثاله من الشبان المتطلعين إلى الاستقلال الفكري من سلطة البالي من القديم، والمتوجسين خيرًا ـــ إن لم يكونوا واثقين ـــ في نتاج أدباء العصر وإبداعهم، وفسحة الحياة في أقطار أخرى، تملك أن تأخذ ما تريد، وتدع ما لاتريد. وهم ـــ أي أدباؤنا ـــ مأخذون ببعض مافي حياة أولئك من حرية في الفكر، وسماحة في النظر إلى أسلوب الناس في العيش، وطريقتهم في الفهم والتفسير.

أفلا يطمح هؤلاء الشبان الواعدون إلى بسطة في الرأي، ووعي صحيح بالتراث، وإيقاظ للهمم النائمة، من أجل فهمه والإفادة منه، والانطلاق به إلى بناء مفهومات تصلح المعوج، وتقيم المختل في واقع متداع ؟!.

إنني أجد لهم ما يشفع في هذا الشطط ؟! وهل يصلح حالة كهذه غير القسوة العاقلة في نقدها وبحثها ودرسها ؟! وإن الحياة كقارب يتقاذفه الموج في لجة البحر، إن لم يعتصم أصحابه بالصبر، ومدافعة الأمواج، سار بهم إلى غير الوجهة التي يريدونها !.

والفئة الواعية لا تريد للرياح الراكدة أو العاتية أن تتولى تسيير حياتها كيفما اتفق، بل تسعى إلى أن تستقبل هي دفة قيادتها وتوجيهها.

غير أن من يقوّم نقدهم الآن بعد مرور أكثر من نصف قرن، بعيدًا عن الحالة التي أوحت إليهم ـــ وربما فرضت عليهم مواقفهم النقدية تلك ـــ لن يستطيع إلا أن يعاتب ويحاسب، ويلوم على الانسياق وراء العاطفة الثائرة، والرغبة المستبدة بهم في الإصلاح.

وإن ما اعتدل من أمور الحياة بعامة في هذه البلاد كان ثمرة من ثمار كفاح أولئك وجرأتهم، وصراعهم العنيف مع كثير من قيم الركود والتخلف.

ولست أسلم للعواد في كل ماذهب إليه، أو أرى صلفه واجبًا، بيد أني

لا أعاتبه كثيرًا على مواقفه النقدية التي وقفها، وأرى أن إسرافه في الخروج على المعتاد والمقلد عجل بسقوط المتهالك من الأدب التقليدي، وأسرع بمحاولة فهم الجديد.

ولكن العواد نفسه لم يوفق إلى ابتكار جديد يذكر في أدبه وفكره[1]، ولم يستطع أن يؤثر في غيره بأسلوب أدبي متميز، فطغيان النقد العقلي لديه أضعف بناء أسلوبه الأدبي، وأكسبه قسوة وجفافًا وبعدًا عن الرواء والطراوة والجمال.

يرى العواد أن التقليد «جناية جناها على أفكارنا وأقلامنا الأقدمون فطأطأنا لها الرؤوس.

كفى يا أدباء الحجاز! ألا نزال مقلدين حجريين إلى الممات ؟.. »[2].

ولا يفصل القول في أوجه التقليد، فغضبته شاملة عامة، يرفض التقليد أيًا كان، وفي أي سبيل من سبل الحياة، ولا يريد من النشء الجديد أن يؤمن بالقديم مطلقًا، بل عليه أن يكون ساعيًا إلى التحرر من ربقة الماضي، والانعتاق من طغيانه على كل شيء «يجب أن نكون ـ نحن ناشئة البلاد ـ متحررين، متحررين في ألسننا، وفي أقلامنا، في تفكيرنا، في دفاعنا، ولكن لا نتفرنج، ولا نشطط، ولا نزدري كل قديم»[3].

لقد كانت الدعوة إلى الحرية مثار سخط من عامة الناس الموالين للقديم، حيث فهموها على أنها الخروج على العرف والنمط والأسلوب في كل شيء، ثم فهموا أنها ترقى بهؤلاء الناشئة إلى التنكر للبيئة الثقافية الموروثة والاحتفال بما يقدم من الغرب، أو الداعين لحضارته من أبناء الشرق، وقد يكون هذا الفهم صحيحًا في بعض جوانبه، ولكن المجددين لا يطلقون الأمر في الحالتين، الرفض للقديم، والقبول للجديد، وأكثرهم يأتي في مقالته على محاسن ما يرضاه من

(١) انظر : د. محمد بن سعد بن حسين، الأدب الحديث ــ تاريخ ودراسات، ص٣٦٩، ود. محمد الشامخ، النثر الأدبي، ص١٠٦.

(٢) مقالة : الأدب في الحجاز، خواطر مصرحة، جـ١، ص٦٣، مجموعة الأعمال الكاملة للعواد.

(٣) مقالة : من سلسلة أفكاري، المصدر السابق، ص١١٥.

الماضي، ومعايبه أيضًا، ثم بريق ما تبدعه العقول المعاصرة، وبعض ما يفضي بها التحرر إليه من مآخذ، ولذلك يحرص العواد على درء ما يرد إلى أذهان المحافظين من مفهومات لا تستقيم مع اتجاه التجديد المنشود، «.. ولا يفهم الرجعيون أن التطور هو الانسلاخ من الماضي بما له وما عليه، وإنما التطور هو المشي برزانة واهتمام في ميدان الحياة الفسيح للوصول إلى أرقى حالات الكمال الحر، والكمال الحر هو النهاية المخيفة التي يهرب من طريقها الرجعيون أنصار «القدح المعلى» و «القدح» و «السويق» .. وما قيمة الفصاحة إذا جاءت في ثوب لا يوائم حياتنا الفكرية، حياة الصور الفاتنة وشتى المبدعات ؟ وما قيمة الطنطنة في تلك التعابير ونحن نهرب من وجه الطنطنة والزخرف في الأدب كما يهرب الرجعيون من نهاية الكمال الحر[1]؟.

إن الصدام مع القديم ليس صدامًا مع مادة منقولة، تتداولها الأجيال فحسب، ولكنه خصام مع من يتمثله من أدباء، وشعراء، ومفكرين، وما اندفع العواد إلى معاركة القديم لقدمه، بل اشتد في خصومة ناقلي هذا القديم من غير أن يفهموا روائعه، وأوجه الحياة الدافقة فيه، وإن ثورته تبدو عنيفة في تصوير الشخصيات المتحدثة عن ذلك القديم وما تؤمن به من أفكار، أو تنهجه من مسالك الأدب وطرائقه، فلا يرضى منها فهمها البلاغة على أنها صفصفة الكلام وتزويقه، ثم لا يرضى منها الأدب على أنه المديح «المهرجل» كما يسميه، ولا يقبل منها النظم والتأسي على أنه الشعر المبتدع المصور، ثم لا يجد شيئًا مما ذهب إليه في الألوان المنقولة إليه من التراث، وفيما يكتبه الكاتبون حوله، وما ينظمه الشعراء من قصائد مطولة، ويأخذه اللهف علي البلاغة أين يجدها ؟! فيتلمسها في كتب الأشياخ، وفي المقامات، وفي جواهر الأدب، وفي المعلقات، ولدى الجرجاني غير أنه يبوء بالخسار والإفلاس !!.

وفي غير رهق ولا إعنات يجد كثيرًا منها في «شعر وكتابة مسيحيّ لبنان ..، وفي مترجمات فولتير وموليير، وشكسبير، وبايرون، وجوته .. »[2]، ثم يجدها في

(١) مقالة : الأدب الكاسد، تأملات في الأدب والحياة، ص٣٩٢، مجموعة أعمال العواد الكاملة.

(٢) مقالة : البلاغة العربية، خواطر مصرحة، جـ١، ص٤٣.

«الأدمغة المطربشة والمبرنطة والحاسرة، ذوات فكرة التجدد العصري والذكاء النجيب»[١].

ويعلم العواد ــ أو هكذا يتصور ــ أن البلاغة لا تسلم قيادها إلّا إلى العقول الناضجة، والنفوس المبدعة، وتتأبى على أن تسلس للعقول الغلاظ والمقلدين الموهومين بالأشكال، وواهبيها القداسة والإجلال، «.. وربأت بنفسك أن تتدفقي من رؤوس غلاظ أفسدها ثقل العمائم وطول اللحى»[٢].

ولم يكن العواد موفقًا في قبول كل ما تفيض به الرؤوس المبرنطة والحاسرة، ومن الاستسلام أن نَشخَص بأبصارنا، ونفتح مغاليق عقولنا وقلوبنا لما يصدر عن الغرب من فكر وأدب. وما كل ما صدر عن الرأس المبرنط والحاسر مبدعًا ممتازًا آسرًا الإعجاب والتقدير. وإن مما يتفق مع المنطق والاتزان أن ننظر ما يصلح، ومالا يصلح، وما ينفع ومالا ينفع، وفي أدب كل أمة غثاء وسقط لا يحسن أن يقبلا مع الجيد والرفيع من أدبها.

وللعواد أن يشتد في اللوم ما شاء حين لم يجد شيئًا من البلاغة في كثير من أدبنا القديم، غير أنه لم يكن مصيبًا في لوم الأدب العربي كله، والظن بفقدان ما يمتع ويرقى بالوجدان إلى السمو، فهذا تنكر غير محمود، جاء في غمرة عاطفة ثائرة لم تستطع التمييز بين ما يحسن التخلي عنه، وما يلزم قبوله والتأسي به.

ويأخذ الصراع بين القديم والجديد مناحي مختلفة، فيقبل نفر أسلوب الأدب الجديد، البعيد عن التوعر، والقريب من السلاسة، والمعتمد على صدق الكاتب في انفعاله بما يعالجه، وما يصرف القول فيه، ويتلكأ آخرون عن الاحتفال بتجديد أدباء العصر، فلا يميلون إلى كثير من الصور الجديدة في القصيدة، ولا إلى الأسلوب السهل المنقاد في النثر، ولا إلى التأثر بالمترجم من أدب الغرب والشرق، فكرًا وأسلوبًا.

---

(١) المقالة السابقة.

(٢) المقالة السابقة.

ويقف بعض النقاد موقف المتأمل الدقيق المنتظر إسفار اللجاج عن رأي ينهض بالخصومة بين التيارين إلى إثراء النقد والأدب، دون السقوط في المهاترة والرفض المطلق لاتجاه كل فريق، فيذهب فؤاد شاكر إلى أن الجديد قديم في أكثر ما يأتي به، ولم يكن المجددون بمستطيعي الإضافة من غير أن يتزودوا من القديم ما يجعلهم قادرين على الابتكار والإبداع. وأن القديم جديد باستمراره وقبوله الحياة، بما فيه من عوامل القوة والعطاء، فما أحرى بالمتقابلين في هذا الخلاف أن يخففا من غلوائهما في ما يذهبان إليه، ويستشهد الكاتب برأي عبدالرحمن بن خلدون[1] في هذا المعنى، وهو أن الناس جميعًا متشابهون مهما تختلف أزمنتهم، وأن الناس جميعًا مختلفون مها تشتد بينهم وجوه الشبه.

ويذهب الكاتب أيضًا إلى «أن كل جديد هو امتداد لشيء قديم، فإذا أدرك أحدنا شيئًا لأول وهلة ظنه جديدًا ووسمه بالجدة والطرافة، وهذا الذي نقوله ينطبق على النظريات الأدبية والجدلية فقط، أما المسائل العلمية فلا تخضع لهذه القاعدة، إذ إن مجال العلوم بعيد الأفق وميدانه فسيح المدى»[2].

والحق أن العلوم أقرب من سواها إلى الثبات، وقد تقبل في بعض نواحيها التعديل والإكمال، غير أنها يندر فيها أن تقبل النقض المطلق، بخلاف الآداب ومسائل الفن التعبيري، فهي لا تزدهر إلا حين يشتد النقاش حولها، ويكثر المبدعون، أصحاب المواهب الفياضة، فيسهمون في دفع النهر الإبداعي العظيم إلى التدفق، وتؤكد أعمالهم استمرار الحياة في عطائها وتكشفها عن أسرارها الكبرى.

---

(١) هو عبدالرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي، ولد في ٧٣٢هـ، مؤرخ وباحث اجتماعي، له آراء جيدة في الحضارة والتاريخ، ونهوض الأمم وسقوطها، من أبرز آثاره : «العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر» في سبعة مجلدات. أولها المقدمة التي حظيت بكثير من الدرس والتأصيل. توفي عام ٨٠٨هـ، في القاهرة، حظي بدراسات كثيرة من أهمها، فلسفة ابن خلدون، لطه حسين، ودراسات عن مقدمة ابن خلدون، لساطع الحصري. انظر في ترجمته : الأعلام الزركلي ٣/٣٣٠، وانظر عن فكره وبحثه التاريخي والاجتماعي «ابن خلدون بين حياة العلم ودنيا السياسة» للدكتور محمد طه الحاجري، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠، ط١.

(٢) مقالة : المعركة الدائمة بين القديم والجديد، فؤاد شاكر، المنهل، عدد جمادى الثانية ١٣٨٦هـ.

ووجود عدد من الأدباء والنقاد الميّالين إلى الاتزان في النقد، والمعتدلين في قبول الآراءلم يمنع تشدد عدد آخر في آرائه المستميتة في الدفاع عن الأساليب القديمة، وإنكار أكثر ما جاء به المجددون، كما فعل أحمد عبدالغفور عطار، حين هاجم الشبان من شداة الأدب[١]، من جيل الستينات الهجرية في القرن الماضي، ولامهم على اندفاعهم نحو الجدة في الأسلوب، ثم لامهم على تهالكهم في حب الأشكال والأفكار الحديثة، مشككًا في حسن نية مبدعيها، وداعيًا إلى درسهم درسًا نقديًّا كاشفًا.

ويحمل على المجددين، الداعين منهم إلى التخفف من قيود الفن في الشعر، والانسياق وراء موسيقى اللفظ، والمتخففين من التراث بإهمال كثير من اللفظ العربي الأصيل، «إن التحرر من قيود الفن لا يُعدّ تحررًا صحيحًا، بل هو فوضى، فكل إنسان يستطيع أن يتحدث هذا الحديث العامي العادي، ولكن الذي يستطيع أن يأتينا بالرائع الجميل من التعبير أفراد معدودون يتقيدون بقيود الفن التي تُبرز قيمة القادر القوي المتقدم .. فالقيود الفنية ضرورة لازمة لبيان قدرة القادر وضعف العاجز .. »[٢].

ولم يكن العطار مجانفًا الحقيقة في صلفه هذا على الداعين إلى حرية التعبير بالأسلوب الذي يريدون دون مراعاة للوازم الفن، فإن التجديد الذي يضيّع قيم الفن ومكاسبه التي ابتدعها المجددون السابقون لا يعد تجديدًا، وهو أقرب إلى الهدم منه إلى البناء، وما عُرف في تاريخ الآداب والفنون لون منها منطلق من كل قيد، يُكتب في غير قانون ولا نظام، ولو كان من هذا الانسياق العبثي شيء لسمّي هذرًا أو جنونًا أو تخليطًا أقرب إلى الشعوذة والثرثرة الفوضوية !.

---

(١) انظر الخلاف بينه وعلى بوحمسين في جريدة «الخليج العربي»، الأعداد من ٧٠ إلى ٧٧ ومقالة إبراهيم الناصر حول ذلك بعنوان : بين القديم والجديد، عدد ٧٦، في ١٤/٨/١٣٨٠هـ، ص٧. وانظر الخلاف بين العطار وعبدالعزيز فرشوطي في جريدة عكاظ عام ١٣٨٠هـ
وبجلة الرائد عام ١٣٨٢هـ، حيث كتب فرشوطي مقالاً بعنوان «انتكاسة الأدب، ومسئولية الأدباء»، ورد عليه العطار بمقالة : انتكاس بعض الناشئة.

(٢) مقالة : أدب جديد، أحمد عبدالغفور عطار، كلام في الأدب، ص٥١.

وإنّ من يدعو إلى التجديد يلزمه أن يطلع اطلاعًا وثيقًا على تاريخ الإبداع في لغته وأدبه وفكره، ثم في الآداب العالمية الأخرى ليقف على مواضع الجودة، ومواطن الإخفاق، وتسعفه موهبته الصادقة ـ إن وجدت ـ بما تقدر عليه من الابتكار والخلق. أما حين ينطلق الراغبون في الجدة إلى التجريب الأدبي المطلق دون وعي بأدواتهم، وتمكن من فنهم، وإحساس بقيمة التراث الإنساني العام ـ وبالأخص منه ما يتصل بأدبهم فإن الأحرى أن يرتد السعي إلى الابتكار شروعًا في إضاعة ألوان كثيرة من القيم الفنية الأصيلة.

واتباع التجديد دون إضافة تقليد بوجه آخر غير ما يسعى إليه المتأثرون بالقديم. والعبرة بوجود خصائص الجدة في شخصية المبدع، تلك الخصائص التي تمكنه من استلهام الجيد من المحفوظ، يجده صورًا متدافعةً في ذاكرته، ولفظًا ينساق إثر لفظ، ثم يجده، حين يصغي سمعه، ويجيل نظره، ويهيىء وجدانه للاحتفال بأي أثر من آثار الإبداع التي تمنحها الحياة، في المشهد، والمسمع، والتأملة، ومسابح التفكير.

وإن الشخصية الموهوبة التي دربت على الاستفادة، وامتلكت المقدرة على التذوق، وتأصلت فيها القيم الكبرى للفنون تستطيع أن تمنح الإبداع الإنساني الممتد منذ الأبد مساحة أكثر اتساعًا وخضرة ونماء.

فليس التأسي كله فناء في القديم، وليس القبول المطلق للحديث إغراقًا في الجدة وتمثلًا لها، ولكن بعض الشبان ـ في أجيال ـ عديدة تأخذهم مطامح الاستقلال في شخصياتهم إلى الرغبة في التخلص من القيود ظنًا منهم أنها المانعة لهم من الابتكار والإضافة، وما علموا أن الأُصالة الواعية تهبهم القدرة على الصمود أمام تيارات عاصفة كثيرة، لا يقف في وجهها ـ من غير اندثار ـ إلّا الأقوياء الناضجون، فيفيدون منها، ويضيفون إلى أصالتهم لونًا جديدًا فيه حداثة ومعاصرة، دون أن تهزمهم، أو تذهب بجذورهم.

وقد تأمل عبدالله بن محمد بن خميس هذه المسألة، فوجدها في غاية ما تكون من الخطر والاحتفال، فهو يرى في أكثر الشباب تهورًا وانصياعًا إلى

الانفلات من قيود الأدب الأصيل، ويرى فيهم نتيجة لذلك سقوطًا في الخطل اللغوي، وضعفًا في الأسلوب الأدبي، واضطرابًا فاضحًا في الأفكار والمقاصد، على حين لا يرى في جيل الشيوخ، هذه الصفات المقذعة، «فهم إن كتبوا سلمت أقلامهم من اللحن، وبرئت أساليبهم من العامية والعجمة، وجاءت تمثل الفستق المقشر، وأغرت القارىء، وشوقت الباحث وجذبت القلوب، واستهوت الأنفس، وهم إن خطبوا هزّ المنابر ارتجالهم، وجمعوا القلوب حولهم، وجاءت ألفاظهم متّسقة النبرات مهذبة الألفاظ سليمة التعابير مؤثرة أخاذة .. وإذا حدثوا أفصحوا، وإذا قصوا انقادت لهم الألفاظ، وسلس لهم قياد البيان، وإذا تصدروا المجالس كانوا بهجتها بما تختزنه صدورهم من جيد المنثور والمنظوم، وما ينقلونك إليه من أنواع الملح والنوادر والظرف والتحف، كل ذلك بعض ما عندهم .. »[1].

والتفت الكاتب إلى أدب الشباب فوجده «ألفاظًا مقطعة على صعيد الورق، على شكل نشاز متنافر، لا رابطة تجمعها، ولا سمط يؤلف بينها، ولا نبض من روح يحرك في سماعها ساكنًا، ولا يسكن متحركًا، هي بنقيق الضفادع، ونعيق الغربان، وبغام الوحوش أشبه، وإليها أنسب، لأن شبه الشيء منجذب إليه .. »[2].

ويأخذ عليهم الضعف في اللغة، والجهل بقواعد النحو، والتعجل في فهم الأفكار، وفقدان الحس الجمالي باللفظة، وتكوين الصورة، ثم يأخذه العجب من أسلوب العصر الذي يمثله أدب الشباب، وكونه على هذا النحو من الضعف والإحالة والغثاثة.

---

(١) مقالة : أدب الشيوخ، وأدب الشباب، عبدالله بن خميس، من جهاد قلم، فواتح الجزيرة، ص ٣٢٣، ونلحظ أنه قرن القدم بالطعون في السن، والجدة بالحداثة فيه. وهذا أمر سبق تبيان عدم صحته، فالمسألة ليست لها صلة بالأعمار، قدر صلتها بأسلوب التربية وطبيعة البيئة، ونوع المعارف.

وقد وعي هذا الأمر محمد حسن عواد بعد أن أصبح مسناً فكتب يؤكد أن الخلاف بين الأجيال لا صلة له بالسن والأعمار، ومرد ذلك إلى تطور المعارف والعلوم والأذواق. انظر مقالة : أدب الشيوخ والشباب، محمد حسن عواد، مجلة اليمامة عدد ٢٤٦، في ٢٥ صفر ١٣٩٣هـ، ص ١٢.

(٢) المقالة السابقة.

ولم يذهب الكاتب في ولائه للتراث بعيدًا، فقد شبّ على استظهار جيد المحفوظ من عيون الشعر والنثر العربيين، ودرس قواعد العربية، وأوجه البلاغة في صياغة الأسلوب، ثم قرأ لأعلام البيان العربي الحديث فتأسى بالقديم والحديث، وجاء أسلوبه مصورًا للإشراق في الماضي، واللفظة الجديدة يمتاحها من ذاكرة حافلة بالمتنوع من مخزون اللفظ الجيد الأصيل، ويأتي ذلك كله في جمل قصيرة موقعة، ونفس طويل ممتد، يتصاعد جملة إثر جملة، حتى يبلغ منتهاه وغايته بعد أن يشبع الفكرة المرادة شرحًا وتفصيلًا.

غير أن فئة كبيرة من المجددين لا يستقيم رأيها مع مذهب ابن خميس في تعشقه القديم، وولائه له، وينكرون عليه بعض اللفظ الحوشي، وبعض اللفظ المتقعر، ويصمونه بأنه مستعبد من التراث، وتظل الهوّة سحيقة بين الفئتين.

ونجد ظلًا وارفًا في الأصالة، ونماء وإضافة في الجديد المبتكر من ذوي المواهب الأصيلة، ولا نعدم وجهًا حسنًا في إبداع أولئك، ووجهًا آخر حسنًا في ابتكار هؤلاء.

وليس من الانصاف أن نصد عن سماع رأي الداعين إلى التجديد في السنوات العشر الأخيرة من القرن الماضي، وهم ممن امتلأت رؤوسهم بكل جديد، وأُخذوا به أخذًا، وظنوا أن الجيل المسن صدّ عنهم تيار التجديد، وأعاق موجة الاتجاه إلى الابتكار لدى هذه الفئة من الشبان على الأخص[1].

فالمجددون أو من يسير في ركابهم يرون أن المأخوذين بالقديم لا يستمعون إليهم، ولا يتمعنون في نتاجهم، ولذلك تأتي أحكامهم النقدية عن هذا النتاج الجديد غير واعية بما فيه من دلائل الاستقلال الفني، والابتكار العصري، فالموالون للقديم يصدق عليهم المثل القائل «من جهل شيئًا عاداه»، وهم يقولون عن المجددين أو المدعين له : «إننا نقرؤكم أيها الشباب ولا نعرف ما تقولون !،

(١) انظر مقالة : صور قاتمة من تجاهل الشيوخ، علوي طه الصافي، مجلة اليمامة عدد ١٦٧، في ٢٨ جمادى الثانية ١٣٩١هـ ص ١٠.

بل إننا نقرأ أحيانًا عبارات جميلة، وأسلوبًا جيدًا، ولكن .. أمامنا إطار بلا صورة»[1]، ويقول أحد هؤلاء الشبان المعنيين بالحديث السابق : «.. حكاية أدب الشيوخ وأدب الشباب حكاية متعبة تجلب النوم والكسل»[2]، ثم يسمي الخلاف بين الاتجاهين برزخًا «ماكان له أن ينتهي، ولن ينتهي أبدًا، ليبقى حاجزًا بينهما، وبالذات من جانب الكثيرين من الشيوخ .. »[3]، ويعدّد ألفاظًا كانت مُنكرة من قبل الفئة المحبة للقديم، ثم آمنت بما فيها من جمال وإيحاء بعد طول تكرار ومداومة على استخدامها في الكتابة، مثل : الترنيمة البيضاء، والنغم الوضيء، والصمت المقمر، والشمس المعربدة، وغيرها، ويقول «إنها كانت نشازًا وغير مألوفة، ولكنها الآن عادت مقبولة مفهومة لا ينكرها الشيوخ»[4]،ويرى أن هذه النقلة من التطور الذي يصيب الأمم.

وبالنظر إلى أفكار الطائفتين نجدها تلتقي في جوانب، وتختلف في جوانب أخرى، وفي الجديد تطور طبيعي حقًّا، ولكن جانب الخسران فيه لكثير من قيم الأدب الصحيح كثيرة متعددة، من ضعف الأسلوب، وركاكته، والتواء المعنى، وإحالة الصورة، وفساد بعض الأذواق في اختيار اللفظ، وما يشوبه من عامية مبتذلة.

على حين نرى في كثير من القديم خلاف ذلك، بيد أن فيه أيضًا حرصًا على المأثور ومبالغة أحيانًا في الدفاع عنه، وإثارة لطائفة التجديد بهذا التعصب، حين ينكر المنتمون إلى القديم محاسن الجدة، ومواضع التجديد في الأدب والفنون.

وقد يرد إلى الذهن ــ بعد هذا العرض والتحليل لآراء الفئتين ــ أنني غير مستقر على رأي واضح في هذه المسألة.

---

(١) مقالة : أيها الأحبة الساعة في الميدان تمضي، عبدالله علي الماجد، مجلة اليمامة، عدد ١٥٤، في ٢٦ ربيع أول ١٣٩١هـ، ص١٢.

(٢) المقالة السابقة.

(٣) المقالة السابقة.

(٤) المقالة نفسها.

والحق أنني أيدت الثورة على كثير من القديم المتهالك في البدء، لضرورة ذلك في البعث والإحياء، وتسامحت في قبول الشطط في نقد بعض أساليب الكتابة والإبداع القديمة، استجابة لحسن النية الطامحة إلى التغيير، والإسراع بتطوير مفهومات المتذوقين للأدب إلى منزلة حديثة أكثر سموًا ورقيًا، وأعجبت بمسعى العواد وعزيز ضياء في ذلك.

بيد أنني لم أستطع قبول لون من التجديد المضطرب المتسرع، غير المستند إلى الأصالة، وغير العميق في مضامينه، وغير المطمئن إلى أهدافه، فأيدّت العطار وابن خميس في كثير مما ذهبا إليه، وأقول ـــ ختامًا لهذه الجزئية من الفصل ـــ إن التجديد سنة الحياة وطبيعتها، ولن يقف في وجهه إلّا من اختار العيش على هامشها الضعيف، ومن يصدّ تيار الجدة كمن يدفع موجة البحر بيديه، وسبيل الإفادة من هذا التيار الأبدي تهيئة الأذهان للاحتفاء بأطايب الجديد وتكوين القدرة الفكرية والوجدانية على تذوقها وتمثلها، والعودة إلى منابع الأصالة في التراثين العربي والعالمي، نستمد منهما شرف المعنى، وقيمة الفكرة، وإشراق اللفظة، وثراء التجربة الإنسانية العامة.

٣ ـــ معارك ومناوشات أدبية

شغلت المقالة النقدية أكثر المهتمين بالكتابة في المملكة العربية السعودية حتى أوشكت المقالة في الخمسينات والستينات من القرن الماضي الهجري أن تكون نقدية عامة في أغلبها، ذلك أن الكتّاب في تلك الفترة وجدوا في المقالة النقدية ما يرضي طموحهم في الإصلاح الاجتماعي، والريادة في الأدب، وإذاعة الرأي في مسائل شتى، يعرضون لها في حياتهم، وقضاياهم الثقافية.

ونستطيع القول إن المقالة النقدية في الأدب السعودي تكاد تكون الوسيلة الميسّرة السهلة المتاحة لمن استطاع الكتابة، وجرب بعض ألوانها، وربما حلّت المقالة في الأدب السعودي في بداية النهضة محل القصيدة، واحتفاء الصحف والمجلات بها، وبروز أكثر كتّابها في ساحات النقد، واحتدام المعارك، واشتداد الخصومات.

صحيح أن سبب الإثارة الأدبية قصيدة، أو قصة، أو موقف أدبي أو فكري أو اجتماعي غير أن المقالة النقدية تحظى في نهاية الأمر باهتمام متابعي هذه القضية، وتكون الوسيلة الوحيدة التي يعبر بها الكاتبون الناقدون عن إعجابهم بتلك القصيدة، أو سخطهم على ذلك الشاعر، أو سخريتهم من كتّاب تلك القصة، ويُنسى النص الإبداعي أو يقارب على النسيان في خضم تلهف القراء إلى متابعة الموقف النقدي الذي تصوره المقالة بأسلوبها المحتدم المتدفق وتأخذ فيه شخصية كاتبها مجامع الاهتمام والتمعن، إذ تلفت المقالة الجيدة انتباه القارىء إلى ذكاء كاتبها، وصدق موهبته، وطبعه، وانثيال الأفكار لديه دون إعسار وإعنات، وطغيان شخصية الكاتب في الجيد من المقالات مما يجعل القارىء يتلقى فكرة هذا الناقد في قبول وارتياح، ويكون إبداع الناقد في مقالته مماثـلًا لإبداع صاحب النص المنقود أو يزيد !.

وحين ننظر إلى أكثر ما كتب من المقالة الأدبية النقدية نجده يدور حول رأي يقبل الخلاف ويحتمل الجدل وفيه يتجلى التميّز والتفرد بالذوق الجيد، ورفض أي عمل أدبي لا يبلغ صاحبه درجة التفوق في بلوغ الذوق الممتاز، وقد يختلف الناقد مع من تقصر به موهبته عن بلوغ ذلك المستوى من الجودة، والإتقان، فيقبل عليه معاتبًا أو ساخطًا، أو مشهرًا أدواته النقدية اللاذعة المقرّعة.

وفي مثل تلك الحالات يبدأ الاختلاف في الرأي، وتفترق السبل بأكثر الناقدين، وتتشعب في الحكم على النص أذواقهم ومذاهبهم، وقد تقود تلك الاختلافات في الآراء والمذاهب ومنابع الثقافة، وملامح الشخصية الأدبية النقدية لكل منهم إلى معارك محتدمة، ومصاولات يتقد أوراها فيصيب المبدع صاحب النص ما يصيبه، وينال صاحب النص الثاني في تبادل الرأي ما يناله، حين يتوافر على النص ناقدان، معجب، وغاضب !!.

ويعلم أي دارس لأدب المقالة في شبه الجزيرة العربية كم بلغ الناقدون في هذا الأدب بنقدهم كثرة وتجويدًا، وكم فيه من ساقط النقد ورديئه مما يعجز الدارس حصره ودرسه دراسة متخصصة شاملة.

ولأن المقالة النقدية في خصوماتها الكثيرة، ومعاركها المتعددة، ومناوشاتها المختلفة على هذا النحو من التشعب والكثرة والاتساع، أتوقف عند أبرز ما يدل على طبيعة تلك المعارك النقدية، والمناوشات الأدبية، ارتفاعًا وهبوطًا، اتساعًا وضيقًا، اتزانًا في النقد، وإسرافًا في التهور والشطط.

وأترك مسألة الوفاء بدرس المعارك النقدية لمن يفردها ببحث خاص يستقصي فيه آراء كل فريق، ويلم بمناخ ذلك الاختلاف وبيئته الفكرية والاجتماعية، ويتوقف عند شخصيات النقاد أصحاب تلك المعارك بالتحليل والمقارنة والعرض.

مفهوم المعركة (١) :

في الاصطلاح الأدبي استعير معنى الازدحام على القتال في المعترك — وهو موضع المنازلة — للخصومة الأدبية الشديدة لما بين الحالتين من وجوه الشبه الكثيرة، فالمقاتل يستعد لاستقبال خصمه بكل مايملك من أدوات القتال والمنازلة، والمُعارك الأدبي — أي الناقد — يهيىء نفسه للمساجلة، ومبادلة الرأي، وقرع الحجة بالحجة، يدفع فكرة بفكرة، وأسلوبًا بأسلوب، ومعنى بمعنى، ولكل ناقد أو مُعارك طريقته في منازلة خصمه في هذه المعركة الأدبية فمنهم من يلجأ إلى اتباع ما يوحي به العقل من منطق وحجة وتلمس لأسباب القبول والإقناع، دون لجاج ومماطلة في الرضى والتسليم، ومنهم من لا يرى الصواب إلا فيما يذهب إليه، وما يتلقاه ذوقه بالإعجاب والاحتفال، فيكون شديد الخصومة، قوي الوطأة فيها، مستخدمًا أساليب لا يرضاها التعقل أحيانًا ولا يرتاح لها ذوو اللب السليم، من المحاورة السليطة، وإيراد ما يؤذي من الألقاب والشتائم والسباب، وإذا لم

---

(١) أصل الاعتراك : الازدحام، يقال : اعتركوا في القتال، واعتركت الإبل على الماء، ولم يرد استعمال «العرك» إلا بمعنى الدلك، والحك، والجلد ونحوها، انظر :
مجمل اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ، جـ٣، ص ٦٦٣، باب العين والراء وما يثلثهما. والقاموس المحيط، للفيروز آبادي، باب الكاف، فصل العين، ص ١٢٢٥، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، نشر المكتبة الإسلامية استانبول، باب العين، ص ٥٩٦.

يكن ذلك في أسلوب واضح، مباشر، ففي اللجوء إلى التورية والتضمين يعرّض بخصمه، ويذكره بما يُسقطه من عيون قارئيه.

وهذا الناقد الأخير هو قطب المعركة، ومديرها، ومشعل أوراها لأنه يرتكب من الأساليب ما يأباه خصمه الجانح إلى العقل والتروي، غير أن أكثر قارئي هذه المعارك على هذا النحو يميلون كل الميل أو بعضه مع من يتبع الأسلوب الرصين الهادىء المتزن. ويكون حظ الناقد العنيف المشبوب العاطفة، البعيد عن الاتزان الإثارة السريعة وإشعال أوار النقاش والمجادلة والخصام، وحين تصل المعركة إلى ذروتها لا يجد بعضهم في يديه من وسائل الإقناع غير عاطفة ناضبة، وصوت مبحوح، وحجج كالفقاعات تعبث بها الريح.

وإن جانب الخلاف في قضايا الأدب واسع ممتد، يزداد انثيالًا معرفيًّا وذوقيًّا كلما توسعت شقة الخلاف في الرأي، وتعددت مناحي التفهم والتذوق للعمل الأدبي. على حين تضيق دائرة الخلاف في المسائل العلمية وتنحصر في جزئيات صغيرة متفرعة عن الأصل المتفق عليه.

ومن المعلوم أن الأصول العلمية ثابتة ــ في الأعم الأغلب ــ ومن النادر أن تقبل النقض والجدل، وبخاصة ما خلص منها إلى الثبات عن طريق التدليل والتجربة والبرهان.

وباختلاف الناقد مع الناقد في مسائل الأدب والفن، وتباين صور الإبداع وأشكاله، وتعدد مذاهب الناس في معاني الجمال والإمتاع والقبول للخيال المجنح، والنغمة المؤثرة، والصورة اللماحة الذكية يزداد معين الفن تذوقًا وعمقًا. ويزداد الوجدان الإنساني ثراء وغنى.

فالمعركة الأدبية في عمومها خصومة بين ناقدين أو أكثر حول قضية من قضايا الأدب أو الفن، يحتدم فيها النقاش بين أخذ ورد، في صور مختلفة من أساليب العرض والتدليل والإقناع، أو هي «تلك التي تختلف حولها وجهات النظر

المتعاركة، فهذا يرى مالا يراه صاحبه، ولهذا معتقد يختلف كل الاختلاف عن معتقد زميله»[١].

مفهـوم المناوشـــة[٢] :

المناوشة في المصطلح الأدبي خصومة أدبية صغيرة محدودة الاتساع، فيها رأي يُقال، يُدفع برأي آخر، ثم قد تتفرع الآراء، وتتوالى المقالات إلا أنها لا تصل إلى مستوى المعركة المحتدمة التي يتعدد أطرافها، ويكثر مختصموها، ويخرج بعض الناقدين فيها عن طور الاتزان والأدب العام، فالمناوشة تميل إلى الهدوء النسبي وعدم الانفعال والتشنج.

وعادة يبدأ المناوش بنقد عمل أدبي، أو إبانة موقف نقدي ويرد آخر ويكون هذا بداية لمعركة قد تكبر وتتسع لتشمل أصحاب رأي آخرين من مبدعين ونقاد، وينتج من ذلك أيضًا مقالات أدبية نقدية، فيها خصائص النقد بعامة، بما يحفل به عادة من انفعال أو هدوء، وقوة في الأسلوب، أو ضعف فيه، وارتفاع في الذوق أو هبوط فيه أيضًا، ويبرز من كتّاب هذه المقالة من يسمو بذوقه وانفعاله فيرتفع بالمقالة عن التقرير والتسجيل العلمي، إلى منزلة الفن بما فيه من تدفق العاطفة، وصدق الإحساس، وجمال الانثيال، ومنهم من يُعنى بأسلوبه من حيث اختيار اللفظة في غير مبالغة ولا اصطناع، وجودة التركيب وانسيابه، كصفاء نفسه وانقياد خواطره، وطواعية أفكاره، فالمقالة النقدية الممتازة هي تلك التي تأتي سهلة الانقياد لينة الأعطاف، مهذبة الأطراف، فياضة العاطفة، دفاقة الأفكار، فيها غضب ورضى، وسماحة واعتداد، وقوة في المآخذة، ولين في المعاتبة، وذاتية

(١) د. محمد جاد البنا، المعارك الأدبية بين زكي مبارك ومعاصريه، دار الكتاب السعودي الرياض، ط١، ١٤٠٦هـ، ص٧٣.

(٢) أصل التناوش : التناول، والإسراع في النهوض، وناوش فلاناً : اختبر قوته قبل أن يقاتله، يقال : ناوشتِ العدو مقدمةُ الجيش.

انظر : المعجم الوسيط، جـ٢، ص٩٦٣، باب النون، مادة : ناش، مجمع اللغة العربية.

تذوقية لا ترضى من الفن إلّا ما بلغ منه درجة الإمتاع والفيض والإبداع.

وقد قسمت ما سأعرضه من المعارك والمناوشات قسمين على ذلك النحو الذي أوردته وأبعدت عنها ما وجدت به من الآراء في بعض القضايا التي لا يصور الاختلاف فيها شيئًا من الاحتدام، والسجال، والأخذ والرد، كقضية تصدير الأدب، والحرب في تأثيرها على الحضارة، وأثر الأدب الحديث في البلاد مما سيأتي الحديث عنها في جزئية لاحقة من هذا الفصل.

وسأورد في المعارك الأدبية نموذجين لمعركتين، قامتا في مطلع النهضة، وفي سنوات اكتمال نموها وازدهار عطائها، الأولى تمثل تيار النقد غير المتزن الذي كان سائدًا في مطلع النهضة في أواخر الأربعينات ومطلع الخمسينات، والثانية تصور النقد المتزن العميق الهادىء، المتشرب بروح الأدب الحق، والمتصل بمصادر الثقافة المختلفة، والمصور أيضًا لأسلوب كاتبيه في التجويد وحسن الطبع ودقة الملاحظة، وذلك في أوائل الستينات الهجرية من القرن الماضي.

أما المناوشات فهي كثيرة مختلفة الأساليب، متعددة المقاصد والغايات، فيها ما يصور النقد كأحسن ما يكون من الرصانة والتعقل، والحرص على الوصول إلى ما في النص المنقود من محاسن ومساوىء، وفيها ما يذهب إلى النقد على أنه تهويش غير محمود العاقبة في الفن والأخلاق، وسأورد أمثلة على الاتجاهين.

المعركة الأولى : قصة «مرهم التناسي» :

ليس أمام الباحث حين ينظر إلى مثل هذ القصة إلّا أن يذهب إلى أن الفن القصصي الذي أوحى إلى الكاتب أن يرسم خيالات قصته، ويسجل مادار منها من حوار مازال في بدايته، وخطواته الأولى نحو الأخذ بأسباب النضوج.

وإذا كان الفن القصصي لايزال حديث النشأة[1] فإن النقد كان كذلك، فالنقد الذي عالج هذه القصة، وحاول أن يقومها لا يمثل إلا محاولة نقدية مبتدئة في

---

(١) انظر مقالة : الرواية في الأدب السعودي الحديث، د. منصور الحازمي بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين، جامعة الملك عبدالعزيز، مجلد ٢، ص٨٥٩، وتحدث الكاتب فيها عن أسباب تأخر هذا الفن في بلادنا، ودرس الموضوع والشكل في بعض الأعمال الروائية السعودية.

سبيل التماس الطريقة الصحيحة في النقد، والتشرب بها، والتأثر بما توحيه من أساليب ومعارف وامتياز في إبداء الإعجاب وإظهار السخط، والاعتراف بالقيم الرفيعة في العمل الأدبي، والتوقف عند ما يأباه الذوق الفني، وتأباه السجايا والطباع الأدبية الراقية التي يكتشفها النقد الدقيق، ويؤكدها ويدعو إلى احترامها والتأسي بما يوافق شخصية المبدع منها.

ونحن ــ إذ نعرض لهذه القصة ونقدها ــ أمام محاولتين مبتدئتين في فنين مازالا في بداية طريقهما الطويل، تعثرت القصة، وتأخر نموها، وتفوق النقد فيما بعد، واكتمل، وأصبح عاملًا مؤثرًا قويًّا في الحياة الأدبية بعد سنوات قليلة.

فالنقد في هذه المعركة يمثل تيارًا حديث النشوء ظهر مع بداية تعلق المتعلمين بالكتابة، وتشبثهم بما نشر في الصحف، ومحاولتهم احتذاء النقاد في البلاد العربية الأخرى، فكان الناقد لا يتورع عن ذكر مايشين، جاهلًا أن مهمته النقدية تنحصر في الكشف عن خصائص العمل الأدبي، وليس في كشف شخصية صاحب ذلك العمل، ومحاولة إسقاطه.

فكـرة «مرهم التناسـي»[1] :

يهدف الكاتب من هذه القصة إلى تصوير إنسان تستبد به الهموم والأحزان، فكأنه يعلق في قلبه حقيبة ملأى بذلك، وإنسان آمل متفائل، يملك بين جوانحه انتظار الجميل من الأحلام، والإحساس بكل متعة سامية في الحياة، فكأنه يمنح صديقه ذلك القانط من صيدليته الباسمة التي يحملها بين جوانحه أيضًا مرهمًا لتناسي الهموم والأحزان.

أطـراف المعركـة : عبدالقدوس الأنصاري، ومحمد حسن عواد، وآخرون.
زمانهـــا : عـام ١٣٥٢هـ.
مكانهـــا : جريدة صوت الحجاز، الأعداد من ٨٠ – ٩٦.

---

(١) انظر نص القصة الأصلي في صوت الحجاز، عدد ٧٢، في ٨ جمادى الثانية ١٣٥٢هـ، الموافق ٢٩ أغسطس ١٩٣٣م، قصص اجتماعية، رواية الأسبوع ــ مرهم التناسي.

بعد نشر القصة بأسبوع واحد كتب محمد حسن عواد مقالة نقدية حادة، أبان فيها عن إعجابه بعبدالقدوس الأنصاري لغويًا، وعالمًا في صحة بعض الألفاظ من حيث الاستعمال العربي، وأوجه الاستعمال المغلوط لبعض الألفاظ غير العربية، غير أن العلم يختلف عن الفن ــ كما يقول العواد ــ والقصة في رأي الناقد لا فن فيها ولا روح ولا ذوق ولا خيال.

وقد حمل العواد على القصة وصاحبها حملة شعواء في غير هوادة ولا إشفاق، وسخر من أسلوب عبدالقدوس الأنصاري، وفهمه لفن الرواية، ودعاه إلى أن يترك هذا الفن لأهله الملمين بأصوله، والمدركين غاياته.

وفي نقده موضوع القصة ألمح إلى أن «الرواية يجب أن تقوم على موضوع اجتماعي قوي أو على مذهب فلسفي جدير بالتنويه، أو على الدعوة إلى خلق عقيدة تحدث ملء الفراغ ودويًا في قيعان النفس، وأن تعطي درسًا جيدًا، له من الفكر والواقع عماد مدعم، أما أن تكتب قصة هي أشد الكلام شبهًا بحكايات «جحا» أو نوادر عجائز البيوت في الضعف والفتور تقصد بها الموعظة القصيرة، وترمي على علاتها يتخللها الجفاف والضعف فذلك شيء يرفضه الفن والأدب .. »[1].

ويذكر بإخفاقه في تجربته الروائية الأولى، حين نشر رواية «التوأمان»[2] قبل هذه القصة بحوالي ثلاث سنين «فلم تصادف رواجًا في الطبقات الأدبية الممتازة وعند الشباب المثقف، لأنها خالية من كل مقومات الفن الروائي الجيد الذي يجتذب

---

(١) مقالة : قصة مرهم التناسي، بتوقيع صاحب التأملات، وقد صرح العواد باسمه في ذيل إحدى تأملاته تلك، صوت الحجاز، عدد ٨١، ١٣٥٢/٧/١٢هـ، نوفمبر ١٩٣٣م، ص٤.

(٢) نشرها الكاتب في عام ١٣٤٩هـ، ١٩٣٠م ويدير الكاتب فيها القصة حول «أضرار المعاهد الأجنبية المؤسسة في الشرق على مستقبل الشرق نفسه، وذلك لما تلقنه للناشئة من تعاليم التغرب والتذبذب المشين» من مقدمة الرواية، وقد كُتب على جانب الغلاف : أول رواية صدرت بالحجاز ،ونشرتها مطبعة الترقي بدمشق سنة ١٩٣٠م، واعترف عبدالقدوس الأنصاري أن روايته هذه «غير مسبوكة تمامًا على أصول الفن الروائي العصري». المقدمة.

النفوس ويلقح العقول، على مافيها من ثقل الوطأة وضعف الفكر وتفاهة الموضوع وفقدان الاستقصاء وبتر الفكرة وحشو اللفظ ورداءة المعنى .. »[١].

وقد أخذ الناقد على الكاتب في عمله القصصي مآخذ عدة منها انعدام الجو الفني اللازم للقصة، وقصر النظر فيها إلى حالة النفس الإنسانية بترك تحليل الأخلاق والعواطف، وبعدها عن حقائق علم النفس، والمفاجأة البشعة في الانتقال من خلق الرجل المحزون إلى رجل ممراح بفعل «مرهم التناسي»، بدون تمهيد أو تعليل معقول، وخلوها من الخيال الممتاز، وما فيها من البلى والبرود، والتفاهة في موضوعها، وسوء الأسلوب وضعفه وركاكته، وعدم فهم الكاتب لمعنى الاستعارة في العمل الفني، ثم فقدان الانسجام[٢].

وكان الناقد عنيفًا في نقده لشخصية الأنصاري، ولم يلتزم بما يوجبه الخلق الفاضل في النقد، فهو يومىء إلى أنه كاتب غير محترم، ويتهمه بالإسفاف، ويرى أنه لم يخلق أديبًا «فإن روحه الأدبي ليس روح روائي ولا كاتب فنان، وليعد إلى بحثه اللغوي في دائرة قواعد النحو والصرف فحسب فإنا له شاكرون، ولجهوده فيه مقدرون»[٣].

والعواد لم يخرج عن اندفاعه النقدي، وثورته على القديم، وتطلعه إلى التجديد ويتبع في سبيل الوصول إلى ذلك مايراه من نقد قاس : لوجوه ذلك القديم في الأسلوب والمضمون، وليس الأنصاري — في نظره — سوى أحد الرموز لما بقي من قديم متداع، فليسلط عليه معاول الهدم، وليتولّ ما يكتبه بمثل هذا النقد الجارح المؤلم ليتوارى مع ما يكتبه بين طيات المعاجم والقواميس، ومصطلحات النحو و الصرف، بعيدًا عن إشراق الفن، وسمو الروح الأدبية !.

إن العواد في رؤيته النقدية هذه لم يكن مخطئًا الخطأ كله، فهو يريد أن يقول

---

(١) مقالة : قصة مرهم التناسي، العواد. وانظر كتابه «تأملات في الأدب والحياة»، ص٣٦٨، أعمال العواد الكاملة.

(٢) المقالة السابقة.

(٣) المقالة السابقة.

إن فن القصة غير نظم القول في هيئة ما يكتبه الواعظون والأخلاقيون، والمباشرة تقتل الروح الفنية وتميت الغاية الشريفة التي يسعى لها الفن. غير أن العواد في رؤيته النقدية المتجاوزة من حيث الفكر والوعي زمنه ومحيطه الاجتماعي لم يكن موفقًا في اتباعه ذلك الأسلوب الثوري الغاضب، ولم يكن موفقًا أيضًا في تناوله شخصية خصمه صاحب العمل الأدبي بما ألصقه به من التهم، وما ألحقه به من النقائص.

وسنجد أن هذا الناقد يزداد حدة مع الإثارة، ويبتعد كثيرًا عن تحقيق غايته من النقد حين يتقدم له أحد معارضيه بفكرة لا يقبلها، أو مأخذ عليه في الأسلوب، والرؤى، لا يتفق مع ناقده على قبولها وصحتها، ويرى أن جميع خصومه ليسوا على حق دائمًا، وأن الفكرة التي يرمي إليها تتسامى على النقد والمحاجة، ويرتفع بها عن الطعون والغمز. على حين يرى الأدباء الميالون إلى الاتزان والتعقل، والمؤمنون بسماحة الفن ورحابته وثرائه بالنقاش والجدل أن الرأي يكسب الفكرة قوة وثقة حين تكون في أساسها تحتمل ذلك، وينفيها من دائرة البحث والاستشهاد والتأسي كونها متهالكة فجة غير ناضجة، ولو لم يكن النقد كذلك لما وصل الفكر إلى ماهو عليه من نضج وسمو لدى كثيرين من المعنيين به ولو لم يكن النقد كذلك أيضًا لما ارتقت الفنون، وتحقق لها الإمتاع وشرف الغاية، ونبل الممارسة.

وعلق على مقالة العواد من رمز لنفسه بـ «كويتب»[١] منكرًا عليه أسلوبه النقدي الملتوي، والذي لا يهدف إلى غاية، وناعتًا إياه بـ «الانتقاد الأجوف»، ويقول : «إن الناقد حجب اسمه تحت ستار الخجل، ويمثل أغراضًا شخصية، وغره يراعه السيّال وعلمه الناقص، وكان واجبًا على الناقد أن يثني على عبدالقدوس»[٢].

---

(١) مقالة : «الانتقاد» «وكيف يجب أن يكون، بمناسبة الانتقاد على قصة مرهم التناسي، كويتب، المدينة المنورة، صوت الحجاز، عدد ٨٤، في ٣ شعبان ١٣٥٢هـ.

(٢) المقالة السابقة.

ورد في العدد نفسه من صوت الحجاز عبدالحميد عنبر[١]، يقول : «إن نهضتنا الأدبية في أول مرحلة من مراحلها فهي تحتاج إلى شفقة وتعاضد لا إلى تحامل وتراشق». فهو غير راضٍ عن النقد على نحو مافعل العواد، ويرى أن النمو الأدبي المبتدىء حقيق بالعون والإرشاد والرفق، والنقد القاسي العنيف من أسباب هدمه وإيقافه عن النمو، ويرى أن الفكرة التي جاء بها عبدالقدوس تحتمل وجهًا من وجوه القبول والرضى، ولو سعى الناقد إلى تلمس أوجه الجودة والسبق لوجد من ذلك ما يدفعه إلى الثناء على كاتب القصة ومنحه ما يستحقه من التقدير، ثم إن «النقد شيء والتحامل شيء آخر .. والنقد النزيه مقبول وإن غلط صاحبه في نظريات .. والنقد النزيه هو أساس البحث العلمي والفني، ودائمًا أو على الأكثر تكون نتيجته الحقيقة، والحقيقة بنت البحث ـــ كما يقولون ـــ وليس النقد النزيه إلّا (بحث علمي نفيس) في أعلى درجاته .. »[٢].

ويبدو عبدالحميد عنبر متزنًا هادئًا، غير مدفوع بهوى أو غرض، ملتمسًا الأسلوب النقدي القائم على الخلق وقيم الأدب، من الموضوعية والصدق مع النفس، وتجنب طيش العاطفة المخلة بقواعد النقد، فهو يتوقف مع العواد مخاطبًا إياه في لوم وعتاب شديدين : «ما هكذا النقد يا أستاذ»[٣]، ويرى عبدالحميد عنبر أن شخصية الكاتب ليس لها صلة بالعمل المنقود، ولا يحسن بالناقد أن يعرض لشخصية خصمه بالتقريع والذم، وذكر ما يقدح فيها، فهو أيضًا ينكر عليه

---

(١) ولد بالمدينة سنة ١٣٢٦هـ، وتلقى علومه الأولية بالمدارس الأميرية، ولما أسست مدرسة العلوم الشرعية انتظم في سلكها، ونال شهادتها وبقي أستاذاً بها ما يقرب من سنتين، وعين عضواً في مجلس الشورى، وهو عضو في مؤسسة جريدة المدينة المنورة، ثم كان رئيساً لتحريرها مدة من الزمن، وله إسهام في الكتابة الأدبية والصحافية، توفي عام ١٣٩١هـ.

انظر : وحي الصحراء ص ٣٧٥، العدد الخاص من المنهل ص ٧٨٢، رجب ١٣٨٦هـ، والفوزان ١١٥٦/١، والمعجم ٥٢٥/١.

(٢) مقالة : ما هكذا النقد يا أستاذ، عبدالحميد عنبر، المدينة المنورة، صوت الحجاز، عدد ٨٤ في ١٣٥٢/٨/٣هـ.

(٤) المقالة السابقة.

هذا الأمر، ويخاطبه : «مالك ولشخصية الكاتب والتعريض به في كل سطر من أسطر كتابتك ؟! .. »[١].

ثم ردّ محمد حسن عواد بمقالة[٢] أشد عنفًا من مقالته الأولى، وأكثر إسفافًا في السباب والمهاترة، وانصرف عن نقد القصة إلى الرد على ناقديه، وتعرية شخصية منقوده، والتعريض به، وإلحاق التهم بأصوله وموطنه، وثقافته، وأدبه.

وأكثر العواد من إحاطة نفسه بصفات التفخيم والتعظيم في مواجهة خصومه، وأخذ يذكر من يثني على أدبه ومن يراه جديرًا بمنزلة الناقد الحصيف، وكأنه يريد أن يقول : إنكم إن أنكرتموني، فإن غيركم ممن يفهمون قيمة الأدب الحي يدركون منزلتي بينهم، وعلو ما أكتبه من نقد وتفكير.

وأسلوب العواد هنا ليس بعيدًا عن أسلوب عباس محمود العقاد في رده على الضعفاء من دعاة الأدب الحديث وغيرهم، حينما قال : «إيه يا خفافيش الأدب أغثى الله نفوسكم الضئيلة، لا هوادة بعد اليوم، السوط في اليد، وجلودكم لمثل هذا السوط خُلقت، وسنفرغ لكم أيها الثقلان، فأكثروا من مساوئكم، فإنكم بهذه المساوىء تعملون للأدب والحقيقة أضعاف ما عملت لها حسناتكم إن كانت لكم حسنة يحسها الأدب والحقيقة .. »[٣]، فالعقاد يجنح إلى استخدام هذا الأسلوب الملتهب لتأديب الواغلين والمهوشين والأدعياء ــ كما يرى ــ والعواد يحاول اللحاق بالعقاد في ذلك النهج، فهو يريد أن يكون عقادًا آخر في أدب شبه الجزيرة، يقوّم مقاييس الأدب المعوجة، ويصلح منها ما كان ملتويًا لا يؤدي بكاتبه إلى الإبداع والتفوق، ويأخذ على يد الضعفاء والمقلدين والسائرين في دروب يجهلونها، وليسوا من سالكيها، وقد بدأ مقالته الثانية في نقد قصة مرهم

---

(١) المقالة نفسها.

(٢) مقالة : الرد على زوبعة مضحكة، صوت الحجاز، عدد ٨٥، في ١٣٥٢/٨/١٠هـ، صاحب التأملات، زاوية (تأملات في الأدب والحياة)، وفي كتابه الذي يحمل هذا الاسم. انظر :ص ٣٧٩.

(٣) انظر : (الديوان ــ كتابٌ في النقد والأدب) لمنشئيه عباس محمود العقاد، وإبراهيم عبدالقادر المازني، جـ٢، ص٤، مطبعة السعادة سنة ١٩٢١.

التناسي متهددًا متوعدًا «لقد طال سكوتنا على هذه الفئة من المبتدئين في مزاولة الأدب، فظنت أننا إنما نسكت عنها رضى لما تنتجه أقلامها الضعيفة .. وما عرفنا الجبن قط ممن يقام لهم وزن، فهل من المعقول أن نتنزل إلى الجبن أمام حشرات الأدب .. وها نحن أولاء نعيد الوعد بأننا لانزال عازمين على نقد قصة التوأمين وغيرها، ونقد كل ما يستجد بعدها من ألفاق تنشر باسم الأدب .. وإن النقد الصارم لبالمرصاد لا سيما لمن يخيفه النقد»(١).

وفي غمرة غضبه على ناقديه، وثورته على أنماط التقليد راح يومىء إلى المستكينين إلى ألوان من العلم الأجوف، كما يسيمه — في المدينة، وأخلاط من الأدب عتيق، ويبلغ درجة عالية من التجويد في الأسلوب حين تستولي عليه عاطفة الاعتزاز بالنفس في صورة مفرطة، وتستبد به الرغبة في هدم ما أقامه خصومه من رأي واتجاه.

وهو يرد على من لامه في نقده، ومن ادعى أن القصتين المنقودتين (التوأمين، ومرهم التناسي) ذات شأن، وإلّا لما أقدم العواد على نقدهما وإلصاق التهم بهما وبصاحبهما : «.. نحن أحسنا صنعًا إلى الأنصاري ملفق القصتين من حيث إننا لم نقصد أن نحسن إليه الصنع برفع شيء لم يرفع الله قيمته، ولكننا كنا نقصد إصلاح الفن الأدبي الحجازي وإرادة النقد لذاته ليس غير، جرياً مع الثقافة التي نضطلع بأعبائها وذوق النقد الذي يمتزج بتفكيرنا»(٢).

ويسخر من ذلك «النفر الضئيل في المدينة» حينما زجوا بأنفسهم في صف الكاتبين والمفكرين وهم غير جديرين بذلك، وأثاروا الاشمئزاز والغثاثة بما كتبوا ونقدوا، ثم يومىء إلى الشبان من أبناء المدينة ممن خدعهم الأنصاري — كما يزعم العواد — ويصفهم بأنهم «شباب لم يبلغ من الدراسة مبلغ الثقافة والتمييز،

---

(١) مقالة : الرد على زوبعة مضحكة، صوت الحجاز، عدد ٨٥، في ١٣٥٢/٨/١٠هـ صاحب التأملات. بتصرف يسير.

(٢) المقالة السابقة.

يندفع مع الصائتين من غير روية ولا أناة»[١]. ويومىء إلى شيوخهم المسنين فيراهم أصحاب «كهولة ضيقة العطن تحمل رجعية الأفكار مختبئة تحت ستار كثيف من قشور العلم البارد المُدّعي، ومظاهر الوقار المُصطنع .. »[٢].

وهنا يبلغ به الإسفاف في النقد مبلغًا شائنًا معيبًا حين بدأ يغمز ويلمز في شخصية الأنصاري، مشيرًا إلى موطنه الأصلي، فيرى تلك المواطن غير جديرة بالتقدير، ولا تنتج أدبًا صالحًا، أو علمًا نافعًا، على حين وقع العواد بهذا في أسوأ ما يقع فيه الأدباء والمفكرون إذا نظروا إلى أن الأقاليم والأماكن ترتفع بالإنسان أو تقعد به عن بلوغ الشأو في الحضارة والتمدن، فالعرقية لا يدعو لها أديب يتلمس القيم الإنسانية العليا، والشعوبية التي كنا نضيق بها من غيرنا يحسن ألّا يقع أديب منا في غلوائها وسقطها، وإن الدين في مبادئه الكبرى ليرتفع بالإنسان عن مثل هذا الإسفاف، وإن اللغة العربية التي منحها الأديب المنقود عمره وجهده وشبابه لكافلة حق السمو والتقدير والإجلال لمن أبدع بها واتخذها أداته الفنية المعبرة له عن نوازع نفسه وما يدعو له من مثل رفيعة، وقيم سامية.

ومن هذه الأمور المعيبة إشارته إلى نتاج الأنصاري وقدحه فيه، وفي انتمائه العربي، ويرى أن صلة ما يكتبه من أدب «بتمبكتو ألصق منه بهذا الدم العربي الحر الذي يجري في عروق أبناء «الأنصار» الحقيقيين فيكون تفكيرهم صافيًا وهاجًا يفيض عليه أدب النبي صلى الله عليه وسلم وآداب صحبه الماجدين فلا يلبث أن يبني صرح النهضة الفكرية في المدينة على أساس قويم يسقط دونه ما تقذفه شواطىء أفريقيا وصحارها من عقم العقول وفساد الحاصلات»[٣].

وما يفتأ يؤكد على هذا فيدير عليه القول مرة أخرى بعد أن أوضح معنى السمو في التعبير الأدبي، ودعا إليه شبان المدينة، حاثًّا إياهم على ترك التأثر «بضعف عبدالقدوس وتهويشه»، وناعتًا قصته بأنها وليدة ذهن جامد يباب، ثم

---

(١) المقالة السابقة.

(٢) المقالة السابقة أيضاً.

(٣) المقالة السابقة.

دعاهم أن يتطهروا «في نهر الوطنية العربية الحجازية التي مازال يكيد لها هؤلاء السود المسخرون ممن لا يعلم إلّا الله صلتهم بالأبالسة»[١] ونفى عنه العلم والأدب والإحساس بالفن.

ولا يتورع عن تحقير «الكويتبين المخدوعين اللذين ركب عبدالقدوس الشنقيطي كاهليهما للدفاع عنه والنقيق معه عند أقدامنا نقيقًا لم يكن له من قوة الصوت ما يوصله إلى أسماعنا .. »[٢]. فقد اتهم ناقديه بأنهما مدفوعان مسخران لخدمة الأنصاري، ثم نعتهما بأنهما «هزأتان»، وأشار إلى صلة أدباء العرب بأدبه، ونقل الدكتور طه حسين عن كتابه «خواطر مصرحة» في مقالة له نشرها في مجلة الهلال بعنوان «الحياة الأدبية في جزيرة العرب»[٣]، ثم يصف خصومه بأنهم لا يؤمنون بهذا التقدير، ولا يدركون معناه الحقيق به «وأنّى بالإيمان العلمي أن يلج صدر المتعصب الغر الذي لم يترب تربية علمية ولا أدبية إلّا في حد سيء معروف»[٤].

وفي العدد نفسه من صوت الحجاز الذي نشر فيه العواد مقالته الجارحة هذه يرد أحد أبناء المدينة مدافعًا عن عبدالقدوس الأنصاري، ومبديًا إعجابه بأسلوبه، وهازئًا بنقد العواد، ومنكرًا عليه وقوفه هذا الموقف الشائن أمام نتاج أبناء البلاد، وهم في أول الطريق، والعواد بهذا النقد كشف نفسه ليحله الناس ما يستحق من الوضاعة، ويرى الناقد أن «الأنصاري أحب لكتابته طريقة ابن المقفع وبديع الزمان من كتّاب العربية الفخام، ووصف كتابته بهذا أمر لا يحتاج إلى إثبات .. »[٥].

---

(١) المقالة السابقة أيضاً.

(٢) المقالة السابقة، ويعني بالكويتبين المخدوعين من رمز لنفسه بـ «كويتب»، وعبدالحميد عنبر، وكلاهما من أبناء المدينة.

(٣) لم أجد إشارة لكتاب العواد (خواطر مصرحة)، أو نقلاً، عنه في مقالة د. طه حسين وقد يكون د. طه استفاد من كتاب العواد وغيره للاستدلال على وجود بوادر جديدة في الأدب الحجازي، انظر : ألوان، د. طه حسين، دار المعارف بمصر، طـ٤، ١٩٧٠. مقالة : الحياة الأدبية في جزيرة العرب، ص٣٣.

(٤) مقالة : الرد على زوبعة مضحكة، محمد حسن عواد، وسبقت الاشارة إلى المصدر.

(٥) مقالة : ما هكذا النقد الفني ــ حول تأملات في الأدب والحياة، فن الرواية، قصة مرهم التناسي، محمد الحافظ، من المدينة المنورة، صوت الحجاز، عدد ٨٥، في ١٠ شعبان ١٣٥٢هـ.

وبعد مرور أكثر من شهر على نقد العواد يكتب عبدالقدوس الأنصاري مفندًا التهم التي كالها له خصمه، ومحللًا إياها واحدة بعد أخرى، ومتجنبًا ذلك الأسلوب المسف الذي نُقد به من قبل العواد، مظهرًا قدرًا كبيرًا من الأناة والرصانة وسعة الصدر، ومتخذًا في رده أسلوب من يترفع عن التهويش والتنبيش والتنقيص.

والأنصاري في مقالته[١] التي ردّ بها على العواد يضع منهجًا نقديًا متزنًا، في بداية النهضة الأدبية، والأمور فيها غير واضحة أدبيًا وفكريًا، وكل شاد يرمي فيها بسهمه، ولم تستقم الاتجاهات المصورة لخصائص أصحابها من الأدباء والنقاد، فكأن عبدالقدوس الأنصاري يريد من شداة الأدب وناشئته ألّا ينصاعوا لعواطفهم، فيرتكبوا حماقة نزقة فوضوية كما فعل العواد، ويريد من أقرانه من الأدباء أن يلتزموا الجانب الخلقي وما يتفق مع الأدب ووقاره مهما كان الهدف الذي يرمون إلى إثباته وكشفه شريفًا غاية الشرف، وحقيقًا بالمصاولة العنيفة والدفاع الشكس.

وفي البدء يقرر الأنصاري أنه كان غير راغب في الرد على خصمه لولا إلحاح زملائه من الأدباء وغيرهم عليه، فكان مضطرًا «لتسطير هذا المقال الدفاعي في حدود اللياقة والأدب .. »[٢]. فهو لن يسعى إلى احتذاء أسلوب ناقده، ولن يذهب إلى ماذهب إليه من التدني والشتيمة، وسيكون في محل المدافع المفند المبين للحقائق ــ حسب رأيه ــ. وأول ما يؤاخذ العواد به أنه لم يعمد إلى القصة فيلخصها، ويسجل نقاطها، ثم يأتي إليها واحدة بعد أخرى بالدراسة والنقد، ويكتب فيها «تحليلًا فنيًا عميقًا بريئًا، ليخرج إلى العالم بنتائج فنية باهرة تنور الأذهان، وتفتح أبوابًا جديدة في نهضة الأدب والفن .. »[٣].

---

(١) مقالة : تأملة جوفاء ونقد متهافت ــ حول نقد صاحب التأملات لقصة (مرهم التناسي) عبد القدوس الأنصاري، صوت الحجاز، عدد ٨٦، في ١٧ شعبان ١٣٥٢هـ، الموافق ٥ ديسمبر ١٩٣٣م، ص ٤.

(٢) المقالة السابقة.

(٣) المقالة السابقة.

على أن محمد حسن عواد قد استشهد ببعض الأسطر القليلة من القصة، غير أنها لم تكن كافية للتدليل على ما يذهب إليه من مآخذ فيها، أو للتدليل على براعة كاتبها وتفوقه، ومستوى أسلوبه وفكرته في ميزان النقد المعتدل.

ويتفق الأنصاري مع الكاتبين الناقدين اللذين سبقاه وأشارا إلى أن التهور في النقد لا يتقدم به إلى الأمام قدر ما يعوق مسيرته ويضع في طريقه العثرات، ولا يتردد كاتب القصة المنقودة عن السخرية الهادئة المتحسرة من عمل صاحب التأملات، ويراه «عملًا عقيمًا ينشأ منه ردّ فعل لصانعه، ويترفع عنه الأدب والفن، لأنه يعود بهما إلى الوراء بدلًا من أن يمضي بهما إلى الأمام»[١].

ويأتي إلى تكذيب العواد في أشياء عديدة منها : مهزلة ادعائه بأنه ناقد فني ــ والتعبير هنا للأنصاري ــ، ويتهكم من ذلك، ويقول : «هل خرجت بأحكام من مقالته المزعومة ؟!»[٢]، ومهزلته إزاء رواية التوأمين ومهزلته حين عبّر بكلمة «بردعة بعير»، ويتساءل : كيف يورد في أثناء كتابته النقدية عبارة كهذه ؟!، ويرى الأنصاري أن ناقده غير متميز، وغير موفق في أفكاره، ويرى أيضًا أن اتهام العواد قصته بالخواء الفني في جوها العام مهزلة المهازل ــ كما يعبر ــ، ويقول عن هذا الحكم من العواد : «عبارات جوفاء طوّح بها تطويحًا، هذه القصة بين أيدي القراء ومثول الجو الفني فيها لا يحتاج إلى تدليل، كما أن إنكاره ضرب من التعنت والسخف، فهي قصة واقعية حقيقية، سكبتها في أسلوب عربي راق، وبسطت عليها رداء الخيال المنمنم فجاءت منسجمة رائعة الموضوع، تكشف عن خباياها عاطفة إنسانية هامة .. »[٣].

---

(١) المقالة السابقة.

(٢) من مقالته الأولى (فن الرواية ــ قصة «مرهم التناسي»)، حيث يقول : «..«كأنما هي حقيبة حلاق، أو جرة عرق سوس، أو بردعة بعير ينوء بها حملا» انظر : أصل القصة : صوت الحجاز، عدد ٧٢ في ٨ جمادى الثانية ١٣٥٢هـ، ص٤.

(٣) مقالة : تأملة جوفاء ونقد متهافت، عبدالقدوس الأنصاري، صوت الحجاز، عددد ٨٦، في ١٣٥٢/٨/١٧هـ، ص٤.

وكاتب القصة لم ينتظر ناقدًا آخر جديدًا يقوّم عمله، ويحله ما يستحقه في منزلة النقد، بل أصدر حكمه على قصته بالانسجام والروعة وحسن العاطفة، وجمال الأسلوب، ويريد أن يدفع ما تقوّله عليه ناقده بإظهار هذه الحقائق الفنية والموضوعية التي أخفاها النقد المغرض.

ويجد أن من الخير لهذا الناقد غير المنصف أن يبتعد عن ساحة النقد، وكأنه يرد واحدة بواحدة، فالعواد قد دعا الأنصاري أن يهجر الكتابة الفنية، إذ لا يراه جديرًا بحمل ما تتطلبه من استعداد فني، وعاطفة صادقة، وهو خلو منها. على حين يذهب الأنصاري إلى أن ناقده غير حقيق بنعته الذي يحمله، فهو لا يمثل أمانة النقد، ولا صدق الفنان القدير على الملاحظة والكشف، فلو انصرف عن الكتابة في النقد، وبحث عن مهنة يقدر عليها غير الكتابة لكان أولى وأصوب، فهو ينصحه أن «يريح دماغه ويريح القرّاء من عناء محاولته كتابة النقد الأدبي الفني، فما هو من رجال هذا الميدان .. »[1].

ومثلما وعد العواد قراءه أن يتولى رواية «التوأمان» بالنقد والبحث وكشف مواضع السوء فيها ـــ حسب رأيه ـــ يعد الأنصاري قراءه أيضًا بأن يتحرى الفرصة المواتية لكي يدرس كتابة العواد النقدية «وننبش خواطره المصرّحة، لنستجلي مافيها من روح التفاهات ورداءة الفكر، والخيال والتعبير»[2].

ونستطيع أن نقرر تفوق عبدالقدوس الأنصاري على ناقده محمد حسن عواد في أمور كثيرة، منها الأسلوب العميق الهادىء، والعاطفة المتزنة، ووضوح غايته من عمله الأدبي، واتصافه بأخلاقيات الفن وسموه في رد التهمة، ودفع التقوّل.

والمقالة الأخيرة في هذه المعركة يدفع بها العواد إلى صوت الحجاز، وهو في أسوأ ما يكون من الانفعال والغضب والتوتر، بسبب ما عرض الأنصاري في مقالته من أفكار موضوعية تميل إلى الاعتدال والتروي.

---

(١) المقالة السابقة.

(٢) المقالة السابقة.

ويقابل العواد ذلك السلوك النقدي الهادىء بمقالته الثالثة والأخيرة مبتدئًا إياها بشماتة، وإقذاع، وسوء تقدير لوظيفة النقد، فهو قد تنبأ بإفلاس أولئك الطارئين على الأدب والعلم والثقافة، وتنبأ أيضًا أن تزداد شهرتهم في صفوف المفلسين من العقل والأدب، «ولقد صحّ تنبؤنا هذا، ورأى الناس على صفحات صوت الحجاز الماضي أوحالًا من أقذار الذهن الكليل ليس من كرامة النفس، وليس من كرامة الفكر أن نتنزل إلى الإجابة عنها .. »[1].

ثم يرى أن أورع سخرية بالعمل الأدبي الضعيف أن يزداد له نقدًا وتمحيصًا وكشف سوءات، ويأخذ في تحليل مآخذه على القصة، وإبانة مالم يتوصل إلى فهمه عبدالقدوس الأنصاري، ويجمل ذلك في ست نقاط، وهي : انعدام الجو الفني، وقصر النظرة إلى النفس الإنسانية، وبُعدها عن حقائق علم النفس، والمفاجأة البشعة في انتقال الأخلاق، وخلوها من الخيال الممتاز، والبلى والبرود والتفاهة.

ولم يزد العواد على ما كتبه في مقالته الأولى سوى أنه كان في هذه المقالة أكثر تركيزًا وأوفر شرحًا وتفصيلًا.

غير أنه أسرف في الهزء والسخرية، وأورد ألفاظًا لا يتقبلها الخلق السوي، والطبع المهذب، فقد نبه مرة أخرى إلى أن خصمه ليس أنصاريًّا مدنيًّا — كما يزعم — بل هو «شنقيطي» ويسميه «الطفل الكبير» و «الكويتب المتطفل»، و «المُلّفق».

ولا يجد العواد غضاضة في النظر إلى أنه في نقده هذا وغيره قد ملّ من تعليم هؤلاء الجهلاء ما الخيال ؟ وما الفن ؟ وما الامتياز فيهما ؟ ويرى أن القصة لَفْق من القول لا تستحق منه هذه العناية، «فإن بقي بعد هذا زعم لزاعم من المكابرين فلينطح من شاء رأسه بما شاء .. ». [2]

---

(١) مقالة : عود على قصة «مرهم التناسي»، محمد حسن عواد، صوت الحجاز، عدد ٨٧، في ٢٤ شعبان ١٣٥٢هـ.

(٢) المقالة السابقة.

وبعد هذا العرض لوجهات النظر المختلفة يتضح أن المعركة غير متكافئة من حيث أخلاقية الأدب، إذ أن أحد طرفيها مدفوع دفعًا بعاطفة متهورة مدخولة بالعظمة، وطرفها الثاني على نقيضه تمامًا، حيث يلتزم بما تمليه روح النقد، وما تفرضه قيم المحاورة والسجال.

وقد رأينا كيف كان العواد حريصًا على تكرار الدعوة بريادته في أدب البلاد، وأنه كان منطلقًا من رؤيته حول مفهومه للقديم البالي من الأدب وحتمية هدمه، والدعوة إلى تجديد القوالب والأفكار، وأن هذا الهدف السامي الرفيع لا يتولاه إلّا ذوو همة عالية، وموهبة متفوقة، وإدراك دقيق لخصائص تطور الأجيال، ونماء الفكر، ولو سعى العواد إلى أن يحقق شيئًا من هذه الغاية بأقل مما أحدثه من معارك وخصومات لكان أكثر توفيقًا ونجاحًا، وسبق أن التمست له العذر في بعض ما عنف فيه، وما خرج به عن المعتاد، إلّا أن إسفافه في نقد خصومه لا يمكن أن يُعذر فيه.

على حين كان عبدالقدوس الأنصاري يرد طيش خصمه في حكمة وأدب، بعيدًا عن الإسفاف والقدح والتشهير بما يعيب، ومنكرًا على من يذهبون إلى العنف والقسوة في النقد «كأنهم يريدون القضاء على تلك الروح الأدبية في مهدها .. »[1].

---

(١) مقالة : كلمة صريحة حول نهضتنا الأدبية، بدون توقيع، صوت الحجاز، عدد ٩٦، في ٥/١١/١٣٥٢هـ، الموافق ١٩/٢/١٩٣٤م. ص١ (افتتاحية).

المعركـة الثانيـة: أثـر المنظـر الجميـل:

تعوّد كثيرون أن يروا المتعاركين في أسوأ حالة من الخصام المقيت، والتنافر وقطع الصلة، واتخاذ المواقف الدائمة تجاه أدب خصومهم، وما كان هذا الأكثر من المتابعين للأدب، ومن قرّائه يعتقدون النقد إلّا سبيلًا من ذلك اللون العصبي العدائي.

ولو ذهبت تذكر لهم خلافًا بين أديبين، تحاورا وتداورا، وطفق كل منهما يبحث له عن دليل، وعن حجة، وعن دعامة من الفكر، والأدب، والمأثور، ثم اصطلحا على أنّ في رأي أي منهما صوابًا وقوة وفائدة، وما تهدد الغالب المغلوب، ولا توعد البارز منهما الخامل لما عـدّ هذا من أدب النقد، ولا من صولات معاركه وجولاته، لأنه قد وقر في الآذان، واستقر في القلوب أن الخلاف نفار، وأن النقد يميت أو يحيي، وأن نهاية المنقود في أسوأ مصير من النسيان والضعة والشماتة.

كان من هذا المفهوم كثير سائد في مطلع النهضة، وكان منه سقط غير قليل نحسبه من النقد، وفيه لمام من الأدب جيد، ولكن الموازين النقدية والذوقية لا تقبل منه كثيرًا من الصفاقة والتسرع والسباب، وارتفاع الأصوات في فضاء لا يرد صدى !.

ومن ذلك المعركة السالفة التي تتبعنا كثيرًا من أفكارها، غير أن نضج الفنون واستواء الآداب لا يتأتى حسب الرغبة، ووفق التمني، فالملكة تنتظر أوان بلوغها، والوعي الثقافي العام يتنافى إلى أن يستطيع تقدير ملكات من حوله، والاحتفال بمواهبهم، والمفهومات العلمية والأدبية لا تترسخ في شكلها ومضمونها الصحيحين إلا بعد تجارب يخفق منها ما يقصر به استعداد حامليه عن بلوغ الشأو، ويحقق النجاح من هذه التجاريب الأدبية والنقدية الناشئة ما اكتملت له أسباب التوفيق، من نضج الرأي، وتوازن العاطفة وإدراك وظيفة الأدب، واختمار عناصر الصياغة الفنية الإبداعية.

وفي هذه المعركة النقدية نجد شيئًا من ملامح النجاح في تجربة النقد الواعي المتزن، المتكىء على مصادر عدة تتعاور على إنضاجه واستوائه، كالثقافة، والملكة، والبصر بالمحاورة والحرص على الأخلاق العامة، ونشدان السمو بالغاية من مثل هذا السجال.

الموضوع : تدور هذه المعركة حول قضية نفسية فلسفية عميقة كل العمق، متصلة بنسبة تفاعل الإنسان مع مدركات الخيال، حول أثر المنظر الجميل في النفس، ومقدار هذا الأثر، وهل يدوم أم يفنى ؟ وهل يصاب المنظر الجميل بالإصفاء أم تبقى فيه عوامل التأثير ؟.

والموضوع منتزع من محاضرة لحمزة شحاته ألقاها في جمعية الإسعاف[1] الخيرية بمكة المكرمة في الثامن والعشرين من مساء الأربعاء من شهر ذي الحجة عام ١٣٥٨هـ، واسم المحاضرة «الرجولة عماد الخلق الفاضل»[2].

وإن التساؤل الذي ألحّ على حمزة شحاته حول معنى أثر المنظر الجميل في النفس، وفقدان هذا الأثر بمداومة النظر وتكراره ينبىء عن رقي في الذوق الفني، ويشير إلى نمو في الوعي العام، حين قُبل النقاش في حماسة شديدة بين المتعاركين.

---

(١) جمعية الإسعاف الخيرية بمكة المكرمة، أنشئت عام ١٣٥٣هـ، إبان الحرب اليمنية، وألفتها لجنة من وجهاء البلاد لجمع التبرعات لإسعاف الجنود في الميدان.. ثم تطورت إلى جمعية للإسعاف الأهلي، وقد تكونت برئاسة محمد سرور الصبان، وعضوية مجموعة من الأدباء منهم إبراهيم فلالي، وفؤاد شاكر، وحمزة شحاتة، وأحمد عبدالغفور عطار، وعبدالله عريف، وحسين سرحان، وغيرهم. وقد ساعدت هذه الجمعية على نمو الوعي الاجتماعي والأدبي والصحي وحفلت دارها بإلقاء محاضرات عديدة مثل محاضرته هذه «الرجولة عماد الخلق الفاضل، ومحاضرة الفلالي «كيف نحتفظ بعروبتنا»، ومحاضرة فؤاد شاكر «التنادر والفكاهة في الأدب العربي» ومحاضرات طبية عديدة للدكتور محمد علي الشواف، وللدكتور محمد خاشقجي وللدكتور حسني الطاهر.
انظر : المعجم ٣٢٢/١، والفوزان ٤٣٩/١.

(٢) نشرت جريدة أم القرى عدد ٧٩٠ أن عنوان المحاضرة «الخلق الكامل عنوان الرجولة» ويذكر عزيز ضياء أن حمزة عمد إلى تغيير العنوان إلى «الرجولة عماد الخلق الفاضل» التماساً لإيقاع اللفظ والتناسق الموسيقي. انظر : حمزة شحاتة قمة عرفت ولم تكتشف، عزيز ضياء.
وأرى أن حمزة أراد ذلك وأراد أيضاً المعنى العظيم الذي يستقيم مع موضوع المحاضرة، وهو أن الرجولة الحقة هي الأساس، والخلق الكامل نتيجة للرجولة في صفاتها الكاملة.

والقضية يلخصها حمزة شحاته بقوله : «وإدمان النظرة إلى صورة جميلة، يفقدها شيئًا من تأثيرها القوي كلما تجدد إليها النظر المشغوف، وارتوى منها الحس المنهوم، حتى تفقد مقدرتها على التأثير .. والأداء .. وإنك لتعجب بالمنطر يفتنك ويلقاك بألف معنى، أول ما تلقاه فما تزال نفسك دائبة في تحليل معانيه وإذابتها، حتى تنتهي بها إلى الإصفاء والإفلاس .. »[1].

فالسؤال هو : هل يبقى أثر المنظر الجميل في النفس بعد طول النظر ؟. أم أن تكرار النظر إليه يفقده معانيه الجميلة، ويذهب بتأثيره في النفس ؟.

والمعركة التي دارت أقامها النقّاد على رأيين ــ فريق يقول : إن المنظر الجميل يفقد أثره بمداومة التأمل وتكرار النظر، وفريق آخر يخالف هذا ويذهب إلى أن المنظر الجميل يزداد تكشفًا عن معانٍ خافية حقيقة بالإعجاب، وجديرة بمداومة التأمل.

أطراف المعركة : حمزة شحاته، وعبدالله عريف، ثم انضم إليهما مناقشان آخران، محمد عمر توفيق مؤيدًا عبدالله عريف، وأحمد عبدالغفور عطار مؤيدًا حمزة شحاته.

زمانها : مساء الأربعاء، ٢٨ من ذي الحجة عام ١٣٥٨هـ[2].

مكانها : محاضرة ألقاها حمزة شحاته بجمعية الإسعاف الخيرية بمكة المكرمة، ونُشرت الردود في جريدة صوت الحجاز، الأعداد من ٤٤٧ إلى ٤٦٢.

---

(١) محاضرة : الرجولة عماد الخلق الفاضل، منشورات تهامة، سلسلة الكتاب السعودي، رقم (٢٧) الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ، ص٢٥.

(٢) انظر : جريدة أم القرى، عدد ٧٩٠، السنة السادسة عشرة، عام ١٣٥٩هـ، محرم. ص ٥ (خبر). وانظر : عبدالله عبدالجبار، التيارات الحديثة في قلب الجزيرة العربية، «معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة ١٩٥٩م ص ٢١٣.

ابتدأ هذه المعركة الأدبية النقدية عبدالله عريف بمقالة[١] هادئة، أبدى فيها إعجابه بأثر محاضرة حمزة شحاته في جمهورها الذي حضر إليها، والتهبت أكفهم بالتصفيق أربعين مرة، ويفسر عبدالله عريف هذا بأنه انسياق من الجماعة إلى التأثر بالشعور العام، وليس شعورًا فرديًا بقيمة معاني المحاضرة، وأفكارها التي ناقشتها، ويريد عبدالله عريف أن يبعد عن الأذهان ما علقها من مفهومات النقد في البلاد «فما أود أن يفهم أحد، أني أريد التطاول أو التنقص لأثر عظيم»[٢].

ورأى عبدالله عريف أن المنظر الجميل جمالًا حقيقيًا لا يفقد أثره، ولا يندثر تأثيره من النفس في زمن قصير «إنما يكون الإصفاء والإفلاس، عندما تفقد الصورة الجميلة، جمالها، فقدانًا ذاتيًا يسلبها جمالها، لا فقدانًا يحسه الناظر إلى تلك الصورة .. »[٣].

والإصفاء والإفلاس لا يصيبان المنظر المنطوي على عناصر الجمال الحقيقة بالإعجاب، ومن ذلك صور كثيرة رائعة فكرية وطبيعية ولغوية، في الشعر والسهوب، والبيان البديع.

ولا يقع الإفلاس في النفس من المنظر الجميل، ولكنه يكون كذلك حينما تفقد الصورة تأثيرها بانحلال مقومات الجمال، وفقدانها عناصره المثيرة للتأمل ومداومة النظر، والفقدان هنا ذاتي صرف، وليس للمداومة في الرؤية تأثير في تسرب معاني الجمال من الصورة أو المنظر «هذه رقعة السماء — وهي صورة رائعة بسيطة من صنع الله — لاتزال تجذب النفوس إليها، مهما أدمن الناظر النظر ودقق الفهم، فهي، هي هي، لاتزال جميلة فاتنة وإن قويت النفوس واستشرت، فلن ينال الصورة إصفاء أو إفلاس؟ .. »[٤].

ويضرب أمثلة أخرى بالحقول، وصور شعرية، ومعان لغوية دلالية من إيحاء

---

(١) مقالة : ضريبة الاعجاب، صوت الحجاز، عدد ٤٤٧، في ١٠ محرم ١٣٥٩هـ، س١.
(٢) المقالة السابقة.
(٣) المقالة السابقة أيضاً.
(٤) المقالة نفسها.

لفظي في : الحرية، الحب، الجمال، الإيمان، الشجاعة، وغير ذلك، وكلها توحي إلى الأبد بمعان جميلة لا تفنى مع التأمل والتفكير والنظر.

ويلخص عبدالله عريف مذهبه في جمال الصورة البديعة، ومحاورته حمزة شحاته في محاضرته بأن «الصورة الجميلة القوية، لا يذيبها ــ ويعني بالإذابة الفقدان المطلق ــ إدمان النظر وارتواء الحس، إنما يقلل من أثرها فقط من غير أن يدفع بها إلى الإصفاء والإفلاس .. »[1].

والذي نستنتجه في مقدمات هذه المعركة الأدبية الفلسفية الجمالية ذلك القدر من الرغبة في تعديل موازين النقد، وفي تغيير طرائق الناس في فهم الحياة، وفهم التطور، واطراح التواكل والجمود، «والحياة إذ تسير بطيئة ثقيلة الخطو لا بد لها من قوة تسرع بخطوها وتدفعها إلى خبب السير وجريه»[2] ثم ذلك القدر من الرغبة في اتباع آداب الحوار، والبحث عن المعرفة، بل السعي إلى إنضاج معارفهم بالنقاش الهادىء والمناقدة المتزنة، والفرح بمصاولة الفكرة، ومراودة الذهن على أن يُقبل على الجيد من الآراء، أو ينصرف عن المتساقط والمنسي، ويحف ذلك أدب جم، وتقدير لعملية النقد، ولقيمة من يقوم بذلك عمليًا وخلقيًا، وقد أشار عبدالله عريف إلى فضل المحاضر، وفنه الأدبي العالي في الشعر والنثر، وهو سعيد بغشيانه هذه الأفكار التي لا يسعى إليها إلّا النابهون والبصيرون بمواضع التفجر الجمالي في الآثار الإبداعية، ولا يريد منها إلّا ذلك الأثر البعيد عن الإفلاس والإصفاء، من فضيلة قولية وتأملية وعملية، ولعل قسطًا كبيرًا من الأعمال الخاوية أدبيًا وجماليًا غير صامدة أمام النظر المتمعن، وغير مانحة مريديها البصيرين بمكامن الحسن في الصور الخلابة القوية شيئًا مما يطمحون إلى تدفقه الأبدي منها.

ويبلغ إعجاب عبدالله عريف بحمزة شحاته أن يرى صعوبة إقدام المحاضرين بعده على أن يتحدثوا إلى الناس ويعرضوا عليهم أفكارهم، لأن الموازين ستُنصب

---

(١) المقالة نفسها.

(٢) المقالة السابقة.

للمقارنة والمقابلة. وفي هذا اعتراف بمبلغ ما وصل إليه مقابله في هذه المعركة الأدبية من علم وأدب ومقدرة على سوق الفكرة وبسطها والتأثير بكل ذلك في سامعيه.

وإذا نظرنا إلى موقف حمزة شحاته من رد مناقشه السالف نجده في غاية مايكون من الأدب واللطف وسمو الذوق، فهو يثني على مقالته «ضريبة الإعجاب»، ويقول عنها إنها «صدى ضميره الحي، وحرارة فنه المستوفز»[١].

ويريد منه حمزة شحاته ألّا يصمت في مواجهة النقد. فهو لا يرى بأسًا في اختلاف الآراء، ولكنه يخشى أن يظن به التعصب لما يجري في كلامه من فكرة سانحة، ويخشى أن يتهم بالجفاء والتنكر للنقد، ولذلك نراه يكبر في مناقشه شجاعته وثقته بنفسه ورشاقة فهمه. ويؤكد حمزة شحاته على حبه للبناء والهدم في موازين النقد، وعلى التعديل والإضافة في المعارف القابلة لذلك «فإن كانت الحياة حياة باستمرار حركتها، وتجدد دواعيها وتعدد صورها، فالنفس ما تكون النفس العميقة إلّا بما يجيش بها من أسباب التغيير والتحول والتقدم والتقهقر»[٢]ويأتي حمزة شحاته في مقالته على أمور كثيرة في النقد، تصلح لأن تكون ميزانًا في بعض قضاياه، وتمثل في الوقت نفسه حدود المقالة الأدبية النقدية التي نعرض لها بالدراسة والتحليل والنمذجة في هذا الفصل من البحث، ففي مقالته النقدية تتعاور الرؤية الذوقية لمعاني الجمال في الإبداع الأدبي وغيره، والرؤية الذاتية للحياة، والتراكم المعرفي والثقافي على صياغة الأسلوب، وإعمال التفكير، والارتقاء بالذوق، وليس من اليسير أن يتخطف القارىء المتسرع هذه الأشياء في مقالات أديبنا، فهو أبعد مايكون عن إعطاء ذاته للتعجل الدَرِك، ومذهب الكاتب الأناة والبصر وإرواء المعنى، وإشباع الفكرة، والوقوف عند دقائق يتجاوزها الفهم السريع.

---

(١) مقالة : بين الجمال والنقد، حمزة شحاتة، صوت الحجاز، عدد ٤٤٩، في ١٧ محرم، ١٣٥٩هـ، ص١.

(٢) المقالة السابقة.

فهو يرى أن النقد الجيد «هو الذي يسعى إلى القوة في ميزان الحدود والقيود والهدف، والذي يهدم قديمًا متداعيًا ليقيم جديدًا ثابتًا ؟!»(١).

ويفرق بين الإنشاء والنقد التنظيري، وكأنه يقول إن المقالة الأدبية النقدية لون من الإنشاء الذاتي، لأنها تأثرية انطباعية، وهي غير المقالة الوصفية الهادفة إلى «تقنين القواعد»، فهذه لا يكفيها نشاط الكاتب فحسب، وإنما المقدرة أيضًا.

وقلت إن هذه المقالة صورة صادقة لنضوج معايير النقد، ويجوز لنا أن نتمثل بعض ما ذهبت إليه موازين للنقد في بعض أموره، وهذا القول تؤكده المعاني الفكرية والجمالية في مفهومات حمزة شحاته لوظيفتي الأدب والنقد. وقد ألمح إلى شخصية الناقد الأدبية كيف تكون؟! وما الفرق بين الأديب والناقد ؟، وهل كل أديب ناقد ؟ أو كل ناقد أديب ؟!.

فهو يرى في نفسه طبع الأديب أكثر مما يرى فيها بصر الناقد وتيقظه العقلي، وملكته وخصائصه وقوة احتماله معايير النقد في النظر إلى مجالي الفن «.. وقد لا تكون لي أعصاب الناقد ويكون لي إحساسه. ولكن لا تكون لي ملكته وخصائصه. وقد تتهيأ لي طبيعة الشاعر المشغوف بالحياة وجمالها المتطور وأحرم نفسي من طبيعة الشاعر المتطلع إلى حقائقها وأسرارها المكنونة فأكون أديبًا أو شاعرًا يتحدث إلى الناس عن فكره ونفسه، لا عن الفكر والنفس .. (٢).

على حين يرى أن النقد الأدبي يشمل ذلك كله، ففيه تأمل، وتذوق، ومعرفة وقوة، ومقاييس، ومعارف مختلفة، ويرى كثيرًا منها في مناقشه، «وللأستاذ الصديق أعصاب الناقد وحسه وملكته وخصائصه ونفس الشاعر المفتون بجمال الحياة وقبحها، والمأخوذ بحقها وطبيعة الفيلسوف الهائم بحقائق الحياة والمعني بأسرارها، فلماذا لا يكون من حقه أن ينقد الأخطاء ويقوّم المعوج وينطلق في جو فنه الفسيح متأملًا واعيًا، يسمي الأشياء بأسمائها ويردها إلى مصادرها»(٣).

---

(١) المقالة السابقة.

(٢) المقالة السابقة.

(٣) المقالة السابقة.

وقد أشار في ذكاء إلى أنه ذو مزاج سؤوم، يصيبه الكلال من إدمان الاستمتاع، ويعتريه الملال من غشيانه ما تشتهيه نفسه، ويريد من ذكر هذه الحقيقة في رؤيته إلى معاني الجمال أن يبني عليها مذهبه في هذا، وهو أن السعادة في المسرة المتجددة، ولا تتجدد المسرة إلّا بانقطاعها، ولن يكون لها وقع في النفس حسن ومبهج إلّا حين تفجأها المسرات حينًا بعد حين.

وأخلص مقالته الأولى ـــ بعد تثبيت هذه النظرة ـــ للرد على شعور الفرد وسط الجماعة وكون انصياع الجماعة واندفاعها أقوى منها في الفرد.

وبنى حمزة شحاته مذهبه في الجمال على نظرات منها : أن الناس يختلفون في النظر إلى الجمال باختلاف حظوظهم من الإحساس، ومقدرتهم في التعبير عن مشاعرهم وتحديدها، والوقوف عند مظاهر الفتنة والإثراء الفني في صور الحسن، ومواقع الإبداع الجمالي. واختلاف القدرات وتباين المدارك هو الذي يقرر نفاد الحسن في المشهد أو بقاءه «وهب أنني رجل أكمه الذوق. فما تكون معاني هذه الصور في نفسي ؟!»(١).

ثم يرى أن التجدد سر استمرار الحياة، وتوالد الأفكار، ونماء المعاني، واستدامة التمعن في المشاهد دون استصفاء يخالف هذه السنة الطبيعية التي تمنح الحياة والناس التجديد والكشف، والاستزادة من مشاهد الجمال في مناحي الحياة المختلفة «والزمن لو كان ربيعًا كله ما كان للربيع معنى جدته وسحره ورِوائه الأخاذ لذلك كان تعاقب الصور وتجددها شرطًا لازمًا لضمان تأثير الجمال، وتأثير معانيه، ولذلك كان الزمن جزءًا من حقيقة الجمال أو كان أهم أجزائها»(٢).

ثم يورد دليلًا قويًّا يؤكد هذا المعنى في استصفاء المشهد الجميل، ونفاد تأثيره، ومشاعر ناظره حالة احتياجه إليه أو جوعه، ثم استغنائه بعد إحساسه

---

(١) مقالة : بين الجمال والنقد، صوت الحجاز، عدد ٤٥٠، في ٢٠ محرم ١٣٥٩هـ، ص١.
(٢) المقالة السابقة.

بالإرباء والامتلاء من مغانيه، «كارتواء العطشان اللاظي لا يبقى للماء إلا معنى أنه ماء وقد كان في حرقة الحاجة شيئًا ألوف المعاني تخطر خطراتها الهزاز في النفس والحس وإطواء الفكر، وأن الماء في ذاته الماء لا غير، ولكنه في الظامىء أو عنده، المطلب الذي تتجمع فيه معاني الحياة وأسرارها ؟!.. »[1].

وفي المقالة الأخيرة يقف حمزة شحاته في أسلوب المناقش المتبصر، والمنظّر المتمكن، ملخصًا أفكاره السالفة، وموحيًا إلى ناقده أن رؤية الجمال نافدة فانية، وفناؤها ونفادها سران عميقان لتجددهما في النفس، وتولد معانيهما. والحياة تتغير، وبتغيرها تتبدل الأسرار الكامنة في مشاهد الحسن، ومطارح الجمال في كل شيء، فهي بين خفوت وظهور، وبين توار وبروز، وحالات النفس في كل ذلك شبعى حينًا، وجوعى حينًا آخر، والجوع والشبع مدعاة لاستمرار الحياة، وتوالي الطلب على ما يبعث على الشبع والإرواء، ويدفع إلى السعادة والإمتاع، ثم تعود الحياة بأهلها إلى حاجة بعد امتلاء، وكذلك الجمال في معانيه الكبرى، «وإن لكل جمال رسالة قصيرة كرسالة الربيع الطلق .. »[2].

ويسعى حمزة شحاته إلى البحث في أسرار الإمتاع الجمالي، فلا يتوقف عند حدوده الدنيا، المتيسرة لكل أحد، وحتى إذا استصفى ما تمنحه اللحظات الجميلة من مشاعر حانية رقيقة، وكادت تنضب من طول مداومة النظر والتمعن، تحوّل في مسعى آخر إلى بحث جديد عن جمال جديد، وإنه ليعتب على ناقده كيف يخشى استصفاء معاني الحسن في مشهد وأمامه الحياة بما فيها من تجدد وابتكار «أهو الخوف من إفلاس الحياة ؟ أم هو ضيق أمداء الجمال ومذاهبه فيها ؟ أم عجزها عن الارتجال والإنتاج ؟ أم الشعور بأن ما يفوت في الحياة هو خير ما يمكن فيها ؟ أم وقفة اقتضاها الوفاء لصورة جميلة ؟.. »[3].

ولا يتفق عبدالله عريف مع هذا المذهب الذي يؤمن به حمزة شحاته في النظرة

---

(١) مقالة : بين الجمال والنقد، صوت الحجاز، عدد ٤٥٨، في ١٨ صفر ١٣٥٩هـ، ص٤.

(٢) المقالة السابقة.

(٣) المقالة السابقة.

إلى الجمال، ويتبع هذا الناقد أسلوب السخرية والتهكم اللطيف المؤدب في أكثر الأحيان، والمعاتب في أحيان أخرى، فهو يستخدم ألفاظًا فيها تورية، ومن ذلك مخاطبته حمزة شحاته، يلومه على عدم فهمه رؤيته في معاني الجمال وأثر ذلك في النفس :

«فهل من ذنبي أن يدور رأس الأستاذ (يعني حمزة شحاته) أو يدور الأستاذ على رأسه، عفوًا يا أستاذ ـــ وهل كان بمستطاعه ألّا يفعل أمام الصورة الجميلة !! وأنا لا أريد أن أسوق غمزات الأستاذ السافرة المكشوفة وإن تبرقعت بألفاظ الإطراء .. »[(١)].

ويعلن عبدالله عريف استقصاءه معاني الجمال وتكشفها للناظرين، وعدم فنائها، وبخاصة ما كانت قيم الجمال فيه قوية راسخة، وكان الناظر إليها يملك إحساسًا فنيًّا نافذًا، ويتوعد المحاضر بأنه لن يمل السجال إلى أن يقنع بدليل إثر دليل على صحة مذهبه في الجمال «فوعد غير مكذوب أننا باحثون في كل ما نظم الأستاذ الصديق وكتب، أو يلقي أحدنا السلاح .. »[(٢)].

وفي مقالاتهما إشارات لمّاحة ساخرة إلى ما يريدان من المعاني دون إسفاف أو تهور، فحين ردّ حمزة شحاته تمسك بالحوار وأكد أنه لن يلقي السلاح، ولكنه يريد من ناقده ألّا يدعه يتكلم وحده، ويبقى كالمتهم بالجرم كل شأنه أن توجه إليه الأسئلة وأن يجيب .. »[(٣)].

وإن البحث في مذاهب الجمال، ومدارسه الفلسفية أمر يحتاج إخلاصًا كبيرًا في رصد الرؤى الفكرية، ومدارس الجدل، ورؤى علم النفس لتكوين اتجاه قريب من التفكير العلمي، ولا يتقيد بالذوق الفني فحسب.

ويجب أن أؤكد أن الذوق الفني في اكتشاف مناحي الجمال عليه المعول في

(١) مقالة : تكاليف الضريبة، عبدالله عريف، صوت الحجاز، عدد ٤٥٣، في ١ صفر ١٣٥٩هـ، ص١.

(٢) المقالة السابقة.

(٣) مقالة : بين الجمال والنقد ـــ٣ـــ حمزة شحاتة، صوت الحجاز، عدد ٤٥٥، في ٨ صفر ١٣٥٩هـ.

تحديد أبعاد هذا الجمال، والغوص إلى أعماقه، ويبقى الدرس العلمي أمرًا مساعدًا على تفسير الجمال، وتحليل معانيه.

وليس فوز أحد الناقدين بإفحام خصمه هدفًا لنا في عرض مثل هذه المعركة النقدية قدر سعينا إلى معرفة المعايير التي احتكما إليها في هذا السجال الأدبي والفلسفي، وقدر سعينا أيضًا إلى الاطمئنان على الروح الأخلاقية السامية التي التزم بها المتحاوران.

والحق أن في كل رأي ذهبنا إليه نصيبًا من التوفيق، وأن آراءهما تختلف ولا تتباين، واختلافها يعود إلى اختلاف مصادر الثقافة لكل منهما، وعدم اتفاقهما في الذائقة الفنية عند النظر لمفهومات الجمال وآثاره الباقية والفانية.

وبقاء المتعة متجددة إلى الأبد في المشهد أو الصورة أو المنظر، أو باعث الحسن يدل على شاعرية في الرؤية، ومزاج غير سؤوم ـــ كما أومأ شحاته ـــ ورغبة في استقرار معاني الحسن، ومقاييس النظر إلى التأثر بالجمال، كما هي طريقة الشعراء الرومانسيين الميّالين إلى ألّا يصدموا في ذائقتهم بإفلاس دواعي الإلهام، وأسباب الفيض الغامر الذي يكنفهم في حالات وقوفهم أمام مشاهد الجمال، وصور الحسن في الطبيعة والإنسان، وألوان الإبداع الجمالي الأخرى.

وأرى أن حمزة شحاته يعتمد الاستصفاء الشهواني المتجدد من المتع الجمالية المعنوية والحسية، وكأنه يلتقي مع «فرويد»[1] في التحليل الجنسي لصور الجمال، غير أن شحاته لا يفسّر تأثره كله بالبعد الحسي هذا، ولا يصرّح به ـــ ونجد الإشارة إليه إيماء، فهو يقيم عليه استمتاعه بصور الجمال النافدة وبخاصة ما يتصل منها بالحواس، لأنها أقل استدامة، وأقصر تأثيرًا. «ونحن نشير

---

(١) سيجموند فرويد (١٨٥٦ــ١٩٣٩م)، درس طب الأعصاب في جامعة فينا، ويعد مؤسس التحليل النفسي، وله ريادة في درس النفس ونزوعاتها، ومؤلفاته في ذلك تربو على عشرين كتاباً، منها : «نظرية الأحلام» طـ٢، ١٩٨٠م و«الطوطم والحرام» طـ١، ١٩٨٣م، و«ثلاثة مباحث في نظرية الجنس» طـ٢، ١٩٨٣م، وكلها من منشورات دار الطليعة في بيروت، وترجمة جورج طرابيشي.

انظر : د. عبدالرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، طـ١، ١٩٨٤م، ٢/١٢٢.

بالاستصفاء والتذوق إلى غير علاج الفكر والنظر، فهل فهم الأستاذ الصديق كناية هذا العلاج على وجهها الصحيح، أم كانت الغيمة أقل شفوفًا عمّا يحول وراءها .. ؟»[1].

وهي أقرب إلى سر الحياة الأبدي في العطاء والقبض، والمنح والحرمان، والوفرة والشحوح، ولو كان طبع الحياة المنح في كل حال، والعطاء في كل معنى لما تجددت في النفس فكرة، ولما توالد في الخاطر هاجس، ولما وقع الخيال الخصيب المتنقل على صور مشرقة جديدة، ولكان طبع الحياة المستقر المنح والعطاء، ولا يكون لهما مع وفرتهما دائمًا قيمة النادر والعزيز والبعيد المنال.

ولو كان كل ما يشتهي الإنسان متيسرًا لانعدم الإحساس بروعة دواعي ذلك الاشتهاء، وشأن المتع الحسية والمعنوية المنقطعة أن يواتيا قاصدهما بفيض حفيل من الجدة والإضافة والإرباء.

ولو لم تتجدد الشهوة إلى معاني الحس غير المستقرة لانطفأت دواعي تذوقه والاستمتاع بما يفيضه على الوجدان من دفق مشاعر، وفيض أحاسيس، وعذب خيال وصور.

والرؤية الفلسفية التي تخلط بين الذائقة والبصر العقلي أكثر إثراء لمعاني التوليد والتجدد من أن نذهب في ذلك نحو ما يخاف الرومانسيون من أن يفجعوا بنفاد معانيه وإصفاء دواعي الهيام به.

وقد ختم عبدالله عريف هذه المعركة بمقالة هادئة رزينة، تنبيء عن رؤية ثاقبة لمفهوم النقد، ومقومة للحركة الأدبية في البلاد، فهو يؤكد على النهج النقدي الذي سلكه في معركته مع خصمه، ويرى «أن الناس في خارج بلادنا يعرفون للنقد الأدبي مكانته العالية، وأنه لا شيء سوى تعديل لمفاهيم الأشياء، وتصحيح النظرة فيها، فهم لذلك خصوم شرفاء .. وإذا كان هذا دليل متانة الأخلاق والرقي الفكري فنحمد الله أني سلكت والأستاذ حمزة سبيله المرغوب. والود بعد عقيدة

(١) مقالة : بين الجمال والنقد، حمزة شحاتة، صوت الحجاز، عدد ٤٥٠ في ٢٠ محرم ١٣٥٩هـ.

مؤمن ما تزلزلها أقوى المؤثرات عنفًا فكيف بها إزاء هذه اللمحات العابرة .. »[١].

وليس أدل على نضج المفهوم النقدي، وأقوى إشارة على ما بلغه الناقدان من إلمام بمعارف شتى متصلة بموضوع السجال من هذا الأسلوب الذي كتبا به مقالاتهما، وهذا الوعي المتبدى، وهذه العاطفة الملتزمة التي يكبحها العقل ويقيدها النضج الفني.

وهما لا يريدان أن يفرّطا في هذا النهج لأنهما يحسان بما وصل إليه النقد من ابتذال وسفه «فقد كان الناس يفرقون من النقد، ويخشون سطاه، وكانت بواعث النقد الأدبي أكثر ما تكون استجابة لتنازع شخصي، أو تقرير ذاتي، وليس للفكرة الفنية ــ بعد ذلك ــ سوى وساطة التعبير عن وترات النفوس، فإذا قرأ الناس اليوم نقدًا بين أديبين، كان من حقهم أن يرقبوا النتيجة المحتومة التي ركزتها مفاهيم النقد الأدبي في بلادنا، والتي لابد لها من جفوة تعصف بالود، وحرد يطيح بالصداقة .. »[٢].

وأما الناقدان الآخران المناقشان فقد أسهما بمقالتين طويلتين، فيهما شرح وتعليل وتحليل لمذهب من يؤيده كل منهما، أبدى محمد عمر توفيق آراء عديدة في تأكيد معاني الجمال في الصورة، وعدم فنائها بطول النظر، وحمل تجدد صور الجمال، واحتفال المشهد بمواكب الحسن في نظر عريف على أنه يحمل رؤية شاعر، أو ينهج ما يراه الشعراء في تحليلهم للأشياء، فهم ينظرون إلى الحياة من وحي شاعرية متفائلة أو متشائمة، ولكنها غير مستنفذة «ما تحويه من جمال وقبح، وإنما تتطلب دبيب الشعور الحي في النفس وانطلاقه راقصًا بين جوانحها .. »[٣]. وعريف في نظر محمد عمر توفيق لا يمل النظر إلى محافل

---

(١) مقالة : بيني وبين الأستاذ حمزة شحاتة، عبدالله العريف، صوت الحجاز، عدد ٤٥٩، في ٢٢ صفر ١٣٥٩هـ، ص١.

(٢) المقالة السابقة.

(٣) المقالة : التجريد وما وراءه..، محمد عمر توفيق، صوت الحجاز، عدد ٤٥١، في ٢٤ محرم ١٣٥٩هـ، ص٤.

الجمال، ولا يستنفد أغراضه منه لأنه يفسره بروح الشاعر، ويعلله بوهج من تصور الأديب الفنان الذي تتجدد معانيه في نظرته إلى الأشياء في أكثر الأحيان.

أما نظرته لمذهب شحاته فقد بناها على أنه يحلل «الملابسات والنفس قبل كل شيء، ولذلك فهو يدأب في تحليل المنظر غير ثمل به إلّا بقدر ما يهزه فيه من شعور، وإذا هو أمامه وقد أصفى وأفلس، ولم يعد شيئًا له قيمته .. »[١].

أمّا أحمد عبدالغفور عطار فقد حلل رؤية حمزة شحاته، ورأى أنه على صواب في استصفائه المشهد الجميل، وإحالته معانيه النافدة بطول التمعن، ومداومة التأمل، وقال إن هذا طبع تجدد الحياة وتكرار عطائها «أيريد الأستاذ عريف أن يغالب الواقع، ويتطاول عليه ويتجاهل الزمن وقانون التطور ؟ ما الجدوى من الوقوف على صورة قد التهمت كل معانيها بالنسبة لمن التهمها ؟ أأمسى فقيرًا إلى هذا الحد من الإدقاع ؟»[٢].

والذي يتبين بعد عرض أفكار كل فريق في هذه المعركة شغوف أدباء تلك الفترة من جيل الرواد بأن يكون لهم اتجاه نقدي وفكري، ويكون فيهم أساتذة ورواد في ذلك، ثم يكون لهم مؤيدون ومعارضون، كما هي طبيعة البيئات الأدبية الناهضة، فلماذا لا يكون لديهم ناقد أو ناقدان يختلف عليه، أو عليهما الكاتبون والمبدعون، ويكون في ذلك ثراء للأدب وصوت للأدباء ؟.

ويكون لأسلوب تفكير هذا الناقد المختلف حوله شأن في توجيه مسار النقد، وإثارة مسائله، وإبراز قضايا الأدب، ومعالجة نزوع الإبداع لدى كثيرين ممن يكتبون فلا يجدون إلّا الرفض والتنقيص والاستهزاء، ودعاوى الإنكار والشماتة.

ولذلك رأينا الناقدين شحاته وعريف يتحاوران في إيحاء منهما كليهما وممن حولهما بأستاذيتهما في النقد، وبتحصيلهما كثيرًا من المعارف الثقافية الأخرى

---

(١) المقالة السابقة.

(٢) مقالة : نقاش صوت الحجاز، عدد ٤٦١، في ٣٠ صفر ١٤٥٩، ص١، وانظر أيضاً عدد ٤٦٢، من الجريدة نفسها ــ في ١٣٥٩/٣/٣هـ، ص٤.

المعينة عليه. ورأينا ناقدين اخرين كالمريدين أو التلميذين يتبنيان آراء الرائدين ويصفقان لها، ويذبّان عنها.

ثم رأينا عمقًا في التناول، وجمالًا في الأسلوب، وبُعدًا عن الابتذال، ووقفنا على تلك العاطفة الأدبية السامية الباعثة على البحث عن الفكرة، والمحلقة بالأديب الناقد في ألوان من السمو التخيلي الممتاز، لاصطياد فكرة، وللتدليل بمثال، ولتقريب صورة شاردة.

وهذه المعركة الأدبية النقدية خير ما يصور اتزان النقد في أواخر العقد السادس من القرن الماضي، وخير ما يدل على بلوغ أكثر الأدباء فيه شأوًا طيبًا من التجويد والإتقان، والوعي بوظيفة الأدب، ومهمة النقد في إصلاح مفهومات في الحياة الأدبية مركوسة، وتقويم مسالك معوجة في الواقع الاجتماعي والثقافي.

مناوشـــات أدبيـــة :

تصور المناوشات الأدبية أمورًا متعددة في حركة الأدب، ونشاط النقد، ونضج العمل الأدبي أو ضعفه، واكتمال أدوات الناقد أو نقصها، والتزام أطراف المناوشة بآداب الحوار وأخلاق الأدباء أو تفريطهم في ذلك واستسلامهم لعاطفة غاضبة، تصرف أدبهم عن الأدب، وتبعد نقدهم عن سبل التقويم الرشيدة، ومسالك النقد الحقيقة بالاحتفال والإعجاب.

وهذه المناوشات التي أعرض طرفًا منها في هذه الجزئية من الفصل ليست إلّا مثالًا لكثير مما يدور في ساحة الأدب من نقد سليم، ونقد غير سليم، ومن بصر بأمور النظر في النص الأدبي، وجهل بما يحسن للناقد أن يقف عليه من المُعين على النقد، كالتفطن في ما يرتفع بالذوق الفني، والنظر إلى مدارس النقد وتياراته، والأخذ بما يدفع الأسلوب الكتابي إلى مدارج الإمتاع والإقناع والسمو.

ويحسن أن أشير إلى أن عرضي لما سأذكره منها ليس إلّا للتمثيل فحسب، ولست أريد أن أحصر، أو أستقصي، ولو أردت شيئًا من ذلك لما وسع عملي هذا المقام، ولما كفاني وقت يسير متاح. ولذلك أدلل على النقد المتزن، وعلى النقد غير المتزن بمناوشات مختلفة، إخترتها من بين عشرات المناوشات التي دارت حول قضايا الأدب، ونوازع الإبداع، وأحوال الأدب الثقافية والفكرية، والتيارات القديمة أو الجديدة في الأدب، كالشعر الحر، والدعوة إلى الأصالة، والشعر الشعبي، والدعوة إلى حفظ تراث بعض أعلامنا، من الناقدين، والشعراء ودرسه ونشره، والدعوة إلى بعث الفكر من رقدته، وإيقاظ الأدب من منامه، كما فعلوا في اختصامهم حول الجمود والسكون في منتصف العقد التاسع من القرن الهجري الماضي، وما بعده، وهذه المناوشات فيها الطويل الممتد القريب من المعركة، ومنها المتوقف عند الرأي أو الرأيين، وحسبي أن أضرب بهذه المناوشات مثلاً لئلا يطول العرض، ويختل توازن جزيئات هذه الدراسة.

١ ـــ كتاب «الأدب الفني» لمحمد حسن كتبي :

هذه المناوشة الأدبية ابتدأها عزيز ضياء بمقالة نقدية ساخطة على الهيئة التي خرج بها كتاب محمد حسن كتبي «الأدب الفني» وصلة هذا الاسم بما يحويه من درس نقدي لبعض ألوان الكتابة. فهو يبدي عدم رضاه عن مستوى الكتاب، وينكر مديح الناس له، ويدعو إلى الانصراف عنه، ويقول لهم : «إن كتاب الأدب الفني هذا لا يحمل الشيء الذي توهتموه، إن هو إلا كتاب إنشاء مدرسي لا أكثر ولا أقل .. »[١]،وينكر على كاتبه التوفيق في اختيار هذا العنوان الرنان، ويشير إلى أنه يملك إحاطة جيدة بفن الإعلان، وأن العنوان يخدع من يجهل مضمونه، ويعرض الناقد صورة لقراءته الأولى له، «اشتريته من المطبعة الماجدية فوجدت بين يدّي كتيبًا صغيرًا هزيلًا صدم آمالي صدمة جبارة، وبدّد ظنوني تبديدًا ذريعًا .. »، وكان يخامره الظن الحسن أن يجد فيه تأسيسًا جديدًا لمفهوم الأدب الفني، أو أن يقوض أركان الأدب القديم، أو أن يجد أخلاطًا من الآداب الأخرى، ونصوصًا من الأدب المصري الحديث مع تحليل ودراسة.

غير أن هذا الرأي النقدي الساخط لم يقابله الأدباء الآخرون بالتسليم والقبول، فقد انبرى أحمد عبدالغفور عطار اللرد على عزيز ضياء، وتفنيد حججه الواهية الزاعمة ضعف هذا الكتاب.

وفي مقدمة المقالة[٢] يمدح العطار مؤلف الكتاب، ويذكر أنه غزير المادة، واسع الاطلاع، ويعدّ في طليعة الكاتبين، «.. وكتابه الذي بين يدينا يدل على سعة اطلاعه وغزارة علمه وعمق بحثه ودقة درسه في الأدب العربي، وهو وحيد في نوعه لم يسبقه أحد من كتّاب الحجاز بأن يؤلفوا مثله .. » ثم ينصح شباب الحجاز المثقف بقراءة الكتاب والاستفادة منه، ويقول عن مؤلفه : إنه أديب ممتاز،

---

(١) مقالة : من عزيز ضياء إلى محمد حسن كتبي حول الأدب الفني، صوت الحجاز، عدد ١٤٣، في ٢٣ شوال ١٣٥٣هـ، ص٤.

(٢) مقالة : حول كتاب الأدب الفني، أحمد عطار. المعهدي. صوت الحجاز، عدد ١٤٣، في ٢٣ شوال ١٣٥٣هـ، ص٤ (حوى العدد المقالتين المختلفتين).

«وسلك في تأليفه طريقًا مبتدعًا جديدًا، وطرق بابًا من أبواب فن الأدب لم يسبقه أحد إلى طرقه من قبل، ونرجو في كلامنا أن نكون منصفيه ولو بعض الإنصاف، ونقرر الحقيقة دون مبالغة .. »، ثم يعرض فصوله.

والمقالة في أكثرها مبالغة وإطراء وثناء على المؤلف والكتاب، وحين أراد أحمد عبدالغفور عطار أن ينصف المؤلف بالغ في الثناء، وتمنى ألّا يقع في ذلك ـــ وأن يلزم الحقيقة، لكنه لم يستطع أن يدفع عاطفته من مخالطة رؤيته النقدية، فجاء على نقيض مايراه الناقد الأول عزيز ضياء، والاثنان ـــ فيما أرى ـــ غاليان، الأول مسرف في القدح، والثاني مسرف في المدح !.

وهي مناوشة تحكمها روح النقد الناشئة التي ترفض جملة أو تقبل جملة أيضًا، وما استقرت بعد موازين النقد المتبصرة التي تتأمل فيما تأخذ وفيما تدع، بحيث يعلم الناقدون أن أكثر الأعمال الأدبية لا تخلو من جانبي الرضا والعتاب.

٢ ـــ أوراق العيـــد للسباعـي :

هي مناوشة خفيفة ليس فيها ثقل، وليس فيها إطالة، جاءت مزاحًا كما سمّاها أحد المتناوشين، أو شيئًا قريبًا من المزاح.

حين رحل أحمد السباعي إلى مصر للدراسة في كلية فكتوريا بالاسكندرية شاهد في القاهرة والاسكندرية وربما في غيرهما أيضًا ما أثار حسه النقدي فأخذ يكتب ملحوظاته في شكل مذكرة قريبة من اليوميات، يسجل فيها أجمل ما شاهده، وألطف ما سمعه، وأمتع ما وقع في نفسه من رأي وفكرة وحديث، وهو لا يكتفي بلقائه مع الأدباء البارزين والمثقفين في ذلك البلد العربي، بل يسعى إلى أن يكون قريبًا من العامة، يلتقط منهم ما تفيض به حياتهم المكدودة من تجارب وآراء.

وقد كتب السباعي من ذلك مقالته هذه، وقدمها يقول : «هي ورقات اقتطفتها بمناسبة العيد من يومياتي (بمصر)، وكنت كتبتها في العام

الماضي .. »[١]. ثم يقول إنه برهمي، أي زاهد مهمل لثيابه وهندامه، كما يعتقد أن المصريين يفهمونه على هذا النحو .. ويشير إلى أنماط من الحياة الاجتماعية داخلته، وتمنى أن يكسبها أهله .. ويستلطف ملح بعض المصريين فيشاركهم هذا الجانب، ويتطارح معهم ألوانًا من النكات وما يروّح به عن نفسه.

وقد أخذ عليه عزيز ضياء إسرافه في ادعائه اطّراح الجد، وأنكر عليه البرهمية التي ادعاها، ولامه على اصطناعه ذلك الأسلوب السهل الذي يكتب به السباعي مقالاته بعامة. وكان عزيز ضياء محتدًا في ملامته، وساخرًا في نقده، ومريدًا المناوشة لذاتها ـــ فيما يبدو ـــ فهو لا يقبل من السباعي خفة الدم المصطنعة، ويرى أنه ليس بخفيف، «ولكنني شخصيًّا لا أستخف روح السباعي، حين يصطنع هذه الخفة اصطناعًا، وأنا أشعر أنه يصطنعها، وعلى هذا فأنا شاك في خفة روح السباعي، واستطيع أن أقرر أن السباعي ليس فيه من خفة الروح شيء، وإنما هو يصطنع هذه الخفة اصطناعًا فحسب .. »[٢].

فالناقد يقدم بما يهيىء لقبول استنتاجه، وهو الحكم بثقل روح الكاتب المنقود، وعدم موافقة ما يذهب إليه من استملاح للطرافة والنكات والخفة للنفس المطبوعة على الفطرية والطبيعية، والتي لا تميل إلى المتكلف المصطنع .. ثم لا يرى بأسًا ـــ وهو مريد المناوشة لذاتها كما أسفلت ـــ أن يعرج على مايمكن أن يثير خصمه، ويدفعه للمشادة والمخاصمة، فيعرض لفنه، ولمذهبه في الحياة، ولزيه وما يرتديه من أصناف اللباس من حيث الجودة والرداءة، وبلوغ الأناقة في ذلك، وانحدارها لديه. «وليس هنا مجال تحليل السباعي، أو أدبه تحليلًا مفصلًا، وليس هذا مجال مناقشته على ما قدّم للجمهور من أدب، وإنما هذا مجال مزاح فحسب، وهو مجال مزاح لأني أكتب هذا المقال في وقت تحب النفس أن تقضيه في المزاح وما شابه المزاح من لهو بريء ودعابة مستملحة، ولأني أكتبه

---

(١) مقالة : أوراق العيد، أحمد السباعي، صوت الحجاز، عدد ١٨٨، في ٢٨ رمضان، ١٣٥٤هـ،ص٤.

(٢) مقالة : على هامش أوراق العيد ـــ مزاح، عزيز ضياء، صوت الحجاز، عدد ١٨٩، في ١٢ شوال ١٣٥٤هـ، ص٤.

على هامش مقال وفيه من المزاح شيء كثير كما فيه من الجد شيء غير قليل»[١].

ثم يعرض لكلمة برهمي التي وردت في مقالة السباعي، فيسخر منها ومنه سخرية لاذعة، ويأتي بعدها إلى غايات السباعي في الحياة، فيراها غايات ضعيفة، ويصف مبلغه من التفكير فلا يراه دافعًا إلى اتخاذ مذهب فلسفي خاص في الحياة، ويتهمه بالإهمال والفوضى، ويقلب «البرهمية» إلى «بوهيمية»، في أسلوب من السخرية متحدر من السهل إلى الأسهل، كالسيل حين يقبل من علو إلى منخفض لا يلبث في النهاية حين يجتمع في الوادي حتى يأتي على كل ما أمامه، وهكذا فعل الناقد المناوش مع صاحب أوراق العيد، على النحو الآتي من السخر والتعريض، «ولكن من هم الذين أنت في نظرهم برهمي، وما هي الملابس والأزياء التي يمتاز بها البراهمة على غيرهم. إني أعرفك جيدًا من زمن بعيد، ومع هذا فإني لم أر فيك برهميًا ولا ما يشبه البراهمة، وإنما رأيت فيك بوهيميًّا هل تقصد هذا ؟!

إذن هو صفاف الحروف دفعك في هذه المشكلة، ولكن ما بين الكلمتين من تشابه في الحروف يقوم حجة للصفاف عليك فيما لو أردت توبيخه على غلطته .. وبعد فقد يسرك أن أتألم لك لبوهيميتك هذه، وأن أرجوك ما دمت قد لاحظتها بنفسك أن تتنازل عنها، إذ ليست البوهيمية من صفات الشباب، وليس فيها ما يغري بالاتباع، وليست هي مبدأ جديرًا بالاحترام، وإنما هي صنعة صنفين من الناس، فيلسوف نسي الدنيا وتعلق بينها وبين الآخرة، وفقير لا يملك ثمن الثياب، وأنت كما أعلم لست فيلسوفا إلى هذا الحد، ولا فقيرًا غلبانًا إلى هذا الحد، فما أجدرك بالتنازل عن هذه البوهيمية التي تسيء إلى سمعتك كثيرا حتى لقد يخيل إلى الناس في بعض الأحيان أنك لست أنت، وأنك شيء آخر يمنعني الذوق من ذكره .. »[٢].

---

(١) المقالة السابقة.

(٢) المقالة السابقة أيضاً.

وعلق السباعي في العدد نفسه من الجريدة على هذه المقالة الساخطة الساخرة بقوله : «وهكذا تجنى الأخ وحاول أن يسمي تجنيه مزاحًا، وموعدى لتوفيته حسابه العدد الآتي»[١].

ولكن عزيز ضياء يواصل هذه السخرية في العدد اللاحق من الجريدة نفسها، فيتهم السباعي بالبخل، وليس الفوضوية وانعدام الذوق فحسب، ويتساءل عن اهتمامه بزيه في مصر حين أشار إلى لبسه «العقال»، وكيف أنه لا يلبسه في الحجاز[٢].

وحين ردّ أحمد السباعي كال الصاع صاعين، وتجاوز مقعد المدافع عن التهم إلى موقع المتقدم المهاجم، واستنفر سهام كنانته، يدفعها واحدًا إثر آخر، ولم يفرّط في التزامه جادة التعقل والرصانة في أكثر ما يتناوله من نقد ورأي، فلم يواجه خصمه بسباب ظاهر، لا شتائم معلنة ولكنه النقد المر الساخر المبطن والترفع عن المحاجة في أمور غير ذات جدوى يمر عليها صاحب الذهن الخلي فتلفت تنبهه، ولا يلقي لها بالًا ذلك الشجي المعني بما هو أكثر احتفالًا، وأرفع تفكيرًا ونقدًا.

والسباعي في مقالته التي ردّ بها على خصمه بين مدافع ومهاجم، فقد أنكر كونه يكرر الألفاظ، أو يلتزم بهذا النهج من الأسلوب في الكتابة، «لا أريد أن أحاجك في حبي ألفاظًا أكررها في سياقها أدعي أنه يعوزك الدليل على أنني أقحمها، كما أنني إذا جئت أدعي أنك بالنسبة إلى التكرار مكثر فوق اللازم فإنني لا ألقي القول على عواهنه .. »[٣].

ثم يلقي السباعي رأيًا نقديًا في أسلوب ناقده، فلا يرى فيه فضل تجديد، ولا

---

(١) صوت الحجاز، عدد ١٨٩، في ١٢ شوال ١٣٥٤هـ، ص٤.

(٢) مقالة : على هامش أوراق العيد ــ مزاح (٢) ــ ضياء، صوت الحجاز، عدد ١٩٠، في ١٩ شوال ١٣٥٤هـ، ص٤.

(٣) مقالة : إلى المازح المتجني، أحمد السباعي، صوت الحجاز، عدد ١٩٠، في ١٩ شوال ١٣٥٤هـ، ص٤.

شرف سبق، ولا صفة ذاتية إبداعية، ويرى أنه صورة غير وافية من أسلوب الدكتور طه حسين، من حيث التكرار ومعاودة القول، وتشقيق اللفظة الواحدة، واستعمال السهل من التعابير، «وأنت تعرف أن الدكتور عميد فانطلقت تجري وراءه وتترسم طريقته .. »[١].

والحق أن السباعي لم يجانب الصواب، فعزيز ضياء ما يفتأ يكتب على طريقة العميد، وما استطاع التخلص من سطوته على أسلوبه، ولم يقدر على الفكاك منه إلّا في تعليقاته السياسية التي يكتبها في سرعة وعجلة من أمره فيما يبدو. وتهمة التكرار والمعاودة ألصق بعزيز ضياء ممن ألقيت عليه، أعني السباعي، ولو تأملنا في نص الناقد السالف الذي اتهم فيه السباعي بالتكرار وضعف الابتكار في أسلوب الكتابة لوجدنا إعادة كثيرة في جمل متوالية لا يفصل بينها سوى كلمات عدة، ولوجدنا أيضًا استئناسًا بالكلمات السهلة الميسرة التي تجري على اللسان عفوًا، طمعًا في البعد عن التكلف والرهق، حتى يوشك أن يخرج من نطاق الأسلوب الأدبي إلى الكتابة الصحافية العجلى، التي لا تُعنى بالاختيار والانتقاء وتجويد المقالة.

ثم يقف السباعي عند «البرهمية» فيخبر صاحبه أنها «مذهب في الهند متقشف»، ويعده بدرسها.

ويصف نفسه بأنه لا يتكلف الخفة، ولا يدعي الملاحة واللطافة، وأن أسلوبه يصوره سواء كان خفيفًا أو ثقيلًا، أما هندامي (هكذا خلقت !)».

والمناوشة في عمومها لم تخرج عن الأدب العام، واكتفى المتناوشان بالإشارة الرامزة إلى ما يعيبه أي منهما في خصمه، واتسم أسلوبهما بالسهولة والبعد عن الكلفة، وانطبع في أسلوبهما أيضًا ما أحسا به من تدافع النقد، والحرص على المقاومة، والتزام الخلق الفاضل في الخصومة الأدبية.

---

(١) المقالة السابقة.

٣ ـ مقدمة كتابي لأحمد عبدالغفور عطار :

أنشأ محمد حسن عواد مقدمة لأول كتاب أصدره أحمد عبدالغفور عطار عام ١٣٥٤هـ بعنوان «كتابي»، وحظي باستقبال نقدي حافل، بين مادح وقادح، وعاب عدد من الناقدين على العواد إسرافه في إطراء الكتاب وصاحبه، وإلقاءه الكلام على عواهنه[١].

وأنكر حسين سرحان على كاتب المقدمة مبالغته في ذلك الإطراء، لأن «كتابي» لا يستحق كل هذا الاحتفال، ولا يحوي من صدق الشعور، وقوة الإحساس، وجمال الأدب ما يتميز به، ويدعونا إلى أن نزفه بهذا الثناء ـ كما يرى السرحان ـ ونساوي في ذلك بين الأدب الصالح والأدب الكاسد، وبين الموهوب وعديم الموهبة، وبين النافع من الأدب، وقليل الفائدة منه، بل ماهو غير حقيق بالقراءة والاطلاع.

ووقف السرحان عند كلمة العواد في المقدمة، والتي يقول فيها (.. وأخيرًا فهذا نموذج صحيح لأدب العاطفة والفكر يقدمه الأديب أحمد عطار في هذه الكراسة لآماله وآلامه، وهي جزء من آلام الشباب المفكر وآماله لا تعدو الآثار التي تنطوي عليها نفوسهم وتلوب داخل وجداناتهم. فهي إذًا صورة صادقة للأدب الصادق النابع من الشعور»[٢]. وتوجه إليها حسين سرحان بالنقد القاسي العنيف قبل أن يبعث بسياط النقد اللاذع إل العطار نفسه تعريضًا، وإلى الكتاب تشريحًا وتحليلًا، ويعاتب العواد على تقديمه الكتاب «.. وإني لأسف جدًا أن يقضي حضرة الأخ في كتابة المقدمات لأمثال هذه الكتب الرخيصة، فليس هذا أول عهده بكتابة المقدمات. وإذا صح أن صديقنا يعني ما يقول ـ ولا أظن

---

(١) انظر في ذلك سلسلة من المقالات كتبها «جرير»، بعنوان : كتابي للأديب أحمد عطار نقد وتحليل، أم القرى الأعداد التالية : ٦٢٢ في ١٣٥٥/٨/٢١هـ، ٦٢٣ في ١٣٥٥/٨/٢٨هـ، ٦٢٤ في ١٣٥/٩/٦هـ، ٦٢٥، في ١٣٥٥/٩/١٣هـ، ٦٢٦ في ١٣٥٥/٩/٢٠هـ، ٦٢٩، في ١٣٥٥/١٠/١١هـ، والمعروف أن سيف الدين عاشور يكتب باسم جرير. وانظر رد العطار في أم القرى عدد ٦٣٢، ١٣٥٥/١١/٢هـ، بعنوان «مناقشة ورد». ص٦.

(٢) محمد حسن عواد، مقدمة (كتابي) لأحمد عبدالغفور عطار، ط١، ١٣٥٤هـ.

ذلك ـــ فعقليته إذًا تأخذ في التأخر والانحطاط، أو تتطور بشكل غير الشكل الذي ألفه الناس لتطور العقليات وتقدمها.

وإن صح أيضًا أن هذه المجموعة (أدب عاطفة وفكر وآلام وآمال) فواخيبة آمالنا إذًا في الشباب ! ويا ضيعة المدارس والمعاهد في تثقيف الطلاب وتهذيبهم وتوسيع مداركهم. وإذا كان هذا الكتاب (صورة صادقة للأدب الصادق النابع من الشعور) فما أرخص الأدب إذًا، وما أسهل أمره، وما على الحداد والنجار والعامي وكل فرد من أفراد الناس إلا أن يأخذ القلم ويكتب ويملأ الدنيا (أدبًا صادقًا نابعًا من الشعور) وهنا تستوي المراتب الرفيعة والوضيعة، والجليلة والحقيرة .. ومادامت هذه الكراسة تستحق هذا الوصف من زميلنا فما أحرى كل كتاب بالغًا مابلغ من السخافة والضعف والانحلال أن يأخذ طريقه إلى الخلود، وأن ينظم صاحبه في سلك الخالدين .. »[1].

ولم يكن السرحان في نقده هذا الكتاب ومقدمته مستطيعًا أن يشتط في ملامته أكثر من ذلك، لأنه لم يتعود الإسفاف، ولم يسلك في خصوماته ذلك المسلك النزق الطائش في الدفاع أو الاتهام.

وعلى الرغم من أن هذه المناوشة جاءت في وقت لم تزل فيه موازين النقد غير واضحة، ولم يزل الشبان الناشئون في الأدب يرمي بعضهم بعضًا بالنقد رمي النبال إلّا حسين سرحان فإنه لم يكن منزلقًا في حبائل العاطفة الجامحة الدافعة إلى المصادمة والنزاع في القول، في غير تقدير لمهمة الأديب، وغير إدراك لمعنى إشاعة الرأي واستقبال الخلاف في مفهومات الأدب والفكر.

وقد عاتب السرحان مؤلف الكتاب في قسوة على ما أسماه ـــ كلامًا

---

(١) مقالة : مقدمة كتاب، حسين سرحان، صوت الحجاز، عدد ٢٣٦، في ٢٤ رمضان ١٣٥٥هـ، ص٦، وهذه أول مقالة في زاوية استحدثها حسين سرحان باسم (مناوشات ومناقشات) في صوت الحجاز، وكتب تحت عنوان : في التسمية والموضوع، شارحاً خطة عمله في هذه الزاوية، وماذا يعني بالمناوشات، والمجالات التي سيكتب فيها «والمناوشات تكون في غبش الليل كما تكون في وضح النهار. وسنقوم بمناوشات في كل ميدان تصل إليه اليد أو يثب إليه الخيال ، وسننتصر إذا كان الحق في جانبنا و نستنكف من الهزيمة إذا لم يكن منها بدّ ولا عنها محيص، على أنّا لن نبني أقواساً للنصر في الأولى، ولن نقيم مأتماً في الثانية..» ص ٦، العدد نفسه.

رخيصًا ـــ وبالغ في تحقيره، لأنه من العطار نفسه، ثم يتهمه بأنه يدعو إلى ثلب اللغة العربية، والدعوة إلى العامية، ولذلك احتفى به سلامة موسى وقرظه في مجلته (الجديد)، «ومن حسن حظ اللغة العربية ألّا يثلبها أو يطعن فيها إلّا الجهلاء بها أو الضعفاء فيها أو الغرباء عنها .. »[١].

أما العواد فلم يطق هذا النقد من حسين سرحان، لم يحتمله منه، ولم يرض عنه للعطار، فصب جام غضبه على مناوشه، وألصق به تهمًا عديدة، منها أنه لم يزل حديث عهد بالبادية، وأن البادية لم تزل متمكنة فيه، مانعة إيّاه من مناصرة حرية الرأي، ودافعته إلى التعصب الذميم والجفاء الوبيل، وهو يشير إلى أن حسين سرحان جاءه من البادية قاصدًا التعرف على لون من الثقافة الجديدة فلقي من أساتذته ومدرسيه عنتًا وملامة تطورتا إلى محاكمة مدرسية مشهودة من أساتذته الجامدين، ثم يعرض بأنه غير وفي، ولا يحفظ الحسنة، ولا يأبه بمعاني الصداقة، ويذهب العواد على هذا النحو في تقريع صاحبه وذمه بالضيق في فسحة الرأي، والبداوة، وقلة الوفاء، وضعف عناصر الإبداع في أدبه.

ويبدي العواد استعدادًا طيبًا لكتابة أمثال هذه المقدمة لما يريد السرحان من كتبه المخطوطة، «ولكن سرحان ـــ كما عرفناه ـــ لا يطيق الحرية إلّا في نطاق محدود، فإذا صدم بالحقائق أجفل كما تجفل آبال البادية عندما تسمع أصوات الأوتومبيلات .. ». ثم يذكر كيف أنه أقدم على الإشارة إلى مواضع لابد من إصلاحها في إحدى قصائد السرحان، وشعر من السرحان بتململ وضيق، «فقد أصيب في موضع الغرور وتقلصت تلك الحرية الموهومة التي كان قبل النقد يدعي أنه يجارينا فيها ويصادقنا لأجلها، ويعتز بها كما نعتز، واستحال فيه ذلك اللون المرتكز إلى أصفر كاب مقلقل يقوم فيه الذكون مقام الاحتجاج فكففنا عنه راحمين ومشفقين، لأنه روح ضعيف لا يتحمل النقد ولا يعرف معناه ـــ كما قال لنا أحد أصدقائه ـــ.. »[٣].

(١) المقالة السابقة.

(٢) مقالة : تهويش وجحود، محمد حسن عواد، صوت الحجاز، عدد ٢٣٩، في ٢٣ شوال ١٣٥٥هـ، ص٤

(٣) المقالة السابقة.

وما يفتأ العواد يعرض بخصمه، وينقصه، ويرى أن أدبه لا يحتاج في طرحه إلى مواضع الأقدام إلّا إلى «غمسة قلم في دواة» !!، ثم هو بعد ذلك «دون العطار بمراحل أبعد من المسافة التي يقطنها بين مسكنه في البادية وبين أماكن يتمتع فيها بمشاهد المدينة في قلب الحاضرة[١]».

ثم يذكر أن في العطار بوادر تجويد وتفرد لابد من تشجيعها على البروز والظهور، «ولن يذهب فيه العطف والتشجيع مذهب الجحود والضياع»[٢]، وهو يومىء إلى تنكر سرحان له ـــ كما يزعم ـــ وامتشاقه قلمه ناقدًا له، وواقفًا منه موقف الخصم، بعد أن كان الصديق المدعي، والتمليذ المريد !.

ولا يتورع العواد عن إطلاق الأحكام العامة في الأدب، من حيث إنه يرفض مطلقًا، أو يقبل مطلقًا في غير نظر إلى ماهو حقيق فيه بالتقدير أو الإنكار. فأدب حسين سرحان ـــ في نظر العواد ـــ لا يساوي قلامة ظفر، وشعره ليس له حظ من القبول والتأثير في ميزان النقد، وخلق صاحبه مضطرب، غير مستقيم مع الأخلاق الفاضلة، وليس الرخص والإفلاس في أدب العواد وإنما ذلك كله في ما يكتبه السرحان، لأن «منبعه نفس هينة يتمركز الرخص في أعماقها .. »[٣].

ونلحظ هذا الأسلوب المشرق المتدفق الذي لا يواتي العواد ـــ في الأغلب ـــ إلّا في الخصومات والجدال واللجاج والمحاجة، ففيه تتبين شخصيته باعتزازها وترفعها، واندفاعها العنيف إلى الثلب والتجريح، وتتبين فيه أيضًا ملامح قوة تلك الشخصية، ومطالع تفوق في النقد الذاتي المنطلق من إسار البحث، وقيد العلم المحض.

ويضيق حسين سرحان بذلك النقد أشد الضيق، ويتأفف منه، ويدعو إلى البعد عن المهاترة والخصومة الجارحة، والنقد البذيء ويدعو إلى تعديل مفهومات النقد، بحيث لا تفهم على النحو السالف، «ولست أدري كيف يمكن الأدباء أن يجتثوا

---

(١) المقالة السابقة.

(٢) المقالة السابقة أيضاً.

(٣) المقالة نفسها.

هذه الشجرة الخبيثة من جذورها، شجرة فهم الأدب والنقد وما يتعلق بها عندنا على هذا الشكل المعكوس .. »[١].

ومن الخير أن يكف الأدباء عن هذه العادة التي جرى بها النقد في البلاد منذ مطلع النهضة ــ كما يذكر السرحان، وألا يضيقوا بالنقد، ولا يسيئوا فهمه، وهو يعني بهذا فيما يبدو خصمه العواد، ويعرض لأسلوبه الجارح في النقد، وينكر ضيقه بالرأي، وقلقه ممن يوجه إليه العتاب في أدبه بعامة، وكأن العواد يمثل عددًا من الأدباء في هذا ــ كما يذكر سرحان ــ أو أن الكاتب لم يرد التخصيص وفضل أن يكون الكلام عامًا لئلا يقع فيما ينهى عنه، فهو يرى أن كثيرًا من أدبائنا يضيقون ذرعًا بالنقد، فما يكاد يصوب إلى أحدهم سهم خفيف حتى تثور به ثائرة عجيبة من نفسه فيأخذ القلم ويسف إلى حضيض الطعون والتجريح والحط من الكرامة وترذيل الأخلاق، وما إلى هذا كله مما لا يكاد يصدق القارىء أن مثل هذه البذاءة ستخرج من أديب معروف أو كاتب شهير، أو موظف رفيع أو شخصية ممتازة .. [٢].

وهذا أبلغ تصريح بما وصل إليه النقد في تلك الفترة من العقد السادس من القرن الهجري الماضي من إسفاف وابتذال، وشهوة مجنونة في الصدام والخصام، ورغبة في المعاركة، ربما للوصول إلى الشهرة المرتجاة، أو لتقليد بعض الأدباء البارزين في الوطن العربي، في خصوماتهم، ومعاركهم، على وزن معركة مصطفى الرافعي وعباس محمود العقاد في (على السفود)، وأمثالها. للتشفي، وإشباع رغبة نفسية خاصة في الانتقام وقرع الخصوم !.

وذلك كله أو بعضه ناتج عن فجاجة في المفهوم الأدبي، وحداثة في احتماله، وتيه من بعضهم بما وصل إليه، في زمن قصير من عمر النهضات الأدبية، والإشراقُ الأدبي لديهم بدأ متفجرًا ثائرًا على كل شيء كالبركان، إذًا فليسحقوا

---

(١) مقالة : في النقد ــ مناوشات ومناقشات، حسين سرحان، صوت الحجاز، عدد ٢٤١، في ١٣٥٥/١١/٦هـ، ص٤.

(٢) المقالة السابقة.

من يخالفهم الرأي، وليتنقصوا منه، وليطأوا من يقف أمامهم بأقدامهم «التي ما خلقت إلّا للصعود إلى قمة الأولمب»[١] !!.

٤ ــ مشاهدات في المدينة[٢] لحسين سرحان :

بدأ حسين سرحان كتابة سلسلة من المقالات في أدب الرحلة، على إثر زيارة قام بها إلى المدينة المنورة، فوصف ما عاناه من وعثاء الطريق، وما لقيه من صحبه في السفر، وذكر طرفًا من أحاديثهم في هذه الرحلة وأومأ إلى أخلاق قائد السيارة، وحرصه المفرط على أن يكون عنتًا شاقًا في إلزام رفقته بالمستحبات والسنن، وتكريه المباح والمأذون فيه.

ثم وصف المدينة وأزقتها وأطرافها، ووصف مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكيف داخلت الكاتب الرهبة والخشية والخشوع في ذلك المشهد المهيب، ثم ألمّ بأخبار الأدب، وأحوال الأدباء في المدينة، وذكر محلوظاته عليهم، وعلى ما يكتبون من أدب، فتحدث عن عبدالقدوس الأنصاري، ووصفه بأنه مقلد للأسلوب المصري، «ولكنه يلتزم السجع في الغالب، ويأنس برنين الألفاظ، وتعجبه الفصاحة، وقوة الأسر، ومتانة التركيب، قبل أن تعجبه جودة المعاني وبلاغتها وسمو الأفكار وجمالها .. »[٣].

وقد أثارت هذه المقالات أديبين هما عبدالقدوس الأنصاري، وعبدالكريم الجهيمان، والأول قد ردّ دفاعًا عن نفسه، وإبانة لما يراه صوابًا في نظرة السرحان

---

(١) مقالة : تيه الأدباء، حسين سرحان، صوت الحجاز، عدد ٣٢٣، في ١٩ رجب ١٣٥٧هـ، ص ٤، ويبدو أن المقصود في المقالة العواد.

(٢) انظر المقالات الآتية لحسين سرحان في وصف هذه الرحلة.
مقالة : مشاهدات في المدينة، صوت الحجاز، عدد ٢٣٠ في ١٣٥٥/٨/١١هـ، ص١.
مقالة : مشاهدات في المدينة، في الطريق، صوت الحجاز، عدد ٢٣١، في ١٣٥٥/٨/١٨هـ، ص١.
مقالة : مشاهدات في المدينة، صوت الحجاز، عدد ٢٣٢، في ١٣٥٥/٨/٢٥هـ، ص١.
مقالة : مشاهدات في المدينة، ــ الأدب في المدينة، صوت الحجاز، عدد ٢٣٤، في ١٣٥٥/٩/١٠هـ، ص١

(٣) مقالة : مشاهدات في المدينة ــ الأدب في المدينة، حسين سرحان، صوت الحجاز، عدد ٢٣٤، في ١٠ رمضان ١٣٥٥هـ، ص١.

إلى أسلوبه، وكان ردّه هادئًا متزنًا، ينبىء عن رصانة واحتمال كبير للنقد.

وأنكر الأنصاري التزامه السجع، ومداومته عليه، على حين اعترف بأنه «متأثر إلى حد كبير بالأسلوب المصري، وهذه حقيقة مسلمة .. »[١]، ثم أنكر أيضًا كونه يحتفل بالألفاظ دون المعاني، وإني لتعجبني الفخامة وقوة التعبير بقدر ما يعجبني جمال الفكر وسموه، وإذا اجتمعت فصاحة التعبير، وبلاغة المعنى وسموه فذلك أقصى درجات الرقي الأدبي المنشود»[٢].

والأنصاري في مقالته يثني على حسن نية السرحان، ويشكره على «كتابته البريئة ونظراته المشكورة، وتشجيعه وإخلاصه .. »[٣].

وردّ عليه حسين سرحان مقدرًا شاكرًا، «ويروقني من حضرة الصديق أنه أديب في نفسه وأديب في أخلاقه وأديب في كتابته، ففي هذه الملاحظات الطريفة يبدو لنا هادىء النفس ساكن الطائر رفيع الذوق سليم المنطق .. »[٤]. ثم يعترف بأنه هزم في هذه المناوشة «وهي كما يرى القراء هزيمة لذيذة يلتقي فيها السالب بالمسلوب، ولا يزهو فيها الغالب على المغلوب !»[٥].

وهذه المناوشة المؤدبة تمثل الشق الأول من الخلاف حول هذه المشاهدات، فالشق الثاني عنيف كل العنف، وهزيل كل الهزال، ذلك أن الناقد والمنقود أوشكا أن يخلعا حذاءيهما، وأن يشتبكا بالأيدي، وأن يعلو صياحهما في فضاء الأدب، وفضاء الثقافة التي لم تمنح المتناوشين في هذا الخصام قدرًا من المعرفة بأصول النقد، أو قدرًا من سعة الأفق، والالتزام بالصمت إن لم يكن بد من الشتيمة !!.

---

(١) مقالة : حول مشاهدات في المدينة ــ الملاحظات الثلاث، عبدالقدوس الأنصاري، صوت الحجاز، عدد ٢٣٦، في ٢٤ رمضان ١٣٥٥هـ، ص٦.

(٢) المقالة السابقة.

(٣) المقالة السابقة أيضاً.

(٤) مقالة : ملاحظات ثلاث ــ مناوشات ومناقشات، حسين سرحان، صوت الحجاز، عدد ٢٣٧، في ٨ شوال ١٣٥٥هـ، ص٤.

(٥) المقالة السابقة.

وقد بدأ عبدالكريم الجهيمان بكتابة مقالتين في نقده حسين سرحان مؤاخذًا إياه في بعض مايراه مخلًا بقيم الدين[١]، ويظهر الجهيمان في هاتين المقالتين حماسة دينية محتدة، ونظرة إلى خصمه يشوبها شيء من الشك، وعدم الثقة في اتجاهه الديني.

ويرد عليه السرحان في سخرية لاذعة مسمياً إياه «حاطب ليل» وموردًا قصة هذا المثل، في محاولة منه لإلصاق معناه بخصمه، وبعد ذلك يقول : «فما يدريني ويدريك أيها القارىء الفطن (لعل) لكل زمان حاطب ليل ؟ وحاطب الليل في هذا الزمان «عبدالكريم بن جهيمان»[٢].

وينكر الجهيمان هذا الاستهزاء والتعريض، ويرى أنه يترفع عن مواجهة صاحب (المناوشات والمناقشات) بمثل ما كتب عنه (فلسنا ممن تستثيرهم مثل هذه السخافة)[٣]، ويعتقد أن من الخير أن يكشف انحراف الكاتب عن بعض القيم الدينية، وخروجه على ما بنته العقيدة في عدم الخوف والرهبة إلّا من الله، وأن الرهبة أمام قبر الرسول صلى الله عليه وسلم لا تجوز .. وهكـذا.

والسرحان لا يمل من سخريته التي خرج بها عن اتزانه ورغبته ألّا يكون في نقده صلفًا (نزقًا) كما يسميه خصمه الجهيمان.

ولا نريد أن نتتبع تفاصيل هذه المناوشة الساقطة المبتذلة، التي لا تضيف للأدب معنى، ولا صورًا، ولا سياقًا فنيًا جميلًا، ثم لا تمت إلى مايريده الناقد النزيه من شرف المحاورة، وسمو التناقد الوضيء، غير أن الذي يدفعنا إلى الإلمام ببعض هذه المناوشات على شاكلة هذه ما تفرضه ضرورة البحث، وأمانة

---

(١) مقالة : مناقشة لصاحب مشاهدات في المدينة، عبدالكريم بن جهيمان، صوت الحجاز، عدد ٢٣٥، في ١٧ رمضان ١٣٥٥هـ، ص٤، وعدد٢٣٦، في ٢٤ رمضان ١٣٥٥هـ، ص٤.

(٢) مقالة : حاطب ليل ــ مناوشات ومناقشات، حسين سرحان، صوت الحجاز، عدد ٢٣٧، في ٨ شوال ١٣٥٥هـ، ص٤.

(٣) مقالة : في المناوشات والمناقشات، ورد واستدراك، عبدالكريم بن جهيمان، صوت الحجاز عدد ٢٣٨، في ١٥ شوال ١٣٥٥هـ، ص٤.

التسجيل التاريخي، من عرض الطيب، والرديء، والمتزن من النقد، والنزق غير المتزن منه، ونقف عند الأول نتبين جوانب الإشراق النقدي والعقلي والفني فيه، ثم نقف عند الثاني نتأمل كيف يكون الإسفاف، وكيف يكون الأدب عند غياب الوعي العقلي، وحضور العاطفة الحمقاء.

السرحان ـــ على هذا النحو ـــ يصف خصمه أنه «يكتب ردوده وهو نائم، أو يكتبها بعد يقظته من منامه مباشرة حيث أحلام النوم، ورؤاه وأشباحه ماتزال مرتسمة في ذهنه .. »[١].

والجهيمان الذي وعد ألّا يخرج عن الأدب، لم يترك من اللفظ الموجع كلمة إلّا وأتى عليها مدرجًا في مقالته لخصمه تهمة، وملحقًا به نقيصة، فالكاتب في نظره ارتكب فرية، وهو يدعو إلى الاقليمية، ويتهم فئة من الناس بالمروق من الدين، وآخرين بأنهم حماة له ومخلصون وحدهم لا سواهم[٢].

ويرد السرحان الرد الأخير في قسوة وعنف بالغين، يصوران ما بلغه النقد في فتراته الأولى من إسفاف وانحدار إلى المهاترة والإقذاع.

ويصف خصمه بأنه يكتب (بلغة السفلة والرعاع . فهو يعتام من القاموس ألفاظًا ساقطة كالنزق والعجز والسخافة والمزالق والدناءة والانحطاط والضلال والاستهزاء بالحق والاثم والشرك، وسواها مما يدل على براعته الفائقة في استظهار رذل الكلام وهجر القول .. »[٣].

ويقول السرحان إنه لا يعجز عن الاتيان بمثل هذه الألفاظ لكنه لا يريد أن يتبذل في النقد، وأن يسف في المخاصمة، ولأنه لا يعتبره ندًا له كي يجتهد في

---

(١) مقالة : مناوشات ومناقشات، حسين سرحان، صوت الحجاز، عدد ٢٣٨، في ١٥ شوال ١٣٥٥هـ، ص٤.

(٢) مقالة: حول المناقشات ـــ رد واستدراك، عبدالكريم بن جهيمان، صوت الحجاز، عدددد ٢٣٩، في ٢٢ شوال ١٣٥٥هـ، ص٤.

(٣) مقالة : الكلمة الأخيرة ـــ مناوشات ومناقاشات، حسين سرحان، صوت الحجاز، عدد ٢٣٩، في ٢٢ شوال ١٣٥٥هـ، ص ٤، بتصرف.

كتابة الردود المتزنة وغير المتزنة، وحسبه أن يرسل في نقده هذه المقالات القصيرة تكشف ضيق مذهبه في الحياة وصلفه في محاسبة النص، وتا الله ما مثّلت معه دور الجاد المتحدي قط، وإنما أداعبه مداعبة خفيفة تضحك القراء وتجعل منه معينًا لا ينضب للتفكه والاسترواح، ولا أدل على هذا من أني لم أناقشه في أي بهتان قرفني به أو أثاره عليّ .. »[1]، ثم يدعوه إلى موالاة كتابة ردوده، فلن يكتب له السرحان «غير هذه الكلمة الأخيرة فما ينفع النفخ في الرماد ولا يفيد التكلم مع الجماد .. »[2].

ومن محاسن الصدف أن تحوي هذه المناوشة مثالين واضحين للنقد النزيه، وللنقد الآخر الصفيق، وكيف يستطيع حسين سرحان أن ينقلب من اتزانه في نقده عبدالقدوس الأنصاري إلى هذا المستوى المنحدر مع خصمه في نقدهما وردودهما، وما أخذاه على مذهب أي منهما في الحياة، وفي الدين، وفي الأدب. على الرغم مما قرأنا للسرحان من نقد هادىء، ورغبة في أن يكون الأدب ميّالًا إلى البناء لا إلى الهدم، وبعيدًا عن المكاشفة غير المهذبة، أو المصاولة اللجوجة غير المجدية.

٥ ــ الريادة في النقد :

نشرت مجلة اليمامة حديثًا أدبيًّا[3] للناقد عبدالعزيز الربيع، علّق فيه على قضية دائرة في ساحة الأدب، حول اختيار رائد للنقد في البلاد، يعطي من شخصيته

---

(١) المقالة السابقة.

(٢) المقالة السابقة.

(٣) عنوان الحديث : (عبدالعزيز الربيع يتحدث إلى اليمامة في لقاء أدبي مثير). انظر : اليمامة، عدد ١٥١، في ٢٥ محرم ١٣٨٧هـ، ص٦، أعد الحديث للنشر الشاعر عبدالرحيم نصار (شاعر فلسطيني). وقد عمل بعض القائمين على تحرير مجلة اليمامة ــ في تلك الفترة على إزجاء بضاعة الأدب الكاسدة، فاجتهدوا في إثارة مثل هذه المسائل، ولكن الحياة المنقطعة عن الكلمة الأدبية لا تعالجها المناوشة والمناوشتان.

ومن الحق أن تذكر المجلة بالخير، فقد كانت المطبوعة الوحيدة الشاملة بمنطقة نجد التي ما تفتأ بين الحين والآخر تمسّ القضايا الأدبية المنسية، بالشكوى مرة وبالنقد مرة.

الأدبية والنقدية ما يبعث النشاط في ساحة الأدب الراكدة، ويثير فيها الأسئلة الدافعة إلى حضور الأقلام، وانفعال الأذهان بما يحسن التفكير فيه من الآراء والقضايا.

وقد كان الحوار الدائر في الصحافة الأدبية على هذا النحو من الحماسة والمتابعة من قبل الأدباء والنقاد بمثل هذه القضايا في العقدين الثامن والتاسع من القرن الهجري الماضي، وأصبح بعضها مثار جدل طويل كهذه القضية.

والذي يلفت تنبهنا فيها ما تصوره من اهتمام الأدباء بنوع الأفكار التي يتداولونها في فترة من أشد الفترات في تاريخ المقالة الأدبية السعودية، ــ وربما الثقافة بعامة ــ ركودًا ومواتًا، ثم أنماط الكتابة الأدبية في هذه القضايا القريبة من أساليب الصحافة السيارة، وأنماط معالجاتها الأسلوبية والنقدية، ولكي نستطيع أن نتصور الفارق الكبير بين كثير من قضايا الأدب والنقد في الفترة الأولى من عمر النهضة الأدبية، أي في منتصف العقد السادس وما بعده إلى قرب نهاية العقد الثامن، وقد كان النقد في تلك السنوات ــ كما مرّ معنا ــ بين هبوط وارتفاع، وسمو وتدن، ولكنه في الأغلب لم يخل من سمات قوة ونضج، وعلامات تفوق في الشكل والمضمون.

وللإلمام بخواء الأدب، وفقر كثيرين ممن ادعوه، وادعوا حمل لوائه في هذه الفترة أعرض هذه المناوشة الضعيفة فكرًا وأسلوبًا، وأعرض بعدها تهويشًا نقديًا لا يبعد كثيرًا عن مستوى هذه المناوشة في الجوانب السالفة كلها.

يرى عبدالعزيز الربيع أن اختيار قيِّم على النقد في البلاد سيخدم الأدب ويعود عليه بالنفع العميم، ويرى أن اختيار عزيز ضياء للقيام بهذه المهمة اختيار موفق، ومعرفة صائبة بأقدار الناس، وتقدير لمن بذل من نفسه وجهده ما ساعد على تنشيط حركة الأدب والنقد منذ مطلع النهضة ثم يرى أن (الأستاذ عزيزًا يملك كثيرًا من مؤهلات الناقد الناجح، فهو يملك الثقافة الواسعة والقدرة الفائقة على التمييز بين الآثار الأدبية المختلفة والأسلوب النابض بالحياة والحركة، ولكن يعوقه عن أداء واجبه في النقد أمران :

أحدهما : أن الأستاذ عزيزًا يؤمن بالعلم ولا يؤمن بالأدب، وسيطرة الإيمان بالعلم على عقلية الأستاذ عزيز ستكون عقبة في طريق دراسته للنصوص الأدبية.

وثانيهما : انشغال الأستاذ عزيز بكثير من المهام، والنقد عملية تستلزم وقتًا وجهدًا»[١].

وذكر أنه يهنيء عزيزًا بترشيح الأستاذ محمد حسن عواد إياه رائدًا للنقد.. ! ويسميها ثقة غالية .. !.

وموضوع المناوشة لا يستحق منّا المناقشة وإدارة الرأي فيه، لولا ما تفرضه ضرورة الإلمام بأكثر الظاهرات الأدبية والنقدية تأثيرًا في المقالة الأدبية.

والطرف الثاني في مناوشة الريادة للنقد إبراهيم الناصر[٢]، فلم يستطع أن يقبل بأمر ريادة الأدب بعامة، فكيف بريادة في النقد، فكتب مغتاظًا من حوار في الأدب على هذا المستوى من الضعف في الفكرة، والرداءة في الاهتمام.

ويتساءل عن قيمة قضية كهذه ؟ أو قضية : من هو أحق بالمشيخة في الصحافة، أحمد السباعي، أم فؤاد شاكر ؟! «وهكذا نرى أننا نتمسك بالقشور وندع اللباب»[٣].

ويذهب إلى أن العاطفة السريعة المتعجلة هي التي توجه تفكيرنا عندما ننظر في هذه القضايا، ويقول إنه «من المؤسف أن القضايا الفكرية التي تطرح للنقاش تنتهي نهاية مفجعة .. على أن ذلك ليس بالغريب في بلد يفتقد فيه النقد، فتكون العلاقات الشخصية والعاطفة هي البديل عن الموازين النقدية الأصيلة»[٤].

---

(١) المقالة السابقة.

(٢) هو إبراهيم ناصر الحميدان، ولد عام ١٣٥٢هـ، في الرياض، وحصل على الكفاءة المتوسطة، ويذكر صاحب المعجم أنه ولد في عام ١٣٤٩هـ. انظر جـ١ ص٢٤٣، عمل في شركة أرامكو، ثم في (التابلاين)، وفي وظائف حكومية مختلفة. ويعمل الآن في (بنك) الرياض. يكتب الرواية والقصة القصيرة، صدر له أرض بلا مطر، وأمهاتنا والنضال، وثقب في رداء الليل. وعذراء المنفى، وغيرها.

(٣) مقالة : مشيخة الصحافة والترشيح لصدارة النقد، إبراهيم الناصر، مجلة اليمامة، عدد ١٥٤، في ١٧ صفر ١٣٨٧هـ، ٢٦ مايو ١٩٦٧م. ص ٥.

(٤) المقالة السابقة.

وهل أكبر خواء، وأضعف إحساسًا بقيمة الأدب الصحيح من أقلام تشتغل بمسائل تشريفية ادعائية، ليس للأدب فيها نصيب إلا الاسم، والاتباع، وليس للنقد منها جدوى إلّا ما تثمره أمثال هذه المناوشات البائسة باسم النقد، وباسم إحياء موات الأدب، وإذكاء نشاط النقد المفترى عليه !.

أنسي الأدباء واجبهم ؟! أم أُنسوه، فلم يتذكروا نقدًا لنص، ودرءًا لشبه تحوم حول مسائل في التفكير، وقضايا في فهم الأدب الصحيح ؟! وهل شغلوا عن واجبهم بمثل هذا المنحى من التفكير الهابط، أم يئسوا من إصلاح شئون الثقافة، وتوجيه النمو الواعي في المجتمع ؟! أم أنهم أدوا مهماتهم الفكرية والأدبية على خير ما تكون التأدية، ولم يتبق من واجباتهم إلّا اختيار زعماء في النقد، وزعماء في الصحافة، وزعماء في الأدب ؟!.

وهل عقمت القضايا ؟! واندثرت الأفكار ؟، وهل سدت الطرق الموصلة إلى الاستنارة والإحساس الناضج، والانتماء الصادق إلى فكر أدبي وطني يدفع بلاء الاستسلام المقيت للإحباط واليأس، اللذين خيّما على المثقفين، وعلى الأدباء منهم بخاصة ؟!.

إنها أسئلة مرة، تقف أمامنا ونحن نتلقى تأريخيًّا أمثال هذه المناوشات في صحافة الأدب، أو من أدب الصحافة في تلك الفترة الضعيفة من عمر الوعي الأدبي الناشيء !.

والمؤسف حقًّا أن المتزعمين لدعاوى كهذه ، هم أولئك الذين أداروا تلك المعارك الناضجة وشاركوا في مناوشات أدبية ماتعة، فيها الرائع المثير للتنبه النقدي، وفيها المشتط في الانفعال المبالغ في فورة العاطفة وتلك المعارك كانت في أكثرها تنم عن ارتفاع في الذائقة الفنية، وفي الأسلوب المقالي، وفي نوعية التفكير .. وكثير منها كان له حظ كبير من شرف الفكرة، وسمو المعنى.

والأستاذ إبراهيم الناصر أقرب المتناوشين في قضية الريادة النقدية إلى الواقع، فهو يقرر الشروط اللازمة لمهمة النقد، والتي لا بد أن تكون متوافرة في شخصية الناقد، من «الثقافة الواسعة .. والحس الفني، ومتابعة قضايا النقد المعاصر بما في

ذلك التيارات الفكرية الحديثة، والبلاغة اللغوية هي الأخرى ذات أهمية ..»[١]، ولست أدري ماهي تلك البلاغة اللغوية التي يعنيها الكاتب ؟! أهي القدرة على الاستفادة من تركيب الألفاظ، والبراعة في الصياغة ؟ أم أنها البصر بتلك الألفاظ المصورة للمعنى، والقدرة على التصوير الخيالي بابتداع أفق خيالي جديد، في الاستعارة والتشبيه التقليدين ؟!.

غير أن الشروط التي ذكرها لصناعة النقد لازمة لأي أديب ناقد يرشحه من حوله لعمادة النقد ـــ على وزن عمادة الأدب، وأمارة الشعر !! ـــ أو يسعى سعيًا ذاتيًا لكتابة النقد الأدبي دون ترشيح ولا تزكية !.

ولم يسلم الناصر ـــ الذي رفض الفكرة الريادية ـــ من سحرها وخلبها، فقد رأى ـــ فيما يبدو ـــ أنه المسألة لازمة، ولا فكاك منها، إذًا فَلِمَ لا يبادر إلى تزكية من يراه جديرًا بهذه المكانة السامية .. وفي البدء ـــ أعني بدء سعيه إلى اختيار مرشحه ـــ رفض الإجماع القائم من طائفة من النقاد على ريادة عزيز ضياء، فهو في نظره لا يستحق أن يُمنح هذا اللقب .. ويتساءل عن أسباب تزكيته .. «ماهي آثار الأستاذ عزيز النقدية كيما نبحث تقليده قمة النقد في بلادنا ؟»[٢].

ويأتي إبراهيم الناصر إلى ذكر من يرشحهم لتبوء هذه المكانة السامية : «لماذا ـــ مثلاً ـــ لا نرى الأستاذ عبدالله بن ادريس أكثر تأهيلاً لهذه الصدارة عل الأقل لأنه توافر عل دراسة عشرات الدواوين الشعرية ؟.

كما أن الأستاذ الربيع يتمتع هو أيضًا بمواهب الناقد فيما لو ابتعد عن التسرع بإطلاق الأحكام، كما أن لدى الأستاذ عبدالله نور مواهب نقدية فياضة سوف تبرز بصورة واضحة في المستقبل على شريطة أن يتخلص نهائيًا من الكسل ويركز قراءاته .. »[٣].

---

(١) المقالة نفسها.

(٢) المقالة السابقة.

(٣) المقالة السابقة.

ثم يتذكر أنه انساق وراء هذا الوهم، فيعود إليه وعيه بالقضايا الجادة الحقيقة بالنقاش، وبمداورة الرأي، فلا يرى في كل ذلك جدوى أو فائدة، «قبل أن نفكر بتسليم (مفاتيح القمة) علينا أن نتذاكر في إرساء دعائم مدرسة نقدية في بلادنا، وهذا في نظري أجدى وأكثر أهمية»[١].

وموقف إبراهيم الناصر موقف متذبذب بين الرفض والقبول، ثم إنه لم يوفق في اختياره رائدًا للنقد، كما لم يوفق سلفه الربيع، فمن أشار إليهم على أنهم جديرون بزعامة النقد لم يقدموا أعمالًا نقدية رائدة على المستوى المحلي، وعلى المستوى العربي تشفع لهم في تلك الزعامة الموهومة.

وقد أذكى هذه المناوشة وزادها اشتعالًا آراء نقدية حول هذه الريادة تبادلها أديبان لهما اهتمامات نقدية هما علي فدعق[٢]، وعبدالعزيز الرفاعي، في لقاء أدبي معهما نشرته المجلة[٣]، وكان الرأي غير متفق على واحد.

فعلي فدعق يرشح أحمد قنديل، «لأنه من الشعراء والكتّاب الأوائل الذين أرسوا دعائم الأدب في المملكة .. أما عزيز ضياء — مع تقديري — لا أرشحه لصدارة النقد، لأنه موزع بين الأدب والسياسة، والأعمال الأخرى، وليس متخصصًا في هذا الباب، وأعتقد أن الأستاذ عبدالعزيز الربيع أحق منه بالصدارة هذه، إن كان لابد من الفصل في ذلك .. »[٤].

ثم يدعو للابتعاد عن المجاملة، ولا يرى ترشيح عبدالعزيز الرفاعي لهذه المهمة، لأنه مجامل، ويقول : إن ما كتبه من نقد لبعض الكتب المحلية ليس نقدًا، وإنما هو نظرات لا نقدات.

---

(١) المقالة نفسها.

(٢) ولد عام ١٣٣٨هـ، بمكة المكرمة، تلقى تعليمه بمدرسة الفلاح بمكة المكرمة، وعمل في وظائف عدة، آخرها رئيس بلدية جدة، له إسهامات قليلة في أدب المقالة، وله كتاب (نفثات من أقلام الشباب الحجازي) بالاشتراك مع عبدالسلام طاهر الساسي، وهاشم يوسف الزواوي.

(٣) انظر : مجلة اليمامة، عدد ١٥٥، في ٢٤ صفر ١٣٨٧هـ، يونيو ١٩٦٧م.

(٤) المرجع السابق.

ويذكر شروط الناقد الجيد، ومن أهمها صفة التجرد «وما أقل المتجردين في نقدهم».

ويأتي إلى اختيار من يراه جديرًا بريادة النقد فيقول: «إنني أعتقد بصراحة أنني مقتنع بترشيح الأستاذ الأديب حمزة شحاته، الكاتب الذي استطاع أن يكون الناقد الأول، لأنه من الرعيل الأول .. والمخلصين للأدب .. »[١].

أما الرفاعي فلا يرى ناقدًا واحدًا يستحق ذلك، لأن المسهمين في النقد كثيرون، ويذكر منهم نقادًا جديرين بالتقدير، عبدالله عبدالجبار، وحمد الجاسر، ومحمد سعيد العامودي، وعبدالعزيز الربيع، والأستاذ عزيز ضياء.

ويقول «إن مفهوم النقد عندي، أنه عملية تقييم فني للأثر الأدبي، وأن وظيفته أو هدفه هو التفريق بين الصحيح والزيف، بين ما ينبغي أن يبقى لأنه جيد، وبين ما ينبغي أن يموت لأنه رديء .. وإذا تخلص الأدب من المجاملات وُفق إلى التفريق بين الجيد والرديء «عش بلا مجاملة تكن ناقدًا»[٢].

ونخلص من عرض هذه الآراء في مناوشة «الريادة في النقد» إلى أن القضية من سقط النقد الأدبي في فترة الركود التي أشرنا إليها، وأن النقد في هذه الفترة انشغل عن الأمور الجادة بمثل هذه الحوارات التي يقصد منها القائمون على أمر الصحافة الأدبية تنشيط الأدب، وترغيب الأدباء في الكتابة، غير أنها أتت بآثار سيئة على مفهوم النقد، ووظيفة الأدب.

ونلحظ في النماذج التي وردت في هذه المناوشة ضعف الأسلوب الكتابي، واقترابه من أساليب الصحافة، وتناولهم أطراف الحوار كأنهم يتسلون به عن سواه، فلم تبد عليهم علامات ضيق بالآراء الأخرى، فكان الحوار باردًا مملًا، كبرودة القضية نفسها.

---

(١) المرجع السابق أيضاً.

(٢) المرجع نفسه.

٦ ـ مناوشات «مسمار» النقدية :

ابتدأ «مسمار» في كتابة هذه المناوشات النقدية في أواخر العقد الثامن، وأوائل العقد التاسع من القرن الهجري الرابع عشر. وخرج بلون جديد في المشاكسة الأدبية، والإثارة، والانفعال في توصيل الفكرة، والعنف في هدم القديم، واستجلاب الجديد أو استحداثه.

وكانت الأسباب قد توافرت ــ في تلك الفترة ــ على نشوء مثل هذا النقد الصحفي السريع الهادف إلى تنشيط الأدب، وترغيب الأدباء، وهدم البالي، وكشف ضعف التقليد بعامة، والمقلد، فالساحة النقدية خالية من فرسانها، سكتوا ابتغاء السكينة والهدوء في زمن استغنت عنهم الأنظمة التي سُنّت للصحافة بالناشئة الجدد، وذوي المواهب المجزوءة، والمحترفين للصناعة الصحافية فحسب، والأصالة في الأدب تهب عليها الرياح من كل جانب، فالبلاد مقبلة بتعليمها وخريجي جامعاتها على مرحلة من الانفتاح على العالم، وعلى الثقافات المختلفة، وهؤلاء الناشئة ساخطون أشد السخط على النظام القديم في الحياة، وفي التربية، وفي الثقافة، وفي الأدب، والأسماء التي كتبت ألوانًا من الأدب على الأنماط التقليدية المتوارثة، شعرًا أو نثرًا ما عادت الرغبة فيها قوية، أو في أكثرها،

---

(١) رمزٌ كان يكتب به علوي طه الصافي، «في مجلة اليمامة في أواخر الثمانينات، وأوائل التسعينات من القرن الهجري الماضي، وقد أخبرني بذلك مشافهة، وانظر إلى إيمائه عن نفسه في مقالة وقعها باسمه الصريح، يقول : «لا يهم من تكون.. لكن أن تكون فذلك أمر ضروري، وخير من ألا أكون.

والأرض تتسع للجميع، للفيل والفار، كما تتسع للعالم وغير العالم، وللمسمار، والمطرقة، أشدّد على المطرقة، أيضاً!!.

والسيرُ يدمي القدم الناعمة فقط.. والمستعارة فقط.. أشدّد على المستعارة ــ والجبانة فقط!!»، ص٢ من مجلة اليمامة، عدد ٨٨، في ٢٤ شوال ١٣٨٩هـ.

وكان يكتب بتوقيع «ليلى سلمان» أيضاً، كما أخبرني بذلك.

وهو : علوي طه الصافي، ولد في عام ١٣٦٣هـ، بمنطقة جيزان، ودرس الحقوق في الجامعة الأمريكية ببيروت، له مقالات أدبية نقدية واجتماعية، وقصص قصيرة، عمل في وزارة الإعلام مدة من الزمن، ومحرراً في جريدة البلاد، ومجلة اليمامة، وجريدة الجزيرة، من مؤلفاته : مطلات على الداخل، صدر عام ١٤٠٠هـ، ولديه أعمال مخطوطة كثيرة بعضها تحت الطبع الآن. يرأس تحرير مجلة الفيصل الشهرية.

وعقول الناشئة وقلوبها مفتوحة لاستقبال موجة جديدة من الأدب الحديث لا تقيم شأنًا للثقافة العربية القديمة، ولا تلقي بالًا للصور التقليدية المتوارثة، ولا تحتفل باللفظ المشرق، ولا بالانسجام والموازنة، ولا تتمثل في كثير من أدبائها بأئمة الإبداع العربي في عصوره الزاهية في القديم وفي الحديث ويجد هؤلاء الناشئة الجدد المتعلمون في الخارج والذين انبهروا بالأجنبي أن الجديد المؤثر في الحياة، والخالي من النمطية الميتة في آداب الغرب، وفكر الغرب، صورًا وأخيلة، وبناء فنيًّا، وتمردًا على كثير من القيم الأخلاقية والإبداعية الأصيلة.

ولا أشك في أن هذه الرؤية في الثمانينات وأوائل التسعينات كانت مستبدة بعقل ووجدان الشاب الحدث المتوثب المدفوع بانطلاقه في الحياة، وعزيمته الفتية إلى التغيير، والبحث عن مجتمع جديد، في الأدب، والأخلاق، والسلوك الاجتماعي، وفي النظم الحديثة المبتدعة التي أثمرت ـــ مجتمعات واعية قوية متقدمة. وهذه الرؤية المنبهرة فيها شيء من جوانب الحسن، وأخرى سيئة كل السوء، فالرغبة في التغيير صفة تلازم المبدعين والرواد من كل جيل، ولولاها ما تقدمت المجتمعات وما تجاوزت واقعها الذي وصلت إليه، إلا أن الإسراف في مد الخطى قد يعود بأوباء وإشكالات كثيرة تختلط فيها الأمور، فلا يُعرف مايراد من التراث والقديم وما لا يُراد، وقد تنصرف أذهان الناشئة إلى أن القديم كله آسن لا يصلح أن يكون موردًا، وأن الفلاح والفوز في التزاحم على هذه الموارد الجديدة المتدفقة بما يخدع الألباب ويستولي عليها.

ونحا كثيرون من شبان الثمانينات الهجرية إلى الدعوة العنيفة إلى التخلص من كثيرين من رواد الأدب في شبه الجزيرة العربية، وإلى التحرر من قيود التراث الشعري والبياني العربي وإلى استخدام الصور والأخيلة والمعاني المستجدة، التي استفادها أدباء عرب كثيرون من ثقافات أجنبية مختلفة، وربما دعوا إلى تقليد نماذج من الأدب الغربي، وأنماط من الفكر البعيد عن سمات الشخصية العربية الأصيلة؛ التي تستمد مقومات بنائها الذاتي الأولي من التراث العظيم المستند إلى الدين واللغة.

وقد غلب على «مسمار» الاتجاه إلى هدم كثير من التقدير الذي يحيط بالأدباء الرواد أو من يُعرفون بـ «شيوخ الأدب» في تلك الفترة، وإلى التقليل من قيمتهم الريادية، والدعوة إلى التجديد، واتباع الأسلوب الحديث في الكتابة، وفي التفكير.

ونرى في أسلوبه أظهر ميزات الكتابة النثرية الجديدة، كوضوح شخصية الكاتب ومعارفه، والاعتناء بالرمز المستتر الغامض، والاستعارة المعرفية، والتنقيط بين الكلمات والجمل، والتقطع في الفكرة، وقلة الاسترسال في معنى واحد، بل يسعى الكاتب إلى الامتياح من منابع عدة تتوارد عليه أنهارها، فما يدري أيها أعذب وأحلى، وتختلط لديه المصادر، فتكون المعارف المنثورة في المقالة أشبه بالبضاعة المخلوطة المعروضة للبيع، وقد يكون «مسمار» في كتابته النقدية السريعة في هذه الرسائل مثالًا لكثيرين من الشبان الطامحين إلى التجديد من جيل الثمانينات الهجرية من حيث التقارب في الشكل الأسلوبي السالف الذكر، وفي المنحى التفكيري، وفي الثورة على القديم.

وكتب «مسمار» رسائله إلى طائفة كبيرة من الأدباء والنقاد، هم في أكثرهم من جيل الرواد، ومن المسنين، وممن يميلون إلى حب القديم والتأسي به.

وكان حادًا كل الحدة، وعنيفًا كل العنف في نقده لبعضهم، ومثنيًا مادحًا لنفر قليل منهم.

وقد يكون النقد قاسيًا عنيفًا يدفع الأديب المنقود إلى أن يرد ويطيل في الرد، وقد يكون لطيفًا ــ في مرات قليلة ــ فيلزم هذا الأديب الصمت، ويقنع بنصيبه من «مسمار» ووخزه بهذا الثناء البعيد المنال.

كتب إلى حسين سرحان مطريًا[١]، وإلى عبدالوهاب آشي قادحًا[٢]، وإلى

---

(١) مقالة : رسائل إلى الأدباء، حسين سرحان، مسمار، مجلة اليمامة، عدد ٨٨، في ٢٤ شوال ١٣٨٩هـ، ص٧.

(٢) مقالة : رسائل إلى الأدباء، عبدالوهاب آشي، مسمار،مجلة اليمامة، عدد ٩٤، في ٧ ذي القعدة ١٣٨٩هـ، ص٩.

ضياء الدين رجب بين المدح والقدح[١]، وإلى عبدالله بن خميس شانئًا[٢].

وكأن «مسمار» هذا قد اتكأ على اعتراف أدبي من حمزة شحاته بتواضع ما قدمه جيل الرواد، فأخذ يوليهم من ناره وسخريته ما لا يستحقه من جيل الأبناء، والتلاميذ، وحمزة شحاته قال اعترافه ـــ إذا صح هذا المعنى ـــ من باب فضيلة التجافي عن ذكر محاسن النفس ومكارمها، يقول : «نحن أسطورة، ولا يخدعكم البريق الذي أحاط بنا في ما مضى، لقد كان الضوء شحيحًا، وهذا ما جعلنا في وضع بدا لأعينكم أنه باهر، لقد نشأنا في عصر كان العلم فيه ضئلًا، وفي نشوء الثقافة سمينا شعراء، وأدباء، وبفعل العمر أصبحنا كبارًا فقالوا عنا أدباء كبار، وشعراء كبار»[٣].

وقد كتب هذا الناقد الشاب ـــ بوحي من اعتراف حمزة شحاته ـــ رسالة ساخطة تحمل كثيرًا من هذه المعاني إلى محمد حسن عواد : «شباب الأدب لا ينكر أن لك خواطر .. وشعرًا يزدحم بالأسطورة، لكنه يرفض أن تكون هي كل شيء لأحد عمالقة الفكر في بلادنا، وأدبائها الكبار، كما هو معروف ويُردد باستمرار.

كان يجب أن تعرف أن خواطرك المصرحة، وشعرك الأسطوري كان شيئًا حين كان الشاطيء المهجور شاطئًا له رواد.

أما اليوم فلم تعد شيئًا في عصرنا الجديد، كنت وغيرك ـــ من أدباء الرعيل الأول ـــ أصحاب أقلام حين لم تكن يومها أقلام في البلاد .. أما اليوم فالأقلام

---

(١) مقالة : رسائل إلى الأدباء، ضياء الدين رجب، مسمار، اليمامة، عدد ٩١، في ١٣٨٩/١١/١٦هـ، ص ٩.

وقد ولد ضياء الدين رجب في المدينة المنورة سنة ١٣٣٠هـ، درس في المدارس الأميرية وفي المسجد النبوي، واشتغل في التعليم والقضاء والأوقاف، ثم افتتح مكتباً للمحاماة والاستشارات القضائية والقانونية. وعرف شاعراً وناثراً، كان له في جريدة المدينة باب دائم بعنوان «رذاذ» في عام ١٣٨٦هـ، ١٣٨٧هـ، وما بعدهما بسنوات.

توفي عام ١٣٩٦هـ : انظر المعجم ٤٨٦/١، والموسوعة ٢٦٩/٢.

(٢) مقالة : رسائل إلى الأدباء، عبدالله بن خميس، مسمار، مجلة اليمامة، عدد ١٠٠، في ٣ صفر ١٣٩٠هـ، ص٣٠.

(٣) جريدة عكاظ، في ١٣٨٩/١١/٣هـ.

كثيرة، وفي كل يوم يصعد كوكب جديد يدعو للاهتمام ويفرض وجوده»[١].

والمؤكد أن العواد قد أصيب بغصة مرّة، وبنوبة من الامتعاض النفسي الأليم لنكران أبناء ذلك الجيل ما قدمه وزملاؤه، وما صارعوه من تقاليد متخلفة، ومفهومات رديئة في الأدب والحياة، لولا أن جهادهم لها كان على ذلك النحو من العنف والقوة وإلا لما نعم جيل الثمانيات وغيرهم بما انحسر عن طريقهم من عقبات فكرية واجتماعية.

ولزمته الحدة في أسلوبه، وما خلا من الشطط والصلف، مدفوعًا بصولة الشباب وفورته، وتعميته أحيانًا، فهو يدعو عبدالسلام الساسي إلى إعادة النظر في «الموسوعة الأدبية»، ومراجعة ما صنعه فيها من تراجم ونمذجة، ثم يقول : «اخلع عباءتك المستعارة، وإذا بحثت عني لتخبرني عن نتيجة بحثك فلن تجدني أمام براد الشاي .. على مقعد خامل لمضغ حكايات الماضي، وأخبار شحاته وبطولاته، والعواد ومناقشاته، والقنديل وقناديله، ومما تحفظ في جرابك العتيق المهترىء عن الجهابذة والعمالقة .. والكبار، والرواد من أدباء الرعيل الأول .. »[٢].

وربما كانت الفكرة النقدية التي أرداها غير خاطئة، ولكنه أساء التعبير عنها بانفعاله وصلفه، ولربما كانت الموسوعة المقصودة بالنقد تحتاج إلى دراسات أوسع، ومعارف أشمل، ومنهج أكثر دقة، غير أن «مسمار» شمل برفضه الجيل الماضي كله بما قدمه من آداب، وما كافح في سبيله من قيم جديدة.

والعتاب القاسي يبعثه أحيانًا إلى أدباء، يمسهم مسًا خفيفًا حينًا ومؤلمًا أحايين أخرى، فقد اشتد في تعنيف عبدالله بن إدريس[٣] لتوقفه عن الدرس النقدي،

---

(١) مقالة : رسائل إلى الأدباء، محمد حسن عواد، مسمار، مجلة اليمامة، عدد ٩٢، في ٢٣ ذي القعدة ١٣٨٩هـ، ص٨.

(٢) مقالة : رسائل إلى الأدباء ــ عبدالسلام الساسي، مسمار، مجلة اليمامة عدد ٩٣، في ٣٠ ذي القعدة ١٣٨٩هـ، ص١١.

(٣) مقالة : رسائل إلى الأدباء ــ عبدالله بن إدريس، مسمار، مجلة اليمامة، عدد ١٠٩، في ٧ ربيع الثاني ١٣٩٠هـ، ص١٢.

واكتفائه بكتابه في النقد «شعراء نجد المعاصرون»، وكتب رسالة بين الرضا والغضب إلى عزيز ضياء يسائله كذلك عن أعماله النقدية، ودراساته الموعودة ؟[١].

ونجد خير ما يكشف أسلوبه النقدي ونظرته إلى القديم رسالتين بعث بهما إلى محمد بن عمر بن عقيل (المعروف بأبي عبدالرحمن بن عقيل الظاهري)، ففي الرسالة الأولى إليه دعاه إلى التخلي عن كثير من التراث الأصفر، والتأمل في مصير القديم أمام زحف العقل الجديد، والآلة الجديدة، وصوّر الأدب العربي القديم كالسنديانة «العتيقة المتهالكة التي تساقطت أوراقها، وبعد أن ذكر أمهات الكتب العربية قال : «أحرقتها أدخنة المصانع، قل له إنها أصبحت أوارق خريف تساقطت في المواسم الراحلة .. قل له لم يبق من السنديانة إلّا الجذع الضامر، والفرع الذاوي.

كل شيء في السنديانة العتيقة هرم، ومتهالك على نفسه»[٢].

وحين ردّ عليه أبو عبدالرحمن بن عقيل منكرًا هذا المنهج في النظر إلى القديم، ولائمًا «كل ضعيف الثقة بتراث أمته وتاريخها، وأوراقها الصفر !»[٣]. ردّ عليه «مسمار» ثانية ردًّا أكثر عنفًا وصلفًا، وأبان في مقالته الثانية هذه عن رؤيته إلى الماضي، ومدى احتفاله بالحاضر والمعاصر من الآداب والأفكار، وبيّن لأبي عبدالرحمن تمسكه بالتراث الجميل، وبالماضي المشرق، وتخليه عن كل متهالك وساقط وأصفر منه.

وهو عبدالله بن عبدالعزيز بن إدريس، ولد بحرمة عام ١٣٤٩هـ، وتخرج في كلية الشريعة بالرياض سنة ١٣٧٦هـ، وشغل وظائف مختلفة تعليمية وإدارية، رأس تحرير الدعوة، وعرف شاعراً وناثراً، ويرأس الآن النادي الأدبي بالرياض.

(١) مقالة : رسائل إلى الأدباء — عزيز ضياء، مسمار، مجلة اليمامة، عدد ٨٧، في ١٧٨ شوال ١٣٨٩هـ، ص ٧.

(٢) مقالة : رسائل إلى الأدباء — إلى أبي عبدالرحمن بن عقيل، مسمار، مجلة اليمامة، عدد ٩٥، في ذي الحجة ١٣٨٩هـ، ص٧.

(٣) مقالة : بحورة لا مرتين.. قصيدة ورواية، أبو عبدالرحمن بن عقيل، جريدة المدينة، في ١٢/١٠/١٣٩٠هـ.

ولو أبان عن معنى «الأصفر»، و «الساقط» لكان أقرب إلى الدقة، لأن الخلاف في النظر إلى الماضي يكمن في مفهوم «الأصفر» ما هو ؟! «إن كل ما نملكه في هذا الوجود هو تاريخ أمتنا، وتراثها. وحين تضعف ثقتنا بهذا التاريخ .. وهذا التراث ماذا يتبقى لنا ؟.

نحن نرفض التكأكؤ .. نرفض أن ندير ظهورنا للعالم .. والناس .. نحن ندعو إلى انطلاقات جديدة .. إلى إضافات تاريخية .. إلى عطاء حضاري .. فهل كل من يدعو إلى مثل هذا يعتبر في رأيك ضعيف الثقة بتراث أمته .. وتاريخها ؟»(١).

إن «مسمار» وأبناء جيله من شبان الثمانينات لم يكونوا مخطئين كل الخطأ، ولم يكونوا منحرفي الاتجاه، خارجين على الفكر العام بل كانوا يريدون التجديد، ويسعون إلى الأخذ من كل الينابيع، فما وفقوا إلى صوغ منهج فكري وأدبي متزن يحفظ لهم سلامة مواردهم، ونقاءها ويحفظ لهم أيضًا جمال أساليبهم العربية ويبعدها عن الدخيل من التراكيب، والغريب من اللفظ غير المنسجم، والنشاز من المعاني والصور والمعارف، ثم بالغوا في الانفعال بهذا الجديد، والركض خلفه ولو كان الثمن نسيان الماضي، وإهمال رجاله، ودفن أعلامه من الرواد والبناة.

وقد انتهت هذه المناوشات النقدية الغاضبة الخاطفة إلى فتح باب النقاش ــ كما يذكر ضياء الدين رجب(٢) ــ ودفع الآباء إلى الكتابة غير أن بعضهم لا يرى فيما يكتبه «مسمار» سوى «نوع من أنواع العبث الذي لا يصل إلى درجة من العمق يحسن أن يتناولها الباحث بالحديث .. ولم أرَ في ما كتب سوى إفراز لأفكار كنت أقرأ كثيرًا منها فيما كان يكتب في صحفنا في عشر الخمسين بعد الثلاثماية والألف»(٣).

---

(١) مقالة : رسائل إلى الأدباء ــ إلى أبي عبدالرحمن بن عقيل، مسمار، مجلة اليمامة، عدد ١٣٧، في ١٠/١١/١٣٩٠هـ، ص١٢.

(٢) انظر حواراً أدبياً معه، اليمامة، عدد ١٠٤، في ٢ ربيع أول ١٣٩٠هـ ص١٤٤.

(٣) حمد الجاسر، مجلة اليمامة، عدد ١٢٦، في ٨ شعبان ١٣٩٠هـ، ص١٤.

والحق أن هذه الكتابة النقدية السريعة لا تثبت أمام الدرس النقدي والعلمي، ولا تعطي الباحث ما يجد فيه طراوة في الأسلوب أو عمقًا في الأفكار، على أنها تدل الدارسين للأدب في تلك الفترة على نوع التفكير، وأسلوب الكتابة، ومبلغ ما وصل إليه مثقفو تلك المرحلة من تحصيل أدبي وثقافي، ثم منهج الصحافة الأدبية في معالجتها النقدية لظاهرات الحياة الأدبية المصاحبة لتحول المفهوم الصحفي من الأدب إلى الثقافة الشاملة ومن الثقافة الشاملة إلى المهنة الصحافية فحسب.

وخلاصة القول : أننا واجدون في أدب المقالة النقدية ما يستحق الدرس والتأمل، ويفضي بالباحث إلى أنماط من الأساليب في الكتابة النقدية، وأنواع مختلفة من الاتجاهات الأدبية، وحرص على الابتكار والتجويد لدى طائفة غير قليلة من كتّاب المقالة النقدية.

ولعل من حق المقالة الأدبية النقدية عليّ الإشارة إلى أمثلة كثيرة متفرقة على نشاطها وتفوقها في بعض الأحيان، وأمثلة أخرى تدل على هنات وضعف في بعض جوانبها الأسلوبية، أو طريقتها في معالجة الفكرة، ومراودة الخصوم الشكسين لإقناعهم والتأثير فيهم.

فمن المقالات الناقدة والدارسة في مطلع النهضة الأدبية ما كتبه «قارىء»[١] عن «خواطر مصرحة» لمحمد حسن عواد، وما أثاره كتاب «آثار المدينة المنورة» لعبدالقدوس الأنصاري من ردود ومناقشات[٢]، وصلت في بعض الردود إلى

(١) انظر المقالات متواليةً في أم القرى، الأعداد : من ١١٢ في ١ شعبان ١٣٤٥هـ، إلى ١٢١ في ٣ شوال ١٣٤٥هـ، باسم «خواطر مصرحة» ص ٣ في كل الأعداد.

وقد ورد في مقالة عبدالقدوس الأنصاري عن الأسماء المستعارة أن «قارىء» رمز يكتب به «يوسف ياسين».

(٢) انظر المقالات في هذه المناوشة على النحو التالي :

مقالة : نقد كتاب «آثار المدينة المنورة «ناقد، المدينة المنورة، صوت الحجاز، عدد ١٥٧، في ٢٨ صفر ١٣٥٤هـ.

مقالة : حول مقال نقد كتاب «آثار المدينة المنورة»، معقب، صوت الحجاز، عدد ١٦١، في ١٦ ربيع الأول سنة ١٣٥٤هـ.

المهاترة والإسفاف، حتى خشي بعض الحريصين على الأدب الناشيء من وطأة هذا النقد، فدعا إلى أن يُفهم النقد على أنه هدم وبناء، وليس هدمًا فحسب، «وكان النقد وسيلة من أجل وسائل الكمال والإصلاح إذا أحسن استعماله وتنزه عن الهوى والأغراض، بيد أنه مما يؤسف له أن الكثيرين منا يخطئون فهم النقد ويضلون منهجه وسبيله، فيظن الناقد أن النقد لا يكون إلّا بانتقاص قدر المنقود والنيل من شخصه ومواهبه وأخلاقه، وكذلك المنقود يعد النقد حسدًا ونكاية ومهاجمة غير مشروعة كيفما كانت البواعث والمقاصد، وكيفما كان الأسلوب، وكلا النظرتين خطأ .. »[1].

ومن المناوشات التي أثارت إسفافًا في النقد ما كتبه محمد حسين زيدان عن «الموسوعة الأدبية» التي أعدها عبدالسلام الساسي، حيث تبينت في نقد الموسوعة ملامح عداء شديد لصاحبها، مما دفع ناقدين آخرين[2] فيما بعد للوقوف معه والمطالبة بتكريمه، وأحسّ الساسي بأثر هذا الموقف النقدي المنصف على نفسيته وأدبه، فكتب مقالة[3] يطري فيها نفسه وناقديه. ومن ذلك مقالة محمد حسن عواد[4] عن أحمد عبدالغفور عطار في نقد ديوانه «الهوى

مقالة : على هامش آثار المدينة المنورة» ـــ تفنيد مزاعم معقب، بقلم ناقد، صوت الحجاز، عدد ١٦٢، في ١ ربيع الثاني ١٣٥٤هـ، ص٤.

مقالة : تعقيبات حول مقال (نقد كتاب آثار المدينة المنورة)، معقب، صوت الحجاز، عدد ١٦٤، في ٨ ربيع الثاني ١٣٥٤هـ.

مقالة : على هامش آثار المدينة المنورة ـــ تفنيد مزاعم معقب، ناقد، صوت الحجاز، عدد ١٦٥، في ١٥ ربيع الثاني ١٣٥٤هـ، ص٤.

(١) مقالة : حاجتنا إلى النقد النزيه، بمناسبة صدور كتاب آثار المدينة المنورة، بقلم «ناقد»، صوت الحجاز، عدد ١٥٤، في ٢٦ محرم ١٣٥٤هـ، ص٤.

(٢) مقالة : «رواد افتقدناهم»، أحمد عبدالغفور عطار، عكاظ، عدد ٢٨٨٣ في ٢٨ ربيع أول ١٣٩٤هـ، ص٨.

ومقالة : لبيك يا صاحب الموسوعة، محمد حسن عواد، البلاد، عدد ٤٦١٣، في ١ ربيع الثاني ١٣٩٤هـ.

(٣) مقالة : سموها كما شئتم فهي موسوعة، عبدالسلام الساسي، عكاظ، عدد ٩٦٨، في ١٣٨٨/١٠/١١هـ، ص٥.

(٤) مقالة : أحمد عطار.. يخرف، محمد حسن عواد، البلاد السعودية، عدد ١٠٢٧، في ٦ شعبان ١٣٧٠هـ، ص٤.

والشباب»، وما مثلته من مهاترة وشتيمة. وقد ندخل في هذه المناوشات السقيمة ما عرف بقضية «جيم جدة»[١]، هل تفتح أم تضم أم تكسر ؟ أم يجوز فيها الوجهان ؟ أم يتحتم وجه واحد فقط ؟!.

وقريب من قضية «ضم جيم جدة» ما أثير حول مسألة «الأدب النسائي»، وهل في الأدب السعودي ما يحمل خصائص المرأة، فيُعرف بأنه أدب معبر عن النساء، ومصوّر نفسياتهن ومطالبهن في الحياة وفي الأدب ؟.

تلك قضية احتدم في جزئياتها النقاش وتدخلت فيها نساء، ونفى التهمة رجال وعارك شبان في سبيل نصرة المرأة، وحماية كيانها، وإشعارها بأن لها قيمة فاعلة في المجتمع، وفي نواحي الثقافة المختلفة[٢].

ومقالة : لبيك يا صاحب الموسوعة الأدبية، محمد حسن عواد ٤٦١٣ في ١٣٩٤/٤/١هـ، ص٣. البلاد السعودية.

(١) انظر أعداد سنة ١٣٨٣هـ، من مجلة اليمامة. والإشكال في ذلك وقع بين عبدالقدوس الأنصاري وحمد الجاسر، ثم إنضم إليهما عبدالله نور ومحمد عبدالله مليباري مؤيدين الجاسر بجواز الحركات الثلاث في الجيم، وترجيح الكسر، وأبو تراب الظاهري وعبدالفتاح أبو مدين مؤيدين الأنصاري بوجوب ضم جيم جدة. وانظر كتاب «التحقيقات المعدة بحتمية ضم جيم جدة ألفه عبدالقدوس الأنصاري، وعبدالفتاح أبو مدين، وأبو تراب الظاهري، مطابع دار الأصفهاني، جدة، ط١، ١٣٨٥هـ.

(٢) انظر ذلك في اللقاء الأدبي — الذي سبقت الاشارة إليه — مع عبدالعزيز الربيع، مجلة اليمامة عدد ١٥١، في ٢٥ محرم ١٣٨٧هـ، وفيه تحدث عن أدب المرأة، ونفى أن يكون في البلاد ما يمكن أن يعرف بأدب نسائي.

وانظر الردود على هذا الرأي في المجلة نفسها :

مقالة : أدب المرأة، أحمد عبدالعزيز العويس (أحد القراء)، عدد ١٥٣، في ١٠ صفر ١٣٨٧هـ، ص ١٣.

مقالة : الجنس الآخر.. والأدب! سعد الحميدين، عدد ١٥٤، في ١٧ صفر ١٣٨٧هـ، ص ١٤.

مقالة : حديثٌ عن الأدب، فائقة محمد الحمود، عدد ١٦٥، في ٦ جمادى الأولى ١٣٨٧هـ. وقد هدأت القضية خمس سنين تقريباً، ثم ثارت بعنف، انظر :

مقالة : هنا قفوا يا سادتي وامنحوني العفو لصراحتي..! خيرية السقاف، مجلة اليمامة، عدد ١٨٨، في ١٩ ذي الحجة ١٣٩٢هـ، ص١٦.

مقالة : أدبنا النسائي أو العاصفة التي دحرجت القوارير، ليلى سلمان (علوي طه الصافي، أخبرني بذلك مشافهة)، مجلة اليمامة عدد ١٩٢، في ١٧ محرم ١٣٩٣هـ، ص١٢.

على أن الأدب ـــ فيما أرى ـــ لا يمكن تقسيمه، ولا توزيع حدوده ومعالمه على أصناف البشر، فالتعبير واحد، والأسلوب هو السياق العربي الشامل في النثر، وفي الشعر، والاختلاف في نوع الهاجس، وشرف المعنى، والإبداع في المعالجة.

وقد أسهمت المقالة الأدبية السعودية في بناء تصور واضح لمفهومات كثيرة في قضايا الأدب، ومسائل الفكر، ومشكلات الثقافة، فعالجت الصلة بين الحرب والإبداع[١]، وأبانت الرؤى حول أثر الأدب الحديث في البلاد[٢]، وتساءل كتّاب مقاليون كثيرون : هل يصلح أدبنا للتصدير[٣]، وما هي مقومات الأدب الناجح ؟!.

ونجد في بعض المقالات الأدبية النقدية ميلًا إلى الاتزان وإيفاء لحق النص الأدبي من التعمق والنظر، ونجد في بعضها نظرات نقدية صائبة فيما يحيط بالأدب من قضايا، وما يعترضه من عقبات.

ونجد فيها وقفات متأنية عند دواوين من الشعر كما فعل عبدالله بن إدريس[٤]،

---

(١) انظر استفتاء المنهل حول هذه القضية وإجابات عدد من الكتاب في المنهل الأعداد الآتية :
ربيع الأول ١٣٥٩هـ، صالح شطا، وعبدالوهاب الآشي.
ربيع الثاني ١٣٥٩هـ، حمزة شحاتة، ومحمد حسن فقي.
جمادى الأولى ١٣٥٩هـ، أحمد رضا حوحو، وحمد الجاسر.
جمادى الثانية ١٣٥٩هـ، محمد سعيد العامودي ومحمد حسن عواد.
رجب ١٣٥٩هـ، محمود عارف، وعثمان حلمي.
شوال ١٣٥٩هـ، إبراهيم هاشم فلالي، والفتى المعهدي (أحمد العطار).
ربيع الثاني ١٣٦٠هـ، عبدالقدوس الأنصاري، مقالة (بين مدافع المقاومة وطائرات الانقضاض المهاجمة). وانظر دراسة لهذه القضية : د. محمد الشامخ، النثر الأدبي، ص١٣٤.

(٢) انظر المنهل عام ١٣٥٨هـ، واشترك فيها : محمد حسين زيدان، محمد سعيد عبدالمقصود، ومحمد علي مغربي، والسيد أمين مدني، والسيد محمد حسن كتبي، وغيرهم.

(٣) انظر المنهل عام ١٣٦٥هـ، واشترك فيها : حسين سرحان، وأحمد عبدالجبار، ومحمد عمر توفيق، وعبدالله الغاطي، وعبدالله عبدالجبار، وعبدالله فدا، ومحمد عمر عرب، وحسين عرب، وأحمد سباعي، وعلي حافظ، ومحمد طاهر زمخشري، وأحمد عبدالغفور عطار.

(٤) مقالة : غابة الزيتون ـــ ديوان شعر لفؤاد الخشن، جريدة البلاد، عدد ١٣٧٢هـ، في ١٦ ربيع أول ١٣٨٣هـ.

والدكتور محمد بن سعد بن حسين[1]، وتحليلًا لشاعرية شاعر كما صنع عثمان بن سيار[2]، أو رثاء لأديب كما كتب عبدالله بن خميس[3] في رثاء أحمد حسن الزيات، أو نقدًا لكتب ودواوين كما صنع كثيرون[4] من أدبائنا ونقادنا في رصدهم لما يصدر من مؤلفات في ألوان الأدب المختلفة، يكتبها أدباء البلاد، أو أدباء الوطن العربي.

والخلاصة : أن المقالة الأدبية النقدية مرّت بفترات ضعف ومشاكسة فيها صلف وطفولية، وفترات اشتداد وقوة، فيها أصالة واستيعاب لمفهوم النقد ولمعنى الأدب، وفترات أخرى يمكن أن نصفها بفقدان ذات الأديب، وشعوره باليأس، وذلك في أوائل العقد التاسع إلى نهاية القرن الرابع عشر الهجري.

ومقالة : ترانيم والهة ــ ديوان شعر لعثمان بن سيار، جريدة الجزيرة، عدد ٢٩٠٧، في ١٢ ربيع الثاني ١٣٩٨هـ.

(١) مقالة : سيرة شعرية للدكتور غازي القصيبي، جريدة الرياض، عدد ٤٦٥٥، في ٤/١٢/١٤٠٠هـ، ص١٢.

(٢) مقالة : دراسات أدبية ــ العروبة في شعر الجواهري، جريدة الخليج العربي، عدد ٢، في ٢٥ صفر ١٣٧٨هـ، ص٥.

وعثمان بن سيار هو : عثمان بن سيار المحارب، ولد عام ١٣٤٨هـ، في المجمعة، ودرس في دار التوحيد بالطائف، وتخرج في كلية الشريعة بمكة المكرمة، واشتغل في وظائف عدة، كان آخرها في جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية، صدر له ديوانان هما : ترانيم والهة، وإنه الحب. انظر : الدليل ص١٨٥.

(٣) مقالة : مات الزيات!، مجلة الجزيرة، عدد ٥، السنة الثانية، ربيع الأول ١٣٨١هـ، أغسطس ١٩٦١م.

(٤) انظر مثلاً :

مقالة : وقفات سريعة مع كتاب (الأدب الحديث في نجد)، محمد بن عبدالله الحمدان، الملحق الأدبي، من جريدة الرياض، في ٨/٧/١٣٩٢هـ.

ومقالة : الاتجاه الفني في شعر الخليفة، عبدالله شباط، جريدة الخليج العربي، عدد٧، في ٢٤ ربيع أول ١٣٧٨هـ، ص٦.

ومقالة : قصة ثمن التضحية، ونقدها، إبراهيم الناصر، جريدة الخليج العربي، عدد ٥٧، ٢٧ ربيع أول ١٣٧٩هـ، ص٧.

ومقالة : الدكتور طه حسين : أحق بعمادة الأدب، علوي المحضار، جريدة البلاد السعودية، عدد ١٥٤٥، في ٨ رمضان ١٣٧٣هـ، ص٤.

وهي في كل ذلك صورت الأدب، ونقلت ما اضطربت به الحياة العامة من أفكار وآمال ورسمت لنا آمال الأجيال المتعاقبة في النهضة والتطوير، وبناء مجتمع إنساني فاضل على الرغم من تلك الأخطاء العنيفة التي ارتكبها بعض كتّاب المقالة النقدية، ومن ذلك الشطط في العاطفة، والصلف في مواجهة الأفكار الأخرى، فإن المقالة الأدبية النقدية قدّمت لنا كل هذا الثراء في الفكر وفي الأسلوب وفي تصوير الحياة.

د ــ الخصائص الفنية في المقالة النقدية

ظهر في أدب المقالة السعودية ميل كبير إلى فهم ما تضطرب به حياة كتّابها من أحداث ومؤثرات، وما يسعون إليه من تغيير، والوقوف عند حقيقة الدعوات الفكرية والاجتماعية التي يعلنها المصلحون فيهم، أو تلك التي تصلهم من ديار العرب أو من غيرها، فيأخذونها مأخذ الجد، ويقبلون عليها درسًا وتأملًا، إيمانًا أو إنكارًا، ثم يسعون إلى تطوير مفهومهم الأدبي، بنقض ما ينطوي عليه من تقليد واتباع، وما يؤمن به أدباء كثيرون من موروثات تتداولها الأجيال دون درس متأن، ودن مناقشة صريحة لما تتضمنه من مثل وقيم ومبادىء. وإلى تطوير الحياة الاجتماعية وما يتصل بها من أمور، ليعيش الأديب واقعه، ويؤثر فيه ويتأثر به. فلا تكون مهمته الغناء الفردي، والنشيد الذاتي البعيد عن الحياة الواقعية بما يعتورها من تقلبات، وما تخفيه سحنتها الخارجية من هموم ومشكلات وتطلعات.

إذن فنحن أمام وظيفة جديدة من وظائف الأدب غير معهودة في نوعي المقالة اللذين عرضنا لهما في الفصلين السالفين، فلم يكن الأدب الذاتي محتملًا هذا الإحساس الاجتماعي أو النقدي، ومعبرًا عنه كما يريد المفهوم الواقعي للأدب عند أصحاب هذا التيار، تيار المدرسة الواقعية في الأدب، ولم يكن الأديب الوصفي قادرًا على استيعاب كل هذه القضايا النقدية في أسلوبه السهل المتدفق اللدن، المدغدغ للمشاعر، والمخاطب للوجدان، إذًا فليكن هذا النصيب لطائفة، أخرى من الأدباء .. تخلوا عن كثير من إحساسهم الذاتي، وانصرفوا عنه إلى الواقع، و بعضهم بدأ رومانسيًّا حالمًا، يناجي ويشجو ويشكو، ثم تنامى لديه الوعي النقدي والاجتماعي فصرفه عن غنائه الفردي القديم إلى غناء جماعي جديد، ينشد فيه تراتيل داعية إلى الوعي بالحياة، والوعي بمعايير النقد، وبمقاييسه وبوظائف الأدب السامية.

ولم يكن هناك فاصل بين التيارين، تيار الرومانسية الحالمة، وتيار الواقعية الجادة، إلا ما يمر به الأديب ــ في بعض الأحيان ــ من نضج نفسي، واكتمال

في الأحاسيس الوجدانية، وانتصار على عوامل الضعف والإحباط والعزلة والبكائية، وإلا ما تستدعيه ضرورة الحياة من مشاركة الأديب في إصلاح معايير الأدب (بنقده) وإصلاح أسلوب الحياة بالمشاركة في تقويمها، وإبانة أوجه الخير والبناء وإظهار الحق.

ولذلك نجد أدباء ذاتيين شاركوا في الكتابة المقالية الأدبية بشقيها النقدي والاجتماعي، غير أن أدباء آخرين قد أخلصوا للكتابة النقدية، ورأوا أن مهمتهم في الحياة هي التقويم والنقد، لأنهم يعتقدون أن وظيفة الأديب لا تقل عن وظيفة المصلح في قومه، الداعي إلى الخير والحقيقة، فالأدب لدى هؤلاء غناء جماعي في سبيل الوصول إلى الواقع الحق، وليس إلى المثال في الخيال كما يهوم الرومانسيون !.

وليس ثمة ما يمنع وجود خصائص كثيرة من المدرسة الواقعية في أدب كتاب المقالتين (النقدية، والاجتماعية) .. ولأن منحاهما واحد، واتجاههما متقارب في التقويم والإصلاح، لا تفترق خصائصهما كثيرًا، فنقد الأدب مماثل في عملية الغربلة والتغيير وإعادة الفهم لتقويم أوجه كثيرة في المجتمع — ويجوز لنا أن نستخدم المقالة النقدية في المعنيين، نقد الأدب، ونقد المجتمع، وإنما خصصنا بالمقالة النقدية الأدب، لأنها أقرب إلى وظيفتها الأساس، وألصق بها، باعتبارها من صميم ما يُعنى به النقاد من الأدباء في المقام الأول، ويأتي النقد الاجتماعي متممًا المفهوم الأدبي، واستقامته، وتطوره !.

ومتى كان مفهوم الأدب متخلفًا كانت مشاركة الأديب في مجتمعه قاصرة، وغير بالغة ما يحسن أن تصل إليه من سداد الرأي، ووجاهة الفكرة، ونبل المقصد !.

وإذا قام النقاد من الأدباء بواجبهم في إبانة وظيفة الأدب، وتوضيح مكانة الأدباء في المجتمع، ودورهم في الرقي به إلى ما يحملونه من قيم، وما يحلمون به من مثاليات، فإن العملية الأدبية — والمقالة جزء منها — تأخذ طريقها الصحيح إلى الإسهام الحق في طلب الحياة الإنسانية السامية.

ثم أليس الأدباء رسل الخير، ودعاة الأخلاق، والمبشرين بالحقيقة، والداعين إلى الحرب على الرذائل والسوءات، والمظالم، والجهل والاستعباد ؟!.

إذاً فلماذا ينعزل الرومانسيون عن الحياة، ويوغلون في أنانيتهم متباكين متداعين على اليأس والوحدة وخفوت الصوت ؟!.

لقد فهم كثيرون من أدباء النهضة ــ على الأخص ــ واجب الكلمة في بناء حياة إنسانية سامية، فأشغلوا أنفسهم بالدعوة إلى تطوير المفهوم الأدبي، وإقامة الصلة بين الأدب والحياة، وسعوا إلى أن يكون للأدب نصيبه الأكبر في الإصلاح والبناء.

وهنا نجد خصائص المدرسة الواقعية[(١)] في ما كان يعنى منها بالأدب وقضاياه. وما كان يعنى منها بالمجتمع وأموره .. ولنرجىء الحديث عن الوعي الواقعي في المقالة الاجتماعية إلى موضعه، ونتناول هنا أبرز ما نلحظه من ميزات في المقالة الأدبية النقدية.

---

(١) تيار أدبي نشأ في أوروبا في منتصف القرن الحادي عشر الهجري، الموافق منتصف التاسع عشر الميلادي، وكان ثمرة لإغراق الأدباء الرومانسيين أنفسهم في التهويم وراء الأحلام، والإفراط في العزلة، والإحساس بالكآبة، فتنبه أدباء عديدون إلى مهمة الأدب في الارتقاء بالحياة، حين يشارك الأدبُ في فهم واقع الناس، والتعبير عنه، وساعد على ذلك الثورةُ العلمية، والاكتشافات لكثير من الايجابيات في الكون والإنسان والتاريخ مما أوقف الأدباء والنقاد على حقائق كانت مجهولة، فدعاهم ذلك إلى مواجهة المغيبات والمثاليات والأحلام فدعوا إلى إسقاطها وبناء تصور أدبي جديد، يقوم على الانتصار للحقائق، ورفض الأوهام، فظهرت اتجاهات عديدة من المدرسة الواقعية، مثل الواقعية العلمية، والواقعية الاشتراكية، والواقعية النفسية، والواقعية الاجتماعية، وغيرها. من أدباء هذه المدرسة : فولتير وبلزاك، وجورج أليوت، وهنري جيمس، وتولستوي، ودستويفسكي، ومارك توين، وغيرهم.

ونذكر أن أدباء التيار الواقعي الاشتراكي أكثرُهم صلفاً وحدة، وإيماناً بمباشرة الأدب قضايا المجتمع في قسوةٍ تكاد تذهب برواء الأدب، منطلقين من مبدأ الالتزام الأدبي، انظر للتوسع في الواقعية : موسوعة المصطلح النقدي ــ الواقعية ــ تأليف : ديمين كرانت، ترجمة : د. عبدالواحد لؤلؤة، المجلد الثالث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٣م، والمعجم الأدبي، جبور عبدالنور، ص ٢٨٧، ومعالم النقد الأدبي، د. عبدالرحمن عثمان، ص ٢١٢، وفي النقد الأدبي، د. عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ط٢، ١٣٩١هـ، ص ٢٤٩.

لقد برزت الدعوة إلى واقعية الأدب لدى عدد من الناقدين، أرادوا أن يكون الأدب قريبًا من الحقائق، بعيدًا عن التهويم، وأرادوا منه الابتعاد أيضًا عن الاعتناء الخالص بالشكل، وعن إيلائه الاهتمام الأكبر، فرأوا أن الأدب الصحيح موضوع ثم شكل، وليس العكس، ومن هؤلاء محمد حسن عواد، وعزيز ضياء، ومحمد عمر توفيق، وحسين سرحان، على حين نحا آخرون نحوًا شكليًّا، وقد يطلق عليهم أتباع المدرسة الشكلية، وهم عبدالقدوس الأنصاري، وهو اتباعي أسلوبي، وأحمد عبدالغفور عطار، وهو من دعاة البرج العاجي في الفن، أو ما يعرف بـ «الفن للفن»، وحمزة شحاته وهو من الأدباء الشكليين الجماليين، وإن كان لا يخلو من اهتمام بالمضمون، ولعله أقرب الفريقين إلى الاعتدال، والاحتفاظ بخصيصة الفن، والاحتفال بالمضمون الجيد.

ومن الأمثلة على الدعوة إلى الواقعية في النقد ما كتبه محمد حسن عواد عن رفضه التزويق في الأسلوب، ونقمته من أولئك الأدباء الذين يجعلون جل عنايتهم في التطرية والتجميل والتطريب، وينسون أن المضمون الجيد هو الأساس، وهو بناء العمل الأدبي، وقبوله يعتمد على مقدار ما ينطوي عليه من جودة ورداءة، وشرف وخسة، فالعواد لا يقبل من المزوقين في أساليبهم تعابيرهم الشكلية الخاوية ــ كما يسميها ــ «وما قيمة الطنطنة في تلك التعابير ونحن نهرب من وجه الطنطنة والزخرف اللفظي في الأدب كما يهرب الرجعيون من نهاية الكمال الحر .. »[١] ويسمي طائفة منهم هلاميين، وأصحاب الأدب الكاسد، والفارغ، وما إلى ذلك !.

وهذه دعوة مبكرة إلى الإحساس بواقعية الأدب، ورفض عزلته بعيدًا عن الحياة.

والعواد في نقده عبدالقدوس الأنصاري[٢] حين نشر قصته «مرهم التناسي» كان واقعيًا إلى درجة كبيرة، فقد أخذ عليه ــ كما مرّ معنا ــ ابتعاده عن حقيقة الحدث الاجتماعي، وفقدان قصته صلتها بالحياة.

---

(١) مقالة : الأدب الكاسد، تأملات في الأدب والحياة، ص١٩٢ المجموعة الكاملة

(٢) معركة : قصة مرهم التناسي، انظر ص٤٩٠ من هذا الكتاب، الفصل الرابع.

وعزيز ضياء كان واقعيًّا حين رفض الإيمان المطلق بالقديم[١]، ودعا إلى فهم الفكر الحديث، ومدارس الأدب الحديثة، وإسهام النص الأدبي بعامة في الارتقاء بالحياة، في الذوق الفني، وفي استنارة العقلية، وفي الوعي بتجدد طرائق التناول اليومي لكل الأشياء، بدءًا من القراءة اليومية العابرة إلى التربية، والتقاليد والهيئة، ونظام المأكل والملبس، وما إلى ذلك. وفي رفضه التلهي باسم الأدب، والشهرة باسم الإبداع، وادعاء الريادة والابتكار في حين أنهم ضعيفو العزيمة قصيرو الخطوة، فدعا إلى أن تكون للأدب غاية يسعى إلى تحقيقها[٢].

ونظر حسين سرحان في واقع الأدب فرآه منبت الصلة بالحياة، فنادى إلى اتخاذ الأدب وسيلة لتطوير الحياة، والارتقاء بها[٣].

ويئس محمد عمر توفيق من نجاح الأدب في هذه الوظيفة، فما اعترف له بفضل في تغيير واقع حياة الناس أو الارتقاء بها من السيء إلى الحسن، ومن العادي إلى المتميز[٤].

وتكاد الرؤية الواقعية تشمل أكثر ما أسهم به أدباء المقالة، لولا ما أثاره نفر قليل من الأدباء كدعوة العطار إلى عاجية الفن[٥]، واهتمام الأنصاري بالشكل والاحتذاء، وتوفر ابن خميس على تأصيل الأسلوب الإيقاعي المزدوج.

ونعد من النقد الجمالي الأسلوبي البعيد عن التيار الواقعي تلك المعركة العنيفة التي دارت بين حمزة شحاته وعبدالله عريف حول أثر المنظر الجميل.

فلم يكن الأديبان الناقدان يسعيان إلّا إلى تأكيد القيمة الجمالية الكبرى الباقية للمشهد أيًا كان، ومدى تأصل أثره في النفس، وحفظها لهذا الأثر، مع شيء من الدعوة إلى الواقعية في رؤية شحاته.

(١) انظر قضية : بين القديم والجديد، ص٤٦٨ من هذا الكتاب، الفصل الرابع.
(٢) مقالة : غاية الأدب عندنا، صوت الحجاز، عدد ٢٤١، في ١٣٥٥/١١/٦هـ، ص٤.
(٣) مقالة : صلة الأدب بالحياة، صوت الحجاز، عدد ١٨١، في ١٣٥٤/٧/٨هـ، ص١.
(٤) مقالة : هذا الأدب، المنهل، رجب ١٣٦٧هـ، ص ٢٧١.
(٥) مقالة : البرج العاجي، كلام في الأدب، ص٣٠

غير أن صوت الأدباء الواقعيين لا يخفت كثيرًا، فهم يعلنون تارة رغبتهم في إحساس زملائهم الأدباء بشرف الكلمة، وسمو مقصدها، ويدعون إلى احتمال ما يفرضه الوعي الأدبي والفكري بالحياة الصالحة بالسعي إليها نقدًا وجدالًا وتضحية، ويعلنون تارة أخرى ضرورة اهتمام الأدب بالقضايا الاجتماعية، فيتلمسون ما يصلح أحوال الناس، وما يرقى بهم، ويسمو بذوقهم وسلوكهم، وعيشهم.

ويمكن إجمال خصائص المقالة النقدية، من خلال ميلها إلى الواقعية في النقاط التالية :

١ ــ **العلاقة الوثيقة بين الحياة والأدب**، فليس للأدب قيمة إذا التزم بما يمكن الاصطلاح عليه ــ البويهمية ــ في الشكل، أي الإغراق في المحسنات، واللهاث وراء التزويق، والطنطنة ــ كما دعاها العواد ــ وإذا لجأ الأديب إلى صناعة الشكل فحسب لم يعده الأدباء الواقعيون صاحب قضية، ولا حاملًا رسالة الكلمة في التغيير والإصلاح.

فالنقد لدى هؤلاء معني بتقويم المغلوط والمعوج من مثل هذ المفهومات الرديئة لوظيفة الأدب، ومهمة النقاد الوقوف أمام الداعين إلى «الهيولي» كما يسميه الفلاسفة، وهو التهويم في المطلق، والباحثين عن «الطوباوية» أو المثالية في عالم آخر غير الواقع، ويسعى الواقعيون ــ كما يقولون ــ إلى تغييره وتحويله إلى المثال الذي يلهث وراءه الحالمون !.

وقد مثل أدباء المقالة ــ في الأغلب ــ تيار المقالة النقدية الواقعية وتخلوا عن مفهومات اصطناع الشكل الفني للفن، أو السعي إلى التزويق للتنغيم والموسقة إيقاعًا وتوازنًا، واعتقد كثيرون أن جمال النص مدعاة إلى التأثير به على المتلقين، بيد أن المضمون الشريف أكثر أهمية، وأوفر حظًا في التفكير والنظر من جانب الإطار الخارجي للنص، ومن هؤلاء الواقعيين المعتدلين الداعين إلى المضمون الجيد، والشكل الفني الحافظ لرواء الأدب ورونقه، السرحان، وابن خميس، ومحمد حسين زيدان، وعزيز ضياء، وغيرهم.

ويقف في هذه المسألة على طرفي نقيض العواد والعطار، فالأول ساع إلى قلب

موازين اجتماعية وفكرية كثيرة، وبأسلوب يدعوه «عصريًّا حرًّا»، غير ناظر إلى الجانب الشكلي من المقالة، والثاني متأسٍّ بكثير من جماليات القديم، وآخذ ببعض مافي الأسلوب الحديث من رواء وصور وابتكار، وداع إلى إعطاء التأثير بالفن التقدير الأوفى من النقد والدراسة وحسن التذوق.

٢ ـــ وضـــوح الغايـــة : فالأديب الواقعي الناقد يحدد هدفه، ويعلن في عبارات واضحة ما يريد، ولا يختبىء خلف الألفاظ الضبابية، والصور الغامضة، والخيال البعيد، فأسلوب أكثر كتّاب المقالة النقدية الواقعية يتميز بالوضوح، وبجلاء المعنى، وتحديد المفهوم، وتبين الغاية، والتأكيد عليها، ونرى هنا دقة العبارة، وندرة الصور الخيالية، والابتعاد عن وسائل التصوير الفني، مثل التشبيه والاستعارة، والمحسنات كالبديع بأنواعه، وانتفاء ما يسعى له الرومانسيون من الذاتيين والوصفيين، كرواء الأسلوب وفنيته، وابتكار الصور، والإغراق في الإمتاع الموسيقي، من اللفظة الموحية، والجرس الجميل، والتنغيم المتكرر، فالواقعيون من النقاد والكاتبين يتمثلون رؤيتهم في جانبيها الفكري والإبداعي، إذا صح إطلاق الإبداع على كثير مما يكتبون.

٣ ـــ ضعف خصيصـة الفـن : لإسراف الواقعيين في البحث عن المعنى، ضعف لديهم جانبا الخيال والعاطفة، وهما عنصران من عناصر الأسلوب المؤثر الممتع، وصارت الفكرة تعادل في كفة النقد هذين العنصرين المؤثرين، ولضعفها تفتقد المقالة النقدية انطلاقة الذاتيين والوصفيين في عالمهم الذي ليس له حدود، وتفتقد تدفق عاطفتهم القوية المؤثرة، وحين يخلو النص من هذه وتلك يغدو أشبه بالتقرير، ويعرض فيه كاتبه معانيه، بأسلوب صحيح واضح خال من الخطأ والتعقيد. وليس هذا غاية الفن المقالي الأدبي، بل قد يكون غاية المقالة العلمية فحسب.

على أن نفي الاهتمام بالشكل لدى كل كاتبي المقالة الأدبية النقدية أمر غير مقبول، فمنهم من يوليه بطبعه طول نظر وأناة، ودقة اختيار، ومعاودة لأسلوبه بالتزيين والتطرية في غير إسفاف ولا تكلف، مثل حسين سرحان، ومنهم من

يتكلف الرواء والتأثير من حيث لا يقصد ـ أو هكذا يظهر ـ كعزيز ضياء، ومنهم من يوازن بين الجانبين كحمزة شحاته.

فهؤلاء أدباء مطبوعون على القول، يتعمدون الواقعية، ويريدون من الأدب ألّا يكون شكلًا ولا صنعة، ولا تزويقًا، على حين نرى مقالاتهم لا تخلو من التطرية والإمتاع والتأثير، وإلا لما تناولناها بالدرس والتحليل في المقالة الأدبية على النحو الذي سلف. ووجدنا أن فيها دفقًا عاطفيًا ـ من حيث لا يحبذون الصلف فيها ـ ورواء أسلوبيًّا من حيث لا يميلون إلى الانثيال اللفظي الشكلي الموقع، لأنهم تخرجوا في مدرسة القديم، وتلقوا من تلاميذ مدرسة القديم، ودعوا دعوات الأدب والفكر الحديث : فجاءت أساليبهم تشي بما درسوه وبما تلقوه، وتُظهر الدعوة إلى المنهج الواقعي للأدب في الحياة.

والحق أنهم لم يسرفوا في هذه الدعوة، بدليل وجود الأسلوب الأدبي التأثري لديهم، ما خلا محمد حسن عواد، إذ انصرف عن الاهتمام بالأسلوب إلى الفكرة انصرافًا يكاد يكون تامًّا، مما أخل بمقومات الفن في أدبه، وأفقده التأثير الكامل، وأسرع بموت كثير منه، وإندثاره.



الفصـــل الخامـــس

المقالـــة الاجتماعيـــة



المقالـة الأدبيـة الاجتماعيـة

أ ــ مفهوم المقالة الأدبية الاجتماعية.

ب ــ أشهـر كتّابهـا.

جـ ــ نماذج من المقالة الاجتماعية.

١ــ الدعوة إلى النهوض.

٢ ــ نقد العادات والتقاليد.

٣ ــ الدعوة إلى العمل ــ مشروع القرش.

٤ ــ الدعوة إلى التعليم ــ تعليم الفتاة.

٥ ــ قضايا اجتماعية عامة.

د ــ الخصائص الفنية في المقالة الاجتماعية.



أ ــ مفهوم المقالة الأدبية الاجتماعية :

ليس ثمة اختلاف حول تحديد مفهوم المقالة الاجتماعية، إذ إن أكثر الدارسين يذهب إلى التأكيد على أنها المقالة التي تعالج أدواء المجتمع وأمراضه، مثل الجهل والفقر والعادات والتقاليد[١]، ويضرب كاتبها ألوانًا من طرائق التعبير المقالي، كالاعتماد على عرض القضية الاجتماعية التي يريد معالجتها عن طريق المقارنة والمثل، وعن طريق السرد القصصي في بعض جوانب المقال، وعن طريق التهويل والتخويف من عواقب عادة سيئة، أو مرض اجتماعي مستحكم ..، وفي الغالب من هذه المقالات الاجتماعية يكون غرض المقالة التنبيه إلى النقائص لتلافيها، والإشارة إلى الأدواء من أجل البحث لها عن أفكار راشدة تنير السبيل إلى درسها وكشف خباياها.

فالمقالة الأدبية الاجتماعية هي تلك المقالة التي تعرض لمشكلة من مشكلات المجتمع بأسلوب أدبي راق خال من الابتذال والمباشرة الفجة، وقريب إلى الصياغة الفنية الرفيعة، فلا يدع الكاتب الاجتماعي أطراف القضية تتصرف بأسلوبه، وتلزمه السبل التي يفهمها الجمهور الاجتماعي من العامة، كالسهولة المسرفة في اختيار اللفظ، والبعد عن التفنن في العرض، وتحبيذ الاقتراب بالقضية من الوضوح والمباشرة المبتذلة لكي تكون قريبة من أذهان العامة وأفهامهم.

وإن المقالة الأدبية الاجتماعية على هذا النحو من أكثر المقالات صعوبة في طلب النجاة من الابتذال والسهولة المبالغ فيها، وليس من مفهوم المقالة الأدبية بعامة أن نعد كثيرًا مما كتب في الأغراض الاجتماعية المختلفة مقالات أدبية ! وإلا لحشدنا هذا السيل المتدفق من أمثال هذه المقالات على أنهر الصحف كل يوم في دائرة الأدب، وحسبناها تعبيرًا رفيعًا عن قضايا المجتمع !.

والحق أن قسطًا كبيرًا منها غثاء لا قيمة له في ميزان النقد الأدبي السليم،

---

(١) انظر : د. محمد بن سعد بن حسين : الأدب العربي وتاريخه، ص٧١.

الذي يحتكم إلى الذائقة الفنية الرفيعة، ويرى أن العمل الأدبي المؤثر والباقي هو ذلك الذي يحافظ صاحبه على مقوماته الأساس، من الجودة في انتقاء العبارة، والدقة في الصياغة، والتصرف في الموضوع، والموازنة بين العقل والعاطفة، والمحافظة على شخصية كاتبه من أن تُفقد في غمار المعالجة المقالية، وفي كل ذلك يشعر القارىء لهذا العمل بأن شيئًا ما ــ قد يكون الخيال أو اللفظ، أو الصوغ، أو كل ذلك معًا ــ أثّر في وجدانه، وأثار مشاعره تجاه القضية التي عالجها صاحب المقالة بكل هذا القدر من الاهتمام بجودة العرض، وحسن العاطفة، وإشراق العبارة.

فالكاتب الاجتماعي الذي نعرض معالجته المقالية في هذا الفصل هو الكاتب الأديب، وليس الكاتب الاجتماعي وحسب، ولابد أن يكون «ممتازًا في ثقافته وعلمه، وعقله وفكره، وكياسته ورأيه، يقف نفسه من الأمة أو الشعب موقف المصلح الذي يريد أن يصل نفسه بقومه بغية الوصول بهم إلى مستقبل أفضل، وحياة أكمل، وعيش أكثر سعادة ورغدًا .. »[1].

والأديب المعني بقضايا المجتمع له منزلة الرواد المصلحين، الذي يوقفون أنفسهم على خدمة بلادهم ومجتمعاتهم، ويكونون فيها أعلامًا يتقدمون شعوبهم إلى نيل قيم الخير والبناء، وإلى استشراف مستقبل أكثر إشراقًا، وواقع أكثر جمالًا وازدهارًا.

ولا يُعنى دارس المقالة الأدبية الاجتماعية بما ينشره بعض الباحثين من دراسات علمية، وأبحاث دقيقة تمس المجتمع في كثير من أموره، كالأسرة، والزواج، والتربية، والنمو، وخلاف ذلك، فمثل هذه الأبحاث تكون ملتزمة بالنهج العلمي الدقيق الذي يبعدها عن الطبع والتدفق والعاطفة، ويخرجها من دائرة التناول الأدبي إلى أبواب العلم الفسيحة التي تتسع لأبحاث كهذه في النواحي الاجتماعية.

فالسمات الأدبية في المقالة الاجتماعية هي المعيار الذي ندخل به المقالة

---

(١) د. إبراهيم أبو خشب، في محيط النقد الأدبي، ص ١٤٩.

الاجتماعية في دائرة (الفن الأدبي للمقال)، وإذا انتفى الشرط الأدبي خلت من إغرائها لنا بالدرس والتأمل، وحسبناها في عداد النثر المقالي السريع الذي تتدفق به الصحافة كل يوم مثيرًا لقضايا اجتماعية وغير اجتماعية في غير اعتناء بالأسلوب، وفي غير إدراك لقيمة العاطفة والطبع والموهبة في الصياغة والمعالجة. وتفنى مع ما يفنى من نثر الصحافة ونتاجها اليومي السريع، والذي لا يقصد الإمتاع، ولا يسعى إلى البقاء، أو يحرص على خصائص الإبداع في النثر.

ونجد في المقالة الأدبية السعودية زخمًا اجتماعيًّا يصور لدارس هذا الأدب عمق الصلة بين الأديب والمجتمع، وحرص كاتبنا المقالي على أن يأخذ مكانته في الإصلاح والتوجيه، وأن تكون المقالة الرسالة المبشرة بالفكرة الإصلاحية النيرة، والدلالة على أن نفرًا من المثقفين يفكرون ويتدبرون في عوائق الحياة الاجتماعية، وانتظار إشراق حياة أكثر تطورًا ورقيًّا.

ولأن مجتمعنا بدأ يبحث عن السبل المضيئة الموصلة إلى هذا التقدم المنشود منذ أوائل العقد الخامس حينما دخل الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود مكة المكرمة عام ١٣٤٣هـ واكبت المقالة الأدبية السعي إلى تحقيق هذه الآمال، فصورت الأحلام، ورسمت حدود الإشكال الاجتماعي، والشكل اليومي الذي كان يحيط بالإنسان في مختلف أقاليم شبه الجزيرة، وجاءت المقالة الاجتماعية بين السخط والرضا، والأمل والقنوط، والحلم الغائب الشفاف والواقعية المباشرة، وهي حين تضطرب بين تلك الحالات تسعى إلى عرض القضية الاجتماعية للمناقشة وتداول الرأي، فكان في كثير منها توفيق إلى الإصلاح وتحقيق الأهداف، وفي قليل منها خطل وانفعال وطموح أودى بها إلى الصدام والخصام العنيفين.

ويجوز لنا أن نعد أكثر كتّاب المقالة في الأدب السعودي كتّابًا اجتماعيين، ولو فعلنا ذلك لما جانبنا الصواب، إذ إن أكثرهم عُني بالمجتمع، واهتم بقضاياه، غير أن طائفة منهم كان لها اهتمام عميق بقضايا التطوير والإنماء، وتخطي التخلف، والوصول إلى درجة مرضية من التقدم في نواحي الحياة، فوقفت عند

مشكلات كثيرة في المجتمع كالعادات والتقاليد، والمرأة من حيث كونها أما مربية، وعضوًا منتجًا، وفتاة مثقفة متعلمة، ووقفت عند تطوير المناشط الاقتصادية، وعند تأثير الحضارة الغربية، وعند الصحافة من حيث كونها أداة إصلاح وبناء، لا وسيلة للإثارة والميوعة، وإضاعة الأخلاق، ثم دعت إلى إقامة المشاريع النافعة، وتشجيع من لديه طموح لإنشاء مرفق إنتاجي، في الزراعة، أو الصناعة، أو التجارة، أو التعليم، وكان من أبرز هؤلاء الكتاب المقاليين الاجتماعيين الذين لا تخلو مقالتهم من مواصفات النثر الأدبي السائغ على اختلاف حظوظهم، محمد سعيد عبدالمقصود، ومحمد حسن عواد، وأحمد السباعي، وعبدالكريم الجهيمان، وعبدالله بن خميس، وسعد البواردي، ومحمد حسين زيدان، وحسن بن عبدالله آل الشيخ، ومحمد حسن فقي، وحمد الجاسر، وزيد بن فياض[1]، وعبدالله شباط وغيرهم، ولكني سأكتفي بعرض شخصية من تميّز بهذا اللون من الكتّاب، وبرز فيه، وأخلص فنه المقالي أو أكثره لمعالجة الإشكالات الاجتماعية المختلفة، فأكتفي بالخمسة الأوائل المعدودين من هؤلاء، وهم محمد سعيد عبدالمقصود، والعواد، والسباعي، والجهيمان، وابن خميس.

ب ــ أشهر كتّاب المقالة الأدبية الاجتماعية :

إن أهمية المقالة الاجتماعية ــ بمعيارنا الأدبي الذي سلف تأتي من كونها تعطي الباحث إيحاء تاريخيًّا عن مراحل التكوين الاجتماعي ونموها، وتصور أسلوب التفكير الاجتماعي، وتصف لنا كيف كانوا يحلمون ؟ ويأملون ؟ ثم كيف كانوا يذهبون في حياتهم مذاهب مختلفة، وما هي المؤثرات التي كونت لديهم القبول أو الرفض لفكرة أو مبدأ أو تيار.

وقبل ذلك تقدم لنا المقالة الأدبية الاجتماعية صورة نفسية لكاتبها، ورسمًا

---

(١) هو : زيد بن عبدالعزيز بن زيد بن فياض، ولد عام ١٣٥٠هـ، بروضة سدير، وتخرج في كلية الشريعة بالرياض، وعمل رئيساً لتحرير جريدة اليمامة لمدة عامين وله كتابات مقالية مختلفة جمع أكثرها في «من كل صوب»، وطبعه عام ١٣٨٧هـ.

واضحًا لخطراته ونزعاته إلى الإصلاح، وما كان يراوده من هموم التغيير والوصول إلى «المدينة الفاضلة» الحلم.

وهي إلى جانب هذا التصوير تقف بنا على أسلوب أدبي خال من التعقيد والإحالة، وبعيد عن التكلف والوعورة، فكاتب المقالة الاجتماعية أبعد ما يكون عن الحوشي والغريب والغموض وفردية المفهوم. وهو أقرب ما يكون إلى الانكشاف والوضوح، ولذلك كانت المقالة الاجتماعية ــ فيما أرى ــ أضعف الأنواع الأربعة من المقالة الأدبية التي أدرسها في هذا البحث صلة بالفن الأدبي المحض، وأقلها احتفاء بالتجويد في الأسلوب الأدبي المجنح، الذي قد يعمد إليه الكاتب المقالي الموهوب فيتخذه هدفه من المقالة، ويعاوده بالمراجعة والإنضاج.

وقد يتساءل قارىء هذا الفصل عن قيمة المقالة الاجتماعية التي انقضى على كتابتها نصف قرن ؟ ماذا تضيف للأدب، أو تقدم من خدمة للمجتمع ؟!.

وأقول : إنني أتناول هذه المقالة من جانبين، من حيث كونها فنًّا أدبيًّا له سماته وخصائصه، ومن حيث كونها تؤرخ لمراحل من تكوين الوعي، ونضوج الفكر الاجتماعي في البلاد.

ومن الجائز أن تكون بعض الإشكالات الاجتماعية التي كانت مستحكمة غير سائدة الآن، وغير محسوسة، لأن الزمن عالجها بتطور الحياة الطبيعي، وارتقائها الأبدي إلا أنها تبقى صورة من معاناة أجيال بذلت نفوسها ومنحت أعمارها لبلادها، ولو لم يكن هذا الجهاد مع ما عاضده من أسباب أخرى ما انقرضت عادات سيئة، وتبدلت مفاهيم مغلوطة، وانفتحت للناس في هذه البلاد أبواب كثيرة للنظر ببصر وتؤدة إلى ما يصلح لحياتهم فيأخذون به، ومالا ينفعهم فيصدون عنه، ويغلقون دونه الأبواب.

ومقاليونا الخمسة الذين أضرب بهم المثل على ذلك الكفاح لهم اتجاهات حسنة وُفقوا إليها، ولبعضهم آراء في القضايا الاجتماعية قد لا تكون مقبولة مسلمًا بها. والعبرة هنا بطريقة المعالجة، وأسلوب الكتابة، وما أحدثته المقالة الأدبية الاجتماعية من آثار في التفكير العام.

١ ــ محمد سعيد عبدالمقصود خوجه[1] :

اجتهد هذا الكاتب في الدعوة إلى الأصالة، ونبذ التقليد، وعُني بمحاربة السلوك البعيد عن القيم الدينية والعربية، فأثار على صفحات جريدتي أم القرى، وصوت الحجاز معارك عديدة مع نفر من الكتّاب، اختلف معهم في تفاصيل فكرة جديدة يدعو إليها، وهم عنها صادون، وغير منصتين، أو مع نفر آخر لا يميل إلى المحافظة على كثير من التقاليد العربية الموروثة، فانهالوا عليه لومًا وتقريعًا، وواجههم في صبر وقوة، مدافعًا عن أفكاره، وساعيًا إلى خصومه محاورًا ومقنعًا في لطف وأناة.

لقد عاش «أبو عبدالمقصود» ــ وهذا لقبه ــ المرحلة الانتقالية الصعبة في التاريخ الأدبي والاجتماعي، فالبلاد كانت مقبلة على مرحلة طويلة من التغيير في أساليب الحياة، وفي طرق التربية والتعليم، وفي تنظيم الإدارة، وسبل الاقتصاد، وكان من الطبيعي أن تختفي عادات وتجيء أخرى، وأن يحتدم الصراع بين تقليد موروث، وطريقة جديدة في الحياة فموقف الكاتب من هذه القضية أقرب إلى الأصالة وأكثر إشفاقًا على الموروث الاجتماعي، من السلوك، والأزياء، والإنفاق،

---

(١) ولد بمكة المكرمة عام ١٣٢٤هـ. وتلقى تعليمه الابتدائي على يد والده، في حلقات الدرس بالمسجد الحرام، ثم بمدرسة الفلاح، عين عام ١٣٤٥هـ، مديراً لجريدة أم القرى ومطبعتها، وكان يوقع مقالاته باسم «الغربال» وربما وقع بـ «أبو عبد المقصود» وقام بطباعة كتاب «تاريخ مكة للأزرقي» طبعه في ثلاثة أجزاء بتحقيق رشدي ملحس وأخرج مع عبدالله بلخير كتاب «وحي الصحراء» عام ١٣٥٥هـ. وبعد أن انفصلت جريدة أم القرى عن مطبعتها ظل مديراً للمطبعة إلى أن توفي بعد مغرب يوم الخميس ١٥ ربيع الثاني عام ١٣٦٠هـ، بعد معاناة طويلة مع مرض السل.

وقد كان يقوم بأعمال اجتماعية جليلة ــ كما وصفه زملاؤه في مراثيهم ــ فاشترك في كثير من الأعمال الخيرية، وقد التحق بالحسبة (هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وعمره ستة وعشرون عاماً، وكان شعلة من النشاط والدأب على العمل، فمن عملٍ إداري إلى كتابةِ مقالةٍ، إلى اشتراكٍ في عمل خيري.

ينظر عن حياته : محمد سعيد عبدالمقصود خوجة ــ حياته وآثاره، د. محمد بن سعد بن حسين، تهامة، ط١، ١٤٠٤هـ، جدة. والمعجم ٢٧٨/٢، وله في الأعلام للزركلي ترجمة مختصرة ١٤٤/٦، والمنهل العدد الخاص بالأدباء السعوديين ١٣٨٦هـ، رجب، والمنهل جمادى الأولى ١٣٦٠هـ، والمنهل ذو القعدة وذو الحجة ١٣٦٧هـ، وكتاب «وحي الصحراء» تهامة، ط٢، ١٤٠٣هـ الصفحة الأخيرة.

ووسائل الترفيه، والمعارف العامة، فأخذ يصور مرامي التغيير الطارىء على الحياة، وبخاصة ما كان مصدره الغرب، أو مجتمعات عربية أخرى تتصل به.

والحق أن محمد سعيد عبدالمقصود كانت له يد طولى في المحافظة على بعض التقاليد، وفي إثارة الشك في قيمة تقاليد بالية أخرى، ثم في الدعوة إلى تجنب اتباع المخدوعين بأنماط السلوك الغربي.

وقد كتب ــ خلافًا لذلك ــ مقالات أخرى في تاريخ الأدب الحجازي[١]، وفي مياه مكة عبر أطوارها التاريخية[٢]، وهما مقالتان طويلتان أقرب إلى البحث العلمي، ثم كتب عن المدرسة والتعليم[٣]، ودعا إلى تعليم المرأة الحجازية[٤]، وإلى الاهتمام بتربية الأطفال[٥]، وإحسان تثقيف النشء، وكان أول من دعا إلى الإصلاح الاقتصادي المنظم حين اقترح مشروع القرش[٦] .. وله في باب الاجتماعيات نصيب وافر.

غير أننا نلحظ في أدبه أمرين، أولهما ضعف الأسلوب المقالي الذي أجرى به الكاتب هذه الموضوعات، وافتقادها إلى كثير من الطراوة والإمتاع الأدبي، واقترابها من الأساليب العادية المكرورة، ولولا نَفَسٌ أدبي يتبين بين الحين والآخر في بعض مقالاته ما تناولتها في هذا الفصل كنموذج للمقالة الأدبية الاجتماعية. وثانيهما غلوه في المحافظة على كل قديم، على الرغم من دعوته إلى الأخذ بجديد الحياة، كموقفه من تعليم الفتاة، بيد أن تمسكه بأمور شكلية في المظاهر

---

(١) مقال بهذا الاسم، أم القرى، الأعداد : ٦٠٨، ٦١١، ٦١٤، ٦١٥، ٦١٦، ٦١٧، ٦١٨، ٦٢٠، من عام ١٣٥٥هـ. وانظر : وحي الصحراء، ص٣١.

(٢) مقالة : المياه بمكة في أدوارها التاريخية، أم القرى، عدد ٥١٧، في ٢ شعبان ١٣٥٣هـ، وكتاب «محمد سعيد عبدالمقصود خوجة» للدكتور محمد بن سعد بن حسين، ص٦٥.

(٣) مقالة : أنا والأخلاق، أم القرى، عدد ٣٧٩، في ١٠/١١/١٣٥٠هـ.

(٤) مقالة : تعليم المرأة الحجازية، كتاب «محمد سعيد عبدالمقصود» للدكتور ابن حسين ص١٣٥.

(٥) مقالة : تربية الأطفال، أم القرى، عدد ٣٩٤، في ٢٦ صفر ١٣٥١هـ.

(٦) مقالة : حول مشروع القرش ــ الحديث ذو شجون، صوت الحجاز، عدد ٦٣، في ٤/٣/١٣٥٢هـ.

الاجتماعية العامة كنقمته على (التواليت)[1]، وسخريته ممن يُعنون بمظهرهم العام، ويكثرون التزين والتطيب ومس ما يجعلهم مقبولين من ناظريهم، هذا التمسك المبالغ فيه قعد ببعض أفكاره عن النهوض، وطمرها في النسيان مع الموات الكثير من الأفكار البالية المنقرضة.

وما نعلم — الآن — من يبذل مثل هذا الحرص في الدعوة إلى التقشف في المظهر وعدم الاعتناء بما يحبب الإنسان في عيون أهله وأصحابه، ويقربه منهم بالرائحة الزكية، والزي الأنيق، والمظهر المتناسق.

ونلحظ ميله في ميدان التقاليد إلى القديم وتجافيه عن الجديد واقتباس ما يصلح للحياة في البلاد من عادات وتقاليد الأمم الأخرى، ولعل هذا السب كان دافعًا لإعلان الداعين إلى التجديد — كالعواد وأضرابه — الحرب على محمد سعيد عبدالمقصود، وجرّأ عليه نفرًا آخرين من الشبان المتطلعين إلى الإفادة من جديد العصر فناوشوه بمقالات حادة، اشتطوا فيها عن جادة النقد وبعدوا عن الصواب، كما فعل من لقب نفسه بـ «المنسف»، ومن رمز لنفسه بـ «محمد راسم».

ولعل للفترة التي قضاها موظفًا في الحسبة، آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر أثرًا في اتجاهه هذا نحو المحافظة الشديدة، والحرص على التقاليد.

على أننا — ندع هذا المأخذ — ونقبل منه مقالات كثيرة أثار فيها قضايا اجتماعية عديدة أشعلت الصحافة بالنقاش، وكانت سببًا في تغيير مفاهيم من حوله نحو بعض القيم التقليدية، وبعض الأمور في الاقتصاد، وفي التربية، وغيرها.

ويعلل الدكتور محمد بن سعد بن حسين موقف أكثر معارضيه بأنهم كانوا «ينفسون عليه تفوقه عليهم، وسبقه إياهم، ولذا تألبوا عليه ونقدوه وعابوا عليه من

---

(١) قص الشعر بنظام معين، وإطالته في مقدمة الرأس. وربما جاء هذا الاسم من باب إطلاق الكل على الجزء، لأن تصفيف الشعر وغسله والعناية به تكون في الحمام عادةً، فُعرف هذا الصنيع به. والتواليت في لفظها الانجليزي تعني الحمام. ولكنها عند العامة جرت على ما عُرف في قص الشعر على هذا النحو.

كتاباته ما يستحق عليه الشكر والثناء .. »[١] وأرى أن الغيرة ليست سببًا مقنعًا في هذه المناوشات، ولكن اختلاف المفهوم من إنسان إلى إنسان آخر، وتباين اتجاه ابن عبدالمقصود واتجاه معارضيه كان كافيًا لما حدث من اختلاف كبير في الآراء، ولأن كاتبنا ليس أكثرهم ثقافة ولا أوفرهم حظًا من الأدب، والبراعة في فنونه، ولا أصدقهم إحساسًا بجمال الكلمة ورقتها، «إذ كان محصوله العلمي قليلًا، وثقافته محدودة، ولكنه بحيويته القوية، ونضوج عقليته استطاع أن يكون لنفسه مكانة مرموقة قلّ أن يستطيع الحصول عليها من كان في مثل ثقافته وسنه»[٢].

وليس أدل على اعتنائه بالتعبير المباشر، والوضوح في التعبير، وعدم إقباله على الصياغات البيانية الجميلة من لومه أحمد السباعي على أسلوبه، الذي نعته بأنه أسلوب فيه «مياعة» !.

ولنتتبع هذه المناوشة الصغيرة في موضوع أسلوب الرجلين، فهي تكشف لنا عن اتجاه محمد سعيد عبدالمقصود نحو المعنى فقط، ونحو الخشونة في اللفظ، وفي السلوك وفي الحياة، فكأنه لا يميل إلى نعيم الحياة، ولا يستلذ بأطايبها ولا يميل في الأسلوب إلى الترف في اللفظ، والصور اللطيفة في الخيال، فهو في مستهل مقالة في نقد أسلوب السباعي يؤكد على حاجة المجتمع إلى النقد البريء، وتجنب الضعف «والمياعة في القول، وإرضاء النفوس الضعيفة بتسويد الصحف»[٣]. ويذكر أن السباعي أحد الأقلام التي تحارب العادات السيئة، غير أنه يستأذنه في محاسبته على «مياعة» أسلوبه، فهو يخاطبه قائلًا : «أنت تعرف ــ أيها الصديق ــ أني أنقم عليك أسلوبك في الكتابة، ومياعتك في الأسلوب، وأتمنى لو فكرت فقدرت فعدلت عن هذه المياعة في الأسلوب،

(١) انظر : محمد سعيد عبدالمقصود خوجة ــ حياته وآثاره، ص٢٦. ويذهب الدكتور ابن حسين إلى أنه يتميز عليهم بالمعرفة والثقافة والعلم، ولا يقبل رأي محمد عرب.

(٢) مقالة : أدباؤنا الراحلون ــ محمد سعيد عبدالمقصود، محمد عمر عرب، مجلة المنهل، ذو القعدة وذو الحجة ١٣٦٧هـ، سبتمبر وأكتوبر ١٩٤٨م، ص ٤٩٥.، عدد ممتاز.

(٣) مقالة : على هامش ملاحظات حرة ــ إلى الصديق السباعي، عبدالمقصود، مكة، صوت الحجاز، عدد ٢١٣، ي ١٠ ربيع الثاني ١٣٥٥هـ، ص١.

وذاك الأسلوب في الكتابة إلى ما يتفق وروحك إن لم يكن إلى أبعد حد فإلى حد ما، ولكنك أبيت وأصررت على رأيك .. »[١].

وحين رد على السباعي أشار إلى أن تواضع ابن عبدالمقصود ليس إلا فذلكة ومشايعة للناس، وكان السباعي أكثر حدة، وأرفع صوتًا من كاتبنا، فلم يرحب بملاحظته عليه في أسلوبه، ولم يأبه بها، مادام أن ابن عبدالمقصود ليس نابغة هذا العصر فتُضرب له قبة يحتكم إليها الأدباء في أذواقهم، ويتساءل أحمد السباعي عن الأسلوب الذي يستوذقه ناقده، فيقول : «أهو هذا الاسترسال في عطف جمل فاترة الروح آخذ بعضها برقاب بعض في سلسلة طويلة تنتهي بالإمضاء لا يجد القارىء فيها متعة ولا تروّح فيها عنه نكته ؟ لئن كان ذلك فما أهونه أسلوبًا وأبرده فنًّا.

و(المياعة) أو ــ الميعة ــ بالأصح ماذا تعني بها ؟ لئن كنت تعني هذا الهزل في الجد الذي أنحوه فثق أن في أحبائك من يعيب عليك أكثر ما يعيب عليك فقدانه في كتابتك. أظنك ــ أظنك تثور الآن وتغضب وتصرخ في حدة ــ «لا .. لا أشتهي لنفسي هذا !.

على رسلك ياعزيزي فما ضيعك كغضبك .. ألا واستجب في هدوء إلى الفن واستوحه جمالًا ليقرأ الناس أدبًا يصافح القلوب بعذوبته ومرحه ولتعرف أن ما تسميه (ميوعة) ليس أبعد بينه وبين (الميوعة)[٢].

ويتبين من أسلوب محمد سعيد عبدالمقصود ميله إلى الاقتصاد في العبارة، والبعد عن الترف في استخدامها، وقلة احتفاله بالصياغة، وطلبه القديم يتأسى به، غير أنه لم يصل إلى تأسيه في الصوغ والسبك، ووقف عند النداء له، والدعوة إلى تقديره وامتثاله.

ويتميز أيضًا بالهدوء في المناوشة، والصبر على المناقشة، والبعد عن الإسفاف

---

(١) المقالة السابقة.

(٢) مقالة : ملاحظات حرة ــ على هامش ابن عبدالمقصود، أحمد السباعي، صوت الحجاز، عدد ٢١٤، في ١٧ ربيع الثاني ١٣٥٥هـ.

والتجريح، فقد وقف أمام خصومه ــ على إسفافهم في نقدهم اتجاهه ــ موقف المتعقل الرزين، الذي لا ينظر إلى الخصومة في سبابها وتهور أصحابها قدر نظره في أسبابها الداعية لها، والأفكار التي يدور حولها الخلاف.

ومن حق هذا الكاتب الاجتماعي المجتهد أن يأخذ حظه من الدرس، وأن يجد نصيبه من الباحثين، فإن لآرائه الاجتماعية تأثيرها، ولها دلالاتها على نمط من التفكير كان سائدًا، وعلى نوع من الجهاد في سبيل بث الرأي وإذاعته، على الرغم من العقبات والعثرات التي تصد الكاتب عن سبيله.

وحين توفي محمد سعيد عبدالمقصود، رثاه أصدقاؤه والعارفون فضله المدركون لقيمة بعض اتجاهاته نحو الأصالة، ونحو التقاليد الفاضلة، والعادات الحسنة، فرثاه صديقه أحمد السباعي(١) بمقالة تنم عن إعجابه الكبير به، وتقديره لذكائه، ونشاطه، وقوة شخصيته.

ورثاه عبدالله عريف(٢) بمقالة أخرى طويلة معددًا فضائله، وذاكرًا بالخير مساعيه في مشاريع نافعة عديدة، وجَمْعَه في وقت واحد بين أعمال ينوء بحملها الإنسان، ومشيرًا إلى سعيه في مقالاته نحو تغيير الرديء من العادات، والبالي من التقاليد بما هو متفق مع قيم الدين، والأصالة العربية.

ورثاه فؤاد شاكر(٣)، وعبدالقدوس الأنصاري(٤) وغيرهم(٥).

٢ ــ محمد حسن عواد :

سبقت الإشارة إلى محمد حسن عواد ناقدًا أديبًا(٦)، وبقي الجانب الثاني من شخصيته الأدبية العامة، وهو ما يتصل بالقضايا الاجتماعية.

---

(١) مقالة : هكذا نتتهي، صوت الحجاز، ٥٧٣، في ١٨ ربيع الثاني سنة ١٣٦٠هـ، ص٢.

(٢) مقالة : قضاء..!، صوت الحجاز، العدد السابق.

(٣) مقالة : إنا لله وإنا إليه راجعون، صوت الحجاز، عدد ٥٧٢، في ١٣٦٠/٤/١٥.

(٤) انظر : المنهل، جمادى الأولى ١٣٦٠هـ.

(٥) مقالة : يرحمك الله يا عبدالمقصود، د. حسني الطاهر، صوت الحجاز، عدد ٥٧٣، في ١٣٦٠/٤/١٨هـ.

(٦) انظر الفصل الرابع، أشهر كتاب المقالة النقدية، ص٤١٣.

ومن المفيد أن أومىء إلى أثر العواد في مجتمعه حين تصدى لتيار التقليد، ودعا إلى التخلص من عادات كثيرة وبالية.

وإذا ذهب الدارسون للأدب السعودي إلى الاعتقاد بريادة محمد حسن عواد في بعث حياة اجتماعية جديدة فإنهم غير مبالغين في ذلك، لأن هذا الأديب عُني بالتقدم الاجتماعي، وتولى مسئولية الدفاع عن التحديث، وتصدى لدعوات المحافظين، الراغبين في سلامة القيم الموروثة من التطوير والتعديل والإضافة، بل أصلاهم من نار نقده، ما دفع بهم إلى الاشتداد والقسوة عليه.

إن العواد لم يكن غاليًا في دعوته إلى التجديد في الرؤى الاجتماعية، والشطط في أفكاره الاجتماعية أقل وأخف حدة من شططه في اتجاهه إلى التغيير في مفهومات الأدب القديم، والتراث العربي، والحضارة الغربية، ومفهومه عن الحرية، والإبداع في ألوان الأدب المختلفة.

وقد التمست له بعض العذر في شططه ذاك، لحسن النية، وسلامة المقصد، ولأن إحاطة التقليد بجوانب الحياة العامة تدفع إلى أن يحتد ناقد أشكال ذلك التقليد في الآداب، وأنماط التفكير الاجتماعي، بل قد يندفع إلى النقد العنيف، الساخط ــ كما فعل العواد ــ رغبة في إحداث الأثر المرتجى من النقد.

وتلك الحياة الرتيبة في كثير من مجالاتها، وذلك التأسي بالقديم كله، ومنحه صفة القداسة ــ على مافي أكثره من خطل ونقص ــ وماكان يسود المفهومات الأدبية من قصور في الوعي بوظيفة الكلمة، ومهمة النقد، ثم ما كان أمام الشبان الطامحين في التجديد من عقبات وأوامر ونواه، وحدود، كل ذلك كان كافيًا لأن ينصرف الأدباء الشبان عن التماس التعقل والرزانة إلى الاندفاع نحو آمالهم في التخفف من عنت الفناء في القديم، وغلواء الانسياق وراء الركود الاجتماعي العام.

على أن العواد كان أظهر أبناء جيله في الدعوة إلى التجديد، وأكثرهم صراحة في تحديد مايريد من الجديد، ثم هو أكثرهم استعدادًا للمصادمة والخصام والمنازلة دفاعًا عن رأي، وذبًا عن مبدأ يدعو له.

فهو قد وقف أمام طائفة من العلماء، يزعم أنه يداعبهم، ولكنه ينقدهم في صلف وعنف بالغين، ويريد بالعلماء هنا «السادة المشتغلين بالدين» ــ كما يذكر ــ، فيلومهم على لزومهم التقليد، واتباعهم سنن من قبلهم في غير اجتهاد وفي غير إعمال عقل، ويخاطبهم بهذا المعنى قائلًا، «ليس فيكم يا سادتي ــ اللهم إلا القليل ــ من رجل يعرف كيف يستعمل هذا العلم ــ أعني علم الدين ــ متصرفًا فيه بقوة فكره، مستخدمًا دماغه في الفهم والاستنتاج وإنما أنتم تعتمدون دائمًا على فهم أشياخكم، وقد تجيء هذه عقيمة خاطئة، وقد تكون عارية عن الحقيقة بالكلية»[1]. وما يفتأ يذكر جمودهم، وقعودهم عن الاجتهاد، وتثبيطهم العزائم عن التفكير، وانصرافهم عن قراءة الكتب النافعة، واستقبال الرأي من العقول المستنيرة، ويجنح في لومه بعض العلماء الميالين إلى التقليد، والمتشككين بصور العلم دون إحساس بروح العلم وجوهر الدين، على أنه أسرف في هذه الملامة، وارتكب طريقًا غير محمودة في سبيل معاتبته إياهم، على حين أقبل محييًا مرحبًا بالأفكار تأتي من علماء الغرب، فيراها صائبة حيثما وقعت، وأينما جاءت، ويرى فيهم الجد والابتكار والاجتهاد، وكأنهم النقيض للصورة السوداء التي رسمها للعلماء في بلاده، فهما على طرفي نقيض «أما العلماء في الغرب ــ وما أدراكم ما علماء الغرب !! ــ عقول باحثة، وأفكار متدفقة، واحتياط في نقل الحقائق وفهمها، وضبط لمسائل العلوم وإتقان في تأديتها إلى آخر ما هنالك من الآثار النافعة»[2].

والعواد هنا لم يوفق إلى التعبير الدقيق عن فكرته في الحث على الاجتهاد، والابتعاد عن التسليم المطلق بالرأي، ومقارنته علماء بلاده بعلماء الغرب، وكان الأولى أن يترفق في هذا النقد، وأن يلزم في مخاطبته العلماء الذين يعنيهم آداب الحوار، وتقاليد مبادلة الرأي، ولكنه استسلم لعاطفته الثائرة على كل شيء متلمسًا أقرب الطرق ــ فيما يرى ــ إلى التجديد، وهو الهدم، هدم ما وجده بين يديه

---

(١) مقالة : مداعبة مع العلماء، خواطر مصرحة، أعمال العواد الكاملة، مجلد١، ص٢٠.

(٢) المقالة السابقة.

من آثار الماضي، دون أن يتمعن في الصالح فيرفق به، والطالح فيصليه من ناره ما يشاء !.

وعلى هذا المنوال سار في أكثر نقده لمظاهر الحياة الاجتماعية، وفي إرسال دعواته المختلفة إلى تحديث جوانبها المتعددة، في المرأة، وطرق التربية، والنظرة إلى الماضي، واستجلاب أدوات الحضارة في هذا العصر، والإحاطة بعلومها ومنجزاتها.

ومن ذلك دعوته إلى تعليم المرأة، وتهذيبها، فهو يرى أن تعليمها «سنة مدنية يجب ألّا يهملها الشرقيون»(١). ويحلم بما يتمناه للحجاز بعد ٥٠٠ سنة فيرى أن إحدى الفتيات من بلادنا لا يتجاوز عمرها الثامنة عشرة، ـــ تشغل وظيفة رئيسة معمل للزجاج بجدة الجديدة ـــ، فيكتب ـــ على لسان هذه الفتاة ـــ رسائل إلى أخيها مسعد، يصور فيها ما يحلم به من أوجه هذا التقدم الذي يتمناه(٢)، وهي صورة خيالية «طوباوية» من الفكر الاجتماعي المتفائل، فلم يخلد في تخيله إلى ماهو كائن من التخلف والضعف في النواحي التعليمية والتقنية وغيرهما، بل اندفع إلى ما سيأتي من جميل الأماني، ملحفًا في تحقيقها بالدعوات المتوالية إلى الاستنارة والوعي بحضارة العصر، والأخذ بجديد الحياة، داعيًا إلى الاهتمام بطرق التربية ليتربى النشء على التهذيب والاستنارة بالعلوم، ومتسامحًا في مسائل وقضايا لا بد من التقليد فيها، ثم تتلوها خطوات الانطلاق في استقلال ونضج، وفي هذا السبيل لابد من النقد الصريح ـــ كما يرى ـــ لمعالجة الهفوات، واستبانة أوجه النقص، «لماذا لا نفهم أنه ليس من الوطنية أن نتشدق بمدح عادات الوطن، ونصرف النظر عن نقدها، ذلًا، أو نفاقًا، أو مخادعة ؟! لماذا لا نفهم أن حرارة النقد أجمل من حلاوة الغش»(٣).

وفي امتداد وعيه العربي إلى مساحة أكثر اتساعًا، وأرحب آفاقًا يتصور الوحدة

---

(١) مقالة : من سلسلة أفكاري، خواطر مصرحة، ص ١١٧، أعمال العواد الكاملة.

(٢) مقالة : الحجاز بعد ٥٠٠ سنة، خواطر مصرحة، ص٩٠، أعمال العواد الكاملة.

(٣) مقالة : فكرتي تسائلني، المصدر السابق، ص٩٥.

العربية الكبرى مُنتجعًا فسيحًا لكل عربي، ووطنًا واحدًا، يستجيب أقصاه لأدناه، وينصت شماله لجنوبه، ويسعى أهله جميعًا لإصلاح أحوالهم، وإعزاز أنفسهم بالوحدة في الاتجاه، والوحدة في الإجماع على القرار العام، والتضامن في دفع الاقتصاد إلى إنتاج أوفر، وعطاء أخصب، وكل ذلك يتخيله الكاتب في «المنتجع الفسيح»[1] الذي اشتق من كل حرف رمزًا لبلد من بلدان العرب، وجمعها على هذا النحو من التوليف اللفظي والمعنوي.

والعواد في كل هذه الأفكار الاجتماعية مجتهد، ومسرف أحيانًا في هذا الاجتهاد، فيأتي بما يحسن من الآراء والمعاني الطيبة في صياغة منفعلة غاضبة، مما يذهب برواء الفكرة ويضعف قبولها في نفوس من يميلون إلى الاعتدال في التفكير، والاتزان في إبداء الأفكار.

على أن العواد كان في هذا الانفعال أداة قوية مؤثرة، إن لم تؤت أكلها كله، فقد آتت ثمرًا يانعًا، ودفعت إلى الساحة الاجتماعية بالسؤال تلو السؤال عن «ماهية» التقليد، ومعنى «التجديد».

٣ ــ أحمد السباعي :

جمع السباعي بين كتابة المقال، وكتابة القصة، والكتابة في التأريخ، غير أنه في المقالة أميز وأكثر تدفقًا وأوفر صدقًا في المعالجة، وألصق بموضوعه الذي يصاوله بالنقد، ويداوره في فنونه التي يطرقها، وهو الموضوع الاجتماعي في أكثر ما يكتب، مقالة، أو قصة.

وكان يمكن أن يصرفنا اتجاهه إلى العامية في كثير من آثاره عن الكتابة عنه، ودرسه في أدب المقالة، لولا أن له من المقالات الجيدة ما يفرض علينا الكتابة عنه.

---

(١) مقالة : المنتجع الفسيح ــ بلادنا في القرن العشرين، خواطر مصرحة، ص٢٣١، أعمال العواد الكاملة.

ونجد اهتمامه بالقضايا الاجتماعية في أدبه صارفًا إياه عن معالجات أخرى أسهم في بعضها بنتاج طيب، كالبحث التاريخي على الأخص.

وحين انطلق جيل الشبان ــ الذي أصبح فيما بعد جيل الرواد ــ نحو الأدب بكل ألوانه، يجربون، فيوفق بعضهم في ذلك التجريب التجديدي مهتديًا بتجارب بعض المبدعين العرب، ويخفق آخرون، إما لعدم تمكنهم من أدوات الفن الذي قصدوه للتعبير عن قضاياهم، وإما لنفاد صبرهم على مواصلة الالتزام بالأدب إلى حين التميز فيه، أقول : في تلك الأثناء استطاع السباعي ــ منذ بداية تعلقه بالكتابة ــ أن يضع له منهجًا نقديًا اجتماعيًا واضحًا، فعُرف فيما بعد بالناقد الاجتماعي، إلى كونه يكتب المقالة الأدبية الوصفية، والذاتية والنقدية أحيانًا. غير أنه استخدم موهبته الأدبية البيانية في تناول قضايا مجتمعه، ويسر له اندفاعه نحو الأسلوب السهل المتدفق، الخالي من التزويق والتطرية والبعيد عن العمق والتوعر في المعنى أو الاستعارة أو الإيحاء، يسر له ذلك القرب من قرّائه، والألفة من متابعيه، والانتشار في أوساط الناس حاملًا لهم قضاياهم مُفسّرة، مكشوفة الأنحاء، منقوطة الأحرف، بيّنة المعاني، واضحة الحلول.

القضايا الاجتماعية في أدبه المقالي :

حسبي هنا من مقالات السباعي الاجتماعية الكثيرة التوقف عند بعض قضاياه التي عُني بها، وإبانة أسلوبه في معالجتها، وانتهاجه الرفق في المصاولة والخصام، وأن أشير إلى أبرز مناحيه الكتابية في قضايا مجتمعه، ويرد فيما بعد شيء من إسهامه ــ مع أقرانه[١] ــ في الموضوعات الاجتماعية بعامة.

ينظر السباعي إلى الاختلاف على الفكرة بين المتحاورين على أنه نعمة لا نقمة كما يفهمه نفر من الناس، فأديبنا يدعو إلى الرفق في الاختلاف على الرأي، والنظافة في الكلمة، والشرف في أسلوب توصيلها، وكأنه ينتقد الذين

(١) انظر الفقرة التالية في هذا الفصل، نماذج من المقالة الاجتماعية، ص٦٠٠.

يتمادون في إنكارهم فضل الآخرين في الوصول إلى المقنع من الآراء، والمصيب من الأفكار، وينكر على الذين يسعون في شطط بالغ إلى ردّ أفكار خصومهم في غير رفق ولا لين، ودون اعتبار لقيم الحوار، وأدب النقاش.

فهو لا يحجر على فكر الآخرين، غير أنه لا يرضى منهم أن يلزموه بما يعتقدون، ولذلك يريد من الناس أن يسمعوه، وينصتوا إليه كما يرهف السمع في غير نفاد ولا ضيق إلى بثهم الرأي، وقولهم النقد.

ويأخذ على بعض المتخاصمين غلوه في بحثه عن خطل خصمه، وتتبعه سقطه، واحتسابه زلاته، وحفظه إياها له عند المساءلة والحساب في موقف، أو مناوشة، أو وظيفة، ويخاطب سامعه، في شعور من كاتبنا بأن هذا السامع لا يبرحه دائمًا، فيوجه إليه أكثر أحاديثه المكتوبة، يقول : «ما أحلاك نظيفًا وأنت تخالفني في شرف، وتخاصمني في حق، وتحاجني في براءة !!.

ما أحلاك نظيفًا وأنت لا تبيّت قهري في باطل، ولا تتكلف دحضي في ظلم، ولا تتعمد إساءتي في طغيان !!.

ما أحلاك نظيفًا وأنت تعرف أخطاءك فلا توارب فيها، وتعرف مواطن ضعفي فلا تستفيد منها، وتعرف وجوه الحق فيما أدعي فلا تأخذك العزة .. ما أحلاك نظيفًا على أي حال، وفي كل حال»[١].

ويدعو إلى الصدق في معاملة الآخرين، وتسمية الأشياء بأسمائها، والبعد عن مصانعة السخيف بقبول آرائه، ومجاملة الغبي بوصفه بالذكاء، والجاهل بمنحه ألقاب العلماء، والظالم بإسباغ مزايا أهل العدل، وأرباب الإنصاف عليه. ومتى وصل الأديب إلى لرتكاب موبقات كهذه أصبح هادمًا بعد أن كان بانيًا، وحامل رذيلة بعد أن كان داعية إلى الشريف من المعاني، والرفيع من القيم[٢].

---

(١) مقالة : ما أحلى أن تخالفني في شرف، من كتابة (دعونا، نمشي) مطبوعات نادي الطائف الأدبي، شركة مكة للطباعة، ط٢، ١٤٠٠هـ، ص١٤٥.

(٢) مقالة : يوم كنا نجامل الغبي، المصدر السابق، ص١٥٣.

والسباعي في هذا السبيل لا ينقطع عن التأكيد على مسئولية الأديب في الدفاع عن الحق، وكشف أوجه الزيف في حياة المفلسين من قيم الخير والعدل، والرقي، ويلح على أن يكون الكاتب الأديب قدوة فيما يدعو إليه، على أنه بشر معرض للنقص، فليس مطلوبًا منه الكمال، غير أن السباعي لا يريد من الأدباء أن يصوروا الفضيلة بشتى الصفات المحببة فيها، ويغرسوا معانيها في نفوس الناشئة حتى إذا التفت هؤلاء البراعم إلى واقع الحياة وجدوه بلقعًا خاويًا من قيم درسوها، ومعانٍ سامية تمثلوها، وفكر نيّر خيّر داخلهم في نفسياتهم فلا يريدهم يفتحون عيونهم على الواقع «فيشهدون من ختل الأقوياء وعسفهم وهوان الضعفاء وذلهم ما يعفي على كل أثر طبعته كتب الأخلاق في أذهانهم .. »[1].

وتغنّى السباعي بما للعرب من حضارة في أسلوب شاعري مرهف، قائم على محادثة مستمعه ومناجيه الملازم له، وبوقفات حواريه تنم عن خيال يدرك قيمة المحاورة، وسمو الاختلاف[2]، فيوحي إلى صديقه بما صنعه الأجداد من إنجاز حضاري شامل، ويعدد عليه أوجهًا من ذلك الصنيع، ثم يدفع عن العرب قالة السوء، ويصفهم بأنهم مستعدون للحضارة، وفي طبعهم ميل كبير إلى الرقي والإفادة من تجارب البشر.

ويكتب في مناحي حياتية متعددة، عن الحج ومعناه السامي[3]، وعن التعليم وضرورة تطويره[4]، وعن العمل الدؤوب في سبيل تكوين مجتمع منتج[5]، وعن التقليد والتجديد[6]، وما إلى ذلك من قضايا يشعر كاتبنا المقالي أنها جديرة بقول الرأي، وحقيقة بالمعالجة والنقاش.

---

(١) مقالة : سارق الزهر، وسارق الحقل، سباعيات، جـ١، ص٦٥، منشورات جمعية الثقافة والفنون، الرياض ط١، ١٤٠٢هـ.

(٢) مقالة : ألم يأتك نبأ ما بنينا للحضارة، سباعيات، جـ٢، ص٥٥، منشورات تهامة، ط١، ١٤٠٣هـ.

(٣) مقالة : أهذه فكرة الحج الصحيحة، سباعيات، جـ٢ ص٤٣.

(٤) مقالة : يطبعونهم على إيثار وطنهم الأصلي، دعونا نمشي، ص٥٥.

(٥) مقالة : حرفة السباكة — وشبابنا، سباعيات جـ١، ص١٢.

(٦) مقالة : شبابنا والموضة، سباعيات، جـ١، ص١٢٩.

ويُعد السباعي من الرائدين في الدعوة إلى تعليم الفتاة، ومن الكتّاب المقاليين الأدباء الذي اجتهدوا في التعبير عن هذه الأفكار المتقدمة في وقت ما كان المجتمع يتسامح في قبولها، فكتب رامزًا باسم «فتاة الحجاز»[1] يطالب بتعليم الفتاة، وتثقيفها، واختلق ــ من باب الخيال ــ من يرد على مقالاته اسمًا غير حقيقي لفتاة أخرى، تقدم إليها الخطاب والطالبون ــ كما حدثني[2] ــ.

ثم إن السباعي يعد رائدًا في الدعوة إلى التثقيف عن طريق المسرح، فهو أول من دعا إلى إنشاء مسرح منظم، يقوم على أسس علمية، ويريد أن تُعرض على خشبته بطولات عظمائنا الفاتحين وفصول من تاريخنا الإسلامي، فاستقدم لطلبته مدرسين وخبراء في المسرح، وبنى لذلك ما يشبه المدرسة، وبجانبها المسرح، بقاعته للنظارة، وفي الصدارة مكان العرض على مرتفع واضح للمشاهدين، وقد أراني ــ رحمه الله ــ هذا المكان وشرح لي كيف سيتم العرض، وأشار إلى كرسي قديم، وقال : إنه من مقاعد كثيرة اشتريتها لهذا المسرح، وقد طال أكثرها العطب من تعاقب السنين !.

السباعي في ميزان النقد :

نلحظ في بعض أسلوب السباعي السهولة والرشاقة، وطلب العذب من الكلمات والمنغّم من العبارات، فتأتي الصياغة مُحدثة بعض التنغيم الموسيقي غير المتصل، لأنه لا يريد ذلك في كل حالة، ولا يتكلفه، أو يصطنعه، بل تأتي ألفاظه وعباراته وجمله ذخيرة قراءاته المختلفة في التراث العربي القديم، وفي أدب

---

(١) انظر : معجم الأسماء المستعارة وأصحابها، يوسف أسعد داغر، مكتبة لبنان، ط١، ١٩٨٢م، ص ١٥٧.

(٢) التقيت به في منزله بمكة عام ١٤٠٣هـ، وسجلت له حديثاً طويلاً في برنامج خاص عن جائزة الدولة التقديرية الأولى في الأدب، وكان واحداً من ثلاثة فازوا بهذه الجائزة، وهم حمد الجاسر، وعبدالله بن خميس، وقد التقيت بهما أيضاً، وسجلت لكل منهما حديثاً عن حياته وأدبه. وقد مُنح السباعي مع زميليه الجائزة أوائل عام ١٤٠٤هـ، وتوفي رحمه الله بعد ذلك بأشهر، في يوم الثلاثاء ١٤٠٤/١٢/١٦ هـ، وانظر مقالة : التوجه والاستقلالية في أدب الرواد بقلم صاحب البحث،، مجلة العرب، العدد التاسع والعاشر (الربيعان) عام ١٤٠٤هـ، ص ٩٢٦، السنة الثامنة عشرة، وهو عدد خاص بالجائزة.

العرب المحدث، بمدارسه المختلفة، من مهجريين، ومجددين في مصر، وسوريا ولبنان، وقد اتخذ السباعي لنفسه أسلوبًا خاصًا تميز به، وهو قائم ـــ في الكثير من مقالاته ـــ على المناداة والحوار، والتشخيص، وقائم أيضًا على الاندفاع خلف الفكرة في ملاحقة لأجزائها واعتماد على بعض الفكاهة واللطف في الإحاطة بالمعنى، إن كان في جد أو سخرية، أو شاعرية ذاتية.

ويرى الدكتور محمد الشامخ أن احتفال السباعي بالشكل لم يصرفه عن الاعتناء بالمضمون(١)، وهذا الرأي صادق في المضمون، أما الشكل فإن السباعي يركب عامي القول حينًا، وقد لا يُوفق في بعض أساليبه إذ إن عناية كاتبنا بالمضمون تفوق أحيانًا الشكل الأسلوبي للمقال، فالانسياق خلف الصور والمعاني ينسيه وظيفة الكتابة المقالية لتعوده عليها، ويظل المضمون هاجسه، يلاحقه إلى أن يحيط منه بما يريد في سهولة وحرص على الإبانة والتأثير.

على حين يوصف في كثير مما كتبه بالشاعرية(٢)، أي اللفظ الشاعري، والروح الوجدانية، والصور الخيالية المحلقة، وهذا غير مطرد في كتابته المقالية، فهو لا ينسى همه الاجتماعي الملح، وقد يعبر عنه أحيانًا في شيء من الذاتية الموحية، القريبة من خيال الشعر، وشفافيته العذبة.

أما المضمون فقد قدمنا طرفًا من قضاياه التي يطرقها، وهي قضايا تمس المجتمع في الصميم، وتعني كل مواطن يهتم بتقدم بلاده، وسمو وعي أهلها.

والسباعي في مصاولته النقدية هذه غير حاد، وغير متخل عن وحي العقل، من الرزانة والاتزان، فلم يخرج عن كثير من التقاليد المأثورة كما فعل العواد، ولم يُرد هدم قيم سائدة، ولم يتطرف في الدعوة إلى التأسي بكثير من مما لدى الغرب، ولم يأخذه العجب بالحاسر، أو المطربش، أو المبرنط، ولم يدع إلى نبذ الماضي والتنكر له.

---

(١) النثر الأدبي، ص١٣٠.

(٢) د. علي جواد الطاهر، مجلة العرب، عدد رمضان وشوال ١٤٠٥هـ، جـ٣، ٤، ص ١٨٣.ج

بل كان رائدًا في طلبه الجديد النافع، ورائدًا في خصوماته، ومثالًا للجهاد في سبيل المحافظة على كثير من المبادىء والقيم الرفيعة، كالأصالة، والصدق، وشرف الكلمة، والتطور في مجالي الحياة المختلفة.

٤ ـ عبدالكريم الجهيمان :

من أوائل المتعلمين في «المعهد العلمي السعودي» بمكة المكرمة، فقد تخرج فيه عام ١٣٥١هـ، وكان يشارك ـ في مرحلة الطلب تلك ـ بمقالات متفرقة في صوت الحجاز، وظهر في مقالاته إذ ذاك الأثر الديني القوي في الدعوة إلى المحافظة على القديم، وبث اللائمة في حق الذين يسرفون في قبولهم التجديد، وبخاصة ما اتصل منه بمفهومات الدين، أو أراد نقض ما انبنى من تقاليد عربية سامية.

ورأينا كيف كان موقفه من عزيز ضياء في دعوته إلى التجديد[١]، وكل ذلك يصور اتجاهه نحو إظهار القيم الدينية، وإقباله على فهمها ونشرها وتحبيذ الالتزام بها، وكان لعاطفته الشابة العنيفة أثرها في صلابته أمام معارضيه، ودفعه إلى توجيه اتهامات قد لا تكون صحيحة في حق بعضهم، كما فعل مع حسين سرحان على إثر مناوشاتهما حول «مشاهدات في المدينة المنورة»[٢].

---

(١) مقالة : بين القديم والجديد ـ رد على مقال، عبدالكريم الجهيمان، أم القرى، عدد ٦٢٨، في شوال ١٣٥٥هـ، ص٢. وانظر في هذا الكتاب، المقالة النقدية، ص٤٧٤.

(٢) انظر المقالات الآتية في ذلك :
مقالة : مناقشة لصاحب مشاهدات في المدينة، عبدالكريم بن جهيمان، صوت الحجاز، عدد ٢٣٥، في ١٧ رمضان، ١٣٥٥هـ، ص٤، عدد ٢٣٦، في ٢٤ رمضان ١٣٥٥هـ، ص٤.
مقالة : في المناوشات والمناقشات رد واستدراك، عبدالكريم بن جهيمان، صوت الحجاز، عدد ٢٣٨، في ١٥ شوال ١٣٥٥هـ، ص٤، وانظر في هذا الكتاب : مناوشات أدبية، ص٥٣٢.
مقالة : حول والمناقشات ـ رد واستدراك، عبدالكريم بن جهيمان، صوت الحجاز، عدد ٢٣٩، في ٢٢ شوال ١٣٥٥هـ، ص٤، وانظر في هذا الكتاب، ص٥٣٥،
المقالة النقدية : مناوشات أدبية.

ولعل هذا الاتجاه قد لازمه فترة من الزمن، ثم انقطع عن الكتابة في تلك القضايا المتصلة بالدين والعقيدة، وأثرهما على الإنسان، ولا نعلم متى توقف عن ذلك، وماهي أسباب هذا الانصراف، غير أنني بأسلوب الاستقراء للأحداث التي مرت به، أو مرّ بها واستشفافًا من حديث جرى معه[1]، رأيت أنه بدأ ينصرف عن اتجاهه السابق إلى اتجاهات أخرى برزت في مقالاته الكثيرة، فيما بعد، مثل الإحساس القوي بالوطنية، والتصدي لقضايا المجتمع بالنقد والمعالجة، وذلك بتأثير من اتصاله بمعارف أخرى مختلفة، وتجاوزه مرحلة الطلب الأولى المصاحبة لفترة اندفاع العاطفة وشبوبها، وتوقد أحاسيس المرء في العادة، سواء كانت هذه المشاعر تنحو إلى الدين، أو الوطنية، أو العمل، وما سوى ذلك مما يعتور الإنسان من اتجاهات تبدأ في التشكل ـــ عادة ـــ في السنوات الأولى من انقشاع المراهقة، وتقلص تأثيرها على نفسية الشاب وسلوكه.

وقد غلب على كاتبنا الإحساس الديني النقي، وملك عليه عواطفه، في المرحلة الأولى من عمره، وحين اتصل ببيئات ثقافية واجتماعية أخرى ابتدأ في الاتجاه إلى القضايا الاجتماعية، وخفت سلطة الشعور التقليدي السابق، وابتدأ يتخذ له شخصية أخرى مفتوحة على الثقافات، ومستعدة لاستقبال التغيير، ومسهمة في الدعوة إلى التجديد المنطلق من أصول ثابتة، وقيم معروفة.

وكان لنشأته في بيئة دينية، ولمعارفه في «المعهد العلمي السعودي» بمكة أثر كبير في تشبعه بقيم الدين الثابتة وأصالة التراث العربي، وحين انطلق فيما بعد كان لا يذهب بعيدًا عن الأصول الثابتة التي استقاها من نشأته الأولى.

ومن المقالات الطريفة ما كتبه عن هذه الأحاسيس الدينية الغامرة التي تعتوره، وتدفعه إلى الكتابة في القضايا المتصلة بها، فقد كتب رسالة صغيرة سمّاها «محاورة طريفة بين ذي لحية ومحلوقها» وذلك في الستينات الهجرية، ناصر فيها

---

(١) كان ذلك في منزله عام ١٤٠٢هـ، ثم عام ١٤٠٤هـ، وسجلت له حديثين إذاعيين، أحدهما ساعة كاملة في برنامج «بين ذوقين» والثاني خمس عشرة دقيقة في برنامج «بعد الافطار» والأول عام ١٤٠٤هـ، والثاني عام ١٤٠٦هـ.

أرباب اللحى، وأنحى باللائمة على حالقيها، وكان كما يذكر — تزين وجهه لحية سوداء كجناح الغراب، ويحدثنا عن قصة هذا التحول بإيحاء دقيق، حينما يقول «ودار الزمن دورته» و «طار الغراب وحط في الوكر غرنوق» كما يقول المثل الشعبي .. فما زالت تلك اللحية السوداء تعدو عليها عوادي الزمن حتى انقلب لونها إلى بياض .. وتآكلت بفعل الأيام .. أو بفعل شيء آخر لا أسميه، وبتأثير العدوى الاجتماعية التي عمت معظم أفراد الزملاء الذين كنت أعايشهم، حتى لم يبق من تلك اللحية ما يشفع لي بإعادة طبع تلك المحاورة !!»[(١)].

والذي يهمنا في هذه المقدمة إقباله على القضايا الاجتماعية بالنقاش والإثارة والمعالجة، فوقف إلى جانب الداعين إلى استثمار طاقات ابن البلاد بالتعليم والعمل ومنحه الثقة، وإلى جانب الداعين إلى تعليم المرأة وتثقيفها والاستفادة من قدراتها المختلفة، ثم دعا إلى الإفادة من ثروات البلاد في إنجاز الخدمات الضرورية وتوفيرها.

وهو في كل هذه الدعوات الاجتماعية لا يريد إيصالها في أسلوب عنيف يهدم ولا يبني، ويبعد ولا يقرب، ويفرق ولا يجمع، ويرى أن النقد الجارح لا يسمى نقدًا، بل هو نقص للصالحات من الأعمال «إن الإفراط مضر كما أن التفريط مضرة، فالاعتدال الاعتدال، يجب أن نفكر في البناء قبل أن نفكر في الهدم، ويجب أن نلتمس الحسنات قبل أن نجسم السيئات، ويجب أن نضع السلم قبل أن نحاول الصعود إلى أعلى ..

إن الصراحة لها حدود إذا جاوزتها عُدت وقاحة، والشجاعة لها حد إذا جاوزته عدت تهورًا، والفصاحة لها حد إذا جاوزته عدت ثرثرة، والنقد له حد إذا جاوزه عد تهجمًا ومهاترة .. »[(٢)] فالاعتدال — كما يرى — مطلب ضروري، واستعمال الحكمة خير من الاستسلام لسوء الظن، وسوء تقدير الأمور.

---

(١) مقدمة كتابه «دخان ولهب» ط٢، ١٤٠٧هـ، مطابع الفرزدق، الرياض.

(٢) مقالة : البناء لا الهدم، أخبار الظهران، العدد ١٣، في ١٤٧٤/١٢/١٥هـ. وانظر «دخان ولهب»، ص ١٢٣.

وقد التزم الكاتب في كثير من نقده الظاهرات الاجتماعية بهذه القيمة، ولم يبتعد كثيرًا عن الاعتدال في نظرته إلى نقائص المجتمع، وتقصير الأمنيات، وتأخر الإنجاز ــ آنذاك ــ على أن الجهيمان عُني بنقد الممارسة اليومية، والمطالب السريعة المنقضية، وقلّ في نقده التعرض للعادات، أو السلوك الاجتماعي، أو التيار المستمر من التقاليد والموروثات.

ولا يعني هذا أننا غير واجدين من ذلك شيئًا. بل إنني أريد أن أشير إلى كثرة مقالات الجهيمان في الشق الأول، وقلتها في الشق الثاني، ونلحظ أن كاتبنا ــ نتيجة لذلك ــ لا يجتهد في الصياغة الأسلوبية، ولا يسعى إلى الطراوة والتزويق والتجويد، بل يترك لنفسه الانطلاق خلف المعنى، متتبعًا إياه في تكرارٍ للفظ، وتأكيد على الفكرة، ناسيًا أثر اللفظة الأدبية المشرقة، والتركيب الأسلوبي المتماسك، والتصوير الخيالي والنفسي الشيق.

وإن هذا الضعف في هذا الجانب كان سببًا من أسباب ضعف تأثير مقالات كاتبنا، إلى كونها نافذة الفائدة في معالجاتها لموضوعات مستديمة وتنتهي باستكمال النقص فيها، وإصلاح الخطأ المنقود، أو توفير الخدمة لأبناء البلاد التي سعى إليها الكاتب.

ونكاد نجد صلة في الأسلوب والفكر بين عبدالكريم الجهيمان ومحمد سعيد عبدالمقصود، لولا أن الثاني كان أميل إلى نقد العادات والتقاليد، والأول أكثر صلة بنقد النواقص وإبانتها والمطالبة بإكمال ما تحتاجه بيئته منها.

أما الاثنان فغير بعيدين عن الأسلوب الذي تميل إليه الصحافة، وينهجه أكثر كتّابها، وهو اللفظة السهلة المفهومة، وعدم العمق في الفكرة، والسرعة في الصياغة، والابتذال ــ أحيانًا ــ في بعض الموضوعات.

وللتمثيل على ما كان يسعى الجهيمان إليه من التطوير لمرافق الخدمة في البلاد، وللحياة المتحضرة، ولوصول أبناء البلاد إلى المواقع التي تتيح لهم إبراز

مواهبهم، وتقديم عطائهم، نراه يدعو إلى استغلال ثروات البلاد[(١)]، ويطلب إيجاد مدارس صناعية تخرّج المهنيين والحرفيين[(٢)]، وينقد تخفي المرأة خلف الأسماء المستعارة[(٣)]، ويعيب على من يرى العيب في نشر اسم المرأة في الصحف.

ودعا في جرأة إلى تعليم المرأة[(٤)]، والارتفاع بمفهوماتها في الحياة، لكيلا يلجأ الشاب إلى طلب يد امرأة أجنبية، لأنها إن كانت متعلمة استطاعت أن توجه النشء توجيهًا صحيحًا، «وأن تغرس بذور الخير في نفسه من نعومة أظفاره، وأن تنشئه تنشئة صالحة في جسمه وخلقه، وفي تفكيره ونزعاته .. وأما إذا كانت جاهلة فإن أولادها يبقون في مهب الريح تتجاذبهم تيارات كثيرة وتعترضهم في حياتهم نوازع الخير والشر، وليس لهم ما يميزون به بين هذه وتلك فيبقون مذبذبين متحيرين وغالبًا ما تتغلب عليهم نوازع الشر، لأن لها مغريات يدفعهم إليها سن الشباب ونزواته .. »[(٥)].

وغير خاف أننا لن نجد في مثل هذا الأسلوب الصحفي السريع لفتات جمالية، من إشراق في العبارة، وإيحاء في الصورة، وروعة في السبك.

وكثيرون من كتّاب المقالة الاجتماعية يقصرون دون بلوغ غايات المقالة الأدبية، بما فيها من سمو في التعبير، ورقي في الخيال، وقوة في اللفظ، وتماسك في الجمل، وتأثير في نفسية متلقيها. وربما حدث هذا القصور للتسرع في الكتابة، ولقلة الاهتمام بأمور الأدب، وألوان الأسلوب، ولمطالب الصحيفة اليومية أو الأسبوعية المتعجلة، ولأن الموضوعات الاجتماعية النافدة لا توازن بالمعاني

---

(١) مقالة : الغذاء والكساء، أخبار الظهران، العدد ١٩، في ١٣٧٥/٣/١٥هـ، وانظر كتابه «دخان ولهب» مطابع الفرزدق، الرياض، ط٢، ١٤٠٧هـ، ص ١٩٣.

(٢) مقالة : نريد مدارس صناعية، أخبار الظهران، العدد ٢٠، في ١٣٧٥/٣/٣٠هـ. وانظر «دخان ولهب»، ص١٧٥.

(٣) مقالة : الأسماء المحظور نشرها، كتابه «آراء من الشعب» ص ٢١٩، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٣٨١هـ.

(٤) مقالة : نصفنا الآخر، أخبار الظهران، عدد ٤٢، في ١٣٧٥/٦/١هـ.

(٥) مقالة : حلوا هذه المشكلة الاجتماعية، أخبار الظهران، عدد ١٨، في ١٣٧٥/٣/١هـ.

الفكرية أو الأدبية المستمرة والباقية، وكاتب الأولى ملحوق مهلوف على النظر في مطالبه المتعجلة، وكاتب الثانية متأن متأمل لا ينظر شيئًا عاجلًا، بل يرى أنه يمتد في أفكاره ومعانيه إلى آماد زمنية طويلة.

وبعد : نرى أن عبدالكريم الجهيمان مرّ بفترة تحولية في معالجاته النقدية، وأنه أسهم في النقد الاجتماعي بنصيب وافر، ولولا انصرافه في الثمانينات الهجرية ــ أي بعد نظام المؤسسات الصحفية ــ فيما أرى إلى دراسة التراث الشعبي من الأساطير والأمثال[١] ــ لكان إسهامه في النقد الاجتماعي أكثر وفرة وأهدأ حدة.

وتبين أثر الصحافة في أسلوبه، وقلة اللفتات الأدبية الجمالية في مقالته بوجود الأثر السابق الذكر.

٥ ــ عبدالله بن خميـــس :

ينتمي عبدالله بن خميس إلى مدرسة الأصالة في الشكل والمضمون، فهو يتأسى التيار القديم في النثر، ويختار من جيده ما يقوّم به أسلوبه، ويضيف إلى هذا ما يصطفيه ذوقه من إبداع المحدثين الميالين في أساليبهم ومضامينهم إلى إشراق اللفظ، وقوة السبك، والمحافظة على قيم التراث العربي، والناشدين رفع لواء الأخلاق والمُثل الدينية، فهم في واقع الأمر قديمون لبسوا لباس العصر، وهم أيضًا نبتة شربت من ينابيع القرنين الثاني والثالث الهجريين، عصر البيان، غير أنهم يعيشون أحوال هذا العصر وشئونه وقضاياه، ومن بيئتهم القديمة التي انشدوا إليها، وتأثروا بها، واستسقوا منها طريقتهم في الكتابة يرون مدارس الأدب المحدثة وأساليب الأدباء الجديدة، ويأخذون منها ما يتفق مع أسلوبهم المحافظ.

وإذا قلنا إن في مقالات عبدالله بن خميس روحًا من أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فلن نجانب الصواب، وإذا قلنا إن في أسلوبه شبهًا مما ينحو إليه ابن المقفع أو أبو حيان التوحيدي فلسنا مجانفين الصواب.

---

(١) صدر له «أساطير شعبية من قلب جزيرة العرب في أربعة أجزاء، والأمثال الشعبية في قلب جزيرة العرب «في عشرة أجزاء». وكلاهما أخرج في طبعات متعددة.

هذا في القديم .. أما في عصرنا هذا فلا يبعد كثيرًا عن تأسيه بأستاذه أحمد حسن الزيات، صاحب الرسالة ووحيها، بل إنه يزيد عليه في كثرة انصرافه إلى القديم، وامتياحه من تراثه اللفظي، وقاموسه المفرداتي ما يميل بكفته إلى الماضي أكثر من ميلها إلى الحاضر.

وابن خميس لا ينكر اقتداءه بالزيات، ولا يخفي إعجابه به، وتأسيه بجمال أسلوبه، وروعة تصويره أفكاره، إذ يقول — حين رثاه — «إن الصلة بيني وبين الأستاذ الزيات قديمة تنيف على خمسة عشر عامًا، وهي صلة قراءة لا صلة لقاء، وصداقة أدب لا صداقة أرب .. لقد كانت رسالة الزيات هي هوايتي المفضلة وصديقتي من بين سائر الصحافة، وأستاذي الأول والأخير في تكوين قلمي العاجز»[١].

وقد أعجب به لأنه صاحب أعظم ديباجة عرفها هذا العصر — كما يقول — وأقوى أسلوب كتب به كاتب، وأحكم سبك سار به قلم منشيء، وأسلم بناء وضعه أديب، ولأنه يمتح من التراث العربي أجمل ما فيه من لفظ، وأقوى مافيه من معنى، ثم هو يدافع عن هذا التراث ويحميه بقلمه وبفكره، وابن خميس ليس بعيدًا عن هذا التيار، إذ يلتقي مع أستاذه في الإعجاب بالماضي، والدعوة إلى احتذاء رائعه، وإنكار العجمة والضعف والركاكة في أساليب المحدثين من كتّاب هذا العصر، والوقوف في وجه دعاة العامية والمنكرين الفصاحة العربية، والمقللين من شأن العربية وإحاطتها بشئون الإنسان وقدرتها على التعبير عن قضاياه.

وقد أسهم عبدالله بن خميس في النقد الأدبي[٢] والنقد الاجتماعي[٣]، وانصرف في السنوات الأخيرة — بعد التسعينات الهجرية من القرن الماضي — إلى

---

(١) مقالة : مات الزيات، مجلة الجزيرة، عدده، السنة الثانية، ربيع أول، ١٣٨١هـ، ص٣٧.

(٢) انظر كتابه : «من جهاد قلم» جـ١ في النقد، طـ١، ١٤٠٢هـ، مطابع الفرزدق بالرياض، ويجمع هذا الكتاب نخباً مختارة من مقالاته الأدبية النقدية.

(٣) انظر كتابه : «من جهاد قلم» جـ٢ فواتح الجزيرة، طـ١، ١٤٠٤هـ، مطابع الفرزدق، الرياض، وجمع فيه الكاتب أبرز مقالاته في النقد الاجتماعي، غير أنه لم يوثق ما نشره في هذين الكتابين، بإرجاع كل مقالة إلى مصدرها الأول.

البحث العلمي في اللغة وجغرفة المواقع، ودرس التراث الشعبي، وانصرف عن اهتمامه بالمقالة النقدية في الأدب والمجتمع، وقد علل ذلك باليأس من جدوى الكتابة في القضايا المتصرمة، وبأن البحث العلمي أبقى وأبعد عن تلك الإشكالات التي تثيرها المقالة النقدية بعامة، وبأن الفترة التي تلت إيقاف مجلة الجزيرة تختلف اختلافًا كاملًا عن الفترة التي عاشت فيها المجلة، والتي سبقتها.

وتبينت حاسة النقد الاجتماعي القوية عند ابن خميس أول الأمر في مجلة اليمامة الشهرية، ثم تأكدت في قوة واندفاع عجيبين حين أنشأ مجلة الجزيرة، وكتب افتتاحيتها معالجًا أبرز ما يحفل به مجتمعه من قضايا التحول في الاقتصاد والاستهلاك، والتعليم، والإنتاج، والرفاه، والشباب، وما إلى ذلك، وكتب في السياسة العربية، وقضايا العرب العامة.

القضايا الاجتماعية في أدبه المقالي :

تناول كاتبنا أدق ما يحفل به مجتمعه الصغير المحيط به من حوله، ومجتمعه العربي الكبير، وأثار ما يدور في الأذهان من أسئلة حول إشكال الواقع، وطموح المستقبل، وسبل النجاح في تخطي العقبات وتجاوز الصعوبات، في الوحدة، والتضامن، والقضاء على عوامل الفرقة والاختلاف، وفي البحث عن مكامن القوة في المجتمع، والتنبيه على أسباب ضعفه وهوانه.

فهو يتساءل عن ثروة العالم العربي أين تذهب، وطاقاتها أين تهدر ؟! ويجيب على تساؤله بأنها تنفق — في الغالب — في وجوه غير ما ينبغي لها، وفي دروب لا يحسن أن تصرف فيها، ويشتد باللائمة على من يهدرون هذه الأموال في وجوه غير نافعة وفي دروب السفاهة والمجون، في وقت يحسن أن نجمع فيه قدراتنا لنواجه أعداءنا، ونقيم بنياننا، مستغنين عن منة يمنها علينا الآخرون بالعون والمساعدة، ومنصرفين عن مد يد الحاجة إلى مشورة أو تخطيط، ممن لا نأمن لهم جانبًا ولا نطمئن إليهم في مشورة «إن العالم العربي اليوم قد فتح عينيه بعد نوم عميق على تركة مبعثرة وشلو ممزق .. فتح عينيه على استعمار — يجثم على صدره — ويسيطر على جميع قدراته، ويشيع في جسمه أفتك الأدواء، وأنكى

الجراح التي تحاول القضاء على كل المميزات الروحية والأخلاق الوطنية، فتح عينيه على أعداء الإنسانية الثلاثة تعشعش وتفرخ بين ظهرانينا، وتفتك في جسمه بلا وازع ولا رادع .. إن هذا الوضع ليقتضي كل فرد من أفراد الأمة العربية تضحية وجهادًا وبذلًا، إنه لفي حاجة إلى استغلال كل طاقة من قلب العالم العربي، وتسخيرها من أجله، في حاجة إلى الضرب على أيدي السفهاء الذين جعل القدر في أيديهم جزءًا هامًا من إمكانياته، فولوا ظهورهم واقع أمتهم المؤلم واندفعوا وراء شهواتهم وملذاتهم ينفقون في سبيلها بسرف، ويسخرونها في سبيل الشيطان بلا حياء ولا تستر .. »[1].

ويدعو إلى حفظ ثروة العالم العربي من الضياع والإهدار، وعدم تصريفها في وجوه لا فائدة فيها، من ترف غير مجد، وتزيد في المتع غير لازمة، ومباهاة في المظاهر لا طائل من ورائها.

وحين دارت النقاشات في أوائل الثمانينات من القرن الهجري الماضي حول استفادة بلادنا من الزيت نشرت مجلة الجزيرة استفتاء طويلًا حوله، وأسهم فيه أكثر كتّاب البلاد بآراء تقوّم، ومقترحات تطوّر، وكان لابن خميس في هذا الاستفتاء فضل الإثارة والمناقشة، وله رأيه في ما بلغته البلاد من تطور وتقدم، وما يحسن أن تتقدم إليه بما أتيح لها من موارد ونعم كبرى، وما يجدر أن تتخلص من أوضاره، من كسل في الإنتاج — آنذاك — ومن خمول في استثمار الزراعة، وانصراف عن التصنيع، فالبلاد كانت قبل الزيت معتمدة على نفسها في مواردها، وكانت «تمتاز بطابع البساطة والتقشف، وكانت تعتمد على زراعتها في أكثر ما تطعمه، وعلى صناعتها في بعض ما تلبسه وما تحتاج إليه، وكان مظهر الجد والعمل والمنافسة في سبيل العيش هو المظهر السائد لدى عموم الطبقات .. »[2] ويعاتب فئات المجتمع على اكتفائها من هذه الثروة بما يزيد رفاهها، وما يدفعها إلى

(١) مقالة : أين تذهب ثروة العالم العربي، مجلة الجزيرة، العدد ٦، السنة الرابعة، جمادى الأولى ١٣٨٣هـ، سبتمبر ١٩٦٣م، ص٣.

(٢) مقالة : بلادنا والزيت، مجلة الجزيرة، عدد٦، السنة الثانية، ربيع الثاني ١٣٨٠هـ، سبتمبر ١٩٦٠م.

الاستهلاك، دون الإنتاج، وإلى الاستيراد دون التصدير، وإلى القعود دون العمل «وكفى الأمة انحطاطًا أن تفقد مقومات شخصيتها وصفات حياتها، ولو سكنت ناطحات السحاب، وامتطت المراكب الفارهة، وانغمست في ملذات المدنية وأرائك الترف .. فإنها قشور يأتي عليها يوم فتذهب، لتعود الأمة تفتش عن ذاتها، وتبحث عن مقوماتها فلا تجدها .. وهل النهاية إلا ذلك ؟!»(١).

وقد أثمرت هذه الدعوات بفضل الله في الاستفادة من هذه الثروة، واستغلال كثير منها في رقي البلاد، وإقامة مشروعات صناعية وزراعية كبيرة، والتخطيط لمستقبل حضاري شامل في كل الأقاليم، وإن الذي يلفت تنبه الباحث إلى مثل هذه الدعوات إحساس كتّابنا المقاليين بها، وصبرهم على معالجتها، وانتظار ما تنتجه مداورتهم لها من نتائج حسنة يسعون إليها، فيرون بعضها يظهر، وينتظرون أحيانًا على مضض، ويطول ببعضها الانتظار.

وإن الذي يبكر بظهور ثمرة الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي في كل جوانبه نضج الشعب ــ كما يرى ابن خميس ــ فعليه المعول في تقبل الأفكار الإصلاحية، ومعاونة الجهاز الرسمي في تنفيذ ما يصلح منها، وما تستدعيه الحالة الاجتماعية، وإذا سعى الكتّاب والمصلحون والقادة إلى تحقيق غاياتهم البنائية دون الالتفات إلى هذا النضج المنشود فإنهم مسرفون في تفاؤلهم، ومنساقون وراء عاطفتهم الوطنية، من غير شعور بضروة هذا الوعي المفقود في المجتمع، وإلا لوجدنا لبعض ما يتبناه المصلحون من دعوات، وما يدعون إليه من إصلاح، وما يذيبون فيه من مهج، وما يعصرون فيه من أفكار، لوجدنا له آثارًا ملموسة، ونتائج محسوسة، وتجاوبًا مع من يخاطبونهم .. بدلًا من أن يذهب هذا صرخة في واد ونفخة في رماد»(٢). وكأن عبدالله بن خميس يومىء إلى بطء استجابة من حوله من قرائه ومتلقيه لدعواته في إصلاح كثير من الخطل في الواقع

---

(١) مقدمة كتاب «بلادنا والزيت»، عبدالله بن خميس، وأسهم في الاستفتاء نخبة مختارة من الكتاب السعوديين، سلسلة كتاب الشهر، النادي الأدبي بالرياض ط١، جمادى الأولى ١٣٩٩.

(٢) مقالة : نضج الشعب أولاً، مجلة الجزيرة، عدد ٣، السنة الثانية، محرم ١٣٩٨٠هـ، يونية ١٩٦٠م.

الاجتماعي، والتنبيه إلى كثير من التأخر في وجوه الحياة، وهو يعترف بأن الوعي الاجتماعي الناتج عن نضج الشعب لا يأتي بداهة ولا عفوًا، وإنما «يُنشأ كما ينشأ الطفل في الحلية، يحتاج إلى زمن، وإلى مزيد من عناية ورعاية، وإلى رياضة طبع، وإلى خطة تربوية سليمة .. ومع توفر مقوماته الصالحة، فله عمر لا يقاس بأعمار الأفراد، ولابد إذا سلكت الأمة (أية أمة) السبيل الصحيحة لتنشئة الوعي بها، أن تمر بأدوار وأطوار، وتواجه متاعب وصعاب، قبل أن تبلغ درجة تشعر فيها بنضج وعيها وتكامل يقظتها»[١].

ويدعو إلى إحساس[٢] بالكرامة، وتقدير للعزة، وإجلال للأنفة، فلا يهين الإنسان نفسه بالاستذلال، ولا يركب طرق الضعة والضعف للحاجة، وفرق كبير بين المجاملة والتقدير، والنفاق والاحترام، ومن كمال خلق ابن العربية وابن الصحراء أن يكون صادقًا في غير مجازفة، صريحًا في غير إحراج، شجاعًا في غير تهور.

ويسهم كذلك في عرض الحلول لبعض ما يعانيه المجتمع من نقص وما يفتقر إليه من أوجه الإكمال والبناء، فيتوقف عند هموم إنسان يتطلع إلى حياة جديدة ناضجة، وأمامه الميدان فسيحًا يتسابق فيه الفرسان، غير أنه تقعد به هنات الماضي، ويثبطه وعي لم يكتمل، وإحساس بالحياة لم يقو بعد. وكثير من تلك الهموم اندثر وتوارى مع إثمار دعوات المصلحين عن نتائج تقدمت بالمجتمع في مدارج الرقي أشواطًا وقليل منها لا زال في طور المعالجة والمعاناة.

ونستطيع أن نذهب إلى أن خير ما يمثل المقالة الأدبية الاجتماعية في قوة عاطفتها، وصدقها، وشبوبها، وجمال صياغتها، وتماسكها، وروعة بيانها مقالة عبدالله بن خميس الاجتماعية، فقد عبّرت عن أحلام وأماني كانت تراود الإنسان في قلب الجزيرة العربية، والإنسان في الوطن العربي، وصاغ تلك القضايا بأسلوب

---

(١) انظر مقالة كتاب «بلادنا والزيت» عبدالله بن خميس، ص٧.

(٢) مقالة : الكرامة. قبل؟!.. مجلة الجزيرة، عدده، السنة الرابعة، ربيع الثاني ١٣٨٣هـ، أغسطس ١٩٦٣م ص٣.

جزل فيه اللفظة ينتقرها من قاموس عربي ثري، وفيه الجملة القصيرة الموقعة، والترادف المغني للمعني، والانتقال السهل الميسور من فكرة إلى أخرى، ومن امتياز ابن خميس في هذا قدرته على تغيير طريقة معالجته المقالة في البحث، وفي الفكرة السريعة الخاطفة، نجده في كل ذلك يميل إلى المتانة والفصاحة، والتأنق والروية(١).

جـ ـ نماذج من المقالة الاجتماعية :

اتخذ الكتّاب المقاليون من المقالة وسيلة للنقد، وأداة للإصلاح، وتميزت المقالة الأدبية باستيعابها قضايا المجتمع، وتصويرها طموحات الإنسان في شبه الجزيرة العربية، وما يعانيه في سبيل وصوله إلى الحياة التي يحلم بها.

على حين لم تصل الأنواع الأدبية الأخرى كالشعر، والقصة مثلًا إلى ماوصلت إليه المقالة في هذا المجال، وتكاد المقالة تكون المصدر الشامل المصور للقضايا الاجتماعية والأدبية والسياسية، وفي إمكان الباحثين والدارسين أن يتعرفوا من خلالها على الأنماط المختلفة في التفكير، وعلى المستوى الاقتصادي والإنتاجي السائد آنذاك، وعلى الرؤية النقدية لألوان الأدب التي كانوا يكتبونها في تلك الفترة.

ولم ينحسر دور المقالة الاجتماعية والنقدية إلا في الفترة المتأخرة من القرن الماضي، بعد نظام المؤسسات، وقبل العشر الأخيرة من ختام القرن الرابع عشر، إذ زحمت المقالة أنواع أخرى من المؤثرات كوسائل الإعلام المتعددة، وانصرفت المقالة إلى قضايا علمية وصحفية مختلفة، وانشغل كتّابها السابقون بما جدّ من أمور طارئة، ونظم جديدة، فقل ذلك التأثير الذي كانت تحدثه المقالة في المجتمع.

---

(١) انظر مقالة : الحركة الأدبية خلال نصف قرن ١٣٥٠هـ، ١٤٠٠هـ، عبدالله الحامد، مجلة الفيصل، عدد ٨٨، شوال ١٤٠٤هـ، ص ٦٨.

وقبل أن أعرض القضايا البارزة التي عالجتها المقالة أشير إلى ثلاثة أمور ممهدة للدخول في الموضوعات، ومصورة لأهمية النقد في بناء المجتمع، وإحساس الأدباء بالصلة الوثيقة التي تربط أدبهم بواقعهم، وتقويم هذه الصلة بين الأدب والواقع، وهل كانت لها الجدوى المرجوة منها ؟!.

١ ـ ضـرورة النقـد :

دعا كتّاب المقالة إلى النقد، ورأوا أنه رافد مهم لتطور الحياة، وللوصول بها إلى ما يحقق الغاية المثلى منها، من كرامة الإنسان، واحترام مشاعره، وتأصيل قيمه الفاضلة وإحلالها المنزلة الرفيعة في السلوك قولًا وعملًا.

والحق أن النقد ـ في كل مجال ـ ضرورة لابد منها لتقويم ما اعوج، وإعادة ما اشتط إلى السبيل الصحيح، وإكمال ما نقص من فكر ورأي ومشورة، وبالنقد تتجلى قدرة الإنسان العقلية على الإفادة من موهبته الخاصة في التفكير والابتكار والتصور، وبالنقد أيضًا يخطو الإنسان في طريق الحياة الطويل، وسلم الحضارة الشاق خطواته التأسيسية التي توصله إلى ما يراه حقيقًا به من اعتقاد ومسلك.

ولنا أن نتصور بيتًا صغيرًا أهمله الأبوان فعاث الأطفال فيه لعبًا وبعثرة وتقليبًا، كيف يكون الحال في هذا البيت من ارتباك وفوضى وسوء منظر وربما كسر وتمزيق وإفساد، وقد يكون هذا العبث صبيانيًّا طائشًا غير أنه مؤذ، مخرب، وكذلك مجتمع لا يؤدي النقد فيه أغراضه، أو لا يصل فيه النقد إلى تحقيق أغراضه، إما لعدم قناعة المجتمع نفسه بضرورة النقد، أو لانكفاء القادرين فيه على أنفسهم وشعورهم باليأس من الإصلاح، وإحساسهم القانط بفشل الكلمة في ذلك، أو لوجود موانع أخرى كثيرة ومختلفة يصعب حصرها.

وقد شعر كتّاب المقالة بأهمية المقالة الاجتماعية الناقدة، وفهمها بعضهم على أنها ليست «جرحًا للحيثيات، ونيلًا من الكرامات»[١] بل هي كشف للسوءات في غير تجريح، وإبانة للحق في غير مصادمة خاسرة، وسعي إلى الإصلاح بالطريق الحكيمة المتفقة مع ما يوحي به العقل من أناة وبصر ورفق في قول كلمة الحق.

ويدعو عبدالوهاب آشي إلى شيء من ذلك، ويرى أنه من الخير أن «نطلق للباحثين حريتهم، وأن نطالبهم بتوخي الحقائق، المدعمة بالحجج والبراهين في بحوثهم، وبالتزام آداب المناظرة، والاجتماع في أقوالهم وكتاباتهم»[٢].

ويرى آخر أن الضعف الفردي والجماعي ثمرة لفقدان النقد، فيشير من رمز لنفسه «ط» إلى أن أدواء المجتمع ومشكلاته لن يحلها ويخفف من أضرارها إلا النقد النزيه، فهو البلسم الشافي، وهو أيضًا «بما يستلزمه من صراحة وجرأة عادلة مقوض للعادات السيئة، ومحطم للتقاليد الجائرة، أساسه القوي الإخلاص للمبدأ الشريف، أما غايته التي يرمي إليها فأبعد من الإدراك وفوق الحصر[٣].. »، والأمة التي تدرك ضرورة النقد وتؤمن به تسعى إلى الكمال، وتسير في طريق الرقي، أما الأمة التي تضيق بالنقد، وتقلق منه فلن تتقدم بها الحياة، لأنها تخشى من كشف خطاياها، وتأبى الاعتراف بأوجه نقصها. ثم إن النقد غير الخصام، والنقد غير الإساءة، والنقد النزيه دعامة من دعائم الحياة، ومن أقوى عوامل تنظيم المجتمعات وتوجيهها إلى الكمال الإنساني[٤].

---

(١) مقالة : علام نخش (النقد)، عبدالوهاب آشي، صوت الحجاز، عدد ١٨٤، في ٣٠ شعبان ١٣٥٤هـ.

(٢) المقالة السابقة.

(٣) مقالة : النقد وأثره في تكوين المجتمع، وقعت بـ «ط»، أم القرى، عدد ٦٤٨، في ٢٦ صفر ١٣٥٦هـ، ص٣.

(٤) المقالة السابقة.

٢ ــ صلة الأدب بالحياة :

ورأى كتّاب المقالة أن الأدب لا بد أن يكون وثيق الصلة بالحياة، يستمد منها معانيه، وأفكاره، ويستلهم من أحداثها وقضاياها صوره وخيالاته العميقة، فليس الأديب الملتزم الذي يكتب أدبًا يقود الأمة إلى الخير بمعزول عن واقع أمته، ولا ببعيد عن همومها، ولا بالأديب المنصرف عن الواقع إلى الخيال الفردي يهوم فيه وينسج من خيوطه صوره الغامضة ولا يقدم لأمته مايبذله ذلك الأديب المعني بتصوير الطموحات والأحلام والأماني لمن حوله، واستشراف المستقبل المضيء للإنسانية، وإحياء القيم الخيّرة، ومحاربة الرذائل العامة، كالتسلط والأنانية المقيتة، والظلم، والشره، وإفساد العادات الصالحة في المجتمع.

ويرى محمد حسن عواد أن الحياة «هي المصدر والينبوع، والأدب هو النتائج والثمرة، الحياة هي المادة والروح، والأدب هو الصورة والمرآة، الحياة هي الحياة وكفى، والأدب ترجمانها في الوجود، وكل أدب لم يكن كذلك فهو أدب مشوه ممسوخ، بل هو حري ألّا يسمى أدبًا، لأنه لا يمت بأي نسب أو قرابة إلى معدن الأدب الصحيح»(١).

أما حسين سرحان فيذهب إلى أكثر من ذلك، فهو لا يقيم وزنًا ولا يفهم معنى للأدب مالم تقو وشائجه بالحياة، ويندمج فيها اندماجًا كليًّا،، «حتى يتبطن أسرارها، ويستعرض صورها في أتم ما تكون من الجلاء والوضوح، وحينئذ يكون الأدب قد أدى رسالته السامية كما يجب أن تؤدى سالمة من شوائب السخف والغثاثة والتخليط»(٢).

ولذلك عُني كثيرون من كتّاب المقالة في الأدب السعودي بقضايا مجتمعهم انطلاقًا من هذا المفهوم، وتصدوا لمعالجة مايرونه حقيقًا بذلك، ويقدمون آراءهم

---

(١) مقالة : الأدب والحياة، محمد حسن عواد، صوت الحجاز، عدد ٥، في ١٣٥١/١/٣هـ، ص٤.

(٢) مقالة : صلة الأدب بالحياة، حسين سرحان، صوت الحجاز، عدد ١٨١، في ٨ شعبان ١٣٥٤هـ، ص١.

في مشكلاتهم الحياتية، بصور مختلفة من النقد والتقويم، فيها العنيف وفيها الهادىء، وفي كل ذلك تصوير واضح لما كان يختلج في نفوسهم من نوازع، وما كانت تضطرب به عقولهم من أفكار، فجاءت المقالة الاجتماعية كاشفة نتيجة هذا الفهم، وناقلة طريقتهم في التفكير ومبلغ وعيهم بقضايا مجتمعهم وفي هيئة من الشكل النثري السهل القريب من التذوق العام، والبعيد عن الاستعصاء والإعسار.

٣ ـ هل أفاد الأدب ؟ :

ولإيمان أكثر كتّاب المقالة بأهمية الصلة بين الأدب والحياة، اختلفوا في تأثير الأدب على حياتهم الاجتماعية العامة، وعلى مدى إسهامه في تطور المجتمع، والتقدم به في وجوه الحياة المختلفة.

فمنهم من يرى أن الأدب كان خير معاون على رقي المجتمع، والانتقال به من طور البلادة والانتظار إلى مرحلة العمل والعطاء، وكان لأدباء المقالة أنفسهم فضل كبير في ذلك، بما ناقشوا من قضايا، وما أثاروا من أسئلة، وما قدموا من أفكار ومن يذهب إلى هذا الرأي، عبدالله عريف[١]، ومحمد حسين زيدان[٢]، ومحمد عمر عرب، وأحمد عبدالغفور عطار[٣]، ومحمد حسن فقي[٤].

على حين يرى آخرون، ومنهم محمد عمر توفيق[٥] وطاهر زمخشري[٦] أن الأدب لم يسهم الإسهام المرتجى منه، ولم يؤثر التأثير المطلوب في إيقاظ

---

(١) مقالة : التطور الاجتماعي في بلادنا ..!، مجلة المنهل، عدد ذي القعدة وذي الحجة ١٣٦٨هـ، (عدد ممتاز)، ص٤٨٣.

(٢) ندوة : هل استفدنا من الأدب، عدد ربيع الثاني ١٣٦٧هـ.

(٣) مقالة : هل أفاد الأدب؟ المنهل، عدد جمادى الأول، ١٣٦٧هـ.

(٤) مقالة : من مظاهر التطور في حياتنا الاجتماعية، المنهل، عدد ذي القعدة وذي الحجة، ١٣٦٨هـ.

(٥) مقالة : هذا الأدب، المنهل، عدد رجب ١٣٦٧هـ.

(٦) مقالة : هزيمة الأدب، البلاد السعودية، عدد ٨٥٤، في ٢٦ ذي القعدة ١٣٦٨هـ.

الوعي، وتنبيه حواس المتلقين إلى ما يتقدم بهم في جوانب حياتهم المختلفة، من حيث العادات، والتعليم والإنتاج وغيرها.

ولاشك أن هؤلاء يطلبون من الأدب أكثر مما قدمه، ويسرفون في أمانيهم باستخدام الأنواع الأدبية كافة في معالجة القضايا الاجتماعية وغيرها، ويبدو أنهم مقتنعون بأثر الأدب في ذلك، غير أنهم يسعون إلى أن تكون آثاره أكثر وضوحًا وجلاء.

ونجد أن نفرًا من الأدباء يعترفون بما وصل إليه المجتمع من تطور ونماء، وما أسهمت به الأنواع الأدبية في هذا التطور من تنبيه وترشيد وتوجيه، واستشراف للمستقبل، وتصوير للأحلام وأن هذه البلاد محط أنظار المسلمين، وإليها يتجهون في لقائهم بربهم فلابد أن تكون على خير ما يتصوره المصلحون من تطور وتقدم في المرافق شتى، وفي الميادين كافة.

ومن هؤلاء المتفائلين بإسهام الأدب، وتأثير المقالة الأدبية في معالجة هذه الشئون، محمد حسن كتبي[1]، وعبدالقدوس الأنصاري[2]، وغيرهما.

أولًا : الدعوة إلى النهوض :

أحس الأدباء الناشئون بعد العقد الرابع الهجري من القرن الماضي بوطأة التخلف في أكثر جوانب الحياة، كالتعليم، والوعي، والزراعة، والصناعة، وقبل ذلك الوحدة السياسية والاجتماعية، وكان هؤلاء الشباب يبحثون عن منافذ النور، ويتلمسون طريقهم في مجتمع مغلق ليس له هوية، وعبّروا عن رغباتهم في الانتقال بمجتمعهم من هذه الرقدة إلى صحوة يتنبه فيها لقدراته وثرواته وطاقات أبنائه، فجاءت مقالاتهم معبرة عن هذه المشاعر الدافقة الفياضة بالشكوى المرّة، والأمل الوامض، وانتظار الأحلام، وكان أسلوبهم في تصويرهم لما تجيش به نفوسهم وليدًا

---

(١) مقالة : دعوة إلى إعادة الحضارة من مهبط الوحي، المنهل، عدد صفر ١٣٦٦هـ.

(٢) مقالة : تطور، المنهل، عدد ذي القعدة، ١٣٧٦هـ.

كذلك الوعي الوليد في دواخلهم، فلم تتضح فيه خصائص البيئة، ولم تظهر فيه علامات للتميز والإبداع، واختلط في التأثير عليهم ما قرأوا من آداب عربية في مصر وسوريا ولبنان، ومن آداب المهجر، وما تلقوه من التراث العربي القديم، فكانت المقالة في العقد الخامس تصور معظم هذه الآداب التي استقوها وتأثروا بها.

غير أن اللافت للانتباه قدرتهم على انتشال ذواتهم من وهدة واقعهم الاجتماعي والتعليمي المتخلف، وإصرارهم على طلب الحياة المتحضرة الواعية، وبحثهم عن الفكر الجديد، والأسلوب الجديد، مما نتج عنه تميز المقالة الأدبية فيما بعد، في منتصف العقد الرابع وما بعده، حيث بدأت النزعات الذاتية القوية في الظهور، واتضحت دلائل التفرد بأسلوب خاص، وطريقة خاصة في كتابة المقالة لدى كثيرين منهم، كحمزة شحاته، وحسين سرحان، ومحمد حسن عواد، وعبدالقدوس الأنصاري، ومحمد سعيد العامودي، وعبدالوهاب آشي، وأحمد السباعي، وغيرهم.

وكثير من المقالات جاء يحرّض على الوعي، ويدعو إلى اليقظة، وينادي بإدراك علوم العصر، واطراح معوقات النهضة، من الجهل، والتواكل، والخلاف، والتعصب للماضي، وإهمال وسائل الإنتاج، ومعابة مزاولة بعض الأعمال الحرفية، والمباهاة، واليأس.

وكانوا في غاية الصراحة والوضوح حين اعترفوا بمناقصهم، ودعوا إلى معالجة أسبابها، وكأنهم يقولون إنه لابد من هذا الاعتراف الموجع كي يكون الإحساس بألم التخلف أقوى وأبلغ في النفس، كما فعل العواد ــ فيما يشبه النجوى ــ حين صرخ يدعو البلاد إلى الحياة، وإلى إدراك أسباب القوة، وتأمل في قوة الشباب فرآها الأمل في المستقبل، وتساءل عن هذا الموات إلى متى ؟ وهل خلق اليراع لأن يعيش مُحيرًا ؟ ويأتي إلى مانريد الإشارة إليه من مرارة المعاناة بما في واقعه الاجتماعي من صور التخلف والركود، وسعيه إلى الإبانة عن ذلك نثرًا وشعرًا لإيقاظ الناس من غفلتهم، وتنبيههم إلى أسرار الحياة الخافية عليهم

«ورسمت للوطن العزيز نماذج من صورته، شوهاء، عابسة المحيا كي يحس بشقوته»[١].

وبهذه المبالغة في رسم صور الحياة الراكدة في مجتمعه، في العقد الخامس، استطاع العواد أن يؤثر في تنبيه من حوله إلى خطورة الاستسلام لنوازع البقاء في الظل، ودواعي الرضا بالصمت والانتظار، وإن الصدق في الحديث عن البيئة أبلغ تأثيرًا وأقوى داع للإحساس بضرورة النهضة، وحتمية اليقظة.

وقد اتسمت روح العواد بطابع التمرد على الموروث، من نظم التعليم وطرائقه القديمة، ومن عادات البلاد الاجتماعية، التي رأى أن المجتمع يخضع لها دون تفكير، أو إعمال عقل، فتسيطر على روحه وسلوكه، وتفعل فيه كما يفعل المخدر — كما قال — جبران خليل جبران[٢].

فالعواد ينكر — في دعوته إلى النهوض — العصمة العقلية للعلماء في كل زمان ومكان، ويؤمن بأنه لا بد من مناقشة آراء الكبار مع احترام شخصياتهم، ولابد — أيضًا — من نقد الأوضاع القائمة ما كانت هناك حاجة للنقد وإحساس بالانحراف[٣].

ويرى أن العلماء الجامدين المقلدين سبب من أسباب الركود والبلادة والتخلف يقول : «العلماء — نفسي تشمئز حينما تقع عيني على واحد منهم، لأني كلما رأيتهم تذكرت كلمة ذلك الصوفي الخرف : «مافي الجبة إلا الله»[٤]، ويقول في موضع آخر عنهم : «أفكار متحجرة، فوقها عمائم مكبرة، وتحتها ذقون مبعثرة،

---

(١) من قصيدته «جنون الناقدين»، ديوان «آماس وأطلاس»، دار الكشاف، بيروت، ط٢، ١٣٧٢هـ، ص ٢١، وكان هذا الديوان قد صدر في طبعته الأولى باسم «أشعة الشروق» وأتيت بهذا الشاهد لقوة صلته بالموضوع.

(٢) مقالة : المخدرات والمباضع، من كتابه «العواصف»، دار صادر، بيروت، دون تاريخ الاصدار، ص ٤٠٤.

(٣) انظر مقدمة كتابه (خواطر مصرحة)، المجموعة الكاملة لأعماله، ص١٢.

(٤) مقالة : من مشعل النار، خواطر مصرحة، ص٩٦.

تلك هي كابوس الأمم، وسموم الحياة .. »[١]. ثم يرى أن الأدب خير وسيلة لاستيعاب معاني النقد، وهدم البنيان المتداعي من الموروثات الرديئة.

أما عبدالوهاب النشار[٢] فيتحسر على بلاده لما تعانيه من التفرق وضروب الأدواء على حين تأخذ الشعوب الأخرى سبلها في التقدم والحضارة «قفوا أناقشكم الحساب. تقولون إنكم أجمعتم على النهوض ! أفي مدارسنا ؟ أم في ثروتنا التي لا تبلغ مليون جنيه، كلها كنوز تحت أديم الأرض. أم في حاصلاتنا التي لا أذكر منها غير الحشيش[٣] والبرسيم. أم في مصنوعاتنا ونحن عالة على الأجنبي، حتى في الابرة والأزرار»[٤].

والتمسك بالقشور دون اللباب ـــ كما يرى الكاتب ـــ جعل الحياة في البلاد باهتة باردة، ليس فيها قوة في المعارف، ولا نشاط في الأفكار، على حين ينعم آخرون في بلاد مجاورة ـــ يعني مصر ـــ بالتقدم في وجوه مختلفة من الحياة، وفي التعليم والأدب والفنون.

ويعدد صور التردي في الصناعة والزراعة، والبطالة، والثروة المهملة في باطن الأرض.

وإذ نرى هذه الواقعية في مقالة النشار نجد روحًا شاعرية دفاقة بالشكوى والرجاء لدى محمد جميل حسن[٥]، حين توجه إلى وطنه يستنهض فيه همة التوثب، وعزمة الانبعاث، ويستصرخ القوى الكامنة في أهله، أن يزيحوا عن وجوههم أغطية الغفلة، وأستار الخمول، فيناجي وديان بلاده وجبالها ورباها بالتحية وبث مشاعر الحب لوطنه، وانتظار الخلاص من وهدة الهزيمة النفسية الشاملة

---

(١) مقالة : من سلسلة أفكاري، خواطر مصرحة، ص١٢، ومقالة : مداعبة مع العلماء، المصدر السابق جـ١، ص٢٠.

(٢) كاتب ولد بجدة سنة ١٣٢٠هـ، وتلقى معارفه فيها، وله قليل من الشعر، انظر «أدب الحجاز»، ص١٢٩.

(٣) نوع من النباتات البرية، التي تقتاتها الحيوانات.

(٤) مقالة : متى ننهض، عبدالوهاب النشار ، أدب الحجاز، ص١٢٩.

(٥) ولد بمكة سنة ١٣٢٢هـ، وتلقى دروسه فيها، انظر : أدب الحجاز، ص٦٩.

«هذا الوطن ضحية الجهل والإهمال يصرخ، وينظر إليكم مستجيرًا، لأنكم أنتم وحدكم قادرون على إعادة سيرته الأولى وجعله في زهرة العمران»[١].

ويطول به السؤال عن عودة الحضارة إلى الديار المقدسة، منبع النور، وموطن الإشعاع، ويتذكر التاريخ القديم، حين انبث رسل الهداية والتبشير بالحق من هذه الديار، وانتشر التهذيب، وعم العلم أقطارًا كثيرة، ويسترسل في مناجاته لوطنه بأسلوب بكائي، يذكره بالماضي، ويخوفه من حاضره، ويدعو إلى الاستفادة من الحضارة العالمية القائمة، ويخاطب شبان الحجاز «انهضوا نحو ذلك المعترك الحيوي، وتشربوا بالصالح منه، واستضيئوا بضوء العلم الجديد، فلا يمضي زمن إلا وقد أخذتم بزمام أمتكم إلى الأوج»[٢].

ويستخدم ألفاظًا معبرة عن السخط على الواقع «حرام عليكم .. عار عليكم»، ويناديهم «فيا سليلي الأبطال، وبني أسد النضال». والكاتب مغرم بالماضي المشرق من تاريخ العرب والمسلمين، ففي مقالة أخرى يتحدث عن الآباء والأجداد الذين بنوا حضارة مشرقة انطلقت من أرض الحجاز، ويعرض لأبطال الأمة الإسلامية الذين دوّنهم التاريخ في سجله الناصع، فيناديهم بكل إعجاب «سلام عليكم ـــ أيها الأمجاد ـــ ياحماة الحقيقة، يا أباة الضيم، وتحيات إلى يوم الدينونة»[٣]. ويذكر توسع الدولة الإسلامية وشمولية نهضتها، ثم يلتفت إلى أبناء بلاده، فيناجيهم، ويستنطق سهول النهرين، ويُشهد ساحة اليرموك على شجاعة العرب وإقدامهم، ويضيق ـــ في هذه الأثناء ـــ بهذا الموات الذي يعيشه الحجازيون، ويتمنى عليهم أن يتخلصوا من الرادعة، والالتزام بالتقاليد البائسة، ويقبلوا على العلم والتحصيل والدرس، ويتركوا اللذات والشهوات، ويصور هذا الواقع «وحدتنا متساقطة الأوصال، وبلادنا مجزأة وقد عمّ الجهل معظم أصقاع الجزيرة العربية حتى قضى على حياتنا الفكرية فبقينا ونحن أشبه بالسكارى، تحسبنا أيقاظًا ونحن رقود»[٤].

---

(١) مقالة : المناجاة، محمد جميل حسن، أدب الحجاز، ص٧٩.

(٢) المقالة السابقة.

(٣) مقالة : استعراض الماضي، محمد جميل حسن، المصدر السابق، ص٦٩.

(٤) المقالة السابقة، ص٧٥.

ونلحظ في مقالتيه الأسلوب الإنشائي القائم على النداء والإثارة واستخدام التأثير بالتذكير والوعظ، والعودة إلى عصور الازدهار العربية، وهو يجتهد في استحياء الأساليب القديمة في التركيب والبناء دون أن يضفي عليها لمسات تجديدية أو إبداعية، فتأتي تكرارًا لا يبتعد كثيرًا عن أساليب عصر الانحطاط الذي عاش جزءًا منه.

ويمثل هذان المقالان بداية النشأة الحقيقية للمقالة في شبه الجزيرة العربية، إذ بدأت بالدعوة للنهضة، وعلى هذا النحو من الأسلوب العادي، مدفوعة إلى تهيئة الأذهان لتقبل التيار الجديد من الوعي، ومواءمة روح العصر، والتخلي عن النمطية الملازمة للحياة في البلاد آنذاك.

وتبدو مقالات «أدب الحجاز»[1] على هذا النحو من الإثارة، والشكوى، وتصوير الواقع، والمرارة في المعاناة، على حين ابتدأت المقالة في مطلع الخمسينات من القرن الهجري الماضي تشعر بالحياة الدافقة في نفوس الشباب، وتلامس آمالهم، وتصور طموح الكيان الناشيء الذي وحدّ البلاد، وأنشأ الأسس الصالحة للانطلاق بها إلى المستقبل، فجاءت المقالة الاجتماعية بين الأمل والشكوى، وبين الدعوة إلى الرفق في الأحلام، ومعايشة الواقع، فنجد فيها ملامسة لما يدعون إليه، وتفصيلًا لخطوات العمل نحو التقدم، واعترافًا بالنقص في بعض الوجوه، وبوجود قدرات كبيرة مخزونة تريد الفكاك من أسر الجمود والتقليد، لتحلق في آفاق الإبداع العلمي والتصويري.

ويعلل محمد حسن فقي أسباب هذا الركود والتخلف بنظرة السلطة العثمانية إلى الحجاز، وشبه الجزيرة العربية بعامة، حيث كانت ترى أن خدمة الحرمين الشريفين ورعايتهما موكولتان إلى من يقطن في هذه الأقاليم، ويكفيه هذا عن الطموح في الرقي الحضاري، أو الرغبة في إقامة حية متقدمة، وقد أجرى الفقي

(١) انظر المقالات الآتية:

حول الإصلاح، محمد سعيد العامودي، ص ٩٤، وعلى ملعب الحوادث، عبدالوهاب آشي، ص ٩٩، ومن هو الحر العصري، محمد حسن عواد، ص١١٣.

حوارًا مع نفسه أدار فيه هذا المعنى، فيخاطبها بهذه الفكرة «يا نفسي ـــ كان يُنظر إلينا كشعب لا يصلح إلا لممارسة الطقوس الدينية والمسائل الروحية»(١).

ويرى أن تأخر البلاد يرجع ـــ أيضًا ـــ إلى موقعها الجغرافي، وحرمانها من الطبيعة الخصبة، الوافرة بالمياه والخضرة، وإلى عزلة البلاد عن العالم، وقلة اختلاط أبنائها بالأمم الأخرى الناهضة، على خلاف كبير من الدول العربية التي تقدمت بسبب هذا الاختلاط، ولتعرفهم على الشخصيات العلمية المؤثرة «أما نحن ففي شبه عزلة وانزواء عن العالم جغرافيًّا، وعلى كثير من الريبة والحذر من مغبة اختلاطنا بعباقرة العالم الحديث وصيارفته في عقر دارنا سياسيًّا»(٢).

فالطبيعة القاحلة، والعزلة من العالم، والنظرة السياسية السابقة إلى الحجاز، ـــ على الأخص ـــ كل ذلك ساعد على استمرار حياة الدعة والخمول، والتخلف عن موكب الحضارة، وفي هذا الحوار بين الفقي ونفسه تبدو الصراحة في الإلمام بتكوين البيئة جغرافيًّا وطبيعيًّا، فلم يركن إلى التمني، أو يلجأ إلى الشكوى، بل ذهب يعدد ما يمكن أن يكون سببًا في التردي العام، وهو يتمنى أن تكون نفسه مخطئة فيما ذهبت إليه، لأنه موجع للقلب، متعب للمشاعر، وبخاصة حين تقول له نفسه «انزويتم فأُهملتم، وتواكلتم فخملتم، وتباغضتم فتمزقتم»(٣).

ويرفض الاستسلام لهذه المقولة القاسية، ـــ على الرغم من اقتناعه بها فيعلم نفسه بما عقد عليه المستنيرون ممن حوله عزمهم وبما أجمع عليه النابهون أمرهم، فيخاطبها قائلًا «ولكننا ـــ يا نفس ـــ سنستغل المدنية ونلابسها بحكمة ودهاء، وسنخالط أساطينها بتحفظ ويقظة، فنكسب العلم ولا نخسر الاستقلال»(٤).

---

(١) مقالة : لو بغير الماء حلقي شَرِقٌ، محمد حسن فقي، صوت الحجاز، عدد ٥٤، في ٢٦ محرم ١٣٥٤هـ، ص١. (افتتاحية).

(٢) المقالة السابقة.

(٣) المقالة السابقة أيضاً.

(٤) المقالة : السابقة.

وتتبين هذه العزيمة في الإصرار على طلب التقدم، ومقاومة التعلق بالتقليد في محاسبتهم نفوسهم عند ختام كل سنة، فقد تعوّد كثيرون منهم كتابة مقالة وداعية للسنة المنصرمة، واستقبال للعام الجديد، يبثون في مثل هذه المقالة شجونهم، ويعددون أوجه النقص التي لم تكتمل، وما يحلمون به في السنة الجديدة، وحملت أم القرى، وصوت الحجاز، والبلاد السعودية من ذلك ما يمكن أن يُحكم عليه بأنه عادة اتبعت من قبل بعض الكتّاب، توقف الباحث على مستوى الشعور الوطني العام بالإنجاز الحاصل، والرجاء في تخطي ما يحيط بهم من عقبات وصعاب، وبخاصة أنها لا توقع — في الغالب — باسم كاتب مخصوص، بل تتخذها الصحيفة كلمة لها، فتأتي مصورة لما ذُكر من المحاسبة والأمل(١).

ومن خير ما يصور الإحساس القوي بالركود ما كتبه حمزة شحاته، حين بعث إلى صديقه أحمد قنديل بمقالة وصفية، فجاء ذكر الواقع الاجتماعي استطرادًا يدل على تمكنه من تفكير الكاتب، وإتعابه إياه، وأنه إنما سعى إلى مثل هذه المداعبات الاخوانية هربًا من الإملال والخواء، المحيطين به، «وقد ألزمتنا الحياة أن نعيش في بلاد مهوّمة، لا يدل على حياتها إلا هذا الغطيط الموزون، فلا أقل من أن نتبادل من شئوننا الخاصة ما يثير في النفس شعورًا خافتًا بالحياة وإنباضها، إن لم يكن أمل ورجاء»(٢).

وقد ظلت هذه الروح الداعية إلى النهضة ملازمة لكتّاب المقالة الأدبية الاجتماعية(٣) إلى أوائل التسعينات الهجرية من القرن الماضي حين ابتدأت آثار

---

(١) انظر مقالة : بين عام وعام — دمعة وابتسامة، افتتاحية أم القرى، بتوقيع (عربي)، مكة العدد ٥٩٠، محرم ١٣٥٥هـ، ص١. ويرى الدكتور منصور الحازمي أن كاتبها محمد سعيد عبدالمقصود انظر : معجم المصادر الصحفية، جـ١، أم القرى ص ١٤٩، ولم يذكر هذا الرمز عبدالقدوس الأنصاري في مقالته عن الأسماء المستعارة.

(٢) مقالة : أستاذ، حمزة شحاتة، صوت الحجاز، عدد ٢٣٠، في ١١ شعبن ١٣٥٥هـ.

(٣) مقالة : هل نحن نحيا؟ بتوقيع ص.ح، مجلة اليمامة الشهرية، عدد ٧، في جمادى الثانية، ١٣٧٣هـ، ص٣.

الوعي العام النسبي في الظهور، وابتدأت البلاد تأخذ بأسباب التقدم في مجالات كثيرة.

وإن الدعوة إلى النهضة اقترنت بالتفكير في ما يمكن أن يُعجّل بها، كالتعليم والتثقيف، والصناعة، والزراعة، وتطوير وسائل الإنتاج، مما سنطلع عليه في بقية هذا الفصل.

ثانيًا : نقد العادات والتقاليد :

سعى كتّاب المقالة إلى معالجة الأدواء الاجتماعية التي كانت متفشية في مجتمعهم ومنها العادات المرذولة، والتقاليد الذميمة، فتناولوا بالنقد والتحليل ألوانًا متعددة من عادات متوارثة في بيئتهم الاجتماعية، يُبينون عن أخطارها، ويكشفون مدى ما تلحقه من أضرار في النفس، وخسارة في المال، وإهلاك للصحة، وإعاقة عن اللحاق بعلوم العصر، والوقوف مع الأمم المتقدمة في درجة واحدة.

وقد بذل كثيرون من كتاب المقالة ــ وبخاصة في مطلع النهضة ــ جهدًا كبيرًا في محاربة العادة السيئة أيًّا كانت، وسخّر عدد منهم مقالاته لخدمة هذه الغاية، حتى عُرف بعضهم بالكتابة في هذا الغرض دون سواه كمحمد سعيد عبدالمقصود، وعبدالكريم الجهيمان، وسعد البواردي، وحسن عبدالله آل الشيخ، وغلبت على كتاباتهم هذه الصفة الاجتماعية، وعُـدّ ماجاء خارجًا عنها من قبيل الخروج عن هذا التخصص في معالجة قضايا المجتمع.

وما ذكرت الأسماء السالفة إلا من قبيل الاستشهاد، فالمقالة الاجتماعية من أكثر المقالات في الأدب السعودي ثراء، وأوفرها كُتّابًا، ويندر أن نجد كاتبًا مقاليًا لم يتطرق في مقالاته أو في بعضها إلى قضية اجتماعية، أو إشكالية في أمر ما من أمور المجتمع، ذلك أن الكاتب لا يمكن أن ينعزل عن بيئته، ويعيش في عالمه الخاص به.

وقد كان للمقالة الاجتماعية المعنية بنقد العادات والتقاليد شأن كبير في

التأثير على المجتمع إبان نشأته في طوره الجديد بعد صدور أم القرى، إذ كانت البلاد تعاني من تراكم سنوات التخلف في أكثر جوانب الحياة، وبالأخص الوعي الاجتماعي العام، والتعليم، والصحة، ومرافق الخدمة، فتولت المقالة مسئولية إصلاح هذه النواحي، وإسعاف القائمين على أمر البلاد، بالأفكار النافعة لإكمال النقص، وتلافي الأخطاء، والتخلي عن السيء من الموروثات.

وإذا تصورنا العزلة الاجتماعية التي عاشتها الجزيرة العربية سنين طوالًا، وما أحدثته هذه العزلة من انغلاق في المفهومات، وانحدار في مستوى التفكير، وضعة في العزائم، ونشوء لكثير من الأمراض في فئات مختلفة من السكان، وبيئات متعددة من أقاليم البلاد، رأينا كيف كانت المقالة مُثقلة بأعباء التغيير، وكيف كانت تتصدى لتراكم زمني طويل، من الجهل والتواكل، ولزوم العادة.

ولو أردنا أن نستقصي ما قام به الأدباء المقاليون في هذا الشأن لوجدنا زخمًا من المقالات، يصلح لأن يكون بحوثًا متعددة في كل موضوع من معالجاتهم الاجتماعية العامة، ويقيس مستوى النضج في الفهم، ومقدار الوعي الثقافي والحضاري في المجتمع، بحيث يفيد الباحث في التأريخ لتطور البيئة الاجتماعية من خلال ذلك النتاج المقالي الثر.

ومن أجل الإلمام بالصورة العامة للمقالة الأدبية الناقدة للعادات والتقاليد لابد من ضرب الشواهد على ألوان من المعالجة المقالية للعادات والتقاليد بعامة، وذكر لأبرز ماكانت تضطرب به بيئة كتّابنا السعوديين من تلك العادات، وكيف وقفوا كثيرًا من مقالاتهم على نقدها وتحليلها.

وقد خصص بعض الكتّاب زاوية في جريدة، أو صفحة في مجلة لمثل هذه المعالجات الاجتماعية، ومن هؤلاء محمد حسن فقي الذي أحدث زاوية بعنوان «معرض النقد»، أو «خواطر الأسبوع»، يقول مبينًا غرضه من مقالاته هذه «نريد أن نبحث فيّ خواطرنا هذه الأدواء المتفشية في وسطنا ونصورها بصورة مستهجنة

لعلها تكون عظة، وإنما الأعمال بالنيات»[١]. وقد سعى إلى كشف كثير من سيئات العادة الاجتماعية، وأبان عن خطر الكسل في الأعمال، وأضرار الاتكال على المستورد من أنواع البضائع والمئونة، ودعا إلى استغلال موارد البلاد، ونبه إلى أن قوة الوطن في عزائم أبنائه وفي رغبتهم في تكوين مفهومات واعية صالحة للحياة.

وسعى آخرون إلى تحديد معنى «العادة» وكيفية نشأتها، ومبلغ تأثيرها على الإنتاج والسلوك والقيم والترقي في مدارج النمو والاكتمال[٢].

وتتبين في مقالاتهم هذه آثار الوعي القوي بضرورة محاربة الموروث السيء من العادات، والوقوف في وجه الملتزمين بها، كما تُبين عن ثقافة كتّابها، وتجاوزهم مفهومات المجتمع السائدة، ورغبتهم في نقل مجتمعهم من طور المؤمن بما ورث إلى مرحلة التفكير في الجوهر، والمظهر، والهدف، وتحديد غايات الأعمال، ومقاصد الحياة الشريفة.

والعادة الحسنة ناشئة عن خلق أصيل حسن، كما أن العادة السيئة ناتجة في الأساس عن خلق ذميم و «إن لتكوين العادات السيئة الضرر الأكبر في إفساد النفوس وتكوين الأخلاق الفاسدة، فمتى كانت العادات الشخصية التي نعلمها مبنية على مزاولة الأعمال المجيدة التي تدعو إلى الحق والفضيلة فإنها تصبح أخلاقًا عالية، ومن هنا ندرك فوائد تكوين العادات، ومتى كانت الأعمال التي نزاولها في صغرنا أعمالًا شائنة فإنها تكوّن في نفوسنا العادات السيئة ثم الأخلاق الفاسدة»[٣].

---

(١) مقالة : معرض النقد ــ خواطر الأسبوع ــ١ــ، وقعها بـ «ابن جلا» ــ محمد حسن فقي، صوت الحجاز، عدد ٢٧، في ٩ جمادى الثانية عام ١٣٥١هـ، ص ٨ وسبقت الاشارة إلى أن الفقي يتلقب بهذا، انظر مقالة الأنصاري.

(٢) انظر مقالة : العادة منشؤها ومبلغ تأثيرها، ــ دون ذكر لاسم الكاتب، صوت الحجاز، عدد ١٢٣، في ٢٣ جمادى الثانية ١٣٥٣هـ، ص١.

(٣) مقالة : العادات، محمد عبدالرحمن الصحاف، مكة، أم القرى، عدد ٣٩٨، في ٢٥ ربيع أول، ١٣٥١هـ، ص٤.

أما التقليد فإنه مدعاة إلى الأخذ بأنواع من السلوك، وأشكال من الفهم قد لا يستقيم بعضها مع النمط الاجتماعي والأخلاقي العام في البيئة المقلِّدة، والتقليد له وجهان، نافع حين يذهب الضعيف يقلد القوي في أسباب قوته، ومظاهر عطائه، ومضر حين يرتمي ذلك الضعيف على القوي يأخذ أقرب ما يستطيع أخذه، ويعلق بأقل الأسباب الداعية للاكتمال والنضوج، بل قد يقع الاختيار — من باب السهولة واليسر — على المظاهر العامة الخادعة، والألوان القشرية المزيفة، وتلك سنة الطبيعة في لحاق المغلوب بالغالب، واحتذاء الصغير بالكبير، واقتفاء آثار الأقوياء، ومن الخير أن يتولى عقلاء الأمة ومفكروها تحليل ما ينبغي أخذه، والدعوة إليه، والوقوف عند وجوه الضعف الخادعة في حضارة القوي الغالب بالشرح والتعليل، لتنبيه ذوي الإعجاب المتعجل، والحفاظ على الشخصية الإسلامية من الاندثار في موجات المد الأجنبي القوية.

وأخذ هذا الجانب من مفهوم «التقليد» مجامع الاهتمام لدى الأدباء، وبخاصة كتّاب المقالة فسعوا يكتبون ويشرحون ويحللون، وانتقدوا المقلدين في غير وعي والمحتذين دون إدراك، فكتب محمد حسن فقي ينكر تقليد الأمم الأخرى على النحو السالف[(١)]، ويرى أن الإسراف في مزاولة بعض الألعاب تقليدًا لآخرين ليس إلا من باب الاحتذاء الأعمى بالأمم القوية، فهي نظرة الضعيف الخائر المتلقف إلى القوي المنتصر، ويدعو إلى البصر بما يجب الأخذ عنه.

وكثير غيره[(٢)] يدعو إلى التمسك بالأخلاق الفاضلة، وبما يأمر به الدين، وينهى عن تقليد الغرب في أخلاقهم وسلوكهم وعاداتهم، ويرى أن ذلك سببًا للارتكاس في حمأة الاتباع الأعمى، دون المعرفة بما يدعو للرقي والتمدن من العلوم والأخلاق، وما يأخذ به الشباب — في أكثره — إن هو إلا سعي للتمدن في الشكل دون المضمون.

---

(١) مقالة : هل نحن أمة لا تحسن التقليد؟ ولا تتصرف كما يتصرف الراشدون، محمد حسن فقي، صوت الحجاز، عدد ١٧٣، في ١٢ جمادى الثانية، ١٣٥٤هـ، ص١.

(٢) انظر مقالة : بين الرقي والتفرنج، لم يكتب اسم صاحبها، أم القرى، عدد ٢٣٨، في ١٣٤٨هـ، السنة ٥، ص١.

ويحذر محمد سعيد عبدالمقصود من هذا التقليد ويرى أنه من أسباب اضمحلال الشخصية العربية، في طغيان اللهجة الأجنبية، واختفاء كثير من اللفظ العربي عن مسميات الآلات والمخترعات والمصنوعات، واصطناع الزي الأجنبي من أمم شتى، والكاتب يراها غريبة على الهيئة الخاصة بالبلاد من الملبس وغيره، ويقول إنه لا يعتقد أن التقليد مضر على إطلاقه، ولا كل عادة قبيحة، ففي الاثنين منافع ومضار، «ولو أخذنا مايوافق ديننا ووطننا وما يعود علينا وتركنا ما يضرنا ويسري كالسم فينا لكان ذلك أولى، ولكن أخذنا نقلد غيرنا في أشياء لا نجني من ورائها غير تبذيرنا أموالنا وخروجنا عن عروبتنا التي يجب أن نحافظ عليها حتى آخر قطرة من دمائنا .. »[1].

والعادات والتقاليد ــ على هذا النحو ــ مضطربة بين القبول والرفض، الأخذ والمنع، الترغيب والترهيب، وموقف المقاليين مختلف في الحكم على الطيب والرديء، والحسن والسيء، فمنهم المتشدد القاسي الذي لا يقبل من الجديد إلا القليل، فيكره التقليد بعامة، الحسن والسيء، ومنهم المتشدد أيضًا في نظرته إلى العادات فلا يرى تركها وإهمالها، وإن تبين سوء أكثرها، وفي الجانب الآخر نرى فريقًا لينًا في مواقفه تجاه التقليد للمحدث والجديد من الغرب ومن غيره، غير أنه قاس في نظرته إلى العادات الموروثة، فلا يستمرىء كثيرًا منها، ولا يقبل منها إلا القليل.

والفريقان يمثلان التيارين اللذين تبيّنا إبان مطلع النهضة، ــ وهما موجودان إلى الأبد ــ واختلفا حول كثير من القضايا، وهما المناصرون للقديم، والمدافعون عن الجديد.

وقد نشرت أم القرى مقالة إيضاحية لهذه القضية، تكشف عن ضيقها باتباع المأثور من الموروث، ورغبتها في اجتثاث شأفة كثير من التقاليد السيئة في المجتمع، عند الرغبة في الزواج، وعند إقامة الولائم، وفي الأفراح، وفي المآتم، وفي

---

(١) مقالة : نحن والتقاليد، بقلم «الغربال»، وهو محمد سعيد عبد المقصود، كما ورد في مقالة الأنصاري عن الأسماء المستعارة السالفة الذكر، أم القرى عدد ٣٨٥، ي ٣٠ ذي الحجة ١٣٥١هـ، ص٤.

التربية، وفي معاملة النساء والنظرة إليهن، وما إلى ذلك، ويدعو كاتب المقال إلى تقليب الرأي في عادات المجتمع، وفي كل ما يمس حياة الأمة ومصالحها، سعيًا إلى التطور والأخذ بكل نافع ومفيد «أما الجمود على تلك الحالات، فذلك هو الجمود الخطر الذي يقف بالأمم عن السير في مدارج الحياة ومسايرة ما يجد فيها من تطورات يوحيها العقل الناضج المثقف»[(١)].

وقد جعلت الجريدة هذه المقالة افتتاحية لها، وتعودت أن تكون الافتتاحية معنية بقضية اجتماعية أو سياسية ذات شأن في إثارة وعي الناس نحو عادة أو تقليد أو قصور في جانب من جوانب الحياة، أو كشف عن آراء سياسية للدولة تفسر موقفها من جماعة أو حدث وما شاكلها.

فجاءت هذه المقالة في مسعى الجريدة نحو التغيير الاجتماعي إلى الأفضل والأكمل، وأهابت بذوي المعرفة، وطلاب العلم، والمثقفين النهوض في وجه سوءات التقليد الجاهل، والوقوف أمام طغيان العادة الموروثة على نواحي الحياة، «وليس من دواء حاسم لهذا الداء الدفين، إلا الجرأة التي نعتمد عليها في أخلاق المتعلمين من أبناء هذه الأمة، ليحطموا هذه القيود البالية العتيقة، ويريحوا الناس من عسفها وعبثها عليهم أجمعين، بالإضراب عن هذه العادات وانتهاج أبسط الأساليب المؤدية إلى الغرض المقصود وتخطي كل تلك الحواجز المضنية التي .. تسبب كثيرًا من الجهد والاضطراب في الأنفس والأموال»[(٢)].

أما عبدالحميد الخطيب[(٣)] فكتب عن تأصل عادات سيئة كثيرة في

---

(١) مقالة : عادات وتقاليد يجب أن تزول، ولم يذكر اسم كاتبها، أم القرى، عدد ٦٥٠، في ١١ ربيع أول ١٣٥٦هـ، ص١.

(٢) المقالة السابقة.

(٣) ولد بمكة سنة ١٣١٦هـ وتعلم على علمائها، وتولى الخطابة للشافعية والإمامة في المقام الشافعي فلقب بالخطيب، وتولى الدعوة الاسلامية في جاوة فترة من الزمن، وتولى التدريس بالحرم، وألف بعض الكتب، وكان عضواً في مجلس الشورى، وشغل منصب سفير في الباكستان، وتوفي في «دمر» بسورية عام ١٣٨١هـ.

انظر : الأعلام للزركلي ٢٨٤/٣، والمعجم ٥٢٢/١، وأحمد جمال ماذا في الحجاز، ص ٣٦. وله مقالات دينية واجتماعية نشرها في أم القرى، وصوت الحجاز، والمنهل.

المجتمع الإسلامي وعن استشراء داء التقليد للقوي، دون التأمل في الجيد والرديء مما يحسن أخذه أو يسوء، وبيّن الكاتب أن على المصلحين واجبًا كبيرًا في درء التقليد، وكشف سيئات العادة، وفي الأمة عادات حسنة تُغرى، وفيها عادات ليس من الخير أن تبقى فلماذا يصمت المفكرون والمصلحون عن هذا ؟! أيدعون أمر اجتثاث ذلك إلى الحكومة، تسن القانون إثر القانون لترغيب الناس في فعل، ونهيهم عن آخر، وهل بلغ بالمجتمع الضعف أن ينتظر القوانين تُسن للامتناع عن العادة أو الإقبال على الجيد منها، لماذا لا نكون أقوياء الإرادة في بيوتنا نافذي الكلمة بين أهلينا عاملين على دفع الضر عن أنفسنا ساعين إلى كل مافيه الخير لنا ولبلادنا وأمتنا جاعلين من سيرة نبينا خير تقليد يصح أن نعتمد عليه .. »[١].

ومن العادات السيئة التي أسهم كتّاب المقالة الاجتماعية في معالجتها ما يتصل بالزواج وما يحدث فيه من إسراف في إثقال كاهل الزوج بالمئونة، بما تتطلبه العادة من إهدار للمال يصرف الشبان عن التفكير فيه[٢]، وكذلك اجتهد بعض المقاليين الاجتماعيين في التنبيه إلى خطر الخرافات[٣]، كوضع الحجب

---

(١) مقالة : كيف نحارب العادات والتقاليد، عبدالحميد الخطيب، أم القرى، عدد ٧٠٠، في ٧ ربيع أول ١٣٥٧هـ، ص١.

(٢) انظر : المقالات الآتية :
مقالة : الزواج ولماذا يحجم شبابنا عنه؟ بقلم «مشرح»، صوت الحجاز، عدد ٦، في ١٠ محرم ١٣٥١هـ.
مقالة : بحث في الزواج، محمد سعيد عبدالمقصود، صوت الحجاز، عدد ٢٢، في ١٣٥١/٥/٤هـ.
مقالة : هو أنت.. تبغى كل يوم تتزوج، أحمد السباعي، دعونا.. نمشي، ص ١٣٢.
مقالة : الزواج وعقباته، لم يكتب اسم صاحبها، صوت الحجاز، عدد ٢٦٤، في ١٣٥٦/٤/٢٧هـ، وانظر الأعداد الآتية من الجريدة ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ففيها مقالات تتصل بالزواج وقضاياه.

(٣) انظر مقالتين هما :
ــ الأطفال بين الجهل والعلم، عبدالكريم بن جهيمان، أم القرى، عدد ٦٤٣، في ١٣٥٦هـ، ص٢.
ــ نفخ في غير ضرم، عبدالكريم بن جهيمان، أم القرى، عدد ٦٥٠، ي ١٣٥٦هـ ص٢.

على الأطفال، لدرء العين وإبعاد الشر، ونبهوا إلى أن التعليم يبطل كثيرًا مما نشأ عليه المجتمع من هذا القبيل، وكتبوا عن الجان والتعلق بالمعجزات المنسوبة إليهم[١]، والخوف من التعرض لهم، وإحداث الفرق في قلوب بعض الأطفال بهم، فينشأون ضعيفي العزيمة خائري القوى.

وكتبوا عن عادة الاحتفال بالمولد النبوي[٢]، وما يحدث فيه من إسراف في الإنفاق، وبكاء ونحيب، وتضرع، وبينوا أن ذلك غير جائز، إذ أن التضرع لله سبحانه، والخشية منه وحده.

وأسهم آخرون في معالجة أدواء اجتماعية يتخذها متبعوها من باب العادة كالتدخين[٣]، فبينوا أخطاره الصحية، وأضراره الاجتماعية العامة، ونبه آخرون إلى ما يطلق على بعض الوجهاء والمعدودين في المجتمع من المتقدمين علمًا أو منصبًا أو حسبًا مثل (صاحب المعالي، العزة، السعادة، الفضيلة) ورأوا أن هذه الألقاب وما جاء على شاكلتها لا جدوى منها ولا فائدة[٤]، وهي إلى النفاق والممالأة أقرب من الصدق والحق، وكثيرًا ما تمنح لغير الجديرين بها.

ولعل من تمام البحث أن أعرض شيئًا من أحاديثهم عن بعض العادات والتقاليد.

---

(١) انظر مقالة : أكان هذا من عمل الجان؟ أحمد السباعي، دعونا.. نمشي، ص٥٧.

(٢) انظر مقالة : حول الاحتفال بذكرى الرسول، يحيى عثمان المالكي، الندوة، عدد ١١١٢، في ١٣٨٢/٤/٧هـ، ص٥. ومقالة : هل نحتفل بالمولد، حسن بن عبدالله آل الشيخ، دورنا في الكفاح، مطابع نجد التجارية، الرياض، ط١، عام ١٣٨٣هـ، ص٩٠.

(٣) انظر هاتين المقالتين :

- الدخان أو التبغ شيء خبيث فاجتنبوه، لم يذكر اسم الكاتب، أم القرى، عدد ١٦ في ٢ رمضان ١٣٤٣هـ، جـ١، ص١.

- التدخين ذلك القاتل المهذب، حسن بن عبالله آل الشيخ، دورنا في الكفاح، ص ١٣٤.

(٤) انظر مقالة : هذه الألقاب، سعد البواردي، أجراس المجتمع، دار الإشعاع، ط١، ١٣٨٣هـ، ص ١٩٨.

التواليـــت والعمامـــة

يعنون بالتواليت تقصير شعر الرأس في جانبيه ومؤخرته، وإطالته في مقدمته، ولعلهم نعتوه بذلك، لأنه يتطلب عناية خاصة، وتمشيطًا وغسلًا، مما يستدعي دخول الحمام أو مكان التنظيف، والإطلاق هنا عام وجاء الاسم من باب نعت الشيء بجزء منه أو ببعضه، والكلمة انجليزية استعملها العامة، وهذا تقليد في الأمرين، قص الشعر، وإطلاق الاسم عليه. أما «العمامة» فهي عادة قديمة سعى الشبان والمحدثون ـــ آنذاك ـــ أي في منتصف القرن الهجري الماضي إلى استبدالها بأشكال من الألبسة مختلفة، ومنها وضع فوطة أو ما يشبهها على العنق والكتفين[(١)].

وكما نلحظ في هذه القضية أنها تعالج تقليدًا لجديد «التواليت» ونهيًا عن ترك قديم، وهي عادة «العمامة».

وقد كتب محمد سعيد عبدالمقصود يصف إقبال الناشئة على هذا الأمر، وإسرافهم في التأنق، واستخدام أنواع مختلفة من الصابون، «يقوم صاحب التواليت من الصباح فيشمر ساعد جهده واجتهاده، ويغسل رأسه ثم ينشفه جيدًا ويمشطه بعد أن يضع عليه الكولونيا ما شاءت له نفسه الأمّارة بالسوء، بعد كل هذا يمشي الموس على لحيته .. »[(٢)].

ولا يرى الكاتب في هذا إلّا إضاعة للوقت وللمال، ومخالفة للعادات العربية الأصيلة.

ويكتب آخر رمز لنفسه بـ (م.ح. الفلاحي) مؤيدًا الاحتفاظ بالهيئة القديمة وإنكار ما يفعله الشبان والمتأنقون وداعيًا إلى لبس العمامة، ويقول إنه سنة، وينكر لائمي لابسي العمامة، ويرد على من يتهكم ويقول : كبعض المتعممين، إذا أراد

---

(١) انظر وصفاً لهيئة لباس المتأنقين في منتصف القرن الماضي الهجري، عزيز ضياء؛حمزة شحاتة قمة عرفت ولم تكتشف، ص١٣.

والفوطة التي توضع على العنق : قطعة من قماش خاص يكون طولها أكثر من عرضها.

(٢) مقالة : التواليت، الغربال (محمد سعيد عبدالمقصود)، أم القرى، عدد ٣٧٧، في ١٣٥١/١/١٤هـ.

الاستهزاء. ويقول: «فمالكم تنبذون بأريائكم وعاداتكم وتقاليدكم بل وتعاليم دينكم ظهريًا بالعراء .. »[١].

غير أن كاتبًا آخر نعت نفسه بـ «المجهر» لم يتفق مع عبدالمقصود والفلاحي على دعوتهما للقديم، ويرى أن المسألة ذوقية، وليس لها صلة بالدين أو التقاليد الحسنة، ويعلل التهكم بالمتعممين بأن كثيرًا منهم جرأ الناس على السخرية منه بما يرتكبه من أفعال، وما يعتقده من أفكار بالية، ويقول عنها «هي كلمة يؤاخذ عليها ولكن ما العمل ؟ فبعد أن كان رجال العمائم يضرب بهم المثل في الجد والاستقامة (أصبح) إلا القليل منهم مضرب الأمثال في الكسل والجمود، وانظر إلى الإمام الشيخ محمد عبده، ــ رحمه الله ــ وهو من المعممين ــ ما منعه وقد جاشت نفسه عندما رأى المعممين حوله يتخبطون في دياجير الجهل حيث يقول:

ولكنه ديـن أردت صلاحـه أحاذر أن تقضي عليه العمائم

ولبعضهم:

وكنت أرى تحت العمائم حاجة فما هي إلا أن يدوم المرتب

ثم يلتفت إلى «الغربال» وأن مطالبته بحلق شعر الرأس لا وجه لها، «وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم ذا شعر غزير، وكانت العرب إذا أرادت تعزير شخص حلقت له رأسه وطافت به البلدة تشهيرًا له وردعًا»[٢].

ويرد محمد سعيد عبدالمقصود[٣] مفندًا آراء «المجهر» ومتهمًا إياه بالدعوة إلى التغريب، وإنكار عادات العرب الأصيلة.

ثم يكتب محمد نور المعهدي يرد على «المجهر» ويستحسن العمامة، ولا يقبل غيرها، غير أنه لا يتفق مع «الغربال» في رأيه، ويراه ناقص علم، وضعيف

---

(١) مقالة : العمامة : م.ح. الفلاحي، صوت الحجاز، عدد ١٥، في ١٣٥١/٣/١٤هـ، ص٤.

(٢) مقالة : العمامة والتواليت، المجهر، من جدة، صوت الحجاز، عدد ١٩، في ١٣٥١/٤/١٢هـ، ص٧.

(٣) مقالة : حول مقال أديبنا المهجر، «الغربال»، أم القرى، عدد ٤٠١، في ١٣٥١/٤/١٦هـ.

أسلوب «فياليت كل واحد (منهم) أوقف عند حده ولم ينازع الأمر أهله ولم يخض فيما لا علم له به»[١] يعني المتحاورين كليهما.

ويختم هذه القضية محمد سعيد عبدالمقصود «الغربال» برد طويل يقفه على تفنيد آراء المعهدي، ويدعوه إلى الرفق في النقد، وعدم تسفيه آراء غيره، ويبطل كثيرًا من آرائه، ويضعف الأحاديث التي استند إليها، ثم ينكر عليه انفعاله في الرد «.. ولا أعلم لماذا (الحماس) من حضرة الأديب المعهدي، الذي لا محل له من الإعراب، ولماذا هذا الازدراء المعيب الذي لا يتفق مع آداب المناظرة .. »[٢].

توحيد الزي

دعا أكثر الكتّاب الاجتماعيين إلى اتخاذ زي موحد لأبناء البلاد، يتميزون به، ويناسب عاداتهم وشخصيتهم[٣]، ولقيت هذه الدعوة ترحيبًا من جهات عديدة، وعدّ بعض الكتّاب توحيد الزي مسألة وطنية لازمة، وأنها تحفظ سمات الشخصية الوطنية من أن تضيع في هذا الموج المتلاطم من البشر القادمين من بلدان كثيرة.

وصور بعض الكتّاب الهيئة التي يظهر بها المواطن من أبناء البلاد بأنها مزرية وباعثة على الضحك، فحمزة شحاته يصف طرفًا من هذه الصور بأنه يمثل تخمة الحجاز بعادات الأمم المختلفة ونفاياتها[٤]، ويرى إبراهيم هاشم فلالي أن خطر المهاجرين والوافدين كبير جدًا في إضاعة «الشخصية القومية» فهو يخاف منها «أن تُفقدنا ميزتنا وتطعن على طابعنا العربي، وفي النهاية تفقدنا أعز ما نحتفظ به وأكرم ما نرثه عن آبائنا وندخره لأبنائنا وأخلافنا من بعدنا، تلك هي القومية العربية

---

(١) مقال : حول العمامة والتواليت، محمد نور المعهدي، من مكة، صوت الحجاز، عدد ٢٠، في ١٩/٤/١٣٥١هـ. ص٧.

(٢) مقالة : العمامة كشفت شبهات، الغربال، أم القرى، عدد ٤٠٣، في ١/٥/١٣٥هـ.

(٣) مقالة : توحيد الزي مظهر من مظاهر الانسجام الخلقي في هذا الوطن العربي، متى تبرز هذه إلى حيز الوجود، افتتاحية، محمد سعيد عبدالمقصود، صوت الحجاز، عدد ٣٩٩، في ١ رجب ١٣٥٨هـ، ص١.

(٤) مقالة : أستاذ، حمزة شحاتة، صوت الحجاز، عدد ٢٣٥، في ١١/٨/١٣٥٥هـ.

التي هي قوام هذا القطر في حياتنا الأدبية والمادية»[١].

فالمظهر العام – كما يرى فلالي – هام جدًا لاضفاء طابع الوحدة، والتقارب في الهيئة بين مواطني البلد الواحد. وتشتيت هذا المظهر مفسدة لدلالة قوية من دلائل الانسجام الوطني.

ويضيف أحمد عبدالغفور عطار مشهدًا ساخرًا من مشاهد اختلاط الألوان والأشكال في أزياء أبناء البلاد «ألقيت على الجماهير نطرة يلتقي فيها خيال الشاعر وسخرية الناقد فشاهدت على هذه المشاجب الآدمية المتحركة بالملابس المختلفة الألوان والأشكال و «التفاصيل» كأنها «فاتورات» بالية تعرض في سوق عامة. فما علاج هذا ؟!.

نرى أن من الأوفق أن يكون مظهرنا – كعرب – ممتازًا بالعباءة والعقال لا بهذه الأزياء المختلفة المضحكة، ليكون مظهرنا تميزه الوحدة والانسجام والمساواة .. »[٢].

أما محمد سعيد عبدالمقصود فيطالب بتوحيد الزي، لأنه ضروري لحفظ القومية وهو يريد أزياء عربية لا تخرج بالمجتمع عن العروبة، «إن توحد الزي اليوم من أهم الأشياء التي أولتها الأمم عنايتها لأنه مظهر من مظاهر قوتها وإثبات وجودها .. »[٣].

ومن نافلة القول إن الحفاظ على الشخصية الوطنية من الانحلال في تيارات أخرى أجنبية مهمة جليلة يعنى بها القادة والمفكرون والأدباء، على أن ذلك لا يقلل من حرية الفرد في اختيار ما يلبس، وما يتيزيا به في حدود التقاليد العامة.

---

(١) من محاضرة «كيف نحتفظ بعروبتنا»، إبراهيم هاشم فلالي، انظر أم القرى : عدد ٧٩٤، في ١٣٥٩هـ، س ١٦، ص٣، وعدد ٧٩٥، في ١٣٥٩هـ، ص٧، وعدد ٧٩٦، في ١٣٥٩هـ، ص٣. وقد ألقيت المحاضرة في جمعية الإسعاف الخيرية بمكة في محرم عام ١٣٥٩هـ.

(٢) مقالة : حول محاضرة كيف نحتفظ بعروبتنا، أحمد عبدالغفور عطار، صوت الحجاز، عدد ٤٨٩، في ٨ جمادى الثاني، ١٣٥٩هـ، ص١. وانظر المقالة في كتاب العطار «المقالات» ص١٦٠.

(٣) مقالة : مشكلة الأزياء، محمد سعيد عبدالمقصود، صوت الحجاز، عدد ٢٦٠، في ١٣٥٦/٣/٢٢هـ.

ومن هذا نلحظ اهتمام كتّاب المقالة بالزي والهيئة وأنواع اللباس، واختلافهم حول ما يصلح وما لا يصلح، وهو — في العادة — نوع من الصراع بين القديم والجديد، يبدو على هذا النحو، ويتبين حتى في الأمور التي تبدو لبعض الناس صغيرة ولا تستأهل الخلاف حولها.

وهذا الخلاف — كما مرّ — جاء عنيفًا حينًا، ومتعقلًا حينًا آخر، بيد أن القضية في موضوع الأزياء تخضع في كثير من جوانبها لتطور الذوق، ونوع الصلة بالأمم الأخرى وحرص أصحاب الزي على وحدتهم الوطنية الشكلية في المظهر العام، وما أوردت إسهام بعض كتّاب المقالة الأدبية في هذا إلا للإشارة إلى اهتمامهم بكثير من قضايا المجتمع ومشاركتهم بالرأي في إيجاد تصور واضح لحلها.

أشبــاه الرجــال

من العادات السيئة التي انتقدها كاتبو المقالة الاجتماعية ضعف الرجولة في الرجل، وتحلل صفاتها، واتخاذه جانب اللهو والدعة والاستخذاء، وتركه ما يزين الرجال من فعل حسن، ورأي قوي رشيد، ومظهر مقنع، وأسلوب في الحديث لافت التنبه، وبعد عن الليونة في الرأي والعزيمة، واللدانة في الهيئة، والميعة في أسلوب الحديث.

ومن ذلك قوامة الرجل على المرأة، وإشرافه على أمورها، واعتناؤه بما تريد، وتعهده لها بالسؤال والعطف، ورفق الرجل بالمرأة أبلغ قوة في الرجل، يصل بها إلى قلبها، ويتملك مشاعرها، لأنه لين القوة، لا استسلام الضعف.

وينتقد أحد الكتّاب هذا الجانب من إطلاق بعض الرجال من يعوله من النساء في الأسواق وغيرها، دون إشراف ومتابعة منه لذلك التجوال، «أنا أعلم سلفًا أن كثيرين سيسخطون من هذه الكلمة الجريئة البريئة ظانين بها سوءًا من فضح الحال، وشين السمعة.

وهؤلاء في رأيي كالنعام يخفي رأسه في الرمال ويظن أنه مادام لا يرى الصياد

فالصياد لا يراه .. واذن فلنتكلم مثلما أننا نتألم، ففي الكلام عن الآلام شفاء ورجعة وإنقاذ .. »[1]. ثم ينتقد خروج النساء إلى الأسواق بكثرة، وبألبسة مبتذلة، ويعتب على من يطلق أسماء على بعض الأقمشة تدعو للرذيلة ــ كما يرى ــ مثل : شباك حبيبي، أنا ما أقدر، وقلبي إليك ميال، وأنا وأنت والعذول بره .. وينعت أولياء أمور هؤلاء النسوة بأنهم أشباه الرجال.

ولعل ما دفعه إلى أن يصفهم بهذا ما رآه من تكشف المرأة تكشفًا فاضحًا، والداعون إلى الخلق الفاضل يحبذون أن تلتزم المرأة باللباس الساتر، الذي لا يدعو إلى إثارة الغرائز، وانطلاق الشهوات من إسارها.

أما اولئك المتاجرون بالعواطف ممن يروجون ما لديهم من المباع بمثل تلك المسميات، فهم أناس كان السعي المحموم إلى المال هدفهم، دون اعتبار للأخلاق الفاضلة وللقيم المثلى، فهم يثيرون النزوات الممقوتة في نفوس المستحبين لها من أجل شيء واحد هو الربح المادي فقط.

وتألم صاحب المقالة من هذا التردي الخلقي مبعثه الغيرة على مجتمعه من انحراف أشباه الرجال، الذين تنقصهم الرجولة الحقة المقدرة لطرق الكسب الحلال ولاستيعاب قضية حرية المرأة بالمعنى الصحيح، وهو ألّا تكون سبيلًا إلى ضعف القيم الخلقية العامة في المجتمع.

اللاصقـون بالأرض

هذا عنوان مقالة عالج فيها كاتبها لعبة وافدة أثارت اهتمام كثيرين، وأشغلت فريقًا من الناس، هي لعبة «البلوت».

ولقد تناول بعض المقاليين الألعاب الشائعة بعامة، وإسراف أكثر لاعبيها في إنفاق أوقاتهم عليها، وانشغالهم بها عن كثير من واجبات الحياة، كالقيام على

---

(١) مقالة : يا أشباه الرجال ولا رجال، وقعت بـ «ألف»، جريدة حراء عدد ٢٣، السنة الأولى، السبت ٢٧ رمضان ١٣٧٦هـ، ٢٧ أبريل، ١٩٥٧م، ص٢.

أسرهم، والإخلاص في أعمالهم، والاهتمام بما يفيد ويثري من جلائل الأمور، كالتجارة، والقراءة، وحضور المنتديات، والسياحة، ومعاشرة المعارف وزيارة الأصدقاء[١].

ومن ذلك لعبة «البلوت» وهي لعبة يلتقي فيها فريقان، كل فريق من لاعبين، يتباريان في مقدرتهما على الفوز بأكبر عدد من أوراق هذه اللعبة[١]، وقد أصبحت شائعة في فئات كثيرة من المجتمع، حتى كادت أن تصير عادة في مجلس كثيرين «إنهم أولئك الذين يحكمون بالإعدام في كل يوم وليلة على جزء كبير من أوقاتهم، وينفذون الأحكام فور اكتمال نصابهم (الرباعي) في أي مجلس من مجالسهم التي لم يعد لها طعم ولا نكهة من طعوم ونكهات مجالس الرجال المعتادة والتي كانت تحفل ــ سابقًا ــ بالخبر الطريف، والنكتة المرحة، والقصة التي تشبه الأسطورة مليئة بالعبر والعظات، وبالأحداث والمفاجآت.

لقد اتخذ هؤلاء اللاصقون بالأرض لعبة (البلوت) عوضًا عن ذلك كله، وليس هذا فحسب بل الأفدح من ذلك أنهم اشتغلوا بهذه التسلية الجافة القاطعة للوقت الثمين، والصارفة عمّا فيه الخير لدين ولدنيا، وعمّا في المتعة الروحية والفكرية والنفسية .. »[٢].

ثم يعدد أضرارها، وما تلحقه بالمدمن على مزاولتها من خور الهمة، ودناءة المقصد، وانصراف عن الجاد إلى الهازل، وعن الاهتمام بالأهل والأصحاب والأرحام إلى محرقة يومية للعمر المسروق في هذه الساعات المتثائبة بالضجيج والخصام.

وبعد : فقد عنيت المقالة الاجتماعية بالعادات والتقاليد، وأسهم كثيرون من كتّابها في نقد العادة السيئة، وذم التقليد الجاهل، وتولوا بالتحليل والشرح والإيضاح ضرر عادات كثيرة، وخطر تقاليد سائدة، وواجهوا فئتين من الناس، الفئة

---

(١) وللعبة الورق أنظمة أخرى لا جدوى من ذكرها.

(٢) مقالة : اللاصقون بالأرض، عبدالله بن إدريس، جريدة الدعوة، عدد٨، في ٢٩ صفر ١٣٨٥هـ، السنة الأولى، ص١.

التقليدية المحبة للقديم، والتي لا تريد أن تتخلى عن عاداتها، والفئة المنجرفة نحو الجديد، ونحو المحدث، وبخاصة الشكل الظاهر الخالب للب، وكان للمقالة الاجتماعية في كل ذلك سعي طيب أثمر فائدة وتوجيهًا.

ثالثًا : الدعوة إلى العمل :

اقترنت الرغبة في النهوض بالدعوة الحثيثة إلى العمل، والدأب على الإنتاج، لأن العمل هو الخطوة الأولى الحقيقية في الطريق الطويل إلى النهضة، وبناء الحضارة. وقد مرّ بالبلاد عهد طويل من الكسل والخمول والتواكل أورثها الفاقة، وقعد بها عن اللحاق بالأمم المتقدمة في التعليم، ووسائل الحياة الكريمة، كالصناعة، والزراعة ونحوهما.

وقد آن لشباب البلاد أن يقودوا أهلهم إلى ما يريدونه من تغيير لمفهومات متوارثة عن العمل، وأن يبتدروا عهد البلاد الجديد بمثل هذه الدعوة العنيفة إلى البدء في البناء، ويا لطالما شكا هؤلاء الطليعة من المتعلمين الجمود والتخلف وركود الذهن، فليسعوا إلى الفعل، وأول الفعل كلام يعقبه تفكير وبحث عن السبل الصحية لعمل موفق، «ياقوم لقد تأخرتم وأيم الله، وتأخرنا عن كل الأمم والشعوب، تأخرنا عنها ليس بمرحلة، ولا بقرن ولا بجيل، وإنما كان هذا التأخر المزري بمراحل وقرون وأجيال»[١].

وإن من يتأمل في تأريخ النهضة في البلاد يرى مبلغ إصرار الطبقة المثقفة في الجيل الأول منها على مقاومة واقع اجتماعي متخلف، واتخاذ ما يرقى بذلك الواقع إلى المستوى المأمول من الوعي الناضج.

ومن ذلك اجتهادهم في ابتكار الآراء التي تتقدم بالمجتمع، في جوانب مختلفة وسعيهم إلى تأييد وتعضيد المشروعات الاجتماعية الرائدة، والدعاية لها، وتوفير ما يلزمها من الدعم المادي والمعنوي، ويهدفون من وراء ذلك إلى الخروج من أسر العهد الماضي إلى الحياة الجديدة بما يضطرب فيها من الإنجاز

---

(١) مقالة : حول الإصلاح، محمد سعيد العامودي، أدب الحجاز، ص٩٤.

والابتكار وألوان الإبداع، فدعوا إلى العمل[١] المثمر لأنه الصلة القوية بالحياة الدافقة بمعاني العطاء والتواصل والبذل والتجدد، ودعوا إلى الانتفاع بالموهوبين منهم[٢]، واستثمار طاقاتهم القولية والفعلية، وتشجيع ما تفيض به أفكارهم، وما تبدعه عقولهم من ماديات ومعنويات والبلاد لا يتقدم بها إلا الموهوبون من أبنائها، المتميزون في العقلية، والمتميزون في تصورهم للحياة الصحيحة، وموقفهم من تاريخهم وواقعهم ومستقبلهم المنتظر.

وفي سبيل العمل المثمر يخص محمد حسن عواد هذا المعنى بمقالات متوالية، وضع لها عنوانًا يتفق مع مايريد بعثه في نفوس متلقيه، من إحساس بحركة الحياة وضروة فهمها فهمًا صحيحًا لئلا تفوتهم الفرصة المواتية، فلا يجدون مقعدهم منها إلّا في النائي البعيد غير المرئي، «إن الحياة ترغم الأحياء على الحركة والعمل والسير والتقدم، وإننا لفي السبيل .. وإننا إن شاء الله لمتقدمون .. »[٣]

ويكتب غيره مؤكدًا على الدعوة إلى العمل، ومطالبًا بإظهار الحقائق التي يعانيها أهل البلاد، ويتألم من التفكك، ومن السبات، ومن جميع الأشياء المعيبة التي تعوق عن التقدم، ويخشى أن يورده تألمه رمسه، غير أنه يقول بوجوب اتخاذ الرفق واللين في النصح والإرشاد، وفي غمرة انفعاله بمعاني المواطنة يقصر نظره عن إدراك معناها البعيد، فلا يرى غير الحجاز، ولا يلتفت إلى ما حوله من أقاليم تضمها خارطة البلاد الناشئة، على الرغم من تأكد ولاية الحكم الجديد بأهدافه الوحدوية السامية، فيقع هذا الكتاب في كثير مما وقع فيه زملاؤه من قصور في إدراك البعد الوطني الكبير، وعجز عن استيعاب معنى الوحدة «أنا حجازي، ووطني

---

(١) انظر مقالة : حياة العمل المثمر ــ عود على بدء، بدون توقيع، صوت الحجاز، عدد ٤٤، في ١١ شوال ١٣٥١هـ، ص١، افتتاحية.

(٢) انظر مقالة : لم لا ننتفع بمواهبنا؟!، بدون توقيع، صوت الحجاز، عدد ١١٥، في ٢٧ ربيع أول ١٣٥٣، ص١. افتتاحية.

(٣) مقالة : في السبيل، محمد حسن عواد، صوت الحجاز، عدد ٣، في ١٩/١٢/١٣٥٠هـ، وقعها بـ (م.ح.ع)، ص٨، افتتاحية.

الحجاز، وشعاري القومي الحجازية، ومرامي رقي الحجاز ــ هذا أنا»[١].

أما محمد حسن فقي فيستنكر عزلة الشيوخ عن الشباب، ويطالب الجيل الجديد ألّا يعمل بانفراد «نعم يجب عليه أن يسترشد بآراء من هم أكبر منه سنًا، وأكثر تجاربًا»[٢] ويرى أن كثيرًا من الشبان يندفعون في سبيل تحقيق أهدافهم وهم خلو من التجارب، وهم تحت سيطرة عاطفة قوية مشبوبة، تصرفهم عن التفكير المتأني، والنظر البصير فيما يجب عليهم فعله، وما يتحتم تأخيره إلى حين.

ويرى الفقي[٣] أن من أسباب تأخر البلاد القعود عن العمل الاعتماد على الحج مصدرًا وحيدًا للرزق ــ في إقليم الحجاز ــ فيدعو إلى اكتشاف الثروات المخزونة، وتشجيع أصحاب الحرف والصناعات والإقبال على الأرض، حرثًا وزرعًا وإنتاجًا، ففيها كفاية تبعد عن الشح والفاقة، ويندفع إلى التعليق على الأزمة الاقتصادية الخانقة التي مرت بالبلاد، وقل بسببها الحجاج، وارتفعت الأسعار، وشحت المئونة، فلا يستسلم لغلوائها وضيقها ــ وإن كان مثقلًا بأعبائها ــ فيحث على الإنتاج والعمل واطراح الاستسلام لما تصرفه الحظوظ والأقدار، فمن قعد ينتظر ذلك تعلق بالوهم ونسج الخيال.

في مقالة حوارية مع صديقه عن العمل والحسد ينكر على الساخرين من العاملين سخريتهم، ويصور عقبات النهضة بأنها الاستهزاء ممن يعمل، والمعاندة، والحسد، ولا يستقيم أمر الوعي الجديد إلا باجتثاثها، والعودة إلى النقاء، وفهم الواقع، وتشجيع ذوي الطموح، «سلام على النشاط، سلام على حياة العمل .. في ذمة المستهزئين والمعاندين والحاسدين، وحي هلا بحياة الدعة والسكون،

---

(١) مقالة : شئون وشجون، وقّعها كاتبها بـ «متألم»، المصدر السابق، ص ٨.

(٢) مقالة : ساعة مع حجازي كبير، محمد حسن فقي، صوت الحجاز، عدد٤، في ١٣٥٠/١٢/٢٦هـ، ص٦.

(٣) مقالة : بعض أسباب تأخر الحجاز، علاج ذلك، محمد حسن فقي، صوت الحجاز، عدد ٧، في ١٣٥١/١/١٧هـ، ص٥.

حياة الجمود، حياة هذه الصخور»[١].

ويذهب محمد سعيد عبدالمقصود إلى أن العمل يصور إصرار الإنسان على الحياة المثمرة المنتجة، البعيدة عن الكسل والخمول والانتظار الفج، وهو سنة الله في هذا الكون، والسر القوي المتصل منذ بدء الخليقة إلى اليوم في استمرار الحياة بالإعمار وبذل الجهد، لتتعاقب الأجيال على إرث عظيم من الإنجاز والبذل، ويضيف اللاحق إلى السابق ما يقدر عليه، وما يسعفه به جهده.

ويعجب الكاتب من تكاسل مجتمعه عن العمل، على حين يَقْدُم الأجنبي إلى البلاد فيجد الفرصة مواتية، وفي فترة وجيزة يتملك من وسائل الإنتاج ما يؤهله لبلوغ الذروة في الثروة والجاه، ومن حوله غافلون عن قدراتهم المخزونة منصرفون عن التفكير في العمل الجيد المثمر إلى الكلام، والتمني، والشكوى والتذمر.

ويدعو عبدالمقصود إلى ترك الحديث عن الأيام السالفة من المجد المؤثل الذي قُضي، وطُوي في صفحة التاريخ، فليس عز العرب القديم الذي عاشوه في حضارتهم بعائد عن طريق ترداد أحاديثه وقصصه، ولن يعود لأصحاب الجاه القديم، والثروة الزائلة جاههم ومالهم بالبكاء على ما تصرم وانقضى، بل بالسعي إلى بناء كيان جديد يفيض بالجاه وبالمال وبالقوة «لقد دار الزمان علينا، وعضنا بأنيابه، فقضى على مجدنا الأثيل وعزنا القديم، والآن وقد أردنا أن نبعثه فيجب أن نعمل، ويجب أن نسعى بكل الوسائل الموصلة لما نريد، ويجب أن نطرق كل مسلك نعلم أن فيه الفائدة، ومن ورائه الخير لنا ولبلادنا، هكذا يجب أن نكون، أما أننا ننام ونطلب رقيًّا ونطلب تقدمًا، ونطلب حضارة، ونطلب إعادة المجد الذي اختفى بين طيات الأيام الغابرة فهذا شيء غير معقول ولا يمكن أن يكون أبدًا .. »[٢].

---

(١) مقالة : في عالم الخيال، العقبات الثلاث، محمد حسن فقي، صوت الحجاز، عدد ٣٠، في ١٣٥١/٧/١هـ، ص٦.

(٢) مقالة : العمل وواجب الأمة، الغربال (محمد سعيد عبدالمقصود)، أم القرى، عدد ٣٩٣، في ١٩ صفر سنة ١٣٥١هـ، ص٤.

وفي هذا السبيل يدعو أحمد السباعي إلى اتخاذ القوة مبدأ[١]، ومناصرة الحق، والتمسك بقيم الفضيلة، والإصرار على مقومات الشخصية منهجًا، ويحذر من الضعف في الذات الفردية، وفي الكيان الاجتماعي، ويرى أن الضعف داء وبيل إذا تمكّن تعذّر انتزاعه، والقوة ـــ في غير حماقة ولا صلف ـــ سمة للرجولة الناضجة، وعلامة على اكتمال خصائص المجتمع وتفوقه، وما غُلب الإنسان في نفسه إلا بضعفه وتمكن مسببات الضعف منه وما انهار مجتمع، وسقط من القمة إلا بتعاور أدوائه حياته، واجتماع أسباب الضعف عليه، والقوي يقاوم ويطيل في مجاهدته عوامل الإفناء والإسقاط، والضعيف الخائر غير مستطيع مواجهة الأعاصير، وغير قادر على صرف الاجتياح المدمر للضعفاء فقط.

وفلسفة القوة في مطلع النهضة ليست غريبة على السباعي فقد تعلق بها كثيرون كالعواد وحمزة شحاته، وعزيز ضياء ورأوا في القادة العظماء من أسلافنا، ومن الأمم الأخرى علامات وضيئة على الوصول بالإنسان القوي إلى الانتصار وتملك زمام القيادة والتفوق.

والقوة في مطلع كل نهضة أحق بالاحتفال، وأجدر بالاهتمام، لأن المرحلة التأسيسية محتاجة إلى أقوياء يذبون عن القيم التي تهتدي بها الأمة، ويدفعون الواغلين والضعفاء ومثيري الفتن، ومثبطي العزائم.

ولا تكون القوة في المظهر فحسب، بل في جوانب الحياة كلها، وهي منها في الأسس أولى من كونها قوة في[٢] المظاهر، والاهتمام بالأشكال لا يتعدى ـــ عند الأمم الواعية ـــ قدرًا معلومًا ينبىء عن الأمة من حيث قوتها، وطاقتها، وعوامل تفوقها.

ودعا بعض الأدباء إلى الاهتمام بالعلوم التطبيقية، وبحث ما يوصل إلى

---

(١) مقالة : حذار أن تكون ضعيفاً ـ الرسائل المطوية، أحمد السباعي، صوت الحجاز، عدد ١٥٨، في ٢٥ صفر ١٣٥٤هـ، ص٢١.

(٢) مقالة : المظاهر وأثرها في حياتنا العامة؟؟ أحمد قنديل، صوت الحجاز عدد ٢١٨، في ١٣٥٥/٥/١٦هـ، ص١، افتتاحية.

الحقيقة العلمية المادية في اكتشاف الطبيعية، واستخدامها في منفعة الإنسان، والإحاطة بقوانين الحياة المادية المخبوءة، والتي لا تتبين إلا لمن ينفقون ما يقتضيه البحث العلمي فيها من مال ووقت وجهد.

وعاب بعضهم على كثير من الشبان في منتصف العقد السادس من القرن الهجري الماضي إقبالهم على الأدب والكتابة، وإهمالهم كثيرًا من واجباتهم العملية، وتركهم العمل، وانشغالهم ببريق الأدب عن حقائق العلم، «يا شباب البلاد .. ليس الأدب شيئًا، وإنما العمل هو كل شيء. إن الأمم لن تتقدم ولن تنجح إلا على أساس العمل الحر، والنضال، ومصارعة الحياة، اشحذوا أذهانكم، وفكروا في مستقبل بلادكم»[١].

والنهضة العملية محتاجة إلى عزائم الشباب، وإقبالهم على الحقائق، وابتعادهم عن الأوهام والخيالات، وتركهم التغني بما مضى من سوالف الأيام، والأمل كبير في قيام حضارة عربية إسلامية، تستمد من الماضي الحقائق الكبرى الثابتة، وتستضيء بقيمه عن السقوط في هوان نفايات الأمم الأخرى الاستهلاكية، وإن شرط الاعتماد في النهضة على ماض مؤثل، وتاريخ قديم ليس بلازم — كما يرى عزيز ضياء — إذ أن أممًا كثيرة نهضت إلي الحياة في قوة وعزم وعمل، ولم يكن لهم ماض، ولم يكن لهم تراث غني بما يدفع إلى النهضة، ويساعد على التحضر، «نهض قدماء اليونان دون أن يسبق هذا مجد مؤثل أو حضارة تليدة، ونهض الجرمان والصقلب والسكسون، وهم برابرة أوروبا هذه النهضات التي كونت مجدهم الحديث بعد أن ظلوا في تثاؤب البربرية وغفلتها دهورًا طوالًا .. »[٢].

والاستفادة من التاريخ في بعث النهضة مدعاة لتجاوز الأخطاء، والابتعاد عن هفوات[٣] النشوء، وفي تاريخ كل أمة عبر وعظات ودروس، لا يستفيد منها إلا

---

(١) مقالة : جناية الأدب على الجيل الحاضر، بدون توقيع، صوت الحجاز، عدد ٤٧٨، في ٧ شعبان ١٣٥٦هـ، ص١، افتتاحية.

(٢) مقالة : الحياة تاريخاً، عزيز ضياء صوت الحجاز، عدد ٥٨٣، في ١٣٦٠/٥/٢٤هـ، ص١.

(٣) انظر مقالة: التاريخ.. التاريخ، إبراهيم هاشم فِلالي، صوت الحجاز، عدد ٥٨٦، في ١٣٦٠/٦/٥هـ ص١. ومقالة : لماذا لا ننتفع بالتاريخ ؟ بتوقيع : ابن محمد، المصدر السابق.

العقلاء العاملون، فالعمل في نهاية الأمر هو الفيصل في قيام النهضة وإخفاقها.

وقد بذل كثيرون من الكتّاب المقاليين جهدهم في البحث عن سبل النهضة الحقيقية، فدعوا للتعليم، ودعوا إلى المشروعات الوطنية النافعة، ودعوا إلى إصلاح الاقتصاد، وتوجهوا في كل ذلك إلى العمل على الوصول إلى غايات هذه الدعوات جميعًا.

مشـروع القـرش :

من الأعمال الجليلة سعي بعض الوطنيين إلى إقامة جمعية مشروع القرش، لتتولى الإنفاق على المشاريع الضرورية في البلاد، ودعم الأفكار الخيرية التي يقترحها المصلحون لتطوير الحياة الاجتماعية.

والفكرة التي قام عليها المشروع هي : جمع ما يتيسر من التبرعات التي يجود بها المواطنون والمحسنون، واختيار مجلس إدارة يتولى إدارة أعمال الجمعية، وتدوين جلساتها، ومتابعة الآراء التي تدور حول مشاريع الجمعية، بحيث تكون قادرة على الإلمام بما تحتاجه البيئة الاجتماعية من أعمال لتطوير الثقافة والتعليم، والارتقاء بالخدمات إلى مستوى جيد، والاعتناء بإحداث المرافق اللازمة للمواطنين.

وقد قلّد الحجازيون في هذا المشروع سعي المصريين إلى جمع ما يتيسر من مال في مشروع «القرش» لاستكمال مصالح بلادهم، ورعت هذا المشروع الأديبة «مي زيادة»، واقتدى مثقفو الحجاز بمي في هذا، فنرى جريدة صوت الحجاز في عددها الأول تنقل خبر سعي «مي» في مشروع القرش، وطلبها أن تعقد لمثل ذلك جمعية في سوريا، تورد الصحيفة ذلك وتعقب عليه قائلة : «فمتى نرى الشعب الحجازي ومحبي البلاد المقدسة يعمدون إلى مثل هذه المشاريع الوطنية النافعة لتشجيع العلوم والفنون فيها وليرفعوا من قدرها بين بلدان العالم مبارين في ذلك شعوب البلاد العربية الأخرى ؟»[١].

(١) في ١٣٥٠/١١/٢٧هـ، ص١.

ووجدت هذه الفكرة الوطنية من الأدباء القبول والتأييد، وتولى الإعلام عنها والدفاع عن مراميها وأهدافها محمد سعيد عبدالمقصود، وأحمد السباعي، وطاهر زمخشري وعزيز ضياء وعبدالقدوس الأنصاري وغيرهم، وظهر هذا التأييد على هيئة مقالات يكتبونها في شرح الفكرة، وفي اجتماعات لاختيار هيئة إشراف على جمعية القرش، وفي التحدث عنها أمام الناس في المحافل والمنتديات.

وأفاض محمد سعيد عبدالمقصود في مقالته عن الأهداف التي يتوخاها المواطنون من فكرة القرش، وماذا يريدون من القائمين عليها، وكان أول من دعا إلى هذا المشروع، ويقول واصفًا فكرته : «اقترحت تنفيذ مشروع القرش لتأمين مستقبل الناشئة ولنتقدم في حياتنا الصناعية خطوة إلى الأمام ووضعت مواد أساسية للمشروع وقد كنت أكتب الاقتراح ونفسي تحدثني أنه لا محالة ينفذ وسيستمر وسيتحقق شيء من أحلامي الذهبية، لثقتي برجالنا الماليين ومفكرينا البارزين وشبابنا المثقف»[١].

ويرى غيره[٢] أن البلاد ستحظى بإنشاء مشروعات كثيرة بعد أن يجمع القائمون على أمر جمعية القرش مايلزم لذلك، ويضرب مثلًا بمصر في تعاون المصريين على إنجاح مشروعهم.

وتوالت مقالات التأييد والتعضيد، فمن رأى أنه عمل وطني مشترك واجب الشعب نحوه العون والمآزرة[٣]، ومن ذاهب إلى أن مشروع القرش حدث

---

(١) مقالة : الحديث ذو شجون ـــ حول مشروع القرش، محمد سعيد عبدالمقصود، عدد ٦٣، في ١٣٥٢/٣/٤هـ.
وانظر مقالة :
ـــ حول مشروع القرش، صوت الحجاز، عدد ٧٧، في ١٣٥٢/٦/١٣هـ.

(٢) مقالة : مشروع القرش وضرورة تأييده وتشجيعه، بتوقيع أ.م، صوت الحجاز، عدد ١٣٦، في ٢٦ شعبان ١٣٥٣هـ.

(٣) مقالة : مشروع القرش من الأعمال المشتركة واجب الشعب نحوه، بدون توقيع، عدد ٦٠٦، في ٢٧ ربيع الثاني ١٣٥٥هـ، ص١.

خطير[١]، سيغير شيئًا من الواقع الاجتماعي، وسيسعى بها إلى مدارج الرقي، ويسرف آخر في التفاؤل فلا يرى مانعًا من النظر إلى الفكرة على أنها بديل ما تفتقد إليه البلاد من المرافق والإدارات، «وإننا والحق يقال في أشد الحاجة لمشروع بسيط في تكاليفه عظيم بنتائجه، ومثل هذا المشروع يفتح للأمة باب التعاون والتعاضد من غير إرهاق ولا حرج»[٢].

وفي هذه الأثناء يخشى أحد الحريصين[٣] على النهضة من عاطفة الشباب نحو العمل، واندفاعهم في التغيير فيدعو إلى التفكير الهادىء، ثم العمل بإقدام، لأن البلاد ــ كما يبدو ــ في فجر حياة جديدة.

ويخاف أحمد السباعي من فتور العزيمة، واضمحلال الشعور بجدوى هذا المشروع فيغدو أثرًا في الذاكرة، بعد أن كان قريب التحقق، «يخالجنا شيء من الخوف على هذا الحماس أن يعاوده الخبو ــ على قاعدة التناوب المشهورة في بعض مشاريعنا .. وبلغة أصرح يخالجنا هذا الخوف أكثر ما يخالجنا من بعض رجال المشروع أن تنطفىء جذوتهم على إثر توالي الاجتماعات، أو ينكفئوا إلى الدعة متكلًا بعضهم على بعض. وهو نوع من الاطمئنان إذا توافر بين رجال فكرة ما استرخت الأعصاب وفتر نشاطها، وسرت (عدوتها) إلى جميع الأوصال (فطفأت) فيها الحياة وقادتها إلى القبر .. »[٤].

ثم يستعيذ بالله من العجز والكسل، ويرى أن الأمة على مفترق الطرق بين حياة ينهض بحجتها هذا الشباب المتحمس الناهض، أو ممات يسهّل هؤلاء سبيله

---

(١) مقالة : مشروع القرش حدث تاريخي خطير، أحمد السباعي، أم القرى، عدد ٦١٠، في ١٩ جمادى الأول ١٣٥٥هـ، ص١.

(٢) مقالة : كلمة حول مشروع القرش، بقلم: وطني، صوت الحجاز، عدد ٢٢٤، في ٢٨ جمادى الثانية سنة ١٣٥٥هـ.

(٣) مقالة : نحن الآن في فجر حياة جديدة، فلنفكر أولاً ولنعمل بإقدام، عبدالسلام عمر، أم القرى، عدد ٦١٢، في ١٣٥٥هـ، ص١.

(٤) مقالة : مشروع القرش، أحمد السباعي، صوت الحجاز، عدد ٢٢٦، في ١٣ رجب ١٣٥٥هـ، ص١.

يرضونه فيحكم به القضاء.

وأفردت صوت الحجاز عددً[١] كاملًا للإعلام به، وبينت تعليماته، وما اتفق عليه أعضاء مجلس الإدارة من قرارات، وتحدث عن المشروع مسئولون ووجهاء وتجار.

على أن هذا المشروع الممتاز لم يوفق إلى ما كان يرجوه المخلصون، فضعفت الدعاية له، وتألم من إحجام أبناء البلاد عن دعمه كثيرون، فنادوا حاثين القادرين على مده بالمساعدة والحدب عليه[٢]، وتساءل آخرون : أين الآمال الموعودة؟ وأين أحلام القرش التي ستجنيها البلاد ؟[٣]، وهل يحجم المجتمع عن التنبه إلى ما ينفعه ؟! ولماذا هذا الخذلان ؟![٤].

إنها صرخات من أعماق[٥] الفؤاد تنطلق من قلوب متألمة من ركود الحياة، وكان لها أمل في مثل هذا المشروع، للقيام ببعض ما تفرضه المواطنة من وجوه الإصلاح المختلفة.

---

(١) عدد ٢٤٥، في يوم الثلاثاء ٥ ذي الحجة ١٣٥٥هـ، وتحدث فيه الأمير فيصل بن عبدالعزيز آل سعود، نائب الملك عبدالعزيز في الحجاز، وتحدث فيه أيضاً عدد من الأدباء.
وهو أول عدد من الجريدة تدخله الصورة، فنشرت صوراً في الصحفة الأولى للملك عبدالعزيز، ولولي العهد سعود، وللأمير فيصل، ونشرت في الصفحات الداخلية صوراً لعدد من الأدباء مثل عبدالوهاب آشي، ومحمد حسن فقي ، ومحمد أمين عقيل، ومحمد سعيد العامودي، وأحمد السباعي، وعبدالقدوس الأنصاري.

(٢) مقالة : على هامش مشروع القرش، كلمة إلى الشباب طاهر زمخشري، أم القرى عدد ٦١٠، في ١٣٥٥هـ، ص٨.

(٣) مقالة : أين أنتم يا أصحاب القرش؟ ولماذا أنتم صامتون؟ بقلم شاب، أم القرى عدد ٦٤٩، في ٣٥٦، ص٧.

(٤) مقالة : أين القرش، حمزة خوج، أم القرى، عدد ٦٧٣ في ١٣٥٦هـ ص٢.

(٥) مقالة : حول مشروع القرش ــ صرخة من أعماق الفؤاد، بقلم أحدهم، أم القرى، عدد ٦٢٦، في ١٣٥٥هـ، ص٣.

رابعًا : الدعوة إلى التعليم :

لعل من الأسباب القوية التي أوقفت شبه الجزيرة العربية عن مهمتها الحضارية في التنوير والقيادة وبث الوعي افتقادها مراكز التعليم، وحاجتها إلى علماء أكفاء قادرين على أداء رسالتهم الشريفة في بناء المفهومات الصحيحة عن العلم، وتكوين أجيال واعية لدورها في الحياة، إلى ما كان من فرض اللغة التركية على التعليم في العهد العثماني.

ومرت قرون طويلة والمد العلمي لا يتجاوز في أحسن الحالات الحاجة الضرورية منه، دون أن يتوسع القائمون على أمر البلاد في نشره وتشجيعه ورعايته، وورث الجيل الأول من أجيال النهضة هذا التراكم الزمني الطويل من التخلف عن ركاب العلم وأحسوا بأنه الثغرة الأولى التي يجب الالتفات إليها وسدها، وأخذوا أنفسهم بالدعاية للتعلم، والدعوة إلى التثقف بالمعارف العامة، والعلوم الجديدة، وطالبوا بنشر المدارس الحديثة، وتغيير مناهج الدرس العتيقة التي أنشئت قديمًا، وظلت في بعض المدارس القليلة في مكة وجدة وحثوا القائمين على أمر البلاد على سرعة إنشاء مراكز التعليم في أقاليم المملكة كلها لكي يتولى الجيل الجديد من المتخرجين فيها قيادة المجتمع إلى حياة أكثر تطورًا وصلاحًا.

فحين صدر كتاب «نفثات من أقلام الشباب الحجازي» قدم له محمد سرور الصبان، واستبشر بوجود هذا النفر من المتعلمين المتطلعين إلى تغيير الحياة في البلاد إلى ما هو أسمى وأكثر وعيًا، وأعجب ببحثهم عن المعارف، وإحساسهم بحاجة البيئة الاجتماعية إلى التعليم، وهذا أهم الموضوعات التي تعني كل مخلص ـــ كما يقول ـــ غير أنه يدعو إلى القسط والاعتدال في التعليم، ويخشى من سطوة الثقافة، وكثرة ما تريد تغييره، وكأنه يتلمس الإصلاح الهادىء البعيد عن الصدام مع قسوة الواقع المتردي، فلا ينبغي أن يكون التعلم إلا بالقدر الذي تحتاج إليه البلاد، «ولا نريد أن نكون في التعليم أيضًا إلا معتدلين، فإن المتعلمين إذا زادوا عن الحاجة انقلبت المنفعة ضررًا بالغًا لا يمكن التغلب عليه !! »[1].

---

(١) المقدمة ص١٠.

وإن هذا القسط الذي يهدف إليه الصبان في التعليم لأمر يدعو إلى العجب والتساؤل عن ضرر العلم ؟! وهل في التعلم أضرار ؟ وماهي مطالب المتعلمين إذا زادوا عن الحاجة ؟! إن هذه الرؤية القاصرة عن «العلم» أساءت إلى ما حمله الكاتب من دعوة إلى الاستنارة بالمعارف، وقصرت بتطلعه عن بلوغ أهدافه البعيدة، التي لم يدرك مداها ! وما يتبادر إلى تفكير أحد منا أن العلم سيكون له خطر على الحياة، ولا ضرر بالواقع الاجتماعي، إلا إذا كان من يذهب إلى هذا الرأي أن غايات المثقفين السامية التي تسبق التفكير السائد في البيئة يمكن أن تكون خطرًا، لأنها تدعو إلى التجديد، وتسعى إلى نيل الناس حقوقهم في الحياة الحرة الكريمة، ولعل في هذا السعي صدامًا مع القيم التقليدية الراكدة في المجتمع، واختلافًا مع المؤمنين به من المحافظين على كثير من الموروث الباهت، أو المناصرين للإيمان بما هو كائن على الإطلاق، دون فهم لطبيعته، ودون وعي لما يحسن التطلع إليه.

على أن هذا الفهم للعلم لم يتجاوز الصبان إلى سواه، فالكتّاب الآخرون انطلقوا في دعوتهم إلى التعليم دون حدود، فشكوا التبلد، وتذمروا من الخمول، وتطلعوا إلى خطوة قادمة بمعارف العصر وعلومه «.. لقد كفانا موتًا وخمولًا في كل حياتنا الماضية، وكفانا مافينا من الجهل الفاضح، والجمود الفادح اللذين كانا سببًا في انحطاطنا وضياع أمجادنا ومفاخرنا. حتى أصبحنا شعبًا مهملًا بين الشعوب وأمة من أمم التاريخ يحكى عن ماضيها وأسلافها، وتدرس معالمها وآثارها. وليست نهضتنا الحالية إلا بعث عقب موت، واستهلاك بعد فوات، إن لم نتعهدها بما يضمن سيرها في سبيل التقدم، ويكفل بقاءها بين الكوارث والحوادث، فيا للخيبة ويا للخسارة !»[1].

وهم يؤمنون أيضًا بأن القوة في العلم، والعصر لا يرحم الضعفاء، ولا يمكنهم من الحياة، ولذلك يؤكدون على أن أمامهم طريقين، مدنية وتقدم ومجد بالعلم

---

(١) مقالة : حاجاتنا إلى العلم، بدون توقيع صوت الحجاز، عدد ١١، في ١٥ صفر ١٣٥١هـ، ص١، افتتاحية.

والمعارف أو خمول وذل وفناء بالجهل وإهمال التعليم[١].

واستبشروا حين رأوا أول حائزين[٢] على الشهادة العالية في التربية وفي الطب، فامتدحوهما، وعلقوا عليهما الآمال الكبيرة ثم امتد أمامهم الأمل الباسم الفسيح فكتبوا يطالبون بإنشاء جامعة في البلاد، ترعى المعارف، وتخرج دارسي العلوم العصرية، وتمكن المجتمع مما يحتاج إليه من ضرورات الحياة[٣].

وطالبوا بالارتقاء بالمناهج، وأخذ رأي الأساتذة[٤] المعلمين فيها، والاستفادة من خبرتهم، والابتعاد عن عزل الأستاذ عن المنهج التعليمي.

وتصدى بعضهم لرد التهم التي تطلق على التعليم الحديث، فتولى عبدالكريم بن جهيمان إبانة حقيقة هذا التعليم، ودعا إلى الإسراع بإلحاق الأبناء به، والإقبال عليه، وتشجيعه، فكتب عن ذلك ساعيًا إلى إقناع بعض المتشككين في قيمة هذا التعليم الجديد، وفي جدوى المدارس، ذاهبين إلى أن العلم بأمور الدين متيسر لأبنائهم في حلقات الدرس الديني لدى عدد من المشايخ وعلماء الدين واللغة في بعض المساجد أو البيوت المعروفة، فشرح لهم الكاتب أهداف الملك عبدالعزيز من نشر هذه المدارس، وأبان عن المنهج الذي تسير عليه في

---

(١) انظر مقالة : عصر القوة والعلم، بتوقيع ابن رشيق (محمد سعيد العامودي) صوت الحجاز، عدد ١٩، في ١٣٥١/٤/١٢هـ، ص٧.

(٢) محمد شطا حصل على الدكتوراة في علم النفس والتربية، ومحمد الخاشقجي، حصل على الدكتوراة في الطب. انظر : ما كتبه : (ابن واصل) عنهما في صوت الحجاز، عدد ٣١، في ١٣٥١/٧/١٥هـ، ص٥.

(٣) انظر مقالتين عن ذلك :

ـ مقالة : أليس من الواجبّ إنشاء جامعة علمية في العاصمة؟ بدون توقيع، صوت الحجاز، عدد ١٣٧، في ١٣٥٣/٩/٤هـ، ص١.

ـ مقالة : هل تتحقق فكرة إنشاء جامعة للتعليم العالي في بلادنا؟ بدون توقيع، صوت الحجاز، عدد ١٣٨، في ١٣٥٣/٩/١١هـ، ص١.

(٤) انظر مقالة : اشتراك الأساتذة في تعديل المنهج الابتدائي، أحمد قنديل، صوت الحجاز، عدد ٢١٣، في ١٣٥٥/٤/١٠هـ، ص١، افتتاحية.

ومقالة : قضية الأساتذة، محمد حسن كتبي، صوت الحجاز، عدد ٢١٦، في ١٣٥٥/٥/٢٠هـ، ص١، تعليق على المقالة السابقة.

تلقينها التلامذة دروس الدين «إن الغرض الأول من إنشاء هذه المدارس، والهدف الوحيد الذي ترمي إليه هو تعليم القرآن العظيم بطرق سهلة بحيث يقرأ قراءة صحيحة متقنة، ثم غرس العقيدة السلفية النقية من شوائب البدع والخرافات في أفئدة الصغار، ونقشها على صفحات قلوبهم من نعومة الأظفار حتى يشبوا ويترعرعوا وهي تشب وتترعرع معهم، وبذلك نأمن عليهم زيغ العقيدة في هذا العصر الذي كثرت فيه عواصف الفتنة، وانتشرت فيه زعازع الطغيان ونزعات الإلحاد .. »[١].

وأثمرت هذه الدعوة عن إقبال كثيرين على المدارس الحديثة، وترحيبهم بها، وكان لإسهام كتّاب المقالة الأثر الكبير في ذلك، لأن العلم إذا وجد اتسع نطاق التفكير وانفسح مجال الخير، واتجهت الأمة نحو الإصلاح[٢]. وهل يمكن أن تنشأ حضارة من غير أن تتأكد قيمة العلم، ويعمل بحقائقه الطامحون إلى قيام هذه الحضارة وتعم أنواره البلاد ؟! فالتعليم أساس الثقافة والنهضة سواء أكانت ثقافة دينية أم أدبية أم علمية[٣].

وانتظر مثقفو البلاد ما يحمله المستقبل لهم من آمال، وصوروا أحلامهم تلك على خير ما يكون التصوير من التفاؤل والعزم، «فسيأتي إن شاء الله يوم لنا فيه (دكاترة) في شتى فروع العلم والفنون والآداب، يسيطرون على حياتنا العقلية، ويضيئون جميع مرافق حياتنا الأخرى، أما أن يكون هذا اليوم قريبًا أو بعيدًا فذلك رهين بالطاقة المادية والمعنوية التي تبذلها الحكومة والشعب جميعًا .. وما أجمل أن تكون لنا حياة عقلية راقية، بل ما أسعدنا يوم نقف مع التاريخ إجلالاً نحيي أول جامعة علمية في مكة الكبرى مهبط الوحي ومشرق النور، ومنبع الشريعة السمحة .. »[٤].

(١) مقالة : في مدارس نجد، عبدالكريم بن جهيمان، مكة، أم القرى، عدد ٦٥٨، في ٨ جمادى أولى ١٣٥٦هـ، ص٣.

(٢) مقالة : إصلاح التفكير مبدأ الاصلاح العام إبراهيم، الشورى، المنهل، عدد ربيع أول ١٣٦٥هـ، ص١٠٣.

(٣) مقالة : مستقبل ثقافتنا، عبدالرحمن الطيب الأنصاري، المنهل، عدد ذي الحجة ١٣٧٣هـ.

(٤) مقالة : هل ستكون لنا جامعة علمية في مكة؟ عبدالله عبدالجبار، البلاد السعودية، عدد ٧٤٧، في ٢٤ شوال ١٣٦٧هـ، ص٤.

تعليـــم الفتـــاة

عالجت المقالة الاجتماعية هذه القضية في أناة وصبر طويلين، إذ لم تكن الأذهان مهيأة لاستقبال هذا النوع من التعليم، وكثيرون من أبناء البلاد مازالوا مترددين في قبول تعليم أودلاهم، فكيف يسمحون لبناتهم بتلقي التعليم على هذا النحو الحديث الذي تتلقاه الفتيات في المدارس الآن ؟!.

وقد دار خصام طويل حوالي عام ١٣٥٣هـ بين المحافظين ودعاة التجديد، فمن حريص على إبقاء المرأة على ماكانت عليه من معارف قليلة محدودة، تكسبها تجربتها الضيقة في الحياة الاجتماعية، ومن اتصالها بمن يتولين التعليم على الطريقة القديمة من النساء، بما يتيسر من علوم الدين واللغة والحساب. ومن آمل في إخراجها من هذا الطور الراكد المتخلف إلى فسحة رضية في الحياة، تنعم فيها بدرسها ما تحتاج إليه في الحياة من علوم الدين واللغة، والمعارف الحديثة، وطرائق التربية والرعاية المنزلية، وما إلى ذلك.

وقد اشتدت الخصومة بين الفريقين وطال أمدها، ولم تهدأ إلا في السنوات الأخيرة من القرن الهجري الماضي، حين أثمرت الدعوة إلى التحديث عن ثمراتها، فتولت المرأة المتعلمة إدارة التعليم، ورعاية أبنائها، ومشاركة الرجل في القيام بأعباء النهضة، وبناء المجتمع الحضاري القوي.

ووقف كثيرون من كتّاب المقالة إزاء تعنت المحافظين وخوفهم من تعليم المرأة موقف المصاول الصبور، المجادل بالحسنى، والآمل في الوصول إلى الغايات الشريفة السامية من تعليم المرأة.

وقد كتب إبراهيم هاشم فلالي[1] يدعو إلى اقتناع المجتمع بتعليم الفتاة، ويقدم ما يرغب في ذلك من تصوير لعقليتها الواعية المثقفة المدركة لواجباتها

---

(١) مقالة : تعليم الفتاة، إبراهيم هاشم فلالي، صوت الحجاز، عدد ١١٩، في ٢٥ ربيع الثاني ١٣٥٣هـ، ص٣.

حين تتعلق بأسباب المعرفة، وتتصل بأنواع من العلوم التي ترقى بها وتوقفها على تاريخ أمتها، وأحوال العالم، وجغرافية الأرض، وطريقة الاقتصاد، ووسائل التربية والرعاية للطفل وللأسرة.

وأيدته إحدى الفتيات[1] بمقالة يغلب عليها الانفعال، مطالبة بالسماح للمرأة في البلاد بالتعليم وثقف العلوم، ومتحدثة عن طريقتها في حصولها على ما أدركته من العلم مرغّبة بنات جنسها في الحرص على تحصيله.

ويرد رئيس تحرير صوت الحجاز ـــ فيما يبدو ـــ على من لقبت نفسها بـ «متعلمة حجازية»، ينكر دعوتها إلى تعليم المرأة، ويطلب حصره في أضيق حد، ويحذر من إطلاق العنان لها للكتابة في الصحف، وقول الشعر، وقراءة الروايات الخيالية، لما في ذلك من خطر على أخلاقها !.

وفي البدء يعجب ممن كتب يؤيد هذه المتعلمة ودعوتها، ويرى أنهم لا يدركون تجارب الأمم من حولهم ؟ حين انتكست المرأة لديهم وخرجوا عن جادة الخلق القويم، وتنكبوا عن طريق الفضيلة ..، «فبعض كتّابنا هداهم الله تعلقوا في أذيال (متعلمة حجازية) وأخذوا يناصرون فكرتها من غير أن يدرسوا الموضوع درسًا وافيًا ويعطوه ما يستحقه من العناية والدقة بالنسبة لتقاليدنا وعاداتنا.

على أن تعليم الفتاة يحتاج إلى تفكير ودرس من نواحٍ مختلفة وتحديد نوع العلوم التي يجب أن تتلقاها في بيتها وبين أبويها لا في مدرسة عمومية مستقلة فقد شاهدنا ورأينا النتائج التي جناها جيراننا من الأمم الشرقية الإسلامية من جراء تعليم المرأة تعليمًا حرًا .. وإذا كنا نرى أن الوقت قد حان لتعليم الفتاة وأن لا مندوحة لنا عن ذلك فيجب علينا قبل كل شيء تربيتها تربية صحيحة وأن تلقن العلوم الدينية أولًا فقط فالدين أعظم حصن لعفتها، وألّا يسمح لها بمطالعة الروايات الخيالية والكتب العصرية، فإن أمثال هذه الكتب تزيد عقليتها ضعفًا

(١) مقالة : حول تعليم الفتاة، بتوقيع «متعلمة حجازية»، صوت الحجاز، عدد ١١٢، في ١٦ جمادى أولى، ١٣٥٣هـ، ص٥.

ومداركها نقصًا، فتشعر أنها قد بلغت مستوى الكمال والحق أنها تزداد حماقة وجهلًا فينجم عن هذا هدم كيان العائلة، أما إنها تكتب في الصحف أو تنظم الشعر أو تلقي المحاضرات فهذا شيء لا تسمح به عاداتنا، هو تقليد سمج — ولا مؤاخذة أيتها (المتعلمة الحجازية) — تمجه النفس وتنفر منه الطبيعة الحساسة»[١].

ثم يشكو من إقبال الناس على معالجة هذه القضية، وترك الحديث في المشاريع النافعة التي تنهض بالبلاد، ويتعجب كيف لا يكتب القراء مؤيدين مشروع القرش !!.

وقد كتبت من رمزت لنفسها بمتعلمة حجازية رسالة إلى أحد المحررين في الجريدة، رمزت له بـ (ر.ع) تستحثه على الدفاع عن فكرة تعليم المرأة، وتبين أنها تدعو لتعليم أصول الدين وأمور المنزل، لا الفلسفة، ولا اللغة الانجليزية، والهندسة !.

فهي قانعة بالقليل الذي ينبه المرأة إلى واجباتها، ويعينها على فهم ما يجب عليها، لكي تكون الحجازية سيدة منزل وربة دار — بحق — تربي أطفالها أحسن التربية، وتبث فيهم روح الفضيلة الحقة.

وعلق على مقالة الجريدة من رمز لنفسه بـ «فتى الصفا» مؤيدًا تعليم البنات، ومعارضًا من يقول بمنعها من ذلك، ويتساءل عن موانع التقدم، إذا كانت في التقاليد فلماذا الخضوع ؟، ويقول إنه يجب الرقي، ويتمنى أن يرى السعي إليه عمليًا[٢].

ورد أحمد السباعي مؤيدًا الدعوة إلى تعليم المرأة، ونافيًا كون التعليم مدعاة لفسادها، وقال : إن هذا وهم وظنون، وتساءل عن حقيقة المرأة، هل هي متاع

---

(١) مقالة : كلمة حول حول تعليم الفتاة الحجازية، لم توقع.. ولعل كاتبها رئيس التحرير — إذ ذاك — وهو محمد على رضا، عدد ١٢٥، في ٧ جمادى الثانية ١٣٥٣هـ، ص١.

(٢) مقالة : ما يمنعنا نتقدم، بتوقيع فتى الصفا، مكة المكرمة، صوت الحجاز، عدد ١٢٦، في ١٥ جمادى الثانية ١٣٥٣هـ.

وسقط، فلا يسعى المجتمع إلى تثقيفها وتوعيتها وتهذيبها، ويرد على منكر فكرة التعليم في حماسة وانفعال «نريدك أن تعلمها إذا استطعت في خزانتك أو مخدعك أو في أي مخبأ شئت علمًا يجعل منها مربية تعرف الدين وتنبذ الخرافات وتحسن تربية أولادها، علّمها في مدرسة أو في غير مدرسة .. »[١]. ويرى أن الكاتب مدفوع بعامل الغيرة على المرأة، وهو شيء يُحمد صاحبه عليه ويستحق من أجله العفو والتقدير.

على أن كاتب المقالة المعارضة السابقة، والتي ذهبنا إلى أنه رئيس التحرير يرد على من ناقشوه في هذه القضية مصرًا على موقفه، وضاربًا الأمثلة بمساوىء النهضة النسائية في العالم، ومعتقدًا أن المطالبة بتعليم البنات وإنشاء مدرسة خاصة بهن نزعة جديدة مقلدة لبعض الأقطار العربية، وليست بدافع الحاجة إلى تعليم المرأة، ويحذر من الاختلاط، ومن تقليد الغرب، ويشير إلى أن ما نلمحه من التمرد والشراسة في المرأة إنما يعزى إلى علة التعليم ومطالعة الروايات الخيالية، «وما كان الغرض من كلمتنا تلك إلا إيقاف فكرة جديدة عند حد معين إذ لو أطلق لها العنان لحادت بأصحابها عن منهج الحق مندفعة بقوة الشباب الفكرية إلى غير الغاية المنشودة.

وإذا كان من المتعذر على الإنسان أن يحوّل مجرى بعض الأفكار ففي استطاعته أن يقيم حول ذلك المجرى بعض السدود .. »[٢] ويرى أنه أهمل ردًّا بعثت به «متعلمة حجازية» لأنه قاس يتطاير منه الشرر، ويمثل استرجال المرأة حين تتهور وتطالب بمجاراة الرجل في أعماله وتقليده في نزعاته وأفكاره.

وإذا كان رأي رئيس التحرير آنذاك ــ فيما نعتقد ــ لم يصل إلى استيعاب مضامين الوعي العلمي للمرأة، وكان خائفًا عليها من التكشف على العلوم والمعارف وثقافة العصر فإن غيره كثيرون ــ كما مرّ ــ لم يقعوا في هذه النظرة

---

(١) مقالة : تعليم المرأة لا يكون مدعاة لفسادها، أحمد السباعي المصدر السابق ص١.

(٢) مقالة : كلمتنا الأخيرة، حول تعليم البنات، بدون توقيع، ويبدو أنه رئيس التحرير كما أسلفت (محمد علي رضا)، صوت الحجاز، عدد ١٢٨، في ٢٩ جمادى الثانية، ١٣٥٣هـ، ص١.

الضيقة، فقد كانوا مدركين فضل التعليم للإنسان بعامة، فدعوا إلى العناية بالمرأة، وتهذيبها وبينوا أن تعليمها لا يخرج بها عن الدين[١]، وتحدث بعضهم عن مسيرة تعليم المرأة المصرية، وكيف بدأت تواجه دعوات المعارضين، ثم مالبث المجتمع أن تقبلها واقتنع بها، فأدركت من العلم ما زادها بصرًا بالحياة، ونفعًا لبيئتها، فدعا إلى الاقتداء بها «ونحن في وقتنا الحاضر أحوج ما نكون إلى التطور لنقتبس محاسن الحياة وننتفع باتخاذ أساليبها النافعة، ونرى أن أي تحول اجتماعي لا يكون أساسه البيت والمدرسة والمرأة خليق بأن يكون تحولًا مضطربًا، لا تبنى عليه حياة صحيحة»[٢].

وذهب آخرون إلى أن تعليمها لا يخرج عن تصور العقل، وإقناع المنطق[٣]، وأن تعليم المرأة ما تثقفه لدينها ولغتها وتربية أولادها لا يمنعه الدين، على ألا يدعوها ذلك إلى التوسع في أمور لا تستفيد منها[٣]. وتعليم المرأة سنة مدنية يجب ألّا يهملها الشرقيون ــ كما يرى العواد[٤].

وبعد أربعة عقود من بداية الدعوة إلى تعليم الفتاة تأتي إحدى المتعلمات لتطلب المزيد[٥] وتؤكد أن المرأة هي المدرسة الأولى، لأنها ربة البيت، ومنشئة الأجيال فيلزمها التثقف والتعلم، والوقوف على المعارف المختلفة، وحين تدرك ما تستطيعه من ذلك كله فإنها ستعطي مجتمعها ما تفرضه عليها الوطنية، وما يقتضيه الواجب من استقامة على الفضيلة، وإحسان في التربية، ومشاركة في البناء.

غير أن الخوف على المرأة يلازم المحافظين فما ينفكون عن حذرهم من إعطائها حق التعليم، وحق العمل، فحين كتب أحد المتطلعين إلى مزيد من

---

(١) مقالة : تعليم البنات، بتوقيع (ح)، صوت الحجاز، عدد ١٥٤، في ٢٦ محرم ١٣٥٤هـ.
(٢) مقالة : حاجتنا إلى تعليم البنات شيء يقره المنطق، أحمد السباعي، وحي الصحراء، ص٩٢.
(٣) مقالة : تعليم المرأة الحجازية، محمد سعيد عبدالمقصود، كتاب «محمد سعيد عبدالمقصود خوجه حياته وآثاره»، محمد بن سعد بن حسين ص١٣٥.
(٤) مقالة : من سلسلة أفكاري، خواطر مصرحة، جـ١، ص١١٧.
(٥) مقالة : نحن أمهات الغد، شيخة عبدالله الدغفق، المنهل، عدد ذي الحجة، ١٣٨١هـ، ص٨٦٧.

التعليم والتثقيف للمرأة[١] ردّ عليه في عنف وقسوة عبدالله بن إدريس متهمًا الكاتب بأنه أرعن، وبأنه مدخول في تفكيره، وغير مؤمن بالتقاليد الموروثة[٢].

واليوم وقد نجح تعليم الفتاة واستقام بها الطريق في سبيل الخلق والعلم معًا، وأثمر تعليمها عن وعي وثقافة ونتاج لم يعد لرأي معارضي تعليم الفتاة من قيمة تذكر سوى دلالته على قصور نظرتهم إلى هذه القضية، وضعف تصورهم عنها، وعدم فهمهم لما تنطوي عليه من نظرة بعيدة نحو المستقبل.

ولعل ضجرهم مما وصلت إليه الفتاة في بعض البلاد العربية ـــ كما ذكر رئيس تحرير صوت الحجاز ـــ كان السبب في قصور نظرتهم، وشدة خوفهم من تعليم الفتاة.

وندرك بعد هذا الإلمام بتطور تعليم الفتاة كيف عبرت المقالة الأدبية عن هذه القضية الشائكة، وكيف صورت آمال المتطلعين، وخوف المحافظين، ويتبين لنا إدراك أكثر الأدباء المقاليين واجباتهم في التنوير والدعوة إلى التحديث.

خامسًا : قضايا اجتماعية عامة :

أسهم كتّاب المقالة الاجتماعية في أكثر القضايا شغلًا، لأذهان أبناء البلاد، لأن الأدباء ينظرون إلى أنفسهم على أنهم مصلحون، عليهم واجب البعث، وإنهاض البلاد، وتوجيه النقد، وإرسال الرأي في الصحيفة والمنتدى، وأمام المسئول وولي الأمر.

وحين نتتبع الصحافة منذ نشأتها وإلى قرب منتصف العقد التاسع من القرن

---

(١) مقالة : إني أتهم، حديث صريح إلى الذين يزرعون الأشواك ويثيرون المشاكل، حمود العذل، جريدة الرياض، عدد ٣٧، في ١٣ صفر ١٣٨٥هـ، ص٣.

(٢) مقالة : حقوق المرأة والرعونة الفكرية، عبدالله بن إدريس، جريدة الدعوة، عدد ٦، في ١٥ صفر ١٣٨٥هـ، وعدد٧، في ١٢ صفر ١٣٨٥هـ.

الهجري الماضي نجدها تحفل بزخم من المقالات الاجتماعية النقدية في مجالات الحياة كافة، ولم يقصر الكتّاب مقالاتهم على قضايا دون أخرى، بل عالجوا المشكلات الاجتماعية الحاضرة، ونظروا في المستقبل فطالبوا بالاستعداد له علميًّا وثقافيًّا واقتصاديًّا، ودعوا إلى التخلي عن التعصب للرأي، ورحبوا بالأفكار المتطلعة إلى التغيير، وخاضوا في سبيل ذلك معارك حامية مع دعاة البقاء في الظل، ومع الراكدين، ومن سار على طريقهم، بما يفرضه من خوف على الموروث، وقلق من نزعات التجديد، وحذر من الطارىء في الفكر والرؤى والأشكال.

وسأجمل ذكر قضايا عديدة أثارها المقاليون، وقدموا فيها الرأي الجيد المتوثب في هذه العنوانات السريعة، للإحاطة بأكثر القضايا الاجتماعية إلحاحًا على وجدان الأدباء وخواطرهم :

١ ــ تشجيــع الطيــران :

بعد عودة أول وفد ــ درس الطيران في ايطاليا ــ إلى البلاد عام ١٣٥٥هـ استقبله المواطنون بمظاهرة شعبية حافلة، وطاف الطيارون السعوديون[١] شوارع جدة، ومكة، والطائف، وأقيمت لهم الاحتفالات الخطابية، فأقام محمد حسن كتبي حفل تكريم للطيارين في الطائف، وألقيت فيه الكلمات المرحبة والآملة والمتفائلة، وألقى الطيار (صالح عالم) منشورات عن الابتعاث والدراسة وشروطها بعنوان (الرحلة الأولى، شجعوا الطيران)، وكرّمهم أيضًا محمد الفاسي، وأثار الطيارون الشبان تنبه الناس إلى تقنية العصر الحديث، وقدرة شباب البلاد على إدراكه، ومسايرة العصر في المُنجز من العلوم التطبيقية ومبتكرات الفكر العلمي.

---

(١) من هؤلاء الطيارين : صدقة طرا بزونلي، وصالح عالم، وضياء الدين الحكيم، انظر في ذلك : صوت الحجاز، الأعداد ٢٢٢،٢٢٣،٢٢٤، في ١٠ جمادى الثانية ١٣٥٥هـ إلى ٢٨ جمادى الثانية من العام نفسه، وانظر تغطية شاملة في أم القرى بعنوان (استقبال النسور العربية السعودية) عدد ٥٩٢، في ١٨ محرم ١٣٥٥هـ.

وقد كتب عن هذا المهرجان عبدالسلام عمر[1] مستبشرًا بيقظة الشباب، ومستدلًا بها على الرغبة في النهضة، وحاثًا أبناء البلاد على دعم المشاريع النافعة، والتفكير في إنشاء جمعية للطيران السعودي، للترغيب في درس الطيران والاستفادة منه، وحث الشبان على تلقي علومه.

وقد توالت في الصحف ــ آنذاك ــ مقالات عديدة عن هذه القضية تذكّر بها وتكرم أي وفد جديد يقدُم إلى البلاد من أبنائها متعلمًا هذا الفن، فيقام حفل تكريمي في بعض المدن، وتُلقى كلمات الترحيب، وتُكتب مقالات الاستبشار والأمل.

٢ ــ إصــلاح الاقتصــاد :

اهتم المقاليون بالاقتصاد وتطويره، فدعوا إلى الحفاظ على الثروات، والاقتصاد في الإنفاق، وإنشاء الشركات، وإقامة مشروعات منتجة.

وكان العواد من الداعين إلى الاستفادة من الحج، واستثمار عوائده في ما ينفع البلاد، وحذّر من إنفاق مايكسبه أبناء مكة من الحجاج على دواعي الترف والمظاهر الكاذبة، واشتد في لوم أولئك النفر الذين يبددون ما يكسبونه في ما لا طائل من ورائه، «فيذهب ثلثه في زيارة «ميمونة» و «الجعرانة» ضحية مايقام هناك من حفلات تجمع لذيذ الأطعمة وجيد المشروبات، وثلثه الثاني في ساحة الشهداء بين أجور الدواب (الحمير) التي تبلغ أجرة الواحدة منها في الليلة قطعة ذهبية، وثلثه الثالث مابين مظاهر للمباهاة، ولوازم فاخرة للاصطباح والاغتباق، وألبسة للزينة والرفاهية ما بين «لاس» و «رشوان» و «سليمي»»[2] .. ثم يدعو إلى الإصلاح العام، ويقترح إنشاء ثلاث شركات كبرى، واحدة للماء وثانية للكهرباء، وثالثة للاستيراد.

---

(١) مقالة : مهرجان : الطيران في الطائف شاهدٌ جديد على يقظة الشعب ونهوضه، عبدالسلام عمر، أم القرى، عدد ٦١٣، في ١٧ جمادى الثانية ١٣٥٥هـ.

(٢) مقالة: أمة مهملة، محمد حسن عواد، خواطر مصرحة، جـ١، ص٤٩.

وكانت هذه المقالة من المقالات المبكرة في إصلاح الاقتصاد، والدعوة إلى تنظيمه والتنبيه إلى وجوه الإنفاق المشروعة.

ونجد المقالة المعنية بالاقتصاد تزداد كثرة وتواليًا عند حدوث الأزمات المالية، واستشراء البطالة، وركود الإنتاج، فتنشر المنهل استفتاء اقتصاديًّا[1] حول أنجح الطرق وأكثرها توفيقًا لإصلاح اقتصاد البلاد والارتفاع بالإنتاج إلى مرتبة الكفاية، وتأتي الآراء باحثة عن استقلال الاقتصاد، وعن بناء قواعده، ومبتعدة عن الخوف والقلق من آثار الحرب العالمية الثانية الدائرة رحاها في تلك السنوات وعام ١٣٥٩هـ هو العام الأول في عمر تلك الحرب.

ويكتب محمد علي مغربي داعيًا إلى الاعتماد على النفس، وإلى عدم التفكير في منفذ البحر الذي يقذف بالحجاج إلى الحجاز، لأن الحرب ستقضي بإغلاقه، وتتعطل به الحياة الاقتصادية، فيدعو للخلاص من هذا بالعمل، واستثمار طاقات البلاد الكامنة، ويتساءل : لماذا نبقى حتى اليوم عالة على الأمم ؟ ولماذا نتيح لهذا البحر أن يهددنا بين عام وعام ؟ ولماذا نعرض نفوسنا لذل السؤال وبين يدينا ما يمكن إنتاجه واستثماره «إن الأمة التي تعيش عالة على غيرها لا تستحق أن تكون أمة، فلنفتح عيوننا جيدًا .. »[2].

ويرد عليه عزيز ضياء[3] داعيًا إلى العمل، وإحداث المشاريع النافعة، ومعالجة الأمراض المزمنة في البلاد، العائقة دون البناء الصحيح، ومؤكدًا على أن البحر الذي يقذف بالحجيج وبالأرزاق لا يكون مشكلة مع وجود العزائم، والاعتماد على النفس، وكتب حسين سرحان[4] معالجًا قضية تدهور الاقتصاد، وناقمًا على القادرين من أصحاب المال قعودهم عن العمل في المشروعات المنتجة التي تستوعب قدرات أبناء البلاد، وتستثمر ما لديهم من قوة وفراغ، ومال. ومشيرًا إلى

---

(١) عدد ذي الحجة ١٣٥٩هـ.

(٢) مقالة : لماذا نخشى الحرب؟ محمد علي مغربي، صوت الحجاز، عدد ٤٤٩، في ١٤ رجب ١٣٥٩هـ، ص١.

(٣) مقالة : مشكلة البحر، عزيز ضياء، صوت الحجاز، عدد ٥٠٢، في ٢٤ رجب ١٣٥٩هـ.

(٤) مقالة : هذه الحرب، حسين سرحان، المصادر السابق.

أن اعتماد الحجاز على التطويف والتزوير[١]، وانتظار ما يجود به الحاج ليس إلا تسولًا وذلًا، وكان الأولى بهذه البلاد أن تكون راعية المسلمين في كل شيء، لا يجود عليها المسلمون بالصدقات !!.

وقد وصل الأمر بأهل البلاد أن كوّنوا جمعية[٢] للمطالبة بأوقاف الحرمين، وحث المسلمين على التبرع لهما، وأصبح السؤال لا عيب فيه من أجل رعاية المسجد الحرام، والاعتناء ببيت الله.

وليس أدل من فكرة هذه الجمعية، ومن اعتماد الحجاز على الحجاج على ما وصل إليه اقتصاد شبه الجزيرة العربية بعامة من ضعف واضمحلال.

وتتوالى المقالات في هذا الموضوع فيكتب المغربي[٣] مرة أخرى عن دعوته التي أطلقها للنهوض بالاقتصاد، في إنشاء المشاريع والشركات، والترغيب في العمل.

ثم يختم دعوته بمقالة طويلة[٤] يلخص فيها الآراء التي أدار الكتّاب والاقتصاديون مقالاتهم حولها في المشكلة الاقتصادية ويهيب بالمسئولين وأصحاب المال أن يبدأوا العمل الإيجابي المنتج.

وبعد مرور سنة على الدعوة في التفكير بإنهاض الاقتصاد يتساءل أحدهم[٥] عن صدى هذه الدعوة وما أثمرت، ويتلفت حوله فلا يجد بوادر تفكير إيجابي في هذا الجانب.

وقد كتب أدباء البلاد في مشكلات الإنتاج، ومصادره، ودعوا إلى إنشاء

---

(١) يعنون بالتزوير إرشاد الزائرين في أماكن الزيارة.

(٢) انظر : مقالة : جمعية المطالبة بأوقاف الحرمين الشريفين، دون توقيع، صوت الحجاز، عدد ١٤٦، في ١٤ ذي القعدة ١٣٥٣هـ، ص١.
وقد رأس هذه الجمعية عبدالله الشيبي، أحد سدنة الكعبة.

(٣) مقالة : كيف السبيل، محمد علي مغربي، صوت الحجاز، عدد ٥٠٥، في ٦ شعبان ١٣٥٩هـ.

(٤) مقالة : هذا بيان للناس، محمد علي مغربي، صوت الحجاز، عدد ٥٠٦، في ٩ شعبان ١٣٥٩هـ، ص١.

(٥) مقالة : صرخة وأين صداها، عبدالله أحمد سراج، مكة، صوت الحجاز، عدد ٥٨٥، في ١ جمادى الثانية ١٣٦٠هـ.

مدارس صناعية[١]، والحفاظ على ثروات البلاد الحيوانية[٢] والزراعية.

وكان من آثار المقالات الاجتماعية الالتفات إلى تطوير وسائل الزراعة، والحفاظ على البيئة[٣]، والقضاء على كثير من وجوه البطالة في المجتمع.

٣ ـ توطيـن الباديـة :

شغلت قضية توطين البدو وتعليمهم والاستفادة منهم في بناء الاقتصاد والأعمال المختلفة في الحاضرة أقلامًا كثيرة، فعرض لها حمد الجاسر في أعداد من مجلة «اليمامة» الشهرية، واصفًا حياة البادية، وما يواجهه البدو من صعوبة التنقل والبحث عن مرعى، وشح الأمطار، وهلاك كثير من حيواناتهم بسبب ذلك، يتساءل عن تحضر البدو وهل «يلائم حالة بلادنا أم أن لبيئتنا وظروف الحياة عندنا ما يحمل على القول بأن من الخير أن ننظر فيما يحسن أحوال سكان البادية مع بقائهم على حالتهم الحاضرة واتخاذ الوسائل التي ستميل ببعضهم إلى التحضر بصورة تدريجية ؟؟... »[٤].

ويدعو في مقالة ثانية إلى حماية البادية من شظف العيش، وصيانة عنصر العرب الأصيل من عاديات الزمان، ويقرر في هذه المقالة أن البداوة أصل الحضارة، وأنها متقدمة على حياة الحاضرة، وليس بقاء بعض الشعوب على حياة البداوة الأولى دليلًا على الهمجية والتخلف كما يعتقد كثيرون، ويذهب الكاتب أن مرد ذلك إلى تفاوت البيئات التي تنشأ فيها تلك الشعوب، واختلاف مظاهرها التي تؤثر أبلغ التأثير في حياة السكان، ويستدل على هذا الرأي ببادية الجزيرة العربية، فهم متأثرون بصحراء الجزيرة وبيئتها، فإذا انساحوا في الأرض ذهبت ميزاتهم واندمجوا في البلاد التي وفدوا عليها ثم ينادي برعاية البادية فيقول : «ولسنا

---

(١) مقالة: نريد مدارس صناعية، عبدالكريم الجهيمان، أخبار الظهران، عدد ٣٠، في ١٣٧٥/٣/٣٠هـ.

(٢) مقالة : مصدر ثراء يستحيل إلى أزمة، عبدالله بن خميس، البلاد السعودية عدد ١١٦٢، في ١٣٨٠/٧/١١هـ.

(٣) مقالة : فكرة لها فوائد ومزايا، بحيرة ماء قرب الرياض، عبدالله بن خميس، فواتح الجزيرة ص٢٠٢.

(٤) مقالة : البادية!!، حمد الجاسر، ـ فيما يبدو ـ لأنها لم توقع، وافتتحت بها المجلة، مجلة اليمامة الشهرية، عدد ٥، في ربيع الثاني ١٣٧٣هـ، ص١.

نجنح إلى المبالغة حينما نقرر أن من الخير لهذه الأمة العربية الكريمة إن كانت هذه الجزيرة التي هي مهدها بهذه المثابة من صيانة عنصر العرب الأصيل وإحاطته بسياج من أسباب الشدة والقوة والتماسك في أساليب حياته .. »[١].

ويتألم عبدالله بن خميس من الشظف الذي يجتاح البادية، فيشفق على أهلها من وطأة القيظ في حره اللافح، وزمهرير الشتاء في صقيعه القارس، ويتأمل في مصادر الرزق في البادية فيراها متصرمة منقطعة، فليس في الأصواف والأوبار ذلك الغنى اذي يمنح البدو بعض العيش، وليس بين يديهم ما يقوتهم من ريع الضأن والماعز، «هلك الجمل وانقطع السمن والإقط والصوف والميرة بانقطاع الماشية .. »[٢].

ويرى زيد بن فياض أن البادية تعاني من الفاقة والضر، وهي متخلفة عن كل جانب حيوي، ولم ينلها الإصلاح في أية ناحية من الأنحاء، وإن من يفكر في حالتها قديمًا، وحالتها الراهنة يصاب بالذعر، لما وصلت إليه البادية من تخلف اقتصادي فظيع[٣].

وأسهمت المقالة في إثارة الاهتمام بالبادية، والدعوة إلى تعليم أبناء البدو، وتشغيلهم، وتوفير ما يحتاجونه من ضرورات الحياة العادية، والتفكير في توطينهم لينتجوا زراعيًّا وتجاريًّا.

وبعد فالمقالة الاجتماعية ألمّت بأكثر جوانب الحياة أهمية، فتطرق الكاتبون إلى الصحافة ودورها في بناء المجتمع الجديد، ورأوا أنها لسان الأمة المدافع عنها، والمعبر عن[٤] قضاياها، ثم هي المرآة التي يقرأ فيها الناس آمالهم وآلامهم، فمن اللازم أن تكون ذات رسالة ومسئولية كبيرتين[٥].

---

(١) مقالة : البادية عرض وأمل، حمد الجاسر، مجلة اليمامة الشهرية عدد ١٢، في ذي القعدة، ١٣٧٣هـ، وهو عدد خاص بالبادية.

(٢) مقالة : حالة المعيشة في البادية، عبدالله بن خميس مجلة اليمامة الشهرية، عدد ١٢، ذو القعدة ١٣٧٣هـ، ص١٤.

(٣) مقالة : البادية والقرية، زيد بن فياض، جريدة اليمامة الأسبوعية، عدد ٤٠٠، في ١٣٨٣/٢/٢٧هـ.

(٤) مقالة : الصحافة لسان الأمة، زيد بن فياض، اليمامة عدد ٣٤٦ ، في ١٣٨٢/٥/١٥هـ.

(٥) مقالة : الصحافة مسئولية، زيد بن فياض، عدد ٤٠٧، في ١٣٨٣/٣/٢٢هـ.

ووقفوا في وجه الصحف المفتوحة للتكشف والمجون، ونقدوها نقدًا قويًا لاذعًا[١]، وتصدوا لصحف أخرى[٢] تميل إلى تشويش الأفكار، وتسعى إلى قلب المفهومات الأصيلة عن العروبة والتقاليد والقيم في أذهان قرائها إلى ماهو نقيض ذلك من التغريب، والاستهزاء بالقيم الأخلاقية النقية، وذم كثير من التقاليد الوضيئة.

ثم أرادوا ألّا تكون للأمة ثقافة قوية رضية، آخذة من الماضي المشرق العربي أصولها، ومن الثقافات العالمية الإنسانية امتدادها الحيوي، ولاموا الثقافة الرخيصة، والقراءة الاستهلاكية البليدة، «وإنك لتستطيع أن تحكم على أمة بالتخلف والانحدار وسوء المصير عندما تجدها تميل في ثقافتها العامة، وتفكيرها إلى الهزل، ورخيص القول، وغثاثة الاختيار، وترى شبابها يقيم سوقًا للصحافة الماجنة، والتآليف الداعرة، وأدب السرير، وتملق الغرائز الجنسية بالصور العارية، والقصص المثيرة، ووسائل الحب والغرام، مما يربي في نفوس الشباب الميوعة والارتخاء، ويقتل فيهم الإرادة ومغالبة النفس، والطموح، والعزة، والفتوة، والشمم .. »[٣].

ثم أرادوا أن يكون شباب هذه الأمة قويًا ناضجًا، بعيدًا عن الحيرة[٤]، وتشعب الطرق، طامحة عقولهم إلى العلم القائم على الحقائق، وإلى الحياة الكريمة الحرة البعيدة عن الضعف والهوان، وخور العزائم.

وخافوا على الأبناء من أعاصير الأفكار، وتقلبات المفاهيم السياسية والعقائدية فدعوا إلى تقوية بنائهم الفكري بالثقافة الشاملة المقنعة، والتربية الحديثة السليمة، لينشأوا مدركين تيارات العصر، مؤمنين برسالتهم العظيمة في الحياة.

---

(١) مقالة : حاربوا هذه الصحافة، زيد بن فياض، مجلة راية الاسلام، عدد٢، في محرم ١٣٨٠هـ، السنة الأولى.

(٢) مقالة : لا نريدها ثقافة، مخدع، عبدالله بن محمد بن خميس، مجلة الجزيرة، عدد ٥، في ربيع أول ١٣٨١هـ، السنة الثانية.

(٣) مقالة : شباب حائر، حمد الجاسر، مجلة اليمامة الشهرية، عدد٢، في صفر ١٣٧٤هـ، السنة الثانية.

(٤) مقالة : أولادنا في مهب الريح، عبدالكريم الجهيمان، أخبار الظهران، عدد ١٨ في ١٣٧٥/٣/١هـ.

د ـ خصائص المقالة الأدبية الاجتماعية :

سبقت الإشارة إلى التزام طائفة من كتّاب المقالة الأدبية بمعالجة مشكلات الواقع، وسعيهم إلى الإصلاح، لأنهم يذهبون إلى أن دورهم في الحياة لا يقتصر على الإبداع الفني، والابتكار في الصور والأساليب، وتنسيق القصائد، وتدبيج المقالات.

وقد كان إحساسهم بالواقع بالغًا، حتى أوشكت مقالات كثيرة لأدباء مطبوعين أن تفقد ميزتها الفنية، وتخلو من الإمتاع، لاندفاع كاتبيها نحو الفكرة، ولهاثهم خلف الإصلاح العاجل للمعوج، وتقويم المائل المنحرف من أمور الحياة، وهي في واقعهم ـ آنذاك ـ كانت راكدة متخلفة، والفرق بين ما بلغه أدباء كثيرون من الوعي والثقافة والفهم والطموح إلى الرائع الجديد من ألوان الإبداع في الفنون وأشكال الترقي في سائر مناحي الحياة، وما كان عليه مجتمعهم من ركود فرق هائل، وتباعد كبير بين وعي نشط، وخمول مستديم، ورغبة في الحياة وانصراف عن الأخذ بما يدفعها إلى الإثراء والإثارة والسمو، فلا غرو أن رأينا المقالة الاجتماعية تستولي على اهتمام كثيرين منهم، وتدفعهم إلى القول العنيف، والرأي المحتد في المطالبة بالتخلي عن النمطية، والاستسلام للسائد، والانصياع إلى التقليد.

وكانت الدعوة إلى الواقعية في العالم العربي في بداية نشاطها، فالتأثرية والانطباع والرومانسية من سمات الجيل المعاني لمرحلة البحث عن مخرج، حين تضيق السبل، ويلتزم المعبر بالصمت، أو يُلزم به، فلا يجد إلا الفن يتغنى به، ويتأثر بإمتاعه، ولا يجد إلا النشيد الذاتي يبوح فيه بما يختلج في وجدانه من آراء ونقدات وتساؤل.

أما حين نشط الوعي العربي العام، وابتدأت دول عربية في أخذ استقلالها السياسي والفكري انصرف نفر من أدباء العرب عن النشيد الرومانسي إلى تأمل

الواقع، والدعوة إلى تغييره من الاستسلام للضعة إلى السمو في التفكير، والإيمان بالحقائق، وتقدير إنجاز العلماء، واختلط هذا المفهوم الواقعي الجيد لمهمة الأدب باتجاه الواقعية الاشتراكية التي سرت في دعوات عدد آخر[١]، وكل ذلك أثّر على وعي كتّاب المقالة بعامة.

ولم يكن الأدباء السعوديون بمعزل عن هذه الدعوات، لكن استجابتهم غير مطلقة، وقد يكون إحساسهم بواقعهم سبق تأثرهم بالدعوة إلى الواقعية في الأدب العربي، بيد أن خصائص المدرسة الواقعية المعتدلة، وما يمس منها الجانب الأدبي في النقد، والجانب الاجتماعي كانت ظاهرة بيّنة.

وقد سبق ذكر نقمة بعضهم على مفهوم «الفن للفن» وما يسمى بـ «البرج العاجي» وكانت دعوتهم إلى الواقع أظهر من كل الدعوات الأخرى، كتجديد الشكل، واطراح التقليد.

فتحدثوا عن صلة الأدب بالحياة، وفائدة الأدب، وضرورة النقد الاجتماعي[٢]، واتضح في مقالاتهم ما يمكن الاصطلاح عليه بـ «الأدب الجماهيري» الذي يمس قضايا الناس ويتحدث عن مشكلاتهم بأسلوب أدبي سهل خال من التعقيد، وبعيد عن التكلف، فنحا إلى ذلك كثيرون كالسباعي، وابن خميس، وعبدالله عريف، وحمد الجاسر، والزيدان، والجهيمان، والبواردي، وابن فياض، وعبدالله شباط، وعبدالفتاح أبي مدين، وغيرهم. وبقي من كتّاب المقالة الأدبية اثنان ينشدان أغانيهما الذاتية الوجدانية في كثير مما يكتبانه، هما : عبدالله الجفري، وعبدالله مناع.

---

(١) من الأدباء العرب الداعين إلى الاتجاه الأدبي الواقعي، على اختلاف مراتبهم في الاسراف أو الاعتدال : د. محمد مندور، ود. لويس عوض، ومحمود أمين العالم، ود. عبدالعظيم أنيس، وغيرهم.
ولم ينشط هذا الاتجاه إلا في العقدين الثامن والتاسع من القرن الهجري الماضي.

(٢) انظر في هذه الدراسة، الفصل الخامس، المقالة الاجتماعية.

وقد استمر تيار المدرسة الواقعية بخصائصه الفنية مستمرًا إلى حين صدور المؤسسات، وقرب نهاية العقد التاسع من القرن الهجري الماضي، فلم يكن للمقالة الاجتماعية نشاطها السابق، لما طرأ على الصحافة من تنظيم جديد، وما مرّ به المجتمع من بدايات تقود إلى تقنين الرأي، وقبول المنهجية العلمية، وانصراف الكتّاب إلى البحث العلمي وتخرج متعلمين في الجامعات يسعون إلى الوظيفة، والإنتاج الوظيفي المحدود، بعيدًا عن توثب الرأي، واندفاع الفكر، واستساغة أساليب الأدب في كل ذلك.

وهنا بدأ نشوء تيار جديد في العقد الأخير من القرن الماضي هو تيار الرمزية، وعبّر شعراء ومقاليون في رمزيتهم عن آمالهم وأحاسيسهم، ونزوعهم إلى الفردية في المشاعر، والضيق بالواقع، والرغبة في الإفضاء عن طريق هذه الألغاز، وعن طريق تلك التعمية التي تجدها في أدب هؤلاء، مقاليين، وشعراء.

وحين فشل التيار الرومانسي في التعبير عن كل مشكلات الواقع لأنه «استعلى في بعض صوره على الحديث عن مشاكل الطبقات الدنيا والوسطى»[١] نجحت الواقعية في إعلاء شأن الأدب، وتقدير دورهِ في تغيير المفهومات، وإصلاح ما يهمّ متلقيه في معايشهم وطرائق حياتهم.

وليس نصيب الرمزية بأقل من نصيب الرومانسية، وسينحسر تيار الرمز حين يشتد الوعي الأدبي، ويتأمل الناس في واقعهم، وفي نصيبهم من الأخذ بحظوظهم من الحياة السامية، والرقي الحضاري.

ولن يستطيع أن يعبّر عن تلك المشاعر إلّا إحساس جماعي واقعي، تتعاور على دفعه عوامل كثيرة، من النضج، واكتمال الشخصية الإنسانية، وتبين مهمة الأدب في الحياة ونصيبه في التعبير عن آمال الإنسان.

---

(١) د. عبدالرحمن عثمان «معالم النقد الأدبي»، ص٢١٥.

ونجد من الخصائص الفنية في المقالة الاجتماعية ما يأتي :

١ ــ الجملة الإنشائيـة : فيبتدأ كثيرون من كتّابها بالنداء، أو الرجاء، أو التمني ولا تفيد الجملة في مستهل المقالة معنى محددًا، أو يصل الكاتب بها إلى خلاصة وفكرة، بل تكون استهلالًا لمعاني متتالية، وقد كانت المقالة الأدبية الاجتماعية ضعيفة عاجزة عن تحديد المراد، وصوغ الفكرة، وغلبت عليها عاطفة قوية تدفع كتّابها إلى رفع الصوت، والتمني، وبكاء الواقـع.

ولذا ظلت المقالة في مطلع النهضة أسيرة هذا الانفعال بتلك المعاني دون أن يستطيع الكاتبون ــ في الأغلب ــ مواكبة هذه القوة في الفكرة، بأسلوب رصين، متدفق، مصور زخم تلك العاطفة[١].

على حين استطاع أكثرهم فيما بعد استيعاب أفكار التغيير والاستجابة في أساليبهم للنهضة بعامة، فتواكب في المقالة ارتقاء الفكرة وارتقاء الأسلوب مثل مقالات أحمد السباعي[٢]، ومقالات عبدالله عريف[٣]، ومقالات عبدالله بن خميس[٤] في العقد الثامن وما تلاه.

٢ ــ العنايـة بالفكـرة : اندفع مقاليون كثيرون إلى الاعتناء بالمعنى، وأضعفوا من شأن الأسلوب، فجاءت مقالاتهم حافلة بالأفكار المستنيرة في أسلوب لا يبتعد كثيرًا عن أسلوب كتّاب الصحافة، ومن هؤلاء عبدالكريم الجهيمان[٥]، وسعد البواردي[٦]، وعلي العمير[٧]، وغيرهم.

---

(١) انظر كتابي : أدب الحجاز، ووحي الصحراء.. ففيهما من المقالات ما يدل على عاطفة جياشة وأسلوب لم يرق إلى دفقها وقوتها في الأغلب.

(٢) انظر كتابه : دعونا.. نمشي.

(٣) انظر كتاب : همسات العريف ــ جزءان، إعداد زهير كتبي، شركة مكة للطباعة طـ١، ١٤٠١هـ.

(٤) انظر كتابه : من جهاد قلم جـ٢، فواتح الجزيرة.

(٥) انظر مقالة : ما لنا الذي هرب!! جريدة القصيم، عدد ٤٦، في ٥/٥/١٣٨٠هـ.

(٦) انظر مقالة : لنكن حذرين، من كتابه «أجراس المجتمع»، دار الاشعاع، طـ١، ١٣٨٣هـ، ص٦٦.

(٧) انظر مقالة : الفلاح في أعماقي!!.. من كتابه «على الماشي» ص١١٣.

وتميل المقالة لديهم إلى السهولة، والواقعية، والوضوح، وإبانة الفكرة، والابتعاد عن الخيال، وعن التنغيم، وإلى مجافاة الغريب، والحوشي، والسعي خلف المعنى الجماهيري الذي يصلح شأنًا، أو يجلي رأيًا، ولا نجد في مقالاتهم جمالًا أخاذًا في الأسلوب يشبه ذلك الذي تلقانا به مقالات الرومانسيين، ولا نجد لديهم خيالًا فسيحًا مانعًا،ولا تراكيب بلاغية، ولا إيقاعًا بديعيًا.

وحين نضرب مثلًا على وضوح الأسلوب وسهولته، وخلوه من جمال الصياغة، وخلب الألفاظ نجد ذلك لدى عبدالكريم الجهيمان، انظر إليه في حديثه عن معاني الوحدة، وإيمانه بها : «إننا نؤمن بالعرب ونؤمن بالقومية العربية، لأن العرب إذا عزوا ففي عزهم عزّ الإسلام، وإذا ذلوا ففي ذلّهم ذلّ الإسلام.

إنني أؤمن بالعرب وأؤمن بالقومية العربية .. لأن العرب إذا تجمعوا صاروا أقوياء والناس كلهم مع القوي .. أما إذا تفرقوا ففي تفرقهم الضعف والذل .. والضعيف الذليل يتخلى عنه أنصاره ويخذله الأقربون .. قبل الأبعدين .. »[1].

فليس ثمة ما يثير الوجدان من صور وخيال، ومن لفظ منغم، وتوازن، وانسجام، سوى ما يفضي به الكاتب في جلاء ووضوح، مدفوعًا بعاطفته العربية نحو قومه وأهله. وهذه العاطفة هي التي حفظت للنص تأثيره المباشر في قارئيه.

بيد أن كتّابًا آخرين تميزوا في مقالاتهم الاجتماعية بمحافظتهم على كثير من قيم النص الجمالية التي أهدرها الواقعيون الاجتماعيون.

فنجد في مقالات الفقي ألوانًا من الرواء والانسجام والإمتاع، لسيطرة الذاتية على نفسيته حتى في منحاه الاجتماعي[2]. ونجد في كثير من مقالات ابن خميس الاجتماعية توقيعًا وتوازنًا، وألفاظًا بعيدة عن الابتذال، قريبة من الفخامة والجزالة، ولا يدع للفظ السوقي، والتركيب الشائع منفذًا لإفساد أسلوبه، وقد يتضمن النص المقالي لديه عددًا من السجعات التي تجيء عفوًا، وعددًا من

---

(١) مقالة : أنا مؤمن.. وكافر..! جريدة القصيم، عدد ٣٥ في ١٣٨٠/٢/١٦هـ

(٢) انظر في هذه الدراسة، نماذج من المقالة الاجتماعية ففي هذا الفصل استشهاد ببعض مقالاته.

اللمحات البلاغية الجميلة، فهو حين تحدث عن المتلاعبين بالذمم والمضيعين للقيم في مخادعاتهم التجارية، واستغلالهم الغفلة وحسن النوايا جاء بشيء من ميزات أسلوبه الآنف الذكر : «.. فيا أيها اللاعبون على الذقون، والغاشون لعباد الله، استغلوا هذا الحذق، وهذه الثعلبة، فيما يعود عليكم وعلى بلادكم ومواطنيكم بالخير والمنفعة، واصرفوا هممكم إلى تشغيل أموالكم في طرق سليمة قوية، تظهر بلادكم بالمظهر الحسن، بين بلدان العالم، وليكن لأحدكم من نفسه، ووطنيته، وإخلاصه، رادع يحول بينه وبين تعطيل هذه الجوانب كلها، لقاء دريهمات يستولي عليها، وراءها ما وراءها، ويا متقمصي هذه الأزياء، إربعوا[1] على أنفسكم فإنكم تسيرون في ليل ضل هاديه، وشرق مناديه، وإن ما توهمتم أنه فخر وزكانة[2]، لهو ذل ومهانة .. فليس الفخر بسحب الذيول، وارتداء مبتكرات الأزياء، والخبط في مال الله، وسلوك مهايع[3] السرف، ومهلكات الترف .. »[4].

فنلحظ ألفاظًا فيها غرابة، مثل : إربعوا، مهايع، ونحوهما، ونجد الترادف «ذل ومهانة» و «سليمة قويمة» .. والتوازن بين الجمل «في ليل ضل هاديه، وشرق مناديه»، والسجع : «.. مهايع السرف، ومهلكات الترف».

ولا يعني أن المقالة الاجتماعية تسير على هذا النحو من الرصانة والجمال والقوة، فأسلوب ابن خميس، وأسلوب الفقي متميزان عن سواهما بما ذُكر.

٣ ـ فقدان عناصر الفن : وأخص منها الخيال، والعاطفة، وقد يتبع هذين فقدان اللفظ الموحي، والصورة الجميلة، والتركيب الممتع، وحين نجد شيئًا من العاطفة تدفع الكاتب إلى القول وبعث الرأي، فلا يعني أن تلك العاطفة قادرة على صياغة أسلوب قوي مؤثر.

---

(١) أربع القوم : صاروا في الربيع. والمراد ـ فيما يبدو ـ احفظوا أنفسكم من الملكة، وجنبوها التهلكة، انظر القاموس المحيط، باب العين، فصل الراء، ص٩٢٩.

(٢) الزكن : ظن بمنزلة اليقين، وأزكنه : أعلمه، وأفهمه، انظر : باب العين، فصل الماء، ص١٥٥٣.

(٣) مهيع : طريق بيّن، جمعها مهايع، القاموس المحيط، باب العين، فصل الهاء، ص ١٠٠٤.

(٤) مقالة : قبل هذا.. حاربوا الإسراف، من جهاد قلم، جـ٢، فواتح الجزيرة، ص٢٤٦.

والدليل على هذا أكثر ما كتبه الاجتماعيون من أدباء المقالة مثل مقالات محمد سعيد عبدالمقصود، وعبدالكريم الجهيمان، وسعد البواردي، وعلي العمير، وغيرهـم.

على أن أساليب هؤلاء متفاوتة في الجودة، فبعضهم يميل إلى السهولة، وأحيانًا الضعف كعبد المقصود، ومنهم من يميل إلى الوضوح وسلامة التركيب كالجهيمان، وآخرون يميلون إلى اللفظ القريب من الشاعرية كالبواردي. أما العمير فهو أقربهم إلى أسلوب الصحافة الخالي من الإتقان، والتأثير، إلا من لمحات يتميز بها الكاتب في شخصيته كالسخرية، والتبسط في ذكر ما يتصل بالذات.

وخلاصة الكلام في الواقعية : أن لكل نزعة في الإنسان مصدرها من الحياة، ومن الخير أن تأتي استجابة الأديب لنزعات الفن، ودوافع القول، وَجْـدًا، وتفكيرًا، وإصلاحًا.

والرومانسية المغرقة المسرفة في البكاء والغناء الفردي عزل للفن عن الحياة، كما أن الواقعية القريبة من الإلزام، بمباشرتها، وإهمالها لوازم السياق الفني في النص إفساد لأطر الأشكال الفنية، وتضييع لنزعات الفن والشاعرية والتأمل من ألوان التعبير، و «إن الكاتب الذي يتقبل مضامين الوعي يعلم أن عليه الانفلات من معانقة الحياة إذا أريد للفن أن يوجد، أو للتعبير أن يبقى بعد زوال سياقه»[1].

وستدعو الحياة إلى ما يلائم التعبير عن قضاياها، فكل تيار ينشأ بدواع وعوامل تدعو إلى اتباعه واتخاذه وسيلة تعبيرية.

والدرس النقدي هو المسئول عن كشف تلك العوامل ورصدها وإيضاح ظروف تكونها وتهيئة المناخ الأدبي لنشوء هذا التيار أو ذاك.

---

(١) انظر : موسوعة المصطلح النقدي، الواقعية، ترجمة : د. عبدالواحد لؤلؤة، المجلد الثالث، ص١١٦.



الفصـــل السـادس

موازنـــة بين أنـواع المقالـة

تمهيـــد

أ ــ الموضوعـات لدى الرومانسيين والواقعيين.

ب ــ الأساليب لدى الرومانسيين والواقعيين.

جـ ــ الأساليب لدى الاتباعيين والابتداعيين.

د ــ أحكـام .. وردود.

تمهيـــد :

قصر أكثر الناقدين درسه النقدي على الشعر، واهتم نفر من هؤلاء النقاد بإجراء موازنات بين شاعرين، في معانيهما، وفي أساليبهما الشعرية من حيث الشكل، واشتهر من أولئك أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي (٣٧٠هـ)(١)، في كتابه «الموازنة بين أبي تمام والبحتري»(٢). ولعله أظهر من أجرى موازنة بين شاعرين، وأكثرهم توفيقًا، ووقوفًا على المنهجية النقدية، التي تستدعي التجرد ودقة الفهم، والمعرفة، والتذوق الجيد.

غير أن الموازنة في النثر قليلة جدًا، ومرجع ذلك إلى إهمال النقاد فن النثر زمنًا طويلًا، وبالأخص منه المقالة الأدبية، وتفضيل كثيرين منهم الشعر على النثر، ثم صعوبة الموازنة بين الأنواع داخل الجنس الواحد، ولو كان الأمر في هذه الموازنة بين ناثرين لكانت المهمة أقرب إلى الالتزام بمنهج نقدي واضح يقوم على المقارنة ووصف خصائص الناثرين، وتمييز ما بينهما من تفوق، وما بينهما من ضعة.

ولكن موازنة أنواع ــ وليس نوعين ــ داخل فن واحد هو المقالة تستدعي إحداث منهج جديد يوقف الملتزم به من الناقدين على ما في هذه الأنواع من الميزات، وما فيها من سمات واضحة، وما يفرق بعضها عن بعض، وإلى أي المدارس الأدبية ينتمي كل نوع.

وعلى الرغم من صعوبة هذه المهمة النقدية، وعدم وضوح تصور نقدي لها، عزمت على أن أضع لي منهجًا يحقق هذه الغاية، ويقربني من أبرز ما تحويه الأنواع الأربعة المدروسة من خصائص.

وصعوبة موازنتها ترجع للأسباب الآتية:

أ ــ أن المادة الإبداعية المعروضة للموازنة أنواع، وليست نوعًا واحدًا يُوازن فيه

---

(١) انظر عن حياته : معجم المؤلفين، عمر رضا، كحالة، جـ٣، ص٢٠٩، والأعلام، الزركلي، جـ٢، ص١٨٥.

(٢) حققه وعلق عليه محمد محي الدين عبدالحميد، ونشره عام ١٣٦٣هـ، وهو تاريخ كتابة مقدمته الكتاب، إذ لم تشر دار النشر إلى سنة طباعته، المكتبة العلمية، بيروت، وطبع فيما بعد طبعات مختلفة.

بين مبدعين تميزا في كتابة هذا النوع أو ذاك.

ب ــ أن الموازنة المطلوبة في هذا الفصل بين كتّاب كثيرين مختلفين في موضوعاتهم وأشكالهم الفنية.

جـ ــ أن موازنة الشعر ــ عند الآمدي ــ مثلًا ــ تكون معنية بتفاصيل دقيقة وصغيرة لا تتوافر في النثر، لأنه أرحب ميدانًا وأبعد مدى، واللفظة في الشعر يختلف موقعها من السياق عنها في النثر، وموسيقى المفردة في الشعر تعطي أصداء تناغمية لا نجد كثيرًا منها في النثر، فدراسة اللفظة في المقالة عند إجراء الموازنة لن تصل إلى ما يبذله الناقدون للشعر عند إجرائهم موازنة بين مبدعين اثنين فيه.

ولهذه الأسباب مجتمعة وضعت أمامي تصورًا لإجراء هذا اللون من الدرس النقدي في ختام هذا البحث ليكون جامعًا خصائص الأنواع المقالية الأربعة، ولامًّا شتاتها الذي جاء متفرقًا في هذه الدراسة.

ولقد عرضت هذه الأنواع على المدارس الأدبية الحديثة، فوجدت أنها تنتمي في كثير من خصائصها إلى مدرستين هما : الرومانسية في المقالتين الذاتية والوصفية، والواقعية في المقالتين النقدية والاجتماعية.

على أن ظلالًا من المدرسة الاتباعية (الكلاسية) نجدها في مقالات عديدة عند بعض الرواد، وعند بعض المخضرمين الذين عاشوا جزءًا من الفترة التأسيسية الأولى وجزءًا من الفترة التجديدية الثانية التي بدأت مع انتشار المدارس ومراكز العلم، والبعثات والانفتاح على العالمين العربي والغربي.

ونجد ظلالًا من هذه المدرسة التجديدية الحديثة لدى نفر من رواد الكتابة المقالية الصحفية المتشبثة بالأدب، أي ما يمكن تسميته الأدب الصحفي، أو ما عرف في كتب النقد «صحافة الأدب».

وهذان التياران (الكلاسي، والحديث) سيأتي عرض آثارهما ضمن هذه الموازنة، وفي سياق مقابلة الأنواع الأربعة من المقالة المنضوية تحت المدرستين الرومانسية والواقعية !.

ولم أشأ أن أخص الميل إلى الاتباعية بحديث، أو الميل إلى التجديد في الشكل والتحديث في فن الكتابة المقالية لدى جيل الثمانينات الهجرية من القرن الماضي على الأخص، لأن ذلك يجيء طبعيًّا في أي أدب، ولدى أية أمة يدرس أدبها خلال نصف قرن مثلًا، ويتعرض لفترات انتقالية مؤثرة من القديم إلى الجديد.

على حين تظل المدارس الأخرى، ومنها (الرومانسية والواقعية) مقيدة بعوامل أكثر وضوحًا، وأظهر في الانتقال من تيار إلى آخر والالتزام بطريقة مدرسة أدبية دون غيرها، وقد يظل التيار التقليدي موجودًا ضمن المدرسة الواقعية مثلًا، أو الرومانسية غير المغرقة في عزلتها وارتفاعها عن الواقع.

والطريقة التي أراها قريبة من تحقيق أهداف الموازنة تعتمد على تلمس موضوعات المدرستين وأساليبهما، ثم الوقوف على الفوارق بينهما، وعلى خصائص كل مدرسة وميزات أي منهم في الموضوع، وفي الشكل، ورصد نتائج ذلك فيما بعد.

أي أنني سأبدأ بموازنة الموضوعات لدى الرومانسيين الذاتيين والوصفيين بالموضوعات لدى الواقعيين النقديين والاجتماعيين، ثم أرصد نتائج هذه الموازنة في الموضوع، وأفعل مثل ذلك في الأساليب، وهكذا.

ويرد في سياق هذا الإجراء النقدي العام ما في موضوع كل مدرسة من جودة ورداءة، وتوفيق وإخفاق، وصدق فني، وهروب من الواجب الأدبي تجاه شرف الكلمة، ثم ما في الكلمة في الأشكال الفنية لدى أي مقالي من المدرستين من جمال وقبح، وتدفق موسيقي وانقطاع في ذلك، وإيحاء وجمود، وما في الصور الخيالية من انديا ح وجمال تصوير وإبداع، وضيق وإمحال وقلة حظ في الوقوف على الصور الموحية البديعة، وما يتبع كل ذلك من ميل إلى التجديد، أو ميل إلى الالتزام بالقديم، أو تأثر بمبدعين عرب أو غير عرب، ومن حيث الكثرة والقلة، والتأثير وعدمه، والصدق النفسي وخلو المقالة منه، ووضوح الشخصية وعتمتها، وما إلى ذلك.

أ ـــ الموضـوعـات لدى الرومانسيين والواقعيين :

حين نتأمل هموم الكتّاب من هاتين المدرستين نجدها تلتزم بما طبع عليه المقالي، وما انتهجه في الحياة من آراء وأفكار، بيد أن الأمر في الكتابة يأتي وفق الطبع، ثم تفيد الحياة الكاتب بما تمنحه إياه من وصول إلى حقائق، ومن قبس المعارف، واطمئنان إلى معتقدات، ومن هذه المنطلقات يستطيع الناقد الناظر إلى أعمال هؤلاء المقاليين تصنيفها إلى ما اصطلح عليه النقاد من مدارس وتيارات، ولكل مدرسة خصائصها وميزاتها. فالواقع أن الكاتب السعودي ـــ في الأغلب ـــ لا يندفع إلى الكتابة من وحي أيدولوجية خاصة يلزم نفسه بالتقيد بها وعدم الخروج على أطرها، سوى ما نشأ عليه من فطرة مجبولة على الإيمان بالمعتقد الديني، ثم على ما يتفق وطبع نفسيته الشاعرية أو الواقعية، ثم ضرورة التخاطب مع الحياة ومع الأحياء، وما يفرضه هذا من التزام عفوي بالمعالجة اليومية لمشكلات المجتمع، والتعبير عن طموحاته وآماله.

فالاستنتاج الذي نصل إليه خلال هذه الموازنة لم يُبن على تعسف في البحث عن ميزات أي من المدرستين، بل يصدر من تأمل دقيق لما يتفق مع خصائص كل منها، ثم الحكم على هذا الكاتب أو ذاك بانتمائه إلى هذه المدرسة أو تلك.

ومن النظر إلى قضايا كتّاب المقالة في الاتجاهين تبين لي أن هناك مجالات للالتقاء والافتراق، ولما كان الالتقاء في عالم الأدب أمرًا طبيعيًا فإني لن أوليه كثيرًا من الاهتمام، بل سأوجه اهتمامي إلى ما يعد خاصية مميزة لأحدهما عن الآخر، وأهمها :

أن الرومانسيين يهربون من الواقع إلى الطبيعة، على حين يلتزم كتّاب التيار الثاني بمشكلات الواقع وقضاياه، ويكاد يكون هذا أوسع ميادين التباين بين التيارين.

وأن أصحاب التيار الأول يعتمدون في الغالب عند التعبير عن موضوعاتهم

على الرمز، وأحيانًا يختبئون وراء ضبابية تشبه ضبابية الشعر، بينما ينكشف كتّاب التيار الثاني على قضاياهم، ويتحدثون عنها في صراحة مطلقة. ويميل الرومانسيون إلى الوحدة ويتغنون بها، بخلاف الواقعيين الذين يرون في الاختلاط بالمجتمع سعادتهم، وفي إصلاحه توفيقهم إلى النجاح.

أما العناصر التي يمكن موازنة كتّاب التيارين بها فيمكن عرضها في شيء من التفصيل على النحو الآتي :

١ ـ الهروب إلى الطبيعة عند الرومانسيين، والاتجاه إلى الواقع عند الواقعيين :

تحدث الذاتيون عن أحاسيسهم النفسية، ومشاعرهم الوجدانية، وهاموا في البحث عن ملجأ يركنون إليه، فشكوا إلى الطبيعة، وأسمعوها أناشيدهم، واتخذوا منها السمير والأنيس، كما فعل عزيز ضياء، حين وجد فيها عزاءه ومؤنسه، فهرب إليها من وحشة البشر، وهجير الآدميين، فزقزقة عصفور على وريقة خضراء في غصن شجرة وارفة الظلال نغمات تدفىء الوجدان بالطمأنينة وتسريه عن ذكريات مؤلمة، وتداعيات تبعث الضيق والكدر، وخرير جدول ينساب بين الغصون رسالة عذبة تروي الظمآن، وتطفىء الغليل، لأن الكاتب لم يجد في الإنسان إلا تنكرًا للمثل السامية، وإخلافًا للمبادىء الإنسانية(١).

ويفتح محمد علي رضا عينيه على فجر وليد جديد يرى في شعشعته رواءه وانطلاقه، فهذا الظرف الزمني المحدد ببضع ساعة فاصل بين الأحلام والحقيقة، وناقل متأمله من خيال بعيد إلى أنوار تكشف الخبايا، وتظهر المكنون، فيجد فيه الكاتب إحساسًا يدعوه إلى الحياة، وإلى الاستمتاع بوحي الشباب فيه، وانطلاقة العنفوان في إشراقه، فيدعو نفسه إلى الاستيقاظ من غفوة الليل إلى هديل الحمائم، وزقزقة العصافير، وكأن الكاتب لا يرهد نفسه بهذه اليقظة فحسب،

---

(١) مقالة : فاجعة، وحي الصحراء، ص٢٣٠.

وإنما يومىء إلى قومه أن يفيقوا من سباتهم، ويصحوا من غفلتهم[١].

ويرون في الفجر بشير خير، ورسول حب، ويتفاءلون بانبثاق الضوء من خلف الآكام البعيدة، على حين يرون في احمرار الشفق عند الغروب أمارات وجوم وكدر، ولا يغير ما يلم بالنفس من ذلك الضيق إلا نسيم عليل، يبعث في الروح مع نفثاته العطرية أريج الحياة، وإشراق الأمل، وإلا قدوم فجر دفاق بالأماني العذاب والعزمات الوضيئات، فهو وحده رسول الغرام ومخفف اللوعة عن البؤساء[٢]!.

ويسعى الرومانسيون إلى الزمن يبحثون له عن تفسير، وإلى فصول العام يناجون منها الربيع، ويبكون في الخريف، وينتظرون إزهار الأماني مع رضى الطبيعة التي هي صورة عن فرحهم، أو اختلاف الأنواء، وقسوة بعض الفصول، مصورين فيها نصيبهم التعس من الحياة، وحظهم السيء من الأقدار.

وهم في غمرة هذا الإحساس يهيئون لهم منها مناجيًا بعد أن عزّ في الواقع، فيناجون الليل، والبحر، والنسيم، والفجر، ويلجأ بعضهم إلى ابتكار شخصية تسمع النجوى فتُحسن الإنصات، وتشارك في مثل هذه الملمات، فهذا محمد حسن كتبي يتصور في سكون الليل وهدوئه فتاة حسناء آنست من نفسه انكسارها وحيرتها، وأحسّت بما استولى عليه من قلق وضيق، وشعر الكاتب بعطفها عليه فتقدم إليها يفضي لها بآرائه في المرأة، وبحثه عن الحب المثالي النقي، ويبين عن فلسفته في رؤيته لمحبوبته، فيراها نباتًا غضًّا طريًّا لم يقم على ساق، وزهرة تخفيها أكمامها، ثم رآها وقد تفتحت تلك الأكمام فإذا هي عطر مسكر النفس، ونور يذهب بالأبصار وتثنٍ يعطف القلوب، وفتنة ليس وراءها فتنة[٣]!.

---

(١) مقالة : استيقظي يا نفس! أدب الحجاز، ص١٢٢.

(٢) مقالة : أيها النسيم، محمد علي قطب، نفثات من أقلام الشباب الحجازي، ص ١٠٥، وكُتب بجانب العنوان : شعر منثور.

(٣) مقالة : ساعات في الليل، وحي الصحراء، ص ٤٥٤.

ويتألم بعضهم من الزمن وقسوته ومسه فيصور ألمه تصويرًا دقيقًا، ويرسم تقلبه في الحياة من شظف في الأرزاق، وإقتار في مطالب العيش، وما يعتور النفس من تشاؤم وإفراط في ذم الواقع والناس والحظوظ[١].

هذه هي أبرز قضايا المقالة الذاتية الرومانسية، أما الوصفيون فلا يختلفون كثيرًا عمن سبقهم من أبناء هذا التيار، إذ إن أحاسيسهم الوجدانية تجاه الأشياء متقاربة، ومنابعهم التي يستقون منها متشابهة، والذي يميز بينهما أن أصحاب الاتجاه الذاتي يسرفون في البكائية وبث المكنون، على حين يوغل أصحاب الاتجاه الوصفي في تتبع الدقائق والتفاصيل في المشهد وما تقع عليه العين أو تدركه الحواس أو تلتقي العاطفة مع العقل في إدراكه.

فمن قضاياهم وصفهم زهو الأرض، واكفهرار السماء[٢]، والأزهار[٣]، والأقحوان، والأريج، ووقوفهم على إلهام الليل، وسحر الفجر، وبث الربيع، وقحط الخريف، وغموض أسرار البحر، وألوان الطيف، وما إلى ذلك[٤].

ووقف بعضهم عند مثيرات الوجد، وباعثات الإحساس برواء الحياة وجمالها، يثيرهم الحسن، وتفتنهم الصبابة، فهذا محمد حسين زيدان تقع عينه على غادته التي ترسم ملامح وجهها وتفاصيلها الأخرى الدقيقة في مخيلته، حتى إذا التقى بها وهي تمسح البلاط كأنها تعطره بشذاها أحسّ بأنه وجد ضالته، وغنم من هيامه الخيالي بهذه الثمرة الحانية اللدنة العطوف.

ويأخذ في تصوير نتوءات اللوحة العاطفية، وكيف انجذب إليها، وأثّرت في وجدانه الأشواق والغناء واللفتات، ويشقق المعاني، ويستنبط الحكمة، وتتداعى الأفكار، ويسوق كل ذلك في أسلوب يغلب عليه البديع والتوقيع، فكأنه يترنم

---

(١) مقالة : ذكرى عام ١٣٥٠هـ السيئة، بتوقيع «أنا»، صوت الحجاز، عدد ١٢، في ١٣٥١/٢/٢٢هـ، ص٧.

(٢) مقالة : ذكرى اليوم المطير والسيل الخطير، عبدالقدوس الأنصاري، المنهل، ربيع الثاني ١٣٦٠هـ.

(٣) مقالة : الطائف في ذكرياتي، حسين سرحان، المنهل، رجب وشعبان ١٣٦٠هـ.

(٤) مقالة : على ضفاف ماء، عبدالله فدا، أدب الحجاز، ص١٣٥.

متحدثًا، لا كاتبًا[١].

ووصف كثيرون منهم الرحلة وما يجري فيها من أحاديث، وما يمرون عليه من مشاهد وما يثير خواطرهم من أثر أو مسمع أو ذكرى، فوصفوا البلدان، ووصفوا الأزياء والأفعال، ووصفوا الأودية والشعاب، وكل ذلك يجيء في امتزاج بالمشاعر والأحاسيس تجاه هذه المشاهد.

ولو أردنا أن نصف قضايا الرومانسيين في مقالاتهم لوجدناها لا تبتعد كثيرًا عن تصوير الإحساس الداخلي، ويختلط الدفق الذاتي بوصف الأشياء المحيطة بالكاتب، أو تلك التي تعتوره في أثناء التصوير البياني.

فقضيتهم إذًا الحديث عن النفس في ماهيتها، وسعادتها وتعاستها في مقابل الأشياء المؤثرة الأخرى.

وهذه الميزة هي التي نستطيع أن نوازن بها المقالات النقدية والاجتماعية التي يقل فيها العنصر الأدبي، ويتجه بها أصحابها نحو ما اصطلحنا على تسميته بـ «الواقعية».

والجانب الذاتي في المقالة الأدبية يمنح الأسلوب الرواء، ويحلق بالصور الخيالية، ويرتفع بالنص من النقل المباشر للرأي أو الحدث أو الفكرة إلى الصياغة الفنية الممتازة، ولذلك نجد الدفق الأدبي لدى الرومانسيين أوفر وأكثر، على حين يضعف العنصر الأدبي في مقالات الواقعيين.

وقد رأينا البحث عن النفس في الطبيعة ومعالم الكون والأنواء لدى كتّاب التيار الأول على حين لا نجد عند الواقعيين أي ملمح يدل على التهويم خلف الروح أو الاندفاع للحديث عن شجون النفس وشئونها.

وكأن جل همهم ارتباط الأدب بالواقع نقدًا وإصلاحًا، وتنبه كثيرون منهم إلى

---

(١) مقالة : الجمال، من كتابه «صور»، الدار العباسية للنشر والتوزيع، الرياض، مطابع الشريف، دون ذكر لسنة الطباعة، ص١٤٤.

أهمية هذه الصلة فسخروا أدبهم في سبيل الارتقاء بمجتمعهم إلى مراتب عليا في أوجه الحياة كافة.

فالرومانسيون يشكون المجتمع، وهؤلاء يبحثون أسباب الشكوى، وأولئك ناقمون ساخطون في كثير من أدبهم وهاربون إلى عالم آخر، وهؤلاء ساخطون في غير نقمة، ومنصرفون عن ذواتهم إلى التمعن في قضايا الواقع.

وقد شمل الاتجاه إلى الواقعية الجانبين كليهما في أدب هذه المدرسة، الجانب التنظيري في الأدب، وهو ما يعرف بالنقد الأدبي، والجانب النقدي الاجتماعي، فطغى الإحساس بضرورة إخلاص كثير من جوانب النص المقالي لقضايا الواقع، وطغى أيضًا إسراف الكاتبين الاجتماعيين في حديثهم عن هذا الواقع.

وتميز من هؤلاء الواقعيين محمد حسن عواد، وحسين سرحان، ومحمد عمر توفيق، وعبدالله بن خميس، وعبدالكريم الجهيمان، وغيرهـم.

ونلمس في تنظير النقد الأدبي لدى بعض هؤلاء إحساسًا بأهمية صلة الأدب بالحياة، وإيماناً بغايات الأدب النبيلة، وتخليصًا له من العبث والتسلي والادعاء.

ويكاد يلتقي أكثر هؤلاء مع الداعين لنظرية الالتزام في الأدب[1]، لولا أن أدباءنا النقاد في تنظيرهم لا يرون تجريد النص الأدبي من الخصائص الفنية التي ترقى به إلى الإمتاع والإبداع، غير أنهم لا يوغلون في الصنعة، ولا يميلون إلى المبالغة في الاعتناء بالشكل، والدليل على هذا الاتجاه ما نلقاه من مقالاتهم الأدبية النقدية وغيرها، وبخاصة المجودين منهم، ومن يكتب مطبوعًا على التدفق والانثيال، أي من كان غير ملتزم الجانب العلمي المنهجي من النقد، الذي يتصف به في العادة الباحثون المنهجيون ممن لا تستقيم أطروحاتهم العلمية البحتة مع شروط المقالة الأدبية.

---

(١) انظر الخصائص الفنية في المقالة النقدية من هذه الدراسة، ص٥٥٦.

وهم يؤمنون بالنقد ضرورة لازمة من لوازم البناء والسعي إلى الكمال[١]، ويرون أنه من الخير تغيير مفهوم الأدب والنقد، من كونهما أداة للتعبير عن مقولات محفوظة، ومصطلحات سائدة، وأداة للتسلية وللاشتهار إلى الدعوة الجادة الهادفة إلى اتخاذهما وسيلة من وسائل الدعوة إلى الخير، ونشر الفضيلة، ومحاربة التخلف ومناوءة الجهل والقيم الفاسدة، والركود والأمراض الاجتماعية.

فدعوا إلى فهم الواقع[٢]، وعرفوا الأدب الحي بأنه المصور لآمال الإنسان وآلامه، والباعث له على تحقيق الطموحات الخيرة، وقوام الأديب لتحقيق هذه الغاية الاعتماد على مبدأين هما : الصدق والحرية، أن يكون صادقًا في فكره، وصادقًا في عرضه قضايا أمته، وحرًا من أغلال تقعد به عن الصدق، ومن قيود تبعده عن قول الحقيقة[٣]

والأديب الواقعي على النقيض من الأديب الرومانسي، فهو أشد خصومة من سواه مع موجات الرفض للكلمة المضيئة تحجبها الحدود، ويمنعها الصدود، والأديب الواقعي أيضًا في مواجهة غير منقطعة مع دعاة الأدب الكاسد، ومن يسميهم العواد بـ «الهلاميين»، وفي مصادمة مع قيم راكدة مانعة من التقدم الاجتماعي، ومع ألوان من السلوك والمنهج لا تستقيم مع ما يرقى إليه تفكيره الأدبي من سمو ونضج.

والمقالة الواقعية في هذا المجال أكثر صلابة، وأقوى عنفوانًا من المقالة الرومانسية التي تتخفى في نقدها الأدب والمجتمع، وفي شكواها منهما، وتعتمد الرقة والبث والشجن وسيلة لإذاعة خطرات النفس.

فدعا النقاد ـــ ومنهم محمد علي مغربي[٤] ـــ إلى العنف في النقد، والصلف

---

(١) مقالة : أحب النقد وأكره النقد، محمد حسين زيدان، مجلة المنهل، عدد جمادى ١٣٥٨هـ، ص٤.

(٢) مقالة : الأدب والحياة، بتوقيع (.....) وقد ذهبت إلى أنه حمزة شحاتة، صوت الحجاز، عدد ١٥٦، في ١٣٥٤/٢/١١هـ.

(٣) مقالة : أدبنا الحديث، أحمد عبدالغفور عطار، كلام في الأدب، ص ٢٥.

(٤) مقالة : حول كيف يجب أن نكتب ـــ رد وتفنيد، صوت الحجاز، عدد ٤، في ١٣٥٠/١٢/١٨هـ، ص٤

في الحملة على دعاة الأدب الضعيف، ودعا محمد عمر توفيق إلى أن يكون للأدب جدوى[١] ودعا عزيز ضياء بعد اتجاهه إلى الواقعية إلى أن يكون للأدب غاية[٢]، وكل هذه الدعوات تنطلق من مفهوم واقعية الأدب في خدمة المثل العليا التي ينهج إليها المفكرون ودعاة الإصلاح.

ومن قضايا الواقعيين في المقالة الأدبية النقدية تلك المعارك التي خاضوها من أجل تثبيت قيم الأدب النافع، ونفي معانٍ تقف عند حدود الاستمتاع الفني فحسب، وقد يتخذها بعضهم غايته من العملية الأدبية كلها.

فدخل العواد مع الأنصاري في خصومة عنيفة حول قصة «مرهم التناسي» آخذًا على الكاتب اهتمامه بصنعة الأسلوب، وغلوه في التقليد، وخلو قصته من الأهداف الاجتماعية الإصلاحية[٣].

ودخل عبدالله عريف مع حمزة شحاته في معركة عنيفة حول معاني الجمال وأثرها في النفس، وتجدد هذا الأثر[٤].

وقد كان شحاته أميل إلى الواقعية من خصمه عبدالله عريف، فهذا الأخير كان ينظر إلى الجمال بمنظار الرومانسيين الحالمين الذين لا يريدون أن يفجعهم الواقع بقبحه، إو إصفائه من معانيه الجميلة، على حين سعى حمزة شحاته إلى رؤية الجمال واقعًا، وملء نفسه بمعانيه حسًا ومعنى، وإذا فني وانتهي أثره لا يُؤسف عليه، لأن الإنسان يظل يسعى أبدًا باحثًا عن اللفتة الحانية، وفيها من الجمال ما فيها، وعن المنظر المثري وجدانيًا بأطياف المنى، وأشكال الإسعاد، وعن المسمع الموحي، والذكرى الرقيقة، والهمسة واللمحة ولفتة الذكاء، وفي كل ذلك صور من التخيل، ولوحات من الرسم، ومعانٍ من الجمال، منها ما ينفد، ومنها ما يبقى، ولكل إنسان حظه من المقدرة على توليد معاني الجمال والإبعاد بها عن

---

(١) مقالة : هذا الأدب، المنهل، عدد رجب ١٣٦٧هـ، ص٢٧١.

(٢) نظر ص ٤٧٦، من هذه الدراسة.

(٣) نظر أيضاً ص ٤٩٠، من هذه الدراسة.

(٤) انظر ص ٥٠٥، من هذه الدراسة.

الإصفاء، أو عجزه عن ذلك، واكتفاؤه بفيض المعاني تجيئه أول مرة، ولا يكون قادرًا فيما بعد على أكثر من ذلك. فالأمر ليس مقصورًا على طرف دون آخر، بل هو عائد إلى الأثر الجميل ومتلقيه.

والواقعية في هذه المعركة ألّا يسرف المتأثر بالجمال في تأثره، ولا يذهب بعيدًا فيحمله أكثر مما يحتمل، بل يكون التأثر طبيعيًا وفي حدود استيعاب المتلقي وقدرته على التحليل، ومبلغ إحساسه بفيض المعاني.

ومن هذا المنحى الواقعي دخول كثيرين منهم في مناوشات أدبية متعددة[١]، وهي في مجملها توحي برغبتهم في أن يكون الأثر الأدبي متصلًا بالبيئة متواصلًا مع الناس، غير بعيد عن مسارح تفكيرهم، ومدار نقاشاتهم، فدعوا إلى الابتعاد عن التهويل، وكرهوا الإسراف في المديح، ورأوا أن الزعامة والريادة ليستا وقفًا على أحد، يقود مجتمعه إلى سبل الاستنارة والتقدم.

وخلاصة القول في الهروب عند الرومانسيين والاتجاه إلى الواقع عند الواقعيين أن أصحاب التيار الأول مغالون في تشاؤمهم وفي نظرتهم إلى الإنسان، ومسرفون في سوء الظن به والخوف منه، ومن ثم كان هروبهم إلى الطبيعة والكون، والواقعيون أيضًا مسرفون في مباشرتهم، وفي تسخيرهم أدبهم لخدمة واقعهم، غير ناظرين إلى أنفسهم وإلى مافي وجدانهم من ألم وأمل، ومن سعادة وشقاء، ومن وجد وكره، فأهملوا هذا الجانب المعنوي في حياتهم، فخلت نصوصهم من الماء والرونق في كثير منها، والاعتدال في الحالتين أوفق وأكثر خيرًا على النص من حيث فنيته، وعلى المجتمع من حيث قضاياه، والأديب الواقعي حينما يعبّر عن مشكلات الإنسان في مجتمعه كان أحرى به الاتجاه إلى الإنسان أيضًا من داخله، والنظرة إليه وجدانيًا، وكذلك الرومانسي الذي قصر أدبه على الداخل كان أولى به أن يوائم بين الرؤيتين الداخلية والخارجية.

---

(١) انظر في هذه الدراسة، مناوشات أدبية، الفصل الرابع، ص٥٢٠.

٢ ــ الرمز لدى الرومانسيين والوضوح لدى الواقعيين :

اتخذ بعض كتّاب المقالة الذاتية والوصفية الرمز سبيلًا للتعبير عن قضاياهم، وطريقًا للإبداع في التصوير والرسم، فالرمز لدى المعبر المتفنن أداة من أدوات بناء الصورة، وإثرائها بالإيحاء وفيض المعاني، ويأتي الرمز مشيرًا إلى قضية يُراد من الكاتب الإفضاء برأيه فيها، أو معنى يقلقه فلا يجد غير الرمز أداة من أدوات البوح اتقاء للمباشرة المفسدة للإبداع الفني، أو ابتعادًا عن الحرج في مس بعض المعاني بينما يتعمد الواقعيون الانكشاف التام على معانيهم، والابتعاد المطلق عن التعمية والترميز والإيحاء، وبخاصة في المقالة الاجتماعية، التي تُعنى بالهموم اليومية للإنسان، ويكثر وضوحهم في المقالة التنظيرية لتصور الإنسان وطموحه وأهدافه، ومطالبه، فلا يرون في الابتعاد الفني عن المعنى المراد جدوى على النص، وعلى القضية.

وحين نريد ضرب الأمثلة على ذلك فإننا واجدون كثيرين من الذاتيين يعالجون همومهم في شيء من المرح والفكاهة الممزوجة بالرمز والإيحاء، كما فعل عبدالقدوس الأنصاري وأحمد السباعي، فكلاهما أحسّ بضرورة إحلال العقل محل التهور، ومعالجة الخلاف بالحكمة دون اتخاذ منهج القوة والعنف سبيلًا أول لإقناع الخصوم، أو درءًا لخطر، فحين أحسّ الأنصاري بأهوال ما توقعه الحروب في الناس من تدمير وفتك وذلك إبان الحرب العالمية الثانية اقترح على قرّاء مجلته «المنهل» وكتّابها معالجة هذا الموضوع بالدرس والتأمل، فتتناول الأقلام أثر الحرب على الحضارة، بيد أنه تناول هذا الموضوع في مقالة ذاتية، ساخرة، حمّلها بالتأمل والرمز والوقوف على أطوار النفس حين يداهمها خطر، وكيف تتخذ السبل لرده أو الإيقاع به، وذلك في مطاردة الكاتب ناموسة أرادت أن تلسعه وتؤذيه، فرسم صورة «كاريكاتورية» متحركة لعملية المطاردة هذه، وأسراب من الناموس منقضة، ويد تهوي بما تملك وما تقع عليه، وأزيز يخيل للكاتب أنه أزيز الطائرات، وبخاصة والحالة حرب «وأتذكر أن من ألوان المقاومة التي وفقت إليها بادىء بدء أني جعلت من باطن كفي ذات مرة قنابل يدوية

محطمة، أهوي بها هويًا وبغير هوادة ولا رفق على أم رأسه بمجرد ما تهبط طائراته على الأرض وبمجرد ما ينشب مخالبه في المسام، فتارة أكون الظافر المنتصر فأباهي بهذا الفوز المبين، وتارة أخفق في تسديد الضربة وإحكام الرمية فيباهي عدوي بهذا الإخفاق، ويذيع على الملأ إخفاقي بزئيره المرعب الذي يرسله في الفضاء حينما يطير ناجيًا بروحه التي تعز عليه ويعتز بها، وحينئذ أتحمس وأظل أتعقب ببصري حركاته في طيرانه علّي أهتدي إلى المطار الذي يأوي إليه أخيرًا لأحكم له الضربة النهائية، وما أزال أرسل وراءه البصر، وما يزال هو يرتفع وينخفض في طيرانه عن عمد ودهاء ليختفي عني بهذا الالتواء حتى يغيب عن نظري في أجواز الفضاء القريب، وهنا أنتظر الغارة الجوية التالية، أنتظرها وقد سرت في الجسم قشعريرة انتظار هولها المرير، فقد عرفت أن العدو سيأخذ بالثأر، وأدركت أنه لاشك يتهيأ للانتقام. وماهي إلا لحظة وجيزة وإذا بأسرابه تعود أقوى قوة وأوفر نشاطًا، وأشد حماسة من ذي قبل فتتناوشني من كل جانب، وتعمل فيّ أنيابها الحادة من كل طرف، فأتألم وتبتدىء المقاومة الجديدة، وهكذا تظل المعركة في مراحلها العديدة .. »[1].

فالمقالة وصف ذاتي بليغ، جاء بها كاتبها في أسلوب دقيق، وتصوير بليغ لأثر العدو المهاجم على النفس، وقد بحث عن أداة فعالة للقضاء على هذا الأذى ولكنه لم يحالفه التوفيق.

والموضوع في هذه المقالة ذاتي وصفي، تتكشف فيه الذات عن ميزاتها من الغضب والبحث عن منفذ للخروج من دائرة الحصار والقلق، ومن الأناة والتفكير والتحليل، ويتبين في المقالة بعض سمات الوصف، من الإحاطة والدقة والبصر وحسن التحليل وإجادة سرد الحدث في أسلوب درامي مثير، والأنصاري متمكن من أدواته منطلق في حديثه، جامع في هذه المقالة بين الفكاهة والرمز[2].

---

(١) مقالة بين مدافع المقاومة وطائرات الانقضاض، مجلة المنهل، عدد٥، في ربيع الثاني ١٣٦٠هـ، ص٥، وقعها كاتبها، بـ «باحث»، وقد سبقت الإشارة إلى أن هذا الرمز للأنصاري، انظر مقالته عن الأسماء المستعارة، السابقة الذكر، المنهل، عدد ١١، ذي القعدة، ١٣٩٢هـ.

(٢) انظر : النثر الأدبي في المملكة العربية السعودي، د. محمد الشامخ، ص ١٤٣.

وقد طرق السباعي هذا الباب، فوصف نفسيته في محاصرة الناموس إياه، وفي بحثه عن منقذ يدفع عنه بلاء هذا العدو، فتوجه بالنداء إلى الطبيب، وإلى من يتبصر في ما أحدثته الناموسة من لسع وإيذاء، «.. ويستثيرني الوسواس فأمضي في هوس النفض لأقنع نفسي بأني لا شك قطعت عليها كل طريق، وفوّت عليها فرص ما أعرف من مكرها.

ولكني لا ألبث أن أستبطن الناموسية وأحكم تثبيت أطرافها حتى يروعني طنين الماكرة في نغم كأنه لحن المنتصر على هذا النفض المهووس !!.. »[1] غير أنه لم يستطع الوصول بمقالته إلى مستوى صنيع الأنصاري، فالسباعي اعتمد الأسلوب السهل المفرط في هذه السهولة، فجاءت المقالة خالية من كثير من عناصر التشويق الفني، وزاوج بين القص والنداء والتعليل، مما أربك التصوير، وأحدث تقطعًا في الصورة.

واختلف الكاتبان في إيحاء المقالة العام، فالأنصاري لم يكتب وصفًا ذاتيًّا مجردًا، بل أراد الإيماء إلى الحالة الحربية التي كان الناس يعيشونها آنذاك، على حين خلت مقالة السباعي من الإيحاء العميق، وقد يفهم منها أسلوب الإنسان الحكيم في مقاومة الأذى، وكان الظرف الزمني الذي جاءت في أثنائه المقالة من أسباب إثراء المعنى، فزادها جمالًا وقوة وتوفيقًا، وكان للسرد المتقطع، وبعض المباشرة وفقدان المعنى الرمزي العميق في المقالة الثانية أثر في ضعفها وقلة تأثيرها.

وفي الرمز ارتفاع بالأدب عن العادية في التعامل مع المعاني ومع القضايا، بينما يظل الواقعيون متمسكين بالإبانة الواضحة البعيدة عن الدعوة إلى إعمال الذهن، والسبح وراء الخيال، ومن الأكيد البيّن أنهم يعيبون الرامزين والخياليين والمبعدين عن التصريح، ويريدون من الأدب حمل مشعل الوعي والبناء دون النظر إلى جوانب المتعة والظواهر الجمالية.

---

(١) مقالة : عدوي اللدود، أوراق مطوية، ص ٢٢٧.

أما المقالة الاجتماعية ــ وهي الشق الثاني من أدب الواقعيين المقالي ــ فقد أراد منها كتّابها أن تكون وسيلة هامة من وسائل الإصلاح، فهم يريدونها منبرًا يتحدث منه أصحاب الرأي عن طرق البناء، وأدوات النهضة، ومعوقاتها، وأسباب الركود، وشروط البعث، وأحلام هؤلاء الرواد في مستقبل أكثر إشراقًا ووضاءة، يعيد للأمة ألقها، وللتاريخ دورته، وينفي كثيرًا من الخبث الذي علق بالتفكير والهاجس والطموح.

ولذلك أفاضوا في الحديث عن هذه الواقعية المثيرة للانتباه إلى جسارتها وصلابة دعاتها وحاملي أفكارها التنويرية، وتساءلوا عن صلة الأدب بالحياة ؟ وضرورة النقد ؟ وفائدة النص الأدبي في تقريب الصور البعيدة بحيث لا يزيدها الأدب غموضًا وبُعدًا، كما يفعل رومانسيون كثيرون، حيث تتحول الأحلام القريبة إلى نوع من «المثيولوجيا» الخيالية البعيدة عن الإدراك بله أن تتحقق !.

إن عالم الواقعيين يميل إلى الحس أكثر من استسلامه لخيال الأدب، وتجنيح الفن، ويحتاج من الأدب ما يساعد على إظهار الفكرة، ويسبغ عليها أسباب القبول والإقناع والتأثير، ولا ضرورة للفن الخالص مادام الكاتب قادرًا على التأثير في متلقيه بأسلوب سهل خالٍ من التعقيد، وبعيد عن الإغراق في الرمز والغموض والمحسنات. ويميل الواقعيون أيضًا إلى الإيمان بالحقائق، والدعوة إلى عدم الخروج عنها، ولا يقبلون أدبًا كثيرًا من أولئك الخياليين والمثاليين، فالمثالية لديهم هي مثالية الواقع، والانتقال به من «الراهن» إلى الحلم القادم، القابل للتحقق !.

وهذه الرؤية تخرج عن مرحلة «التنظير» في المقالة النقدية، أي من وضع المنهج للأدب الصحيح، إلى مرحلة الإجراء والتطبيق في المقالة الاجتماعية، ولذلك نرى أن الواقعية المباشرة تظهر في أدب الكتّاب الاجتماعيين أكثر من ظهورها في أدب غيرهم.

فقد دعا الاجتماعيون إلى النهضة، وخرجوا من البكاء على الواقع والشكوى المجردة من الأفكار التي تنير الطريق إلى تلمس أسباب التخلف، وطلب مقومات

النهوض من الأسن الاجتماعي المزمن، واستطاع أكثرهم انتشال نفسه من وهدة الاستسلام إلى الأمل المقرون بالفعل في التغيير والتطوير، كما فعل العواد، وهو زعيم المدرسة الواقعية في الأدب السعودي، وبخاصة المقالة منه، حين دعا إلى رسم صورة شوهاء للواقع للمبالغة في التنفير منه، على عادة الفنانين في عدد من الأعمال التشكيلية أو الدرامية، والفن في العادة ينهج المبالغة، لتجسيم الصورة في إطار واسع يبرز الأشياء الصغيرة الخافية.

أو كما فعل عبدالوهاب النشار في دعوته إلى محاسبة مجتمعه[1]، وتعداد مناحي النقص الكبيرة الفادحة في بيئته، وتساؤله عن العزيمة الغائبة في النهوض والتقدم ؟!.

وكذلك فعل محمد حسن فقي ــ على الرغم من طغيان الرومانسية عليه في مقالات أخرى ــ حيث عدد أسباب التخلف[2]، ودعا إلى الوحدة والعمل والاتصال بالعالم، واكتشاف مكنونات الأرض، واستثمار طاقات أبناء البلاد.

ومن هذه الواقعية نقدهم عادات وتقاليد بالية، ورفضهم التغني بالفن، والشدو في صومعته، أو الاعتصام في برجه العاجي، حتى أولئك[3] الذين دعوا إلى اتخاذ «الفن للفن» لم يستطيعوا الالتزام بهذه الرؤية، فرأينا لهم دعوات اجتماعية شجاعة، وخوضًا في غمار الواقع الاجتماعي، وأسلوبًا سهلًا بعيدًا عن العاجية والغناء الخاص.

فوقفوا أمام المقلدين يلومونهم، وسواء كان التقليد فناء في الماضي، أو احتذاء أهوج لأنماط من السلوك والفهم الأجنبي الذي لا يتفق في كثير منه مع سمات الشخصية العربية الإسلامية[4].

---

(١) مقالة : متى ننهض؟ عبدالوهاب النشار، أدب الحجاز، ص١٢٩.

(٢) مقالة : لو بغير الماء حلقي شرق، محمد حسن فقي، صوت الحجاز، عدد ١٥٤، في ٢٦ محرم ١٣٥٤هـ، ص١.

(٣) منهم مثلاً أحمد عبدالغفور عطار، انظر مقالاته : البرج العاجي، كلام في الأدب، ص٣٠.

(٤) مقالة : بين الرقي والتفرنج، بدون توقيع، أم القرى، عدد ٢٣٨، عام ١٣٤٨هـ، ص١.

وكان كثيرون منهم معتدلين في فهمهم العادة، واستيعابهم معنى التقليد، انطلاقًا من رؤيتهم الواقعية في الحياة، لأن الإغراق في الماضي نوع من الهروب، والارتماء على الآخرين في غير وعي ضعف في الشخصية واضمحلال في مقوماتها، يتنافى مع الصراع الواقعي الذي يستدعي تكوين مقومات الذات على أسس صحيحة ناضجة، تأبى التدثر بالماضي، وتأنف من الركون إلى غير طاقتها وعزائهما[١].

فقد عالج المقاليون الواقعيون مشكلات مجتمعهم في أسلوب واضح كالزواج والطلاق والإسراف، وشئون التربية، وما لحق بالدين من مفهومات خاطئة، وأطالوا المعالجة في قضايا عديدة، اضطروا إلى متابعة الكتابة فيها إلى أن خفّ أثرها، وذهبت نذر استحكامها بالناس.

وفي سياق هذه الواقعية أكثروا من الدعوة إلى العمل والإنتاج، فبهما ينهض المجتمع ويقوى، وحذروا من الكسل[٢] والتواكل والخمول، ورأوا أن فيها داء المجتمعات وسبيلها إلى الانحدار والاندثار.

واتبعوا في دعوتهم إلى هذه الفضائل مبدأ القوة[٣]، وجعلوه أساسًا متينًا من أسس النهضة، فلن يترقى ضعيف، ولن يتحضر شعب يستبد به الخمول أو تفتك به أدواء الجهالة وهي معقل كل أصناف الضعف.

ولقد كانت الفترة التي عاشها الرواد ــ على الأخص ــ من عمر هذه البلاد فترة صراع بين البقاء والفناء، وبين الثبات والتحول، وبين الركود ومخاض ميلاد مجتمع جديد !.. ولذلك أسهم المقاليون بوعيهم الواقعي الناضج في معترك الحياة الجديدة هذه، ورأوا أن رسالتهم الوطنية ليس لها حدود، وأنها تشمل إلى

---

(١) مقالة : عادات وتقاليد يجب أن تزول، دون توقيع، أم القرى، عدد ٦٥٠، في ١١ ربيع أول ١٣٥٦هـ، ص١.

(٢) مقالة : في السبيل، محمد حسن عواد، صوت الحجاز، عدد ٣، في ١٣٥٠/١٢/١٩هـ، وقعها بـ (م.ح.ع) ص ٨.

(٣) مقالة : حذار أن تكون ضعيفاً، أحمد السباعي، صوت الحجاز، عدد ١٥٨، في مقالة صفر ١٣٥٤هـ، ص١.

جانب الإحساس الأدبي والتميز الفني ــ بناء الشكل الحديث والمضمون الجديد في بيئة تتنازعها عوامل البقاء في الظل، وتشدها إليها نوازع رسوبية كثيرة، لعل أهمها الانغلاق القديم، وضعف الوعي، والتشتت السياسي، وضياع الهوية القومية والاقتصادية.

وقد كانوا يعرضون هذه القضايا في أسلوب مباشر واضح، بعيد عن التعمية، وخال من التطرية والاعتناء بالشكل.

وقد أفاد الرمز الرومانسيين في الارتفاع بالنص عن مباشرة المعنى وتناوله بأسلوب عادي، وأوقع طلب الوضوح الواقعيين في الابتذال والعادية وضعف النص في جوانبه الفنية بعامة.

والإغراق في الرمز يذهب بالمعنى، ويوقع القارىء في لبس وفي توهان عن المعنى المراد، والأمر نفسه في الواقعية المباشرة المتخلية عن الرواء والاعتناء بالنص، مما يفقده التأثير والإمتاع.

فالرومانسية هنا أقرب إلى روح الفن، وأكبر تأثيرًا، وأجمل سياقًا، وأبقى في وجدان المتلقي.

٣ ــ الإحساس بالوحدة لدى الرومانسيين، والإحساس بالجماعة لـدى الواقعيين :

بالغ الذاتيون في الحديث عن النفس وقلقها، واضطرابها، وبحثها عن الاطمئنان وهربوا من الناس إلى واقع آخر أوجدوه في الخيال، يناجون فيه أنفسهم أحيانًا، والطبيعة أحيانًا أخرى.

على حين التصق الواقعيون بالمجتمع، واختلطوا بالناس في قضاياهم ومعاناتهم وعبروا عن هذا الإحساس الجماعي تعبيرًا فيه عنف في السعي وراء الغايات الجماعية وفيه فهم لمعاناة الجماهير وتطلعها.

ونجد الذاتيين يسرفون في الحديث عن النفس وحقيقتها في محاولة أدبية

فلسفية للوصول إلى بعض أسرار الوجود، كما فعل حمزة شحاته[١] في سعيه إلى الإيمان بالحقيقة الكبرى بعد المعاناة والنصب، وإلى تبرير هربه من الحياة، وطلبه الوحدة والفناء في الحياة أو ما بعدها، ولعله أكثر الأدباء المتحدثين عن الضجر الإنساني من الواقع عمقًا وسبرًا لظاهرة الهرب هذه، وطلب الوحدة، وهو متفوق على محمد حسن فقي في هذا الجانب، إذ يكتفي الفقي — في الغالب — بالشكوى، والتعبير عن ألمه ممن حوله[٢]، وضجره بالواقع، وتذمره من نفسه الضجرة، وقنوطه من عدم مواتاة التوفيق له، فيهرب من الناس إلى نفسه، ومن نفسه إلى قلق ممض، وبحث في ما وراء العقل.

ولذلك يهرب كثيرون[٣] منهم إلى واقع آخر غير واقعهم، فيه الوحدة خير من الاجتماع، والألفة مع الوحش في البرية ومع ظواهر الطبيعة أكثر سعادة من الإحساس بالبشر والاحتفاء بعواطف الناس.

والرومانسيون على هذا النحو ليسوا مسالمين هادئين بعيدين عن المشاركة مع الواقع، ومع الأحياء، كما يفيد الفهم السريع لنصوصهم، بل إنهم على نقيض ذلك كله، فالذاتي لا يفر إلى الطبيعة إلا من شدة خلافه مع من حوله، ولا ينادي الأنواء والفصول إلا حين يفور رفضًا لقيمَ، أو سعيًا إلى مبادىء غير موجودة أو طلبًا للخلاص من جحيم الجماعة إلى نعيم الوحدة !.

فالرومانسي في حقيقته واقعي من وجه آخر، غير أنه يختلف مع أولئك الأدباء المباشرين فارتفاعه عن مصاولة الأشياء العارضة بالنقد المكشوف، وفي طلابه تفريغ شحناته النقدية الرافضة في سبحات الخيال، وآهات الوجد، وألم العاطفة.

فالوحدة ليس فيها أنيس إلا مناجاة الكون، أو مناجاة النفس، أو مناجاة الحبيبة، ويجدون في بذل عواطفهم لمن يرتاحون إليه سعادة لا يصل إليها إلا العاشقون المدنفون، لأن الأحبة سرقوا قلوب عاشقيهم، واستولوا على دقاتها[٤].

---

(١) مقالة : صراع حمزة شحاتة، صوت الحجاز، عدد ٢٣٦، في ٢٣ رمضان ١٣٥٥هـ.

(٢) مقالة : يوميات، محمد حسن فقي، صوت الحجاز، عدد ٢٠٤، في ٦ صفر ١٣٥٥هـ، ص١.

(٣) مقالة : وحدتي، محمد البياري، أدب الحجاز، ص١١٧.

(٤) مقالة : هجيري الذات، أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري، هكذا علمني ورد زورث، ص٢٥٥.

أما الواقعيون فيرون أن الخير كله في نقل معاناة الناس، والسعي إلى تطهير الواقع من خلال فهمه، وإظهار إشكالاته، ولا يرون الأدب ذا جدوى حين يفرغ المعبر همومه وضيقه في الآهة والموال والتصوير، بل إن ذلك يزيد المشكلة تعقيدًا ــ فيما يرون ــ فالمهمة الأدبية لا تقتصر على التذمر وتصويره في صور بيانية جميلة، وإنما ينجح الأديب في جعل التذمر نصًا يواجه الواقع ويبحث له عن حلول، بدلًا من شكوى فقدان هذه الحلول.

والقضية ــ كما يبدو من اتجاه التيارين ــ تتصل بأشياء عدة، من نفسية الأديب ومصادر ثقافته، وبيئته التي نشأ فيها، وطبيعة مجتمعه ووعي الكاتب وظيفته الأدبية، والأهداف الفنية في النص.

فالهروب إلى الوحدة، والتفرغ للشكوى يبعدان الأديب المقالي وغيره عن واقعه، مما يضعف قيمة النص الاجتماعية. كما أن الانغماس الكامل في الإحساس الجماعي قريبًا من مفهوم الالتزام التام يفقد النص الأدبي رواءه وطلاوته، وإذا نجح الأديب في مزج همه الذاتي بهم الجماعة، ومنح النص ما يحتاجه من عناية فنية بحيث يؤدي الوظيفتين، الفائدة والإمتاع فإنه يُوفّق أيما توفيق في الموازنة بين الشكل والمضمون، والهم الذاتي والإحساس الجماعي.

والخلاصة في موازنة الموضوعات لدى الاتجاهين : أن الرومانسيين يلحون في مقالاتهم على نفورهم من الواقع، وهروبهم إلى الطبيعة، وسخريتهم من قيم كثيرة، ومثاليتهم في رؤاهم الفكرية، وإرجاعهم كثيرًا منها إلى أبعادها الفلسفية، وإحساسهم المفرط بالوحدة، وسعادتهم في بثهم مشاعرهم الوجدانية.

وأن الواقعيين لا يهربون من مجتمعهم، ولا يؤمنون بالرمز إلى معانيهم وقضاياهم، ولا ينفرون من الناس، ومن الجماعة، ويجدون سعادتهم في الاختلاط بمن حولهم، وفي التعبير عن هموم الواقع.

وفي مقالات الذاتيين جمال فني، وحسن تصوير، وصدق عاطفة، وفي مقالات الناقدين الاجتماعيين فكرة قد لا تقبل البقاء والدوام، ونقد جميل يقود في الغالب إلى الأمثل والأجمل، غير أن كثيرًا من نصوصهم يقل فيها الإمتاع الفني.

ب ــ الأساليب لدى الرومانسيين والواقعيين :

اختلف كتّاب الاتجاهين في الأسلوب، وتميز كل فريق بميزات تنسجم مع نظرته إلى الفن، وإيمانه بوظيفته الأدبية في التغيير والإصلاح والإمتاع.

فالذاتيون يكتبون المقالة بوحي من عاطفتهم، ويريدون منها التفنن في الإطار الشكلي، والابتكار في الصورة، والإيقاع في موسيقى الكلم، على حين لا يرى الواقعيون قيمة لكل ذلك، فيجيء النص عندهم عاطلًا من أدوات الزينة والإمتاع في الغالب، إلا ما تأثر منه بطبع الكاتب وثقافته وبيئته العلمية، فيظهر ما لهذه العوامل من آثار على المقالة، وتبعد بها عن الخشونة والجفاف، كمقالات ابن خميس، ومقالات عزيز ضياء.

ويمكن إجمال ما يفترق فيه الذاتيون عن النقديين في جزئيتين هما : أن الرومانسيين مغرقون في العاطفة، مسرفون في الانقياد إليها، على خلاف الواقعيين الميالين إلى العقل، وإلى الإيمان بالحقائق، ومواجهة الأفكار الظاهرة، والبعد عن الاحتمال.

وأن الرومانسيين ميالون إلى الاحتفال بالشكل والصورة الأدبية، والاعتناء بما يطرب ويمتع الحس والوجدان، ويسعد النفس من لمحة ولفتة وخيال، بينما يتوجه الواقعيون إلى التعبير المجرد العاطل من كل زينة، وهمهم إيضاح الفكرة، والتأكيد عليها بعيدًا عن التطرية والرواء.

وهاتان الخصيصتان محتاجتان إلى بعض البسط والتفصيل على النحو الآتي :

١ ــ إغراق الرومانسيين في العاطفة، واتجاه الواقعيين إلى العقل :

يتميز الرومانسيون في أساليبهم الفنية بإسرافهم في طلب الإمتاع الفني، وذلك بالبحث عن سبل هذا الإمتاع، من الإيقاع والتطريب، وفن الخيال المجنح والصور

المحلقة، ومن العناية باللفظة وموقعها من الجملة، وأثر ذلك في سياق النص.

فالرومانسيون يتناولون قضاياهم في أسلوب بعيد عن المباشرة، ويذهبون إلى أن الفن في التصوير، وأن الابتكار يكمن في إيصال الفكرة، وليس في الفكرة نفسها وأن العاطفة الصادقة هي قوام العمل الفني.

ونجد من هؤلاء محمد حسن زيدان كاتبًا ذاتيًّا ووصفيًّا، مغرقًا في رومانسيته، مستجيبًا لدفق عاطفته، وفيض أمانيه، ومتأثرًا إلى حد كبير بمثيرات الوجدان، وباعثات الأشواق في النفس، من اللفتة الذكية الجميلة، والهمسة الحانية، والنغمة السارية والإطلالة الفاتنة، وما إلى ذلك.

ونراه يتتبع مواضع الحب، ومواطن الانسياق إليه، حتى بعد أن بلغ به السن مبلغه، ولم يستطع أن يتأتى له ما كان يواتيه به سن الشباب من إقبال الحياة، وإسعاد الحظوظ، فلا ييأس من كل هذا البياض في اللمة، والتغير في السحنة، والتقوس في الظهر، فيحب الحب، ويغني له، ويستسلم لخواطره، وينقاد لانثياله ممن يسمع عنهم أو يراهم، أو يتغنى ببعض قصصهم، وكأنه حين أدبرت عنه ومضات الوجد آثر أن يغنم حظه في التأمل، وفي الارتياح إلى الذكريات .. «وحين أفلست بعد أن تعلمت لم أجد في نفسي قبولًا لأن أجد من أتصارع معه، يعني ذلك أني فقدت إلى حد بعيد الحبيبة والحبيب !.

بصراحة .. لأني غير صالح لذلك .. لا إغراء .. لا زخرف .. ولا حتى ما استبدل به المتنبي ماله وخيله !.. لأن منطقي أصبح غير معجب .. قديم عفى عليه الزمن .. لكنني سأنتصر .. لن أكون منهزمًا .. حيث لا حبيبة ولا حبيب، ولا كفاءة في أن أجدهما فإن عندي كل الكفاءة لأن أحب ماهو أغلى، فلئن فقدت من هو أغلى فلا عائق إن هو الأغلى ذلك هو حب المحب !.

هذا ميداني أتحدى من يلقاني فيه، فإني سأنتصر عليه. حب الحب .. جمال الشيخوخة، وكمال الإباء، وفضيلة الأصفياء!»[1].

---

(١) مقالة : حوار، محمد حسين زيدان، كلمة ونصف، تهامة، ط١، ١٤٠٢هـ، ص ١٨٠.

وهو يتغنى بهذه الحبيبة التي تقضت أيامها، وعفى عليها الزمن، فيستعيد ذكراها لينعم فيها بما توحيه له من سامي المعاني، وكريم العاطفة، بل إنه يتناساها[١] ثم يذكرها لتمحو الأيام شيئًا من حضورها في وجدانه، فهو يتعذب بالحب ويشقى به، ويسعى إليه كأن الصبابة هي المعنى، والحرقة بها هي المراد، فليس الوصل ذا بال، بل عذاب الوصل هو باعث الجوى، وناكث الجراح، «نحب الحب ولا نقترب من الحبيب»[٢]. أو كأن «الألم هو اللذة»[٣].

ويعتمد أساليب متعددة لإبراز هذه العاطفة الطاغية، فحينًا يتخذ الحوار طريقًا لبث أفكاره، والإفضاء بمعانيه على لسان صديقه في حواره معه على نمط (قال .. وقلت) .. وحينًا آخر يعتمد أسلوب القص متكئًا على غرامه بالتاريخ، واعتنائه بالتحدث فيه، وقد يجمع ما يحقق له غاية النص، فيحاور ويقص ويصف، ويقف عند المشهد يتتبع تفاصيله، ويلاحق جزئياته، ويعيد اللفظة عند مواضع التأثير فيه، ويولّد المعنى من المعنى، ويعود من فكرة إلى أخرى، فهو في مزاوجة دائمة بين الأساليب والأفكار، ومخزون الذاكرة من المعارف، انظر إليه حين أراد وصف استقباله أحد أحبابه في مطار في الهند، وماذا لفت انتباهه من مشاهد الجمال، وبديع التصوير في الخلق، يقول : «.. وقفنا في المطار ننتظر هؤلاء الذين يطيرون ويعودون، الهواء جميل والناس عليهم لمعة الترف، فرؤية الترف في صاحب الشظف قد تكون ممتعة إذا كان من الذين لا يحسدون الناس على ما آتاهم الله، وفي إحدى اللفتات رأينا فتى في يده كاميرا يلبس قميصًا أخضر مغللًا بزهرة بيضاء من الفل والياسمين ولا يلبس بنطلونًا وإنما قد أطلق على نفسه أن يلبس «الشورت»، نظرنا إليه يعد الكاميرا يستقبل الطائرة وكان جميلًا جمال نصر بن حجاج، فتنة تمشي على الأرض.

وهبطت الطائرة، فأول من نزل منها فتاة تلبس ثوبًا أخضر كقميصه، على

---

(١) مقالة : خلجات ــ حين (تهوبر)، محمد حسين زيدان، خواطر مجنحة، تهامة ط١، ١٤٠٤هـ، ص٥١.

(٢) المقالة السابقة، المصدر السابق، ص٥٣.

(٣) مقالة : عذرية الحب، المصدر السابق، ص٨٣.

جبهتها صبغة حمراء هندوكية، نظرنا إليه وإليها فإذا هما توأمان من شدة الشبه بينهما ـــ التقط لها صورة، أمسك بيدها، نحن لم نرَ الصورة في الكاميرا ولكن انطبعت لها صورة في الوجدان، فقد كان الجمال رائعًا لم أرَ لونًا كلون الذهب يسطع ببياض مصفر صفر الياسمين كلونها .. كلونه!»[1]. فالعاطفة في سياق النص نحو الجمال والافتتان به لا تخفى، والكاتب الذاتي يبتعد عن إيحاء العقل الخالص، ويتجافى عن لوازمه، بل لعله يضيق به ولا يرتاح لسلطته القاسية على النفس، وتقييد انطلاقتها نحو الآفاق، فالوجدان والقلب والخيال مواضع فيض المعاني لدى هؤلاء الرومانسيين، على حين يلجأ الواقعيون إلى العقل يثرون منه أفكارهم، ويملأون من أحكامه رؤاهم ونظرتهم إلى الأشياء، فيأخذونها مجردة من نزعات الفن، ويتناولونها بعيدة عن سبحات الخيال، فالأمر لديهم في موضوعاتهم وأساليبهم الجدوى الواضحة المتحققة من الفن، لا الإمتاع الذهني والوجداني، فجدوى هذا الإمتاع مقصورة على صاحبه والمتذوقين معه لتطريبه وخياله. والفن عندهم لا يقدم شيئًا ذا بال للمجتمع وللمتلقين، ولكن الفكرة الهادفة القوية في النص تدفع المجتمع إلى الأمام في سيره خطوات، فالأدب لديهم وسيلة لا غاية، والفن أداة لتحقيق الغاية الكبرى منه ويقترب هؤلاء الواقعيون من وظيفة الأدب الحقة، وهي البناء، والنقد، والإصلاح، وكان المعتدلون منهم يرون ضرورة أن يكون الأدب مفيدًا وممتعاً.

وكانت النهضة بعامة في بدايتها، منتصف القرن الهجري الماضي فلزم الأمر اهتمام أكثر الأدباء بالالتزام والدعوة إلى سبيل إقامة مجتمع واع قادر على الإفادة من قدرات أبنائه والاستفادة من خيرات أرضه.

وتخلى بعض من تغنى بالفردية والأحادية عن كثير من العزلة التي تمليها حالة الغناء الفردي، واختلط بأدبه مع هموم مجتمعه، ومع قضايا النقد الأدبي، فكتب حسين سرحان منكرًا كون الموهبة الأدبية تصنع أديبًا، وداعيًا إلى الاعتناء بالفكرة، والبحث عن هدف سام يسعى له الكاتب «إنّ المواهب الأدبية وحدها لا تجدي

---

(١) المقالة السابقة، ص٥٥.

فتيلًا في تكوين شخصية (الأديب الموهوب) فإن الأدب لا يزيد عن معان جميلة أو صور جميلة مفرغة في قوالب جميلة فما غناء ذلك ؟ إن لم تكن هنا أو هناك لمحة من الفلسفة، أو قبسة من السحر أو لمعة من الألمعية أو نفحة من العلم .. »[1].

ودعا العواد إلى ربط الأدب بالحياة، ثم دعا عزيز ضياء إلى أن يكون لأدب البلاد غاية.

وكل هذه الدعوات أثرت عن اتجاه كثيرين من الكتّاب المقاليين إلى الإيمان بالواقع، والابتعاد عن الترف الفني، واستحياء المعاني الإنسانية والوطنية والخلقية في أدب تقرأه الجماعة وتتخذه مشعلًا في طريقها إلى الحياة الفاضلة، لا عزفًا على وتر الذات، وشكوى من الحرمان والعذاب، ونشيجًا متصلًا لا ينقطع مع الشفق والنسمة، ورنة الذكرى !.

هكذا كان يفكر الواقعيون من كتّابنا المقاليين، في مجالي المقالة، النقدية والاجتماعية، فكتّاب الطائفة الأولى ينظّرون ويوجهون ويدرسون النص، وكتّاب الطائفة الثانية يضعون أقدامهم على الأرض، ويتلمسون بأيديهم مشكلات الواقع، وينظرون إلى النقص، والطموح، والمنتظر فيجعلون همهم الأول الحقيقة الملموسة، ولا ينظرون إلى كثير مما بعدها.

والنقاد المقاليون في تنظيرهم لأهداف الأدب وغاياته يرون أن النص مرآة تعكس نفسية صاحبها وملامحه، وتصور المجتمع الذي يعيش فيه الكاتب.

يؤكد إبراهيم هاشم فلالي على ضرورة الاتصال بين الكاتب ونفسيته، وظهور أثر ذلك في النص «والمفروض في أدبائنا أنهم غير مهملي المرآة التي يحملونها، لتعكس مايراد عكسه من صور الحياة، ومن الزاوية المختارة. فلكل أديب زاويته التي تتفق مع نفسيته وميوله، .. والأدب ينقل الحياة بواقعها عذبًا أو مرًّا إلى

---

(١) مقالة : سأل سائل، حسين سرحان، البلاد السعودية، عدد ٦٥٠، في ٢٣ جمادى الأولى ١٣٦٦هـ، ص٤.

الأذهان والأفكار»[١].

وصب غضبه على النّظامين والمنشئين بلا هدف ولا غاية، ونعت أدبهم بأنه لون من الترف لا يستحق العيش، ولا يستأهل الخلود، وإنما الأدب الباقي هو ذلك الذي ينير الطريق، وحَمَلته هم أصحاب المشاعل الذين يكشفون المستقبل، ويبعدون الركام عن سبيل النهوض، حتى لا يعوق السائرين عن السير الحثيث.

وقد واجه النقاد الواقعيون إشكاليتين، واقعًا مرًّا متخلفًا، وحملة أدب لا يحسنون منه إلا التزين به والتكثر من منظومه ومنثوره مباهاة وافتخارًا، ولا يظهر في أدبهم شيء من مطامحهم، أو تصوير لما يريدونه من آمال وأحلام، أو نقد لواقعهم، فكان الاتجاه إلى محاسبة هذا اللون من الأدب قويًا عنيفًا، ولفت أنظار الكاتبين والمنشئين إلى غايات أسمى من المتعة الفنية العارضة !.

«وقد انقضى العهد الذي كان فيه الأدب أداة من أدوات الترف التي لا يقتنيها إلا المترفون ليجمّلوا مجالسهم بالأدباء وآثارهم، كما يجملونها بالتحف والتماثيل»[٢].

وقد تبينت ملامح هذه الرؤية النقدية في نظرات العواد إلى كثير مما نقد[٣]، ونظرات محمد سعيد العامودي في تحليله الوصفي للشخصيات وللكتب[٤]، ثم في الجيل اللاحق، عند عبدالله بن خميس في طلبه الدقة والصواب والالتزام[٥]، على الرغم من احتفاله بالفن، واعتنائه باللفظة، واهتمامه بالصوغ، وكذلك نجد بعض سمات المدرسة التي تزاوج بين الواقع والفن في نقد عبدالفتاح أبي مدين، ودعوته إلى الجمالية والموضوع[٦].

---

(١) مقدمة كتابه «المرصاد»، جـ٢، ص٩٩، بتصرف يسير.

(٢) مقدمة كتابه «المرصاد»، جـ٣، ص١٩٦.

(٣) انظر أعمال العواد الكاملة، المجلد الأول، دار الجيل للطباعة، القاهرة، طـ١، ١٤٠١هـ.

(٤) انظر كتابه «من أوراقي»، تهامة طـ١، ١٤٠٤هـ.

(٥) انظر كتابه «من جهاد قلم — في النقد» جـ١، طـ١، ١٤٠٢هـ، مطابع الفرزدق، الرياض.

(٦) انظر كتابيه : «أمواج وأثباج»، النادي الأدبي والثقافي، جدة، طـ١، ١٤٠٥هـ، و «في معترك الحياة»، النادي الأدبي والثقافي، جدة طـ١، ١٤٠٢هـ.

فالعاطفة الجياشة تصنع الفن المؤثر الممتع، وخلو النص الواقعي من قوة في العاطفة واندفاع في جيشانها أضعف الأدب الواقعي، وقعد به عن تحقيق كثير من غاياته، وإسراف الذاتيين في الشكل والعاطفة أضعف الجانب الموضوعي العقلي في نصوصهم المقالية، والنص الجيد هو الذي يحتفل بالعاطفة، وينساق إلى شيء من العقل، فتتولى العاطفة إبداع الشكل، وإحياء الإحساس في جزئياته، ويتولى العقل إنجاح الفكرة، وتكوين التصور الموضوعي عنها.

غير أن النص الأدبي يميل إلى تغليب جانب العاطفة على العقل، والانقياد إلى فورة الانفعال التي تواتي الكاتب عند تأثره بما يثير وجدانه، ويحرك شجونه فيدفعه إلى القول المبدع الممتاز.

٢ ــ ميل الرومانسيين إلى الاحتفال بالشكل، وميل الواقعيين إلى واقعية التعبير :

عُني الكاتبون المقاليون الذاتيون بأشكالهم الفنية، فكان للفظة محلها من الجملة وأثرها في الإيقاع والتأثير الموسيقي، وكان للخيال أمداؤه الواسعة التي يفيضها على المقالة الأدبية، وكانت العاطفة الصادقة القوية عنصرًا مهمًا من عناصر المقالة المؤثرة.

ولذلك كانت المقالات الأدبية الذاتية والوصفية أكثر تأثيرًا، وأكثر إمتاعًا.

وحين انصرف النقديون الواقعيون عن هذا الجانب، وأهملوه أو لم يؤمنوا بأهميته وجدواه خلت مقالاتهم من ذلك التأثير الذي نجده في مقالات الرومانسيين.

وممن أظهر هذا الاهتمام بالشكل والأداء الفني من الذاتيين والوصفيين ــ كما أسلفنا ــ عزيز ضياء، ومحمد حسن فقي، وحمزة شحاته، ومحمد حسين زيدان، وعبدالله الجفري.

وقد أهمل الاعتناء بالشكل من الواقعيين كثيرون، ومنهم محمد سعيد عبدالمقصود وزيد بن فياض، وعبدالكريم الجهيمان، ونجد هذا الإهمال في بعض مقالات سعد البواردي، وأحمد السباعي، وعلي العمير، وغيرهم.

ولكي تتبين خصائص الفن عند أصحاب التيار الأول اختار محمد حسين زيدان نموذجًا للكاتبين المحتفين بأساليبهم، ثم اختار عبدالكريم الجهيمان نموذجًا للكاتبين المعنيين بإظهار الفكرة دون بحث عن زينة أو إيقاع.

ونلحظ أن الزيدان يولي اهتمامه باللفظة وموقعها من الجملة، ويؤكد على موسيقى الأداء، ولو استطاع أن يترنم به لفعل، ولو أتيح له أن يقرأ مقالاته على الملأ لكان أكثر وقعًا في النفوس، وأصدق أداء مع المعنى، فهو بطبعه مُحدّث قبل أن يكون كاتبًا، يغلب على أسلوبه الأداء القصصي، وطريقة المحدثين، ولزمات المُمْليين، وقد أومأ إلى شيء من ذلك في أكثر من مقالة، «فنحن كتّاب الإملاء، لأحرفنا جرس، كأن ما نمليه ليس حرفًا على قرطاس وإنما هو كلم على المنبر .. »[1].

ويقول عنه أحد من يكتب له ما يمليه عليه من مقالاته، وهو عبدالله الجفري، واصفًا الزيدان في حالة الإملاء : «والزيدان عندما يتهيأ لإملاء ما يكتبه في رأسه، وبلسانه، وعلى تعبيرات وجهه .. تشعر أنه يمتلىء حلمًا ويفيض بعد ذلك، وقد يبلغ به هذا الفيض حدود الدمع، فتراه — فجأة — وهو يملي عليك كلمته ينخرط في البكاء. ولعلي أسعد الناس بهذه الميزة منه، أو أكثر الذين يملي عليهم فيض نفسه وفلسفة فكره»[2].

وقد بلغ بالزيدان الاهتمام بالجرس والإيقاع مبلغه، حتى ليخيل لقارئه أنه يتعمد أن يكتب لإحداث هذه المتعة، ولذلك تكثر في أسلوبه المحسنات البديعية كالجناس، والطباق، والتورية، والكناية، ويُعنى بالبيان كالتشبيه والاستعارة.

---

(١) مقالة : الواو في اللغة الشاعرة، المصدر السابق، ص٦٣.

(٢) مقدمة كتاب الزيدان «ثمرات قلم»، تهامة، ط١، ١٤٠١هـ، ص١٢.

والكلمة ـــ لديه ـــ ذات الجرس تُفهم بالأذن أكثر مما تفهم بالعين، ويقول عن ذلك «الجرس هو رسالتي إلى أذن ثم إلى وجدان، وبعدها لتفحص العين ما فهمته الأذن»[1].

وهو متأثر في ذلك بأساليب البيانيين أمثال مصطفى صادق الرافعي، وأحمد حسن الزيات، وإبراهيم عبدالقادر المازني، وغيرهم، وقد تأسى بهم في العناية بالموسيقى والتناغم والتوازن، وأراد من مقالته البلاغة، والتأثير عن طريقها، إضافة إلى ما يطرقه من معان وجدانية رقيقة تستدعي اللفظة السهلة، والإيقاع العذب، والتصوير البياني «إن الرافعي وأمثاله، وأنا تابع لهم، يقرأون بالأذن، فالجرس هو عطاء التفهيم لفهم الكلام»[2].

ومن تولّعه بالإيقاع بدؤه مقالاته بحرف الواو، زاعمًا أن هذا الابتداء به سيضيف إلى المقالة رواء وتواصلًا وجمالًا، على أنه أسرف في استخدامه، وأوقع مقالاته في عطف غير لازم، واتصال في غير ضرورة، وقد تعود النحويون أن ينظروا للواو إذا كان ما قبلها محذوف أو غير مذكور أن يعربوها بقولهم : «الواو : عاطفة على ما قبلها». وواو الزيدان تعطف كلامًا لاحقًا على كلام سابق لا يُعرف مكانه، ولا يُحاط بزمانه، ولا يُدرك معناه، لأن المقالات لا تتصل في المعنى، ولا تتواصل في المكان نفسه، أو الزمان القريب !.

وذهب إلى تفسير لهذا الاستخدام فذكر أنه يريد الرنين والتنغيم والجرس «فإذا بدأت بها أدير سمع القارىء إلى أن يقرأ بالأذن، كأني ألتفت به إلى أن ما يقرأه الآن ماهو إلا عطف على كلام سبق»[3].

والزيدان مكثر مدرار، وقد أوقعه الإكثار في عدم التجديد أحيانًا، وفي عدم الاعتناء، وفي إرضاء رغبات القائمين على الصحف بكتابة ما يريدون، وملء الزوايا

---

(١) مقدمة كتابه «تمر وجمر» بقلم المؤلف، مطابع البادية، الرياض، دون ذكر لسنة الطباعة أو عدد الطبعات، جـ٣، ص٦.

(٢) مقدمة كتابه «خواطر مجنحة»، بقلمه، تهامة، ط١، ١٤٠٤هـ، ص٩.

(٣) مقالة : الواو في اللغة الشاعرة، محمد حسين زيدان، خواطر مجنحة، ص٦٣.

بأفكار قد تكون مكرورة، وأساليب يغلب عليها التعجل وتبتعد عن الأناة.

وقد علل هذا بضرورة العيش، وملاحقة القرش، والبحث عن اللقمة، ودرء الفاقة والحاجة !.

وكأنه يقول : إن الإمتاع الفني الذي أسعى إليه لا يتحقق في كل ما أكتب فعجلة الحياة الدائرة بمطالبها الكثيرة الملحاحة لا تدع لي فرصة التجويد والتطريب فالقليل هو ما أريده، والكثير عجالة وإرضاء للصحف، وبحث عن الرزق !.

وقد وصل إلى أن يكون محترفًا مكثرًا، والمكثار لا يسلم من العثار، كما يقال.

ولا يرى بأسًا في الإشارة إلى احترافه الكتابة واتخاذه إياها وسيلة من وسائل العيش، وقد تكون الوسيلة الأولى، حتى إنها تمنعه من التمتع بالإجازة ونحوها، لئلا تفوّت عليه بعض الدريهمات فيعدل عن الإجازة بعد أن قرر تقديم استدعاء ليُمنحها، و «قد تكون هذه القروش السبب في العدول عن الإجازة»[1].

وفي موضع آخر يرد على أحد لائميه في ذلك، فلا يكذب ـــ كما يقول ـــ على ناقده، «والكذب مع الحبيب يحرمني الرديف من زيادة دخل أتوسع به، فقد تقيدت أن أكتب في جريدة «الشرق الأوسط» بأجر معلوم، وأن أكتب في «عكاظ» بأجر كذلك، فهل أترك الأجر أم أضع قلمي في مزاد علني ؟! فمن أغلى إعتلى .. »[2]، ويذكر أن القيد ليس في القلب، بل هو قيد الحبيب، وأنه يعجز عن كتابة مايريد، ليكتب ما يُراد !.

والرومانسيون يسعون إلى التحلية والتزيين، وتأتي أكثر مقالاتهم متشحة بأنواع مختلفة من المحسنات البديعية.

---

(١) مقالة : صحافة وكتابة، كلمة ونصف، ص ٢٠٠.

(٢) مقالة : تكاثرت الظباء على خراش، محمد حسين زيدان، خواطر مجنحة، ص٩٨، والناقد الذي وجه إلى الزيدان هذه الملامة كاتب هذه الدراسة، وكان يكتب تحت توقيع «ابن بطوطة» انظر رسالته إلى الزيدان في جريدة المسائية عدد ١٩٩، السبت ١٩ رمضان ١٤٠٢هـ، ص١٣.

ومن أكثرهم غرامًا بها محمد حسين زيدان، إذ يتعمد النحت في المعنى، والاشتقاق من الفكرة، معبرًا عن ذلك بالجناس أحيانًا في اللفظ، وبالطباق أحيانًا أخرى في المعنى، وفي اللفظ.

ومن ذلك الجناس الذي يتكرر كثيرًا في أسلوبه قوله «.. في طهارة (العفة) وعفة (الطهارة)»[(١)]، «فالإشفاق لذة النذالة والشماتة نذالة اللذة»[(٢)]. وقوله : «.. وبعض المترفين قد يتذوقون السعادة فيما ملكوا إذا أحسنوا فيما سلكوا .. »[(٣)]، أو قوله «.. وتمتعت ليلة العرس بسعادة الشرف، وشرف السعادة .. »[(٤)]. وفي كل ذلك توليد لمعنى جديد من لفظة واحدة، وكأنه يصدر عن حكمة في إطلاق الكلمة، ويريد بها أن تُقرأ على منوال ماكان يكتب الرافعي في «كلمة .. وكليمة».

ومن ذلك التحسين البديعي الذي يتصف به أسلوب الزيدان الطباق كقوله : «إن السعادة ثوب فضفاض، ما يسعدك قد يشقى به غيرك، وبعض ما تشقى به قد يسعد به غيرك .. »[(٥)].

أو قوله : «أنا سعيد بكثير مما أشقى به.. فشاكر المعروف هو القادر على صنعه وناكر المعروف هو العاجز عن صنعه .. »[(٦)].

والكناية لديه تأتي عرضًا كقوله : «.. ونحن في (ملتان) نعد الشاي ظهرًا ونحن قبالة الدرج وإذا بعقالين يصعدان الدرج .. السيد عبدالله طه والسيد كامل عبدالجواد .. »[(٧)].

---

(١) مقالة : خلجات، خواطر مجنحة، ص٤٥.
(٢) المقالة السابقة، ص٤٨.
(٣) المقالة السابقة، ص ٥٣.
(٤) مقالة : دموع الحب، المصدر السابق، ص٦٢.
(٥) مقالة : العايقة أم حجل، المصدر السابق، ص٦٢.
(٦) مقالة : خلجات، المصدر السابق ص٥٣.
(٧) المقالة : السابقة، ص٥٤.

والسجع في أسلوبه حلية وإيقاع، يأتي من غرامه بالرنين إذ يقول : «فالدموع شموع .. في كلا الحالتين تضوع ولا تضيع .. لأنها ضوء جديد يشرق من الوجدان!»[١].

والزيدان في أسلوبه يصور كثيرًا من خصائص الرومانسيين، لولا ماشاب أسلوبه من التعجل، والابتذال في بعض الموضوعات، لأنه يتخذ المقالة وسيلة من وسائل العيش !.

على أن ميزات هذا التيار في جانبه الفني يدركها المتتبع لمقالات المنتمين إليه كعزيز ضياء ــ في بداياته ــ والفقي، والسرحان، والجفري، والمناع، وغيرهم.

وقد رأينا أن من أبرز هذه الميزات سعة الخيال، وسهولة اللفظ، وجودة الرسم، وحسن التصوير، والالتجاء إلى المحسنات اللفظية والمعنوية، وتدفق العاطفة، والرمز ــ أحيانًا ــ وبعض الغموض ــ لدى المحدثين منهم ــ والاعتناء بالإطار الفني، بحيث يكون الشكل هو المراد في المقام الأول، والمعنى في المقام الثاني.

أما الواقعيون فلا يولون النص شيئًا من هذا الاهتمام، فالجهيمان ــ وهو أحدهم ــ يعتني بالفكرة، ويؤكد على التعبير بما يلائم الواقع، وما يصل به النص إلى متلقيه، فالتأثير بالفكرة أكثر أهمية من التأثير بالأسلوب، ووصول الكاتب إلى هدفه بأقل جهد فني مطلب أكثر الواقعيين.

وقد كتب الجهيمان ــ كما مرّ معنا ــ عن مشكلات المجتمع، وتناولها وأخلص لها أكثر مقالاته، ملتزمًا أسلوبًا سهلًا خاليًا من الحلية والزينة، وعاطلًا من الإيحاءالفني الذي يلازم كثيرًا مما يكتبه الأديب.

فحين أراد الحديث عمّن يدعون المعرفة، ويتزينون بكلمات لا تتصل، وبعبارات لا تنسجم تناول موضوعه في مباشرة عاجلة دون اعتناء باللفظ، وانتقاء للعبارة، وهدفه عرض فكرته بأقرب طريق، وأيسر وسيلة، مريدًا الإقناع، وقاصدًا الوصول إلى

---

(١) مقالة : دموع الحب، خواطر مجنحة، ص ٦٢.

أكبر طبقة من قراء الجريدة، فهو يصور بعض صفاتهم قائلًا : «.. وأنصاف المتعلمين ـــ عادة ـــ أضيق الناس تفكيرًا وأقلهم تقديرًا لعواقب الأمور [لأنها لم تصقلهم الحياة] ولم تحنكهم تقلبات الدهور فتجدهم يضيّقون ماكان واسعًا، ويعظّمون ماكان تافهًا، وينشغلون بالقشور ويتعلقون بالظواهر .. وينخدعون بما لا ينخدع به الآخرون»[١].

وينقد نوعًا من الزي في اللباس السعودي وهو «العباءة»، فيراها عديمة الجدوى، قليلة النفع، مُثقلة كاهل لابسها، ومُتعبة يده بالإنفاق ونحوه، «أما الجمال والذوق فأي جمال في العباءة وأي ذوق فيها ؟! إن أجمل مافيها يوضع في ظهر الإنسان، كما أنها لا تستر إلا النصف الخلفي من الجسم فقط .. وهي علاوة على ذلك لباس فوضوي يشغل لابسه بجره تارة إلى اليمين وتارة إلى الشمال وتارة بجمع أطرافها وتارة بتفريقها، وهكذا تُلقي لابس العباءة في جهد جاهد ونصب متزايد، لا عمل له إلا تعديلها وإصلاح وضعها مابين آونة وأخرى، وعلاوة على هذا وذاك فإن ارتداءها يغري بالخمول ويشجع على الكسل ويغرس في النفوس حب الدعة والإخلاد إلى السكون في عصر يتحرك فيه كل شيء حتى الجماد .. »[٢].

ويكتب مقالاته على هذا المنوال من المباشرة والبعد عن العناية بالنص، وقلة الاحتفال بالطراوة والتأثير[٣].

ولو وازنّا بينه ومحمد حسين زيدان الكاتب الرومانسي لوجدنا أن الميزة في أي من المدرستين تتبين فيما يكتبانه، إذ تميز الزيدان كاتبًا ذاتيًّا واصفًا بالتدفق والرواء

---

(١) مقالة : أنصاف المتعلمين، عبدالكريم الجهيمان، جريدة اليمامة، عدد ١٧٣، في ١٣٧٨/١١/٢٣هـ، وانظر كتابه «أين الطريق»، دار الثقافة، بيروت، و لم تُذكر سنة الطباعة، ص١٧٤، كتب المقدمة عام ١٣٨١هـ.

(٢) مقالة : بعض عاداتنا، عبدالكريم الجهيمان، اليمامة، عدد١٣٥، في ١٣٧٨/٢/٩هـ.

(٣) انظر مثلاً : مقالة : الرأي والصداقة، عدد ١٨١، في ١٣٨٩/١/٢٧هـ.

ومقالة : القومية العربية والصهيونية، اليمامة، عدد ١٣٨، في ١٣٩٨٠/٧/٣٠هـ.

ومقالة : أنا وأولادي؟ القصيم، عدد ٤٠، في ١٣٨٠/٣/٢٢هـ.

والاعتناء بما يحلّي المقالة ويزينها من البديع، وصور البيان ــ فجاءت مقالاته توحي بفيض نفسية كاتبها وتصور خطراته، وتثير في النفس معاني كثيرة للجمال والإمتاع.

على حين لا نجد في الواقعية التي سلكها الجهيمان تلك المعاني، بل تصدمنا المباشرة الفجة، ويسقط النص من الوهلة الأولى، ولا يحتمل الإعادة، أو الاستئناس بجمالياته، أو التنغيم الموسيقي مشافهة وتصويتًا، فميزة المقالة في الواقعية صدق الكاتب في مواجهة القضية التي يريد مناقشتها، واتجاهه نحوها بكل أدواته التي تتيسر له.

بيد أننا واجدون بعض كتّاب الواقعية لا يستسلمون للوضوح ولا ينقادون للجماعية بل يعدلون بين الجانبين، الفكرة والأسلوب، والفردية والجماعية، والفائدة والإمتاع.

ومن هؤلاء ــ كما سبقت الإشارة ــ عبدالله بن خميس في مقالاته التي افتتح بها مجلة الجزيرة الشهرية، فقد مثّل الواقعية الصادقة المترفعة عن الابتذال في الأسلوب وعرض الفكرة.

وتميز بقوة الفكرة، وطلاوة الأسلوب، وحضور الشخصية، ولعله في اتجاهه هذا يرد على القائلين بحتمية إحدى المدرستين، إما العاجية الفنية التي لا تستجيب إلّا للطبقة «الارستقراطية» من القراء والمتلقين، وإما الواقعية الجماهيرية القريبة من لغة الشارع ومن إيقاعه وضجيجه.

فمن الممكن أن يجمع المعبر بين الفكرة، والأسلوب الأدبي الممتع، وحضور ذاتيته في مقالته، فيجيء النص مشعًا بالمعنى الرائد وبالأسلوب البياني التصويري الجميل، والمحتفظ بالمتعة الفنية وبالرواء والتدفق.

فالعاجيون المسرفون في الترفع ليسوا مصيبين في نظرتهم إلى العملية الأدبية من حيث وظيفتها ومهمتها في الحياة.

والواقعيون المسرفون في انحدارهم إلى لغة العامة أو قريبًا منها لا يصورون كثيرًا

من خصائص الأدب، ولا يرتفعون به عن الابتذال.

ونستطيع أن نوازن بين المقالات الأربع في موضوعاتها عند النظر إلى خصائص المدرسة التي تنتمي لها كل مقالة، وقد وجدنا أكثر خصائص الرومانسية في الذاتية والوصفية، وأكثر خصائص الواقعية في النقدية والاجتماعية.

ولذلك، وبعد عرض أبرز قضايا المدرستين يمكننا الوقوف عند ميزات كل مدرسة في الموضوع على شكل نقاط.

أولًا : الرومانسيـــون :

أ ــ يخلصون كثيرًا من مقالاتهم للحديث عن الذات.

ب ــ لا يميلون إلى النقد المكشوف، ويهربون من المواجهة.

جـ ــ يعتمدون الرقة في المشاعر، والحزن، واستدرار الدموع.

د ــ يمكن أن نعد الطبيعة ملجأهم في شكواهم، ومصدر إلهام كثيرين منهم.

هـ ــ يجعلون من أنفسهم فداء لقضاياهم، فيسخرون من الواقع عن طريق سخريتهم من أنفسهم.

و ــ يهربون من الألم الاجتماعي والضغوط النفسية بالغناء الذاتي، واستدرار معاني الجمال في الطبيعة.

ز ــ لا يميلون إلى المباشرة، ويلفون قضاياهم بغلالة رقيقة من الرمز أو اللفظ الموحي.

ح ــ لا يعتقدون نجاح الأدب في الإصلاح، ولا يرون اتخاذه وسيلة ذلك، فالأدب لديهم متعة، وسمو، وبرج عاج.

ط ــ يتفاعلون مع لفتات الجمال في المشهد الطبيعي، وفي المرأة، وفي المسمع، والشدو، وغيرها، فيصورون استلاب ذلك الأثر وجدانهم ومشاعرهم.

ي ــ المثال لديهم بعيد المنال، والوصول إليه واقعيًا أكثر بعدًا، ولذلك يتغنون بالأحلام، وكأنهم يسعدون بتمنعها عليهم.

ك ــ يُعنون بأدواتهم الفنية، ولا يعدون من الأدب أي نص لا يحتفل صاحبه

بتزيينه ومعاودته بالنظر والصقل، فالمقالة الأدبية المؤثرة لديهم ــ مثلًا ــ فكرة وشكل، وربما كان الشكل أكثر أهمية، وأدعى للتنبه إليه.

ل ــ لا يعنيهم أن يفهمهم الآخرون، فهم في عزلة نفسية عمّن يسمعهم، فالشدو بالجماليات مطلب ذاتي بحت وليس ضرورة اجتماعية، وربما لأن من حولهم ــ فيما يرون ــ لا يسعون إلى الفتنة والسحر والخلب.

م ــ الوجدان والقلب لديهم موضعان لفيض المعاني، وإثراء النفس، والعقل والتفكير يفسدان الفن، ويذهبان بروائه.

ن ــ يتشاءمون ويسيئون الظن بالناس وبالحياة.

ثانيًا : **أما الواقعيون**، فيلتقون مع الرومانسيين في نقاط قليلة، أو في أجزاء منها، ويختلفون معهم في كثير، فهم يتميزون بما يأتي :

أ ــ يخلصون أكثر مقالاتهم للحديث عن الواقع.

ب ــ ميالون إلى النقد المكشوف، ومواجهون لخصومهم.

جـ ــ ليست العاطفة ذات بال، وليس لها شأن كبير في تفوق المقالة عندهم.

د ــ يستنبطون أفكارهم من الواقع، ولا يذهبون وراء الخيال.

هـ ــ يميلون إلى الحقائق، والمعارف الثابتة، ويتجافون عن الأوهام والخيالات ويسعون إلى تحقيق ما يرونه صحيحًا.

و ــ يسخّرون أدبهم لخدمة المرامي الفكرية التي يرجون تحقيقها، ولا ينفكون عن الدأب على بعث نشاط فكرة إصلاحية خبت.

ز ــ الفكرة لديهم هي الأساس، والشكل الفني مكمل لها، وحين تصل الفكرة إلى متلقيها في سهولة ويسر ودون إسراف في تزيين الشكل فذلك مبلغ التوفيق لديهم.

ح ــ الوظيفة الأدبية ليست غاية في ذاتها، بل هي وسيلة إلى غاية أكثر شرفًا من المتعة الفنية.

ط ــ لا يولون اهتمامهم للنزعات الفردية، كالتأثر بمعاني الجمال، ويرون ذلك مسألة ذاتية، والأدب لديهم همّ جماعي.

ي لا يحلمون كثيرًا، ولا يرون آمالهم محلقة في الخيال، بل ينظرون إلى

ما يريدونه فيرسمون حدوده ثم يسعون إلى تحقيقه.

ك ـــ الحقائق أولًا، ثم ما تصاغ فيه، وكل حقيقة لديهم ملزمة الأديب بتمثلها.

ل ـــ الواقعيون يرون أن الأدب الجماعي حقيق بالبقاء والخلود، لأنه مصور آلام الأمة وآمالها، وأما الأدب الفردي فمصيره النسيان.

م ـــ العقل والتفكير لديهم في الدرجة الأولى من الاهتمام، ثم العاطفة والخيال مسألتان مكملتان.

ن ـــ الأداة الفنية لدى الواقعيين تؤدي مهمتها في الإيضاح وشرح الفكرة، أما التزويق والصنعة والفن للفن فمرتبة متأخرة.

ي ـــ يتفاءلون ويعملون بوحي من هذا التفاؤل.

ونجد أن الفريقين يلتقيان قليلًا ويختلفان كثيرًا، وهذه سمات نجدها في أكثر ما نقرأه من أدب المدرستين، وقد يتميز بعض الكتّاب بميزات ينفرد بها، ويخرج أحيانًا عن نطاق هذين التيارين.

كما أن عددًا من المقاليين قد يتحول من اتجاه إلى آخر لتأثره بعوامل مختلفة، فعزيز ضياء بدأ رومانسيًّا، وانتهى واقعيًّا، وبعضهم لا يزال يخلط النزعتين معًا كالفقي، وإن كان الغالب عليه الاتجاه الذاتي المحض.

وإنما يُنمى الأديب إلى حيث يغزر إنتاجه، وتتضح سمات أدبه.

جـ ــ الأساليب لدى الاتباعيين والابتداعيين :

أعني بالاتباعيين المقلدين الأنماط الأسلوبية التي جاء بها من قبلهم من الكاتبين.

أما الابتداعيون فهم أصحاب المذاهب الجديدة في الأدب، المعنيون بالبحث عن التجديد، والمولعون بالأفكار في الشكل وفي المعنى.

وفي الأدب السعودي المقالي أديب مقلد، ومعتدل، ومبدع، ولكل أديب من هؤلاء ميزته وخصيصته، غير أن الموازنة ــ في العادة ــ تكون بين النقيضين، وبين المختلفين، أما الذي يوفق بين المذاهب والتيارات، ويأخذ من هذا ومن ذاك فلا يدخل في باب الموازنة عادة.

وفي الأدب التقليدي ميل إلى الخصائص الأساس للأدب بعامة، وسعي إلى المحافظة عليها، مما هو من سمات «الكلاسيكية»، التي تخرّج أدباء أصلاء محافظين على القيم الكبرى في الفن.

ومن الأدباء المقاليين المقلدين فئة اعتنت بأساليبها فطورتها، وأضافت إليها ما زادها رواء وجدة، وفي هذا السعي، لم تفرط في الموروث من أصول الصوغ الأسلوبي، فجمعت بين الحسنيين، المحافظة، والجدة.

ومن هؤلاء حمزة شحاته، وحسين سرحان، وعزيز ضياء، ومحمد حسين زيدان، ومحمد حسن فقي، وغيرهم.

وهذه الموازنة تُعنى بالإشارة إلى المقلدين والمجددين، الموغلين في القديم، والمسرفين في بحثهم عن الجديد.

وقد اختلف الفريقان في إيقاع اللفظة، وفي السبك، وفي رسم الصورة واختلفوا أيضًا في إيحاء المعنى، وفي الحفاظ على المألوف من التخيل، أو السعي وراء الإغراب والإلغاز.

وكان من الطبيعي أن يبدأ الأدب اتباعيًّا، وتلك سنة الحياة، تجري الأمور فيها على تقليد الحادث من سبقه، ثم يسير في طريق التميز، حتى تم استقلاله عن الماضي، وهذا منحى واضح في تأريخ كل أدب، بيد أن المحافظة على القديم لقدمه عند بعض المقلدين قعدت بكثير من أدبهم عن التأثير، وجعلت عددًا منهم يعيش في عزلة فكرية وأسلوبية عن العصر، لأنه يناجي الماضي، ويناغم أشباحه وأطيافه، متخليًا عن إيقاع العصر الذي يعيش فيه.

وهؤلاء يحرصون على الحوشي والغريب، ويستكرهون اللفظة، ويتقعرون فيها ولا يميلون إلى التبسيط والانثيال والسهولة.

ويرى كتّاب هذه الفئة أن من واجبها إحياء المأثور من منسي اللغة وإشاعته وتداوله، ويرون أيضًا أن الأدب ليس من ضرورات الحياة لكل الناس، فلا يُعنى به — في رأيهم — إلا المتبحِّرون في علومه، المنكبون على درسه، المعنيون بغريبه وشارده.

ويختلف هؤلاء التقليديون في أساليبهم، فمنهم من يصل في غريبه إلى حد الإغلاق وعسر الفهم كأبي تراب الظاهري(١)، ومنهم من هو أقل منه درجة كأبي عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، ولعل هذا العيب أحد أسباب معوقات الانثيال الأدبي لديه إضافة إلى سلطة التفكير العقلي على نفسيته.

ومنهم عبدالله بن خميس، وهو يتزين به، ويرفع به أسلوبه، ولا يسرف فيه، أو يوغل في استدعاء بعيده، من اللفظ الوعر، أو المستكره، فاللفظة لديه أصيلة فصيحة غير حوشية أو وعرة.

---

(١) هو : عبدالجميل عبدالحق الهاشمي، ولد في الثالث والعشرين من ذي القعدة سنة ١٣٤٣هـ، ودرس علوم الشريعة واللغة في كلية الشريعة بالجامعة العباسية في دلهي، وعودلت بدرجة الماجستير في علوم اللغة من الأزهر، مُغرِبٌ في أسلوبه، ظاهريٌّ في مذهبه، وتميز بهاتين الخاصتين.

وله مؤلفات عدة منها : لجام الأقلام، وكبوات اليراع، والموزون والمخزون، وأوهام الكتاب.

وله كتب أخرى، منها ما هو مطبوع، ومنها ما هو مخطوط.

انظر : المعجم ٢٥٢/١، والدليل : ص ١١٨، ومجلة الفيصل، عدد، ٥٤، في ذي الحجة ١٤٠١هـ، ص٤.

يقول أبو تراب معلقًا على مقالة لمحمد حسين زيدان عن المغرب العربي : «كتب اللافظ الهميع أبو فريد عن المغرب وهو الذي لا يدب إلى يراعه ذاخرة الصحراء، وأطلعني أبو اليسار خديننا القسطي على المقال حسب نتفة متخيرة، وجملة منتضرة، ضرب فيه صاحبه الأمثال غرناطية وقرطبية فأغرب، وأجلت فيه الباصرة، قائلًا : هل يتخير الطيب إلا الطيب، وسرحت بالنظر في المقالة الزيدانية .. وقلت : برك على من أملى عليه بروكًا لم يحسب حساب من يئط تحت كلكله أطيط النيب تحن إلى فصالها .. »[1].

وقارىء هذا النص سيتهيأ له ـــ لو كانت المقالة غفلًا من اسم كاتبها ـــ أنها تعود إلى قرون مسرفة في النحت والصنعة، لا إلى قرون البيان الأولى، بل إلى عصر تباهي فيه الكتّاب بالغريب والمستكره، كالحصفكي وأمثاله.

انظر إليه في مقالة أخرى راغبًا في الترسل والإنشاء على إعسار منه وبطء مسار : «قال أبو تراب : كتب إلينا على صرارة العيمة، واضطرام الشوق، صديقنا الأستاذ .. حسين سرحان، وهو عنا بعيد المزار، نائي الدار، يحدونا إلى لقائه نزوع الوداد، فنحب الاجتماع به، والتحدث إليه، ولكن الشواغل تحول، وقلة بضاعتنا تمنع من أن نعرضها عليه فنأنس به ساعة وهو كبير استحكمت بُراه، وقويت أواخيه في عيون الأدب فاستحصف، وتأيد مشزور الأشطان مُضفّر المرائر، مأمون الوصمة .. »[2].

أما شريكه في المذهب أبو عبدالرحمن بن عقيل فهو أقل منه بحثًا عن الغريب، على أنه يتعمد في كثير من مقالاته ما يزعم أنه إحياء للفظ عربي ميّت جميل، ومن ذلك قوله : «وإنما يكشف عن أدغال النفس وحرارة العواطف طريقة في الرسم لم تحذقها الشناتر والبراجم بعد»[3]. وقوله : «والناس يرون مفارقات الحياة بين أمم مغرورة بماض لها غبي تعتبره أمجادًا، وبين أمم متواضعة للحقيقة شملالة في طلبها .. »[4].

---

(١) الموزون والمخزون، تهامة، ط١، ١٤٠٢هـ، ص٢٦٩.

(٢) أوهاب الكتاب، مطبوعات النادي الثقافي بجدة، ط١، ١٤٠٣هـ.

(٣) مقالة: الكتابة بمداد الموسيقى، هكذا علمني ورد زورث، ص٢٩٦.

(٤) مقال : لو كنا أغبياء لكنا عظماء!، أبو عبدالرحمن بن عقيل، المصدر السابق ص٢٧٩.

والبحث عن الشارد من اللفظ على هذا النحو يذهب باندفاق النص، وتوالي المعاني، ويشتت ذهن القارىء.

ولعل من الواقعية البعيدة عن الجمالية الاعتقاد بحتمية الالتزام في كل ما يذهب إليه الكاتب، لغة وقضايا. وإحياء التراث وخدمته واجبان يلتزم بهما الأديب، بيد أن من الخير على اللغة نفسها ألا يفسد الالزام الواجب تميّز الكاتب وارتياحه وحريته الإبداعية المحكومة بحدود الفن وقيمه.

أما الموغلون في التحديث، الساعون إلى المبالغة في التجديد فهم على النقيض من المغالين في الاتباعية. فهؤلاء المحدثون المغرقون في لهاثهم خلف الصورة الضبابية، والمعنى الغامض، واللفظة المنحوتة الغريبة أبعدوا عن مرامي التجديد الحقيقية التي تمثلها نفر من المجددين المعتدلين الذين جمعوا بين محاسن القديم والجديد، والمحافظة والانطلاق، والثبات والتحول، ومر ذكر أسمائهم في مقدمة هذه الفقرة[1]، غير أن الموغلين في تجديد الشكل والمضمون خرجوا عن المألوف في ذلك، في بعض مقالاتهم، وأصبح هذا الخروج في الشكل ــ على الأخص ــ سمة من سمات أسلوبهم الكتابي، وأصبح لدى بعضهم لازمة دائمة.

ونجد من هؤلاء عبدالله الجفري ساعيًا إلى التجديد في اللفظ، وربما وقع في بعض الهنات اللغوية، وساعيًا إلى الابتكار في المعنى، وربما أوغل وأسرف ووقع في الإحالة وتداخل الصور، ويكثر عندهم الخطأ اللغوي، مثل العطف قبل استكمال العامل، ووضع الفاء حيث لا يجوز إلا الباء، وتقديم الضمير ولا مرجع له، ويجنح بعضهم إلى استعمال اللفظة العامية والأعجمية، وأمثلة ذلك لا يحدها الحصر، ومن هذه الأخطاء في اللغة قول الجفري : «وأذوب كما لحظة العناق .. »[2]. فالميم هنا لا محل لها وكان الأولى : كلحظة العناق، وقوله في زيادة الميم أيضًا : «كأن قلوبنا كما سدادة فلين على فوهة زجاجة»[3]، وقوله في

---

(١) ومنهم عزيز ضياء، وحسين سرحان، وحمزة شحاتة وغيرهم.

(٢) مقالة : شموع العمر، نبض، ص١٩٧.

(٣) مقالة : بعدك، المصدر السابق، ص١٦٢.

أما الإحالة والغموض في الصورة فكقوله : «أتشهى قرارة مدارك»[1]، فقد تداخل هنا أكثر من طيف صورة، الاشتهاء، والقرار، والمدار، وحين اجتمعت أطياف الصورة لم تكن لوحة متناغمة معقولة، فهي خطوط سوريالية مغرقة في التشتت والغموض.

وهذا لا ينفي وجود تميز وتفوق في كثير من مقالات الجفري، كما مرّ ذلك في موضعه[2]، إلا أن إغراقه في طلب الجدة، أوقعه في مثل هذه الهنات.

وكأن بحث المجددين المسرفين في التجديد عن عالم آخر غير الواقع قادهم إلى التميز في أشكالهم الفنية، وفي أساليبهم الكتابية، وهذا ينسجم مع اتجاههم الرومانسي الباحث عن الذات الأخرى، والشكل الآخر، والعالم الآخر.

بيد أن كتّاب العقدين الأخيرين من القرن الهجري الماضي أسرفوا في طلبهم الجدة في الأداء، والحداثة في اللفظ، والغرابة في الصورة، فجاءوا على النقيض ممن سبقوهم من الجيل الأول المعتدلين في التحديث الموازنين بين الأصول والإضافات، فتميزت أساليب هؤلاء المعتدلين بالتجويد في الأداء اللغوي، والسلامة من الهنات النحوية، وتميّزت صورهم الخيالية بالابتكار مع عدم خروجها عن المعقول، وابتعادهم عن الإحالة والغموض والإبهام.

ولعل فيما قدمناه من موازنة بين المقالات الأربع من خلال نظرتنا إلى المدرستين اللتين تلتقيان معها في الخصائص والسمات، لعل في ذلك ما يسهم في جلاء واقع المقالة الأدبية من ناحية، ومن ناحية ثانية يساعد على سلوك الطريق الأمثل لمن همه تلمس مثل هذه الميزات في أدبنا المقالي.

دخول اللام على الميم، وكان حق اللفظة أن يدخل عليها ضمير «التي» : «وحشائش المطر المازالت تموه لهطولها خلف السحب»[4]، وقوله :«فهل يكون هناك، أم أن أل «هناك» .. في تصوره دائمًا تبقى أنا ؟!»[5].

---

(١) المقالة السابقة، ص١٦١.

(٢) مقالة : ذلك المساء.. الساعة، المصدر السابق، ص ١٦٨.

(٤) مقالة : هذا المساء، المصدر السابق، ص١٤٩.

(٥) انظر في هذه الدراسة : الجزء الأول، الفصل الثاني.

د ـ أحكام .. وردود :

ومما يتصل بقضية الموازنات تلك الأحكام الجائرة التي أطلقها بعض الباحثين والدارسين في غير أناة ولا إنصاف على الأدب السعودي بعامة، والنثر منه بخاصة.

على أن ثمة فئة من الدارسين والنقاد أنصفوا هذا الأدب، ونظروا إليه نظرة موضوعية عادلة فقوموا عددًا من كاتبيه، وأبانوا عن وجوه التفوق والجودة لدى عدد من مبدعيه.

ومن هؤلاء الدكتور محمد حسين هيكل[(١)]، والدكتور طه حسين[(٢)]، وصلاح لبكي[(٣)]، ومارون عبود[(٤)]، والدكتورة بنت الشاطىء (عائشة عبدالرحمن)[(٥)] وآخرون كثيرون.

ولا نريد التحدث عن هذا بالتفصيل، وإنما نريد أن نرد ظلامة رُمي بها الأدب السعودي، وهي ادعاء بعض الدارسين بقصور كتّابه عن التجويد والتأثير وضعة ما يكتبونه، وقلة بضاعتهم من الثقافة والاطلاع، وخواء ذاكرتهم العلمية والتأريخية والأدبية.

ولعل من الإنصاف إثر تلك الموازنة التي قدمناها أن نتأمل في ذلك النتاج

---

(١) انظر مقدمته لـ «وحي الصحراء»، ص٢١ـ٢٨.

(٢) مقالة : الحياة الأدبية في جزيرة العرب، ألوان، دار المعارف، بمصر، ط٤، سنة ١٩٧١م، ص٣٣.
وانظر مقدمته لديوان حسن عبدالله القرشي «الأمس الضائع» ط٢، ١٩٦٨م، دار المعارف بمصر، وقد نُشرت مع مقدمات ومقالات أخرى في كتاب «كتب ومؤلفون» للدكتور طه حسين، جمعها وقدم لها بدراسة مطولة الدكتور شكري فيصل، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م، ص١٨٣.

(٣) انظر مقدمته لديوان الأمير عبدالله الفيصل، «وحي الحرمان» دار الأصفهاني للطباعة بجدة، ١٤٠٠ط٢.

(٤) مقالة : وحي الحرمان ـــ ديوان الأمير عبدالله الفيصل، مارون عبود، «جدد وقدماء»، دار الثقافة، بيروت، ط٤، ١٩٧٢م ص٢٩٨.

(٥) انظر كتابها : أرض المعجزات، دار المعارف سلسلة اقرأ، القاهرة، سنة ١٩٥١م، ص١١٩.

الأدبي النثري الذي تقدم درسه، وتلك القضايا التي أدار الكتّاب السعوديون أقلامهم عليها ثم نستمع في عجب بالغ إلى أحكام نقدية تعجل أصحابها في إطلاقها على هذا الأدب.

ويهمنا من هذه النظرات العجلى في الأدب السعودي ماكان منها يخص النثر.

ولسنا نهدف إلى أن نقيم للأدب في هذه البلاد بنيانًا متداعيًا، أو أن ندعي سموًا غير موجود، أو تفوقًا ليس له أساس، بل المقصود إبانة الحق، وإظهار الصورة الواقعية التي يبرز فيها هذا الأدب دون تزيد أو نقص، ودون مبالغة أو إجحاف، ومن هؤلاء الرجال الذين سنعرض لآرائهم الدكتور بكري شيخ أمين، والدكتور منير العجلاني، والدكتور علي جواد الطاهر، والدكتور أحمد كمال زكي.

١ ــ الدكتور بكري شيخ أمين[١] :

يتساءل الدكتور بكري عن المقالة الأدبية في الأدب السعودي بعد أن عرض لجزء يسير منها، هل هي مقالة أدبية ؟ وهل فيها ما يغني ويثري، وهل وصل كاتبوها إلى مرتبة جيدة من الإبداع والتمكن ؟!.. ويجيب على تساؤله منكرًا تميزها ومنكرًا تأثيرها، إلّا في نطاق ضيق محدود يميل إلى الجانب العلمي، ثم منكرًا كون كتّابها يحملون ثقافة ترفدهم وتقوي أفكارهم، وترتفع بأساليبهم عن المباشرة والابتذال والمهاترة، يقول بعد أن تناول بعض الأمثلة : «هذه هي المقالة الأدبية بادعاءات كتّابها، وضجيج ألفاظها ولعلنا حملنا في أنفسنا سأمًا لهذا الضجيج، وتلك الاداعاءات التي لم تثمر ولم ينجل غبارها عن شيء، ولقد حاولنا

---

(١) أديب سوري في العقد السادس من عمره، درس في كلية اللغة العربية في التسعينات الهجرية من القرن الماضي، ودرس الأدب السعودي في كتابه «الحركة الأدبية» في المملكة العربية السعودية، ونال به درجة الدكتوراة من الجامعة الأمريكية في بيروت.

له مقالات ودراسات في هذا الأدب وفي غيره، وأشرف سنوات عدة على باب «كتب وصلتنا» في المجلة العربية.

يعمل الآن استاذاً للأدب في جامعة الملك عبدالعزيز بجدة.

أن نستمر في قراءة المقالات هذه فلم نجد فيها شيئًا يبل الكبود، ويجلو صدأ القلوب .. وما أثرنا هذه الأسئلة إلا لنصل إلى الحديث عن الثقافة المحدودة التي ألمحنا إليها والتي هي المصدر الوحيد لعدد من الكتّاب السعوديين. وإذا وضعنا في اعتبارنا ضيق الأفق، وضعف الثقافة، لم نستغرب شذوذ المقالة النقدية وانحرافها عن جادة الصواب إلى المهاترة التي تهدم ولا تبني، أو تصدع ولا ترأب الصدع .. »[1].

ونخلص من هذا الهجوم إلى هذه الآراء :

ـــ إن المقالة الأدبية ـــ والنقدية منها على الأخص ـــ خاوية من التأثير شكلًا ومضمونًا.

ـــ إن كاتبيها يصدرون عن ثقافة متهالكة محدودة.

ـــ إن الكتّاب السعوديين يتصفون بضيق الأفق، وضعف التصور.

وفي البدء انطلق الدكتور بكري في كتابه «الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية» من منهجية موضوعية معتدلة، وتناول تأريخ الحركة الأدبية والثقافية في شيء من الإنصاف والاعتدال والنزاهة، وكان موفقًا في الوقوف على أكثر مصادر دراسة هذا الأدب ورصده، وتلمس قضاياه وموضوعاته، ثم عرض أبرز جهود الكتّاب والمؤلفين السعوديين عرضًا خاليًا من الحيف أو الميل والهوى.

بيد أن المثير للعجب توصله إلى تلك الأحكام النقدية المتعسفة في حق هذا الأدب الذي منحه المادة الثرة للدرس والتأمل والمناقشة وأوقفه على زخم هائل من المقالات والدراسات والبحوث، في وقت كانت البلاد تتهيأ للنهضة، وتبحث عن سبيل الحياة المضيئة، ويدفع هؤلاء الكتّاب عثرات الطريق، وحواجز التخطي، كي ينطلق مجتمعهم في نور من العقل، وبصيرة من الفطنة والكياسة.

صحيح أن المقالة ـــ كما توصلت في دراستي عنها ـــ لم تكن كلها موفقة إلى الأساليب المشرقة المؤثرة، ولم يكن كل كتّابها أقوياء في ديباجتهم، مشرقين

---

(١) انظر كتابه «الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية، «وهي رسالة للدكتوراة قدمها للجامعة اليسوعية في بيروت، وطبعت عام ١٣٩٣هـ، عن دار صادر، طـ١، ص٥٣٥.

في أساليبهم، رصينين في موضوعاتهم، وذلك شأن الأدباء في كل بلد، تفاوتًا في العقلية، واختلافًا في الجودة والرداءة، وتمايزًا في الاتجاه الجيد، والاتجاه البليد، بيد أن المقالة الأدبية منذ نشأتها مرت بفترات ضعف في المرحلة الأولى من تأريخ المقالة السعودية، أي في مطلع الأربعينات وإلى أوائل الخمسينات، ثم أخذ النضج يظهر في أعمال بعض الكتّاب، وقويت أساليب كثيرين منهم، وهدأت المهاترات وتنبه الواعون منهم إلى مهمة الكاتب ووظيفة الكلمة، وذلك منذ منتصف الخمسينات من القرن الهجري الماضي، واستمرت في نضوج وقوة، واعترضها هدوء نسبي في أواخر الستينات، وتخلصت منه في منتصف السبعينات بعد انتشار المجلات، وصدور عديد من الصحف، إلى أن صدر نظام المؤسسات الصحفية عام ١٣٨٣هـ وكان خاتمة المرحلة النشطة من تأريخ المقالة الأدبية السعودية.

وبعد ذلك التأريخ اعترى المقالة شيء من الركود والضعف، فقد انصرف عن كتابتها أكثر المعنيين بها، وذاعت أساليب الصحافة، وبرز من كتّابها من لا يتصف بمقومات الأدب، ولا يمتلك موهبة الأديب، وكان أكثر ما يكتب آنذاك شكوى أو هجوم، تذمر من الواقع الراكد، أو خصومة هشة ليس لها هدف ولا غاية، سوى الاشتهار والقذف والإقذاع.

ومن الإنصاف أن يكون الناقد بصيرًا في رؤيته للمراحل التي مرت بها المقالة، وأن يكون الناقد بعيدًا عن الاستسلام لإيحاء فترة من تلك الفترات التي عاشتها، فلا يصدر عن تصور محدود، واجتزاء في الاطلاع والدرس.

والدكتور بكري ــ على اجتهاده وسعيه إلى الحقيقة ــ لم يشمل في بحثه بالدرس والتمثيل قضايا المقالة الأدبية بعامة، وما تناوله كاتبوها المجيدون الذين تميزوا بملكة إنشائية أدبية قوية، بل جاءت وقفته عندها قصيرة قاصرة عن إعطاء حكم نقدي متأن، يذكر الإيجاب والسلب، ويشير إلى مواضع الجودة، وإلى مواضع الإخفاق، وهذا مالم يفعله الدكتور بكري شيخ أمين، وإنما وقف عند المقالة في شيء من الاجتزاء انعكس على أحكامه، وليست هذه مهمة الناقد

الذي يهدف إلى إصدار أحكام أدبية، وشأن الناقد الجيد أن تكون نظرته شاملة، ليكون حكمه صادقًا مطابقًا واقع الأدب الذي يدرسه.

٢ ـ الدكتور منير العجلاني[(١)]:

افتتح الدكتور منير العجلاني العام الثاني من عمر «المجلة العربية» التي كان يرأس تحريرها بالتأكيد على أن المجلة تصدر من المملكة العربية السعودية لكل العرب، فليس بلازم أن تنشر ماهب ودبّ مما يسمى أدبًا، أو يقرب من الأدب، وأشار إلى حرصه على الأقلام السعودية في المجلة، ودعا الكاتب إلى مؤازرة المجلة ومشاركتها في القيام بمهمة نشر الكلمة المضيئة والفكرة الراشدة، غير أن العجلاني يوضح ما يريده فيقول : «.. نحب أن نقول لاخوان لنا أرادوا أن تكون مجلتنا وقفًا على الأقلام السعودية .. ومنبرًا لكل شاب ظفر بالشهادة الابتدائية أو بشهادة «محو الأمية» .. وكل ذلك، في زعمهم، لأن المجلة سعودية، وتصدر عن السعودية، وبأموال سعودية.

لهؤلاء الاخوان الأعزاء، نقول : إن في المملكة مجلات وصحفًا كثيرة تستطيع أن تنهض بكل هذه الأشياء وزيادة .. فليدعوا مجلتنا وما أنشئت لأجله، فهي هدية من المملكة إلى العرب! .. »[(٢)].

وقد أثارت هذه المقالة الافتتاحية سخط كثيرين، وفُهم منها غمز الكاتب الأقلام السعودية، واتهامها بالضعف، ونقص كثير منها في جوانب مختلفة، من

---

(١) ولد في دمشق، من أسرة مهاجرة من الحجاز تعود إلى الأشراف، ودرس الحقوق في دمشق، ثم نال دكتوراة الدولة في الحقوق العامة والخاصة من باريس، وعاد إلى بلاده عام ١٩٣٣م «ولما يبلغ العشرين من عمره»!! واختير عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق، ودرس الحقوق في الجامعة السورية، وكان نائباً ووزيراً للإعلام والمعارف والعدل. كُلّف بإنشاء «المجلة العربية» بالرياض، ورأس تحريرها أكثر من سبع سنوات، من مؤلفاته : عبقرية الإسلام في أصول الحكم، والحقوق الدستورية، وأوراق، وتاريخ البلاد العربية السعودية. انظر : المجلة العربية، عدد ١، ص٢ شعبان، ١٣٩٥هـ. ص٢.

(٢) مقالة : المجلة في عامها الثاني، د. منير العجلاني، المجلة العربية، العدد الأول، السنة الثانية، جمادى الأول ١٣٩٧هـ، ص٣.

حيث الموضوع ومن حيث الشكل. وانبرى عدد من كتّاب الصحف بعد نشر هذه المقالة للرد على الكاتب، وأبانوا عتابهم حينًا، وغضبهم حينًا آخر، وطلب بعضهم ألّا يتولى مطبوعات البلاد إلا أبناء البلاد، فهم قادرون على إدارة أية مطبوعة، وعلى حشد الأقلام القادرة المتمكنة من الكتابة للإسهام فيها بالنشر والتحرير.

وبعد هذه الزوبعة حملت المجلة في عددها التالي مقالتين، واحدة منها شرح وطمأنة، والثانية اعتذار وإيضاح!.

أما المقالة الأولى فقد كتبها الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ وزير التعليم العالي ــ آنذاك ــ والمشرف على المجلة مبديًا إعجابه بغيرة أبناء بلده، وبحرصهم على حسن النظر إلى الكاتب السعودي، وعلّق على مقالة العجلاني ملتمسًا له العذر في عدم إبانته عن مراده بأسلوب أوضح، «وربما لم يكن دقيقًا في اختيار كلماته تلك، لكنني أعلم أنه لم يقصد إطلاقًا انتقاص أدبائنا أو مفكرينا، وهو الأمر الذي أوضحه عند مناقشته وأبدى اعتذاره وأسفه، إذا كان ما كتبه يؤدي إلى ما فهمه بعضهم عنه .. »[1].

وأما المقالة الثانية فقد كتبها الدكتور منير العجلاني ــ رئيس التحرير ــ مبديًا اعتذاره عن فهم خاطىء ورد منها إلى أذهان بعض الناقدين، ومرحبًا بالنقد، وبالأقلام السعودية المؤهلة بالشهادات، وغير المؤهلة بها، «وإذا كانت كلمتنا قد تجاوزت مقاصدنا، كما تجاوزت الكلمات التي نشروها مقاصدهم، فاللهم اشهد، أننا من ناحيتنا، نقبل، بكل إخلاص وصفاء سريرة، الاعتذار عن ذنب لم نرتكبه، لا بقلوبنا ولا بعقولنا .. »[2].

والحق أن المجلة في سنواتها الأولى سُخّرت لأقلام الإخوة العرب من كل مكان، ومن سوريا على الأخص، على حين يندر أن نجد مقالة أو قصة أو قصيدة

---

(١) مقالة : كلمة لا بد منها، حسن بن عبدالله آل الشيخ، المجلة العربية، عدد٢، شعبان، ١٣٩٧هـ، ص٤، س٢.

(٢) مقالة : وإيضاح لا بد منه، بقلم رئيس التحرير (د. منير العجلاني)، المصدر السابق، ص٦.

لمبدعين سعوديين على نحو ما نجده لغيرهم، وإذا كنا نحسن الظن في الكاتب، ولا نذهب وراء كلمته كثيرًا فإن المجلة بقيت شاهدًا على نظرته إلى الكتّاب السعوديين، وإلى الثقافة السعودية بعامة.

وكان الأولى به أن يلتفت يمنة أو يسرة فيجد من أبناء هذه البلاد من يلبي رغبة المجلة بالمقالة الرصينة، والفكرة الناضجة، والقصيدة المعجبة.

وحسبنا أن يضام أدبنا، وتظلم أقلامنا في أقطار كثيرة من الوطن العربي، ويجهل نتاج أدبائنا أو يجهل في المحافل والمنتديات الخارجية، أما أن نصاب بذلك كله في دارنا، وفي مطبوعة من مطبوعاتنا فذلك مالا يقبله الشعور الحق بالمواطنة، ولا الإحساس الناضج المكتمل.

ومن الخير أن ينظر إلى مصادر المعرفة، ومواضع الإشعاع في بلادنا نظرة أخرى، يكون فيها المبدع من أبناء البلاد القادر المتمكن من أدواته وقدراته مسئولًا عن نتاج أدبي أو علمي أو بحثي، وتكون الاستعانة بالاخوة الآخرين من باب المشاركة بالفائدة والمعرفة والخبرة، عند الحاجة إليهم.

والنهضة تلزم إشراك من يرفدونها بالرأي والخبرة والمشورة والعطاء أيًّا كانوا، عربًا أم غير عرب، على أن المجلة العربية قد استفادت من تلك الهفوة، وتعرفت على السبيل الأمثل.

٣ ــ الدكتــور علي جـواد الطاهـر(١) :

يلوم الدكتور علي جواد الطاهر الجيل الذي خلف جيل النهضة في الوطن العربي على تخلفه عن الاقتداء بالأعلامَ البيانيين المترسلين الذين أبدعوا في

(١) من مواليد الحلة بالعراق، عام ١٩١٩م. نال دكتوراة دولة في الآداب، يجيد الفرنسية وشيئاً من الانجليزية، عمل في جامعة الملك سعود بالرياض عدداً من السنوات اطلع خلالها على الأدب السعودي، وشارك في الكتابة عنه بحثًا ومقالة، من مؤلفاته، مقدمة في النقد الأدبي و «معجم المطبوعات العربية ــ المملكة العربية السعودية» في مجلدين كبيرين، وغيرها، انظر : الفيصل، عدد ٧٩، محرم ١٤٠٤هـ، ص٤.

كتاباتهم فن المقالة الأدبية، ووصلوا بها إلى درجة رفيعة عالية من السمو والمتعة، ومنهم الدكتور طه حسين، وأحمد حسن الزيات، وإبراهيم عبدالقادر المازني، وعبدالعزيز البشري، وجبران خليل جبران، وغيرهم، فيعاتب أكثر الكاتبين على ابتعادهم عن الغنائية الجميلة في النثر، التي تكاد تقرب من الشعر، وعلى اعتنائهم بالمقالة الصحفية، البعيدة عن سمات النص الأدبي، وانصراف عدد آخر منهم عن الأدب بمفهومه الصحيح في النثر إلى التحقيق، والبحث العلمي، وأمور درسية أخرى يختلط فيها الفقه بالتفسير بالثقافة العامة.

وبعد أن أظهر تشاؤمه من مستقبل المقالة الأدبية جاء إلى المملكة العربية السعودية فرأى أن كتّابها لم يصلوا إلى تفوق يذكر، ولم يصلوا أيضًا إلى مرتبة من قلدوهم واتبعوا خطواتهم، وأرادوا أن يكونوا شبيهين بهم، يعني المصريين، «وأعرف أن عددًا من أدباء السعودية ولا سيما الحجازيون قصدوا إلى أن يكونوا (كالمصريين) مبدعين، ولكنهم لم يحققوا أمرًا مهماً»[1].

والدكتور الطاهر غير بعيد عن الصواب في خوفه على المقالة الأدبية بشكل عام، فقد زحمها ما زحمها من المعارف الأخرى، وغيّر نسقها وأسلوب كتابتها وضيّق مساحتها ما لحق بالطبع العربي في هذه الأيام من انصراف عن الحديث والإفضاء إلى التخصص، وطرْق باب من أبواب المعرفة، لا يُعرف الكاتب إلا به، وخف ما للأديب من تأثير في الناس وفي الحياة العامة.

لكن الكاتب الناقد اللائم لأدب شبه الجزيرة العربية، والمنتظر من أدباء الحجاز أن يقدموا شيئًا أصيب بخيبة أمل كبرى منهم ومن غيرهم، فلماذا ؟!.

ألئن الكاتب جاهل بهذا الأدب، بعيد عن مكنونه، ومعاركه، وصولاته ؟ أم أن الكاتب متعجل يطلق الأحكام كيفما تكون صوابًا أم خرابًا ؟!. لا هذا .. ولا ذاك !.

---

(١) انظر كتابه : «مقدمة في النقد الأدبي»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٩م، ص٣٠٠.

فالكاتب من أكثر الدارسين العرب فطنة ولباقة ومعرفة بأدب المملكة العربية السعودية، وتراثها، يدل على هذه المعرفة استقصاؤه الطويل، وبحثه المتواصل، ودأبه المشكور على جمع مادة كتابه الموسوعي القيّم «معجم المطبوعات ـــ المملكة العربية السعودية» والذي يقع في مجلدين كبيرين.

والذي يقوم بعمل كهذا لابد أن يضطره البحث إلى مراجعة الصحف والمجلات القديمة، وأن يتتبع مخزونها الأدبي الثر، وأن يقف على ماكان يكتبه الأدباء الرواد، أمثال : العطار، والزيدان، وضياء، والأنصاري، والعواد، والسرحان، والآشي، والعامودي، والفقي، وعريف، والسباعي، والجهيمان، والجاسر، وشحاته، وابن خميس، ثم الأجيال التالية لهم، وهم كثيرون ليس هذا مقام حصرهم، وسيلفت تنبه قارىء أدب هؤلاء ما تميز به عدد منهم من الانثيال، وقوة العبارة، وحسن الديباجة، والجزالة، والرواء، والأسر، وجمال الإفضاء.

وأدب مقالي هذه بعض صفاته حقيق بأن يعد كتّابه في الطليعة، وأن يفر غ له دارسون وناقدون بكشف خصائصه ودرس ميزاته.

أما إشارة الدكتور الطاهر إلى أن الأدب في المملكة العربية السعودية وبالأخص في الحجاز سعى إلى تقليد أدب المصريين فهذا أمر اتفق عليه أكثر الدارسين، واعترف به عدد من الأدباء السعوديين أنفسهم.

ولكن ذلك كان في بداية النهضة، وفي الخطوات الأولى للكتّاب الشباب من الجيل الأول، ولا يعيب الأديب التقليد في بداية أمره، إنما يعيبه الانشداد المطلق إلى الأدب المقلَّد، واستقراره عليه، وعدم بحثه عن مخرج يتميز من خلاله بخصائصه الذاتية، وقد تجاوز أدباء سعوديون كثيرون تقليد أدب المهجر، وتقليد أدب مصر إلى بحثهم عن ذواتهم، واجتهادهم في اكتشاف عوامل الابتكار في بنائهم الأدبي والفني والنفسي، فسعوا إلى تكوين شخصية بيئية ناضجة، فوفقوا في بعض ذلك، وأخفقوا في بعضه، ودار حول هذه القضية نقاش طويل، دلالة على اهتمامهم بالحفاظ على مميزاتهم الذاتية، وعلى أن يكون الأدب صورة صادقة لبيئتهم، ولمطامحهم، ولآمالهم، ولنظرتهم إلى المستقبل.

والأمر العجيب حقًا أن يصدر هذا الرأي من أحد الباحثين الذين لم يغيبوا عن هذه المعاني، ولم تغب عنهم بالتأكيد، وقد طبع كتابه «مقدمة في النقد الأدبي» عام ١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩م طبعته الأولى، أي بعد مكوثه في هذه البلاد سنين، وبعد انكبابه على جمع مادة كتابه الموسوعي «المعجم» سنين أخرى ؟! إذًا فلماذا هذا الرأي البعيد عن الإنصاف، والبعيد عن طبع الباحثين الساعين إلى الحقيقة، وإلى كشف المخبأ والمطموس وبعثه للناس.

٤ ــ الدكتور أحمد كمال زكي[١] :

يذهب الدكتور أحمد كمال زكي إلى أن الأدب السعودي لم يرق إلى إبداع نثر فني حقيق بالإعجاب، وأن ما كتبه الأدباء المترسلون منذ عام ١٣٤٣هـ وإلى الآن لا يصور النص المقالي الأدبي الذي اشترط له الناقدون شروطًا، منها الانطلاق العفوي، والسهولة، والشاعرية، وأن المقالة التي بين يدينا ــ ودرسنا جزءًا منها ــ ليست إلّا مقالة صحفية وعلمية، ويسرف الناقد في اندفاعه نحو المطالبة بفن أدبي نثري خالص من شوائب العلمية والصحافية والتقييد والابتذال والتقعر، ولو أردنا أن ندقق في البحث عن هذا السمات لدى أكثر الكاتبين العرب لما وجدناها سوى في نثر نزر يسير منه، غير أننا نبحث عن مقومات المقالة الأدبية الأساس، وعن شروطها الأولى التي تحفظ لها بناءها الفني واستقامتها العفوية، ونسقها الأدبي، فإذا توافر شيء من هذه الصفات تقبلها الذوق نصًّا أدبيًّا مؤثرًا.

ويتساءل الناقد عن هذه المقالة الأدبية .. أين هي ؟! «وهل ما كتب في صحافة المملكة منذ عام ١٣٤٣هـ، وبدأ بأم القرى، وما دبجته أقلام محمد

---

(١) هو أحمد كمال محمد زكي أحمد الدالي، ولد في الاسكندرية عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٣م. وتلقى تعليمه الثانوي والجامعي والدراسات العليا في القاهرة، حيث حصل على الدكتوراة في الآداب عام ١٣٧١هـ/١٩٥١م، من جامعة القاهرة.

عمل في جامعة دمشق، وجامعة عين شمس، وجامعة غانا، ثم عمل في جامعة الملك سعود بالرياض، له كتب كثيرة منها : الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، دار المعارف بمصر عام ١٣٩١هـ، والأساطير، دراسة حضارية مقارنة، دار الشباب بالقاهرة، وغيرهما كثير.

حسن عواد ومحمد حسين زيدان وحمد الجاسر من المقالات الأدبية حقيقة ؟.

الإجابة في الحالتين بالسلب .. لأن المقالة الأدبية ــ حتى لولم تعرض للأدب ــ هي بإيجاز إبداع لغوي شاعري من أجل طرح فكرة غير ملزمة .. كالقصيدة الغنائية تمامًا، إلا أنها تفتقد الوزن، أو فلنقل : هي همسة رقيقة في أذن القارىء لا يجبره الكاتب بها على التسليم بشيء ما.

إفضاء عفوي لمعلومة عن موقف معيشي، أو ربما عن قضية تعليمية أو وطنية أو اقتصادية .. من غير حواشٍ، ولا اعتماد وثائق ولا إحصاءات مسجلة !.

وأما ما كتبه السادة المذكورون ــ ولا يزال بعضهم يكتبه ــ فهو المقال الصحافي والمقال الموضوعي (العلمي) الذي يطمح إلى إقناع القراء ثم إلى تثقيفهم. وسادة المقال الأدبي عندنا قلة، وربما نستطيع بقدر من المجاوزة أن نذكر منهم ــ في المملكة ــ الكاتب عبدالله الجفري!»[1].

ولعل فيما أسلفناه من دراسات اشتملت عليها فصول هذا البحث ما ينفي الشائبات التي يزعم الناقد وجودها في المقالة السعودية، فقد طالعنا نماذج من المقالة الأدبية المتدفقة الشاعرية، يكتبها أصحابها بائحين مناجين، ويكتبونها غناءً فيه شدو رقيق، وترنيم على وتر الإحساس النفسي المرهف، يتأملون بها الحياة، ويتفكرون من خلالها في تقلب الأيام، ويفضون إلى حروفها وأسطرها بمكنون قلوبهم، ومخزون عواطفهم، ونجد من ذلك كثيرًا في مقالات حمزة شحاته، والفقي، وعزيز ضياء، والرفاعي، والزيدان، والجفري والمناع، وغيرهم.

أما أن المقالة الذاتية أصدق فنًّا، وأرقى خيالًا، وأعذب غناء وشدوًا فهذا حق، بيد أننا لا نقصر مصطلح المقالة الأدبية على ماكان بوحًا ذاتيًّا فحسب، ونزعم أن الناقد يجارينا في ذلك من خلال ما استطرد إليه في وقفته النقدية، حيث يرى أن المقالة قد تجيء متحدثة عن موضوع اجتماعي أو اقتصادي أو غيرهما في أسلوب عفوي فيه إفضاء وصدق.

---

(١) انظر مجلة الفيصل، عدد ١١٧، في ربيع الأول، ١٤٠٧هـ، ص٤٩، زاوية : من المكتبة السعودية.

وهذا ما نجده في كثير من مقالات كتّاب مقاليين مختلفين في تجويدهم، وفي قضاياهم، كالسرحان، والزيدان، وابن خميس، والأنصاري، والبواردي، وغيرهم.

فالمقالة الأدبية ليست فنًّا سهل التناول، والترسل البياني العذب طبع وموهبة، ينضجها المران وتصقلها المزاولة، وتبنيها الثقافة الرفيعة، واستبطان المأثور من المنثور التراثي وغيره. ومحاسبة التأريخ الأدبي السعودي على هذا النحو من التعجل، وسرعة إلقاء الأحكام لا يُحسب من النقد المفيد ولا من النقد المقنع الكاشف للحقيقة.

وإذا قلنا إن التراث النثري السعودي لم يكن شيئًا ؟ فماذا كان يصنع الرواد في هذ البلاد من الأدباء ؟! أكانوا ينحتون مقالات علمية موضوعية منهجية ؟! البيّن من تاريخ الأدب أن النقد كان يشكو من فورة العاطفة، وابتعاد النقاد المقاليين في فترات كثيرة عن المنهجية، والعلمية.

أم أنها كتابات صحافية، خالية من الطلاوة والإمتاع الفني ؟! والحق أن أكثر القائمين على الصحف في المراحل الأولى السابقة لنظام المؤسسات كانوا من الأدباء المطبوعين على القول، والمتمكنين من أدواتهم الفنية، كالآشي، والسباعي، وقنديل، ومحمد علي رضا، والفقي، والعطار، وأبو مدين وابن خميس والجاسر، والبواردي، وغيرهم، على اختلاف حظوظهم في التجويد والتدفق البياني، والعمق، والمباشرة.

ولا يمنع هذا أن نجد مقالات يعيبها التسرع، ومجاراة ضرورات الصحافة، واتباع أساليبها، كما فعل الجيهمان، وكما فعل البواردي، وكما فعل شباط وغيرهم. غير أن الحكم على المقالة الأدبية عامة بأنها صحافية أو علمية حكم بعيد عن التوفيق ومتجافٍ عن الصواب.

والذي يدفع إلى هذه الأحكام ما مُني به الأدب السعودي من ضيق مساحة انتشاره، الأمر الذي أفضى إلى قلة حظ الكاتبين العرب غير السعوديين من الاطلاع عليه.

والمقالة الأدبية في العقود الستة السالفة مازالت مخبوءة في الصحف والمجلات ومازال جل الأدب المقالي السعودي الطلي مدفونًا لدى أصحابه، يضنون به على النشر، ويخشون عليه ألّا يجد من النقاد، ومن القرّاء التقدير الذي يطمحون إليه.

ومن يقلب أوراق صحفنا القديمة التي يبست أطرافها من أثر السنين يجد فيها روحًا تنبض، ودمًا يتدفق، ونَفَسًا قويًّا يحمل توثب الشخصية الأدبية، وعزيمة الرجولة، وقوة الإرادة في مجتمع كان راكدًا يتمطى في تثاؤبه بعد أن أفاق على صوت الحياة الجديدة، ونداء الوعي الجديد الذي تدفق به الكاتبون في خصوماتهم التقاليد الواهية، وخلافاتهم مع دعاة الاستسلام الأبدي، وفي دعوتهم إلى الإشراق الجمالي والفكري للسياق العربي الأصيل في النثر وفي الشعر.

الخاتمــــة

١ ــ عرض لموضوعات هـذا البحـث

٢ ــ النتائـج التي انتهيت إليهـا.

٣ ــ توصيـات واقتراحـات

٤ ــ شكـر وتقديـر



١ ـ عرض لموضوعات هذا البحث

ستظل المقالة في صحافتنا السعودية ميدانًا واسعًا رحيبًا للدراسة والبحث، وسيظل الباحث الأدبي يلتفت إلى تلك الصحف التفاتة المستمد المستفيد، لتتبع مراحل المقالة التاريخية والفنية والموضوعية.

وإن هذا الدرس الذي أعانني الله على القيام به كان رائدًا في بابه ـ فيما أرى ـ إذ لم يدرس أحد من قبلي المقالة الأدبية السعودية، سوى ما كتبه الأستاذ الدكتور محمد الشامخ عن فترة محدودة، تنتهي بنهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٣٦٥هـ.

ولكل باحث ـ مهما كان جهده ـ في هذا الميدان شيء من الفضل بالسعي إلى تقريب بعيد من مادة المقالة، أو كشف مجهول منها، أو تحليل ما يحتاج إلى إمعان نظر وطول تأمل، والجهد مع الجهد كالخطوة مع الخطوة تُوصل صاحبها إلى غايته وإن طالت المسافة.

ولعل المستقبل يقضي على تلك الصعوبات التي لقيتها حين تصديت لهذا البحث، إذ إن هنالك من جوانب المقالة مالم يطرقه بحثنا هذا من موضوعات أخرى للمقالة، كعدم وجود فهرسة شاملة للمادة الأدبية، وكالفجوات في تسلسل الصحف في المكتبات العامة والخاصة، وكالنقص الكبير في الدرس الأدبي السابق لفن المقالة، وفن الصحافة الأدبية بعامة.

وحين شرعت في البحث وجدته محتاجًا إلى الدرس والكشف من ثلاثة جوانب، الجانب التاريخي، والجانب الموضوعي، والجانب الفني، فتتبعت المقالة تاريخيًّا منذ أن وُجدت في الأدب العربي بعامة، ثم في أدب شبه الجزيرة العربية إلى نهاية القرن الرابع عشر الهجري، ثم عرضت موضوعات هذه المقالة الأدبية بأنواعها، ثم تناولت خصائص الفن الأدبي في كل نوع منها.

وقد تتزاوج المناهج الثلاثة في الدراسة حسب الحاجة إلى كل منهج، وحسبما يقتضيه الظرف التاريخي، أو المادة المقالية، أو اللمحة الفنية.

وتكونت ــ تبعًا لذلك ــ هذه الدراسة من ستة فصول ومدخلين ومقدمة، وهذه الخاتمة، وفهارس عامة.

أما المدخلان فكان الأول منهما في مقدمة الدراسة التاريخية، وكان الثاني يمهد لدراسة أنواع المقالة الأدبية.

وبدأت المدخل الأول ببسط مايحيط بمفهومات المقالة الأدبية من لبس فأبنت حدود المقال الأدبي في اللغة وفي اصطلاح الأدباء والنقاد، وصفات هذه المقالة، والأوجه التي تختلف بها عن المقالات الأخرى الموضوعية والصحفية.

ثم فصّلت القول في شروطها التي لا يتحقق للمقالة الأدبية القبول والإمتاع والتأثير إلا بها.

وقدمت فيما يشبه التوطئة لنشأة فن الترسل في الأدب العربي القديم، وهل يمكن أن يسمى ماكان يكتبه بعض الأدباء كالجاحظ وأبي حيان وابن المقفع والقلقشندي نثرًا فنيًّا يقرب من المقالة.

ثم عرجت على المقالة الأدبية الحديثة في الشام وفي مصر، وتأثرها ببعض مافي المقالة الأوروبية من خصائص كالإيجاز، وكونها تعنى بمعالجة قضايا مختلفة، لأن في هذا الحديث دلالة على تطور المقالة الأدبية السعودية، باعتبار أن صلاتها لم تنقطع من المقالة العربية بعامة.

وختمت هذا المدخل بحديث عن تأثير الصحافة في النثر الفني، وما منحته الصحافة فن المقالة من ذيوع وانتشار، وما يمكن أن يوصف به النثر الأدبي في الصحافة في مطلع النهضة العربية على الأخص، أي في منتصف القرن الرابع عشر الهجري الماضي.

أما الفصل الأول فقد تحدثت فيه عن المقالة الأدبية قبل نشأة أم القرى عام ١٣٤٣هـ، وحاولت الإجابة عن الشك في وجود نثر أدبي نشط قبل الدعوة

السلفية، ووجدت أن هذا النشاط الأدبي لا يصل بنا إلى الحكم بوجود مقالة أدبية، بل كان مقصورًا على الرسائل والتقاريظ لبعض الكتب، ونحو ذلك، وكان أثر دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب واضحًا في ارتقاء فن الرسائل، وازدهار المجادلات العلمية، والاهتمام بالمعرفة والنصائح التي يمكن أن تعد بداية أولى للمقالة الدينية، غير أن كل ذلك لم يدفع بالكاتبين إلى تجويد أساليبهم تجويدًا أدبيًّا، فقد ظلت محصورة في دائرة الاهتمام بالدعوة والإقناع بها، غير ناظرين إلى الفن الأدبي، ولا مولين اهتمامًا عامًّا بالأدب، ويكاد يخرج من بعض الوجوه عن هذا الحكم ابن عبدالوهاب نفسه في بعض رسائله، لولا عامية تشوب شيئًا منها، والشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن (ت ١٢٩٣هـ) فقد انطلق من قيود السجع، وأخذ بالترسل في وسط ما كان ينظر إلى صنعة الأدب على أنها ترقى بالوجدان وتهذب النفس، وتمتع القلب والعقل.

غير أن البداية الحقيقية للمقالة لم توجد إلا مع ظهور الصحافة، فقد تغير مفهوم الكتابة المقالية من كونها درسًا علميًّا فحسب، أو تناولًا لمسائل معرفية مختلفة بطرق متعددة، رسالة، أو إنشاء مسجوعًا إلى مهمة جديدة لم يعهدها الأديب العربي، خرج بها من الفردية إلى الجماعية، ومن العالم الصغير المحدود إلى عالم كبير واسع تتيحه الصحيفة للكاتب.

وقد كان للصحافة الحجازية في العهد التركي نوع من الإسهام في يقظة المقالة كتخلصها من السجع المطلق إلى النثر الحر، على ما اتسمت به في صحافة ذلك العهد من ضعف وركاكة وعجمة.

أما المقالة في الصحافة الهاشمية فقد تولاها كتّاب عرب وافدون لهم ميولهم الأدبية، فاجتهدوا في الكتابة بأسلوب عربي خال من الركاكة، وبعيد عن التقليدية المحضة، وكان لهم بعض التوفيق في تثبيت مفهوم جديد للمقالة في الصحافة في ذلك الوقت الذي كان يتنازع الإنسان في شبه الجزيرة عوامل الانشداد إلى القديم، والجهل، والشتات السياسي، والتخلف الاجتماعي.

ووقفت عند صدور «أم القرى» في مكة المكرمة حيث بدأ عهد جديد من

تأريخ المقالة والنثر الأدبي، وذلك لأن أم القرى تعمدت الكتابة بأسلوب عربي فصيح خال من السجع، ومن شوائب التقليد الأخرى في الأغلب، ومثلت تطلع أبناء البلاد إلى الحياة الجديدة التي تفتحت بوادرها مع العهد السعودي الجديد، ولأنها فتحت صدور صفحاتها لأقلام شباب البلاد.

وتزامن مع صدور هذه الجريدة تخرج عدد من المتعلمين في مراكز للتعليم منتشرة في جدة ومكة والمدينة وغيرها، وبسطت القول فيما صدر من كتب مقالية، مختلفة على فترات متباعدة، فقد صدر «أدب الحجاز» عام ١٣٤٤هـ، ثم المعرض عام ١٣٤٥هـ، ثم «خواطر مصرحة» في العام نفسه، ثم «نفثات من أقلام الشباب الحجازي» و «وحي الصحراء» في عام ١٣٥٥هـ، ثم أشرت إلى صدور الصحف والمجلات، وكونها عاملًا مهمًا من عوامل النهضة المقالية، حيث صدرت في منتصف القرن الهجري الماضي صحيفة كان لها دور كبير في الارتقاء بالمقالة الأدبية، والنهوض بها، وهي جريدة «صوت الحجاز» التي صدرت أواخر عام ١٣٥٠هـ، ثم مجلة «المنهل» التي صدرت عام ١٣٥٥هـ، وقد خدمت الأدب والثقافة خدمة جليلة.

وعرضت فيما بعد لمظاهر المقالة الأدبية في فترة النشأة تلك، كقوة تأثير المقالة في الحياة العامة، وإقبال المتعلمين والناشئة على كتابتها إقبالًا شديدًا، باعتبارها أداة قوية من أدوات الإصلاح والاشتهار والتعبير، وما عرفت به المقالة في تلك الفترة من حماسة للإقناع بالرأي، ومصاولات نقدية، وتخف خلف الرموز والأسماء المستعارة.

ووقفت عند أثر الثقافة العربية الحديثة في تكوين المقالة الأدبية في هذ البلاد، وخصصت بالحديث تأثير الأدب المهجري، وتأثير الأدب المصري، ومادار من اختلاف بين الأدباء حول ذلك التأثر بهما، وهل استقل الأدب السعودي بشخصية متميزة ؟.

وكان من الضروري أن أتحدث عن نظام المؤسسات الصحفية الذي صدر عام ١٣٨٣هـ، فأبنت حيثيات صدوره، والظروف التي صدر فيها، ثم أثره على

الأدب وعلى الصحافة، وتبين لي شكوى عدد كبير من الأدباء والكاتبين من تغير أحوال الصحافة، وما طرأ عليها من قوانين وأنظمة تحد من اندياح المقالة وامتداد الرأي وتوثبه.

وأشرت ــ قدر المستطاع ــ إلى بعض أسباب ضعف الأدب في صحافة المؤسسات، ومظاهر ذلك الضعف، وأقوال بعض الأدباء في تحليله والبرم به.

ولما كان الحديث عن موضوعات المقالة في شيء من الاختصار والإيجاز سيساعد على الإلمام بالمقالة في الأدب السعودي بعامة، وضعت مدخلًا (هو المدخل الثاني في الدراسة) ألممت فيه بعدد من أنواع المقالة، كالدينية، والسياسية، والعلمية، والفلسفية، والخاطرة، والرسالة، وغيرها.

وذلك كي أمهد للدخول في دراسة المقالات الأدبية الأربع التي رأيت أنها تضم أكثر ما كتب في المقالة الأدبية السعودية وهي في الفصول التالية على النحو الآتي :

الفصل الثاني : المقالة الذاتية، وفيه بحثت عن مفهوم المقالة الأدبية الذاتية، وأقوال النقاد في المفهوم القريب من مصطلح المقالة الأدبية، ثم تطرقت إلى أشهر كتّابها، وفصّلت القول في موضوعاتها، وهي : الهروب إلى الطبيعة، والذاتية الساخرة، والمتشائمة، والمتفلسفة، والإحساس بالوحدة، والهم الوجداني. ثم توقفت عند الخصائص الفنية للمقالة الذاتية، ووجدت أنها تتفق مع خصائص المدرسة الرومانسية، فتأملتها على ضوء ذلك، وأبنت الوجوه التي تلتقي بها فيها.

الفصل الثالث : المقالة الوصفية، وحددت فيه مفهومها، وتحدثت عن أشهر كتّابها، ثم فصلت القول في موضوعاتها، وهي : وصف الطبيعة، والرحلة، والذات، وتوقفت عند أبرز خصائصها الفنية، ووجدتها تلتقي أيضًا مع ميزات المدرسة الرومانسية، لأن النزعة الذاتية ظاهرة في المقالة الوصفية.

الفصل الرابع : المقالة النقدية، وفيه أفضت في الحديث عن مفهومها، وما يميزها عن النقد الأدبي، المنهجي، وبينت أن المقالة الأدبية النقدية لا تلتزم بدقائق المنهج العلمي وإلا لكانت مقالة علمية، بل تعتمد على التذوق والطبع

والتدفق في النظر إلى الظاهرات والنصوص، فهي مقالة تغلب عليها الناحية التأثرية. وتحدثت عن أبرز كاتبيها وأتيت بشواهد على نقدهم، وسمات مقالاتهم، وما غلب على كل واحد منهم من عاطفة أو تعقل أو حب للمصاولة والجدال، وأتيت فيما بعد إلى ذكر نماذج منها، فوجدت أن موضوعات المقالة الأدبية النقدية يمكن حصرها في عدة أمور : كونهم بذلوا جهدًا في تطوير مفهومات الأدب، بتحديده، ووصفه، ونفي ما يشوب الأدب الصحيح المعبر عن تطلعاتهم من شوائب، كما بذلوا جهدًا في تطوير مفهومات النقد، ببحثهم عن الصيغ النقدية المناسبة لتلك المرحلة، هل هي العنف أم الهدوء ؟ الاستسلام المطلق للموروث من النماذج الأدبية في الشكل وفي بعض المضامين أم نقدهما ؟ والبحث عن أشكال جديدة، ومضامين حديثة ؟.

ودلالة على نشاط النقد في فترة النشأة، ثم في فترة النضوج تناولت بالتحليل معركتين أدبيتين، الأولى تدل على بدايات النقد وضعف رؤاه، واختلاط مفهوماته، وهي معركة قصة مرهم التناسي، بين محمد حسن عواد وعبدالقدوس الأنصاري، والثانية تدل على بلوغ النقد مستوى ناضجًا، وعلى بلوغهم في الأدب درجة عالية من التجويد وحسن السبك، ودقة الفهم، وهي معركة أثر المنظر الجميل، على إثر محاضرة حمزة شحاته «الرجولة عماد الخلق الفاضل»، ودارت بين حمزة وعبدالله عريف، ودخل فيها أيضًا بعض الكاتبين.

ثم تتبعت مناوشات نقدية مختلفة، في مراحل متعددة من التأريخ الأدبي للمقالة، تكشف تفاعل الناقد مع المبدع، واستجابة المبدع لحيوية الناقد، ومنها نقد عزيز ضياء كتاب محمد حسن كتبي «النقد الفني»، ونقد عزيز أيضًا أحمد السباعي في مقالاته التي سمّاها بـ «أوراق العيد»، ونقد حسين سرحان كتاب أحمد عبالغفور عطار «كتابي» ونقده مقدمة محمد حسن عواد للكتاب نفسه، ونقد عبدالكريم الجهيمان مقالات حسين سرحان التي سمّاها «مشاهدات في المدينة المنورة»، وتلك المناوشات النقدية حول قضية الريادة في النقد على إثر حديث نشره عبدالعزيز الربيع في اليمامة أواخر العقد السابع من القرن الهجري الماضي، ثم ماكان يكتبه من رمز لنفسه بـ «مسمار» من نقدات أثارت نشاطًا

أدبيًّا في الساحة الثقافية، وكان مناوشًا حادًّا يمثل التيار الجديد الذي ظهر به شبان الثمانينات الهجرية، مطالبين بالتغيير الأدبي من القديم إلى الحديث، وتنحي جيل الرواد عن مواقعهم الأدبية، بعد أن استنفدوا ما لديهم، وبالسعي بالأدب إلى دائرة أوسع من الهموم المحلية، والقضايا الموروثة.

ثم ذكرت أمثلة من نشاط المقالة الأدبية النقدية، لا من قبيل الحصر، وإنما لتتبع مسارها، وملاحظة خفوت صوت هذه المقالة أو علوه، ووجدت المقالة النقدية حاضرة في صحافة الأفراد حضورًا يكاد يكون تامًّا، ومتوارية بعض التواري في صحافة المؤسسات، بيد أننا نجدها في بحث ظاهرة أدبية، وفي عرض كتاب، وفي نقد ديوان، ومحاكمة شاعر، وما إلى ذلك من إصدارات وإبداعات.

الفصل الخامس : المقالة الاجتماعية، وفي هذا الفصل حددت مفهومها، وعرضت لأشهر كاتبيها، ثم أطلت الوقوف أمام موضوعاتها، فأوردت نماذج تدل على ماكان يخوض فيه المقاليون السعوديون من قضايا اجتماعية عامة، كدعوتهم إلى النهضة، ونقدهم العادات والتقاليد، ودعوتهم إلى العمل، وإنشاء المشروعات النافعة، وإصلاح الاقتصاد، وبحث شئون المجتمع بعامة، كقضية توطين البادية، وإصلاح الصحافة، وما إلى ذلك.

أما **الفصل السادس** ــ وهو الأخير ــ فقد عقدته لإجراء موازنة بين تياري المقالة (الرومانسي، والواقعي) واللذين يضمان الأنواع الأربعة المدروسة من المقالة الأدبية.

ووازنت بين الشكل في كلا المدرستين، وبين المضمون فيهما أيضًا، وتوصلت إلى خلاصة موجزة بعد ضرب الأمثلة على الجانبين، الشكل والمضمون، وتتبع ما يميز هذه عن تلك، وما يفرق المقالة عن المقالة في كل نوع.

٢ ــ نتائـج هذا البحث

وبعد هذا الدرس الطويل للمقالة في تطوراتها المختلفة، منذ النشأة إلى النضج والقوة، إلى تحول مفهومها، واختلاف نظرة النقاد إليها، وضعف تأثيرها في الحياة، بسبب ذلك التغير، وبسبب ذلك الاختلاف أتوقف متأملًا مراحل هذه الدراسة، لعلي أصل إلى نتائج عامة تمثل أبرز ما رأيته في المقالة من حيث التأريخ، والموضوع، والشكل.

وهذه النتائج هي :

١ ــ بعد تحديد مفهومات المقالة تبين لي أن الخاطرة غير المقالة، وأن المقالة غير البحث، فقد يختلط الأمر عند كثيرين فلا يفرقون بين الخاطرة والمقالة، ثم لا يميزون المقالة من البحث، ثم لدينا أيضًا فن يكاد ينقرض، هو فن الرسائل الذي هو أصل من أصول المقالة، وقد كان مفهومه عند العرب : أن يكتب الكاتب الرسالة في موضوع حول الصداقة، أو الأخوة، أو العلم وفضله، أو القائد وصفاته، كما فعل ابن المقفع، والجاحظ، وأبو العلاء، وتبين لي أيضًا أن الرسالة في العصر الحديث قد طرأ عليها بعض التغير وأوشكت أن تنحصر في أن يوجه الكاتب الخطاب إلى أخ أو صديق، أو إنسان غير مخصوص، أو ظاهرة في المجتمع، أو في الأدب، ونحو ذلك، ويجمع بين خصائص الخاطرة من اقتناص الفكرة السريعة الخاطفة، وسهولة الأسلوب وتدفقه في غير إسهاب ممل، ولا تطويل مخل، وانتهيت إلى تحديد ما تتميز به الخاطرة عن المقالة، فالخاطرة : هي اللمحة السريعة، أو الومضة تواتي الكاتب في أي منحى من مناحي الحياة، ويأتي كثير منها معبرًا عن حالة نفسية أو وجدانية.

أما المقالة فيعمد كاتبها إلى عرض موضوعه في انطلاق متدفق، وبأسلوب سهل مجود محكم دال على شخصيته، ومصور ذاته، مانحًا قارئه الإمتاع والفائدة.

وأما البحث فلا يلتزم بشيء، مما ذكر في الأنواع الثلاثة السالفة، فهو يقوم

على خطة تتكون من مقدمة وعرض وخاتمة، ويجتهد كاتبه في اتباع الأسلوب الواضح القادر على إجلاء فكرته، ومبتدئًا بمقدمة للموضوع، ثم عرض للتفاصيل وذكر للأدلة، ومنتهيًا إلى الخلاصة ونتيجة البحث. وهكذا يندر أن نجد في مثل هذه البحوث أسلوبًا أدبيًّا يرقى بصاحبه إلى الإبداع، أو يبين عن نفسية كاتبه، ولن نجد عاطفة صادقة جياشة، لكونه بحثًا علميًّا.

٢ ــ ومن النظر في أدبنا القديم خرجت بنتيجة هي : أن في نصوصه مايعد العناصر الأولى لفن المقالة، وظهر ذلك واضحًا في كتّاب القرنين الثاني والثالث الهجريين.

وأن المقالة الأدبية الحديثة لم تعرف إلا من خلال الصحافة أول ما نشأت في أوروبا، وحين ابتدأت الصحافة العربية في الصدور، في سوريا ولبنان وفي مصر عُرفت المقالة الأدبية والصحافية من خلال الوقائع، والجوائب، والمقتطف، والمقطم، وغيرها، ثم ما تلاها من صحف ومجلات.

وأن بعض أدباء شبه الجزيرة العربية لم يكونوا منقطعين عن تلك الصحافة، فقد كانت تصلهم على فترات متباعدة، ويلمون بما فيها من أخبار ومقالات.

وأن المقالة في الحجاز أول ما ابتدأت كات ضعيفة ركيكة متصفة بالعجمة والالتواء في الصحافة التركية الصادرة من مكة والمدينة، ثم ابتدأت المقالة تتخلى عن كل تلك العيوب وتنحو إلى الفخامة والجزالة في التعبير عن طريق عدد من الصحفيين العرب الوافدين الذين اشتغلوا في صحافة العهد الهاشمي.

٣ ــ إن جريدة «أم القرى» تعد فاتحة عهد ثقافي وأدبي وسياسي جديد، ويمكن أن تعتبر مولدًا للمقالة الأدبية القريبة من النضج في شبه الجزيرة العربية.

٤ ــ إن فترة ازدهار المقالة ابتدأت منذ حوالي عام ١٣٥٥هـ واستمرت في تصاعد وقوة، ومرت بحالات قليلة من الركود إلى حين صدور نظام المؤسسات الصحفية عام ١٣٨٣هـ.

٥ ــ وأن الصحافة كانت ذات طابع أدبي، وكانت تخلص صفحات كاملة

للقضايا الأدبية، وكان ذلك عاملًا مهمًا من عوامل نشاط المقالة، ومن تلك الصحف، أم القرى، وصوت الحجاز، ومجلة المنهل، ثم صحف المرحلة اللاحقة، قريش، الرائد، مجلة الجزيرة، مجلة اليمامة، وغيرها.

٦ ـــ إن الأدباء الرواد الذين برزت مقالاتهم على صفحات تلك الصحف كانوا هم المؤسسين للمقالة الأدبية السعودية الحديثة الخالية من عيوب المقالة في العهدين التركي والهاشمي، والبعيدة عن كثير من شوائب النثر في عصور انحطاطه، كالركاكة، والعجمة، وضعف اللغة، والتوعر، والإغراق في المحسنات.

٧ ـــ إن تأثر هؤلاء الرواد بالأدب العربي القديم، وبأدب المهجر ومصر والشام لم يكن خافيًا، ولازمهم هذا التأثر شطرًا من حياتهم الأدبية، ثم ابتدأت مع مزاحمة المعارف المختلفة والآداب العالمية ملامح تأثرهم بالأدبين المهجري والمصري في الاضمحلال، وتبينت علامات الشخصية الأدبية السعودية.

٨ ـــ إن أثر المؤسسات الصحفية في المقالة الأدبية كان سلبًا، حيث أخذت تلك الروح المتوهجة في الضعف، وكادت تخبو.

٩ ـــ أن الكاتب المقالي السعودي تميز بالشمولية، فأسهم في كثير من مجالات المقالة، غير أن بعضهم تميز في نوع دون آخر، وأكثر في ذلك النوع مثل العطار في النقدية، والجهيمان في الاجتماعية، والجفري في الذاتية، وحمزة شحاته في الوصفية .. وهكذا.

١٠ ـ إن خصائص الفن في الذاتية والوصفية أكثر وضوحًا، وأوفر من غيرها، وأن العناية بالشكل قد تفوق العناية بالمعنى فيها.

١١ ـــ إن خصائص الفن في النقدية والاجتماعية لا تكاد تظهر، لميل كتّاب هذين النوعين من المقالات إلى العناية بالمعنى، والاهتمام بالفكرة، وأن الخصائص الفنية فيها أقل ظهورًا من سابقتيها، فالنقديون لا يميلون إلى الزخرف والتزيين، وإنما يهدفون إلى الوضوح والسلامة اللغوية والإبانة.

ولذلك فخصائص المدرسة «الواقعية» من المباشرة، والوضوح، والبعد عن

الإغراب، وتجافي الغموض والرمز، وتجنب الزينة والحلية موجودة في المقالة النقدية بشقيها الأدبي والاجتماعي.

وخصائص الفن في المقالة الاجتماعية لا تختلف عن خصائص الواقعية أيضًا، إذ تعتمد الاجتماعية على مناقشة المشكلات، وإبراز حلولها، وخوض هموم البناء الحضاري العام، والأسلوب في كل هذه الموضوعات واضح بعيد عن الزينة.

١٢ ـــ إن المقالة النقدية عالجت قضايا الأدب، ومشكلات المجتمع، وأسهمت في ارتقاء المفهوم الأدبي، وفي تطوير الحياة الاجتماعية، وذلك بوحي من اقتناعهم بأهمية واقعية الأدب.

١٣ ـــ إن النص المقالي لدى كثيرين من كتّابه في الأدب السعودي يتفوق على كثير من النصوص في عدد من أقطار الوطن العربي، ويقف في مرتبة واحدة مع نصوص أخرى في بلدان عربية ثانية، وذلك من حيث الشكل، ومن حيث المضمون، ويمكن أن نضرب مثلًا بمقالات حمزة شحاته، وحسين سرحان، ومحمد حسن فقي، وعبدالله بن خميس، وغيرهم، وهؤلاء يميلون إلى الجزالة والتدفق والجمال والتوازن الموسيقي، وأسلوب أكثرهم ينثال في ترسل إنشائي ممتع، دون إعسار أو تكلف أو إعنات في البحث عن اللفظ والمعنى.

٣ ـــ توصيات واقتراحات

بعد هذه الخلاصات السريعة لأبرز النتائج التي توصلت إليها في دراستي هذه، أرى أنه من اللازم رصد ما اقترحه لتطوير الدرس الأدبي للمقالة، ولمزيد من العناية بها، كي تعود إلى تأثيرها القديم في الساحة الثقافية، وفي المتلقين بعامة.

ومن أهم هذه التوصيات :

أ ـــ أن يقوم باحثون آخرون بدرس المقالات غير المدروسة في هذا البحث، وذلك لأهميتها في حياتنا الفكرية والثقافية وكونها تعطي دلالة تاريخية واجتماعية على إسهام المثقفين والكتّاب في تكوين الوعي، والارتقاء بالمفهومات الحضارية العامة.

ب ــ أن يقوم المختصون بعلم المكتبات و «الببلوجرافيا» بفهرسة الصحف والمجلات السعودية، وإسناد كل مقالة، أو قصيدة، أو بحث إلى صاحبه. ويمكن أن تُسند مهمة الفهرسة إلى طلبة الدراسات العالية في قسم المكتبات، أو لمن يريدون الحصول على «دبلوم» فيها، ويمكن قبولها في مجال الترقيات العلمية على أنها جزء من مجهودات الأستاذ، فيتولى أي من هؤلاء فهرسة سنوات معينة من أية دورية، ويكون هناك تنسيق بين أقسام المكتبات في جامعاتنا، بحيث تتم هذه الفهرسة في غير تكرار، وفي غير انقطاع عن سنة من السنوات، أو تجاهل أو نسيان لها.

وأن هذا العمل «الببلوجرافي» سيساعد على تطوير الدراسات الأدبية وغيرها في المملكة العربية السعودية، وسيسهل على الباحثين الحصول على المادة الأدبية التي يريدونها، ويختصر لهم الوقت الذي كانوا ينفقونه للبحث عن المقالة أو القصيدة ونحوها في أي من هذه المصادر الصحافية المفهرسة.

جـ ــ أن تعمل المكتبات العامة على سد الفجوات في سلسلة الصحف والدوريات.

د ــ أن تُدرس المقالة الأدبية، وغيرها من المقالات بعد القرن الرابع عشر الهجري، لكي تتواصل حلقات المقالة المدروسة.

هـ ــ وأوصي بأن يكون هناك عمل جاد من رجال النقد والأدب والفكر، للرفع من مستوى المقالة بعامة، والمقالة الأدبية بخاصة.

و ــ وأوصي الصحف والمجلات بأن تولي المقالة الأدبية اهتمامًا أكبر على نحو ماكان في العقود الثلاثة من عمر الصحافة السعودية، وهي الأربعينات والخمسينات والستينات.

ز ــ أن تسند الصفحات الأدبية في الصحف إلى ذوي الاختصاص من أهل الأدب، لأنهم القادرون على معرفة الجيد والرديء من المقالة، فينشرون منها الجيد، ويبدون ملحوظاتهم على الضعيف منها، ويوجهون الناشئة إلى أسباب الرقي بمقالاتهم.

ح ـ وأطالب الأدباء بنشر ما يرونه صالحًا من مقالاتهم، وجمعها في كتب، لأن بقاءها في بطون الصحف إهمال لها، ونسيان لموضوعاتها، ومن الضروري توثيق المقالات التي ينشرها الكاتبون في كتب بعد أن نشروها في صحف، فيثبت اسم الصحيفة التي نشرت المقالة، والتاريخ، ورقم العدد، وما إلى ذلك.

ط ـ أما الأدباء الذين انتقلوا إلى رحمة الله فمن الممكن أن يقوم بجمع مقالاتهم باحثون ودارسون، يتولون البحث عنها في مظانها، وتوثيقها والتعليق على بعض ما يستدعي التعليق منها، إيضاحًا لمعلومة أدبية أو تأريخية حول مقالة، أو أديب، أو ظاهرة. على نحو مافعل الدكتور يحيى ساعاتي في كتابه «من مقالات حسين سرحان» وما فعل الدكتور محمد بن سعد بن حسين في كتابه «محمد سعيد عبدالمقصود خوجه ـ حياته وآثاره».

ومن الأدباء الذين وجدت لهم مقالات كثيرة ذات قيمة أدبية وفكرية، واجتماعية، ولم تنشر في كتاب: عبدالقدوس الأنصاري، وإبراهيم هاشم فلالي، ومحمد حسن كتبي، وعزيز ضياء، وطاهر زمخشري، ومحمد حسن فقي، وعبدالعزيز الرفاعي، وعبدالله بن إدريس، وغيرهم.

٤ ـ شـكر وتقديـر

أرى أن من الواجب إظهار الشكر، وإسداء الثناء لمن أسهموا معي في إنجاح هذه الدراسة، وتيسير مصادرها، وتهيئة كثير مما احتجت إليه من المعلومات والمعارف، من كتب أو صحف، أو ما يعد منها في قائمة المخطوطات لندرته، ومن مشورة علمية ونحوها.

وقد بذل الأستاذ الدكتور محمد بن سعد بن حسين، المشرف على هذه الرسالة من نفسه ووقته ما أضفى على هذا البحث كثيرًا مما يتصف به، كالعلمية، والاجتهاد وراء دقة المعلومة، وصحة الأحكام.

وفي سبيل كل ذلك منحني التشجيع المساعد على مواصلة البحث والتفرغ له، وأتاح لي ساعات طويلة من الدرس والمناقشة والقراءة.

وأقدّم وافر الشكر لعدد من الأساتذة كان لهم فضل كبير عليّ وعلى هذه الدراسة، ومن هؤلاء الدكتور عبدالله بن حمد الخثران، الذي استفدت من علمه كثيرًا.

ولا أنسى ما للإخوة في المكتبة المركزية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وفي جامعة الملك سعود، وفي معهد الإدارة من فضل في تسهيل وصولي إلى المادة المقالية، والبحث عنها في الصحف والدوريات والكتب.

وللمكتبات الخاصة فضل كبير على هذه الدراسة، وأخص من أصحابها الأستاذ محمد بن عبدالله الحمدان صاحب مكتبة «قيس» فقد منحني الفرصة كاملة للانكباب على ما يحويه مخزنه من صحف ودوريات قديمة.

ولكل من أعانني عونًا مباشرًا أو غير مباشر الشكر بعد الله، والدعاء لهم بالثواب.

وبالله التوفيق،،

فهـارس عـامـة

الأعـلام

فهرس شامل الأعلام الذين وردت أسماؤهم في هذه الدراسة، وقد رتبت الأسماء على الطريقة الهجائية مراعيًا الحرف الأول والثاني

(أ)

(ج)

(ح)

(ز)

(ش)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

المقالات

فهرس شامل المقالات الواردة في هذا الكتاب، وقد أوردت في هذا الفهرس المقالات على الترتيب الهجائي، والمعلومات المتصلة بها، ثم رقم الصفحة في الكتاب.

(أ)

١٤ ــ أحقًا ؟؟، عمر الصيرفي، وحي الصحراء، ٢٩٦، (١٣٤).
١٥ ــ الأسماء المستعارة والرمزية في الأدب السعودي الحديث، عبدالقدوس الأنصاري، المنهل، عدد ذي القعدة ١٣٩٢هـ، ص١١٤٢، (١٤٧).
١٦ ــ الأسماء المستعارة، حسين سرحان، صوت الحجاز، عدد ٢٩ الاثنين ٢٣، (١٤٧).
١٧ ــ أعينوا هذه الكفاءات، سعد البواردي، جريدة الخليج العربي، عدد ٥٧ في ١٧ /٤ /١٣٧٩هـ، ص٣، (١٥٢).
١٨ ــ أحاج ورموز، عزيز ضياء، صوت الحجاز، عدد ٢٢٣ في ٣ /٩ /١٣٥٥هـ، ص١، (١٥١).
١٩ ــ إيه من أسطورة الحب، محمد عمر عرب، أدب الحجاز، ص١٢٥، (٣٢٢).
٢٠ ــ أغنية الليل، جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة، ص٦٠٥.
٢١ ــ أدب صالح للتصدير، أحمد عبدالغفور عطار، المنهل، عدد شعبان ١٣٦٥هـ، ص٣٦٤، (١٦٢).
٢٢ ــ أدب الشباب، عبدالمجيد شبكشي، صوت الحجاز، عدد ١٥١ في ٥ /١ /١٣٥٤هـ، ص٣، (١٦٦).
٢٣ ــ الأدب، عزيز ضياء، صوت الحجاز، عدد ١٥٧ في ١٨ /٢ /١٣٥٤هـ، (١٦٩).
٢٤ ــ أدباؤنا المعاصرون، أحمد عبدالغفور عطار، المنهل، عدد ذي القعدة وذي الحجة ١٣٦٦هـ، (١٧٤).
٢٥ ــ الأسلوب الأخضر، عمران محمد العمران، المنهل، عدد صفر ١٣٧٧هـ / سبتمبر ١٩٥٧م، (١٧٤).
٢٦ ــ أزمة الأدب والنقاد، بدون توقيع، اليمامة، عدد ٦٤، الجمعة ٢٦ ربيع الثاني، ١٣٨٩هـ، (١٨٨).
٢٧ ــ الأدب في الصحافة السعودية، عثمان حافظ، بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين، جامعة الملك عبدالعزيز بجدة، ١٣٩٤هـ، جـ٢، ص٧٧٣، (١٩٢).
٢٨ ــ أما بعد، علي أحمد النعمي، اليمامة عدد ١٥٤، في ١٧ /٢ /١٣٥٧هـ، ص١٤، (١٩٦).
٢٩ ــ الإيمـــان، إبراهيم هاشم فلالي، المنهل، ١٣٧١هـ، ربيع الأول، (٢٠٧).
٣٠ ــ أمام المحراب، سعد البواردي، أجراس المجتمع، ص٢٥، (٢١١).

٣١ ـ الذين يحرفون الكلم، سعد البواردي، أجراس المجتمع، ص٢٠، (٢١١).

٣٢ ـ أهذه فكرة الحج الصحيحة، أحمد السباعي، سباعيات، جـ٢، ص٤٣، (٢١١).

٣٣ ـ اتقوا الله، «آسف»، بريد الحجاز، السنة الأولى، عدد٢، ٣ /١٣٤٣/٥هـ، ٣٠ نوفمبر ١٩٢٤م، ص٣، (٩٩).

٣٤ ـ الإنسانية المعذبة تستصرخ الأمة الحجازية، هاشم يوسف الزواوي، صوت الحجاز، عدد ١٣٩، في ١٨ /٩ /١٣٥٣هـ، (٢١٤).

٣٥ ـ الاستعمار في الخليج، عبدالكريم الجهيمان، أخبار الظهران، عدد ٢٦، في ١٣ /٦ /١٣٧٥هـ، (٢١٤).

٣٦ ـ الأزمات وواقع الحرب، عبدالله بن خميس، مجلة الجزيرة الشهرية، عدد ٤، صفر ١٣٨١هـ، يوليه ١٩٦١م، (٢١٤).

٣٧ ـ الإسلام الذي يمتحن اليوم في الجزائر، حسن آلشيخ، دورنا في الكفاح، ص٧١، (٢١٥).

٣٨ ـ أبو تمام والبحتري والمتنبي، محمد حسن كتبي، صوت الحجاز، عدد ١٧٥، في ٢٦ جمادى الثانية ١٣٥٤هـ، (٢٢١).

٣٩ ـ الأدب المهجري في القرن الرابع الهجري، محمد سعيد عبدالمقصود، أم القرى، الأعداد ٥٩٦، ٥٩٨، ٦٠٨، ٦١١، ٦١٥، ٦١٧، ٦١٨، ٦٢٠ من عام ١٣٥٥هـ، (٢٢١).

٤٠ ـ الاتجاهات الجديدة في الأدب الحجازي، عبدالقدوس الأنصاري، صوت الحجاز، عدد ١٧٠ في ٢٠ جمادى الأولى ١٣٥٤هـ، ص٤، (٢٢١).

٤١ ـ أثر المتنبي في الأدب العربي، محمد حسن كتبي، صوت الحجاز، عدد ١٧١، في ٢٧ جمادى الأولى ١٣٥٤هـ، ٢٧ أغسطس ١٩٣٥م، ص٤، (٢٢١).

٤٢ ـ أهل الجوع، حسين سرحان، المنهل، جـ١، ص٧، صفر ١٣٦٦هـ، ص٦٧ــ٦٩، (٢٢٤).

٤٣ ـ أزمة الحرية في نظر الوجوديين، خليل الفزيع، أحاديث في الأدب، ص١٦٧، (٢٢٤).

٤٤ ـ أريد أن أرى ابن آدم، حسين سرحان، البلاد السعودية، عدد ٦٢٦، س١١، الاثنين ١١ ذي الحجة ١٣٦٥هـ، ص٤، (٢٣٠).

٤٥ ـ أدب يسخر من نفسه، حسين سرحان، البلاد السعودية، ١٢٥٠، السنة السادسة عشرة، الأحد، صفر ١٣٧٢هـ، ص٤، (٢٥٩).

٤٦ ــ أنا لست بفاضل، حسين سرحان، البلاد السعودية، عدد ٧٧٢، س١٣، الأحد ٢٧ محرم ١٣٦٨هـ، ٢٨ نوفمبر، ص٤، (٢٧١).

٤٧ ــ أديب، ابن جلا (محمد حسن فقي)، صوت الحجاز، عدد ٢٤٩ في ١٠/ ١/ ١٣٥٦هـ، ص٤، (٢٧٧).

٤٨ ــ أذكياء بلا عقول، أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، الفنون الصغرى، السفر الخامس، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، ط١، ١٤٠٥هـ، ص٢١١، (٢٨٢).

٤٩ ــ إما النبوع وإما، أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، هكذا علمنتي ورد زورث، ص٢٨٨، (٢٨٤).

٥٠ ــ ابن اللبون، أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، هكذا علمني ورد زورث، ص٣١٦، (٢٨٦).

٥١ ــ أقراص منع حمل الغد، عبدالله جفري، نبض، ص١٧٦، (٢٩٣).

٥٢ ــ أيها الليل، جبران خليل جبران، العواصف، ص٣٨٣، دار صادر بيروت، (٢٩٨).

٥٣ ــ أيها الليل، محمد حسن فقي، صوت الحجاز، عدد ١١، في ١٥/ ٢/ ١٣٥١هـ، ص٦، (٢٩٨).

٥٤ ــ أنا مغترب والراحلون همو، أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، هكذا علمني ورد زورث، ص٣٠، (٣٢٦).

٥٥ ــ آن له أن يعجم، أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، هكذا علمني ورد زورث، ص٢٥٩، (٣٢٨).

٥٦ ــ إن أبيتم فصومعتي أرحم بي، أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، النغم الذي أحببته، ص٢٦١، (٣٢٩).

٥٧ ــ أيام في تركيا، أحمد السباعي، سباعيات، ص١١٣، (٣٧٩).

٥٨ ــ أيام في القدس العربية في احتلالها، أحمد السباعي، سباعيات، ص١٢١، (٣٧٩).

٥٩ ــ أول مقال كتبته، أحمد عبدالغفور عطار، البلاد السعودية، عدد ممتاز ٧٩٠، في ١/ ٤/ ١٣٦٨هـ، ص١٢، (٣٨٦).

٦٠ ــ أول قصيدة نظمتها، طاهر عبدالرحمن زمخشري، المصدر السابق،)٣٨٩).

٦١ ــ أول مقال كتبته، هاشم يوسف الزواوي، المصدر السابق، (٣٩٠).

٦٢ ــ أستاذ، حمزة شحاته، صوت الحجاز، عدد ٢٣٥، في ١١ شعبان ١٣٥٥هـ، (٣٩٩).

٦٣ ـ أسئلة أدبية، أحمد عبدالغفور عطار، كلام في الأدب، ص٣٨، (٤٢٠).

٦٤ ـ أدبنا الحديث، أحمد عبدالغفور عطار، كلام في الأدب، ص٢١، (٤٢٤).

٦٥ ـ أدب جديد، أحمد عبدالغفور عطار، كلام في الأدب، ص٥١، (٤٢٦).

٦٦ ـ انتكاسة الأدب، عبدالعزيز فرشوطي، الرائد، ١١٩ في ٣٠ /١٢/ ١٣٨١هـ، (٤٢٧).

٦٧ ـ انتكاس بعض الناشئة، أحمد عبدالغفور عطار، كلام في الأدب، ص٧٩، (٤٢٧).

٦٨ ـ أثر المتنبي في الأدب العربي، محمد حسن كتبي، صوت الحجاز، عدد ١٧٠، في ٢٠ /٥/ ١٣٥٤هـ، ص١، وعدد ١٧١ في ٢٧ /٥/ ١٣٥٤هـ، ص٤، (٤٤٠).

٦٩ ـ الأدب والحياة، (...)، صوت الحجاز، عدد ١٥٦، في ١١ /٢/ ١٣٥٤هـ، ص٤، (٦٠٣).

٧٠ ـ الأدب الحجازي والتاريخ، محمد سعيد عبدالمقصود، وحي الصحراء، ص٣١، (٣٩٤).

٧١ ـ أدبنا المعاصر، أحمد عبدالغفور عطار، المنهل، ذو القعدة وذو الحجة ١٣٦٧هـ، ص٥٠١، (٤٥٤).

٧٢ ـ الأدباء في بلادنا وما عليهم، متألم، صوت الحجاز، عدد ٧، في ١٧ /١/ ١٣٥١هـ، ص٧، (٤٦٠).

٧٣ ـ ابن رشيق وكلمته في النقد ـ رأي اعتراضي، ملاحظ، صوت الحجاز، عدد ٣٣، في ٢٢ /٧/ ١٣٥١هـ، (٤٦٢).

٧٤ ـ الأدب والنقد، صاحبكم، أم القرى، عدد ٣٩٣، في ١٢ صفر ١٣٥١هـ، ص٤، (٤٦٣).

٧٥ ـ الأدب الذي يمثلنا ـ كلمة إلى الأدباء، ط ..، أم القرى، عدد ٦٥٣، في ٢ /٤/ ١٣٥٦هـ، ص٣، (٤٦٤).

٧٦ ـ افتتاحية، عبدالقدوس الأنصاري، المنهل، عدد ذي الحجة، ١٣٥٩هـ، (٤٦٥).

٧٧ ـ الأدب في الحجاز، محمد حسن عواد، خواطر مصرحة، جـ١، ص٦٣، الأعمال الكاملة، مجلد ١، (٤٧٦).

٧٨ ـ الأدب الكاسد، محمد حسن عواد، تأملات في الأدب والحياة، ص٣٩٢، الأعمال الكاملة، مجلد ١، (٤٧٧).

٧٩ ــ أدب الشيوخ، وأدب الشباب، عبدالله بن خميس، من جهاد قلم، ص٣٢٣، (٤٨٢).

٨٠ ــ أدب الشيوخ والشباب، محمد حسن عواد، اليمامة، عدد ٢٤٦، في ٢٥ /٢ /١٣٩٣هـ، ص١٢، (٤٨٢).

٨١ ــ أيها الأحبة الساعة في الميدان تمضي، عبدالله علي الماجد، اليمامة، عدد ١٥٤، في ٢٦ /٣ /١٣٩١هـ، ص١٢، (٤٨٤).

٨٢ ــ الانتقاد وكيف يجب أن يكون، كويتب، صوت الحجاز، عدد ٨٤، في ٣ شعبان ١٣٥٢هـ، (٤٩٤).

٨٣ ــ أوراق العيد، أحمد السباعي، صوت الحجاز، عدد ١٨٨، في ٢٨ رمضان ١٣٥٤هـ، ص٤، (٥٢٣).

٨٤ ــ إلى المازح المتجني، أحمد السباعي، صوت الحجاز، عدد ١٩٠، في ١٩ شوال ١٣٥٤هـ، ص٤، (٥٢٥).

٨٥ ــ أحمد عطار .. يخرف، محمد حسن عواد، البلاد السعودية، عدد ١٠٢٧، في ٦ شعبان ١٣٧٠هـ، ص٤، (٥٥١).

٨٦ ــ أدب المرأة، أحمد عبدالعزيز العويس، اليمامة، عدد ١٥٣، في ١٠ صفر ١٣٨٧هـ، ص١٣، (٥٥٢).

٨٧ ــ أين الأدب النسائي ؟، علي العفيصان، اليمامة، عدد ١٥٥، في ٢٤ صفر ١٣٨٧هـ، ص١٤، (٥٥٢).

٨٨ ــ أدبنا النسائي أو العاصفة التي دحرجت القوارير، ليلى سلمان، اليمامة، عدد ١٩٢، في ١٧ محرم ١٣٩٣هـ، ص١٢، (٥٥٢).

٨٩ ــ الاتجاه الفني في شعر الخليفة، عبدالله شباط، جريدة الخليج العربي، عدد ٧، في ٢٤ ربيع أول ١٣٧٨هـ، ص٦، (٥٥٤).

٩٠ ــ أنا والأخلاق، محمد سعيد، أم القرى، عدد ٣٧٩، في ١٠ /١١ /١٣٥٠هـ، (٥٧٥).

٩١ ــ أدباؤنا الراحلون ــ محمد سعيد عبدالمقصود، محمد عمر عرب، المنهل، ذو القعدة وذو الحجة ١٣٦٧هـ، ص٤٩٥، (٥٧٧).

٩٢ ــ إنا لله وإنا إليه راجعون، فؤاد شاكر، صوت الحجاز، عدد ٥٧٢، في ١٥ /٤ /١٣٦٠هـ، (٥٧٩).

٩٣ ــ ألم يأتك نبأ ما بنينا للحضارة، أحمد السباعي، سباعيات، جـ٢، ص٥٥، (٥٨٦).

٩٤ ــ الأسماء المحظور نشرها، عبدالكريم الجهيمان، آراء فرد من الشعب، ص٢١٩، (٥٩٣).

٩٥ ــ أين تذهب ثروة العالم العربي، عبدالله بن خميس، مجلس الجزيرة، عدد ٦، في جمادى الأولى ١٣٨٣هـ، ص٣، (٥٩٧).

٩٦ ــ الأدب والحياة، محمد حسن عواد، صوت الحجاز، عدد ٥، في ٣ /١ /١٣٥١هـ، ص٤، (٦٠٩).

٩٧ ــ استعراض الماضي، محمد جميل حسن، أدب الحجاز، ص٦٩، (٦٠٩).

٩٨ ــ الأطفال بين الجهل والعلم، عبدالكريم بن جهيمان، أم القرى، عدد ٦٥٠، في ١٣٥٦هـ، ص٢، (٦١٩).

٩٩ ــ أكان هذا من عمل الجان ؟، أحمد السباعي، دعونا.. نمشي، ص٥٧، (٦٢٠).

١٠٠ ــ أين أنتم يا أصحاب القرش ؟ ولماذا أنتم صامتون ؟، شاب، أم القرى، عدد ٦٤٩، في ١٣٥٦هـ، ص٧، (٦٣٧).

١٠١ ــ أين القرش ؟، حمزة خوج، أم القرى، عدد ٦٧٣، في ١٣٥٦هـ، ص٢، (٦٣٧).

١٠٢ ــ أليس من الواجب إنشاء جامعة علمية في العاصمة ؟، بدون توقيع، صوت الحجاز، عدد ١٣٧، في ٤ /٩ /١٣٥٣هـ، ص١، (٦٤٠).

١٠٣ ــ اشتراك الأساتذة في تعديل المنهج الابتدائي، أحمد قنديل، صوت الحجاز، عدد ٢١٣، في ١٠ /٤ /١٣٥٥هـ، ص١، (٦٤٠).

١٠٤ ــ إني أتهم، حمود العذل، الرياض، عدد ٣٧، في ١٣ /٢ /١٣٨٥هـ، (٦٤٧).

١٠٥ ــ استقبال النسور العربية السعودية، بدون توقيع، أم القرى، عدد ٥٩٢، في ١٨ محرم ١٣٥٥هـ، (٦٤٨).

١٠٦ ــ أمة مهملة، محمد حسن عواد، خواطر مصرحة، جـ١، ص٤٩، (٦٤٩).

١٠٧ ــ إصلاح الزراعة، عبدالكريم الجهيمان، القصيم، عدد ٦١، في ٢١ /٨ /١٣٨٠هـ، (٦٥٤).

١٠٨ ــ إصلاح التفكير مبدأ الإصلاح العام، إبراهيم الشورى، المنهل، ربيع أول ١٣٦٥هـ، ص١٠٣، (٦٤١).

١٠٩ ــ أولادنا في مهب الريح، عبدالكريم الجهيمان، أخبار الظهران، عدد ١٨، في ١ /٣ /١٣٧٥هـ، (٦٥٤).

١١٠ ــ أنا مؤمن.. وكافر .. !، عبدالكريم الجهيمان، القصيم، عدد ٣٥، في ١٦ /٢ /١٣٨٠هـ، (٦٥٩).

١١١ ــ استيقظي يا نفس !، محمد علي رضا، أدب الحجاز، ص١٢٢، (٦٧٠).
١١٢ ــ أيها النسيم، محمد علي قطب، نفثات من أقلام الشباب الحجازي، ص١٠٥، (٦٧٠).
١١٣ ــ أحب النقد وأكره النقد، محمد حسين زيدان، المنهل، عدد جمادى ١٣٥٨هـ، ص٤، (٦٧٤).

١١٤ ــ أنصاف المتعلمين، عبدالكريم الجهيمان، اليمامة، عدد ١٧٣، في ٢٣/ ١١/ ١٣٧٨هـ، (٦٩٨).
١١٥ ــ أنا وأولادي ؟، عبدالكريم الجهيمان، القصيم، عدد ٤٠، في ٢٢ ربيع أول ١٣٨٠هـ، (٦٩٨).
١١٦ ــ بعض ذكرياتي من قبل ربع قرن، محمد نصيف، المنهل، شعبان ١٣٦٩هـ، العدد الثامن، ص٢٧٥، (١٦١).
١١٧ ــ البلاغة العربية، محمد حسن عواد، خواطر مصرحة، ص٤١، (١٢٥).
١١٨ ــ بدعة قديمة تتجدد، أحمد عبدالغفور عطار، المنهل، جمادى الأولى ١٣٦٧هـ، (١٤٩).
١١٩ ــ بأظافرنا نبحث عن شيء ما، عبدالله بن حمد القرعاوي، اليمامة، عدد ١٠٠، ٣ صفر ١٣٩٠هـ، ص٣٠، (١٩٢).
١٢٠ ــ بين المتناظرين، أنا، صوت الحجاز، عدد ٣٠ في ١/ ٧/ ١٣٥١هـ، ص٧، (٢٠٩).
١٢١ ــ برمانا، حسين سرحان، البلاد السعودية، ١٧٧٤، س١٩، الاثنين ٢١/ ٦/ ١٣٧٤هـ، ص٣، (٢٥٩).
١٢٢ ــ بحر النضار، عزيز ضياء، وحي الصحراء، ص٣٢٦، (٣٦٨).
١٢٣ ــ البرج العاجي، أحمد عبدالغفور عطار، كلام في الأدب، ص٣٠، (٤٢٤).
١٢٤ ــ بين القديم والجديد، عزيز ضياء، أم القرى، عدد ٦٢٤، في ٦ رمضان ١٣٥٥هـ، ص٢، (٤٧٢).
١٢٥ ــ بين القديم والجديد ــ رد على مقال، عبدالكريم الجهيمان، أم القرى، عدد ٦٢٨، في ٢٤ شوال ١٣٥٥هـ، ص٢، (٤٧٤).
١٢٦ ــ بين القديم والتجديد، إبراهيم الناصر، جريدة الخليج العربي، عدد ٧٦، في ١٤/ ٨/ ١٣٧٩هـ، ص٧، (٤٨٠).

١٢٧ ــ بين الجمال والنقد، حمزة شحاته، صوت الحجاز، عدد ٤٤٨، في ١٧ محرم ١٣٥٩هـ، ص١، (٣٦١).

١٢٨ ــ بين الجمال والنقد، حمزة شحاته، صوت الحجاز، عدد ٤٥٠، في ٢٠ محرم ١٣٥٩هـ، ص١، (٣٥٨).

١٢٩ ــ بين الجمال والنقد، حمزة شحاته، صوت الحجاز، عدد ٤٥٨، في ١٨ صفر ١٣٥٩هـ، ص٤، (٣٦٠).

١٣٠ ــ بين الجمال والنقد، حمزة شحاته، صوت الحجاز، عدد ٤٥٥، في ٨ صفر ١٣٥٩هـ، ص١، (٥١٤).

١٣١ ــ بيني وبين الأستاذ حمزة شحاته، عبدالله عريف، صوت الحجاز، عدد ٤٥٩، في ٢٢ صفر ١٣٥٩هـ، ص١، (٥١٠).

١٣٢ ــ بحيرة لامرتين.. قصيدة ورواية، أبو عبدالرحمن بن عقيل، المدينة، في ١٢ /١٠ /١٣٩٠هـ، (٥٤٨).

١٣٣ ــ البناء لا الهدم، عبدالكريم الجهيمان، أخبار الظهران، عدد ١٣، في ١٥ /١٢ /١٣٧٤هـ، (٥٩١).

١٣٤ ــ بلادنا والزيت، عبدالله بن خميس، مجلة الجزيرة، عدد ٦، في ربيع الثاني ١٣٨٠هـ، (٥٩٧).

١٣٥ ــ بين عام وعام ــ دمعة وابتسامة، عربي، أم القرى، عدد ٥٩٠، في ٤ محرم ١٣٥٥هـ، ص١، (٦١٢).

١٣٦ ــ بين الرقي والتفرنج، مجهولَ، أم القرى، عدد ٢٣٨، في عام ١٣٤٨هـ، ص١، (٦١٦).

١٣٧ ــ بحث في الزواج، محمد سعيد عبدالمقصود، صوت الحجاز، عدد ٢٢، في ٤ /٥ /١٣٥١هـ، (٦١٩).

١٣٨ ــ بعض أسباب تأخر الحجاز ــ علاج ذلك، محمد حسن فقي، صوت الحجاز، عدد ٧، في ١٧ /١ /١٣٥١هـ، ص٥، (٦٣٠).

١٣٩ ــ البطالة مشكلة اجتماعية، محمود عارف، الرائد، عدد ٢٢، في ١٥ محرم ١٣٨٠هـ، ص٢٦، (٦٥٢).

١٤٠ ــ الباديـة !!، بدون توقيع، اليمامة، عدد ٥، في ربيع الثاني ١٣٧٣هـ، ص١، (٦٥٢).

١٤١ ــ البادية عرض وأمل، حمد الجاسر، اليمامة، عدد ١٢، في ذي القعدة ١٣٧٣هـ، (٦٥٣).

١٤٢ ــ البادية والقرية، زيد بن فياض، اليمامة، عدد ٤٠٠، في ٢٧ /٢ /١٣٨٣هـ، (٦٥٣).

١٤٣ ــ بين مدافع المقاومة وطائرات الانقضاض، باحث، المنهل، عدد ٥، ربيع الثاني ١٣٦٠هـ، ص٥، (٦٧٨).

١٤٤ ــ بعض عاداتنا، عبدالكريم الجهيمان، اليمامة، عدد ١٣٥، في ٩ /٢ /١٣٧٨هـ، (٦٩٨).

١٤٥ ــ بعدك، عبدالله جفري، نبض، عدد ١٦٢، (٧٠٦).

١٤٦ ــ التربية ونصيبنا منها، أحمد بن محمد العربي، صوت الحجاز، عدد ٢، في ٤ /١٢/ ١٣٥١هـ، ص٧، (١٣٨).

١٤٧ ــ التبشير والمبشرون، محمد سعيد العامودي، صوت الحجاز، عدد ٦٤، ١١ /٣/ ١٣٥٢هـ، (٢١١).

١٤٨ ــ التاريخ والمؤرخون، حسين بن سرحان، صوت الحجاز، عدد ١٦٨، في ٦ جمادى الأولى ١٣٥٤هـ، ص٤، (٢٢٠).

١٤٩ ــ تعقيبات حول مقال (نقد كتاب آثار المدينة المنورة)، معقب، صوت الحجاز، ١٦١، في ١٦ ربيع الأول ١٣٥٤هـ، (٥٥١).

١٥٠ ــ تأملات ومناجات، محمد علي قطب، نفثات من أقلام الشباب الحجازي، ص١١٣، (٣٦٦).

١٥١ ــ تصفيــة، عزيز ضياء، مجلة الإذاعة السعودية، عدد ٣٦، ربيع أول عام ١٣٧٨هـ، (٤٣٨).

١٥٢ ــ تأملة جوفاء ونقد متهافت، عبدالقدوس الأنصاري، صوت الحجاز، عدد ٨٦، في ١٧ شعبان ١٣٥٢هـ، ص٤، (٥٠١).

١٥٣ ــ تكاليف الضريبة، عبدالله عريف، صوت الحجاز، عدد ٤٥٣، في ١ صفر ١٣٥٩هـ، ص١، (٥١٤).

١٥٤ ــ التجريد وما وراءه ..، محمد عمر توفيق، صوت الحجاز، عدد ٤٥١، في ٢٤ محرم ١٣٥٩هـ، ص٤، (٥١٧).

١٥٥ ــ تهويش وجحود، محمد حسن عواد، صوت الحجاز، عدد ٢٣٩، في ٢٣ شوال ١٣٥٥هـ، ص٤، (٥٢٩).

١٥٦ ــ تيه الأدباء، حسين سرحان، صوت الحجاز، عدد ٣٢٣، في ١٩ رجب ١٣٥٧هـ، ص٤، (٥٣٢).

١٥٧ ـ التوجه والاستقلالية في أدب الرواد، محمد العوين، العرب، ٩، ١٠، س١١، ١٤٠٤هـ، ص٩٢٦، (٥٨٧).

١٥٨ ـ تعقيبات حول مقال «نقد كتاب آثار المدينة المنورة»، معقب، صوت الحجاز، عدد ١٦٤، في ٨ ربيع الثاني ١٣٥٤هـ، (٢٢١).

١٥٩ ـ ترانيم واله / ديوان شعر لعثمان بن سيار، عبدالله بن إدريس، الجزيرة، عدد ٢٠٩٧، في ١٢ ربيع الثاني ١٣٩٨هـ، (٥٥٤).

١٦٠ ـ تاريخ الأدب الحجازي، محمد سعيد عبدالمقصود، أم القرى، الأعداد : ٦٠٨، ٦١١، ٦١٤، ٦١٥، ٦١٦، ٦١٧، ٦١٨، ٦٢٠، من عام ١٣٥٥هـ، (٥٧٥).

١٦١ ـ تعليم المرأة الحجازية، محمد سعيد عبدالمقصود، كتاب «محمد سعيد عبدالمقصود خوجة» ص١٣٥، (٥٧٥).

١٦٢ ـ تربية الأطفال، محمد سعيد عبدالمقصود، أم القرى، عدد ٣٩٤، في ٢٦ صفر ١٣٥١هـ، (٥٧٥).

١٦٣ ـ التطور الاجتماعي في بلادنا، عبدالله عريف، المنهل، ذو القعدة وذو الحجة ١٣٦٨هـ، ص٤٨٣، (٦٠٤).

١٦٤ ـ تطور، عبدالقدوس الأنصاري، المنهل، ذو القعدة ١٣٧٦هـ، (٦٠٥).

١٦٥ ـ التدخين ذلك القاتل المهذب، حسن بن عبدالله آلشيخ، دورنا في الكفاح، ص١٣٤، (٦٢٠).

١٦٦ ـ التواليت، الغربال، أم القرى، عدد ٣٨٨، في ١٤ /١ /١٣٥١هـ، (٦٢١).

١٦٧ ـ توحيد الزي مظهر من مظاهر الانسجام الخلقي في هذا الوطن العربي متى تبرز هذه إلى حيز الوجود ؟، محمد سعيد عبدالمقصود، صوت الحجاز، عدد ٣٩٩، في ١ رجب ١٣٥٨هـ، ص١، (٦٢٣).

١٦٨ التاريخ .. التاريخ، إبراهيم هاشم فلالي، صوت الحجاز، عدد ٥٨٦، في ٥ جمادى الثانية، ١٣٦٠هـ، ص١، (٦٣٣).

١٦٩ ـ تعليم الفتاة، إبراهيم هاشم فلالي، صوت الحجاز، عدد ١١٩، ٥٩٧، في ٢٥ ربيع الثاني، ١٣٥٣هـ، ص٣، (٦٤٢).

١٧٠ ـ تعليم المرأة لا يكون مدعاة لفسادها، أحمد السباعي، صوت الحجاز، عدد ١٢٦، في ١٥ جمادى الثانية ١٣٥٣هـ، ص١ (٦٤٥).

١٧١ ـ تعليم البنات، (ح)، صوت الحجاز، عدد ١٥٤، في ٢٦ محرم ١٣٥٤هـ، (٦٦٧).

(ح)

١٨٧ ــ الحجاز في العهدين، عبدالمحسن الصحاف المكي، القبلة، عدد ٣، ص١، الاثنين ٢٢ /١٠ /١٣٣٤هـ، (٩٥).
١٨٨ ــ الحضارة أم البداوة، المحرر، القبلة، عدد ٣٣٢ في ٢٣ /٢ /١٣٣٨هـ، (٩٦).
١٨٩ ــ الحجاز وسوريا، بدون توقيع، الفلاح، عدد ١، في ٢٤ /١٢ /١٣٣٨هـ الموافق ٨ /٩ /١٩٢٠م، السنة الخامسة، (٩٨).
١٩٠ ــ حبل أكاذيبهم، بدون توقيع، أم القرى، عدد ٣١ في ٩ /١ /١٣٤٤هـ، ص١، (١٠٤).
١٩١ ــ حول الإصلاح، محمد سعيد العامودي، أدب الحجاز، ص٩٨، (٦١٠).
١٩٢ ــ الحجاز بعد ٥٠٠ سنة، محمد حسن عواد، خواطر مصرحة، ص٩٠، (١٢٦).
١٩٣ ــ حاجتنا، عزيز ضياء، وحي الصحراء، ص٣٠٠، (١٣٣).
١٩٤ ــ الحالة الأدبية عندنا، محمد حسن فقي، وحي الصحراء، ط٢، ص٤٤٢، (١٤٥).
١٩٥ ــ حفار القبور، جبران خليل جبران، العواصف، ص٣٦٧، (١٥٦).
١٩٦ ــ حتى يهتز الواقفون، عبدالله القرعاوي، اليمامة، عدد ١٢٩ في ٢٩ شعبان ١٣٩٠هـ، ص٣٠، (١٨٩).
١٩٧ ــ حول صمت شهرزاد، د. منصور الحازمي، في البحث عن الواقع، ص٩٧، (١٩٣).
١٩٨ ــ حول مقال ــ الدكاترة ومسئولية الكتابة، منصور الحازمي، اليمامة، عدد ٦٠، ٣٠ /٣ /١٣٨٧هـ، ص١٩، (١٩٦).
١٩٩ ــ حضارة الإسلام، أحمد السباعي، أوراق مطوية، ص٢٠١، (٢٠٧).
٢٠٠ ــ حول مقال بين المتناظرين، عبدالله خياط، صوت الحجاز، عدد ٣١، في ٨ /٧ /١٣١٥هـ، (٢٠٩).
٢٠١ ــ الحجاز إلام يدعو، أمين بن عقيل، وحي الصحراء، ص١٤٨، (٢١٤).
٢٠٢ ــ حادثة دير ياسين يجب ألّا تتكرر، عبدالعزيز الرفاعي، البلاد السعودية، عدد ٧١٢، ص١ في ١٦ /٦ /١٣٦٧هـ، (٢١٥).
٢٠٣ ــ حاجتنا إلى النقد النزيه، ناقد، صوت الحجاز، عدد ١٥٤، في ٢٦ محرم ١٣٥٤هـ، ص٤، (٢٢١).

٢٠٤ ــ حمار، حمزة شحاته، صوت الحجاز، الأعداد المؤرخة بـ ٢ /٧ /١٣٥٥هـ، و ٢٧ /٧ /١٣٥٥هـ، و ٤ /٨ /١٣٥٥هـ، وهي ٢٢٧ و ٢٢٨ و٢٢٩، (٢٥٤).

٢٠٥ ــ حلم غريب، حسين سرحان، الأضواء، العدد ٥٥ في ١١ /١٢ /١٣٧٧هـ الموافق ٩ /يوليو /١٩٥٨م، (٢٥٥).

٢٠٦ ــ الحلاق ميشال، حسين سرحان، البلاد، عدد ١٣٨٨، السنة الخامسة الأحد ٦ /٤ /١٣٨٣هـ، ص٥، (٢٥٩).

٢٠٧ ــ حكاية عند الفجر، عبدالله جفري، نبض، ص١٣٣، (٢٩٢).

٢٠٨ ــ حول استفتاء الجزيرة، حسين سرحان، مجلة الجزيرة، عدد ٨، جمادى أول ١٣٨٠هـ، نوفمبر ١٩٦٠م، ص٥، (٢٩٢).

٢٠٩ ــ حامل الحذاء، محمد علي مغربي، حبات من عنقود، مؤسسة قنديل التجارية، جدة، ط١، ذو الحجة ١٣٨٧هـ، ص١٠٧، (٣٨١).

٢١٠ ــ الحياة الأدبية مالها وماعليها، طاهر زمخشري، المنهل، ذو القعدة وذو الحجة ١٣٦٨هـ، ص٥١٢، (٤٥٣).

٢١١ ــ حول كيف يجب أن نكتب ــ رد وتفنيذ، محمد علي مغربي، صوت الحجاز، عدد ٤، في ١٨ /١٢ /١٣٥٠هـ، ص٤، (٤٥٩).

٢١٢ ــ حول كيف يجب أن نكتب، طفيلي، صوت الحجاز، عدد ٥، في ٢٥ /١٢ /١٣٥٠هـ، (٤٥٩).

٢١٣ ــ الحياة الأدبية بين الهدم والبناء، فؤاد شاكر، صوت الحجاز، عدد ٤٨٠، في ٦ جمادى الأولى ١٣٥٩هـ، صـ١، (٤٦٧).

٢١٤ ــ الحياة الأدبية في جزيرة العرب، طه حسين، ألوان، ص٣٣، (٧٠٨).

٢١٥ ــ حول كتاب الأدب الفني، أحمد عطار المعهدي، صوت الحجاز، عدد ١٤٣، في ٢٣ شوال ١٣٥٣هـ، ص٤، (٥٢١).

٢١٦ ــ حول مشاهدات في المدينة ــ الملاحظات الثلاث، عبدالقدوس الأنصاري، صوت الحجاز، عدد ٢٣٦، في ٢٤ رمضان ١٣٥٥هـ، ص٦، (٥٣٣).

٢١٧ ــ حاطب ليل ــ مناوشات ومناقشات، حسين سرحان، صوت الحجاز، عدد ٢٣٧، في ٨ شوال ١٣٥٥هـ، ص٤، (٥٣٤).

٢١٨ ــ حول المناقشات ــ رد واستدارك، عبدالكريم بن جهيمان، صوت الحجاز، عدد ٢٣٩، في ٢٢ شوال ١٣٥٥هـ، ص٤، (٥٣٥).

٢١٩ ـ حول مقال: نقد كتاب «آثار المدينة المنورة»، معقب، صوت الحجاز، عدد ١٦١، في ١٦ ربيع الأول ١٣٥٤هـ، (٥٥٠).

٢٢٠ ـ حاجتنا إلى النقد النزيه، ناقد، صوت الحجاز، عدد ١٥٤، في ٢٦/١/١٣٥٤هـ، ص٤، (٥٥١).

٢٢١ حديث عن الأدب، فائقة محمد الحمود، اليمامة، عدد ١٦٥، في ٦ جمادى الأولى ١٣٨٧هـ، (٥٥٢).

٢٢٢ ـ حول مشروع القرش ـ الحديث ذو شجون، محمد سعيد عبدالمقصود، صوت الحجاز، عدد ٦٣، في ٤/٣/١٣٥٢هـ، (٥٧٥).

٢٢٣ ـ حرفة السباكة ـ وشبابنا، أحمد السباعي، سباعيات، جـ١، ص١٢٠، (٥٨٦).

٢٢٤ ـ حلوا هذه المشكلة الاجتماعية، عبدالكريم جهيمان، أخبار الظهران، عدد ١٨، في ١/٣/١٣٧٥هـ، (٥٩٣).

٢٢٥ ـ الحركة الأدبية خلال نصف قرن ١٣٥٠هـ ـ ١٤٠٠هـ، عبدالله الحامد، مجلة الفيصل، عدد ٨٨، شوال ١٤٠٤هـ، ص٦٨، (٦٠٠).

٢٢٦ ـ حول الإصلاح، محمد سعيد العامودي، أدب الحجاز، ص٩٤، (١١٨).

٢٢٧ ـ حول الاحتفال بذكرى الرسول، يحيى عثمان المالكي، الندوة، عدد ١١١٢، في ٧/٤/١٣٨٢هـ، ص٥، (٦٢٠).

٢٢٨ ـ حول العمامة والتواليت، محمد نور المعهدي، صوت الحجاز، عدد ٢٠، في ١٩/٤/١٣٥١هـ، ص٧، (٦٢٣).

٢٢٩ ـ حول مقال أديبنا المجهر، «الغربال»، أم القرى، ٤٠١، في ١٦/٤/١٣٥١هـ، (٦٢٢).

٢٣٠ ـ حول محاضرة كيف نحتفظ بعروبتنا، أحمد عبدالغفور عطار، صوت الحجاز، عدد ٤٨٩، في ٨ جمادى الثانية ١٣٥٩هـ، ص١، (٦٢٤).

٢٣١ ـ حياة العمل المثمر ـ عود على بدء، بدون توقيع، صوت الحجاز، عدد ٤٤، في ١١ شوال ١٣٥١هـ، ص١، (٦٢٩).

٢٣٢ ـ حذار أن تكون ضعيفًا، أحمد السباعي، صوت الحجاز، عدد ١٥٨، في ٢٥ صفر ١٣٥٤هـ، ص١، (٦٣٢).

٢٣٣ ـ الحياة تاريخًا، عزيز ضياء، صوت الحجاز، عدد ٥٨٣، في ٢٤ جمادى الأولى ١٣٦٠هـ، ص١، (٦٣٣).

(د)

٢٤٩ ـ الدنشكة الأدبية، محمد حسن عواد، اليوم، عدد ٣٩١، السنة ٢٣، ربيع الثاني ١٣٩٠هـ، (١٤٨).

٢٥٠ ـ دعوة إلى التجديد الأدبي، أحمد محمد جمال، المنهل، محرم ١٣٦٩هـ، (١٧٤).

٢٥١ ـ الدكاترة ومسئولية الكتابة !، علي العمير، اليمامة، عدد ١٥٧، في ٩ /١٣٨٧/٣هـ، ص١٨، (١٩٦).

٢٥٢ ـ الدكاترة وأنا والله أعلم !، علي العمير، اليمامة، عدد ١٦١ في ٧ /٤ /١٣٨٧هـ، ص١٥، (١٩٦).

٢٥٣ ـ دراسات في الأدب المحلي، حركة النقد الأدبي، عبدالله علي الحامد، اليمامة، عدد ٨٤، صفر ١٣٩٨هـ، ص٣٧، (٤١٨).

٢٥٤ ـ دراسات في الأدب القديم، محمد حسن كتبي، أم القرى، عدد ٦٠٩، في ١٩ /٥ /١٣٥٥هـ، ص٧، (٤٤٩).

٢٥٥ ـ دراسات أدبية ـ العروبة في شعر الجواهري، عثمان بن سيار، جريدة الخليج العربي، عدد ٢، في ٢٥ صفر ١٣٧٨هـ، ص٥، (٥٥٤).

٢٥٦ ـ الدكتور طه حسين أحق بعمادة الأدب، علوي المحضار، البلاد السعودية، عدد ١٥٤٥، في ١٨ رمضان ١٣٧٣هـ، ص٤، (٥٥٤).

٢٥٧ ـ دعوة إلى إعادة الحضارة من مهبط الوحي، محمد حسن كتبي، المنهل، صفر ١٣٦٦هـ، (٦٠٥).

٢٥٨ ـ الدخان أو التبغ شيء خبيث فاجتنبوه، بدون توقيع، أم القرى، عدد ١٦، في ٢ رمضان ١٣٤٣هـ، ص١، (٦٢٠).

٢٥٩ ـ دموع الحب، محمد حسين زيدان، خواطر مجنحة، ص٤٥، (٦٩٧).

(ذ)

٢٦٠ ـ ذكرى عام ١٣٥٠هـ السيئة، «أنا»، صوت الحجاز، عدد ١٢، في ٢٢ /٢ /١٣٥١هـ، ص٧، (٢٠٨).

٢٦١ ـ ذكرى اليوم المطير والسيل الخطير، عبدالقدوس الأنصاري، المنهل، ربيع ثاني ١٣٦٠هـ، (٣٦٩).

٢٦٢ ــ ذيل الطاووس، حسين سرحان، البلاد السعودية، عدد ٦٨١، في ١١ /١ /١٣٦٧هـ، ص٦ (٤١٠).

٢٦٣ ــ ذلك المساء.. الساعة، عبدالله جفري، نبض، ص١٦٨، (٧٠٧).

(ر)

٢٦٤ ــ رسالة من مدرس في الحرم المكي، أحد مدرسي الحرم المكي، شمس الحقيقة، عدد ٧ في ٧ /٣ /١٣٢٧هـ، الموافق ٢٩ /٣ /١٩٠٩م، (٨٧).

٢٦٥ ــ رسالة الأدب ليست بالشيء المتبذل في الأسواق، عبدالعزيز البشري، صوت الحجاز، عدد ١٥٣، في ١٩ /١ /١٣٥٤هـ، (١٦٨).

٢٦٦ ــ الركود الأدبي، عبدالعزيز عبدالله التويجري، اليمامة، عدد ٧٠، الجمعة ٩ جمادى الثانية ١٣٨٩هـ، ص٨، (١٨٨).

٢٦٧ ــ رمضـــان، محمد حسن فقي، وحي الصحراء، ص١٤٥، (٢٠٧).

٢٦٨ ــ الرحلة السلطانية، يوسف ياسين، جـ١٢، ١٣، أم القرى، عدد ١٥، الجمعة شعبان ١٣٤٣هـ، وعدد ١٦ الجمعة ٢ رمضان ١٣٤٣هـ، (٣٨٤).

٢٦٨ ــ رد على رد، أحمد عبدالغفور عطار، صوت الحجاز، عدد ٢١٣، في ١٠ /٤ /١٣٥٥هـ، ص٤، (٤٢٦).

٢٦٩ ــ الرواية في الأدب السعودي الحديث، منصور الحازمي، بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين، جامعة الملك عبدالعزيز، مجلد ٢، ص٨٥٩، (٤٩٠).

٢٧٠ ــ الرد على زوبعة مضحكة، صاحب التأملات، صوت الحجاز، عدد ٨٥، في ١٠ /٨ /١٣٥٢هـ، (٤٩٦).

٢٧١ ــ رسائل إلى الأدباء حسين سرحان، مسمار، اليمامة، عدد ٨٨، في ٢٤ /١٠ /١٣٨٩هـ، ص٧، (٥٤٥).

٢٧٢ ــ رسائل إلى الأدباء عبدالوهاب آشي، مسمار، اليمامة، عدد ٩٤، في ٧ ذي الحجة ١٣٨٩هـ، ص٩، (٥٤٥).

٢٧٣ ــ رسائل إلى الأدباء ضياء الدين رجب، مسمار، اليمامة، عدد ٩١، في ذي القعدة ١٣٨٩هـ، ص٧، (٥٤٦).

٢٧٤ ــ رسائل إلى الأدباء عبدالله بن خميس، مسمار، اليمامة عدد ١٠٠، في ٣ /٢ /١٣٩٠هـ، ص٣٠، (٥٤٦).

(ز)

(س)

٢٨٨ ـــ السلام بين المسيحية والإسلام، أحمد عبدالغفور عطار، المقالات، ص٢٦، شركة استاندرد للطباعة، ١٣٦٦هـ، (٢٠٧).

٢٨٩ ـــ السياسة الجديدة في الشرق الأوسط، عبدالكريم الجهيمان، أخبار الظهران، عدد ٢٨، في ٢٧ /٦ /١٣٧٥هـ، (٢٠٧).

٢٩٠ ـــ سر انتصار الجزائر، عبدالله بن خميس، فواتح الجزيرة، ص٨٠، (٢١٥).

٢٩١ ـــ ساعة صمت، حسين سرحان، البلاد السعودية، عدد ٧٨٣، س١٣، الأربعاء ٦ ربيع الأول ١٣٦٨هـ، (٢٧٢).

٢٩٢ ـــ سحابة صيف، حسين سرحان، (٢٧٢).

٢٩٣ ـــ سفني مسروقة، عبدالله جفري، نبض، ص١٨١، (٣٤٢).

٢٩٤ ـــ سيرة شعرية للدكتور غازي القصيبي، محمد بن سعد بن حسين، الرياض، عدد ٤٦٥٥، في ٤ /١٢ /١٤٠٠هـ، ص١٣، (٥٥٤).

٢٩٥ ـــ سارق الزهر، وسارق الحقل، أحمد السباعي، سباعيات، جـ١، ص٦٥، (٥٨٦).

٢٩٦ ـــ ساعة مع حجازي كبير، محمد حسن فقي، صوت الحجاز، عدد ٤، في ٢٦ /١٢ /١٣٥٠هـ، ص٦، (٦٣٠).

٢٩٧ ـــ سموها كما شئتم فهي موسوعة، عبدالسلام الساسي، عكاظ، عدد ٩٦٨،ز في ١١ /١٠ /١٣٨٨هـ، ص٥، (٥٥١).

٢٩٨ ـــ ساعات من الليل، محمد حسن كتبي، وحي الصحراء، ص٤٥٤، (٦٧٠).

٢٩٩ ـــ سأل سائل، حسين سرحان، البلاد السعودية، عدد ٦٥٠، في ٢٣ جمادى الأولى ١٣٦٦هـ، ص٤، (٦٩٠).

(ش)

٣٠٠ ـــ شعورنا نحو الصحافة في أوائل هذا القرن، محمود شويل، المنهل، صفر ١٣٦٧هـ، (٨٠).

٣٠١ ـــ شوقي وحافظ، بدون توقيع، حجاز، عدد ١٨ في ١٩ /٢ /١٣٣٧هـ، (٨٢).

٣٠٢ ـــ شكر جميل يساق لأهل الحمية بمكة المكرمة، عبدالمحسن المكي، حجاز، عدد ٣، ص٤، شوال ١٣٢٦هـ، (٨٤).

٣٠٣ ـــ شكر لله تعالى على استمرار الصدور المحرر، القبلة ٢٩٨ في ١٦ /١٠ /١٣٣٧هـ، (٩٦).

٣٠٤ ـــ شوقي بك، محمد حسن فقي، صوت الحجاز، عدد ٣٠، في ١ /٧ /١٣٥١هـ، ص٣، (١٧٠).

٣٠٥ ـ شباب الأدب وكشف الحساب، علوي طه الصافي، اليمامة، عدد ١٦، في ١٦ ربيع ثاني ١٣٨٨هـ، ص١٠، (١٩٢).

٣٠٦ ـ الشرق والغرب هل اقترب تلاقيهما في مجال النهوض أم لا يزال البون شاسعًا، محمد حسن فقي، المنهل، عدد ١ و ٢ عام ١٣٦٩هـ، (٢١٤).

٣٠٧ ـ الشاعر محمود غنيم (حياته وشعره، وتميزه ببعض السمات الخاصة به)، محمد سعيد العامودي، مجلة الحج، عدد ربيع الأول ١٣٦٨هـ، (٢٥٦).

٣٠٨ ـ الشاعر، جبران خليل جبران، العواصف، المجموعة الكاملة العربية، ص٤٨٦، (٣٢١).

٣٠٩ ـ الشيخ عبدالله العجيري، عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ، الدارة، عدد ٢، س٣، عام ١٣٩٨هـ، ص١٠، (٣٨٤).

٣١٠ ـ شبابنا والموضة، أحمد السباعي، سباعيات، جـ١، ص١٢٩، (٥٨٦).

٣١١ ـ شئون وشجون، متألم، صوت الحجاز، عدد ٣، في ١٩/١٢/١٣٥٠هـ، (٦٣٠).

٣١٢ ـ شباب حائر، حمد الجاسر، اليمامة، عدد ٢، صفر ١٣٧٤هـ، (٦٥٤).

٣١٣ ـ شموع العمر، عبدالله جفري، نبض، ص١٩٧، (٧٠٦).

(ص)

٣١٤ ـ صديقي بين عهدين، عبدالحميد مشخص، نفثات من أقلام الشباب الحجازي، ص٥٢، (١٣٠).

٣١٥ ـ صوت الحجاز بين عهدين، حسين سرحان، صوت الحجاز، عدد ١٥٥، الثلاثاء ٤/٢/١٣٥٤هـ، ص٤، (١٤٥).

٣١٦ ـ صمت شهرزاد، د. أحمد الضبيب، جريدة الرياض، عدد ٣٧٦٨، في ١٤/١١/١٣٩٧هـ، (١٩٣).

٣١٧ ـ صلوات قلب، أبو عبدالرحمن بن عقيل، هكذا علمني ورد زورث، ص٣٤٠، (٢١١).

٣١٨ ـ الصياد والسمكة، حسين سرحان، البلاد السعودية، عدد ٦٩٣، في ٦/١٣٦٧هـ، ص١٣، (٤١٠).

٣١٩ ـ صراع، حمزة شحاته، صوت الحجاز، عدد ٢٣٦ في ٢٣ رمضان ١٣٥٠هـ، ١٠ نوفمبر ١٩٣٦م، (٣١٣).

٣٢٠ ــ صلة الأدب بالحياة، حسين سرحان، صوت الحجاز، عدد ١٨١، في ٨/٨/١٣٥٤هـ، ص١، (٤٤٤).

٣٢١ ــ صور قاتمة من تجاهل الشيوخ، علوي طه الصافي، اليمامة، عدد ١٦٧، في ٢٨ جمادى الثانية ١٣٩١هـ، ص١٠، (٤٨٣).

٣٢٢ ــ صرخة وأين صداها ؟، عبدالله أحمد سراج، صوت الحجاز، عدد ٥٨٥ في ١ جمادى الثانية ١٣٦٠هـ، (٦٥١).

٣٢٣ ــ الصحافة لسان الأمة، زيد بن فياض، اليمامة، عدد ٣٤٦، في ١٥/٥/١٣٨٢هـ، (٦٥٣).

٣٢٤ ــ الصحافة مسئولية، زيد بن فياض، اليمامة، عدد ٤٠٧، في ٢٢/٣/١٣٨٣هـ، (٦٥٣).

٣٢٥ ــ الصحافة السعودية ومجلة روز اليوسف، زيد بن فياض، مجلة راية الإسلام، عدد ٩، شعبان ١٣٨٠هـ، (٦٥٣).

٣٢٦ ــ صحافة وكتابة، محمد حسن زيدان، كلمة ونصف، ص٢٠٠، (٦٩٥).

(ط)

٣٢٧ الطموح والاعتدال، حسين خازندار، وحي الصحراء، ص١٨٤، (١٣٤).

٣٢٨ ــ الطائف في ذكرياتي، حسين سرحان، المنهل، جـ٨، س٩، رجب وشعبان ١٣٦٠هـ، ص٤٢، ٤٤، (٣٧٣).

٣٢٩ ــ ضريبة الإعجاب، عبدالله عريف، صوت الحجاز، عدد ٤٤٧، في ١٠ محرم ١٣٥٩هـ، ص١، (٥٠٨).

(ظ)

٣٣٠ ــ الظل المكسور، عبدالله جفري، نبض، ص١٤٠، (٢٩٣).

(ع)

٣٣١ ــ العثماني يولد جنديًا، بدون توقيع، حجاز، عدد ١٣، ١٧ محرم ١٣٢٧هـ، الموافق ٢٧ كانون الثاني ١٩٠٩م، (٨٥).

٣٣٢ ــ عونك اللهم (الافتتاحية)، بدون توقيع، أم القرى، عدد ١ في ١٥/٥/١٣٤٣هـ، (١٠٤).

٣٣٣ ــ عبدالقدوس الأنصاري، أحمد محمد عبدالدايم، المنهل، س٥٤، م٤٩، عدد ٤٦٠، جمادى الثانية ١٤٠٨هـ، (١١٠).

٣٣٤ ــ علي ملعب الحوادث، عبدالوهاب آشي، أدب الحجاز، ص٩٩، (١٥٧).

٣٣٥ ــ علم هوى، عبدالقدوس الأنصاري، المنهل، جـ٥، س١٢، جمادى الأولى ١٣٧٦هـ، ص٢٧٥، (١٧٠).

٣٣٦ ــ عصبة الشعوب الشرقية المهضومة ومصير الأراضي المقدسة، بدون توقيع، بريد الحجاز، عدد ١٦، ٢٣ جمادى الثانية ١٣٤٣هـ، ١٨ يناير ١٩٢٥م، (٢١٣).

٣٣٧ ــ العرب .. وقضية فلسطين، عبدالله بن محمد بن خميس، من جهاد قلم، جـ٢، ص٢٩، مطابع الفرزدق، ط١، ١٤٠٤هـ، (٢١٤).

٣٣٨ ــ عبدالناصر وسياسة ذر الرماد، عبدالله بن خميس، مجلة الجزيرة الشهرية، عدد ٢، السنة الثالة في ذي الحجة ١٣٨١هـ، (٢١٥).

٣٣٩ ــ عاميتنا تنتمي إلى الفصحى، أحمد عبدالغفور عطار، مجلة الجزيرة، العدد ٢، ذو الحجة ١٣٧٩هـ، (٢٢٠).

٣٤٠ ــ عندما ينهزم الحب مرة، أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، هكذا علمني ورد زورث، ص٢٩٣، (٣٤٨).

٣٤١ ــ على ضفاف ماء، عبدالله فدا، أدب الحجاز، ص١٣٥، (٣٦٥).

٣٤٢ ــ على الشاطىء، عبدالعزيز الرفاعي، البلاد السعودية، عدد ١٦٤٦، في ١٩ /١/ ١٣٧٤هـ، ص٤، (٣٧٢).

٣٤٣ ــ عقل عصفور، محمد حسن كتبي، صوت الحجاز، عدد ٢٠٨، في ٥ ربيع أول ١٣٧٥هـ، ص٤، (٣٧٤).

٣٤٤ ــ على أكتاف جبل السودة، أحمد السباعي، سباعيات، جـ٢، ص١٠٧، تهامة، ط١، ١٤٠٣هـ، (٣٧٩).

٣٤٥ ــ العلم لا الأدب، أحمد عبدالغفور عطار، كلام في الأدب، ص٤٦، (٤٢٥).

٣٤٦ ــ عصور الألم عصور فن وإبداع، عباس أحمد الزواوي، صوت الحجاز، عدد ٢٨٠، في ٥ ربيع أول ١٣٥٥هـ، ص٤، (٤٢٦).

٣٤٧ ــ العلم، عزيز ضياء، صوت الحجاز، عدد ١٥٩، في ٢ /٣/ ١٣٥٤هـ، ص٤، (٤٣٤).

٣٤٨ ــ عامنا الجديد، عبدالقدوس الأنصاري، المنهل، محرم ١٣٦٩هـ، (٤٦٦).

٣٤٩ ــ عود على قصة مرهم التناسي، ممد حسن عواد، صوت الحجاز، عدد ٨٧، في ٢٤ /٨/ ١٣٥٢هـ، (٥٠٣).

٣٥٠ ـ على هامش أوراق العيد (مزاح ١)، صوت الحجاز، عدد ١٩٠، في ١٩ /١٠ /١٣٥٤هـ، ص٤، (٥٢٣).

٣٥١ ـ على هامش أوراق العيد (مزاح ٢)، عزيز ضياء صوت الحجاز، عدد ١٩٠، في ١٩ /١٠ /١٣٥٤هـ، ص٤، (٥٢٥).

٣٥٢ ـ على هامش «آثار المدينة المنورة» تفنيد مزاعم معقب، ناقد، صوت الحجاز، عدد ١٦٢، في ١ /٤ /١٣٥٤هـ، ص٤، (٥٥١).

٣٥٣ ـ على هامش «آثار المدينة المنورة» تفنيد مزاعم معقب، ناقد، صوت الحجاز، عدد ١٦٥، في ١٥ ربيع الثاني ١٣٥٤هـ، ص٤، (٥٥١).

٣٥٤ ـ على هامش ملاحظات حرة إلى الصديق السباعي، محمد سعيد عبدالمقصود، صوت الحجاز، عدد ٢١٣، في ١ ربيع الثاني ١٣٥٥هـ، (٥٧٧).

٣٥٥ ـ علام نخشى (النقد)، عبدالوهاب آشي، صوت الحجاز، عدد ١٨٤، في ٣٠ شعبان ١٣٥٤هـ، (٦٠٢).

٣٥٦ ـ على ملعب الحوادث، عبدالوهاب آشي، أدب الحجاز، ص٩٩، (٦١٠).

٣٥٧ ـ العادة منشؤها ومبلغ تأثيرها، بدون توقيع، صوت الحجاز، عدد ١٢٣، في ٢٣ جمادى الثانية ١٣٥٣هـ، ص١، (٦١٥).

٣٥٨ ـ العادات، محمد عبدالرحمن الصحاف، أم القرى، عدد ٣٩٨، في ٢٥ /٣ /١٣٥١هـ، ص٤، (٦١٥).

٣٥٩ ـ عادات وتقاليد يجب أن تزول، بدون توقيع، أم القرى، عدد ٦٥٠، في ١١ ربيع أول ١٣٥٦هـ، ص١، (٦١٨).

٣٦٠ ـ العمامة، م.ح. الفلاحي، صوت الحجاز، عدد ١٥، في ١٤ /٣ /١٣٥١هـ، ص٤، (٦٢٢).

٣٦١ ـ العمامة والتواليت، المجهر، صوت الحجاز، عدد ١٩، في ١٢ /٤ /١٣٥١هـ، ص٧، (٦٢٢).

٣٦٢ ـ العمامة كشف شبهات، الغربال، أم القرى، عدد ٤٠٣، في ١ /٥ /١٣٥١هـ، (٦٢٣).

٣٦٣ ـ العمل وواجب الأمة، الغربال، أم القرى، عدد ٣٩٣، في ١٩ صفر ١٣٥١هـ، ص٤، (٦٣١).

٣٦٤ ـ على هامش مشروع القرش كلمة إلى الشباب، طاهر زمخشري، أم القرى، عدد ٦١٠، في ١٣٥٥هـ، ص٨، (٦٣٧).

٣٦٥ ــ عصر القوة والعلم، ابن رشيق، صوت الحجاز، عدد ١٩، في ١٢ /٤ /١٣٥١هـ، ص٧، (٦٤٠).

٣٦٦ ــ عدوي اللدود، أحمد السباعي، أوراق مطوية، ص٢٢٧، (٣٧٩).

٣٦٧ ــ عذرية الحب، محمد حسين زيدان، خواطر مجنحة، ص٨٣، (٦٨٨).

٣٦٨ ــ العايقة أم حجل، محمد حسن زيدان، خواطر مجنحة، ص٧٧، (٦٩٦).

(غ)

٣٦٩ ــ غاية الأدب عندنا، عزيز ضياء، صوت الحجاز، عدد ٢٤١، في ٦ /١١ /١٣٥٥هـ، وعدد ٢٤٢ في ١٣ /١١ /١٣٥٥هـ، ص٤، (١٤٢).

٣٧٠ ــ غارة استطلاع جنودنا الأشاوس على الأعداء، بدون توقيع، بريد الحجاز، عدد ٣٢، السنة الأولى، الأربعاء ٢٣ شعبان ١٣٤٣هـ، (٩٩).

٣٧١ ــ غابة الزيتون / ديوان شعر لفؤاد الخشن، عبدالله بن إدريس، البلاد، عدد ١٣٧٢، في ١٦ ربيع أول ١٣٨٣هـ، (٥٥٣).

٣٧٢ ــ الغذاء والكساء، عبدالكريم الجهيمان، أخبار الظهران، عدد ١٩، في ١٥ /٣ /١٣٧٥هـ، (٥٩٣).

(ف)

٣٧٣ ــ فؤاد الخطيب شاعر الثورة والعرب، عبدالقدوس الأنصاري، المنهل، ذو القعدة ١٣٧٦هـ، يونيو ١٩٥٧م، ص٥٠٠، (٩٧).

٣٧٤ ــ في السبيل، م.ج.ع، صوت الحجاز، افتتاحية العدد الثالث، في ١٩ /١٢ /١٣٥٠هـ، ص٨، (١٣٨).

٣٧٥ ــ فاجعة، عزيز ضياء، وحي الصحراء، ص٣٣٠، (٢٩٧).

٣٧٦ ــ فك الارتباط بين السرحان والأدب، المحرر، البلاد، عدد ٤٥٧٥، في ١٦ /٢ /١٣٩٤هـ، ص٥، (٢٧٢).

٣٧٧ ــ فلسفة الصلاة، سعد البواردي، أجراس المجتمع، ص٩٢، دار الاشعاع، ط١، ذو الحجة ١٣٨٣هـ، الرياض، (٢١١).

٣٧٨ ــ في الأدب القديم والحديث، محمد حسن كتبي، أم القرى، الأعداد ٦٠٩، ٦١٠، ٦١٢، ٦١٤، ٦١٥، ٦١٧، (٢٢١).

٣٧٩ ــ في عالم الطبيعة، محمد حسن عواد، خواطر مصرحة، جـ٢، مجلد١، ص١٨١، (٢٢٣).

٣٨٠ ــ في عالم الفكر، محمد حسن عواد، خواطر مصرحة، جـ٢، مجلد ١، ص١٨٦، (٢٢٣).

٣٨١ ــ فلسفة الخلاف، إبراهيم هاشم فلالي، المنهل، رمضان ١٣٥٩هـ، (٢٢٦).

٣٨٢ ــ في فلسفة الحب، أحمد السباعي، المنهل، عدد ذي القعدة، وذي الحجة ١٣٦٧هـ، (٢٢٨).

٣٨٣ ــ الفتنة الكبرى ــ عثمان، عبدالعزيز الرفاعي، البلاد السعودية، ٧٥٨، ٣/ ١٢/ ١٣٦٧هـ، ص٦، (٢٥٧).

٣٨٤ ــ في الخريف، عزيز ضياء، وحي الصحرا، ص٣٢١، (٣٠٠).

٣٨٥ ــ في الميزان ــ أحمد قنديل، محمد عمر توفيق، البلاد السعودية، عدد ٨٢٨، في ١٦ شعبان ١٣٦٨هـ، (٣٥٥).

٣٨٦ ــ فقدان النقد النزيه من أدبنا المزدهر، عبدالمجيد شبكشي، صوت الحجاز، عدد ٢١٧، في جمادى الأولى ١٣٥٥هـ، ص٤، (٤٢٦).

٣٨٧ ــ في موازين النقد (٣)، محمد عمر توفيق، صوت الحجاز، عدد ٤٨١، في ١٠/ ٥/ ١٣٥٩هـ، ص٣، (٤٤٤).

٣٨٨ ــ في النقد (١)، محمد علي مغربي، صوت الحجاز، عدد ٣٩٠، في ٢٨ جمادى الأولى ١٣٥٨هـ، ص١، (٤٥٦).

٣٨٩ ــ في النقد (٢)، محمد علي مغربي، صوت الحجاز، عدد ٣٩١، في ٢ جمادى الثانية ١٣٥٨هـ، ص٤، (٤٥٧).

٣٩٠ ــ فن الرواية ــ قصة مرهم التناسي، صاحب التأملات، صوت الحجاز، عدد ٨١، في ١٢/ ٧/ ١٣٥٢هـ، ص٤، (٥٠١).

٣٩١ ــ في النقد ــ مناوشات ومناقشات، حسين سرحان، صوت الحجاز، عدد ٢٤١، في ٦/ ١١/ ١٣٥٥هـ، ص٤، (٥٣١).

٣٩٢ ــ في المناوشات والمناقشات رد واستدراك، عبدالكريم بن جهيمان، صوت الحجاز، عدد ٢٣٨، في ١٥ شوال ١٣٥٥هـ، ص٤، (٥٣٤).

٣٩٣ ــ فكرتي تسائلني، محمد حسن عواد، خواطر مصرحة، ص٩٥، جـ١، الأعمال الكاملة، مجلد١، (٥٨٢).

٣٩٤ ــ في عالم الخيال ــ العقبات الثلاث، محمد حسن فقي، صوت الحجاز، عدد ٣٠، في ١/ ٧/ ١٣٥١هـ، ص٦، (٦٣١).

٣٩٥ ــ في مدارس نجد، عبدالكريم بن جهيمان، أم القرى، عدد ٦٥٨، في ٨ جمادى الأولى ١٣٥٦هـ، ص٣، (٦٤١).

٣٩٦ ــ فكرة لها فوائد ومزايا ــ بحيرة ماء قرب الرياض، عبدالله بن خميس، فواتيح الجزيرة، ص٢٠٢، (٦٥٣).

٣٩٧ ــ الفلاح في أعماقي !!، علي العمير، على الماشي، ص١١٣، (٦٥٨).

(ق)

٣٩٨ ــ القدوة والتربية، محمد بن سعيد الفتة، القبلة، عدد ٦ في ٣ ذي القعدة ١٣٣٤هـ، (٩٦).

٣٩٩ ــ قضية فلسطين، عبدالله بن خميس، اليمامة، عدد ١١، السنة الأولى، شوال ١٣٧٣هـ، يونيو ١٩٥٤م، ص٣٦، (٢١٤).

٤٠٠ ــ قضية كشمير، أحمد محمد جمال، استعمار وكفاح، ص١٠٢، مكتبة الثقافة ــ مكة، (٢١٥).

٤٠١ ــ قبائل عسير من عرب الجزيرة الأقحاح، محمد بن عبدالله الحميد، مجلة الجزيرة، العدد ٢، السنة الأولى، ص٢٦، (٢٢٠).

٤٠٢ ــ قيمة الإنسان، عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، هكذا علمني ورد زورث، ص٣٠٢، (٣٢٦).

٤٠٣ ــ القديم والجديد ــ التجديد الذي ندعو إليه، بدون توقيع، أم القرى، عدد ٦٠١، في ٢٢ ربيع أول ١٣٥٥هـ، ص١، (٤٦٩).

٤٠٤ ــ قل الحق ولو كان مرًا، حمد الجاسر، صوت الحجاز، عدد ٣٧، في ٢١/ ٨/ ١٣٥١هـ، ص٧، (٢٠٩).

٤٠٥ ــ قصة مرهم التناسي، صاحب التأملات، صوت الحجاز، عدد ٨١، في ١٢/ ٧/ ١٣٥٢هـ، ص٤، (٤٩٢).

٤٠٦ ــ قصة ثمن التضحية ونقدها، إبراهيم الناصر، جريدة الخليج العربي، عدد ٥٧، في ٢٧ ربيع أول ١٣٧٩هـ، ص٧، (٥٥٤).

٤٠٧ ــ قضـاء .. !، عبدالله عريف، صوت الحجاز، عدد ٥٧٣، في ١٨ ربيع الثاني ١٣٦٠هـ، ص٢، (٥٧٩).

٤٠٨ ــ قضية الأساتذة، محمد حسن كتبي، صوت الحجاز، ٢١٦، في ٢٠/ ٥/ ١٣٥٥هـ، ص١، (٦٤٠).

٤٠٩ ــ قبل هذا .. حاربوا الإسراف، عبدالله بن خميس، من جهاد قلم، جـ٢، ص٢٤٦، (٦٦٠).

٤١٠ ــ القومية العربية والصهيونية، عبدالكريم الجهيمان، اليمامة، عدد ١٣٨، في ٣٠ رجب ١٣٧٨هـ، (٦٩٨).

(ك)

٤١١ ــ كلمة للجريدة، بدون توقيع، القبلة، عدد ١، في ١٥ /١٠ /١٣٣٤هـ، الموافق ١٥ /٨ /١٩١٦م، (٩٤).

٤١٢ ــ كلمة صريحة حول نهضتنا الأدبية، بدون توقيع، صوت الحجاز، عدد ٩٦ في ٥ /١١ /١٣٥٢هـ، الموافق ١٩ /٢ /١٩٣٤م، (١٠٩).

٤١٣ ــ كيف يجب أن نكون، حامد كعكي، أدب الحجاز، ص٨٧، (١٢٠).

٤١٤ ــ كتبنا وتآليفنا، محمد كرد علي، الهلال، عدد يوليو ١٩٣٩م، (١٤٥).

٤١٥ ــ كنتم خير أمة أخرجت للناس، عبدالله بن خميس، فواتح الجزيرة، ص٣٠٦، جـ٢، ط١، ١٤٠٤هـ، (٢٠٧).

٤١٦ ــ كياننا السياسي كيف نقيمه ؟ أحمد محمد جمال، اليمامة، عدد ٤، السنة الأولى، ربيع أول ١٣٧٣هـ، نوفمبر ١٣٥٣هـ، ص١٨، (٢١٥).

٤١٧ ــ كيف نبرهن على التجربة ؟، أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، هكذا علمني ورد زورث، ص٣٥، (٢٢٩).

٤١٨ ــ كلمة عن شوقي، محمد سعيد العامودي، المنهل، صفر ١٣٥٧هـ، (٢٥٦).

٤١٩ ــ كراث بن ليمون الفجلي، حسين سرحان، البلاد السعودية، ١٢٦٥، السنة السادسة عشرة، الأحد ٢٦ ربيع الأول ١٣٧٢هـ، ص٤، (٢٥٩).

٤٢٠ ــ الكتابة بمذاق الموسيقى، أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، هكذا علمني ورد زورث، ص٢٩٦، (٢٨٥).

٤٢١ ــ كنت في اليمن، عبدالله بن خميس، محاضرات وبحوث، جـ٣، من حبها وقلم، مطابع الفرزدق، ط١، ١٤٠٥هـ، ص٢٨٥، (٣٧٥).

٤٢٢ ــ الكلاسيكية في الأدب، محمد الشامخ، أحاديث أدبية، ص٤٤، (٣٩٤).

٤٢٣ ــ الكتاب الذي تأثرت به، أحمد عبدالغفور عطار، كلام في الأدب، ص٩٧، (٣٨٣).

٤٢٤ ــ كلام في الأدب، أحمد عبدالغفور عطار، من كتابه «كلام في الأدب»، ص٣٦، (٤٢٣).

٤٢٥ ــ كلمة عجلى، عباس أحمد الزواوي، صوت الحجاز، عدد ٢١٠، في ١٩ /٣ /١٣٥٥هـ، ص٤، (٤٢٦).

٤٢٦ ــ كلمة لا بد منها، حسن آل الشيخ، المجلة العربية، عدد ٢، س٢، شعبان ١٣٩٧هـ، ص٤، (٧١٣).

٤٢٧ ــ كيف عرفته ؟، عزيز ضياء، حمزة شحاته، قمة عرفت ولم تكتشف، ص١٦، (٤٣٠).

٤٢٨ ــ كيف يجب أن نكتب ؟، محمد حسن فقي، صوت الحجاز، عدد ١، في ٢٧ /١١ /١٣٥٠هـ، ص٦، (٤٥٨).

٤٢٩ ــ «كتابي» للأديب أحمد عطار ــ نقد وتحليل، جرير، أم القرى، من عدد ٦٢٢، في ٢١ /٨ /١٣٥٥هـ إلى عدد ٦٢٩ في ١١ /١٠ /١٣٥٥هـ، (٥٢٧).

٤٣٠ ــ الكلمة الأخيرة ــ مناوشات ومناقشات، حسين سرحان، صوت الحجاز، عدد ٢٣٩، في ٢٢ شوال ١٣٥٥هـ، ص٤، (٥٣٥).

٤٣١ ــ هكذا ننتهي، أحمد السباعي، صوت الحجاز، عدد ٥٧٣، في ١٨ ربيع الثاني ١٣٦٠هـ، ص٢، (٥٧٩).

٤٣٢ ــ الكرامة .. قبل ؟!، عبدالله بن خميس، مجلة الجزيرة، عدد ٥، ربيع الثاني ١٣٨٣هـ، ص٣، (٥٩٩).

٤٣٣ ــ كيف نحارب العادات والتقاليد ؟، عبدالحميد الخطيب، أم القرى، عدد ٧٠٠، في ٧ ربيع أول ١٣٥٧هـ، ص١، (٦١٩).

٤٣٤ ــ كلمة حول مشروع القرش، وطني، صوت الحجاز، عدد ٢٢٤، في ٢٨ جمادى الثانية ١٣٥٥هـ، (٦٣٦).

٤٣٥ ــ كلمة حول تعليم الفتاة الحجازية، بدون توقيع، صوت الحجاز، عدد ١٢٥، في ٧ جمادى الثانية ١٣٥٣هـ، ص١، (٦٤٤).

٤٣٦ ــ كلمتنا الأخيرة حول تعليم البنات، بدون توقيع، صوت الحجاز، عدد ١٢٨، في ٢٩ جمادى الثانية ١٣٥٣هـ، ص١، (٦٤٥).

٤٣٧ ــ كيف السبيل ؟، محمد علي مغربي، صوت الحجاز، عدد ٥٠٥، في ٦ شعبان ١٣٥٩هـ، (٦٥١).

٤٣٨ ــ كلمة لا بد منها، حسن بن عبدالله آل الشيخ، المجلة العربية، عدد ٢، شعبان ١٣٩٧هـ، ص٤، (٧١٣).

٤٣٩ ــ كسوة الروضة الطاهرة، بدون توقيع، حجاز، عدد ١٦، في ٥ /٢ /١٣٢٧هـ، (٨٣).

(ل)

٤٤٠ ــ لمحات من أدبنا السعودي المعاصر، منصور الحازمي، مجلة المنهل، العدد ٤٤٥، المجلد ٤٧، ص٣٢، السنة ٥٢، شعبان، (٧٩).

٤٤١ ــ اللغة العربية والعرب، فؤاد الخطيب، القبلة، عدد ١٤، في ذي الحجة ١٣٣٤هـ، (٩٦).

٤٤٢ ــ لا تراوغوا، بدون توقيع، أم القرى، عدد ٤، ٦ /٦ /١٣٣٤٣هـ، (١٠٤).

٤٤٣ ــ لا إصلاح مع الرياء، محمد سرور الصبان، أدب الحجاز، ص١٥٤، (١٠٩).

٤٤٤ ــ اللغة العربية، محمد حسن عواد، خواطر مصرحة، المجلد الأول، عام ١٤٠١هـ، ص٦٩، (١٢١).

٤٤٥ ــ لمحة سريعة عن الأدب الحجازي، عبدالحميد مشخص، نفثات من أقلام الشباب الحجازي، ص١٥، (١٣٠).

٤٤٦ ــ لكم لبنانكم ولي لبناني، جبران خليل جبران، البدائع والطرائف (مجموعة أعمال جبران الكاملة) العربية، ص٥٢٠، (١٦٠).

٤٤٧ ــ لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر، عبدالله خياط، صوت الحجاز، عدد ١٧ في ٢٨ /٣ /١٣٥١هـ، ص٦، (٢٠٨).

٤٤٨ ــ ليبيا بين الاستعمار والاستقلال، أحمد محمد جمال، استعمار وكفاح، ص٣١، (٢١٥).

٤٤٩ ــ لهجاتنا العامية وصلتها بالفصحى، محمد ناصر العبودي، مجلة الجزيرة، العدد ٢، ذو الحجة ١٣٧٩هـ، مايو ١٩٦٠م، السنة الأولى، (٢٢٠).

٤٥٠ ــ اللغة العربية والذوق : هي تكيفه أم هو يكيفها ؟، عبدالقدوس الأنصاري، صوت الحجاز، عدد ١٧٥، في ٢٦ جمادى الثانية ١٣٥٤هـ، ص٤، (٢٢١).

٤٥١ ــ ليت للبراق عينًا، أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، هكذا علمني ورد زورث، ص٢٨٢، (٢٨٤).

٤٥٢ ــ لا تقل شئنا، أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، هكذا علمني ورد زورث، ص٢٨٦، (٢٨٥).

٤٥٣ ــ لا شيء كاللهب .. لا شيء كالحرير، عبدالله جفري، نبض، ص٢٦، (٢٩٢).

(م)

٤٦٩ ــ المتطببون، المحرر، حجاز، ص٤، عدد ٣ في ٢٩ شوال ١٣٢٦هـ، (٨٥).

٤٧٠ ــ مكانة العرب في العالم الإسلامي، فؤاد الخطيب، القبلة، عدد ٤، الخميس ٢٥ شوال ١٣٣٤هـ، (٩٦).

٤٧١ ــ من العاصمة إلى الأزهر، بدون توقيع، الفلاح، عدد ٢٢، في ١١ /٧ /١٣٤٢هـ، الموافق ١٦ /٢ /١٩٢٤م، (٩٨).

٤٧٢ ــ ماذا يبتغون، بدون توقيع، أم القرى، عدد ٣، ٢٩ /٥ /١٣٤٣هـ، (١٠٤).

٤٧٣ ــ المناجاة، محمد جميل حسن، أدب الحجاز، ص٨٤، (١١٨).

٤٧٤ ــ من هو الحر العصري ؟، محمد حسن عواد، أدب الحجاز، ص١١٣، (١١٩).

٤٧٥ ــ ما هو الأثر الذي أوجده الأدب الحديث في الحجاز ؟، محمد سعيد عبدالمقصود، كتاب «محمد سعيد عبدالمقصود خوجة»، ص٥٩، (١٤٢).

٤٧٦ ــ من أجل هذا اختفينا، فتى، جريدة الخليج العربي، عدد ٦٠ في ٨ /٥ /١٣٧٩هـ، ص١٢، (١٥٢).

٤٧٧ ــ مغربل جديد، الغربال، أم القرى، عدد ٣٧٧، في ٢٦ /١٠ /١٣٥٠هـ، (١٦٤).

٤٧٨ ــ مع الأستاذ العقاد، أحمد عبدالغفور عطار، صوت الحجاز، عام ١٣٦٥هـ، (١٦٥).

٤٧٩ ــ مشاهدات في المدينة، حسين سرحان، صوت الحجاز، عدد ٢٣٤، في ١٠ /٩ /١٣٥٥هـ، ص١، (٥٣٢).

٤٨٠ ــ مات الزيات، عبدالله بن خميس، مجلة الجزيرة، عدد ٥، من السنة ٢، في ١٣٨١هـ، ربيع أول، ص٣٧، (١٧٠).

٤٨١ ــ مزاج القراء، حسن المشاري الحسين، اليمامة، عدد ٥، ربيع الثاني ١٣٧٣هـ، ص١٤، (١٨٦).

٤٨٢ ــ المحذوفون بالصمت، علوي طه الصافي، اليمامة، عدد ١٣٠، في ٨ رمضان ١٣٩٠هـ، ص٨، (١٨٩).

٤٨٣ ــ منتدى «خالد» الأدبي، حمد الجاسر، مجلة العرب، عدد ٦، س٣، ذو الحجة ١٣٨٨هـ، ص٣١، (١٨٩).

٤٨٤ ــ مشكلة الأدب، عبدالله بن علي الماجد، اليمامة، عدد ٥٤، الجمعة ١٥ صفر ١٣٨٩هـ، (١٩٠).

٤٨٥ ــ من مفارقات الاشتراكية، عبدالقدوس الأنصاري، المنهل، ١٣٨١هـ، ذو الحجة، (٢٠٧).

٤٨٦ ـــ ماذا ينقم منا هؤلاء ؟، عبدالله بن خميس، مجلة الجزيرة الشهرية، عدد ١٠، السنة الثانية ٢ /٨ /١٣٨١هـ، يناير ١٩٦١م، (٢١٥).

٤٨٧ ـــ ماذا بعد النصر يا جزائر ؟، حسن آل الشيخ، دورنا في الكفاح، ص٧٧، ط١، ١٣٨٣هـ، (٢١٥).

٤٨٨ ـــ مع التحية يا قمة بغداد، عبدالله بن خميس، فواتح الجزيرة، ص١٠٤، (٢١٧).

٤٨٩ ـــ منازل العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، حمد الجاسر، مجلة الجزيرة، عدد ١، ص٢١، ذو القعدة ١٣٧٩هـ، أبريل ١٩٦٠م، (٢١٧).

٤٩٠ ـــ من روائع الشعر العربي، محمد علي السنوسي، مجلة الجزيرة، عدد ٣، محرم ١٣٨٠هـ، ص١٥، (٢٢٠).

٤٩١ ـــ مواقف نقدية، منصور الحازمي، الرياض، عدد ٦٠١٠، السنة الحادية والعشرون، الخميس ١٤ /٣ /١٤٣٠٥هـ، ٦ /١٢ /١٩٨٤م، ص١٣، (٢٨٠).

٤٩٢ ـــ مؤخرة، أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، هكذا علمني ورد زورث، ص٣٤٣، (٢٨٧).

٤٩٣ ـــ المخدرات والمباضع، جبران خليل جبران، العواصف، المجموعة الكاملة، ص٤٠٦، (٣٢٤).

٤٩٤ ـــ منازل العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، حمد الجاسر، مجلة الجزيرة، عدد ١، ذو القعدة ١٣٧٩هـ، أبريل ١٩٦٠م، ص٢١، (٢٢٠).

٤٩٥ ـــ مشاهد من تاريخ مكة، أحمد السباعي، أوراق مطوية، ص١٣، (٣٧٦).

٤٩٦ ـــ مع السيد الشربتلي، عبدالله عريف، البلاد السعودية، عدد ١٠٩٣، الأحد ٢٧ محرم ١٣٧١هـ، (٣٧٨).

٤٩٧ ـــ مدينة فاس، محمد علي مغربي، حبات من عنقود، مؤسسة قنديل التجارية، جدة، ط١، ذو الحجة ١٣٨٧هـ، ص٩٧، (٣٨١).

٤٩٨ ـــ مع ابن خلدون في مقدمته، عبدالقدوس الأنصاري، المنهل، جمادى الأولى ١٣٧٤هـ، (٤٠٨).

٤٩٩ ـــ مظاهر التجديد في شعر أبي تمام، محمد حسن عواد، المنهل، صفر ١٣٦٧هـ، (٤٠٨).

٥٠٠ ـــ مشكلة النقد والنقاد، مصطفى القشاش، مجل المصباح، عدد ٤٧٩، رمضان ١٣٥٤هـ، (٤٢٦).

٥٠١ ـــ ماذا أفدت من الأدب، أحمد عبدالغفور عطار، كلام في الأدب، ص٧٠، (٤٢٨).

٥٠٢ ــ مقاييس الأدب، عبدالقدوس الأنصاري، أم القرى، عدد ٨٤٦، في ١٣٦٠هـ، س١٧، ص٣، (٤٤٠).

٥٠٣ ــ مقاييس الأدب أيضًا، عبدالقدوس الأنصاري، أم القرى، عدد ٨٥٤، في ١٣٦٠هـ، س١٧، ص٣، (٤٤٠).

٥٠٤ ــ ماهي مقومات أدبنا الحديث ؟، عبدالكريم الجهيمان، الأضواء، عدد ٦٢، في ٢٦/ ١٢/ ١٣٧٨هـ، (٤٤٦).

٥٠٥ ــ المقدمة التي لابد منها، إبراهيم هاشم فلالي، المرصاد، جـ٢، ص١٠٤، (٤٦٦).

٥٠٦ ــ من سلسلة أفكاري، محمد حسن عواد، خواطر مصرحة، جـ١، ص٦٣، (٤٧٦).

٥٠٧ ــ المعركة الدائمة بين القديم والجديد، فؤاد شاكر، المنهل، جمادى الثانية ١٣٧٦هـ، (٤٧٩).

٥٠٨ ــ ما هكذا النقد يا أستاذ، عبدالحميد عنبر، صوت الحجاز، عدد ٨٤، في ٣/ ٨/ ١٣٥٢هـ، (٤٩٥).

٥٠٩ ــ ما هكذا النقد الفني، محمد الحافظ، صوت الحجاز، عدد ٨٥، في ١٠/ ٨/ ١٣٥٢هـ، (٤٩٩).

٥١٠ ــ من عزيز ضياء إلى محمد حسن كتبي حول الأدب الفني، عزيز ضياء، صوت الحجاز، عدد ١٤٣، في ٢٣ شوال ١٣٥٣هـ، ص٤، (٥٢١).

٥١١ ــ مناقشة ورد، أحمد عبدالغفور عطار، أم القرى، عدد ٦٣٢، في ٢ ذي القعدة ١٣٥٥هـ، ص٦، (٥٢٧).

٥١٢ ــ مقدمة كتاب، حسين سرحان، صوت الحجاز، عدد ٢٣٦، في ٢٤ رمضان ١٣٥٥هـ، ص٦، (٥٢٨).

٥١٣ ــ مشاهدات في المدينة، حسين سرحان، صوت الحجاز، عدد ٢٣٠، في ١١/ ٨/ ١٣٥٥هـ، ص١ إلى عدد ٢٣٤ في ١٠/ ٩/ ١٣٥٥هـ، ص١، (١٦٦).

٥١٤ ــ ملاحظات ثلاث ــ مناوشات ومناقشات، حسين سرحان، صوت الحجاز، عدد ٥٣٧، في ٨ شوال ١٣٥٥هـ، ص٤، (٥٣٣).

٥١٥ ــ مناقشة لصاحب مشاهدات في المدينة، عبدالكريم الجهيمان، صوت الحجاز، عدد ٢٣٥، في ١٧ رمضان ١٣٥٥هـ، ص٤، وعدد ٢٣٦ في ٢٤ رمضان ١٣٥٥هـ، (٥٣٤).

٥١٦ ــ مناوشات ومناقشات، حسين سرحان، صوت الحجاز، عدد ٢٣٨، في ١٥ شوال ١٣٥٥هـ، ص٤، (٥٣٥).

٥١٧ ــ مشيخة الصحافة والترشيح لصدارة النقد، إبراهيم الناصر، اليمامة، عدد ١٥٤، في ١٧ صفر ١٣٨٧هـ، ص٥، (٥٣٨).

٥١٨ ــ الموسوعة الساسية في سوق الخضار، محمد حسين زيدان، عكاظ، (٥٥١).

٥١٩ ــ المياه بمكة في أدوارها التاريخية، محمد سعيد عبدالمقصود، أم القرى، عدد ٥١٧، في ٢ شعبان ١٣٥٣هـ، (٥٧٥).

٥٢٠ ــ ملاحظات حرة ــ على هامش ابن عبدالمقصود، أحمد السباعي، صوت الحجاز، عدد ٢١٤، في ١٧ ربيع الثاني ١٣٥٥هـ، (٥٧٨).

٥٢١ ــ مداعبة مع العلماء، محمد حسن عواد، خواطر مصرحة، جـ١، ص٢٠، مجلد ١، الأعمال الكاملة، (٥٨١).

٥٢٢ ــ المنتجع الفسيح ــ بلادنا في القرن العشرين، محمد حسن عواد، المصدر السابق، (٥٨٣).

٥٢٣ ــ ما أحلى أن تخالفني في شرف، أحمد السباعي، دعونا نمشي، ص١٤٥، (٥٨٥).

٥٢٤ ــ من مظاهر التطور في حياتنا الاجتماعية، محمد حسن فقي، المنهل، ذو القعدة وذو الحجة ١٣٦٨هـ، (٦٠٤).

٥٢٥ ــ من مشعل النار، محمد حسن عواد، خواطر مصرحة، جـ١، ص١٢، (٦٠٧).

٥٢٦ ــ متى ننهض ؟، عبدالوهاب النشار، أدب الحجاز، ص١٢٩، (٦٠٨).

٥٢٧ ــ المناجاة، محمد جميل حسن، أدب الحجاز، ص٧٩، (١١٨).

٥٢٨ ــ معرض النقد ــ خواطر الأسبوع، ابن جلا، صوت الحجاز، عدد ٢٧، في ٩ جمادى الثانية ١٣٥١هـ، ص٨، (٦١٥).

٥٢٩ ــ مشكلة الأزياء، محمد سعيد عبدالمقصود، صوت الحجاز، عدد ٢٦٠، في ٢٢ /٣/ ١٣٥٦هـ، (٦٢٤).

٥٣٠ ــ المظاهر وأثرها في حياتنا العامة، أحمد قنديل، صوت الحجاز، عدد ٢١٨، في ١٦ /٥/ ١٣٥٥هـ، ص١، (٦٣٢).

٥٣١ ــ مشروع القرش من الأعمال المشتركة واجب الشعب نحوه، بدون توقيع، أم القرى، عدد ٦٠٦، في ٢٧ ربيع الثاني ١٣٥٥هـ، ص١، افتتاحية، (٦٣٥).

٥٣٢ ــ مشروع القرش حدث تاريخي خطير، أحمد السباعي، أم القرى، عدد ٦١٠، في ١٩ جمادى الأولى ١٣٥٥هـ، ص١، (٦٣٦).

٥٣٣ ــ مشروع القرش، أحمد السباعي، صوت الحجاز، عدد ٢٢٦، في ١٣ رجب ١٣٥٥هـ، ص١، (٦٣٦).

٥٣٤ ــ مستقبل ثقافتنا، عبدالرحمن الطيب الأنصاري، المنهل، ذو الحجة ١٣٧٣هـ، (٦٤١).

٥٣٥ ــ ما يمنعنا نتقدم ؟، فتى الصفا، صوت الحجاز، عدد ١٢٦، في ١٥ جمادى الثانية ١٣٥٣هـ، (٦٤٤).

٥٣٦ ــ مهرجان الطيران في الطائف شاهد جديد على يقظة الشعب ونهوضه، عبدالسلام عمر، أم القرى، عدد ٦١٣، في ١٧ جمادى الثانية ١٣٥٥هـ، (٦٤٩).

٥٣٧ ــ مشكلة البحر، عزيز ضياء، صوت الحجاز، عدد ٥٠٢، في ٢٤ رجب ١٣٥٩هـ، (٦٥٠).

٥٣٨ ــ مصدر ثراء يستحيل إلى أزمة، عبدالله بن خميس، البلاد السعودية، عدد ١١٦٢، في ١١ /٧ /١٣٧١هـ، (٦٥٢).

٥٣٩ ــ مالنا الذي هرب !!، عبدالكريم الجهيمان، القصيم، عدد ٤٦، في ٥ /٥ /١٣٨٠هـ، (٦٥٨).

٥٤٠ ــ المجلة في عامها الثاني، منير العجلاني، المجلة العربية، عدد ١، جماد أول ١٣٩٧هـ، ص٣، (٧١٢).

٥٤١ ــ الصحافة مصدرًا أدبيًا، عبدالله الحامد، الرياض، عدد ٧٠٩٠، السبت ٣٠ ربيع أول ١٤٠٨هـ، ص٩، جـ٢، (٧٨).

(ن)

٥٤٢ ــ نشأة الأدب في الحجاز، أحمد السباعي، أوراق مطوية، ص١٩١، (١٥).

٥٤٣ ــ نحن وأعداؤنا، القبلة، عدد ٢، السنة الأولى في ١٨ /١٠ /١٣٣٤هـ، ص١، (٩٥).

٥٤٤ ــ نظرات، محمد بن سعيد الفته، القبلة، عدد ٣ في ٢٢ شوال ١٣٣٤هـ، (٩٦).

٥٤٥ ــ النهضة الحجازية القولية والعلمية، حسين عرب، نفثات من أقلام الشباب الحجازي، ص١٧١، (١٣١).

٥٤٦ ــ النجم الذي هوى، عبدالرحمن السدحان، القصيم، عدد ٨٤، في ١٩ /٢ /١٣٨١هـ، ص٧، (١٧٠).

٥٤٧ ــ النظرة الحريصة، أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، الفنون الصغرى، السفر الخامس، ص٢٦٨، (٢١١).

٥٤٨ ــ نــداء، عربي صميم، بريد الحجاز، عدد ١، السنة الأولى ٢٩ /٤ /١٣٤٣هـ، (٩٩).

٥٤٩ ــ نظرة في الحب، (٠٠٠)، صوت الحجاز، العدد الممتاز ١٩٥، في ٢٥ ذي القعدة ١٣٥٤هـ، (٢٢٧).

٥٥٠ ــ نظرة في الحب أيضًا، (٠٠٠)، صوت الحجاز، عدد ١٩٦، في ٢ /١٢ /١٣٥٤هـ، ص٤، (٣٤٢).

٥٥١ ــ نفرح حين ننسى، عبدالله مناع، الطرف الآخر، مطبوعات جمعية الثقافة والفنون، جدة، ص٤٤، (٣٤٢).

٥٥٢ ــ نون النسوة، أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، هكذا علمني ورد زورث، ص٢٥٧، (٣٤٩).

٥٥٣ ــ النزعة الأدبية في الحجاز، عبدالمجيد شبكشي، صوت الحجاز، عدد ١٦٩، في ١٣ جمادى الأولى ١٣٥٤هـ، (٣٩٤).

٥٥٤ ــ نشأة القصة في الأدب السعودي، محمد عبدالرحمن الشامخ، أحاديث أدبية، ص٤٦، (٣٩٤).

٥٥٥ ــ نزار قباني .. من طفولة نهد .. إلى نفق مسدود، عزيز ضياء، الرياض، عدد ٧٦٤٨، في ٢٧ شوال ١٤٠٩هـ، (٤٢٩).

٥٥٦ ــ نريد رجالاً، عزيز ضياء، صوت الحجاز، عدد ١٩٥، في ٢٥ /١١ /١٣٥٤هـ، ص٦، (٤٣٥).

٥٥٧ ــ نهضة الشباب القولية، وطني غيور، صوت الحجاز، عدد ١٢٥، في ٨ جمادى الثانية ١٣٥٣هـ، ص١، (٤٤٠).

٥٥٨ ــ النقد ومعناه، ابن رشيق، صوت الحجاز، عدد ٣٢، في ١٥ /٧ /١٣٥١هـ، (٤٦١).

٥٥٩ ــ النقد ــ حديث الجمعة، د. ح. ط، أم القرى، عدد ٦٢٣، في ٢٨ شعبان ١٣٥٥هـ، ص٣، (٤٦٤).

٥٦٠ ــ النقاعون في الأدب، أحمد عبدالغفور عطار، المقالات، ص٦٦، (٤٦٤).

٥٦١ ــ نهضتنا الأدبية المزعزعة البنيان هل من أمل في إصلاحها ؟، م،ص، نصيف، صوت الحجاز، عدد ١٣٢، في ٢٧ /٧ /١٣٥٣هـ، (٤٦٤).

٥٦٢ ـ نقـاش، أحمد عبدالغفور عطار، صوت الحجاز، عدد ٤٦١، في ٣٠ صفر ١٣٥٩هـ، ص١، وعدد ٤٦٢، في ٣ /٣ /١٣٥٩هـ، ص٤، (٥١٨).

٥٦٣ ـ نقد كتاب «آثار المدينة المنورة»، ناقد، صوت الحجاز، عدد ١٥٧، في ١٨ /٢ /١٣٥٤هـ، (٥٥٠).

٥٦٤ ـ نريد مدارس صناعية، عبدالكريم الجهيمان، أخبار الظهران، عدد ٢٠، في ٣٠ /٣ /١٣٧٥هـ، (٥٩٣).

٥٦٥ ـ نصفنا الآخر، عبدالكريم الجهيمان، أخبار الظهران، عدد ٤٢، في ١ /٦ /١٣٧٥هـ، (٥٩٣).

٥٦٦ ـ نضج الشعب أولاً، عبدالله بن خميس، مجلة الجزيرة، عدد ٣، محرم ١٣٨٠هـ، (٥٩٨).

٥٦٧ ـ النقد وأثره في تكوين المجتمع، ط، أم القرى، عدد ٦٤٨، في ٢٦ صفر ١٣٥٦هـ، ص٣، (٦٠٢).

٥٦٧ ـ نحن والتقاليد، الغربال، أم القرى، عدد ٣٨٥، في ٣٠ ذي الحجة ١٣٥١هـ، ص٤، (٦١٧).

٥٦٨ ـ نفخ في غير ضرم، عبدالكريم بن جهيمان، أم القرى، عدد ٦٥٠، في ١٣٥٦هـ، ص٢، (٦١٩).

٥٦٩ ـ نحن الآن في فجر حياة جديدة، فلنفكر أولاً ولنعمل بإقدام، عبدالسلام عمر، أم القرى، عدد ٦١٢، في ١٣٥٥هـ، ص١، (٦٣٦).

٥٧٠ ـ نحن أمهات الغد، شيخة عبدالله الدغفق، المنهل، ذو الحجة ١٣٨١هـ، ص٨٦٧، (٦٤٦).

٥٧١ ـ النثر والشعر وأشياء أخرى، حسين سرحان، البلاد السعودية، عدد ٦٤٨، في ٨ /٥ /١٣٦٦هـ، ص١٢، (٢٧٢).

٥٧٢ ـ هل بعد الدستور عذر، عبدالملك بن أحمد خطيب، حجاز، عدد ٣، ص٤، ٢٩ شوال ١٣٢٦هـ، الموافق ١٠ تشرين ثاني ١٩٠٨م، (٨٥).

٥٧٣ ـ هل نحن على أبواب عهد جديد، عبدالحميد عنبر، وحي الصحراء، ص٣٧٦، (١٣٤).

٥٧٤ ـ هل الحروب تطوي الحضارات أم تنشرها ؟، حمزة شحاته، المنهل، عدد ٥، ربيع الثاني، ١٣٥٩هـ، (٥٥٣).

٥٧٥ ـ هل أفاد الأدب، أحمد عبدالغفور عطار، المنهل، عدد جمادى الأولى ١٣٦٧هـ، (١٤٠).

٥٧٦ ــ هذا الأدب، محمد عمر توفيق، المنهل، عدد رجب ١٣٦٧هـ، (١٤٠).

٥٧٧ ــ هجيري الذات، أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري ، هكذا علمني ورد زورث، ص٢٥٥، (٦٨٤).

٥٧٨ ــ هجيري الذات أيضًا، أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، هكذا علمني ورد زورث، صـ٢٥٧، ط١، ١٤٠٤هـ، تهامة، (٢٢٣).

٥٧٩ ــ الهدف الأكبر، محمد عمر توفيق، مجلة الجزيرة، عدد ١، ص١٢، ذو القعدة ١٣٧٩هـ، أبريل ١٩٦٠م، (٢٢٥).

٥٨٠ ــ هل أنا في الكون أم الكون فيّ ؟، أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، هكذا علمني ورد زورث، ص٢٠٥٣، (٢٢٩).

٥٨١ ــ هكذا علمني ورد زورث، أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، هكذا علمني ورد زورث، ص٢٧، (٣٢٦).

٥٨٢ ــ هكذا ننتهي، أحمد السباعي، صوت الحجاز، عدد ٥٧٣، في ١٨ /٤ /١٣٦٠هـ، ص٢، (٥٧٩).

٥٨٣ ــ هذا المساء، عبدالله جفري، نبض، ص١٥٠، (٣٣٣).

٥٨٤ ــ هول الليل، حمزة شحاته، صوت الحجاز، عدد ٢٢٥، ٦ رجب ١٣٥٥هـ، (٣٦١).

٥٨٥ ــ هل انتهى عصر الأدب، أحمد عبدالغفور عطار، كلام في الأدب، ص٥٥، (٤٢٣).

٥٨٦ ــ هي فوضى أدبية حقًا، أ. س. ع.، صوت الحجاز، عدد ٢٢٠، في ٣٠ /٥ /١٣٥٥هـ، ص٤، (٤٥٠).

٥٨٧ ــ هشيم الأدب، عبدالقدوس الأنصاري، المنهل، رجب وشعبان ١٣٧٦هـ، (٤٥١).

٥٨٨ ــ هــلام، محمد حسن عواد، خواطر مصرحة، جـ٢، مجلد ١، المجموعة الكاملة، ص١٢٧، (٤٥٣).

٥٨٩ ــ هزيمة الأدب، طاهر زمخشري، البلاد السعودية، عدد ٨٥٤، في ٢٦ /١ /١٣٦٨هـ، (٤٥٣).

٥٩٠ ــ هل ستكون لنا جامعة علمية في مكة ؟، عبدالله عبدالجبار، البلاد السعودية، عدد ٧٤٧، في ٢٤ شوال ١٣٦٧هـ، ص٤، (٦٤١).

٥٩١ ــ هنا قفوا يا سادتي وامنحنوي العفو لصراحتي، خيرية السقاف، اليمامة، عدد ١٨٨، في ١٩ /١٢ /١٣٩٢هـ، ص١٦، (٥٥٢).

(و)

(ي)

فهرس المصادر والمراجع

أ ـــ الكتب

ب ـــ الصحف والدوريات

جـ ـــ اللقاءات الشخصية

أ ـ الكتـــــب(*)

(أ)

١ ـ إبراهيم عبدالقادر المازني، نعمات أحمد فؤاد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٧٨م.

٢ ـ الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، أنيس المقدسي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٧٧م.

٣ ـ الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية، د. هاشم عبده هاشم، تهامة، ط١، ١٤٠١هـ.

٤ ـ أثر دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في الفكر والأدب بجنوبي الجزيرة العربية، د. عبدالله أبو داهش، مكتبة الحكمة، الرياض، ط١، ١٤٠٥هـ.

٥ ـ أجراس المجتمع، سعد البواردي، دار الإشعاع، ط١، ١٣٨٣هـ.

٦ ـ أحاديث في الأدب، خليل الفزيع، مطابع النضال، دمشق، ط١، ١٣٨٥هـ.

٧ ـ أحاديث، د. محمد سعيد العوضي، دار ممفيس للطباعة، مصر، ط١، ١٩٥٩م.

٨ ـ الأدب العربي المعاصر في مصر، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط٥.

٩ ـ الأدب وفنونه، د. محمد مندور، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.

١٠ ـ الأدب وفنونه، د. عزيز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي وتاريخه، ط٦، ١٩٧٦م.

١١ ـ الأدب العربي وتاريخه ـ العصر الحديث، د. محمد بن سعد بن حسين، ط٠، ١٩٨٥م.

١٢ ـ الأدب الحديث تاريخ ودراسات، د. محمد بن سعد بن حسين، مطابع الفرزدق، الرياض، ط١، ١٩٨٤م.

١٣ ـ الأدب الحديث في نجد، د. محمد بن سعد بن حسين، الفجالة، ط١، ١٣٩١هـ.

١٤ ـ الأدب والنصوص والنقد والبلاغة والعروض، د. بدوي طبانة، د. أحمد كمال زكي، عبدالعظيم بدوي، وزارة التربية والتعليم بمصر، سنة ١٩٧٢م.

١٥ ـ أدب الحجاز أو صفحة فكرية من أدب الناشئة الحجازية شعرًا ونثرًا، جمعه ورتبه محمد سرور الصبان، مطبعة مصر، ط٢، ١٣٧٨هـ.

١٦ ـ الأدب الحجازي بين التقليد والتجديد، د. إبراهيم فوازن الفوزان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤٠١هـ.

---

* وضعتُ هذا الفهرس مرتبًا على الطريقة الهجائية، وبدأتُ باسم الكتاب لكونه الذي يعيننا في هذه الدراسة، ثم أتبعْتُ البيانات الأخرى.

١٧ ــ الأدب السعودي المعاصر في الكتب المدرسية، محمود ردواي، النادي الأدبي بالرياض، ط١، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

١٨ ــ أدب النثر المعاصر في شرقي الجزيرة العربية، د. عبدالله المبارك، مطبعة الجبلاوي، ط١، ١٩٧٠م.

١٩ ــ الأدب العربي في المملكة العربية السعودية «ببليوجرافيا»، د. يحيى محمود ساعاتي، دار العلوم، الرياض، ١٣٩٩هـ.

٢٠ ــ الأدب والأنواع الأدبية، نخبة من الأساتذة، ترجمه عن الفرنسية طاهر حجار، دار طلاس، سوريا، ط١، ١٩٨٥م.

٢١ ــ آراء فرد من الشعب، عبدالكريم الجهيمان، دار الثقافة، بيروت، بدون تاريخ.

٢٢ ــ أرض المعجزات، بنت الشاطىء (عائشة عبدالرحمن)، دار المعارف، مصر، ١٩٥١م.

٢٣ ــ استعمار وكفاح، أحمد محمد جمال، مكتبة الثقافة، مكة المكرمة، ط١، ١٣٧٤هـ.

٢٤ ــ الأسلوب، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ط٧، ١٣٩٦هـ.

٢٥ ــ أشباخ ومقالاتي، محمد حسين زيدان، مطابع الشريف.

٢٦ ــ أصداء قلم، محمود عارف، تهامة، ط١، ١٤٠٢هـ.

٢٧ ــ أضواء على الأدب العربي المعاصر، أنور الجندي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٨هـ.

٢٨ ــ الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٨٤م.

٢٩ ــ أعمال العواد الكاملة، محمد حسن عواد، دار الجيل، ١٤٠١هـ.

٣٠ ــ أفكار صحفية، خليل إبراهيم الفزيع، النادي الأدبي، ١٤٠١هـ.

٣١ ــ إقليم الحجاز وعوامل نهضته الحديثة، د. إبراهيم فوزان الفوزان، مطابع الفرزدق، ١٤٠١هـ.

٣٢ ــ إلى ابنتي شيرين، حمزة شحاته، تهامة، ط١، ١٤٠٠هـ.

٣٣ ــ ألوان، د. طه حسين، دار المعارف بمصر، ط١ ، ١٣٩٠هـ.

٣٤ ــ أمواج وأثباج، عبدالفتاح أبو مدين، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ط٢، ١٤٠٥هـ.

٣٥ ــ الإمتاع والمؤانسة، أبوحيان علي بن محمد التوحيدي (ت ٤٠٠هـ)، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

٣٦ ــ أنين الحيارى، عبدالله مناع، الشركة التونسية للتوزيع.

٣٧ ــ أنفاس على جدار القلب، عبدالله الجفري، الشركة السعودية للأبحاث والتسويق، ط١.
٣٨ ــ أوراق مطوية، أحمد السباعي، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، ط١، ١٤٠٢هـ.
٣٩ ــ أوهام الكتّاب، أبو تراب الظاهري، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ١٤٠٣هـ.
٤٠ ــ أيامي، أحمد السباعي، تهامة، ط١، ١٤٠٢هـ.
٤١ ــ أين الطريق، عبدالكريم الجهيمان، دار الثقافة، بيروت.

(ب)

٤٢ ــ بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين، مطبوعات جامعة الملك عبدالعزيز بجدة، خمسة مجلدات، أوفست المدينة للطباعة، جدة، انعقد المؤتمر من اليوم الأول إلى الخامس من شهر ربيع الأول عام ١٣٩٤هـ.
٤٣ ــ البحث الأدبي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٥.
٤٤ ــ البكاء على وجه امرأة جميلة، علي خالد الغامدي، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ط١، ١٤٠٣هـ.
٤٥ ــ بلادنا والزيت، مجموعة من الكتّاب، أشرف عليه عبدالله بن خميس، النادي الأدبي، الرياض، ١٣٩٩هـ.
٤٦ ــ البلاغة فنونها وأفنانها، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٤٠٧هـ.
٤٧ ــ بين الأدب والصحافة، فاروق خورشيد، دار الفكر العربي، ط٣، ١٩٧٧م.
٤٨ ــ البيادر، ميخائيل نعيمة، مؤسسة نوفل، بيروت، ط١٠، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(ت)

٤٩ ــ تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبدالرحمن الجبرتي، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م.
٥٠ ــ تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، دار الهلال، مراجعة وتعليق د. شوقي ضيف، دون تاريخ.
٥١ ــ التاريخ الإسلامي ــ العهد العثماني، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ.
٥٢ ــ تاريخ المملكة العربية السعودية، د. عبدالله الصالح العثيمين، مطابع الشريف، ط٢، ١٤٠٩هـ.

٥٣ ــ تاريخ المشرق العربي (١٥١٦م ــ ١٩٢٢م)، د. عمر عبدالعزيز عمر، دار النهضة العربية، بيروت.

٥٤ ــ تاريخ نجد مع مجموعة من رسائل الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ويسمى «روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام»، حسين بن غنام، تحقيق د. ناصر الدين الأسد، دار الشروق، ط٢، ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م.

٥٥ ــ تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي، تحقيق د. إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ.

٥٦ ــ تاريخ نجد الحديث، أمين الريحاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، ١٩٨٦م.

٥٧ ــ تاريخ مكة، أحمد السباعي، مطبوعات نادي مكة الثقافي، مكة، ط٦، ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م.

٥٨ ــ تاريخ الحجاز، حسين محمد نصيف، مصر، ط١، ١٣٩٠هـ.

٥٩ ــ تجربتي في الأدب، عبدالعزيز عطية أبو خيال، دار البلاد، جدة، ط١، ١٤٠٥هـ.

٦٠ ــ تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد، محمد بن عبدالله العبدالقادر، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٦٣م.

٦١ ــ تحت الشمس، علي العمير، دار العمير للثقافة والنشر، ط٢، ١٤٠٥هـ.

٦٢ ــ تذكرة أولي النهى والفرقان بأيام الله الواحد الديان وذكر حوادث الزمان، إبراهيم بن عبيد آل عبدالمحسن، مؤسسة النور، الرياض، دون ذكر سنة الطبع.

٦٣ ــ الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د. يحيى إبراهيم عبدالدايم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٥م.

٦٤ ــ تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، أنيس المقدسي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧ ، ١٩٨٢م.

٦٥ ــ التعليم في المملكة العربية السعودية بين واقع حاضره واستشراف مستقبله، عبدالوهاب أحمد عبدالواسع، تهامة، ط٢، ١٤٠٣هـ.

٦٦ ــ التفسير النفسي للأدب، د. عز الدين إسماعيل، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣م.

٦٧ ــ تمر وجمر، محمد حسين زيدان، مطابع البادية للأوفست، الرياض.

٦٨ ــ التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية، اللواء محمد مختار باشا، مراجعة د. محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ.

٦٩ ــ التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية، عبدالله عبدالجبار، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، ١٩٥٩م.

(ث)

٧٠ ــ ثمرات قلم، محمد حسين زيدان، منشورات تهامة، ط١، ١٤٠١هـ.
٧١ ــ ثورة العرب ضد الأتراك ــ مقدماتها ــ أسبابها ــ نتائجها، بقلم أحد أعضاء الجمعيات السرية العربية، حققه وقدم له د. عصام محمد شبارو، دار مصباح الفكر، بيروت، ١٩٨٧م.

(ج)

٧٢ ــ جدد وقدماء، مارون عبود، دار الثقافة، بيروت، ط٤، ١٣٩٣هـ ــ ١٩٧٢م.
٧٣ ــ جزء من حلم، عبدالله الجفري، تهامة، ط١، ١٤٠٤هـ.
٧٤ ــ جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
٧٥ ــ جنة العبيط، د. زكي نجيب محمود، دار الشروق، ط٢، ١٩٨٢م.

(ح)

٧٦ ــ حاطب ليل ضجر، عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري، دار الشروق، ط١، ١٤٠٨هـ.
٧٧ ــ حبات من عنقود، محمد علي مغربي، مؤسسة قنديل التجارية، جدة، ط١، ١٣٨٧هـ.
٧٨ ــ حتى لا يصيبنا الدوار ــ رسائل إلى ولدي، عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري، الدار العالمية للنشر، لندن، ط١، ١٤٠٣هـ.
٧٩ ــ حتى لا نفقد الذاكرة، سعد البواردي، تهامة، ط١، ١٤٠٣هـ.
٨٠ ــ الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية، د. بكري شيخ أمين، دار صادر، بيروت، ط١، ١٣٩٣هـ.
٨١ ــ حمار حمزة شحاته، حمزة شحاته، دار المريخ للنشر، الرياض، ط١، ١٣٩٧هـ.
٨٢ ــ حمزة شحاته قمة عرفت ولم تكتشف، عزيز ضياء، ط١، ١٣٩٧هـ ــ ١٩٧٧م.
٨٣ ــ حوار في الحزن الدافيء، عبدالله الجفري، تهامة، ط١، ١٤٠٣هـ.
٨٤ ــ حوار وصدى، عبدالله الجفري، جمعية الثقافة، جدة، ١٣٩٩هـ.

٨٥ ــ حول مفهوم النثر الفني عند العرب القدامى، البشير المجذوب، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٢م.

(خ)

٨٦ ــ خواطر جريئة، حسن بن عبدالله آل الشيخ، تهامة، ط١، ١٤٠٢هـ.
٨٧ ــ خواطر مجنحة، محمد حسين زيدان، تهامة، ط١، ١٤٠٤هـ.

(د)

٨٨ ــ دخان ولهب، عبدالكريم الجهيمان، مطابع الفرزدق، الرياض، ط٢، ١٤٠٧هـ.
٨٩ ــ دراسات في النقد الأدبي، د. مصطفى علي عمر، دار المعارف بمصر، ط١.
٩٠ ــ الدرر السنية في الأجوبة النجدية، عبدالرحمن بن قاسم، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢،١٣٨٥هـ.
٩١ ــ دعونا نمشي ..، أحمد السباعي، نادي الطائف، ط٢، ١٤٠٠هـ.
٩٢ ــ دليل القارىء إلى الأدب العالمي، ليليان هير لاندزج وزملاؤها، ترجمة محمد الجورا، دار الحقائق، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.
٩٣ ــ دليل الكاتب السعودي، جمعية الثقافة والفنون، الرياض، ط١، ١٤٠٤هـ.
٩٤ ــ دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م.
٩٥ ــ دورة مع الشمس، عبدالكريم الجهيمان، الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، الرياض، ط١، ١٤٠٠هـ.
٩٦ ــ دورنا في الكفاح، حسن بن عبدالله آل الشيخ، مطابع نجد التجارية، الرياض، ط١، ١٣٨٣هـ.
٩٧ ــ الديوان، عباس محمود العقاد، وإبراهيم عبدالقادر المازني، مطبعة السعادة، ١٩٢١م.

(ذ)

٩٨ ــ ذكريات باريس، عبدالكريم الجهيمان، النادي الأدبي بالرياض، ط١، ١٤٠٠هـ.

(ر)

٩٩ ــ الرجولة عماد الخلق الفاضل، حمزة شحاته، تهامة، ط١، ١٤٠١هـ.

١٠٠ ـ رحلات حمد الجاسر، الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، الرياض، ط١، ١٤٠٠هـ.

١٠١ ـ الرحلة الملكية، يوسف ياسين، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط٢، ١٤٠٤هـ.

١٠٢ ـ رسائل إلى نازك، سعد البواردي، نادي الطائف الأدبي، ط١، بدون تاريخ.

١٠٣ ـ رسائل حب عربية، عبدالله الجفري، دار الشريف للطباعة والنشر، جدة، ط١، ١٤٠٨هـ.

١٠٤ ـ رسائل أبي العلاء المعري مع شرحها، أبو العلاء المعري، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

١٠٥ ـ رسائل الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق د. علي أبو ملحم، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١٠٦ ـ رفات عقل، حمزة شحاته، جمعه عبدالحميد مشخص، تهامة، ط١، ١٤٠٠هـ.

١٠٧ ـ روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين، محمد بن عثمان القاضي، مطبعة الحلبي، القاهرة، ط١، ١٤٠٠هـ.

(ز)

١٠٨ ـ زفرات، عبدالعزيز عبدالله التويجري، مطابع القصيم، ط١، ١٣٨٩هـ.

(س)

١٠٩ ـ سباعيات، أحمد السباعي، جمعية الثقافة والفنون، ط١، ١٤٠٢هـ.

١١٠ ـ السفر إلى عينيك، علي خالد الغامدي، مؤسسة آمون للطباعة والنشر، ١٩٨١م.

١١١ ـ سيرة شعرية، غازي القصيبي، تهامة، ط٢، ١٤٠٨هـ.

(ش)

١١٢ ـ شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز، خير الدين الزركلي، مطابع دار العلم، بيروت، ١٩٧٠م.

١١٣ ـ الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر (١٥٩١ ـ ١٦٨٨م)، د. عايض الردادي، مكتبة المدني، ط١، ١٤٠٤هـ.

١١٥ ـ شعراء الحجاز في العصر الحديث، عبدالسلام الساسي، ط١.

١١٦ ــ شهر في دمشق، عبدالله بن خميس، مطابع الرياض، ط١، ١٣٧٥هـ ــ ١٩٥٥م.

١١٧ ــ شوك وورد، حسن عبدالله القرشي، النادي الأدبي، جدة، ط٢، ١٤٠١هـ.

(ص)

١١٨ ــ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد بن علي القلقشندي، (ت ٨٢١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م.

١١٩ ــ الصحافة في الحجاز، د. محمد بن عبدالرحمن الشامخ، دار الأمانة، بيروت، ط١، ١٣٩١هـ ــ ١٩٧١م.

١٢٠ ــ صندوق الدنيا، إبراهيم عبدالقادر المازني، دار الشروق، ط١، ١٤٠٠هـ ــ ١٩٨٠م.

١٢١ ــ صور، محمد حسين زيدان، الدار العباسية للنشر، بدون تاريخ.

(ط)

١٢٢ ــ الطرف الآخر، عبدالله مناع، جمعية الثقافة والفنون بجدة، دون تاريخ.

(ع)

١٢٣ ــ العالم رحلة، عبدالكريم الجهيمان، دار البلاد للطباعة والنشر، جدة، ط١، ١٤٠٩هـ.

١٢٤ ــ عبدالحميد الكاتب وما تبقى من رسائله ورسائل سالم أبي العلاء، دراسة وتحقيق د. إحسان عباس، دار الشروق، عمان، ط١، ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م.

١٢٥ ــ عصر محمد علي، عبدالرحمن الرافعي، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٣٠م.

١٢٦ ــ عصر إسماعيل، عبدالرحمن الرافعي، دار المعارف، مصر، ط٣، ١٤٠٢هـ.

١٢٧ ــ علماء نجد خلال ستة قرون، عبدالله بن عبدالرحمن البسام، مكتبة النهضة الحديثة، مكة، ١٣٩٨هـ.

١٢٨ ــ على الماشي، علي العمير، دار العمير للثقافة والنشر، ط٢، ١٤٠٤هـ.

١٢٩ ــ عن اللغة والأدب والنقد، رؤية تاريخية ــ ورؤية فنية، د. محمد أحمد العزب، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٨٠م.

١٣٠ ــ عنوان المجد في تاريخ نجد، عثمان بن بشر النجدي، (ت ١٢٨٨هـ)، مكتبة الرياض الحديثة، دون ذكر لسنة الطباعة، وعددها.

(ف)

١٣١ ــ فرانسيس باكون، عباس محمود العقاد، دار الكتاب اللبناني، بيروت، عام ١٩٨١م.
١٣٢ ــ فلسفة المجانين، سعد البواردي، تهامة، ط٢، ١٤٠١هـ.
١٣٣ ــ فن المقالة، د. محمد يوسف نجم، دار الثقافة، بيروت، ط٤.
١٣٤ ــ فنون الأدب، هـ.ب. تشارلتن، ترجمة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، دون ذكر لسنة الطباعة.
١٣٥ ــ الفن ومذاهبه في النثر العربي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٩، ١٩٨٠م.
١٣٦ ــ الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، أنيس المقدسي، دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٨٤م.
١٣٧ ــ فن المقال الصحفي في أدب طه حسين، د. عبدالعزيز شرف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.
١٣٨ ــ الفهرست، محمد بن إسحاق النديم (ت ٣٨٥هـ)، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨هـ ــ ١٩٧٨م.
١٣٩ ــ في أثر المتنبي بين اليمامة والدهناء، عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري، المكتب المصري الحديث، القاهرة، ط١، ١٤٠٢هـ.
١٤٠ ــ في البحث عن الواقع، د. منصور الحازمي، دار العلوم، الرياض، ط١، ١٤٠٥هـ.
١٤١ ــ فيلسوف، محمد حسن فقي، مطابع الروضة، جدة، ط١، ١٤٠٠هـ.
١٤٢ ــ في الأدب وفنونه، علي أبو ملحم، المطبعة العصرية للطباعة والنشر، ١٩٧٠م.
١٤٣ ــ في معترك الحياة، عبدالفتاح أبو مدين، نادي جدة الأدبي، ط١، ١٤٠٢هـ.
١٤٤ ــ في محيط النقد الأدبي، د. إبراهيم علي أبو الخشب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨م.
١٤٥ ــ في النقد الأدبي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٥.
١٤٦ ــ في النقد الأدبي، د. عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٧٢م.
١٤٧ ــ فيض الخاطر، أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٤.
١٤٨ ــ في الأدب الحديث، عمر دسوقي، دار الفكر، ط٨، ١٣٩٣هـ.

(ق)

١٤٩ ــ القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي (ت ٨١٧هـ)، مؤسسة الرسالة، دمشق، ط١، ١٤٠٦هـ.
١٥٠ ــ قال وقلت، أحمد السباعي، تهامة، ط٢، ١٤٠١هـ.
١٥١ ــ قصة الأدب في العالم، أحمد أمين، زكي نجيب محمود، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩م.
١٥٢ ــ قضايا النقد الأدبي بين القديم، والحديث، د. محمد زكي العشماوي، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.
١٥٣ ــ قطرة من يراع، أحمد عبدالغفور عطار، المطبعة المنيرية، ١٣٧٥هـ.
١٥٤ ــ قطيع الكلاب والنساء، محمد عبدالواحد، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٩م.

(ك)

١٥٥ ــ الكاتب والأفكار، عبدالله أبو العينين، بيروت، ط١، ١٣٨٦هـ.
١٥٦ ــ كتب وآراء، د. محمد بن سعد بن حسين، مطابع اليمامة، ط١، ١٤٠١هـ.
١٥٧ ــ كتب ومؤلفون، د. طه حسين، مراجعة د. شكري فيصل، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م.
١٥٨ ــ كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري (ت ٣٩٥ هـ)، تحقيق د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م.
١٥٩ ــ كلام في الأدب، أحمد عبدالغفور عطار، المؤسسة العربية للطباعة، جدة، ط١، ١٣٨٤هـ.
١٦٠ ــ كلمة ونصف، محمد حسين زيدان، تهامة، ط١، ١٤٠٢هـ.
١٦١ ــ الكلاسيكية في الشعر الغربي والعربي، إيليا الحاوي، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م.

(ل)

١٦٢ ــ لجام الأقلام، أبو تراب الظاهري، تهامة، جدة، ط١، ١٤٠٢هـ.
١٦٣ ــ لحظات، عبدالله الجفري، مطابع الأصفهاني، جدة، دون تاريخ.
١٦٤ ــ لعنة هذا الزمن، محمد علي مغربي، مؤسسة قنديل التجارية، جدة، ط١، ١٣٨٧هـ.

(م)

١٦٥ ـ ماذا في الحجاز، أحمد محمد جمال، دار الثقافة للطباعة، مكة، ط٢، ١٤٠٨هـ.

١٦٦ ـ ما رأيت وما سمعت، خير الدين الزركلي (ت ١٣٩٦هـ)، مكتبة المعارف، الطائف، بدون تاريخ.

١٦٧ ـ المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران (العربية)، دار صادر، بيروت، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

١٦٨ ـ المجموعة الكاملة لمؤلفات عبدالله بن المقفع، دار التوفيق للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

١٦٩ ـ مجلة المنهل وأثرها في النهضة السعودية، د. السيد تقي الدين، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

١٧٠ ـ مجمل اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي (ت ٣٩٥هـ)، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٤هـ.

١٧١ ـ محمد سعيد عبدالمقصود خوجه ـ حياته وآثاره، د. محمد بن سعد بن حسين، تهامة، ط١، ١٤٠٤هـ.

١٧٢ ـ محطات مسافرة، هند باغفار، مطابع البلاد، جدة، ط١، ١٤٠٢هـ.

١٧٣ ـ مختار الصحاح، محمد بن أبي أبكر بن عبدالقادر الرازي، دار الفكر، دمشق، ١٣٩٨هـ.

١٧٤ ـ المدخل لدراسة الفنون الأدبية، أصدره قسم اللغة العربية، كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، دار قطري بن الفجاءة للنشر، قطر، ط٢، ١٤٠٣هـ.

١٧٥ ـ المرصاد، إبراهيم هاشم فلالي، النادي الأدبي، الرياض، ط٣، ١٤٠٠هـ.

١٧٦ ـ مسائل اليوم، محمد حسن عواد، دار الجيل للطباعة، ط١، ١٤٠٢هـ.

١٧٧ ـ المعجم الأدبي، جبور عبدالنور، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٧٩م.

١٧٨ ـ معجم المصادر الصحفية ـ صحيفة أم القرى، د. منصور الحازمي، مطبوعات جامعة الرياض، ط١، ١٣٩٤هـ.

١٧٩ ـ معالم النقد الأدبي، د. عبدالرحمن عثمان، مطبعة المدني، ط١، ١٩٦٨م.

١٨٠ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي، المكتبة الإسلامية، استنابول، تركيا، ١٩٨٢م.

١٨١ ـ معجم الأسماء المستعارة وأصحابها يوسف أسعد داغر، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.

١٨٢ ـ معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م.

١٨٣ ـ معجم المطبوعات العربية ـ المملكة العربية السعودية، د. علي جواد الطاهر، المكتبة العالمية، ١٩٨٥م.

١٨٤ ـ المعارك الأدبية بين زكي مبارك ومعاصريه، د. محمد جاد البنا، دار الكتاب السعودي، الرياض، ط١، ١٤٠٦هـ.

١٨٥ ـ المقالات، أحمد عبدالغفور عطار، شركة استاندر للطباعة، ط١، ١٣٦٦هـ.

١٨٦ ـ مقدمة في النقد الأدبي، د. علي جواد الطاهر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٣٧٩هـ.

١٨٧ ـ المقالة في أدب العقاد، د. عبدالقادر رزق الطويل، الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٩٨٧م.

١٨٨ ـ المقال الصحفي، محمود أدهم، مكتبة الأنجلو.

١٨٩ ـ ملف أحوال، عبدالله مناع، المركز الثقافي الجامعي، مصر، دون تاريخ.

١٩٠ ـ منادمة الأطلال، عبدالقادر بدران، إشراف زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٩١ ـ منازل الأحلام الجميلة ـ رسائل إلى ولدي، عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري، الدار العالمية للنشر، لندن،، ط١، ١٤٠٣هـ.

١٩٢ ـ من حديث الكتب، محمد سعيد العامودي، تهامة، ط٢، ١٤٠٣هـ.

١٩٣ ـ من تاريخنا، محمد سعيد العامودي، دار الأصالة، الرياض، ط٣، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

١٩٤ ـ من مقالات حسين سرحان، حسين سرحان جمعها يحيى ساعاتي، النادي الأدبي، الرياض، ط١، ١٤٠٠هـ.

١٩٥ ـ من كل صوب، زيد بن عبدالعزيز بن فياض، بيروت، ط١، ١٣٨٧هـ.

١٩٦ ـ الموزون والمخزون، أبو تراب الظاهري، تهامة، جدة، ط١، ١٤٠٢هـ.

١٩٧ ـ من ذكريات مسافر، محمد عمر توفيق، تهامة، ط١، ١٤٠٠هـ.

١٩٨ ـ من جهاد قلم، عبدالله بن خميس، مطابع الفرزدق، الرياض، ط١، ١٤٠٢هـ.

١٩٩ ـ من أوراقي، محمد سعيد العامودي، تهامة، جدة، ط١، ١٤٠٤هـ.

٢٠٠ ــ من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، محمد خلف الله أحمد، دار العلوم، الرياض، ط٢، ١٤٠٤هـ.
٢٠١ ــ الموسوعة العربية الميسرة، محمد شفيق غربال، دار نهضة لبنان، ١٩٨٠م.
٢٠٢ ــ موجز تاريخ الصحافة في المملكة العربية السعودية، محمد ناصر بن عباس ط١، ١٣٩١هـ.
٢٠٣ ــ الموازنة بين أبي تمام والبحتري، الحسن بن بشر الآمدي (ت ٣٧٠ هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العلمية، بيروت، ط١، ١٣٦٣هـ ــ ١٩٤٤م.
٢٠٤ ــ الموجز في تاريخ الأدب السعودي، د. عمر الطيب الساسي، تهامة، ط١، ١٤٠٦هـ.
٢٠٥ ــ الموسوعة الأدبية في المملكة العربية السعودية، عبدالسلام طاهر الساسي، دار الثقافة، مكة، ط١، ١٣٩٤هـ.
٢٠٦ ــ موسوعة الفلسفة، د. عبدالرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.

(ن)

٢٠٧ ــ نافذة على الحائط المهدوم، هند صالح باغفار، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، ط١، ١٣٩٨هـ.
٢٠٨ ــ نبت الأرض، د. فاتنة شاكر، تهامة، ط١، ١٤٠١هـ.
٢٠٩ ــ نبض، عبدالله الجفري، تهامة، ط١، ١٤٠١هـ.
٢١٠ ــ النثر الأدبي في المملكة العربية السعودية، د. محمد بن عبدالرحمن الشامخ، دار العلوم، الرياض، ط٣، ١٤٠٣هـ.
٢١١ ــ النثر العربي في نماذجه وتطوره لعصري النهضة والحديث، د. علي شلش، دار القلم، بيروت، ط٢، ١٩٧٤م.
٢١٢ ــ النثر المهجري، عبدالكريم الأشتر، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٦٠م.
٢١٣ ــ نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد، إبراهيم اليازجي، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٧٠م.
٢١٤ ــ نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبو البركات كمال الدين عبدالرحمن بن محمد الأنباري (ت ٥٧٧هـ)، تحقيق د. إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الأردن، ط٣، ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م.

٢١٥ ــ نشأة الصحافة في المملكة العربية السعودية، د. محمد الشامخ، دار العلوم، الرياض، ط١، ١٤٠٢هـ.

٢١٦ ــ نشأة النثر الحديث وتطوره، عمر دسوقي، دار الفكر العربي، ١٩٧٦م.

٢١٧ ــ النظرات، مصطفى لطفي المنفلوطي، منشورات محسون الثقافية، ط١، ١٤٠٠هـ.

٢١٨ ــ النغم الذي أحببته، أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، دار الوطن، الرياض، ط١، ١٣٩٩هـ.

٢١٩ ــ نفثات من أقلام الشباب الحجازي، هاشم يوسف الزواوي/ علي حسن فدعق/ عبدالسلام طاهر الساسي، شركة مكة للطباعة والنشر، ط٢، ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م.

٢٢٠ ــ النقد الأدبي ــ أصوله ومناهجه، سيد قطب، دار العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط٤، ١٩٦٦م.

٢٢١ ــ النقد والنقد الأدبي، د. رشاد رشدي، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٧١م.

٢٢٢ ــ النقد الأدبي، أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، ١٣٨٧هـ.

(هـ)

٢٢٣ ــ هكذا علمني ورد زورث، أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، تهامة، ط١، ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٣م.

٢٢٤ ــ همسات العريف، عبدالله عريف، جمع زهير محمد جميل كتبي، شركة مكة للطباعة والنشر، مكة المكرمة، ١٤٠١هـ.

٢٢٥ ــ وحي الصحراء، محمد سعيد عبدالمقصود وعبدالله عمر بلخير، تهامة، جدة، ط٢، ١٤٠٣هـ.

٢٢٦ ــ وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان، أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان (ت ٦٨١هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٣٨٨هـ ــ ١٩٦٨م.

٢٢٧ ــ وللسلام كلام، سعد البواردي، جمعية الثقافة والفنون، ط١، ١٤٠١هـ.

(ي)

٢٢٨ ــ يسألونك، عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٩٦٨م.

ب ـ الصحف والدوريات*

الصحيفة أو الدورية	صدورها	توقفها
١ ـ صحيفة حجاز	١٣٢٦هـ	١٣٣٤هـ
٢ ـ صحيفة شمس الحقيقة	١٣٢٧هـ	١٣٢٧هـ
٣ ـ صحيفة القبلة	١٣٣٤هـ	١٣٤٣هـ
٤ ـ صحيفة الحجاز	١٣٣٤هـ	١٣٣٥هـ
٥ ـ صحيفة بريد الحجاز	١٣٤٣هـ	١٣٤٤هـ
٦ ـ صحيفة أم القرى	١٣٤٣هـ	مستمرة
٧ ـ صحيفة صوت الحجاز	١٣٥٠هـ	مستمرة باسم «البلاد»
٨ ـ مجلة المنهل	١٣٥٥هـ	مستمرة
٩ ـ صحيفة المدينة المنورة	١٣٥٦هـ	مستمرة
١٠ ـ مجلة اليمامة	١٣٧٢هـ	مستمرة
١١ ـ صحيفة أخبار الظهران	١٣٧٤هـ	١٣٨٣هـ
١٢ ـ مجلة الإذاعة السعودية	١٣٧٥هـ	١٣٧٨هـ
١٣ ـ مجلة الإشعاع	١٣٧٥هـ	١٣٧٧هـ
١٤ ـ جريدة الخليج العربي	١٣٧٥هـ	١٣٧٩هـ
١٥ ـ صحيفة الأضواء	١٣٧٦هـ	١٣٧٨هـ
١٦ ـ مجلة الرائد	١٣٧٩هـ	١٣٨٣هـ
١٧ ـ مجلة قريش	١٣٧٩هـ	١٣٨٣هـ
١٨ ـ جريدة القصيم	١٣٧٩هـ	١٣٨٣هـ
١٩ ـ مجلة الجزيرة	١٣٧٩هـ	١٣٨٣هـ
٢٠ ـ جريدة عكاظ	١٣٧٩هـ	مستمرة
٢١ ـ مجلة راية الإسلام	١٣٧٩هـ	١٣٨٣هـ

* اعتمدت في ترتيب الصحف والدوريات على أسبقيتها في الصدور، وأهملت الترتيب الألف بائي لعدم جدواه هنا، ولم أشر إلا إلى ما استفدت منه مباشرة، لأن البحث عن المادة المقالية ألزمني بمطالعة كل الصحف والدوريات السعودية، بيد أن عددًا منها لم أجد فيه ما يفيد في درس المقالة الأدبية.

٢٢ ـ صحيفة الدعوة	١٣٨٥هـ	مستمـرة
٢٣ ـ صحيفة الرياض	١٣٨٥هـ	مستمـرة
٢٤ ـ مجلة العـرب	١٣٨٦هـ	مستمـرة
٢٥ ـ المجلة العربية	١٣٩٦هـ	مستمـرة
٢٦ ـ مجلة الفصيل	١٣٩٨هـ	مستمـرة

جـ ـ اللقـاءات الشخصيـة

من مصادري في جمع مادة هذه الدراسة اللقاءات الشخصية بالأدباء والكتّاب المقاليين، وقد أتاح لي عملي الإعلامي الالتقاء بكثيرين منهم وتكرر اتصالي بهم مباشرة، أو مهاتفة خلال مدة كتابة هذا البحث، وينيف عدد من التقيت بهم على ثلاثين كاتبًا وأديبًا من أشهر الكتّاب والأدباء الذين تناولهم هذا البحث بالدراسة والتحليل.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة